وقف لله تعالى

تطريز

تفسير الجلالين

للإمامين
جَلَالُ الدِّين المحلّى   جَلَالُ الدِّين السُّيُوطىّ

حَاشِيَةٌ مُنْتَخَبَةٌ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسَةٍ وثَلَاثِين تَفْسِيرًا

جَمْعُ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ
عَبْدُ اللَّه آل عَبْدُ الْمُحْسِن

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةِ الْمُؤَلِّفِ

جَمِيعُ الْحُقوقِ مَحْفُوظَةٌ وَقْفٌ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ طَبْعَهُ طَبْعَةً وَقْفِيَّةً

اَلطَّبْعَةِ اَلْأُولَى

١٤٤٥ هـ

ⓗ عبد الله آل عبد المحسن، ١٤٤٥هـ

فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبد المحسن، عبد الله

تطريز تفسير الجلالين / عبد الله عبد المحسن – ط١ – الرياض

١٤٤٥هـ

٩٣٣ ص ؛ ١٢*٢٩ سم

رقم الإيداع: ١٧٦٠٦/ ١٤٤٥

ردمك: ٥-٩٦٩٤-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

اَلْمُقَدِّمَةُ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أما بعد:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وأصلي وأسلم على نبيه، المبعوث بالآيات البينات والمعجزات الواضحات، وعلى آله وصحبه الذين شادوا الدين ورفعوا لواءه في العالمين. وبعد، فإن من أنفع ما ينتفع به المرء في دينه ودنياه وآخرته الاشتغال بكلام الله تلاوة وتجويداً وحفظاً وتفسيراً وعملاً وتدبُّراً، فالقرآن حجة الله البالغة، ومعجزته الخالدة. قال عنه أعدائه: «إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لَمُثمِر، وإنَّ أسفلَهُ لَمُغدِق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وما هو بقول البشر»(١). وقال عنه محبوه: «فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصلُ ليس بالهزلِ، من تركه من جبَّارٍ قصمه اللهُ، ومن ابتغى الهدَى في غيرِه أضلَّه اللهُ، وهو حبلُ اللهِ المتينُ، وهو الذِّكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تختلفُ به الآراءُ، ولا تلتبس به الألسُنُ، ولا يَخلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يَشبعُ منه العلماءُ، من قال به صدَق، ومن حكم به عدَل، ومن عمِل به أُجِر، ومن دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيمٍ»(٢).

أما بعد: فإن كتاب تفسير الجلالين كتاب قد سارت به الركبان وبلغ مبلغ الليل والنهار، وتعددت عليه الشروح

---

(١) هو من قول الوليد بن المغيرة. أخرجه ابن إسحاق (١/ ٣٣٤ - ٣٣٦) معلقا، وانظر الدر المنثور (٧/ ٣٢٩ - ٣٣١).

(٢) من كلام على ابن أبي طالب رضي الله عنه. فضائل القرآن ص: (١١-١٢). لابن كثير.

والحواشي، قال عنه حاجي خليفة: «هو مع كونه صغير الحجم كبير المعنى لأنه لب لباب التفاسير» (١). وهو مختصر بل معتصر، قال بعض علماء اليمن: «عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين فوجدتهما متساويين إلى سورة المزمل ومن سورة المدثر التفسير زائد على القرآن فعلى هذا يجوز حمله بغير وضوء»(٢).

فلا يخفى ما لتفسير الجلالين من مكانة وشهرة عظيمتين بين كتب التفسير؛ لأسلوبه المبتكر، ونمطه المختصر، مع ما تضمنه من معارف وعلوم قرآنية على طريقة الإيجاز في العبارة، من غير إخلال بتفسير كلام الله تعالى، ولا أدل على أهمية تفسير الجلالين من ثلاثة أمور:

أولًا: الكثرة الكاثرة للنسخ الخطية لتفسير الجلالين المتفرقة في أقطار العالم، حيث بلغت أكثر من ستمائة نسخة(٣).

ثانيًا: كثرة الشروح والحواشي التي حظي بها هذا التفسير المبارك، حيث بلغت أكثر من عشرين شرحا وحاشية(٤).

ثالثًا: كثرة الطبعات للكتاب ما بين طبعة مستقلة أو بهامش المصحف أو مع الحواشي(٥).

وهذا الكتاب أصبح كالمتن لعلم التفسير، اعتمده الكثير من المشايخ والمعلمين لتفسير كتاب الله ومدارسته، بل وحفظه(٦).

لذا أحببت أن أشارك في توضيح معانيه وفك مغاليقه، بطريقة مبتكره بالنقل من كلام أئمة التفسير مباشرة من غير تعليق ولا تطويل، فليس لي فيه إلا الاختيار، قال ابن عبد ربه: «وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الاختيار، ... مأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعب من تأليفه. وقد قالوا: اختيار الرجل وافِدُ

---

(١) كشف الظنون (١/ ٤٤٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، علوم القرآن، مخطوطات التفسير وعلومه (١/ ٤٦٢).

(٤) انظر: مقدمة كتاب المفصل لقباوة (ص: ١١).

(٥) للاطلاع على بعضها، انظر: المصدر السابق (ص: ١٣).

(٦) مما يستملح ما جاء في ترجمة أحمد الشنقيطي: «كان يومًا يفسر وفي يده تفسير ... الجلالين، فقال للطلبة: سقط هنا شيء. فقالوا له: إن الكلام مستقيم لم يسقط شيء، فأبى إلا أن يكون سقط، فأخذوا نسخة أخرى فوجدوه كما قال، فقال لهم: إني أعرف تفقد كلمات هذا الكتاب كمعرفتي بتفقد بقراتي». انظر ترجمته في فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (ص: ٧٠).

عَقْله»[١].

واسميته «تطريز تفسير الجلالين» رجاء أن تكون زينةً له، إذ التطريز التزيين والزخرفة، يقال: ثوب مطرز بالذهب[٢]، قال الشاعر في مدح النبي ﷺ:

يا خاتم الرسل الكرام ومن به حلل النبوة زانها التطريز[٣]

إذ هو «كُنَيْفٌ مُلِئَ عِلْمًا»[٤] من أقوال أئمة التفسير. أسأل الله أن يبارك فيه كما بارك في أصله، وأن يكتب له القبول، إنه سبحانه جواد كريم.

التعريف بتفسير الجلالين

اشتهر الكتاب باسم «تفسير الجلالين»، ومؤلفا الكتاب لم يسمياه بهذا الاسم، إذ المحلي توفي قبل أن يكمله، والسيوطي سمى ما قام به التكملة، وجاء من بعدهما من سمى الكتاب بهذا الاسم نسبة للمؤلفين. ولا شك أن الذي يقرأ تفسير الجلالين، لا يكاد يلمس فرقًا واضحًا بين طريقة الشيخين فيما فسَّراه، ولا يكاد يشعر بمخالفة بينهما في ناحية من نواحي التفسير المختلفة، اللَّهم إلا في مواضع قليلة لا تبلغ العشرة كما قيل[٥].

منهج الجلالين في التفسير

لم يجعل الإمام جلال الدين المحلي مقدمة ولا خاتمة للجزء الذي فسره، أما الإمام جلال الدين السيوطي فقد جعل مقدمة مختصرة بين فيها أهم معالم منهجه باختصار للجزء الذي فسره فقال: «ذكر ما يفهم به كلام الله تعالى، والاعتماد على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه، وتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة، على وجه لطيف، وتعبير وجيز، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية»، كما جعل له خاتمة. كذلك اتبع

(١) العقد الفريد (١/ ٢-٤).

(٢) معجم ديوان الأدب للفارابي (٢/ ٣٥٧).

(٣) ذيل مرآة الزمان لليونيني (١/ ٢٨٥).

(٤) اقتباس من قول عمر لابن مسعود رضي الله عنهما. انظر مصنف عبد الرزاق (١٨١٨٧).

(٥) انظر التفسير والمفسرون للذهبي حيث ذكر بعض الأمثلة للاختلافات بينهما (١/ ٢٣٩).

المفسران مسلكا واحدا، فقبل أن يشرعا في تفسير الآيات يذكر ما إذا كانت السورة مكية أو مدنية، ثم يذكر الأقوال الواردة في عدِّ آيها إذا وجد هناك خلاف.

ومن أهم معالم منهجهما عليهما رحمة الله تعالى نذكر ما يلي:

١ – جمعا فيه بين التفسير بالمعقول والتفسير بالمنقول.

٢ – تفسير القرآن بالقرآن: فإذا ذُكر المعنى مجملا في آيات من القرآن الكريم، كانا يستحضران الآيات التي ورد فيها مفصلا، وغير ذلك من الاستشهاد بالآيات.

٣ – تفسير القرآن بالسنة: فيستشهدان بالأحاديث صحيحها وعليلها في تفسير الآيات، وقد كانت طريقة استشهادهما بالأحاديث طريقة مبنية على الاختصار فلم يكن كل منهما يذكر الحديث بطوله، أو يتحرى نص لفظه إلا نادرا، بل كان يشير إلى الحديث بذكر طرف منه، أو بذكر بعض معناه المقصود ثم ينسبه إلى الحديث بقوله: «كما ورد في الحديث» أو «لحديث بذلك» أو قوله: «وفي الحديث كذا وكذا» أو نحو ذلك.

٤ – تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين: قد يذكران أكثر من قول في تفسير الآية، مع ذكر أصحاب هذه الأقوال أحيانا.

٥ – لم يعتمد الجلالان على قراءة واحدة بل كان اعتمادهما على عدة قراءات، فأحيانا يفسران آية معينة على قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري، ثم يفسران آية أخرى على قراءة عبد الله بن كثير المكي، ثم قراءة نافع، ثم على قراءة ابن عامر الدمشقي وهكذا. إلا أن الأغلب على قراءة الأول. كما تعرض المفسران إلى ذكر القراءات الشاذة على سبيل الاستئناس، دون ذكر رواة هذه القراءات. وعند ذكر القراءات المختلفة يقومان بتفسير كل قراءة بعبارة مختصرة. وأحيانا يبينان كيفية أداء القراءة بشكل مختصر.

٦ – إيراد بعض الإسرائيليات الباطلة التي لا أصل لها. قال الشيخ الشنقيطي: ومن المعلوم أن ما يروى عن بني إسرائيل من الأخبار المعروفة بالإسرائيليات له ثلاث حالات في واحدة منها يجب تصديقه وهي ما إذا دل الكتاب أو السنة الثابتة على صدقه، وفي واحدة يجب تكذيبه وهي إذا ما دل القرآن والسنة على كذبه، وفي الثالثة لا يجوز التكذيب ولا التصديق ... وهي ما إذا لم يثبت في كتابٍ ولا سنَّة صدقه ولا كذبه. وبهذا التحقيق تعلم أن القصص المخالفة للقرآن والسنة الصحيحة التي توجد بأيدي بعضهم زاعمين أنها في الكتب المنزلة يجب تكذيبهم فيها لمخالفتها نصوص

الوحي الصحيح التي لم تحرف ولم تبدل والعلم عند الله تعالى[١].

٧- الالتزام بالأخذ بقول المذهب الشافعي في الفروع وإن كان أحيانا مرجوحا.

٨- في العقيدة التزما المذهب الأشعري غالبا، سواء في تأويل الصفات، أو مباحث الإيمان، أو القدر.

٩- الإيجاز الشديد في التفسير أحياناً إلى حد الغموض، أو السكوت مطلقاً أحياناً أخرى إزاء آيات تحتاج إلى تفسير.

١٠- صعوبة الوقوف على تفسير الآية أحياناً، لأن مؤلفيه يردان القارئ إلى البحث عن تفسير الآية فيما سبق ولا يحددان له المواضع المطلوبة[٢].

مصادر تفسير الجلالين

ذكر الحافظ السيوطي في ترجمة الإمام الكواشي: وله التفسير الكبير والصغير، وعليه اعتمد الشيخ جلال الدين المحلي في تفسيره، واعتمدت عليه أنا في تكملته، مع الوجيز وتفسير البيضاوي وابن كثير[٣]. وعد بعضهم مصادر أخرى ولكنها أقل في الاقتباس[٤].

التعريف بالجلالين

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٤/ ٢٠٣).

(٢) للتوسع في معرفة منهج الجلالين والدراسات التي كتبت عنه ينظر للدراسات الموسعة في ذلك منها: «(منهج الجلالين في تفسير القرآن القسم الثاني) لنور الدين عتر، (منهج السيوطي في تفسير الجلالين) لحيدر مختار محمود، (منهج الجلالين في القراءات) لولاء البرادعي، (الرواية في تفسير الجلالين ونقد ما فيه من روايات باطلة وإسرائيليات) لنور الدين عتر، (معالم الدعوة في تفسير الجلالين) لالجيلي البلال، (إشارات نحوية من تفسير الجلالين) لمحمد علي، (القراءات الواردة في تفسير الإمامين الجلالين في الربع الأول) لوداعة أحمد، (تخريج الأحاديث المرفوعة في تفسير الجلالين) لإبراهيم أبو سليمان، (منهج الجلالين في اختيارات المعاني في تفسير الجلالين) لأمين الهواري، (الإسرائيليات في تفسير الجلالين عرض ودراسة) لمحي الدين حمزة، (اختيارات الجلالين في تفسير القرآن الكريم) لعواطف محمد، (المقاصد القرآنية الاعتقادية في تفسير الجلالين) لعائشة الثبيتي، (وضع الظاهر موضع المضمر في تفسير الجلالين) لعلي العنزي، سلسلة رسائل جامعية باسم (تعقبات الشيخ ابن عثيمين على تفسير الجلالين) لعدة مؤلفين».

(٣) بغية الوعاة (١/ ٤٠١).

(٤) انظر: مقدمة كتاب المفصل لقباوة (ص: ٢٤).

الأول: جلال الدين المحلي: هو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي، ولد بمصر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، واشتغل وبرع في الفنون، وكان رحمه الله آيةً في الذكاء والفهم، حتى قال بعض أهل عصره: إن ذهنه يثقب الماس، لكنه مع قوة هذا الفهم والذكاء قال عن نفسه: إنه لم يك يقدر على الحفظ، وكان رحمه الله على درجةٍ من الصلاح والورع، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الحق لومةُ لائم، وقد ألف كتباً كثيرة غاية في التحرير والاختصار والتنقيح، وسلامة العبارة، وحسن المزج، منها: شرح جمع الجوامع، شرح الورقات، شرح المنهاج للنووي، القسم الثاني من هذا التفسير، توفي في أول يوم من سنة أربعٍ وستين وثمانمائة، مترجم في كتب الشافعية المتأخرة، وأيضاً مترجم في طبقات المفسرين للداودي، وشذرات الذهب لابن العماد.

الثاني: جلال الدين السيوطي: وهو عبد الرحمن بن أبي بكر محمد خضيري السيوطي الشافعي، ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ونشأ يتيماً، قد مات والده وعمره خمس سنوات، وأخذ عن جمعٍ غفير من أهل العلم، كان آية في سرعة الفهم والتأليف، وأخبر عن نفسه أنه كان يحفظ مائتي ألف حديث، حتى قال: لو وجدت أكثر من هذا لحفظته، زادت مصنفاته على الستمائة، منها ما هو في مجلدات، ومنها ما هو في ورقة. لما بلغ الأربعين سنة أخذ في التجرد للعبادة والانقطاع إلى الله، والاشتغال به، والإعراض عن الدنيا وأهلها، حتى كأنه لم يكن يعرف أحداً، وشرع في تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلفٍ سماه: التنفيس، خلف مصنفاتٍ كثيرة، ذوات فنون متعددة، فمن أشهرها: الدر المنثور والإتقان في علوم القرآن، وأيضاً له نصيب من هذا التفسير، ومقداره النصف، وله الجامع الكبير والصغير في الحديث، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مات ليلة الجمعة التاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة، مترجم في حسن المحاضرة له، وفي شذرات الذهب وغيرها.

منهج التطريز في الكتاب

أما منهجي في التطريز فهو على النحو التالي:

١ - ترتيبه على ترتيب الجلالين، لذا تجد تفسير سورة الفاتحة في آخر التفسير.

٢ - إثبات القراءات برسم المصحف العثماني على ما أوردها الجلالان، بينما كانت طبعات الكتاب السابقة بالرسم الإملائي.

٣- تمييز القراءات الشاذة من غيرها.

٤ - تخريج أحاديث الكتاب بعزو الحديث إلى مصادره.

٥- التدقيق والتحقيق في إخراج الكتاب على ما أراده الجلالان من خلال مقارنة النسخ المطبوعة والمخطوطة، من غير ذكر الفروق رغبة في الاختصار[١].

٦- تشكيل التفسير بالكامل.

٧- تتبع الأخطاء العقدية، والضعيف من الأقوال الفقهية، والأباطيل الإسرائيلية، بقول المحققين من أئمة التفسير.

٨- في النقل من التفاسير وثقت كل نقل بالجزء والصفحة[٢].

---

(١) انظر مراجع المخطوطات والمطبوع في الملاحق في آخر الكتاب.

(٢) انظر ثبت المراجع وشرح رموز المؤلفين في الملاحق في آخر الكتاب.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا مُوَافِيًا لِنِعَمِهِ، مُكَافِئًا لِمَزِيدِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَجُنُودِهِ. هَذَا مَا اشْتَدَّتْ إِلَيهِ حَاجَةُ الرَّاغِبِينَ، فِي تَكْمِلَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، الَّذِي أَلَّفَهُ الإِمَامُ الْمُحَقِّقُ جَلَالُ الدِّينِ: مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ الْمَحَلِّيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، وَتَتْمِيمُ مَا فَاتَهُ، وَهُوَ: مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ إِلَى آخِرِ الْإِسْرَاءِ، بِتَتِمَّةٍ عَلَى نَمَطِهِ، مِنْ ذِكْرِ مَا يُفهَمُ بِهِ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى، وَالْاِعْتِمَادِ عَلَى أَرْجَحِ الْأَقْوَالِ، وَإِعْرَابُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَتَنْبِيهِ عَلَى الْقِرَاءَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمَشْهُورَةِ، عَلَى وَجْهٍ لَطِيفٍ، وَتَعْبِيرٍ وَجِيزٍ، وَتَرْكِ التَّطْوِيلِ بِذِكْرِ أَقْوَالٍ غَيْرِ مَرْضِيَّةٍ، وَأَعَارِيبَ مَحَلُّهَا كُتُبُ الْعَرَبِيَّةِ، وَاللهَ أَسْأَلُ النَّفْعَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَحْسَنَ الْجَزَاءَ عَلَيهِ فِي الْعُقْبَى، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ[1].

---

(١) هذه مقدمة الإمام السيوطي وقد ابتدأ الإمام المحلي تفسيره من سورة الكهف إلى الناس، ثم رجع إلى سورة الفاتحة وفسرها، وتوفي رحمه الله عند نهاية تفسير الفاتحة وقيل وآيات من البقرة، ثم أكمل التفسير من أول البقرة إلى نهاية الإسراء الإمام السيوطي رحمه الله، لذلك تجد تفسير الفاتحة في آخر الكتاب على ترتيب المحلي رحمه الله.

سُورَةُ ٱلْبَقَرَةِ

مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ مَائَتَانِ وَسِتٌّ أَوْ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً

بِسْمِ[1] ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ①﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[2]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: هَذَا ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ الَّذِي يَقْرَؤُهُ مُحَمَّدٌ ﴿لَا رَيْبَ﴾ لا شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَجُمْلَةُ النَّفْيِ خَبَرٌ مُبْتَدَؤُهُ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وَالإِشَارَةُ بِهِ لِلتَّعْظِيمِ ﴿هُدًى﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، أَيْ: هَادٍ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ②﴾ الصَّائِرِينَ إِلَى التَّقْوَى بِامْتِثَالِ الأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، لِاتِّقَائِهِمْ بِذَلِكَ النَّارَ. ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ[3] ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بِمَا غَابَ عَنْهُمْ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ[4] ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَيْ: يَأْتُونَ بِهَا بِحُقُوقِهَا ﴿وَمِمَّا

---

(١) أي: أبتدئ بكل اسم الله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى. [السعدي (ص: ٣٩)].

(٢) السور المفتتحة بالحروف المقطعة تسع وعشرون سورة أولها البقرة هذه وآخرها القلم، ومنها: الأحادية مثل: «ص»، «ق»، «ن»، ومنها الثنائية مثل: «طه»، «يس»، «حم»، ومنها الثلاثية والرباعية والخماسية، ولم يثبت في تفسيرها عن النبي ﷺ شيء، وكونها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه أقرب إلى الصواب، ولذا يقال فيها: ﴿الٓمٓ﴾ الله أعلم بمراده بذلك. وقد استخرج منها بعض أهل العلم فائدتين: الأولى: أنه لما كان المشركون يمنعون سماع القرآن مخافة أن يؤثر في نفوس السامعين كان النطق بهذه الحروف: «حم. طس. ق. كهيعص» وهو منطق غريب عنهم يستميلهم إلى سماع القرآن فيسمعون فيتأثرون وينجذبون فيؤمنون ويسمعون وكفى بهذه الفائدة من فائدة. والثانية: لما أنكر المشركون كون القرآن كلام الله أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ كانت هذه الحروف بمثابة المتحدِّي لهم كأنها تقول لهم: إن هذا القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف فألفوا أنتم مثله. ويشهد بهذه الفائدة ذكر لفظ القرآن بعدها غالباً. [أبو بكر الجزائري (١/ ١٩)].

(٣) الإيمان في اللغة يطلق على التصديق المحض ... أما الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. [ابن كثير (١/ ١٦٥)].

(٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَتَى أَلْقَى إِخْوَانِي؟» قالوا: يا رسول الله، ألسنا إخوانك؟ قال: «بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي». أخرجه أحمد (١٢٥٧٩)، وأبو يعلى في مسنده (٣٣٩٠). وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿الٓمٓ﴾ الآية. وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح كلاماً مفيداً باعتبار ما ورد في الصحابة، وحاصله أن فضيلة الصحابة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ، ومجرد زيادة الأجر لا يستلزم أفضلية غير الصحابة على الصحابة لأن الأجر إنما يقع مفاضلة بالنسبة إلى ما يماثله من العمل، ومشاهدة النبي ﷺ لا يعدلها عمل، هذا حاصل ما أشار إليه وهو محتاج إليه لأنه كثيراً ما يستشكل الجمع بين الأحاديث والله أعلم. [صديق حسن (١/ ٧٨)].

﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ ﴿يُنفِقُونَ ٣﴾ فِي طَاعَةِ اللهِ[١]. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أَيِ: التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَغَيْرِهِمَا ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾ يَعْلَمُونَ[٢]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ[٣] ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾ الْفَائِزُونَ بِالْجَنَّةِ النَّاجُونَ مِنَ النَّارِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كَأَبِي جَهْلٍ، وَأَبِي لَهَبٍ، وَنَحْوِهِمَا[٤] ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا، وَتَسْهِيلِهَا، وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ، وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦﴾ لِعِلْمِ اللهِ مِنْهُمْ ذَلِكَ، فَلَا تَطْمَعْ فِي إِيمَانِهِمْ، وَالْإِنْذَارُ: إِعْلَامٌ مَعَ تَخْوِيفٍ. ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ طَبَعَ عَلَيْهَا وَاسْتَوْثَقَ فَلَا يَدْخُلُهَا خَيْرٌ ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ﴾ أَيْ: مَوَاضِعِهِ، فَلَا يَنْتَفِعُونَ بِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْحَقِّ[٥] ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ﴾ غِطَاءٌ فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ

---

(١) عبر في هذه الآية الكريمة بـ«من» التبعيضية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله. ولم يبين هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه، والذي ينبغي إمساكه. ولكنه بين في مواضع أخر أن القدر الذي ينبغي إنفاقه: هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التي لا بد منها، وذلك كقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والمراد بالعفو: الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات، وهو مذهب الجمهور. [الشنقيطي (١/ ٥٦)].

(٢) المراد بذلك البعث بعد الموت، وما يتبعه مما يكون يوم القيامة من الثواب، والعقاب، وغيرهما؛ وإنما نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحظور؛ و «الإيقان» هو الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك. [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/ ٣١)].

(٣) اختلف المتأولون فيمن المراد بهذه الآية، وبالتي قبلها، فقال قوم: الآيتان جميعا في جميع المؤمنين، وقال آخرون: هما في مؤمني أهل الكتاب، وقال آخرون: الآية الأولى في مؤمني العرب، والثانية في مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وفيه نزلت. [ابن عطية (١/ ٨٦)].

(٤) الكفر بالضم إخفاء النعمة، وبالفتح: الستر مطلقا وهو مشتق من كفر إذا ستر. ولما كان إنكار الخالق أو إنكار كماله أو إنكار ما جاءت به رسله ضربا من كفران نعمته على جاحدها، أطلق عليه اسم الكفر وغلب استعماله في هذا المعنى. [ابن عاشور (١/ ٢٤٨)]. والكفر في الاصطلاح الشرعي هو: عدم الإيمان بالله ورسله، سواءً كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن الإيمان حسداً أو كبراً أو اتباعا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، فالكفر صفة لكل من جحد شيئا مما افترض الله الإيمان به، بعد أن بلغه ذلك سواء جحد بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أوبهما معا، أو عمل عملا جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان. [انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/ ٣٣٥)، والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: (١ / ٤٥)].

(٥) وإنما وحد السمع مع جمع القلوب كما تقدم والابصار كما سيأتي لإنه مصدر يقع على القليل والكثير، أو لوحدة المسموع وهو الصوت، وإنما خص هذه الأعضاء بالذكر لأنها طرق العلم، فالقلب محله وطريقه إما السماع وإما الرؤية. [صديق حسن (١/ ٨٩)].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ قَوِيٌّ دَائِمٌ. وَنَزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ[1]: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَيْ: يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ آخِرُ الْأَيَّامِ ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ رُوعِيَ فِيهِ مَعْنَى ﴿مَن﴾، وَفِي ضَمِيرِ ﴿يَقُولُ﴾ لَفْظُهَا. ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِإِظْهَارِ خِلَافِ مَا أَبْطَنُوهُ مِنَ الْكُفْرِ، لِيَدْفَعُوا عَنْهُمْ أَحْكَامَهُ الدُّنْيَوِيَّةَ ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ لِأَنَّ وَبَالَ خِدَاعِهِمْ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ، فَيَفْتَضِحُونَ فِي الدُّنْيَا بِإِطْلَاعِ اللهِ نَبِيَّهُ عَلَى مَا أَبْطَنُوهُ، وَيُعَاقَبُونَ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ يَعْلَمُونَ أَنَّ خِدَاعَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُخَادَعَةُ هُنَا مِنْ وَاحِدٍ كَـ «عَاقَبْتُ اللِّصَّ»، وَذِكْرُ اللهِ فِيهَا تَحْسِينٌ[2]، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شَكٌّ وَنِفَاقٌ، فَهُوَ يُمْرِضُ قُلُوبَهُمْ، أَيْ: يُضْعِفُهَا ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ لِكُفْرِهِمْ بِهِ[3] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلِمٌ ﴿بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ۝١٠﴾ بِالتَّشْدِيدِ، أَيْ: نَبِيَّ اللهِ، وَبِالتَّخْفِيفِ أَيْ: قَوْلِهِمْ: ﴿آمَنَّا﴾. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَيْ: لِهَؤُلَاءِ ﴿لَا

---

(١) النفاق مشتق من نافقاء اليربوع، لأن اليربوع له جحران: أحدهما يقال له النَافِقاء، والثاني القَاصِعاء. فالنافقاء موضع يرققه بحيث إذا ضرب رأسه عليه ينشق، وهو يكتمه ويظهر غيره فإذا جاءه من قبل القاصعاء الظاهرة ضرب النافقاء برأسه ثم خرج، فهو يظهر القاصعاء ويخفي النافقاء [لسان العرب (١٠/ ٣٥٩)]. فكلمة النفاق تدل على إظهار الإنسان خلاف ما يبطن فيتضمن الدخول في الإسلام ظاهرًا وهو لا يؤمن به باطنًا، ولذلك يقول الإمام البغوي رحمه الله تعالى: سمي المنافق منافقًا لأنه يستر كفره، ويغيبه، فشُبِّه بالذي يدخل النفق، وهو السرب فيستتر به. [شرح السنة للبغوي (١/ ٧١)]. وذكر الله طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا؛ لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد. [مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٥٣٥)].

(٢) بل ذلك من «التفاعل» الذي لا يكون إلا من اثنين، كسائر ما يُعرف من معنى «يفاعل ومُفاعل» في كل كلام العرب. وذلك: أن المنافق يُخادع الله جل ثناؤه بكَذبه بلسانه ... والله تبارك اسمه خادِعُه، بخذلانه عن حسن البصيرة بما فيه نجاةُ نفسه في آجل مَعادِه، كالذي أخبر في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وبالمعنى الذي أخبر أنه فاعلٌ به في الآخرة بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. [الطبري (١/ ٢٨٢)].

(٣) قيل: هو دعاء عليهم ... وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين، وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم، أي: فزادهم الله مرضا إلى مرضهم، كما قال في آية أخرى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. أي: وكلهم إلى أنفسهم، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين. [القرطبي (١/ ١٩٧)].

﴿تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْكُفْرِ وَالتَّعْوِيقِ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١﴾ وَلَيْسَ مَا نَحْنُ فِيهِ بِفَسَادٍ(١)، قَالَ اللهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَلَآ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ١٢﴾ بِذَلِكَ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الْجُهَّالُ؟ أَيْ: لَا نَفْعَلُ كَفِعْلِهِمْ، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ١٣﴾ ذَلِكَ(٢). ﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ أَصْلُهُ: «لَقِيُوا»، حُذِفَتِ الضَّمَّةُ لِلِاسْتِثْقَالِ، ثُمَّ الْيَاءُ لِالْتِقَائِهَا سَاكِنَةً مَعَ الْوَاوِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ مِنْهُمْ وَرَجَعُوا(٣) ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ رُؤَسَائِهِمْ(٤) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ فِي الدِّينِ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤﴾ بِهِمْ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ. ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يُجَازِيهِمْ بِاسْتِهْزَائِهِمْ(٥) ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يُمْهِلُهُمْ(٦) ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ بِتَجَاوُزِهِمُ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ ﴿يَعْمَهُونَ ١٥﴾ يَتَرَدَّدُونَ تَحَيُّرًا، حَالٌ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أَيْ: اِسْتَبْدَلُوهَا بِهِ ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾

---

(١) فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبا للحقائق، وجمعا بين فعل الباطل واعتقاده حقا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه. [السعدي (ص: ٤٢)].

(٢) أي: قالوا: أنكون كالذين خفت عقولهم؟ و«السفه»: الرقة الداعية إلى الخفة، يقال: «ثوب سفيه» إذا كان رقيقا هلهل النسج. وهذا القول إنما كانوا يقولونه في الخفاء، فأطلع الله عليه نبيه والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم لا يعلمون أنهم السفهاء للرين الذي على قلوبهم. [ابن عطية (١/ ٩٤)].

(٣) تعدي «خلا» بـ«إلى» ضُمِّن معنى: «مشوا وذهبوا، أو ركنوا»، وقيل: إلى بمعنى: «مع»، أو بمعنى: «الباء». [ابن جُزَيّ (١/ ٧٢)].

(٤) الشيطان: المتمرد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء. وأصله البعد، يقال بئر شطون، أي: بعيدة العمق. سمي الشيطان شيطانا لامتداده في الشر وبعده من الخير. وقال مجاهد: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين. [البغوي (١/ ٦٨)].

(٥) من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة، يعني من العذاب والنكال؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك. [ابن كثير (١/ ١٨٤)].
وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاءً وخداعًا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة، نحو: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، وقيل وهو أصوب: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصالُ الشر إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيحٌ، وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه. وحَسَن، وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يُحمد عليه عدلًا منه وحكمة. [إعلام الموقعين لابن القيم (٣-٢٠٥)].

(٦) أي: يتركهم ويمهلهم ويطيل لهم المدة، كما قال ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، والمَد: الزيادة، قال يونس بن حبيب: يقال أمد في الشر وأمد في الخير. [صديق حسن (١/ ٩٦)].

أَيْ: مَا رَبِحُوا فِيهَا بَلْ خَسِرُوا لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ١٦﴾ فِيمَا فَعَلُوا[١]. ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صِفَتُهُمْ فِي نِفَاقِهِمْ[٢] ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ أَوْقَدَ ﴿نَارًا﴾ فِي ظُلْمَةٍ ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾ أَنَارَتْ ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾ فَأَبْصَرَ وَاسْتَدْفَأَ وَأَمِنَ مِمَّنْ يَخَافُهُ ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أَطْفَأَهُ، وَجُمِعَ الضَّمِيرُ مُرَاعَاةً لِمَعْنَى: ﴿ٱلَّذِى﴾[٣] ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٧﴾ مَا حَوْلَهُمْ، مُتَحَيِّرِينَ عَنِ الطَّرِيقِ خَائِفِينَ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ أَمِنُوا بِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ، فَإِذَا مَاتُوا جَاءَهُمُ الْخَوْفُ وَالْعَذَابُ. ﴿صُمٌّۢ﴾ عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَسْمَعُونَهُ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿بُكْمٌ﴾ خُرْسٌ عَنِ الْخَيْرِ فَلَا يَقُولُونَهُ ﴿عُمْىٌ﴾ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى فَلَا يَرَوْنَهُ ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨﴾ عَنِ الضَّلَالَةِ[٤]. ﴿أَوْ﴾ مَثَلُهُمْ ﴿كَصَيِّبٍ﴾ أَيْ: كَأَصْحَابِ مَطَرٍ، وَأَصْلُهُ «صُيُوبٌ» مِنْ: صَابَ يَصُوبُ، أَيْ: يَنْزِلُ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السَّحَابِ ﴿فِيهِ﴾ أَيِ: السَّحَابِ ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ بِتَكَاثُفِهِ ﴿وَرَعْدٌ﴾ هُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ، وَقِيلَ: صَوْتُهُ ﴿وَبَرْقٌ﴾ لَمَعَانُ سَوْطِهِ الَّذِي يَزْجُرُهُ بِهِ[٥]

---

(١) أي: رغبوا في الضلالة، رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة. وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة، التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم. [السعدي (ص: ٤٣)].

(٢) المثل: قول يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره. ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه. وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ولما ذكر حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، ولأن المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته، وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه. [صديق حسن (١/ ٩٧)].

(٣) ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بنارهم لتطابق أول الآية؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية. وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم مع قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾؛ لأن الضوء هو زيادة في النور، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهابا بالشيء وزيادته، وأيضا فإنه أبلغ في النفي عنهم وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضا: فإن الله سبحانه وتعالى سمى كتابه نورا، ورسوله ﷺ نورا، ودينه نورا، وهداه نورا، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله. [اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص: ٤١].

(٤) لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعا منهم. [السعدي (ص: ٤٤)].

(٥) أخرج أحمد (٢٤٨٣)، والترمذي (٣١١٧) وصححه، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالت: أخبرنا ما هذا

﴿يَجْعَلُونَ﴾ أَيْ: أَصْحَابُ الصَّيِّبِ ﴿أَصَٰبِعَهُمْ﴾ أَيْ: أَنَامِلَهُمْ(١) ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ﴾ أَجْلِ ﴿الصَّوَٰعِقِ﴾ شِدَّةِ صَوْتِ الرَّعْدِ لِئَلَّا يَسْمَعُوهَا ﴿حَذَرَ﴾ خَوْفَ ﴿الْمَوْتِ﴾ مِنْ سَمَاعِهَا، كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ، إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَفِيهِ ذِكْرُ الْكُفْرِ الْمُشَبَّهِ بِالظُّلُمَاتِ، وَالْوَعِيدِ عَلَيْهِ الْمُشَبَّهِ بِالرَّعْدِ، وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَةِ الْمُشَبَّهَةِ بِالْبَرْقِ، يَسُدُّونَ آذَانَهُمْ لِئَلَّا يَسْمَعُوهُ فَيَمِيلُوا إِلَى الْإِيمَانِ وَتَرْكِ دِينِهِمْ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ مَوْتٌ(٢) ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌۢ بِالْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ عِلْمًا وَقُدْرَةً فَلَا يَفُوتُونَهُ(٣). ﴿يَكَادُ﴾ يَقْرُبُ ﴿الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يَأْخُذُهَا بِسُرْعَةٍ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ أَيْ: فِي ضَوْئِهِ ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ وَقَفُوا، تَمْثِيلٌ لِإِزْعَاجِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحُجَجِ قُلُوبَهُمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِمَا سَمِعُوا فِيهِ مِمَّا يُحِبُّونَ، وَوُقُوفِهِمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ(٤) ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بِمَعْنَى أَسْمَاعِهِمْ ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ الظَّاهِرَةِ كَمَا ذَهَبَ بِالْبَاطِنَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ

الرعد؟ قال: «مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، بِيَدِهِ مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ»، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع، قال: «صَوْتُهُ»، قالوا: صدقت... وقد روى عن بعض السلف أقوال لا تخالف ذلك كقول من يقول أنه اصطكاك أجرام السحاب بسبب انضغاط الهواء فيه، فإن هذا لا يناقض ذلك، فإن الرعد مصدر رعد يرعد رعدا وكذلك الراعد يسمى رعدا كما يسمى العادل عدلا، والحركة توجب الصوت، والملائكة هي التي تحرك السحاب وتنقله من مكان إلى مكان، وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فهي عن الملائكة، وصوت الإنسان هو عن اصطكاك أجرامه الذي هو شفتاه ولسانه وأسنانه ولهاته وحلقه، وهو مع ذلك يكون مسبحا للرب وآمرا بمعروف وناهيا عن منكر، فالرعد يزجر السحاب وكذلك البرق، قد قيل لمعان الماء أو لمعان النار، وكونه لمعان النار أو الماء لا ينافى أن يكون اللامع مخراقا بيد الملك، فإن النار التي تلمع بيد الملك كالمخراق مثل مزجي المطر، والملك يزجي السحاب كما يزجي السائق للمطي. [مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٤/ ٢٦٣)].

(١) ذكر الأصابع أبلغ لأنها أعظم من الأنامل، ولذلك جمعها مع أن الذي يجعل في الآذان السبابة خاصة. [ابن جُزَيّ (١/ ٧٣)].

(٢) وقد أوضح ﷺ هذا المثل المشار إليه في الآيتين في حديث أبي موسى رضي الله عنه المتفق عليه، حيث قال ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢). [الشنقيطي (١/ ٦٠)].

(٣) أي: مهلكهم، ويشهد لهذا القول، قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: تهلكوا عن آخركم. [الشنقيطي (١/ ٦٣)].

(٤) هذا المثل ينطبق على قوم منافقين لم يؤمنوا إطلاقا، وهم منافقون اليهود؛ لأن المنافقين منهم عرب من الخزرج والأوس، ومنهم يهود من بني إسرائيل، اليهود لم يذوقوا طعم الإسلام أبدا، لأنهم كفار من الأصل، لكن أظهروا الإسلام خوفا من النبي ﷺ بعد أن أعزه الله في بدر، هؤلاء ليسوا على هدى كالأولين، الأولين استوقدوا النار، وصار عندهم شيء من النور بهذه النار، ثم والعياذ بالله انتكسوا، لكن هؤلاء من

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءَهُ(١) ﴿قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾، وَمِنْهُ إِذْهَابُ مَا ذُكِرَ. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾ وَحِّدُوا(٢) ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أَنْشَأَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا ﴿وَ﴾ خلق ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ بِعِبَادَتِهِ عِقَابَهُ، وَ«لَعَلَّ» فِي ٱلْأَصْلِ لِلتَّرَجِّي، وَفِي كَلَامِهِ تَعَالَى لِلتَّحْقِيقِ. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ خلَقَ(٣) ﴿لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ حَالٌ، بِسَاطًا يُفْتَرَشُ، لَا غَايَةَ فِي ٱلصَّلَابَةِ أَوِ ٱللُّيُونَةِ فَلَا يُمْكِنُ ٱلِاسْتِقْرَارُ عَلَيْهَا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سَقْفًا(٤) ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ﴾ أَنْوَاعِ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تَأْكُلُونَهُ وَتَعْلِفُونَ بِهِ دَوَابَّكُمْ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شُرَكَاءَ فِي ٱلْعِبَادَةِ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أَنَّهُ ٱلْخَالِقُ وَلَا تَخْلُقُونَ، وَلَا يَكُونُ إِلَهًا إِلَّا مَنْ يَخْلُقُ. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ شَكٍّ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ مُحَمَّدٍ مِنَ ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أَيِ: ٱلْمُنَزَّلِ(٥)، وَ﴿مِن﴾ لِلْبَيَانِ، أَيْ: هِيَ مِثْلُهُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَحُسْنِ ٱلنَّظْمِ وَٱلْإِخْبَارِ عَنِ ٱلْغَيْبِ(٦). وَٱلسُّورَةُ: «قِطْعَةٌ لَهَا أَوَّلٌ وَآخِرٌ أَقَلُّهَا

الأصل في ظلمات، فيكون هذا المثل غير المثل الأول، بل هو لقوم آخرين، والمنافقون أصناف بلا شك. [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/ ٩٦)].

(١) هو الفاعل لما يشاء [سبحانه] لا منازع له فيه، والآية على عمومها بلا استثناء. [صديق حسن (١/ ١٠٢)].

(٢) قال ابن عباس: وحدوا، وكل ما ورد في القرآن من العبادة قيل معناه التوحيد. وأصل العبادة غاية التذلل. [صديق حسن (١/ ١٠٣)].

(٣) معناه هنا «صيَّر» لتعديه إلى مفعولين، ويأتي بمعنى «خلق»، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. [القرطبي (١/ ٢٢٨)].

(٤) كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. [ابن كثير (١/ ١٩٤)].

(٥) وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]، وقال في سورة سبحان: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٧-٣٨]، وكل هذه الآيات مكية. ثم تحداهم الله تعالى بذلك أيضا في المدينة [في آية البقرة]. [ابن كثير (١/ ١٩٩)].

(٦) المثل في الآية لرد دعاوي المكذبين في اختلاف دعاويهم، فإن منهم من قال: القرآن كلام بشر. ومنهم من قال: هو مكتتب من أساطير الأولين، ومنهم من قال: إنما يعلمه بشر. وهاته الوجوه في معنى الآية تفند جميع الدعاوي، فإن كان كلام بشر فأتوا بمماثله أو بمثله، وإن كان من أساطير الأولين فأتوا أنتم بجزء من هذه الأساطير، وإن كان يعلمه بشر فأتوا أنتم من عنده بسورة فما هو ببخيل عنكم إن سألتموه.

ثَلَاثُ آيَاتٍ»[1] ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ آلِهَتَكُمُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مِنْ غَيْرِهِ لِتُعِينَكُمْ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ فِي أَنَّ مُحَمَّدًا قَالَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، فَافْعَلُوا ذَلِكَ فَإِنَّكُمْ عَرَبِيُّونَ فُصَحَاءُ مِثْلُهُ. وَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ مَا ذُكِرَ لِعَجْزِكُمْ ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ ذَلِكَ أَبَدًا لِظُهُورِ إِعْجَازِهِ، اعْتِرَاضٌ[2] ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ الْكُفَّارُ ﴿وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ كَأَصْنَامِهِمْ مِنْهَا، يَعْنِي: أَنَّهَا مُفْرِطَةُ الْحَرَارَةِ تَتَّقِدُ بِمَا ذُكِرَ، لَا كَنَارِ الدُّنْيَا تَتَّقِدُ بِالْحَطَبِ وَنَحْوِهِ ﴿أُعِدَّتۡ﴾ هُيِّئَتْ ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ يُعَذَّبُونَ بِهَا[3]، جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، أَوْ حَالٌ لَازِمَةٌ. ﴿وَبَشِّرِ﴾ أَخْبِرْ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صَدَّقُوا بِاللهِ[4] ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِنَ الْفُرُوضِ وَالنَّوَافِلِ[5] ﴿أَنَّ﴾ أَيْ: بِأَنَّ ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾ حَدَائِقَ ذَاتَ أَشْجَارٍ وَمَسَاكِنَ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ أَيْ: تَحْتَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أَيِ: الْمِيَاهُ فِيهَا، وَالنَّهْرُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ يَنْهَرُهُ، أَيْ: يَحْفِرُهُ، وَإِسْنَادُ الْجَرْيِ إِلَيْهِ مَجَازٌ ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا﴾ أُطْعِمُوا مِنْ تِلْكَ الْجَنَّاتِ ﴿مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي﴾ أَيْ: مِثْلُ مَا ﴿رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ أَيْ: قَبْلَهُ فِي الْجَنَّةِ، لِتَشَابُهِ ثِمَارِهَا، بِقَرِينَةِ: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ﴾ أَيْ: جِيئُوا بِالرِّزْقِ ﴿مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَوْنًا وَيَخْتَلِفُ طَعْمًا[6] ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ﴾ مِنَ الْحُورِ وَغَيْرِهَا ﴿مُّطَهَّرَةٞۖ﴾ مِنَ الْحَيْضِ وَكُلِّ قَذَرٍ ﴿وَهُمۡ

وكل هذا إرخاء لعنان المعارضة وتسجيل للإعجاز عند عدمها. [ابن عاشور (١/ ٣٣٨)].

(١) السورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص سميت بذلك لأنها مشتملة على كلماتها كاشتمال سور البلدة عليها، وأقل ما تتألف منه السورة ثلاث آيات. [صديق حسن (١/ ١٠٦)].

(٢) لنفي التأبيد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبدا. وهذه أيضا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدا وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟! [ابن كثير (١/ ١٩٩)].

(٣) في قوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافا للمعتزلة، وفيها أيضا، أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار. [السعدي ص: ٤٥].

(٤) أي: الذين آمنوا بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند ربه، وصدقوا إيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة. [الطبري (١/ ٤٠٦)].

(٥) لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه وتعالى في كتابه العزيز. [صديق حسن].

(٦) قيل: متشابها في الاسم، مختلف الطعوم، وقيل: متشابها في اللون، مختلفا في الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضا، في الحسن، واللذة، والفكاهة، ولعل هذا الصحيح. [السعدي (ص: ٤٦)].

﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ مَاكِثُونَ أَبَدًا لَا يَفْنَوْنَ، وَلَا يَخْرُجُونَ(١). وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ الْيَهُودِ لَمَّا ضَرَبَ اللهُ الْمَثَلَ بِالذُّبَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٧٣]، وَالْعَنْكَبُوتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، مَا أَرَادَ اللهُ بِذِكْرِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْخَسِيسَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ﴾ يَجْعَلَ(٢) ﴿مَثَلًا﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ ﴿مَّا﴾ نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ بِمَا بَعْدَهَا، مَفْعُولٌ ثَانٍ، أَيْ: أَيَّ مَثَلٍ كَانَ، أَوْ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ الْخِسَّةِ، فَمَا بَعْدَهَا الْمَفْعُولُ الثَّانِي ﴿بَعُوضَةً﴾ مُفْرَدُ الْبَعُوضِ، وَهُوَ صِغَارُ الْبَقِّ ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أَيْ: أَكْبَرَ مِنْهَا(٣). أَيْ: لَا يَتْرُكُ بَيَانَهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكَمِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أَيِ: الْمَثَلَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ الْوَاقِعُ مَوْقِعَهُ ﴿مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾ تَمْيِيزٌ، أَيْ: بِهَذَا الْمَثَلِ، وَ«مَا» اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ مُبْتَدَأٌ، وَ«ذَا» بِمَعْنَى: «الَّذِي» بِصِلَتِهِ خَبَرُهُ، أَيْ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِيهِ؟ قَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِهِمْ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِهَذَا الْمَثَلِ ﴿كَثِيرًا﴾ عَنِ الْحَقِّ لِكُفْرِهِمْ بِهِ ﴿وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِتَصْدِيقِهِمْ بِهِ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَعْتٌ ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ مَا عَهِدَهُ إِلَيْهِمْ فِي الْكُتُبِ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ(٤) ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾

---

(١) كما جاء في الحديث: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَمْرَضُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا». أخرجه مسلم (٢٨٣٧).

(٢) أي: يذكر مثلا ما. يقال ضرب مثلا، ذكره، فيتعدى لمفعول واحد. أو صير، فلمفعولين. [القاسمي (١/ ٢٧٨)]. وفي هذه الآية الكريمة: إثبات صفة الحياء لله سبحانه وتعالى، وقد جاء في السنة إثبات الحياء صريحًا في قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ». أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥). [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/ ٩٨)]. ولكن كما هي القاعدة عندنا أن كل صفة أثبتها الله لنفسه فهي مفارقة لصفات المخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(٣) وقيل: فما دونها في الصغر، والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك، يعني فيما وصفت. [ابن كثير (١/ ٢٠٧)].

(٤) العهد قيل: هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره. وقيل: هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسنة رسله، ونقضهم ذلك ترك العمل به. وقيل: بل نصب الأدلة على وحدانيته بالسماوات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد، ونقضهم ترك النظر في ذلك. وقيل: هو ما عهده إلى من أوتي الكتاب أن يبينوا نبوة محمد ﷺ ولا يكتموا أمره. فالآية على هذا في أهل الكتاب. قال أبو إسحاق الزجاج: عهده عز وجل ما أخذه على النبيين ومن اتبعهم ألا يكفروا بالنبي ﷺ. ودليل ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾ [آل عمران: ٨١] أي عهدي. قلت: وظاهر ما قبل وما بعد يدل على أنها في الكفار. فهذه خمسة أقوال، والقول الثاني يجمعها. [القرطبي (١/ ٢٤٦)].

تَوْكِيدِهِ عَلَيْهِمْ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَالرَّحِمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَ﴿أَن﴾ بَدَلٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿بِهِۦ﴾ ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْمَعَاصِي وَالتَّعْوِيقِ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِٱللَّهِ وَ﴾ قَدْ ﴿كُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ نُطَفًا فِي الْأَصْلَابِ ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ فِي الْأَرْحَامِ وَالدُّنْيَا بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيكُمْ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّعَجُّبِ مِنْ كُفْرِهِمْ مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ، أَوْ لِلتَّوْبِيخِ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ تُرَدُّونَ بَعْدَ الْبَعْثِ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. وَقَالَ دَلِيلًا عَلَى الْبَعْثِ لَمَّا أَنْكَرُوهُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيِ: الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا ﴿جَمِيعًا﴾ لِتَنْتَفِعُوا بِهِ وَتَعْتَبِرُوا ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ، أَيْ: قَصَدَ[1] ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْآيِلَةِ إِلَيْهِ، أَيْ: صَيَّرَهَا، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا، أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى خَلْقِ ذَلِكَ ابْتِدَاءً - وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْكُمْ - قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يَخْلُفُنِي فِي تَنْفِيذِ أَحْكَامِي فِيهَا وَهُوَ آدَمُ[2] ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بِالْمَعَاصِي ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ يُرِيقُهَا بِالْقَتْلِ، كَمَا فَعَلَ بَنُو الْجَانِّ وَكَانُوا فِيهَا، فَلَمَّا أَفْسَدُوا أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ، فَطَرَدُوهُمْ إِلَى الْجَزَائِرِ وَالْجِبَالِ[3] ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أَيْ نَقُولُ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نُنَزِّهُكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ، فَاللَّامُ زَائِدَةٌ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ، أَيْ: فَنَحْنُ أَحَقُّ بِالِاسْتِخْلَافِ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي اسْتِخْلَافِ آدَمَ وَأَنَّ ذُرِّيَّتَهُ فِيهِمُ الْمُطِيعُ وَالْعَاصِي، فَيَظْهَرُ الْعَدْلُ بَيْنَهُمْ. فَقَالُوا: لَنْ يَخْلُقَ رَبُّنَا خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ؛ لِسَبْقِنَا لَهُ، وَرُؤْيَتِنَا مَا لَمْ يَرَهُ. فَخَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ مِنْ أَدِيمِ

---

(١) الاستواء هاهنا تضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدي بـ(إلى). [ابن كثير (١/ ٢١٣)].

(٢) وقيل: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم، عليه السلام فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين. [ابن كثير (١/ ٢١٦)].

(٣) فإن قلت: من أين عرف الملائكة ذلك حتى تعجبوا منه، وإنما هو غيب؟ أجيب: بأنهم عرفوه: إما بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية. فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، أو فهموا من «الخليفة» أنه الذي يفصل بين الناس، ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم. قال العلامة برهان الدين البقاعي في تفسيره: وما يقال من أنه كان قبل آدم عليه السلام في الأرض خلق يعصون، قاس عليهم الملائكة حال آدم عليه السلام كلام لا أصل له. بل آدم أول ساكنيها بنفسه. [القاسمي (١/ ٢٨٥)].

ٱلْأَرْضِ، أَيْ: وَجْهِهَا، بِأَنْ قَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً مِنْ جَمِيعِ أَلْوَانِهَا، وَعُجِنَتْ بِالْمِيَاهِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ، وَسَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ ٱلرُّوحَ فَصَارَ حَيَوَانًا حَسَّاسًا بَعْدَ أَنْ كَانَ جَمَادًا. ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ أَيْ: أَسْمَاءَ ٱلْمُسَمَّيَاتِ ﴿كُلَّهَا﴾ حَتَّى ٱلْقَصْعَةَ وَٱلْقُصَيْعَةَ، وَٱلْفَسْوَةَ وَٱلْفُسَيَّةَ، بِأَنْ أَلْقَى فِي قَلْبِهِ عِلْمَهَا ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ﴾ لَهُمْ تَبْكِيتًا: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ أَخْبِرُونِي ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ٱلْمُسَمَّيَاتِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ فِي أَنِّي لَا أَخْلُقُ أَعْلَمَ مِنْكُمْ، أَوْ أَنَّكُمْ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ[1]، وَجَوَابُ ٱلشَّرْطِ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ. ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ عَنِ ٱلِاعْتِرَاضِ عَلَيْكَ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ إِيَّاهُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ تَأْكِيدٌ لِلْكَافِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢﴾ ٱلَّذِي لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ أَيْ: ٱلْمَلَائِكَةَ ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أَيْ: ٱلْمُسَمَّيَاتِ، فَسَمَّى كُلَّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ، وَذَكَرَ حِكْمَتَهُ ٱلَّتِي خُلِقَ لَهَا ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ مُوَبِّخًا: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مَا غَابَ فِيهِمَا ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ مَا تُظْهِرُونَ مِنْ قَوْلِكُمْ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ إِلَى آخِرِهِ، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾ تُسِرُّونَ مِنْ قَوْلِكُمْ: لَنْ يَخْلُقَ أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ[2]. ﴿وَ﴾ ٱذْكُرْ ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالِانْحِنَاءِ ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ هُوَ أَبُو ٱلْجِنِّ كَانَ بَيْنَ ٱلْمَلَائِكَةِ[3] ﴿أَبَىٰ﴾ ٱمْتَنَعَ عَنِ ٱلسُّجُودِ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ تَكَبَّرَ عَنْهُ، وَقَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ فِي عِلْمِ ٱللهِ. ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ﴾ تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَتِرِ، لِيُعْطَفَ عَلَيْهِ ﴿وَزَوْجُكَ﴾ حَوَّاءُ بِالْمَدِّ، وَكَانَ خَلَقَهَا مِنْ ضِلَعِهِ ٱلْأَيْسَرِ[4] ﴿ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا﴾ أَكْلًا ﴿رَغَدًا﴾ وَاسِعًا لَا حَجْرَ فِيهِ ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بِالْأَكْلِ مِنْهَا، وَهِيَ: ٱلْحِنْطَةُ، أَوِ ٱلْكَرْمُ،

---

(١) قول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، ... وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء. [ابن كثير (١/ ٢١٦)].

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) استثناء متصل عند من قال: إنه كان مَلَكًا. ومنقطع عند من قال: كان من الجن. [ابن جزي (١/ ٧٩)]. قال الحسن: كان من الجن لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، ولأنه خُلق من النار، والملائكة خُلقوا من النور، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة. [انظر السمعاني (١/ ٦٧)].

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا». أخرجه مسلم (١٤٦٨).

أَوْ غَيْرُهُمَا[١] ﴿فَتَكُونَا﴾ فَتَصِيرَا ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾ الْعَاصِينَ. ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إِبْلِيسُ أَذْهَبَهُمَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾ نَحَّاهُمَا ﴿عَنْهَا﴾ أَيْ: الْجَنَّةِ[٢]، بِأَنْ قَالَ لَهُمَا: هَلْ أَدُلُّكُمَا عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟ وَقَاسَمَهُمَا بِاللهِ إِنَّهُ لَهُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ، فَأَكَلَا مِنْهَا ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ مِنَ النَّعِيمِ ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾ إِلَى الْأَرْضِ، أَيْ: أَنْتُمَا بِمَا اشْتَمَلْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمَا ﴿بَعْضُكُمْ﴾ بَعْضُ الذُّرِّيَّةِ ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ مِنْ ظُلْمِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ مَوْضِعُ قَرَارٍ ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ مَا تَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ نَبَاتِهَا ﴿إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ وَقْتِ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أَلْهَمَهُ إِيَّاهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَصْبِ ﴿ءَادَمَ﴾ وَرَفْعِ ﴿كَلِمَٰتٌ﴾ أَيْ: جَاءَهُ، وَهِيَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الْآيَةَ، فَدَعَا بِهَا ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قَبِلَ تَوْبَتَهُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ عَلَى عِبَادِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ بِهِمْ. ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿جَمِيعًا﴾ كَرَّرَهُ لِيَعْطِفَ عَلَيْهِ ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ كِتَابٌ وَرَسُولٌ ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ فَآمَنَ بِي، وَعَمِلَ بِطَاعَتِي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ فِي الْآخِرَةِ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ كُتُبَنَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾ مَاكِثُونَ أَبَدًا لَا يَفْنَوْنَ وَلَا يَخْرُجُونَ. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَوْلَادَ يَعْقُوبَ[٣] ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: عَلَى آبَائِكُمْ مِنَ الْإِنْجَاءِ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَفَلْقِ الْبَحْرِ، وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ بِأَنْ تَشْكُرُوهَا بِطَاعَتِي ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾ الَّذِي عَهِدْتُهُ إِلَيْكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ[٤] ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الَّذِي عَهِدْتُ إِلَيْكُمْ، مِنَ الثَّوَابِ عَلَيْهِ بِدُخُولِ

---

(١) ذلك مفتقر إلى نقل صحيح، واللفظ مبهم. [ابن جزي (١/ ٨٠)].

(٢) اختلفوا في الجنة التي أمر آدم بسكناها، فقيل: إنها جنة كانت في الأرض، وقيل: هي دار الجزاء والثواب، لأنها المعهودة، وقيل: هي جنة بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان، خلقها الله امتحاناً لآدم، وحمل الإهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]، لما أن خلق آدم كان في الأرض بلا خلاف، ولم يذكر في هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير، لما أنه من أعظم النعم، ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس ... وقيل الكل ممكن والأدلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع، قاله أبو السعود. قلت وقد استوعب الحافظ ابن القيم في كتابه حادي الأرواح دلائل الفريقين من غير تصريح برجحان أحد القولين والله تعالى أعلم. [صديق حسن (١/ ١٣٤)].

(٣) لما قدم دعوة الناس عموماً وذكر مبدأهم: دعا بني إسرائيل خصوصاً وهم اليهود، وجرى الكلام معهم من هنا إلى حزب: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فتارة دعاهم بالملاطفة وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتخويف، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم، وذكر العقوبات التي عاقبهم بها. [ابن جُزَيّ (١/ ٨٠)].

(٤) كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

اَلْجَنَّةِ ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ خافُونِ فِي تَرْكِ اَلْوَفَاءِ بِهِ دُونَ غَيْرِي. ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ مِنَ اَلْقُرْآنِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ اَلتَّوْرَاةِ بِمُوَافَقَتِهِ لَهُ فِي اَلتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ؛ لِأَنَّ خَلفَكُمْ تَبَعٌ لَكُمْ فَإِثْمُهُمْ عَلَيْكُمْ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾ تَسْتَبْدِلُوا ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ اَلَّتِي فِي كِتَابِكُمْ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عِوَضًا يَسِيرًا مِنَ اَلدُّنْيا، أَيْ: لَا تَكْتُمُوهَا خَوْفَ فَوَاتِ مَا تَأْخُذُونَهُ مِنْ سِفْلَتِكُمْ[1] ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ خَافُونِ فِي ذَلِكَ دُونَ غَيْرِي. ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ﴾ تخْلِطُوا ﴿ٱلْحَقَّ﴾ اَلَّذِي أَنْزَلْتُ عَلَيْكُمْ ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ اَلَّذِي تُغَيِّرُونَهُ ﴿وَ﴾ لَا ﴿تَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ﴾ نَعتَ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ أَنَّهُ اَلْحَقُّ. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ صَلُّوا مَعَ اَلْمُصَلِّينَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. وَنَزَلَ فِي عُلَمَائِهِمْ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِأَقْرِبَائِهِمُ اَلْمُسْلِمِينَ اُثْبُتُوا عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ حَقٌّ[2]: ﴿۞أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ تَتْرُكُونَهَا فَلَا تَأْمُرُونَهَا بِهِ ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ اَلتَّوْرَاةَ وَفِيهَا اَلْوَعِيدُ عَلَى مُخَالَفَةِ اَلْقَوْلِ اَلْعَمَلَ[3] ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ سُوءَ فِعْلِكُمْ فتَرْجِعُونَ؟ فَجُمْلَةُ اَلنِّسْيَانِ مَحَلُّ اَلِاسْتِفْهَامِ اَلْإِنْكَارِيِّ. ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ اُطْلُبُوا اَلْمَعُونَةَ عَلَى أُمُورِكُمْ ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ اَلْحَبْسِ لِلنَّفْسِ عَلَى مَا تَكْرَهُ ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أَفْرَدَهَا بِالذِّكْرِ، تَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا، وَفِي اَلْحَدِيثِ: «كَانَ ﷺ إِذَا حَزَبِهِ أَمْرٌ بَادَرَ إِلَى اَلصَّلَاةِ»[4]، وَقِيلَ: اَلْخِطَابُ لِلْيَهُودِ لَمَّا عَاقَهُمْ عَنِ اَلْإِيمَانِ اَلشَّرَهُ وَحُبُّ اَلرِّيَاسَةِ، فَأُمِرُوا بِالصَّبْرِ وَهُوَ اَلصَّوْمُ؛ لِأَنَّهُ يَكْسِرُ اَلشَّهْوَةَ، وَالصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهَا تُورِثُ اَلْخُشُوعَ، وَتَنْفِي اَلْكِبْرَ ﴿وَإِنَّهَا﴾ أَيِ: اَلصَّلَاةَ ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾

ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

(١) الاشتراء هنا استعارة في الاستبدال: كقوله: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، والآيات هنا هي الإيمان بمحمد ﷺ، والثمن القليل ما ينتفعون به في الدنيا من بقاء رياستهم، وأخذ الرشا على تغيير أمر محمد ﷺ، وغير ذلك، وقيل: كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك، واحتج الحنفية بهذه الآية على منع الإجارة على تعليم القرآن. [ابن جُزَيّ (١/ ٨٢)].

(٢) قال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة كلها، وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر؛ لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع، وقالت فرقة: إنما قال: ﴿مَعَ﴾ لأن الأمر بالصلاة أولا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله: ﴿مَعَ﴾ بشهود الجماعة. [ابن عطية (١/ ١٣٦)].

(٣) [وقيل:] تقرؤون التوراة فيها نعته وصفته. [البغوي (١/ ٨٨)].

(٤) أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٢٣٢٩٩)، بلفظ: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ صلَّى.

ثَقِيلَةٌ ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ اَلسَّاكِنِينَ إِلَى اَلطَّاعَةِ[١]. ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يُوقِنُونَ ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ بِالْبَعْثِ[٢] ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ فِي اَلْآخِرَةِ فَيُجَازِيهِمْ. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا بِطَاعَتِي ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾ أَيْ: آبَاءَكُمْ ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾ عَالَمِي زَمَانِهِمْ[٣]. ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ خَافُوا ﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى﴾ فِيهِ ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ هُوَ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ ﴿وَلَا تُقْبَلُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهَا شَفَاعَةٌ فَتُقْبَلُ، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فِدَاءٌ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾ يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اَللهِ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرُوا ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ أَيْ: آبَاءَكُمْ، وَالْخِطَابُ بِهِ وَبِمَا بَعْدَهُ لِلْمَوْجُودِينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا، بِمَا أَنْعَمَ اَللهُ عَلَى آبَائِهِمْ، تَذْكِيرًا لَهُمْ بِنِعَمِ اَللهِ لِيُؤْمِنُوا ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ يُذِيقُونَكُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أَشَدَّهُ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾ ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بَيَانٌ لِمَا قَبْلَهُ ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ اَلْمَوْلُودِينَ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يَسْتَبْقُونَ ﴿نِسَآءَكُمْ﴾ لِقَوْلِ بَعْضِ اَلْكَهَنَةِ لَهُ: إِنَّ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ سَبَبًا لِذَهَابِ مُلْكِكَ ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ اَلْعَذَابِ، أَوِ اَلْإِنْجَاءِ ﴿بَلَآءٌ﴾ اِبْتِلَاءٌ، أَوْ إِنْعَامٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩ وَ﴾ اُذْكُرُوا ﴿إِذْ فَرَقْنَا﴾ فَلَقْنَا ﴿بِكُمُ﴾ بِسَبَبِكُمْ ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ حَتَّى دَخَلْتُمُوهُ هَارِبِينَ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ مِنَ اَلْغَرَقِ ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ قَوْمَهُ مَعَهُ ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ إِلَى اِنْطِبَاقِ اَلْبَحْرِ عَلَيْهِمْ. ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا﴾ بِأَلِفٍ وَدُونِهَا ﴿مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نُعْطِيهِ عِنْدَ اِنْقِضَائِهَا اَلتَّوْرَاةَ لِتَعْمَلُوا بِهَا ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ اَلَّذِي صَاغَهُ لَكُمُ اَلسَّامِرِيُّ إِلَهًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أَيْ: بَعْدَ ذَهَابِهِ إِلَى مِيعَادِنَا ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾ بِاتِّخَاذِهِ، لِوَضْعِكُمُ اَلْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ مَحَوْنَا ذُنُوبَكُمْ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ اَلِاتِّخَاذِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ نِعْمَتَنَا عَلَيْكُمْ. ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ اَلتَّوْرَاةَ ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ عَطْفُ

---

(١) أي: المخبتين، والخشوع: الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة. والخضوع: اللين والانقياد، ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب. [البيضاوي (١/ ٧٨)].

(٢) أي: سيلاقون الله عز وجل، وذلك في يوم القيامة. [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/ ١٦٦)]. كما قال تعالى في عموم الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال النبي ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ». أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(٣) فلا يتناول من مضى ولا من يوجد بعدهم، لقوله تعالى عن أمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. [صديق حسن (١/ ١٦١)].

تَفْسِيرٍ، أَيِ: اَلْفَارِقَ بَيْنَ اَلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ[1] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بِهِ مِنَ اَلضَّلَالِ. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ اَلَّذِينَ عَبَدُوا اَلْعِجْلَ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إِلَهًا ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ خَالِقِكُمْ مِنْ عِبَادَتِهِ[2] ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أَيْ: لِيَقْتُلَ اَلْبَرِيءُ مِنْكُمُ اَلْمُجْرِمَ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ اَلْقَتْلُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ فَوَفَّقَكُمْ لِفِعْلِ ذَلِكَ، وَأَرْسَلَ عَلَيْكُمْ سَحَابَةً سَوْدَاءَ، لِئَلَّا يُبْصِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَيَرْحَمَهُ، حَتَّى قُتِلَ مِنْكُمْ نَحْوُ سَبْعِينَ أَلْفًا ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ وَقَدْ خَرَجْتُمْ مَعَ مُوسَى لِتَعْتَذِرُوا إِلَى اَللهِ مِنْ عِبَادَةِ اَلْعِجْلِ، وَسَمِعْتُمْ كَلَامَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عِيَانًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ اَلصَّيْحَةُ فَمُتُّمْ ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ مَا حَلَّ بِكُمْ[3]. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أَحْيَيْنَاكُمْ[4] ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ نِعْمَتَنَا بِذَلِكَ. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ سَتَرْنَاكُمْ بِالسَّحَابِ اَلرَّقِيقِ مِنْ حَرِّ اَلشَّمْسِ فِي اَلتِّيهِ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ فِيهِ ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ هُمَا اَلتُّرُنْجَبِينُ، وَالطَّيْرُ اَلسُّمَانَى[5] بِتَخْفِيفِ اَلْمِيمِ

---

(١) وقيل الفرقان، أي: الحجة والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما وهذا أولى وأرجح، ويكون العطف على بابه كأنه قال: آتينا موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له. [الشوكاني (١/ ١٠١)].

(٢) وإنما خص هنا اسم الباري؛ لأن فيه توبيخا للذين عبدوا العجل كأنه يقول كيف عبدتم غير الذي برأكم. [ابن جزي (١/ ٨٤)].

(٣) وعندي أن مفعول تنظرون محذوف وأن تنظرون بمعنى تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعا أن يظهر لهم الله من خلاله لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاما يسمعه من خلال السحاب كما تقوله التوراة في مواضع، ففائدة الحال إظهار أن العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والعجرفة إذ طمعوا فيما لم يكن لينال لهم. [ابن عاشور (١/ ٥٠٨)].

(٤) البعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإرسال كقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٠٣]. والثاني: إثارة بارك أو قاعد، يقال: بعثت البعير عن مبركه، وبعثت النائم، ونشر الميت: بعث، لأنه كبعث النائم، وذلك إثارته عن مكانه. قال قتادة: بعثهم الله ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا، ولكنه كان ذلك الموت عقوبة لهم على ما قالوا. وقال ابن الأنباري: كل موت حصل البعث بعده في الدنيا كهذا، وكقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] يكون حكمه حكم النوم، ويجري مجرى موت النائم؛ لأن الله تعالى أثبت للخلق الإماتة في دار الدنيا مرة واحدة، وهو قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦]. [الواحدي (٢/ ٥٤٣)].

(٥) عبارات المفسرين متقاربة في شرح ﴿ٱلْمَنَّ﴾ فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، ... ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ». رواه البخاري. وأما ﴿ٱلسَّلْوَىٰ﴾ فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: السلوى

وَالْقَصرِ، وَقُلْنَا: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وَلَا تَدَّخِرُوا، فَكَفَرُوا النِّعْمَةَ وَادَّخَرُوا فَقُطِعَ عَنْهُمْ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بِذَلِكَ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ لِأَنَّ وَبَالَهُ عَلَيْهِمْ. ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لَهُمْ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ التِّيهِ: ﴿ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، أَوْ أَرِيحَا ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ وَاسِعًا لَا حَجْرَ فِيهِ ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾ أَيْ: بَابَهَا ﴿سُجَّدًا﴾ مُنْحَنِينَ ﴿وَقُولُواْ﴾: مَسْأَلَتُنَا ﴿حِطَّةٌ﴾، أَيْ: أَنْ تَحُطَّ عَنَّا خَطَايَانَا ﴿نَّغْفِرْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ فِيهِمَا ﴿لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ بِالطَّاعَةِ ثَوَابًا. ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مِنْهُمْ ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ[1] ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ مُبَالَغَةً فِي تَقْبِيحِ شَأْنِهِمْ ﴿رِجْزًا﴾ عَذَابًا طَاعُونًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾ بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ، أَيْ: خُرُوجِهِمْ عَنِ الطَّاعَةِ، فَهَلَكَ مِنْهُمْ فِي سَاعَةٍ سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ أَقَلُّ. ﴿*وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ أَيْ: طَلَبَ السُّقْيَا ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ وَقَدْ عَطِشُوا فِي التِّيهِ ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ وَهُوَ الَّذِي فَرَّ بِثَوْبِهِ خَفِيفٌ مُرَبَّعٌ كَرَأْسِ الرَّجُلِ، رُخَامٌ أَوْ كَذَّانٌ[2]، فَضَرَبَهُ ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ انْشَقَّتْ وَسَالَتْ ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بِعَدَدِ الْأَسْبَاطِ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ سِبْطٍ مِنْهُمْ ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ مَوْضِعَ شُرْبِهِمْ، فَلَا يَشْرَكُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ، وَقُلْنَا لَهُمْ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِهَا، مِنْ «عَثِيَ» بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَةِ أَفْسَدَ. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ أَيْ: نَوْعٍ ﴿وَٰحِدٍ﴾ وَهُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ شَيْئًا ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا﴾ حِنْطَتِهَا ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أَخَسُّ ﴿بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أَشْرَفُ، أَتَأْخُذُونَهُ بَدَلَهُ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، فَأَبَوْا أَنْ يَرْجِعُوا، فَدَعَا اللهَ تَعَالَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾ انْزِلُوا ﴿مِصْرًا﴾ مِنَ الْأَمْصَارِ ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فِيهِ ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ مِنَ النَّبَاتِ[3] ﴿وَضُرِبَتْ﴾ جُعِلَتْ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ الذُّلُّ وَالْهَوَانُ ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أَيْ: أَثَرُ الْفَقْرِ، مِنَ السُّكُونِ وَالْخِزْيِ

طائر شبيه بالسمانى، كانوا يأكلون منه. [ابن كثير (١/ ٢٧١)].

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِطَّةٌ: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ». أخرجه البخاري (٤٤٧٩).

(٢) الحَجَر يحتمل أن يكون مُعيناً فيكون اللام للعهد وهو الذي فر بثوبه فلما سألوه السقيا ضربه، ويحتمل ألا يكون مُعيناً فتكون للجنس وهو أظهر في المعجزة وأقوى للحجة. [صديق حسن (١/ ١٩٧)].

(٣) أي: هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه. [ابن كثير (١/ ٢٨٢)].

فَهِيَ لَازِمَةٌ لَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ لُزُومَ الدِّرْهَمِ الْمَضْرُوبِ لِسِكَّتِهِ ﴿وَبَآءُو﴾ رَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: الضَّرْبُ وَالْغَضَبُ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: ظُلْمًا[1] ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ يَتَجَاوَزُونَ الْحَدَّ فِي الْمَعَاصِي، وَكَرَّرَهُ لِلتَّأْكِيدِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِالْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلُ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هُمُ الْيَهُودُ ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ طَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ أَوِ النَّصَارَى[2] ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بِشَرِيعَتِهِ[3] ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أَيْ: ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ رُوعِيَ فِي ضَمِيرِ ﴿آمَنَ﴾ وَ﴿عَمِلَ﴾ لَفْظُ

---

(١) تعظيم للشنعة والذنب الذي أتوه. فإن قيل: هذا دليل على أنه قد يصح أن يقتلوا بالحق، ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به. قيل له: ليس كذلك، وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق، فكان هذا تعظيما للشنعة عليهم، ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق، ولكن يقتل على الحق، فصرح قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عن شنعة الذنب ووضوحه. فإن قيل: كيف جاز أن يخلي بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل: ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم. قال ابن عباس والحسن: لم يقتل نبي قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نصر. [القرطبي (١/ ٤٣٢)].

(٢) ﴿ٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الأظهر ... أن أصل كلمة الصابي أو الصابئة أو ما تفرع منها هو لفظ قديم من لغة عربية أو سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين من العراق، وفي دائرة المعارف الإسلامية: أن اسم الصابئة مأخوذ من أصل عبري هو (ص ب ع) أي: غطس، عرفت به طائفة المنديا وهي طائفة يهودية نصرانية في العراق يقومون بالتعميد كالنصارى، ويقال الصابئون بصيغة جمع صابئ والصابئة على أنه وصف لمُقدر، أي: الأمة الصابئة، وهم المتدينون بدين الصابئة ولا يعرف لهذا الدين إلا اسم الصابئة على تقدير مضاف، أي: دين الصابئة. وهذا الدين دين قديم ظهر في بلاد الكلدان في العراق وفي حران من بلاد الجزيرة. وكان أهل هذا الدين نبطا في بلاد العراق فلما ظهر الفرس على إقليم العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعوهم من عبادة الأصنام فلم يجسروا بعد على عبادة أوثانهم. وكذلك منع الروم أهل الشام والجزيرة من الصابئين فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على التنصر فبطلت عبادة الأوثان منهم من ذلك الوقت وتظاهروا بالنصرانية فلما ظهر الإسلام على بلادهم اعتبروا في جملة النصارى. وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم، ودين الصابئة كان معروفا للعرب في الجاهلية، بسبب جوار بلاد الصابئة في العراق والشام لمنازل بعض قبائل العرب مثل ديار بكر وبلاد الأنباط المجاورة لبلاد تغلب وقضاعة. ألا ترى أنه لما بعث محمد ﷺ وصفه المشركون بالصابئ وربما دعوه بابن أبي كبشة الذي هو أحد أجداد آمنة الزهرية أم النبي ﷺ، كان أظهر عبادة الكواكب في قومه فزعموا أن النبي ورث ذلك منه وكذبوا. [ابن عاشور (١/ ٥٣٣)].

(٣) أي: شريعة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولقوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ». أخرجه مسلم (١٥٣)، وغير أهل الكتاب من الكفار من باب أولى.

﴿مَنْ﴾، وَفِيمَا بَعْدَهُ مَعْنَاهَا. ﴿وَ﴾ اُذْكُرُوا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ عَهْدَكُمْ بِالْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ الْجَبَلَ، اِقْتَلَعْنَاهُ مِنْ أَصْلِهِ عَلَيْكُمْ لَمَّا أَبَيْتُمْ قَبُولَهَا، وَقُلْنَا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بِالْعَمَلِ بِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ النَّارَ، أَوِ الْمَعَاصِيَ. ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ أَعْرَضْتُمْ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ الْمِيثَاقِ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لَكُمْ بِالتَّوْبَةِ، أَوْ تَأْخِيرِ الْعَذَابِ ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ الْهَالِكِينَ. ﴿وَلَقَدْ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿عَلِمْتُمُ﴾ عَرَفْتُمْ ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ﴾ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ ﴿مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ بِصَيْدِ السَّمَكِ، وَقَدْ نَهَيْنَاهُمْ عَنْهُ، وَهُمْ أَهْلُ أَيْلَةَ ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ مُبْعَدِينَ، فَكَانُوهَا، وَهَلَكُوا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ[1]. ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أَيْ: تِلْكَ الْعُقُوبَةَ ﴿نَكَٰلًا﴾ عِبْرَةً مَانِعَةً مِنَ ارْتِكَابِ مِثْلِ مَا عَمِلُوا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أَيْ: لِلْأُمَمِ الَّتِي فِي زَمَانِهَا أَوْ بَعْدَهَا ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ اللهَ، وَخُصُّوا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وَقَدْ قُتِلَ لَهُمْ قَتِيلٌ لَا يُدْرَى قَاتِلُهُ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ أَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُمْ فَدَعَاهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ مَهْزُوءًا بِنَا حَيْثُ تُجِيبُنَا، بِمِثْلِ ذَلِكَ؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ﴾ أَمْتَنِعُ ﴿بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ الْمُسْتَهْزِئِينَ. فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ عَزَمَ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أَيْ: مَا سِنُّهَا ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: اللهُ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ مُسِنَّةٌ ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ صَغِيرَةٌ ﴿عَوَانُۢ﴾ نَصَفٌ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنَ السِّنِينَ ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ بِهِ مِنْ ذَبْحِهَا. ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ شَدِيدُ الصُّفْرَةِ ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ إِلَيْهَا بِحُسْنِهَا، أَيْ: تُعْجِبُهُمْ. ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أَسَائِمَةٌ، أَمْ عَامِلَةٌ ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ﴾ أَيْ: جِنْسَهُ الْمَنْعُوتَ بِمَا ذُكِرَ ﴿تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ لِكَثْرَتِهِ، فَلَمْ نَهْتَدِ إِلَى الْمَقْصُودَةِ ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ إِلَيْهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَوْ لَمْ يَسْتَثْنُوا لَمَا بُيِّنَتْ لَهُمْ آخِرَ الْأَبَدِ»[2]. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ غَيْرُ مُذَلَّلَةٍ بِالْعَمَلِ ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ تُقَلِّبُهَا لِلزِّرَاعَةِ، وَالْجُمْلَةُ صِفَةُ «ذَلُولٍ» دَاخِلَةٌ فِي النَّفْيِ ﴿وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ﴾ الْأَرْضَ الْمُهَيَّأَةَ لِلزِّرَاعَةِ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ مِنَ الْعُيُوبِ وَآثَارِ الْعَمَلِ ﴿لَّا شِيَةَ﴾ لَوْنَ ﴿فِيهَا﴾ غَيْرَ لَوْنِهَا ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ نَطَقْتَ بِالْبَيَانِ

---

(١) في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ ذكرت عنده القردة قال مسعر: وأراه قال: والخنازير من مسخ فقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقِبًا، وَقَدْ كَانَتِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٣٨٩)، وابن كثير (١/ ١٣٤) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

ٱلتَّامِّ، فَطَلَبُوهَا فَوَجَدُوهَا عِنْدَ ٱلْفَتَى ٱلْبَارِّ بِأُمِّهِ، فَاشْتَرَوْهَا بِمِلْءِ مَسْكِهَا ذَهَبًا ﴿**فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١**﴾ لِغَلَاءِ ثَمَنِهَا، وَفِي ٱلْحَدِيثِ: «لَوْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقَرَةٍ كَانَتْ لَأَجْزَأَتْهُمْ، وَلَكِنْ شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ»(١). ﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ**﴾ فِيهِ إِدْغَامُ ٱلتَّاءِ فِي ٱلْأَصْلِ فِي ٱلدَّالِ، أَيْ: تَخَاصَمْتُمْ وَتَدَافَعْتُمْ ﴿**فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ**﴾ مُظْهِرٌ ﴿**مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢**﴾ مِنْ أَمْرِهَا، وَهَذَا اِعْتِرَاضٌ وَهُوَ أَوَّلُ ٱلْقِصَّةِ. ﴿**فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ**﴾ أَيِ: ٱلْقَتِيلَ ﴿**بِبَعْضِهَا**﴾ فَضُرِبَ بِلِسَانِهَا أَوْ عَجْبِ ذَنَبِهَا(٢)، فَحَيِيَ وَقَالَ: قَتَلَنِي فُلَانٌ وَفُلَانٌ لِابْنَيْ عَمِّهِ، وَمَاتَ فَحُرِمَا ٱلْمِيرَاثَ وَقُتِلَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ ٱلْإِحْيَاءِ ﴿**يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ**﴾ دَلَائِلَ قُدْرَتِهِ ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣**﴾ تَتَدَبَّرُونَ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ ٱلْقَادِرَ عَلَى إِحْيَاءِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ نُفُوسٍ كَثِيرَةٍ، فَتُؤْمِنُونَ(٣). ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم**﴾ أَيُّهَا ٱلْيَهُودُ، صَلُبَتْ عَنْ قَبُولِ ٱلْحَقِّ ﴿**مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ ٱلْمَذْكُورِ، مِنْ إِحْيَاءِ ٱلْقَتِيلِ وَمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْآيَاتِ ﴿**فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ**﴾ فِي ٱلْقَسْوَةِ ﴿**أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ مِنْهَا ﴿**وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ**﴾ فِيهِ إِدْغَامُ ٱلتَّاءِ فِي ٱلْأَصْلِ فِي ٱلشِّينِ ﴿**فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ**﴾ يَنْزِلُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى أَسْفَلَ ﴿**مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ**﴾ وَقُلُوبُكُمْ لَا تَتَأَثَّرُ، وَلَا تَلِينُ وَلَا تَخْشَعُ ﴿**وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٧٤**﴾ وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُكُمْ لِوَقْتِكُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتَانِيَّةِ، وَفِيهِ اِلْتِفَاتٌ عَنِ ٱلْخِطَابِ. ﴿*** أَفَتَطْمَعُونَ**﴾ أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿**أَن يُؤْمِنُواْ**﴾ أَيِ: ٱلْيَهُودُ ﴿**لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ**﴾ طَائِفَةٌ ﴿**مِّنْهُمْ**﴾ أَحْبَارُهُمْ ﴿**يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ**﴾ فِي ٱلتَّوْرَاةِ ﴿**ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ**﴾ يُغَيِّرُونَهُ ﴿**مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾ فَهِمُوهُ ﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥**﴾ أَنَّهُمْ مُفْتَرُونَ، وَٱلْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، أَيْ: لَا تَطْمَعُوا فَلَهُمْ سَابِقَةٌ بِالْكُفْرِ. ﴿**وَإِذَا لَقُواْ**﴾ أَيْ: مُنَافِقُو ٱلْيَهُودِ ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا**﴾ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيٌّ وَهُوَ ٱلْمُبَشَّرُ بِهِ فِي كِتَابِنَا ﴿**وَإِذَا خَلَا**﴾ رَجَعَ ﴿**بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ**﴾ أَيْ: رُؤَسَاؤُهُمُ ٱلَّذِينَ لَمْ يُنَافِقُوا لِمَنْ نَافَقَ: ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُم**﴾ أَيِ: ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿**بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ**﴾ أَيْ: عَرَّفَكُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿**لِيُحَآجُّوكُم**﴾ لِيُخَاصِمُوكُمْ، وَٱللَّامُ لِلصَّيْرُورَةِ ﴿**بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ**﴾

---

(١) هو تتمة للحديث السابق.

(٢) لا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم، ويكفينا أن نقول أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها فأي بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم إذا لم يرد به برهان، وليس في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ما يدل على ذلك البعض ما هو، وذلك يقتضي التخيير. [صديق حسن (١/ ٢٠٠)].

(٣) وفي هذه الآية حض على العبرة، ودلالة على البعث في الآخرة، وظاهرها أنها خطاب لبني إسرائيل حينئذ، حُكي لمحمد ﷺ ليعتبر به إلى يوم القيامة، وذهب الطبري إلى أنها خطاب لمعاصري محمد ﷺ، وأنها مقطوعة من قوله: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾. [ابن عطية (١/ ١٦٥)].

فِي ٱلْآخِرَةِ، وَيُقِيمُوا عَلَيْكُمُ ٱلْحُجَّةَ فِي تَرْكِ ٱتِّبَاعِهِ مَعَ عِلْمِكُمْ بِصِدْقِهِ ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ٧٦﴾ أَنَّهُمْ يُحَاجُّونَكُمْ إِذَا حَدَّثْتُمُوهُمْ فَتَنْتَهُوا. قَالَ تَعَالَى: ﴿**أَوَلَا يَعْلَمُونَ**﴾ ٱلِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ وَٱلْوَاوُ ٱلدَّاخِلَةُ عَلَيْهَا لِلْعَطْفِ ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ٧٧﴾ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُظْهِرُونَ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ، فَيَرْعَوُوا عَنْ ذَلِكَ. ﴿**وَمِنْهُمْ**﴾ أَيِ: ٱلْيَهُودِ ﴿**أُمِّيُّونَ**﴾ عَوَامُّ[١] ﴿**لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ**﴾ ٱلتَّوْرَاةَ ﴿**إِلَّآ**﴾ لَكِنْ ﴿**أَمَانِيَّ**﴾ أَكَاذِيبَ تَلَقَّوْهَا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ فَاعْتَمَدُوهَا[٢] ﴿**وَإِنْ**﴾ مَا ﴿**هُمْ**﴾ فِي جَحْدِ نُبُوَّةِ ٱلنَّبِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّا يَخْتَلِقُونَهُ ﴿**إِلَّا يَظُنُّونَ** ٧٨﴾ ظَنًّا وَلَا عِلْمَ لَهُمْ. ﴿**فَوَيْلٌ**﴾ شِدَّةُ عَذَابٍ[٣] ﴿**لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾ أَيْ: مُخْتَلَقًا مِنْ عِنْدِهِمْ ﴿**ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا**ۖ﴾ مِنَ ٱلدُّنْيَا، وَهُمُ ٱلْيَهُودُ غَيَّرُوا صِفَةَ ٱلنَّبِيِّ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَآيَةَ ٱلرَّجْمِ وَغَيْرَهُمَا، وَكَتَبُوهَا عَلَى خِلَافِ مَا أُنْزِلَ[٤] ﴿**فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ مِنَ ٱلْمُخْتَلَقِ ﴿**وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ٧٩﴾ مِنَ ٱلرُّشَا[٥]. ﴿**وَقَالُواْ**﴾ لَمَّا وَعَدَهُمُ ٱلنَّبِيُّ ٱلنَّارَ ﴿**لَن تَمَسَّنَا**﴾ تُصِيبَنَا ﴿**ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ قَلِيلَةً أَرْبَعِينَ، مُدَّةَ عِبَادَةِ آبَائِهِمُ ٱلْعِجْلَ، ثُمَّ تَزُولُ[٦] ﴿**قُلْ**﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿**أَتَّخَذْتُمْ**﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ هَمْزَةُ ٱلْوَصْلِ ٱسْتِغْنَاءً بِهَمْزَةِ ٱلِاسْتِفْهَامِ ﴿**عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا**﴾ مِيثَاقًا مِنْهُ بِذَلِكَ ﴿**فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ**ۖ﴾ بِهِ، لَا ﴿**أَمْ**﴾ بَلْ ﴿**تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ٨٠﴾ ﴿**بَلَىٰ**﴾ تَمَسُّكُمْ وَتُخَلَّدُونَ فِيهَا. ﴿**مَن كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ شِرْكًا ﴿**وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ**﴾ بِالْإِفْرَادِ وَٱلْجَمْعِ، أَيِ: ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ

---

(١) الأمي منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن القراءة للمكتوب، ومنه حديث: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ». أخرجه البخاري (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠). [الشوكاني (١/ ١٢٢)].

(٢) وقيل: الأماني التلاوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، أي: إذا تلى ألقى الشيطان في تلاوته، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، وقراءة عارية عن معرفة المعنى. [صديق حسن (١/ ٢٠٧)].

(٣) الويل لفظ دال على الشر أو الهلاك ولم يسمع له فعل من لفظه... قال الفراء إن «ويل» كلمة مركبة من «وي» بمعنى الحزن ومن مجرور باللام المكسورة، فلما كثر استعمال «اللام» مع «وي» صيروهما حرفا واحدا فاختاروا فتح اللام. وهو يستعمل دعاء وتعجبا وزجرا، مثل قولهم: لا أب لك، وثكلتك أمك. ومعنى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: دعاء مستعمل في إنشاء الغضب والزجر. [ابن عاشور (١/ ٥٧٦)].

(٤) القليل فيه تأويلان: أحدهما: ليأخذوا به عرض الدنيا، لأنه قليل المدة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وهذا قول أبي العالية. والثاني: أنه قليل لأنه حرام. [الماوردي (١/ ١٥٢)].

(٥) قيل: من الرشاء ونحوها، وقيل: من المعاصي، وكرر الويل تغليظـًا عليهم وتعظيمـًا لفعلهم وهتكـًا لأستارهم. [الشوكاني (١/ ١٢٣)].

(٦) في البخاري (٣١٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث فتح خيبر وفيه: قال ﷺ لليهود: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيرا، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا».

وَأَحدَقَتْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِأَنْ مَاتَ مُشْرِكًا ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ رُوعِيَ فِيهِ مَعْنَى ﴿مَن﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وَ﴿ وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فِي اَلتَّوْرَاةِ، وَقُلْنَا: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى اَلنَّهْيِ، وَقُرِئَ: ﴿لَا تَعْبُدُوا﴾(١)، ﴿وَ﴾ أَحسِنُوا ﴿بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بِرًّا ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ اَلْقَرَابَةِ، عَطْفٌ عَلَى اَلْوَالِدَيْنِ ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ﴾ قَوْلًا ﴿حَسَنًا﴾ مِنَ اَلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ اَلْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي شَأْنِ مُحَمَّدٍ، وَالرِّفْقِ بِهِمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ اَلْحَاءِ وَسُكُونِ اَلسِّينِ، مَصْدَرٌ وُصِفَ بِهِ مُبَالَغَةً ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فَقَبِلْتُمْ ذَلِكَ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ عَنِ اَلْوَفَاءِ بِهِ، فِيهِ اِلْتِفَاتٌ عَنِ اَلْغَيْبَةِ، وَالْمُرَادُ آبَاؤُهُمْ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ عَنْهُ كَآبَائِكُمْ. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾ وَقُلْنَا: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ تُرِيقُونَهَا بِقَتْلِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ لَا يُخْرِجْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مِنْ دَارِهِ ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ قَبِلْتُمْ ذَلِكَ اَلْمِيثَاقَ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ عَلَى أَنْفُسِكُمْ. ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ يَا ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بِقَتْلِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَّـٰهَرُونَ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلظَّاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّخْفِيفِ عَلَى حَذْفِهَا، تَتَعَاوَنُونَ ﴿عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ﴾ بِالْمَعْصِيَةِ ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ اَلظُّلْمِ ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَسْرَىٰ﴾ ﴿تُفَـٰدُوهُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ ﴿تَفْدُوهُمْ﴾ تُنْقِذُوهُمْ مِنَ اَلْأَسْرِ بِالْمَالِ أَوْ غَيْرِهِ، وَهُوَ مِمَّا عُهِدَ إِلَيْهِمْ ﴿وَهُوَ﴾ أَيِ: اَلشَّأْنُ ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ وَالْجُمْلَةُ بَيْنَهُمَا اِعْتِرَاضٌ، أَيْ: كَمَا حُرِّمَ تَرْكُ اَلْفِدَاءِ. وَكَانَتْ قُرَيْظَةُ حَالَفُوا اَلْأَوْسَ، وَالنَّضِيرُ اَلْخَزْرَجَ، وَكَانَ كُلُّ فَرِيقٍ يُقَاتِلُ مَعَ حُلَفَائِهِ وَيُخَرِّبُ دِيَارَهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ، فَإِذَا أُسِرُوا فَدَوْهُمْ. وَكَانُوا إِذَا سُئِلُوا: لِمَ تُقَاتِلُونَهُمْ وَتَفْدُونَهُمْ؟ قَالُوا: أُمِرْنَا بِالْفِدَاءِ، فَيُقَالُ: فَلِمَ تُقَاتِلُونَهُمْ؟ فَيَقُولُونَ حَيَاءً أَنْ يُسْتَذَلَّ حُلَفَاؤُنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وَهُوَ اَلْفِدَاءُ ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وَهُوَ تَرْكُ اَلْقَتْلِ وَالْإِخْرَاجِ وَالْمُظَاهَرَةِ ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ﴾ هَوَانٌ وَذُلٌّ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ وَقَدْ خُزُوا بِقَتْلِ قُرَيْظَةَ، وَنَفْيِ اَلنَّضِيرِ إِلَى اَلشَّامِ، وَضَرْبِ اَلْجِزْيَةِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ﴾ بِأَنْ آثَرُوهَا عَلَيْهَا ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ يُمْنَعُونَ مِنْهُ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ اَلتَّوْرَاةَ ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾

---

(١) وهي قراءة شاذة، والغالب في قول الجلالين: «قرئ» إشارة إلى القراءة الشاذة، و«في قراءة» للسبعية.

أَيْ: أَتْبَعْنَاهُمْ رَسُولًا فِي إِثْرِ رَسُولٍ ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ، كَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قَوَّيْنَاهُ ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ، أَيِ: الرُّوحِ الْمُقَدَّسَةِ جِبْرِيلَ لِطَهَارَتِهِ، يَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ، فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ﴾ تُحِبُّ ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ مِنَ الْحَقِّ ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تَكَبَّرْتُمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ، جَوَابُ «كُلَّمَا» وَهُوَ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ، وَالْمُرَادُ بِهِ التَّوْبِيخُ ﴿فَفَرِيقًا﴾ مِنْهُمْ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كَعِيسَى ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ الْمُضَارِعُ لِحِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ، أَيْ: قَتَلْتُمْ، كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى. ﴿وَقَالُواْ﴾ لِلنَّبِيِّ اسْتِهْزَاءً: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جَمْعُ «أَغْلَفَ»، أَيْ: مُغَشَّاةٌ بِأَغْطِيَةٍ فَلَا تَعِي مَا تَقُولُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَل﴾ لِلْإِضْرَابِ ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ، وَخَذَلَهُمْ عَنِ الْقَبُولِ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ وَلَيْسَ عَدَمُ قَبُولِهِمْ لِخَلَلٍ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ مَا: زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ الْقِلَّةِ، أَيْ: إِيمَانُهُمْ قَلِيلٌ جِدًّا[1]. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَهُوَ: الْقُرْآنُ ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ قَبْلَ مَجِيئِهِ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يَسْتَنْصِرُونَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ انْصُرْنَا عَلَيْهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ آخِرَ الزَّمَانِ» ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ مِنَ الْحَقِّ، وَهُوَ بِعْثَةُ النَّبِيِّ ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ حَسَدًا وَخَوْفًا عَلَى الرِّيَاسَةِ، وَجَوَابُ ﴿لَمَّا﴾ الْأُولَى دَلَّ عَلَيْهِ جَوَابُ الثَّانِيَةِ ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ﴾ بَاعُوا ﴿بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أَيْ: حَظَّهَا مِنَ الثَّوَابِ، وَ«مَا» نَكِرَةٌ بِمَعْنَى: «شَيْئًا»، تَمْيِيزٌ لِفَاعِلِ «بِئْسَ»، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ ﴿أَن يَكْفُرُواْ﴾ أَيْ: كُفْرُهُمْ ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿بَغْيًا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، لِـ ﴿يَكْفُرُواْ﴾ أَيْ: حَسَدًا عَلَى ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ الْوَحْيِ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ لِلرِّسَالَةِ ﴿مِنْ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو﴾ رَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ مِنَ اللهِ بِكُفْرِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ، وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّعْظِيمِ ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ اسْتَحَقُّوهُ مِنْ قَبْلُ، بِتَضْيِيعِ التَّوْرَاةِ وَالْكُفْرِ بِعِيسَى ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أَيِ: التَّوْرَاةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ الْوَاوُ لِلْحَالِ ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ سِوَاهُ، أَوْ بَعْدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ حَالٌ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حَالٌ ثَانِيَةٌ مُؤَكِّدَةٌ ﴿لِّمَا مَعَهُمْۗ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أَيْ: قَتَلْتُمْ ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ بِالتَّوْرَاةِ، وَقَدْ نُهِيتُمْ فِيهَا عَنْ قَتْلِهِمْ،

---

(١) ويجوز أن يكون «قليلا» هنا مستعملا في معنى العدم فإن القلة تستعمل في العدم في كلام العرب، ... يقولون فلان قليل الحياء وذلك إما مجاز لأن القليل شبه بالعدم، وإما كناية وهو أظهر؛ لأن الشيء إذا قل آل إلى الاضمحلال فكان الانعدام لازما عرفيا للقلة ادعائيا فتكون ما مصدرية ... قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] فالمعنى نفي التذكير. [ابن عاشور (١/ ٦٠٠)].

وَالْخِطَابُ لِلْمَوْجُودِينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُهُمْ لِرِضَاهُمْ بِهِ. ﴿۞وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ: كَالْعَصَا، وَالْيَدِ، وَفَلْقِ الْبَحْرِ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إِلَهًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أَيْ: بَعْدِ ذَهَابِهِ إِلَى الْمِيقَاتِ ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ بِاتِّخَاذِهِ. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ الْجَبَلَ حِينَ امْتَنَعْتُمْ مِنْ قَبُولِهَا لِيَسْقُطَ عَلَيْكُمْ، وَقُلْنَا: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ قَوْلَكَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أَمْرَكَ ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أَيْ: خَالَطَ حُبُّهُ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُخَالِطُ الشَّرَابُ ﴿بِكُفْرِهِمْ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿بِئْسَمَا﴾ شَيْئًا ﴿يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ بِالتَّوْرَاةِ عِبَادَةَ الْعِجْلِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ بِهَا كَمَا زَعَمْتُمْ، الْمَعْنَى: لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَأْمُرُ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَالْمُرَادُ آبَاؤُهُمْ، أَيْ: فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ بِالتَّوْرَاةِ وَقَدْ كَذَّبْتُمْ مُحَمَّدًا، وَالْإِيمَانُ بِهَا لَا يَأْمُرُ بِتَكْذِيبِهِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ أَيِ: الْجَنَّةُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ خَاصَّةً ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ كَمَا زَعَمْتُمْ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ تَعَلَّقَ بِـ «تَمَنَّوُا» الشَّرْطَانِ، عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ قَيْدٌ فِي الثَّانِي، أَيْ: إِنْ صَدَقْتُمْ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّهَا لَكُمْ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ يُؤْثِرُهَا وَالْمُوصِلُ إِلَيْهَا الْمَوْتُ فَتَمَنَّوْهُ. ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ كُفْرِهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمُسْتَلْزِمِ لِكَذِبِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الْكَافِرِينَ فَيُجَازِيهِمْ. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَ﴾ أَحْرَصَ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ عَلَيْهَا، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَصِيرَهُمُ النَّارُ دُونَ الْمُشْرِكِينَ لِإِنْكَارِهِمْ لَهُ ﴿يَوَدُّ﴾ يَتَمَنَّى ﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ﴿لَوْ﴾: مَصْدَرِيَّةٌ بِمَعْنَى: أَنْ، وَهِيَ بِصِلَتِهَا فِي تَأْوِيلِ مَصْدَرٍ مَفْعُولُ ﴿يَوَدُّ﴾ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أَيْ: أَحَدُهُمْ ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ مُبْعِدِهِ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ النَّارِ ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فَاعِلُ «مُزَحْزِحِهِ»، أَيْ: تَعْمِيرُهُ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ فَيُجَازِيهِمْ. وَسَأَلَ ابْنُ صُورِيَا النَّبِيَّ أَوْ عُمَرَ[1] عَمَّنْ يَأْتِي بِالْوَحْيِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ: جِبْرِيلُ، فَقَالَ: هُوَ عَدُوُّنَا يَأْتِي بِالْعَذَابِ، وَلَوْ كَانَ مِيكَائِيلَ لَآمَنَّا؛ لِأَنَّهُ يَأْتِي بِالْخِصْبِ وَالسِّلْمِ. فَنَزَلَ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ فَلْيَمُتْ غَيْظًا ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ﴾ بِأَمْرِ[2] ﴿ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ

---

(١) أجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود. [الطبري (١/ ٣١١)].

(٢) المقصود: أن الله سبحانه وكل بالعالم العلوي والسفلى ملائكة، فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشيئته وأمره، فلهذا يضيف التدبير إلى الملائكة تارة، لكونهم هم المباشرين للتدبير، كقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]. ويضيف التدبير إليه كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، فهو المدبر أمرًا وإذنًا ومشيئةً، والملائكة

اَلضَّلَالَةِ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ بِكَسْرِ الْجِيمِ وَفَتْحِهَا بِلَا هَمْزٍ، وَبِهِ بِيَاءٍ وَدُونِهَا ﴿وَمِيكَىٰلَ﴾ عُطِفَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بِهَمْزَةٍ وَيَاءٍ، وَفِي أُخْرَى بِلَا يَاءٍ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أَوْقَعَهُ مَوْقِعَ «لَهُمْ» بَيَانًا لِحَالِهِمْ. ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أَيْ: وَاضِحَاتٍ حَالٌ، رَدًّا لِقَوْلِ ابْنِ صُورِيَا لِلنَّبِيِّ: «مَا جِئْتَنَا بِشَيْءٍ» ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ كَفَرُوا بِهَا[1]. ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟﴾ اللهَ ﴿عَهْدًا﴾ عَلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ إِنْ خَرَجَ، أَوِ النَّبِيِّ أَنْ لَا يُعَاوِنُوا عَلَيْهِ الْمُشْرِكِينَ ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ طَرَحَهُ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ بِنَقْضِهِ، جَوَابُ ﴿كُلَّمَا﴾ وَهُوَ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ﴿بَلْ﴾ لِلِانْتِقَالِ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: التَّوْرَاةَ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أَيْ: لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ وَغَيْرِهِ ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ مَا فِيهَا مِنْ أَنَّهُ نَبِيٌّ حَقٌّ، أَوْ أَنَّهَا كِتَابُ اللهِ. ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿نَبَذَ﴾ ﴿مَا تَتْلُوا۟﴾ أَيْ: تَلَتِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ﴾ عَهْدِ ﴿مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ مِنَ السِّحْرِ، وَكَانَتْ دَفَنَتْهُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ لَمَّا نُزِعَ مُلْكُهُ، أَوْ كَانَتْ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ وَتَضُمُّ إِلَيْهِ أَكَاذِيبَ وَتُلْقِيهِ إِلَى الْكَهَنَةِ فَيُدَوِّنُونَهُ، وَفَشَا ذَلِكَ وَشَاعَ أَنَّ الْجِنَّ تَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَجَمَعَ سُلَيْمَانُ الْكُتُبَ وَدَفَنَهَا، فَلَمَا مَاتَ دَلَّتِ الشَّيَاطِينُ عَلَيْهَا النَّاسَ فَاسْتَخْرَجُوهَا فَوَجَدُوا فِيهَا السِّحْرَ، فَقَالُوا إِنَّمَا مَلَكَكُمْ بِهَذَا، فَتَعَلَّمُوهُ وَرَفَضُوا كُتُبَ أَنْبِيَائِهِمْ. قَالَ تَعَالَى تَبْرِئَةً لِسُلَيْمَانَ، وَرَدًّا عَلَى الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ: «انْظُرُوا إِلَى مُحَمَّدٍ يَذْكُرُ سُلَيْمَانَ فِي الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا كَانَ إِلَّا سَاحِرًا»: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أَيْ: لَمْ يَعْمَلِ السِّحْرَ؛ لِأَنَّهُ كُفْرٌ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ

المدبرات مباشرة وامتثالًا. [إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ١٣٠)]. وظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ من غير سماع قراءة، ونظيرها في ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤] ولكنه بين في مواضع أخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى تنزيله على قلبه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦- ١٩]. [الشنقيطي (١/ ٩٨)].

(١) أي: المتمردون من الكفرة، واللام للعهد، أي: الفاسقون المعهودون، وهم اليهود. أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولا أوليا. [القاسمي (١/ ٣٦١)].

﴿كَفَرُواْ﴾ ﴿وَ﴾ يُعَلِّمُونَهُمْ ﴿مَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ أَيْ: أُلْهِمَاهُ مِنَ اَلسِّحْرِ، وَقُرِئَ: بِكَسْرِ اَللَّامِ(١)، اَلْكَائِنَيْنِ ﴿بِبَابِلَ﴾ بَلَدٍ فِي سَوَادِ اَلْعِرَاقِ ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ لِلْمَلَكَيْنِ، قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا سَاحِرَانِ كَانَا يُعَلِّمَانِ اَلسِّحْرَ، وَقِيلَ: مَلَكَانِ أُنْزِلَا لِتَعْلِيمِهِ اِبْتِلَاءً مِنَ اَللهِ لِلنَّاسِ(٢) ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ لَهُ

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ في الكلام تقديم وتأخير والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل. ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ فهاروت وماروت بدل من الشياطين على قراءة التشديد والنصب في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ ... وأما على قراءة التخفيف والرفع فهو منصوب على الذم وهو بدل بعض ... وقال ابن جرير فإن قال لنا القائل: وكيف وجه تقديم ذلك، قيل: تقديمه أن يقال واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وإن الذي يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم انتهى، يعني أنه بدل من الناس، أي: يعلمان الناس خصوصاً هاروت وماروت. وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه: هذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الأنس النساء وخاصة في حال طمثهن، قال الله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]. ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنان بدلاً من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن: «الملِكين» بكسر اللام، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على ألسن ملائكته، وعندي أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر، فإن لله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ويؤيده ما قال أبو السعود أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلام، فإن الابدال في حكم تنحية المبدل منه. وقال: هاروت وماروت عطف بيان للملكين علمان لهما، وقرىء بالرفع على هما هاروت وماروت. انتهى المراد منه. قال ابن جرير: وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان. [صديق حسن]. وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل ابن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين، من المتقدمين والمتأخرين. وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق

نُصْحًا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ بَلِيَّةٌ مِنَ اللهِ لِلنَّاسِ لِيَمْتَحِنَهُمْ بِتَعْلِيمِهِ، فَمَنْ تَعَلَّمَهُ كَفَرَ، وَمَنْ تَرَكَهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ بِتَعَلُّمِهِ، فَإِنْ أَبَى إِلَّا التَّعْلِيمَ عَلَّمَاهُ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ بِأَنْ يُبَغِّضَ كُلًّا إِلَى الْآخَرِ ﴿وَمَا هُم﴾ أَيِ: السَّحَرَةُ ﴿بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ بِالسِّحْرِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ(١) ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وَهُوَ السِّحْرُ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أَيِ: الْيَهُودُ ﴿لَمَنِ﴾ لَامُ ابْتِدَاءٍ مُعَلِّقَةٍ لِمَا قَبْلَهَا، وَ«مَنْ» مَوْصُولَةٍ ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ اخْتَارَهُ، أَوِ اسْتَبْدَلَهُ بِكِتَابِ اللهِ ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ نَصِيبٍ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَلَبِئْسَمَا﴾ شَيْئًا ﴿شَرَوْا۟﴾ بَاعُوا ﴿بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ أَيِ: الشَّارِينَ، أَيْ: حَظَّهَا مِنَ الْآخِرَةِ إِنْ تَعَلَّمُوهُ، حَيْثُ أَوْجَبَ لَهُمُ النَّارَ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ حَقِيقَةَ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا تَعَلَّمُوهُ. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بِالنَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ عِقَابَ اللهِ بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ كَالسِّحْرِ، وَجَوَابُ «لَوْ» مَحْذُوفٌ، أَيْ: لَأُثِيبُوا، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ ثَوَابٌ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَاللَّامُ فِيهِ لِلْقَسَمِ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ خَبَرُهُ، مِمَّا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ لَمَا آثَرُوهُ عَلَيْهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟﴾ لِلنَّبِيِّ ﴿رَٰعِنَا﴾ أَمْرٌ مِنَ الْمُرَاعَاةِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ ذَلِكَ، وَهِيَ بِلُغَةِ الْيَهُودِ سَبٌّ مِنَ «الرُّعُونَةِ»، فَسُرُّوا بِذَلِكَ وَخَاطَبُوا بِهَا النَّبِيَّ، فَنُهِيَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْهَا ﴿وَقُولُوا۟﴾ بَدَلَهَا: ﴿ٱنظُرْنَا﴾ أَيِ: انْظُرْ إِلَيْنَا ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ مُؤْلِمٌ هُوَ النَّارُ. ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مِنَ الْعَرَبِ، عُطِفَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَ﴿مِنْ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿أَن

المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال. [ابن كثير (١/ ٣٥١)].

(١) في هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين. ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] فهذا السحر مضرة محضة، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها. كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها. [السعدي (ص:٦١)].

﴿يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿خَيْرٍ﴾ وَحْيٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حَسَدًا لَكُمْ ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ بِنُبُوَّتِهِ(١) ﴿مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾. وَلَمَّا طَعَنَ الْكُفَّارُ فِي النَّسْخِ، وَقَالُوا: «إِنَّ مُحَمَّدًا يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ وَيَنْهَى عَنْهُ غَدًا»، نَزَلَ: ﴿۞مَا﴾ شَرْطِيَّةٌ ﴿نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أَيْ: نُزِلْ حُكْمَهَا، إِمَّا مَعَ لَفْظِهَا أَوْ لَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ النُّونِ مِنْ «أَنْسَخَ»، أَيْ: نَأْمُرُكَ، أَوْ جِبْرِيلَ بِنَسْخِهَا ﴿أَوْ نَنسَأْهَا﴾ نُؤَخِّرْهَا فَلَا نُزِلُ حُكْمَهَا وَنَرْفَعُ تِلَاوَتَهَا، أَوْ نُؤَخِّرُهَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ(٢)، وَفِي قِرَاءَةٍ بِلَا هَمْزٍ مِنَ النِّسْيَانِ، أَيْ: نُنْسِكَهَا، أَيْ: نَمْحُهَا مِنْ قَلْبِكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أَنْفَعَ لِلْعِبَادِ فِي السُّهُولَةِ، أَوْ كَثْرَةِ الْأَجْرِ ﴿أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ فِي التَّكْلِيفِ وَالثَّوَابِ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ وَمِنْهُ النَّسْخُ وَالتَّبْدِيلُ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ يَفْعَلُ فِيهِمَا مَا يَشَاءُ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿وَلِيٍّ﴾ يَحْفَظُكُمْ ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ يَمْنَعُ عَذَابَهُ عَنْكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ. وَنَزَلَ لَمَّا سَأَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُوسِعَهَا وَيَجْعَلَ الصَّفَا ذَهَبًا: ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ أَيْ: سَأَلَهُ قَوْمُهُ ﴿مِن قَبْلُۗ﴾ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أَيْ: يَأْخُذْهُ بَدَلَهُ، بِتَرْكِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَاقْتِرَاحِ غَيْرِهَا ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْحَقَّ، وَالسَّوَاءُ فِي الْأَصْلِ: الْوَسَطُ. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، كَائِنًا ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أَيْ: حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهِ أَنْفُسُهُمُ الْخَبِيثَةُ ﴿مِّنۢ

---

(١) وقيل: جنس الرحمة من غير تعيين، كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى: ﴿مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشوكاني (١/ ١٤٦)]. والفضل: ابتداء إحسان بلا علة. [البغوي (١/ ١٣٣)].

(٢) النسخ في كلام العرب على وجهين: أحدهما: النقل، كنقل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً أعني من اللوح المحفوظ، ولا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية ومنه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمر بنسخه. الثاني: الإبطال والإزالة، وهو المقصود هنا، وهذا القسم الثاني ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة: أحدهما: إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه، ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ وفي صحيح مسلم (٥٢٧٢): «لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ». أي: تحولت من حال إلى حال. والثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يزيله، وروي عن أبي عبيد أن هذا قد كان يقع في زمن رسول الله ﷺ فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب، ومنه ما روي عن أُبي وعائشة رضي الله عنهما أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول. وقال ابن جرير معنى ما ننسخ: ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يحول الحلال حراماً والحرام حلالاً والمباح محظوراً والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الإخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. [الشوكاني (١/ ١٤٧)].

﴿بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ فِي اَلتَّوْرَاةِ ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ فِي شَأْنِ اَلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَٱعۡفُواْ﴾ عَنْهُمْ، أَيِ: اُتْرُكُوهُمْ ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ أَعْرِضُوا فَلَا تُجَازُوهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ فِيهِمْ مِنَ اَلْقِتَالِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ طَاعَةٍ، كَصِلَةٍ وَصَدَقَةٍ ﴿تَجِدُوهُ﴾ أَيْ: ثَوَابَهُ ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ جَمْعُ «هَائِدٍ» ﴿أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ قَالَ ذَلِكَ يَهُودُ اَلْمَدِينَةِ وَنَصَارَى نَجْرَانَ، لَمَّا تَنَاظَرُوا بَيْنَ يَدَيِ اَلنَّبِيِّ ﷺ، أَيْ: قَالَ اَلْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا اَلْيَهُودُ، وَقَالَ اَلنَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا اَلنَّصَارَى ﴿تِلۡكَ﴾ اَلْقَوْلَةُ ﴿أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ شَهَوَاتُهُمُ اَلْبَاطِلَةُ ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ حُجَّتَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ فِيهِ. ﴿بَلَىٰ﴾ يَدْخُلُ اَلْجَنَّةَ غَيْرُهُمْ ﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أَيِ: اِنْقَادَ لِأَمْرِهِ، وَخَصَّ اَلْوَجْهَ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ اَلْأَعْضَاءِ فَغَيْرُهُ أَوْلَى ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ مُوَحِّدٌ[1] ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أَيْ: ثَوَابُ عَمَلِهِ اَلْجَنَّةُ ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ فِي اَلْآخِرَةِ. ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ مُعْتَدٍّ بِهِ، وَكَفَرَتْ بِعِيسَى ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ مُعْتَدٍّ بِهِ، وَكَفَرَتْ بِمُوسَى ﴿وَهُمۡ﴾ أَيِ: اَلْفَرِيقَانِ ﴿يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ اَلْمُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ، وَفِي كِتَابِ اَلْيَهُودِ تَصْدِيقُ عِيسَى، وَفِي كِتَابِ اَلنَّصَارَى تَصْدِيقُ مُوسَى، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أَيِ: اَلْمُشْرِكُونَ مِنَ اَلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ بَيَانٌ لِمَعْنَى «ذَلِكَ»، أَيْ: قَالُوا لِكُلِّ ذِي دِينٍ: لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ مِنْ أَمْرِ اَلدِّينِ، فَيُدْخِلُ اَلْمُحِقَّ اَلْجَنَّةَ وَالْمُبْطِلَ اَلنَّارَ. ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ بِالْهَدْمِ أَوِ اَلتَّعْطِيلِ، نَزَلَتْ إِخْبَارًا عَنِ اَلرُّومِ اَلَّذِينَ خَرَّبُوا بَيْتَ اَلْمَقْدِسِ، أَوْ فِي اَلْمُشْرِكِينَ لَمَّا صَدُّوا اَلنَّبِيَّ ﷺ عَامَ اَلْحُدَيْبِيَةِ عَنِ اَلْبَيْتِ[2] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى اَلْأَمْرِ، أَيْ: أَخِيفُوهُمْ بِالْجِهَادِ، فَلَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ آمِنًا ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ هَوَانٌ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَالْجِزْيَةِ ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾ هُوَ اَلنَّارُ. وَنَزَلَ لَمَّا

(١) أي: متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصا لله وحده. والآخر: أن يكون صوابا موافقا للشريعة. فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ». أخرجه البخاري (٢٦٩٧) بنحوه، ومسلم (١٧١٨). [ابن كثير (١/ ٣٨٥)].

(٢) وقيل: المراد من ﴿مَّنَعَ﴾ من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح، لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف. [القرطبي (٢/ ٧٧)].

طَعَنَ ٱلْيَهُودُ فِي نَسْخِ ٱلْقِبْلَةِ، أَوْ فِي صَلَاةِ ٱلنَّافِلَةِ عَلَى ٱلرَّاحِلَةِ فِي ٱلسَّفَرِ حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ**﴾ أَيِ: ٱلْأَرْضُ كُلُّهَا لِأَنَّهُمَا نَاحِيَتَاهَا ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ**﴾ وُجُوهَكُمْ فِي ٱلصَّلَاةِ بِأَمْرِهِ ﴿**فَثَمَّ**﴾ هُنَاكَ ﴿**وَجْهُ ٱللَّهِ**﴾ قِبْلَتُهُ ٱلَّتِي رَضِيَهَا[1] ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ**﴾ يَسَعُ فَضْلُهُ كُلَّ شَيْءٍ[2] ﴿**عَلِيمٌ ١١٥**﴾ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ. ﴿**وَقَالُواْ**﴾ بِوَاوٍ وَبِدُونِهَا، أَيْ: ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَى وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ ٱلْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ ٱللهِ ﴿**ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ**﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿**سُبْحَٰنَهُۥۖ**﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنْهُ ﴿**بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ**﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا، وَالْمِلْكِيَّةُ تُنَافِي ٱلْوِلَادَةَ، وَعَبَّرَ بِـ﴿مَا﴾ تَغْلِيبًا لِمَا لَا يَعْقِلُ ﴿**كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦**﴾ مُطِيعُونَ كُلٌّ بِمَا يُرَادُ مِنْهُ، وَفِيهِ تَغْلِيبُ ٱلْعَاقِلِ. ﴿**بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ**﴾ مُوجِدُهُمْ لَا عَلَى مِثَالٍ سَبَقَ ﴿**وَإِذَا قَضَىٰٓ**﴾ أَرَادَ ﴿**أَمْرًا**﴾ أَيْ: إِيجَادَهُ ﴿**فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧**﴾ أَيْ: فَهُوَ يَكُونُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ جَوَابًا لِلْأَمْرِ. ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿**لَوْلَا**﴾ هَلَّا ﴿**يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ**﴾ أَنَّكَ رَسُولُهُ ﴿**أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ**﴾ مِمَّا ٱقْتَرَحْنَاهُ عَلَى صِدْقِكَ ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ ﴿**قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم**﴾ مِنْ كُفَّارِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمَاضِيَةِ لِأَنْبِيَائِهِمْ ﴿**مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ**﴾ مِنَ ٱلتَّعَنُّتِ وَطَلَبِ ٱلْآيَاتِ ﴿**تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ**﴾ فِي ٱلْكُفْرِ وَٱلْعِنَادِ، فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿**قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨**﴾ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا آيَاتٌ فَيُؤْمِنُونَ، فَٱقْتِرَاحُ آيَةٍ مَعَهَا تَعَنُّتٌ. ﴿**إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ**﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿**بِٱلْحَقِّ**﴾ بِالْهُدَى ﴿**بَشِيرًا**﴾ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ بِالْجَنَّةِ ﴿**وَنَذِيرًاۖ**﴾ مَنْ لَمْ يُجِبْ إِلَيْهِ بِالنَّارِ ﴿**وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩**﴾ ٱلنَّارِ، أَيِ: ٱلْكُفَّارِ مَا لَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا؟ إِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِجَزْمِ ﴿تَسْـَٔلْ﴾ نَهْيًا. ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ**

---

(١) تعدَّدت أقوال أهل العلم في المراد بلفظ «وجه» في هذه الآية على أقوال أهمها ما يلي: القول الأول: أن هذه الآية من نصوص الصفات، والمراد بالوجه هنا صفة الله على الوجه اللائق به، وممن قال بهذا القول: أحمد بن حنبل، والدارمي، وابن خزيمة، والأصبهاني، وابن عبدالبر، والسمعاني، وابن القيم، والسفاريني، والسعدي، وأكثر مثبتة الصفات. قال ابن القيم: الصحيح في قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ أنه كقوله في سائر الآيات التي ذكر فيها الوجه، فإنه قد اطَّرد مجيئه في القرآن والسنة مضافًا إلى الرَّبِّ تعالى، على طريقة واحدة، ومعنى واحد، وهذا لا يتعيَّن حملُه على القِبْلة والجهة، ولا يمتنع أن يُرادَ به وجْهُ الرَّبِّ حقيقةً، فحملُه على غير القِبْلة كنظائره كلِّها أولى. [مختصر الصواعق؛ للموصلي (٣/ ١٠١١)]. القول الثاني: أن هذه الآية المراد بها القِبْلة والوِجْهة، وممَّن قال بهذا القول: مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة، ومقاتل، والشافعي، وابن تيمية، والشوكاني، وجمهور السلف، ويُنسَب هذا القول لابن عباس رضي الله عنهما. ومما استدلوا به: السياق حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾، والمشرق والمغرب الجهات، والوَجْه هو الجهة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: ١٤٨]. تنبيه: اختلاف السلف في معنى الوجه في هذه الآية لا يعني اختلافهم في اثبات صفة الوجه بل هم مجمعون على إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالى بأدلة أخرى.

(٢) أي: واسع الفضل والصفات عظيمها. [السعدي (ص:٦٣)].

عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ دِينَهُمْ ﴿**قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ**﴾ أَيِ: الْإِسْلَامَ ﴿**هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ**﴾ وَمَا عَدَاهُ ضَلَالٌ[1] ﴿**وَلَئِنِ**﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿**ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم**﴾ الَّتِي يَدْعُونَكَ إِلَيْهَا فَرْضًا ﴿**بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ**﴾ الْوَحْيِ مِنَ اللهِ ﴿**مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ**﴾ يَحْفَظُكَ ﴿**وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠**﴾ يَمْنَعُكَ مِنْهُ. ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ**﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿**يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ**﴾ أَيْ: يَقْرَؤُونَهُ كَمَا أُنْزِلَ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ، وَ﴿حَقَّ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَالْخَبَرُ ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ**﴾ نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ وَأَسْلَمُوا ﴿**وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ**﴾ أَيْ: بِالْكِتَابِ الْمُؤْتَى بِأَنْ يُحَرِّفَهُ ﴿**فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١**﴾ لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿**يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢**﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ[2]. ﴿**وَٱتَّقُواْ**﴾ خَافُوا ﴿**يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي**﴾ تُغْنِي ﴿**نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ**﴾ فِيهِ ﴿**شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ**﴾ فِدَاءٌ ﴿**وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣**﴾ يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ. ﴿*وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿**إِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ**﴾ اخْتَبَرَ ﴿**إِبۡرَٰهِـۧمَ**﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿إِبْرَاهَامَ﴾ ﴿**رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ**﴾ بِأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ كَلَّفَهُ بِهَا، قِيلَ: هِيَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ، وَقِيلَ: الْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ وَالسِّوَاكُ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَفَرْقُ الشَّعْرِ وَقَلْمُ الْأَظْفَارِ وَنَتْفُ الْإِبْطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَالْخِتَانُ وَالِاسْتِنْجَاءُ[3] ﴿**فَأَتَمَّهُنَّۖ**﴾ أَدَّاهُنَّ تَامَّاتٍ ﴿**قَالَ**﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ**﴾ قُدْوَةً فِي الدِّينِ ﴿**قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ**﴾ أَوْلَادِي اجْعَلْ أَئِمَّةً ﴿**قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي**﴾ بِالْإِمَامَةِ ﴿**ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤**﴾ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَنَالُ غَيْرَ الظَّالِمِ. ﴿**وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ**﴾ الْكَعْبَةَ ﴿**مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ**﴾ مَرْجِعًا يَثُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿**وَأَمۡنٗا**﴾ مَأْمَنًا لَهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِغَارَاتِ الْوَاقِعَةِ فِي غَيْرِهِ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ فِيهِ فَلَا يُهَيِّجُهُ ﴿**وَٱتَّخِذُواْ**﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿**مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ**﴾ هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ ﴿**مُصَلّٗىۖ**﴾ مَكَانَ صَلَاةٍ بِأَنْ تُصَلُّوا خَلْفَهُ رَكْعَتَيِ الطَّوَافِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْخَاءِ خَبَرٌ ﴿**وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ**﴾ أَمَرْنَاهُمَا ﴿**أَن**﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿**طَهِّرَا بَيۡتِيَ**﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿**لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ**﴾ الْمُقِيمِينَ فِيهِ ﴿**وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥**﴾ جَمْعِ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ، الْمُصَلِّينَ. ﴿**وَإِذۡ قَالَ**

---

(١) فيه النهي العظيم، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. [السعدي (ص:٦٤)].

(٢) أي: في الآيتين (٤٧،٤٨) من سورة البقرة.

(٣) وقد اختلف العلماء في تعيين الكلمات فقيل هي: شرائع الإسلام، وقيل: ذبح ابنه، وقيل: أداء الرسالة، وقيل: هي خصال الفطرة، وقيل: قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾، وقيل: الطهارة، قال الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن هذا كله مما ابتلي به إبراهيم انتهى، وظاهر النظم القرآني أن الكلمات هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وما بعده، ويكون ذلك بيانـًا للكلمات. [الشوكاني (١/ ١٦١)].

﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا﴾ الْمَكَانَ ﴿بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ ذَا أَمْنٍ، وَقَدْ أَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، فَجَعَلَهُ حَرَمًا لَا يُسْفَكُ فِيهِ دَمُ إِنْسَانٍ وَلَا يُظْلَمُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُصَادُ صَيْدُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وَقَدْ فَعَلَ بِنَقْلِ الطَّائِفِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَقْفَرَ لَا زَرْعَ فِيهِ وَلَا مَاءَ(١) ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿أَهۡلَهُۥ﴾، وَخَصَّهُمْ بِالدُّعَاءِ لَهُمْ مُوَافَقَةً لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿وَ﴾ أَرْزُقُ ﴿مَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ، فِي الدُّنْيَا بِالرِّزْقِ ﴿قَلِيلٗا﴾ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ﴾ أُلْجِئُهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ﴾ فَلَا يَجِدُ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ الْمَرْجِعُ هِيَ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ﴾ الْأُسُسَ أَوِ الْجُدُرَ ﴿مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ يَبْنِيهِ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿يَرۡفَعُ﴾، ﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾، يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ بِنَاءَنَا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ بِالْفِعْلِ. ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ﴾ مُنْقَادَيْنِ ﴿لَكَ وَ﴾ اِجْعَلْ ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ أَوْلَادِنَا ﴿أُمَّةٗ﴾ جَمَاعَةً ﴿مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ وَ﴿مِن﴾ لِلتَّبْعِيضِ، وَأَتَى بِهِ لِتَقَدُّمِ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿وَأَرِنَا﴾ عَلِّمْنَا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ شَرَائِعَ عِبَادَتِنَا، أَوْ حَجِّنَا ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ سَأَلَاهُ التَّوْبَةَ مَعَ عِصْمَتِهِمَا، تَوَاضُعًا وَتَعْلِيمًا لِذُرِّيَّتِهِمَا. ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾ أَيْ: أَهْلِ الْبَيْتِ ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَقَدْ أَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أَيْ: مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ(٢) ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۖ﴾ يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشِّرْكِ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَمَن﴾ أَيْ: لَا ﴿يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ فَيَتْرُكُهَا ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ جَهِلَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ يَجِبُ عَلَيْهَا عِبَادَتُهُ، أَوِ اسْتَخَفَّ بِهَا وَامْتَهَنَهَا ﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾ اِخْتَرْنَاهُ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ بِالرِّسَالَةِ وَالْخُلَّةِ ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ

---

(١) عن محمد بن المُنكَدِر، عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا وضع الله الحرمَ نَقَلَ له الطائفَ من الشام». أخرجه الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٧٧ مرسلًا فهو ضعيف لا يحتج به، قال الشيخ عبد الرحمن البراك: يبدو أن هذه خرافة، والصواب: أن الله أجاب دعاءه بأن جعل الثمار تجبى إليه من كل مكان؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]. [التعليق والإيضاح للبراك (١ / ٢٦٩)] وثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ البَرَكَةِ». أخرجه البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩).

(٢) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: معاني الكتاب من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام الشرعية. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: ويعلمهم الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل، ووضع كل شيء موضعه، والمراد بالحكمة هنا المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم للشريعة، وقال قتادة: هي السنة. [صديق حسن (١/ ٢٨٥)].

﴿١٣٠﴾ اَلَّذِينَ لَهُمُ اَلدَّرَجَاتُ اَلْعُلَى. اذكُرْ ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ﴾ اِنْقَدْ لِلَّهِ وَأَخْلِصْ لَهُ دِينَكَ ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَوْصَىٰ﴾ ﴿بِهَآ﴾ بِالْمِلَّةِ ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ بَنِيهِ[1]، قَالَ: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ دِينَ اَلْإِسْلَامِ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ نَهى عَنْ تَرْكِ اَلْإِسْلَامِ وَأَمَرَ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ إِلَى مُصَادَفَةِ اَلْمَوْتِ. وَلَمَّا قَالَ اَلْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ يَعْقُوبَ يَوْمَ مَاتَ أَوْصَى بَنِيهِ بِالْيَهُودِيَّةِ؟ نَزَلَ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حُضُورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِيۖ﴾ بَعْدَ مَوْتِي؟ ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ عَدُّ إِسْمَاعِيلَ مِنَ اَلْآبَاءِ تَغْلِيبٌ، وَلِأَنَّ اَلْعَمَّ بِمَنْزِلَةِ اَلْأَبِ ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِلَٰهَكَ﴾، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ وَ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى: هَمْزَةِ اَلْإِنْكَارِ، أَيْ: لَمْ تَحْضُرُوهُ وَقْتَ مَوْتِهِ، فَكَيْفَ تَنْسُبُونَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ؟ ﴿تِلْكَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِمَا، وَأُنِّثَ لِتَأْنِيثِ خَبَرِهِ ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ﴾ سَلَفَتْ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ مِنَ اَلْعَمَلِ، أَيْ: جَزَاؤُهُ، اِسْتِئْنَافٌ ﴿وَلَكُم﴾ اَلْخِطَابُ لِلْيَهُودِ ﴿مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ كَمَا لَا يُسْأَلُونَ عَنْ عَمَلِكُمْ، وَالْجُمْلَةُ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهَا. ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ﴾ أَوْ لِلتَّفْصِيلِ، وَقَائِلُ اَلْأَوَّلِ يَهُودُ اَلْمَدِينَةِ، وَالثَّانِي نَصَارَى نَجْرَانَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿بَلْ﴾ نَتَّبِعُ ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾ حَالٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، مَائِلًا عَنِ اَلْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى اَلدِّينِ اَلْقَيِّمِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ﴾ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ مِنَ اَلْقُرْآنِ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ مِنَ اَلصُّحُفِ اَلْعَشْرِ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أَوْلَادِهِ ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ مِنَ اَلتَّوْرَاةِ ﴿وَعِيسَىٰ﴾ مِنَ اَلْإِنْجِيلِ ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ مِنَ اَلْكُتُبِ وَالْآيَاتِ[2] ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فَنُؤْمِنَ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرَ

---

(١) الضمير في ﴿بِهَآ﴾ راجع إلى الملة الحنيفية أو إلى الكلمة، أي: أسلمت لرب العالمين، قال القرطبي: وهو أصوب لأنه أقرب مذكور، أي: قولوا أسلمنا انتهى، والأول أرجح لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الإسلام، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم وأولى بهم، قيل: كانوا ثمانية منهم إسماعيل وهو أول أولاده، وقيل: أربعة عشر ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ معطوف على إبراهيم، أي: وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه، وكانوا اثني عشر، وقرئ: بنصب «يعقوب»، فيكون داخلاً فيما أوصاه إبراهيم، قال القشيري: وهو بعيد، لأن يعقوب لم يدرك جده إبراهيم وإنما ولد بعد موته. [صديق حسن (١/ ٢٨٦)].

(٢) أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا ... وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١] ... عن أبي هريرة

ببعْضٍ كَالْيهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦ فَإِنْ ءَامَنُوا۟﴾ أَيِ: الْيهُودُ وَالنَّصارَى ﴿بِمِثْلِ﴾ «مِثْل» زَائِدٌ ﴿مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ﴾ خِلَافٍ مَعَكُمْ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يَا مُحَمَّدُ شِقَاقَهُمْ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾ بِأَحْوَالِهِمْ، وَقَدْ كَفَاهُ إِيَّاهُمْ بِقَتْلِ قُرَيْظَةَ وَنَفْيِ النَّضِيرِ، وَضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لـ﴿ءَامَنَّا﴾ وَنَصْبُهُ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: صَبَغَنَا اللهُ، وَالْمُرَادُ بِهَا دِينُهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ، لِظُهُورِ أَثَرِهِ عَلَى صَاحِبِهِ كَالصَّبْغِ فِي الثَّوْبِ(١) ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ﴾ تَمْيِيزٌ ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ١٣٨﴾. قَالَ الْيهُودُ لِلْمُسْلِمِينَ: «نَحْنُ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَقِبْلَتُنَا أَقْدَمُ، وَلَمْ تَكُنِ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْعَرَبِ، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَكَانَ مِنَّا». فَنَزَلَ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ تُخَاصِمُونَنَا ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أَنِ اصْطَفَى نَبِيًّا مِنَ الْعَرَبِ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فَلَهُ أَنْ يَصْطَفِيَ مَنْ يَشَاءُ ﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا﴾ نُجَازَى بِهَا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ تُجَازَوْنَ بِهَا، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْمَالِنَا مَا نَسْتَحِقُّ بِهِ الْإِكْرَامَ ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩﴾ الدِّينَ وَالْعَمَلَ دُونَكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِالِاصْطِفَاءِ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، وَالْجُمَلُ الثَّلَاثُ أَحْوَالٌ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿تَقُولُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰۗ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ أَيِ: اللهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ بَرَّأَ مِنْهُمَا إِبْرَاهِيمَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ﴾ أَخْفَى عَنِ النَّاسِ ﴿شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ﴾ كَائِنَةً ﴿مِنَ ٱللَّهِۗ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ، وَهُمُ الْيهُودُ كَتَمُوا شَهَادَةَ اللهِ فِي التَّوْرَاةِ لِإِبْرَاهِيمَ بِالْحَنِيفِيَّةِ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٤١﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ(٢). ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الْجُهَّالُ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الْيهُودِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذبوهم، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا». أخرجه البخاري (٤٤٨٥). [ابن كثير (١/ ٤٤٨)].

(١) أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمودية، ويقولون: هذا تطهير لهم. وقال ابن عباس: هو أن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال له ماء المعمودية، فصبغوه بذلك ليطهروه به مكان الختان، لأن الختان تطهير، فإذا فعلوا ذلك، قالوا: الآن صار نصرانيا حقا، فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: صبغة الله أحسن صبغة وهي الإسلام، فسمي الدين صبغة استعارة ومجازا من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب. [القرطبي (٢/ ١٤٤)].

(٢) في الآية (١٣٤) من سورة البقرة.

وَالْمُشْرِكِينَ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ أَيُّ شَيْءٍ صَرَفَ اَلنَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ عَلَى اِسْتِقْبَالِهَا فِي اَلصَّلَاةِ؟ وَهِيَ بَيْتُ اَلْمَقْدِسِ، وَالْإِتْيَانُ بِالسِّينِ اَلدَّالَّةِ عَلَى اَلِاسْتِقْبَالِ مِنَ اَلْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أَيِ: اَلْجِهَاتُ كُلُّهَا، فَيَأْمُرُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ شَاءَ، لَا اِعْتِرَاضَ عَلَيْهِ ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هِدَايَتَهُ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ دِينِ اَلْإِسْلَامِ، أَيْ: وَمِنْهُمْ أَنْتُمْ. دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا هَدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خِيَارًا عُدُولًا ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ أَنَّ رُسُلَهُمْ بَلَّغَتْهُمْ ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ أَنَّهُ بَلَّغَكُمْ ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ صَيَّرْنَا ﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾ لَكَ اَلْآنَ اَلْجِهَةَ ﴿ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أَوَّلًا وَهِيَ اَلْكَعْبَةُ، وَكَانَ ﷺ يُصَلِّي إِلَيْهَا، فَلَمَّا هَاجَرَ أُمِرَ بِاسْتِقْبَالِ بَيْتِ اَلْمَقْدِسِ تَأَلُّفًا لِلْيَهُودِ، فَصَلَّى إِلَيْهِ سِتَّةَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ حُوِّلَ(١) ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ عِلْمَ ظُهُورٍ(٢) ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ فَيُصَدِّقُهُ ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أَيْ: يَرْجِعُ إِلَى اَلْكُفْرِ شَكًّا فِي اَلدِّينِ وَظَنًّا أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَدِ اِرْتَدَّ لِذَلِكَ جَمَاعَةٌ ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ اَلثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: وَإِنَّهَا ﴿كَانَتْ﴾ أَيِ: اَلتَّوْلِيَةُ ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شَاقَّةٌ عَلَى اَلنَّاسِ ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أَيْ: صَلَاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ اَلْمَقْدِسِ بَلْ يُثِيبُكُمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا اَلسُّؤَالُ عَمَّنْ مَاتَ قَبْلَ اَلتَّحْوِيلِ(٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ﴾ اَلْمُؤْمِنِينَ ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ فِي عَدَمِ إِضَاعَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَالرَّأْفَةُ شِدَّةُ اَلرَّحْمَةِ، وَقَدَّمَ اَلْأَبْلَغَ لِلْفَاصِلَةِ. ﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَرَىٰ تَقَلُّبَ﴾ تَصَرُّفَ ﴿وَجْهِكَ

---

(١) فيها قولان: أحدهما: أنها الكعبة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. والآخر: هو بيت المقدس، وهو قول قتادة وعطاء والسُّدِّي، وهذا مع ظاهر قوله: ﴿كُنتَ عَلَيْهَآ﴾؛ لأن النبي ﷺ كان يصلي إلى بيت المقدس، ثم انصرف عنه إلى الكعبة، وأما قول ابن عباس رضي الله عنهما: فتأويله بوجهين: الأول: أن كنت بمعنى أنت، والثاني: قيل: إن النبي ﷺ صلى إلى الكعبة قبل بيت المقدس، وإعراب ﴿ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ مفعول بجعلنا، أو صفة للقبلة، ومعنى الآية على القولين: اختبار وفتنة للناس بأمر القبلة. [ابن جُزَيّ (١/ ٩٩)].

(٢) أي: علما يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها. [السعدي (ص:٧٠)].

(٣) عن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت. وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. [ابن كثير (١/ ٤٥٢)]. وفي هذه الآية، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح. [السعدي (ص:٧٠)].

فِي﴾ فِي جِهَةِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مُتطَلِّعًا إِلَى الْوَحْيِ، وَمُتَشَوِّقًا لِلْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ يَوَدُّ ذَلِكَ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلِأَنَّهُ أَدْعَى إِلَى إِسْلَامِ الْعَرَبِ ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ نُحَوِّلَنَّكَ ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تُحِبُّهَا ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ اسْتَقْبِلْ فِي الصَّلَاةِ ﴿شَطْرَ﴾ نَحْوَ ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أَيِ: الْكَعْبَةِ ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ خِطَابٌ لِلْأُمَّةِ ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أَيِ: التَّوَلِّي إِلَى الْكَعْبَةِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ ﴿مِن رَّبِّهِمْ ۗ﴾ لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ إِلَيْهَا ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ بِالتَّاءِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنِ امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَبِالْيَاءِ أَيِ: الْيَهُودُ مِنْ إِنْكَارِ أَمْرِ الْقِبْلَةِ. ﴿وَلَئِنْ﴾ لَامُ الْقَسَمِ ﴿أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ عَلَى صِدْقِكَ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ ﴿مَّا تَبِعُوا۟﴾ أَيْ: لَا يَتْبَعُونَ ﴿قِبْلَتَكَ﴾ عِنَادًا ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ قَطْعٌ لِطَمَعِهِ فِي إِسْلَامِهِمْ وَطَمَعِهِمْ فِي عَوْدِهِ إِلَيْهَا ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ قِبْلَةَ النَّصَارَى وَبِالْعَكْسِ ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ الَّتِي يَدْعُونَكَ إِلَيْهَا ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الْوَحْيِ ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ إِنِ اتَّبَعْتَهُمْ فَرْضًا[1] ﴿لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أَيْ: مُحَمَّدًا ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ بِنَعْتِهِ فِي كُتُبِهِمْ، قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: «لَقَدْ عَرَفْتُهُ حِينَ رَأَيْتُهُ كَمَا أَعْرِفُ ابْنِي، وَمَعْرِفَتِي لِمُحَمَّدٍ أَشَدُّ»[2] ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نَعْتَهُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ هَذَا الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ كَائِنًا ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ الشَّاكِّينَ فِيهِ، أَيْ: مِنْ هَذَا النَّوْعِ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ «لَا تَمْتَرِ». ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِنَ الْأُمَمِ ﴿وِجْهَةٌ﴾ قِبْلَةٌ ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ﴾ وَجْهَهُ فِي صَلَاتِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مُوَلَّـٰهَا﴾ ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بَادِرُوا إِلَى الطَّاعَاتِ وَقَبُولِهَا ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ لِسَفَرٍ ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ، وَكَرَّرَهُ لِبَيَانِ تَسَاوِي حُكْمِ السَّفَرِ وَغَيْرِهِ. ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ كَرَّرَهُ لِلتَّأْكِيدِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ الْيَهُودِ، أَوِ الْمُشْرِكِينَ ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أَيْ: مُجَادَلَةٌ فِي التَّوَلِّي إِلَى غَيْرِهِ؛ لِتَنْتَفِيَ مُجَادَلَتُهُمْ لَكُمْ، مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ: «يَجْحَدُ دِينَنَا وَيَتَّبِعُ قِبْلَتَنَا»، وَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ:

---

(١) الآية، خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي ﷺ ظلما متوقعا فهو محمول على إرادة أمته، لعصمة النبي ﷺ، وقطعنا أن ذلك لا يكون منه فإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطب النبي ﷺ تعظيما للأمر. [ابن عطية (١/ ٢٢٣)].

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٧١) ونسبه للثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده ساقط، وورد من وجوه أخر واهية.

«يَدَّعِي مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَيُخَالِفُ قِبْلَتَهُ» ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بِالْعِنَادِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: «مَا تَحَوَّلَ إِلَيْهَا إِلَّا مَيْلًا إِلَى دِينِ آبَائِهِ»، وَالِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ، وَالْمَعْنَى: لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ عَلَيْكُمْ كَلَامٌ إِلَّا كَلَامُ هَؤُلَاءِ ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ تَخَافُوا جِدَالَهُمْ فِي التَّوَلِّي إِلَيْهَا ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ بِامْتِثَالِ أَمْرِي ﴿وَلِأُتِمَّ﴾ عُطِفَ عَلَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ﴾، ﴿نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ بِالْهِدَايَةِ إِلَى مَعَالِمِ دِينِكُمْ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٠﴾ إِلَى الْحَقِّ[1]. ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «أُتِمَّ»، أَيْ: إِتْمَامًا كَإِتْمَامِهَا بِإِرْسَالِنَا ﴿فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ يُطَهِّرُكُمْ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ[2] ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَنَحْوِهِ ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ: أُجَازِيكُمْ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ اللَّهِ: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَئِهِ»[3]. ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ نِعْمَتِي بِالطَّاعَةِ ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ ۝١٥٢﴾ بِالْمَعْصِيَةِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ﴾ عَلَى الْآخِرَةِ ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبَلَاءِ ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِتَكَرُّرِهَا وَعِظَمِهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ بِالْعَوْنِ[4] ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هُمْ ﴿أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ﴾ هُمْ ﴿أَحۡيَآءٞ﴾ أَرْوَاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ[5] ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ۝١٥٤﴾ تَعْلَمُونَ مَا هُمْ فِيهِ ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ﴾ لِلْعَدُوِّ ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾ الْقَحْطِ ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ بِالْهَلَاكِ ﴿وَٱلۡأَنفُسِ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْمَوْتِ وَالْأَمْرَاضِ ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ بِالْجَوَائِحِ، أَيْ: لَنَخْتَبِرَنَّكُمْ فَنَنْظُرَ أَتَصْبِرُونَ أَمْ لَا ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ عَلَى الْبَلَاءِ بِالْجَنَّةِ. ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم

---

(١) و«لعل» و«عسى» من الله واجب. [صديق حسن (١/ ٣١٤)].

(٢) يعني بالحكمة: السنن والفقه في الدين. [الطبري (٢/ ٦٩٤)].

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥). فأمر تعالى المؤمنين بذكره، ووعد عليه أفضل الجزاء، وهو الثناء في الملأ الأعلى على مَنْ ذكره.

(٤) أي: بالعون والنصر وإجابة الدعوة، وهذه المعية التي أوضحها الله فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال، وهذه المعية خاصة بالمتقين والمحسنين والصابرين، وأما المعية بالعلم والقدرة فهي عامة في حق كل أحد كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾. [صديق حسن (١/ ٣١٧)].

(٥) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ». أخرجه مسلم (١٨٨٧).

﴿مُّصِيبَةٌ﴾ بَلَاءٌ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ مُلْكًا وَعَبِيدًا، يَفْعَلُ بِنَا مَا يَشَاءُ ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ فِي الْآخِرَةِ فَيُجَازِينَا، فِي الْحَدِيثِ: «مَنِ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ أَجَرَهُ اللهُ فِيهَا، وَأَخْلَفَ اللهُ عَلَيْهِ خَيْرًا»(١)، وَفِيهِ أَنَّ مِصْبَاحَ النَّبِيِّ ﷺ طَفِئَ فَاسْتَرْجَعَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّمَا هَذَا مِصْبَاحٌ، فَقَالَ: «كُلُّ مَا سَاءَ الْمُؤْمِنَ فَهُوَ مُصِيبَةٌ»(٢)، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي مَرَاسِيلِهِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ﴾ مَغْفِرَةٌ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ نِعْمَةٌ(٣) ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ إِلَى الصَّوَابِ. ﴿۞إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ جَبَلَانِ بِمَكَّةَ ﴿مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ﴾ أَعْلَامُ دِينِهِ، جَمْعُ «شَعِيرَةٍ» ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾ أَيْ: تَلَبَّسَ بِالْحَجِّ أَوِ الْعُمْرَةِ، وَأَصْلُهُمَا الْقَصْدُ وَالزِّيَارَةُ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ إِثْمَ ﴿عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الطَّاءِ ﴿بِهِمَا﴾ بِأَنْ يَسْعَى بَيْنَهُمَا سَبْعًا، نَزَلَتْ لَمَّا كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَطُوفُونَ بِهِمَا وَعَلَيْهِمَا صَنَمَانِ يَمْسَحُونَهُمَا، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ السَّعْيَ غَيْرُ فَرْضٍ، لِمَا أَفَادَهُ رَفْعُ الْإِثْمِ مِنَ التَّخْيِيرِ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ: رُكْنٌ، وَبَيَّنَ ﷺ فَرْضِيَّتَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ(٤)، وَقَالَ: «ابْدَأُوا بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»، يَعْنِي الصَّفَا، رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥) ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتِيَّةِ وَتَشْدِيدِ الطَّاءِ مَجْزُومًا، وَفِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِيهَا ﴿خَيْرًا﴾ أَيْ: بِخَيْرٍ، أَيْ: فَعَلَ مَا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ مِنْ طَوَافٍ وَغَيْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ لِعَمَلِهِ بِالْإِثَابَةِ عَلَيْهِ ﴿عَلِيمٌ ١٥٨﴾ بِهِ. وَنَزَلَ فِي الْيَهُودِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ النَّاسَ ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ وَالْهُدَىٰ﴾ كَآيَةِ الرَّجْمِ وَنَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَٰبِ﴾ التَّوْرَاةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يُبْعِدُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، أَوْ كُلُّ شَيْءٍ بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ بِاللَّعْنَةِ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُواْ﴾ رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ عَمَلَهُمْ ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ مَا كَتَمُوا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٦٠﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٤٢١)، والطبري في «التفسير» (٢٣٢٩)، بلفظ: «مَنْ اسْتَرْجَع عندَ المُصيبةِ؛ جَبَرَ الله مُصيبَتَهُ، وأحْسَن عُقْباهُ، وجعَلَ لهُ خَلَفاً يَرْضاهُ».

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (ص: ٣١٣) مرسلًا. بلفظ: «كُلُّ شَيْءٍ سَاءَ الْمُؤْمِنَ فَهُوَ مُصِيبَةٌ».

(٣) الصلوات اختلف العلماء في معناها، ولكن أصح الأقوال فيها أن المراد بها الثناء عليهم في الملأ الأعلى، فالمعنى أن الله يثني على هؤلاء في الملأ الأعلى رفعًا لذكرهم وإعلاء لشأنهم. وعطف الرحمة على الصلوات يدل على أنها مغايرة، ويدل على ضعف من قال إن الصلاة من الله بمعنى الرحمة. والرحمة إما حصول مطلوب وإما زوال مكروه، فهنا الرحمة تشمل الأمرين. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٢/ ١٨٢)].

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٥٤)، والطبراني (٥٢٩)، وأبو نعيم في المعرفة (٧٥٨٩)، والبيهقي (٥/ ٩٨).

(٥) أخرجه مسلم (١٢١٨). بلفظ: «نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ».

بِالْمُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ حَالٌ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ أَيْ: هُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالنَّاسُ قِيلَ: عَامٌّ، وَقِيلَ: الْمُؤْمِنُونَ ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أَيِ: اللَّعْنَةِ وَالنَّارِ الْمَدْلُولِ بِهَا عَلَيْهَا ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ طَرْفَةَ عَيْنٍ ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ يُمْهَلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْذِرَةٍ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا: «صِفْ لَنَا رَبَّكَ» ﴿وَإِلَـٰهُكُمۡ﴾ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ مِنْكُمْ ﴿إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لَا نَظِيرَ لَهُ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هُوَ ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾[1]. وَطَلَبُوا آيَةً عَلَى ذَلِكَ، فَنَزَلَ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَجَائِبِ ﴿وَٱخۡتِلَـٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ، وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ ﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾ السُّفُنِ ﴿ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ وَلَا تَرْسُبُ[2]، مُوقَرَةً ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ مِنَ التِّجَارَاتِ وَالْحَمْلِ ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ مَطَرٍ ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ يُبْسِهَا ﴿وَبَثَّ﴾ فَرَّقَ وَنَشَرَ بِهِ ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ لِأَنَّهُمْ يَنْمُونَ بِالْخِصْبِ الْكَائِنِ عَنْهُ ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ﴾ تَقْلِيبِهَا جَنُوبًا وَشَمَالًا حَارَّةً وَبَارِدَةً ﴿وَٱلسَّحَابِ﴾ الْغَيْمِ ﴿ٱلۡمُسَخَّرِ﴾ الْمُذَلَّلِ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى يَسِيرُ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللهُ ﴿بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بِلَا عِلَاقَةٍ[3] ﴿لَأٓيَـٰتٍ﴾ دَالَّاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿أَندَادًا﴾ أَصْنَامًا ﴿يُحِبُّونَهُمۡ﴾ بِالتَّعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: كَحُبِّهِمْ لَهُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ مِنْ حُبِّهِمْ لِلْأَنْدَادِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ بِحَالٍ مَا، وَالْكُفَّارُ يَعْدِلُونَ فِي الشِّدَّةِ إِلَى اللهِ ﴿وَلَوۡ تَرَى﴾ تُبْصِرُ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بِاتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَالْمَفْعُولِ: يُبْصِرُونَ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا، وَ﴿إِذۡ﴾ بِمَعْنَى: إِذَا ﴿أَنَّ﴾ أَيْ: لِأَنَّ ﴿ٱلۡقُوَّةَ﴾ الْقُدْرَةَ وَالْغَلَبَةَ ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حَالٌ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾

---

(١) أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي. [السعدي (ص:٧٧)].

(٢) الفلك: اسم للجمع والواحد فإذا أريد به الجمع يؤنث، وإذا أريد به الواحد يذكر، وقد ورد بالصيغتين في القرآن، والمراد ها هنا الجمع. والآية في الفلك تسخيرها وجريها على وجه الماء. وهي موقرة مثقلة لا ترسب تحت الماء بل تعلو على وجه الماء. [السمعاني (١/ ١٦٣)].

(٣) أي: الغيم المذلل، سمي سحاباً لانسحابه في الهواء وسحبت ذيلي سحباً وتسحب فلان على فلان اجترأ، والمسخر المذلل، وسخره بعثه من مكان إلى آخر، وقيل: تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق، والأول أظهر، والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده. [صديق حسن (١/ ٣٣٠)].

وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَرَى﴾ بِالتَّحْتَانِيَّةِ، وَالْفَاعِلُ قِيلَ: ضَمِيرُ السَّامِعِ، وَقِيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ فَهِيَ بِمَعْنَى: يَعْلَمُ، وَ﴿أَنَّ﴾ وَمَا بَعْدَهَا سَدَّتْ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: لَوْ عَلِمُوا فِي الدُّنْيَا شِدَّةَ عَذَابِ اللهِ، وَأَنَّ الْقُدْرَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَقْتَ مُعَايَنَتِهِمْ لَهُ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَنْدَادًا. ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ أَيِ: الرُّؤَسَاءُ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ أَيْ: أَنْكَرُوا إِضْلَالَهُمْ ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿تَبَرَّأَ﴾ ﴿بِهِمُ﴾ عَنْهُمْ ﴿ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ الْوُصَلُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَرْحَامِ وَالْمَوَدَّةِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أَيِ: الْمَتْبُوعِينَ ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ الْيَوْمَ، وَ ﴿لَوْ﴾ لِلتَّمَنِّي وَ«نَتَبَرَّأَ» جَوَابُهُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: كَمَا أَرَاهُمْ شِدَّةَ عَذَابِهِ، وَتَبَرُّأَ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ السَّيِّئَةَ ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ حَالٌ، نَدَامَاتٍ ﴿عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ بَعْدَ دُخُولِهَا. وَنَزَلَ فِيمَنْ حَرَّمَ السَّوَائِبَ وَنَحْوَهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا﴾ حَالٌ ﴿طَيِّبًا﴾ صِفَةٌ مُؤَكِّدَةٌ، أَيْ: مُسْتَلَذًّا ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ﴾ طُرُقَ ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أَيْ: تَزْيِينَهُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ بَيِّنُ الْعَدَاوَةِ. ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ الْإِثْمِ ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ الْقَبِيحِ شَرْعًا[1] ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾ مِنْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ وَغَيْرِهِ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَتَحْلِيلِ الطَّيِّبَاتِ ﴿قَالُواْ﴾ لَا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ وَجَدْنَا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَحْرِيمِ السَّوَائِبِ وَالْبَحَائِرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَ﴾ يَتَّبِعُونَهُمْ ﴿وَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿وَمَثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

---

(١) تنازع المعتزلة والأشاعرة في مسألة التحسين والتقبيح، فقالت المعتزلة بالتحسين والتقبيح العقليين، وقرروا أن الله يعذب الناس قبل ورود الشرع، وخالفوا قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ونفت الأشاعرة حسن الأشياء وقبحها بالعقل، وقالوا: الأفعال قبل ورود الشرع سواء في الحسن والقبح، وإنما يعرف حسنها وقبحها بالشرع وحده، وأجازوا أن يأمر الله سبحانه بالشرك والظلم والزنا والفواحش، وإنما كانت هذه محرمة لورود الشرع بالنهي عنها، فدل الشرع على قبحها، أما العقل وحده فلا يدل على قبحها، وخالفوا قول الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وتكلم الأشاعرة في جواز أن يكلف الله العباد ما لا يطيقون فعله، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فأثبتوا أن للأفعال حسنا وقبحا ذاتيين يمكن إدراكه بالعقل كما يدرك بالشرع، وقرروا أن التكليف والعقاب لا يكون إلا بعد ورود الشرع، فلا يترتب ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، فالفعل القبيح كالشرك والظلم والزنا هو قبيح في نفسه، ولا يمكن أن يأمر الله به، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون موجبا للعقاب؛ فالله لا يعاقب الناس على فعل القبائح إلا بعد إرسال الرسل.

وَمَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ يُصَوِّتُ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ أَيْ: صَوْتًا وَلَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ، أَيْ: فِي سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ وَعَدَمِ تَدَبُّرِهَا كَالْبَهَائِمِ تَسْمَعُ صَوْتَ رَاعِيهَا وَلَا تَفْهَمُهُ(١)، هُمْ ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ الْمَوْعِظَةَ. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ﴾ حَلَالَاتِ ﴿مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ عَلَى مَا أَحَلَّ لَكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أَيْ: أَكْلَهَا، إِذِ الْكَلَامُ فِيهِ، وَكَذَا مَا بَعْدَهَا، وَهِيَ مَا لَمْ يُذَكَّ شَرْعًا، وَأُلْحِقَ بِهَا بِالسُّنَّةِ مَا أُبِينَ مِنْ حَيٍّ، وَخُصَّ مِنْهَا السَّمَكُ وَالْجَرَادُ ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أَيِ: الْمَسْفُوحَ كَمَا فِي «الْأَنْعَامِ»(٢) ﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ خُصَّ اللَّحْمُ؛ لِأَنَّهُ مُعْظَمُ الْمَقْصُودِ، وَغَيْرُهُ تَبَعٌ لَهُ ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: ذُبِحَ عَلَى اسْمِ غَيْرِهِ، وَالْإِهْلَالُ: رَفْعُ الصَّوْتِ. وَكَانُوا يَرْفَعُونَهُ عِنْدَ الذَّبْحِ لِآلِهَتِهِمْ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أَيْ: أَلْجَأَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ، فَأَكَلَهُ ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ خَارِجٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مُتَعَدٍّ عَلَيْهِمْ بِقَطْعِ الطَّرِيقِ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فِي أَكْلِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ، حَيْثُ وَسَّعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَخَرَجَ الْبَاغِي وَالْعَادِي، وَيُلْحَقُ بِهِمَا كُلُّ عَاصٍ بِسَفَرِهِ كَالْآبِقِ وَالْمَكَّاسِ، فَلَا يَحِلُّ لَهُمْ أَكْلُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَتُوبُوا، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ الْمُشْتَمِلِ عَلَى نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمُ الْيَهُودُ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا يَأْخُذُونَهُ بَدَلَهُ مِنْ سَفِلَتِهِمْ، فَلَا يُظْهِرُونَهُ خَوْفَ فَوْتِهِ عَلَيْهِمْ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ ؛ لِأَنَّهَا مَآلُهُمْ ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ غَضَبًا عَلَيْهِمْ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ مُؤْلِمٌ هُوَ النَّارُ. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أَخَذُوهَا بَدَلَهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ الْمُعَدَّةِ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَوْ لَمْ يَكْتُمُوا ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ أَيْ: مَا أَشَدَّ صَبْرَهِمْ! وَهُوَ تَعَجِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ ارْتِكَابِهِمْ مُوجِبَاتِهَا مِنْ غَيْرِ مُبَالَاةٍ، وَإِلَّا فَأَيُّ صَبْرٍ لَهُمْ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ أَكْلِهِمُ النَّارَ وَمَا بَعْدَهُ ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿نَزَّلَ﴾ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، حَيْثُ آمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ بِكَتْمِهِ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ بِذَلِكَ، وَهُمُ الْيَهُودُ، وَقِيلَ: الْمُشْرِكُونَ، فِي الْقُرْآنِ حَيْثُ قَالَ بَعْضُهُمْ: شِعْرٌ، وَبَعْضُهُمْ: سِحْرٌ، وَبَعْضُهُمْ: كَهَانَةٌ ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ خِلَافٍ ﴿بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ عَنِ

---

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد. وقيل: مثل الكافر في دعاء آلهته التي يعبدها من دون الله كمثل راعي البهيمة يسمع صوتها ولا يفهمه، وهذا قول ابن زيد. [الماوردي (١/ ٢٢١)].

(٢) سورة الأنعام آية (١٤٥).

ٱلْحَقِّ. ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ فِي ٱلصَّلَاةِ ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ نَزَلَ رَدًّا عَلَى ٱلْيَهُودِ وَٱلنَّصَارَى حَيْثُ زَعَمُوا ذَلِكَ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ أَيْ: ذَا ٱلْبِرِّ، وَقُرِئَ: بِفَتْحِ ٱلْبَاءِ[1]، أَيِ: ٱلْبَارَّ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أَيِ: ٱلْكُتُبِ ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ﴾ مَعَ ﴿حُبِّهِۦ﴾ لَهُ ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ٱلْقَرَابَةِ ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ٱلْمُسَافِرَ ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ ٱلطَّالِبِينَ ﴿وَفِى﴾ فَكِّ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ ٱلْمُكَاتَبِينَ وَٱلْأَسْرَى ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ٱلْمَفْرُوضَةَ، وَمَا قَبْلَهُ فِي ٱلتَّطَوُّعِ ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ﴾ ٱللهَ، أَوِ ٱلنَّاسَ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ نُصِبَ عَلَى ٱلْمَدْحِ ﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ﴾ شِدَّةِ ٱلْفَقْرِ ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ ٱلْمَرَضِ ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ وَقْتَ شِدَّةِ ٱلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ ٱللهِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ ٱلْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ﴾ فِي إِيمَانِهِمْ أَوِ ٱدِّعَاءِ ٱلْبِرِّ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ ٱللهَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ ٱلْمُمَاثَلَةُ ﴿فِى ٱلْقَتْلَىۖ﴾ وَصْفًا وَفِعْلًا ﴿ٱلْحُرُّ﴾ يُقْتَلُ ﴿بِٱلْحُرِّ﴾ وَلَا يُقْتَلُ بِٱلْعَبْدِ ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وَبَيَّنَتِ ٱلسُّنَّةُ أَنَّ ٱلذَّكَرَ يُقْتَلُ بِهَا، وَأَنَّهُ تُعْتَبَرُ ٱلْمُمَاثَلَةُ فِي ٱلدِّينِ، فَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ وَلَوْ عَبْدًا بِكَافِرٍ وَلَوْ حُرًّا ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ﴾ مِنَ ٱلْقَاتِلِينَ ﴿مِنْ﴾ دَمِ ﴿أَخِيهِ﴾ ٱلْمَقْتُولِ ﴿شَىْءٌ﴾ بِأَنْ تَرَكَ ٱلْقِصَاصَ مِنْهُ، وَتَنْكِيرُ ﴿شَىْءٌ﴾ يُفِيدُ سُقُوطَ ٱلْقِصَاصِ بِٱلْعَفْوِ عَنْ بَعْضِهِ، وَمِنْ بَعْضِ ٱلْوَرَثَةِ، وَفِي ذِكْرِ ﴿أَخِيهِ﴾ تَعَطُّفٌ دَاعٍ إِلَى ٱلْعَفْوِ، وَإِيذَانٌ بِأَنَّ ٱلْقَتْلَ لَا يَقْطَعُ أُخُوَّةَ ٱلْإِيمَانِ، وَ﴿مَنْ﴾ مُبْتَدَأٌ شَرْطِيَّةٌ، أَوْ مَوْصُولَةٌ، وَٱلْخَبَرُ: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾ أَيْ: فَعَلَى ٱلْعَافِي ٱتِّبَاعٌ لِلْقَاتِلِ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بِأَنْ يُطَالِبَهُ بِٱلدِّيَةِ بِلَا عُنْفٍ، وَتَرْتِيبُ ٱلِٱتِّبَاعِ عَلَى ٱلْعَفْوِ يُفِيدُ أَنَّ ٱلْوَاجِبَ أَحَدُهُمَا، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيِ ٱلشَّافِعِيِّ، وَٱلثَّانِي ٱلْوَاجِبُ ٱلْقِصَاصُ وَٱلدِّيَةُ بَدَلٌ عَنْهُ، فَلَوْ عَفَا وَلَمْ يُسَمِّهَا فَلَا شَيْءَ وَرُجِّحَ ﴿وَ﴾ عَلَى ٱلْقَاتِلِ ﴿أَدَآءٌ﴾ ٱلدِّيَةِ ﴿إِلَيْهِ﴾ أَيِ: ٱلْعَافِي وَهُوَ ٱلْوَارِثُ ﴿بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ بِلَا مَطْلٍ وَلَا بَخْسٍ ﴿ذَٰلِكَ﴾ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَذْكُورُ مِنْ جَوَازِ ٱلْقِصَاصِ وَٱلْعَفْوِ عَنْهُ عَلَى ٱلدِّيَةِ ﴿تَخْفِيفٌ﴾ تَسْهِيلٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عَلَيْكُمْ ﴿وَرَحْمَةٌۗ﴾ بِكُمْ حَيْثُ وَسَّعَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يُحَتِّمْ وَاحِدًا مِنْهُمَا، كَمَا حَتَّمَ عَلَى ٱلْيَهُودِ ٱلْقِصَاصَ، وَعَلَى ٱلنَّصَارَى ٱلدِّيَةَ ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ ظَلَمَ ٱلْقَاتِلَ بِأَنْ قَتَلَهُ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: ٱلْعَفْوِ ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾ مُؤْلِمٌ فِي ٱلْآخِرَةِ بِٱلنَّارِ، أَوْ فِي ٱلدُّنْيَا بِٱلْقَتْلِ. ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أَيْ: بَقَاءٌ عَظِيمٌ ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذَوِي ٱلْعُقُولِ؛ لِأَنَّ ٱلْقَاتِلَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يُقْتَلُ ٱرْتَدَعَ فَأَحْيَا نَفْسَهُ وَمَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ[2]، فَشُرِعَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ ٱلْقَتْلَ

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) من جوامع الكلم فاق ما كان سائرا مسرى المثل عند العرب، وهو قولهم: القتل أنفى للقتل. [ابن عاشور (٢/ ١٤٥)]. كلام في غاية

مَخَافَةَ اَلْقَوَدِ. ﴿كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أَيْ: أَسْبَابُهُ ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ مَالًا ﴿ٱلْوَصِيَّةُ﴾ مَرْفُوعٌ بِـ ﴿كُتِبَ﴾ وَمُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿إِذَا﴾ إِنْ كَانَتْ ظَرْفِيَّةً، وَدَالٌّ عَلَى جَوَابِهَا إِنْ كَانَتْ شَرْطِيَّةً، وَجَوَابُ ﴿إِن﴾ مَحْذُوفٌ، أَيْ: فَلْيُوصِ ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بِالْعَدْلِ بِأَنْ لَا يَزِيدَ عَلَى اَلثُّلُثِ، وَلَا يُفَضِّلَ اَلْغَنِيَّ ﴿حَقًّا﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِمَضْمُونِ اَلْجُمْلَةِ قَبْلَهُ ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ اللهَ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ اَلْمِيرَاثِ، وَبِحَدِيثِ: «لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ». رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ[1]. ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ أَيِ: اَلْإِيصَاءَ مِنْ شَاهِدٍ وَوَصِيٍّ ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ عَلِمَهُ ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾ أَيِ: اَلْإِيصَاءِ اَلْمُبَدَّلِ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ فِيهِ إِقَامَةُ اَلظَّاهِرِ مَقَامَ اَلْمُضْمَرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِقَوْلِ اَلْمُوصِي ﴿عَلِيمٌ ١٨١﴾ بِفِعْلِ اَلْوَصِيِّ، فَمُجَازٍ عَلَيْهِ. ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾ مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلًا ﴿جَنَفًا﴾ مَيْلًا عَنِ اَلْحَقِّ خَطَأً ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ بِأَنْ تَعَمَّدَ ذَلِكَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى اَلثُّلُثِ، أَوْ تَخْصِيصِ غَنِيٍّ مَثَلًا ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ اَلْمُوصِي وَالْمُوصَى لَهُ بِالْأَمْرِ بِالْعَدْلِ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨٢ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مِنَ اَلْأُمَمِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ اَلْمَعَاصِيَ، فَإِنَّهُ يَكْسِرُ اَلشَّهْوَةَ اَلَّتِي هِيَ مَبْدَؤُهَا. ﴿أَيَّامًا﴾ نُصِبَ بِـ ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ أَوْ «بِصُومُوا» مُقَدَّرًا ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أَيْ: قَلَائِلَ أَوْ مُؤَقَّتَاتٍ بِعَدَدٍ مَعْلُومٍ، وَهِيَ رَمَضَانُ كَمَا سَيَأْتِي، وَقَلَّلَهُ تَسْهِيلًا عَلَى اَلْمُكَلَّفِينَ ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ حِينَ شُهُودِهِ ﴿مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أَيْ: مُسَافِرًا سَفَرَ اَلْقَصْرِ، وَأَجْهَدَهُ اَلصَّوْمُ فِي اَلْحَالَيْنِ فَأَفْطَرَ ﴿فَعِدَّةٌ﴾ فَعَلَيْهِ عِدَّةُ مَا أَفْطَرَ ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يَصُومُهَا بَدَلَهُ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ﴾ لَا ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾ لِكِبَرٍ أَوْ مَرَضٍ لَا يُرْجَى بُرْؤُهُ ﴿فِدْيَةٌ﴾ هِيَ ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أَيْ: قَدْرُ مَا يَأْكُلُهُ فِي يَوْمِهِ، وَهُوَ مُدٌّ مِنْ غَالِبِ قُوتِ اَلْبَلَدِ لِكُلِّ يَوْمٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِإِضَافَةِ: ﴿فِدْيَةٌ﴾ وَهِيَ لِلْبَيَانِ، وَقِيلَ «لَا» غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ وَكَانُوا مُخَيَّرِينَ فِي صَدْرِ اَلْإِسْلَامِ بَيْنَ اَلصَّوْمِ وَالْفِدْيَةِ، ثُمَّ نُسِخَ بِتَعْيِينِ اَلصَّوْمِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِلَّا اَلْحَامِلُ وَالْمُرْضِعُ إِذَا أَفْطَرَتَا خَوْفًا عَلَى اَلْوَلَدِ فَإِنَّهَا بَاقِيَةٌ بِلَا نَسْخٍ فِي حَقِّهِمَا ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بِالزِّيَادَةِ عَلَى اَلْقَدْرِ اَلْمَذْكُورِ فِي اَلْفِدْيَةِ ﴿فَهُوَ﴾ أَيِ: اَلتَّطَوُّعُ ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟﴾ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنَ اَلْإِفْطَارِ وَالْفِدْيَةِ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ. تِلْكَ اَلْأَيَّامُ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ

الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعا من الحياة عظيما، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم. [البيضاوي (١/ ١٢٢)].

(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٢٩٤)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٣).

﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ مِنَ اَللَّوْحِ اَلْمَحْفُوظِ إِلَى اَلسَّمَاءِ اَلدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ اَلْقَدْرِ مِنْهُ(١) ﴿هُدًى﴾ حَالٌ، هَادِيًا مِنَ اَلضَّلَالَةِ

---

(١) الاتفاق حاصل والإجماع قائم على صفة نزول القرآن الكريم المباشر على الرسول ﷺ وأنه نزل منجماً مفرقاً من بعثته ﷺ إلى قرب وفاته ينزل أحياناً ابتداء بغير سبب وهو أكثر القرآن الكريم وأحياناً أخرى ينزل مرتبطاً بالأحداث والوقائع والأسباب. وأما نزوله جملة فهو ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، فهو أنزل في ليلة اسمها ليلة القدر، وصفتها أنها مباركة، وشهرها شهر رمضان. وهو صريح الأخبار الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما، والتي لها حكم الرفع إلى الرسول ﷺ. وما دام أن النزول جملة لا يعارض صراحة النزول السابق، ولا يرتبط به من خلال تلك النصوص. بل هو نزول خاص، ووجود معين حيث القرآن الكريم كلام الله ومنزل من عند الله يتلقاه جبريل عليه السلام من الله بلا واسطة عند نزوله به على الرسول ﷺ مباشرة. وإن كان قد نزل به إلى بيت العزة فذلك نزول خاص. وأحد وجودات القرآن الكريم المتعددة. حيث يوجد القرآن الكريم في اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، ويوجد أيضاً في الصحف المطهرة الموجودة في أيدي الكرام البررة من الملائكة كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: ١١-١٦]، ويوجد كذلك في بيت العزة من السماء الدنيا كما دلت على ذلك الأخبار عن ابن عباس رضي الله عنهما. كما يوجد في الأرض بنزوله على الرسول ﷺ والنزول مقترن بما عدا الأول من الوجودات المذكورة. يقول البيهقي رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يريد به والله أعلم إنا أسمعناه الملك، وأفهمناه إياه، وأنزلناه بما سمع فيكون الملك منتقلاً به من علو إلى سفل. (الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٣٦٢). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد عرضٍ قرر فيه أن القرآن الكريم كلام الله منزل من عند الله كما هو صريح القرآن، قال: فعلم أن القرآن العربي منزل من الله ... وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف في تفسير قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك منجماً مفرقاً بحسب الحوادث. ولا يتنافى أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله، ...فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك وإذ كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله. (مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٢/ ١٢٦). فعلى هذا الوجه لا إشكال في القول بأن للقرآن تنزلين: نزول جملة، ونزول مفرق، ولا يترتب عليه محذور. وإنما يقع المحذور ويحصل الإشكال في القول بأن جبريل يأخذ القرآن من الكتاب أو من بيت العزة عند نزوله به على الرسول ﷺ من دون سماع من الله تعالى. ومثل هذا الفهم لا يصح. فهو أولاً: لم يرد في تلك النصوص المفسرة والمفصلة لنزول القرآن جملة. وثانياً: أنه يلزم منه أن جبريل عليه السلام لم يسمع القرآن من الله عز وجل وأن القرآن نزل من مخلوق لا من الله وهذا باطل. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والنبي ﷺ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل عليه به، وجبريل سمعه من الله تعالى، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة. قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] ... فبين أن جبريل نزله من الله لا من هواء، ولا من لوح، ولا غير ذلك، وكذلك سائر آيات

﴿لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ﴾ آياتٍ واضِحاتٍ ﴿مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ مِمَّا يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ مِنَ الْأَحْكَامِ ﴿وَ﴾ مِنَ ﴿ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ مِمَّا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ حَضَرَ ﴿مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ، وَكُرِّرَ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ نَسْخُهُ بِتَعْمِيمِ «مَنْ شَهِدَ»، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ وَلِذَا أَبَاحَ لَكُمُ الْفِطْرَ فِي الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ، وَلِكَوْنِ ذَلِكَ فِي مَعْنَى الْعِلَّةِ أَيْضًا لِلْأَمْرِ بِالصَّوْمِ، عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿ٱلۡعِدَّةَ﴾ أَيْ: عِدَّةَ صَوْمِ رَمَضَانَ ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ عِنْدَ إِكْمَالِهَا ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ أَرْشَدَكُمْ لِمَعَالِمِ دِينِهِ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ اللهَ عَلَى ذَلِكَ. وَسَأَلَ جَمَاعَةٌ النَّبِيَّ ﷺ: أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ؟ فَنَزَلَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ مِنْهُمْ بِعِلْمِي، فَأَخْبِرْهُمْ بِذَلِكَ(١) ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ بِإِنَالَتِهِ مَا سَأَلَ ﴿إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾ دُعَائِي بِالطَّاعَةِ ﴿وَلۡيُؤۡمِنُواْ﴾ يُدَاوِمُوا عَلَى الْإِيمَانِ ﴿بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ يَهْتَدُونَ.

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ بِمَعْنَى الْإِفْضَاءِ ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ بِالْجِمَاعِ، نَزَلَ نَسْخًا لِمَا كَانَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ عَلَى تَحْرِيمِهِ وَتَحْرِيمِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ بَعْدَ الْعِشَاءِ ﴿هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ تَعَانُقِهِمَا، أَوِ احْتِيَاجِ كُلٍّ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ﴾ تَخُونُونَ ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ بِالْجِمَاعِ لَيْلَةَ الصِّيَامِ، وَقَعَ ذَلِكَ لِعُمَرَ وَغَيْرِهِ، وَاعْتَذَرُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ قَبِلَ تَوْبَتَكُمْ ﴿وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ﴾ إِذْ أُحِلَّ لَكُمْ

القرآن كقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]. فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله. فمن قال إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح، والهواء فهو مفتر على الله، مكذب لكتاب الله، متبع لغير سبيل المؤمنين، ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوبـاً كانت العبارة عبارة جبريل، وكان الكلام كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين. (مجموع الفتاوى ١٢/٥١٩-٥٢٠). [نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول لمحمد الشايع ص:٣٢. بتصرف].

(١) لأنه تعالى، الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضا من داعيه، بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق. فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة. [السعدي (ص:٨٧)]. عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفا، ولا نعلو شرفا، ولا نهبط واديا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُم لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ جامِعُوهُنَّ ﴿وَٱبْتَغُواْ﴾ اُطْلُبُوا ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أَيْ: أَبَاحَهُ مِنَ الْجِمَاعِ، أَوْ قَدَّرَهُ مِنَ الْوَلَدِ ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ اللَّيْلَ كُلَّهُ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ يَظْهَرَ ﴿لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ أَيِ: الصَّادِقِ بَيَانٌ لِلْخَيْطِ الْأَبْيَضِ، وَبَيَانُ الْأَسْوَدِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: مِنَ اللَّيْلِ، شَبَّهَ مَا يَبْدُو مِنَ الْبَيَاضِ وَمَا يَمْتَدُّ مَعَهُ مِنَ الْغَبَشِ بِخَيْطَيْنِ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ فِي الِامْتِدَادِ[1] ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ﴾ مِنَ الْفَجْرِ ﴿إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أَيْ: إِلَى دُخُولِهِ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ أَيْ: نِسَاءَكُمْ ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ﴾ مُقِيمُونَ بِنِيَّةِ الِاعْتِكَافِ ﴿فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿عَٰكِفُونَ﴾، نَهْيٌ لِمَنْ كَانَ يَخْرُجُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، فَيُجَامِعُ امْرَأَتَهُ وَيَعُودُ ﴿تِلْكَ﴾ الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ حَدَّهَا لِعِبَادِهِ لِيَقِفُوا عِنْدَهَا ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أَبْلَغُ مِنْ ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، الْمُعَبَّرِ بِهِ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَ لَكُمْ مَا ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ مَحَارِمَهُ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ أَيْ: يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الْحَرَامِ شَرْعًا، كَالسَّرِقَةِ وَالْغَصْبِ ﴿وَ﴾ لَا ﴿تُدْلُواْ﴾ تُلْقُوا ﴿بِهَآ﴾ أَيْ: بِحُكُومَتِهَا، أَوْ بِالْأَمْوَالِ رِشْوَةً ﴿إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ﴾ بِالتَّحَاكُمِ ﴿فَرِيقًا﴾ طَائِفَةً ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أَنَّكُمْ مُبْطِلُونَ. ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جَمْعُ «هِلَالٍ» لِمَ تَبْدُو دَقِيقَةً ثُمَّ تَزِيدُ حَتَّى تَمْتَلِئَ نُورًا، ثُمَّ تَعُودُ كَمَا بَدَتْ، وَلَا تَكُونُ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ كَالشَّمْسِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ[2]: ﴿هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾ جَمْعُ مِيقَاتٍ ﴿لِلنَّاسِ﴾ يَعْلَمُونَ بِهَا أَوْقَاتَ زَرْعِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَعِدَدَ نِسَائِهِمْ وَصِيَامَهُمْ وَإِفْطَارَهُمْ ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ عُطِفَ عَلَى «النَّاسِ»، أَيْ: يُعْلَمُ بِهَا وَقْتُهُ، فَلَوِ اسْتَمَرَّتْ عَلَى حَالَةٍ لَمْ يُعْرَفْ ذَلِكَ ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ فِي الْإِحْرَامِ بِأَنْ تَنْقُبُوا فِيهَا نَقْبًا تَدْخُلُونَ مِنْهُ وَتَخْرُجُونَ وَتَتْرُكُوا الْبَابَ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَيَزْعُمُونَهُ بِرًّا[3] ﴿وَلَٰكِنَّ

---

(١) عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾، قال: أخذت عقالا أبيض وعقالا أسود، فوضعتهما تحت وسادتي، فنظرت فلم أتبين، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فضحك فقال: «إِنَّ وِسَادَكَ لَعَرِيضٌ طَوِيلٌ، إِنَّمَا هُوَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ». أخرجه البخاري (٤٥٠٩)، ومسلم (١٠٩٠).

(٢) الذي قرره أبو السعود والخازن أن الجواب مطابق للسؤال، وفي الآية بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال ونقصانه وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والإجارات والأيمان وغير ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، وقيل: هو جواب بغير ما سأل عنه تنبيهـًا على أن الأولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب لا عن سبب الاختلاف، فهو من قبيل المغيبات التي لا غرض للمكلف في معرفتها ولا يليق أن تبين له. [صديق حسن (١/ ٣٨٣)].

(٣) عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: نزلت هذه الآية فينا. كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم

﴿ٱلۡبِرَّ﴾ أَيْ: ذَا الْبِرِّ ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ اللهَ بِتَرْكِ مُخَالَفَتِهِ ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ فِي الْإِحْرَامِ كَغَيْرِهِ(١) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾ تَفُوزُونَ. وَلَمَّا صُدَّ ﷺ عَنِ الْبَيْتِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَصَالَحَ الْكُفَّارَ عَلَى أَنْ يَعُودَ الْعَامَ الْقَابِلَ، وَيُخْلُو لَهُ مَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَتَجَهَّزَ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَخَافُوا أَنْ لَا تَفِيَ قُرَيْشٌ وَيُقَاتِلُوهُمْ، وَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ قِتَالَهُمْ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ، نَزَلَ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ عَلَيْهِمْ بِالِابْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ الْمُتَجَاوِزِينَ مَا حُدَّ لَهُمْ. وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ «بَرَاءَةَ»(٢)، أَوْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ أَيْ: مِنْ مَكَّةَ، وَقَدْ فُعِلَ بِهِمْ ذَلِكَ عَامَ الْفَتْحِ(٣) ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾ الشِّرْكُ مِنْهُمْ(٤) ﴿أَشَدُّ﴾ أَعْظَمُ ﴿مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ لَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَوِ الْإِحْرَامِ الَّذِي اسْتَعْظَمْتُمُوهُ ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أَيْ: فِي الْحَرَمِ ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾ فِيهِ ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ فِيهِ(٥)، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِلَا أَلِفٍ فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الْقَتْلُ وَالْإِخْرَاجُ ﴿جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عَنِ الْكُفْرِ وَأَسْلَمُوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لَهُمْ ﴿رَّحِيمٞ ١٩٢﴾ بِهِمْ. ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا

ولكن من ظهورها. فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه، فكأنه عير بذلك، فنزلت: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ الآية. أخرجه البخاري (١٨٠٣)، ومسلم (٣٠٢٦).

(١) وإنما ذكر ذلك بعد ذكر الحج لأنه كان عندهم من تمام الحج، وقيل: المعنى ليس البر أن تسألوا عن الأهلة وغيرها مما لا فائدة لكم فيه، فتأتون الأمور على غير ما يجب، فعلى هذا البيوت وأبوابها وظهورها استعارة: يراد بالبيوت المسائل، وبظهورها السؤال عما لا يفيد، وأبوابها السؤال عما يحتاج إليه. [ابن جُزَيّ (١/ ١١٢)].

(٢) أي: قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦].

(٣) في هذا نظر، فإن المعروف أن النبيَّ ﷺ لم يُجلِ أحدًا، بل أمَّنهم وعفى عنهم وخرج من خرج معه إلى حنين. [التعليق على تفسير الجلالين للبراك (ص:٤٠٥)]. وكانوا يسمون الطلقاء. ينظر: صحيح البخاري (٤٣٣٣)، ومسلم (١٠٥٩)، (١٨٠٩).

(٤) [وقيل:] فتنة المؤمن عن دينه أشد عليه من قتله. [ابن جُزَيّ (١/ ١١٣)].

(٥) أختلف أهل العلم في ذلك فذهبت طائفة إلى أنها محكمة وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا بعد أن يتعدى متعد بالقتال فيه فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له، وهذا هو الحق، وقالت طائفة أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، ويجاب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن هنا ببناء العام على الخاص فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم، ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ: «إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ». أخرجه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥). وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله ﷺ لابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ويجاب عنه بأنه وقع في تلك الساعة التي أحل الله لرسوله ﷺ. [صديق حسن (١/ ٣٨٧)].

تَكُونَ﴾ تُوجَدَ ﴿فِتْنَةٌ﴾ شِرْكٌ(١) ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ الْعِبَادَةُ ﴿لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ لَا يُعْبَدُ سِوَاهُ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عَنِ الشِّرْكِ فَلَا تَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ اِعْتِدَاءَ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ وَمَنِ انْتَهَى فَلَيْسَ بِظَالِمٍ، فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْهِ. ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾ الْمُحَرَّمُ مُقَابَلٌ ﴿بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ فَكَمَا قَاتَلُوكُمْ فِيهِ فَاقْتُلُوهُمْ فِي مِثْلِهِ، رَدٌّ لِاسْتِعْظَامِ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ﴾ جَمْعُ حُرْمَةٍ: مَا يَجِبُ احْتِرَامُهُ ﴿قِصَاصٌ﴾ أَيْ: يُقْتَصُّ بِمِثْلِهَا إِذَا انْتُهِكَتْ ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ أَوِ الْإِحْرَامِ أَوِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ سَمَّى مُقَابَلَتَهُ اِعْتِدَاءً لِشَبَهِهَا بِالْمُقَابَلِ بِهِ فِي الصُّورَةِ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فِي الِانْتِصَارِ وَتَرْكِ الِاعْتِدَاءِ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ. ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طَاعَتِهِ بِالْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أَيْ: أَنْفُسِكُمْ، وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ ﴿إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الْهَلَاكِ بِالْإِمْسَاكِ عَنِ النَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ أَوْ تَرْكِهِ؛ لِأَنَّهُ يُقَوِّي الْعَدُوَّ عَلَيْكُمْ ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟﴾ بِالنَّفَقَةِ وَغَيْرِهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ أَيْ: يُثِيبُهُمْ(٢). ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أَدُّوهُمَا بِحُقُوقِهِمَا ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنِعْتُمْ عَنْ إِتْمَامِهَا بِعَدُوٍّ ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ تَيَسَّرَ ﴿مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ عَلَيْكُمْ وَهُوَ شَاةٌ ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ﴾ أَيْ: لَا تَتَحَلَّلُوا ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿مَحِلَّهُۥ﴾ حَيْثُ يَحِلُّ ذَبْحُهُ، وَهُوَ مَكَانُ الْإِحْصَارِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، فَيَذْبَحُ فِيهِ بِنِيَّةِ التَّحَلُّلِ وَيُفَرِّقُ عَلَى مَسَاكِينِهِ وَيَحْلِقُ، وَبِهِ يَحْصُلُ التَّحَلُّلُ ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كَقَمْلٍ وَصُدَاعٍ، فَحَلَقَ فِي الْإِحْرَامِ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ عَلَيْهِ ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ بِثَلَاثَةِ آصُعٍ مِنْ غَالِبِ قُوتِ الْبَلَدِ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ أَيْ: ذَبْحِ شَاةٍ، وَ﴿أَوْ﴾ لِلتَّخْيِيرِ وَأُلْحِقَ بِهِ مَنْ حَلَقَ لِغَيْرِ عُذْرٍ؛ لِأَنَّهُ أَوْلَى بِالْكَفَّارَةِ، وَكَذَا مَنِ اسْتَمْتَعَ بِغَيْرِ الْحَلْقِ، كَالطِّيبِ وَاللُّبْسِ وَالدَّهْنِ لِعُذْرٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ الْعَدُوَّ بِأَنْ ذَهَبَ، أَوْ لَمْ يَكُنْ ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ اِسْتَمْتَعَ ﴿بِٱلْعُمْرَةِ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ فَرَاغِهِ مِنْهَا بِمَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ ﴿إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ أَيْ: إِلَى الْإِحْرَامِ بِهِ، بِأَنْ يَكُونَ أَحْرَمَ بِهَا فِي أَشْهُرِهِ ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ تَيَسَّرَ ﴿مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ عَلَيْهِ، وَهُوَ شَاةٌ يَذْبَحُهَا بَعْدَ الْإِحْرَامِ بِهِ، وَالْأَفْضَلُ يَوْمَ النَّحْرِ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الْهَدْيَ لِفَقْدِهِ أَوْ فَقْدِ ثَمَنِهِ ﴿فَصِيَامُ﴾ أَيْ: فَعَلَيْهِ صِيَامُ ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ أَيْ: فِي حَالِ الْإِحْرَامِ بِهِ، فَيَجِبُ حِينَئِذٍ أَنْ يُحْرِمَ قَبْلَ السَّابِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَالْأَفْضَلُ

---

(١) ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾ أي: لا توجد في الحرم ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: تقو بسببه يفتنون الناس عن دينهم، ويمنعونهم من إظهاره والدعوة إليه ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصا أي: لا يعبد دونه شيء في الحرم، ولا يخشى فيه غيره، فلا يفتن أحد في دينه، ولا يؤذى لأجله. [القاسمي (٢/ ٥٩)].

(٢) فسر محبة الله بالإثابة، وهذا تأويل وصرف للكلام عن ظاهره وهذه طريقة من ينفي عن الله حقيقة المحبة، ويفسرها بالثواب أو إرادة الثواب، وهذه طريقة المؤلف عفا الله عنه كما سيأتي في نظائر هذه الآية. [التعليق والإيضاح للبراك ص:٤٠٧].

قَبْلَ ٱلسَّادِسِ لِكَرَاهَةِ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَلَا يَجُوزُ صَوْمُهَا أَيَّامَ ٱلتَّشْرِيقِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلَي ٱلشَّافِعِيِّ ﴿**وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ**﴾ إِلَى وَطَنِكُمْ مَكَّةَ أَوْ غَيْرِهَا، وَقِيلَ: إِذَا فَرَغْتُمْ مِنْ أَعْمَالِ ٱلْحَجِّ، وَفِيهِ ٱلْتِفَاتٌ عَنِ ٱلْغِيبَةِ ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾ جُمْلَةٌ تَأْكِيدٍ لِمَا قَبْلَهَا ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَذْكُورُ مِنْ وُجُوبِ ٱلْهَدْيِ أَوِ ٱلصِّيَامِ عَلَى مَنْ تَمَتَّعَ ﴿**لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**﴾ بِأَنْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى دُونِ مَرْحَلَتَيْنِ مِنَ ٱلْحَرَمِ عِنْدَ ٱلشَّافِعِيِّ، فَإِنْ كَانَ فَلَا دَمَ عَلَيْهِ وَلَا صِيَامَ وَإِنْ تَمَتَّعَ. وَفِي ذِكْرِ ٱلْأَهْلِ إِشْعَارٌ بِاشْتِرَاطِ ٱلِاسْتِيطَانِ، فَلَوْ أَقَامَ قَبْلَ أَشْهُرِ ٱلْحَجِّ وَلَمْ يَسْتَوْطِنْ وَتَمَتَّعَ فَعَلَيْهِ ذَلِكَ، وَهُوَ أَحَدُ وَجْهَيْنِ عِنْدَ ٱلشَّافِعِيِّ، وَٱلثَّانِي لَا وَ«ٱلْأَهْلُ» كِنَايَةٌ عَنِ ٱلنَّفْسِ وَأُلْحِقَ بِٱلْمُتَمَتِّعِ فِيمَا ذُكِرَ بِٱلسُّنَّةِ ٱلْقَارِنُ وَهُوَ مَنْ أَحْرَمَ بِٱلْعُمْرَةِ وَٱلْحَجِّ مَعًا أَوْ يُدْخِلُ ٱلْحَجَّ عَلَيْهَا قَبْلَ ٱلطَّوَافِ ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ**﴾ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ وَيَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴿**وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦**﴾ لِمَنْ خَالَفَهُ. ﴿**ٱلْحَجُّ**﴾ وَقْتُهُ ﴿**أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ**﴾ شَوَّالٌ وَذُو ٱلْقَعْدَةِ وَعَشْرُ لَيَالٍ مِنْ ذِي ٱلْحِجَّةِ، وَقِيلَ كُلُّهُ ﴿**فَمَن فَرَضَ**﴾ عَلَى نَفْسِهِ ﴿**فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ**﴾ بِٱلْإِحْرَامِ بِهِ ﴿**فَلَا رَفَثَ**﴾ جِمَاعَ فِيهِ ﴿**وَلَا فُسُوقَ**﴾ مَعَاصٍ ﴿**وَلَا جِدَالَ**﴾ خِصَامَ ﴿**فِي ٱلْحَجِّ**﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ ٱلْأَوَّلَيْنِ، وَٱلْمُرَادُ فِي ٱلثَّلَاثَةِ ٱلنَّهْيُ ﴿**وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ**﴾ كَصَدَقَةٍ ﴿**يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ**﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ، وَنَزَلَ فِي أَهْلِ ٱلْيَمَنِ وَكَانُوا يَحُجُّونَ بِلَا زَادٍ فَيَكُونُونَ كَلًّا عَلَى ٱلنَّاسِ: ﴿**وَتَزَوَّدُواْ**﴾ مَا يُبَلِّغُكُمْ لِسَفَرِكُمْ ﴿**فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ**﴾ مَا يُتَّقَى بِهِ سُؤَالُ ٱلنَّاسِ وَغَيْرُهُ[1] ﴿**وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧**﴾ ذَوِي ٱلْعُقُولِ. ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ**﴾ فِي ﴿**أَن تَبْتَغُواْ**﴾ تَطْلُبُوا ﴿**فَضْلًا**﴾ رِزْقًا ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ بِٱلتِّجَارَةِ فِي ٱلْحَجِّ، نَزَلَ رَدًّا لِكَرَاهَتِهِمْ ذَلِكَ ﴿**فَإِذَآ أَفَضْتُم**﴾ دَفَعْتُمْ ﴿**مِّنْ عَرَفَٰتٍ**﴾ بَعْدَ ٱلْوُقُوفِ بِهَا ﴿**فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ**﴾ بَعْدَ ٱلْمَبِيتِ بِمُزْدَلِفَةَ، بِٱلتَّلْبِيَةِ وَٱلتَّهْلِيلِ وَٱلدُّعَاءِ ﴿**عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ**﴾ هُوَ جَبَلٌ فِي آخِرِ ٱلْمُزْدَلِفَةِ يُقَالُ لَهُ قُزَحُ، وَفِي ٱلْحَدِيثِ: أَنَّهُ ﷺ وَقَفَ بِهِ يَذْكُرُ ٱللهَ وَيَدْعُو حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2] ﴿**وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ**﴾ لِمَعَالِمِ دِينِهِ وَمَنَاسِكِ حَجِّهِ، وَٱلْكَافُ لِلتَّعْلِيلِ ﴿**وَإِن**﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿**كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ**﴾ قَبْلَ هُدَاهُ ﴿**لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨**﴾ ﴿**ثُمَّ أَفِيضُواْ**﴾ يَا قُرَيْشُ[3] ﴿**مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ**﴾ أَيْ: مِنْ عَرَفَةَ بِأَنْ تَقِفُوا بِهَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا يَقِفُونَ بِٱلْمُزْدَلِفَةِ تَرَفُّعًا

---

(١) قيل: احملوا زاداً في السفر، وقيل: تزوّدوا للآخرة بالتقوى، وهو الأرجح لما بعده. [ابن جُزَيّ (١/ ١١٥)].

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) فيه قولان: أحدهما: أنه أمر للجنس وهم قريش ومن تبعهم كانوا يقفون بالمزدلفة لأنها حرم، ولا يقفون بعرفة مع سائر الناس؛ لأنها حل، ويقولون: نحن أهل الحرم لا نقف إلا بالحرم، فأمرهم الله تعالى أن يقفوا بعرفة مع الناس ويفيضوا منها، وقد كان النبي ﷺ قبل ذلك يقف مع الناس بعرفة؛ توفيقاً من الله تعالى له، والقول الثاني: أنها خطاب لجميع الناس، ومعناها: أفيضوا من المزدلفة إلى منى، فـ﴿ثُمَّ﴾:

عَنِ الْوُقُوفِ مَعَهُمْ، وَ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرْتِيبِ فِي الذِّكْرِ ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَّحِيمٌ ١٩٩﴾ بِهِمْ. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم﴾ أَدَّيْتُمْ ﴿مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ عِبَادَاتِ حَجِّكُمْ، بِأَنْ رَمَيْتُمْ جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَطُفْتُمْ وَاسْتَقْرَرْتُمْ بِمِنًى ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بِالتَّكْبِيرِ وَالثَّنَاءِ ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ كَمَا كُنْتُمْ تَذْكُرُونَهُمْ عِنْدَ فَرَاغِ حَجِّكُمْ بِالْمُفَاخَرَةِ ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَنَصْبُ ﴿أَشَدَّ﴾ عَلَى الْحَالِ مِنْ ﴿ذِكْرًا﴾ الْمَنْصُوبِ بِـ«اذْكُرُوا» إِذْ لَوْ تَأَخَّرَ عَنْهُ لَكَانَ صِفَةً لَهُ[1] ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا﴾ نَصِيبًا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فَيُؤْتَاهُ فِيهَا ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ٢٠٠﴾ نَصِيبٍ. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نِعْمَةً ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ هِيَ الْجَنَّةُ ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ بِعَدَمِ دُخُولِهَا، وَهَذَا بَيَانٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ وَلِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْقَصْدُ بِهِ الْحَثُّ عَلَى طَلَبِ خَيْرِ الدَّارَيْنِ. كَمَا وَعَدَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ ثَوَابٌ ﴿مِّـ﴾ ـنْ أَجْلِ ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾ عَمِلُوا مِنَ الْحَجِّ وَالدُّعَاءِ ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٢٠٢﴾ يُحَاسِبُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي قَدْرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ[2]. ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بِالتَّكْبِيرِ عِنْدَ رَمْيِ الْجَمَرَاتِ ﴿فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ أَيْ: أَيَّامَ التَّشْرِيقِ الثَّلَاثَةَ ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ أَيِ: اسْتَعْجَلَ بِالنَّفْرِ مِنْ مِنًى ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ أَيْ: فِي ثَانِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ رَمْيِ جِمَارِهِ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بِالتَّعْجِيلِ ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ بِهَا حَتَّى بَاتَ لَيْلَةَ الثَّالِثِ وَرَمَى جِمَارَهُ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بِذَلِكَ، أَيْ: هُمْ مُخَيَّرُونَ فِي ذَلِكَ، وَنَفْيُ الْإِثْمِ ﴿لِمَنِ

على هذا القول على بابها من الترتيب، وأما على القول الأول فليست للترتيب، بل للعطف خاصة. [ابن جُزَيّ (١/ ١١٥)].

(١) في هذا الإعراب نظرٌ، والصواب: أنّه نائبٌ عن المفعول المطلق. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٤٢٨)]. وانظر التحرير والتنوير (٢/ ٢٤٥).

(٢) يُشيرُ إلى ما رواه الحاكم وصححه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء. وقيل: إن مقدار اليوم خمسين ألف سنة لحديث: «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». رواه أبو يعلى (٦٠٢٥) وابن حبان (٧٣٣٣). قال صديق حسن في تفسيره (١/ ٤١١): الحساب مصدر كالمحاسبة وأصله العدد والمراد هنا المحسوب سمي حساباً تسمية للمفعول بالمصدر. والمعنى: أن حسابه لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه فبادروا ذلك بأعمال الخير، أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وأعمالهم ليدل ذلك على كمال قدرته، لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يحتاج إلى آلة ولا إمارة ولا مساعدة فيحاسبهم في حالة واحدة كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] ... وهذا تمثيل للسرعة لا تعيين لمقدار زمن الحساب، وقيل: معناه أن الله يعلم العباد ما لهم وما عليهم، وهذا أبعد، وقيل: المحاسبة المجازاة ويدل عليه قوله: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق: ٨]، وقيل: معناه أنه سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، وقيل: معنى الآية أن إتيان القيامة قريب لا محالة. وفيه إشارة إلى المبادرة بالتوبة والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة.

ﱡٱتَّقَىٰۗﱠ اللهَ فِي حَجِّهِ؛ لِأَنَّهُ الْحَاجُّ فِي الْحَقِيقَةِ ﱡوَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣ﱠ فِي الْآخِرَةِ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﱡوَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاﱠ وَلَا يُعْجِبُكَ فِي الْآخِرَةِ لِمُخَالَفَتِهِ لِاعْتِقَادِهِ ﱡوَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦﱠ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ ﱡوَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ﱠ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ لِعَدَاوَتِهِ لَكَ، وَهُوَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ، كَانَ مُنَافِقًا حُلْوَ الْكَلَامِ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَحْلِفُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ وَمُحِبٌّ لَهُ فَيُدْنِي مَجْلِسَهُ فَأَكْذَبَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ. وَمَرَّ بِزَرْعٍ وَحُمُرٍ لِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَأَحْرَقَهُ وَعَقَرَهَا لَيْلًا(١)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﱡوَإِذَا تَوَلَّىٰﱠ انْصَرَفَ عَنْكَ ﱡسَعَىٰﱠ مَشَى ﱡفِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَﱠ مِنْ جُمْلَةِ الْفَسَادِ(٢) ﱡوَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ﱠ أَيْ: لَا يَرْضَى بِهِ(٣). ﱡوَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَﱠ فِي فِعْلِكَ ﱡأَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُﱠ حَمَلَتْهُ الْأَنَفَةُ وَالْحَمِيَّةُ عَلَى الْعَمَلِ ﱡبِٱلۡإِثۡمِﱠ الَّذِي أُمِرَ بِاتِّقَائِهِ ﱡفَحَسۡبُهُۥﱠ كَافِيهِ ﱡجَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ﱠ الْفِرَاشُ هِيَ. ﱡوَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِيﱠ يَبِيعُ ﱡنَفۡسَهُﱠ أَيْ: يَبْذُلُهَا فِي طَاعَةِ اللهِ ﱡٱبۡتِغَآءَﱠ طَلَبَ ﱡمَرۡضَاتِ ٱللَّهِﱠ رِضَاهُ، وَهُوَ صُهَيْبٌ لَمَّا آذَاهُ الْمُشْرِكُونَ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَرَكَ لَهُمْ مَالَهُ ﱡوَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ﱠ حَيْثُ أَرْشَدَهُمْ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ(٤). وَنَزَلَ فِي

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٣٢٤).

(٢) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أدبر وانصرف عنك. وقيل: إذا غلب وصار واليا ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل. [البيضاوي (١/ ١٣٣)]. وقال بعض المحققين: إن إهلاك الحرث والنسل كناية عن الإيذاء الشديد، وإن التعبير به عن ذلك صار من قبيل المثل؛ فالمعنى: يؤذي مسترسلا في إفساده ولو أدى إلى إهلاك الحرث والنسل. [القاسمي (٢/ ٨٣)].

(٣) فسر المحبة بالرضا، والمحبة والرضا متغايران لكن متلازمان إثباتا ونفيا، والأشاعرة لا يثبتون المحبة ولا الرضا، ولذا يفسرونهما بالإرادة. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٤٣٤)].

(٤) يشري بمعنى يبيع، أي: يبيع نفسه في مرضاة الله، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال قتادة: هم المهاجرون والأنصار، ومثله قوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] وأصله الاستبدال ومنه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] والمرضاة الرضا، قال ابن عباس: نزلت في سرية الرجيع وكانت بعد أحد، وفي البخاري تمام قصته عن حديث أبي هريرة فإن شئت فارجع إليه. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ وجه ذكر الرأفة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم ويثيبهم عليه، فكان ذلك رأفة لهم ولطفاً بهم، ومن رأفته أن جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أنه يقبل توبة عبده وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن المصر على الكفر ولو مائة سنة إذا تاب ولو لحظة أسقط عنه عقاب تلك السنين وأعطاه الثواب الدائم. ومن رأفته أن نفس العباد وأموالهم له ثم أنه يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً. وهذه أربعة أقسام اشتملت عليها تلك الآيات

عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا عَظَّمُوا السَّبْتَ وَكَرِهُوا الْإِبِلَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ[(١)]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِى ٱلسِّلۡمِ﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَكَسْرِهَا: الْإِسْلَامُ ﴿كَآفَّةً﴾ حَالٌ مِنَ ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ أَيْ: فِي جَمِيعِ شَرَائِعِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ﴾ طُرُقَ ﴿ٱلشَّيۡطَـٰنِۚ﴾ أَيْ: تَزْيِينَهُ بِالتَّفْرِيقِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٠٨﴾ بَيِّنُ الْعَدَاوَةِ. ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾ مِلْتُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي جَمِيعِهِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُ﴾ الْحُجَجُ الظَّاهِرَةُ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ عَنِ انْتِقَامِهِ مِنْكُمْ ﴿حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾ فِي صُنْعِهِ[(٢)]. ﴿هَلۡ﴾ مَا ﴿يَنظُرُونَ﴾ يَنْتَظِرُ التَّارِكُونَ الدُّخُولَ فِيهِ ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: أَمْرُهُ[(٣)]؛ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوۡ يَأۡتِىَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ [النحل: ٣٣]، أَيْ: عَذَابُهُ ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ جَمْعُ ظُلَّةٍ ﴿مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ السَّحَابِ[(٤)] ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ تَمَّ أَمْرُ هَلَاكِهِمْ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٢١٠﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ، فِي الْآخِرَةِ فَيُجَازِي. ﴿سَلۡ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَنِىٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ﴾ تَبْكِيتًا ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَـٰهُم﴾ ﴿كَمۡ﴾: اسْتِفْهَامِيَّةٌ

الكريمات: أولها: راغب في الدنيا فقط ظاهراً وباطناً، والثاني: راغب فيها وفي الآخرة كذلك، والثالث: راغب في الآخرة وفي الدنيا باطناً، والرابع: راغب في الآخرة ظاهراً وباطناً معرض عن الدنيا كذلك. [صديق حسن (١/ ٤١٨)].

(١) زعم عكرمة أنها نزلت في نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم، كعبد الله بن سلام، وثعلبة وأسد بن عبيد وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يسبتوا، وأن يقوموا بالتوراة ليلا. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها. وفي ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت، وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفعه وبطلانه، والتعويض عنه بأعياد الإسلام. [ابن كثير (١/ ٥٦٦)].

(٢) لو قال: في شرعه؛ لكان أولى، فإنه تعالى حكيمٌ في شرعه وقدره وفي خلقه وأمره. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٤٣٩)].

(٣) يريد أن الذي يأتي أمرُ الله؛ وهو عقابه، وهذا تأويلٌ وصرفٌ للكلام عن ظاهره، ومقصوده: أن الله لا يأتي، وهذا راجعٌ إلى أن الله لا تقوم به الأفعالُ الاختيارية، وهو مذهب الأشاعرة، وهو مذهبٌ باطلٌ؛ لأنه خلافُ ما دلَّت عليه نصوصُ الكتاب والسنَّة من أنه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ومذهبُ السَّلفِ إثباتُ الأفعالِ الاختيارية؛ كالاستواء والنزول والمجيء، فالصوابُ: إجراءُ الآيةِ على ظاهرها؛ وهو أَنَّ اللهَ نفسه يأتي، ونظيرُ هذه الآية؛ قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال فيها المؤلِّفُ نظيرَ قولِه في هذه الآية. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٤٤٠)]. وقد أبطل ابن القيم من حرف صفة المجيء وفسرها بمجيء أمره؛ من عشرة أوجه. [ينظر: مختصر الصواعق المرسلة (٣/ ٨٥٦-٨٦٠)].

(٤) وصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات آخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه، أو صح عن رسول الله ﷺ. والقول في جميع ذلك من جنس واحد. وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها: إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. والقول في صفاته كالقول في ذاته. والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. [القاسمي (٢/ ٨٨)].

مُعَلِّقَةٌ ﴿سَلْ﴾ عَنِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي، وَهِيَ ثَانِي مَفْعُولِ «آتَيْنَا»، وَمُمَيِّزُهَا: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ ظَاهِرَةٍ، كَفَلْقِ الْبَحْرِ وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، فَبَدَّلُوهَا كُفْرًا ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبُ الْهِدَايَةِ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ كُفْرًا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢١١﴾ لَهُ. ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بِالتَّمْوِيهِ فَأَحَبُّوهَا(١) ﴿وَ﴾ هُمْ ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لِفَقْرِهِمْ كَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ، أَيْ: يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ وَيَتَعَالَوْنَ عَلَيْهِمْ بِالْمَالِ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشِّرْكَ وَهُمْ هَؤُلَاءِ ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢١٢﴾ أَيْ: رِزْقًا وَاسِعًا فِي الْآخِرَةِ، أَوِ الدُّنْيَا بِأَنْ يَمْلِكَ الْمَسْخُورُ مِنْهُمْ أَمْوَالَ السَّاخِرِينَ وَرِقَابَهُمْ. ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عَلَى الْإِيمَانِ فَاخْتَلَفُوا بِأَنْ آمَنَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إِلَيْهِمْ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بِمَعْنَى الْكُتُبِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿لِيَحْكُمَ﴾ بِهِ ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ مِنَ الدِّينِ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أَيِ: الدِّينِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أَيِ: الْكِتَابَ فَآمَنَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الْحُجَجُ الظَّاهِرَةُ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَمِنْ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ ﴿ٱخْتَلَفَ﴾ وَهِيَ وَمَا بَعْدَهَا مُقَدَّمٌ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْمَعْنَى ﴿بَغْيًۢا﴾ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾ بِإِرَادَتِهِ(٢) ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هِدَايَتَهُ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢١٣﴾ طَرِيقِ الْحَقِّ(٣). وَنَزَلَ فِي جَهْدٍ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ(٤) ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا﴾ لَمْ

---

(١) يقال: من الذي زين لهم؟ قيل: فيه قولان: أحدهما: زينها لهم إبليس بما يمنيهم ويعدهم من شهواتها، قاله ابن كيسان والزجاج. والقول الثاني: أن الله تعالى زينها لهم حين بسطها ووسعها عليهم، فهي همهم وطلبتهم ونيتهم وهم لا يريدون غيرها، كقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] وإنما فعل الله ذلك بهم للابتلاء، كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: ٧] ويدل على هذا قراءة حميد: ﴿زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بفتح الزاي يعني الله تعالى. [الواحدي (٤/ ١٠٤)].

(٢) أي بمشيئته، وإرادته؛ ولكنه سبحانه وتعالى لا يشاء شيئاً إلا لحكمة. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٣/ ٣٠)]. قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

(٣) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. رواه مسلم.

(٤) يشير إلى سبب النزول وذلك يوم الأحزاب. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٤٤٦)].

﴿يَأۡتِكُم مَّثَلُ﴾ شِبْهُ مَا أَتَى ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمِحَنِ، فَتَصْبِرُوا كَمَا صَبَرُوا ﴿مَّسَّتۡهُمُ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُبَيِّنَةٌ مَا قَبْلَهَا ﴿ٱلۡبَأۡسَآءُ﴾ شِدَّةُ الْفَقْرِ ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ الْمَرَضُ ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ أُزْعِجُوا بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ﴾ بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ، أَيْ: قَالَ ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ اسْتِبْطَاءً لِلنَّصْرِ لِتَنَاهِي الشِّدَّةِ عَلَيْهِمْ: ﴿مَتَىٰ﴾ يَأْتِي ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ الَّذِي وُعِدْنَاهُ[1]؟ فَأُجِيبُوا مِنْ قِبَلِ اللهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ إِتْيَانُهُ. ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مَاذَا﴾ أَيِ: الَّذِي ﴿يُنفِقُونَۖ﴾ هُ؟ وَالسَّائِلُ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ، وَكَانَ شَيْخًا ذَا مَالٍ، فَسَأَلَ ﷺ عَمَّا يُنْفِقُ وَعَلَى مَنْ يُنْفِقُ ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ بَيَانٌ لِـ ﴿مَآ﴾ شَامِلٌ لِلْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَفِيهِ بَيَانُ الْمُنْفَقِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ شِقَّيِ السُّؤَالِ، وَأَجَابَ عَنِ الْمَصْرِفِ الَّذِي هُوَ الشِّقُّ الْآخَرُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أَيْ: هُمْ أَوْلَى بِهِ ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ إِنْفَاقٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾ فَمُجَازٍ عَلَيْهِ.

﴿كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ لِلْكُفَّارِ ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ﴾ مَكْرُوهٌ ﴿لَّكُمۡۖ﴾ طَبْعًا لِمَشَقَّتِهِ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ لِمَيْلِ النَّفْسِ إِلَى الشَّهَوَاتِ الْمُوجِبَةِ لِهَلَاكِهَا، وَنُفُورِهَا عَنِ التَّكْلِيفَاتِ الْمُوجِبَةِ لِسَعَادَتِهَا، فَلَعَلَّ لَكُمْ فِي الْقِتَالِ وَإِنْ كَرِهْتُمُوهُ خَيْرًا؛ لِأَنَّ فِيهِ إِمَّا الظَّفَرُ وَالْغَنِيمَةُ أَوِ الشَّهَادَةُ وَالْأَجْرُ، وَفِي تَرْكِهِ وَإِنْ أَحْبَبْتُمُوهُ شَرًّا؛ لِأَنَّ فِيهِ الذُّلَّ وَالْفَقْرَ وَحِرْمَانَ الْأَجْرِ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ ذَلِكَ، فَبَادِرُوا إِلَى مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ. وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ سَرَايَاهُ وَعَلَيْهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ جَحْشٍ، فَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ وَقَتَلُوا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ آخِرَ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِمْ بِرَجَبٍ، فَعَيَّرَهُمُ الْكُفَّارُ بِاسْتِحْلَالِهِ، فَنَزَلَ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ الْمُحَرَّمِ ﴿قِتَالٖ فِيهِۖ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞ﴾ عَظِيمٌ وِزْرًا[2]، مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ ﴿وَصَدٌّ﴾ مُبْتَدَأٌ، مَنْعٌ لِلنَّاسِ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ بِاللهِ ﴿وَ﴾ صَدٌّ عَنْ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ

---

(١) قالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، أي: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول ألا إن نصر الله قريب. ولا ملجىء لهذا التكلف لأن قول الرسول ومن معه ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ ليس فيه إلَّا استعجال النصر من الله سبحانه، وليس فيه ما زعموه من الشك والارتياب حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف. [الشوكاني (١/ ٢٤٦)].

(٢) أي: القتال فيه أمر كبير مستنكر، والشهر الحرام المراد به الجنس، وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماء ولا تغير على عدو، والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد، وهذه الأمور أعظم ذنبًا وأشد إثمًا من القتال في الشهر الحرام كذا قال المبرد وغيره، قيل: إنها محكمة وإنه لا يجوز الغزو في الشهر الحرام إلا بطريق الدفع، وقيل منسوخة بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥] وبقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦] وبه قال الجمهور. [صديق حسن (١/ ٤٣٥)].

﴿ٱلْحَرَامِ﴾ أَي: مَكَّةَ ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ وَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ ﴿أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ وِزْرًا ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الْقِتَالِ فِيهِ ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ الشِّرْكُ مِنْكُمْ ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ لَكُمْ فِيهِ ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿حَتَّىٰ﴾ كَيْ ﴿يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ إِلَى الْكُفْرِ ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الصَّالِحَةُ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فَلَا اعْتِدَادَ بِهَا وَلَا ثَوَابَ عَلَيْهَا، وَالتَّقْيِيدُ بِالْمَوْتِ عَلَيْهِ يُفِيدُ أَنَّهُ لَوْ رَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ لَمْ يَبْطُلْ عَمَلُهُ فَيُثَابُ عَلَيْهِ وَلَا يُعِيدُهُ كَالْحَجِّ مَثَلًا، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ[1] ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾. وَلَمَّا ظَنَّ السَّرِيَّةُ أَنَّهُمْ إِنْ سَلِمُوا مِنَ الْإِثْمِ فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ أَجْرٌ، نَزَلَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾ فَارَقُوا أَوْطَانَهُمْ ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ثَوَابَهُ[2] ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ بِهِمْ. ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الْقِمَارِ مَا حُكْمُهُمَا؟ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فِيهِمَآ﴾ أَيْ: فِي تَعَاطِيهِمَا ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ عَظِيمٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْمُثَلَّثَةِ لِمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِهِمَا مِنَ الْمُخَاصَمَةِ وَالْمُشَاتَمَةِ وَقَوْلِ الْفُحْشِ ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ بِاللَّذَّةِ وَالْفَرَحِ[3] فِي الْخَمْرِ وَإِصَابَةِ الْمَالِ بِلَا كَدٍّ فِي الْمَيْسِرِ ﴿وَإِثْمُهُمَآ﴾ أَيْ: مَا يَنْشَأُ عَنْهُمَا مِنَ الْمَفَاسِدِ ﴿أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ ﴿مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وَلَمَّا نَزَلَتْ

---

(١) هذه الآية الكريمة تدل على أن الردة لا تحبط العمل إلا بقيد الموت على الكفر، بدليل قوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الردة تحبط العمل مطلقا، ولو رجع إلى الإسلام فكل ما عمل قبل الردة أحبطته الردة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٥] وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر: ٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] والجواب عن هذا أن هذه من مسائل تعارض المطلق والمقيد، فيحمل المطلق على المقيد، فتقيد الآيات المطلقة بالموت على الكفر وهذا مقتضى الأصول، وعليه الإمام الشافعي ومن وافقه، وخالف مالك في هذه المسألة وقدم آيات الإطلاق، وقول الشافعي في هذه المسألة أجرى على الأصول، والعلم عند الله تعالى. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٤٦)].

(٢) المراد بالرحمة هنا يحتمل أن تكون الرحمة التي هي صفته، أي: أن يرحمهم، ويحتمل أن يكون المراد ما كان من آثار رحمته؛ وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ». أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦). فجعل المخلوق رحمة له؛ لأنه من آثار رحمة الله، ولهذا قال: «أَرْحَمُ بِكِ» أما الرحمة التي هي وصفه فهي شيء آخر؛ فالآية محتملة للمعنيين؛ وكلاهما متلازمان؛ لأن الله إذا رحم عبداً أدخله الجنة التي هي رحمته. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٣/ ٦٤)].

(٣) الخمر كل ما أسكر على وجه اللذة، والطرب. [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/ ٦٧)] ولهذا السكران يرى نفسه في بحبوحة من العيش، وكأنه ملك من الملوك وكأنه مالك لكل شيء، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه: (وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا)، وكما قال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه للنبي ﷺ وكان قد ثمل من شرب الخمر: هل أنتم إلا عبيد أبي.. وهي لذة متخيلة موهومة.

شَرِبَهَا قَوْمٌ وَامْتَنَعَ عَنْهَا آخَرُونَ، إِلَى أَنْ حَرَّمَتْهَا آيَةُ «الْمَائِدَةِ»(١) ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ أَيْ: مَا قَدْرُهُ؟ ﴿قُلِ﴾ أَنْفِقُوا ﴿ٱلْعَفْوَۗ﴾ أَيِ: الْفَاضِلَ عَنِ الْحَاجَةِ، وَلَا تُنْفِقُوا مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَتُضَيِّعُوا أَنْفُسَكُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ بِتَقْدِيرِ: هُوَ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: كَمَا بُيِّنَ لَكُمْ مَا ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي﴾ أَمْرِ ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۗ﴾ فَتَأْخُذُونَ بِالْأَصْلَحِ لَكُمْ فِيهِمَا ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ﴾ وَمَا يَلْقَوْنَهُ مِنَ الْحَرَجِ فِي شَأْنِهِمْ، فَإِنْ وَاكَلُوهُمْ يَأْثَمُوا، وَإِنْ عَزَلُوا مَا لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَصَنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا وَحْدَهُمْ فَحَرَجٌ ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ﴾ فِي أَمْوَالِهِمْ، بِتَنْمِيَتِهَا وَمُدَاخَلَتِكُمْ ﴿خَيْرٌۖ﴾ مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ أَيْ: تَخْلِطُوا نَفَقَتَكُمْ بِنَفَقَتِهِمْ ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أَيْ: فَهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، وَمِنْ شَأْنِ الْأَخِ أَنْ يُخَالِطَ أَخَاهُ، أَيْ: فَلَكُمْ ذَلِكَ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لِأَمْوَالِهِمْ بِمُخَالَطَتِهِ ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ بِهَا، فَيُجَازِي كُلًّا مِنْهُمَا ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لَضَيَّقَ عَلَيْكُمْ بِتَحْرِيمِ الْمُخَالَطَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴿حَكِيمٌ ٢٢٠﴾ فِي صُنْعِهِ(٢). ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾ تَتَزَوَّجُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أَيِ: الْكَافِرَاتِ ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ حُرَّةٍ؛ لِأَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا الْعَيْبُ عَلَى مَنْ تَزَوَّجَ أَمَةً، وَتَرْغِيبُهُ فِي نِكَاحِ حُرَّةٍ مُشْرِكَةٍ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ﴾ لِجَمَالِهَا وَمَالِهَا، وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِغَيْرِ الْكِتَابِيَّاتِ بِآيَةِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥]، ﴿وَلَا تُنكِحُواْ﴾ تُزَوِّجُوا ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أَيِ: الْكُفَّارَ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ﴾ لِمَالِهِ وَجَمَالِهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أَيْ: أَهْلُ الشِّرْكِ ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ بِدُعَائِهِمْ إِلَى الْعَمَلِ الْمُوجِبِ لَهَا، فَلَا تَلِيقُ مُنَاكَحَتُهُمْ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أَيِ: الْعَمَلِ الْمُوجِبِ لَهُمَا ﴿بِإِذْنِهِۦۖ﴾ بِإِرَادَتِهِ(٣) فَتَجِبُ إِجَابَتُهُ بِتَزْوِيجِ أَوْلِيَائِهِ ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

(٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء، ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه، تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئا عبثا، بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئا مجردا عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتمام حكمته ورحمته. [السعدي (ص:٩٩)].

(٣) الإذن على قسمين: إذن كوني: وهو ما يتعلق بالمخلوقات والتقديرات، وإذن شرعي: وهو ما يتعلق بالتشريعات، فمن الأول قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ يَتَّعِظُونَ. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أَيِ: الْحَيْضِ، أَوْ مَكَانِهِ مَاذَا يُفْعَلُ بِالنِّسَاءِ فِيهِ؟ ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ قَذَرٌ، أَوْ مَحِلُّهُ ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾ اتْرُكُوا وَطْأَهُنَّ ﴿فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ أَيْ: وَقْتَهُ، أَوْ مَكَانَهُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ بِالْجِمَاعِ ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بِسُكُونِ الطَّاءِ وَتَشْدِيدِهَا وَالْهَاءِ، وَفِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الطَّاءِ، أَيْ: يَغْتَسِلْنَ بَعْدَ انْقِطَاعِهِ ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بِالْجِمَاعِ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ بِتَجَنُّبِهِ فِي الْحَيْضِ وَهُوَ الْقُبُلُ، وَلَا تَعْدُوهُ إِلَى غَيْرِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ يُثِيبُ وَيُكْرِمُ[1] ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ مِنَ الْأَقْذَارِ. ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أَيْ: مَحِلُّ زَرْعِكُمُ الْوَلَدَ ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ أَيْ: مَحِلَّهُ وَهُوَ الْقُبُلُ ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ مِنْ قِيَامٍ وَقُعُودٍ وَاضْطِجَاعٍ وَإِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ، نَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ الْيَهُودِ: مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي قُبُلِهَا، أَيْ: مِنْ جِهَةِ دُبُرِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ[2] ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، كَالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْجِمَاعِ[3] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ﴾ بِالْبَعْثِ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْهُ بِالْجَنَّةِ. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَيِ: الْحَلِفَ بِهِ ﴿عُرْضَةً﴾ عِلَّةً مَانِعَةً ﴿لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أَيْ: نَصْبًا لَهَا بِأَنْ تُكْثِرُوا الْحَلِفَ بِهِ لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فَتُكْرَهُ الْيَمِينُ عَلَى ذَلِكَ، وَيُسَنُّ فِيهِ الْحِنْثُ وَيُكَفِّرُ، بِخِلَافِهَا عَلَى فِعْلِ الْبِرِّ وَنَحْوِهِ فَهِيَ طَاعَةٌ، الْمَعْنَى: لَا تَمْتَنِعُوا مِنْ فِعْلِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْبِرِّ وَنَحْوِهِ إِذَا حَلَفْتُمْ عَلَيْهِ بَلِ ائْتُوهُ وَكَفِّرُوا؛ لِأَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا الِامْتِنَاعُ مِنْ ذَلِكَ[4]

[يونس: ٥٩] يعني شرع لكم؛ والظاهر أن الإذن في هذه الآية والله أعلم يشمل القسمين؛ لأن دخول الإنسان فيما يكون سبباً للجنة، والمغفرة كوني؛ وما يكون سبباً للجنة، والمغفرة هذا مما شرعه الله. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٣/ ٧٨)].

(١) [هذا] تفسير للمحبة بلازمها، فإن من لازم محبة الله للعبد الإثابة والإكرام، وهذا التأويل يتضمَّن نفي حقيقة المحبة عن الله؛ فهو تأويل مبني على التعطيل، وهذا سبيل المعتزلة ومن تبعهم كالأشاعرة، وأهل السنة والجماعة يثبتون لله حقيقة المحبة ويجرون النصوص على ظاهرها مؤمنين بها مثبتين لما تدل عليه من صفات الله من غير تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تكييف، وهذا معنى قول من قال من السلف: «أمروها كما جاءت بلا كيف»، في آيات الصفات وأحاديثها. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٤٧٢)]. قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي: يحب التوابين من الذنوب. [البغوي (١/ ٢٥٩)].

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٨).

(٣) أي: خيراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، وقيل: ابتغاء الولد، وقيل: التزويج بالعفائف، وقيل: التسمية والدعاء عند الجماع، وقيل غير ذلك. [الشوكاني (١/ ٢٦٠)].

(٤) العرضة بضم العين، فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة وهي اسم ما تعرضه دون الشيء، من عرض العود على الإناء. فيعترض دونه ويصير حاجزا ومانعا منه. وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد ثم يقول:

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِكُمْ ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ بِأَحْوَالِكُمْ. ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾ الْكَائِنِ ﴿فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وَهُوَ مَا يَسْبِقُ إِلَيْهِ اللِّسَانُ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ الْحَلِفِ، نَحْوُ: وَاللهِ، وَبَلَى وَاللهِ، فَلَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا كَفَّارَةَ ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أَيْ: قَصَدَتْهُ مِنَ الْأَيْمَانِ إِذَا حَنِثْتُمْ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَا كَانَ مِنَ اللَّغْوِ ﴿حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْ مُسْتَحِقِّهَا. ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أَيْ: يَحْلِفُونَ أَنْ لَا يُجَامِعُوهُنَّ ﴿تَرَبُّصُ﴾ انْتِظَارُ ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو﴾ رَجَعُوا فِيهَا أَوْ بَعْدَهَا عَنِ الْيَمِينِ إِلَى الْوَطْءِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ مَا أَتَوْهُ مِنْ ضَرَرِ الْمَرْأَةِ بِالْحَلِفِ ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ بِهِمْ. ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أَيْ: عَلَيْهِ، بِأَنْ لَمْ يَفِيئُوا فَلْيُوقِعُوهُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِقَوْلِهِمْ ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ بِعَزْمِهِمْ، الْمَعْنَى: لَيْسَ لَهُمْ بَعْدَ تَرَبُّصِ مَا ذُكِرَ إِلَّا الْفَيْئَةُ أَوِ الطَّلَاقُ. ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ أَيْ: يَنْتَظِرْنَ ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ عَنِ النِّكَاحِ ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ تَمْضِي مِنْ حِينِ الطَّلَاقِ، جَمْعُ «قَرْءٍ» بِفَتْحِ الْقَافِ وَهُوَ الطُّهْرُ أَوِ الْحَيْضُ قَوْلَانِ(١)، وَهَذَا فِي الْمَدْخُولِ بِهِنَّ، أَمَّا غَيْرُهُنَّ فَلَا عِدَّةَ عَلَيْهِنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وَفِي غَيْرِ الْآيِسَةِ وَالصَّغِيرَةِ: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، وَالْحَوَامِلُ فَعِدَّتُهُنَّ: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، كَمَا فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ، وَالْإِمَاءُ فَعِدَّتُهُنَّ قَرْءَانِ بِالسُّنَّةِ(٢) ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ مِنَ الْوَلَدِ أَوِ الْحَيْضِ ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أَزْوَاجُهُنَّ ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ بِمُرَاجَعَتِهِنَّ وَلَوْ أَبَيْنَ ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: فِي زَمَنِ التَّرَبُّصِ ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ بَيْنَهُمَا، لَا إِضْرَارَ الْمَرْأَةِ، وَهُوَ تَحْرِيضٌ عَلَى قَصْدِهِ، لَا شَرْطٌ لِجَوَازِ الرَّجْعَةِ، وَهَذَا فِي الطَّلَاقِ الرَّجْعِيِّ، وَ﴿أَحَقُّ﴾ لَا تَفْضِيلَ فِيهِ، إِذْ لَا حَقَّ

أخاف الله أن أحنث في يميني. فيترك البر إرادة البر في يمينه ... وعلى هذا التأويل: الآية: كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] والمعنى المتقدم في الآية اتفق عليه جمهور السلف ... روى مسلم (١٦٥٠) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ».. وفي الآية وجه آخر ذكره كثير من المفسرين. وهو النهي عن الجراءة على الله تعالى بكثرة الحلف به. وذلك لأن من أكثر ذكر شيء في معنى من المعاني فقد جعله عرضة له. [القاسمي (٢/١٢٨)].

(١) قروء: جمع قرئ وهو مشترك في اللغة بين الطهر والحيض، فحمله مالك والشافعي على الطهر لقول عائشة رضي الله عنها: «الأقراء هي الأطهار»، وحمله أبو حنيفة على الحيض؛ لأنه الدليل على براءة الرحم، وذلك مقصود العدة. [ابن جُزَيّ (١/ ١٢٢)].

(٢) عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «طَلَاقُ الْأَمَةِ تَطْلِيقَتَانِ، وَقُرْؤُهَا حَيْضَتَانِ». أخرجه أبو داود (٢١٨٩)، وابن ماجه (٢٠٨٠)، والترمذي (١١٨٢).

لِغَيْرِهِمْ مِنْ نِكَاحِهِنَّ فِي الْعِدَّةِ ﴿وَلَهُنَّ﴾ عَلَى الْأَزْوَاجِ ﴿مِثْلُ الَّذِي﴾ لَهُمْ ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ مِنَ الْحُقُوقِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شَرْعًا، مِنْ حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَتَرْكِ الْإِضْرَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فَضِيلَةٌ فِي الْحَقِّ، مِنْ وُجُوبِ طَاعَتِهِنَّ لَهُمْ لِمَا سَاقُوهُ مِنَ الْمَهْرِ وَالْإِنْفَاقِ(١) ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لِخَلْقِهِ. ﴿الطَّلَاقُ﴾ أَيِ: التَّطْلِيقُ الَّذِي يُرَاجَعُ بَعْدَهُ ﴿مَرَّتَانِ﴾ أَيِ: اثْنَتَانِ ﴿فَإِمْسَاكٌ﴾ فَعَلَيْكُمْ إِمْسَاكُهُنَّ بَعْدَهُ، بِأَنْ تُرَاجِعُوهُنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مِنْ غَيْرِ ضِرَارٍ ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾ أَيْ: إِرْسَالٌ لَهُنَّ ﴿بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ مِنَ الْمُهُورِ ﴿شَيْئًا﴾ إِذَا طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أَيِ: الزَّوْجَانِ ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أَيْ: لَا يَأْتِيَا بِمَا حَدَّهُ لَهُمَا مِنَ الْحُقُوقِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُخَافَا﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، فَ ﴿أَلَّا يُقِيمَا﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِيهِ، وَقُرِئَ: بِالْفَوْقَانِيَّةِ فِي الْفِعْلَيْنِ(٢) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ نَفْسَهَا مِنَ الْمَالِ لِيُطَلِّقَهَا، أَيْ: لَا حَرَجَ عَلَى الزَّوْجِ فِي أَخْذِهِ، وَلَا الزَّوْجَةِ فِي بَذْلِهِ(٣) ﴿تِلْكَ﴾ الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزَّوْجُ بَعْدَ الثِّنْتَيْنِ ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ أَيْ: بَعْدَ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ ﴿حَتَّى تَنْكِحَ﴾ تَتَزَوَّجَ ﴿زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ وَيَطَأَهَا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ، رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤) ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أَيِ: الزَّوْجُ الثَّانِي ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أَيِ: الزَّوْجَةِ وَالزَّوْجِ الْأَوَّلِ ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ إِلَى النِّكَاحِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ﴾ الْمَذْكُورَاتُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ يَتَدَبَّرُونَ.

---

(١) كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]، ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعفا ما لها في كثير من الأمور، كالميراث ونحوه. [السعدي (ص:١٠١)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة. [السعدي (ص:١٠٢)].

(٤) جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى النبي ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة القرظي فطلقني فبت طلاقي، فتزوجت عبد الرحمن ابن الزبير، وإنما معه مثل هدبة الثوب، فتبسم النبي ﷺ وقال: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لَا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ». أخرجه البخاري (٢٦٣٩)، ومسلم (١٤٣٣). والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغبا في المرأة، قاصدا لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج ... فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة، عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ». أخرجه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥). [ابن كثير (١/ ٦٢٥)].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قَارَبْنَ انْقِضَاءَ عِدَّتِهِنَّ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بِأَنْ تُرَاجِعُوهُنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ اُتْرُكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾ بِالرَّجْعَةِ ﴿ضِرَارًا﴾ مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾ عَلَيْهِنَّ بِالْإِلْجَاءِ إِلَى الِافْتِدَاءِ وَالتَّطْلِيقِ وَتَطْوِيلِ الْحَبْسِ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بِتَعْرِيضِهَا إِلَى عَذَابِ اللهِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ مَهْزُوءًا بِهَا بِمُخَالَفَتِهَا ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ[1] ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بِأَنْ تَشْكُرُوهَا بِالْعَمَلِ بِهِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ خِطَابٌ لِلْأَوْلِيَاءِ، أَيْ: تَمْنَعُوهُنَّ مِنْ ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ الْمُطَلِّقِينَ لَهُنَّ؛ لِأَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا أَنَّ أُخْتَ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُرَاجِعَهَا فَمَنَعَهَا مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ. كَمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ[2] ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ﴾ أَيِ: الْأَزْوَاجُ وَالنِّسَاءُ ﴿بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ شَرْعًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ النَّهْيُ عَنِ الْعَضْلِ ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ لِأَنَّهُ الْمُنْتَفِعُ بِهِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أَيْ: تَرْكُ الْعَضْلِ ﴿أَزْكَىٰ﴾ خَيْرٌ ﴿لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ لَكُمْ وَلَهُنَّ، لِمَا يُخْشَى عَلَى الزَّوْجَيْنِ مِنَ الرِّيبَةِ بِسَبَبِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ ذَلِكَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ. ﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ أَيْ: لِيُرْضِعْنَ ﴿أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾ عَامَيْنِ ﴿كَامِلَيْنِ﴾ صِفَةٌ مُؤَكِّدَةٌ، ذَلِكَ ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ وَلَا زِيَادَةَ عَلَيْهِ ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أَيِ: الْأَبِ ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ إِطْعَامُ الْوَالِدَاتِ ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ عَلَى الْإِرْضَاعِ إِذَا كُنَّ مُطَلَّقَاتٍ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طَاقَتَهَا ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ أَيْ: بِسَبَبِهِ؛ بِأَنْ تُكْرَهَ عَلَى إِرْضَاعِهِ إِذَا امْتَنَعَتْ ﴿وَلَا﴾ يُضَارَّ ﴿مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أَيْ: بِسَبَبِهِ؛ بِأَنْ يُكَلَّفَ فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَإِضَافَةُ الْوَلَدِ إِلَى كُلٍّ مِنْهُمَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلِاسْتِعْطَافِ ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ أَيْ: وَارِثِ الْأَبِ وَهُوَ الصَّبِيُّ، أَيْ: عَلَى وَلِيِّهِ فِي مَالِهِ ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي عَلَى الْأَبِ، لِلْوَالِدَةِ مِنَ الرِّزْقِ وَالْكِسْوَةِ ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أَيِ: الْوَالِدَانِ ﴿فِصَالًا﴾ فِطَامًا لَهُ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ صَادِرًا ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ اتِّفَاقٍ ﴿مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بَيْنَهُمَا لِتَظْهَرَ مَصْلَحَةُ الصَّبِيِّ فِيهِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ خِطَابٌ لِلْآبَاءِ ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ مَرَاضِعَ غَيْرَ الْوَالِدَاتِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِيهِ ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إِلَيْهِنَّ ﴿مَّآ ءَاتَيْتُم﴾

---

(١) هي السنة المبينة على لسان رسول الله ﷺ مراد الله فيما لم ينص عليه في الكتاب. [القرطبي (٣/ ١٧٥)].

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٩)، والحاكم (٢ / ١٧٤).

أَيْ: أَرَدْتُمْ إِيتَاءَهُ لَهُنَّ مِنَ الْأُجْرَةِ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ بِالْجَمِيلِ كَطِيبِ النَّفْسِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يَمُوتُونَ ﴿مِنكُمْ وَيَذَرُونَ﴾ يَتْرُكُونَ ﴿أَزْوَٰجٗا يَتَرَبَّصْنَ﴾ أَيْ: لِيَتَرَبَّصْنَ ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ بَعْدَهُمْ عَنِ النِّكَاحِ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٖ وَعَشْرٗاۖ﴾ مِنَ اللَّيَالِي، وَهَذَا فِي غَيْرِ الْحَوَامِلِ، أَمَّا الْحَوَامِلُ فَعِدَّتُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ بِآيَةِ الطَّلَاقِ، وَالْأَمَةُ عَلَى النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ بِالسُّنَّةِ(١) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انْقَضَتْ مُدَّةُ تَرَبُّصِهِنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ مِنَ التَّزَيُّنِ وَالتَّعَرُّضِ لِلْخُطَّابِ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾ شَرْعًا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾﴾ عَالِمٌ بِبَاطِنِهِ كَظَاهِرِهِ. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم﴾ لَوَّحْتُمْ ﴿بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ فِي الْعِدَّةِ، كَقَوْلِ الْإِنْسَانِ مَثَلًا: إِنَّكِ لَجَمِيلَةٌ، وَمَنْ يَجِدُ مِثْلَكِ، وَرُبَّ رَاغِبٍ فِيكِ ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أَضْمَرْتُمْ ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مِنْ قَصْدِ نِكَاحِهِنَّ ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بِالْخِطْبَةِ وَلَا تَصْبِرُونَ عَنْهُنَّ، فَأَبَاحَ لَكُمُ التَّعْرِيضَ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أَيْ: نِكَاحًا ﴿إِلَّآ﴾ لَكِنْ ﴿أَن تَقُولُواْ قَوْلٗا مَّعْرُوفٗاۚ﴾ أَيْ: مَا عُرِفَ شَرْعًا مِنَ التَّعْرِيضِ فَلَكُمْ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أَيْ: عَلَى عَقْدِهِ ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أَيِ: الْمَكْتُوبُ مِنَ الْعِدَّةِ ﴿أَجَلَهُۥ﴾ بِأَنْ يَنْتَهِيَ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مِنَ الْعَزْمِ وَغَيْرِهِ ﴿فَٱحْذَرُوهُۚ﴾ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ إِذَا عَزَمْتُمْ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَنْ يَحْذَرُهُ ﴿حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾﴾ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْ مُسْتَحِقِّهَا. ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿تُمَآسُّوهُنَّ﴾ أَيْ: تُجَامِعُوهُنَّ ﴿أَوْ﴾ لَمْ ﴿تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾ مَهْرًا، وَمَا مَصْدَرِيَّةٌ ظَرْفِيَّةٌ، أَيْ: لَا تَبِعَةَ عَلَيْكُمْ فِي الطَّلَاقِ زَمَنَ عَدَمِ الْمَسِيسِ وَالْفَرْضِ بِإِثْمٍ وَلَا مَهْرٍ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أَعْطُوهُنَّ مَا يَتَمَتَّعْنَ بِهِ ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ الْغَنِيِّ مِنْكُمْ ﴿قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ الضَّيِّقِ الرِّزْقِ ﴿قَدَرُهُۥ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ لَا نَظَرَ إِلَى قَدْرِ الزَّوْجَةِ ﴿مَتَٰعَۢا﴾ تَمْتِيعًا ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾ شَرْعًا، صِفَةُ ﴿مَتَٰعًا﴾، ﴿حَقًّا﴾ صِفَةٌ ثَانِيَةٌ أَوْ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ الْمُطِيعِينَ. ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ يَجِبُ لَهُنَّ وَيَرْجِعُ لَكُمُ النِّصْفُ ﴿إِلَّآ﴾ لَكِنْ ﴿أَن يَعْفُونَ﴾ أَيِ: الزَّوْجَاتُ فَيَتْرُكْنَهُ ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ وَهُوَ الزَّوْجُ فَيَتْرُكُ لَهَا الْكُلَّ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْوَلِيُّ، إِذَا كَانَتْ مَحْجُورَةً فَلَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: ٤]. وأما الأمة فسبق ذكر الحديث الخاص بحكمها عند التعليق على آية (٢٢٨).

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أَيْ: أَنْ يَتَفَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ اَلْخَمْسِ بِأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ هِيَ اَلْعَصْرُ أَوِ اَلصُّبْحُ أَوِ اَلظُّهْرُ أَوْ غَيْرُهَا أَقْوَالٌ[1]، وَأَفْرَدَهَا بِالذِّكْرِ لِفَضْلِهَا ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ فِي اَلصَّلَاةِ ﴿قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ قِيلَ: مُطِيعِينَ لِقَوْلِهِ ﷺ: «كُلُّ قُنُوتٍ فِي اَلْقُرْآنِ فَهُوَ طَاعَةٌ»، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ[2]، وَقِيلَ: سَاكِتِينَ، لِحَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ: كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي اَلصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ وَنُهِينَا عَنِ اَلْكَلَامِ. رَوَاهُ اَلشَّيْخَانِ[3] ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ سَيْلٍ أَوْ سَبُعٍ ﴿فَرِجَالًا﴾ جَمْعُ «رَاجِلٍ»، أَيْ: مُشَاةً صَلُّوا ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جَمْعُ رَاكِبٍ، أَيْ: كَيْفَ أَمْكَنَ، مُسْتَقْبِلِي اَلْقِبْلَةِ أَوْ غَيْرِهَا، وَيُومِئُ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ مِنَ اَلْخَوْفِ ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: صَلُّوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ قَبْلَ تَعْلِيمِهِ مِنْ فَرَائِضِهَا وَحُقُوقِهَا، وَالْكَافُ بِمَعْنَى: مِثْلِ، وَ﴿مَّا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، أَوْ مَوْصُولَةٌ. ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ فَلْيُوصُوا ﴿وَصِيَّةً﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ، أَيْ: عَلَيْهِمْ ﴿لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ وَيُعْطُوهُنَّ ﴿مَّتَٰعًا﴾ مَا يَتَمَتَّعْنَ بِهِ مِنَ اَلنَّفَقَةِ وَالْكِسْوَةِ ﴿إِلَى﴾ تَمَامِ ﴿ٱلْحَوْلِ﴾ مِنْ مَوْتِهِمُ اَلْوَاجِبِ عَلَيْهِنَّ تَرَبُّصُهُ ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ حَالٌ، أَيْ: غَيْرَ مُخْرَجَاتٍ مِنْ مَسْكَنِهِنَّ ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يَا أَوْلِيَاءَ اَلْمَيِّتِ ﴿فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ شَرْعًا، كَالتَّزَيُّنِ وَتَرْكِ اَلْإِحْدَادِ وَقَطْعِ اَلنَّفَقَةِ عَنْهَا ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ فِي صُنْعِهِ، وَالْوَصِيَّةُ اَلْمَذْكُورَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ اَلْمِيرَاثِ، وَتَرَبُّصُ اَلْحَوْلِ بِآيَةِ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، اَلسَّابِقَةِ اَلْمُتَأَخِّرَةِ فِي اَلنُّزُولِ، وَالسُّكْنَى ثَابِتَةٌ لَهَا عِنْدَ اَلشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اَللهُ. ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌ﴾ يُعْطَيْنَهُ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ اَلْإِمْكَانِ ﴿حَقًّا﴾ نُصِبَ بِفِعْلِهِ اَلْمُقَدَّرِ ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ اَللهَ، كَرَّرَهُ لِيَعُمَّ اَلْمَمْسُوسَةَ أَيْضًا، إِذِ اَلْآيَةُ اَلسَّابِقَةُ فِي غَيْرِهَا. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ تَتَدَبَّرُونَ. ﴿۞أَلَمْ تَرَ﴾

---

(١) ليست من الوسط الذي معناه متوسط بين شيئين لأن فعلى معناها التفضيل ولا يبنى للتفضيل إلا ما يقبل الزيادة والنقص، والوسط بمعنى العدل والخيار يقبلهما بخلاف التوسط بين الشيئين فإنه لا يقبلهما فلا يبنى منه أفعل للتفضيل. وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها في عموم الصلوات تشريفاً لها وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية عشر قولاً ... وأرجح الأقوال وأصحها ما ذهب إليه الجمهور من أنها العصر لما ثبت عند البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)، ... من حديث علي رضي الله عنه قال: كنا نراها الفجر حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلأَ اللهُ قُبُورَهُمْ وَأَجْوَافَهُمْ نَارًا». [صديق حسن (٢/ ٥٢)].

(٢) أخرجه أحمد (١١٥٤١)، وابن حبان (٣١٠)، بلفظ: «كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذْكَرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ طَاعَةٌ».

(٣) أخرجه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩).

اِسْتِفْهَامُ تَعْجِيبٍ وَتَشْوِيقٍ إِلَى اِسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ، أَيْ: يَنْتَهِ عِلْمُكَ ﴿**إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ**﴾ أَرْبَعَةٌ أَوْ ثَمَانِيَةٌ أَوْ عَشَرَةٌ أَوْ ثَلَاثُونَ أَوْ أَرْبَعُونَ أَوْ سَبْعُونَ أَلْفًا ﴿**حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ**﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَعَ الطَّاعُونُ بِبِلَادِهِمْ فَفَرُّوا ﴿**فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ**﴾ فَمَاتُوا ﴿**ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ**﴾ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ أَوْ أَكْثَرَ، بِدُعَاءِ نَبِيِّهِمْ حِزْقِيلَ بِكَسْرِ الْمُهْمَلَةِ وَالْقَافِ وَسُكُونِ الزَّايِ، فَعَاشُوا دَهْرًا عَلَيْهِمْ أَثَرُ الْمَوْتِ لَا يَلْبَسُونَ ثَوْبًا إِلَّا عَادَ كَالْكَفَنِ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي أَسْبَاطِهِمْ[1] ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ وَمِنْهُ إِحْيَاءُ هَؤُلَاءِ ﴿**وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ**﴾ هُمُ الْكُفَّارُ ﴿**لَا يَشۡكُرُونَ** ٢٤٣﴾ وَالْقَصْدُ مِنْ ذِكْرِ خَبَرِ هَؤُلَاءِ تَشْجِيعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ. وَلِذَا عَطَفَ عَلَيْهِ: ﴿**وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ أَيْ: لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿**وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ**﴾ لِأَقْوَالِكُمْ ﴿**عَلِيمٌ** ٢٤٤﴾ بِأَحْوَالِكُمْ فَمُجَازِيكُمْ. ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ**﴾ بِإِنْفَاقِ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿**قَرۡضًا حَسَنًا**﴾ بِأَنْ يُنْفِقَهُ لِلَّهِ عَنْ طِيبِ قَلْبٍ ﴿**فَيُضَٰعِفَهُۥ**﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَيُضَعِّفُهُۥ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ﴿**لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً**﴾ مِنْ عَشْرٍ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ كَمَا سَيَأْتِي ﴿**وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ**﴾ يُمْسِكُ الرِّزْقَ عَمَّنْ يَشَاءُ اِبْتِلَاءً ﴿**وَيَبۡصُۜطُ**﴾ يُوسِعُهُ لِمَنْ يَشَاءُ اِمْتِحَانًا ﴿**وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ** ٢٤٥﴾ فِي الْآخِرَةِ بِالْبَعْثِ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ**﴾ الْجَمَاعَةِ ﴿**مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ**﴾ مَوْتِ ﴿**مُوسَىٰٓ**﴾ أَيْ: إِلَى قِصَّتِهِمْ وَخَبَرِهِمْ ﴿**إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ**﴾ هُوَ شَمْوِيلُ ﴿**ٱبۡعَثۡ**﴾ أَقِمْ ﴿**لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ**﴾ مَعَهُ ﴿**فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ**﴾ تَنْتَظِمُ بِهِ كَلِمَتُنَا وَنَرْجِعُ إِلَيْهِ ﴿**قَالَ**﴾ النَّبِيُّ لَهُمْ: ﴿**هَلۡ عَسَيۡتُمۡ**﴾ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ ﴿**إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ**﴾ خَبَرُ «عَسَى»، وَالِاسْتِفْهَامُ لِتَقْرِيرِ التَّوَقُّعِ بِهَا ﴿**قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ**﴾ بِسَبْيِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ قَوْمُ جَالُوتَ، أَيْ: لَا مَانِعَ لَنَا مِنْهُ مَعَ وُجُودِ مُقْتَضِيهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ**﴾ عَنْهُ وَجَبُنُوا ﴿**إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ**﴾ وَهُمُ الَّذِينَ عَبَرُوا النَّهَرَ مَعَ طَالُوتَ كَمَا سَيَأْتِي ﴿**وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ** ٢٤٦﴾ فَمُجَازِيهِمْ. وَسَأَلَ النَّبِيُّ إِرْسَالَ مَلِكٍ، فَأَجَابَهُ إِلَى إِرْسَالِ طَالُوتَ ﴿**وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ**﴾ كَيْفَ ﴿**يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ**﴾ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ سِبْطِ الْمَمْلَكَةِ وَلَا النُّبُوَّةِ، وَكَانَ دَبَّاغًا أَوْ رَاعِيًا ﴿**وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِ**﴾ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى إِقَامَةِ الْمُلْكِ؟ ﴿**قَالَ**﴾ النَّبِيُّ لَهُمْ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ**

---

(١) هذا القصص كله لَيِّنُ الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمدا ﷺ أخبارا في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارا من الموت، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا هُم، وكل من خَلَف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار مغتر. وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدي أمره المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد. هذا قول الطبري، وهو ظاهر رصف الآية. ولموردي القصص في هذه القصة زيادات اختصرتها لضعفها. [ابن عطية (١/ ٣٢٨)].

﴿ٱصۡطَفَىٰهُ﴾ اِخْتَارَهُ لِلْمُلْكِ ﴿عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً﴾ سَعَةً ﴿فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْمَلَهُمْ وَأَتَمَّهُمْ خَلْقًا ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ إِيتَاءَهُ لَا اِعْتِرَاضَ عَلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فَضْلُهُ ﴿عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ. ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ﴾ لَمَّا طَلَبُوا مِنْهُ آيَةً عَلَى مُلْكِهِ: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ اَلصُّنْدُوقُ، كَانَ فِيهِ صُوَرُ الْأَنْبِيَاءِ[1] أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى آدَمَ وَاسْتَمَرَّ إِلَيْهِمْ، فَغَلَبَهُمُ الْعَمَالِقَةُ عَلَيْهِ وَأَخَذُوهُ، وَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَيُقَدِّمُونَهُ فِي الْقِتَالِ وَيَسْكُنُونَ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ﴾ طُمَأْنِينَةٌ لِقُلُوبِكُمْ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ أَيْ: تَرَكَاهُ هُمَا، وَهُوَ: نَعْلَا مُوسَى وَعَصَاهُ، وَعِمَامَةُ هَارُونَ، وَقَفِيزٌ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، وَرُضَاضٌ مِنَ الْأَلْوَاحِ[2] ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿يَأۡتِيَكُمُ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾ عَلَى مُلْكِهِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ فَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى وَضَعَتْهُ عِنْدَ طَالُوتَ، فَأَقَرُّوا بِمُلْكِهِ وَتَسَارَعُوا إِلَى الْجِهَادِ، فَاخْتَارَ مِنْ شَبَابِهِمْ سَبْعِينَ أَلْفًا. ﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ خَرَجَ ﴿طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ حَرًّا شَدِيدًا وَطَلَبُوا مِنْهُ الْمَاءَ ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم﴾ مُخْتَبِرُكُمْ ﴿بِنَهَرٖ﴾ لِيَظْهَرَ الْمُطِيعُ مِنْكُمْ وَالْعَاصِي، وَهُوَ بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ﴾ أَيْ: مِنْ مَائِهِ ﴿فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ أَيْ: مِنْ أَتْبَاعِي ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ يَذُقْهُ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ﴾ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ ﴿بِيَدِهِۦۚ﴾ فَاكْتَفَى بِهَا وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ مِنِّي ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ﴾ لَمَّا وَافَوْهُ بِكَثْرَةٍ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الْغُرْفَةِ، رُوِيَ أَنَّهَا كَفَتْهُمْ لِشُرْبِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ، وَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى الْغُرْفَةِ ﴿قَالُواْ﴾ أَيِ: الَّذِينَ شَرِبُوا: ﴿لَا طَاقَةَ﴾ قُوَّةَ ﴿لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ أَيْ: بِقِتَالِهِمْ، وَجَبُنُوا وَلَمْ يُجَاوِزُوهُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يُوقِنُونَ ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ وَهُمُ الَّذِينَ جَاوَزُوهُ: ﴿كَم﴾ خَبَرِيَّةٌ بِمَعْنَى:

---

(١) هو صندوقٌ له شأنٌ عند بني إسرائيل، روى فيه ابن جرير عن وهب بن منبه وغيره روايات إسرائيلية عجيبةٍ لا يتوقف عليها ما أُريد منَّا فهمُه من القرآن. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٥٤٩)].

(٢) وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذِكره أخبر عن التابوت الذي جعله آية لصدق قول نبيه ﷺ الذي قال لأمته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ أن فيه سكينة منه، وبقية مما تركه آل موسى وآل هارون. وجائز أن يكون تلك البقية: العصا، وكسر الألواح، والتوراة، أو بعضها، والنعلين، والثياب، والجهاد في سبيل الله وجائز أن يكون بعض ذلك. وذلك أمر لا يدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم. ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصفة التي وصفنا. وإذ كان كذلك، فغير جائز فيه تصويب قول وتضعيف آخر غيره. [الطبري (٤/ ٤٧٧)].

كَثِيرٌ ﴿مِّن فِئَةٍ﴾ جَماعَةٍ ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بِإِرادَتِهِ ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ. ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أَيْ: ظَهَرُوا لِقِتالِهِمْ وَتَصافُّوا ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ أُصْبُبْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بِتَقْوِيَةِ قُلُوبِنا عَلَى الْجِهادِ ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم﴾ كَسَرُوهُمْ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بِإِرادَتِهِ ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ وَكَانَ فِي عَسْكَرِ طَالُوتَ ﴿جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ﴾ أَيْ: داوُدَ ﴿ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ فِي بَنِي إِسْرائِيلَ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ النُّبُوَّةَ بَعْدَ مَوْتِ شَمْوِيلَ وَطَالُوتَ، وَلَمْ يَجْتَمِعا لِأَحَدٍ قَبْلَهُ ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ كَصَنْعَةِ الدُّرُوعِ وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ[1] ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ بَدَلُ بَعْضٍ مِنَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، ﴿بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بِغَلَبَةِ الْمُشْرِكِينَ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَتَخْرِيبِ الْمَساجِدِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ فَدَفَعَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ. ﴿تِلْكَ﴾ هَٰذِهِ الْآياتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا﴾ نَقُصُّها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ التَّأْكِيدُ بِـ «إِنَّ» وَغَيْرِها رَدٌّ لِقَوْلِ الْكُفَّارِ لَهُ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]. ﴿۞تِلْكَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ صِفَةٌ، وَالْخَبَرُ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بِتَخْصِيصِهِ بِمَنْقَبَةٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ كَمُوسَى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ أَيْ: مُحَمَّدًا ﷺ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ عَلَى غَيْرِهِ، بِعُمُومِ الدَّعْوَةِ وَخَتْمِ النُّبُوَّةِ بِهِ وَتَفْضِيلِ أُمَّتِهِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ وَالْمُعْجِزاتِ الْمُتَكاثِرَةِ وَالْخَصائِصِ الْعَدِيدَةِ ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قَوَّيْناهُ ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ جِبْرِيلَ يَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سارَ[2] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هُدَى النَّاسِ جَمِيعًا ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ بَعْدَ الرُّسُلِ، أَيْ: أُمَمُهُمْ ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ لِاخْتِلافِهِمْ وَتَضْلِيلِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ﴾ لِمَشِيئَتِهِ ذَلِكَ[3] ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ ثَبَتَ عَلَى إِيمانِهِ ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ كَالنَّصارَى بَعْدَ الْمَسِيحِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ تَأْكِيدٌ

---

(١) وأيضًا من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله. [السعدي (ص:١٠٨)].

(٢) وإنما وصف عيسى بهذين مع أن سائر الرسل أيدوا بالبينات وبروح القدس، للرد على اليهود الذين أنكروا رسالته ومعجزاته، وللرد على النصارى الذين غلوا فزعموا ألوهيته، ولأجل هذا ذكر معه اسم أمه، مهما ذكر، للتنبيه على أن ابن الإنسان لا يكون إلها، وعلى أن مريم أَمة الله تعالى لا صاحبة. [ابن عاشور (٣/ ٩)].

(٣) فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب. [السعدي (ص:١٠٩)].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾ مِنْ تَوْفِيقِ مَنْ شَاءَ وَخِذْلَانِ مَنْ شَاءِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ زَكَاتَهُ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ﴾ فِدَاءَ ﴿فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ صَدَاقَةَ تَنْفَعُ ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِرَفْعِ الثَّلَاثَةِ ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بِاللهِ، أَوْ بِمَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ لِوَضْعِهِمْ أَمْرَ اللهِ فِي غَيْرِ مَحِلِّهِ. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ﴾ أَيْ: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ فِي الْوُجُودِ ﴿إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ الدَّائِمُ الْبَقَاءِ ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ الْمُبَالِغُ فِي الْقِيَامِ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ[1] ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٌ﴾ نُعَاسٌ ﴿وَلَا نَوۡمٌۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ لَهُ فِيهَا[2] ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أَيِ: الْخَلْقَ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ أَيْ: مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ أَيْ: لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ مَعْلُومَاتِهِ[3] ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ أَنْ يُعْلِمَهُمْ بِهِ مِنْهَا بِإِخْبَارِ الرُّسُلِ ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ قِيلَ: أَحَاطَ عِلْمُهُ بِهِمَا، وَقِيلَ: مُلْكُهُ، وَقِيلَ الْكُرْسِيُّ نَفْسُهُ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِمَا لِعَظَمَتِهِ[4]، لِحَدِيثِ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ

---

(١) هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمنا ولزوما، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى. [السعدي (ص:١١٠)].

(٢) في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحدا من عباده يقدر على أن ينفع أحدا منهم بشفاعة أو غيرها والتقريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عباد القبور والصد في وجوههم والفت في أعضادهم ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه. [الشوكاني (١/ ٣١١)].

(٣) أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه. ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]. [ابن كثير (١/ ٦٧٩)].

(٤) الكرسي هو موضع قدمي الله عز وجل وهو بين يدي العرش كالمقدِّمة له، وقد صح ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا موقوفًا، وهل له حكم الرفع؟ لولا أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ممن قيل عنه: إنه يأخذ عن الإسرائيليات، لقلنا: إن له حكم الرفع؛ لأن هذا من علم الغيب، وعلم الغيب لا مجال للاجتهاد فيه، وأهل السُّنة والجماعة عامتهم على أن الكرسي موضع قدمي الله عز وجل، وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهم من أهل العلم وأئمة التحقيق. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٣/ ٢٥٤)]. وقد اختلف العلماء في المراد بالكرسي؛ فقيل: ﴿كُرۡسِيُّهُ﴾: علمه، روي عن ابن عباس، وفي ثبوته عنه نظر، ولعله لا يصح، وذلك لأمرين الأول: أنه لا يعرف في اللغة إطلاق اسم الكرسي على العلم. الثاني: أنه خلاف ما صح؛ من أن المراد بالكرسي موضع القدمين. وهو القول المعتمد عند جمهور أهل السنة. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٥٦٦)].

فِي تَرْسٍ»(١) ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ يُثْقِلُهُ ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أَيِ: اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ(٢) ﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ اَلْكَبِيرُ(٣). ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ عَلَى اَلدُّخُولِ فِيهِ ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ أَيْ: ظَهَرَ بِالْآيَاتِ اَلْبَيِّنَاتِ أَنَّ اَلْإِيمَانَ رُشْدٌ وَالْكُفْرُ غَيٌّ، نَزَلَتْ فِيمَنْ كَانَ لَهُ مِنَ اَلْأَنْصَارِ أَوْلَادٌ، أَرَادَ أَنْ يُكْرِهَهُمْ عَلَى اَلْإِسْلَامِ(٤) ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ اَلشَّيْطَانِ أَوِ اَلْأَصْنَامِ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى اَلْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ(٥) ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ تَمَسَّكَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٥٧٩٤)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٥٩١)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧).

(٢) هذا التقييد لا وجه له، بل هو تعالى العلي على كل شيء ذاتًا وقدرًا وقهرًا، فله العلو بكل أنواعه سبحانه وتعالى والذين يقيدون علوه تعالى بالقدر أو القهر يفرون من إثبات علو الذات؛ لأن مذهبهم نفي علوه تعالى بذاته فوق خلقه، وهو مذهب باطل من أقوال المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم. ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه تعالى بذاته فوق سماواته على عرشه، كما دلَّت على ذلك النصوص من الكتاب والسنة. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٥٧٠)].

(٣) هذه الآية أفضل آية في القرآن. ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات، هذا هو التحقيق في تفضيل القرآن بعضه على بعض، وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى. [صديق حسن (٢/ ٨٩)]. ولما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردا للإنسان في أوقاته صباحا ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات. [السعدي (ص:١١٠)]. عن أبي بن كعب ﵁ قال: قال ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ». قال: قلت: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ قال: فضرب في صدري، وقال: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». أخرجه مسلم (٨١٠).

(٤) قال ابن كثير: أي: لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن عمي قلبه فإنه لا يفيده الدخول فيه مكرها مقسورا، فالنفي بمعنى النهي. وهو ما ذهب إليه في تأويل الآية كثير، وذهب آخرون إلى أنه خبر محض، أي: أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكين والاختيار ... ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ [الكهف: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ... تنبيه: علم من هذه الآية أن سيف الجهاد المشروع في الإسلام والذي لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر لم يستعمل للإكراه على الدخول في الدين، ولكن لحماية الدعوة إلى الدين والإذعان لسلطانه وحكمه العدل. [القاسمي (٢/ ١٩٤)].

(٥) الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع. [أعلام الموقعين لابن القيم (١/ ١٠٣)]. وهو فاعول من الطغيان، زيدت التاء فيه بدلا من لام الفعل، كقولهم حانوت وتابوت، فالتاء فيها مبدلة من هاء التأنيث. [البغوي].

﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ بِالْعَقْدِ الْمُحْكَمِ[1] ﴿لَا ٱنفِصَامَ﴾ انْقِطَاعَ ﴿لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ بِمَا يُفْعَلُ. ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ﴾ نَاصِرُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ الْإِيمَانِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ ذِكْرُ الْإِخْرَاجِ إِمَّا فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أَوْ فِيمَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ قَبْلَ بَعْثِهِ مِنَ الْيَهُودِ ثُمَّ كَفَرَ بِهِ[2] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ﴾ جَادَلَ ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ لِـ ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أَيْ: حَمَلَهُ بَطَرُهُ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ نُمْرُودُ ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿حَآجَّ﴾، ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ لَمَّا قَالَ لَهُ مَنْ رَبُّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ؟ ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أَيْ: يَخْلُقُ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ فِي الْأَجْسَادِ ﴿قَالَ﴾ هُوَ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ، وَدَعَا بِرَجُلَيْنِ فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا وَتَرَكَ الْآخَرَ، فَلَمَّا رَآهُ غَبِيًّا ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ مُنْتَقِلًا إِلَى حُجَّةٍ أَوْضَحَ مِنْهَا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا﴾ أَنْتَ ﴿مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ تَحَيَّرَ وَدَهِشَ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ بِالْكُفْرِ إِلَى مَحَجَّةِ الِاحْتِجَاجِ. ﴿أَوْ﴾ رَأَيْتَ ﴿كَٱلَّذِي﴾ الْكَافُ زَائِدَةٌ ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، رَاكِبًا عَلَى حِمَارٍ وَمَعَهُ سَلَّةُ تِينٍ وَقَدَحُ عَصِيرٍ وَهُوَ عُزَيْرٌ[3] ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ سَاقِطَةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سُقُوفِهَا لَمَّا خَرَّبَهَا بُخْتُنَصَّرُ ﴿قَالَ أَنَّىٰ﴾ كَيْفَ ﴿يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ﴾ اسْتِعْظَامًا لِقُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ وَأَلْبَثَهُ ﴿مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أَحْيَاهُ لِيُرِيَهُ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿كَمْ لَبِثْتَۖ﴾ مَكَثْتَ هُنَا؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ﴾ لِأَنَّهُ نَامَ أَوَّلَ النَّهَارِ فَقُبِضَ وَأُحْيِيَ عِنْدَ الْغُرُوبِ، فَظَنَّ أَنَّهُ يَوْمُ النَّوْمِ ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ التِّينِ ﴿وَشَرَابِكَ﴾ الْعَصِيرِ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْۖ﴾ لَمْ يَتَغَيَّرْ مَعَ طُولِ الزَّمَانِ، وَالْهَاءُ قِيلَ: أَصْلٌ مِنْ «سَانَهْتُ»، وَقِيلَ: لِلسَّكْتِ مِنْ «سَانَيْتُ»، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِحَذْفِهَا ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كَيْفَ هُوَ، فَرَآهُ مَيِّتًا وَعِظَامُهُ بِيضٌ تَلُوحُ، فَعَلْنَا ذَلِكَ لِتَعْلَمَ، ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ عَلَى

---

(١) العروة بضم العين ما يجعل كالحلقة في طرف شيء ليقبض على الشيء منه ... مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه، فالمعنى أن المؤمن ثابت اليقين سالم من اضطراب القلب في الدنيا، وهو ناج من مهاوي السقوط في الآخرة، كحال من تمسك بعروة حبل متين لا ينفصم. [ابن عاشور (٣/ ٢٩)].

(٢) لما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل والنور بمنزلة طريق الحق فقد أفرد النور وجمعت الظلمات. فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه، من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات. [اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (ص:١٦)].

(٣) وقيل غيره، والمقصود تعريف منكري البعث قدرة الله على إحياء خلقه بعد إماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار. [صديق حسن (٢/ ١٠٤)].

اَلْبَعْثِ ﴿لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾ مِنْ حِمَارِكَ ﴿كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ نُحْيِيهَا بِضَمِّ اَلنُّونِ، وَقُرِئَ: بِفَتْحِهَا[1] مِنْ «أَنْشَرَ، وَنَشَرَ» لُغَتَانِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّهَا وَالزَّايِ، نُحَرِّكُهَا وَنَرْفَعُهَا ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَدْ تَرَكَّبَتْ وَكُسِيَتْ لَحْمًا وَنُفِخَ فِيهِ اَلرُّوحُ وَنَهَقَ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ ذَلِكَ بِالْمُشَاهَدَةِ ﴿قَالَ أَعۡلَمُ﴾ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ٱعۡلَمۡ﴾ أَمْرٌ مِنَ اَللهِ لَهُ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ بِقُدْرَتِي عَلَى اَلْإِحْيَاءِ؟ سَأَلَهُ مَعَ عِلْمِهِ بِإِيمَانِهِ بِذَلِكَ، لِيُجِيبَهُ بِمَا سَأَلَ، فَيَعْلَمَ اَلسَّامِعُونَ غَرَضَهُ[2] ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ آمَنْتُ ﴿وَلَٰكِن﴾ سَأَلْتُكَ ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ﴾ يُسْكِنَ ﴿قَلۡبِيۖ﴾ بِالْمُعَايَنَةِ اَلْمَضْمُومَةِ إِلَى اَلِاسْتِدْلَالِ[3] ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ بِكَسْرِ اَلصَّادِ وَضَمِّهَا، أَمِلْهُنَّ إِلَيْكَ وَقَطِّعْهُنَّ وَاخْلِطْ لَحْمَهُنَّ وَرِيشَهُنَّ ﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ﴾ مِنْ جِبَالِ أَرْضِكَ ﴿مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ﴾ إِلَيْكَ ﴿يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ سَرِيعًا ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ فِي صُنْعِهِ، فَأَخَذَ طَاوُوسًا وَنَسْرًا وَغُرَابًا وَدِيكًا، وَفَعَلَ بِهِنَّ مَا ذُكِرَ، وَأَمْسَكَ رُؤُوسَهُنَّ عِنْدَهُ وَدَعَاهُنَّ، فَتَطَايَرَتِ اَلْأَجْزَاءُ إِلَى بَعْضِهَا حَتَّى تَكَامَلَتْ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَى رُؤُوسِهَا[4]. ﴿مَّثَلُ﴾ صِفَةُ نَفَقَاتِ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: طَاعَتِهِ ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ فَكَذَلِكَ نَفَقَاتُهُمْ تُضَاعَفُ لِسَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ﴿لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فَضْلُهُ ﴿عَلِيمٌ ٢٦١﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ اَلْمُضَاعَفَةَ. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا﴾ عَلَى اَلْمُنْفَقِ عَلَيْهِ، بِقَوْلِهِمْ مَثَلًا: قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْهِ وَجَبَرْتُ حَالَهُ ﴿وَلَآ أَذٗى﴾ لَهُ بِذِكْرِ ذَلِكَ إِلَى مَنْ لَا يُحِبُّ وُقُوفَهُ عَلَيْهِ وَنَحْوِهِ ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ ثَوَابُ إِنْفَاقِهِمْ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ فِي اَلْآخِرَةِ. ﴿۞قَوۡلٞ

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) قال الجمهور: لم يشك إبراهيم في إحياء الموتى، وإنما طلب المعاينة، لأنه رأى دابة قد أكلتها السباع والحيات فسأل ذلك السؤال، ويدل على ذلك قوله: كيف، فإنها سؤال عن حال الإحياء وصورته لا عن وقوعه. [ابن جزي (١/ ١٣٣)]. وأما قول النبي ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ». أخرجه البخاري (٤٥٣٧)، فمعناه أنه لو كان شاكاً لكنا نحن أحق به، ونحن لا نشك فإبراهيم أحرى ألا يشك. فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. [ابن عطية (١/ ٣٥٢)].

(٣) ولهذا قال النبي ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ». أخرجه أحمد (١٨٤٢)، وابن حبان (٢٠٨٧). [صديق حسن (٢/ ١٠٩)].

(٤) تعيين الطيور وكيفية ما فعله إبراهيم كما ذكر المؤلف هو من الروايات الإسرائيلية، وتعيين أنواع الطيور لا مصلحة فيه؛ فلذلك لم يعينها الله تعالى ولم يسمها والله عزيز حكيم. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٥٩٢)].

مَّعۡرُوفٞ﴾ كَلَامٌ حَسَنٌ وَرَدٌّ عَلَى ٱلسَّائِلِ جَمِيلٌ ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ لَهُ فِي إِلْحَاحِهِ ﴿خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾ بِالْمَنِّ وَتَعْيِيرٌ لَهُ بِالسُّؤَالِ ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عَنْ صَدَقَةِ ٱلْعِبَادِ ﴿حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ بِتَأْخِيرِ ٱلْعُقُوبَةِ عَنِ ٱلْمَانِّ وَٱلْمُؤْذِي. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ أَيْ: أُجُورَهَا ﴿بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ إِبْطَالًا ﴿كَٱلَّذِي﴾ أَيْ: كَإِبْطَالِ نَفَقَةِ ٱلَّذِي ﴿يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مُرَائِيًا لَهُمْ ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ هُوَ ٱلْمُنَافِقُ ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ حَجَرٍ أَمْلَسَ ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ مَطَرٌ شَدِيدٌ ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ صُلْبًا أَمْلَسَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ اِسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ مَثَلِ ٱلْمُنَافِقِ ٱلْمُنْفِقِ ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وَجُمِعَ ٱلضَّمِيرُ بِاعْتِبَارِ مَعْنَى «ٱلَّذِي» ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ عَمِلُوا، أَيْ: لَا يَجِدُونَ لَهُ ثَوَابًا فِي ٱلْآخِرَةِ، كَمَا لَا يُوجَدُ عَلَى ٱلصَّفْوَانِ شَيْءٌ مِنَ ٱلتُّرَابِ ٱلَّذِي كَانَ عَلَيْهِ لِإِذْهَابِ ٱلْمَطَرِ لَهُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ﴾ نَفَقَاتِ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ﴾ طَلَبَ ﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أَيْ: تَحْقِيقًا لِلثَّوَابِ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ ٱلْمُنَافِقِينَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَهُ لِإِنْكَارِهِمْ لَهُ، وَمِنِ اِبْتِدَائِيَّةٌ ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ﴾ بُسْتَانٍ ﴿بِرَبۡوَةٍ﴾ بِضَمِّ ٱلرَّاءِ وَفَتْحِهَا، مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ مُسْتَوٍ ﴿أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ﴾ أَعْطَتْ ﴿أُكُلَهَا﴾ بِضَمِّ ٱلْكَافِ وَسُكُونِهَا، ثَمَرَهَا ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ مِثْلَيْ مَا يُثْمِرُ غَيْرُهَا ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ﴾ مَطَرٌ خَفِيفٌ يُصِيبُهَا وَيَكْفِيهَا لِارْتِفَاعِهَا، ٱلْمَعْنَى تُثْمِرُ وَتَزْكُو كَثُرَ ٱلْمَطَرُ أَمْ قَلَّ، فَكَذَٰلِكَ نَفَقَاتُ مَنْ ذُكِرَ تَزْكُو عِنْدَ ٱللهِ كَثُرَتْ أَمْ قَلَّتْ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿أَيَوَدُّ﴾ أَيُحِبُّ ﴿أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾ بُسْتَانٌ ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا﴾ ثَمَرٌ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَ﴾ قَدْ ﴿أَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾ فَضَعُفَ مِنَ ٱلْكِبَرِ عَنِ ٱلْكَسْبِ ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ﴾ أَوْلَادٌ صِغَارٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ﴾ رِيحٌ شَدِيدَةٌ ﴿فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾ فَفَقَدَهَا أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهَا، وَبَقِيَ هُوَ وَأَوْلَادُهُ عَجَزَةً مُتَحَيِّرِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِنَفَقَةِ ٱلْمُرَائِي وَٱلْمَانِّ فِي ذَهَابِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا فِي ٱلْآخِرَةِ، وَٱلِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى ٱلنَّفْيِ، وَعَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ لِرَجُلٍ عَمِلَ بِالطَّاعَاتِ، ثُمَّ بُعِثَ لَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَحْرَقَ أَعْمَالَهُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَ مَا ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ فَتَعْتَبِرُونَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ أَيْ: زَكُّوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ جِيَادِ ﴿مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ مِنَ ٱلْمَالِ ﴿وَمِـ﴾ ـنْ طَيِّبَاتِ ﴿مَآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مِنَ ٱلْحُبُوبِ وَٱلثِّمَارِ ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ تَقْصِدُوا ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ ٱلرَّدِيءَ ﴿مِنۡهُ﴾ أَيْ: مِنَ ٱلْمَذْكُورِ ﴿تُنفِقُونَـ﴾ ـهُ فِي ٱلزَّكَاةِ، حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿تَيَمَّمُواْ﴾، ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أَيِ: ٱلْخَبِيثِ، لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ فِي حُقُوقِكُمْ ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ بِالتَّسَاهُلِ وَغَضِّ ٱلْبَصَرِ، فَكَيْفَ تُؤَدُّونَ مِنْهُ حَقَّ ٱللهِ؟ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عَنْ نَفَقَاتِكُمْ ﴿حَمِيدٌ ٢٦٧﴾ مَحْمُودٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ. ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ

﴿ٱلْفَقْرَ﴾ يُخَوِّفُكُمْ بِهِ إِنْ تَصَدَّقْتُمْ فَتُمْسِكُوا ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ اَلْبُخْلِ، وَمَنْعِ اَلزَّكَاةِ[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ عَلَى اَلْإِنْفَاقِ ﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لِذُنُوبِكُمْ ﴿وَفَضْلًا﴾ رِزْقًا خَلَفًا مِنْهُ ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ فَضْلُهُ ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ بِالْمُنْفِقِ. ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ﴾ أَيِ: اَلْعِلْمَ اَلنَّافِعَ اَلْمُؤَدِّيَ إِلَى اَلْعَمَلِ ﴿مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لِمَصِيرِهِ إِلَى اَلسَّعَادَةِ اَلْأَبَدِيَّةِ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلذَّالِ، يَتَّعِظُ ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ أَصْحَابُ اَلْعُقُولِ.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ أَدَّيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ فَوَفَّيْتُمْ بِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بِمَنْعِ اَلزَّكَاةِ وَالنَّذْرِ، أَوْ بِوَضْعِ اَلْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ مَحِلِّهِ مِنْ مَعَاصِي اَللهِ ﴿مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ مَانِعِينَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ تُظْهِرُوا ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أَيِ: اَلنَّوَافِلَ ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أَيْ: نِعْمَ شَيْئًا إِبْدَاؤُهَا ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ تُسِرُّوهَا ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنْ إِبْدَائِهَا وَإِيتَائِهَا اَلْأَغْنِيَاءَ، أَمَّا صَدَقَةُ اَلْفَرْضِ فَالْأَفْضَلُ إِظْهَارُهَا لِيُقْتَدَى بِهِ وَلِئَلَّا يُتَّهَمَ، وَإِيتَاؤُهَا اَلْفُقَرَاءَ مُتَعَيِّنٌ ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ مَجْزُومًا بِالْعَطْفِ عَلَى مَحِلِّ ﴿فَهُوَ﴾ وَمَرْفُوعًا عَلَى اَلِاسْتِئْنَافِ ﴿عَنكُم مِّن﴾ بَعْضِ ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ عَالِمٌ بِبَاطِنِهِ كَظَاهِرِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ. وَلَمَّا مَنَعَ ﷺ مِنَ اَلتَّصَدُّقِ عَلَى اَلْمُشْرِكِينَ لِيُسْلِمُوا نَزَلَ[2]: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ أَيِ: اَلنَّاسِ إِلَى اَلدُّخُولِ فِي اَلْإِسْلَامِ إِنَّمَا عَلَيْكَ اَلْبَلَاغُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هِدَايَتَهُ إِلَى اَلدُّخُولِ فِيهِ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ مَالٍ ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ لِأَنَّ ثَوَابَهُ لَهَا ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: ثَوَابِهِ[3] لَا غَيْرِهِ مِنْ أَعْرَاضِ اَلدُّنْيَا، خَبَرٌ بِمَعْنَى اَلنَّهْيِ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جَزَاؤُهُ ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ تُنْقَصُونَ مِنْهُ شَيْئًا، وَالْجُمْلَتَانِ تَأْكِيدٌ لِلْأُولَى. ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيِ: اَلصَّدَقَاتُ ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى اَلْجِهَادِ، نَزَلَتْ فِي أَهْلِ اَلصُّفَّةِ، وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنَ اَلْمُهَاجِرِينَ أُرْصِدُوا لِتَعَلُّمِ اَلْقُرْآنِ

---

(١) قال الكلبي: كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلا هذا. [البغوي (١/ ٣٣٣)].

(٢) قيل: إن المسلمين كانوا لا يتصدقون على أهل الذمة، فنزلت الآية مبيحة للصدقة على من ليس على دين الإسلام، وذلك في التطوع، وأما الزكاة فلا تدفع لكافر أصلاً، فالضمير في هداهم على هذا القول للكافر، وقيل: ليس عليك أن تهديهم لما أمروا به من الإنفاق، وترك المن والأذى والرياء، والإنفاق من الخبيث، إنما عليك أن تبلغهم والهدى بيد الله فالضمير على هذا للمسلمين. [ابن جُزَيّ (١/ ١٣٦)].

(٣) حمل الوجه على الثواب المنفصل من أبطل الباطل، فإن اللغة لا تحتمل ذلك ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجها للمجازي. كما أن الثواب مخلوق، فقد صح عن النبي ﷺ أنه استعاذ بوجه الله فقال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ أَنْ تُضِلَّنِي». [أخرجه أبو داود (٥٠٥٢)] ... ولا يظن برسول الله ﷺ أن يستعيذ بمخلوق. [مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم (ص: ٤٠٩)].

وَالْخُرُوجِ مَعَ السَّرَايَا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾ سفرًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِلتِّجَارَةِ وَالْمَعَاشِ لِشُغْلِهِمْ عَنْهُ بِالْجِهَادِ ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ﴾ بِحَالِهِمْ ﴿أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أَيْ: لِتَعَفُّفِهِمْ عَنِ السُّؤَالِ وَتَرْكِهِ ﴿تَعْرِفُهُم﴾ يَا مُخَاطَبُ ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ عَلَامَتِهِمْ مِنَ التَّوَاضُعِ وَأَثَرِ الْجَهْدِ ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾ شَيْئًا فَيُلْحِفُونَ ﴿إِلْحَافًا﴾ أَيْ: لَا سُؤَالَ لَهُمْ أَصْلًا، فَلَا يَقَعُ مِنْهُمْ إِلْحَافٌ وَهُوَ الْإِلْحَاحُ ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ فَمُجَازٍ عَلَيْهِ. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أَيْ: يَأْخُذُونَهُ وَهُوَ الزِّيَادَةُ فِي الْمُعَامَلَةِ بِالنُّقُودِ وَالْمَطْعُومَاتِ فِي الْقَدْرِ، أَوِ الْأَجَلِ(١) ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ ﴿إِلَّا﴾ قِيَامًا ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ﴾ يَصْرَعُهُ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ الْجُنُونِ بِهِمْ، مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿يَقُومُونَ﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ فِي الْجَوَازِ، وَهَذَا مِنْ عَكْسِ التَّشْبِيهِ مُبَالَغَةً، فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ﴾ بَلَغَهُ ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وَعْظٌ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ عَنْ أَكْلِهِ ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ قَبْلَ النَّهْيِ، أَيْ: لَا يُسْتَرَدُّ مِنْهُ(٢) ﴿وَأَمْرُهُۥٓ﴾ فِي الْعَفْوِ عَنْهُ(٣) ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ﴾ إِلَى أَكْلِهِ مُشَبِّهًا لَهُ بِالْبَيْعِ فِي الْحِلِّ(٤) ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ يُنْقِصُهُ وَيُذْهِبُ بَرَكَتَهُ ﴿وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يَزِيدُهَا وَيُنَمِّيهَا وَيُضَاعِفُ ثَوَابَهَا ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بِتَحْلِيلِ الرِّبَا ﴿أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ فَاجِرٍ بِأَكْلِهِ، أَيْ: يُعَاقِبُهُ(٥). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟﴾ اتْرُكُوا ﴿مَا بَقِىَ

---

(١) فسَّرَ الربا بالزيادة؛ لأنه من ربا يربو: إذا زاد، وأشار إلى أن الربا في الشرع نوعان: ربا فضل، وربا نَسَأ. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٦٣٣)].

(٢) لأنه أُخذ قبل نزول التحريم. [النسفي (١/ ٢٢٥)].

(٣) قيل: أمر الربا إلى الله في تحريمه على عباده واستمرار ذلك التحريم، وقيل: الضمير عائد إلى ما سلف، أي: أمره إلى الله في العفو عنه وإسقاط التبعة فيه، وقيل: الضمير يرجع إلى المُرْبي، أي: أمر من عامل بالربا إلى الله في تثبيته على الانتهاء أو الرجوع إلى المعصية، وقيل: إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. [صديق حسن (٢/ ١٤٠)].

(٤) لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين؛ لأن من أحل ما حرم الله فهو كافر، فلذا استحق الخلود، وبهذا تبين أنه لا تعلق للمعتزلة بهذه الآية في تخليد الفساق. [النسفي (١/ ٢٢٥)].

(٥) تفسير نفي المحبة بالعقوبة، هذا جارٍ على مذهب من لا يُثبتُ لله صفة محبة؛ لذلك يؤولون المحبة بالثواب وعدم المحبة بالعقاب، فيجمعون بين التعطيل والتأويل الذي هو في الحقيقة تحريف. والصواب: أن الله يحب المؤمنين والمتقين ولا يحب الكافرين بل يمقتهم كما قال تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]. [التعليق والإيضاح للبراك (ص:٦٣٥)].

﴿مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾ صادِقِينَ فِي إِيمَانِكُمْ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ امْتِثَالَ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى، نَزَلَتْ لَمَّا طَالَبَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ النَّهْيِ بِرِبًا كَانَ لَهُ مِنْ قَبْلُ. ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ ﴿فَأۡذَنُواْ﴾ اعْلَمُوا ﴿بِحَرۡبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ لَكُمْ، فِيهِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ، وَلَمَّا نَزَلَتْ قَالُوا: لَا يَدَ لَنَا بِحَرْبِهِ ﴿وَإِن تُبۡتُمۡ﴾ رَجَعْتُمْ عَنْهُ ﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ﴾ أُصُولُ ﴿أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ﴾ بِزِيَادَةٍ ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ بِنَقْصٍ ﴿وَإِن كَانَ﴾ وَقَعَ غَرِيمٌ ﴿ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ﴾ لَهُ أَيْ: عَلَيْكُمْ تَأْخِيرُهُ ﴿إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَضَمِّهَا، أَيْ: وَقْتِ يُسْرِهِ ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ عَلَى إِدْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ، وَبِالتَّخْفِيفِ عَلَى حَذْفِهَا، أَيْ: تَتَصَدَّقُوا عَلَى الْمُعْسِرِ بِالْإِبْرَاءِ ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ فَافْعَلُوهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١). ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ تُرَدُّونَ، وَلِلْفَاعِلِ تَصِيرُونَ ﴿فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ فِيهِ ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾ جَزَاءَ ﴿مَّا كَسَبَتۡ﴾ عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ بِنَقْصِ حَسَنَةٍ، أَوْ زِيَادَةِ سَيِّئَةٍ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ تَعَامَلْتُمْ ﴿بِدَيۡنٍ﴾ كَسَلَمٍ وَقَرْضٍ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ مَعْلُومٍ ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ اسْتِيثَاقًا وَدَفْعًا لِلنِّزَاعِ ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ كِتَابَ الدَّيْنِ ﴿بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ بِالْحَقِّ فِي كِتَابَتِهِ، لَا يَزِيدُ فِي الْمَالِ وَالْأَجَلِ وَلَا يَنْقُصُ ﴿وَلَا يَأۡبَ﴾ يَمْتَنِعْ ﴿كَاتِبٌ﴾ مِنْ ﴿أَن يَكۡتُبَ﴾ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهَا ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ أَيْ: فَضَّلَهُ بِالْكِتَابَةِ فَلَا يَبْخَلْ بِهَا، وَالْكَافُ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ﴿يَأۡبَ﴾، ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿وَلۡيُمۡلِلِ﴾ يُمِلَّ الْكَاتِبَ ﴿ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ الدَّيْنُ؛ لِأَنَّهُ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ فَيُقِرُّ لِيُعْلَمَ مَا عَلَيْهِ ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ فِي إِمْلَائِهِ ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ﴾ يَنْقُصْ ﴿مِنۡهُ﴾ أَيِ: الْحَقِّ ﴿شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا﴾ مُبَذِّرًا ﴿أَوۡ ضَعِيفًا﴾ عَنِ الْإِمْلَاءِ لِصِغَرٍ أَوْ كِبَرٍ ﴿أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لِخَرَسٍ أَوْ جَهْلٍ بِاللُّغَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾ مُتَوَلِّي أَمْرِهِ، مِنْ وَالِدٍ وَوَصِيٍّ وَقَيِّمٍ وَمُتَرْجِمٍ ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ أَشْهِدُوا عَلَى الدَّيْنِ ﴿شَهِيدَيۡنِ﴾ شَاهِدَيْنِ ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ أَيْ: بَالِغِي الْمُسْلِمِينَ الْأَحْرَارِ ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا﴾ أَيِ: الشَّاهِدَانِ ﴿رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ يَشْهَدُونَ ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ لِدِينِهِ وَعَدَالَتِهِ، وَتَعَدُّدُ النِّسَاءِ لِأَجْلِ ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تَنْسَى ﴿إِحۡدَىٰهُمَا﴾ الشَّهَادَةَ لِنَقْصِ عَقْلِهِنَّ وَضَبْطِهِنَّ ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿إِحۡدَىٰهُمَا﴾ الذَّاكِرَةُ ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ النَّاسِيَةَ، وَجُمْلَةُ الْإِذْكَارِ مَحَلُّ الْعِلَّةِ، أَيْ: لِتُذَكِّرَ إِنْ ضَلَّتْ، وَدَخَلَتْ عَلَى الضَّلَالِ لِأَنَّهُ سَبَبُهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ ﴿إِن﴾ شَرْطِيَّةً وَرَفْعِ ﴿تُذَكِّرُ﴾ اسْتِئْنَافٌ جَوَابُهُ: ﴿وَلَا يَأۡبَ

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٦).

﴿ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿دُعُواْ﴾ إِلَى تَحمُّلِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾ تَمَلُّوا مِنْ ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أَيْ: مَا شَهِدْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ لِكَثْرَةِ وُقُوعِ ذَلِكَ ﴿صَغِيرًا﴾ كَانَ ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وَقْتِ حُلُولِهِ، حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي ﴿تَكْتُبُوهُ﴾، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أَيِ: الْكَتْبُ ﴿أَقْسَطُ﴾ أَعْدَلُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أَيْ: أَعْوَنُ عَلَى إِقَامَتِهَا لِأَنَّهُ يُذَكِّرُهَا ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ تَشُكُّوا فِي قَدْرِ الْحَقِّ وَالْأَجَلِ ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ﴾ تَقَعَ ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ فَـ﴿تَكُونَ﴾ نَاقِصَةٌ، وَاسْمُهَا: ضَمِيرُ التِّجَارَةِ ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أَيْ: تَقْبِضُونَهَا وَلَا أَجَلَ فِيهَا ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فِي ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ﴾ وَالْمُرَادُ بِهَا الْمُتَّجَرُ فِيهِ ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أَدْفَعُ لِلِاخْتِلَافِ، وَهَذَا وَمَا قَبْلَهُ أَمْرُ نَدْبٍ ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ صَاحِبُ الْحَقِّ وَمَنْ عَلَيْهِ، بِتَحْرِيفٍ أَوِ امْتِنَاعٍ مِنَ الشَّهَادَةِ أَوِ الْكِتَابَةِ، وَلَا يَضُرَّهُمَا صَاحِبُ الْحَقِّ بِتَكْلِيفِهِمَا مَا لَا يَلِيقُ فِي الْكِتَابَةِ وَالشَّهَادَةِ ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ﴾ خُرُوجٌ عَنِ الطَّاعَةِ لَاحِقٌ ﴿بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ مَصَالِحَ أُمُورِكُمْ، حَالٌ مُقَدَّرَةٌ أَوْ مُسْتَأْنَفٌ[1] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ *وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أَيْ: مُسَافِرِينَ وَتَدَايَنْتُمْ ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَرُهُنٌ﴾ جَمْعُ رَهْنٍ ﴿مَّقْبُوضَةٌۖ﴾ تَسْتَوْثِقُونَ بِهَا، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ جَوَازَ الرَّهْنِ فِي الْحَضَرِ وَوُجُودِ الْكَاتِبِ[2]، فَالتَّقَيُّدُ بِمَا ذُكِرَ لِأَنَّ التَّوْثِيقَ فِيهِ أَشَدُّ، وَأَفَادَ قَوْلُهُ: ﴿مَّقْبُوضَةٌۖ﴾ اشْتِرَاطَ الْقَبْضِ فِي الرَّهْنِ، وَالِاكْتِفَاءَ بِهِ مِنَ الْمُرْتَهِنِ وَوَكِيلِهِ ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أَيِ: الدَّائِنُ الْمَدِينَ عَلَى حَقِّهِ، فَلَمْ يَرْتَهِنْ ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾ أَيِ: الْمَدِينُ ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾ دَيْنَهُ ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ﴾ فِي أَدَائِهِ ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ إِذَا دُعِيتُمْ لِإِقَامَتِهَا ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾ خُصَّ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ الشَّهَادَةِ، وَلِأَنَّهُ إِذَا أَثِمَ تَبِعَهُ غَيْرُهُ، فَيُعَاقَبُ عَلَيْهِ مُعَاقَبَةَ الْآثِمِينَ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ. ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ﴾ تُظْهِرُوا ﴿مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مِنَ السُّوءِ وَالْعَزْمِ عَلَيْهِ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تُسِرُّوهُ ﴿يُحَاسِبْكُم﴾ يُخْبِرْكُمْ ﴿بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ الْمَغْفِرَةَ لَهُ ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ تَعْذِيبَهُ[3]،

---

(١) إخبار على وجه الامتنان، وقيل: معناه الوعد بأن من اتقى علمه الله وألهمه وهذا المعنى صحيح [ومنه قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]،] ولكن لفظ الآية لا يعطيه، لأنه لو كان كذلك لجزم ﴿يُعَلِّمُكُمُ﴾ في جواب ﴿ٱتَّقُواْ﴾. [ابن جُزَيّ (١/ ١٤٠)].

(٢) الرهن في السفر ثابت بنص التنزيل، وفي الحضر بفعل رسول الله ﷺ كما ثبت أنه ﷺ رهن درعًا له عند يهودي. أخرجه البخاري (٢٠٦٩). [الشوكاني (١/ ٣٤٨)].

(٣) وهو لمن أتى بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره. [السعدي (ص: ١٢٠)].

وَالْفِعْلَانِ بِالْجَزْمِ عطفًا عَلى جَوابِ الشَّرْطِ، وَالرَّفع أَيْ: فَهُو ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ وَمِنْهُ مُحَاسَبَتُكُمْ وَجَزَاؤُكُمْ. ﴿ءَامَنَ﴾ صَدَّقَ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿كُلٌّ﴾ تَنْوِينُهُ عِوَضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ يَقُولُونَ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فَنُؤْمِنَ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرَ بِبَعْضٍ كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ وَالنَّصارَى ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ أَيْ: مَا أُمِرْنَا بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾ نَسْأَلُكَ ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ الْمَرْجِعُ بِالْبَعْثِ. وَلَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا شَكَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْوَسْوَسَةِ، وَشَقَّ عَلَيْهِمُ الْمُحَاسَبَةُ بِهَا، فَنَزَلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ أَيْ: مَا تَسَعُهُ قُدْرَتُهَا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ مِنَ الْخَيْرِ، أَيْ: ثَوَابُهُ ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ مِنَ الشَّرِّ، أَيْ: وِزْرُهُ، وَلَا يُؤَاخَذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ أَحَدٍ، وَلَا بِمَا لَمْ يَكْسِبْهُ مِمَّا وَسْوَسَتْ بِهِ نَفْسُهُ، قُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾ بِالْعِقَابِ ﴿إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ تَرَكْنَا الصَّوَابَ لَا عَنْ عَمْدٍ، كَمَا آخَذْتَ بِهِ مَنْ قَبْلَنَا، وَقَدْ رَفَعَ اللهُ ذَلِكَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ(١)، فَسُؤَالُهُ اعْتِرَافٌ بِنِعْمَةِ اللهِ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا﴾ أَمْرًا يَثْقُلُ عَلَيْنَا حَمْلُهُ ﴿كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ أَيْ: بَنِي إِسْرائِيلَ، مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ فِي التَّوْبَةِ، وَإِخْرَاجِ رُبُعِ الْمَالِ فِي الزَّكَاةِ، وَقَرْضِ مَوْضِعِ النَّجَاسَةِ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ﴾ قُوَّةَ ﴿لَنَا بِهِۦۖ﴾ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالْبَلَاءِ ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ امْحُ ذُنُوبَنَا ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾ فِي الرَّحْمَةِ زِيَادَةٌ عَلَى الْمَغْفِرَةِ ﴿أَنتَ مَوۡلَىٰنَا﴾ سَيِّدُنَا وَمُتَوَلِّي أُمُورِنَا ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَالْغَلَبَةِ فِي قِتَالِهِمْ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمَوْلَى أَنْ يَنْصُرَ مَوَالِيَهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَقَرَأَهَا ﷺ قِيلَ لَهُ عَقِبَ كُلِّ كَلِمَةٍ: قَدْ فَعَلْتُ»(٢).

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) بلفظ: «وضع» بدلا من «تجاوز»، وابن حبان (٧٢١٩)، والبيهقي (١٥٤٩٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦). وعن أبي مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ». أخرجه البخاري (٥٠٤٠)، ومسلم (٨٠٧).

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مَدَنِيَّةٌ، مِائَتَانِ أَوْ إِلَّا آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ(١). ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ مُلْتَبِسًا(٢) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ فِي أَخْبَارِهِ ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ تَنْزِيلِهِ ﴿هُدٗى﴾ حَالٌ، بِمَعْنَى: هَادِينَ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿لِّلنَّاسِ﴾ مِمَّنْ تَبِعَهُمَا، وَعَبَّرَ فِيهِمَا بِـ ﴿أَنزَلَ﴾ وَفِي الْقُرْآنِ بِـ ﴿نَزَّلَ﴾ الْمُقْتَضِي لِلتَّكْرِيرِ؛ لِأَنَّهُمَا أُنْزِلَا دُفْعَةً وَاحِدَةً بِخِلَافِهِ(٣) ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ بِمَعْنَى الْكُتُبِ الْفَارِقَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَذَكَرَهُ بَعْدَ ذِكْرِ الثَّلَاثَةِ لِيَعُمَّ مَا عَدَاهَا(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ مِنْ إِنْجَازِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ عُقُوبَةٍ شَدِيدَةٍ مِمَّنْ عَصَاهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهَا أَحَدٌ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾ كَائِنٌ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ لِعِلْمِهِ بِمَا يَقَعُ فِي الْعَالَمِ مِنْ كُلِّيٍّ وَجُزْئِيٍّ، وَخَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الْحِسَّ لَا يَتَجَاوَزُهُمَا. ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ مِنْ ذُكُورَةٍ وَأُنُوثَةٍ وَبَيَاضٍ وَسَوَادٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ وَاضِحَاتُ الدَّلَالَةِ ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أَصْلُهُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْأَحْكَامِ ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ لَا تُفْهَمُ مَعَانِيهَا كَأَوَائِلِ السُّوَرِ(٥)، وَجَعَلَهُ كُلَّهُ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) ومعنى ملابسته للحق اشتماله عليه في جميع ما يشتمل عليه من المعاني، قال تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. [ابن عاشور (٣/ ١٤٨)].

(٣) [الصحيح] أن التعدية بالتضعيف لا تدل على التكثير، ولا التنجيم، وقد جاء في القرآن: «نزل» و«أنزل»، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧] ... فلو كان أحدهما يدل على التنجيم، والآخر يدل على النزول دفعة واحدة، لتناقض الإخبار، وهو محال. [أبو حيان (٣/ ١٦)].

(٤) قيل: هو القرآن، وهو المفرق بين الحلال والحرام، وقيل: كل ما أنزل الله فهو فرقان؛ لكونه مفرقا بين الحلال والحرام، وفي الآية تقديم وتأخير، وتقديره وأنزل التوراة والإنجيل من قبل، وأنزل الفرقان هدى للناس. [السمعاني (١/ ٢٩٢)].

(٥) فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يُرد

مُحْكَمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَيْبٌ، وَمُتَشَابِهًا فِي قَوْلِهِ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] بِمَعْنَى أَنَّهُ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْحُسْنِ وَالصِّدْقِ **﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾** مَيْلٌ عَنِ الْحَقِّ **﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ﴾** طَلَبَ **﴿ٱلْفِتْنَةِ﴾** لِجُهَّالِهِمْ بِوُقُوعِهِمْ فِي الشُّبُهَاتِ وَاللَّبْسِ **﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾** تَفْسِيرِهِ **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾** تَفْسِيرَهُ **﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾** وَحْدَهُ **﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾** الثَّابِتُونَ الْمُتَمَكِّنُونَ **﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾** مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ **﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾** أَيْ: بِالْمُتَشَابِهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَلَا نَعْلَمُ مَعْنَاهُ[١] **﴿كُلٌّ﴾** مِنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ **﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ﴾** بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّالِ، أَيْ: يَتَّعِظُ **﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾** أَصْحَابُ الْعُقُولِ. وَيَقُولُونَ أَيْضًا إِذَا رَأَوْا مَنْ يَتَّبِعُهُ: **﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾** تُمِلْهَا عَنِ الْحَقِّ بِابْتِغَاءِ تَأْوِيلِهِ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِنَا كَمَا أَزَغْتَ قُلُوبَ أُولَئِكَ **﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾** أَرْشَدْتَنَا إِلَيْهِ **﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾** مِنْ عِنْدِكَ **﴿رَحْمَةً﴾** تَثْبِيتًا[٢] **﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾**. يَا **﴿رَبَّنَآ**

المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضا ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة. [السعدي (ص:١٢٢)].

(١) للمفسرين في الوقوف على ﴿ٱللَّهُ﴾ من قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضا لما لا يعني، وتكلفا لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكلون المعنى إلى الله فيُسَلمون ويَسْلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ على ﴿ٱللَّهُ﴾ فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضا، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون: ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقينا أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. [السعدي (ص:١٢٢)].

(٢) أي: كائنة من عندك، و «من» لابتداء الغاية و «لَدُنْ» بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وفيه لغات أُخر هذه أفصحها، و «هو» ظرف مكان وقد يضاف إلى الزمان، وتنكير «رحمة» للتعظيم أي رحمة عظيمة واسعة تزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق، أو مغفرة للذنوب. [صديق حسن (٢/ ١٩١)].

﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ تَجْمَعُهُمْ ﴿لِيَوْمٍ﴾ أَيْ: فِي يَوْمٍ ﴿لَّا رَيْبَ﴾ لَا شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَتُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كَمَا وَعَدْتَ بِذَلِكَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ مَوْعِدَهُ بِالْبَعْثِ، فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى، وَالْغَرَضُ مِنَ الدُّعَاءِ بِذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ هَمَّهُمْ أَمْرُ الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ سَأَلُوا الثَّبَاتَ عَلَى الْهِدَايَةِ لِيَنَالُوا ثَوَابَهَا، رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَقَالَ: فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ(١)، وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﵁ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا ثَلَاثَ خِلَالٍ، وَذَكَرَ مِنْهَا: أَنَّهُ يُفْتَحُ لَهُمُ الْكِتَابُ فَيَأْخُذُهُ الْمُؤْمِنُ يَبْتَغِي تَأْوِيلَهُ وَلَيْسَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. الْحَدِيثَ(٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ﴾ تَدْفَعَ ﴿عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عَذَابِهِ ﴿شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ مَا يُوقَدُ بِهِ. دَأْبُهُمْ ﴿كَدَأْبِ﴾ كَعَادَةِ ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ مِنَ الْأُمَمِ كَعَادٍ وَثَمُودَ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَهْلَكَهُمْ ﴿بِذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ وَالْجُمْلَةُ مُفَسِّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١﴾. وَنَزَلَ لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْيَهُودَ بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ مَرْجِعِهِ مِنْ بَدْرٍ، فَقَالُوا: «لَا يَغُرَّنَّكَ أَنْ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ»(٣). ﴿قُل﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنَ الْيَهُودِ: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَضَرْبِ الْجِزْيَةِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ﴾ فَتَدْخُلُونَهَا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾ الْفِرَاشُ هِيَ. ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ عِبْرَةٌ، وَذَكَرَ الْفِعْلَ لِلْفَصْلِ ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ فِرْقَتَيْنِ ﴿ٱلْتَقَتَا ۖ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ لِلْقِتَالِ ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: طَاعَتِهِ، وَهُمُ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ وَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَعَهُمْ فَرَسَانِ وَسِتُّ أَدْرُعٍ وَثَمَانِيَةُ سُيُوفٍ، وَأَكْثَرُهُمْ رَجَّالَةٌ ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أَيِ: الْمُسْلِمِينَ، أَيْ: أَكْثَرَ مِنْهُمْ، وَكَانُوا نَحْوَ أَلْفٍ ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ﴾ أَيْ: رُؤْيَةً ظَاهِرَةً مُعَايَنَةً، وَقَدْ نَصَرَهُمُ اللهُ مَعَ قِلَّتِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ يُقَوِّي ﴿بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾ لِذَوِي الْبَصَائِرِ، أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ فَتُؤْمِنُوا. ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ، زَيَّنَهَا اللهُ ابْتِلَاءً أَوِ الشَّيْطَانُ ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ الْأَمْوَالِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في «مسند عمر» (٧٨٨)، والطبراني (٣٤٤٢) باختلاف يسير.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٠١)، والبيهقي (١٩١٠٠).

اَلْكَثِيرَةِ ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ اَلْمُجَمَّعَةِ ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ اَلْحِسَانِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أَيِ: اَلْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ اَلزَّرْعِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورُ ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَفْنَى ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ اَلْمَرْجِعِ وَهُوَ اَلْجَنَّةُ، فَيَنْبَغِي اَلرَّغْبَةُ فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ. ﴿۞ قُلْ﴾ يَامُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أُخْبِرُكُمْ ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ اَلْمَذْكُورِ مِنَ اَلشَّهَوَاتِ؟ اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ اَلشِّرْكَ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَؤُهُ ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ﴾ أَيْ: مُقَدَّرِينَ اَلْخُلُودَ ﴿فِيهَا﴾ إِذَا دَخَلُوهَا ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ اَلْحَيْضِ وَغَيْرِهِ مِمَّا يُسْتَقْذَرُ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ وَضَمِّهِ لُغَتَانِ، أَيْ: رِضًا كَثِيرًا[(١)] ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ﴾ عَالِمٌ ﴿بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ فَيُجَازِي كُلًّا مِنْهُمْ بِعَمَلِهِ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَعْتٌ أَوْ بَدَلٌ مِنَ «اَلَّذِينَ» قَبْلَهُ ﴿يَقُولُونَ﴾: يَا ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ صَدَّقْنَا بِكَ وَبِرَسُولِكَ ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عَلَى اَلطَّاعَةِ وَعَنِ اَلْمَعْصِيَةِ، نَعْتٌ ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِي اَلْإِيمَانِ ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ اَلْمُطِيعِينَ لِلَّهِ ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ اَلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ اللهَ بِأَنْ يَقُولُوا: «اَللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا» ﴿بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ أَوَاخِرِ اَللَّيْلِ، خُصَّتْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا وَقْتُ اَلْغَفْلَةِ وَلَذَّةِ اَلنَّوْمِ[(٢)]. ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ بَيَّنَ لِخَلْقِهِ بِالدَّلَائِلِ وَالْآيَاتِ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ أَيْ: لَا مَعْبُودَ فِي اَلْوُجُودِ بِحَقٍّ ﴿إِلَّا هُوَ وَ﴾ شَهِدَ بِذَلِكَ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بِالْإِقْرَارِ ﴿وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ﴾ مِنَ اَلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالِاعْتِقَادِ وَاللَّفْظِ ﴿قَآئِمًۢا﴾ بِتَدْبِيرِ مَصْنُوعَاتِهِ، وَنَصْبُهُ عَلَى اَلْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى اَلْجُمْلَةِ، أَيْ: تَفَرَّدَ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ اَلْمَرْضِيَّ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ هُوَ ﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ أَيِ: اَلشَّرْعُ اَلْمَبْعُوثُ بِهِ اَلرُّسُلُ

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) قال الحرالي: وفي إفهامه تهجدهم في الليل كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧-١٨]، وقال الرازي: واعلم أن المراد منه من يصلي بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء، لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك. وثبت عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨). [القاسمي (٢/ ٢٩٤)].

اَلْمَبْنِيُّ عَلَى اَلتَّوْحِيدِ[١]، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ ﴿إِنَّ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿أَنَّهُ﴾ إِلَى آخِرِهِ، بَدَلُ اِشْتِمَالٍ ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ اَلْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي اَلدِّينِ، بِأَنْ وَحَّدَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بِالتَّوْحِيدِ ﴿بَغْيَۢا﴾ مِنَ اَلْكَافِرِينَ[٢] ﴿بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ أَيِ: اَلْمُجَازَاةِ لَهُ. ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ خَاصَمَكَ اَلْكُفَّارُ يَا مُحَمَّدُ فِي اَلدِّينِ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ اِنْقَدْتُ لَهُ أَنَا ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ﴾ وَخَصَّ اَلْوَجْهَ بِالذِّكْرِ لِشَرَفِهِ، فَغَيْرُهُ أَوْلَى ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ مُشْرِكِي اَلْعَرَبِ: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ﴾ أَيْ: أَسْلِمُوا ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ مِنَ اَلضَّلَالِ ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عَنِ اَلْإِسْلَامِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ﴾ اَلتَّبْلِيغُ لِلرِّسَالَةِ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ اَلْأَمْرِ بِالْقِتَالِ[٣]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُقَـٰتِلُونَ﴾[٤]، ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وَهُمُ اَلْيَهُودُ، رُوِيَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا، فَنَهَاهُمْ مِائَةٌ وَسَبْعُونَ مِنْ عُبَّادِهِمْ فَقَتَلُوهُمْ مِنْ يَوْمِهِمْ ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ أَعْلِمْهُمْ ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ مُؤْلِمٍ، وَذِكْرُ اَلْبِشَارَةِ تَهَكُّمٌ بِهِمْ، وَدَخَلَتِ اَلْفَاءُ فِي خَبَرِ ﴿إِنَّ﴾ لِشَبَهِ اِسْمِهَا اَلْمَوْصُولِ بِالشَّرْطِ. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ، كَصَدَقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ فَلَا اِعْتِدَادَ بِهَا لِعَدَمِ شَرْطِهَا[٥] ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ مَانِعِينَ مِنَ

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣] قال الزجاج: الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالإقامة عليه، والإسلام هو الدخول في السلم، وهو الانقياد في الطاعة. وقد ذهب الجمهور إلى أن الإسلام هنا بمعنى الإيمان وإن كانا في الأصل متغايرين كما في حديث جبريل الذي بين فيه النبي ﷺ معنى الإسلام والإيمان وصدقه جبريل وهو في الصحيحين وغيرهما، ولكن قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة. قال قتادة: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء به الرسول من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسله، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره، وعن الضحاك قال: لم يبعث الله رسولاً إلا بالإسلام. [صديق حسن (٢/ ٢٠٥)].

(٢) أي: الباعث لهم على الاختلاف هو البغي والحسد، لا الشبهة وخفاء الأمر. [الآلوسي (٢/ ١٠٤)].

(٣) قيل: الآية محكمة والمراد بها تسلية النبي ﷺ، وقيل: منسوخة بآية السيف. [صديق حسن (٢/ ٢٠٧)].

(٤) هذا سبق قلم من الشارح وتقديم؛ لأن القراءة الثانية خاصة بقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

(٥) أي: بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات في الدارين، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم، والثناء باللعن والخزي، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبي وأخذ الأموال منهم غنيمة، والاسترقاق لهم، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم. وأما حبوطها في الآخرة، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم. وقد دلت الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف، وعظم ذنب قاتله، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله

الْعَذَابِ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرْ ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ حَظًّا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ التَّوْرَاةِ ﴿يُدْعَوْنَ﴾ حَالٌ ﴿إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ عَنْ قَبُولِ حُكْمِهِ، نَزَلَ فِي الْيَهُودِ، زَنَى مِنْهُمُ اثْنَانِ فَتَحَاكَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَكَمَ عَلَيْهِمَا بِالرَّجْمِ فَأَبَوْا، فَجِيءَ بِالتَّوْرَاةِ فَوُجِدَ فِيهَا فَرُجِمَا فَغَضِبُوا[1]. ﴿ذَلِكَ﴾ التَّوَلِّي وَالْإِعْرَاضُ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أَيْ: بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُدَّةَ عِبَادَةِ آبَائِهِمُ الْعِجْلَ، ثُمَّ تَزُولُ عَنْهُمْ[2] ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ مِنْ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ. ﴿فَكَيْفَ﴾ حَالُهُمْ ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أَيْ: فِي يَوْمٍ ﴿لَا رَيْبَ﴾ لَا شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ جَزَاءَ ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَهُمْ﴾ أَيِ: النَّاسُ ﴿لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بِنَقْصِ حَسَنَةٍ أَوْ زِيَادَةِ سَيِّئَةٍ. وَنَزَلَ لَمَّا وَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ مُلْكَ فَارِسَ وَالرُّومِ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: هَيْهَاتَ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ يَا اللَّهُ ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي﴾ تُعْطِي ﴿الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ مِنْ خَلْقِكَ ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بِإِيتَائِهِ ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بِنَزْعِهِ مِنْهُ ﴿بِيَدِكَ﴾ بِقُدْرَتِكَ[3] ﴿الْخَيْرُ﴾ أَيْ: وَالشَّرُّ[4] ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ﴾ تُدْخِلُ ﴿اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ﴾ تُدْخِلُهُ ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ فَيَزِيدُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَا نَقَصَ مِنَ الْآخَرِ ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ

تعالى، وقتل الأنبياء. قال الحاكم: وتدل على صحة ما قيل: إنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه، وأن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين، ففي الحديث: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». أخرجه أحمد (١١١٥٩). [القاسمي (٢/ ٣٠٠)].

(١) روى القصة البخاري (١٣٢٩)، ومسلم (٤٤٢٧).

(٢) انظر التعليق على آية (٨٠) من سورة البقرة.

(٣) أي: كل ذلك بيدك وإليك، لا يقدر على ذلك أحد، لأنك على كل شيء قديرٌ، دون سائر خلقك، ودون من اتخذه المشركون من أهل الكتاب والأميين من العرب إلهًا وربًّا يعبدونه من دونك، كالمسيح والأنداد التي اتخذها الأميون ربًّا. [الطبري (٥/ ٣٠٤)].

(٤) زعموا أن تقدير الآية: بيده الخير والشر، ولكن هذا وهم باطل، وليس المقام مقام حذف وقصر أو اقتصاد، المقام مقام ثناء والثناء ينبغي فيه البسط والتوسع في الكلام، فالحذف غير مناسب لفظًا وهو باطل معنى؛ لأن الله لا يضاف إليه الشر، ولا يجوز أن نقول: بيده الشر؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» أخرجه مسلم (٧٧١). فلا يُنْسب إلى الله الشرُّ قوْلًا ولا فِعْلًا، فالله يقول الحق وهو يهدي السبيل ويفعل الخير ولا يفعل الشر، وإذا وُجد شرٌّ في المفعولات فهو شر من وجه وخير من وجه آخر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء الشريرة ليس شرًّا بل هو خير، خير محض، ففعل الله ليس فيه شرٌّ إطلاقًا، والشر إنما هو في المفعولات، لا في الأفعال، أما الخير فهو في المفعولات والأفعال؛ ولهذا ينسب إلى الله. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ١٥٨)].

مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّائِرِ مِنَ النُّطْفَةِ وَالْبَيْضَةِ ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾ كَالنُّطْفَةِ وَالْبَيْضَةِ(١) ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ أَيْ: رِزْقًا وَاسِعًا(٢). ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ يُوَالُونَهُمْ ﴿مِن دُونِ﴾ أَيْ: غَيْرَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: يُوَالِيهِمْ ﴿فَلَيْسَ مِنَ﴾ دِينِ ﴿ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ مَصْدَرُ تَقَيْتُهُ، أَيْ: تَخَافُوا مَخَافَةً، فَلَكُمْ مُوَالَاتُهُمْ بِاللِّسَانِ دُونَ الْقَلْبِ، وَهَذَا قَبْلَ عِزَّةِ الْإِسْلَامِ(٣)، وَيَجْرِي فِيمَنْ هُوَ فِي بَلَدٍ لَيْسَ قَوِيًّا فِيهَا ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾ يُخَوِّفُكُمْ ﴿ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْكُمْ إِنْ وَالَيْتُمُوهُمْ(٤) ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ الْمَرْجِعُ فَيُجَازِيكُمْ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ قُلُوبِكُمْ مِنْ مُوَالَاتِهِمْ ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ تُظْهِرُوهُ ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَ﴾ هُوَ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ وَمِنْهُ تَعْذِيبُ مَنْ وَالَاهُمْ. اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ هُ ﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ﴾ هُ ﴿مِن سُوٓءٍ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ غَايَةً فِي نِهَايَةِ الْبُعْدِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ كُرِّرَ لِلتَّأْكِيدِ

---

(١) وقيل: يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، فالحياة والموت على هذا استعارة، وفي ذكر الحي من الميت المطابقة، وهي من أدوات البيان، وفيه أيضـًا القلب لأنه قدم الحي على الميت، ثم عكس. [ابن جُزَيّ (١/ ١٤٩)].

(٢) أي: بغير عوض؛ لأن المحاسبة إنما تكون مع المعاوضة، فإن من لا يريد العوض لا يحاسبه، لكن من يريد العوض هو الذي يحاسب حتى يعلم هل ما أخذه مقابل لما أعطاه أو لا، وأما من لا يحتاج إلى عوض أو من لا يأخذ عوضًا فلا يحاسب ... فالله سبحانه وتعالى يعطي بلا عوض، وما أكثر النعم التي أنعم بها علينا ولكن لا يحاسبنا، يعطينا منه سبحانه وتعالى تفضلًا وكرمًا، وإن أمرنا بالشكر فشكرناه، فهذا عطاء ثانٍ، فشكر الإنسان ربه على نعمته هو من نعمته أيضًا. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ١٦٥)].

(٣) معنى الآية أن الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلّا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفارا فيداهنهم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو غير ذلك من المحرمات، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع سلامة النية قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]. [الخازن (١/ ٢٣٧)].

(٤) من فوائد الآية الكريمة: إطلاق النفس على الذات؛ لأن المراد نفسه، أي: ذاته ﴿يُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ذاته، والتعبير بالنفس أولى من التعبير بالذات، وإن كان التعبير بالذات هو المشهور عند العلماء، لكن التعبير بالذات عن النفس ليس من اللغة العربية الفصحى كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وإنما هو متلقى من اصطلاح عرفي، وأصله أن «ذات» تُستعمل مضافة، فيقال: ذات جمال، ذات دين، ذات مال، وما أشبه ذلك، فيعبرون بالذات عن العين المتصفة بصفات، ثم سلبوها من الإضافة وعبروا بكلمة «ذات» مجردة عن الإضافة، هذا هو الأصل في استعمال كلمة «ذات»، وإلا فإنها ليست عربية محضة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ١٧٥)].

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا: «مَا نَعْبُدُ ٱلْأَصْنَامَ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ لِيُقَرِّبُونَا إِلَيْهِ»: ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُثِيبُكُمْ[1] ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لِمَنِ اتَّبَعَنِي مَا سَلَفَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿رَّحِيمٞ ٣١﴾ بِهِ. ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ[2] ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ فِيهِ إِقَامَةُ الظَّاهِرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ، أَيْ: لَا يُحِبُّهُمْ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ[3]. ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ اخْتَارَ ﴿ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ بِمَعْنَى أَنْفُسِهِمَا ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ بِجَعْلِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَسْلِهِمْ. ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ﴾ وَلَدِ ﴿بَعۡضٖۗ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾. اذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ حَنَّةُ لَمَّا أَسَنَّتْ وَاشْتَاقَتْ لِلْوَلَدِ فَدَعَتِ اللهَ وَأَحَسَّتْ بِالْحَمْلِ: يَا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ﴾ أَنْ أَجْعَلَ ﴿لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ عَتِيقًا، خَالِصًا مِنْ شَوَاغِلِ الدُّنْيَا لِخِدْمَةِ بَيْتِكَ الْمُقَدَّسِ ﴿فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِلدُّعَاءِ ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ بِالنِّيَّاتِ، وَهَلَكَ عِمْرَانُ وَهِيَ حَامِلٌ. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾ وَلَدَتْهَا جَارِيَةً، وَكَانَتْ تَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلَامًا إِذْ لَمْ يَكُنْ يُحَرَّرُ إِلَّا الْغِلْمَانُ ﴿قَالَتۡ﴾ مُعْتَذِرَةً: يَا ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ أَيْ: عَالِمٌ ﴿بِمَا وَضَعَتۡ﴾ جُمْلَةُ اعْتِرَاضٍ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ التَّاءِ ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ﴾ الَّذِي طَلَبَتْ ﴿كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ الَّتِي وُهِبَتْ؛ لِأَنَّهُ يُقْصَدُ لِلْخِدْمَةِ، وَهِيَ لَا تَصْلُحُ لِضَعْفِهَا وَعَوْرَتِهَا وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الْحَيْضِ وَنَحْوِهِ ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أَوْلَادَهَا ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ الْمَطْرُودِ، فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[4] ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أَيْ: قَبِلَ مَرْيَمَ مِنْ أُمِّهَا ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ أَنْشَأَهَا بِخَلْقٍ حَسَنٍ، فَكَانَتْ تَنْبُتُ فِي الْيَوْمِ كَمَا يَنْبُتُ الْمَوْلُودُ فِي الْعَامِ[5]،

---

(١) هذا تأويل بالازم، قال ابن كثير (٢/ ٣٢): أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِب، إنما الشأن أن تُحَب، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية.

(٢) حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في جميع الأوامر والنواهي. [الشوكاني (١/ ٣٨٢)].

(٣) هذا تفسير بالازم، والصواب: أن من نتائج عدم محبة الله لهم أن يعاقبهم.

(٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». أخرجه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).@

(٥) المعنى: أنه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، قيل: إنها كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام وفيه بعد، وقيل: هو مجاز عن

وَأَتَتْ بِهَا أُمُّهَا ٱلْأَحْبَارَ سَدَنَةَ بَيْتِ ٱلْمَقْدِسِ، فَقَالَتْ: دُونكُمْ هَذِهِ ٱلنَّذِيرَةُ، فَتَنَافَسُوا فِيهَا لِأَنَّهَا بِنْتُ إِمَامِهِمْ، فَقَالَ زَكَرِيَّا: أَنَا أَحَقُّ بِهَا لِأَنَّ خَالَتَهَا عِنْدِي، فَقَالُوا: لَا حَتَّى نَقْتَرِعَ، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَى نَهْرِ ٱلْأُرْدُنِّ وَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ عَلَى أَنَّ مَنْ ثَبَتَ قَلَمُهُ فِي ٱلْمَاءِ وَصَعِدَ أَوْلَى بِهَا، فَثَبَتَ قَلَمُ زَكَرِيَّا فَأَخَذَهَا وَبَنَى لَهَا غُرْفَةً فِي ٱلْمَسْجِدِ بِسُلَّمٍ لَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا غَيْرُهُ، وَكَانَ يَأْتِيهَا بِأَكْلِهَا وَشُرْبِهَا وَدُهْنِهَا فَيَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ ٱلصَّيْفِ فِي ٱلشِّتَاءِ وَفَاكِهَةَ ٱلشِّتَاءِ فِي ٱلصَّيْفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّآءُ**﴾ ضَمَّهَا إِلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّشْدِيدِ وَنَصْبِ ﴿زَكَرِيَّآءَ﴾ مَمْدُودًا وَمَقْصُورًا، وَالْفَاعِلُ اللهُ ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّآءُ ٱلْمِحْرَابَ**﴾ ٱلْغُرْفَةَ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْمَجَالِسِ ﴿**وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ**﴾ مِنْ أَيْنَ ﴿**لَكِ هَٰذَا قَالَتْ**﴾ وَهِيَ صَغِيرَةٌ: ﴿**هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ يَأْتِينِي بِهِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧**﴾ رِزْقًا وَاسِعًا بِلَا تَبِعَةٍ. ﴿**هُنَالِكَ**﴾ أَيْ: لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا ذَلِكَ، وَعَلِمَ أَنَّ ٱلْقَادِرَ عَلَى ٱلْإِتْيَانِ بِالشَّيْءِ فِي غَيْرِ حِينِهِ قَادِرٌ عَلَى ٱلْإِتْيَانِ بِالْوَلَدِ عَلَى ٱلْكِبَرِ، وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِهِ انْقَرَضُوا ﴿**دَعَا زَكَرِيَّآءُ رَبَّهُۥ**﴾ لَمَّا دَخَلَ ٱلْمِحْرَابَ لِلصَّلَاةِ جَوْفَ ٱللَّيْلِ ﴿**قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ**﴾ مِنْ عِنْدِكَ ﴿**ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**﴾ وَلَدًا صَالِحًا ﴿**إِنَّكَ سَمِيعُ**﴾ مُجِيبُ[1] ﴿**ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ**﴾ أَيْ: جِبْرِيلُ ﴿**وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ**﴾ أَيِ: ٱلْمَسْجِدِ ﴿**أَنَّ**﴾ أَيْ: بِأَنَّ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْكَسْرِ، بِتَقْدِيرِ ٱلْقَوْلِ ﴿**ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ**﴾ مُثَقَّلًا وَمُخَفَّفًا ﴿**بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ**﴾ كَائِنَةٍ ﴿**مِّنَ ٱللَّهِ**﴾ أَيْ: بِعِيسَى أَنَّهُ رُوحُ ٱللهِ، وَسُمِّيَ كَلِمَةً لِأَنَّهُ خُلِقَ بِكَلِمَةِ «كُنْ» ﴿**وَسَيِّدًا**﴾ مَتْبُوعًا ﴿**وَحَصُورًا**﴾ مَمْنُوعًا مِنَ ٱلنِّسَاءِ[2] ﴿**وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩**﴾ رُوِيَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً وَلَمْ يَهُمَّ بِهَا[3]. ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ**﴾ كَيْفَ ﴿**يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ**﴾ وَلَدٌ ﴿**وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ**﴾ أَيْ: بَلَغْتُ نِهَايَةَ ٱلسِّنِّ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً ﴿**وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ**﴾ بَلَغَتْ ثَمَانِ وَتِسْعِينَ سَنَةً ﴿**قَالَ**﴾ ٱلْأَمْرُ ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مِنْ خَلْقِ ٱللهِ غُلَامًا مِنْكُمَا ﴿**ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠**﴾ لَا يُعْجِزُهُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلِإِظْهَارِ هَذِهِ ٱلْقُدْرَةِ ٱلْعَظِيمَةِ أَلْهَمَهُ ٱلسُّؤَالَ لِيُجَابَ بِهَا، وَلَمَّا تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى سُرْعَةِ ٱلْمُبَشَّرِ بِهِ ﴿**قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً**﴾ أَيْ:

التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها. [الشوكاني (١/ ٣٨٥)].

(١) أي: سامعه ومجيبه. [صديق حسن (٢/ ٢٢٧)].

(٢) معناه: الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ... إذ العنة عيب لا يجوز على الأنبياء، وبتسليم أنها ليست بعيب فلا أقل إنها ليست بصفة مدح، والكلام مخرجه المدح. [الآلوسي (٢/ ١٤٢)].

(٣) المراد من الصلاح ما فوق الصلاح الذي لا بد منه في منصب النبوة البتة من أقاصي مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. [أبو السعود (٢/ ٣٢)].

عَلامَةً عَلى حَمْلِ امْرَأَتِي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ عَلَيْهِ ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أَيْ: تَمْتَنِعَ مِنْ كَلامِهِمْ، بِخِلَافِ ذِكْرِ اللهِ تَعالَى ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أَيْ: بِلَيالِيها ﴿إِلَّا رَمْزًاۗ﴾ إِشارَةً ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ﴾ صَلِّ[1] ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ أَواخِرِ النَّهارِ وَأَوائِلِهِ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أَيْ: جِبْرِيلُ ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اخْتارَكِ ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ مِنْ مَسِيسِ الرِّجالِ ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أَيْ: أَهْلِ زَمانِكِ. ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أَطِيعِيهِ ﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أَيْ: صَلِّي مَعَ الْمُصَلِّينَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ أَمْرِ زَكَرِيَّا وَمَرْيَمَ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أَخْبارِ ما غابَ عَنْكَ ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ فِي الْماءِ يَقْتَرِعُونَ لِيَظْهَرَ لَهُمْ ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ يُرَبِّي ﴿مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فِي كَفالَتِها فَتَعْرِفَ ذَلِكَ فَتُخْبِرَ بِهِ، وَإِنَّما عَرَفْتَهُ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ. ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أَيْ :جِبْرِيلُ ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أَيْ: وَلَدٍ ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ خاطَبَها بِنِسْبَتِهِ إِلَيْها تَنْبِيهًا عَلى أَنَّها تَلِدُهُ بِلا أَبٍ، إِذْ عادَةُ الرِّجالِ نِسْبَتُهُمْ إِلَى آبائِهِمْ ﴿وَجِيهًا﴾ ذا جاهٍ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ بِالشَّفاعَةِ وَالدَّرَجاتِ الْعُلا ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ عِنْدَ اللهِ. ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ أَيْ: طِفْلًا قَبْلَ وَقْتِ الْكَلامِ ﴿وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ كَيْفَ ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ﴾ بِتَزَوُّجٍ وَلا غَيْرِهِ ﴿قَالَ﴾ الْأَمْرُ ﴿كَذَٰلِكِ﴾ مِنْ خَلْقِ وَلَدٍ مِنْكِ بِلا أَبٍ ﴿ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أَرادَ خَلْقَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ أَيْ: فَهُوَ يَكُونُ. ﴿وَنُعَلِّمُهُ﴾ بِالنُّونِ وَالْياءِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الْخَطَّ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَ﴾ نَجْعَلُهُ ﴿رَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فِي الصِّبا أَوْ بَعْدَ الْبُلُوغِ، فَنَفَخَ جِبْرِيلُ فِي جَيْبِ دِرْعِها فَحَمَلَتْ، وَكانَ مِنْ أَمْرِها ما ذُكِرَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللهُ إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ قالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦]، ﴿أَنِّي﴾ أَيْ: بِأَنِّي ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ عَلامَةٍ عَلى صِدْقِي ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هِيَ ﴿أَنِّيٓ﴾ وَفِي قِراءَةٍ: بِالْكَسْرِ، اسْتِئْنافًا ﴿أَخْلُقُ﴾ أُصَوِّرُ ﴿لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ مِثْلَ صُورَتِهِ[2]، فَالْكافُ اسْمٌ مَفْعُولٌ ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضَّمِيرُ لِلْكافِ ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ وَفِي

---

(١) الذكر المراد به: الذكر بالقلب والصلاة إن كان قد سلب قوة النطق، أو الذكر اللساني إن كان قد نهي عنها فقط. [ابن عاشور (٣/ ٢٤٣)].

(٢) هذه الآية يوهم ظاهرها أن بعض المخلوقين ربما خلق بعضهم، ... وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الله هو خالق كل شيء، ... كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ [الزمر: ٦٢]، إلى غير ذلك من الآيات. والجواب ظاهر، وهو أن معنى خلق عيسى كهيئة الطير من الطين هو: أخذه شيئا من الطين وجعله إياه على هيئة، أي: صورة الطير وليس المراد الخلق الحقيقي لأن الله متفرد به جل وعلا. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي، ص: ٥٦]. فكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله. [السمرقندي (١/ ٢١٤)].

قِرَاءَةٍ: ﴿طَـٰٓئِرًا﴾، ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ(١) فَخَلَقَ لَهُمُ الْخُفَّاشَ لِأَنَّهُ أَكْمَلُ الطَّيْرِ خَلْقًا، فَكَانَ يَطِيرُ وَهُمْ يَنْظُرُونَهُ، فَإِذَا غَابَ عَنْ أَعْيُنِهِمْ سَقَطَ مَيِّتًا ﴿وَأُبْرِئُ﴾ أَشْفِي ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ وَخُصَّا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا دَاءَا إِعْيَاءٍ، وَكَانَ بَعْثُهُ فِي زَمَنِ الطِّبِّ(٢)، فَأَبْرَأَ فِي يَوْمٍ خَمْسِينَ أَلْفًا بِالدُّعَاءِ، بِشَرْطِ الْإِيمَانِ ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كَرَّرَهُ لِنَفْيِ تَوَهُّمِ الْأُلُوهِيَّةِ فِيهِ، فَأَحْيَا عَازَرَ صَدِيقًا لَهُ وَابْنَ الْعَجُوزِ وَابْنَةَ الْعَاشِرِ، فَعَاشُوا وَوُلِدَ لَهُمْ، وَسَامَ بْنَ نُوحٍ وَمَاتَ فِي الْحَالِ(٣) ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ تُخَبِّئُونَ ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ مِمَّا لَمْ أُعَايِنْهُ، فَكَانَ يُخْبِرُ الشَّخْصَ بِمَا أَكَلَ وَبِمَا يَأْكُلُ بَعْدُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩﴾ ﴿وَ﴾ جِئْتُكُمْ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ﴾ قَبْلِي ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فِيهَا فَأَحَلَّ لَهُمْ مِنَ السَّمَكِ وَالطَّيْرِ مَا لَا صِيصَةَ لَهُ، وَقِيلَ: أَحَلَّ الْجَمِيعَ، فَبَعْضٌ بِمَعْنَى كُلٍّ(٤) ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا، وَلِيَبْنِيَ عَلَيْهِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَطَاعَتِهِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا﴾ الَّذِي آمُرُكُمْ بِهِ ﴿صِرَٰطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ فَكَذَّبُوهُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ. ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ عَلِمَ ﴿عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾

---

(١) أي: بإذنه الكوني والشرعي؛ لأن كونه يصور مضاهيًا لخلق الله يحتاج إلى إذن شرعي؛ لأن الأصل أنه لا يجوز لأحد أن يُصور على تصوير الله عز وجل، قال الله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي». أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١)، لكن الله تعالى أذن لعيسى عليه الصلاة والسلام لحكمة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٢٨٢)].

(٢) قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار... وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة... وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدا. [ابن كثير (٢/ ٤٥)].

(٣) هذا التفصيل في التصوير من قصة الخفاش إلى قصة سام ابن نوح، ليس عليه دليل وإنما هي متلقات من الإسرائيليات فلا تصدق ولا تكذب، وإنما نحن متعبدون بتصديق الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ.

(٤) قيل: إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حرم عليهم بذنوبهم ولم يكن في التوراة، نحو أكل الشحوم وكل ذي ظفر. وقيل: إنما أحل لهم أشياء حرمتها عليهم الأحبار ولم تكن في التوراة محرمة عليهم. قال أبو عبيدة: يجوز أن يكون ﴿بَعْضَ﴾ بمعنى كل، ... وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة، لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل في هذا الموضع، لأن عيسى عليه السلام إنما أحل لهم أشياء مما حرمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا الفاحشة. [القرطبي (٤/ ٩٦)].

وَأَرَادُوا قَتْلَهُ ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ﴾ أَعْوَانِي ذَاهِبًا ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ لِأَنْصُرَ دِينَهُ؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أَعْوَانُ دِينِهِ، وَهُمْ أَصْفِيَاءُ عِيسَى أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَكَانُوا اِثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْحَوَرِ، وَهُوَ: الْبَيَاضُ الْخَالِصِ، وَقِيلَ: كَانُوا قَصَّارِينَ يَحُورُونَ الثِّيَابَ، أَيْ: يُبَيِّضُونَهَا ﴿ءَامَنَّا﴾ صَدَّقْنَا ﴿بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ﴾ يَا عِيسَى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ مِنَ الْإِنْجِيلِ ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ عِيسَى ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لَكَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَلِرَسُولِكَ بِالصِّدْقِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أَيْ: كُفَّارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى، إِذْ وَكَلُوا بِهِ مَنْ يَقْتُلُهُ غِيلَةً ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ بِهِمْ بِأَنْ أَلْقَى شَبَهَ عِيسَى عَلَى مَنْ قَصَدَ قَتْلَهُ فَقَتَلُوهُ، وَرَفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أَعْلَمُهُمْ بِهِ[1]. ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ قَابِضُكَ ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ مُبْعِدُكَ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ صَدَّقُوا بِنُبُوَّتِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بِكَ وَهُمُ الْيَهُودُ، يَعْلُونَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَأَخْذِ الْجِزْيَةِ ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بِالنَّارِ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ مَانِعِينَ مِنْهُ. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أَيْ: يُعَاقِبُهُمْ[2]، رُوِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْسَلَ إِلَيْهِ سَحَابَةً فَرَفَعَتْهُ، فَتَعَلَّقَتْ بِهِ أُمُّهُ

---

(١) الضمير يعود على الذين كفروا بعيسى، والمكر هو أن يتوصل إلى الانتقام من خصمه بأسباب غير متوقعة يعني بأسباب خفية، يعني أن الله سبحانه وتعالى مكر بهم حينما مكروا بعيسى. وفي قول الله عز وجل: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ من صفات الله إثبات المكر لله عز وجل، والمكر في مقامه مدح وصفة كمال، والمكر في غير موضعه صفة نقص؛ لأن المكر في غير موضعه خيانة، والخيانة صفة ذم، ولهذا لم يصف الله بها نفسه ولا في باب المقابلة، ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال: ٧١]، قال بعدها: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ﴾ ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة صفة ذم مطلقًا، إذاً يجب أن نصف الله بما وصف به نفسه من المكر في الحال التي وصف الله نفسه فيها بالمكر، وذلك في مقابلة مكر أعدائه، أما أن نصف الله بالمكر على الإطلاق، فنقول: إن الله ماكر ونطلق فهذا لا يجوز، لماذا؟ لاحتمال النقص؛ لأن المكر كما قلنا ليس كمالًا في كل حال ولا نقصًا في كل حال، فإذا أُطلق صار قابلًا لأن يكون نقصًا، فإذا قُيِّد بالحال التي يكون فيها كمالًا لم يحتمل أن يكون نقصًا، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ هذه صفة ثابتة مطلقة يعني لا تحتاج قيدًا لأنها وُصفت بكمال، ما هو الكمال؟ ﴿خَيْرُ﴾ يعني ما من أحد يمكر إلا ومكر الله فوقه وخير منه. والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته، وكل صفة لها سبب فهي متعلقة بالمشيئة؛ لأن مقدر السبب هو الله فإذا قدر السبب فقد شاءه ويترتب عليه ما يترتب من الصفات. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٣١٦)].

(٢) فيه إثبات المحبة لله؛ لأن نفي المحبة عن الظالمين دليل على ثبوتها لغيرهم؛ ولو كانت منتفية عن الجميع لم يكن لتخصيصها بالظالمين فائدة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٣٤٧)].

وَبَكَتْ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ الْقِيَامَةَ تَجْمَعُنَا، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَعَاشَتْ أُمُّهُ بَعْدَهُ سِتَّ سِنِينَ(١)، وَرَوَى الشَّيْخَانِ حَدِيثَ: «أَنَّهُ يَنْزِلُ قُرْبَ السَّاعَةِ وَيَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا، وَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ وَالْخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ»(٢). وَفِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ: «أَنَّهُ يَمْكُثُ سَبْعَ سِنِينَ»(٣). وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ: «أَرْبَعِينَ سَنَةً وَيُتَوَفَّى وَيُصَلَّى عَلَيْهِ»(٤). فَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ مَجْمُوعُ لُبْثِهِ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ الرَّفْعِ وَبَعْدَهُ. ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ أَمْرِ عِيسَى ﴿**نَتْلُوهُ**﴾ نَقُصُّهُ ﴿**عَلَيْكَ**﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿**مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ**﴾ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي ﴿نَتْلُوهُ﴾، وَعَامِلُهُ مَا فِي ﴿ذَلِكَ﴾ مِنْ مَعْنَى الْإِشَارَةِ ﴿**وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ** ۝٥٨﴾ الْمُحْكَمِ أَيِ: الْقُرْآنِ. ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ**﴾ شَأْنَهُ الْغَرِيبَ ﴿**عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ**﴾ كَشَأْنِهِ فِي خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ، وَهُوَ مِنْ تَشْبِيهِ الْغَرِيبِ بِالْأَغْرَبِ لِيَكُونَ أَقْطَعَ لِلْخَصْمِ وَأَوْقَعَ فِي النَّفْسِ ﴿**خَلَقَهُۥ**﴾ أَيْ: آدَمَ، أَيْ: قَالَبَهُ ﴿**مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن**﴾ بَشَرًا ﴿**فَيَكُونُ** ۝٥٩﴾ أَيْ: فَكَانَ، وَكَذَلِكَ عِيسَى قَالَ لَهُ: «كُنْ» مِنْ غَيْرِ أَبٍ، فَكَانَ ﴿**ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: أَمْرُ عِيسَى ﴿**فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ** ۝٦٠﴾ الشَّاكِّينَ فِيهِ. ﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ**﴾ جَادَلَكَ مِنَ النَّصَارَى ﴿**فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ**﴾ بِأَمْرِهِ ﴿**فَقُلْ**﴾ لَهُمْ: ﴿**تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ**﴾ فَنَجْمَعُهُمْ ﴿**ثُمَّ نَبْتَهِلْ**﴾ نَتَضَرَّعْ فِي الدُّعَاءِ ﴿**فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ** ۝٦١﴾ بِأَنْ نَقُولَ: اللَّهُمَّ الْعَنِ الْكَاذِبَ فِي شَأْنِ عِيسَى، وَقَدْ دَعَا ﷺ وَفْدَ نَجْرَانَ لِذَلِكَ لَمَّا حَاجُّوهُ فِيهِ، فَقَالُوا: حَتَّى نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ، فَقَالَ ذَوُو رَأْيِهِمْ: لَقَدْ عَرَفْتُمْ نُبُوَّتَهُ، وَأَنَّهُ مَا بَاهَلَ قَوْمٌ نَبِيًّا إِلَّا هَلَكُوا، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَانْصَرِفُوا، فَأَتَوْهُ وَقَدْ خَرَجَ، وَمَعَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَفَاطِمَةُ وَعَلِيٌّ، وَقَالَ لَهُمْ: «إِذَا دَعَوْتُ فَأَمِّنُوا»، فَأَبَوْا أَنْ يُلَاعِنُوا وَصَالَحُوهُ عَلَى الْجِزْيَةِ، رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ(٥)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا، وَفِي رِوَايَةٍ: لَوْ خَرَجُوا لَاحْتَرَقُوا. ﴿**إِنَّ هَٰذَا**﴾ الْمَذْكُورَ ﴿**لَهُوَ ٱلْقَصَصُ**﴾ الْخَبَرُ ﴿**ٱلْحَقُّ**﴾ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ﴿**وَمَا مِنْ**﴾ زَائِدَةٌ ﴿**إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ**﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿**ٱلْحَكِيمُ** ۝٦٢﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ**﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ** ۝٦٣﴾ فَيُجَازِيهِمْ، وَفِيهِ

---

(١) والله أعلم بصحة ذلك؛ لأنه لم يثبت عن المعصوم ﷺ في ذلك شيء، وهو أشبه بالإسرائيليات.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده (٢٦٦٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الدلائل كما في الدر المنثور (٣/ ٣٢٣)، وأصل القصة عند البخاري (٣٧٤٥)، ومسلم (٢٤٠٤).

وَضعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضمَرِ. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اَلْيَهُودُ وَالنَّصارَى ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: مُسْتَوٍ أَمْرُهَا ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هِيَ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كَمَا اتَّخَذْتُمُ الْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أَعْرَضُوا عَنِ التَّوْحِيدِ ﴿فَقُولُواْ﴾ أَنْتُمْ لَهُمْ: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ مُوَحِّدُونَ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْيَهُودُ: «إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيٌّ وَنَحْنُ عَلَى دِينِهِ»، وَقَالَتِ النَّصارَى كَذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ تُخَاصِمُونَ ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بِزَعْمِكُمْ أَنَّهُ عَلَى دِينِكُمْ ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ، وَبَعْدَ نُزُولِهِمَا حَدَثَتِ الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ بُطْلَانَ قَوْلِكُمْ؟ ﴿هَٰٓ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿أَنتُمْ﴾ مُبْتَدَأٌ، يَا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وَالْخَبَرُ: ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مِنْ أَمْرِ مُوسَى وَعِيسَى، وَزَعْمِكُمْ أَنَّكُمْ عَلَى دِينِهِمَا ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مِنْ شَأْنِ إِبْرَاهِيمَ؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ شَأْنَهُ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ هُ. قَالَ تَعَالَى تَبْرِئَةً لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ(١) ﴿مُّسْلِمًا﴾ مُوَحِّدًا ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾ أَحَقَّهُمْ ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ فِي زَمَانِهِ ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ مُحَمَّدٌ لِمُوَافَقَتِهِ لَهُ فِي أَكْثَرِ شَرْعِهِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مِنْ أُمَّتِهِ، فَهُمُ الَّذِينَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ عَلَى دِينِهِ، لَا أَنْتُمْ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ نَاصِرُهُمْ وَحَافِظُهُمْ. وَنَزَلَ لَمَّا دَعَا الْيَهُودُ مُعَاذًا وَحُذَيْفَةَ وَعَمَّارًا إِلَى دِينِهِمْ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لِأَنَّ إِثْمَ إِضْلَالِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يُطِيعُونَهُمْ فِيهِ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بِذَلِكَ. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ(٢) الْمُشْتَمِلِ عَلَى نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ؟ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ﴾ تَخْلِطُونَ ﴿ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّزْوِيرِ ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أَيْ: نَعْتَ النَّبِيِّ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ أَنَّهُ حَقٌّ؟ ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اَلْيَهُودُ لِبَعْضِهِمْ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أَوَّلَهُ ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ﴾ بِهِ ﴿ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ عَنْ دِينِهِمْ، إِذْ يَقُولُونَ: مَا رَجَعَ هَؤُلَاءِ عَنْهُ بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِيهِ وَهُمْ أُولُو عِلْمٍ إِلَّا لِعِلْمِهِمْ بُطْلَانَهُ. وَقَالُوا أَيْضًا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ تُصَدِّقُوا

---

(١) الحنيف مأخوذ من الحنف، وهو الاستقامة، وقيل: هو الميل، ومنه قيل للمائل الرجل: أحنف، فالحنيف من الاستقامة معناه المستقيم، ومن الميل معناه: المائل عن معوج الأديان إلى طريق الحق. [ابن عطية (١/ ٤٥١)].

(٢) [وقيل:] المراد ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ما في كتبهم من دلائل نبوة محمد ﷺ. [صديق حسن (١/ ٤٠٢)].

﴿إِلَّا لِمَن﴾ اَللَّامُ زَائِدَةٌ ﴿تَبِعَ﴾ وَافَقَ ﴿دِينَكُمْ﴾، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اَلَّذِي هُوَ اَلْإِسْلَامُ وَمَا عَدَاهُ ضَلَالٌ، وَالْجُمْلَةُ اِعْتِرَاضٌ ﴿أَن﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ مِنَ اَلْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَضَائِلِ، وَ﴿أَن﴾ مَفْعُولُ ﴿تُؤْمِنُوٓاْ﴾، وَالْمُسْتَثْنَى مِنْهُ ﴿أَحَدٌ﴾ قُدِّمَ عَلَيْهِ اَلْمُسْتَثْنَى، اَلْمَعْنَى: لَا تُقِرُّوا بِأَنَّ أَحَدًا يُؤْتَى ذَلِكَ إِلَّا لِمَنِ اتَّبَعَ دِينَكُمْ ﴿أَوْ﴾ بِأَنْ ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ أَيِ: اَلْمُؤْمِنُونَ يَغْلِبُوكُمْ ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ لِأَنَّكُمْ أَصَحُّ دِينًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ءَأَن﴾ بِهَمْزَةِ اَلتَّوْبِيخِ أَيْ: أَإِيتَاءُ أَحَدٍ مِثْلَهُ تُقِرُّونَ بِهِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَا ﴿يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾؟ ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كَثِيرُ اَلْفَضْلِ[١] ﴿عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ بِمَنْ هُوَ أَهْلُهُ. ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ * ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ أَيْ: بِمَالٍ كَثِيرٍ ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ لِأَمَانَتِهِ، كَعَبْدِ اَللهِ بْنِ سَلَامٍ أَوْدَعَهُ رَجُلٌ أَلْفًا وَمِائَتَيْ أُوقِيَّةٍ ذَهَبًا فَأَدَّاهَا إِلَيْهِ ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ لِخِيَانَتِهِ ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ لَا تُفَارِقُهُ، فَمَتَى فَارَقْتَهُ أَنْكَرَهُ، كَكَعْبِ بْنِ اَلْأَشْرَفِ اِسْتَوْدَعَهُ قُرَشِيٌّ دِينَارًا فَجَحَدَهُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: تَرْكُ اَلْأَدَاءِ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ﴾ بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أَيِ: اَلْعَرَبِ ﴿سَبِيلٌ﴾ أَيْ: إِثْمٌ، لِاسْتِحْلَالِهِمْ ظُلْمَ مَنْ خَالَفَ دِينَهُمْ، وَنَسَبُوهُ إِلَيْهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ فِي نِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ. ﴿بَلَىٰ﴾ عَلَيْهِمْ فِيهِ سَبِيلٌ[٢]، ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ اَلَّذِي عَاهَدَ عَلَيْهِ، أَوْ بِعَهْدِ اَللهِ إِلَيْهِ مِنْ أَدَاءِ اَلْأَمَانَةِ وَغَيْرِهِ ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ اَللهَ بِتَرْكِ اَلْمَعَاصِي وَعَمَلِ اَلطَّاعَاتِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ فِيهِ وَضْعُ اَلظَّاهِرِ مَوْضِعَ اَلْمُضْمَرِ، أَيْ: يُحِبُّهُمْ بِمَعْنَى يُثِيبُهُمْ[٣].

وَنَزَلَ فِي اَلْيَهُودِ لَمَّا بَدَّلُوا نَعْتَ اَلنَّبِيِّ ﷺ وَعَهْدَ اَللهِ إِلَيْهِمْ فِي اَلتَّوْرَاةِ، أَوْ فِيمَنْ حَلَفَ كَاذِبًا فِي دَعْوَى أَوْ فِي بَيْعِ سِلْعَةٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يَسْتَبْدِلُونَ ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ إِلَيْهِمْ فِي اَلْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَأَدَاءِ اَلْأَمَانَةِ ﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ حَلِفِهِمْ بِهِ تَعَالَى كَاذِبِينَ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ اَلدُّنْيَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ﴾ نَصِيبَ ﴿لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ غَضَبًا عَلَيْهِمْ[٤]

---

(١) واسع في كل صفاته، واسع العلم، واسع الرحمة، واسع الحكمة، واسع القدرة، في كل الصفات، عليم بمن يستحق الفضل سبحانه وتعالى؛ فهو يؤتي فضله من يشاء عن علم وحكمة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٤٠٩)].

(٢) قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من السبيل، قال الزجاج: تم الكلام بقوله بلى، ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾. [الشوكاني (١/ ٤٠٥)].

(٣) المحبة غير الثواب، إذا أحبَّ اللهُ العبدَ أثابه؛ فالإثابة من لازم المحبة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٤٣٤)].

(٤) لا يكلمهم الله تكليم رضا، ولكن قد يكلمهم تكليم إهانة؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول لأهل النار: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وهذا كلام من الله؛ لكنه كلام تقريع وتوبيخ وإهانة، والمنفي هو تكليم الرضا. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٤٤١)].

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ يَرْحَمُهُمْ(١) ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرُهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿لَفَرِيقًا﴾ طَائِفَةً، كَكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أَيْ: يَعْطِفُونَهَا بِقِرَاءَتِهِ عَنِ الْمُنْزَلِ إِلَى مَا حَرَّفُوهُ، مِنْ نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْوِهِ ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أَيِ: الْمُحَرَّفَ ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ(٢) ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٨﴾ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ نَصَارَى نَجْرَانَ: «إِنَّ عِيسَى أَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوهُ رَبًّا»، أَوْ لَمَّا طَلَبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ السُّجُودَ لَهُ ﷺ(٣): ﴿مَا كَانَ﴾ يَنْبَغِي ﴿لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ﴾ أَيِ: الْفَهْمَ لِلشَّرِيعَةِ ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن﴾ يَقُولُ: ﴿كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ عُلَمَاءَ عَامِلِينَ مَنْسُوبِينَ إِلَى الرَّبِّ بِزِيَادَةِ أَلِفٍ وَنُونٍ تَفْخِيمًا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ٧٩﴾ أَيْ: بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَإِنَّ فَائِدَتَهُ أَنْ تَعْمَلُوا. ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بِالرَّفْعِ اسْتِئْنَافًا، أَيِ: اللهُ، وَالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿يَقُولَ﴾، أَيِ: الْبَشَرُ ﴿أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ كَمَا اتَّخَذَتِ الصَّابِئَةُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْيَهُودُ عُزَيْرًا، وَالنَّصَارَى عِيسَى ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ٨٠﴾ لَا يَنْبَغِي لَهُ هَذَا. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ عَهْدَهُمْ ﴿لَمَآ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ لِلِابْتِدَاءِ وَتَوْكِيدُ مَعْنَى الْقَسَمِ الَّذِي فِي أَخْذِ الْمِيثَاقِ، وَكَسْرِهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِـ﴿أَخَذَ﴾، وَ«مَا» مَوْصُولَةٌ عَلَى الْوَجْهَيْنِ، أَيْ: لَلَّذِي ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾ إِيَّاهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾، ﴿مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ جَوَابُ الْقَسَمِ إِنْ

---

(١) بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة. [ابن كثير (٢/ ٦٢)].

(٢) الذي أنزله الله على أنبيائه، ... قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في اليهود والنصارى جميعـًا، وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا في كتاب الله ما ليس منه. [صديق حسن (٢/ ٢٧١)].

(٣) أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله. أي: مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا للمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا -يعني أهل الكتاب- كانوا يتعبدون لأحبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١] ... [عن] عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: «بَلَى، إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ». أخرجه الترمذي (٣٠٩٥). فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ. [ابن كثير (٢/ ٦٦)].

أَدْرَكْتُمُوهُ، وَأُمَمُهُمْ تَبَعٌ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بِذَلِكَ ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ قَبِلْتُمْ ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ عَهْدِي؟ ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَأَتْبَاعِكُمْ بِذَلِكَ ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ. ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أَعْرَضَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الْمِيثَاقِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، أَيِ: الْمُتَوَلُّونَ ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ انْقَادَ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾ بِلَا إِبَاءٍ ﴿وَكَرْهًا﴾ بِالسَّيْفِ وَمُعَايَنَةِ مَا يُلْجِئُ إِلَيْهِ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أَوْلَادِهِ ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ مُخْلِصُونَ فِي الْعِبَادَةِ. وَنَزَلَ فِيمَنِ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالْكُفَّارِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ لِمَصِيرِهِ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِ. ﴿كَيْفَ﴾ أَيْ: لَا ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ﴾ أَيْ: وَشَهَادَتُهُمْ ﴿أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَ﴾ قَدْ ﴿جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ الْحُجَجُ الظَّاهِرَاتُ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أَيِ: الْكَافِرِينَ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أَيِ: اللَّعْنَةِ، أَوِ النَّارِ الْمَدْلُولِ بِهَا عَلَيْهَا ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾ يُمْهَلُونَ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ عَمَلَهُمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ بِهِمْ. وَنَزَلَ فِي الْيَهُودِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِعِيسَى ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بِمُوسَى ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بِمُحَمَّدٍ ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إِذَا غَرْغَرُوا، أَوْ مَاتُوا كُفَّارًا[1] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ﴾ مِقْدَارُ مَا يَمْلَؤُهَا ﴿ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ أَدْخَلَ الْفَاءَ فِي خَبَرِ ﴿إِنَّ﴾ لِشَبَهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بِالشَّرْطِ، وَإِيذَانًا بِتَسَبُّبِ عَدَمِ الْقَبُولِ عَنِ الْمَوْتِ عَلَى الْكُفْرِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلِمٌ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ مَانِعِينَ مِنْهُ. ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ أَيْ: ثَوَابَهُ وَهُوَ الْجَنَّةُ ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ تَتَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ مِنْ أَمْوَالِكُمْ[2] ﴿وَمَا تُنفِقُواْ

---

(١) قال قتادة وعطاء الخرساني والحسن: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته، ثم ازدادوا بإقامتهم على كفرهم كفراً بمحمد ﷺ، وقيل: ازدادوا كفراً بالذنوب التي اكتسبوها ورجحه ابن جرير الطبري وجعلها في اليهود خاصة. وقيل: نزلت في جميع الكفار، وذلك أنهم أشركوا بالله بعد إقرارهم بأن الله خلقهم، ثم ازدادوا كفراً يعني بإقامتهم على الكفر حتى هلكوا. [صديق حسن (٢/ ٢٨٠)].

(٢) عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا وكان أحب أمواله إليه «بيرحاء» وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن

﴿مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ فيُجازِي عَلَيهِ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ اليَهُودُ: «إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ لَا يَأْكُلُ لُحُومَ الإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا»: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا﴾ حَلَالًا ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ﴾ يَعْقُوبُ ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ وَهُوَ الإِبِلُ، لَمَّا حَصَلَ لَهُ عِرْقُ النَّسَا بِالفَتْحِ وَالقَصْرِ، فَنَذَرَ إِنْ شُفِيَ لَا يَأْكُلُهَا، فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ(1) ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ وَذَلِكَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ تَكُنْ عَلَى عَهْدِهِ حَرَامًا كَمَا زَعَمُوا ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ﴾ لِيَتَبَيَّنَ صِدْقُ قَوْلِكُمْ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ فِيهِ فَبُهِتُوا وَلَمْ يَأْتُوا بِهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: ظُهُورِ الحُجَّةِ، بِأَنَّ التَّحْرِيمَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ يَعْقُوبَ، لَا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾ المُتَجَاوِزُونَ الحَقَّ إِلَى البَاطِلِ. ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ فِي هَذَا، كَجَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ إِلَى الإِسْلَامِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا:

تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى فقال النبي ﷺ: «بَخٍ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨). ... [وعن] عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: «حَبِّسِ الأَصْلَ وَسَبِّلِ الثَّمَرَةَ». أخرجه النسائي (٣٦٠٤).

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. قال: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنِ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللهِ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَنِيهِ لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتُتَابِعُنِّي عَلَى الإِسْلَامِ». قالوا: فذلك لك. قال: «فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ»، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه، وقال: «فَعَلَيْكُمْ عَهْدُ اللهِ وَمِيثَاقُهُ لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ لَتُتَابِعُونِي»، فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: «أَنْشُدُكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ – يَعْقُوبَ – مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا طَالَ سَقَمُهُ فِيهِ فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبُّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانَ الإِبِلِ، وَأَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحُومَ الإِبِلِ» فقالوا: اللهم نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وقال: «فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَبْيَضُ، وَأَنَّ مَاءَ المَرْأَةِ رَقِيقٌ أَصْفَرُ فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ الوَلَدُ، وَالشَّبَهُ لَهُ بِإِذْنِ اللهِ». قالوا: نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ». وقال: «أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «وَلِيِّي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ». قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ﴾ الآية [البقرة: ٩٧]. أخرجه أحمد (٢٥١٤).

«قِبْلَتُنَا قَبْلَ قِبْلَتِكُمْ»: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ مُتَعَبَّدًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ بِالْبَاءِ لُغَةٌ فِي مَكَّةَ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبُكُّ أَعْنَاقَ الْجَبَابِرَةِ، أَيْ: تَدُقُّهَا(١)، بَنَاهُ الْمَلَائِكَةُ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ، وَوُضِعَ بَعْدَهُ الْأَقْصَى، وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً، كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ(٢)، وَفِي حَدِيثٍ: «أَنَّهُ أَوَّلُ مَا ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ عِنْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ زُبْدَةٌ بَيْضَاءُ(٣) فَدُحِيَتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ»(٤) ﴿مُبَارَكًا﴾ حَالٌ مِنَ «الَّذِي»، أَيْ: ذَا بَرَكَةٍ(٥) ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ لِأَنَّهُ قِبْلَتُهُمْ. ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ مِنْهَا ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أَيْ: الْحَجَرُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ فَأَثَّرَ قَدَمَاهُ

---

(١) بكة علم للبلد الحرام وكذا مكة وهما لغتان، فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كـ «لازب» و«لازم»، ... وقيل: إن بكة اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام، وقيل: بكة للمسجد ومكة للحرم كله، قيل: سميت بذلك لأنها كانت تبك أي تدق أعناق الجبابرة. وأما تسميتها بمكة فقيل: سميت بذلك لقلة مائها. وقيل: لأنها تمك المخ من العظم بما ينال سكانها من المشقة، ومنه مككت العظم إذا أخرجت ما فيه، ومك الفصيل ضرع أمه وامتكه إذا امتصه، وقيل: سميت بذلك لأنها تمك من ظلم فيها، أي: تهلكه، وقيل: لأنها تمك الذنوب، أي: تزيلها وتمحوها. [صديق حسن (٢/ ٢٨٨)].

(٢) يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس، أي: لعموم الناس، لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه. ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: وضع مباركا ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾. عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ»، قال: قلت ثم أي؟ قال: «الْمَسْجِدُ الأَقْصَى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ». أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠)، وعن الشعبي عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله تعالى. وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا. والصحيح قول علي رضي الله عنه. [ابن كثير (٢/ ٧٧)].

(٣) أي: من زَبد الماء، الأبيض الذي يعلوه.

(٤) قد رويت أحاديث وآثار تبين أن الكعبة كانت صخرة في الماء، وأن دحي الأرض كان من تحتها، وأنها مخلوقة قبل الأرض بألفي سنة، وكل ذلك لا يخلو من ضعف، وهي مردودة بالحديث الصحيح السابق ذكره الذي أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠) عن الصادق المصدوق ﷺ.

(٥) يعني ذا بركة، وأصل البركة النمو والزيادة، والبركة هنا كثرة الخير الحاصل لمن استقر فيه أو يقصده، أي: الثواب المتضاعف. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ». أخرجه مسلم (١٣٩٥). [صديق حسن (٢/ ٢٨٩)].

فِيهِ، وبَقِيَ إِلَى ٱلْآنَ مَعَ تَطَاوُلِ ٱلزَّمَانِ وَتَدَاوُلِ ٱلْأَيْدِي عَلَيْهِ، وَمِنْهَا تَضْعِيفُ ٱلْحَسَنَاتِ فِيهِ، وَأَنَّ ٱلطَّيْرَ لَا يَعْلُوهُ(١) ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ لَا يُتَعَرَّضُ إِلَيْهِ بِقَتْلٍ أَوْ ظُلْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ وَاجِبٌ بِكَسْرِ ٱلْحَاءِ وَفَتْحِهَا، لُغَتَانِ فِي مَصْدَرِ: «حَجَّ» بِمَعْنَى: قَصَدَ، وَيُبْدَلُ مِنَ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ طَرِيقًا، فَسَّرَهُ ﷺ بِـ: «الزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ». رَوَاهُ ٱلْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ(٢) ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بِاللهِ، أَوْ بِمَا فَرَضَهُ مِنَ ٱلْحَجِّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾ ٱلْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، وَعَنْ عِبَادَتِهِمْ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ٱلْقُرْآنِ ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩٨﴾ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ تَصْرِفُونَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عَنْ دِينِهِ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بِتَكْذِيبِكُمُ ٱلنَّبِيَّ وَكَتْمِ نَعْتِهِ ﴿تَبْغُونَهَا﴾ أَيْ: تَطْلُبُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴿عِوَجًا﴾ مَصْدَرٌ، بِمَعْنَى: مُعْوَجَّةً، أَيْ: مَائِلَةً عَنِ ٱلْحَقِّ ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُۗ﴾ عَالِمُونَ بِأَنَّ ٱلدِّينَ ٱلْمَرْضِيَّ هُوَ ٱلْقَيِّمُ دِينُ ٱلْإِسْلَامِ، كَمَا فِي كِتَابِكُمْ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٩﴾ مِنَ ٱلْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُكُمْ إِلَى وَقْتِكُمْ لِيُجَازِيَكُمْ. وَنَزَلَ لَمَّا مَرَّ بَعْضُ ٱلْيَهُودِ عَلَى ٱلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فَغَاظَهُمْ تَآلُفُهُمْ، فَذَكَّرُوهُمْ بِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنَ ٱلْفِتَنِ، فَتَشَاجَرُوا وَكَادُوا يَقْتَتِلُونَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ۝١٠٠ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ ٱسْتِفْهَامُ تَعْجِيبٍ وَتَوْبِيخٍ ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعْتَصِم﴾ يَتَمَسَّكْ ﴿بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بِأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَقْوَى عَلَى هَذَا؟ فَنُسِخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦](٣)، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ مُوَحِّدُونَ(٤). ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾ تَمَسَّكُوا

---

(١) لا دليل على صحة هذا القول، والواقع المشاهد يكذبه.

(٢) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، والحاكم (١/ ٤٤٢).

(٣) وقيل: إن قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ بيان لهذه الآية. والمعنى: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، وهذا أصوب، لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى. [القرطبي (٤/ ١٥٧)].

(٤) أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذا بالله من خلاف ذلك ... عن مجاهد: أن الناس كانوا يطوفون بالبيت وابن عباس جالس معه محجن، فقال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لَأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عِيشَتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزَّقُّومُ؟!». أخرجه الترمذي (٢٥٨٥)، والنسائي في السنن الكبرى

﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: دِينِهِ ﴿جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ بَعْدَ اَلْإِسْلَامِ ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ إِنْعَامَهُ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ يَا مَعْشَرَ اَلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ﴿إِذۡ كُنتُمۡ﴾ قَبْلَ اَلْإِسْلَامِ ﴿أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ﴾ جَمَعَ ﴿بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ فَصِرْتُمْ ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ فِي اَلدِّينِ وَالْوِلَايَةِ(١) ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا﴾ طَرَفِ ﴿حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اَلْوُقُوعِ فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا كُفَّارًا ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ بِالْإِيمَانِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَ لَكُمْ مَا ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ اَلْإِسْلَامِ ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ اَلدَّاعُونَ اَلْآمِرُونَ اَلنَّاهُونَ ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤﴾ اَلْفَائِزُونَ، وَمِنْ لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّ مَا ذُكِرَ فَرْضُ كِفَايَةٍ لَا يَلْزَمُ كُلَّ اَلْأُمَّةِ، وَلَا يَلِيقُ بِكُلِّ أَحَدٍ كَالْجَاهِلِ، وَقِيلَ: زَائِدَةٌ، أَيْ: لِتَكُونُوا أُمَّةً(٢). ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ عَنْ دِينِهِمْ ﴿وَٱخۡتَلَفُواْ﴾ فِيهِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ وَهُمُ اَلْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

(١١٠٧٠)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وأحمد (٢٧٣٥). ... وعن جابر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه مسلم (٢٨٧٧). [ابن كثير (٢/ ٨٧)].

(١) الحبل لفظ مشترك وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو إما تمثيل أو استعارة مصرحة أصلية تحقيقية، أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام أو بالقرآن. وقد وردت أحاديث بأن كتاب الله هو حبل الله، وأن القرآن هو حبل الله المتين، قال أبو العالية: بالإخلاص لله وحده. وعن الحسن بطاعته، وعن قتادة بعهده وأمره، وعن ابن زيد بالإسلام. ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ بعد الإسلام كما تفرقت اليهود والنصارى أو كما كنتم في الجاهلية متدابرين. وقيل: لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع، والمعنى نهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف في الدين، وعن الفرقة، لأن كل ذلك عادة أهل الجاهلية. [صديق حسن (٢/ ٣٠٢)].

(٢) قال أهل العلم: فرض الله بهذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير، وللزوم الأمر بالمعروف شروط، منها أن يكون بمعروف لا بتخرق، ... ومنها ألا يخاف الآمر أذى يصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» أخرجه مسلم (٤٩) ... والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم: فيه اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولا، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر كالسلب والزنى ونحوه فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى. كما هي في قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: ١٧]، و [أما] قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] معناه: إذا لم يقبل منكم ولم تقدروا على تغيير المنكر. [ابن عطية (١/ ٤٨٦)].

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وَهُمُ الْكَافِرُونَ فَيُلْقَوْنَ فِي النَّارِ وَيُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يَوْمَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ(١) ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أَيْ: جَنَّتِهِ(٢) ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٠٧ تِلْكَ﴾ أَيْ: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٨﴾ بِأَنْ يَأْخُذَهُمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ﴾ تَصِيرُ ﴿الْأُمُورُ ۝١٠٩ كُنتُمْ﴾ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى(٣) ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ أُظْهِرَتْ ﴿لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ﴾ الْإِيمَانُ ﴿خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠﴾ الْكَافِرُونَ. ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِشَيْءٍ ﴿إِلَّا أَذًى﴾ بِاللِّسَانِ مِنْ سَبٍّ وَوَعِيدٍ ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ مُنْهَزِمِينَ ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١١١﴾ عَلَيْكُمْ، بَلْ لَكُمُ النَّصْرُ عَلَيْهِمْ. ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ حَيْثُمَا وُجِدُوا، فَلَا عِزَّ لَهُمْ وَلَا اعْتِصَامَ ﴿إِلَّا﴾ كَائِنِينَ ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ: عَهْدُهُمْ إِلَيْهِمْ بِالْأَمَانِ عَلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ(٤)، أَيْ: لَا عِصْمَةَ لَهُمْ غَيْرُ ذَلِكَ ﴿وَبَاءُوا﴾ رَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿بِمَا عَصَوا﴾ أَمْرَ اللهِ ﴿وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝١١٢﴾

---

(١) المراد بالإيمان هنا إيمان الفطرة؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨). ويحتمل أن يكون المراد بالإيمان الإيمان الفطري الاختياري، وتكون الآية في سياق من ارتدوا بعد إيمانهم، لكن الأول أولى؛ لأنه أعم. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/ ٢٨)].

(٢) وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين. [السعدي (ص:١٤٢)].

(٣) وقيل: كنتم مذ آمنتم خير أمة. وقيل: جاء ذلك لتقدم البشارة بالنبي ﷺ وأمته. فالمعنى كنتم عند من تقدمكم من أهل الكتب خير أمة. [القرطبي (٤/ ٧٠)].

(٤) المعنى: لا يسلمون من الذلة إلا إذا تلبسوا بعهد من الله، أي: ذمة الإسلام، أو إذا استنصروا بقبائل أولي بأس شديد، وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم. وهذا من دلائل النبوة فإن اليهود كانوا أعزة بيثرب وخيبر والنضير وقريظة، فأصبحوا أذلة وعمتهم المذلة في سائر أقطار الدنيا. [ابن عاشور (٤/ ٥٦)].

يَتجاوَزُونَ الحَلالَ إلَى الحَرامِ. ﴿*لَيۡسُواْ﴾ أيْ: أهْلُ الكِتابِ ﴿سَوَآءٗۗ﴾ مُسْتَوِينَ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ مُسْتَقِيمَةٌ ثابِتَةٌ عَلَى الحَقِّ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ رضي الله عنه وأصْحابِهِ ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أيْ: فِي ساعاتِهِ ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ يُصَلُّونَ، حالٌ. ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المَوْصُوفُونَ بِما ذَكَرَ اللهُ ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾ ومِنْهُمْ مَنْ لَيْسُوا كَذَلِكَ ولَيْسُوا مِنَ الصّالِحِينَ. ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ﴾ بِالتّاءِ: أيَّتُها الأُمَّةُ، والياءِ، أيِ: الأُمَّةُ القائِمَةُ ﴿مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن تُكۡفَرُوهُۗ﴾ بِالوَجْهَيْنِ، أيْ: تُعْدَمُوا ثَوابَهُ بَلْ تُجازَوْنَ عَلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ﴾ تَدْفَعَ ﴿عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ: مِنْ عَذابِهِ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ وخَصَّهُما بِالذِّكْرِ؛ لِأنَّ الإنْسانَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ تارَةً بِفِداءِ المالِ، وتارَةً بِالِاسْتِعانَةِ بِالأوْلادِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦ مَثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾ أيِ: الكُفّارُ ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فِي عَداوَةِ النَّبِيِّ أوْ صَدَقَةٍ ونَحْوِها ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ حَرٌّ أوْ بَرْدٌ شَدِيدٌ ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ﴾ زَرْعَ ﴿قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بِالكُفْرِ والمَعْصِيَةِ ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ، فَكَذَلِكَ نَفَقاتُهُمْ ذاهِبَةٌ لا يَنْتَفِعُونَ بِها ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بِضَياعِ نَفَقاتِهِمْ ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ بِالكُفْرِ المُوجِبِ لِضَياعِها. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ﴾ أصْفِياءَ تُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سِرِّكُمْ ﴿مِّن دُونِكُمۡ﴾ أيْ: غَيْرِكُمْ مِنَ اليَهُودِ والنَّصارَى والمُنافِقِينَ ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ نُصِبَ بِنَزْعِ الخافِضِ، أيْ: لا يُقَصِّرُونَ جُهْدَهُمْ لَكُمْ فِي الفَسادِ ﴿وَدُّواْ﴾ تَمَنَّوْا ﴿مَا عَنِتُّمۡ﴾ أيْ: «عَنَتَكُمْ» وهُوَ: شِدَّةُ الضَّرَرِ ﴿قَدۡ بَدَتِ﴾ ظَهَرَتْ ﴿ٱلۡبَغۡضَآءُ﴾ العَداوَةُ لَكُمْ ﴿مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بِالوَقِيعَةِ فِيكُمْ وإطْلاعِ المُشْرِكِينَ عَلَى سِرِّكُمْ ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ﴾ مِنَ العَداوَةِ ﴿أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ﴾ عَلَى عَداوَتِهِمْ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ ذَلِكَ فَلا تُوالُوهُمْ. ﴿هَٰٓ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿أَنتُمۡ﴾ يا ﴿أُوْلَآءِ﴾ المُؤْمِنِينَ ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾ لِقَرابَتِهِمْ مِنْكُمْ وصَداقَتِهِمْ ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ لِمُخالَفَتِهِمْ لَكُمْ فِي الدِّينِ ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أيْ: بِالكُتُبِ كُلِّها، ولا يُؤْمِنُونَ بِكِتابِكُمْ ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ﴾ أطْرافَ الأصابِعِ ﴿مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ شِدَّةِ الغَضَبِ لِما يَرَوْنَ مِنِ ائْتِلافِكُمْ، ويُعَبَّرُ عَنْ شِدَّةِ الغَضَبِ «بِعَضِّ الأنامِلِ» مَجازًا وإنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ عَضٌّ ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾ أيْ: ابْقَوْا عَلَيْهِ إلَى المَوْتِ فَلَنْ تَرَوْا ما يَسُرُّكُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ بِما فِي القُلُوبِ، ومِنْهُ ما يُضْمِرُهُ هَؤُلاءِ. ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ﴾ تُصِبْكُمْ ﴿حَسَنَةٞ﴾ نِعْمَةٌ، كَنَصْرٍ وغَنِيمَةٍ ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾ تُحْزِنْهُمْ ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ كَهَزِيمَةٍ وجَدْبٍ ﴿يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ وجُمْلَةُ الشَّرْطِ مُتَّصِلَةٌ بِالشَّرْطِ قَبْلُ، وما بَيْنَهُما اعْتِراضٌ، والمَعْنَى: أنَّهُمْ مُتَناهُونَ فِي عَداوَتِكُمْ، فَلِمَ تُوالُونَهُمْ؟ فاجْتَنِبُوهُمْ ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ عَلَى أذاهُمْ

﴿وَتَتَّقُواْ﴾ اللهَ فِي مُوَالَاتِهِمْ وَغَيْرِهَا ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بِكَسْرِ الضَّادِ وَسُكُونِ الرَّاءِ وَضَمِّهَا وَتَشْدِيدِهَا ﴿كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ عَالِمٌ فَيُجَازِيهِمْ بِهِ(١). ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ ﴿تُبَوِّئُ﴾ تُنْزِلُ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ﴾ مَرَاكِزَ يَقِفُونَ فِيهَا ﴿لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِكُمْ ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ بِأَحْوَالِكُمْ، وَهُوَ يَوْمُ أُحُدٍ، خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَلْفٍ أَوْ إِلَّا خَمْسِينَ رَجُلًا، وَالْمُشْرِكُونَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، وَنَزَلَ بِالشِّعْبِ يَوْمَ السَّبْتِ سَابِعَ شَوَّالٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ وَسَوَّى صُفُوفَهُمْ، وَأَجْلَسَ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ بِسَفْحِ الْجَبَلِ، وَقَالَ: «انْضَحُوا عَنَّا بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُوا مِنْ وَرَائِنَا، وَلَا تَبْرَحُوا غُلِبْنَا أَوْ نُصِرْنَا»(٢). ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بَنُو سَلَمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ جَنَاحَا الْعَسْكَرِ ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ تَجْبُنَا عَنِ الْقِتَالِ وَتَرْجِعَا، لَمَّا رَجَعَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ الْمُنَافِقُ وَأَصْحَابُهُ، وَقَالَ: عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا وَأَوْلَادَنَا، وَقَالَ لِأَبِي جَابِرٍ السُّلَمِيِّ الْقَائِلِ لَهُ: «أَنْشُدُكُمُ اللهَ فِي نَبِيِّكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فَثَبَّتَهُمَا اللهُ وَلَمْ يَنْصَرِفَا ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ نَاصِرُهُمَا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ لِيَثِقُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِ. وَنَزَلَ لَمَّا هُزِمُوا تَذْكِيرًا لَهُمْ بِنِعْمَةِ اللهِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ مَوْضِعٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ بِقِلَّةِ الْعَدَدِ وَالسِّلَاحِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ نِعَمَهُ. ﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ لِـ ﴿نَصَرَكُمُ﴾ ﴿تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تُوعِدُهُمْ تَطْمِينًا: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ﴾ يُعِينَكُمْ ﴿رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ. ﴿بَلَىٰٓ﴾ يَكْفِيكُمْ ذَلِكَ، وَفِي الْأَنْفَالِ: ﴿بِأَلْفٍ﴾ [الأنفال: ٩]؛ لِأَنَّهُ أَمَدَّهُمْ أَوَّلًا بِهَا ثُمَّ صَارَتْ ثَلَاثَةً ثُمَّ صَارَتْ خَمْسَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ﴾ عَلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ اللهَ فِي الْمُخَالَفَةِ ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾ وَقْتِهِمْ ﴿هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ بِكَسْرِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا، أَيْ: مُعَلَّمِينَ، وَقَدْ صَبَرُوا وَأَنْجَزَ اللهُ وَعْدَهُ، بِأَنْ قَاتَلَتْ مَعَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ عَلَيْهِمْ عَمَائِمُ صُفْرٌ أَوْ بِيضٌ أَرْسَلُوهَا بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أَيِ: الْإِمْدَادَ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ تَسْكُنَ ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ فَلَا تَجْزَعَ مِنْ كَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقِلَّتِكُمْ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَلَيْسَ بِكَثْرَةِ الْجُنْدِ. ﴿لِيَقْطَعَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿نَصَرَكُمُ﴾، أَيْ: لِيُهْلِكَ ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾

---

(١) والإحاطة هنا إحاطة العلم والقدرة والسلطان، فهو محيط بهم كإحاطة السور بمن في داخله؛ أي: لا يتمكن أن يفروا من قضاء الله عز وجل وعلمه وسلطانه وقدرته. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/ ١٠٦)]. والقراءة بالتاء شاذه.

(٢) أورده البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٢٧).

يُذِلُّهُمْ بِالْهَزِيمَةِ ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾ يَرْجِعُوا ﴿خَآئِبِينَ ١٢٧﴾ لَمْ يَنَالُوا مَا رَامُوهُ. وَنَزَلَ لَمَّا كُسِرَتْ رُبَاعِيَتُهُ ﷺ وَشُجَّ وَجْهُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ»[١]: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ بَلِ الْأَمْرُ لِلَّهِ فَاصْبِرْ ﴿أَوْ﴾ بِمَعْنَى: «إِلَى» أَنْ ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ بِالْكُفْرِ. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ الْمَغْفِرَةَ لَهُ ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تَعْذِيبَهُ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَّحِيمٌ ١٢٩﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ بِأَلِفٍ وَدُونِهَا، بِأَنْ تَزِيدُوا فِي الْمَالِ عِنْدَ حُلُولِ الْأَجَلِ وَتُؤَخِّرُوا الطَّلَبَ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بِتَرْكِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٣٠﴾ تَفُوزُونَ. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ أَنْ تُعَذَّبُوا بِهَا. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣٢﴾ * ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ بِوَاوٍ وَدُونِهَا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أَيْ: كَعَرْضِهِمَا لَوْ وُصِلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى، وَالْعَرْضُ السَّعَةُ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ اللهَ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ فِي طَاعَةِ اللهِ ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الْكَافِّينَ عَنْ إِمْضَائِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ، أَيِ: التَّارِكِينَ عُقُوبَتَهُمْ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ، أَيْ: يُثِيبُهُمْ[٢]. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ ذَنْبًا قَبِيحًا كَالزِّنَا ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بِمَا دُونَهُ كَالْقُبْلَةِ ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: وَعِيدَهُ ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن﴾ أَيْ: لَا ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ يُدِيمُوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ بَلْ أَقْلَعُوا عَنْهُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ أَنَّ الَّذِي أَتَوْهُ مَعْصِيَةٌ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيْ: مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ فِيهَا إِذَا دَخَلُوهَا ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ بِالطَّاعَةِ هَذَا الْأَجْرُ. وَنَزَلَ فِي هَزِيمَةِ أُحُدٍ: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مَضَتْ ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ طَرَائِقُ فِي الْكُفَّارِ، بِإِمْهَالِهِمْ ثُمَّ أَخْذِهِمْ ﴿فَسِيرُواْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ الرُّسُلَ، أَيْ: آخِرُ أَمْرِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ، فَلَا تَحْزَنُوا لِغَلَبَتِهِمْ فَأَنَا أُمْهِلُهُمْ لِوَقْتِهِمْ. ﴿هَٰذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كُلِّهِمْ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ مِنْهُمْ. ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ تَضْعُفُوا عَنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ بِأُحُدٍ ﴿وَأَنتُمُ

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٧٧)، وابن ماجه (٤٠٢٧)، وأحمد (١٢٨٣١).

(٢) في الآية إثبات المحبة لله عز وجل ... وإرادة الإحسان أو الإثابة غير المحبة ... والعقل دل على ثبوت المحبة لله، فإثابة الطائعين تدل على أن الله أحبهم، إذ لا يمكن أن يُثيب أحد عقلًا إلا وهو يحبه، فيكون إثابة الطائعين دليلًا عقليًا على ثبوت المحبة كما جعلتم أنتم التخصيص دليلًا عقليًا على ثبوت الإرادة، بل إن إثابة الطائعين أدل على المحبة من دلالة التخصيص على الإرادة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/ ١٧٨)].

﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ بِالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ حقًّا، وَجَوابُهُ دَلَّ عَلَيْهِ مَجْمُوعُ مَا قَبْلَه. ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ﴾ يُصِبْكُمْ بِأُحُدٍ ﴿قَرۡحٞ﴾ بِفَتْحِ الْقَافِ وَضَمِّهَا، جَهْدٌ مِنْ جُرْحٍ وَنَحْوِهِ ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ﴾ الْكُفَّارُ ﴿قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ بِبَدْرٍ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ نُصَرِّفُهَا ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ يَوْمًا لِفِرْقَةٍ وَيَوْمًا لِأُخْرَى، لِيَتَّعِظُوا ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ عِلْمَ ظُهُورٍ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أَخْلَصُوا فِي إِيمَانِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾ يُكْرِمُهُمْ بِالشَّهَادَةِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٠﴾ الْكَافِرِينَ، أَيْ: يُعَاقِبُهُمْ، وَمَا يُنْعِمُ بِهِ عَلَيْهِمُ اسْتِدْرَاجٌ[1]. ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يُطَهِّرَهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ بِمَا يُصِيبُهُمْ ﴿وَيَمۡحَقَ﴾ يُهْلِكَ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾. ﴿أَمۡ﴾ بَلْ أَ ﴿حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا﴾ لَمْ ﴿يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ عِلْمَ ظُهُورٍ ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾ فِي الشَّدَائِدِ. ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْلِ ﴿ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ حَيْثُ قُلْتُمْ: لَيْتَ لَنَا يَوْمًا كَيَوْمِ بَدْرٍ، لِنَنَالَ مَا نَالَ شُهَدَاؤُهُ ﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾ أَيْ: سَبَبَهُ الْحَرْبَ ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝١٤٣﴾ أَيْ: بُصَرَاءُ تَتَأَمَّلُونَ الْحَالَ كَيْفَ هِيَ، فَلِمَ انْهَزَمْتُمْ؟ وَنَزَلَ فِي هَزِيمَتِهِمْ لَمَّا أُشِيعَ أَنَّ النَّبِيَّ قُتِلَ، وَقَالَ لَهُمُ الْمُنَافِقُونَ: «إِنْ كَانَ قُتِلَ فَارْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾ كَغَيْرِهِ ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ رَجَعْتُمْ إِلَى الْكُفْرِ؟ وَالْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ، أَيْ: مَا كَانَ مَعْبُودًا فَتَرْجِعُوا ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ نِعَمَهُ بِالثَّبَاتِ. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بِقَضَائِهِ ﴿كِتَٰبٗا﴾ مَصْدَرٌ، أَيْ: كَتَبَ اللهُ ذَلِكَ ﴿مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ مُؤَقَّتًا لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، فَلِمَ انْهَزَمْتُمْ؟ وَالْهَزِيمَةُ لَا تَدْفَعُ الْمَوْتَ وَالثَّبَاتُ لَا يَقْطَعُ الْحَيَاةَ ﴿وَمَن يُرِدۡ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ مِنْهَا ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ مَا قُسِمَ لَهُ وَلَا حَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾ أَيْ: مِنْ ثَوَابِهَا ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٥ وَكَأَيِّن﴾ كَمْ ﴿مِّن نَّبِيّٖ قُتِلَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قَاتَلَ﴾، وَالْفَاعِلُ ضَمِيرُهُ ﴿مَعَهُۥ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَؤُهُ ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ جَبُنُوا ﴿لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الْجِرَاحِ وَقَتْلِ أَنْبِيَائِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عَنِ الْجِهَادِ ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ خَضَعُوا لِعَدُوِّهِمْ كَمَا فَعَلْتُمْ حِينَ قِيلَ: قُتِلَ النَّبِيُّ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ عَلَى الْبَلَاءِ، أَيْ: يُثِيبُهُمْ[2]. ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ﴾ عِنْدَ قَتْلِ نَبِيِّهِمْ مَعَ ثَبَاتِهِمْ وَصَبْرِهِمْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا﴾

---

(١) نفي المحبة كناية عن البغض، وفي إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابليهم. [أبو السعود (٢/ ٩٠)].

(٢) [فيه] إثبات المحبة لله، والمحبة صفة من صفات الله تعالى المتعلقة بمشيئته؛ فهي من الصفات الفعلية لأنها تتعلق بالمشيئة، ووجه

تَجاوُزَنا اَلْحدَّ ﴿فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ إيذانًا بأَنَّ ما أَصابَهُمْ لِسُوءِ فِعْلِهِمْ وَهضْمًا لِأَنْفُسِهِمْ ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ بِالْقُوَّةِ على اَلْجِهادِ ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ اَلنَّصرَ وَالْغَنِيمَةَ ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ أَي: اَلْجنَّة، وَحُسْنُهُ: اَلتَّفَضُّلُ فَوْقَ اَلِاسْتِحْقاقِ ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فِيمَا يَأْمُرُونكُمْ بِهِ ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ إِلَى اَلْكُفْرِ ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ ناصِرُكُمْ ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ فَأَطِيعُوهُ دُونَهُمْ. ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ بِسُكُونِ اَلْعينِ وَضَمِّها: اَلْخَوْف، وَقَدْ عَزَمُوا بَعْدَ اِرْتِحالِهِمْ مِنْ أُحُدٍ عَلَى اَلْعَوْدِ وَاسْتِئْصالِ اَلْمُسْلِمِينَ، فَرُعِبُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ﴾ بِسَبَبِ إِشْراكِهِمْ ﴿بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾ حُجَّةً عَلَى عِبادَتِهِ، وَهُوَ اَلْأَصْنامُ(١) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى﴾ مَأْوَى ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ اَلْكافِرِينَ هِيَ. ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ إِيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم﴾ تَقْتُلُونَهُمْ ﴿بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ بِإِرادَتِهِ(٢) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾ جَبُنْتُمْ عَنِ اَلْقِتالِ ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ اِخْتَلَفْتُمْ ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أَيْ: أَمْرِ اَلنَّبِيِّ ﷺ بِالْمُقامِ فِي سَفْحِ اَلْجَبَلِ لِلرَّمْيِ، فَقَالَ بَعْضُكُمْ: نَذْهَبُ فَقَدْ نُصِرَ أَصْحابُنا، وَبَعْضُكُمْ: لَا نُخالِفُ أَمْرَ اَلنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَعَصَيۡتُم﴾ أَمْرَهُ فَتَرَكْتُمُ اَلْمَرْكَزَ لِطَلَبِ اَلْغَنِيمَةِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم﴾ اَللهُ ﴿مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ مِنَ اَلنَّصْرِ، وَجَوابُ ﴿إِذَا﴾ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، أَيْ: مَنَعَكُمْ نَصْرَهُ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ فَتَرَكَ اَلْمَرْكَزَ لِلْغَنِيمَةِ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ فَثَبَتَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ، كَعَبْدِ اَللهِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَصْحابِهِ ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ﴾ عَطْفٌ عَلَى جَوابِ ﴿إِذَا﴾ اَلْمُقَدَّرِ، رَدَّكُمْ بِالْهَزِيمَةِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ أَيِ: اَلْكُفَّارِ ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ لِيَمْتَحِنَكُمْ فَيَظْهَرَ اَلْمُخْلِصُ مِنْ غَيْرِهِ ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ مَا اِرْتَكَبْتُمُوهُ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ بِالْعَفْوِ. اُذْكُرُوا ﴿۞إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ تَبْعُدُونَ فِي اَلْأَرْضِ هارِبِينَ ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾ تُعَرِّجُونَ ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ أَيْ: مِنْ وَرائِكُمْ، يَقُولُ: «إِلَيَّ عِبادَ اَللهِ، إِلَيَّ

كونها تتعلق بالمشيئة أنّها مربوطة بسبب، وكل صفة مربوطة أو مُعلقة بسبب فإنها من الصفات الفعلية ... وأهل التعطيل ينكرون حقيقة المحبة، ويقولون: إن المراد بالمحبة الإثابة أو إرادة الإثابة، يعني الشيء المخلوق المنفصل عن الله وهو الثواب أو الإرادة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/ ٢٦٣)].

(١) سميت الحجة سلطانـًا لقوتها على دفع الباطل أو لوضوحها وإنارتها أو لحدتها ونفوذها، والنفي يتوجه إلى القيد والمقيد، أي: لا حجة ولا إنزال، والمعنى أن الاشراك بالله لم يثبت في شيء من الملل. [صديق حسن (٢/ ٣٥٢)].

(٢) بإذن الله الكوني والشرعي؛ بإذنه الكوني؛ لأنه قد وقع، وكل شيء قد وقع فإن الله قد أذن به كونًا، وبإذنه الشرعي لأن الله تعالى قد شرع لنا أن نقاتل الكفار، فيكون قتلنا لهم مأذونًا فيه شرعًا. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/ ٣٠٥)].

عِبَادَ اللهِ»[١]. ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا﴾ بِالْهَزِيمَةِ ﴿بِغَمّٖ﴾ بِسَبَبِ غَمِّكُمُ الرَّسُولَ بِالْمُخَالَفَةِ، وَقِيلَ: الْبَاءُ بِمَعْنَى «عَلَى»، أَيْ: مُضَاعَفًا عَلَى غَمِّ فَوْتِ الْغَنِيمَةِ ﴿لِّكَيۡلَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿عَفَا﴾، أَوْ بِـ«أَثَابَكُمْ»، فَـ«لَا» زَائِدَةٌ ﴿تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ مِنَ الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ﴾ أَمْنًا ﴿نُّعَاسٗا﴾ بَدَلٌ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَكَانُوا يَمِيدُونَ تَحْتَ الْحُجُفِ[٢]، وَتَسْقُطُ السُّيُوفُ مِنْهُمْ ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أَيْ: حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْهَمِّ فَلَا رَغْبَةَ لَهُمْ إِلَّا نَجَاتُهَا دُونَ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ فَلَمْ يَنَامُوا، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ ظَنًّا ﴿غَيۡرَ﴾ الظَّنِّ ﴿ٱلۡحَقِّ ظَنَّ﴾ أَيْ: كَظَنِّ ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ النَّبِيَّ قُتِلَ أَوْ لَا يُنْصَرُ ﴿يَقُولُونَ هَل﴾ مَا ﴿لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أَيِ: النَّصْرِ الَّذِي وُعِدْنَاهُ ﴿مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ﴾ بِالنَّصْبِ تَوْكِيدًا، وَالرَّفْعِ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ: ﴿لِلَّهِۗ﴾ أَيِ: الْقَضَاءُ لَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ﴾ يُظْهِرُونَ ﴿لَكَۖ يَقُولُونَ﴾ بَيَانٌ لِمَا قَبْلَهُ ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ أَيْ: لَوْ كَانَ الِاخْتِيَارُ إِلَيْنَا لَمْ نَخْرُجْ فَلَمْ نُقْتَلْ لَكِنْ أُخْرِجْنَا كَرْهًا ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ وَفِيكُمْ مَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الْقَتْلَ ﴿لَبَرَزَ﴾ خَرَجَ ﴿ٱلَّذِينَ كُتِبَ﴾ قُضِيَ ﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ مِنْكُمْ ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ مَصَارِعِهِمْ فَيُقْتَلُوا، وَلَمْ يُنْجِهِمْ قُعُودُهُمْ؛ لِأَنَّ قَضَاءَهُ تَعَالَى كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ ﴿وَ﴾ فَعَلَ مَا فَعَلَ بِأُحُدٍ ﴿لِيَبۡتَلِيَ﴾ يَخْتَبِرَ ﴿ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ قُلُوبِكُمْ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالنِّفَاقِ ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يُمَيِّزَ ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا يَبْتَلِي لِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ﴾ عَنِ الْقِتَالِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ وَجَمْعُ الْكُفَّارِ بِأُحُدٍ، وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ﴾ أَزَلَّهُمُ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بِوَسْوَسَتِهِ ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ، وَهُوَ مُخَالَفَةُ أَمْرِ النَّبِيِّ ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿حَلِيمٞ ١٥٥﴾ لَا يُعَجِّلُ عَلَى الْعُصَاةِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَيِ: الْمُنَافِقِينَ ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أَيْ: فِي شَأْنِهِمْ ﴿إِذَا ضَرَبُواْ﴾ سَافَرُوا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فَمَاتُوا ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ جَمْعُ «غَازٍ»، فَقُتِلُوا ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ أَيْ: لَا تَقُولُوا كَقَوْلِهِمْ[٣] ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ الْقَوْلَ فِي عَاقِبَةِ

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٦)، وابن المنذر (١٠٧٢).

(٢) الحَجَفُ: ضَرْبٌ من التِّرسةِ مُقوّرةٌ من جُلود الإبل، الواحدة حَجَفة. [العين للفراهيدي (٣/ ٨٥)].

(٣) لأنهم ظنوا أن إخوانهم لو كانوا عندهم لم يموتوا ولم يقتلوا، وهذا قول من لا يؤمن بالقدر والأجل المحتوم. [ابن جُزيّ (١/ ١٦٨)].

أَمرِهِمْ ﴿حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ فَلا يَمْنَعُ عَنِ الْمَوْتِ قُعُودٌ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿بَصِيرٌ ١٥٦﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: الْجِهَادِ ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا مِنْ مَاتَ يَمُوتُ، وَيَمَاتُ، أَيْ: أَتَاكُمُ الْمَوْتُ فِيهِ ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ كَائِنَةٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لِذُنُوبِكُمْ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ مِنْهُ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّامُ وَمَدْخُولُهَا جَوَابُ الْقَسَمِ، وَهُوَ فِي مَوْضِعِ الْفِعْلِ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ ١٥٧﴾ مِنَ الدُّنْيَا بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ. ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿مُّتُّمْ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ فِي الْجِهَادِ أَوْ غَيْرِهِ ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لَا إِلَى غَيْرِهِ ﴿تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾ فِي الْآخِرَةِ فَيُجَازِيكُمْ. ﴿فَبِمَا﴾ «مَا» زَائِدَةٌ ﴿رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَهُمْۖ﴾ أَيْ: سَهُلَتْ أَخْلَاقُكَ إِذْ خَالَفُوكَ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سَيِّءَ الْأَخْلَاقِ ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ جَافِيًا فَأَغْلَظْتَ لَهُمْ ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ تَفَرَّقُوا ﴿مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ﴾ تَجَاوَزْ ﴿عَنْهُمْ﴾ مَا أَتَوْهُ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذَنْبَهُمْ، حَتَّى أَغْفِرَ لَهُمْ ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ اِسْتَخْرِجْ آرَاءَهُمْ ﴿فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾ أَيْ: شَأْنِكَ مِنَ الْحَرْبِ وَغَيْرِهِ، تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ وَلِيُسْتَنَّ بِكَ، وَكَانَ ﷺ كَثِيرَ الْمُشَاوَرَةِ لَهُمْ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عَلَى إِمْضَاءِ مَا تُرِيدُ بَعْدَ الْمُشَاوَرَةِ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثِقْ بِهِ لَا بِالْمُشَاوَرَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ عَلَيْهِ. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ يُعِنْكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ كَيَوْمِ بَدْرٍ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ يَتْرُكْ نَصْرَكُمْ كَيَوْمِ أُحُدٍ ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾ أَيْ: بَعْدَ خِذْلَانِهِ، أَيْ: لَا نَاصِرَ لَكُمْ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لَا غَيْرِهِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ لِيَثِقِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾. وَنَزَلَ لَمَّا فُقِدَتْ قَطِيفَةٌ حَمْرَاءُ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ لَعَلَّ النَّبِيَّ أَخَذَهَا: ﴿وَمَا كَانَ﴾ مَا يَنْبَغِي ﴿لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ يَخُونَ فِي الْغَنِيمَةِ فَلَا تَظُنُّوا بِهِ ذَلِكَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيْ: أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْغُلُولِ ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ حَامِلًا لَهُ عَلَى عُنُقِهِ ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ الْغَالُّ وَغَيْرُهُ جَزَاءَ ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ عَمِلَتْ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦١﴾ شَيْئًا. ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فَأَطَاعَ وَلَمْ يَغُلَّ ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ رَجَعَ ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لِمَعْصِيَتِهِ وَغُلُولِهِ ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٦٢﴾ الْمَرْجِعُ هِيَ؟ لَا. ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ أَيْ: أَصْحَابُ دَرَجَاتٍ ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ أَيْ: مُخْتَلِفُو الْمَنَازِلِ، فَلِمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ الثَّوَابُ، وَلِمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ الْعِقَابُ ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ١٦٣﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِهِ. ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أَيْ: عَرَبِيًّا مِثْلَهُمْ لِيَفْهَمُوا عَنْهُ وَيَشْرُفُوا بِهِ، لَا مَلَكًا وَلَا عَجَمِيًّا ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السُّنَّةَ ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: إِنَّهُمْ ﴿كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ بَعْثِهِ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ بَيِّنٍ. ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ بِأُحُدٍ بِقَتْلِ سَبْعِينَ مِنْكُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ بِبَدْرٍ بِقَتْلِ سَبْعِينَ وَأَسْرِ سَبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قُلْتُمْ﴾ مُتَعَجِّبِينَ ﴿أَنَّىٰ﴾ مِنْ أَيْنَ لَنَا ﴿هَٰذَاۖ﴾ الْخِذْلَانِ، وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ وَرَسُولُ اللهِ فِينَا؟

وَالْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مَحِلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ لِأَنَّكُمْ تَرَكْتُمُ الْمَرْكَزَ فَخُذِلْتُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥﴾ وَمِنْهُ النَّصْرُ وَمَنْعُهُ وَقَدْ جَازَاكُمْ بِخِلَافِكُمْ. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بِأُحُدٍ ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ(١) ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ اللهُ عِلْمَ ظُهُورٍ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٦٦﴾ حَقًّا. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَ﴾ الَّذِينَ ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ لَمَّا انْصَرَفُوا عَنِ الْقِتَالِ، وَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَأَصْحَابُهُ: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَعْدَاءَهُ ﴿أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ عَنَّا الْقَوْمَ بِتَكْثِيرِ سَوَادِكُمْ إِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ﴾ نُحْسِنُ ﴿قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ قَالَ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ بِمَا أَظْهَرُوا مِنْ خِذْلَانِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَبْلُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرِ ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وَلَوْ عَلِمُوا قِتَالًا لَمْ يَتَّبِعُوكُمْ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧﴾ مِنَ النِّفَاقِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ أَوْ نَعْتٌ ﴿قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ فِي الدِّينِ ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿قَعَدُواْ﴾ عَنِ الْجِهَادِ ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أَيْ: شُهَدَاءُ أُحُدٍ أَوْ إِخْوَانُنَا فِي الْقُعُودِ ﴿مَا قُتِلُواْ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فَٱدْرَءُواْ﴾ ادْفَعُوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ فِي أَنَّ الْقُعُودَ يُنْجِي مِنْهُ. وَنَزَلَ فِي الشُّهَدَاءِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لِأَجْلِ دِينِهِ ﴿أَمْوَٰتًا بَلْ﴾ هُمْ ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أَرْوَاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ(٢) ﴿يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾ يَأْكُلُونَ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ. ﴿فَرِحِينَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يُرْزَقُونَ﴾، ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَ﴾ وَهُمْ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يَفْرَحُونَ ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُبْدَلُ مِنَ «الَّذِينَ»: ﴿أَ﴾ نْ، أَيْ: بِأَنْ ﴿لَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾ فِي الْآخِرَةِ، الْمَعْنَى: يَفْرَحُونَ بِأَمْنِهِمْ وَفَرَحِهِمْ. ﴿* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾ ثَوَابٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ ﴿وَأَنَّ﴾ بِالْفَتْحِ عَطْفًا عَلَى «نِعْمَةٍ»، وَبِالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا ﴿ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٧١﴾ بَلْ يَأْجُرُهُمْ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ دُعَاءَهُ بِالْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ، لَمَّا أَرَادَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ الْعَوْدَ وَتَوَاعَدُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ سُوقَ بَدْرٍ الْعَامَ الْمُقْبِلَ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ بِأُحُدٍ، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَإِ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ مُخَالَفَتَهُ ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ، أَوْ نَعْتٌ ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيُّ ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أَبَا سُفْيَانَ وَأَصْحَابَهُ ﴿قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ الْجُمُوعَ

---

(١) أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. [ابن كثير (٢/١٥٩)].

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

لِيَستأْصِلُوكُمْ ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ وَلَا تَأْتُوهُمْ ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ذَلِكَ اَلْقَوْلُ ﴿إِيمَٰنًا﴾ تَصْدِيقًا بِاللهِ وَيَقِينًا ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كَافِينَا أَمْرَهُمْ ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ اَلْمُفَوَّضُ إِلَيْهِ اَلْأَمْرُ هُوَ، وَخَرَجُوا مَعَ اَلنَّبِيِّ ﷺ فَوَافَوْا سُوقَ بَدْرٍ وَأَلْقَى اللهُ اَلرُّعْبَ فِي قَلْبِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ فَلَمْ يَأْتُوا، وَكَانَ مَعَهُمْ تِجَارَاتٌ فَبَاعُوا وَرَبِحُوا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ رَجَعُوا مِنْ بَدْرٍ ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ بِسَلَامَةٍ وَرِبْحٍ ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ مِنْ قَتْلٍ أَوْ جَرْحٍ ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ فِي اَلْخُرُوجِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ عَلَى أَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ أَيِ: اَلْقَائِلُ لَكُمْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ إِلَى آخِرِهِ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ﴾ كُمْ ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ اَلْكُفَّارَ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ فِي تَرْكِ أَمْرِي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾ حَقًّا. ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ بِضَمِّ اَلْيَاءِ وَكَسْرِ اَلزَّايِ وَبِفَتْحِهَا، وَضَمِّ الزَّايِ مِنْ «حَزَنَهُ» لُغَةٌ فِي أَحْزَنَهُ ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يَقَعُونَ فِيهِ سَرِيعًا بِنُصْرَتِهِ وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، أَوِ اَلْمُنَافِقُونَ، أَيْ: لَا تَهْتَمَّ لِكُفْرِهِمْ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بِفِعْلِهِمْ وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ نَصِيبًا ﴿فِى ٱلْأَٰخِرَةِ﴾ أَيِ: اَلْجَنَّةِ؛ فَلِذَلِكَ خَذَلَهُمُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾ فِي اَلنَّارِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أَيْ: أَخَذُوهُ بَدَلَهُ ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٧﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى﴾ أَيْ: إِمْلَاءَنَا ﴿لَهُمْ﴾ بِتَطْوِيلِ اَلْأَعْمَارِ وَتَأْخِيرِهِمْ ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ وَ«أَنَّ» وَمَعْمُولَاهَا سَدَّتْ مَسَدَّ اَلْمَفْعُولَيْنِ فِي قِرَاءَةِ اَلتَّحْتَانِيَّةِ، وَمَسَدَّ اَلثَّانِي فِي اَلْأُخْرَى ﴿إِنَّمَا نُمْلِى﴾ نُمْهِلُ ﴿لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ بِكَثْرَةِ اَلْمَعَاصِي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ ذُو إِهَانَةٍ فِي اَلْآخِرَةِ. ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ﴾ لِيَتْرُكَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ﴾ أَيُّهَا اَلنَّاسُ ﴿عَلَيْهِ﴾ مِنَ اِخْتِلَاطِ اَلْمُخْلِصِ بِغَيْرِهِ ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، يَفْصِلَ ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ اَلْمُنَافِقَ ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ اَلْمُؤْمِنِ، بِالتَّكَالِيفِ اَلشَّاقَّةِ اَلْمُبَيِّنَةِ لِذَلِكَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ فَتَعْرِفُوا اَلْمُنَافِقَ مِنْ غَيْرِهِ قَبْلَ اَلتَّمْيِيزِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى﴾ يَخْتَارُ ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فَيُطْلِعُهُ عَلَى غَيْبِهِ كَمَا أَطْلَعَ اَلنَّبِيَّ ﷺ عَلَى حَالِ اَلْمُنَافِقِينَ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ اَلنِّفَاقَ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٩ وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أَيْ: بِزَكَاتِهِ ﴿هُوَ﴾ أَيْ: بُخْلُهُمْ ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ وَالضَّمِيرُ لِلْفَصْلِ، وَالْأَوَّلُ «بُخْلُهُمْ» مُقَدَّرًا قَبْلَ اَلْمَوْصُولِ عَلَى اَلْفَوْقَانِيَّةِ، وَقَبْلَ اَلضَّمِيرِ عَلَى اَلتَّحْتَانِيَّةِ ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِزَكَاتِهِ مِنَ اَلْمَالِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بِأَنْ يُجْعَلَ حَيَّةً فِي عُنُقِهِ تَنْهَشُهُ كَمَا وَرَدَ فِي اَلْحَدِيثِ[1] ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ

(١) قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَيْهِ،

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ يَرِثُهُمَا بَعْدَ فَنَاءِ أَهْلِهِمَا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿خَبِيرٌ ١٨٠﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ﴾ وَهُمُ الْيَهُودُ قَالُوهُ لَمَّا نَزَلَ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وَقَالُوا لَوْ كَانَ غَنِيًّا مَا اسْتَقْرَضَنَا ﴿سَنَكْتُبُ﴾ نَأْمُرُ بِكَتْبِ[1] ﴿مَا قَالُواْ﴾ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ لِيُجَازَوْا عَلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْيَاءِ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ ﴿وَ﴾ نَكْتُبُ ﴿قَتْلَهُمُ﴾ بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَيِ: اللهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١﴾ النَّارَ. وَيُقَالُ لَهُمْ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْعَذَابُ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ عَبَّرَ بِهَا عَنِ الْإِنْسَانِ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تُزَاوَلُ بِهَا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ أَيْ: بِذِي ظُلْمٍ ﴿لِّلْعَبِيدِ ١٨٢﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَعْتٌ لِـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ لِمُحَمَّدٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ قَدْ ﴿عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ فِي التَّوْرَاةِ ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ نُصَدِّقَهُ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ فَلَا نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنَا بِهِ، وَهُوَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ نَعَمٍ وَغَيْرِهَا، فَإِنْ قُبِلَ جَاءَتْ نَارٌ بَيْضَاءُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُ، وَإِلَّا بَقِيَ مَكَانَهُ، وَعُهِدَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْمَسِيحِ وَمُحَمَّدٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى فَقَتَلْتُمُوهُمْ، وَالْخِطَابُ لِمَنْ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنْ كَانَ الْفِعْلُ لِأَجْدَادِهِمْ لِرِضَاهُمْ بِهِ ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾ فِي أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ عِنْدَ الْإِتْيَانِ بِهِ. ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ كَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِإِثْبَاتِ الْبَاءِ فِيهِمَا ﴿ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾ الْوَاضِحِ، هُوَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ جَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ﴾ بُعِّدَ ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ نَالَ غَايَةَ مَطْلُوبِهِ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أَيِ: الْعَيْشُ فِيهَا ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ الْبَاطِلِ يُتَمَتَّعُ بِهِ قَلِيلًا ثُمَّ يَفْنَى. ﴿۞لَتُبْلَوُنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ، وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ: لَتُخْتَبَرُنَّ ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بِالْفَرَائِضِ فِيهَا وَالْجَوَائِحِ ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بِالْعِبَادَاتِ وَالْبَلَاءِ ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ مِنَ الْعَرَبِ ﴿أَذًى كَثِيرًاۚ﴾ مِنَ السَّبِّ وَالطَّعْنِ وَالتَّشْبِيبِ

يَعْنِي شِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الْآيَةَ». أخرجه البخاري (١٤٥٣).

(١) إضافة الكتابة إليه سبحانه؛ لأن جنوده يكتبون ذلك، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/ ٤٩١)].

بنسائِكُمْ ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ اللهَ ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾ أَيْ: مِنْ مَعْزُومَاتِهَا الَّتِي يُعْزَمُ عَلَيْهَا لِوُجُوبِهَا. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَيِ: الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴿لَيُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ أَيِ: الْكِتَابَ ﴿لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُۥ﴾ أَيِ: الْكِتَابَ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ بِالْفِعْلَيْنِ ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ طَرَحُوا الْمِيثَاقَ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ ﴿وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ﴾ أَخَذُوا بَدَلَهُ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ سَفَلَتِهِمْ بِرِيَاسَتِهِمْ فِي الْعِلْمِ، فَكَتَمُوهُ خَوْفَ فَوْتِهِ عَلَيْهِمْ ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ١٨٧﴾ شِرَاؤُهُمْ هَذَا. ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ فَعَلُوا مِنْ إِضْلَالِ النَّاسِ ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالْحَقِّ وَهُمْ عَلَى ضَلَالٍ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بِالْوَجْهَيْنِ تَأْكِيدٌ ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ بِمَكَانٍ يَنْجُونَ فِيهِ ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فِي الْآخِرَةِ، بَلْ هُمْ فِي مَكَانٍ يُعَذَّبُونَ فِيهِ وَهُوَ جَهَنَّمُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨﴾ مُؤْلِمٌ فِيهَا، وَمَفْعُولَا «يَحْسَبُ» الْأُولَى دَلَّ عَلَيْهِمَا مَفْعُولَا الثَّانِيَةِ عَلَى قِرَاءَةِ التَّحْتَانِيَّةِ، وَعَلَى الْفَوْقَانِيَّةِ حُذِفَ الثَّانِي فَقَطْ. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَزَائِنُ الْمَطَرِ وَالرِّزْقِ وَالنَّبَاتِ وَغَيْرِهَا ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ وَمِنْهُ تَعْذِيبُ الْكَافِرِينَ وَإِنْجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَجَائِبِ ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بِالْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ لِذَوِي الْعُقُولِ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَعْتٌ لِمَا قَبْلَهُ أَوْ بَدَلٌ ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ مُضْطَجِعِينَ، أَيْ: فِي كُلِّ حَالٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُصَلُّونَ كَذَلِكَ حَسَبَ الطَّاقَةِ. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لِيَسْتَدِلُّوا بِهِ عَلَى قُدْرَةِ صَانِعِهِمَا، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ الْخَلْقَ الَّذِي نَرَاهُ ﴿بَٰطِلًا﴾ حَالٌ، عَبَثًا بَلْ دَلِيلًا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِكَ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ عَنِ الْعَبَثِ ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ لِلْخُلُودِ فِيهَا ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أَهَنْتَهُ ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ، فِيهِ وُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ إِشْعَارًا بِتَخْصِيصِ الْخِزْيِ بِهِمْ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَنصَارٍ ١٩٢﴾ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى. ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي﴾ يَدْعُو النَّاسَ ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ أَيْ: إِلَيْهِ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ أَوِ الْقُرْآنُ ﴿أَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ بِهِ ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ﴾ غَطِّ ﴿عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ فَلَا تُظْهِرْهَا بِالْعِقَابِ عَلَيْهَا ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ اقْبِضْ أَرْوَاحَنَا ﴿مَعَ﴾ فِي جُمْلَةِ ﴿ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣﴾ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ. ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾ أَعْطِنَا ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾ بِهِ ﴿عَلَىٰ﴾ أَلْسِنَةِ ﴿رُسُلِكَ﴾ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَسُؤَالُهُمْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ وَعْدُهُ تَعَالَى لَا يُخْلَفُ، سُؤَالُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مِنْ مُسْتَحِقِّيهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَيَقَّنُوا اسْتِحْقَاقَهُمْ لَهُ، وَتَكْرِيرُ «رَبَّنَا» مُبَالَغَةٌ فِي التَّضَرُّعِ ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ١٩٤﴾ الْوَعْدَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ. ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دُعَاءَهُمْ ﴿أَنِّي﴾ أَيْ: بِأَنِّي ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ

﴿مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم﴾ كَائِنٌ ﴿مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ أَي: الذُّكُورُ مِنَ الإِنَاثِ وَبِالْعَكْسِ، وَالْجُمْلَةُ مُؤَكِّدَةٌ لِمَا قَبْلَهَا، أَيْ: هُمْ سَوَاءٌ فِي الْمُجَازَاةِ بِالْأَعْمَالِ وَتَرْكِ تَضْيِيعِهَا، نَزَلَتْ لَمَّا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَا أَسْمَعُ ذِكْرَ النِّسَاءِ فِي الْهِجْرَةِ بِشَيْءٍ[1] ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ دِينِي ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ الْكُفَّارَ ﴿وَقُتِلُواْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَقْدِيمِهِ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ أَسْتُرُهَا بِالْمَغْفِرَةِ ﴿وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا﴾ مَصْدَرٌ مِنْ مَعْنَى ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾، مُؤَكِّدٌ لَهُ ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ التَّكَلُّمِ ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ الْجَزَاءِ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْمُسْلِمُونَ: «أَعْدَاءُ اللهِ فِيمَا نَرَى مِنَ الْخَيْرِ وَنَحْنُ فِي الْجَهْدِ»: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تَصَرُّفُهُمْ ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ بِالتِّجَارَةِ وَالْكَسْبِ. هُوَ ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ يَتَمَتَّعُونَ بِهِ يَسِيرًا فِي الدُّنْيَا وَيَفْنَى ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ الْفِرَاشُ هِيَ. ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ﴾ أَيْ: مُقَدَّرِينَ بِالْخُلُودِ ﴿فِيهَا نُزُلٗا﴾ وَهُوَ مَا يُعَدُّ لِلضَّيْفِ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ مِنْ ﴿جَنَّٰتٞ﴾ وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى الظَّرْفِ ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا. ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ، وَالنَّجَاشِي ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ أَيِ: التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿خَٰشِعِينَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ مُرَاعًى فِيهِ مَعْنَى «مَنْ»، أَيْ: مُتَوَاضِعِينَ ﴿لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الَّتِي عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ مِنَ الدُّنْيَا بِأَنْ يَكْتُمُوهَا خَوْفًا عَلَى الرِّيَاسَةِ كَفِعْلِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ يُؤْتَوْنَهُ مَرَّتَيْنِ كَمَا فِي «الْقَصَصِ»[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾ يُحَاسِبُ الْخَلْقَ فِي قَدْرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا[3]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ﴾ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْمَصَائِبِ وَعَنِ الْمَعَاصِي ﴿وَصَابِرُواْ﴾ الْكُفَّارَ فَلَا يَكُونُوا أَشَدَّ صَبْرًا مِنْكُمْ ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أَقِيمُوا عَلَى الْجِهَادِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ تَفُوزُونَ بِالْجَنَّةِ وَتَنْجُونَ مِنَ النَّارِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٢٣)، والحاكم (٢/ ٣٢٨)، والطبراني في الكبير (٦٥١).

(٢) الآيات (٥٠-٥٥) من سورة القصص.

(٣) راجع التعليق على آية (٢٠٢) من سورة البقرة.

سُورَةُ ٱلنِّسَاءِ

مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَخَمْسٌ أَوْ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ آيَةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ[١] ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ أَيْ: عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ آدَمَ ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ حَوَّاءَ بِالْمَدِّ، مِنْ ضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ الْيُسْرَى[٢] ﴿وَبَثَّ﴾ فَرَّقَ وَنَشَرَ ﴿مِنۡهُمَا﴾ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ ﴿رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ كَثِيرَةً ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَّآءَلُونَ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي السِّينِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالتَّخْفِيفِ بِحَذْفِهَا، أَيْ: «تَتَسَاءَلُونَ» ﴿بِهِۦ﴾ فِيمَا بَيْنَكُمْ، حَيْثُ يَقُولُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ: «أَسْأَلُكَ بِاللهِ»، وَ «أَنْشُدُكَ بِاللهِ» ﴿وَ﴾ وَاتَّقُوا ﴿ٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ أَنْ تَقْطَعُوهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي ﴿بِهِۦ﴾، وَكَانُوا يَتَنَاشَدُونَ بِالرَّحِمِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ حَافِظًا لِأَعْمَالِكُمْ فَيُجَازِيكُمْ بِهَا، أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ[٣]. وَنَزَلَ فِي يَتِيمٍ طَلَبَ مِنْ وَلِيِّهِ مَالَهُ فَمَنَعَهُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾ الصِّغَارَ الَّذِينَ لَا أَبَ لَهُمْ ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ إِذَا بَلَغُوا ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾ الْحَرَامَ ﴿بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ الْحَلَالِ، أَيْ: تَأْخُذُوهُ بَدَلَهُ كَمَا تَفْعَلُونَ، مِنْ أَخْذِ الْجَيِّدِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَجَعْلِ الرَّدِيءِ مِنْ مَالِكُمْ مَكَانَهُ ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ مَضْمُومَةً ﴿إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: أَكْلَهَا ﴿كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾ ذَنْبًا عَظِيمًا. وَلَمَّا نَزَلَتْ تَحَرَّجُوا مِنْ وِلَايَةِ الْيَتَامَى، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ تَحْتَهُ الْعَشْرُ أَوِ الثَّمَانِ مِنَ الْأَزْوَاجِ فَلَا يَعْدِلُ بَيْنَهُنَّ فَنَزَلَ[٤]: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ تَعْدِلُوا ﴿فِى ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ فَتَحَرَّجْتُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَخَافُوا أَيْضًا أَنْ لَا

---

(١) المراد بهم الموجودون عند الخطاب من بني آدم وهم أهل مكة، ويدخل فيه من سيوجد بدليل خارجي وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون. [صديق حسن (٣/ ٩)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ». أخرجه البخاري (٥١٨٥)، ومسلم (١٤٦٨).

(٣) أي: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. [ابن كثير (٢/ ٢٠٦)].

(٤) وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ويريد أن يتزوجها فلا يقسط لها في مهرها، أي: لا يعدل فيه ولا يعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، فنهاهم الله أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. فهذا سبب نزول الآية فهو نهي يخص هذه الصورة، قال جماعة من السلف إن هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية وفي أول الإسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما يشاء فقصرهم بهذه الآية على أربع، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا أن لا يقسطوا في اليتامى فكذلك يخافون أن لا يقسطوا في النساء، لأنهم كانوا يتحرجون في اليتامى ولا يتحرجون في النساء ...

تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ إِذَا نَكَحْتُمُوهُنَّ ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ تزوَّجُوا ﴿مَا﴾ بِمَعْنَى مَنْ ﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أَيِ: اِثْنَتَيْنِ اِثْنَتَيْنِ وَثَلَاثًا ثَلَاثًا وَأَرْبَعًا أَرْبَعًا، وَلَا تَزِيدُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ فِيهِنَّ بِالنَّفَقَةِ وَالْقَسْمِ ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ اِنْكِحُوهَا ﴿أَوْ﴾ اِقْتَصِرُوا عَلَى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ، إِذْ لَيْسَ لَهُنَّ مِنَ الْحُقُوقِ مَا لِلزَّوْجَاتِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: نِكَاحُ الْأَرْبَعِ فَقَطْ أَوِ الْوَاحِدَةِ أَوِ التَّسَرِّي ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ تَجُورُوا. ﴿وَءَاتُواْ﴾ أَعْطُوا ﴿ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ جَمْعُ صَدُقَةٍ، مُهُورَهُنَّ ﴿نِحْلَةً﴾ مَصْدَرٌ، عَطِيَّةً عَنْ طِيبِ نَفْسٍ ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ تَمْيِيزٌ مُحَوَّلٌ عَنِ الْفَاعِلِ، أَيْ: طَابَتْ أَنْفُسُهُنَّ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الصَّدَاقِ فَوَهَبْنَهُ لَكُمْ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا﴾ طَيِّبًا ﴿مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ مَحْمُودَ الْعَاقِبَةِ لَا ضَرَرَ فِيهِ عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ رَدًّا عَلَى مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ. ﴿وَلَا تُؤْتُواْ﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ الْمُبَذِّرِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أَيْ: أَمْوَالَهُمُ الَّتِي فِي أَيْدِيكُمْ ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ مَصْدَرُ: قَامَ، أَيْ: تَقُومُ بِمَعَاشِكُمْ وَصَلَاحِ أَوْدِكُمْ، فَيَضَعُوهَا فِي غَيْرِ وَجْهِهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قِيَمًا﴾ جَمْعُ قِيمَةٍ مَا يُقَوَّمُ بِهِ الْأَمْتِعَةُ ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أَيْ: أَطْعِمُوهُمْ مِنْهَا ﴿وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾ عِدُوهُمْ عِدَةً جَمِيلَةً بِإِعْطَائِهِمْ أَمْوَالَهُمْ إِذَا رَشَدُوا. ﴿وَٱبْتَلُواْ﴾ اِخْتَبِرُوا ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ قَبْلَ الْبُلُوغِ فِي دِينِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي أَحْوَالِهِمْ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ أَيْ: صَارُوا أَهْلًا لَهُ بِالِاحْتِلَامِ، أَوِ السِّنِّ وَهُوَ اسْتِكْمَالُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً عِنْدَ الشَّافِعِيِّ[1] ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ أَبْصَرْتُمْ ﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ صَلَاحًا فِي دِينِهِمْ وَمَالِهِمْ ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿إِسْرَافًا﴾ بِغَيْرِ حَقٍّ، حَالٌ ﴿وَبِدَارًا﴾ أَيْ: مُبَادِرِينَ إِلَى إِنْفَاقِهَا مَخَافَةَ ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾ رُشَدَاءَ فَيَلْزَمُكُمْ تَسْلِيمُهَا إِلَيْهِمْ ﴿وَمَن كَانَ﴾ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ﴿غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أَيْ: يَعِفَّ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ وَيَمْتَنِعَ مِنْ أَكْلِهِ ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ﴾ مِنْهُ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ أُجْرَةِ عَمَلِهِ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: إِلَى الْيَتَامَى ﴿أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أَنَّهُمْ تَسَلَّمُوهَا وَبَرِئْتُمْ، لِئَلَّا يَقَعَ اخْتِلَافٌ فَتَرْجِعُوا إِلَى الْبَيِّنَةِ، وَهَذَا أَمْرُ إِرْشَادٍ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ الْبَاءُ زَائِدَةٌ ﴿حَسِيبًا ۝٦﴾ حَافِظًا لِأَعْمَالِ خَلْقِهِ وَمُحَاسِبَهُمْ. وَنَزَلَ رَدًّا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ عَدَمِ تَوْرِيثِ النِّسَاءِ وَالصِّغَارِ: ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ الْأَوْلَادِ وَالْأَقْرِبَاءِ ﴿نَصِيبٌ﴾ حَظٌّ ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾

والمعنى: من غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة فليتركها وينكح غيرها. [صديق حسن (٣/ ١٤)].

(١) الرشد: هو المعرفة بمصالحة وتدبير ماله، وإن لم يكن من أهل الدين، واشترط قوم الدين، واعتبر مالك البلوغ والرشد، وحينئذٍ يدفع المال، واعتبر أبو حنيفة البلوغ وحده ما لم يظهر سفه، وقوله مخالف للقرآن. [ابن جُزَيّ (١/ ١٧٩)].

اَلْمُتوفَّوْنَ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ أَي: اَلْمَالِ ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ جَعَلَهُ اللهُ ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ مَقْطُوعًا بِتَسْلِيمِهِ إِلَيْهِمْ. ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ لِلْمِيرَاثِ ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ذَوُو اَلْقَرَابَةِ مِمَّنْ لَا يَرِثُ ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ شَيْئًا قَبْلَ اَلْقِسْمَةِ ﴿وَقُولُواْ﴾ أَيُّهَا اَلْأَوْلِيَاءُ ﴿لَهُمْ﴾ إِذَا كَانَ اَلْوَرَثَةُ صِغَارًا ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾ جَمِيلًا، بِأَنْ تَعْتَذِرُوا إِلَيْهِمْ أَنَّكُمْ لَا تَمْلِكُونَهُ وَأَنَّهُ لِلصِّغَارِ، وَهَذَا قِيلَ: إِنَّهُ مَنْسُوخٌ، وَقِيلَ: لَا، وَلَكِنْ تَهَاوَنَ اَلنَّاسُ فِي تَرْكِهِ وَعَلَيْهِ فَهُوَ نَدْبٌ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَاجِبٌ. ﴿وَلْيَخْشَ﴾ أَيْ: لِيَخَفْ عَلَى اَلْيَتَامَى ﴿ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ﴾ أَيْ: قَارَبُوا أَنْ يَتْرُكُوا ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَيْ: بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ أَوْلَادًا صِغَارًا ﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ اَلضَّيَاعَ ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فِي أَمْرِ اَلْيَتَامَى، وَلْيَأْتُوا إِلَيْهِمْ مَا يُحِبُّونَ أَنْ يُفْعَلَ بِذُرِّيَّتِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿وَلْيَقُولُواْ﴾ لِلْمَيِّتِ ﴿قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ صَوَابًا، بِأَنْ يَأْمُرُوهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِدُونِ ثُلُثِهِ، وَيَدَعَ اَلْبَاقِيَ لِوَرَثَتِهِ وَلَا يَتْرُكَهُمْ عَالَةً(١). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ أَيْ: بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ أَيْ: مِلْأَهَا ﴿نَارًا﴾ لِأَنَّهُ يُؤَوَّلُ إِلَيْهَا ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ: يَدْخُلُونَ ﴿سَعِيرًا ۝١٠﴾ نَارًا شَدِيدَةً يَحْتَرِقُونَ فِيهَا. ﴿يُوصِيكُمُ﴾ يَأْمُرُكُمْ ﴿ٱللَّهُ فِىٓ﴾ شَأْنِ ﴿أَوْلَٰدِكُمْ﴾ بِمَا يُذْكَرُ ﴿لِلذَّكَرِ﴾ مِنْهُمْ ﴿مِثْلُ حَظِّ﴾ نَصِيبِ ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ إِذَا اِجْتَمَعَتَا مَعَهُ، فَلَهُ نِصْفُ اَلْمَالِ وَلَهُمَا اَلنِّصْفُ، فَإِنْ كَانَ مَعَهُ وَاحِدَةٌ فَلَهَا اَلثُّلُثُ وَلَهُ اَلثُّلُثَانِ، وَإِنِ انْفَرَدَ حَازَ اَلْمَالَ ﴿فَإِن كُنَّ﴾ أَيِ: اَلْأَوْلَادُ ﴿نِسَآءً﴾ فَقَطْ ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ اَلْمَيِّتُ، وَكَذَا الِاثْنَتَانِ لِأَنَّهُ لِلْأُخْتَيْنِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ فَهُمَا أَوْلَى، وَلِأَنَّ اَلْبِنْتَ تَسْتَحِقُّ اَلثُّلُثَ مَعَ اَلذَّكَرِ فَمَعَ اَلْأُنْثَى أَوْلَى، وَ﴿فَوْقَ﴾ قِيلَ: صِلَةٌ، وَقِيلَ: لِدَفْعِ تَوَهُّمِ زِيَادَةِ اَلنَّصِيبِ بِزِيَادَةِ اَلْعَدَدِ، لَمَّا فُهِمَ اِسْتِحْقَاقُ اَلثِّنْتَيْنِ اَلثُّلُثَيْنِ مِنْ جَعْلِ اَلثُّلُثِ لِلْوَاحِدَةِ مَعَ اَلذَّكَرِ ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ اَلْمَوْلُودَةُ ﴿وَٰحِدَةً﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ فَـ «كَانَ» تَامَّةٌ ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أَيِ: اَلْمَيِّتِ، وَيُبْدَلُ مِنْهُمَا ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى، وَنُكْتَةُ اَلْبَدَلِ إِفَادَةُ أَنَّهُمَا لَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ، وَأُلْحِقَ بِالْوَلَدِ وَلَدُ الِابْنِ، وَبِالْأَبِ اَلْجَدُّ ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فَقَطْ أَوْ مَعَ زَوْجٍ ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ بِضَمِّ اَلْهَمْزَةِ وَكَسْرِهَا، فِرَارًا مِنَ الِانْتِقَالِ مِنْ ضَمَّةٍ إِلَى كَسْرَةٍ لِثِقَلِهِ فِي اَلْمَوْضِعَيْنِ ﴿ٱلثُّلُثُ﴾ أَيْ: ثُلُثُ اَلْمَالِ أَوْ مَا يَبْقَى

---

(١) الناس صنفان: ... الرجل إذا ترك ورثة مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن يندب إلى الوصية، ويحمل على أن يقدم لنفسه، وإذا ترك ورثة ضعفاء مقلين حسن أن يندب إلى الترك لهم والاحتياط، فإن أجره في قصد ذلك كأجره في المساكين، فالمراعى إنما هو الضعف، فيجب أن يمال معه. [ابن عطية (٢/ ١٣)].

بَعْدَ الزَّوْجِ، وَالْبَاقِي لِلْأَبِ ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ أَيِ: اثْنَانِ فَصَاعِدًا ذُكُورًا أَوْ إِنَاثًا ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ وَالْبَاقِي لِلْأَبِ وَلَا شَيْءَ لِلْإِخْوَةِ، وَإِرْثُ مَنْ ذَكَرَ مَا ذُكِرَ ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ تَنْفِيذِ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِى﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿بِهَآ أَوْ﴾ قَضَاءِ ﴿دَيْنٍۗ﴾ عَلَيْهِ وَتَقْدِيمُ الْوَصِيَّةِ عَلَى الدَّيْنِ وَإِنْ كَانَتْ مُؤَخَّرَةً عَنْهُ فِي الْوَفَاءِ لِلِاهْتِمَامِ بِهَا ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَظَانٌّ أَنَّ ابْنَهُ أَنْفَعُ لَهُ فَيُعْطِيهِ الْمِيرَاثَ فَيَكُونُ الْأَبُ أَنْفَعَ، وَبِالْعَكْسِ، وَإِنَّمَا الْعَالِمُ بِذَلِكَ هُوَ اللهُ، فَفَرَضَ لَكُمُ الْمِيرَاثَ ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ، أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿۞وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ﴾ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ﴾ وَأُلْحِقَ بِالْوَلَدِ فِي ذَلِكَ وَلَدُ الِابْنِ بِالْإِجْمَاعِ ﴿وَلَهُنَّ﴾ أَيِ: الزَّوْجَاتِ تَعَدَّدْنَ أَوْ لَا ﴿ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ مِنْهُنَّ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِنَّ ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ﴾ وَوَلَدُ الِابْنِ فِي ذَلِكَ كَالْوَلَدِ إِجْمَاعًا ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ﴾ صِفَةٌ، وَالْخَبَرُ: ﴿كَلَٰلَةً﴾ أَيْ: لَا وَالِدَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ تُورَثُ كَلَالَةً ﴿وَلَهُۥٓ﴾ أَيْ: الْمُورِثِ الْكَلَالَةِ ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أَيْ: مِنْ أُمٍّ، وَقَرَأَ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ[1] ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾ مِمَّا تَرَكَ ﴿فَإِن كَانُوٓاْ﴾ أَيْ: الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ مِنَ الْأُمِّ ﴿أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِنْ وَاحِدٍ ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ﴾ يَسْتَوِي فِيهِ ذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يُوصِى﴾، أَيْ: غَيْرَ مُدْخِلٍ الضَّرَرَ عَلَى الْوَرَثَةِ، بِأَنْ يُوصِيَ بِأَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ ﴿وَصِيَّةً﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِـ﴿يُوصِيكُمُ﴾، ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَا دَبَّرَهُ لِخَلْقِهِ مِنَ الْفَرَائِضِ ﴿حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَمَّنْ خَالَفَهُ، وَخَصَّتِ السُّنَّةُ تَوْرِيثَ مَنْ ذُكِرَ، بِمَنْ لَيْسَ فِيهِ مَانِعٌ مِنْ قَتْلٍ أَوِ اخْتِلَافِ دِينٍ أَوْ رِقٍّ. ﴿تِلْكَ﴾ الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ مِنْ أَمْرِ الْيَتَامَى وَمَا بَعْدَهُ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾ شَرَائِعُهُ الَّتِي حَدَّهَا لِعِبَادِهِ لِيَعْمَلُوا بِهَا وَلَا يَتَعَدَّوْهَا ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فِيمَا حَكَمَ بِهِ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ الْتِفَاتًا ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ ﴿نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ﴾ فِيهَا ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ ذُو إِهَانَةٍ، رُوعِيَ فِي الضَّمَائِرِ فِي الْآيَتَيْنِ لَفْظُ «مَنْ»، وَفِي ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مَعْنَاهَا[2]. ﴿وَٱلَّٰتِى

---

(١) وهي قراءة شاذة.

(٢) قال ابن عباس في معنى الآية: ومن لم يرض بقسمة الله ويتعد ما حده، وقال الكلبي: يكفر بقسمة المواريث فإذا كفر كان حكمه حكم

يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ اَلزِّنَا ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ رِجَالِ اَلْمُسْلِمِينَ ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عَلَيْهِنَّ بِهَا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ اِحْبِسُوهُنَّ ﴿فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ وَامْنَعُوهُنَّ مِنْ مُخَالَطَةِ اَلنَّاسِ ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ أَيْ: مَلَائِكَتُهُ ﴿أَوْ﴾ إِلَى أَنْ ﴿يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ طَرِيقًا إِلَى اَلْخُرُوجِ مِنْهَا، أُمِرُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ اَلْإِسْلَامِ، ثُمَّ جُعِلَ لَهُنَّ سَبِيلًا: بِجَلْدِ اَلْبِكْرِ مِائَةً وَتَغْرِيبِهَا عَامًا، وَرَجْمِ اَلْمُحْصَنَةِ، وَفِي اَلْحَدِيثِ: لَمَّا بُيِّنَ اَلْحَدُّ قَالَ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اَللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.[1] ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ بِتَخْفِيفِ اَلنُّونِ وَتَشْدِيدِهَا ﴿يَأْتِيَٰنِهَا﴾ أَيِ: اَلْفَاحِشَةَ اَلزِّنَا أَوِ اَللِّوَاطَ ﴿مِنكُمْ﴾ أَيِ: اَلرِّجَالِ ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ بِالسَّبِّ وَالضَّرْبِ بِالنِّعَالِ ﴿فَإِن تَابَا﴾ مِنْهَا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ اَلْعَمَلَ ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾ وَلَا تُؤْذُوهُمَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ عَلَى مَنْ تَابَ ﴿رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ بِهِ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِالْحَدِّ إِنْ أُرِيدَ بِهَا اَلزِّنَى، وَكَذَا إِنْ أُرِيدَ بِهَا اَللِّوَاطَ عِنْدَ اَلشَّافِعِيِّ، لَكِنَّ اَلْمَفْعُولَ بِهِ لَا يُرْجَمُ عِنْدَهُ وَإِنْ كَانَ مُحْصَنًا، بَلْ يُجْلَدُ وَيُغَرَّبُ، وَإِرَادَةُ اَللِّوَاطِ أَظْهَرُ بِدَلِيلِ تَثْنِيَةِ اَلضَّمِيرِ، وَالْأَوَّلُ قَالَ: أَرَادَ اَلزَّانِيَ وَالزَّانِيَةَ. وَيَرُدُّهُ

الكفار في الخلود في النار إذا لم يتب قبل موته وإذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلداً في النار، فلا دليل في الآية للمعتزلة على أن العصاة والفساق من أهل الإيمان يخلدون في النار ... وهذا العلم من أعظم العلوم قدراً وأشرفها ذخراً وأفضلها ذكراً، وهو ركن من أركان الشريعة، وفرع من فروعها في الحقيقة، اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا في فروعها وأصولها، ويكفي في فضلها أن الله تولى قسمتها بنفسه وأنزلها في كتابه مبينة في محل قدسه، وقد حث رسول الله ﷺ على تعليمها ... وقد ذكر بعض المفسرين أحكام الفرائض وأسباب الإرث في هذا المقام من تفسيره وإنما محلها كتب الفروع، وذكروا من تخاريج هذا العلم ما لم يكن له مستند إلا محض الرأي. وليس مجرد الرأي مستحقاً للتدوين. فلكل عالم رأيه واجتهاده مع عدم الدليل ولا حجة في اجتهاد بعض أهل العلم على البعض الآخر، ويكفيك منها ما ثبت في الكتاب والسنة وما عرض لك وما لم يكن فيهما فاجتهد فيه برأيك عملاً بحديث معاذ المشهور. والسهام المحدودة في كتاب الله العزيز ستة: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس ... والذي وردت به السنة المطهرة أنه يجب الابتداء بذوي الفروض المقدرة وما بقي فللعصبة والأخوات مع البنات عصبة، ولبنت الابن مع البنت السدس تكملة للثلثين، وكذا الأخت لأب مع الأخت لأبوين وللجدة أو الجدات السدس مع عدم الأم، وهو للجد مع من لا يسقطه ولا ميراث للأخوة والأخوات مطلقاً مع الابن أو ابن الابن أو الأب، وفي ميراثهم مع الجد خلاف، ويرثون مع البنات إلا الإخوة للام ويسقط الأخ لأب مع الأخ لأبوين. وأولو الأرحام يتوارثون وهم أقدم من بيت المال، فإن تزاحمت الفرائض فالعول، ولا يرث ولد الملاعنة والزانية إلا من أمه وقرابتها والعكس، ولا يرث المولود إلا إذا استهل، وميراث العتيق لمعتقه ويسقط بالعصبات وله الباقي بعد ذوي السهام، ويحرم بيع الولاء. وهبته، ولا توارث بين أهل ملّتين ولا يرث القاتل من المقتول. هذا جميع ما ثبت بالسنة المطهرة فاشدد عليه يديك. [صديق حسن (٣/ ٤٩)].

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٠).

تَبْيِينُهُمَا بِـ «مِنْ» ٱلْمُتَّصِلَةِ بِضَمِيرِ ٱلرِّجَالِ وَاشْتِرَاكُهُمَا فِي ٱلْأَذَى وَالتَّوْبَةِ وَالْإِعْرَاضِ، وَهُوَ مَخْصُوصٌ بِالرِّجَالِ لِمَا تَقَدَّمَ فِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْحَبْسِ. ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: ٱلَّتِي كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ قَبُولَهَا بِفَضْلِهِ ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ ٱلْمَعْصِيَةَ ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ حَالٌ، أَيْ: جَاهِلِينَ إِذْ عَصَوْا رَبَّهُمْ[1] ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن﴾ زَمَنٍ ﴿قَرِيبٍ﴾ قَبْلَ أَنْ يُغَرْغِرُوا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا ١٧﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ٱلذُّنُوبَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وَأَخَذَ فِي ٱلنَّزْعِ ﴿قَالَ﴾ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ مَا هُوَ فِيهِ: ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ فَلَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ﴾ إِذَا تَابُوا فِي ٱلْآخِرَةِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ ٱلْعَذَابِ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا﴾ أَعْدَدْنَا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ مُؤْلِمًا. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ أَيْ: ذَاتَهُنَّ ﴿كَرْهًاۖ﴾ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ لُغَتَانِ، أَيْ: مُكْرِهِيهِنَّ عَلَى ذَلِكَ، كَانُوا فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَرِثُونَ نِسَاءَ أَقْرِبَائِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا تَزَوَّجُوهُنَّ بِلَا صَدَاقٍ أَوْ زَوَّجُوهَا وَأَخَذُوا صَدَاقَهَا أَوْ عَضَلُوهَا حَتَّى تَفْتَدِيَ بِمَا وَرِثَتْهُ أَوْ تَمُوتَ فَيَرِثُوهَا، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿وَلَا﴾ أَنْ ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أَيْ: تَمْنَعُوا أَزْوَاجَكُمْ عَنْ نِكَاحِ غَيْرِكُمْ بِإِمْسَاكِهِنَّ وَلَا رَغْبَةَ لَكُمْ فِيهِنَّ ضِرَارًا ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ مِنَ ٱلْمَهْرِ ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ بِفَتْحِ ٱلْيَاءِ وَكَسْرِهَا، أَيْ: بُيِّنَتْ، أَوْ هِيَ بَيِّنَةٌ، أَيْ: زِنًا أَوْ نُشُوزٍ، فَلَكُمْ أَنْ تُضَارُّوهُنَّ حَتَّى يَفْتَدِينَ مِنْكُمْ وَيَخْتَلِعْنَ[2] ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ أَيْ: بِالْإِجْمَالِ فِي ٱلْقَوْلِ وَالنَّفَقَةِ وَالْمَبِيتِ ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فَاصْبِرُوا ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾ وَلَعَلَّهُ يَجْعَلُ فِيهِنَّ ذَلِكَ بِأَنْ يَرْزُقَكُمْ مِنْهُنَّ وَلَدًا صَالِحًا. ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أَيْ: أَخْذَهَا بَدَلَهَا بِأَنْ طَلَّقْتُمُوهَا ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿ءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أَيِ: ٱلزَّوْجَاتِ ﴿قِنطَارًا﴾ مَالًا كَثِيرًا صَدَاقًا ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ ظُلْمًا ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ٢٠﴾ بَيِّنًا، وَنَصْبُهُمَا عَلَى ٱلْحَالِ. وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ وَلِلْإِنْكَارِ فِي: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ أَيْ: بِأَيِّ وَجْهٍ ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾

---

(١) المراد بالجهالة هنا السفاهة وليس الجهل؛ لأن فاعل السوء بجهل معذور لا ذنب عليه؛ لقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة ٢٨٦]. [ابن عثيمين تفسير النساء (١/ ١٣٧)].

(٢) الأولى أن يقال إن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ للمسلمين، أي: لا يحل لكم معاشر المسلمين أن ترثوا النساء كرهـًا كما كانت تفعله الجاهلية، ولا يحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم، أي: تحبسوهن عندكم مع عدم رغبتكم فيهن، بل لقصد أن تذهبوا ببعض ما آتيتموهن من المهور يفتدين به من الحبس والبقاء تحتكم وفي عقدتكم مع كراهتكم لهن ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ فحينئذ يجوز لكم مخالعتهن ببعض ما آتيتموهن. [الشوكاني (١/ ٥٠٧)].

وَصَلَ ﴿بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾ بِالْجِمَاعِ الْمُقَرِّرِ لِلْمَهْرِ ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾ عَهْدًا ﴿غَلِيظًا ٢١﴾ شَدِيدًا، وَهُوَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِهِنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحِهِنَّ بِإِحْسَانٍ. ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا﴾ بِمَعْنَى: «مَنْ» ﴿نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ مِنْ فِعْلِكُمْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مَعْفُوٌّ عَنْهُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: نِكَاحَهُنَّ ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ قَبِيحًا ﴿وَمَقۡتًا﴾ سَبَبًا لِلْمَقْتِ مِنَ اللهِ وَهُوَ أَشَدُّ الْبُغْضِ ﴿وَسَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿سَبِيلًا ٢٢﴾ طَرِيقًا ذَلِكَ. ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، وَشَمِلَتِ الْجَدَّاتُ مِنْ قِبَلِ الْأَبِ أَوِ الْأُمِّ ﴿وَبَنَاتُكُمۡ﴾ وَشَمِلَتْ بَنَاتِ الْأَوْلَادِ وَإِنْ سَفَلْنَ ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ أَوِ الْأُمِّ ﴿وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾ أَيْ: أَخَوَاتُ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ أَيْ: أَخَوَاتُ أُمَّهَاتِكُمْ وَجَدَّاتِكُمْ ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾ وَيَدْخُلُ فِيهِنَّ بَنَاتُ أَوْلَادِهِمْ ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ الْحَوْلَيْنِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ كَمَا بَيَّنَهُ الْحَدِيثُ[(١)] ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ بِالسُّنَّةِ الْبَنَاتُ مِنْهَا، وَهُنَّ مَنْ أَرْضَعَتْهُنَّ مَوْطُوأَتُهُ، وَالْعَمَّاتُ وَالْخَالَاتُ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ مِنْهَا. لِحَدِيثِ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[(٢)] ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ جَمْعُ رَبِيبَةٍ وَهِيَ بِنْتُ الزَّوْجَةِ مِنْ غَيْرِهِ ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ تُرَبُّونَهُنَّ، صِفَةٌ مُوَافِقَةٌ لِلْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهَا ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ أَيْ: جَامَعْتُمُوهُنَّ ﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فِي نِكَاحِ بَنَاتِهِنَّ إِذَا فَارَقْتُمُوهُنَّ ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾ أَزْوَاجُ ﴿أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ بِخِلَافِ مَنْ تَبَنَّيْتُمُوهُمْ فَلَكُمْ نِكَاحُ حَلَائِلِهِمْ ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ مِنْ نَسَبٍ أَوْ رَضَاعٍ بِالنِّكَاحِ وَيُلْحَقُ بِهِمَا بِالسُّنَّةِ الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا[(٣)]، وَيَجُوزُ نِكَاحُ كُلٍّ وَاحِدَةٍ عَلَى الِانْفِرَادِ، وَمِلْكُهُمَا مَعًا وَيَطَأُ وَاحِدَةً ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ نِكَاحِهِمْ بَعْضَ مَا ذُكِرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا﴾ لِمَا سَلَفَ مِنْكُمْ قَبْلَ النَّهْيِ ﴿رَّحِيمٗا ٢٣﴾ بِكُمْ فِي ذَلِكَ. ﴿۞وَ﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ أَيْ: ذَوَاتُ الْأَزْوَاجِ ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ قَبْلَ مُفَارَقَةِ أَزْوَاجِهِنَّ، حَرَائِرَ مُسْلِمَاتٍ كُنَّ أَوْ لَا ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ بِالسَّبْيِ فَلَكُمْ وَطْؤُهُنَّ، وَإِنْ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ بَعْدَ الِاسْتِبْرَاءِ ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيْ: كَتَبَ

---

(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ، وهن فيما يقرأ من القرآن». أخرجه مسلم (١٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥١١١)، ومسلم (١٤٤٥).

(٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا». أخرجه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

ذَلِكَ ﴿عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أَيْ: سِوَى مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ تَطْلُبُوا النِّسَاءَ ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ بِصَدَاقٍ أَوْ ثَمَنٍ ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ مُتَزَوِّجِينَ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ زَانِينَ ﴿فَمَا﴾ فَمَنْ ﴿ٱسْتَمْتَعْتُم﴾ تَمَتَّعْتُمْ ﴿بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ مِمَّنْ تَزَوَّجْتُمْ بِالْوَطْءِ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مُهُورَهُنَّ الَّتِي فَرَضْتُمْ لَهُنَّ ﴿فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم﴾ أَنْتُمْ وَهُنَّ ﴿بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ﴾ مِنْ حَطِّهَا أَوْ بَعْضِهَا أَوْ زِيَادَةٍ عَلَيْهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ. ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أَيْ غِنًى لِـ ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الْحَرَائِرَ ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هُوَ جَرْيٌ عَلَى الْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ يَنْكِحُ ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْۚ﴾ فَاكْتَفُوا بِظَاهِرِهِ وَكِلُوا السَّرَائِرَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِتَفَاصِيلِهَا، وَرُبَّ أَمَةٍ تَفْضُلُ حُرَّةً فِيهِ، وَهَذَا تَأْنِيسٌ بِنِكَاحِ الْإِمَاءِ ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ وَهُنَّ سَوَاءٌ فِي الدِّينِ، فَلَا تَسْتَنْكِفُوا مِنْ نِكَاحِهِنَّ ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ مَوَالِيهِنَّ ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾ أَعْطُوهُنَّ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مُهُورَهُنَّ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ مِنْ غَيْرِ مَطْلٍ وَنَقْصٍ ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ عَفَائِفَ، حَالٌ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ زَانِيَاتٍ جَهْرًا ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ أَخِلَّاءَ يَزْنُونَ بِهِنَّ سِرًّا ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ زُوِّجْنَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ: تَزَوَّجْنَ ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ زِنًا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الْحَرَائِرِ الْأَبْكَارِ إِذَا زَنَيْنَ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾ الْحَدِّ، فَيُجْلَدْنَ خَمْسِينَ، وَيُغَرَّبْنَ نِصْفَ سَنَةٍ، وَيُقَاسُ عَلَيْهِنَّ الْعَبِيدُ، وَلَمْ يُجْعَلِ الْإِحْصَانُ شَرْطًا لِوُجُوبِ الْحَدِّ، لِإِفَادَةِ أَنَّهُ لَا رَجْمَ عَلَيْهِنَّ أَصْلًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: نِكَاحُ الْمَمْلُوكَاتِ عِنْدَ عَدَمِ الطَّوْلِ ﴿لِمَنْ خَشِيَ﴾ خَافَ ﴿ٱلْعَنَتَ﴾ الزِّنَا وَأَصْلُهُ الْمَشَقَّةُ، سُمِّيَ بِهِ الزِّنَا؛ لِأَنَّهُ سَبَبُهَا بِالْحَدِّ فِي الدُّنْيَا وَالْعُقُوبَةِ فِي الْآخِرَةِ ﴿مِنكُمْۚ﴾ بِخِلَافِ مَنْ لَا يَخَافُهُ مِنَ الْأَحْرَارِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ نِكَاحُهَا، وَكَذَا مَنِ اسْتَطَاعَ طَوْلَ حُرَّةٍ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، وَخَرَجَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ﴾ الْكَافِرَاتُ، فَلَا يَحِلُّ لَهُ نِكَاحُهَا وَلَوْ عَدِمَ وَخَافَ ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾ عَنْ نِكَاحِ الْمَمْلُوكَاتِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْۗ﴾ لِئَلَّا يَصِيرَ الْوَلَدُ رَقِيقًا ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ بِالتَّوْسِعَةِ فِي ذَلِكَ. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ شَرَائِعَ دِينِكُمْ وَمَصَالِحَ أَمْرِكُمْ ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ﴾ طَرَائِقَ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فَتَتَّبِعُوهُمْ ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ﴾ يَرْجِعَ بِكُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَى طَاعَتِهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِكُمْ ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لَكُمْ. ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كَرَّرَهُ لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَوِ الْمَجُوسُ أَوِ الزُّنَاةُ(١) ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا

(١) وقيل: عام في كل متبع شهوة وهو أرجح. [ابن جُزَيّ (١/ ١٨٨)].

﴿٢٧﴾ تَعْدِلُوا عَنِ الْحَقِّ بِارْتِكَابِ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَتَكُونُوا مِثْلَهُمْ. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ يُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ أَحْكَامَ الشَّرْعِ ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ لَا يَصْبِرُ عَنِ النِّسَاءِ وَالشَّهَوَاتِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بِالْحَرَامِ فِي الشَّرْعِ كَالرِّبَا وَالْغَصْبِ ﴿إِلَّآ﴾ لَكِنْ ﴿أَن تَكُونَ﴾ تَقَعَ ﴿تِجَٰرَةً﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ، أَيْ: أَنْ تَكُونَ الْأَمْوَالُ أَمْوَالَ تِجَارَةٍ صَادِرَةً ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ وَطِيبِ نَفْسٍ فَلَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوهَا ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بِارْتِكَابِ مَا يُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِهَا أَيًّا كَانَ فِي الدُّنْيَا أَوِ الْآخِرَةِ[١]، بِقَرِينَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ فِي مَنْعِهِ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مَا نُهِيَ عَنْهُ ﴿عُدْوَٰنًا﴾ تَجَاوُزًا لِلْحَلَالِ، حَالٌ ﴿وَظُلْمًا﴾ تَأْكِيدٌ ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ نُدْخِلُهُ ﴿نَارًا﴾ يَحْتَرِقُ فِيهَا ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ هَيِّنًا. ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وَهِيَ مَا وَرَدَ عَلَيْهَا وَعِيدٌ، كَالْقَتْلِ وَالزِّنَا وَالسَّرِقَةِ[٢]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ أَقْرَبُ ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الصَّغَائِرَ[٣] بِالطَّاعَاتِ ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، أَيْ: إِدْخَالًا أَوْ مَوْضِعًا ﴿كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مِنْ جِهَةِ الدُّنْيَا أَوِ الدِّينِ، لِئَلَّا يُؤَدِّيَ إِلَى التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ثَوَابٌ ﴿مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ﴾ بِسَبَبِ مَا عَمِلُوا مِنَ الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ مِنْ طَاعَةِ أَزْوَاجِهِنَّ وَحِفْظِ فُرُوجِهِنَّ، نَزَلَتْ لَمَّا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: «لَيْتَنَا كُنَّا رِجَالًا فَجَاهَدْنَا وَكَانَ لَنَا مِثْلُ أَجْرِ الرِّجَالِ» ﴿وَسْـَٔلُواْ﴾ بِهَمْزَةٍ وَدُونِهَا ﴿ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ وَمِنْهُ مَحَلُّ الْفَضْلِ وَسُؤَالُكُمْ. ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ عَصَبَةً يُعْطَوْنَ ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ لَهُمْ مِنَ الْمَالِ ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ﴾ بِأَلِفٍ وَدُونِهَا ﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾ جَمْعُ يَمِينٍ بِمَعْنَى الْقَسَمِ أَوِ الْيَدِ، أَيِ: الْحُلَفَاءُ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى النُّصْرَةِ وَالْإِرْثِ ﴿فَـَٔاتُوهُمْ﴾ الْآنَ ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ حَظَّهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ، وَهُوَ السُّدُسُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ مُطَّلِعًا وَمِنْهُ حَالُكُمْ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]. ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ﴾ مُسَلَّطُونَ ﴿عَلَى

---

(١) قال ابن عطية أجمع المفسرون أن المعنى: لا يقتل بعضكم بعضاً، قلت: ولفظها يتناول قتل الإنسان لنفسه، وقد حملها عمرو بن العاص رضي الله عنه على ذلك، ولم ينكره رسول الله ﷺ إذ سمعه. [ابن جُزَيّ (١/ ١٨٩)].

(٢) وأحسن ما حُدت به الكبائر، أن الكبيرة: ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه. [السعدي (ص:١٧٦)].

(٣) وحملُ السيئات على الصغائر هنا متعين لذكر الكبائر قبلها. [الشوكاني (١/ ٥٢٧)].

﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ يُؤَدِّبُونَهُنَّ وَيَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِيهِنَّ(١) ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أَيْ: بِتَفْضِيلِهِ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ بِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْوِلَايَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ عَلَيْهِنَّ ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ مِنْهُنَّ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ مُطِيعَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أَيْ: لِفُرُوجِهِنَّ وَغَيْرِهَا فِي غَيْبَةِ أَزْوَاجِهِنَّ ﴿بِمَا حَفِظَ﴾ هُنَّ ﴿ٱللَّهُۚ﴾ حَيْثُ أَوْصَى عَلَيْهِنَّ الْأَزْوَاجَ ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عِصْيَانَهُنَّ لَكُمْ، بِأَنْ ظَهَرَتْ أَمَارَتُهُ ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ فَخَوِّفُوهُنَّ اللهَ ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ اعْتَزِلُوا إِلَى فِرَاشٍ آخَرَ إِنْ أَظْهَرْنَ النُّشُوزَ ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّۖ﴾ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، إِنْ لَمْ يَرْجِعْنَ بِالْهِجْرَانِ ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ فِيمَا يُرَادُ مِنْهُنَّ ﴿فَلَا تَبْغُواْ﴾ تَطْلُبُوا ﴿عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ طَرِيقًا إِلَى ضَرْبِهِنَّ ظُلْمًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ فَاحْذَرُوهُ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ إِنْ ظَلَمْتُمُوهُنَّ. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عَلِمْتُمْ ﴿شِقَاقَ﴾ خِلَافَ ﴿بَيْنِهِمَا﴾ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَالْإِضَافَةُ لِلِاتِّسَاعِ، أَيْ: شِقَاقًا بَيْنَهُمَا ﴿فَٱبْعَثُواْ﴾ إِلَيْهِمَا بِرِضَاهُمَا ﴿حَكَمًا﴾ رَجُلًا عَدْلًا ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ أَقَارِبِهِ ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وَيُوَكِّلُ الزَّوْجُ حَكَمَهُ فِي طَلَاقٍ وَقَبُولِ عِوَضٍ عَلَيْهِ، وَتُوَكِّلُ هِيَ حَكَمَهَا فِي الِاخْتِلَاعِ، فَيَجْتَهِدَانِ وَيَأْمُرَانِ الظَّالِمَ بِالرُّجُوعِ أَوْ يُفَرِّقَانِ إِنْ رَأَيَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن يُرِيدَآ﴾ أَيِ: الْحَكَمَانِ ﴿إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ﴾ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أَيْ: يُقَدِّرْهُمَا عَلَى مَا هُوَ الطَّاعَةُ مِنْ إِصْلَاحٍ أَوْ فِرَاقٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ بِالْبَوَاطِنِ كَالظَّوَاهِرِ. ﴿۞وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَ﴾ أَحْسِنُوا ﴿بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ بِرًّا وَلِينَ جَانِبٍ ﴿وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الْقَرَابَةِ ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الْقَرِيبِ مِنْكَ فِي الْجِوَارِ أَوِ النَّسَبِ ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الْبَعِيدِ عَنْكَ فِي الْجِوَارِ أَوِ النَّسَبِ ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ الرَّفِيقِ فِي سَفَرٍ أَوْ صِنَاعَةٍ، وَقِيلَ: الزَّوْجَةِ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ﴾ مِنَ الْأَرِقَّاءِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ مُتَكَبِّرًا ﴿فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ عَلَى النَّاسِ بِمَا أُوتِيَ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿يَبْخَلُونَ﴾ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بِهِ ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَالِ وَهُمُ الْيَهُودُ، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ: لَهُمْ وَعِيدٌ شَدِيدٌ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بِذَلِكَ وَبِغَيْرِهِ ﴿عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ ذَا إِهَانَةٍ. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مُرَائِينَ لَهُمْ ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۗ﴾

---

(١) كلام مستأنف سيق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث تفصيلاً إثر بيان تفاوت استحقاقهم إجمالاً، وعلل ذلك بأمرين أولهما وهبي، والثاني كسبي، والمعنى أنهم يقومون بالذب عنهن كما يقوم الحكام والأمراء بالذب عن الرعية، وهم أيضاً يقومون بما يحتجن إليه من النفقة والكسوة والمسكن. [صديق حسن (٣/ ١٠٥)].

كَالْمُنَافِقِينَ وَأَهْلِ مَكَّةَ ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾ صَاحِبًا، يَعْمَلُ بِأَمْرِهِ كَهَؤُلَاءِ ﴿فَسَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ هُوَ. ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: أَيُّ ضَرَرٍ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ، وَلَوْ مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: لَا ضَرَرَ فِيهِ، وَإِنَّمَا الضَّرَرُ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ أَحَدًا ﴿مِثْقَالَ﴾ وَزْنَ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرِ نَمْلَةٍ، بِأَنْ يُنْقِصَهَا مِنْ حَسَنَاتِهِ أَوْ يَزِيدَهَا فِي سَيِّئَاتِهِ(١) ﴿وَإِن تَكُ﴾ الذَّرَّةُ ﴿حَسَنَةً﴾ مِنْ مُؤْمِنٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ فَـ«كَانَ» تَامَّةٌ ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ مِنْ عَشْرٍ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعِّفْهَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ الْمُضَاعَفَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ لَا يُقَدِّرُهُ أَحَدٌ. ﴿فَكَيْفَ﴾ حَالُ الْكُفَّارِ ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا وَهُوَ نَبِيُّهَا ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ(٢) ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْمَجِيءِ ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ﴾ أَيْ: أَنْ ﴿تُسَوَّىٰ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ مَعَ حَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْلِ وَمَعَ إِدْغَامِهَا فِي السِّينِ، أَيْ: تَتَسَوَّى ﴿بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ بِأَنْ يَكُونُوا تُرَابًا مِثْلَهَا لِعِظَمِ هَوْلِهِ، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ عَمَّا عَمِلُوهُ، وَفِي وَقْتٍ آخَرَ يَكْتُمُونَهُ، وَيَقُولُونَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣](٣). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَيْ: لَا تُصَلُّوا ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

(٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نَعَمْ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ قال: «حَسْبُكَ الْآنَ»، فإذا عيناه تذرفان. أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

(٣) وجه الجمع في ذلك هو ما بينه ابن عباس رضي الله عنهما لما سئل عن قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ مع قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، وهو أن ألسنتهم تقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. فكتم الحق باعتبار اللسان وعدمه باعتبار الأيدي والأرجل، وهذا الجمع يشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]. وأجاب بعض العلماء بتعدد الأماكن فيكتمون في وقت ولا يكتمون في وقت آخر، والعلم عند الله تعالى. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٩١)].

مِنَ الشَّرَابِ؛ لِأَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا صَلَاةُ جَمَاعَةٍ فِي حَالِ السُّكْرِ ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ بِأَنْ تَصْحُوا[١] ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ بِإِيلَاجٍ أَوْ إِنْزَالٍ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْمُفْرَدِ وَغَيْرِهِ ﴿إِلَّا عَابِرِى﴾ مُجْتَازِي ﴿سَبِيلٍ﴾ طَرِيقٍ، أَيْ: مُسَافِرِينَ ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ فَلَكُمْ أَنْ تُصَلُّوا، وَاسْتَثْنَى الْمُسَافِرَ؛ لِأَنَّ لَهُ حُكْمًا آخَرَ سَيَأْتِي، وَقِيلَ: الْمُرَادُ النَّهْيُ عَنْ قُرْبَانِ مَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، أَيِ: الْمَسَاجِدِ إِلَّا عُبُورَهَا مِنْ غَيْرِ مُكْثٍ ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مَرَضًا يَضُرُّهُ الْمَاءُ ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أَيْ: مُسَافِرِينَ وَأَنْتُمْ جُنُبٌ أَوْ مُحْدِثُونَ ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ هُوَ الْمَكَانُ الْمُعَدُّ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ، أَيْ: أَحْدَثَ ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِلَا أَلِفٍ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنًى، مِنَ اللَّمْسِ وَهُوَ الْجَسُّ بِالْيَدِ، قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، وَأُلْحِقَ بِهِ الْجَسُّ بِبَاقِي الْبَشَرَةِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ: الْجِمَاعُ[٢] ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ تَتَطَهَّرُونَ بِهِ لِلصَّلَاةِ بَعْدَ الطَّلَبِ وَالتَّفْتِيشِ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى مَا عَدَا الْمَرْضَى ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ اقْصِدُوا بَعْدَ دُخُولِ الْوَقْتِ ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ تُرَابًا طَاهِرًا، فَاضْرِبُوا بِهِ ضَرْبَتَيْنِ ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مَعَ الْمِرْفَقَيْنِ مِنْهُ[٣]،

---

(١) هذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقا، فإن الخمر في أول الأمر كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]. ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل. [السعدي (ص:١٧٩)].

(٢) الحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء، وهذا مطلقا في الحضر والسفر، وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه. واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ هل المراد بذلك: الجماع فتكون الآية نصا في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك. [السعدي (ص:١٧٩)].

(٣) التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها وهو مذهب الشافعي في الجديد: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرقة: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] قالوا: وحمل ما أطلق هاهنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية ... والقول الثاني:

وَ«مَسَحَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِالْحَرْفِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٤٣ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ حَظًّا ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وَهُمُ اَلْيَهُودُ ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ بِالْهُدَى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤﴾ تُخْطِئُوا طَرِيقَ اَلْحَقِّ، لِتَكُونُوا مِثْلَهُمْ. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ مِنْكُمْ، فَيُخْبِرُكُمْ بِهِمْ لِتَجْتَنِبُوهُمْ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ حَافِظًا لَكُمْ مِنْهُمْ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ مَانِعًا لَكُمْ مِنْ كَيْدِهِمْ. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ قَوْمٌ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يُغَيِّرُونَ ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ اَلَّذِي أَنْزَلَ اَللهُ فِي اَلتَّوْرَاةِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ اَلَّتِي وُضِعَ عَلَيْهَا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ بِشَيْءٍ: ﴿سَمِعْنَا﴾ قَوْلَكَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أَمْرَكَ ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ حَالٌ بِمَعْنَى اَلدُّعَاءِ، أَيْ: لَا سَمِعْتَ ﴿وَ﴾ يَقُولُونَ لَهُ: ﴿رَٰعِنَا﴾ وَقَدْ نُهِيَ عَنْ خِطَابِهِ بِهَا، وَهِيَ كَلِمَةُ سَبٍّ بِلُغَتِهِمْ ﴿لَيًّۢا﴾ تَحْرِيفًا ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا﴾ قَدْحًا ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ اَلْإِسْلَامِ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بَدَلَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾، ﴿وَٱسْمَعْ﴾ فَقَطْ ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ اُنْظُرْ إِلَيْنَا بَدَلَ ﴿رَٰعِنَا﴾، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مِمَّا قَالُوهُ ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أَعْدَلَ مِنْهُ ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾ مِنْهُمْ، كَعَبْدِ اَللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ مِنَ اَلْقُرْآنِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ مِنَ اَلتَّوْرَاةِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ نَمْحُوَ مَا فِيهَا مِنَ اَلْعَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَاجِبِ ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ فَنَجْعَلَهَا كَالْأَقْفَاءِ لَوْحًا وَاحِدًا(١) ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ نَمْسَخَهُمْ قِرَدَةً ﴿كَمَا لَعَنَّآ﴾ مَسَخْنَا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قَضَاؤُهُ ﴿مَفْعُولًا ۝٤٧﴾ وَلَمَّا نَزَلَتْ أَسْلَمَ عَبْدُ اَللهِ بْنُ سَلَامٍ، فَقِيلَ: كَانَ وَعِيدًا بِشَرْطٍ فَلَمَّا أَسْلَمَ بَعْضُهُمْ رُفِعَ، وَقِيلَ: يَكُونُ طَمْسٌ وَمَسْخٌ قَبْلَ قِيَامِ

إنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو القول القديم للشافعي. والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة؛ قال الإمام أحمد: ... عن عمار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: «ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ». أخرجه أحمد (١٨٣١٩). [ابن كثير (٢/٣١٩)].

(١) قيل: إنه طمس معنوي، بحيث لا ترى الحق ولا تسمعه ولا تنتفع به، ويردها الله على أعقابها فتهوي في الكفر. وقيل: بل هو طمس حسي، وذلك بأن تطمس الوجوه حتى تكون كخف البعير، ليس فيها عين ولا أنف ولا شفة ولا حاجب، بل هي كالقفا تمامًا، ثم بعد ذلك ترد على الأدبار. وقيل: المراد بالطمس طمس حسي، ولكن هو أن تلوى الأعناق، وتكون الوجوه من الخلف، وهذا معنى قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ وكما قلنا لكم فيما سبق في القاعدة التفسيرية: إنه إذا كانت الآية تحتمل وجهين لا يناقض أحدهما الآخر، فإنها تحمل على الوجهين جميعًا؛ لأن كلام الله معناه واسع، فإذا كان اللفظ يحتمل هذا وهذا وليس بينهما مناقضة، فالواجب حمله على الوجهين، فهنا نقول: إن الله تعالى هددهم بالطمس الحسي والطمس المعنوي. [ابن عثيمين تفسير النساء (١/ ٣٨١)].

اَلسَّاعَةِ(١). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ﴾ أَيِ: اَلْإِشْرَاكَ ﴿بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾ سِوَى ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِنَ اَلذُّنُوبِ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ اَلْمَغْفِرَةَ لَهُ بِأَنْ يُدْخِلَهُ اَلْجَنَّةَ بِلَا عَذَابٍ، وَمَنْ شَاءَ عَذَّبَهُ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ بِذُنُوبِهِ ثُمَّ يُدْخِلُهُ اَلْجَنَّةَ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا﴾ ذَنْبًا ﴿عَظِيمًا ۝٤٨﴾ كَبِيرًا(٢). ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ وَهُمُ اَلْيَهُودُ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، أَيْ: لَيْسَ اَلْأَمْرُ بِتَزْكِيَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي﴾ يُطَهِّرُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بِالْإِيمَانِ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يُنْقَصُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿فَتِيلًا ۝٤٩﴾ قَدْرَ قِشْرَةِ اَلنَّوَاةِ(٣). ﴿ٱنظُرْ﴾ مُتَعَجِّبًا ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بِذَلِكَ ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ بَيِّنًا. وَنَزَلَ فِي كَعْبِ بْنِ اَلْأَشْرَفِ وَنَحْوِهِ مِنْ عُلَمَاءِ اَلْيَهُودِ لَمَّا قَدِمُوا مَكَّةَ وَشَاهَدُوا قَتْلَى بَدْرٍ وَحَرَّضُوا اَلْمُشْرِكِينَ عَلَى اَلْأَخْذِ بِثَأْرِهِمْ وَمُحَارَبَةِ اَلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ صَنَمَانِ لِقُرَيْشٍ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، حِينَ قَالُوا لَهُمْ: «أَنَحْنُ أَهْدَى سَبِيلًا وَنَحْنُ وُلَاةُ اَلْبَيْتِ، نَسْقِي اَلْحَاجَّ وَنَقْرِي اَلضَّيْفَ وَنَفُكُّ اَلْعَانِيَ وَنَفْعَلُ، أَمْ مُحَمَّدٌ وَقَدْ خَالَفَ دِينَ آبَائِهِ وَقَطَعَ اَلرَّحِمَ وَفَارَقَ اَلْحَرَمَ؟» ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيْ: أَنْتُمْ ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١﴾ أَقْوَمُ طَرِيقًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ﴾ ـهُ ﴿ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ مَانِعًا مِنْ عَذَابِهِ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْهُ، وَلَوْ كَانَ ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾ أَيْ: شَيْئًا تَافِهًا قَدْرَ اَلنَّقْرَةِ فِي ظَهْرِ اَلنَّوَاةِ، لِفَرْطِ بُخْلِهِمْ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أَيِ: اَلنَّبِيَّ ﷺ ﴿عَلَىٰ

---

(١) ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أو نخزيهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نمسخهم مسخا مثل مسخهم، أو نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود. والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريقة الالتفات، أو للوجوه إن أريد به الوجهاء، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا قال إنه بعد مترقب أو كان وقوعه مشروطا بعدم إيمانهم وقد آمن منهم طائفة. [البيضاوي (٢/ ٧٧)].

(٢) لا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ... وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في هذه الآية: إن الله حرم المغفرة على من مات وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم عن المغفرة. وأخرج الترمذي وحسنه عن علي رضي الله عنه قال: ما في القرآن أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ الآية. [الشوكاني (١/ ٥٤٩)].

(٣) هو الخيط الذي في نواة الثمر، وقيل: القشرة التي حول النواة، وقيل: هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفيك من الوسخ إذا فتلتهما، فهو فتيل بمعنى: مفتول، والمراد هنا الكناية عن الشيء الحقير، ومثله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ وهو النكتة التي في ظهر النواة. [صديق حسن (٣/ ١٤٥)].

﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ مِنَ النُّبُوَّةِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ؟ أَيْ: يَتَمَنَّوْنَ زَوَالَهُ عَنْهُ، وَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ نَبِيًّا لَاشْتَغَلَ عَنِ النِّسَاءِ ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ جَدِّهِ، كَمُوسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النُّبُوَّةَ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا ٥٤﴾ فَكَانَ لِدَاوُدَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، وَلِسُلَيْمَانَ أَلْفٌ مَا بَيْنَ حُرَّةٍ وَسُرِّيَّةٍ. ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ﴾ أَعْرَضَ ﴿عَنۡهُۚ﴾ فَلَمْ يُؤْمِنْ ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾ عَذَابًا لِمَنْ لَا يُؤْمِنُ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ﴾ نُدْخِلُهُمْ ﴿نَارًا﴾ يَحْتَرِقُونَ فِيهَا ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ﴾ احْتَرَقَتْ ﴿جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ بِأَنْ تُعَادَ إِلَى حَالِهَا الْأَوَّلِ غَيْرَ مُحْتَرِقَةٍ ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ لِيُقَاسُوا شِدَّتَهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿حَكِيمًا ٥٦﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾ مِنَ الْحَيْضِ وَكُلِّ قَذَرٍ ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلًّا ظَلِيلًا ٥٧﴾ دَائِمًا لَا تَنْسَخُهُ شَمْسٌ، وَهُوَ ظِلُّ الْجَنَّةِ. ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ أَيْ: مَا أُؤْتُمِنَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ نَزَلَتْ لَمَّا أَخَذَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ الْحَجَبِيِّ سَادِنِهَا قَسْرًا، لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ، وَمَنَعَهُ وَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ لَمْ أَمْنَعْهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ، وَقَالَ: «هَاكَ خَالِدَةً تَالِدَةً»(١)، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَرَأَ لَهُ عَلِيٌّ الْآيَةَ فَأَسْلَمَ، وَأَعْطَاهُ عِنْدَ مَوْتِهِ لِأَخِيهِ شَيْبَةَ فَبَقِيَ فِي وَلَدِهِ، وَالْآيَةُ وَإِنْ وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ فَعُمُومُهَا مُعْتَبَرٌ بِقَرِينَةِ الْجَمْعِ ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ يَأْمُرُكُمْ ﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ مِيمِ «نِعْمَ» فِي «مَا» النَّكِرَةِ الْمَوْصُوفَةِ، أَيْ: نِعْمَ شَيْئًا ﴿يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ تَأْدِيَةُ الْأَمَانَةِ وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿بَصِيرًا ٥٨﴾ بِمَا يُفْعَلُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي﴾ وَأَصْحَابَ ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ أَيِ: الْوُلَاةَ ﴿مِنكُمۡۖ﴾ إِذَا أَمَرُوكُمْ بِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ اخْتَلَفْتُمْ ﴿فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: إِلَى كِتَابِهِ ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ مُدَّةَ حَيَاتِهِ وَبَعْدَهُ إِلَى سُنَّتِهِ، أَيِ: اكْشِفُوا عَلَيْهِ مِنْهُمَا ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: الرَّدُّ إِلَيْهِمَا ﴿خَيۡرٞ﴾ لَكُمْ مِنَ التَّنَازُعِ وَالْقَوْلِ بِالرَّأْيِ ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ مَآلًا(٢). وَنَزَلَ لَمَّا اخْتَصَمَ يَهُودِيٌّ وَمُنَافِقٌ، فَدَعَا الْمُنَافِقُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمَا، وَدَعَا الْيَهُودِيُّ إِلَى

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة بلفظ: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟» فدعي له، فقال: «هَاكَ مِفْتَاحَكَ يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمُ يَوْمُ بِرٍّ وَوَفَاءٍ». [سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢)].

(٢) أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس،

النَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَيَاهُ فَقَضَى لِلْيَهُودِيِّ، فَلَمْ يَرْضَ الْمُنَافِقُ، وَأَتَيَا عُمَرَ فَذَكَرَ الْيَهُودِيُّ ذَلِكَ فَقَالَ لِلْمُنَافِقِ: كَذَلِكَ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَتَلَهُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الْكَثِيرِ الطُّغْيَانِ وَهُوَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ وَلَا يُوَالُوهُ ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ عَنِ الْحَقِّ[(١)]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحُكْمِ ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ لِيَحْكُمَ بَيْنَكُمْ ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ﴾ يُعْرِضُونَ ﴿عَنكَ﴾ إِلَى غَيْرِكَ ﴿صُدُودًا ۝٦١ فَكَيْفَ﴾ يَصْنَعُونَ ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عُقُوبَةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، أَيْ: أَيَقْدِرُونَ عَلَى الْإِعْرَاضِ وَالْفِرَارِ مِنْهَا؟ لَا ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿يَصُدُّونَ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ﴾ مَا ﴿أَرَدْنَآ﴾ بِالْمُحَاكَمَةِ إِلَى غَيْرِكَ ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ صُلْحًا ﴿وَتَوْفِيقًا ۝٦٢﴾ تَأْلِيفًا بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ بِالتَّقْرِيبِ فِي الْحُكْمِ دُونَ الْحَمْلِ عَلَى مُرِّ الْحَقِّ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ النِّفَاقِ وَكَذِبِهِمْ فِي عُذْرِهِمْ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بِالصَّفْحِ ﴿وَعِظْهُمْ﴾ خَوِّفْهُمُ اللهَ ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ﴾ شَأْنِ ﴿أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ۝٦٣﴾ مُؤَثِّرًا فِيهِمْ، أَيِ: ازْجُرْهُمْ لِيَرْجِعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَحْكُمُ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بِأَمْرِهِ، لَا لِيُعْصَى

من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم ألا يكون معصية. ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى الرسول، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما أو إيماء أو تنبيه أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما. فالرد إليهما شرط في الإيمان فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم. [السعدي (ص:١٨٣)].

(١) هذا إنكار من الله، عز وجل، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا. [ابن كثير (٢/٣٤٦)].

وَيُخَالِفُ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بِتَحَاكُمِهِمْ إِلَى الطَّاغُوتِ ﴿جَآءُوكَ﴾ تَائِبِينَ ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ[1] ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا﴾ عَلَيْهِمْ ﴿رَّحِيمًا ٦٤﴾ بِهِمْ. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ﴾ اخْتَلَطَ ﴿بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضِيقًا أَوْ شَكًّا ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ بِهِ ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ يَنْقَادُوا لِحُكْمِكَ ﴿تَسْلِيمًا ٦٥﴾ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضَةٍ. ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ﴾ مُفَسِّرَةٌ ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ كَمَا كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أَيِ: الْمَكْتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بِالرَّفْعِ عَلَى الْبَدَلِ، وَالنَّصْبِ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ ﴿مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ مِنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ٦٦﴾ تَحْقِيقًا لِإِيمَانِهِمْ. ﴿وَإِذًا﴾ أَيْ: لَوْ ثَبَتُوا ﴿لَّأٓتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾ مِنْ عِنْدِنَا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ٦٧﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ٦٨﴾[2]. قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَيْفَ نَرَاكَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْتَ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَنَحْنُ أَسْفَلُ مِنْكَ؟ فَنَزَلَ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فِيمَا أَمَرَ بِهِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ أَفَاضِلِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ لِمُبَالَغَتِهِمْ فِي الصِّدْقِ وَالتَّصْدِيقِ ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الْقَتْلَى فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ غَيْرِ مَنْ ذُكِرَ ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ رُفَقَاءَ فِي الْجَنَّةِ بِأَنْ يُسْتَمْتَعَ فِيهَا بِرُؤْيَتِهِمْ وَزِيَارَتِهِمْ وَالْحُضُورِ مَعَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَقَرُّهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ[3]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: كَوْنُهُمْ مَعَ مَنْ ذُكِرَ، مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ، لَا أَنَّهُمْ نَالُوهُ

---

(١) وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك. [السعدي (ص:١٨٤)].

(٢) الصراط المستقيم هو الإيمان المؤدي إلى الجنة؛ قاله ابن عطية. وقيل: هو الطريق إلى الجنة. وقيل: الأعمال الصالحة. ولما فسر ابن عطية الصراط المستقيم بالإيمان قال: وجاء ترتيب هذه الآية كذا. ومعلوم أن الهداية قبل إعطاء الأجر؛ لأن المقصد إنما هو تعديد ما كان الله ينعم به عليهم دون ترتيب؛ فالمعنى: وهديناهم قبل حتى يكونوا ممن يؤتى الأجر، انتهى. وأما إذا فسرت الهداية إلى الصراط هنا بأنه طريق الجنة، أو الأعمال الصالحة، فإنه يظهر الترتيب. [أبو حيان (٢/ ٧٥)].

(٣) وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ». قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠). وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأرجو أن يبعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بَلَى

بطاعاتهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ بثواب الآخرة، أي: فثقوا بما أخبركم به، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ مِنْ عدوِّكم، أي: احترزوا منه، وتيقّظوا له ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ انهضوا إلى قتاله ﴿ثُبَاتٍ﴾ متفرِّقين سريّةً بعد أخرى ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ مجتمعين. ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ليتأخّرن عن القتال، كعبد الله بن أُبيٍّ المنافق وأصحابه، وجعله منهم من حيث الظاهر واللّام في الفعل للقسم ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ كقتلٍ وهزيمةٍ ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ حاضرًا فأُصاب. ﴿وَلَئِنْ﴾ لام قسمٍ ﴿أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كفتحٍ وغنيمةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ نادمًا ﴿كَأَن﴾ مخفّفةٌ، واسمها محذوفٌ، أي: كأنّه ﴿لَّمْ يَكُنۢ﴾ بالياء والتاء ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ معرفةٌ وصداقةٌ، وهذا راجعٌ إلى قوله: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾، اعترض به بين القول ومقوله وهو: ﴿يَٰ﴾ للتنبيه ﴿لَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ آخذ حظًّا وافرًا من الغنيمة. قال تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ يُستشهد ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ يظفر بعدوّه ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ ثوابًا جزيلًا. ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ استفهام توبيخٍ، أي: لا مانع لكم من القتال ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ﴾ في تخليص ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الّذين حبسهم الكفّار عن الهجرة وآذوهم، قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: كنت أنا وأمّي منهم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ داعين: يا ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مكّة ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالكفر ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ يتولّى أمورنا ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ يمنعنا منهم، وقد استجاب الله دعاءهم، فيسّر لبعضهم الخروج وبقي بعضهم إلى أن فُتحت مكّة، وولّى عليهم ﷺ عتّاب بن أسيدٍ فأنصف مظلومهم من ظالمهم. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الشّيطان ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ﴾ أنصار دينه، تغلبوهم لقوّتكم بالله ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بالمؤمنين ﴿كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ واهيًا، لا يقاوم كيد الله بالكافرين. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ عن قتال الكفّار، لمّا طلبوه بمكّة لأذى الكفّار لهم، وهم جماعةٌ من الصّحابة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ﴾ يخافون ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الكفّار، أي: عذابهم بالقتل

والّذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين». أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١). [ابن كثير (٢/ ٣٥٥)]. وهذه الآية مفسرة لقوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. [ابن جُزيّ (١/ ١٩٨)].

﴿كَخَشْيَةِ﴾ هِمْ عَذَابَ ﴿ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ مِنْ خَشْيَتِهِمْ لَهُ، وَنُصِبَ ﴿أَشَدَّ﴾ عَلَى الْحَالِ، وَجَوَابُ «لَمَّا» دَلَّ عَلَيْهِ ﴿إِذَا﴾ وَمَا بَعْدَهَا، أَيْ: فَاجَأَتْهُمُ الْخَشْيَةُ ﴿وَقَالُواْ﴾ جَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾ مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا أَوِ الِاسْتِمْتَاعُ بِهَا ﴿قَلِيلٌ﴾ آيِلٌ إِلَى الْفَنَاءِ ﴿وَٱلْأٓخِرَةُ﴾ أَيِ: الْجَنَّةُ ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ عِقَابَ اللهِ بِتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ تُنْقَصُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ﴿فَتِيلًا ۝٧٧﴾ قَدْرَ قِشْرَةِ النَّوَاةِ[1]، فَجَاهِدُوا. ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ حُصُونٍ ﴿مُّشَيَّدَةٍۗ﴾ مُرْتَفِعَةٍ، فَلَا تَخْشَوُا الْقِتَالَ خَوْفَ الْمَوْتِ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودَ ﴿حَسَنَةٌ﴾ خِصْبٌ وَسَعَةٌ ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جَدْبٌ وَبَلَاءٌ، كَمَا حَصَلَ لَهُمْ عِنْدَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ﴾ يَا مُحَمَّدُ، أَيْ: بِشُؤْمِكَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿كُلٌّ﴾ مِنَ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ مِنْ قِبَلِهِ[2] ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ أَيْ: لَا يُقَارِبُونَ أَنْ يَفْهَمُوا ﴿حَدِيثًا ۝٧٨﴾ يُلْقَى إِلَيْهِمْ، وَ«مَا» اسْتِفْهَامُ تَعْجِيبٍ مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ، وَنَفْيُ مُقَارَبَةِ الْفِعْلِ أَشَدُّ مِنْ نَفْيِهِ. ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ خَيْرٍ ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أَتَتْكَ فَضْلًا مِنْهُ ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ بَلِيَّةٍ ﴿فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ أَتَتْكَ، حَيْثُ ارْتَكَبْتَ مَا يَسْتَوْجِبُهَا مِنَ الذُّنُوبِ[3] ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾ عَلَى رِسَالَتِكَ. ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أَعْرَضَ عَنْ طَاعَتِكَ فَلَا يُهِمَّنَّكَ ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ حَافِظًا لِأَعْمَالِهِمْ، بَلْ نَذِيرًا وَإِلَيْنَا أَمْرُهُمْ فَنُجَازِيهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أَيِ: الْمُنَافِقُونَ إِذَا جَاءُوكَ: أَمْرُنَا

---

(١) انظر التعليق على الآية (٤٩) من هذه السورة.

(٢) أي: بقضائه وقدره وخلقه ... فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك. وأن الرسل لا يكونون سببا لشر يحدث، هم ولا ما جاءوا به لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين. [السعدي (ص:١٨٨)].

(٣) المراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ولم يقل «ما أصبت». فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة، فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها. وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال أمر مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر. وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية. قال أبو العالية: «وإن تصبكم حسنة هذا في السراء وإن تصبهم سيئة هذ في الضراء» ... عن ابن عباس: «إن تصبك حسنة الخصب وإن تصبك سيئة الجدب والبلاء». وقال ابن قتيبة في هذه الآية: «الحسنة النعمة والسيئة البلية». [شفاء العليل لابن القيم (٢/ ٢٦)].

﴿طَاعَةٌ﴾ لَكَ ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ﴾ خَرَجُوا ﴿مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الطَّاءِ وَتَرْكِهِ، أَيْ: أَضْمَرَتْ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ لَكَ فِي حُضُورِكَ مِنَ الطَّاعَةِ، أَيْ: عِصْيَانَكَ ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ﴾ يَأْمُرُ بِكَتْبِ ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ فِي صَحَائِفِهِمْ لِيُجَازَوْا عَلَيْهِ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بِالصَّفْحِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثِقْ بِهِ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ مُفَوَّضًا إِلَيْهِ. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ يَتَأَمَّلُونَ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الْبَدِيعَةِ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ تَنَاقُضًا فِي مَعَانِيهِ، وَتَبَايُنًا فِي نَظْمِهِ(١). ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ﴾ عَنْ سَرَايَا النَّبِيِّ ﷺ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ بِالْهَزِيمَةِ ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ أَفْشَوْهُ، نَزَلَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَوْ فِي ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، فَتَضْعُفُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَتَأَذَّى النَّبِيُّ ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أَيِ: الْخَبَرَ ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: ذَوِي الرَّأْيِ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ، أَيْ: لَوْ سَكَتُوا عَنْهُ حَتَّى يُخْبَرُوا بِهِ ﴿لَعَلِمَهُ﴾ هَلْ هُوَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُذَاعَ أَوْ لَا ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ يَتَّبِعُونَهُ وَيَطْلُبُونَ عِلْمَهُ وَهُمُ الْمُذِيعُونَ ﴿مِنْهُمْ﴾ مِنَ الرَّسُولِ وَأُولِي الْأَمْرِ(٢) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لَكُمْ بِالْقُرْآنِ ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ

(١) يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلما ازداد العبد تأملا فيه ازداد علما وعملا وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا. فترى الحكم والقصة والأخبار تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلا. [السعدي (ص:١٨٩)].

(٢) في هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع، وكفى به كذبا، وخصوصا عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء والمقيمين في نحر العدو، وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم، خيرا أو غيره. وقد روى مسلم (٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ». وعند أبي داود (٤٩٩٢): «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا». ... وثمرة الآية أنه يجب كتم ما يضر إظهاره المسلمين، وأن إذاعته قبيحة، وأنه لا يخبر بما لم يعرف صحته، وتدل على تحريم الإرجاف على المسلمين، وعلى أنه يلزم

ٱلْفَوَاحِشِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٣ فَقَٰتِلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فَلَا تَهْتَمَّ بِتَخَلُّفِهِمْ عَنْكَ، ٱلْمَعْنَى: قَاتِلْ وَلَوْ وَحْدَكَ فَإِنَّكَ مَوْعُودٌ بِالنَّصْرِ ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حُثَّهُمْ عَلَى ٱلْقِتَالِ وَرَغِّبْهُمْ فِيهِ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ﴾ حَرْبَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ مِنْهُمْ ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝٨٤﴾ تَعْذِيبًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرُجَنَّ وَلَوْ وَحْدِي»[1]، فَخَرَجَ بِسَبْعِينَ رَاكِبًا إِلَى بَدْرِ ٱلصُّغْرَى فَكَفَّ ٱللهُ بَأْسَ ٱلْكُفَّارِ بِإِلْقَاءِ ٱلرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ وَمَنْعِ أَبِي سُفْيَانَ عَنِ ٱلْخُرُوجِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي «آلِ عِمْرَانَ»[2]. ﴿مَّن يَشْفَعْ﴾ بَيْنَ ٱلنَّاسِ[3] ﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ مُوَافِقَةً لِلشَّرْعِ ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ﴾ مِنَ ٱلْأَجْرِ ﴿مِّنْهَا﴾ بِسَبَبِهَا ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ مُخَالِفَةً لَهُ ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ﴾ نَصِيبٌ مِنَ ٱلْوِزْرِ ﴿مِّنْهَا﴾ بِسَبَبِهَا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ۝٨٥﴾ مُقْتَدِرًا، فَيُجَازِي كُلَّ أَحَدٍ بِمَا عَمِلَ. ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ كَأَنْ قِيلَ لَكُمْ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» ﴿فَحَيُّوا۟﴾ ٱلْمُحَيِّي ﴿بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ بِأَنْ تَقُولُوا لَهُ: «عَلَيْكَ ٱلسَّلَامُ وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ» ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ بِأَنْ تَقُولُوا لَهُ كَمَا قَالَ، أَيِ: ٱلْوَاجِبُ أَحَدُهُمَا وَٱلْأَوَّلُ أَفْضَلُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾ مُحَاسِبًا، فَيُجَازِي عَلَيْهِ وَمِنْهُ رَدُّ ٱلسَّلَامِ، وَخَصَّتِ ٱلسُّنَّةُ: ٱلْكَافِرَ وَٱلْمُبْتَدِعَ وَٱلْفَاسِقَ وَٱلْمُسَلِّمَ عَلَى قَاضِي ٱلْحَاجَةِ وَمَنْ فِي ٱلْحَمَّامِ وَٱلْآكِلِ، فَلَا يَجِبُ ٱلرَّدُّ عَلَيْهِمْ بَلْ يُكْرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْأَخِيرِ، وَيُقَالُ لِلْكَافِرِ: «وَعَلَيْكَ». ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وَٱللهِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مِنْ قُبُورِكُمْ ﴿إِلَىٰ﴾ فِي ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ﴾ لَا شَكَّ ﴿فِيهِ وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ قَوْلًا. وَلَمَّا رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أُحُدٍ ٱخْتَلَفَ ٱلنَّاسُ فِيهِمْ، فَقَالَ فَرِيقٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَ فَرِيقٌ: لَا، فَنَزَلَ: ﴿۞فَمَا لَكُمْ﴾ أَيْ: مَا شَأْنُكُمْ صِرْتُمْ ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ فِرْقَتَيْنِ ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ رَدَّهُمْ ﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ مِنَ ٱلْكُفْرِ وَٱلْمَعَاصِي ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ﴾ ـهُ ﴿ٱللَّهُ﴾ أَيْ: تَعُدُّوهُمْ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْمُهْتَدِينَ؟ وَٱلِاسْتِفْهَامُ فِي ٱلْمَوْضِعَيْنِ لِلْإِنْكَارِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ ـهُ ﴿ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝٨٨﴾ طَرِيقًا إِلَى ٱلْهُدَى. ﴿وَدُّوا۟﴾ تَمَنَّوْا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ﴾ أَنْتُمْ وَهُمْ ﴿سَوَآءً﴾ فِي ٱلْكُفْرِ ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ تُوَالُونَهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا ٱلْإِيمَانَ ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ

الرجوع إلى العلماء في الفتيا، وتدل على صحة القياس والاجتهاد؛ لأنه استنباط. [القاسمي (٣/ ٢٣٥)].

(١) ذكره البغوي عن مجاهد وعكرمة (٢/ ١٣٧)، وابن أبي زمنين (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) الآية (١٧٢).

(٣) أصل الشفاعة والشفعة ونحوهما من «الشفع» وهو الزوج، ومنه الشفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا ... فهي على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفع وإيصال منفعة إلى المشفوع له، والشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة. [الشوكاني (١/ ٥٦٩)].

﴿ٱللَّهِۚ﴾ هِجْرَةً صَحِيحَةً تُحَقِّقُ إِيمَانَهُمْ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وَأَقَامُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾ بِالْأَسْرِ ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا﴾ تُوَالُونَهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ تَنْتَصِرُونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ يَلْجَؤُونَ ﴿إِلَىٰ قَوۡمِۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عَهْدٌ بِالْأَمَانِ لَهُمْ وَلِمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ، كَمَا عَاهَدَ النَّبِيُّ ﷺ هِلَالَ بْنَ عُوَيْمِرٍ الْأَسْلَمِيَّ ﴿أَوۡ﴾ الَّذِينَ ﴿جَآءُوكُمۡ﴾ وَقَدْ ﴿حَصِرَتۡ﴾ ضَاقَتْ ﴿صُدُورُهُمۡ﴾ عَنْ ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ مَعَ قَوْمِهِمْ ﴿أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾ مَعَكُمْ، أَيْ: مُمْسِكِينَ عَنْ قِتَالِكُمْ وَقِتَالِهِمْ، فَلَا تَتَعَرَّضُوا إِلَيْهِمْ بِأَخْذٍ وَلَا قَتْلٍ، وَهَذَا وَمَا بَعْدَهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ[1] ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تَسْلِيطَهُمْ عَلَيْكُمْ ﴿لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ بِأَنْ يُقَوِّيَ قُلُوبَهُمْ ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْهُ، فَأَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الصُّلْحَ، أَيِ: انْقَادُوا ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ طَرِيقًا بِالْأَخْذِ وَالْقَتْلِ. ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ﴾ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ عِنْدَكُمْ ﴿وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ بِالْكُفْرِ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، وَهُمْ أَسَدٌ وَغَطَفَانُ ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ دُعُوا إِلَى الشِّرْكِ ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ وَقَعُوا أَشَدَّ وُقُوعٍ ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾ بِتَرْكِ قِتَالِكُمْ ﴿وَ﴾ لَمْ ﴿يُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَ﴾ لَمْ ﴿يَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ عَنْكُمْ ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾ بِالْأَسْرِ ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾ بُرْهَانًا بَيِّنًا ظَاهِرًا، عَلَى قَتْلِهِمْ وَسَبْيِهِمْ لِغَدْرِهِمْ. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا﴾ أَيْ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْدُرَ مِنْهُ قَتْلٌ لَهُ[2] ﴿إِلَّا خَطَـٔٗاۚ﴾ مُخْطِئًا فِي

---

(١) قيل: هذا منسوخ بآية القتال، وقيل: محكمة محمولة على المعاهدين وهذا هو الظاهر. [صديق حسن (٣/ ١٩٧)]. روي ابن أبي حاتم (٥٧٥٧) عن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم، قال: لما ظهر يعني النبي ﷺ على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأتيته فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صَهْ، فقال النبي ﷺ: «دَعُوهُ، مَا تُرِيدُ؟» قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا، لم تخشن قلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد ابن الوليد فقال: «اذْهَبْ مَعَهُ فَافْعَلْ مَا يُرِيدُ»، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ وإن أسلمت قريش أسلموا، فأنزل الله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾. [ابن كثير (٢/ ٣٧٢)].

(٢) هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمدا، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصا عظيما، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدقه قوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». أخرجه البخاري (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٦). فعلم أن القتل من الكفر العملي وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله. [السعدي (ص:١٩٢)].

قَتْلِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ بِأَنْ قَصَدَ رَمْيَ غَيْرِهِ كَصَيْدٍ أَوْ شَجَرَةٍ فَأَصَابَهُ أَوْ ضَرَبَهُ بِمَا لَا يَقْتُلُ غَالِبًا ﴿فَتَحْرِيرُ﴾ عِتْقُ ﴿رَقَبَةٍ﴾ نَسَمَةٍ ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ عَلَيْهِ ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ مُؤَدَّاةٌ ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ أَيْ: وَرَثَةِ الْمَقْتُولِ ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ۚ﴾ يَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِ بِهَا بِأَنْ يَعْفُوا عَنْهَا، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّهَا مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ: عِشْرُونَ بِنْتُ مَخَاضٍ وَكَذَا بَنَاتُ لَبُونٍ وَبَنُو لَبُونٍ وَحِقَاقٌ وَجِذَاعٌ، وَأَنَّهَا عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِلِ، وَهُمْ عَصَبَتُهُ إِلَّا الْأَصْلَ وَالْفَرْعَ، مُوَزَّعَةً عَلَيْهِمْ عَلَى ثَلَاثِ سِنِينَ عَلَى الْغَنِيِّ مِنْهُمْ نِصْفُ دِينَارٍ وَالْمُتَوَسِّطِ رُبُعٌ كُلَّ سَنَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَفُوا فَمِنْ بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنْ تَعَذَّرَ فَعَلَى الْجَانِي ﴿فَإِن كَانَ﴾ الْمَقْتُولُ ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ﴾ حَرْبٍ ﴿لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ﴾ عَلَى قَاتِلِهِ كَفَّارَةً، وَلَا دِيَةَ تُسَلَّمُ إِلَى أَهْلِهِ لِحِرَابَتِهِمْ ﴿وَإِن كَانَ﴾ الْمَقْتُولُ ﴿مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ عَهْدٌ كَأَهْلِ الذِّمَّةِ ﴿فَدِيَةٌ﴾ لَهُ ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ وَهِيَ ثُلُثُ دِيَةِ الْمُؤْمِنِ إِنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَثُلُثَا عُشْرِهَا إِنْ كَانَ مَجُوسِيًّا(١) ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ﴾ عَلَى قَاتِلِهِ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرَّقَبَةَ بِأَنْ فَقَدَهَا وَمَا يُحَصِّلُهَا بِهِ ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ عَلَيْهِ كَفَّارَةً(٢)، وَلَمْ يَذْكُرِ اللهُ تَعَالَى الِانْتِقَالَ إِلَى الطَّعَامِ كَالظِّهَارِ وَبِهِ أَخَذَ الشَّافِعِي فِي أَصَحِّ قَوْلَيْهِ ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ. ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ بِأَنْ يَقْصِدَ قَتْلَهُ بِمَا يَقْتُلُ غَالِبًا عَالِمًا بِإِيمَانِهِ ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ فِي النَّارِ، وَهَذَا مُؤَوَّلٌ بِمَنْ يَسْتَحِلُّهُ، أَوْ بِأَنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جُوزِيَ، وَلَا بِدْعَ فِي خُلْفِ الْوَعِيدِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا عَلَى ظَاهِرِهَا،

---

(١) المعنى عند الحسن، وجابر بن زيد، وإبراهيم، وغيرهم: وإن كان هذا المقتول خطأ مؤمنا من قوم معاهدين لكم، فعهدهم يوجب أنهم أحق بدية صاحبهم، فكفارته التحرير وأداء الدية، وقرأ الحسن: «وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق وهو مؤمن» وقال ابن عباس، والشعبي، وإبراهيم أيضا: المقتول من أهل العهد خطأ لا يبالى كان مؤمنا أو كافرا على عهد قومه، فيه الدية كدية المسلم، ... واختلف على هذا في دية المعاهد، فقال أبو حنيفة وغيره: ديته كدية المسلم، وروي ذلك عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال مالك وأصحابه: ديته على نصف دية المسلم، وقال الشافعي، وأبو ثور: ديته على ثلث دية المسلم. [ابن عطية (٢/ ٩٣)].

(٢) أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم. [السعدي (ص:١٩٢)].

وَأَنَّهَا نَاسِخَةٌ لِغَيْرِهَا مِنْ آيَاتِ الْمَغْفِرَةِ[1]. وَبَيَّنَتْ آيَةُ الْبَقَرَةِ[2] أَنَّ قَاتِلَ الْعَمْدِ يُقْتَلُ بِهِ وَأَنَّ عَلَيْهِ الدِّيَةُ إِنْ عُفِيَ عَنْهُ، وَسَبَقَ قَدْرُهَا، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّ بَيْنَ الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ قَتْلًا يُسَمَّى شِبْهَ الْعَمْدِ وَهُوَ أَنْ يَقْتُلَهُ بِمَا لَا يَقْتُلُ غَالِبًا، فَلَا قِصَاصَ فِيهِ بَلْ دِيَةٌ كَالْعَمْدِ فِي الصِّفَةِ، وَالْخَطَأِ فِي التَّأْجِيلِ وَالْحَمْلِ، وَهُوَ وَالْعَمْدُ أَوْلَى بِالْكَفَّارَةِ مِنَ الْخَطَأِ. وَنَزَلَ لَمَّا مَرَّ نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ وَهُوَ يَسُوقُ غَنَمًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْنَا إِلَّا تَقِيَّةً، فَقَتَلُوهُ وَاسْتَاقُوا غَنَمَهُ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ**﴾ سَافَرْتُمْ لِلْجِهَادِ ﴿**فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ**﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَتَثَبَّتُواْ﴾ بِالْمُثَلَّثَةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿**وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ**﴾ بِأَلِفٍ وَدُونِهَا، أَيِ: التَّحِيَّةَ أَوِ الِانْقِيَادَ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ الَّتِي هِيَ أَمَارَةٌ عَلَى إِسْلَامِهِ ﴿**لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا**﴾ وَإِنَّمَا قُلْتَ هَذَا تَقِيَّةً لِنَفْسِكَ وَمَالِكَ، فَتَقْتُلُوهُ ﴿**تَبۡتَغُونَ**﴾ تَطْلُبُونَ بِذَلِكَ ﴿**عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا**﴾ مَتَاعَهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿**فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ**﴾ تُغْنِيكُمْ عَنْ قَتْلِ مِثْلِهِ لِمَالِهِ ﴿**كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ**﴾ تُعْصَمُ دِمَاؤُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكُمُ الشَّهَادَةَ ﴿**فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ**﴾ بِالِاشْتِهَارِ بِالْإِيمَانِ وَالِاسْتِقَامَةِ ﴿**فَتَبَيَّنُوٓاْۚ**﴾ أَنْ تَقْتُلُوا مُؤْمِنًا، وَافْعَلُوا بِالدَّاخِلِ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا فُعِلَ بِكُمْ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤**﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿**لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ**﴾ عَنِ الْجِهَادِ ﴿**غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ**﴾ بِالرَّفْعِ صِفَةٌ وَالنَّصْبِ اسْتِثْنَاءٌ، مِنْ زَمَانَةٍ أَوْ عَمًى أَوْ نَحْوِهِ ﴿**وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ**﴾ لِضَرَرٍ ﴿**دَرَجَةٗۚ**﴾ فَضِيلَةً لِاسْتِوَائِهِمَا فِي النِّيَّةِ وَزِيَادَةِ الْمُجَاهِدِينَ بِالْمُبَاشَرَةِ ﴿**وَكُلّٗا**﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ**﴾ الْجَنَّةَ ﴿**وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ**﴾ لِغَيْرِ ضَرَرٍ ﴿**أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥**﴾. وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿**دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ**﴾ مَنَازِلَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنَ الْكَرَامَةِ ﴿**وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ**﴾ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا

---

(١) الصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في «المدارج» فإنه قال – بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها – فقال: وقالت فِرقَة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضي الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه. وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين. ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتبارًا بمقتضي العقاب ومانعه، وإعمالا لأرجحها. [السعدي (ص:١٩٣)].

(٢) سورة البقرة آية (١٧٨).

ٱلْمُقْدَّرِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ. وَنَزَلَ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا، فَقُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ ٱلْكُفَّارِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بِالْمُقَامِ مَعَ ٱلْكُفَّارِ وَتَرْكِ ٱلْهِجْرَةِ ﴿قَالُوا۟﴾ لَهُمْ مُوَبِّخِينَ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ أَيْ: فِي أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ فِي أَمْرِ دِينِكُمْ؟ ﴿قَالُوا۟﴾ مُعْتَذِرِينَ: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ عَاجِزِينَ عَنْ إِقَامَةِ ٱلدِّينِ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مَكَّةَ، ﴿قَالُوٓا۟﴾ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ مِنْ أَرْضِ ٱلْكُفْرِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ كَمَا فَعَلَ غَيْرُكُمْ؟ قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ هِيَ[1]. ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ ٱلَّذِينَ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَى ٱلْهِجْرَةِ وَلَا نَفَقَةَ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ طَرِيقًا إِلَى أَرْضِ ٱلْهِجْرَةِ. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ *وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾ مُهَاجَرًا ﴿كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ فِي ٱلرِّزْقِ[2] ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ فِي ٱلطَّرِيقِ، كَمَا وَقَعَ لِجُنْدُعِ بْنِ ضَمْرَةَ ٱللَّيْثِيِّ ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ ثَبَتَ ﴿أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سَافَرْتُمْ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فِي ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بِأَنْ تَرُدُّوهَا مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى ٱثْنَتَيْنِ ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ﴾ أَيْ: يَنَالَكُمْ بِمَكْرُوهٍ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ إِذْ ذَاكَ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، وَبَيَّنَتِ ٱلسُّنَّةُ أَنَّ ٱلْمُرَادَ بِالسَّفَرِ: ٱلطَّوِيلُ، وَهُوَ: أَرْبَعُ بُرُدٍ وَهِيَ مَرْحَلَتَانِ، وَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أَنَّهُ رُخْصَةٌ لَا وَاجِبٌ، وَعَلَيْهِ ٱلشَّافِعِيُّ[3] ﴿إِنَّ

---

(١) هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات ... واستثنى المستضعفين حقيقة. ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦] قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجِب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع. وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر. [السعدي (ص:١٩٥)].

(٢) أي: في البلاد، وقيل: بالرزق، وقال: عطاء سعة، أي: رخاء، وقيل: في إظهار الدين، أو في تبدل الخوف بالأمن، أو من الضلال إلى الهدى، ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك. [صديق حسن (٣/٢١٨)].

(٣) ذهب الجمهور إلى أن الآية عني بها تشريع صلاة السفر، وإن معنى قوله تعالى: ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ هو قصر الكمية، وذلك بأن تجعل الرباعية ثنائية، قالوا: وحكمها لمسافر في حال الأمن كحكمها في حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقا. عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين، فصلى ركعتين. أخرجه الترمذي (٥٤٧). وعن أنس رضي الله عنه

﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ١٠١﴾ بَيِّنِي الْعَدَاوَةِ. ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ حَاضِرًا[1] ﴿فِيهِمۡ﴾ وَأَنْتُمْ تَخَافُونَ الْعَدُوَّ ﴿فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وَهَذَا جَرْيٌ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي الْخِطَابِ، فَلَا مَفْهُومَ لَهُ[2] ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾ وَتَتَأَخَّرْ طَائِفَةٌ ﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ﴾ أَيِ: الطَّائِفَةُ الَّتِي قَامَتْ مَعَكَ ﴿أَسۡلِحَتَهُمۡۖ﴾ مَعَهُمْ ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أَيْ: صَلَّوْا ﴿فَلۡيَكُونُواْ﴾ أَيِ: الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى ﴿مِن وَرَآئِكُمۡ﴾ يَحْرُسُونَ إِلَى أَنْ تَقْضُوا الصَّلَاةَ، وَتَذْهَبَ هَذِهِ الطَّائِفَةُ تَحْرُسُ ﴿وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ مَعَهُمْ إِلَى أَنْ تَقْضُوا الصَّلَاةَ، وَقَدْ فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ كَذَلِكَ بِبَطْنِ نَخْلٍ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[3] ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ﴾ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴿عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ بِأَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْكُمْ فَيَأْخُذُوكُمْ، وَهَذَا عِلَّةُ الْأَمْرِ بِأَخْذِ السِّلَاحِ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ﴾

قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئا؟ قال: أقمنا بها عشرا. أخرجه البخاري (١٠٨١)، ومسلم (٦٩٣). وحينئذ فقوله تعالى: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ خرج مخرج الغالب حال نزول الآية؛ إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة في مبدئها مخوفة. ويدل على أن المراد بالآية صلاة السفر [حديث] يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب، قلت له: قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ». أخرجه مسلم (٦٨٦). [القاسمي (٣/ ٢٩٨)].

(١) ظاهرها يقتضي أنها لا تصلى بعد رسول الله ﷺ لأنه شرط كونه فيهم، وبذلك قال أبو يوسف، وأجازها الجمهور بعده ﷺ، لأنهم رأوا أن الخطاب له يتناول أمته، وقد فعلها الصحابة بعده ﷺ، واختلف الناس في صلاة الخوف على عشرة أقوال، لاختلاف الأحاديث فيها، ولسنا نضطر إلى ذكرها فإن تفسيرها لا يتوقف على ذلك، وكانت صلاة رسول الله ﷺ لصلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع. [ابن جُزَيّ (١/ ٢٠٧)]. فإن الأئمة بعده ﷺ نوابه، وقوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ [التوبة: ١٠٣]. وعن ثعلبة بن زهدم قال: كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقال: أيكم صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا، ثم وصف له ذلك، فصلوا كما وصف، ولم يقضوا. أخرجه أبو داود (١٢٤٦)، والنسائي (١٥٣٠)، وأحمد (٢٣٣٨٩). وكان ذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم ولم ينكره أحد منهم، وهم الذين لا تأخذهم في الله تعالى لومة لائم، وهذا يحل محل الإجماع، ويرد ما زعمه المزني من دعوى النسخ أيضا. [الآلوسي (٣/ ١٢٩)].

(٢) أي: فأردت أن تقيم الصلاة بهم. [النسفي (١/ ٣٩١)].

(٣) أخرجه البخاري (٤١٣٧)، ومسلم (٨٤٠).

فَلَا تَحْمِلُوهَا، وَهَذَا يُفِيدُ إِيجَابَ حَمْلِهَا عِنْدَ عَدَمِ الْعُذْرِ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْنِ لِلشَّافِعِيِّ، وَالثَّانِي أَنَّهُ سُنَّةٌ وَرُجِّحَ ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ﴾ مِنَ الْعَدُوِّ، أَيْ: احْتَرِزُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٠٢﴾ ذَا إِهَانَةٍ. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فَرَغْتُمْ مِنْهَا ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ مُضْطَجِعِينَ، أَيْ: فِي كُلِّ حَالٍ ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ أَمِنْتُمْ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ أَدُّوهَا بِحُقُوقِهَا ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا﴾ مَكْتُوبًا، أَيْ: مَفْرُوضًا ﴿مَّوْقُوتًا ١٠٣﴾ أَيْ: مُقَدَّرًا وَقْتُهَا، فَلَا تُؤَخَّرُ عَنْهُ. وَنَزَلَ لَمَّا بَعَثَ ﷺ طَائِفَةً فِي طَلَبِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، لَمَّا رَجَعُوا مِنْ أُحُدٍ فَشَكَوُا الْجِرَاحَاتِ ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ تَضْعُفُوا ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ﴾ طَلَبِ ﴿ٱلْقَوْمِۖ﴾ الْكُفَّارِ لِتُقَاتِلُوهُمْ ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ﴾ تَجِدُونَ أَلَمَ الْجِرَاحِ ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَۖ﴾ أَيْ: مِثْلَكُمْ، وَلَا يَجْبُنُونَ عَنْ قِتَالِكُمْ ﴿وَتَرْجُونَ﴾ أَنْتُمْ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالثَّوَابِ عَلَيْهِ ﴿مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾ هُمْ، فَأَنْتُمْ تَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونُوا أَرْغَبَ مِنْهُمْ فِيهِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿حَكِيمًا ١٠٤﴾ فِي صُنْعِهِ. وَسَرَقَ طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ دِرْعًا وَخَبَّأَهَا عِنْدَ يَهُودِيٍّ، فَوُجِدَتْ عِنْدَهُ فَرَمَاهُ طُعْمَةُ بِهَا وَحَلَفَ أَنَّهُ مَا سَرَقَهَا، فَسَأَلَ قَوْمُهُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُجَادِلَ عَنْهُ وَيُبَرِّئَهُ، فَنَزَلَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «أَنْزَلَ» ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿ٱللَّهُۚ﴾ فِيهِ ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ كَطُعْمَةَ ﴿خَصِيمًا ١٠٥﴾ مُخَاصِمًا عَنْهُمْ. ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾ يَخُونُونَهَا بِالْمَعَاصِي؛ لِأَنَّ وَبَالَ خِيَانَتِهِمْ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ كَثِيرَ الْخِيَانَةِ ﴿أَثِيمًا ١٠٧﴾ أَيْ: يُعَاقِبُهُ[1]. ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ أَيْ: طُعْمَةُ وَقَوْمُهُ حَيَاءً ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ بِعِلْمِهِ ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يُضْمِرُونَ ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ﴾ مِنْ عَزْمِهِمْ عَلَى الْحَلِفِ عَلَى نَفْيِ السَّرِقَةِ، وَرَمْيِ الْيَهُودِيِّ بِهَا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ عِلْمًا. ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ يَا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خِطَابٌ لِقَوْمِ طُعْمَةَ ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ خَاصَمْتُمْ ﴿عَنْهُمْ﴾ أَيْ: عَنْ طُعْمَةَ وَذَوِيهِ، وَقُرِئَ: ﴿عَنْهُ﴾[2]، ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إِذَا عَذَّبَهُمْ؟ ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩﴾ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَيَذُبُّ عَنْهُمْ؟ أَيْ: لَا أَحَدَ يَفْعَلُ ذَلِكَ. ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ ذَنْبًا يَسُوءُ بِهِ غَيْرَهُ، كَرَمْيِ طُعْمَةَ الْيَهُودِيَّ ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ يَعْمَلْ ذَنْبًا قَاصِرًا عَلَيْهِ ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾

---

(١) هذا تفسير لعدم محبة الله بلازمها وهي العقوبة، وهذا لا ينافي أن يكون المراد به حقيقة الصفة، وهي: عدم المحبة.

(٢) قراءة شاذة.

مِنْهُ، أَيْ: يَتُبْ، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا﴾ لَهُ ﴿رَّحِيمًا ١١٠﴾ بِهِ. ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ ذَنْبًا ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ لِأَنَّ وَبَالَهُ عَلَيْهَا، وَلَا يَضُرُّ غَيْرَهُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١١﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ ذَنْبًا صَغِيرًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ذَنْبًا كَبِيرًا(١) ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ مِنْهُ ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾ تَحَمَّلَ ﴿بُهْتَٰنًا﴾ بِرَمْيِهِ ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ١١٢﴾ بَيِّنًا يَكْسِبُهُ. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بِالْعِصْمَةِ ﴿لَهَمَّت﴾ أَضْمَرَتْ ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ مِنْ قَوْمِ طُعْمَةَ ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عَنِ الْقَضَاءِ بِالْحَقِّ، بِتَلْبِيسِهِمْ عَلَيْكَ ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَىْءٍ﴾ لِأَنَّ وَبَالَ إِضْلَالِهِمْ عَلَيْهِمْ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْغَيْبِ ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾ بِذَلِكَ وَغَيْرِهِ ﴿عَظِيمًا ١١٣﴾ *﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ أَيِ: النَّاسِ، أَيْ: مَا يَتَنَاجَوْنَ فِيهِ وَيَتَحَدَّثُونَ ﴿إِلَّا﴾ نَجْوَى ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ عَمَلِ بِرٍّ ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورَ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ طَلَبَ ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لَا غَيْرِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَيِ: اللهُ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ١١٤ وَمَن يُشَاقِقِ﴾ يُخَالِفْ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ بِالْمُعْجِزَاتِ ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ طَرِيقًا ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: طَرِيقِهِمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ(٢)، بِأَنْ يَكْفُرَ ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نَجْعَلْهُ وَالِيًا لِمَا تَوَلَّاهُ مِنَ الضَّلَالِ، بِأَنْ نُخَلِّيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَنُصْلِهِۦ﴾ نُدْخِلْهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ فَيَحْتَرِقَ فِيهَا ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾ مَرْجِعًا هِيَ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ عَنِ الْحَقِّ(٣). ﴿إِن﴾ مَا ﴿يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيِ: اللهِ، أَيْ: غَيْرِهِ ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ أَصْنَامًا

---

(١) قيل: هما بمعنى واحد كرر للتأكيد، وقال الطبري: إن الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد، وقيل: الخطيئة الصغيرة، والإثم الكبيرة، وقيل: الأول ذنب بينه وبين ربه والثاني ذنب في مظالم العباد، وقيل: الخطيئة هي المختصة بفاعله والإثم المتعدي، إلى الغير. [صديق حسن (٣/ ٢٣٥)].

(٢) هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقا، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم ﷺ وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة ... ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات. [ابن كثير (٢/ ٤١٢)].

(٣) انظر التعليق على آية (٤٨) من هذه السورة.

مُؤَنَّثَةً، كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ ﴿وَإِن﴾ مَا ﴿يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ بِعِبَادَتِهَا ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ خَارِجًا عَنِ الطَّاعَةِ لِطَاعَتِهِمْ لَهُ فِيهَا وَهُوَ إِبْلِيسُ. ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أَبْعَدَهُ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَقَالَ﴾ أَيِ: الشَّيْطَانُ ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ لَأَجْعَلَنَّ لِي ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾ حَظًّا ﴿مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ مَقْطُوعًا، أَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِي. ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عَنِ الْحَقِّ بِالْوَسْوَسَةِ ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أُلْقِي فِي قُلُوبِهِمْ طُولَ الْحَيَاةِ، وَأَنْ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ﴿وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ يُقَطِّعُنَّ ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ وَقَدْ فُعِلَ ذَلِكَ بِالْبَحَائِرِ ﴿وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ دِينَهُ بِالْكُفْرِ، وَإِحْلَالِ مَا حَرَّمَ اللهُ وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ(١) ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا﴾ يَتَوَلَّاهُ وَيُطِيعُهُ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ بَيِّنًا، لِمَصِيرِهِ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِ. ﴿يَعِدُهُمْ﴾ طُولَ الْعُمُرِ ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ نَيْلَ الْآمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ لَا بَعْثَ وَلَا جَزَاءَ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بِذَلِكَ ﴿إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ بَاطِلًا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ مَعْدِلًا. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أَيْ: وَعَدَهُمُ اللهُ ذَلِكَ وَحَقَّهُ حَقًّا ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ أَيْ: قَوْلًا. وَنَزَلَ لَمَّا افْتَخَرَ الْمُسْلِمُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ ﴿لَّيْسَ﴾ الْأَمْرُ مَنُوطًا ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بَلْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ إِمَّا فِي الْآخِرَةِ، أَوْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَلَاءِ وَالْمِحَنِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ(٢) ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿وَلِيًّا﴾ يَحْفَظُهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ يَمْنَعُهُ مِنْهُ. ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ شَيْئًا ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ ﴿ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ قَدْرَ نَقْرَةِ النَّوَاةِ. ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ أَيِ: انْقَادَ وَأَخْلَصَ عَمَلَهُ ﴿لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُوَحِّدٌ ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الْمُوَافِقَةَ لِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ ﴿حَنِيفًا﴾ حَالٌ، أَيْ: مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ

---

(١) اختلف العلماء في هذا التغيير ما هو فقالت طائفة: هو الخصي وفقء العين وقطع الأذن، وقال آخرون: إن المراد هو أن الله سبحانه خلق الشمس والقمر والأحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة وبه قال الزجاج، وقيل: المراد تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وقيل: نفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغير الشيب بالسواد، أو بالتحريم والتحليل، أو بالتخنث، أو بتغيير دين الإسلام، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملاً شمولياً أو بدلياً. [صديق حسن (٣/ ٢٤٥)].

(٢) المقصود حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه: قلت: يا رسول الله بأبي وأمي وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزون بكل سوء عملنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ وَأَصْحَابُكَ فَتُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقَوْا اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَيْسَتْ لَكُمْ ذُنُوبٌ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَيُجْمَعُ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أخرجه الترمذي (٣٠٣٩)، وأحمد (٢٣).

كُلِّهَا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾ صَفِيًّا خَالِصَ الْمَحَبَّةِ لَهُ(١). ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ١٢٦﴾ عِلْمًا وَقُدْرَةً، أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ يَطْلُبُونَ مِنْكَ الْفَتْوَى ﴿فِى﴾ شَأْنِ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ وَمِيرَاثِهِنَّ ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ مِنْ آيَةِ الْمِيرَاثِ، وَيُفْتِيكُمْ أَيْضًا ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿لَهُنَّ﴾ مِنَ الْمِيرَاثِ ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ عَنْ ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ لِدَمَامَتِهِنَّ، وَتَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَتَزَوَّجْنَ طَمَعًا فِي مِيرَاثِهِنَّ، أَيْ: يُفْتِيكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا ذَلِكَ ﴿وَ﴾ فِي ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الصِّغَارِ ﴿مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أَنْ تُعْطُوهُمْ حُقُوقَهُمْ ﴿وَ﴾ وَيَأْمُرُكُمْ ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ فِي الْمِيرَاثِ وَالْمَهْرِ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ١٢٧﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾ مَرْفُوعٌ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ ﴿خَافَتْ﴾ تَوَقَّعَتْ ﴿مِنۢ بَعْلِهَا﴾ زَوْجِهَا ﴿نُشُوزًا﴾ تَرَفُّعًا عَلَيْهَا بِتَرْكِ مُضَاجَعَتِهَا وَالتَّقْصِيرِ فِي نَفَقَتِهَا، لِبُغْضِهَا وَطُمُوحِ عَيْنِهِ إِلَى أَجْمَلَ مِنْهَا ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عَنْهَا بِوَجْهِهِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَصَّٰلَحَا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُصْلِحَا﴾ مِنْ «أَصْلَحَ» ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ فِي الْقَسْمِ وَالنَّفَقَةِ، بِأَنْ تَتْرُكَ لَهُ شَيْئًا طَلَبًا لِبَقَاءِ الصُّحْبَةِ، فَإِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ وَإِلَّا فَعَلَى الزَّوْجِ أَنْ يُوَفِّيَهَا حَقَّهَا أَوْ يُفَارِقَهَا ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالنُّشُوزِ وَالْإِعْرَاضِ، قَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ شِدَّةَ الْبُخْلِ، أَيْ: جُبِلَتْ عَلَيْهِ فَكَأَنَّهَا حَاضِرَتُهُ لَا تَغِيبُ عَنْهُ، الْمَعْنَى: أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَكَادُ تَسْمَحُ بِنَصِيبِهَا مِنْ زَوْجِهَا، وَالرَّجُلُ لَا يَكَادُ يَسْمَحُ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ إِذَا أَحَبَّ غَيْرَهَا ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ عِشْرَةَ النِّسَاءِ ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الْجَوْرَ عَلَيْهِنَّ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٢٨﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ تُسَوُّوا ﴿بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فِي الْمَحَبَّةِ ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ إِلَى الَّتِي تُحِبُّونَهَا فِي الْقَسْمِ وَالنَّفَقَةِ ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ أَيْ: تَتْرُكُوا الْمُمَالَ عَنْهَا ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ الَّتِي لَا هِيَ أَيِّمٌ وَلَا هِيَ ذَاتُ بَعْلٍ ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ بِالْعَدْلِ بِالْقَسْمِ ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الْجَوْرَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لِمَا فِي قَلْبِكُمْ مِنَ الْمَيْلِ ﴿رَّحِيمًا ١٢٩﴾ بِكُمْ فِي ذَلِكَ. ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ أَيِ: الزَّوْجَانِ بِالطَّلَاقِ ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ عَنْ صَاحِبِهِ ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أَيْ: فَضْلِهِ،

---

(١) الخُلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلا لأنه وفَّى بما أُمر به وقام بما ابْتُلي به، فجعله الله إماما للناس، واتخذه خليلا، ونوه بذكره في العالمين. [السعدي (ص:٢٠٦)].

بِأَنْ يَرْزُقَهَا زَوْجًا غَيْرَهُ وَيَرْزُقَهُ غَيْرَهَا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ لِخَلْقِهِ فِي الْفَضْلِ ﴿حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ فِيمَا دَبَّرَ لَهُمْ. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بِمَعْنَى الْكُتُبِ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ أَيْ: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ ﴿أَنِ﴾ أَيْ: بِأَنِ ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ خَافُوا عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿وَ﴾ قُلْنَا لَهُمْ وَلَكُمْ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾ بِمَا وُصِّيتُمْ بِهِ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقًا وَمُلْكًا وَعَبِيدًا، فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عَنْ خَلْقِهِ وَعِبَادَتِهِمْ ﴿حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ مَحْمُودًا فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا لِتَقْرِيرِ مُوجِبِ التَّقْوَى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ شَهِيدًا بِأَنَّ مَا فِيهِمَا لَهُ. ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يَا ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ بَدَلَكُمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لِمَنْ أَرَادَهُ لَا عِنْدَ غَيْرِهِ، فَلِمَ يَطْلُبُ أَحَدُهُمَا الْأَخَسَّ، وَهَلَّا طَلَبَ الْأَعْلَى بِإِخْلَاصِهِ لَهُ، حَيْثُ كَانَ مَطْلَبُهُ لَا يُوجَدُ إِلَّا عِنْدَهُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ *﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ﴾ قَائِمِينَ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿شُهَدَآءَ﴾ بِالْحَقِّ ﴿لِلَّهِ وَلَوْ﴾ كَانَتِ الشَّهَادَةُ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فَاشْهَدُوا عَلَيْهَا بِأَنْ تُقِرُّوا بِالْحَقِّ وَلَا تَكْتُمُوهُ ﴿أَوِ﴾ عَلَى ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ﴾ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ مِنْكُمْ، وَأَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمَا ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ فِي شَهَادَتِكُمْ بِأَنْ تُحَابُوا الْغَنِيَّ لِرِضَاهُ أَوِ الْفَقِيرَ رَحْمَةً لَهُ لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿تَعْدِلُوا۟﴾ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِحَذْفِ الْوَاوِ الْأُولَى تَخْفِيفًا ﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ عَنْ أَدَائِهَا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟﴾ دَاوِمُوا عَلَى الْإِيمَانِ ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ عَلَى الرُّسُلِ، بِمَعْنَى: الْكُتُبِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ فِي الْفِعْلَيْنِ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بِمُوسَى وَهُمُ الْيَهُودُ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ بَعْدَهُ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بِعِيسَى ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بِمُحَمَّدٍ ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ مَا أَقَامُوا عَلَيْهِ ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ طَرِيقًا إِلَى الْحَقِّ[1].

---

(١) قيل: هي في المنافقين لترددهم بين الإيمان والكفر، وقيل: في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم ثم كفروا بمحمد ﷺ، والأول أرجح؛ لأن الكلام من هنا فيهم، والأظهر أنها فيمن آمن بمحمد ﷺ، ثم ارتد ثم عاد إلى الإيمان، ثم ارتد وازداد كفراً ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذلك فيمن علم الله أنه يموت على كفره، وقد يكون إضلالهم عقاباً لهم بسوء أفعالهم. [ابن جُزَيّ (١/ ٢١٣)].

﴿بَشِّرِ﴾ أَخبِرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ مُؤْلِمًا هُوَ عَذَابُ النَّارِ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بَدَلٌ أَوْ نَعْتٌ لِلْمُنَافِقِينَ ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِمَا يَتَوَهَّمُونَ فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ يَطْلُبُونَ ﴿عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، أَيْ: لَا يَجِدُونَهَا عِنْدَهُمْ ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَا يَنَالُهَا إِلَّا أَوْلِيَاؤُهُ. ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ»(١) ﴿أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ أَيِ: الْكَافِرِينَ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا﴾ إِنْ قَعَدْتُمْ مَعَهُمْ ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ فِي الْإِثْمِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ كَمَا اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ يَنْتَظِرُونَ ﴿بِكُمْ﴾ الدَّوَائِرَ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ ظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟﴾ لَكُمْ: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ فِي الدِّينِ وَالْجِهَادِ؟ فَأَعْطُونَا مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ مِنَ الظَّفَرِ عَلَيْكُمْ ﴿قَالُوٓا۟﴾ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ نَسْتَوْلِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وَنَقْدِرْ عَلَى أَخْذِكُمْ وَقَتْلِكُمْ فَأَبْقَيْنَا عَلَيْكُمْ ﴿وَ﴾ أَلَمْ ﴿نَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنْ يَظْفَرُوا بِكُمْ، بِتَخْذِيلِهِمْ وَمُرَاسَلَتِكُمْ بِأَخْبَارِهِمْ؟ فَلَنَا عَلَيْكُمُ الْمِنَّةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَهُمْ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بِأَنْ يُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ وَيُدْخِلَهُمُ النَّارَ ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ طَرِيقًا بِالِاسْتِئْصَالِ. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بِإِظْهَارِ خِلَافِ مَا أَبْطَنُوهُ مِنَ الْكُفْرِ، لِيَدْفَعُوا عَنْهُمْ أَحْكَامَهُ الدُّنْيَوِيَّةَ ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ فَيُجَازِيهِمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ، فَيُفْتَضَحُونَ فِي الدُّنْيَا بِإِطْلَاعِ اللهِ نَبِيَّهُ عَلَى مَا أَبْطَنُوهُ، وَيُعَاقَبُونَ فِي الْآخِرَةِ(٢) ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ مُتَثَاقِلِينَ ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بِصَلَاتِهِمْ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ يُصَلُّونَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ رِيَاءً. ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ مُتَرَدِّدِينَ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ﴿لَآ﴾ مَنْسُوبِينَ ﴿إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ ﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ ـهُ ﴿ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِمُوَالَاتِهِمْ ﴿سُلْطَٰنًا

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

(٢) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم، والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان، مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر، استدراجًا منه لهم في الدنيا، حتى يلقوه في الآخرة، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم. [الطبري (٧/ ٦١١)].

مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ بُرْهَانًا بَيِّنًا عَلَى نِفَاقِكُمْ. ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ﴾ اَلْمَكَانِ ﴿ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وَهُوَ قَعْرُهَا ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ مَانِعًا مِنَ اَلْعَذَابِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ مِنَ اَلنِّفَاقِ ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ عَمَلَهُمْ ﴿وَٱعْتَصَمُواْ﴾ وَثِقُوا ﴿بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ مِنَ اَلرِّيَاءِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِيمَا يُؤْتَوْنَهُ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ فِي اَلْآخِرَةِ، وَهُوَ اَلْجَنَّةُ. ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ نِعَمَهُ ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ بِهِ وَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى اَلنَّفْيِ، أَيْ: لَا يُعَذِّبُكُمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ لِأَعْمَالِ اَلْمُؤْمِنِينَ بِالْإِثَابَةِ ﴿عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مِنْ أَحَدٍ، أَيْ: يُعَاقِبُ عَلَيْهِ(١) ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فَلَا يُؤَاخِذُهُ بِالْجَهْرِ بِهِ، بِأَنْ يُخْبِرَ عَنْ ظُلْمِ ظَالِمِهِ وَيَدْعُو عَلَيْهِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ بِمَا يُفْعَلُ. ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ تُظْهِرُوا ﴿خَيْرًا﴾ مِنْ أَعْمَالِ اَلْبِرِّ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تَعْمَلُوهُ سِرًّا ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ ظُلْمٍ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ دُونَهُمْ ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾ مِنَ اَلرُّسُلِ ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ اَلْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ﴿سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ طَرِيقًا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِمَضْمُونِ اَلْجُمْلَةِ قَبْلَهُ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ ذَا إِهَانَةٍ، وَهُوَ عَذَابُ اَلنَّارِ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ كُلِّهِمْ ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اَلْيَهُودُ ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جُمْلَةً، كَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى تَعَنُّتًا، فَإِنِ اِسْتَكْبَرْتَ ذَلِكَ ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ﴾ أَيْ: آبَاؤُهُمْ ﴿مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ﴾ أَعْظَمَ ﴿مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عِيَانًا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ اَلْمَوْتُ عِقَابًا لَهُمْ ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ حَيْثُ تَعَنَّتُوا فِي اَلسُّؤَالِ ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ إِلَهًا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ اَلْمُعْجِزَاتُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اَللهِ ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ وَلَمْ نَسْتَأْصِلْهُمْ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ تَسَلُّطًا بَيِّنًا ظَاهِرًا عَلَيْهِمْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ تَوْبَةً فَأَطَاعُو. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ اَلْجَبَلَ ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ بِسَبَبِ أَخْذِ اَلْمِيثَاقِ عَلَيْهِمْ لِيَخَافُوا فَيَقْبَلُوهُ ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ وَهُوَ مُظِلٌّ

---

(١) يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله. ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين. [السعدي (ص:٢١٢)].

عَلَيْهِمْ ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ﴾ أَيْ: بَابَ الْقَرْيَةِ ﴿سُجَّدًا﴾ سُجُودَ انْحِنَاءٍ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ، وَفِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ، أَيْ: «لَا تَعْتَدُوا» ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ بِاصْطِيَادِ الْحِيتَانِ فِيهِ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝١٥٤﴾ عَلَى ذَلِكَ فَنَقَضُوهُ. ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ «مَا» زَائِدَةٌ، وَالْبَاءُ: لِلسَّبَبِيَّةِ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ، أَيْ: لَعَنَّاهُمْ بِسَبَبِ نَقْضِهِمِ ﴿مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ لَا تَعِي كَلَامَكَ ﴿بَلْ طَبَعَ﴾ خَتَمَ ﴿ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فَلَا تَعِي وَعْظًا ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥﴾ مِنْهُمْ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ. ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ ثَانِيًا بِعِيسَى، وَكَرَّرَ الْبَاءَ لِلْفَصْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ حَيْثُ رَمَوْهَا بِالزِّنَى. ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ مُفْتَخِرِينَ: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فِي زَعْمِهِمْ، أَيْ: بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ عَذَّبْنَاهُمْ، قَالَ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ فِي قَتْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ الْمَقْتُولُ وَالْمَصْلُوبُ وَهُوَ صَاحِبُهُمْ بِعِيسَى، أَيْ: أَلْقَى اللهُ عَلَيْهِ شَبَهَهُ فَظَنُّوهُ إِيَّاهُ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أَيْ: فِي عِيسَى ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ مِنْ قَتْلِهِ، حَيْثُ قَالَ بَعْضُهُمْ لَمَّا رَأَوُا الْمَقْتُولَ: الْوَجْهُ وَجْهُ عِيسَى وَالْجَسَدُ لَيْسَ بِجَسَدِهِ فَلَيْسَ بِهِ(١)، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ هُوَ ﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾ بِقَتْلِهِ ﴿مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيْ: لَكِنْ يَتَّبِعُونَ فِيهِ الظَّنَّ الَّذِي تَخَيَّلُوهُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِنَفْيِ الْقَتْلِ. ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَإِن﴾ مَا ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَحَدٌ ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ بِعِيسَى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أَيِ: الْكِتَابِيِّ حِينَ يُعَايِنُ مَلَائِكَةَ الْمَوْتِ، فَلَا يَنْفَعُهُ إِيمَانُهُ، أَوْ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى لَمَّا يَنْزِلُ قُرْبَ السَّاعَةِ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ(٢) ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ﴾ عِيسَى ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ بِمَا فَعَلُوهُ لَمَّا بُعِثَ إِلَيْهِم. ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ أَيْ: فَبِسَبَبِ ظُلْمٍ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هُمُ الْيَهُودُ ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ هِيَ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الْآيَةَ [الأنعام: ١٤٦] ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ النَّاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِهِ صَدًّا ﴿كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ فِي التَّوْرَاةِ ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾

---

(١) أي: ليس المقتول هو عيسى، وفي نسخة «بل التبس به». [قباوة (ص:٣٥١)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه واقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

بِالرِّشَا فِي الْحُكْمِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٦١﴾ مُؤْلِمًا(١). ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ الثَّابِتُونَ ﴿فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَدْحِ، وَقُرِئَ: بِالرَّفْعِ(٢) ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَ﴾ كَمَا ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ ابْنَيْهِ ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابْنِ إِسْحَاقَ ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أَوْلَادِهِ ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا﴾ أَبَاهُ ﴿دَاوُۥدَ زَبُورًا ١٦٣﴾ بِالْفَتْحِ اسْمٌ لِلْكِتَابِ الْمُؤْتَى، وَالضَّمِّ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: مَزْبُورًا، أَيْ: مَكْتُوبًا. ﴿وَ﴾ أَرْسَلْنَا ﴿رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ رُوِيَ أَنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ ثَمَانِيَةَ آلَافِ نَبِيٍّ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ(٣)، قَالَهُ الشَّيْخُ فِي سُورَةِ غَافِرٍ(٤) ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ بِلَا وَاسِطَةٍ ﴿تَكْلِيمًا ١٦٤ رُّسُلًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿رُسُلًا﴾ قَبْلُ ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾ بِالثَّوَابِ مَنْ آمَنَ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بِالْعِقَابِ مَنْ كَفَرَ، أَرْسَلْنَاهُمْ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ تُقَالُ ﴿بَعْدَ﴾ إِرْسَالِ ﴿ٱلرُّسُلِ﴾ إِلَيْهِمْ، فَيَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، فَبَعَثْنَاهُمْ لِقَطْعِ عُذْرِهِمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمًا ١٦٥﴾ فِي صُنْعِهِ. وَنَزَلَ لَمَّا سُئِلَ الْيَهُودُ عَنْ نُبُوَّتِهِ ﷺ فَأَنْكَرُوهُ: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ يُبَيِّنُ نُبُوَّتَكَ ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ ﴿أَنزَلَهُۥ﴾ مُلْتَبِسًا ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ أَيْ: عَالِمًا بِهِ أَوْ وَفِيهِ عِلْمُهُ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ لَكَ أَيْضًا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ عَلَى ذَلِكَ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِاللهِ ﴿وَصَدُّواْ﴾ النَّاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِ الْإِسْلَامِ بِكَتْمِهِمْ نَعْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمُ الْيَهُودُ ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ١٦٧﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِاللهِ ﴿وَظَلَمُواْ﴾ نَبِيَّهُ

---

(١) إنما قال منهم لأن الله علم أن قوماً منهم سيؤمنون. [الخازن (١/ ٤٤٧)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؛ يقتضي كثرة الأنبياء؛ دون تحديد بعدد؛ وقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]؛ وما يذكر من عدد الأنبياء فغير صحيح؛ الله أعلم بعدتهم صلى الله عليهم. [ابن عطية (٢/ ١٣٧)].

(٤) أي: الشيخ جلال المحلي، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

بكِتْمَانِ نَعْتِهِ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨﴾ مِنَ الطُّرُقِ. ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أَيِ: الطَّرِيقَ الْمُؤَدِّيَ إِلَيْهَا ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ ﴿فِيهَآ﴾ إِذَا دَخَلُوهَا ﴿أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٦٩﴾ هَيِّنًا. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ﴾ بِهِ، وَاقْصِدُوا ﴿خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ بِهِ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا، فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا ١٧٠﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْإِنْجِيلِ ﴿لَا تَغْلُواْ﴾ تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ ﴿فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا﴾ الْقَوْلَ ﴿ٱلْحَقَّۚ﴾ مِنْ تَنْزِيهِهِ عَنِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ﴾ أَوْصَلَهَا اللهُ ﴿إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ﴾ أَيْ: ذُو رُوحٍ ﴿مِّنْهُۖ﴾ أُضِيفَ إِلَيْهِ تَعَالَى تَشْرِيفًا لَهُ(١)، وَلَيْسَ كَمَا زَعَمْتُمُ ابْنَ اللهِ أَوْ إِلَهًا مَعَهُ أَوْ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ؛ لِأَنَّ ذَا الرُّوحِ مُرَكَّبٌ، وَالْإِلَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّرْكِيبِ، وَعَنْ نِسْبَةِ الْمُرَكَّبِ إِلَيْهِ(٢) ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ﴾ الْآلِهَةُ ﴿ثَلَٰثَةٌۚ﴾ اللهُ وَعِيسَى وَأُمُّهُ ﴿ٱنتَهُواْ﴾ عَنْ ذَلِكَ، وَأْتُوا ﴿خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ مِنْهُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ خَلْقًا وَمُلْكًا وَعَبِيدًا، وَالْمِلْكِيَّةُ تُنَافِي الْبُنُوَّةَ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٧١﴾ شَهِيدًا عَلَى ذَلِكَ. ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ يَتَكَبَّرَ وَيَأْنَفَ ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ الَّذِي زَعَمْتُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ عَنْ ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ عِنْدَ اللهِ لَا يَسْتَنْكِفُونَ أَنْ يَكُونُوا عَبِيدًا، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الِاسْتِطْرَادِ، ذُكِرَ لِلرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا آلِهَةٌ أَوْ بَنَاتُ اللهِ، كَمَا رَدَّ بِمَا قَبْلَهُ عَلَى النَّصَارَى الزَّاعِمِينَ ذَلِكَ الْمَقْصُودِ خِطَابُهُمْ ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ

---

(١) أي: إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام، إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم والجميع مخلوق لله عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن، فكان. والروح التي أرسل بها جبريل. [ابن كثير (٢/ ٤٧٧)].

(٢) هذا لفظ محدث مبتدع، لا ينبغي اطلاقه على الله تبارك وتعالى لا نفيا ولا إثباتا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والتحقيق أن كلا الطائفتين مخطئة على اللغة، أولئك الذين يسمون كل ما هو قائم بنفسه جسمًا، وهؤلاء الذين سموا كل ما يشار إليه وترفع الأيدي إليه جسمًا، وادعوا أن كل ما كان كذلك فهو مركب، وأن أهل اللغة يطلقون لفظ الجسم على كل ما كان مركبًا. فالخطأ في اللغة، والابتداع في الشرع مشترك بين الطائفتين. [مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٤٢٩)].

﴿جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ فِي الْآخِرَةِ[١]. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ثَوابَ أَعْمالِهِمْ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[٢] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عَنْ عِبادَتِهِ ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مُؤْلِمًا، هُوَ عَذابُ النَّارِ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿وَلِيًّا﴾ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾ حُجَّةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عَلَيْكُمْ وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ بَيِّنًا، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا﴾ طَرِيقًا ﴿مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ هُوَ دِينُ الْإِسْلامِ. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ فِي الْكَلالَةِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ﴾ مَرْفُوعٌ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ ﴿هَلَكَ﴾ ماتَ ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أَيْ: وَلَا والِدٌ وَهُوَ الْكَلالَةُ ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ مِنْ أَبَوَيْنِ أَوْ أَبٍ ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ﴾ أَيْ: الْأَخُ كَذَلِكَ ﴿يَرِثُهَآ﴾ جَمِيعَ ما تَرَكَتْ ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ فَإِنْ كانَ لَها وَلَدٌ ذَكَرٌ فَلا شَيْءَ لَهُ، أَوْ أُنْثَى فَلَهُ ما فَضَلَ مِنْ نَصِيبِها، وَلَوْ كانَتِ الْأُخْتُ أَوِ الْأَخُ مِنْ أُمٍّ فَفَرْضُهُ السُّدُسُ، كَما تَقَدَّمَ أَوَّلَ السُّورَةِ ﴿فَإِن كَانَتَا﴾ أَيْ: الْأُخْتانِ ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ أَيْ: فَصاعِدًا؛ لِأَنَّها نَزَلَتْ فِي جابِرٍ[٣]، وَقَدْ ماتَ عَنْ أَخَواتٍ ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الْأَخُ ﴿وَإِن كَانُوٓاْ﴾ أَيْ: الْوَرَثَةُ ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ﴾ مِنْهُمْ ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ شَرائِعَ دِينِكُمْ لِـ ﴿أَن﴾ لا ﴿تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ وَمِنْهُ الْمِيراثُ، رَوَى الشَّيْخانِ[٤] عَنِ الْبَراءِ أَنَّها آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ، أَيْ: مِنَ الْفَرائِضِ.

---

(١) الفرق بين الاستنكاف والاستكبار: أن الاستنكاف هو التكبر مع الأنفة، والاستكبار: هو الغلو، والتكبر من غير أنفة. [السمعاني (١/ ٥٠٧)].

(٢) قال رسول الله ﷺ: قال الله: «أَعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». أخرجه البخاري (٢٧٩٣)، ومسلم (٢٨٢٦).

(٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه يعوداني ماشيين، فأغمي علي، فتوضأ ثم صب علي من وضوئه فأفقت، قلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئا حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾». أخرجه البخاري (٥٦٥١)، ومسلم (١٦١٦).

(٤) عن أبي إسحق قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾. وآخر سورة نزلت براءة. أخرجه البخاري (٤٦٠٥)، ومسلم (١٦١٨).

سُورَةُ المَائِـدَةِ

مَدَنِيَّةٌ، وَآيَاتُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ آيَةً أَوْ وَاثْنَتَانِ أَوْ وَثَلَاثٌ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ الْعُهُودِ الْمُؤَكَّدَةِ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ(١) ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ الإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، أَكْلًا بَعْدَ الذَّبْحِ ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ تَحْرِيمُهُ فِي: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ الآيَةَ [المائدة: ٣]، فَالِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا، وَالتَّحْرِيمُ لِمَا عَرَضَ مِنَ الْمَوْتِ وَنَحْوِهِ ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ أَيْ: مُحْرِمُونَ، وَنَصْبُ ﴿غَيۡرَ﴾ عَلَى الْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ ﴿لَكُم﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ مِنَ التَّحْلِيلِ وَغَيْرِهِ، لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ جَمْعُ شَعِيرَةٍ، أَيْ: مَعَالِمَ دِينِهِ بِالصَّيْدِ فِي الْإِحْرَامِ(٢) ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ بِالْقِتَالِ فِيهِ ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ مَا أُهْدِيَ إِلَى الْحَرَمِ مِنَ النَّعَمِ بِالتَّعَرُّضِ لَهُ ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ جَمْعُ قِلَادَةٍ، وَهِيَ: مَا كَانَ يُقَلَّدُ بِهِ مِنْ شَجَرِ الْحَرَمِ لِيَأْمَنَ، أَيْ: فَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهَا وَلَا لِأَصْحَابِهَا ﴿وَلَآ﴾ تُحِلُّوا ﴿ءَآمِّينَ﴾ قَاصِدِينَ ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ بِأَنْ تُقَاتِلُوهُمْ ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا﴾ رِزْقًا ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ بِالتِّجَارَةِ ﴿وَرِضۡوَٰنًاۚ﴾ مِنْهُ بِقَصْدِهِ بِزَعْمِهِمْ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ «بَرَاءَةَ»(٣) ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ﴾ مِنَ الْإِحْرَامِ ﴿فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ أَمْرُ إِبَاحَةٍ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ يُكْسِبَنَّكُمْ ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بِفَتْحِ النُّونِ وَسُكُونِهَا: بُغْضُ ﴿قَوۡمٍ﴾ لِأَجْلِ ﴿أَن

---

(١) قيل: المراد بالعقود هي التي عدها الله على عباده وألزمهم بها من الأحكام، وقيل: هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات والأمانات ونحوها، والأولى شمول الآية للأمرين جميعًا، قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله عليكم وبعقدكم بعضكم على بعض انتهى. والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإن خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل ... قال ابن عباس: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ أي: ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله، لا تغدروا ولا تنكثوا. [الشوكاني (٢/ ٦)].

(٢) أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها، وعدم فعلها، والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي، عن فعل القبيح، وعن اعتقاده. ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام، ومحرمات الحرم. [السعدي (ص:٢١٨)].

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: سبب نزول هذه الآية أن المشركين كانوا يحجون ويعتمرون ويهدون الهدايا، ويعظمون حرمة المشاعر، وينحرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم، فنزلت هذه الآية إلى آخرها، فيكون ذلك منسوخًا بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله ﷺ: «لا يَحُجَّنَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ». أخرجه البخاري (٤٦٥٧). وبه قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأكثر المفسرين. [صديق حسن (٣/ ٣٢٧)].

صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ﴾ عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ﴾ بِفِعْلِ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ ﴿وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ بِتَرْكِ مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْلِ ﴿عَلَى ٱلْإِثْمِ﴾ الْمَعَاصِي ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ التَّعَدِّي فِي حُدُودِ اللهِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ خَافُوا عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ لِمَنْ خَالَفَهُ. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أَيْ: أَكْلُهَا ﴿وَٱلدَّمُ﴾ أَيْ: الْمَسْفُوحُ كَمَا فِي «الْأَنْعَامِ»(١) ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ بِأَنْ ذُبِحَ عَلَى اسْمِ غَيْرِهِ ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ الْمَيِّتَةُ خَنْقًا ﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ الْمَقْتُولَةُ ضَرْبًا(٢) ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ السَّاقِطَةُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى أَسْفَلَ فَمَاتَتْ ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ الْمَقْتُولَةُ بِنَطْحِ أُخْرَى لَهَا ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ مِنْهُ ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أَيْ: أَدْرَكْتُمْ فِيهِ الرُّوحَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَذَبَحْتُمُوهُ ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى﴾ اسْمِ ﴿ٱلنُّصُبِ﴾ جَمْعُ «نِصَابٍ» وَهِيَ: الْأَصْنَامُ ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ﴾ تَطْلُبُوا الْقَسْمَ وَالْحُكْمَ ﴿بِٱلْأَزْلَٰمِۚ﴾ جَمْعُ «زَلَمٍ» بِفَتْحِ الزَّايِ وَضَمِّهَا مَعَ فَتْحِ اللَّامِ: «قِدْحٌ» بِكَسْرِ الْقَافِ، صَغِيرٌ لَا رِيشَ لَهُ وَلَا نَصْلَ، وَكَانَتْ سَبْعَةً عِنْدَ سَادِنِ الْكَعْبَةِ عَلَيْهَا أَعْلَامٌ، وَكَانُوا يُحَكِّمُونَهَا فَإِنْ أَمَرَتْهُمُ ائْتَمَرُوا وَإِنْ نَهَتْهُمُ انْتَهَوْا ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ﴾ خُرُوجٌ عَنِ الطَّاعَةِ، وَنَزَلَ يَوْمَ عَرَفَةَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ﴾ أَنْ تَرْتَدُّوا عَنْهُ بَعْدَ طَمَعِهِمْ فِي ذَلِكَ، لِمَا رَأَوْا مِنْ قُوَّتِهِ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أَحْكَامَهُ وَفَرَائِضَهُ، فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَهَا حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ(٣) ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بِإِكْمَالِهِ، وَقِيلَ بِدُخُولِ مَكَّةَ آمِنِينَ ﴿وَرَضِيتُ﴾ أَيْ: اخْتَرْتُ(٤) ﴿لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مَجَاعَةٍ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِ فَأَكَلَ ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ مَائِلٍ ﴿لِّإِثْمٍ﴾ مَعْصِيَةٍ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُ مَا أَكَلَ ﴿رَّحِيمٌ ۝٣﴾ بِهِ فِي إِبَاحَتِهِ

---

(١) أي: قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

(٢) أما البنادق المعروفة الآن: وهي بنادق الحديد التي يجعل فيها البارود والرصاص ويرمى بها ... قد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حيا، والذي يظهر لي أنه حلال لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ». أخرجه البخاري (٥٤٨٦)، ومسلم (١٩٢٩). فاعتبر الخرق في تحليل الصيد. [الشوكاني (٢/ ١٢)].

(٣) بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه. فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله. [السعدي (ص:٢١٩)].

(٤) أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه. [ابن كثير (٣/ ٢٦)].

لَهُ، بِخِلَافِ اَلْمَائِلِ لِإِثْمٍ، أَيِ: اَلْمُتَلَبِّسِ بِهِ كَقَاطِعِ اَلطَّرِيقِ وَالْبَاغِي مَثَلًا فَلَا يَحِلُّ لَهُ اَلْأَكْلُ. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ مِنَ اَلطَّعَامِ؟ ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ اَلْمُسْتَلَذَّاتُ ﴿وَ﴾ صَيْدُ ﴿مَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ اَلْكَوَاسِبِ مِنَ اَلْكِلَابِ وَالسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حَالٌ، مِنْ كَلَّبْتُ اَلْكَلْبَ بِالتَّشْدِيدِ، أَيْ: أَرْسَلْتُهُ عَلَى اَلصَّيْدِ ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، أَيْ: تُؤَدِّبُونَهُنَّ ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾ مِنْ آدَابِ اَلصَّيْدِ ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وَإِنْ قَتَلْنَهُ إِنْ لَمْ يَأْكُلْنَ مِنْهُ، بِخِلَافِ غَيْرِ اَلْمُعَلَّمَةِ فَلَا يَحِلُّ صَيْدُهَا، وَعَلَامَتُهَا: أَنْ تَسْتَرْسِلَ إِذَا أُرْسِلَتْ وَتَنْزَجِرَ إِذَا زُجِرَتْ وَتُمْسِكَ اَلصَّيْدَ وَلَا تَأْكُلَ مِنْهُ، وَأَقَلُّ مَا يُعْرَفُ بِهِ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنْ أَكَلَتْ مِنْهُ فَلَيْسَ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَى صَاحِبِهِنَّ فَلَا يَحِلُّ أَكْلُهُ، كَمَا فِي حَدِيثِ اَلصَّحِيحَيْنِ وَفِيهِ: «أَنَّ صَيْدَ اَلسَّهْمِ إِذَا أُرْسِلَ وَذُكِرَ اِسْمُ اَللهِ عَلَيْهِ كَصَيْدِ اَلْمُعَلَّمِ مِنَ اَلْجَوَارِحِ»[١] ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عِنْدَ إِرْسَالِهِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ اَلْمُسْتَلَذَّاتُ ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَيْ: ذَبَائِحُ اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿حِلٌّ﴾ حَلَالٌ ﴿لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ﴾ إِيَّاهُمْ[٢] ﴿حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ اَلْحَرَائِرُ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ حِلٌّ لَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مُهُورَهُنَّ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ مُتَزَوِّجِينَ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ مُعْلِنِينَ بِالزِّنَى بِهِنَّ ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾ مِنْهُنَّ تُسِرُّونَ بِالزِّنَى بِهِنَّ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أَيْ: يَرْتَدُّ ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ اَلصَّالِحُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَا يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا يُثَابُ عَلَيْهِ ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ إِذَا مَاتَ عَلَيْهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ﴾ أَيْ: أَرَدْتُمُ اَلْقِيَامَ ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وَأَنْتُمْ مُحْدِثُونَ ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ أَيْ: مَعَهَا كَمَا بَيَّنَتْهُ اَلسُّنَّةُ[٣] ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ اَلْبَاءُ لِلْإِلْصَاقِ،

---

(١) عن عدي بن حاتم رَضِوَٱللَّهُعَنهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ وسمَّيت فَأَمْسَكَ وَقَتَلَ فَكُلْ، وَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَإِذَا خَالَطَ كِلَابًا، لَمْ يُذكر اسْمُ اللهِ عَلَيْهَا، فَأَمْسَكْنَ وَقَتَلْنَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّهَا قَتَلَ، وَإِنْ رَمَيْتَ الصَّيْدَ فَوَجَدْتَهُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ لَيْسَ بِهِ إِلَّا أَثَرُ سَهْمِكَ فَكُلْ، وَإِنْ وَقَعَ فِي الْمَاءِ فَلَا تَأْكُلْ». ... وعن عدي: أنه قال للنبي ﷺ: يرمي الصيد فيقتفر أثره اليومين والثلاثة، ثم يجده ميتا وفيه سهمه، قال: «يَأْكُلُ إن شاء». أخرجه البخاري (٥٠٦٢).

(٢) أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخبارا عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبرا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها. والأول أظهر في المعنى. [ابن كثير (٣/ ٤١)].

(٣) عن وائل بن حجر قال: شهدت رسول الله ﷺ، وأتي بإناء فيه ماء ... [وفيه:] ثم أدخل يمينه في الإناء فغسل بها ذراعه اليمنى حتى جاوز المرفق ثلاثا، ثم غسل يساره بيمينه حتى جاوز المرفق ثلاثا. أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١١٨). وعن جابر بن عبد الله قال: كان

أَيْ: أَلْصِقُوا الْمَسْحَ بِهَا مِنْ غَيْرِ إِسَالَةِ مَاءٍ، وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ فَيَكْفِي أَقَلُّ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَسْحُ بَعْضِ الشَّعْرِ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ[١] ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾، وَبِالْجَرِّ عَلَى الْجِوَارِ ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ أَيْ: مَعَهُمَا كَمَا بَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ[٢] وَهُمَا الْعَظْمَانِ النَّاتِئَانِ فِي كُلِّ رِجْلٍ عِنْدَ مَفْصِلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ، وَالْفَصْلُ بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ الْمَغْسُولَةِ بِالرَّأْسِ الْمَمْسُوحِ يُفِيدُ وُجُوبَ التَّرْتِيبِ فِي طَهَارَةِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، وَيُؤْخَذُ مِنَ السُّنَّةِ وُجُوبُ النِّيَّةِ فِيهِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ فَاغْتَسِلُوا ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مَرَضًا يَضُرُّهُ الْمَاءُ ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أَيْ: مُسَافِرِينَ ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ أَيْ: أَحْدَثَ ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ سَبَقَ مِثْلُهُ فِي آيَةِ النِّسَاءِ[٣] ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ بَعْدَ طَلَبِهِ ﴿فَتَيَمَّمُوا۟﴾ اقْصِدُوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ تُرَابًا طَاهِرًا ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾ مَعَ الْمِرْفَقَيْنِ ﴿مِّنْهُ﴾ بِضَرْبَتَيْنِ، وَالْبَاءُ لِلْإِلْصَاقِ، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّ الْمُرَادَ اسْتِيعَابُ الْعُضْوَيْنِ بِالْمَسْحِ[٤] ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ ضِيقٍ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ وَالتَّيَمُّمِ ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالذُّنُوبِ ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ بِبَيَانِ شَرَائِعِ الدِّينِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ نِعَمَهُ. ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾ عَهْدَهُ ﴿ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ عَاهَدَكُمْ عَلَيْهِ ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ حِينَ بَايَعْتُمُوهُ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُ بِهِ وَتَنْهَى، مِمَّا

رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه. أخرجه الدارقطني (١/ ٨٣)، والبيهقي (٢٥٩).

(١) اختلفوا في هذه «الباء» هل هي للإلصاق، وهو الأظهر أو للتبعيض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، ... [وفيها] أن رجلا قال لعبد الله بن زيد بن عاصم وكان من أصحاب النبي ﷺ: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثا، وغسل وجهه ثلاثا، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. أخرجه البخاري (١٨٥) ومسلم (٢٣٥). فيه دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن. [ابن كثير (٣/ ٤٩)].

(٢) عن أبي زرعة قال: دخلت مع أبي هريرة دار مروان، فدعا بوضوء، فتوضأ، وغسل ذراعيه حتى جاوز المرفقين، فلما غسل رجليه، جاوز الكعبين إلى الساقين، فقلت: ما هذا؟ قال: هذا مبلغ الحلية. أخرجه أحمد (٧١٦٦).

(٣) الآية (٤٣).

(٤) انظر التعليق على آية (٤٣) من سورة النساء.

نُحبُّ ونَكرَهُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في مِيثَاقِهِ أَنْ تَنْقُضُوهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ بِمَا فِي القُلُوبِ فَبِغَيْرِهِ أَوْلَى. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ﴾ قَائِمِينَ ﴿لِلَّهِ﴾ بِحُقُوقِهِ ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بِالعَدْلِ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ يَحْمِلَنَّكُمْ ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بُغْض ﴿قَوۡمٍ﴾ أَيِ: الكُفَّارِ ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ فَتَنالُوا مِنْهُمْ لِعَداوَتِهِمْ(١) ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ فِي العَدُوِّ والوَلِيِّ ﴿هُوَ﴾ أَيِ: العَدْلُ ﴿أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ فَيُجازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَعْدًا حَسَنًا ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ هُوَ الجَنَّةُ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ﴾ هُمْ قُرَيْشٌ ﴿أَن يَبۡسُطُوٓاْ﴾ يَمُدُّوا ﴿إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ لِيَفْتِكُوا بِكُمْ ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ وَعَصَمَكُمْ مِمَّا أَرادُوا بِكُمْ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ * ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بِمَا يُذْكَرُ بَعْدُ ﴿وَبَعَثۡنَا﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الغَيْبَةِ، أَقَمْنَا ﴿مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ مِنْ كُلِّ سِبْطٍ نَقِيبٌ، يَكُونُ كَفِيلًا عَلَى قَوْمِهِ بِالوَفَاءِ بِالعَهْدِ تَوْثِقَةً عَلَيْهِمْ ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ ﴿ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ بِالعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ ﴿لَئِنۡ﴾ لامُ قَسَمٍ ﴿أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ﴾ نَصَرْتُمُوهُمْ ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ بِالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ المِيثَاقِ ﴿مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ أَخْطَأَ طَرِيقَ الحَقِّ، وَالسَّوَاءُ فِي الأَصْلِ الوَسَطُ فَنَقَضُوا المِيثَاقَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ «ما» زَائِدَةٌ ﴿مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾ أَبْعَدْنَاهُمْ عَنْ رَحْمَتِنَا ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾ لا تَلِينُ لِقَبُولِ الإِيمَانِ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ الَّذِي فِي التَّوْرَاةِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَغَيْرِهِ ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ الَّتِي وَضَعَهُ اللهُ عَلَيْهَا، أَيْ: يُبَدِّلُونَهُ ﴿وَنَسُواْ﴾ تَرَكُوا ﴿حَظّٗا﴾ نَصِيبًا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ﴾ أُمِرُوا ﴿بِهِۦۚ﴾ فِي التَّوْرَاةِ، مِنِ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿تَطَّلِعُ﴾ تَظْهَرُ ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٖ﴾ أَيْ: خِيَانَةٍ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ بِنَقْضِ العَهْدِ وَغَيْرِهِ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ﴾ مِمَّنْ أَسْلَمَ ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ(٢). ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿أَخَذۡنَا

---

(١) عداه بعلى لتضمنه معنى الحمل، والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا مما في قلوبكم. [البيضاوي (٢/ ١١٧)].

(٢) فيها قولان: أحدهما: أن حكمها ثابت في الصفح والعفو إذا رآه. والثاني: أنه منسوخ، وفي الذي نسخه قولان: أحدهما: قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] وهذا قول قتادة. والثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ [الأنفال: ٥٨]. [الماوردي (٢/ ٢١)]. [وأختار القول الأول ابن كثير (٣/ ٦٦) وقال:] وهذا هو عين النصر والظفر،

مِيثَٰقَهُمۡ﴾ كَمَا أَخَذْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْيَهُودِ ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ فِي الْإِنْجِيلِ مِنَ الْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ وَنَقَضُوا الْمِيثَاقَ ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾ أَوْقَعْنَا ﴿بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ بِتَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تُكَفِّرُ الْأُخْرَى ﴿وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾ تَكْتُمُونَ ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، كَآيَةِ الرَّجْمِ وَصِفَتِهِ ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يُبَيِّنُهُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ إِلَّا افْتِضَاحَكُمْ[1] ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ﴾ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿وَكِتَٰبٞ﴾ قُرْآنٌ ﴿مُّبِينٞ ١٥﴾ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ ﴿يَهۡدِي بِهِ﴾ أَيْ: بِالْكِتَابِ ﴿ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾ بِأَنْ آمَنَ ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ طُرُقَ السَّلَامَةِ ﴿وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الْإِيمَانِ ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ بِإِرَادَتِهِ[2] ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ دِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ حَيْثُ جَعَلُوهُ إِلَهًا، وَهُمُ «الْيَعْقُوبِيَّةُ» فِرْقَةٌ مِنَ النَّصَارَى[3] ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ﴾ أَيْ: يَدْفَعُ ﴿مِنَ﴾ عَذَابِ ﴿ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ الْمَسِيحُ إِلَهًا لَقَدَرَ عَلَيْهِ ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ

كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك.

(١) أي: مما تخفونه. لا يبينه. مما لا ضرورة في بيانه، صيانة لكم عن زيادة الافتضاح. أو يعفو فلا يؤاخذ. وفي هذه الآية بيان معجزة له ﷺ. فإنه لم يقرأ كتابا ولم يتعلم علما من أحد، فإخباره بأسرار ما في كتابهم إخبار عن الغيب، فيكون معجزا. [القاسمي (٤/ ٩١)].

(٢) يعني: بإذن الله جل وعز. وإذنه في هذا الموضع: تحبيبه إياه الإيمان برفع طابَع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سُبُل السلام. [الطبري (٢/ ٢٦٥)].

(٣) النصارى تفرعت مذاهب ثلاثة أشار إلى جميعها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ [النساء: ١٧١]، وقوله: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦] ... واليعقوبية يسمون الآن «أرثودكس»، ظهروا في أواسط القرن السادس المسيحي، ... قالوا: انقلبت الإلهية لحما ودما، فصار الإله هو المسيح فلأجل ذلك صدرت عن المسيح خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فأشبه صنعه صنع الله تعالى مما يعجز عنه غير الله تعالى ... وهم أتباع يعقوب البرذعاني، وكان راهبا بالقسطنطينية، ويقال لليعاقبة: أصحاب الطبيعة الواحدة، وعليها درج نصارى الحبشة كلهم. ولا شك أن نصارى نجران كانوا على هذه الطريقة. ولقرب أصحابها الحبشة من بلاد العرب تصدى القرآن لبيان ردها هنا وفي الآية الآتية في هذه السورة. [ابن عاشور (٦/ ٥٧)].

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ شاءَهُ(١) ﴿قَدِيرٌ ١٧ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ أَيْ: كُلٌّ مِنْهُمَا ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: كَأَبْنَائِهِ فِي الْقُرْبِ وَالْمَنْزِلَةِ، وَهُوَ كَأَبِينَا فِي الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ إِنْ صَدَقْتُمْ فِي ذَلِكَ؟ وَلَا يُعَذِّبُ الْأَبُ وَلَدَهُ وَلَا الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ، وَقَدْ عَذَّبَكُمْ فَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّـ﴾ نْ جُمْلَةِ ﴿ـمَّنْ خَلَقَۚ﴾ مِنَ الْبَشَرِ، لَكُمْ مَا لَهُمْ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ الْمَغْفِرَةَ لَهُ ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ تَعْذِيبَهُ، لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ(٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾ الْمَرْجِعُ. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شَرَائِعَ الدِّينِ ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ انْقِطَاعٍ ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِيسَى رَسُولٌ، وَمُدَّةُ ذَلِكَ خَمْسُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَسِتُّونَ سَنَةً(٣) لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿تَقُولُواْ﴾ إِذَا عُذِّبْتُمْ: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ﴾ زَائِدَةٌ ﴿بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ﴾ فَلَا عُذْرَ لَكُمْ إِذًا، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٩﴾ وَمِنْهُ تَعْذِيبُكُمْ، إِنْ لَمْ تَتَّبِعُوهُ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ أَيْ: مِنْكُمْ ﴿أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أَصْحَابَ خَدَمٍ وَحَشَمٍ ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٠﴾ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَفَلْقِ الْبَحْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ الْمُطَهَّرَةَ ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أَمَرَكُمْ بِدُخُولِهَا وَهِيَ الشَّامُ(٤) ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ تَنْهَزِمُوا خَوْفَ الْعَدُوِّ ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ فِي

---

(١) الصحيح أن الآية على عمومها. قال الشيخ ابن عثيمين: لأنه إذا خصت قدرة الله تعالى بما يشاؤه كان ذلك نقصًا في مدلولها وقصرًا لها عن عمومها، فتكون قدرة الله تعالى ناقصة حيث انحصرت فيما يشاؤه، وهو خلاف الواقع فإن قدرة الله تعالى عامة فيما يشاؤه وما لم يشأه، لكن ما شاءه فلابد من وقوعه، وما لم يشأه فلا يمكن وقوعه. [المناهي اللفظية للشيخ ابن عثيمين (ص:٢٧)].

(٢) لدينا قاعدة مهمة وهي: أن كل فعل قرنه الله بالمشيئة فلا بد أن يكون موافقًا للحكمة؛ لأن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة ترجح شيئًا على شيء بدون سبب، وعلى هذا فقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لمن اقتضت حكمته أن يغفر له، وهو التائب من الذنب. وكذلك من منَّ الله عليه بالمغفرة بدون توبة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ يعذب من يشاء أن يعذبه بأن فعل ما يقتضي التعذيب، وليس الأمر لمجرد مشيئة؛ لأن الله تعالى لا يعذب أحدًا إلا بذنب، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] لا ظلمًا: بزيادة السيئات، ولا هضمًا: بنقص الحسنات. [ابن عثيمين تفسير المائدة (١/ ٢٣٩)].

(٣) عن سلمان رضي الله عنه قال: فَتْرَةٌ ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: ستمائة سنة. أخرجه البخاري (٣٩٤٨). وعن قتادة قال: كان بين عيسى ومحمدٍ ﷺ خمسمائة وستون سنة. أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٨٦)، وابن جرير (٨/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

(٤) عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هي الطور وما حوله. وكذا قال مجاهد وغير واحد. [وعن ابن عباس] قال:

سَعْيِكُمْ. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ مِنْ بَقَايَا عَادٍ طِوَالًا ذِي قُوَّةٍ ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ لَهَا. ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ ﴿رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ مُخَالَفَةَ أَمْرِ اللهِ وَهُمَا يُوشَعُ وَكَالِبُ، مِنَ النُّقَبَاءِ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ مُوسَى فِي كَشْفِ أَحْوَالِ الْجَبَابِرَةِ ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بِالْعِصْمَةِ فَكَتَمَا مَا اطَّلَعَا عَلَيْهِ مِنْ حَالِهِمْ إِلَّا عَنْ مُوسَى، بِخِلَافِ بَقِيَّةِ النُّقَبَاءِ فَأَفْشَوْهُ فَجَبُنُوا[١]: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ بَابَ الْقَرْيَةِ وَلَا تَخْشَوْهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَجْسَادٌ بِلَا قُلُوبٍ ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ قَالَا ذَلِكَ تَيَقُّنًا بِنَصْرِ اللهِ وَإِنْجَازِ وَعْدِهِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ هُمْ ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ عَنِ الْقِتَالِ[٢]. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى حِينَئِذٍ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ﴾ إِلَّا ﴿أَخِي﴾ وَلَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا فَأُجْبِرَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿فَٱفْرُقْ﴾ فَافْصِلْ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿فَإِنَّهَا﴾ أَيِ: الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ يَدْخُلُوهَا ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ﴾ يَتَحَيَّرُونَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وَهِيَ تِسْعَةُ فَرَاسِخَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ تَحْزَنْ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ رُوِيَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ اللَّيْلَ جَادِّينَ، فَإِذَا أَصْبَحُوا إِذَا هُمْ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي ابْتَدَأُوا مِنْهُ، وَيَسِيرُونَ النَّهَارَ كَذَلِكَ، حَتَّى انْقَرَضُوا كُلُّهُمْ إِلَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْعِشْرِينَ، قِيلَ: وَكَانُوا سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ، وَمَاتَ هَارُونُ وَمُوسَى فِي التِّيهِ، وَكَانَ رَحْمَةً لَهُمَا وَعَذَابًا لِأُولَئِكَ، وَسَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ، فَأَدْنَاهُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ[٣]، وَنُبِّئَ يُوشَعُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ وَأُمِرَ بِقِتَالِ الْجَبَّارِينَ فَسَارَ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ وَقَاتَلَهُمْ، وَكَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَوَقَفَتْ لَهُ الشَّمْسُ سَاعَةً حَتَّى فَرَغَ مِنْ

هي أريحا. وكذا ذكر غير واحد من المفسرين. وفي هذا نظر؛ لأن أريحا ليست هي المقصود بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلا أن يكون المراد بأريحا أرض بيت المقدس، كما قاله السدي فيما رواه ابن جرير عنه، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الغور شرقي بيت المقدس. [ابن كثير (٣/ ٧٥)].

(١) صفة ثانية لرجلان، أي: أنعم عليهما بالإيمان واليقين بحصول ما وعدوا به من النصر والظفر، وقيل: أنعم عليهما بالعصمة فكتما ما اطلعا عليه من حالهم إلا عن موسى بخلاف بقية النقباء فأفشوه فجبنوا، وقيل: إنها جملة معترضة وهو أيضاً ظاهر، وقيل: حال من الضمير في يخافون أو من رجلان. [صديق حسن (٣/ ٣٩١)].

(٢) إفراط في العصيان وسوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله، وأين هؤلاء من [الصحابة] الذين قالوا لرسول الله ﷺ: لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. أخرجه أحمد (١٧٦٤١). [ابن جُزَيّ (١/ ٢٢٧)].

(٣) أخرجه البخاري (١٢٧٤)، ومسلم (٢٣٧٢).

قِتَالِهِمْ، وَرَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ حَدِيثَ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ، إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ»(١). ﴿۞ وَٱتْلُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى قَوْمِكَ ﴿نَبَأَ﴾ خَبَرَ ﴿ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ هَابِيلَ وَقَابِيلَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿ٱتْلُ﴾، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ إِلَى اللهِ، وَهُوَ كَبْشٌ لِهَابِيلَ وَزَرْعٌ لِقَابِيلَ ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وَهُوَ هَابِيلُ، بِأَنْ نَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَكَلَتْ قُرْبَانَهُ ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ وَهُوَ قَابِيلُ، فَغَضِبَ وَأَضْمَرَ الْحَسَدَ فِي نَفْسِهِ، إِلَى أَنْ حَجَّ آدَمُ ﴿قَالَ﴾ لَهُ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِتَقَبُّلِ قُرْبَانِكَ دُونِي ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿بَسَطتَ﴾ مَدَدْتَ ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨﴾ فِي قَتْلِكَ ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾ تَرْجِعَ ﴿بِإِثْمِي﴾ بِإِثْمِ قَتْلِي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الَّذِي ارْتَكَبْتَهُ مِنْ قَبْلُ ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾ وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَبُوءَ بِإِثْمِكَ إِذَا قَتَلْتُكَ فَأَكُونَ مِنْهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ﴾ زَيَّنَتْ ﴿لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ﴾ فَصَارَ ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ بِقَتْلِهِ، وَلَمْ يَدْرِ مَا يَصْنَعُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَيِّتٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَحَمَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يَنْبُشُ التُّرَابَ بِمِنْقَارِهِ وَبِرِجْلَيْهِ، وَيُثِيرُهُ عَلَى غُرَابٍ مَيِّتٍ حَتَّى وَارَاهُ ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي﴾ يَسْتُرُ ﴿سَوْءَةَ﴾ جِيفَةَ ﴿أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ﴾ عَنْ ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ عَلَى حَمْلِهِ(٢)، وَحَفَرَ لَهُ وَوَارَاهُ. ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي فَعَلَهُ قَابِيلُ ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ﴾ أَيِ: الشَّأْنُ ﴿مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ قَتَلَهَا ﴿أَوْ﴾ بِغَيْرِ ﴿فَسَادٖ﴾ أَتَاهُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مِنْ كُفْرٍ أَوْ زِنًا أَوْ قَطْعِ طَرِيقٍ أَوْ نَحْوِهِ ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بِأَنِ امْتَنَعَ عَنْ قَتْلِهَا ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ حَيْثُ انْتِهَاكِ حُرْمَتِهَا وَصَوْنِهَا(٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ أَيْ: بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي

---

(١) أخرجه أحمد (٨٣١٥)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠٦٩)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (١/ ٣٢٩).

(٢) ندم على ما اقترف من قتل أخيه إذ رأى الغراب يحتفل بإكرام أخيه الميت ورأى نفسه يجترئ على قتل أخيه، وما إسراعه إلى تقليد الغراب في دفن أخيه إلا مبدأ الندامة وحب الكرامة لأخيه. ويحتمل أن هذا الندم لم يكن ناشئا عن خوف عذاب الله ولا قصد توبة، فلذلك لم ينفعه. فجاء في الصحيح: «مَا مِن نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِن دَمِها ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَن سَنَّ القَتْلَ». أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧). [ابن عاشور (٦/ ١٧٤)].

(٣) أي: من حيث هتك حرمة الدماء، وسن القتل، وجرأ الناس عليه. أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء، في استجلاب غضب الله تعالى والعذاب العظيم، ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة. فكأنما فعل ذلك بالناس

﴿ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝٣٢﴾ مُجَاوِزُونَ اَلْحَدَّ بِالْكُفْرِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَنَزَلَ فِي اَلْعُرَنِيِّينَ، لَمَّا قَدِمُوا اَلْمَدِينَةَ وَهُمْ مَرْضَى، فَأَذِنَ لَهُمُ اَلنَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى اَلْإِبِلِ وَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ اَلنَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَاقُوا اَلْإِبِلَ(١): ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بِمُحَارَبَةِ اَلْمُسْلِمِينَ ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بِقَطْعِ اَلطَّرِيقِ ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أَيْ: أَيْدِيهِمُ اَلْيُمْنَى، وَأَرْجُلُهُمُ اَلْيُسْرَى ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَوْ﴾ لِتَرْتِيبِ اَلْأَحْوَالِ، فَالْقَتْلُ لِمَنْ قَتَلَ فَقَطْ، وَالصَّلْبُ لِمَنْ قَتَلَ وَأَخَذَ اَلْمَالَ، وَالْقَطْعُ لِمَنْ أَخَذَ اَلْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ، وَالنَّفْيُ لِمَنْ أَخَافَ فَقَطْ، قَالَهُ اِبْنُ عَبَّاسٍ، وَعَلَيْهِ اَلشَّافِعِيُّ، وَأَصَحُّ قَوْلَيْهِ: أَنَّ اَلصَّلْبَ ثَلَاثًا بَعْدَ اَلْقَتْلِ، وَقِيلَ: قَبْلَهُ قَلِيلًا، وَيُلْحَقُ بِالنَّفْيِ مَا أَشْبَهَهُ فِي اَلتَّنْكِيلِ مِنَ اَلْحَبْسِ وَغَيْرِهِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اَلْجَزَاءُ اَلْمَذْكُورُ ﴿لَهُمْ خِزْىٌ﴾ ذُلٌّ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ هُوَ عَذَابُ اَلنَّارِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ مِنَ اَلْمُحَارِبِينَ وَالْقُطَّاعِ ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ مَا أَتَوْهُ ﴿رَّحِيمٌ ۝٣٤﴾ بِهِمْ، عَبَّرَ بِذَلِكَ دُونَ: «فَلَا تَحُدُّوهُمْ»، لِيُفِيدَ أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ عَنْهُ بِتَوْبَتِهِ إِلَّا حُدُودُ اَللهِ دُونَ حُقُوقِ اَلْآدَمِيِّينَ، كَذَا ظَهَرَ لِي وَلَمْ أَرَ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ، فَإِذَا قَتَلَ وَأَخَذَ اَلْمَالَ يُقْتَلُ وَيُقْطَعُ وَلَا يُصْلَبُ، وَهُوَ أَصَحُّ قَوْلَيِ الشافعي، وَلَا تُفِيدُ تَوْبَتُهُ بَعْدَ اَلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ شَيْئًا، وَهُوَ أَصَحُّ قَوْلَيْهِ أَيْضًا(٢). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خَافُوا عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ﴾ اِطْلُبُوا ﴿إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾ تَفُوزُونَ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ﴾ ثَبَتَ ﴿أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا

جميعا. والمقصود منه: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيبا عن التعرض لها، وترغيبا في المحاماة عليها. [البيضاوي (٢/ ١٢٤)].

(١) أي: إبل الصدقة، أخرجه أبو داود (٣٧٩٨)، والنسائي (٣٩٥٩)، وأصل الخبر في البخاري (٢٣١)، ومسلم (١٦٧١).

(٢) استثنى الله سبحانه التائبين من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة، والظاهر عدم الفرق بين الدماء والأموال وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقاب المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك، وعليه محمل الصحابة. وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة والحق الأول، وأما التوبة بعد القدرة فلا يسقط بها العقوبة المذكورة في الآية كما يدل عليه ذكر قيد: ﴿قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ﴾. قال القرطبي: وأجمع أهل العلم على أن السلطان وليٌّ من حارب، فإن قتل محارب أخا امرئ أو أباه في حال المحاربة فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شيء ولا يجوز عفو ولي الدم، [وقوله:] ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بهم، عبر بذلك دون: «فلا تحدوهم» ليفيد أنه لا يسقط عنه بتوبته إلا حدود الله دون حقوق الآدميين، قال السيوطي: كذا ظهر لي ولم أر من تعرض له والله أعلم انتهى، أي: من حيث فهمه من الآية وإن كان في نفسه ظاهراً. [صديق حسن (٣/ ٤١١)].

﴿تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾ ﴿يُرِيدُونَ﴾ يتمنَّونَ ﴿أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ دائِمٌ. ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ «ال» فِيهِمَا مَوْصُولَةٌ مُبْتَدَأٌ، وَلِشِبْهِهِ بِالشَّرْطِ دَخَلَتِ الْفَاءُ فِي خَبَرِهِ، وَهُوَ: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ أَيْ: يَمِينَ كُلٍّ مِنْهُمَا مِنَ الْكُوعِ، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّ الَّذِي يُقْطَعُ فِيهِ رُبُعُ دِينَارٍ فَصَاعِدًا[1]، وَأَنَّهُ إِذَا عَادَ قُطِعَتْ رِجْلُهُ الْيُسْرَى مِنْ مَفْصِلِ الْقَدَمِ، ثُمَّ الْيَدُ الْيُسْرَى، ثُمَّ الرِّجْلُ الْيُمْنَى، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُعَزَّرُ[2] ﴿جَزَآءَۢ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ ﴿بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا﴾ عُقُوبَةً لَهُمَا ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴿حَكِيمٞ ٣٨﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ رَجَعَ عَنِ السَّرِقَةِ ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ عَمَلَهُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ فِي التَّعْبِيرِ بِهَذَا مَا تَقَدَّمَ، فَلَا يَسْقُطُ بِتَوْبَتِهِ حَقُّ الْآدَمِيِّ مِنَ الْقَطْعِ وَرَدِّ الْمَالِ، نَعَمْ بَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّهُ إِنْ عَفَا عَنْهُ قَبْلَ الرَّفْعِ إِلَى الْإِمَامِ يَسْقُطُ الْقَطْعُ[3]، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ. ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ الِاسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلتَّقْرِيرِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تَعْذِيبَهُ ﴿وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ الْمَغْفِرَةَ لَهُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠﴾ وَمِنْهُ التَّعْذِيبُ وَالْمَغْفِرَةُ[4]. ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ﴾ صُنْعُ ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ يَقَعُونَ فِيهِ بِسُرْعَةٍ، أَيْ: يُظْهِرُونَهُ إِذَا وَجَدُوا فُرْصَةً ﴿مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ، مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿قَالُوٓاْ﴾ ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ قَوْمٌ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ الَّذِي افْتَرَتْهُ أَحْبَارُهُمْ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ مِنْكَ

---

(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «الْقَطْعُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا». أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٤٣٧٤). [قال ابن جزي (١/ ٢٣١):] عموم الآية يقتضي قطع كل سارق؛ إلا أن الفقهاء اشترطوا في القطع شروطًا خصصوا بها العموم؛ فمن ذلك من اضطره الجوع إلى السرقة لم يقطع عند مالك؛ لتحليل الميتة له، وكذلك من سرق مال والده أو سيده، أو من سرق من غير حرز، أو سرق أقل من النصاب، وهو عند مالك ربع دينار من الذهب، أو ثلاثة دراهم من الفضة، أو ما يساوي أحدهما، وأدلة التخصيص بهذه الأشياء في غير هذه الآية.

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال في السارق يسرق: «إِنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا يَدَهُ، ثُمَّ إِنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا رِجْلَهُ، ثُمَّ إِنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا يَدَهُ، ثُمَّ إِنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا رِجْلَهُ». أخرجه الدارقطني في السنن: (٣/ ١٨١).

(٣) عن عبد الله بن عمرو، أن امرأة، سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم، فقالوا يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نفديها - يعني أهلها - فقال رسول الله ﷺ: «اقْطَعُوا يَدَهَا»، فقالوا: نحن نفديها بخمس مائة دينار، قال: «اقْطَعُوا يَدَهَا»، قال: فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ، أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكِ كَيَوْمِ وَلَدَتْكِ أُمُّكِ»، فأنزل الله عز وجل في سورة المائدة: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ [المائدة: ٣٩] إلى آخر الآية. أخرجه أحمد (٦٦٥٧).

(٤) وذلك أن لله ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته. [السعدي (ص: ٢٣٠)].

﴿لِقَوْمٍ﴾ لِأَجْلِ قَوْمٍ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ مِنَ الْيَهُودِ ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وَهُمْ أَهْلُ خَيْبَرَ، زَنَى فِيهِمْ مُحْصَنَانِ فَكَرِهُوا رَجْمَهُمَا، فَبَعَثُوا قُرَيْظَةَ لِيَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ حُكْمِهِمَا(١) ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الَّذِي فِي التَّوْرَاةِ كَآيَةِ الرَّجْمِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ الَّتِي وَضَعَهُ اللهُ عَلَيْهَا، أَيْ: يُبَدِّلُونَهُ ﴿يَقُولُونَ﴾ لِمَنْ أَرْسَلُوهُمْ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا﴾ الْحُكْمَ الْمُحَرَّفَ، أَيِ: الْجَلْدَ الَّذِي أَفْتَاكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فَاقْبَلُوهُ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بَلْ أَفْتَاكُمْ بِخِلَافِهِ ﴿فَاحْذَرُوا﴾ أَنْ تَقْبَلُوهُ ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ إِضْلَالَهُ ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فِي دَفْعِهَا ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَوْ أَرَادَهُ لَكَانَ(٢) ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذُلٌّ بِالْفَضِيحَةِ وَالْجِزْيَةِ ﴿وَلَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾. هُمْ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا، أَيِ: الْحَرَامِ كَالرِّشَا ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ لِتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ هَذَا التَّخْيِيرُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ [المائدة: ٤٩]، فَيَجِبُ الْحُكْمُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَرَافَعُوا إِلَيْنَا، وَهُوَ أَصَحُّ قَوْلَيِ الشَّافِعِيِّ، فَلَوْ تَرَافَعُوا إِلَيْنَا مَعَ مُسْلِمٍ وَجَبَ إِجْمَاعًا ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ بَيْنَهُمْ ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الْعَادِلِينَ فِي الْحُكْمِ، أَيْ: يُثِيبُهُمْ(٣). ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ بِالرَّجْمِ، اِسْتِفْهَامُ تَعْجِيبٍ، أَيْ: لَمْ يَقْصِدُوا بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ بَلْ مَا هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ يُعْرِضُونَ عَنْ حُكْمِكَ بِالرَّجْمِ الْمُوَافِقِ لِكِتَابِهِمْ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ التَّحْكِيمِ ﴿وَمَآ أُولَٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَنُورٌ﴾ بَيَانٌ

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟»، فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة. أخرجه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩).

(٢) هذا فيمن هو أهل للإضلال، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف ٥]. [ابن عثيمين تفسير المائدة (١/ ٤٠١)]. والجملة استئناف مبين لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء. وفي هذه الآية دلالة على أن الله تعالى لم يرد إسلام الكافر وأنه لم يطهر قلبه من الشك والشرك ولو فعل ذلك لآمن، وهذه الآية من أشد الآيات على القدرية. [صديق حسن (٣/ ٤٢٣)].

(٣) وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه. [السعدي]. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا». أخرجه مسلم (١٨٢٧).

لِلأَحْكَامِ ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ اِنْقَادُوا لِلَّهِ ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ﴾ اَلْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ اَلْفُقَهَاء ﴿بِمَا﴾ أَيْ: بِسَبَبِ اَلَّذِي ﴿ٱسْتُحْفِظُوا۟﴾ اُسْتُودِعُوهُ، أَيِ: اِسْتَحْفَظَهُمُ اَللهُ إِيَّاهُ ﴿مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أَنْ يُبَدِّلُوهُ ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أَنَّهُ حَقٌّ ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ﴾ أَيُّهَا اَلْيَهُودُ فِي إِظْهَارِ مَا عِنْدَكُمْ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالرَّجْمِ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ فِي كِتْمَانِهِ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾ تَسْتَبْدِلُوا ﴿بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ اَلدُّنْيَا تَأْخُذُونَهُ عَلَى كِتْمَانِهَا ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بِهِ[1]. ﴿وَكَتَبْنَا﴾ فَرَضْنَا ﴿عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ أَيِ: اَلتَّوْرَاةِ ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ تُقْتَلُ ﴿بِٱلنَّفْسِ﴾ إِذَا قَتَلَتْهَا ﴿وَٱلْعَيْنَ﴾ تُفْقَأُ ﴿بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ﴾ يُجْدَعُ ﴿بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ﴾ تُقْطَعُ ﴿بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ﴾ تُقْلَعُ ﴿بِٱلسِّنِّ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ فِي اَلْأَرْبَعَةِ ﴿وَٱلْجُرُوحَ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ ﴿قِصَاصٌ﴾ أَيْ: يُقْتَصُّ فِيهَا إِنْ أَمْكَنَ، كَالْيَدِ وَالرِّجْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمَا لَا يُمْكِنُ فِيهِ: اَلْحُكُومَةُ، وَهَذَا اَلْحُكْمُ وَإِنْ كُتِبَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ مُقَرَّرٌ فِي شَرْعِنَا ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالْقِصَاصِ، بِأَنْ مَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ لِمَا أَتَاهُ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فِي اَلْقِصَاصِ وَغَيْرِهِ ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا﴾ أَتْبَعْنَا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم﴾ أَيِ: اَلنَّبِيِّينَ ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ مِنَ

---

(١) الكفر نوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر. فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار. والأصغر موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود، كما في الحديث: «اثْنَتَانِ فِي أُمَّتِي، هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ». أخرجه مسلم (٦٧) ... وقوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». أخرجه البخاري (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٦). وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ قال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، وكذلك قال طاوس، وقال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. ومنهم من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدا له، وهو قول عكرمة، وهو تأويل مرجوح، فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم. ومنهم من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله، قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام، وهذا تأويل عبد العزيز الكناني، وهو أيضا بعيد، إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه. ومنهم من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاه البغوي عن العلماء عموما. ومنهم من تأولها على أهل الكتاب، وهو قول قتادة، والضحاك وغيرهما، وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ، فلا يصار إليه. ومنهم من جعله كفرا ينقل عن الملة. والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانا، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ، له حكم المخطئين. [مدارج السالكين لابن قيم (١/ ٥١٧)].

الضَّلَالَةِ ﴿وَنُورٌ﴾ بَيَانٌ لِلْأَحْكَامِ ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ حَالٌ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَ﴾ قُلْنَا: ﴿لِيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَصْبِ «يَحْكُمَ» وَكَسْرِ لَامِهِ عَطْفًا عَلَى مَعْمُولِ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿أَنزَلْنَآ﴾، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا﴾ شَاهِدًا ﴿عَلَيْهِ﴾ وَ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ بِمَعْنَى الْكُتُبِ ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ، إِذَا تَرَافَعُوا إِلَيْكَ ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إِلَيْكَ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ عَادِلًا ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أَيُّهَا الْأُمَمُ ﴿شِرْعَةً﴾ شَرِيعَةً ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ طَرِيقًا وَاضِحًا فِي الدِّينِ يَمْشُونَ عَلَيْهِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عَلَى شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿وَلَٰكِن﴾ فَرَّقَكُمْ فِرَقًا ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ لِيَخْتَبِرَكُمْ ﴿فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُخْتَلِفَةِ، لِيَنْظُرَ الْمُطِيعَ مِنْكُمْ وَالْعَاصِيَ[2] ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ سَارِعُوا إِلَيْهَا ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بِالْبَعْثِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، وَيَجْزِي كُلًّا مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ. ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ﴾ لِـ﴿أَن﴾ لَا ﴿يَفْتِنُوكَ﴾ يُضِلُّوكَ ﴿عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عَنِ الْحُكْمِ الْمُنَزَّلِ، وَأَرَادُوا غَيْرَهُ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم﴾ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ الَّتِي أَتَوْهَا، وَمِنْهَا التَّوَلِّي، وَيُجَازِيهِمْ عَلَى جَمِيعِهَا فِي الْأُخْرَى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، يَطْلُبُونَ مِنَ الْمُدَاهَنَةِ وَالْمَيْلِ إِذَا تَوَلَّوْا؟ اِسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ[3] ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا

---

(١) تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر، والظلم، والفسق، كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مرادا به المعصية تارة، والكفر المخرج من الملة أخرى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ معارضة للرسل وإبطالا لأحكام الله، فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة، ومن لم يحكم بما أنزل الله معتقدا أنه مرتكب حراما فاعل قبيحا فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة، وظاهر القرآن يدل على أن [الآية] الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب. [الشنقيطي (٢/ ١٢٥)].

(٢) معنى الآية: أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن، وأما بعده فلا شرعة ولا منهاج إلا ما جاء به ﷺ... وقد وردت آيات دالة على عدم التباين في طريقة الأنبياء وعلى حصول التباين بينهم، والجمع بينها أن الأولى في أصول الدين، والثانية في فروعه وما يتعلق بظاهر العبادات والله أعلم. [صديق حسن (٣/ ٤٤٥)].

(٣) أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى

﴿لِّقَوۡمٍ﴾ عِنْدَ قَوْمٍ ﴿يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ بِهِ، خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَتَدَبَّرُونَهُ. ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ تُوَالُونَهُمْ وَتُوَادُّونَهُمْ ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ لِاتِّحَادِهِمْ فِي الْكُفْرِ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ مِنْ جُمْلَتِهِمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ بِمُوَالَاتِهِمُ الْكُفَّارَ[1]. ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ضَعْفُ اعْتِقَادٍ؛ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ الْمُنَافِقِ ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ فِي مُوَالَاتِهِمْ ﴿يَقُولُونَ﴾ مُعْتَذِرِينَ عَنْهَا: ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ يَدُورُ بِهَا الدَّهْرُ عَلَيْنَا مِنْ جَدْبٍ أَوْ غَلَبَةٍ، وَلَا يَتِمُّ أَمْرُ مُحَمَّدٍ فَلَا يُمِيرُونَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ﴾ بِالنَّصْرِ لِنَبِيِّهِ، بِإِظْهَارِ دِينِهِ ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ بِهَتْكِ سِتْرِ الْمُنَافِقِينَ وَافْتِضَاحِهِمْ ﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ مِنَ الشَّكِّ وَمُوَالَاةِ الْكُفَّارِ ﴿نَٰدِمِينَ ۝٥٢ وَيَقُولُ﴾ بِالرَّفْعِ اسْتِئْنَافًا بِوَاوٍ وَدُونِهَا، وَبِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿يَأۡتِيَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لِبَعْضِهِمْ إِذَا هَتَكَ سِتْرَهُمْ تَعَجُّبًا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ غَايَةَ اجْتِهَادِهِمْ فِيهَا ﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾ فِي الدِّينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَبِطَتۡ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الصَّالِحَةُ ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ صَارُوا ﴿خَٰسِرِينَ ۝٥٣﴾ الدُّنْيَا بِالْفَضِيحَةِ، وَالْآخِرَةَ بِالْعِقَابِ. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن

فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى. [السعدي (ص:٢٣٤)].

(١) والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان. وقد يجوز أن تكون الآية نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول وحلفائهما من اليهود، ويجوز أن تكون نزلت في أبي لبابة بسبب فعله في بني قريظة، ويجوز أن تكون نزلت في شأن الرجلين اللذين ذكر السدي أن أحدهما هم باللحاق بدهلك اليهودي، والآخر بنصراني بالشأم، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر تثبت بمثله حجة، فيسلم لصحته القول بأنه كما قيل. فإذ كان ذلك كذلك، فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عم، ويجوز ما قاله أهل التأويل فيه من القول الذي لا علم عندنا بخلافه. غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالي يهودا أو نصارى خوفا على نفسه من دوائر الدهر، لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك. وذلك قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ الآية. وأما قوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ فإنه عنى بذلك: أن بعض اليهود أنصار بعضهم على المؤمنين، ويد واحدة على جميعهم، وأن النصارى كذلك، بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم، معرِّفًا بذلك عباده المؤمنين: أن من كان لهم أو لبعضهم وليًّا، فإنما هو وليهُّم على من خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حَرْب. فقال تعالى ذكره للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضًا بعضكم أولياء بعض، ولليهودي والنصراني حربًا كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أولياء، لأن من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحرب، ومنهم البراءة، وأبان قطع وَلايتهم. [الطبري (٨/ ٥٠٧)].

﴿يَرْتَدَّ﴾ بِالْفَكِّ وَالْإِدْغَامِ[١]؛ يَرْجِعْ ﴿مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ إِلَى الْكُفْرِ إِخْبَارٌ بِمَا عَلِمَ اللهُ وُقُوعَهُ مِنْهُمْ، وَقَدِ ارْتَدَّ جَمَاعَةٌ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ﴾ بَدَلَهُمْ ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قَالَ ﷺ: «هُمْ قَوْمُ هَذَا»، وَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ[٢]. رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ[٣] ﴿أَذِلَّةٍ﴾ عَاطِفِينَ ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ﴾ أَشِدَّاءَ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ فِيهِ، كَمَا يَخَافُ الْمُنَافِقُونَ لَوْمَ الْكُفَّارِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنَ الْأَوْصَافِ ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كَثِيرُ الْفَضْلِ ﴿عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ بِمَنْ هُوَ أَهْلُهُ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: «يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ قَوْمَنَا هَاجَرُونَا»: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ خَاشِعُونَ، أَوْ يُصَلُّونَ صَلَاةَ التَّطَوُّعِ[٤]. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فَيُعِينُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ لِنَصْرِهِ إِيَّاهُمْ، أَوْقَعَهُ مَوْقِعَ «فَإِنَّهُمْ» بَيَانًا لِأَنَّهُمْ مِنْ حِزْبِهِ، أَيْ: أَتْبَاعِهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا﴾ مَهْزُوءًا بِهِ ﴿وَلَعِبًا مِّنَ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ﴾ الْمُشْرِكِينَ، بِالْجَرِّ وَالنَّصْبِ ﴿أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بِتَرْكِ مُوَالَاتِهِمْ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ صَادِقِينَ فِي إِيمَانِكُمْ. ﴿وَ﴾ الَّذِينَ ﴿إِذَا نَادَيْتُمْ﴾ دَعَوْتُمْ ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بِالْأَذَانِ ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾ أَيِ: الصَّلَاةَ ﴿هُزُوًا وَلَعِبًاۚ﴾ بِأَنْ يَسْتَهْزِئُوا بِهَا وَيَتَضَاحَكُوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الِاتِّخَاذُ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ

---

(١) الفك: إظهار الدالين في اللفظ، وبالإدغام، أي: بقراءة «يَرتَدَّ». [قباوة (ص:٤٠٤)].

(٢) قال علي، والحسن: نزل هذا في أبي بكر وأصحابه. وكان الحسن يحلف على هذا، أنه نزل في أبي بكر وأصحابه، وذلك أن النبي لما خرج إلى رحمة الله ارتدت العرب، ولم يبق الإسلام إلا في ثلاثة مساجد: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد البحرين؛ فهم أبو بكر بالقتال، وكره الصحابة ذلك، وقالوا: إن بعضهم منع الزكاة، ولم يتركوا الصلاة، وقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، وقيل: إنه سل سيفه، وخرج وحده، وقال: أقاتل وحدي، ثم وافقه الصحابة، قال ابن مسعود: كرهنا ذلك في الابتداء، ثم حمدناه عليه في الانتهاء، قال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد مولود بعد النبيين أفضل من أبي بكر، لقد قام مقام نبي من الأنبياء، يعني: في قتال أهل الردة، وردهم إلى الإسلام. [السمعاني (٢/ ٤٦)]. [وهي في] كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين في جميع الزمن. [الشوكاني (٢/ ٥٩)].

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣١٣)، وابن جرير في التفسير (٦/ ٢٨٤)، والطبراني (١٧/ ٣٧١).

(٤) قوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ قد توهم بعضهم أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ... وحتى إن بعضهم ذكر في هذا آثارا عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه، ذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه، فأعطاه خاتمه ... وليس يصح شيء منها بالكلية، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها ... وعن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا. [ابن كثير (٣/ ١٣٨)].

﴿قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨﴾. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ اليَهُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «بِمَنْ تُؤْمِنُ مِنَ الرُّسُلِ؟» فَقَالَ: ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] الآيَةَ، فَلَمَّا ذَكَرَ عِيسَى، قَالُوا: «لَا نَعْلَمُ دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُمْ»(١): ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ﴾ تُنْكِرُونَ ﴿مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ إِلَى الأَنْبِيَاءِ ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَنۡ ءَامَنَّا﴾، المَعْنَى: مَا تُنْكِرُونَ إِلَّا إِيمَانَنَا وَمُخَالَفَتَكُمْ فِي عَدَمِ قَبُولِهِ، المُعَبَّرِ عَنْهُ بِالفِسْقِ اللَّازِمِ عَنْهُ، وَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يُنْكَرُ. ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم﴾ أُخْبِرُكُمْ ﴿بِشَرّٖ مِّن﴾ أَهْلِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي تَنْقِمُونَهُ ﴿مَثُوبَةً﴾ ثَوَابًا بِمَعْنَى جَزَاءً ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ هُوَ ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ بِالمَسْخِ ﴿وَ﴾ مَنْ ﴿عَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ الشَّيْطَانَ بِطَاعَتِهِ(٢)، وَرُوعِيَ فِي ﴿مِنۡهُمُ﴾ مَعْنَى «مَنْ» وَفِيمَا قَبْلَهُ لَفْظُهَا وَهُمُ اليَهُودُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ بَاءِ ﴿عَبُدَ﴾ وَإِضَافَتِهِ إِلَى مَا بَعْدَهُ اسْمُ جَمْعٍ لِـ «عَبْد»، وَنَصْبُهُ بِالعَطْفِ عَلَى ﴿ٱلۡقِرَدَةَ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ تَمْيِيزٌ؛ لِأَنَّ مَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾ طَرِيقِ الحَقِّ، وَأَصْلُ السَّوَاءِ الوَسَطُ، وَذِكْرُ ﴿شَرّٞ﴾، ﴿وَأَضَلُّ﴾ فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِمْ: «لَا نَعْلَمُ دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُمْ». ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ﴾ أَيْ: مُنَافِقُو اليَهُودِ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ﴾ إِلَيْكُمْ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ﴾ مِنْ عِنْدِكُمْ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِهِۦۚ﴾ وَلَمْ يُؤْمِنُوا ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١﴾ ـهُ مِنَ النِّفَاقِ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أَيْ: اليَهُودِ ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ يَقَعُونَ سَرِيعًا ﴿فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾ الكَذِبِ ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ الظُّلْمِ ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ الحَرَامَ كَالرُّشَا ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢﴾ ـهُ عَمَلُهُمْ هَذَا. ﴿لَوۡلَا﴾ هَلَّا ﴿يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ مِنْهُمْ ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ﴾ الكَذِبَ ﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ٦٣﴾ ـهُ تَرْكُ نَهْيِهِمْ. ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾ لَمَّا ضُيِّقَ عَلَيْهِمْ بِتَكْذِيبِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ مَالًا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ مَقْبُوضَةٌ عَنْ إِدْرَارِ الرِّزْقِ عَلَيْنَا، كَنَّوْا بِهِ عَنِ البُخْلِ - تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ - قَالَ تَعَالَى: ﴿غُلَّتۡ﴾ أُمْسِكَتْ ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ عَنْ فِعْلِ الخَيْرَاتِ، دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ مُبَالَغَةٌ فِي الوَصْفِ بِالجُودِ، وَثُنِّيَ اليَدُ لِإِفَادَةِ الكَثْرَةِ، إِذْ غَايَةُ مَا يَبْذُلُهُ السَّخِيُّ مِنْ مَالِهِ أَنْ يُعْطِيَ بِيَدَيْهِ(٣) ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ

---

(١) انظر: الطبري: (٦/ ٢٩٢)، والدر المنثور: (٣/ ١٠٨).

(٢) انظر معنى «الطاغوت» التعليق على آية (٢٥٦) من سورة البقرة.

(٣) يد الله صفة من صفاته، كالسمع، والبصر، والوجه، وقال جل ذكره: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وقال النبي ﷺ: «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ». أخرجه مسلم (١٨٢٧)، والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: «أمروها كما جاءت بلا كيف». [البغوي (٣/ ٧٧)]. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ،

يَشَآءُۚ﴾ مِنْ تَوْسِيعٍ وَتَضْيِيقٍ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ﴾ لِكُفْرِهِمْ بِهِ ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ فَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تُخَالِفُ الْأُخْرَى ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ أَيْ: لِحَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ أَيْ: كُلَّمَا أَرَادُوهُ رَدَّهُمْ ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ﴾ أَيْ: مُفْسِدِينَ بِالْمَعَاصِي ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٤﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ(١). ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ الْكُفْرَ ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِمَا، وَمِنْهُ الْإِيمَانُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم﴾ مِنَ الْكُتُبِ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ﴾ بِأَنْ يُوَسِّعَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقَ، وَيَفِيضَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿مُّقْتَصِدَةٌۖ﴾ تَعْمَلُ بِهِ، وَهُمْ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَا﴾ شَيْئًا ﴿يَعْمَلُونَ ۝٦٦﴾ هُ. ﴿* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ جَمِيعَ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ وَلَا تَكْتُمْ شَيْئًا مِنْهُ خَوْفًا أَنْ تُنَالَ بِمَكْرُوهٍ ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أَيْ: لَمْ تُبَلِّغْ جَمِيعَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ بِالْإِفْرَادِ وَالْجَمْعِ؛ لِأَنَّ كِتْمَانَ بَعْضِهَا كَكِتْمَانِ كُلِّهَا(٢) ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ أَنْ يَقْتُلُوكَ، وَكَانَ ﷺ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ، فَقَالَ: «انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ(٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٧ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ مِنَ الدِّينِ مُعْتَدٍّ بِهِ ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ بِأَنْ تَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، وَمِنْهُ الْإِيمَانُ بِي ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ

سَحَّاء اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ»، قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»، قَالَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» أخرجاه في الصحيحين البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).

(١) أي: من سجيتهم أنهم دائما يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته. [ابن كثير (٣/ ١٤٧)]، والمحبة ثابتة لله، ... وهي محبة حقيقية أثبتها أهل السُّنَّة والجماعة على قاعدةٍ معروفةٍ وهي: وجوب إجراء النصوص على ظاهرها في باب صفات الله، وأن الله يُحب. خلافًا لمن فسَّر المحبة بالثواب أو بإرادة الثواب ممن ينكرون قيام المحبة بالله عز وجل، ... حتى إذا قلنا: إنها ثواب، يلزم من الثواب المحبة؛ لأن الله لا يُثيب إلا من يحبه، حتى لو فسرناها بإرادة الثواب يلزم منها المحبة أيضًا؛ لأن الله لا يريد أن يُثيب أحدًا إلا حيث يحبه. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/ ١٢٥)]. ومثله تأويل «لا يحبه» بـ«يعاقبه» يلزم من العقاب ألا يحبه؛ لأن الله لا يعاقب إلا من لا يحبه.

(٢) ذكر المفسرون في سبب نزول الآية وجوها، واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حمله على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم؛ وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاما مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها. [الرازي (١٢/ ٤٠١)].

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦)، والحاكم (٣٢٢١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٠٦).

﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لِكُفْرِهِمْ بِهِ ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ تَحْزَنْ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٦٨﴾ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِكَ، أَيْ: لَا تَهْتَمَّ بِهِمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ هُمُ الْيَهُودُ، مُبْتَدَأٌ ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ[1] ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ وَيُبْدَلُ مِنَ الْمُبْتَدَأِ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾ فِي الْآخِرَةِ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، وَدَالٌّ عَلَى خَبَرِ ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ مِنَ الْحَقِّ كَذَّبُوهُ ﴿فَرِيقًا﴾ مِنْهُمْ ﴿كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا﴾ مِنْهُمْ ﴿يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَالتَّعْبِيرُ بِهِ دُونَ «قَتَلُوا» حِكَايَةً لِلْحَالِ الْمَاضِيَةِ، لِلْفَاصِلَةِ[2]. ﴿وَحَسِبُوٓا۟﴾ ظَنُّوا ﴿أَ﴾ نْ ﴿لَا تَكُونُ﴾ بِالرَّفْعِ وَ «أَنْ» مُخَفَّفَةٌ، وَالنَّصْبِ فَهِيَ نَاصِبَةٌ، أَيْ: تَقَعُ ﴿فِتْنَةٌ﴾ عَذَابٌ بِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَقَتْلِهِمْ ﴿فَعَمُوا۟﴾ عَنِ الْحَقِّ فَلَمْ يُبْصِرُوهُ ﴿وَصَمُّوا۟﴾ عَنِ اسْتِمَاعِهِ ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لَمَّا تَابُوا ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ ثَانِيًا ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ[3] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٧١﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِهِ. ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ سَبَقَ مِثْلُهُ[4] ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ ﴿ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فَإِنِّي عَبْدٌ وَلَسْتُ بِإِلَهٍ ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَهُ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ مَنَعَهُ أَنْ يَدْخُلَهَا ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ. ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ﴾ آلِهَةٍ ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ أَيْ: أَحَدُهَا، وَالْآخَرَانِ عِيسَى وَأُمُّهُ، وَهُمْ فِرْقَةٌ مِنَ النَّصَارَى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مِنَ التَّثْلِيثِ وَيُوَحِّدُوا ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾

---

(١) انظر التعليق على آية (٦٢) من سورة البقرة.

(٢) قال مقاتل: أخذ ميثاقهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها. قال ابن عباس: كان فيمن كذبوا محمد وعيسى، وفيمن قتلوا زكريا ويحيى. قال الزجاج: فأما التكذيب فاليهود والنصارى يشتركون فيه. وأما القتل فيختص باليهود. [ابن الجوزي (١/ ٥٧٠)].

(٣) قال الإمام القفال: ذكر الله تعالى في سورة «بني إسرائيل» ما يجوز أن يكون تفسيرا لهذه الآية فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ [الإسراء: ٤-٦] فهذا في معنى: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] فهذا في معنى قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ انتهى. [القاسمي (٤/ ٢١١)].

(٤) في سورة النساء آية: (١٧١).

أَيْ: ثَبَتُوا عَلَى الْكُفْرِ ﴿مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾ مُؤْلِمٌ، هُوَ النَّارُ. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ مِمَّا قَالُوا، اِسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَنْ تَابَ ﴿رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ بِهِ. ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مَضَتْ ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فَهُوَ يَمْضِي مِثْلَهُمْ، وَلَيْسَ بِإِلَهٍ كَمَا زَعَمُوا، وَإِلَّا لَمَا مَضَى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ مُبَالَغَةٌ فِي الصِّدْقِ ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ كَغَيْرِهِمَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ(١)، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَهًا لِتَرْكِيبِهِ(٢) وَضَعْفِهِ وَمَا يَنْشَأُ مِنْهُ مِنَ الْبَوْلِ وَالْغَائِطِ ﴿ٱنظُرْ﴾ مُتَعَجِّبًا ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ﴾ كَيْفَ ﴿يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِكُمْ ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٧٦﴾ بِأَحْوَالِكُمْ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿لَا تَغْلُوا۟﴾ تُجَاوِزُوا الْحَدَّ ﴿فِى دِينِكُمْ﴾ غُلُوًّا ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بِأَنْ تَضَعُوا عِيسَى أَوْ تَرْفَعُوهُ فَوْقَ حَقِّهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ بِغُلُوِّهِمْ وَهُمْ أَسْلَافُهُمْ ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧﴾ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَالسَّوَاءُ فِي الْأَصْلِ: الْوَسَطُ. ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ﴾ بِأَنْ دَعَا عَلَيْهِمْ فَمُسِخُوا قِرَدَةً، وَهُمْ أَصْحَابُ «أَيْلَةَ» ﴿وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بِأَنْ دَعَا عَلَيْهِمْ فَمُسِخُوا خَنَازِيرَ، وَهُمْ أَصْحَابُ «الْمَائِدَةِ» ﴿ذَٰلِكَ﴾ اللَّعْنُ ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أَيْ: لَا يَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿عَن﴾ مُعَاوَدَةِ ﴿مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ فِعْلُهُمْ هَذَا. ﴿تَرَىٰ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، بُغْضًا لَكَ ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ مِنَ الْعَمَلِ لِمَعَادِهِمُ الْمُوجِبِ لَهُمْ ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارَ ﴿أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨١﴾ خَارِجُونَ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿*لَتَجِدَنَّ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ؛ لِتَضَاعُفِ كُفْرِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَانْهِمَاكِهِمْ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: قُرْبُ مَوَدَّتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ عُلَمَاءَ ﴿وَرُهْبَانًا﴾ عُبَّادًا ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢﴾ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، كَمَا يَسْتَكْبِرُ

---

(١) الحيوان: اسم يقع على كل شيء حي. [لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٢١٤)]. [أي:] يفتقران إليه افتقار الحيوانات، بين أولا أقصى ما لهما من الكمال ودل على أنه لا يوجب لهما ألوهية؛ لأن كثيرا من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبه على نقصهما وذكر ما ينافي الربوبية. [البيضاوي (٢/ ١٣٨)].

(٢) انظر التعليق على آية (١٧١) من سورة النساء.

اَلْيَهُودُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، نَزَلَتْ فِي وَفْدِ النَّجَاشِيِّ الْقَادِمِينَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَبَشَةِ، قَرَأَ ﷺ سُورَةَ «يس» فَبَكَوْا وَأَسْلَمُوا، وَقَالُوا: مَا أَشْبَهَ هَذَا بِمَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَى عِيسَى(١). قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ صَدَّقْنَا بِنَبِيِّكَ وَكِتَابِكَ ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ اَلْمُقَرَّبِينَ بِتَصْدِيقِهِمْ. ﴿وَ﴾ قَالُوا فِي جَوَابِ مَنْ عَيَّرَهُمْ بِالْإِسْلَامِ مِنَ الْيَهُودِ ﴿مَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ اَلْقُرْآنِ، أَيْ: لَا مَانِعَ لَنَا مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ وُجُوبِ مُقْتَضِيهِ ﴿وَنَطْمَعُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿نُؤْمِنُ﴾، ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ اَلْمُؤْمِنِينَ اَلْجَنَّةَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ بِالْإِيمَانِ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾. وَنَزَلَ لَمَّا هَمَّ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ يُلَازِمُوا الصَّوْمَ وَالْقِيَامَ وَلَا يَقْرَبُوا النِّسَاءَ وَالطِّيبَ وَلَا يَأْكُلُوا اللَّحْمَ وَلَا يَنَامُوا عَلَى الْفِرَاشِ(٢): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ﴾ تَتَجَاوَزُوا أَمْرَ اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾ مَفْعُولٌ، وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ قَبْلَهُ حَالٌ مُتَعَلِّقٌ بِهِ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾ اَلْكَائِنِ ﴿فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ هُوَ مَا يَسْبِقُ إِلَيْهِ اللِّسَانُ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ الْحَلِفِ، كَقَوْلِ الْإِنْسَانِ: «لَا وَاللهِ» وَ«بَلَى وَاللهِ» ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عَٰقَدتُّمُ﴾، ﴿ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ﴾ عَلَيْهِ؛ بِأَنْ حَلَفْتُمْ عَنْ قَصْدٍ ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ أَيِ: الْيَمِينِ إِذَا حَنِثْتُمْ فِيهِ ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدٌّ ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ﴾ مِنْهُ ﴿أَهْلِيكُمْ﴾ أَيْ: أَقْصَدُهُ وَأَغْلَبُهُ، لَا أَعْلَاهُ وَلَا أَدْنَاهُ ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ بِمَا يُسَمَّى كِسْوَةً؛ كَقَمِيصٍ وَعِمَامَةٍ وَإِزَارٍ، وَلَا يَكْفِي دَفْعُ مَا ذُكِرَ إِلَى مِسْكِينٍ وَاحِدٍ،

---

(١) يتعين هنا إرادة البعض وهو من جاء من الحبشة إلى النبي ﷺ لأن كل النصارى ليسوا كذلك. [الآلوسي (٤/ ٥)]. قال أبو بكر الرازي: من الجهال من يظن أن في هذه الآية مدحا للنصارى، وإخبارا بأنهم خير من اليهود، وليس كذلك؛ لأن ما في الآية من ذلك إنما هو صفة قوم قد آمنوا بالله وبالرسول ﷺ. [أبو حيان (٤/ ٣٤٤)]. وفي الحديث سأل سلمان الفارسي رضي الله عنه رسول الله فقال: أخبرني عن النصارى؟ قال: «لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَلَا فِيمَنْ أَحَبَّهُمْ»، فقمت وأنا مثقل فأنزل الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾، فأرسل الي فقال: «يَا سَلْمَانُ إِنَّ أَصْحَابَكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ». أخرجه الطبري (٧/ ٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٦٧٩).

(٢) عن عائشة رضي الله عنها أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم. وقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ، وَآكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

وَعَلَيْهِ اَلشَّافِعِيُّ ﴿أَوْ تَحْرِيرُ﴾ عِتْقُ ﴿رَقَبَةٍ﴾ أَيْ: مُؤْمِنَةٍ، كَمَا فِي كَفَّارَةِ اَلْقَتْلِ وَالظِّهَارِ، حَمْلًا لِلْمُطْلَقِ عَلَى اَلْمُقَيَّدِ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ وَاحِدًا مِمَّا ذُكِرَ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ كَفَّارَتُهُ، وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ اَلتَّتَابُعُ، وَعَلَيْهِ اَلشَّافِعِيُّ[١] ﴿ذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورُ ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وَحَنِثْتُمْ ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أَنْ تَنْكُثُوهَا، مَا لَمْ يَكُنْ عَلَى فِعْلِ بِرٍّ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ اَلنَّاسِ، كَمَا فِي سُورَةِ «اَلْبَقَرَةِ»[٢] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ مَا بُيِّنَ لَكُمْ مَا ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ ـهُ عَلَى ذَلِكَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ اَلْمُسْكِرُ اَلَّذِي يُخَامِرُ اَلْعَقْلَ ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ اَلْقِمَارُ ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ اَلْأَصْنَامُ ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ قِدَاحُ اَلِاسْتِقْسَامِ ﴿رِجْسٌ﴾ خَبِيثٌ مُسْتَقْذَرٌ ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ اَلَّذِي يُزَيِّنُهُ ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أَيِ: اَلرِّجْسَ اَلْمُعَبَّرَ بِهِ عَنْ هَذِهِ اَلْأَشْيَاءِ، أَنْ تَفْعَلُوهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ إِذَا أَتَيْتُمُوهُمَا، لِمَا يَحْصُلُ فِيهِمَا مِنَ اَلشَّرِّ وَالْفِتَنِ ﴿وَيَصُدَّكُمْ﴾ بِالِاشْتِغَالِ بِهِمَا ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ تَعْظِيمًا لَهَا ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ عَنْ إِتْيَانِهِمَا؟ أَيِ: اِنْتَهُوا[٣]. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ﴾ اَلْمَعَاصِيَ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنِ اَلطَّاعَةِ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ اَلْإِبْلَاغُ اَلْبَيِّنُ، وَجَزَاؤُكُمْ عَلَيْنَا. ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ أَكَلُوا مِنَ اَلْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قَبْلَ اَلتَّحْرِيمِ ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ اَلْمُحَرَّمَاتِ ﴿وَّءَامَنُواْ

---

(١) وقرئ: «متتابعات» حكي ذلك عن ابن مسعود وأُبي فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم، وبه قال أبو حنيفة والثوري وهو أحد قولي الشافعي، وقال مالك والشافعي في قوله الآخر يجزئ التفريق، وظاهره أنه لا يشترط التتابع. [صديق حسن (٤/ ٤٤)].

(٢) الآية (٢٢٤) من سورة البقرة.

(٣) عن أبي هريرة ﷺ قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية [البقرة:٢١٩]. فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله عز وجل آية أغلظ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] قالوا: انتهينا ربنا. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، وناس ماتوا على سرفهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ إلى آخر الآية [المائدة: ٩٣]، وقال النبي ﷺ: «لَوْ حَرُمَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوهُ كَمَا تَرَكْتُمْ». أخرجه أحمد (٨٦٠٥). [ابن كثير (٣/ ١٧٩)].

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ ثبتوا على التقوى والإيمان ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ﴾ العمل ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ٩٣﴾ بمعنى أنه يثيبهم[١]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ ليختبرنكم ﴿ٱللَّهُ بِشَىْءٍ﴾ يرسله لكم ﴿مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ﴾ أي: الصغار منه ﴿أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ الكبار منه، وكان ذلك بالحديبية وهم محرمون، فكانت الوحش والطير تغشاهم في رحالهم ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ علم ظهور ﴿مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ﴾ حال، أي: غائبًا لم يره فيجتنب الصيد ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ النهي عنه فاصطاده ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٩٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ﴾ محرمون بحج أو عمرة ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ﴾ بالتنوين ورفع ما بعده، أي: فعليه جزاء هو ﴿مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: شبهه في الخلقة، وفي قراءة: بإضافة «جزاء» ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ﴾ أي: بالمثل رجلان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ لهما فطنة يميزان بها أشبه الأشياء به، وقد حكم ابن عباس وعمر وعلي رضي الله عنهم في النعامة ببدنة، وابن عباس وأبو عبيدة في بقر الوحش وحماره ببقرة، وابن عمر وابن عوف في الظبي بشاة، وحكم بها ابن عباس وعمر وغيرهما في الحمام؛ لأنه يشبهها في العب ﴿هَدْيًا﴾ حال من «جزاء» ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: يبلغ به الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه، ولا يجوز أن يذبح حيث كان، ونصبه نعتًا لما قبله، وإن أضيف؛ لأن إضافته لفظية لا تفيد تعريفًا، فإن لم يكن للصيد مثل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾ غير الجزاء، وإن وجده، هي: ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ من غالب قوت البلد، ما يساوي قيمة الجزاء لكل مسكين مد، وفي قراءة: بإضافة ﴿كَفَّٰرَةٌ﴾ لما بعده وهي للبيان ﴿أَوْ﴾ عليه ﴿عَدْلُ﴾ مثل ﴿ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ يصومه، عن كل مد يوم وإن وجده وجب ذلك عليه ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ﴾ ثقل جزاء ﴿أَمْرِهِۦۗ﴾ الذي فعله ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾ من قتل الصيد قبل تحريمه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إليه ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ ممن عصاه، وألحق بقتله متعمدًا فيما ذكر الخطأ. ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها الناس حلالًا كنتم أو محرمين ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أن تأكلوه وهو ما لا يعيش إلا فيه كالسمك، بخلاف ما يعيش فيه وفي البر كالسرطان[٢]

---

(١) والله يحب المتقرِّبين إليه بنوافل الأعمال التي يرضاها. [الطبري (٨/ ٦٦٥)].

(٢) وقال سفيان أرجو ألا يكون بالسرطان بأس ... قال أحمد يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح، وقال ابن أبي ليلى ومالك يباح كل ما في البحر، وأخرج ابن جرير (٧/ ٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طَعَامُهُ مَا لَفَظَهُ مَيِّتًا فَهُوَ طَعَامُهُ»، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: صيد البحر ما تصطاده أيدينا وطعامه ما لاثه البحر، وفي لفظ طعامه كل ما فيه، وفي لفظ طعامه ميتته. ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث العنبرة التي ألقاها البحر فأكل الصحابة منها وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك، وحديث: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ وَالحِلُّ

﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ مَا يَقْذِفُهُ مَيِّتًا ﴿مَتَٰعًا﴾ تَمْتِيعًا ﴿لَّكُمْ﴾ تَأْكُلُونَهُ ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾ اَلْمُسَافِرِينَ مِنْكُمْ يَتَزَوَّدُونَهُ ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ وَهُوَ مَا يَعِيشُ فِيهِ مِنَ اَلْوَحْشِ اَلْمَأْكُولِ، أَنْ تَصِيدُوهُ ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ﴾ فَلَوْ صَادَهُ حَلَالٌ فَلِلْمُحْرِمِ أَكْلُهُ، كَمَا بَيَّنَتْهُ اَلسُّنَّةُ(١) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٩٦﴾ *﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ اَلْمُحَرَّمَ ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ يَقُومُ بِهِ أَمْرُ دِينِهِمْ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ، وَدُنْيَاهُمْ بِأَمْنِ دَاخِلِهِ وَعَدَمِ اَلتَّعَرُّضِ لَهُ، وَجَبْيِ ثَمَرَاتِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قِيَمًا﴾ بِلَا أَلِفٍ مَصْدَرُ «قَامَ» غَيْرَ مُعَلٍّ ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ بِمَعْنَى اَلْأَشْهُرِ اَلْحُرُمِ ذُو اَلْقَعْدَةِ وَذُو اَلْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ وَرَجَبٍ، قِيَامًا لَهُمْ بِأَمْنِهِمْ مِنَ اَلْقِتَالِ فِيهَا ﴿وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَۚ﴾ قِيَامًا لَهُمْ بِأَمْنِ صَاحِبِهِمَا مِنَ اَلتَّعَرُّضِ لَهُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اَلْجَعْلُ اَلْمَذْكُورُ ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ فَإِنَّ جَعْلَهُ ذَلِكَ، لِجَلْبِ اَلْمَصَالِحِ لَكُمْ وَدَفْعِ اَلْمَضَارِّ عَنْكُمْ قَبْلَ وُقُوعِهَا، دَلِيلٌ عَلَى عِلْمِهِ بِمَا هُوَ فِي اَلْوُجُودِ وَمَا هُوَ كَائِنٌ. ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِأَعْدَائِهِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَّحِيمٌ ٩٨﴾ بِهِمْ. ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ لَكُمْ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تُظْهِرُونَ مِنَ اَلْعَمَلِ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ ٩٩﴾ تُخْفُونَ مِنْهُ، فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ﴾ اَلْحَرَامُ ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾ اَلْحَلَالُ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أَيْ: سَرَّكَ ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فِي تَرْكِهِ ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠٠﴾ تَفُوزُونَ. وَنَزَلَ لَمَّا أَكْثَرُوا سُؤَالَهُ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ﴾ تُظْهَرْ ﴿لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ لِمَا فِيهَا مِنَ اَلْمَشَقَّةِ ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أَيْ: فِي زَمَنِ اَلنَّبِيِّ ﷺ ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ اَلْمَعْنَى: إِذَا سَأَلْتُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فِي زَمَنِهِ يَنْزِلِ اَلْقُرْآنُ بِإِبْدَائِهَا، وَمَتَى أَبْدَاهَا سَاءَتْكُمْ، فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا، قَدْ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ﴾ عَنْ مَسْأَلَتِكُمْ، فَلَا تَعُودُوا ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٠١ قَدْ سَأَلَهَا﴾ أَيِ: اَلْأَشْيَاءَ ﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أَنْبِيَاءَهُمْ، فَأُجِيبُوا بِبَيَانِ أَحْكَامِهَا ﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ﴾ صَارُوا ﴿بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾ بِتَرْكِهِمُ اَلْعَمَلَ بِهَا. ﴿مَا جَعَلَ﴾ شَرَعَ ﴿ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كَمَا كَانَ أَهْلُ اَلْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَهُ،

مَيْتَتُهُ». أخرجه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦)، وأحمد (٨٧٣٥). وحديث: «أُحِلَّ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ». أخرجه ابن ماجه (٣٣١٤)، وأحمد (٥٧٢٣). [صديق حسن (٤/٥٦)].

(١) عن أبي قتادة رضي الله عنه: أنه كان مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كان ببعض طريق مكة، تخلف مع أصحاب له محرمين، وهو غير محرم، فرأى حمارا وحشيا، فاستوى على فرسه، ثم سأل أصحابه أن يناولوه سوطا فأبوا، فسألهم رمحه فأبوا، فأخذه ثم شد على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب رسول الله ﷺ وأبى بعضهم، فلما أدركوا رسول الله ﷺ سألوه عن ذلك، فقال: «إِنَّمَا هِيَ طُعْمَةٌ أَطْعَمَكُمُوهَا اللهُ». أخرجه البخاري (٢٩١٤)، ومسلم (١١٩٦).

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ: الْبَحِيرَةُ: الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَالسَّائِبَةُ: الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِآلِهَتِهِمْ فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَالْوَصِيلَةُ: النَّاقَةُ الْبِكْرُ تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ بِأُنْثَى ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بِأُنْثَى، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاغِيتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ، وَالْحَامُ: فَحْلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ الْمَعْدُودَةَ، فَإِذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاغِيتِ وَأَعْفَوْهُ مِنْ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الْحَامِيَ[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ فِي ذَلِكَ وَفِي نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ أَنَّ ذَلِكَ افْتِرَاءٌ؛ لِأَنَّهُمْ قَلَّدُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أَيْ: إِلَى حُكْمِهِ، مِنْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمْتُمْ ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا﴾ كَافِينَا ﴿مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَ﴾ حَسْبُهُمْ ذَلِكَ ﴿وَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ إِلَى الْحَقِّ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أَيِ: احْفَظُوهَا وَقُومُوا بِصَلَاحِهَا ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ غَيْرُهُمْ؛ لِحَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ: سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَغَيْرُهُ[2] ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أَيْ: أَسْبَابُهُ ﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَيْ: لِيَشْهَدْ، وَإِضَافَةُ ﴿شَهَٰدَةُ﴾ لِـ «بَيْنِ» عَلَى الِاتِّسَاعِ، وَ﴿حِينَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذَا﴾، أَوْ ظَرْفٌ لِـ ﴿حَضَرَ﴾، ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أَيْ: غَيْرِ مِلَّتِكُمْ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ﴾ سَافَرْتُمْ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ تُوقِفُونَهُمَا صِفَةُ ﴿ءَاخَرَانِ﴾، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أَيْ: صَلَاةِ الْعَصْرِ ﴿فَيُقۡسِمَانِ﴾ يَحْلِفَانِ ﴿بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ شَكَكْتُمْ فِيهِمَا، وَيَقُولَانِ: ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ﴾ بِاللهِ ﴿ثَمَنٗا﴾ عِوَضًا نَأْخُذُهُ بَدَلَهُ مِنَ الدُّنْيَا، بِأَنْ نَحْلِفَ بِهِ أَوْ نَشْهَدَ كَذِبًا لِأَجْلِهِ ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ الْمُقْسَمُ لَهُ أَوِ الْمَشْهُودُ لَهُ ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾ قَرَابَةٍ مِنَّا ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ الَّتِي أُمِرْنَا بِهَا ﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ إِنْ كَتَمْنَاهَا ﴿لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ﴾ اُطُّلِعَ بَعْدَ حَلِفِهِمَا ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أَيْ: فَعَلَا مَا يُوجِبُهُ مِنْ خِيَانَةٍ أَوْ كَذِبٍ فِي الشَّهَادَةِ، بِأَنْ وُجِدَ عِنْدَهُمَا مَثَلًا مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

اتُّهِمَا بِهِ، وَادَّعَيَا أَنَّهُمَا ابْتَاعَاهُ مِنَ الْمَيِّتِ أَوْ أَوْصَى لَهُمَا بِهِ ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ فِي تَوَجُّهِ الْيَمِينِ عَلَيْهِمَا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ الْوَصِيَّةُ، وَهُمُ الْوَرَثَةُ وَيُبْدَلُ مِنْ ﴿ءَاخَرَانِ﴾ ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ بِالْمَيِّتِ، أَيِ: الْأَقْرَبَانِ إِلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جَمْعُ «أَوَّلَ» صِفَةٌ، أَوْ بَدَلٌ مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ عَلَى خِيَانَةِ الشَّاهِدَيْنِ، وَيَقُولَانِ: ﴿لَشَهَـٰدَتُنَآ﴾ يَمِينُنَا ﴿أَحَقُّ﴾ أَصْدَقُ ﴿مِن شَهَـٰدَتِهِمَا﴾ يَمِينِهِمَا ﴿وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ تَجَاوَزْنَا الْحَقَّ فِي الْيَمِينِ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٠٧﴾ الْمَعْنَى: لِيُشْهِدِ الْمُحْتَضَرُ عَلَى وَصِيَّتِهِ اثْنَيْنِ أَوْ يُوصِي إِلَيْهِمَا، مِنْ أَهْلِ دِينِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ إِنْ فَقَدَهُمْ لِسَفَرٍ وَنَحْوِهِ، فَإِنِ ارْتَابَ الْوَرَثَةُ فِيهِمَا، فَادَّعَوْا أَنَّهُمَا خَانَا بِأَخْذِ شَيْءٍ أَوْ دَفْعِهِ إِلَى شَخْصٍ زَعَمَا أَنَّ الْمَيِّتَ أَوْصَى لَهُ بِهِ، فَلْيَحْلِفَا إِلَى آخِرِهِ. فَإِنِ اطَّلَعَ عَلَى أَمَارَةِ تَكْذِيبِهِمَا فَادَّعَيَا دَافِعًا لَهُ حَلَفَ أَقْرَبُ الْوَرَثَةِ عَلَى كَذِبِهِمَا وَصِدْقِ مَا ادَّعَوْهُ، وَالْحُكْمُ ثَابِتٌ فِي الْوَصِيَّيْنِ مَنْسُوخٌ فِي الشَّاهِدَيْنِ، وَكَذَا شَهَادَةُ غَيْرِ أَهْلِ الْمِلَّةِ مَنْسُوخَةٌ، وَاعْتِبَارُ صَلَاةِ الْعَصْرِ لِلتَّغْلِيظِ، وَتَخْصِيصُ الْحَلِفِ فِي الْآيَةِ بِاثْنَيْنِ مِنْ أَقْرَبِ الْوَرَثَةِ لِخُصُوصِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي نَزَلَتْ لَهَا، وَهِيَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1]: أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي سَهْمٍ خَرَجَ مَعَ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءٍ - أَيْ: وَهُمَا نَصْرَانِيَّانِ - فَمَاتَ السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا مُسْلِمٌ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرِكَتِهِ فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا بِالذَّهَبِ، فَرُفِعَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَتْ فَأَحْلَفَهُمَا ثُمَّ وُجِدَ الْجَامُ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: ابْتَعْنَاهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيٍّ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ فَحَلَفَا، وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ[2]: فَقَامَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَرَجُلٌ آخَرُ مِنْهُمْ فَحَلَفَا وَكَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ، وَفِي رِوَايَةٍ فَمَرِضَ فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يُبْلِغَا مَا تَرَكَ أَهْلَهُ، فَلَمَّا مَاتَ أَخَذَا الْجَامَ وَدَفَعَا إِلَى أَهْلِهِ مَا بَقِيَ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ مِنْ رَدِّ الْيَمِينِ عَلَى الْوَرَثَةِ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَن يَأْتُوا۟﴾ أَيِ: الشُّهُودُ أَوِ الْأَوْصِيَاءُ ﴿بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ الَّذِي تَحَمَّلُوهَا عَلَيْهِ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا خِيَانَةٍ ﴿أَوْ﴾ أَقْرَبُ إِلَى أَنْ ﴿يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ عَلَى الْوَرَثَةِ الْمُدَّعِينَ، فَيَحْلِفُونَ عَلَى خِيَانَتِهِمْ وَكَذِبِهِمْ فَيَفْتَضِحُونَ وَيَغْرَمُونَ فَلَا يَكْذِبُوا ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بِتَرْكِ الْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ١٠٨﴾ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ، إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ. اذْكُرْ ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَقُولُ﴾ لَهُمْ تَوْبِيخًا لِقَوْمِهِمْ: ﴿مَاذَآ﴾ أَيِ: الَّذِي ﴿أُجِبْتُمْ﴾ بِهِ حِينَ دَعَوْتُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ؟ ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بِذَلِكَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ وَذَهَبَ عَنْهُمْ عِلْمُهُ، لِشِدَّةِ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَفَزَعِهِمْ، ثُمَّ يَشْهَدُونَ عَلَى أُمَمِهِمْ لَمَّا يَسْكُنُونَ. اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٦١).

﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ بِشُكْرِهَا ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾ قَوَّيْتُكَ ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ جِبْرِيلَ ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ حَالٌ مِنَ الْكَافِ فِي ﴿أَيَّدتُّكَ﴾، ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ أَيْ: طِفْلًا ﴿وَكَهۡلٗاۖ﴾ يُفِيدُ نُزُولَهُ قَبْلَ السَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُ رُفِعَ قَبْلَ الْكُهُولَةِ كَمَا سَبَقَ فِي «آلِ عِمْرَانَ»(١) ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ﴾ كَصُورَةِ ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾ وَالْكَافُ: اِسْمٌ بِمَعْنَى «مِثْلَ»، مَفْعُولٌ ﴿بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ﴾ بِإِرَادَتِي(٢) ﴿وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً ﴿بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ حِينَ هَمُّوا بِقَتْلِكَ ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ﴾ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ﴿إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَٰحِرٌ﴾، أَيْ: عِيسَى. ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أَمَرْتُهُمْ عَلَى لِسَانِهِ ﴿أَنۡ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ عِيسَى ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بِهِمَا ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾. اُذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾ أَيْ: يَفْعَلُ ﴿رَبُّكَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَنَصْبِ مَا بَعْدَهُ، أَيْ: تَقْدِرُ أَنْ تَسْأَلَهُ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ﴾ لَهُمْ عِيسَى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فِي اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ﴾ سُؤَالَهَا مِنْ أَجْلِ ﴿أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ﴾ تَسْكُنَ ﴿قُلُوبُنَا﴾ بِزِيَادَةِ الْيَقِينِ ﴿وَنَعۡلَمَ﴾ نَزْدَادَ عِلْمًا ﴿أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: أَنَّكَ ﴿قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾ فِي ادِّعَاءِ النُّبُوَّةِ ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا﴾ أَيْ: يَوْمَ نُزُولِهَا ﴿عِيدٗا﴾ نُعَظِّمُهُ وَنُشَرِّفُهُ ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ بَدَلٌ مِنْ: ﴿لَنَا﴾ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ ﴿وَءَاخِرِنَا﴾ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَنَا ﴿وَءَايَةٗ مِّنكَۖ﴾ عَلَى قُدْرَتِكَ، وَنُبُوَّتِي ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ إِيَّاهَا ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ﴾ مُسْتَجِيبًا لَهُ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ﴾ أَيْ: بَعْدَ نُزُولِهَا ﴿مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ فَنَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، عَلَيْهَا سَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ وَسَبْعَةُ أَحْوَاتٍ، فَأَكَلُوا مِنْهَا حَتَّى شَبِعُوا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَفِي حَدِيثٍ: «أُنْزِلَتِ الْمَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا فَأُمِرُوا أَنْ لَا يَخُونُوا وَلَا يَدَّخِرُوا لِغَدٍ، فَخَانُوا وَادَّخَرُوا وَرَفَعُوا، فَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ»(٣) ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ﴾ أَيْ: يَقُولُ ﴿ٱللَّهُ﴾ لِعِيسَى فِي الْقِيَامَةِ تَوْبِيخًا لِقَوْمِهِ: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ

---

(١) الآية (٤٦) من سورة آل عمران.

(٢) كررها لبيان أن هذه الآية العظيمة لم تكن إلا بإذن الله، في الآية التي في آل عمران كرر الإذن مرتين، لكن مَنْ الذي قال ذلك في الآية التي في آل عمران هل الله خاطب عيسى أو عيسى خاطب قومه؟ عيسى خاطب قومه، فافترقا. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/ ٥٠٣)].

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٦١)، وأبو يعلى (١٦٥١).

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ﴾ عِيسَى وَقَدْ أُرْعِدَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ، مِنَ الشَّرِيكِ وَغَيْرِهِ ﴿مَا يَكُونُ﴾ مَا يَنْبَغِي ﴿لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ خَبَرُ ﴿لَيْسَ﴾، وَ ﴿لِي﴾ لِلتَّبْيِينِ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا﴾ أُخْفِيهِ ﴿فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ﴾ أَيْ: مَا تُخْفِيهِ مِنْ مَعْلُومَاتِكَ[1] ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ وَهُوَ ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رَقِيبًا أَمْنَعُهُمْ مِمَّا يَقُولُونَ ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قَبَضْتَنِي بِالرَّفْعِ إِلَى السَّمَاءِ ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ الْحَفِيظَ لِأَعْمَالِهِمْ ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ قَوْلِي لَهُمْ وَقَوْلِهِمْ بَعْدِي، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ مُطَّلِعٌ عَالِمٌ بِهِ. ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أَيْ: مَنْ أَقَامَ عَلَى الْكُفْرِ مِنْهُمْ ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ﴾ وَأَنْتَ مَالِكُهُمْ تَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ شِئْتَ، لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْكَ ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أَيْ: لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا﴾ أَيْ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فِي الدُّنْيَا كَعِيسَى ﴿صِدْقُهُمْ ۚ﴾ لِأَنَّهُ يَوْمُ الْجَزَاءِ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ[2] ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ بِثَوَابِهِ[3] ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ وَلَا يَنْفَعُ الْكَاذِبِينَ فِي الدُّنْيَا صِدْقُهُمْ فِيهِ، كَالْكُفَّارِ لَمَّا يُؤْمِنُونَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَزَائِنُ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِهَا ﴿وَمَا فِيهِنَّ ۚ﴾ أَتَى بِـ ﴿مَا﴾ تَغْلِيبًا لِغَيْرِ الْعَاقِلِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ وَمِنْهُ إِثَابَةُ الصَّادِقِ وَتَعْذِيبُ الْكَاذِبِ، وَخَصَّ الْعَقْلُ ذَاتَهُ فَلَيْسَ عَلَيْهَا بِقَادِرٍ[4].

---

(١) النفس هنا بمعنى الذات، يعني أن ما في نفسي تعلمه وما في نفسك لا أعلمه، والفرق ظاهر؛ لأن الله هو الخالق، وعيسى مخلوق، والخالق يعلم مخلوقه، والمخلوق لا يعلم عن خالقه إلا ما أخبره به. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/ ٥٤٣)].

(٢) رضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه، من العمل بطاعته واجتناب معاصيه. [الطبري (٩/ ١٤٢)]. وتمام الرضا إذا دخلوا الجنة؛ فإن الله تعالى يسألهم ماذا يريدون، فيَعُدُّون عليه نعمه عليهم، فيقول: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَغْضَبُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». أخرجه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩). وهذا الرضوان الدائم الكامل. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/ ٥٦٨)].

(٣) رضوا هم عن الله تعالى ذكره في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه فيما أمرهم ونهاهم، من جزيل ثوابه. [الطبري (٩/ ١٤٣)].

(٤) أخطأ صاحب الجلالين في التفسير؛ حيث قال عند هذه الآية: «وخَصَّ العقل ذاته فليس عليها بقادر» فإن هذا قول منكر، لكن هذا مقتضى مذهبه حيث ينفي أن تقوم الأفعال الاختيارية بالله؛ يعني عنده أن الله لا ينزل ولا يستوي على العرش ولا يضحك ولا يفرح، ومن المعلوم أن الأفعال الاختيارية تكون بمشيئته فهو قادر على إيجادها وإعدامها، فالقول هذا منكر مبنيٌّ على عقيدة فاسدة. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/ ٥٧٦)].

سُورَةُ الأَنعَامِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ الآيَاتِ الثَّلَاثَ، وَإِلَّا ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ الآيَاتِ الثَّلَاثَ. مِائَةٌ وَخَمْسٌ أَوْ سِتٌّ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ وَهُوَ: الوَصْفُ بِالْجَمِيلِ(١)، ثَابِتٌ ﴿لِلَّهِ﴾ وَهَلِ الْمُرَادُ الإِعْلَامُ بِذَلِكَ لِلْإِيمَانِ بِهِ، أَوِ الثَّنَاءُ بِهِ، أَوْ هُمَا؟ احْتِمَالَاتٌ أَفْيَدُهَا الثَّالِثُ، قَالَهُ الشَّيْخُ(٢) فِي سُورَةِ «الكَهْفِ» ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ لِلنَّاظِرِينَ ﴿وَجَعَلَ﴾ خلَقَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ أَيْ: كُلَّ ظُلْمَةٍ وَنُورٍ، وَجَمَعَهَا دُونَهُ لِكَثْرَةِ أَسْبَابِهَا، وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّتِهِ ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مَعَ قِيَامِ هَذَا الدَّلِيلِ ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ يُسَوُّونَ غَيْرَهُ فِي العِبَادَةِ(٣). ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهُ ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾ لَكُمْ تَمُوتُونَ عِنْدَ انْتِهَائِهِ ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى﴾ مَضْرُوبٌ ﴿عِندَهُۥۖ﴾ لِبَعْثِكُمْ ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ﴾ أَيُّهَا الْكُفَّارُ ﴿تَمۡتَرُونَ ۝٢﴾ تَشُكُّونَ فِي البَعْثِ، بَعْدَ عِلْمِكُمْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى الِابْتِدَاءِ فَهُوَ عَلَى الإِعَادَةِ أَقْدَرُ. ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبَادَةِ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ مَا تُسِرُّونَهُ وَمَا تَجْهَرُونَ بِهِ بَيْنَكُمْ(٤) ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾ تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

---

(١) بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله للدلالة على أن الحمد كله له وإن لم يحمدوه، وفيه تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء ولإقامة الحجة على الذين هم بربهم يعدلون، والحمد اللغوي الوصف بالجميل ذكره الزمخشري في الفائق، وزاد صاحب المطالع وغيره كونه على جهة التعظيم والتبجيل، أي: ظاهراً وباطناً. وأما الحمد الاصطلاحي: فهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً، قاله الكرخي. [صديق حسن (٤/ ٩٧)].

(٢) أي: الشيخ جلال المحلي رحمه الله، في أول سورة «الكهف».

(٣) وجهان للعلماء: أحدهما: أنه من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف، والميل عنه، وعلى هذا فقوله: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَفَرُواْ﴾ وعليه فالمعنى: إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال، وقيل على هذا الوجه: إن «الباء» بمعنى «عن» أي: يعدلون عن ربهم، فلا يتوجهون إليه بطاعة، ولا إيمان. والثاني: أن «الباء» متعلقة بـ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ ومعنى ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ يجعلون له نظيرا في العبادة، من قول العرب: عدلت فلانا بفلان إذا جعلته له نظيرا وعديلا ... وهذا الوجه الأخير يدل له القرآن، كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]. [الشنقيطي (١/ ٤٦٩)].

(٤) ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ههنا للجنس؛ فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها. والبادي من هذا الترتيب أن السماء خلقت من قبل الأرض؛ وقد حكاه

﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿مِّنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٤ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾ عَوَاقِبُ ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٥ أَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فِي أَسْفَارِهِمْ إِلَى الشَّامِ وَغَيْرِهَا ﴿كَمْ﴾ خَبَرِيَّةٌ، بِمَعْنَى كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ مَكَانًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْقُوَّةِ وَالسَّعَةِ ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن﴾ نُعْطِ ﴿لَّكُمْ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ الْمَطَرَ ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ مُتَتَابِعًا ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ تَحْتَ مَسَاكِنِهِمْ ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ بِتَكْذِيبِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا﴾ مَكْتُوبًا ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾ رَقٍّ كَمَا اقْتَرَحُوهُ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أَبْلَغُ مِنْ «عَايَنُوهُ»؛ لِأَنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٧﴾ تَعَنُّتًا وَعِنَادًا. ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يُصَدِّقُهُ ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ كَمَا اقْتَرَحُوهُ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ بِهَلَاكِهِمْ ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ يُمْهَلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْذِرَةٍ، كَعَادَةِ اللهِ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ عِنْدَ وُجُودِ مُقْتَرَحِهِمْ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أَيِ: الْمُنْزَلَ إِلَيْهِمْ ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ﴾ أَيِ: الْمَلَكَ ﴿رَجُلًا﴾ أَيْ: عَلَى صُورَتِهِ، لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ رُؤْيَتِهِ، إِذْ لَا قُوَّةَ لِلْبَشَرِ عَلَى رُؤْيَةِ الْمَلَكِ ﴿وَ﴾ لَوْ أَنْزَلْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴿لَلَبَسْنَا﴾ شَبَّهْنَا ﴿عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ٩﴾ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، بِأَنْ يَقُولُوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤][1]. ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾ وَهُوَ الْعَذَابُ، فَكَذَا يَحِيقُ بِمَنِ اسْتَهْزَأَ بِكَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ الرُّسُلَ مِنْ هَلَاكِهِمْ بِالْعَذَابِ لِيَعْتَبِرُوا. ﴿قُل لِّمَن

الطبري عن قتادة، وليس كذلك لأن الواو لا ترتب المعاني، والذي ينبني من مجموع آي القرآن أن الله تعالى خلق الأرض ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء فخلقها، ثم دحا الأرض بعد ذلك. [ابن عطية (٢/ ٢٦٥)].

(١) أي: لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة رجل لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلا منهم، ليدعو بعضهم بعضا، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. [ابن كثير (٣/ ٢٤١)].

﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾ إنْ لَمْ يقُولُوهُ، لَا جَوابَ غَيْرُهُ ﴿كَتَبَ﴾ قَضَى ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ﴾ فَضْلًا مِنْهُ[١]، وَفِيهِ تَلَطُّفٌ فِي دُعائِهِمْ إِلَى الإِيمانِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لِيُجازِيَكُمْ بِأَعْمالِكُمْ ﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بِتَعْرِيضِهَا لِلْعَذابِ، مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑫﴾ *﴿وَلَهُۥ﴾ تَعالَى ﴿مَا سَكَنَ﴾ حَلَّ ﴿فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أَيْ: كُلُّ شَيْءٍ، فَهُوَ رَبُّهُ وَخالِقُهُ وَمالِكُهُ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِما يُقالُ ﴿ٱلْعَلِيمُ ⑬﴾ بِما يُفْعَلُ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ أَعْبُدُهُ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبْدِعِهِما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ يَرْزُقُ ﴿وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ يُرْزَقُ؟ لَا، ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ﴾ لِلَّهِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ﴿وَ﴾ قِيلَ لِي ﴿لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ⑭﴾ بِهِ. ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بِعِبادَةِ غَيْرِهِ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ⑮﴾ هُوَ يَوْمُ القِيامَةِ. ﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ بِالبِناءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيِ: العَذابُ، وَلِلْفاعِلِ، أَيِ: اللهُ، وَالعائِدُ: مَحْذُوفٌ ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ﴾ تَعالَى، أَيْ: أَرادَ لَهُ الخَيْرَ[٢] ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ⑯﴾ النَّجاةُ الظّاهِرَةُ. ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بَلاءٍ، كَمَرَضٍ وَفَقْرٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ رافِعَ ﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ كَصِحَّةٍ وَغِنًى ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑰﴾ وَمِنْهُ مَسُّكَ بِهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى رَدِّهِ عَنْكَ غَيْرُهُ. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ القادِرُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، مُسْتَعْلِيًا ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ ﴿ٱلْخَبِيرُ ⑱﴾ بِبَواطِنِهِمْ كَظَواهِرِهِمْ. وَنَزَلَ لَمّا قالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «ائْتِنا بِمَنْ يَشْهَدُ لَكَ بِالنُّبُوَّةِ، فَإِنَّ أَهْلَ الكِتابِ أَنْكَرُوكَ»[٣]: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةًۖ﴾ تَمْيِيزٌ مُحَوَّلٌ عَنِ المُبْتَدَأِ ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ إِنْ لَمْ يَقُولُوهُ، لَا جَوابَ غَيْرُهُ، هُوَ ﴿شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم﴾ أُخَوِّفَكُمْ يا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ عُطِفَ عَلَى ضَمِيرِ «أُنْذِرَكُمْ»، أَيْ: بَلَغَهُ القُرْآنُ مِنَ الإِنْسِ وَالجِنِّ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ﴾ اسْتِفْهامُ إِنْكارٍ ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّآ أَشْهَدُۚ﴾ بِذَلِكَ ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ⑲﴾ مَعَهُ مِنَ الأَصْنامِ. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أَيْ: مُحَمَّدًا، بِنَعْتِهِ فِي كِتابِهِمْ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ مِنْهُمْ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑳﴾ بِهِ. ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى

---

(١) يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١). [ابن كثير (٣/ ٢٤٢)].

(٢) أي: من لوازم رحمته سبحانه، إرادة الخير له.

(٣) أسباب النزول للواحدي (ص: ٢١٦).

﴿ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ الْقُرْآنِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الشَّأْنُ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ بِذَلِكَ.

﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ تَوْبِيخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ للهِ؟ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ، أَيْ: مَعْذِرَتَهُمْ ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ أَيْ: قَوْلُهُمْ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بِالْجَرِّ: نَعْتٌ، وَالنَّصْبِ: نِدَاءٌ ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ﴾ بِنَفْيِ الشِّرْكِ عَنْهُمْ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ـهُ عَلَى اللهِ مِنْ شُرَكَاءَ. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ﴾ إِذَا قَرَأْتَ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَغْطِيَةً لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ صَمَمًا، فَلَا يَسْمَعُونَهُ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ﴾ الْقُرْآنُ ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ أَكَاذِيبُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ كَالْأَضَاحِيكِ وَالْأَعَاجِيبِ(١)، جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾ النَّاسَ ﴿عَنْهُ﴾ عَنِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَيَنْـَٔوْنَ﴾ يَتَبَاعَدُونَ ﴿عَنْهُۖ﴾ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ، كَانَ يَنْهَى عَنْ أَذَاهُ وَلَا يُؤْمِنُ بِهِ(٢) ﴿وَإِن﴾ مَا ﴿يُهْلِكُونَ﴾ بِالنَّأْيِ عَنْهُ ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لِأَنَّ ضَرَرَهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ بِذَلِكَ. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ عُرِضُوا ﴿عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إِلَى الدُّنْيَا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ بِرَفْعِ الْفِعْلَيْنِ اسْتِئْنَافًا، وَنَصْبِهِمَا فِي جَوَابِ التَّمَنِّي، وَرَفْعِ الْأَوَّلِ وَنَصْبِ الثَّانِي، وَجَوَابُ «لَوْ»: لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ﴾ لِلْإِضْرَابِ عَنْ إِرَادَةِ الْإِيمَانِ الْمَفْهُومِ مِنَ التَّمَنِّي ﴿بَدَا﴾ ظَهَرَ ﴿لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ﴾ يَكْتُمُونَ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] بِشَهَادَةِ جَوَارِحِهِمْ، فَتَمَنَّوْا ذَلِكَ ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ إِلَى الدُّنْيَا فَرْضًا ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فِي وَعْدِهِمْ بِالْإِيمَانِ. ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أَيْ: مُنْكِرُو الْبَعْثِ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هِىَ﴾ أَيِ: الْحَيَاةُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ عُرِضُوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ تَوْبِيخًا: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ الْبَعْثُ وَالْحِسَابُ ﴿بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ

---

(١) يحتمل أنهم أرادوا نسبة أخبار القرآن إلى الكذب على ما تعارفوه من اعتقادهم في الأساطير. ويحتمل أنهم أرادوا أن القرآن لا يخرج عن كونه مجموع قصص وأساطير، يعنون أنه لا يستحق أن يكون من عند الله لأنهم لقصور أفهامهم أو لتجاهلهم يعرضون عن الاعتبار المقصود من تلك القصص ويأخذونها بمنزلة الخرافات التي يتسامر الناس بها لتقصير الوقت. [ابن عاشور (٧/ ١٨٢)].

(٢) وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنها نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة. فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشدهم عليه في السر، ولا يخفى أن لفظ التنزيل مما يصدق على ما ذكر ولا ينافيه، وهو المراد بالنزول. [القاسمي (٤/ ٣٣٧)].

بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ بِهِ فِي الدُّنْيَا. ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غَايَةٌ لِلتَّكْذِيبِ ﴿إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ الْقِيَامَةُ ﴿بَغۡتَةً﴾ فَجْأَةً ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ هِيَ شِدَّةُ التَّأَلُّمِ، وَنِدَاؤُهَا مَجَازٌ، أَيْ: هَذَا أَوَانُكِ فَاحْضُرِي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا﴾ قَصَّرْنَا ﴿فِيهَا﴾ أَيِ: الدُّنْيَا ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ بِأَنْ تَأْتِيَهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ فِي أَقْبَحِ شَيْءٍ صُورَةً وَأَنْتَنِهِ رِيحًا، فَتَرْكَبُهُمْ[1] ﴿أَلَا سَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ يَحْمِلُونَهُ حَمْلُهُمْ ذَلِكَ. ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ أَيِ: الِاشْتِغَالُ بِهَا ﴿إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ وَأَمَّا الطَّاعَةُ وَمَا يُعِينُ عَلَيْهَا فَمِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أَيِ: الْجَنَّةُ ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ الشِّرْكَ ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، ذَلِكَ فَيُؤْمِنُوا. ﴿قَدۡ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الشَّأْنَ ﴿لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ لَكَ مِنَ التَّكْذِيبِ ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فِي السِّرِّ لِعِلْمِهِمْ أَنَّكَ صَادِقٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالتَّخْفِيفِ، أَيْ: لَا يَنْسُبُونَكَ إِلَى الْكَذِبِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وَضَعَهُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ يُكَذِّبُونَ. ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ﴾ فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ بِإِهْلَاكِ قَوْمِهِمْ، فَاصْبِرْ حَتَّى يَأْتِيَكَ النَّصْرُ بِإِهْلَاكِ قَوْمِكَ ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ مَوَاعِيدِهِ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ مَا يَسْكُنُ بِهِ قَلْبُكَ. ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ عَظُمَ ﴿عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ عَنِ الْإِسْلَامِ لِحِرْصِكَ عَلَيْهِمْ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا﴾ سَرَبًا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا﴾ مِصْعَدًا ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾ مِمَّا اقْتَرَحُوا فَافْعَلِ، الْمَعْنَى: أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هِدَايَتَهُمْ ﴿لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ وَلَكِنْ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾ بِذَلِكَ[2]. ﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ﴾ دُعَاءَكَ إِلَى الْإِيمَانِ

(١) مجاز وتوسع وتشبيه بمن يحمل ثقلا ... وأصله من الوزر وهو الجبل ... ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية، والمعنى: أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها. [القرطبي (١/ ٤١٣)].

(٢) الآية: مقصودها حمل النبي ﷺ على الصبر، والتسليم لما أراد الله بعباده من إيمان أو كفر، فإنه ﷺ كان شديد الحرص على إيمانهم، فقيل له: إن استطعت أن تدخل في الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية يؤمنون بسببها، فافعل وأنت لا تقدر على ذلك، فاستسلم لأمر الله، ... وحذف جواب «إن» لفهم المعنى، [وقوله تعالى:] ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ حجة لأهل السنة على القدرية [ابن جُزَيّ (١/ ٢٥٩)]. [وقوله:] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ لم يقل: «لا تكن جاهلا» بل من قوم ينسبون إلى الجهل، تعظيما لنبيه ﷺ بأن لم يسند الجهل إليه، للمبالغة في نفيه عنه. وما فيه من شدة الخطاب، سره تبعيد جنابه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزع في مواطن الصبر، مما لا يليق إلا بالجاهلين. [القاسمي (٤/ ٣٤٩)]. والمعنى: لو شاء الله أن يخلقهم بعقول قابلة للحق لخلقهم بها فلقبلوا الهدى،

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ سَماعَ تَفَهُّمٍ واعْتِبارٍ ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ، شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدَمِ السَّماعِ ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦﴾ يُرَدُّونَ فَيُجازِيهِمْ بِأَعْمالِهِمْ. ﴿وَقَالُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿لَوۡلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ كَالنَّاقَةِ وَالْعَصا وَالْمائِدَةِ ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿ءَايَةٗ﴾ مِمَّا اقْتَرَحُوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ أَنَّ نُزُولَها بَلاءٌ عَلَيْهِمْ، لِوُجُوبِ هَلاكِهِمْ إِنْ جَحَدُوها. ﴿وَمَا مِن﴾ زائِدَةٌ ﴿دَآبَّةٖ﴾ تَمْشِي ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ﴾ فِي الْهَواءِ ﴿بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِها وَرِزْقِها وَأَحْوالِها ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ تَرَكْنا ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿مِن﴾ زائِدَةٌ ﴿شَيۡءٖۚ﴾ فَلَمْ نَكْتُبْهُ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ فَيَقْضِي بَيْنَهُمْ، وَيَقْتَصُّ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْناءِ(١)، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ: كُونُوا تُرابًا. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿صُمّٞ﴾ عَنْ سَماعِها سَماعَ قَبُولٍ ﴿وَبُكۡمٞ﴾ عَنِ النُّطْقِ بِالْحَقِّ ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ الْكُفْرِ ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ إِضْلالَهُ ﴿يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ﴾ هِدايَتَهُ ﴿يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ دِينِ الْإِسْلامِ. ﴿قُلۡ﴾ يا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ أَخْبِرُونِي ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ فِي الدُّنْيا ﴿أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ الْقِيامَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَيْهِ بَغْتَةً ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ لا ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠﴾ فِي أَنَّ الْأَصْنامَ تَنْفَعُكُمْ فَادْعُوها. ﴿بَلۡ إِيَّاهُ﴾ لا غَيْرَهُ ﴿تَدۡعُونَ﴾ فِي الشَّدائِدِ ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أَنْ يَكْشِفَهُ عَنْكُمْ مِنَ الضُّرِّ وَنَحْوِهِ ﴿إِن شَآءَ﴾ كَشْفَهُ ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾ تَتْرُكُونَ ﴿مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾ مَعَهُ مِنَ الْأَصْنامِ فَلا تَدْعُونَهُ(٢). ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن﴾ زائِدَةٌ ﴿قَبۡلِكَ﴾ رُسُلًا فَكَذَّبُوهُمْ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ شِدَّةِ الْفَقْرِ ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الْمَرَضِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢﴾ يَتَذَلَّلُونَ فَيُؤْمِنُوا. ﴿فَلَوۡلَآ﴾ فَهَلَّا ﴿إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ عَذابُنا ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ أَيْ: لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، مَعَ قِيامِ الْمُقْتَضِي لَهُ ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فَلَمْ تَلِنْ لِلْإِيمانِ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ مِنَ الْمَعاصِي، فَأَصَرُّوا عَلَيْها. ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾ تَرَكُوا ﴿مَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعِظُوا وَخُوِّفُوا ﴿بِهِۦ﴾ مِنَ الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ، فَلَمْ يَتَّعِظُوا ﴿فَتَحۡنَا﴾

ولكنه خلقهم على ما وصف في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ [الأنعام: ٢٥] الآية، ... وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ [هود: ١١٨]، وبذلك تعلم أن هذه مشيئة كلية تكوينية، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية. فهذا من المشيئة المتعلقة بالخلق والتكوين لا من المشيئة المتعلقة بالأمر والتشريع. وبينهما بون، سقط في مهواته من لم يقدر له صون. [ابن عاشور (٧/ ٢٠٦)].

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ». أخرجه مسلم (٢٥٨٢).

(٢) كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ الآية [الإسراء: ٦٧].

بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنَ النِّعَمِ اسْتِدْرَاجًا لَهُمْ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ بِالْعَذَابِ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجْأَةً ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ(١). ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أَيْ: آخِرُهُمْ، بِأَنِ اسْتُؤْصِلُوا ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ عَلَى نَصْرِ الرُّسُلِ، وَإِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ. ﴿قُلْ﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ أَصَمَّكُمْ ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أَعْمَاكُمْ ﴿وَخَتَمَ﴾ طَبَعَ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فَلَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ بِمَا أَخَذَهُ مِنْكُمْ بِزَعْمِكُمْ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يُعْرِضُونَ عَنْهَا فَلَا يُؤْمِنُونَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ لَيْلًا، أَوْ نَهَارًا ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ الْكَافِرُونَ، أَيْ: مَا يُهْلَكُ إِلَّا هُمْ. ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بِهِمْ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عَمَلَهُ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يَخْرُجُونَ عَنِ الطَّاعَةِ. ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ الَّتِي مِنْهَا يَرْزُقُ ﴿وَلَآ﴾ إِنِّي ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ مَا غَابَ عَنِّي وَلَمْ يُوحَ إِلَيَّ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الْكَافِرُ ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الْمُؤْمِنُ؟ لَا ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

---

(١) ربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، فهذا من الغرور ... عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾. أخرجه أحمد (١٧٣١١). وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره؛ فإنما هو استدراج منه يستدرجك به، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]. وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي: ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء. وعنه ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ». أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٥)، وأحمد (١١٣٤). وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم. [الداء والدواء لابن القيم (١/ ٧٧)].

فِي ذَلِكَ فَتُؤْمِنُونَ. ﴿وَأَنذِرْ﴾ خَوِّفْ ﴿بِهِ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿وَلِيٌّ﴾ يَنْصُرُهُمْ ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يَشْفَعُ لَهُمْ، وَجُمْلَةُ النَّفْيِ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يُحْشَرُوٓاْ﴾ وَهِيَ مَحَلُّ الْخَوْفِ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْعَاصُونَ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾ اللهَ بِإِقْلَاعِهِمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَعَمَلِ الطَّاعَاتِ. ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ﴾ بِعِبَادَتِهِمْ ﴿وَجْهَهُۥۖ﴾ تَعَالَى لَا شَيْئًا مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا وَهُمُ الْفُقَرَاءُ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ طَعَنُوا فِيهِمْ، وَطَلَبُوا أَنْ يَطْرُدَهُمْ لِيُجَالِسُوهُ، وَأَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ طَمَعًا فِي إِسْلَامِهِمْ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيْءٍ﴾ إِنْ كَانَ بَاطِنُهُمْ غَيْرَ مَرْضِيٍّ ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جَوَابُ النَّفْيِ ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ. ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ ابْتَلَيْنَا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أَيِ: الشَّرِيفَ بِالْوَضِيعِ، وَالْغَنِيَّ بِالْفَقِيرِ، بِأَنْ قَدَّمْنَاهُ بِالسَّبْقِ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ أَيِ: الشُّرَفَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ مُنْكِرِينَ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الْفُقَرَاءُ ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ﴾ بِالْهِدَايَةِ؟ أَيْ: لَوْ كَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُدًى مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ لَهُ فَيَهْدِيَهُمْ؟ بَلَى. ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ﴾ قَضَى ﴿رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الشَّأْنُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْفَتْحِ «بَدَلٌ» مِنَ: ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾[1]، ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ مِنْهُ، حَيْثُ ارْتَكَبَهُ ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ رَجَعَ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بَعْدَ عَمَلِهِ عَنْهُ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عَمَلَهُ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أَيِ: اللهَ ﴿غَفُورٌ﴾ لَهُ ﴿رَّحِيمٌ ۝٥٤﴾ بِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْفَتْحِ، أَيْ: فَالْمَغْفِرَةُ لَهُ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّا مَا ذُكِرَ ﴿نُفَصِّلُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ الْقُرْآنَ؛ لِيَظْهَرَ الْحَقُّ فَيُعْمَلَ بِهِ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ تَظْهَرَ ﴿سَبِيلُ﴾ طَرِيقُ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ فَتُجْتَنَبَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتَانِيَّةِ، وَفِي أُخْرَى بِالْفَوْقَانِيَّةِ، وَنَصْبُ ﴿سَبِيلَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ فِي عِبَادَتِهَا ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ إِنِ اتَّبَعْتُهَا ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بَيَانٍ ﴿مِّن رَّبِّي وَ﴾ قَدْ ﴿كَذَّبْتُم بِهِۦۚ﴾ بِرَبِّي حَيْثُ أَشْرَكْتُمْ ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِنِ﴾ مَا ﴿ٱلْحُكْمُ﴾ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِهِ ﴿إِلَّا لِلَّهِۖ يَقْضِ﴾[2] الْقَضَاءَ ﴿ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ الْحَاكِمِينَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَقُصُّ﴾، أَيْ: يَقُولُ. ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ

---

(١) أي: أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان، وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيراً بسعة مغفرة الله وعظيم رحمته. [الشوكاني (٢/ ١٣٧)]. وفي الصحيح: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي». أخرجه البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) القراءة المفسرة لحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن عامر.

﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ بِأَنْ أُعَجِّلَهُ لَكُمْ وَأَسْتَرِيحَ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ اللهِ ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾ مَتَى يُعَاقِبُهُمْ.

﴿*وَعِندَهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أَيْ: خَزَائِنُهُ، أَوِ الطُّرُقُ الْمُوَصِّلَةُ إِلَى عِلْمِهِ ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ وَهِيَ الْخَمْسَةُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الْآيَةَ، كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[(١)] ﴿وَيَعۡلَمُ مَا﴾ يَحْدُثُ ﴿فِي ٱلۡبَرِّ﴾ الْقِفَارِ ﴿وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ الْقُرَى الَّتِي عَلَى الْأَنْهَارِ[(٢)] ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿وَرَقَةٍ﴾، ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٥٩﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَالِاسْتِثْنَاءُ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، مِنَ الِاسْتِثْنَاءِ قَبْلَهُ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ عِنْدَ النَّوْمِ[(٣)] ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم﴾ كَسَبْتُمْ ﴿بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ أَيِ: النَّهَارِ بِرَدِّ أَرْوَاحِكُمْ ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ هُوَ أَجَلُ الْحَيَاةِ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ﴾ مُسْتَعْلِيًا ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ مَلَائِكَةً تُحْصِي أَعْمَالَكُمْ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿تَوَفَّىٰهُ﴾، ﴿رُسُلُنَا﴾ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ ﴿وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ يُقَصِّرُونَ فِيمَا يُؤْمَرُونَ بِهِ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ أَيِ: الْخَلْقُ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ﴾ مَالِكِهِمْ ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ الثَّابِتِ الْعَدْلِ، لِيُجَازِيَهُمْ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِيهِمْ ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ يُحَاسِبُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي قَدْرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ[(٤)]. ﴿قُلۡ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أَهْوَالِهِمَا فِي أَسْفَارِكُمْ حِينَ ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا﴾ عَلَانِيَةً ﴿وَخُفۡيَةٗ﴾ سِرًّا، تَقُولُونَ: ﴿لَّئِنۡ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿أَنجَيۡتَنَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَنجَىٰنَا﴾ أَيِ: اللهُ ﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الظُّلُمَاتِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٩).

(٢) خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله، أي: يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علماً مفصلاً لا يخفى عليه منه شيء، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما، وعلى هذا هو بيان لتعلق علمه بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات، قال الجمهور: هو البر والبحر المعروفان لأن جميع الأرض إما بر، وإما بحر وفي كل واحد منهما من عجائب وغرائب ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه. [صديق حسن (٤/ ١٥٥)].

(٣) التوفي حقيقته الإماتة، لأنه حقيقة في قبض الشيء مستوفى. وإطلاقه على النوم مجاز لشبه النوم بالموت في انقطاع الإدراك والعمل...والمراد بقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ ينيمكم بقرينة قوله: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾، أي: في النهار، فأراد بالوفاة هنا النوم على التشبيه. وفائدته أنه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة، ولذا استعير البعث للإفاقة من النوم ليتم التقريب. [ابن عاشور (٧/ ٢٧٥)].

(٤) راجع التعليق على تفسير آية (٢٠٢) من سورة البقرة.

وَالشَّدَائِدِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣﴾ الْمُؤْمِنِينَ[(١)]. ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ غَمٍّ سِوَاهَا ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ٦٤﴾ بِهِ. ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مِنَ السَّمَاءِ، كَالْحِجَارَةِ وَالصَّيْحَةِ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كَالْخَسْفِ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ يَخْلِطَكُمْ ﴿شِيَعًا﴾ فِرَقًا مُخْتَلِفَةَ الْأَهْوَاءِ ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بِالْقِتَالِ، قَالَ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ: «هَذَا أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ»، وَلَمَّا نَزَلَ مَا قَبْلَهُ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَرَوَى مُسْلِمٌ حَدِيثَ: «سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا يَجْعَلَ بَأْسَ أُمَّتِي بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنِيهَا»، وَفِي حَدِيثٍ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ: «أَمَا إِنَّهَا كَائِنَةٌ، وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ»[(٢)]. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نُبَيِّنُ لَهُمْ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ٦٥﴾ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ بَاطِلٌ. ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الصِّدْقُ ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ٦٦﴾ فَأُجَازِيكُمْ، إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَأَمْرُكُمْ إِلَى اللهِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ[(٣)]. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خَبَرٍ ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وَقْتٌ يَقَعُ فِيهِ وَيَسْتَقِرُّ، وَمِنْهُ عَذَابُكُمْ ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٦٧﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ بِالِاسْتِهْزَاءِ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وَلَا تُجَالِسْهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ، فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿يُنسِيَنَّكَ﴾ بِسُكُونِ النُّونِ وَالتَّخْفِيفِ، وَفَتْحِهَا وَالتَّشْدِيدِ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فَقَعَدْتَ مَعَهُمْ ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أَيْ: تَذَكُّرِهِ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ فِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: «إِنْ قُمْنَا كُلَّمَا خَاضُوا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَجْلِسَ فِي الْمَسْجِدِ وَأَنْ نَطُوفَ»، فَنَزَلَ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ اللهَ ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ أَيِ: الْخَائِضِينَ ﴿مِّن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَىْءٍ﴾ إِذَا جَالَسُوهُمْ ﴿وَلَٰكِن﴾ عَلَيْهِمْ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تَذْكِرَةٌ لَهُمْ وَمَوْعِظَةٌ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٦٩﴾ الْخَوْضَ[(٤)]. ﴿وَذَرِ﴾ اتْرُكْ

---

(١) الشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها. [البغوي (٣/ ١٥٢)].

(٢) الحديث الأول أخرجه البخاري (٤٦٢٨)، والثاني أخرجه مسلم (٢٨٩٠)، والثالث أخرجه أحمد (١٣٨٧)، والترمذي (٢٩٩٢).

(٣) قيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقيل: ليست بمنسوخة إذ لم يكن أيمانهم في وسعه. [صديق حسن (٤/ ١٦٣)].

(٤) هذه الآية الكريمة يفهم منها أنه لا إثم على من جالس الخائضين في آيات الله بالاستهزاء والتكذيب. وقد جاءت آية تدل على أن من جالسهم كان مثلهم في الإثم، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، اعلم أولا أن في معنى قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وجهين للعلماء: الأول: أن المعنى وما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء، وعلى هذا الوجه فلا إشكال في الآية أصلا. الوجه الثاني: أن معنى الآية: وما على الذين يتقون ما يقع من الكفار من الخوض في آيات الله في

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ الَّذِي كُلِّفُوهُ ﴿لَعِبًا وَلَهۡوًا﴾ بِاسْتِهْزَائِهِمْ بِهِ ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ فَلَا تَتَعَرَّضْ لَهُمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ(١) ﴿وَذَكِّرۡ﴾ عِظْ ﴿بِهِۦٓ﴾ بِالْقُرْآنِ النَّاسَ لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ﴾ تُسَلَّمَ إِلَى الْهَلَاكِ ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾ عَمِلَتْهُ ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ ﴿وَلِيّٞ﴾ نَاصِرٌ ﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾ يَمْنَعُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ﴾ تَفْدِ كُلَّ فِدَاءٍ ﴿لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾ مَا تَفْدِي بِهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ مَاءٍ بَالِغٍ نِهَايَةَ الْحَرَارَةِ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ مُؤْلِمٌ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ بِكُفْرِهِمْ. ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ﴾ أَنَعْبُدُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ بِتَرْكِهَا، وَهُوَ: الْأَصْنَامُ ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ نَرْجِعُ مُشْرِكِينَ ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾ أَضَلَّتْهُ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ﴾ مُتَحَيِّرًا لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، حَالٌ مِنَ الْهَاءِ ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ﴾ رُفْقَةٌ ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ أَيْ: لِيَهْدُوهُ الطَّرِيقَ، يَقُولُونَ لَهُ: ﴿ٱئۡتِنَاۗ﴾ فَلَا يُجِيبُهُمْ فَيَهْلِكَ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ، وَجُمْلَةُ التَّشْبِيهِ، حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿نُرَدُّ﴾(٢). ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ وَمَا عَدَاهُ ضَلَالٌ ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ أَيْ: بِأَنْ نُسْلِمَ ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَأَنۡ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ﴾ تَعَالَى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٢﴾ تُجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أَيْ: مُحِقًّا ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوۡمَ يَقُولُ﴾ لِلشَّيْءِ: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ لِلْخَلْقِ: قُومُوا، فَيَقُومُوا ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ الصِّدْقُ الْوَاقِعُ لَا مَحَالَةَ ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ الْقَرْنِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ

مجالستهم لهم من شيء. وعلى هذا القول فهذا الترخيص في مجالسة الكفار للمتقين من المؤمنين كان في أول الإسلام للضرورة، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾. وممن قال بالنسخ فيه مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير، فظهر أن لا إشكال على كلا القولين. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ على الوجه الأول: أنهم إذا اجتنبوا مجالسهم سلموا من الإثم، ولكن الأمر باتقاء مجالستهم عند الخوض في الآيات لا يسقط وجوب تذكيرهم ووعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لعلهم يتقون الله بسبب ذلك. وعلى الوجه الثاني: فالمعنى أن الترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير لعلهم يتقون الخوض في آيات الله بالباطل إذا وقعت منكم الذكرى لهم، وأما جعل الضمير للمتقين فلا يخفى بعده، والعلم عند الله تعالى. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:١٢٧)].

(١) قيل: إنها متاركة منسوخة بالسيف، وقيل: بل هي تهديد فلا متاركة ولا نسخ فيها. [ابن جُزَيّ (١/ ١٦٥)].

(٢) يقول: مثلكم، إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: «ائتنا فإنا على الطريق»، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. [ابن كثير (٣/ ٢٧٩)].

مِنْ إِسْرَافِيلَ، لَا مُلْكَ فِيهِ لِغَيْرِهِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ ﴿ٱلْخَبِيرُ ٧٣﴾ بِبَاطِنِ الْأَشْيَاءِ كَظَاهِرِهَا. ﴿۞وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هُوَ لَقَبُهُ، وَاسْمُهُ: «تَارَخُ» ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تَعْبُدُهَا؟ اِسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ بِاتِّخَاذِهَا ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿مُّبِينٍ ٧٤﴾ بَيِّنٍ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا أَرَيْنَاهُ إِضْلَالَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴿نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ﴾ مُلْكَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لِيَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ بِهَا، وَجُمْلَةُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وَمَا بَعْدَهَا اِعْتِرَاضٌ(١). وَعُطِفَ عَلَى ﴿قَالَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أَظْلَمَ ﴿عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ﴾ قِيلَ هُوَ الزُّهْرَةُ ﴿قَالَ﴾ لِقَوْمِهِ وَكَانُوا نَجَّامِينَ: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ فِي زَعْمِكُمْ(٢) ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غَابَ ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ٧٦﴾ أَنْ أَتَّخِذَهُمْ أَرْبَابًا؛ لِأَنَّ الرَّبَّ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّغَيُّرُ وَالِانْتِقَالُ(٣)؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ شَأْنِ الْحَوَادِثِ، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ ذَلِكَ. ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طَالِعًا ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ يُثَبِّتْنِي عَلَى الْهُدَى ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾ تَعْرِيضٌ لِقَوْمِهِ بِأَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ ذَلِكَ. ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا﴾ ذَكَّرَهُ لِتَذْكِيرِ خَبَرِهِ ﴿رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ﴾ مِنَ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ وَقَوِيَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَلَمْ يَرْجِعُوا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨﴾ بِاللهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَجْرَامِ الْمُحْدَثَةِ، الْمُحْتَاجَةِ إِلَى مُحْدِثٍ، فَقَالُوا لَهُ مَا تَعْبُدُ؟ قَالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ قَصَدْتُ بِعِبَادَتِي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ خَلَقَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أَيِ: اللهُ ﴿حَنِيفًاۖ﴾ مَائِلًا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ ﴿وَمَآ

---

(١) أي: من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله، وهذا لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى. [الآلوسي (٤/١٨٧)].

(٢) أي: على وجه التنزل مع الخصم، أي: هذا ربي، فهلم ننظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان. [السعدي (ص:٢٦٢)].

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فما ورد إثباته لله تعالى من ذلك في الكتاب والسنة، وجب إثباته. وما ورد نفيه فيهما، وجب نفيه مع إثبات كمال ضده. وما لم يرد إثباته ولا نفيه فيهما وجب التوقف في لفظه، فلا يثبت ولا ينفى، لعدم ورود الإثبات والنفي فيه. وأما معناه: فيفصل فيه؛ فإن أريد به حقٌّ يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أريد به معنى لا يليق بالله عز وجل وجب رده. [القواعد المثلى (ص:٣٠)]. وهذا اللفظ الذي ذكره السيوطي مجمل، والألفاظ المجملة هي التي تحتمل أكثر من معنى بطبيعة الوضع، أو بالاستعمال، مع عدم ورود النص بها، لا إثباتا ولا نفيا، كلفظ الجهة والحيز والانتقال في حق الله تعالى. وهذه يُتوقف في لفظها لعدم وروده، ومعلوم أن الصفات توقيفية. وأما المعنى، فإن كان يراد منها حق وباطل، فلا بد من التفصيل؛ لأنه لا يصح نفيها بإطلاق لما يؤدي إليه من نفي المعنى الحق، ولا يمكن إثباتها بإطلاق لما يؤدي إليه من إثبات المعنى الباطل.

أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ بِهِ. ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ جادَلُوهُ فِي دِينِهِ وَهَدَّدُوهُ بِالْأَصْنَامِ أَنْ تُصِيبَهُ بِسُوءٍ إِنْ تَرَكَهَا ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾ بِتَشْدِيدِ النُّونِ وَتَخْفِيفِهَا بِحَذْفِ إِحْدَى النُّونَيْنِ، وَهِيَ: نُونُ الرَّفْعِ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَنُونُ الْوِقَايَةِ عِنْدَ الْقُرَّاءِ، أَتُجَادِلُونَنِي ﴿فِى﴾ وَحْدَانِيَّةِ ﴿ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ تَعَالَى إِلَيْهَا ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ هُ ﴿بِهِۦٓ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ، أَنْ تُصِيبَنِي بِسُوءٍ لِعَدَمِ قُدْرَتِهَا عَلَى شَيْءٍ ﴿إِلَّآ﴾ لَكِنْ ﴿أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ مِنَ الْمَكْرُوهِ يُصِيبُنِي فَيَكُونُ ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أَيْ: وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ هَذَا فَتُؤْمِنُوا. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ بِاللهِ، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ أَنْتُمْ مِنَ اللهِ ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ فِي الْعِبَادَةِ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ حُجَّةً وَبُرْهَانًا، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، أَنَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ مَنِ الْأَحَقُّ بِهِ، أَيْ: وَهُوَ نَحْنُ؛ فَاتَّبِعُوهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ يَخْلِطُوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أَيْ: شِرْكٍ، كَمَا فُسِّرَ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ[1] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ﴾ مُبْتَدَأٌ وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿حُجَّتُنَآ﴾ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ، مِنْ أُفُولِ الْكَوْكَبِ وَمَا بَعْدَهُ، وَالْخَبَرُ: ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أَرْشَدْنَاهُ لَهَا حُجَّةً ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بِالْإِضَافَةِ وَالتَّنْوِينِ، فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابْنَهُ ﴿كُلًّا﴾ مِنْهُمَا ﴿هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أَيْ: نُوحٍ ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ابْنَهُ ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابْنَ يَعْقُوبَ ﴿وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ﴾ ابْنَهُ ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابْنَ مَرْيَمَ، يُفِيدُ أَنَّ الذُّرِّيَّةَ تَتَنَاوَلُ أَوْلَادَ الْبِنْتِ ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ ابْنَ أَخِي هَارُونَ أَخِي مُوسَى ﴿كُلٌّ﴾ مِنْهُمْ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَٱلْيَسَعَ﴾ اللَّامُ زَائِدَةٌ ﴿وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ بْنَ هَارَانَ أَخِي إِبْرَاهِيمَ ﴿وَكُلًّا﴾ مِنْهُمْ ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ بِالنُّبُوَّةِ. ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿كُلًّا﴾ أَوْ ﴿نُوحًا﴾، وَ﴿مِنْ﴾ لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ، وَبَعْضَهُمْ كَانَ فِي وَلَدِهِ كَافِرٌ ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ اخْتَرْنَاهُمْ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ﴾ الدِّينُ الَّذِي هُدُوا إِلَيْهِ ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾

---

(١) عن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]». أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٢٤).

وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ فَرْضًا ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ بِمَعْنَى اَلْكُتُبِ ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ اَلْحِكْمَةَ ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أَيْ: بِهَذِهِ اَلثَّلَاثَةِ ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أَرْصَدْنَا لَهَا ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ هُمُ اَلْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى﴾ هُمُ ﴿ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ طَرِيقِهِمْ مِنَ اَلتَّوْحِيدِ وَالصَّبْرِ ﴿ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ بِهَاءِ اَلسَّكْتِ وَقْفًا وَوَصْلًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِحَذْفِهَا وَصْلًا ﴿قُل﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنِ ﴿أَجْرًا ۖ﴾ تُعْطُونِيهِ ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا اَلْقُرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ عِظَةٌ ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ اَلْإِنْسِ وَالْجِنِّ. ﴿وَمَا قَدَرُوا۟﴾ أَيِ: اَلْيَهُودُ ﴿ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أَيْ: مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، أَوْ مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ﴿إِذْ قَالُوا۟﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ خَاصَمُوهُ فِي اَلْقُرْآنِ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ يَجْعَلُونَهُۥ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ فِي اَلْمَوَاضِعِ اَلثَّلَاثَةِ ﴿قَرَاطِيسَ﴾ أَيْ: يَكْتُبُونَهُ فِي دَفَاتِرَ مُقَطَّعَةٍ ﴿يُبْدُونَهَا﴾ أَيْ: مَا يُحِبُّونَ إِبْدَاءَهُ مِنْهَا ﴿وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ مِمَّا فِيهَا كَنَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ أَيُّهَا اَلْيَهُودُ فِي اَلْقُرْآنِ ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ مِنَ اَلتَّوْرَاةِ، بِبَيَانِ مَا اِلْتَبَسَ عَلَيْكُمْ وَاخْتَلَفْتُمْ فِيهِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أَنْزَلَهُ إِنْ لَمْ يَقُولُوهُ، لَا جَوَابَ غَيْرُهُ ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ بَاطِلِهِمْ ﴿يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَـٰذَا﴾ اَلْقُرْآنُ ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ مِنَ اَلْكُتُبِ ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ عَطْفٌ عَلَى مَعْنَى مَا قَبْلَهُ، أَيْ: أَنْزَلْنَاهُ لِلْبَرَكَةِ وَالتَّصْدِيقِ، وَلِتُنْذِرَ بِهِ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ وَسَائِرَ اَلنَّاسِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهَا. ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بِادِّعَاءِ اَلنُّبُوَّةِ وَلَمْ يُنَبَّأْ ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ نَزَلَتْ فِي مُسَيْلِمَةَ[(١)] ﴿وَ﴾ مِنْ ﴿مَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ﴾ وَهُمُ اَلْمُسْتَهْزِئُونَ؛ قَالُوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١][(٢)]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ اَلْمَذْكُورُونَ ﴿فِى غَمَرَٰتِ﴾ سَكَرَاتِ ﴿ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ إِلَيْهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّعْذِيبِ، يَقُولُونَ لَهُمْ تَعْنِيفًا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ﴾ إِلَيْنَا لِنَقْبِضَهَا[(٣)] ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ اَلْهَوَانِ ﴿بِمَا

---

(١) أي: زعم أنه بعثه نبيا كمسيلمة والأسود العنسي، أو اختلق عليه أحكاما كعمرو بن لحي ومتابعيه. [البيضاوي (٢/ ١٧٣)].

(٢) وقد بين الله تعالى كذبهم في افترائهم هذا حيث ... صرح في سورة بني إسرائيل بعجز جميع الخلائق عن الإتيان بمثله في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فاتضح بطلان دعواهم الكاذبة. [الشنقيطي (٢/ ٢٣٩)].

(٣) فيه قولان: أحدهما: من أجسادكم عند معاينة الموت إرهاقا لهم وتغليظا عليهم، وإن كان إخراجها من فعل غيرهم. والثاني: أخرجوا

كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ، وَالْإِيحَاءِ كَذِبًا ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ تتكبَّرون عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فَظِيعًا. ﴿وَ﴾ يُقَالُ لَهُمْ إِذَا بُعِثُوا: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ مُنْفَرِدِينَ عَنِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَيْ: حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا[1] ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أَعْطَيْنَاكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ اخْتِيَارِكُمْ ﴿وَ﴾ يُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿مَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ الْأَصْنَامَ ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ أَيْ: فِي اسْتِحْقَاقِ عِبَادَتِكُمْ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ لِلَّهِ ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وَصْلُكُمْ، أَيْ: تَشَتَّتَ جَمْعُكُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ ظَرْفٌ، أَيْ: وَصْلُكُمْ بَيْنَكُمْ ﴿وَضَلَّ﴾ ذَهَبَ ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ شَفَاعَتِهَا. ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ﴾ شَاقُّ ﴿ٱلْحَبِّ﴾ عَنِ النَّبَاتِ ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ عَنِ النَّخْلِ[2] ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّائِرِ، مِنَ النُّطْفَةِ وَالْبَيْضَةِ[3] ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ النُّطْفَةِ وَالْبَيْضَةِ ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ﴾ الْفَالِقُ الْمُخْرِجُ ﴿ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنِ الْإِيمَانِ، مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ؟ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: الصُّبْحِ، أَيْ: شَاقُّ عَمُودِ الصُّبْحِ، وَهُوَ: أَوَّلُ مَا يَبْدُو مِنْ نُورِ النَّهَارِ عَنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ تَسْكُنُ فِيهِ الْخَلْقُ مِنَ التَّعَبِ ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ ﴿ٱلَّيْلِ﴾، ﴿حُسْبَانًا﴾ حِسَابًا لِلْأَوْقَاتِ،

أنفسكم من العذاب إن قدرتم، تقريعا لهم وتوبيخا بظلم أنفسهم، قاله الحسن. ويحتمل ثالثا: أن يكون معناه خلصوا أنفسكم بالاحتجاج عنها فيما فعلتم. [الماوردي (٢/ ١٤٤)].

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

(٢) هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه والفلق الشق، أي: هو سبحانه شاق الحب فيخرج منه النبات ﴿وَ﴾ فالق ﴿ٱلنَّوَىٰ﴾ فيخرج منه الشجر الصاعد في الهواء، .... والحب هو الذي ليس فيه نوى كالحنطة والشعير والأرز وما أشبه ذلك، والنوى جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ، والمعنى أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر عليها زمان أظهر الله منهما ورقاً أخضر، ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب، ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروقاً ضاربة في الأرض، فسبحان من أوجد جميع الأشياء بقدرته وإبداعه وخلقه، وتبارك الله أحسن الخالقين. [صديق حسن (٤/ ١٩٨)].

(٣) ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ النبات الغض النامي من الحب اليابس ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ الحب اليابس من النبات النامي، أو الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، أو المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. فاحتج الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه، لأنهم أنكروا البعث، فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء، فهو يقدر على بعثهم. [النسفي (١/ ٥٢٣)].

أَوِ الْبَاءُ مَحْذُوفَةٌ وَهُوَ حَالٌ مِنْ مُقَدَّرٍ، أَيْ: يَجْرِيَانِ بِحُسْبَانٍ؛ كَمَا فِي آيَةِ «الرَّحْمَنِ»(١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فِي الْأَسْفَارِ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٩٧﴾ يَتَدَبَّرُونَ(٢). ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ خَلَقَكُمْ ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هِيَ آدَمُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ مِنْكُمْ فِي الرَّحِمِ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ مِنْكُمْ فِي الصُّلْبِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْقَافِ، أَيْ: مَكَانُ قَرَارٍ لَكُمْ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾ مَا يُقَالُ لَهُمْ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿بِهِۦ﴾ بِالْمَاءِ ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يَنْبُتُ ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أَيِ: النَّبَاتِ شَيْئًا ﴿خَضِرًا﴾ بِمَعْنَى أَخْضَرَ ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ مِنَ الْخَضِرِ ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كَسَنَابِلِ الْحِنْطَةِ وَنَحْوِهَا ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ﴾ خَبَرٌ، وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿مِن طَلْعِهَا﴾ أَوَّلِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَالْمُبْتَدَأُ ﴿قِنْوَانٌ﴾ عَرَاجِينُ ﴿دَانِيَةٌ﴾ قَرِيبٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴿وَ﴾ أَخْرَجْنَا بِهِ ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ وَرَقُهُمَا، حَالٌ ﴿وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ﴾ ثَمَرُهُمَا ﴿ٱنظُرُوٓا۟﴾ يَا مُخَاطَبُونَ نَظَرَ اعْتِبَارٍ ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ بِفَتْحِ الثَّاءِ وَالْمِيمِ وَبِضَمِّهِمَا، وَهُوَ جَمْعُ «ثَمَرَةٍ»، كَشَجَرَةٍ وَشَجَرٍ، وَخَشَبَةٍ وَخُشُبٍ ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ أَوَّلَ مَا يَبْدُو كَيْفَ هُوَ ﴿وَ﴾ إِلَى ﴿يَنْعِهِۦٓ﴾ نُضْجِهِ إِذَا أَدْرَكَ كَيْفَ يَعُودُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾ خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا فِي الْإِيمَانِ، بِخِلَافِ الْكَافِرِينَ. ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿شُرَكَآءَ﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ، وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ حَيْثُ أَطَاعُوهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فَكَيْفَ يَكُونُونَ شُرَكَاءَ؟ ﴿وَخَرَقُوا۟﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أَيِ: اخْتَلَقُوا ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حَيْثُ قَالُوا: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، وَالْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾ بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا. هُوَ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبْدِعُهُمَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿أَنَّىٰ﴾ كَيْفَ ﴿يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ﴾ زَوْجَةٌ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخْلَقَ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢﴾ حَفِيظٌ. ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أَيْ: لَا تَرَاهُ وَهَذَا مَخْصُوصٌ لِرُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ فِي

---

(١) قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

(٢) والذين يعلمون هم الذين انتفعوا بدلائل الآيات، وهم الذين آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]. [ابن عاشور (٧/ ٣٩٥)].

ٱلْآخِرَةِ. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وَحَدِيثِ ٱلشَّيْخَيْنِ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ ٱلْقَمَرَ لَيْلَةَ ٱلْبَدْرِ»[١]، وَقِيلَ: ٱلْمُرَادُ لَا تُحِيطُ بِهِ[٢] ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أَيْ: يَرَاهَا وَلَا تَرَاهُ، وَلَا يَجُوزُ فِي غَيْرِهِ أَنْ يُدْرِكَ ٱلْبَصَرَ وَهُوَ لَا يُدْرِكُهُ أَوْ يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا[٣] ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ بِهِمْ. قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ حُجَجٌ ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ هَا فَآمَنَ ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أَبْصَرَ؛ لِأَنَّ ثَوَابَ إِبْصَارِهِ لَهُ ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عَنْهَا فَضَلَّ ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وَبَالُ إِضْلَالِهِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝١٠٤﴾ رَقِيبٍ لِأَعْمَالِكُمْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّا مَا ذُكِرَ ﴿نُصَرِّفُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ لِيَعْتَبِرُوا ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ أَيِ ٱلْكُفَّارُ فِي عَاقِبَةِ ٱلْأَمْرِ: ﴿دَارَسْتَ﴾ ذَاكَرْتَ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿دَرَسْتَ﴾ أَيْ: كُتُبَ ٱلْمَاضِينَ، وَجِئْتَ بِهَذَا مِنْهَا ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١٠٥ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أَيِ: ٱلْقُرْآنَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رَقِيبًا فَتُجَازِيَهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝١٠٧﴾ فَتُجْبِرَهُمْ عَلَى ٱلْإِيمَانِ، وَهَذَا قَبْلَ ٱلْأَمْرِ بِٱلْقِتَالِ. ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هُمْ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: ٱلْأَصْنَامَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣)، ومسلم (٦٣٣). بلفظ: قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: كنا عند النبي ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال ﷺ: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا».

(٢) الحق، أن المنفي في هذه الآية الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه، أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه بل هو ثابت بهذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك. وحاصل هذا الجواب: أن الإدراك أخص من مطلق الرؤية لأن الإدراك المراد به الإحاطة، والعرب تقول: رأيت الشيء وما أدركته، فمعنى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لا تحيط به، كما أنه تعالى يعلمه الخلق ولا يحيطون به علما. وقد اتفق العقلاء على أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية، مع أن الله تعالى لا يدرك كنهه على الحقيقة أحد من الخلق. والدليل على صحة هذا الوجه ما أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى مرفوعا: «حِجَابُهُ النُّورُ أَوِ النَّارُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». أخرجه مسلم (١٧٩). فالحديث صريح في عدم الرؤية في الدنيا، ويفهم منه عدم إمكان الإحاطة مطلقا. والحاصل: أن رؤيته تعالى بالأبصار جائزة عقلا في الدنيا والآخرة لأن كل موجود يجوز أن يرى عقلا، ويدل لجوازها عقلا قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لأنه لا يجهل الجائز في حق الله تعالى عقلا. وأما في الشرع فهي جائزة وواقعة في الآخرة ممتنعة في الدنيا، ومن أصرح الأدلة في ذلك ...: «إِنَّكُم لَنْ تَرَوْا رَبَّكُم حَتَّى تَمُوتُوا». أخرجه أحمد (٢٢٨٦٤). والأحاديث برؤية المؤمنين له يوم القيامة متواترة، والعلم عند الله تعالى. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:١٣١)].

(٣) أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. [ابن كثير (٣/٣١١)].

﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا﴾ اِعْتِداءً وَظُلْمًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَيْ: جَهْلًا مِنْهُمْ بِاللهِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا زَيَّنَّا لِهَؤُلَاءِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ مِنَ اَلْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَأَتَوْهُ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ فِي اَلْآخِرَةِ ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٠٨﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِهِ. ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أَيْ: غَايَةَ اِجْتِهَادِهِمْ فِيهَا ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ مِمَّا اِقْتَرَحُوا ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يُنَزِّلُهَا كَمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ يُدْرِيكُمْ بِإِيمَانِهِمْ إِذَا جَاءَتْ. أَيْ: أَنْتُمْ لَا تَدْرُونَ ذَلِكَ ﴿إِنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٩﴾ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِي، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّاءِ خِطَابًا لِلْكُفَّارِ، وَفِي أُخْرَى بِفَتْحِ «أَنَّ» بِمَعْنَى «لَعَلَّ» أَوْ مَعْمُولَةٌ لِمَا قَبْلَهَا(١) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ نُحَوِّلُ قُلُوبَهُمْ عَنِ اَلْحَقِّ فَلَا يَفْهَمُونَهُ ﴿وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ عَنْهُ فَلَا يُبْصِرُونَهُ، فَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ﴾ أَيْ: بِمَا أُنْزِلَ مِنَ اَلْآيَاتِ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ﴾ نَتْرُكُهُمْ ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ ضَلَالِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ ١١٠﴾ يَتَرَدَّدُونَ مُتَحَيِّرِينَ. ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كَمَا اِقْتَرَحُوا ﴿وَحَشَرْنَا﴾ جَمَعْنَا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ بِضَمَّتَيْنِ جَمْعُ «قَبِيلٍ»، أَيْ: فَوْجًا فَوْجًا، وَبِكَسْرِ اَلْقَافِ وَفَتْحِ اَلْبَاءِ، أَيْ: مُعَايَنَةً، فَشَهِدُوا بِصِدْقِكَ ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ ﴿إِلَّآ﴾ لَكِنْ ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إِيمَانَهُمْ فَيُؤْمِنُوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ١١١﴾ ذَلِكَ. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ كَمَا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ أَعْدَاءَكَ، وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ مَرَدَةَ ﴿ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي﴾ يُوَسْوِسُ ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ مُمَوَّهَهُ مِنَ اَلْبَاطِلِ ﴿غُرُورًا﴾ أَيْ: لِيَغُرُّوهُمْ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيِ: اَلْإِيحَاءَ اَلْمَذْكُورَ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ دَعِ اَلْكُفَّارَ ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ ١١٢﴾ مِنَ اَلْكُفْرِ وَغَيْرِهِ، مِمَّا زُيِّنَ لَهُمْ، وَهَذَا قَبْلَ اَلْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿غُرُورًا﴾، أَيْ: تَمِيلَ ﴿إِلَيْهِ﴾ أَيِ: الزُّخْرُفِ ﴿أَفْـِٔدَةُ﴾ قُلُوبُ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾ يَكْتَسِبُوا ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ١١٣﴾ مِنَ اَلذُّنُوبِ فَيُعَاقَبُوا عَلَيْهِ. وَنَزَلَ لَمَّا طَلَبُوا مِنَ اَلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَكَمًا، قُلْ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي﴾ أَطْلُبُ ﴿حَكَمًا﴾ قَاضِيًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اَلْقُرْآنَ ﴿مُفَصَّلًا﴾ مُبَيَّنًا فِيهِ اَلْحَقُّ مِنَ اَلْبَاطِلِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اَلتَّوْرَاةَ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ

---

(١) قال الكسائي والفراء: أن «لا» زائدة، والمعنى: وما يشعركم أنها - أي: الآيات- إذا جاءت يؤمنون فزيدت «لا» كما زيدت في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] وفي قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وضعف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة «لا» وقالوا هو خطأ وغلط، وذكر النحاس وغيره أن في الكلام حذفاً والتقدير: «أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون» ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع. [الشوكاني (٢/ ١٧٣)].

﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١١٤﴾ الشَّاكِّينَ فِيهِ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ التَّقْرِيرُ لِلْكُفَّارِ أَنَّهُ حَقٌّ. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بِالْأَحْكَامِ وَالْمَوَاعِيدِ ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ تَمْيِيزٌ ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بِنَقْصٍ أَوْ خُلْفٍ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿ٱلْعَلِيمُ ١١٥﴾ بِمَا يُفْعَلُ. ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيِ: الْكُفَّارَ ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿إِن﴾ مَا ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فِي مُجَادَلَتِهِمْ لَكَ فِي أَمْرِ الْمَيْتَةِ، إِذْ قَالُوا: مَا قَتَلَ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَأْكُلُوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ١١٦﴾ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أَيْ: عَالِمٌ ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١١٧﴾ فَيُجَازِي كُلًّا مِنْهُمْ. ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: ذُبِحَ عَلَى اسْمِهِ ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١١٨ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مِنَ الذَّبَائِحِ ﴿وَقَدْ فُصِّلَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَلِلْفَاعِلِ فِي الْفِعْلَيْنِ ﴿لَكُم مَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فِي آيَةِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مِنْهُ، فَهُوَ أَيْضًا حَلَالٌ لَكُمْ، الْمَعْنَى: لَا مَانِعَ لَكُمْ مِنْ أَكْلِ مَا ذُكِرَ، وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمُ الْمُحَرَّمُ أَكْلُهُ، وَهَذَا لَيْسَ مِنْهُ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ بِمَا تَهْوَاهُ أَنْفُسُهُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ وَغَيْرِهَا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَعْتَمِدُونَهُ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ١١٩﴾ الْمُتَجَاوِزِينَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ. ﴿وَذَرُوا﴾ اتْرُكُوا ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥ﴾ عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَ﴿ٱلْإِثْمِ﴾ قِيلَ: الزِّنَى، وَقِيلَ: كُلُّ مَعْصِيَةٍ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ١٢٠﴾ يَكْتَسِبُونَ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بِأَنْ مَاتَ أَوْ ذُبِحَ عَلَى اسْمِ غَيْرِهِ، وَإِلَّا فَمَا ذَبَحَهُ الْمُسْلِمُ وَلَمْ يُسَمِّ فِيهِ عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا فَهُوَ حَلَالٌ، قَالَهُ: ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الْأَكْلُ مِنْهُ ﴿لَفِسْقٌ﴾ خُرُوجٌ عَمَّا يَحِلُّ ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾ يُوَسْوِسُونَ ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الْكُفَّارِ ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ فِي تَحْلِيلِ الْمَيْتَةِ ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فِيهِ ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ١٢١﴾. وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بِالْكُفْرِ ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بِالْهُدَى ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يَتَبَصَّرُ بِهِ الْحَقَّ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ: الْإِيمَانُ ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ﴾ «مَثَلُ» زَائِدَةٌ، أَيْ: كَمَنْ هُوَ ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وَهُوَ الْكَافِرُ؟ لَا. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا زُيِّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانُ ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٢٢﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَعَلْنَا فُسَّاقَ مَكَّةَ أَكَابِرَهَا ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بِالصَّدِّ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لِأَنَّ وَبَالَهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ١٢٣﴾ بِذَلِكَ. ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿ءَايَةٌ﴾ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ﴾ بِهِ ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ إِلَيْنَا؛ لِأَنَّا أَكْثَرُ مَالًا وَأَكْبَرُ سِنًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ، وَ﴿حَيْثُ﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلٍ دَلَّ عَلَيْهِ ﴿أَعْلَمُ﴾، أَيْ: يَعْلَمُ

اَلْمَوْضِعَ اَلصَّالِحَ لِوَضْعِهَا فِيهِ فَيَضَعُهَا، وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا أَهْلًا لَهَا[1] ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ بِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ ﴿صَغَارٌ﴾ ذُلٌّ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ۝١٢٤﴾ أَيْ: بِسَبَبِ مَكْرِهِمْ. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ بِأَنْ يَقْذِفَ فِي قَلْبِهِ نُورًا فَيَنْفَسِحَ لَهُ وَيَقْبَلَهُ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ[2] ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ اللهُ ﴿أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، عَنْ قَبُولِهِ ﴿حَرَجًا﴾ شَدِيدَ اَلضِّيقِ، بِكَسْرِ اَلرَّاءِ صِفَةٌ، وَفَتْحِهَا مَصْدَرٌ وُصِفَ فِيهِ مُبَالَغَةً، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَصَّعَدُ﴾ وَفِيهِمَا إِدْغَامُ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلصَّادِ، وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إِذَا كُلِّفَ اَلْإِيمَانَ لِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ[3] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اَلْجَعْلِ ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ اَلْعَذَابَ، أَوِ اَلشَّيْطَانَ، أَيْ: يُسَلِّطُهُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥ وَهَٰذَا﴾ اَلَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ ﴿صِرَٰطُ﴾ طَرِيقُ ﴿رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لَا عِوَجَ فِيهِ، وَنَصْبُهُ عَلَى اَلْحَالِ اَلْمُؤَكِّدِ لِلْجُمْلَةِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى اَلْإِشَارَةِ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ فِيهِ إِدْغَامُ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلذَّالِ، أَيْ: يَتَّعِظُونَ، وَخُصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ اَلْمُنْتَفِعُونَ. ﴿۞لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أَيِ: اَلسَّلَامَةِ وَهِيَ اَلْجَنَّةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٢٧ وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾

---

(١) يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء متبوعين لا تابعين. وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة ونظيره: ﴿يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]، فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: أن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولاً ويكون موضعاً لها وأميناً عليها، وقد اختار أن يجعلها في محمد ﷺ صفيه وحبيبه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم، عن ابن جريج قال: قالوا لمحمد ﷺ حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق: لو كان هذا حقاً لكان فينا من هو أحق أن يؤتى به من محمد، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. [صديق حسن (٤/ ٢٣٥)]. عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ اصْطَفَى مِن ولَدِ إبْراهِيمَ إسْماعِيلَ، واصْطَفَى مِن بَنِي إسْماعِيلَ بَنِي كِنانَةَ، واصْطَفَى مِن بَنِي كِنانَةَ قُرَيْشًا، واصْطَفَى مِن قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصْطَفانِي مِن بَنِي هاشِمٍ». أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

(٢) سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر، قال: «نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فَيَنْشَرِحُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ» الحديث. أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٥٢)، والطبري (١٣٨٥٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٥٧١)، عن أبي جعفر المدائني مرسلا.

(٣) أعلم تعالى عباده أن الهداية بيده وأن الإضلال كذلك، يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بعدله، وأن لكل من الهداية والإضلال سنناً تتبع في ذلك فمن طلب الهداية ورغب فيها صادقاً علم تعالى منه وسهل له طرقها وهيأ له أسبابها، ومن ذلك أنه يشرح صدره لقبول الإيمان وأنواره فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد، ومن طلب الغواية ورغب فيها صادقاً علم الله تعالى ذلك منه فهيأ له أسبابها وفتح له بابها فجعل صدره ضيقا حرجاً لا يتسع لقبول الإيمان وحلول أنواره فيه حتى لكأنه يتكلف الصعود إلى السماء وما هو بقادر هذه سنته في الهداية والإضلال. [أبو بكر الجزائري (٢/ ١١٦)].

بالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَيِ: اللهُ، الْخَلْقَ ﴿جَمِيعًا﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ بِإِغْوَائِكُمْ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ الَّذِينَ أَطَاعُوهُمْ ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ انْتَفَعَ الْإِنْسُ بِتَزْيِينِ الْجِنِّ لَهُمُ الشَّهَوَاتِ، وَالْجِنُّ بِطَاعَةِ الْإِنْسِ لَهُمْ ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا تَحَسُّرٌ مِنْهُمْ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ(١): ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ مَأْوَاكُمْ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الْأَوْقَاتِ الَّتِي يَخْرُجُونَ فِيهَا لِشُرْبِ الْحَمِيمِ فَإِنَّهُ خَارِجَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ فِيمَنْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ». فَـ﴿مَا﴾ بِمَعْنَى «مَنْ»(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا مَتَّعْنَا عُصَاةَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴿نُوَلِّى﴾ مِنَ الْوِلَايَةِ ﴿بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ أَيْ: عَلَى بَعْضٍ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ مِنَ الْمَعَاصِي. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أَيْ: مِنْ مَجْمُوعِكُمْ، أَيْ: بَعْضُكُمُ الصَّادِقُ بِالْإِنْسِ، أَوْ رُسُلُ الْجِنِّ نُذُرُهُمُ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ كَلَامَ الرُّسُلِ فَيُبَلِّغُونَ قَوْمَهُمْ ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ أَنْ قَدْ بَلَغَنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فَلَمْ يُؤْمِنُوا ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: إِرْسَالُ الرُّسُلِ ﴿أَن﴾ اللَّامُ مُقَدَّرَةٌ وَهِيَ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: لِأَنَّهُ ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ مِنْهَا ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ يُبَيِّنُ لَهُمْ(٣). ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِنَ الْعَامِلِينَ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ جَزَاءٌ ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ وَعِبَادَتِهِمْ ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ بِالْإِهْلَاكِ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ مِنَ الْخَلْقِ ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ أَذْهَبَهُمْ، وَلَكِنَّهُ أَبْقَاكُمْ رَحْمَةً لَكُمْ. ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ السَّاعَةِ وَالْعَذَابِ ﴿لَءَاتٍ﴾ لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ فَائِتِينَ عَذَابَنَا. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حَالَتِكُمْ ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ عَلَى حَالَتِي(٤) ﴿فَسَوْفَ

---

(١) هذا خبر من الله تعالى ذكره عمَّا هو قائل لهؤلاء الذين يحشرهم يوم القيامة من العادلين به في الدنيا الأوثان، ولقُرنائهم من الجن، فأخرج الخبر عما هو كائنٌ، مُخْرَج الخبر عما كان، لتقدُّم الكلام قبلَه بمعناه. [الطبري (٩/ ٥٥٧)].

(٢) الصحيح أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، انظر حاشية تفسير آية (١٠٧) من سورة هود.

(٣) إعلام بأنه تعالى أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتبيين الآيات، وإلزام الحجة بالإنذار والتهديد. وأنه تعالى لا يؤاخذ القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم لا تبلغهم دعوة رسول ينهاهم عنه، وينبههم على بطلانه؛ لأنه ينافي الحكمة. [القاسمي (٤/ ٤٩٥)].

(٤) والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه، فأنا أثبت على ما أنا عليه. فإن قيل: كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار. فالجواب

﴿تَعۡلَمُونَ مَن﴾ مَوْصُولَةٌ مَفْعُولُ اَلْعِلْمِ ﴿تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ أَيِ: اَلْعَاقِبَةُ اَلْمَحْمُودَةُ فِي اَلدَّارِ اَلْآخِرَةِ، أَنَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾ يَسْعَدُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ اَلْكَافِرُونَ. ﴿وَجَعَلُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خَلَقَ ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ﴾ اَلزَّرْعِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ يَصْرِفُونَهُ إِلَى اَلضِّيفَانِ وَالْمَسَاكِينِ، وَلِشُرَكَائِهِمْ نَصِيبًا يَصْرِفُونَهُ إِلَى سَدَنَتِهَا ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ فَكَانُوا إِذَا سَقَطَ فِي نَصِيبِ اَللهِ شَيْءٌ مِنْ نَصِيبِهَا اِلْتَقَطُوهُ، أَوْ فِي نَصِيبِهَا شَيْءٌ مِنْ نَصِيبِهِ تَرَكُوهُ، وَقَالُوا: إِنَّ اَللهَ غَنِيٌّ عَنْ هَذَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أَيْ: لِجِهَتِهِ ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾ هُ حُكْمُهُمْ هَذَا. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا زُيِّنَ لَهُمْ مَا ذُكِرَ ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾ بِالْوَأْدِ ﴿شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ مِنَ اَلْجِنِّ، بِالرَّفْعِ فَاعِلُ ﴿زَيَّنَ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِبِنَائِهِ لِلْمَفْعُولِ، وَرَفْعِ ﴿قَتۡلُ﴾ وَنَصْبِ «اَلْأَوْلَادَ» بِهِ، وَجَرِّ ﴿شُرَكَآئِهِمۡ﴾ بِإِضَافَتِهِ، وَفِيهِ اَلْفَصْلُ بَيْنَ اَلْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ بِالْمَفْعُولِ وَلَا يَضُرُّ، وَإِضَافَةُ اَلْقَتْلِ إِلَى اَلشُّرَكَاءِ لِأَمْرِهِمْ بِهِ ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ يُهْلِكُوهُمْ ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾ يَخْلِطُوا ﴿عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ حَرَامٌ ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ مِنْ خَدَمَةِ اَلْأَوْثَانِ وَغَيْرِهِمْ ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ أَيْ: لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ فَلَا تُرْكَبُ كَالسَّوَائِبِ وَالْحَوَامِي ﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ عِنْدَ ذَبْحِهَا، بَلْ يَذْكُرُونَ اِسْمَ أَصْنَامِهِمْ، وَنَسَبُوا ذَلِكَ إِلَى اَللهِ ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨﴾ عَلَيْهِ. ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ اَلْمُحَرَّمَةِ وَهِيَ اَلسَّوَائِبُ وَالْبَحَائِرُ ﴿خَالِصَةٞ﴾ حَلَالٌ ﴿لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ أَيِ: اَلنِّسَاءِ ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، مَعَ تَأْنِيثِ اَلْفِعْلِ وَتَذْكِيرِهِ ﴿فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ﴾ اَللهُ ﴿وَصۡفَهُمۡۚ﴾ ذَلِكَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، أَيْ: جَزَاءَهُ ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿عَلِيمٞ ١٣٩﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ بِالْوَأْدِ ﴿سَفَهَۢا﴾ جَهْلًا ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾ * ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ﴾ خَلَقَ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ بَسَاتِينَ ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ مَبْسُوطَاتٍ عَلَى اَلْأَرْضِ كَالْبِطِّيخِ ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ بِأَنِ اِرْتَفَعَتْ عَلَى سَاقٍ كَالنَّخْلِ(١) ﴿وَ﴾ أَنْشَأَ ﴿ٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا

أن هذا تهديد، كما قال عز وجل: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: ٨٢]. ودل عليه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، أي: العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها. [القرطبي (٧/ ٨٩)].

(١) ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ ممسوكات، ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش. وقيل: «المعروشات» ما في الأرياف

﴿أُكُلُهُۥ﴾ ثَمَرُهُ وَحَبُّهُ، فِي الْهَيْئَةِ وَالطَّعْمِ ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ وَرَقُهُمَا، حَالٌ ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾ طَعْمُهُمَا ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ قَبْلَ النَّضْجِ ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ زَكَاتَهُ ﴿يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، مِنَ الْعُشْرِ أَوْ نِصْفِهِ ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ بِإِعْطَاءِ كُلِّهِ، فَلَا يَبْقَى لِعِيَالِكُمْ شَيْءٌ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٤١﴾ الْمُتَجَاوِزِينَ مَا حُدَّ لَهُمْ. ﴿وَ﴾ أَنْشَأَ ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً﴾ صَالِحَةً لِلْحَمْلِ عَلَيْهَا كَالْإِبِلِ الْكِبَارِ ﴿وَفَرْشًاۚ﴾ تَصْلُحُ لَهُ كَالْإِبِلِ الصِّغَارِ وَالْغَنَمِ، سُمِّيَتْ فَرْشًا لِأَنَّهَا كَالْفَرْشِ لِلْأَرْضِ لِدُنُوِّهَا مِنْهَا[1] ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ طَرَائِقَهُ مِنَ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٤٢﴾ بَيِّنُ الْعَدَاوَةِ. ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ﴾ أَصْنَافٍ، بَدَلٌ مِنْ: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ﴾، ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ﴾ زَوْجَيْنِ ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ﴾ بِالْفَتْحِ وَالسُّكُونِ ﴿ٱثْنَيْنِۗ قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ حَرَّمَ ذُكُورَ الْأَنْعَامِ تَارَةً، وَإِنَاثَهَا أُخْرَى، وَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَى اللهِ: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعْزِ ﴿حَرَّمَ﴾ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ مِنْهُمَا ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ﴾ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى؟ ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَحْرِيمِ ذَلِكَ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٤٣﴾ فِيهِ، الْمَعْنَى: مِنْ أَيْنَ جَاءَ التَّحْرِيمُ؟ فَإِنْ كَانَ مِنْ قِبَلِ الذُّكُورَةِ فَجَمِيعُ الذُّكُورِ حَرَامٌ، أَوِ الْأُنُوثَةِ فَجَمِيعُ الْإِنَاثِ، أَوِ اشْتِمَالُ الرَّحِمِ فَالزَّوْجَانِ، فَمِنْ أَيْنَ التَّخْصِيصُ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حُضُورًا ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ التَّحْرِيمِ فَاعْتَمَدْتُمْ ذَلِكَ؟ لَا، بَلْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ فِيهِ ﴿فَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بِذَلِكَ ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٤ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ شَيْئًا ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مَيْتَةً﴾ بِالنَّصْبِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ مَعَ التَّحْتَانِيَّةِ[2] ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ سَائِلًا، بِخِلَافِ غَيْرِهِ كَالْكَبِدِ وَالطِّحَالِ ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ حَرَامٌ ﴿أَوْ﴾ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ﴿فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ أَيْ: ذُبِحَ عَلَى اسْمِ غَيْرِهِ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ فَأَكَلَهُ ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ لَهُ مَا أَكَلَ ﴿رَّحِيمٌ ۝١٤٥﴾ بِهِ، وَيُلْحَقُ بِمَا ذُكِرَ بِالسُّنَّةِ: كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ

والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرشوه، و«غير معروشات» مما أنبته وحشيا في البراري والجبال. فهو غير معروش. يقال: عرشت الكرم، إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان. وسقف البيت: عرشه. [الزمخشري (٢/ ٧٢)].

(١) أي: ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش. [الزمخشري (٢/ ٧٣)].

(٢) الصواب قراءة الرفع مع الفوقانية وليس التحتانية.

اَلسِّباعِ وَمِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ(١). ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أَيْ: اَلْيَهُودِ ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وَهُوَ مَا لَمْ تُفَرَّقْ أَصابِعُهُ؛ كَالْإِبِلِ وَالنَّعامِ ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ اَلثُّرُوبَ(٢) وَشَحْمَ الْكُلَى ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أَيْ: مَا عَلِقَ بِهَا مِنْهُ ﴿أَوِ﴾ حَمَلَتْهُ ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ اَلْأَمْعاءُ، جَمْعُ: حاوِياءَ أَوْ حاوِيَةٍ ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ مِنْهُ، وَهُوَ شَحْمُ الْأَلْيَةِ، فَإِنَّهُ أُحِلَّ لَهُمْ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اَلتَّحْرِيمُ ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ بِهِ ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ بِمَا سَبَقَ فِي سُورَةِ «النِّساءِ»(٣) ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ فِي أَخْبارِنا وَمَواعِيدِنا. ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فِيمَا جِئْتَ بِهِ ﴿فَقُل﴾ لَهُمْ: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ حَيْثُ لَمْ يُعاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَفِيهِ تَلَطُّفٌ بِدُعائِهِمْ إِلَى الْإِيمانِ ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ عَذابُهُ إِذا جاءَ ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ نَحْنُ ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ فَإِشْراكُنا وَتَحْرِيمُنا بِمَشِيئَتِهِ، فَهُوَ راضٍ بِهِ، قالَ تَعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَما كَذَّبَ هَؤُلاءِ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلَهُمْ ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ عَذابَنا ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ بِأَنَّ اللهَ راضٍ بِذَلِكَ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أَيْ: لا عِلْمَ عِنْدَكُمْ ﴿إِن﴾ مَا ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ تَكْذِبُونَ فِيهِ. ﴿قُلْ﴾ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ حُجَّةٌ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ اَلتّامَّةُ ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ هِدايَتَكُمْ ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ﴾ أَحْضِرُوا ﴿شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ اَلَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ يُشْرِكُونَ. ﴿۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ﴾ أَقْرَأْ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَ﴾ نْ مُفَسِّرَةٌ ﴿لَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَ﴾ أَحْسِنُوا ﴿بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم﴾ بِالْوَأْدِ ﴿مِّنْ﴾ أَجْلِ ﴿إِمْلَٰقٍ﴾ فَقْرٍ تَخافُونَهُ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ اَلْكَبائِرَ كَالزِّنا ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أَيْ: عَلانِيَتَها وَسِرَّها ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كَالْقَوَدِ وَحَدِّ الرِّدَّةِ وَرَجْمِ الْمُحْصَنِ، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ اَلْمَذْكُورُ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ تَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ أَيْ: بِالْخَصْلَةِ الَّتِي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ وَهِيَ مَا فِيهِ صَلاحُهُ ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ بِأَنْ يَحْتَلِمَ ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ، وَتَرْكِ الْبَخْسِ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طاقَتَها فِي ذَلِكَ، فَإِنْ أَخْطَأَ فِي الْكَيْلِ

---

(١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «نَهى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كُلِّ ذي نابٍ مِنَ السِّباعِ، وَعَنْ كُلِّ ذي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ». أخرجه مسلم (١٩٣٤).

(٢) الثرب: شحم رقيق يغشي الكرش والأمعاء، والجمع ثروب. [العين للفراهيدي (٨/ ٢٢٢)].

(٣) أي: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٥ - ١٦٠].

وَالْوَزْنِ - وَاللهُ يَعْلَمُ صِحَّةَ نِيَّتِهِ - فَلَا مُؤَاخَذَةَ عَلَيْهِ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ[١] ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ فِي حُكْمٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ الْمَقُولُ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ قَرَابَةٍ ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ بِالتَّشْدِيدِ: تَتَّعِظُونَ، وَالسُّكُونِ. ﴿وَأَنَّ﴾ بِالْفَتْحِ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ، وَالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا ﴿هَٰذَا﴾ الَّذِي وَصَّيْتُكُمْ بِهِ ﴿صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ حَالٌ ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الطُّرُقَ الْمُخَالِفَةَ لَهُ ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ، تَمِيلَ ﴿بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ دِينِهِ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ، وَ ﴿ثُمَّ﴾ لِتَرْتِيبِ الْأَخْبَارِ ﴿تَمَامًا﴾ لِلنِّعْمَةِ ﴿عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ﴾ بِالْقِيَامِ بِهِ ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ بَيَانًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ أَيْ: بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ، بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ الْكُفْرَ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾. أَنْزَلْنَاهُ لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿مِن قَبْلِنَا وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّا ﴿كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قِرَاءَتِهِمْ ﴿لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا لَهَا، إِذْ لَيْسَتْ بِلُغَتِنَا. ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لِجَوْدَةِ أَذْهَانِنَا ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾ بَيَانٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لِمَنِ اتَّبَعَهُ ﴿فَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ﴾ أَعْرَضَ ﴿عَنْهَا سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أَيْ: أَشَدَّهُ ﴿بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ﴾ مَا يَنْتَظِرُ الْمُكَذِّبُونَ ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أَيْ: أَمْرُهُ بِمَعْنَى عَذَابِهِ[٢] ﴿أَوْ يَأْتِيَ

---

(١) عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فَقَالَ: «مَنْ أَوْفَى عَلَى يَدِهِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ، وَاللهُ يَعْلَمُ صِحَّةَ نِيَّتِهِ بِالْوَفَاءِ فِيهِمَا، لَمْ يُؤَاخَذْ»، وذلك تأويل ﴿وُسْعَهَا﴾. هَذَا مرسل غريب. ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٨٤) ولم يعزه لأحد غيره، وفي إسناده مبشر بن عبيد الحمصي. قال أحمد: كان يضع الحديث، وقال البخاري: روى عنه بقية، منكر الحديث. قال صديق حسن (٤/ ٢٧٧): المعنى: أي طاقتها في كل تكليف من التكاليف ومنه التكليف بإيفاء الكيل والوزن فلا يخاطب المتولي لهما بما لا يمكن الاحتراز عنه في الزيادة والنقصان فإن أخطأ في الكيل والوزن والله يعلم صحة نيته فلا مؤاخذة عليه، ومع ذلك يضمن ما أخطأ فيه كما في كتب الفروع.

(٢) ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله جل وعلا وملائكته يوم القيامة، وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفا، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنه جل وعلا يأتي في ظلل من الغمام، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية [البقرة: ٢١٠]، ومثل هذا من صفات الله

بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ أَيْ: عَلَامَاتُهُ اَلدَّالَّةُ عَلَى اَلسَّاعَةِ ﴿**يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ**﴾ وَهِيَ طُلُوعُ اَلشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، كَمَا فِي حَدِيثِ اَلصَّحِيحَيْنِ[1] ﴿**لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ**﴾ اَلْجُمْلَةُ صِفَةُ «اَلنَّفْسِ» ﴿**أَوۡ**﴾ نَفْسًا لَمْ تَكُنْ ﴿**كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ**﴾ طَاعَةً، أَيْ: لَا تَنْفَعُهَا تَوْبَتُهَا كَمَا فِي اَلْحَدِيثِ ﴿**قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ**﴾ أَحَدَ هَذِهِ اَلْأَشْيَاءِ ﴿**إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨**﴾ ذَلِكَ. ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ**﴾ بِاخْتِلَافِهِمْ فِيهِ، فَأَخَذُوا بَعْضَهُ وَتَرَكُوا بَعْضَهُ ﴿**وَكَانُواْ شِيَعٗا**﴾ فِرَقًا فِي ذَلِكَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَٰرَقُواْ﴾ أَيْ: تَرَكُوا دِينَهُمُ اَلَّذِي أُمِرُوا بِهِ، وَهُمُ: اَلْيَهُودُ وَالنَّصَارَى[2] ﴿**لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ**﴾ أَيْ: فَلَا تَتَعَرَّضْ لَهُمْ ﴿**إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ**﴾ يَتَوَلَّاهُ ﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُهُم**﴾ فِي اَلْآخِرَةِ ﴿**بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩**﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِهِ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ اَلسَّيْفِ[3]. ﴿**مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ**﴾ أَيْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[4] ﴿**فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ**﴾ أَيْ: جَزَاءُ عَشْرِ حَسَنَاتٍ[5] ﴿**وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا**﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ ﴿**وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠**﴾

تعالى التي وصف بها نفسه يمر كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئا من صفات المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علما. [الشنقيطي (٢/ ٣٤٤)].

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥٩)، ومسلم (٢٧٠٣)، ولفظ مسلم: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ».

(٢) الظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق ... وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الشورى: ١٣] الآية. وفي الحديث: «نَحْنُ مُعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ». أخرجه البخاري (٣٤٤٢). فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء. والرسل برآء منها كما قال الله تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾. [ابن كثير (٣/ ٣٧٧)]. وقد أخرج أبو داود (٤٥٩٧) عن معاوية قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ». ورواه الترمذي (٢٦٤٣) وفيه: قالوا من هي يا رسول الله؟ قال: «مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

(٣) وعلى التأويل الآخر المذكور في الحاشية السابقة تكون الآية غير منسوخة.

(٤) الحسنة هنا: الإيمان، أي: من جاء بشهادة «أن لا إله إلا الله» فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب. [القرطبي (٧/ ١٥١)].

(٥) هذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، ... عن رسول الله ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ

يُنْقِصُونَ مِنْ جَزَائِهِمْ شَيْئًا. ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ وَيُبْدَلُ مِنْ مَحلِّهِ ﴿دِينٗا قِيَمٗا﴾ مُسْتَقِيمًا[1] ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ عِبَادَتِي، مِنْ حَجٍّ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَحْيَايَ﴾ حَيَاتِي ﴿وَمَمَاتِي﴾ مَوْتِي ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ أَيِ: التَّوْحِيدِ ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ. ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبّٗا﴾ إِلَهًا، أَيْ: لَا أَطْلُبُ غَيْرَهُ ﴿وَهُوَ رَبُّ﴾ مَالِكُ ﴿كُلِّ شَيْءٖۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ذَنْبًا ﴿إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ﴾ تَحْمِلُ نَفْسٌ ﴿وَازِرَةٞ﴾ آثِمَةٌ ﴿وِزْرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ جَمْعُ خَلِيفَةٍ، أَيْ: يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِيهَا ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ لِيَخْتَبِرَكُمْ ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ أَعْطَاكُمْ لِيَظْهَرَ الْمُطِيعُ مِنْكُمْ وَالْعَاصِي[2] ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَنْ عَصَاهُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ بِهِمْ.

وَاحِدَةً، أَوْ يَمْحُوهَا اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَهْلَكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ». أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١). [ابن كثير (٣/ ٣٧٨)].

(١) وليس يلزم من كونه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قياما عظيما، وأكملت له إكمالا تاما لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام ... عن ابن أبزى، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أَصْبَحْنَا عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠١٧٥)، وأحمد (١٥٣٦٣). ... وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَةَ». أخرجه أحمد (٢٢٣٤٥). [ابن كثير (٣/ ٣٨١)].

(٢) أي: ليختبركم في تلك الأمور، ويعاملكم معاملة المبتلى والمختبر، وهو أعلم بأحوال عباده منهم، أو ليبلي بعضكم ببعض كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٖ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠]. [صديق حسن (٤/ ٢٩٥)].

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ الثَّمَانَ أَوِ الْخَمْسَ آيَاتٍ، مِائَتَانِ وَخَمْسُ أَوْ سِتُّ آيَاتٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[١]. هَذَا ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ضِيقٌ ﴿مِّنْهُ﴾ أَنْ تُبَلِّغَهُ مَخَافَةَ أَنْ تُكَذَّبَ ﴿لِتُنذِرَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿أُنزِلَ﴾، أَيْ: لِلْإِنْذَارِ ﴿بِهِۦ وَذِكْرَىٰ﴾ تَذْكِرَةٍ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ بِهِ. قُلْ لَهُمْ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟﴾ تَتَّخِذُوا ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيِ: اللهِ، أَيْ: غَيْرَهُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَتِهِ تَعَالَى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ تَتَّعِظُونَ، وَفِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّالِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِهَا[٢]، وَ ﴿مَّا﴾ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ الْقِلَّةِ. ﴿وَكَم﴾ خَبَرِيَّةٌ مَفْعُولٌ ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أَرَدْنَا إِهْلَاكَهَا ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ عَذَابُنَا ﴿بَيَٰتًا﴾ لَيْلًا ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ نَائِمُونَ بِالظَّهِيرَةِ، وَالْقَيْلُولَةُ: اسْتِرَاحَةُ نِصْفِ النَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهَا نَوْمٌ، أَيْ: مَرَّةً جَاءَهَا لَيْلًا، وَمَرَّةً جَاءَهَا نَهَارًا. ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ قَوْلُهُمْ ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَيِ: الْأُمَمَ عَنْ إِجَابَتِهِمُ الرُّسُلَ، وَعَمَلِهِمْ فِيمَا بَلَغَهُمْ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ عَنِ الْإِبْلَاغِ. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ لَنُخْبِرَنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ بِمَا فَعَلُوهُ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ عَنْ إِبْلَاغِ الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ فِيمَا عَمِلُوا. ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ لِلْأَعْمَالِ أَوْ لِصَحَائِفِهَا، بِمِيزَانٍ لَهُ لِسَانٌ وَكَفَّتَانِ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ[٣]، كَائِنٌ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: يَوْمَ السُّؤَالِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الْعَدْلُ صِفَةُ ﴿ٱلْوَزْنُ﴾، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بِالْحَسَنَاتِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ الْفَائِزُونَ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بِالسَّيِّئَاتِ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ بِتَصْيِيرِهَا إِلَى النَّارِ ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ يَجْحَدُونَ. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾ يَا بَنِي آدَمَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ بِالْيَاءِ، أَسْبَابًا تَعِيشُونَ بِهَا، جَمْعُ «مَعِيشَةٍ» ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ لِتَأْكِيدِ الْقِلَّةِ ﴿تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ عَلَى ذَلِكَ. ﴿وَلَقَدْ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الصواب بفتحها مخففة، وليس بسكونها.

(٣) أخرج اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦ / ١١٧٣) عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: ذكر الميزان عند الحسن فقال: له لسان وكفتان.

﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أَيْ: أَبَاكُمْ آدَمَ ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أَيْ: صَوَّرْنَاهُ وَأَنْتُمْ فِي ظَهْرِهِ ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالِانْحِنَاءِ ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أَبَا الْجِنِّ، كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا﴾ زَائِدَةٌ ﴿تَسْجُدَ إِذْ﴾ حِينَ ﴿أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنَ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ مِنَ السَّمَاوَاتِ[1] ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ يَنْبَغِي ﴿لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ﴾ مِنْهَا ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ الذَّلِيلِينَ ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ﴾ أَخِّرْنِي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ أَيِ: النَّاسُ. ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]، أَيْ: وَقْتِ النَّفْخَةِ الْأُولَى. ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أَيْ: بِإِغْوَائِكَ لِي[2]، وَالْبَاءُ لِلْقَسَمِ، وَجَوَابُهُ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أَيْ: لِبَنِي آدَمَ ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) قول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسا فاسدا في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص:٧٢] فشذ من بين الملائكة بترك السجود؛ فلهذا أبلس من الرحمة، أي: أيس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم (٢٩٩٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَت الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». [ابن كثير (٣/ ٣٩٢)]. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين، من مخالفة الأمر، وتعليله بالأباطيل، وإصراره على ذلك؛ أي: فاهبط من الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في عدْن لا في جنة الخلد. وقيل: من زمرة الملائكة المعززين، فإن الخروج من زمرتهم هبوط وأي هبوط، وفي سورة الحجر: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الحجر: ٣٤]. وأما ما قيل من أن المراد: الهبوط من السماء؛ فيرده أن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، فلا بد أن يحمل على أحد الوجهين قطعا، وتكون وسوسته على الوجه الأول بطريق النداء من باب الجنة، كما روي عن الحسن البصري. [أبو السعود (٣/ ٢١٧)].

(٢) الجملة مستأنفة والباء للسببية، وبه قال الزمخشري، وقيل: قسمية وهو الظاهر كقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] أي: فبإغوائك إياي، والإغواء الإيقاع في الغي، وقيل: الباء بمعنى «مع» والمعنى فمع إغوائك إياي، وقيل: «ما» في ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ للاستفهام والمعنى: فبأي شيء أغويتني والأول أولى. ومراده بهذا الإغواء الذي جعله سبباً لما سيفعله مع العباد وهو ترك السجود منه وأن ذلك كان بإغواء الله له حتى اختار الضلالة على الهدى، وقيل: أراد به اللعنة التي لعنه الله بها، أي: فبما لعنتني فأهلكتني ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] أي: هلاكاً. وقال ابن الأعرابي: يقال غوى الرجل يغوى غياً إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه ومنه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ

أَيْ: عَلَى اَلطَّرِيقِ اَلْمُوصِلِ إِلَيْكَ. ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أَيْ: مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَأَمْنَعُهُمْ عَنْ سُلُوكِهِ، قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: «وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ فَوْقِهِمْ، لِئَلَّا يَحُولَ بَيْنَ اَلْعَبْدِ وَبَيْنَ رَحْمَةِ اَللهِ تَعَالَى»، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ مُؤْمِنِينَ. ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا﴾ بِالْهَمْزَةِ مُعَيَّبًا، أَوْ مَمْقُوتًا ﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾ مُبْعَدًا عَنِ اَلرَّحْمَةِ ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾ مِنَ اَلنَّاسِ، وَاللَّامُ لِلِابْتِدَاءِ، أَوْ مُوطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ، وَهُوَ: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ أَيْ: مِنْكَ بِذُرِّيَّتِكَ وَمِنَ اَلنَّاسِ، وَفِيهِ تَغْلِيبُ اَلْحَاضِرِ عَلَى اَلْغَائِبِ، وَفِي اَلْجُمْلَةِ مَعْنَى جَزَاءِ «مَنِ» اَلشَّرْطِيَّةِ، أَيْ: مَنْ تَبِعَكَ أُعَذِّبُهُ ﴿وَ﴾ قَالَ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ﴾ تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ فِي ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ لِيَعْطِفَ عَلَيْهِ ﴿وَزَوۡجُكَ﴾ حَوَّاءُ بِالْمَدِّ ﴿ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بِالْأَكْلِ مِنْهَا، وَهِيَ: اَلْحِنْطَةُ[1] ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إِبْلِيسُ ﴿لِيُبۡدِيَ﴾ يُظْهِرَ ﴿لَهُمَا مَا وُۥرِيَ﴾ فُوعِلَ مِنَ اَلْمُوَارَاةِ ﴿عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ﴾ كَرَاهَةَ ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ﴾ وَقُرِئَ: بِكَسْرِ اَللَّامِ[2] ﴿أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ أَيْ: وَذَلِكَ لَازِمٌ عَنِ اَلْأَكْلِ مِنْهَا، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أَيْ: أَقْسَمَ لَهُمَا بِاللهِ ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ فِي ذَلِكَ. ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ حَطَّهُمَا عَنْ مَنْزِلَتِهِمَا ﴿بِغُرُورٖۚ﴾ مِنْهُ[3] ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أَيْ: أَكَلَا مِنْهَا ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ أَيْ: ظَهَرَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا قُبُلُهُ وَقُبُلُ اَلْآخَرِ وَدُبُرُهُ، وَسُمِّيَ كُلٌّ مِنْهَا سَوْءَةً: لِأَنَّ اِنْكِشَافَهُ يَسُوءُ صَاحِبَهُ ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ﴾ أَخَذَا يُلْزِقَانِ[4] ﴿عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ لِيَسْتَتِرَا بِهِ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ

رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] أي: فسد عيشه في الجنة، وغرض اللعين بهذا أخذ ثأره منهم لأنه لما طرد ومقت بسببهم على ما تقدم أحب أن ينتقم منهم أخذاً بالثأر. [صديق حسن (٤/ ٣١٣)].

(١) عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. [السعدي (ص:٢٨٥)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) أي: أطمعهما، وأصله: الرجل العطشان يدلي في البئر ليروي من مائها، فلا يجد فيها ماء، فيكون مدليا فيها بغرور، فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعا، وفيه إشعار بأنه أهبطهما بذلك من درجة عالية، إلى رتبة سافلة. فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. [القاسمي (٥/ ٢٥)].

(٤) أي: يطبقان على أبدانهما الورق. وقال الزجاج: معنى ﴿يَخۡصِفَانِ﴾ يجعلان ورقة على ورقة، ومنه قيل للذي يرقع النعل: خَصَّاف ... وقال الأزهري: ﴿يَخۡصِفَانِ﴾ أي: يطابقان بعض الورق على بعض. كما يخصف طرائق النعل بعضها على بعض. [الواحدي (٩/ ٧٠)].

وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾﴾ بَيِّنُ العَداوَةِ؟ وَالاِسْتِفْهامُ لِلتَّقْرِيرِ. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ بِمَعْصِيَتِنا ﴿وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾ أَيْ: آدَمُ وَحَوَّاءُ، بِما اشْتَمَلْتُما عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتِكُما ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾ بَعْضُ الذُّرِّيَّةِ ﴿لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ مِنْ ظُلْمِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ أَيْ: مَكانُ اسْتِقْرارٍ ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تَمَتُّعٌ ﴿إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ تَنْقَضِي فِيهِ آجالُكُمْ. ﴿قَالَ فِيهَا﴾ أَيِ: الأَرْضِ ﴿تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بِالبَعْثِ، بِالبِناءِ لِلْفاعِلِ وَالمَفْعُولِ. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ أَيْ: خَلَقْناهُ لَكُمْ[1] ﴿يُوَٰرِي﴾ يَسْتُرُ ﴿سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ وَهُوَ ما يُتَجَمَّلُ بِهِ مِنَ الثِّيابِ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ العَمَلُ الصَّالِحُ أَوِ السَّمْتُ الحَسَنُ، بِالنَّصْبِ عَطْفٌ عَلَى «لِباسًا»، وَالرَّفْعِ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ جُمْلَةُ ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دَلائِلِ قُدْرَتِهِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فَيُؤْمِنُونَ، فِيهِ التِفاتٌ عَنِ الخِطابِ إِلَى الغَيْبَةِ. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ يُضِلَّنَّكُمْ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أَيْ: لا تَتَّبِعُوهُ فَتُفْتَنُوا ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم﴾ بِفِتْنَتِهِ ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ﴾ حالٌ ﴿عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الشَّيْطانَ ﴿يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جُنُودُهُ ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ لِلَطافَةِ أَجْسادِهِمْ، أَوْ عَدَمِ أَلْوانِهِمْ[2] ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ أَعْوانًا وَقُرَناءَ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ كَالشِّرْكِ، وَطَوافِهِمْ بِالبَيْتِ عُراةً قائِلِينَ: «لا نَطُوفُ فِي ثِيابٍ عَصَيْنا اللهَ فِيها»، فَنُهُوا عَنْها ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ فَاقْتَدَيْنا بِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ أَيْضًا ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أَنَّهُ قالَ؟ اسْتِفْهامُ إِنْكارٍ. ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بِالعَدْلِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَعْنَى

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتوى له في معنى النزول: لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث ... وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب، فهي لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان. [القاسمي (٥/ ٢٧)].

(٢) رؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يخول الله رؤية الشياطين أو الجن متشكلة في أشكال الجسمانيات، معجزة للأنبياء كما ورد في الصحيح: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ فِي صَلَاتِي فَهَمَمْتُ أَنْ أُوثِقَهُ فِي سَارِيَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ» الحديث. أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١). أو كرامة للصالحين من الأمم كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة رضي الله عنه، وقول النبي ﷺ لأبي هريرة: «ذَلِكَ شَيْطَانٌ». أخرجه البخاري (٢٣١١). ولا يكون ذلك إلا على تشكل الشيطان أو الجن في صورة غير صورته الحقيقية، بتسخير الله لتتمكن منه الرؤية البشرية، فالمرئي في الحقيقة الشكل الذي ماهية الشيطان من ورائه، وذلك بمنزلة رؤية مكان يعلم أن فيه شيطانا، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصادق، فلولا الخبر لما علم ذلك. [ابن عاشور (٨/ ٧٩)].

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، أَيْ: قَالَ أَقْسِطُوا وَأَقِيمُوا، أَوْ قَبْلَهُ «فَاقْبَلُوا» مُقَدَّرًا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ لِلَّهِ ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أَيْ: أَخْلِصُوا لَهُ سُجُودَكُمْ ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ اُعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا ﴿تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ أَيْ: يُعِيدُكُمْ أَحْيَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿فَرِيقًا﴾ مِنْكُمْ ﴿هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠﴾ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ مَا يَسْتُرُ عَوْرَتَكُمْ[1] ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عِنْدَ الصَّلَاةِ وَالطَّوَافِ ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ مَا شِئْتُمْ ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ ﴿قُلْ﴾ إِنْكَارًا عَلَيْهِمْ: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ مِنَ اللِّبَاسِ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الْمُسْتَلَذَّاتِ ﴿مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بِالِاسْتِحْقَاقِ وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ ﴿خَالِصَةً﴾ خَاصَّةً بِهِمْ، بِالرَّفْعِ، وَالنَّصْبِ: حَالٌ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نُبَيِّنُهَا مِثْلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢﴾ يَتَدَبَّرُونَ فَإِنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الْكَبَائِرَ كَالزِّنَا ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أَيْ: جَهْرَهَا وَسِرَّهَا ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ الْمَعْصِيَةَ ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ عَلَى النَّاسِ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هُوَ الظُّلْمُ ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ بِإِشْرَاكِهِ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ حُجَّةً ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ مِنْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ وَغَيْرِهِ[2]. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مُدَّةٌ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عَنْهُ ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ عَلَيْهِ. ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا﴾ فِيهِ: إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الشِّرْكَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عَمَلَهُ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تَكَبَّرُوا ﴿عَنْهَآ﴾ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ ﴿فَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ﴾ الْقُرْآنِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ﴾

---

(١) أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحا مشوها. ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس. [السعدي (ص:٢٨٧)].

(٢) قد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم ... وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها ... فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريما منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريما منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربع بما هو أشد تحريما من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه. [أعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٨٠)].

يُصِيبُهُمْ ﴿نَصِيبُهُم﴾ حَظُّهُمْ ﴿مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ مِمَّا كُتِبَ لَهُمْ فِي اَللَّوْحِ اَلْمَحْفُوظِ، مِنَ اَلرِّزْقِ وَالْأَجَلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أَيِ: اَلْمَلَائِكَةُ ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ﴾ لَهُمْ تَبْكِيتًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ﴾ غَابُوا ﴿عَنَّا﴾ فَلَمْ نَرَهُمْ ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عِنْدَ اَلْمَوْتِ ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ٣٧ قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ: ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ﴾ جُمْلَةِ ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ اَلنَّارَ ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ﴾ اَلَّتِي قَبْلَهَا لِضَلَالِهَا بِهَا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ﴾ تَلَاحَقُوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ وَهُمُ اَلْأَتْبَاعُ ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أَيْ: لِأَجْلِهِمْ وَهُمُ اَلْمَتْبُوعُونَ: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مُضَعَّفًا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿لِكُلٍّ﴾ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ ﴿ضِعْفٌ﴾ عَذَابٌ مُضَعَّفٌ ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، مَا لِكُلِّ فَرِيقٍ. ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لِأَنَّكُمْ لَمْ تَكْفُرُوا بِسَبَبِنَا، فَنَحْنُ وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ، قَالَ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ٣٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ تَكَبَّرُوا ﴿عَنْهَا﴾ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ إِذَا عُرِجَ بِأَرْوَاحِهِمْ إِلَيْهَا بَعْدَ اَلْمَوْتِ، فَيُهْبَطُ بِهَا إِلَى سِجِّينٍ، بِخِلَافِ اَلْمُؤْمِنِ، فَيُفَتَّحُ لَهُ وَيُصْعَدُ بِرُوحِهِ إِلَى اَلسَّمَاءِ اَلسَّابِعَةِ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ[1] ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ يَدْخُلَ ﴿ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ﴾ ثُقْبِ اَلْإِبْرَةِ، وَهُوَ غَيْرُ مُمْكِنٍ، فَكَذَا دُخُولُهُمْ[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ اَلْجَزَاءِ ﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ٤٠﴾ بِالْكُفْرِ. ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فِرَاشٌ ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ﴾ أَغْطِيَةٌ

---

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَمَا يَزَالُ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ فَيُعْرَجَ بِهَا حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحَ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، أَظُنُّهُ أَرَادَ السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، قَالَ: وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ فَيَنْتَهِي بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَيُقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً فَإِنَّهُ لَا تُفْتَحُ لَكِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ». أخرجه أحمد (٨٧٦٩)، والنسائي في الكبرى (١١٣٧٨).

(٢) الولوج الدخول بشدة وخص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لكونه يضرب به المثل في كبر الذات وعظم الجرم عند العرب ... وخص سم الخياط وهو ثقب الإبرة بالذكر لكونه غاية في الضيق وأضيق المنافذ ... فثبت أن الموقوف على المحال محال، فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة ميؤوس منه قطعـًا، والجمل الذكر من الإبل ... وقرأ ابن عباس «الجُمَّل» بضم الجيم وفتح الميم مشددة وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس وهو حبال مجموعة قاله ثعلب. [صديق حسن (٤/ ٣٥٢)].

مِنَ النَّارِ، جَمْعُ «غَاشِيَةٍ» وَتَنْوِينُهُ عِوَضٌ مِنَ الْيَاءِ الْمَحْذُوفَةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ طَاقَتَهَا مِنَ الْعَمَلِ، اِعْتِرَاضٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَبَرِهِ، وَهُوَ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ حِقْدٍ كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا(١) ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ﴾ تَحْتَ قُصُورِهِمْ ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُواْ﴾ عِنْدَ الِاسْتِقْرَارِ فِي مَنَازِلِهِمْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ الْعَمَلِ الَّذِي هَذَا جَزَاؤُهُ ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ حُذِفَ جَوَابُ ﴿لَوْلَآ﴾ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: أَنَّهُ، أَوْ مُفَسِّرَةٌ فِي الْمَوَاضِعِ الْخَمْسَةِ ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(٢) ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ﴾ تَقْرِيرًا وَتَبْكِيتًا: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ﴾ كُمْ ﴿رَبُّكُمْ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نَادَى مُنَادٍ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، أَسْمَعَهُمْ ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أَيْ: يَطْلُبُونَ السَّبِيلَ ﴿عِوَجًا﴾ مُعْوَجَّةً ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا﴾ أَيْ: أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ﴿حِجَابٌ﴾ حَاجِزٌ، قِيلَ: هُوَ سُورُ الْأَعْرَافِ ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ وَهُوَ سُورُ الْجَنَّةِ(٣) ﴿رِجَالٌ﴾ اِسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ(٤) ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ﴿بِسِيمَـٰهُمْ﴾ بِعَلَامَتِهِمْ، وَهِيَ: بَيَاضُ الْوُجُوهِ

---

(١) هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة أن ينزع ما في قلوبهم من غل بعضهم على بعض حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضاً، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة، وقيل: نزع الغل في الجنة ألا يحسد بعضهم بعضاً في تفاضل المنازل. [الشوكاني (٢/ ٢٣٤)]. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم. فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض؛ لأنه قد فقدت أسبابه. [السعدي (ص:٢٨٩)].

(٢) أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ». أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦). [ابن كثير (٣/ ٤١٦)].

(٣) الأعراف: جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض وهي هنا شرفات السور المضروب بينهم، ومنه عرف الفرس، وعرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد، سمي بذلك لأنه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض. [صديق حسن (٤/ ٣٦٤)].

(٤) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته، فقال: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ، لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ». رواه أبو الشيخ وابن عساكر في تاريخه كما في الدر المنثور (٣/ ٤٦٣).

لِلْمُؤْمِنِينَ، وَسَوَادُهَا لِلْكَافِرِينَ، لِرُؤْيَتِهِمْ لَهُمْ إِذْ مَوْضِعُهُمْ عَالٍ(١) ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أَيْ: أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ الْجَنَّةَ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝٤٦﴾ فِي دُخُولِهَا، قَالَ الْحَسَنُ: «لَمْ يُطْمِعْهُمْ إِلَّا لِكَرَامَةٍ يُرِيدُهَا بِهِمْ»، وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: «بَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ، فَقَالَ: قُومُوا ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أَيْ: أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ﴿تِلْقَآءَ﴾ جِهَةَ ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ فِي النَّارِ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ﴾ مِنَ النَّارِ ﴿جَمْعُكُمْ﴾ الْمَالُ أَوْ كَثْرَتُكُمْ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٨﴾ أَيْ: وَاسْتِكْبَارُكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ مُشِيرِينَ إِلَى ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾ قَدْ قِيلَ لَهُمْ: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٤٩﴾ وَقُرِئَ: ﴿أُدْخِلُواْ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَ﴿دَخَلُواْ﴾(٢) فَجُمْلَةُ النَّفْيِ حَالٌ، أَيْ: مَقُولًا لَهُمْ ذَلِكَ. ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مِنَ الطَّعَامِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ مَنَعَهُمَا ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ نَتْرُكُهُمْ فِي النَّارِ ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ بِتَرْكِهِمُ الْعَمَلَ لَهُ ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ أَيْ: وَكَمَا جَحَدُوا. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ قُرْآنٍ ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بَيَّنَّاهُ بِالْأَخْبَارِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حَالٌ، أَيْ: عَالِمِينَ بِمَا فُصِّلَ فِيهِ ﴿هُدًى﴾ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ بِهِ. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ مَا يَنْتَظِرُونَ ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ عَاقِبَةَ مَا فِيهِ ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ تَرَكُوا الْإِيمَانَ بِهِ ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ﴾ هَلْ ﴿نُرَدُّ﴾ إِلَى الدُّنْيَا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ نُوَحِّدُ اللهَ وَنَتْرُكُ الشِّرْكَ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ: لَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إِذْ صَارُوا إِلَى الْهَلَاكِ ﴿وَضَلَّ﴾ ذَهَبَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾ مِنْ دَعْوَى الشَّرِيكِ. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا(٣)، أَيْ: فِي قَدْرِهَا؛

---

(١) السيما: العلامة. أي: يعرفون كلاً من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كبياض الوجوه وسوادها أو مواضع الوضوء من المؤمنين أو علامة يجعلها الله لكل فريق في ذلك الموقف يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء. [الشوكاني (٢/ ٢٣٧)].

(٢) قراءتان شاذتان.

(٣) يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام:

لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَمْسٌ، وَلَوْ شَاءَ خَلَقَهُنَّ فِي لَمْحَةٍ، وَالْعُدُولُ عَنْهُ لِتَعْلِيمِ خَلْقِهِ اَلتَّثَبُّتَ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هُوَ فِي اَللُّغَةِ: سَرِيرُ اَلْمُلْكِ، اِسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ[1] ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ مُخَفَّفًا وَمُشَدَّدًا، أَيْ: يُغَطِّي كُلًّا مِنْهُمَا بِالْآخَرِ ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾ يَطْلُبُ كُلٌّ مِنْهُمَا اَلْآخَرَ طَلَبًا ﴿حَثِيثًا﴾ سَرِيعًا ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وَالرَّفْعِ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ مُذَلَّلَاتٍ ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بِقُدْرَتِهِ[2] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ جَمِيعًا ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ كُلُّهُ ﴿تَبَارَكَ﴾ تَعَاظَمَ ﴿ٱللَّهُ رَبُّ﴾ مَالِكُ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ حَالٌ تَذَلُّلًا ﴿وَخُفْيَةً﴾ سِرًّا ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ فِي اَلدُّعَاءِ، بِالتَّشَدُّقِ وَرَفْعِ اَلصَّوْتِ. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي ﴿بَعْدَ

هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع. فأما حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ». فقد رواه مسلم (٢٧٨٩) ... وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعا، والله أعلم. [ابن كثير (٣/ ٤٢٦)]. وقيل المراد: في ستة أوقات، فإن اليوم يطلق على الوقت كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: ١٦] أي: حين إذ يلقاهم زحفا، ومقصود هذا القائل أن السماوات والأرض خلقت عالما بعد عالم ولم يشترك جميعها في أوقات تكوينها، وأيا ما كان فالأيام مراد بها مقادير لا الأيام التي واحدها يوم الذي هو من طلوع الشمس إلى غروبها إذ لم تكن شمس في بعض تلك المدة، والتعمق في البحث في هذا خروج عن غرض القرآن. [ابن عاشور (٨/ ١٦٢)].

(١) مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، هو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه. فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى. [ابن كثير (٣/ ٤٢٧)].

(٢) إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم، كل ذلك بأمره، أمرهن الله فأطعن أمره، ألا لله الخلق كله، والأمر الذي لا يخالف ولا يرد أمره، دون ما سواه من الأشياء كلها، ودون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا تأمر، تبارك الله معبودنا الذي له عبادة كل شيء، رب العالمين. [الطبري (١٠/ ٢٤٧)].

﴿إِصۡلَٰحِهَا﴾ بِبَعْثِ الرُّسُلِ ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا﴾ مِنْ عِقَابِهِ ﴿وَطَمَعًاۚ﴾ فِي رَحْمَتِهِ ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ الْمُطِيعِينَ، وَتَذْكِيرُ ﴿قَرِيبٞ﴾ الْمُخْبَرِ بِهِ عَنْ ﴿رَحۡمَتَ﴾ لِإِضَافَتِهَا إِلَى ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾ أَيْ: مُتَفَرِّقَةً قُدَّامَ الْمَطَرِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ الشِّينِ تَخْفِيفًا، وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَفَتْحِ النُّونِ: مَصْدَرًا، وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَضَمِّ الْمُوَحَّدَةِ بَدَلَ النُّونِ، أَيْ: مُبَشِّرَاتٍ، وَمُفْرَدُ الْأُولَى «نَشُورٌ» كَـ «رَسُولٌ»، وَالْأَخِيرَةِ «بَشِيرٌ» ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ﴾ حَمَلَتِ الرِّيَاحُ ﴿سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ بِالْمَطَرِ ﴿سُقۡنَٰهُ﴾ أَيِ: السَّحَابَ، وَفِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ لَا نَبَاتَ بِهِ، أَيْ: لِإِحْيَائِهِ ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ﴾ بِالْبَلَدِ ﴿ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ بِالْمَاءِ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ﴾ الْإِخْرَاجِ ﴿نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ بِالْإِحْيَاءِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ فَتُؤْمِنُونَ. ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الْعَذْبُ التُّرَابِ ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ حَسَنًا ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ هَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ، يَسْمَعُ الْمَوْعِظَةَ فَيَنْتَفِعُ بِهَا ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ تُرَابُهُ ﴿لَا يَخۡرُجُ﴾ نَبَاتُهُ ﴿إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ عَسِرًا بِمَشَقَّةٍ، وَهَذَا مَثَلُ الْكَافِرِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّا مَا ذُكِرَ ﴿نُصَرِّفُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾ اللهَ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿لَقَدۡ﴾ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ ﴿أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ بِالْجَرِّ صِفَةٌ لِـ ﴿إِلَٰهٍ﴾، وَالرَّفْعُ بَدَلٌ مِنْ مَحَلِّهِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إِنْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ الْأَشْرَافُ ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠﴾ بَيِّنٍ. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ هِيَ أَعَمُّ مِنَ الضَّلَالِ، فَنَفْيُهَا أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِهِ ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ﴾ أُرِيدُ الْخَيْرَ ﴿لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَ﴾ أَكَذَّبْتُمْ ﴿وَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ﴾ مَوْعِظَةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ﴾ لِسَانِ ﴿رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ﴾ الْعَذَابَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ اللهَ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾ بِهَا. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ مِنَ الْغَرَقِ ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ السَّفِينَةِ ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ بِالطُّوفَانِ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿*وَ﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ الْأُولَى(١) ﴿أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ تَخَافُونَهُ فَتُؤْمِنُونَ. ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ جَهَالَةٍ ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ فِي رِسَالَتِكَ. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾

---

(١) هو من ولد سام بن نوح، قيل: هو عاد بن عوص بن أرم بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح وهي عاد الأولى. وعاد الثانية قوم صالح، وهم ثمود، وبينهما مائة سنة. [صديق حسن (٤/ ٣٨٩)].

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۞﴾ مَأْمُونٌ عَلَى الرِّسَالَةِ. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ﴾ لِسَانِ ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ﴾ قُوَّةً وَطُولًا، وَكَانَ طَوِيلُهُمْ مِائَةَ ذِرَاعٍ، وَقَصِيرُهُمْ سِتِّينَ ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نِعَمَهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞﴾ تفوزون. ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ﴾ نترك ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞﴾ فِي قَوْلِكَ. ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وَجَبَ ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عَذَابٌ ﴿وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أَيْ: سَمَّيْتُمْ بِهَا ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أَيْ: بِعِبَادَتِهَا ﴿مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ الْعَذَابَ ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۞﴾ ذَلِكُمْ بِتَكْذِيبِكُمْ لِي، فَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْعَقِيمُ. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أَيْ: هُودًا ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾ الْقَوْمِ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ أَيِ: اسْتَأْصَلْنَاهُمْ ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ۞﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿كَذَّبُواْ﴾. ﴿وَ﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ بِتَرْكِ الصَّرْفِ، مُرَادًا بِهِ الْقَبِيلَةُ ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ مُعْجِزَةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ حَالٌ، عَامِلُهَا مَعْنَى الْإِشَارَةِ، وَكَانُوا سَأَلُوهُ أَنْ يُخْرِجَهَا لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ عَيَّنُوهَا ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بِعَقْرٍ أَوْ ضَرْبٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ أَسْكَنَكُمْ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ تَسْكُنُونَهَا فِي الصَّيْفِ ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ تَسْكُنُونَهَا فِي الشِّتَاءِ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ الْمُقَدَّرَةِ ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ تَكَبَّرُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ قَوْمِهِ، بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ، بِإِعَادَةِ الْجَارِّ ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ إِلَيْكُمْ ﴿قَالُوٓاْ﴾ نَعَمْ ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۞﴾ وَكَانَتِ النَّاقَةُ لَهَا يَوْمٌ فِي الْمَاءِ، وَلَهُمْ يَوْمٌ، فَمَلُّوا ذَلِكَ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ عَقَرَهَا «قُدَارٌ» بِأَمْرِهِمْ بِأَنْ قَتَلَهَا بِالسَّيْفِ ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى قَتْلِهَا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالصَّيْحَةُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۞﴾ بَارِكِينَ عَلَى الرُّكَبِ مَيِّتِينَ. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أَعْرَضَ صَالِحٌ ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ وَ﴾ اذْكُرْ ﴿لُوطًا﴾ وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أَيْ: أَدْبَارَ الرِّجَالِ ﴿مَا سَبَقَكُم

بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ، وَإِدْخَالِ الْأَلِفِ بَيْنَهُمَا، عَلَى الْوَجْهَيْنِ ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ مُتَجَاوِزُونَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم﴾ أَيْ: لُوطًا وَأَتْبَاعَهُ ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ مِنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ﴾ هُوَ حِجَارَةُ السِّجِّيلِ فَأَهْلَكَتْهُمْ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَ﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ مُعْجِزَةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿فَأَوْفُواْ﴾ أَتِمُّوا ﴿ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ تَنْقِصُوا ﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾ بِبَعْثِ الرُّسُلِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ مُرِيدِي الْإِيمَانَ فَبَادِرُوا إِلَيْهِ. ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿تُوعِدُونَ﴾ تُخَوِّفُونَ النَّاسَ بِأَخْذِ ثِيَابِهِمْ، أَوِ الْمَكْسِ مِنْهُمْ(١) ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ تَصْرِفُونَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بِتَوَعُّدِكُمْ إِيَّاهُ بِالْقَتْلِ ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ تَطْلُبُونَ الطَّرِيقَ ﴿عِوَجًا ۚ﴾ مُعْوَجَّةً ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ قَبْلَكُمْ بِتَكْذِيبِ رُسُلِهِمْ، أَيْ: آخِرُ أَمْرِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ. ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ بِهِ ﴿فَٱصْبِرُواْ﴾ انْتَظِرُوا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾ وَبَيْنَكُمْ؛ بِإِنْجَاءِ الْمُحِقِّ وَإِهْلَاكِ الْمُبْطِلِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أَعْدَلُهُمْ. ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ تَرْجِعُنَّ ﴿فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ دِينِنَا، وَغَلَّبُوا فِي الْخِطَابِ الْجَمْعَ عَلَى الْوَاحِدِ لِأَنَّ شُعَيْبًا لَمْ يَكُنْ فِي مِلَّتِهِمْ قَطُّ، وَعَلَى نَحْوِهِ أَجَابَ: ﴿قَالَ أَ﴾ نَعُودُ فِيهَا ﴿وَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ لَهَا؟ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ. ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ﴾ يَنْبَغِي ﴿لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ ذَلِكَ، فَيَخْذُلَنَا ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ أَيْ: وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ حَالِي وَحَالُكُمْ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ﴾ احْكُمْ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ الْحَاكِمِينَ. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ

---

(١) الصراط الطريق، قيل: كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه كما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وغيرهم، وقيل: المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة ويؤيده: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ كما سيأتي، والقول الأول أقرب إلى الصواب. [الشوكاني (٢/ ٢٥٥)].

كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿لَئِنِ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلرَّجْفَةُ﴾ اَلزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩١)﴾ بَارِكِينَ عَلَى الرُّكَبِ مَيِّتِينَ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا﴾
مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿كَأَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: كَأَنَّهُمْ ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ يُقِيمُوا ﴿فِيهَا﴾ فِي دِيَارِهِمْ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٢)﴾ اَلتَّأْكِيدُ بِإِعَادَةِ الْمَوْصُولِ وَغَيْرِهِ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمُ السَّابِقِ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أَعْرَضَ
﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فَلَمْ تُؤْمِنُوا ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أَحْزَنُ ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ (٩٣)﴾؟ اِسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فَكَذَّبُوهُ ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ﴾ عَاقَبْنَا ﴿أَهْلَهَا
بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بِشِدَّةِ الْفَقْرِ ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الْمَرَضِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤)﴾ يَتَذَلَّلُونَ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ
﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ الْعَذَابِ ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ الْغِنَى وَالصِّحَّةَ ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كَثُرُوا ﴿وَّقَالُواْ﴾ كُفْرًا لِلنِّعْمَةِ ﴿قَدْ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كَمَا مَسَّنَا، وَهَذِهِ عَادَةُ الدَّهْرِ، وَلَيْسَتْ بِعُقُوبَةٍ مِنَ اللهِ، فَكُونُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى:
﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بِالْعَذَابِ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجْأَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ بِوَقْتِ مَجِيئِهِ قَبْلَهُ. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الْمُكَذِّبِينَ
﴿ءَامَنُواْ﴾ بِاللهِ وَرُسُلِهِمْ ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الرُّسُلَ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ عَاقَبْنَاهُمْ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٩٦)
أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الْمُكَذِّبُونَ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عَذَابُنَا ﴿بَيَٰتًا﴾ لَيْلًا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧)﴾ غَافِلُونَ عَنْهُ. ﴿أَوَأَمِنَ
أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نَهَارًا ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ اِسْتِدْرَاجَهُ إِيَّاهُمْ بِالنِّعْمَةِ،
وَأَخْذَهُمْ بَغْتَةً ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يَتَبَيَّنْ ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ بِالسُّكْنَى
﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ هَلَاكِ ﴿أَهْلِهَآ أَن﴾ فَاعِلٌ مُخَفَّفَةٌ وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ بِالْعَذَابِ
﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كَمَا أَصَبْنَا مَنْ قَبْلَهُمْ، وَالْهَمْزَةُ فِي الْمَوَاضِعِ الْأَرْبَعَةِ لِلتَّوْبِيخِ، وَالْفَاءُ وَالْوَاوُ الدَّاخِلَةُ عَلَيْهِمَا لِلْعَطْفِ،
وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ الْوَاوِ فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ، عَطْفًا بِـ﴿أَوْ﴾، ﴿وَ﴾ نَحْنُ ﴿نَطْبَعُ﴾ نَخْتِمُ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ (١٠٠)﴾ الْمَوْعِظَةَ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ. ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾
أَخْبَارِ أَهْلِهَا ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ ﴿بِمَا
كَذَّبُواْ﴾ كَفَرُوا بِهِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الطَّبْعِ ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ١٠١ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: أَكْثَرُ النَّاسِ ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ أَيْ: وَفَاءٍ بِعَهْدِهِمْ يَوْمَ أَخْذِ الْمِيثَاقِ[1] ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التِّسْعِ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ قَوْمِهِ ﴿فَظَلَمُوا۟﴾ كَفَرُوا ﴿بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٣﴾ بِالْكُفْرِ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ إِلَيْكَ. فَكَذَّبَهُ، فَقَالَ: أَنَا ﴿حَقِيقٌ﴾ جَدِيرٌ ﴿عَلَىٰٓ أَن﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ، فَـ ﴿حَقِيقٌ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿أَن﴾ وَمَا بَعْدَهُ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ﴾ إِلَى الشَّامِ ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ وَكَانَ اسْتَعْبَدَهُمْ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لَهُ: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ عَلَى دَعْوَاكَ ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾ فِيهَا. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ١٠٧﴾ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أَخْرَجَهَا مِنْ جَيْبِهِ ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ ذَاتُ شُعَاعٍ[2] ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ خِلَافُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُدْمَةِ[3]. ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ فَائِقٌ فِي عِلْمِ السِّحْرِ، وَفِي «الشُّعَرَاءِ»[4]: أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ فِرْعَوْنَ نَفْسِهِ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوهُ مَعَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّشَاوُرِ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أَخِّرْ أَمْرَهُمَا ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١﴾ جَامِعِينَ. ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَحَّارٍ﴾ ﴿عَلِيمٍ ١١٢﴾ يَفْضُلُ مُوسَى فِي عِلْمِ السِّحْرِ، فَجُمِعُوا. ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ أَءِنَّ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ، وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ ﴿لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ١١٤ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ عَصَاكَ ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ١١٥﴾ مَا مَعَنَا. ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ أَمْرٌ لِلْإِذْنِ بِتَقْدِيمِ إِلْقَائِهِمْ، تَوَصُّلًا بِهِ إِلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ

---

(١) الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقاً، أي: عهد يحافظون عليه ويتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود في كل حال، وقيل: الضمير يرجع إلى الناس على العموم، أي: ما وجدنا لأكثر الناس من عهد، وقيل: المراد بالعهد هو المأخوذ عليهم في عالم الذر، وقيل: الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى، أي: أكثرهم لا عهد ولا وفاء والقليل منهم قد يفي بعهده ويحافظ عليه. [صديق حسن (٤/ ٤٢٠)].

(٢) فخرجت بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل:١٢]. [ابن كثير (٣/ ٤٥٥)].

(٣) كان موسى أسمر شديد السمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول. [القرطبي (٧/ ٢٥٧)].

(٤) سورة الشعراء آية (٣٤).

﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ صَرَفُوهَا عَنْ حَقِيقَةِ إِدْرَاكِهَا ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ خَوَّفُوهُمْ، حَيْثُ خَيَّلُوهَا حَيَّاتٍ تَسْعَى
﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْلِ،
تَبْتَلِعُ ﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ يَقْلِبُونَ بِتَمْوِيهِهِمْ. ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ ثَبَتَ وَظَهَرَ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ مِنَ السِّحْرِ
﴿فَغُلِبُواْ﴾ أَيْ: فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴿هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ صَارُوا ذَلِيلِينَ. ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْعَصَا لَا يَتَأَتَّى بِالسِّحْرِ. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ
ءَامَنتُم﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا ﴿بِهِۦ﴾ بِمُوسَى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أَنَا ﴿لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا﴾ الَّذِي
صَنَعْتُمُوهُ ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ مَا يَنَالُكُمْ مِنِّي. ﴿لَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أَيْ: يَدَ كُلِّ وَاحِدٍ الْيُمْنَى، وَرِجْلَهُ الْيُسْرَى ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بَعْدَ مَوْتِنَا، بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ ﴿مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ رَاجِعُونَ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَا تَنقِمُ﴾ تُنْكِرُ ﴿مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ عِنْدَ فِعْلِ مَا تَوَعَّدَنَا بِهِ؛ لِئَلَّا نَرْجِعَ كُفَّارًا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾
وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ لَهُ ﴿أَتَذَرُ﴾ تَتْرُكُ ﴿مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالدُّعَاءِ إِلَى مُخَالَفَتِكَ
﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ وَكَانَ صَنَعَ لَهُمْ أَصْنَامًا صِغَارًا يَعْبُدُونَهَا، وَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ وَرَبُّهَا، وَلِذَا قَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ
ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، ﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ الْمَوْلُودِينَ ﴿وَنَسْتَحْىِۦ﴾ نَسْتَبْقِي
﴿نِسَآءَهُمْ﴾ كَفِعْلِنَا بِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ قَادِرُونَ، فَفَعَلُوا بِهِمْ ذَلِكَ فَشَكَا بَنُو إِسْرَائِيلَ. ﴿قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ﴾ عَلَى أَذَاهُمْ ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا﴾ يُعْطِيهَا ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الْمَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ اللهَ. ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ فِيهَا. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
بِٱلسِّنِينَ﴾ بِالْقَحْطِ ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾
الْخِصْبُ وَالْغِنَى ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ﴾ أَيْ: نَسْتَحِقُّهَا، وَلَمْ يَشْكُرُوا عَلَيْهَا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جَدْبٌ وَبَلَاءٌ
﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ يَتَشَاءَمُوا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾ شُؤْمُهُمْ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يَأْتِيهِمْ بِهِ
﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أَنَّ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ عِنْدِهِ[1]. ﴿وَقَالُواْ﴾ لِمُوسَى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ

---

(١) قد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك في كل من تشاءم بشيء في قول جميع المفسرين، ... قوله:

لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فدعا عليهم. ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ وهو ماءٌ دخل بيوتهم، ووصل إلى حلوق الجالسين سبعة أيامٍ ﴿وَٱلۡجَرَادَ﴾ فأكل زرعهم، وثمارهم كذلك ﴿وَٱلۡقُمَّلَ﴾ السوس أو نوعٌ من القراد[1]، فتتبع ما تركه الجراد ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ فملأت بيوتهم وطعامهم ﴿وَٱلدَّمَ﴾ في مياههم[2] ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ مبيناتٍ ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ العذاب ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ من كشف العذاب عنا إن آمنا ﴿لَئِن﴾ لام قسمٍ ﴿كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا﴾ بدعاء موسى ﴿عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ ينقضون عهدهم، ويصرون على كفرهم. ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ البحر الملح[3] ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ لا يتدبرونها. ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ بالاستعباد، وهم بنو إسرائيل ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ بالماء والشجر، صفةٌ للأرض، وهي: الشام ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٥] إلى آخره، ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ على أذى عدوهم ﴿وَدَمَّرۡنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ﴾ من العمارة ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ بكسر الراء وضمها، يرفعون من البنيان. ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ عبرنا ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ﴾ فمروا ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ﴾ بضم الكاف وكسرها ﴿عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ يقيمون على عبادتها ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ صنمًا نعبده ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ حيث قابلتم نعمة الله عليكم، بما

﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ أي: سبب خيرهم وشرهم بجميع ما ينالهم من خصب وقحط ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يأتيهم به ليس بسبب موسى ومن معه، وكان هذا الجواب على نمط ما يعتقدونه وبما يفهمونه ولهذا عبر بالطائر عن الخير والشر الذي يجري بقدر الله وحكمته ومشيئته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بهذا بل ينسبون الخير والشر إلى غير الله جهلاً منهم والحق أن الكل من الله. [الشوكاني (٢/ ٢٧١)].

(١) قيل: إنه الدباء، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف. [السعدي (ص:٣٠١)].

(٢) روي أنه سال عليهم النيل دمًا، قاله: مجاهد، وقيل: هو الرعاف، قاله: زيد بن أسلم، وقيل: مياههم انقلبت دمًا فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دمًا عبيطًا أحمر. [صديق حسن (٤/ ٤٤١)].

(٣) قال الأزهري: «اليم» معروف لفظة سريانية عربتها العرب، ويقع على البحر الملح والعذب، والمراد به نيل مصر وهو عذب. [صديق حسن (٤/ ٤٤٣)].

قُلْتُمُوهُ[١]. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾ هَالِكٌ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ مَعْبُودًا، وَأَصْلُهُ: أَبْغِي لَكُمْ ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾ فِي زَمَانِكُمْ، بِمَا ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَ﴾ اُذْكُرُوا ﴿إِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَنجَاكُم﴾ ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ يُكَلِّفُونَكُمْ وَيُذِيقُونَكُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أَشَدَّهُ، وَهُوَ: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يَسْتَبْقُونَ ﴿نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الْإِنْجَاءِ، أَوِ الْعَذَابِ ﴿بَلَآءٌ﴾ إِنْعَامٌ أَوِ ابْتِلَاءٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ١٤١﴾ أَفَلَا تَتَّعِظُونَ فَتَنْتَهُوا عَمَّا قُلْتُمْ. ﴿۞وَوَٰعَدْنَا﴾ بِأَلِفٍ وَدُونِهَا ﴿مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ نُكَلِّمُهُ عِنْدَ انْتِهَائِهَا، بِأَنْ يَصُومَهَا، وَهِيَ: ذُو الْقَعْدَةِ، فَصَامَهَا، فَلَمَّا تَمَّتْ، أَنْكَرَ خُلُوفَ فَمِهِ فَاسْتَاكَ، فَأَمَرَهُ اللهُ بِعَشَرَةٍ أُخْرَى؛ لِيُكَلِّمَهُ بِخُلُوفِ فَمِهِ[٢]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ وَقْتُ وَعْدِهِ بِكَلَامِهِ إِيَّاهُ ﴿أَرْبَعِينَ﴾ حَالٌ ﴿لَيْلَةً﴾ تَمْيِيزٌ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ عِنْدَ ذَهَابِهِ إِلَى الْجَبَلِ لِلْمُنَاجَاةِ ﴿ٱخْلُفْنِى﴾ كُنْ خَلِيفَتِي ﴿فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ أَمْرَهُمْ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ بِمُوَافَقَتِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي. ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أَيْ: لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ بِالْكَلَامِ فِيهِ ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بِلَا وَاسِطَةٍ، كَلَامًا سَمِعَهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ[٣] ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ﴾ نَفْسَكَ ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ أَيْ: لَا تَقْدِرُ عَلَى رُؤْيَتِي، وَالتَّعْبِيرُ بِهِ دُونَ «لَنْ أُرَى» يُفِيدُ إِمْكَانَ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ الَّذِي هُوَ أَقْوَى مِنْكَ ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ﴾ ثَبَتَ

---

(١) عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله اجعل لنا هذه – ذات أنواط – كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها. فقال النبي ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ». أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١١٨٥)، وأحمد (٢١٩٠٠).

(٢) جعل الله مدة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقا ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة، وقد ذكر بعض المفسرين قصة في سبب زيادة عشر ليال، لم تصح. ولم يزده على أربعين ليلة: إما لأنه قد بلغ أقصى ما تحتمله قوته البشرية فباعده الله من أن تعرض له السآمة في عبادة ربه، وذلك يجنب عنه المتقون بله الأنبياء، وإما لأن زيادة مغيبه عن قومه تفضي إلى إضرار، كما قيل: إنهم عبدوا العجل في العشر الليالي الأخيرة من الأربعين ليلة. [ابن عاشور (٩/ ٨٥)].

(٣) وممَّا لم يرد إثباته ولا نَفْيه لفظ: «الجهة»، فلفظ الجهة لم يرد في الكتاب والسنة إثباتًا ولا نفيًا، ويُغني عنه ما ثبت فيهما من أنَّ الله تعالى في السَّماء، وأما معناه؛ فإمَّا أنْ يراد به: جهةُ سُفْلٍ أو جهةُ عُلوٍّ تحيط بالله أو جهةُ عُلوٍّ لا تحيط به. فالأول باطل؛ لمنافاته لعلوِّ الله تعالى الثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع، والثاني باطلٌ أيضًا، لأنَّ الله تعالى أعظم من أنَّ يحيط به شيء من مخلوقاته، والثالث حقٌّ؛ لأنَّ الله تعالى العلي فوق خلْقه ولا يحيط به شيء من مخلوقاته. [القواعد المثلى لابن عثيمين (ص: ٤٠)].

﴿مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ أَيْ: تَثْبُتُ لِرُؤْيَتِي وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَكَ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾ أَيْ: ظَهَرَ مِنْ نُورِهِ قَدْرُ نِصْفِ أُنْمُلَةِ الْخِنْصَرِ كَمَا فِي حَدِيثٍ صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(١) ﴿لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ بِالْقَصْرِ وَالْمَدِّ، أَيْ: مَدْكُوكًا مُسْتَوِيًا بِالْأَرْضِ ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ لِهَوْلِ مَا رَأَى ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مِنْ سُؤَالِ مَا لَمْ أُومَرْ بِهِ ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ فِي زَمَانِي. ﴿قَالَ﴾ تعالى لَهُ: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ اِخْتَرْتُكَ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أَهْلِ زَمَانِكَ ﴿بِرِسَـٰلَـٰتِى﴾ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ ﴿وَبِكَلَـٰمِى﴾ أَيْ: تَكْلِيمِي إِيَّاكَ ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ مِنَ الْفَضْلِ ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ لِأَنْعُمِي. ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ أَيْ: أَلْوَاحِ التَّوْرَاةِ(٢) وَكَانَتْ مِنْ سِدْرِ الْجَنَّةِ أَوْ زَبَرْجَدٍ أَوْ زُمُرُّدٍ، سَبْعَةً أَوْ عَشَرَةً(٣) ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ تَبْيِينًا ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ قَبْلَهُ ﴿فَخُذْهَا﴾ قَبْلَهُ «قُلْنَا» مُقَدَّرًا ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ فِرْعَوْنَ وَأَتْبَاعِهِ، وَهِيَ مِصْرُ لِتَعْتَبِرُوا بِهِمْ. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ﴾ دَلَائِلِ قُدْرَتِي، مِنَ الْمَصْنُوعَاتِ وَغَيْرِهَا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بِأَنْ أَخْذُلَهُمْ فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا(٤) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ﴾ طَرِيقَ ﴿ٱلرُّشْدِ﴾ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يَسْلُكُوهُ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾ الضَّلَالِ ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَ ٰلِكَ﴾ الصَّرْفُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ﴾ مَا

---

(١) المستدرك (٢/ ٣٢٠)، ورواه ابن خزيمة في التوحيد (١١٤)، والترمذي (٣٠٧٦)، وابن الأعرابي في معجمه (٤٠٥)، من طريق عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة به.

(٢) في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: «أن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق جنة عدن بيده، وكتب التوراة بيده». وهو مرسل، أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٤١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٩٢). قال ابن القيم في حادي الأرواح: المحفوظ أنه موقوف. (ص: ٩٨). ويشهد لأوله القرآن قال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

(٣) الذي يغلب به الظن: أن كثيراً من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور فلهذا اختلفت واضطربت الأقوال فيها فهذا يقول من خشب وهذا يقول من ياقوت وهذا يقول من زمرد وهذا يقول من زبرجد وهذا يقول من برد وهذا يقول من حجر. وقد اختلف في عدد الألواح وفي مقدار طولها وعرضها، والألواح جمع لوح وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني. [صديق حسن (٥/ ١٥)].

(٤) أي: سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]. [ابن كثير (٣/ ٤٧٥)].

عَمِلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ؛ كَصِلَةِ رَحِمٍ وَصَدَقَةٍ، فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ لِعَدِمِ شَرْطِهِ(١) ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤٧﴾ مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْمَعَاصِي. ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ﴾ أَيْ: بَعْدَ ذَهَابِهِ إِلَى الْمُنَاجَاةِ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ الَّذِي اسْتَعَارُوهُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بِعِلَّةِ عُرْسٍ، فَبَقِيَ عِنْدَهُمْ(٢) ﴿عِجْلًا﴾ صَاغَهُ لَهُمْ مِنْهُ السَّامِرِيُّ ﴿جَسَدًا﴾ بَدَلٌ، لَحْمًا وَدَمًا(٣) ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ أَيْ: صَوْتٌ يُسْمَعُ، انْقَلَبَ كَذَلِكَ بِوَضْعِ التُّرَابِ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ حَافِرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ فِي فَمِهِ، فَإِنَّ أَثَرَهُ الْحَيَاةُ فِيمَا يُوضَعُ فِيهِ(٤)، وَمَفْعُولُ ﴿اتَّخَذَ﴾ الثَّانِي مَحْذُوفٌ أَيْ: إِلَهًا ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فَكَيْفَ يُتَّخَذُ إِلَهًا؟(٥) ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إِلَهًا ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ ١٤٨﴾ بِاتِّخَاذِهِ. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: نَدِمُوا عَلَى عِبَادَتِهِ ﴿وَرَأَوْا﴾ عَلِمُوا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بِهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ رُجُوعِ مُوسَى ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ فِيهِمَا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ١٤٩ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ﴾ مِنْ جِهَتِهِمْ ﴿أَسِفًا﴾ شَدِيدَ الْحُزْنِ(٦) ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿بِئْسَمَا﴾ أَيْ: بِئْسَ خِلَافَةً ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ هَا ﴿مِن بَعْدِي﴾ خِلَافَتُكُمْ هَذِهِ،

---

(١) فُقِد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثوابا، وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك اضمحلت وبطلت. [السعدي (ص:٣٠٢)].

(٢) يشهد له قوله تعالى: ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، وزينة القوم هي: حُلي القبط قوم فرعون؛ كان بنو إسرائيل قد استعاروه منهم قبل هلاكهم، وقيل: أخذوه بعد هلاكهم، فقال لهم السامري: اجمعوا هذا الحلي في حفرة حتى يحكم الله فيه، ففعلوا ذلك وأوقد السامري ناراً على الحلي وصاغ منه عجلاً. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٢)].

(٣) اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم. [ابن كثير (٣/ ٤٧٦)]. و[القول الأول] ضعيف، أعني: كونه لحما ودما؛ لأن الآثار وردت بأن موسى برده بالمبارد وألقاه في البحر، ولا يبرد اللحم، بل كان يقتل ويقطع، وقال ابن الأنباري: ذكر الجسد دلالة على عدم الروح فيه. [أبو حيان (٥/ ١٧٧)].

(٤) راجع تفسير الآية (٩٦) من سورة طه.

(٥) لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذ إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه، ولهذا قال: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية. [السعدي (ص:٣٠٢)].

(٦) هذا بيان لما وقع من موسى بعد رجوعه، والأسف: شديد الغضب قاله محمد بن كعب، وقيل: هو منزلة وراء الغضب أشد منه، قاله أبو الدرداء، وقال ابن عباس والسدي: الأسف الحزن والأسيف الحزين، قال الواحدي: والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت وإذا جاءك ما تكره ممن هو فوقك حزنت فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنًا

حَيْثُ أَشْرَكْتُمْ ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أَلْوَاحَ التَّوْرَاةِ غَضَبًا لِرَبِّهِ فَتَكَسَّرَتْ(١) ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أَيْ: بِشَعْرِهِ بِيَمِينِهِ وَلِحْيَتِهِ بِشِمَالِهِ ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ غَضَبًا ﴿قَالَ﴾ يَا ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا أَرَادَ أُمِّي، وَذِكْرُهَا أَعْطَفُ لِقَلْبِهِ ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟﴾ قَارَبُوا ﴿يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ﴾ تُفْرِحْ ﴿بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ بِإِهَانَتِكَ إِيَّايَ ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ فِي الْمُؤَاخَذَةِ. ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ مَا صَنَعْتُ بِأَخِي ﴿وَلِأَخِى﴾ أَشْرَكَهُ الدُّعَاءَ إِرْضَاءً لَهُ، وَدَفْعًا لِلشَّمَاتَةِ بِهِ ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إِلَهًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ عَذَابٌ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَعُذِّبُوا بِالْأَمْرِ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ١٥٢﴾ عَلَى اللهِ بِالْإِشْرَاكِ وَغَيْرِهِ. ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟﴾ رَجَعُوا عَنْهَا ﴿مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ بِاللهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أَيْ: التَّوْبَةُ ﴿لَغَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَّحِيمٌ ١٥٣﴾ بِهِمْ. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سَكَنَ ﴿عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ الَّتِي أَلْقَاهَا ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ أَيْ: مَا نُسِخَ فِيهَا، أَيْ: كُتِبَ ﴿هُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ١٥٤﴾ يَخَافُونَ، وَأَدْخَلَ اللَّامَ عَلَى الْمَفْعُولِ لِتَقَدُّمِهِ. ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أَيْ: مِنْ قَوْمِهِ ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ، بِأَمْرِهِ تَعَالَى ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ أَيْ: لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ بِإِتْيَانِهِمْ فِيهِ، لِيَعْتَذِرُوا مِنْ عِبَادَةِ أَصْحَابِهِمُ الْعِجْلَ، فَخَرَجَ بِهِمْ ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِأَنَّهُمْ لَمْ يُزَايِلُوا قَوْمَهُمْ حِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ، قَالَ: وَهُمْ غَيْرُ الَّذِينَ سَأَلُوا الرُّؤْيَةَ، وَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ(٢) ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ خُرُوجِي بِهِمْ، لِيُعَايِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ، وَلَا يَتَّهِمُونِي ﴿وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟

والأخرى غضباً، يقال: هو أسف وأسيف وأسفان وأسوف. قال ابن جرير الطبري: أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا، وأن السامري قد أضلهم فلذلك رجع وهو غضبان أسفاً. [صديق حسن (٥/ ٢٣)].

(١) معنى العجلة: المتقدم بالشيء قبل وقته، ولذلك صارت مذمومة، والسرعة غير مذمومة؛ لأن معناها: عمل الشيء في أقل أوقاته. ومعنى ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني ميعاد ربكم فلم تصبروا له. وقال الحسن: وعد ربكم الذي وعدتم من الأربعين ليلة، وذلك أنهم قدروا أنه مات لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة. وقال عطاء: يريد: تعجلتم سخط ربكم. ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ قال ابن عباس: يريد التي فيها التوراة، وروي أن النبي ﷺ قال: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبَرِ، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ». أخرجه أحمد (٢٤٤٧). [الواحدي (٩/ ٣٦٨)].

(٢) أي: غير المذكورين في الآيتين: (٥٥) من سورة البقرة و (١٥٣) من سورة النساء.

اِسْتِفْهَامُ اِسْتِعْطَافٍ، أَيْ: لَا تُعَذِّبْنَا بِذَنْبِ غَيْرِنَا(١) ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هِىَ﴾ أَيِ: الْفِتْنَةُ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا السُّفَهَاءُ ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ اِبْتِلَاؤُكَ ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ إِضْلَالَهُ ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ هِدَايَتَهُ(٢) ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ مُتَوَلِّي أُمُورِنَا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ * ﴿وَٱكْتُبْ﴾ أَوْجِبْ ﴿لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حَسَنَةً ﴿إِنَّا هُدْنَآ﴾ تُبْنَا ﴿إِلَيْكَ قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تَعْذِيبَهُ ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ﴾ عَمَّتْ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ(٣) ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مِمَّا حُرِّمَ فِي شَرْعِهِمْ ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ مِنَ الْمَيْتَةِ وَنَحْوِهَا ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ ثِقَلَهُمْ ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ الشَّدَائِدَ ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ كَقَتْلِ النَّفْسِ فِي التَّوْبَةِ، وَقَطْعِ أَثَرِ النَّجَاسَةِ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وَقَّرُوهُ ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ تَرْشُدُونَ. ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ فِي الْحُكْمِ. ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ فَرَّقْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ حَالٌ ﴿أَسْبَاطًا﴾ بَدَلٌ مِنْهُ، أَيْ: قَبَائِلَ ﴿أُمَمًا﴾ بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ فِي التِّيهِ ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ

---

(١) الاستفهام للجحد، أي: لست ممن يفعل ذلك قاله ثقة منه برحمة الله، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع، قاله ابن الأنباري، وقيل: معناه الدعاء والطلب، أي: لا تهلكنا قاله المبرد، وقيل: قد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره ولكنه كقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. [صديق حسن (٥/ ٣٠)].

(٢) معناه: لا تهلكنا بفعلهم، فإن تلك الفتنة كانت اختبارًا منك وابتلاءً أضللت بها قومـًا فافتتنوا، وهديت قومًا فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك ... وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر. [الواحدي (٩/ ٣٩١)]. إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. [ابن كثير (٣/ ٣٨١)].

(٣) الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك من أعظم دلائل نبوته ﷺ لأنه أتى بالعلوم الجمة من غير قراءة ولا كتابة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٠٤)].

﴿ٱلْحَجَرَ﴾ فضَرَبَهُ ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ انْفَجَرَتْ ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بِعَدَدِ الأَسْبَاطِ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ سَبْطٍ مِنْهُمْ ﴿مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ فِي التِّيهِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ هُمَا التَّرَنْجَبِينُ وَالطَّيْرُ السُّمَانَى[1] بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ وَالْقَصْرِ، وَقُلْنَا لَهُمْ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ وَ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟﴾ أَمْرُنَا ﴿حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ أَيْ: بَابَ الْقَرْيَةِ ﴿سُجَّدًا﴾ سُجُودَ انْحِنَاءٍ ﴿نَّغْفِرْ﴾ بِالنُّونِ وَالتَّاءِ، مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ ﴿لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ بِالطَّاعَةِ ثَوَابًا. ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ فَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِمْ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾ عَذَابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ تَوْبِيخًا ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ مُجَاوِرَةَ بَحْرِ الْقُلْزُمِ، وَهِيَ «أَيْلَةُ» مَا وَقَعَ بِأَهْلِهَا ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يَعْتَدُونَ ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ بِصَيْدِ السَّمَكِ الْمَأْمُورِينَ بِتَرْكِهِ فِيهِ ﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ لِـ ﴿يَعْدُونَ﴾، ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظَاهِرَةً عَلَى الْمَاءِ ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ لَا يُعَظِّمُونَ السَّبْتَ، أَيْ: سَائِرَ الأَيَّامِ ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ابْتِلَاءً مِنَ اللهِ ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ وَلَمَّا صَادُوا السَّمَكَ، افْتَرَقَتِ الْقَرْيَةُ أَثْلَاثًا: ثُلُثٌ صَادُوا مَعَهُمْ، وَثُلُثٌ نَهَوْهُمْ، وَثُلُثٌ أَمْسَكُوا عَنِ الصَّيْدِ وَالنَّهْيِ. ﴿وَإِذْ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ لَمْ تَصِدْ وَلَمْ تَنْهَ، لِمَنْ نَهَى ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟﴾ مَوْعِظَتُنَا ﴿مَعْذِرَةً﴾ نَعْتَذِرُ بِهَا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ لِئَلَّا نُنْسَبَ إِلَى تَقْصِيرٍ فِي تَرْكِ النَّهْيِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ الصَّيْدَ. ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟﴾ تَرَكُوا ﴿مَا ذُكِّرُوا۟﴾ وُعِظُوا ﴿بِهِۦٓ﴾ فَلَمْ يَرْجِعُوا ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بِالاعْتِدَاءِ ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ شَدِيدٍ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟﴾ تَكَبَّرُوا ﴿عَن﴾ تَرْكِ ﴿مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ صَاغِرِينَ فَكَانُوهَا، وَهَذَا تَفْصِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا أَدْرِي مَا فُعِلَ بِالْفِرْقَةِ السَّاكِتَةِ»، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَمْ تُهْلَكْ؛ لِأَنَّهَا كَرِهَتْ مَا فَعَلُوهُ وَقَالَتْ: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ إِلَى آخِرِهِ»، وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَجَعَ إِلَيْهِ وَأَعْجَبَهُ[2]. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أَعْلَمَ ﴿رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بِالذُّلِّ وَأَخْذِ الْجِزْيَةِ، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ سُلَيْمَانَ، وَبَعْدَهُ بُخْتَنَصَّرَ، فَقَتَلَهُمْ وَسَبَاهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ،

---

(١) انظر التعليق على آية (٥٧) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٢).

فَكَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى الْمَجُوسِ إِلَى أَنْ بُعِثَ نَبِيُّنَا ﷺ، فَضَرَبَهَا عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لِمَنْ عَصَاهُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ﴾ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ بِهِمْ. ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ فَرَّقْنَاهُمْ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فِرَقًا ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ﴾ نَاسٌ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الْكُفَّارُ وَالْفَاسِقُونَ ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ﴾ بِالنِّعَمِ ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ النِّقَمِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ عَنْ فِسْقِهِمْ. ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ عَنْ آبَائِهِمْ ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أَيْ: حُطَامَ هَذَا الشَّيْءِ الدَّنِيءِ، أَيِ: الدُّنْيَا مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ مَا فَعَلْنَاهُ ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الْجُمْلَةُ حَالٌ، أَيْ: يَرْجُونَ الْمَغْفِرَةَ وَهُمْ عَائِدُونَ إِلَى مَا فَعَلُوهُ مُصِرُّونَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي التَّوْرَاةِ وَعْدُ الْمَغْفِرَةِ مَعَ الْإِصْرَارِ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «فِي» ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿يُؤْخَذْ﴾، قَرَأُوا ﴿مَا فِيهِ﴾ فَلِمَ كَذَبُوا عَلَيْهِ بِنِسْبَةِ الْمَغْفِرَةِ إِلَيْهِ مَعَ الْإِصْرَارِ؟[1] ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الْحَرَامَ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، أَنَّهَا خَيْرٌ فَيُؤْثِرُونَهَا عَلَى الدُّنْيَا. ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ الْجُمْلَةُ خَبَرُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وَفِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، أَيْ: أَجْرَهُمْ. ﴿۞ وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ رَفَعْنَاهُ مِنْ أَصْلِهِ ﴿فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟﴾ أَيْقَنُوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ سَاقِطٌ عَلَيْهِمْ بِوَعْدِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِوُقُوعِهِ، إِنْ لَمْ يَقْبَلُوا أَحْكَامَ التَّوْرَاةِ، وَكَانُوا أَبَوْهَا لِثِقَلِهَا فَقَبِلُوا، وَقُلْنَا لَهُمْ: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ بِالْعَمَلِ بِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِمَّا قَبْلَهُ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بِأَنْ أَخْرَجَ بَعْضَهُمْ مِنْ صُلْبِ بَعْضٍ مِنْ صُلْبِ آدَمَ، نَسْلًا بَعْدَ نَسْلٍ كَنَحْوِ مَا يَتَوَالَدُونَ كَالذَّرِّ بِنَعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَنَصَبَ لَهُمْ دَلَائِلَ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَرَكَّبَ فِيهِمْ عَقْلًا[2] ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أَنْتَ رَبُّنَا ﴿شَهِدْنَآ﴾ بِذَلِكَ

---

(١) ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها قاله ابن عباس. ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿دَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: الكتاب وعلموه ولم يأتوه بجهالة فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشد ذنباً وأعظم جرماً، وقيل معناه: محوه بترك العمل به والفهم له، من قولهم: «درست الريح الآثار» إذا محتها. [صديق حسن (٥/ ٦٦)].

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «أَخَذَ اللهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ - يَعْنِي عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا، قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]». أخرجه أحمد (٢٤٥٥)،

وِالإِشْهَادُ لِـ ﴿أَن﴾ لا ﴿يَقُولُواْ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ فِي ٱلْمَوْضِعَيْنِ، أَيِ: ٱلْكُفَّارُ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾ ٱلتَّوْحِيدِ ﴿غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ لا نَعْرِفُهُ. ﴿أَوْ يَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَنَا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ تُعَذِّبُنَا ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ مِنْ آبَائِنَا بِتَأْسِيسِ ٱلشِّرْكِ؟ ٱلْمَعْنَى لَا يُمْكِنُهُمُ ٱلِاحْتِجَاجُ بِذَلِكَ

والنسائي في الكبرى (١١١٩١). ونَعمان، بفتح النون: واد لهذيل على ليلتين من عرفات. [قال الشوكاني (٢/ ٢٩٩):] المعنى: أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه، وقيل: المراد ببني آدم هنا آدم نفسه كما وقع في غير هذا الموضع، والمعنى: أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذر.. [قال ابن كثير (٣/ ٥٠٠):] يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم:٣٠] وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ- فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ». أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨). وعن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ، عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ». أخرجه مسلم (٢٨٦٥). هذه الأحاديث دالة على أن الله، عز وجل، استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وفي حديث عبدالله بن عمرو وهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع. وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: (من آدم)، ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: (من ظهره) ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعل نسلهم جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥] .... ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالا وقالا. والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ [الأنعام:١٣٠] الآية، وتارة تكون حالا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾ [التوبة:١٧] أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، .... قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ أي: لئلا يقولوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

مَعَ إِشْهَادِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَالتَّذْكِيرِ بِهِ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ الْمُعْجِزَةِ قَائِمٌ مَقَامَ ذِكْرِهِ فِي النُّفُوسِ(١). ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ نُبَيِّنُهَا مِثْلَ مَا بَيَّنَّا الْمِيثَاقَ لِيَتَدَبَّرُوهَا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ عَنْ كُفْرِهِمْ. ﴿وَٱتْلُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودِ ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ خَرَجَ بِكُفْرِهِ كَمَا تَخْرُجُ الْحَيَّةُ مِنْ جِلْدِهَا، وَهُوَ «بُلْعُمُ بْنُ بَاعُورَاءَ» - مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - سُئِلَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مُوسَى وَأُهْدِيَ إِلَيْهِ شَيْءٌ، فَدَعَا فَانْقَلَبَ عَلَيْهِ وَانْدَلَعَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ(٢) ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فَأَدْرَكَهُ فَصَارَ قَرِينَهُ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾ إِلَى مَنَازِلِ الْعُلَمَاءِ ﴿بِهَا﴾ بِأَنْ نُوَفِّقَهُ لِلْعَمَلِ ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ﴾ سَكَنَ ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيِ: الدُّنْيَا وَمَالَ إِلَيْهَا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فِي دُعَائِهِ إِلَيْهَا فَوَضَعْنَاهُ ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ صِفَتُهُ ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ بِالطَّرْدِ وَالزَّجْرِ ﴿يَلْهَثْ﴾ يَدْلَعُ لِسَانَهُ ﴿أَوْ﴾ إِنْ ﴿تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وَلَيْسَ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ كَذَلِكَ، وَجُمْلَتَا الشَّرْطِ حَالٌ، أَيْ: لَاهِثًا ذَلِيلًا بِكُلِّ حَالٍ، وَالْقَصْدُ التَّشْبِيهُ فِي الْوَضْعِ وَالْخِسَّةِ، بِقَرِينَةِ الْفَاءِ الْمُشْعِرَةِ بِتَرْتِيبِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا، مِنَ الْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، وَبِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿ذَّٰلِكَ﴾ الْمَثَلُ ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ عَلَى الْيَهُودِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ يَتَدَبَّرُونَ فِيهَا فَيُؤْمِنُونَ. ﴿سَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ أَيْ: مَثَلُ الْقَوْمِ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ بِالتَّكْذِيبِ. ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خَلَقْنَا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الْحَقَّ ﴿وَلَهُمْ

---

(١) أو تحتجون أيضا بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فقد أودع الله في فطركم، ما يدلكم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه. نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين، ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه، عن حجج الله وبيناته، وآياته الأفقية والنفسية، فإعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات. وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك. فإن هذا العهد والميثاق، الذي ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم كالذر، لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خبر، ولا له عين ولا أثر. [السعدي (ص:٣٠٨)].

(٢) وقيل: غير هذا، والأولى في مثل هذا إذا ورد عن المفسرين أن تحمل أقاويلهم على التمثيل لا على الحصر في معين، فإنه يؤدي إلى الاضطراب والتناقض والخلاف. [أبو حيان (٥/ ٢٢٢)].

أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ دَلَائِلَ قُدْرَةِ اللهِ، بَصَرَ اِعْتِبَارٍ ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ اَلْآيَاتِ وَالْمَوَاعِظَ، سَمَاعَ تَدَبُّرٍ وَاتِّعَاظٍ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ فِي عَدَمِ اَلْفِقْهِ وَالْبَصَرِ وَالِاسْتِمَاعِ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ مِنَ اَلْأَنْعَامِ؛ لِأَنَّهَا تَطْلُبُ مَنَافِعَهَا وَتَهْرُبُ مِنْ مَضَارِّهَا، وَهَؤُلَاءِ يُقْدِمُونَ عَلَى اَلنَّارِ مُعَانَدَةً ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ اَلتِّسْعَةُ وَالتِّسْعُونَ اَلْوَارِدُ بِهَا اَلْحَدِيثُ[1]، وَالْحُسْنَى مُؤَنَّثُ اَلْأَحْسَنِ ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ سَمُّوهُ ﴿بِهَا وَذَرُواْ﴾ اُتْرُكُوا ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ مِنْ «أَلْحَدَ» وَ«لَحَدَ»، يَمِيلُونَ عَنِ اَلْحَقِّ ﴿فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ حَيْثُ اِشْتَقُّوا مِنْهَا أَسْمَاءً لِآلِهَتِهِمْ؛ كَاللَّاتِ مِنَ اَللهِ، وَالْعُزَّى مِنَ اَلْعَزِيزِ، وَمَنَاةَ مِنَ اَلْمَنَّانِ ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ فِي اَلْآخِرَةِ جَزَاءَ ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ وَهَذَا قَبْلَ اَلْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ هُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَا فِي حَدِيثٍ[2]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ اَلْقُرْآنِ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ نَأْخُذُهُمْ قَلِيلًا قَلِيلًا ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أُمْهِلُهُمْ ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ شَدِيدٌ لَا يُطَاقُ. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ فَيَعْلَمُوا ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جُنُونٍ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ بَيِّنُ اَلْإِنْذَارِ. ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ﴾ مُلْكِ ﴿ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَ﴾ فِي ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ بَيَانٌ لِـ «مَا»، فَيَسْتَدِلُّوا بِهِ عَلَى قُدْرَةِ صَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، ﴿وَ﴾ فِي ﴿أَنْ﴾ أَيْ: أَنَّهُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ﴾ قَرُبَ ﴿أَجَلُهُمْ﴾ فَيَمُوتُوا كُفَّارًا فَيَصِيرُوا إِلَى اَلنَّارِ، فَيُبَادِرُوا إِلَى اَلْإِيمَانِ ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ مَعَ اَلرَّفْعِ اِسْتِئْنَافًا، وَالْجَزْمِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ مَا بَعْدَ اَلْفَاءِ ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ يَتَرَدَّدُونَ تَحَيُّرًا. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ اَلْقِيَامَةِ ﴿أَيَّانَ﴾ مَتَى ﴿مُرْسَىٰهَا قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ مَتَى تَكُونُ ﴿عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا﴾ يُظْهِرُهَا ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ اَللَّامُ بِمَعْنَى «فِي» ﴿إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ﴾ عَظُمَتْ ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عَلَى أَهْلِهَا لِهَوْلِهَا ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فَجْأَةً ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ﴾ مُبَالِغٌ فِي اَلسُّؤَالِ ﴿عَنْهَا﴾ حَتَّى عَلِمْتَهَا ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أَنَّ عِلْمَهَا عِنْدَهُ تَعَالَى. ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا﴾

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا كُلَّهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧). وأسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين لقوله ﷺ في الحديث المشهور: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ». أخرجه أحمد (٣٧١٢).

(٢) عن ابن جُرَيج، في قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، قال: ذُكِر لنا: أن النبي ﷺ قال: «هَذِهِ أُمَّتِي، بِالْحَقِّ يَحْكُمُونَ وَيَقْضُونَ، وَيَأْخُذُونَ وَيُعْطُونَ». أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٠٠).

أَجْلُبُهُ ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أَدْفَعُهُ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ مَا غَابَ عَنِّي[1] ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ مِنْ فَقْرٍ وَغَيْرِهِ، لِاحْتِرَازِي عَنْهُ بِاجْتِنَابِ الْمَضَارِّ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بِالنَّارِ لِلْكَافِرِينَ ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٨٨﴾ * ﴿هُوَ﴾ أَيِ: اللهُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أَيْ: آدَمَ ﴿وَجَعَلَ﴾ خَلَقَ ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوَّاءَ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ﴾ وَيَأْلَفَهَا ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ جَامَعَهَا ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ هُوَ النُّطْفَةُ ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦۖ﴾ ذَهَبَتْ وَجَاءَتْ لِخِفَّتِهِ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ بِكِبَرِ الْوَلَدِ فِي بَطْنِهَا، وَأَشْفَقَا أَنْ يَكُونَ بَهِيمَةً ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ وَلَدًا ﴿صَٰلِحًا﴾ سَوِيًّا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾ لَكَ عَلَيْهِ. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ وَلَدًا ﴿صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ الشِّينِ وَالتَّنْوِينِ، أَيْ: شَرِيكًا ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ بِتَسْمِيَتِهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَبْدًا إِلَّا لِلَّهِ، وَلَيْسَ بِإِشْرَاكٍ فِي الْعُبُودِيَّةِ لِعِصْمَةِ آدَمَ[2]، وَرَوَى سَمُرَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَمَّا وَلَدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّتْهُ فَعَاشَ فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ[3] ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ بِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَالْجُمْلَةُ مُسَبَّبَةٌ عَطْفٌ عَلَى ﴿خَلَقَكُم﴾، وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ. ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بِهِ فِي الْعِبَادَةِ ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أَيْ: لِعَابِدِيهِمْ ﴿نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ بِمَنْعِهَا مِمَّنْ أَرَادَ بِهِمْ سُوءًا، مِنْ كَسْرٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ. ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامَ

---

(١) وهذه الآية تدل على أنه ﷺ لم يكن يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، وقد أمره تعالى أن يقول إنه لا يعلم الغيب في قوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ الآية [النمل: ٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات. [الشنقيطي (٢/ ٤٠٠)].

(٢) معنى الآية أنه لما آتى آدم وحواء صالحا، كفر به بعد ذلك كثير من ذريتهما، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء؛ لأنهما أصل لذريتهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، أي بتصويرنا لأبيكم آدم لأنه أصلهم؛ بدليل قوله بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، ويدل لهذا الوجه الأخير أنه تعالى قال بعده: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ١٩١﴾ [الأعراف: ١٩٠، ١٩١]، وهذا نص قرآني صريح في أن المراد المشركون من بني آدم، لا آدم وحواء، واختار هذا الوجه غير واحد لدلالة القرآن عليه، وممن ذهب إليه الحسن البصري، واختاره ابن كثير، والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٢/ ٤٠١)].

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٧٧)، وأحمد (٢٠١١٧)، والطبري في تفسيره (٩/ ١٤٦)، والحاكم (٢/ ٥٤٥). وإسناده ضعيف، عمر بن إبراهيم- وهو العبدي أبو حفص البصري- في روايته عن قتادة ضعف، والحسن مشهور بالتدليس ولم يذكر سماعه من سمرة.

﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إِلَيْهِ ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ عَنْ دُعَائِهِمْ، لَا يَتَّبِعُوهُ لِعَدَمِ سَمَاعِهِمْ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ﴾ مَمْلُوكَةٌ ﴿أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ دُعَاءَكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ فِي أَنَّهَا آلِهَةٌ. ثُمَّ بَيَّنَ غَايَةَ عَجْزِهِمْ، وَفَضْلَ عَابِدِيهِمْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿لَهُمْ أَيْدٍ﴾ جَمْعُ يَدٍ ﴿يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ لَكُمْ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهُمْ وَأَنْتُمْ أَتَمُّ حَالًا مِنْهُمْ؟ ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ إِلَى هَلَاكِي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ تُمْهِلُونِ، فَإِنِّي لَا أُبَالِي بِكُمْ. ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾ يَتَوَلَّى أُمُورِي ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ بِحِفْظِهِ. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ فَكَيْفَ أُبَالِي بِهِمْ. ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامَ ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، أَيِ: الْأَصْنَامَ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ: يُقَابِلُونَكَ كَالنَّاظِرِ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١٩٨ خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ الْيُسْرَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ، وَلَا تَبْحَثْ عَنْهَا ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ الْمَعْرُوفِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ فَلَا تُقَابِلْهُمْ بِسَفَهِهِمْ(١). ﴿وَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أَيْ: إِنْ يَصْرِفْكَ عَمَّا أُمِرْتَ بِهِ صَارِفٌ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَجَوَابُ الْأَمْرِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: يَدْفَعْهُ عَنْكَ(٢) ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ بِالْفِعْلِ.

---

(١) هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه. [السعدي (ص:٣١٣)].

(٢) هذا أمر لرسول الله ﷺ على الالتجاء إلى الله فيما عسر عليه، فإن ذلك شكر على نعمة الرسالة والعصمة، فإن العصمة من الذنوب حاصلة له، ولكنه يشكر الله بإظهار الحاجة إليه لإدامتها عليه، وهذا مثل استغفار الرسول ﷺ في قوله في حديث صحيح مسلم (٢٧٠٢): «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً». فالشيطان لا ييأس من إلقاء الوسوسة للأنبياء لأنها تنبعث عنه بطبعه، وإنما

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ﴾ أَصَابَهُمْ ﴿طَيۡفٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ أَيْ: شَيْءٌ أَلَمَّ بِهِمْ ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ عِقَابَ اللهِ وَثَوَابَهُ ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ الْحَقَّ مِنْ غَيْرِهِ فَيَرْجِعُونَ. ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ أَيْ: إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ أَيِ: الشَّيَاطِينَ ﴿فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ﴾ هُمْ ﴿لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾ يَكُفُّونَ عَنْهُ بِالتَّبَصُّرِ، كَمَا تَبَصَّرَ الْمُتَّقُونَ. ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ مِمَّا اقْتَرَحُوا ﴿قَالُواْ لَوۡلَا﴾ هَلَّا ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ أَنْشَأْتَهَا مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ وَلَيْسَ لِي أَنْ آتِيَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِي بِشَيْءٍ ﴿هَٰذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَصَآئِرُ﴾ حُجَجٌ ﴿مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ عَنِ الْكَلَامِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ نَزَلَتْ فِي تَرْكِ الْكَلَامِ فِي الْخُطْبَةِ، وَعُبِّرَ عَنْهَا بِالْقُرْآنِ لِاشْتِمَالِهَا عَلَيْهِ، وَقِيلَ: فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مُطْلَقًا[1]. ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ أَيْ: سِرًّا ﴿تَضَرُّعٗا﴾ تَذَلُّلًا ﴿وَخِيفَةٗ﴾ خَوْفًا مِنْهُ ﴿وَ﴾ فَوْقَ السِّرِّ ﴿دُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أَيْ: قَصْدًا بَيْنَهُمَا ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أَوَائِلِ النَّهَارِ، وَأَوَاخِرِهِ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ عَنْ ذِكْرِ اللهِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةَ ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ يَتَكَبَّرُونَ ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ يُنَزِّهُونَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ أَيْ: يَخُصُّونَهُ بِالْخُضُوعِ وَالْعِبَادَةِ، فَكُونُوا مِثْلَهُمْ[2].

يترصد لهم مواقع خفاء مقصده طمعا في زلة تصدر عن أحدهم، وإن كان قد علم أنه لا يستطيع إغواءهم، ولكنه لا يفارق رجاء حملهم على التقصير في مراتبهم، ولكنه إذا ما هم بالوسوسة شعروا بها فدفعوها. [ابن عاشور (٩/ ٢٣٠)].

(١) هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرا كثيرا وعلما غزيرا، وإيمانا مستمرا متجددا، وهدى متزايدا. [السعدي (ص:٣١٤)].

(٢) وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث: «أَلَا تُصَفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». أخرجه مسلم (١١٩). وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. [ابن كثير (٣/ ٥٣٩)].

سُورَةُ الأَنفَالِ

مَدَنِيَّةٌ أَوْ إِلَّا ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ الْآيَاتِ السَّبْعِ فَمَكِّيَّةٌ، خَمْسٌ أَوْ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ، فَقَالَ الشُّبَّانُ: «هِيَ لَنَا لِأَنَّنَا بَاشَرْنَا الْقِتَالَ»، وَقَالَ الشُّيُوخُ: «كُنَّا رِدْءًا لَكُمْ تَحْتَ الرَّايَاتِ، وَلَوِ انْكَشَفْتُمْ لَفِئْتُمْ إِلَيْنَا، فَلَا تَسْتَأْثِرُوا بِهَا»، فَنَزَلَ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الْغَنَائِمِ لِمَنْ هِيَ؟ ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يَجْعَلَانِهَا حَيْثُ شَاءَا، فَقَسَّمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ. رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ[١] ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيْ: حَقِيقَةَ مَا بَيْنَكُمْ، بِالْمَوَدَّةِ وَتَرْكِ النِّزَاعِ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①﴾ حَقًّا. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الْكَامِلُو الْإِيمَانِ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: وَعِيدُهُ ﴿وَجِلَتْ﴾ خَافَتْ ﴿قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ تَصْدِيقًا[٢] ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ②﴾ بِهِ يَثِقُونَ لَا بِغَيْرِهِ. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَأْتُونَ بِهَا، بِحُقُوقِهَا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ ﴿يُنفِقُونَ ③﴾ فِي طَاعَةِ اللهِ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صِدْقًا، بِلَا شَكٍّ[٣] ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ مَنَازِلُ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٦).

(٢) ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان. [السعدي (ص:٣١٥)]. كقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد. [ابن كثير (٤/ ١٢)].

(٣) يعني يقينا: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: برئوا من الكفر. قال مقاتل: حقا لا شك في إيمانهم. وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمنا حقا لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قوما مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه. وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل الحسن فقال: أمؤمن أنت؟ فقال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا بها مؤمن، وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية، فلا أدري أمنهم أنا أم لا. [البغوي (٣/ ٣٢٦)].

فِي الْجَنَّةِ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ فِي الْجَنَّةِ. ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «أَخْرَجَ» ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ الْخُرُوجَ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ كَافِ ﴿أَخْرَجَكَ﴾ وَ﴿كَمَآ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: هَذِهِ الْحَالُ فِي كَرَاهَتِهِمْ لَهَا، مِثْلُ إِخْرَاجِكَ فِي حَالِ كَرَاهَتِهِمْ، وَقَدْ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَكَذَلِكَ أَيْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدِمَ بِعِيرٍ مِنَ الشَّامِ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ لِيَغْنَمُوهَا، فَعَلِمَتْ قُرَيْشٌ فَخَرَجَ أَبُو جَهْلٍ وَمُقَاتِلُو مَكَّةَ لِيَذُبُّوا عَنْهَا وَهُمُ النَّفِيرُ، وَأَخَذَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْعِيرِ طَرِيقَ السَّاحِلِ فَنَجَتْ، فَقِيلَ لِأَبِي جَهْلٍ ارْجِعْ فَأَبَى، وَسَارَ إِلَى بَدْرٍ، فَشَاوَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ، وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ»(١)، فَوَافَقُوهُ عَلَى قِتَالِ النَّفِيرِ، وَكَرِهَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ، وَقَالُوا: لَمْ نَسْتَعِدَّ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ الْقِتَالِ ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظَهَرَ لَهُمْ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ إِلَيْهِ عِيَانًا، فِي كَرَاهَتِهِمْ لَهُ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ الْعِيرَ، أَوِ النَّفِيرَ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ﴾ تُرِيدُونَ ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ أَيْ: الْبَأْسِ وَالسِّلَاحِ، وَهِيَ الْعِيرُ ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ لِقِلَّةِ عَدَدِهَا وَعُدَدِهَا، بِخِلَافِ النَّفِيرِ ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ يُظْهِرَهُ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ السَّابِقَةِ بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ(٢) ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ آخِرَهُمْ بِالِاسْتِئْصَالِ، فَأَمَرَكُمْ بِقِتَالِ النَّفِيرِ. ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ﴾ يَمْحَقَ ﴿ٱلْبَٰطِلَ﴾ الْكُفْرَ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ. اذْكُرْ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ تَطْلُبُونَ مِنْهُ الْغَوْثَ، بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى﴾ أَيْ: بِأَنِّي ﴿مُمِدُّكُم﴾ مُعِينُكُمْ ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ مُتَتَابِعِينَ يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَعَدَهُمْ بِهَا أَوَّلًا، ثُمَّ صَارَتْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ ثُمَّ خَمْسَةً، كَمَا فِي «آلِ عِمْرَانَ»(٣)، وَقُرِئَ: ﴿بِآلُفٍ﴾(٤) كَـ«أَفْلُسٍ» جَمْعٌ. ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أَيِ: الْإِمْدَادَ ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾. اذْكُرْ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً﴾ أَمْنًا مِمَّا حَصَلَ لَكُمْ مِنَ الْخَوْفِ ﴿مِّنْهُ﴾ تَعَالَى ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْجَنَابَاتِ ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وَسْوَسَتَهُ إِلَيْكُمْ، بِأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ مَا كُنْتُمْ ظِمَاءً مُحْدِثِينَ وَالْمُشْرِكُونَ

---

(١) أخرجه ابن هشام: (٢/ ٦٣ – ٦٤).

(٢) المراد بالكلمات الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعدكم منه بالظفر بها، وقيل: الكلمات عداته التي سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازه، وقيل: أسباب النصر مثل نزول الملائكة وأوامره لهم بالإمداد. [صديق حسن (٥/ ١٣٦)].

(٣) أي: الآيتين (١٢٤–١٢٥) من آل عمران.

(٤) قراءة شاذة.

عَلَى الْمَاءِ ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ يَحْبِسَ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بِالْيَقِينِ وَالصَّبْرِ ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ أَنْ تَسُوخَ فِي الرَّمْلِ(١). ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الَّذِينَ أَمَدَّ بِهِمُ الْمُسْلِمِينَ ﴿أَنِّى﴾ أَيْ: بِأَنِّي ﴿مَعَكُمْ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ بِالْإِعَانَةِ وَالتَّبْشِيرِ ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ الْخَوْفَ ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أَيِ: الرُّءُوسَ ﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ أَيْ: أَطْرَافَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَقْصِدُ ضَرْبَ رَقَبَةِ الْكَافِرِ فَتَسْقُطُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفُهُ(٢)، وَرَمَاهُمْ ﷺ بِقَبْضَةٍ مِنَ الْحَصَى فَلَمْ يَبْقَ مُشْرِكٌ إِلَّا دَخَلَ فِي عَيْنَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ(٣)، فَهُزِمُوا. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْعَذَابُ الْوَاقِعُ بِهِمْ ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟﴾ خَالَفُوا ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣﴾ لَهُ. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الْعَذَابُ ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أَيُّهَا الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ أَيْ: مُجْتَمِعِينَ كَأَنَّهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ يَزْحَفُونَ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ مُنْهَزِمِينَ. ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: يَوْمَ لِقَائِهِمْ ﴿دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ مُنْعَطِفًا ﴿لِّقِتَالٍ﴾ بِأَنْ يُرِيَهُمُ الْفَرَّةَ مَكِيدَةً، وَهُوَ يُرِيدُ الْكَرَّةَ ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ مُنْضَمًّا ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَسْتَنْجِدُ بِهَا ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ رَجَعَ ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾ الْمَرْجِعُ هِيَ، وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِمَا إِذَا لَمْ يَزِدِ الْكُفَّارُ عَلَى الضِّعْفِ(٤). ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بِبَدْرٍ بِقُوَّتِكُمْ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ بِنَصْرِهِ إِيَّاكُمْ ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ

---

(١) وقيل: يثبت به الأقدام بالصبر وقوة القلب. [البغوي (٣/ ٣٣٤)].

(٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ». أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٤ - ٢٠٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٣١٢٨).

(٤) اختلف العلماء في هذه الآية فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدر خاصة، ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبي ﷺ كان معهم، ولم يكن لهم فئة يتحيزون إليها دون النبي ﷺ، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، فأما بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض فيكون الفار متحيزا إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك. قال يزيد بن أبي حبيب أوجب الله النار لمن فر يوم بدر، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حنين بعده فقال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ [التوبة: ٢٧]. وقال عبد الله بن عمر: كنا في جيش بعثنا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فانهزمنا، فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون، قال: «بَلْ أَنْتُمُ الْكَرَّارُونَ، أَنَا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ». أخرجه أبو داود (٢٦٤٧)، والترمذي (١٧١٦)، وأحمد (٥٣٨٤) بلفظ: «الْعَكَّارُونَ» بدل «الْكَرَّارُونَ». وقال محمد بن سيرين: لما قتل أبو عبيدة

أَعْيُنَ الْقَوْمِ ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بِالْحَصْبَاءِ؛ لِأَنَّ كَفًّا مِنَ الْحَصْبَاءِ، لَا يَمْلَأُ عُيُونَ الْجَيْشِ الْكَثِيرِ بِرَمْيَةِ بَشَرٍ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ بِإِيصَالِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ[1]، فَعَلَ ذَلِكَ لِيَقْهَرَ الْكَافِرِينَ ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً﴾ عَطَاءً ﴿حَسَنًاۚ﴾ هُوَ الْغَنِيمَةُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿عَلِيمٌ ١٧﴾ بِأَحْوَالِهِمْ. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الْإِبْلَاءُ حَقٌّ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ﴾ مُضْعِفُ ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٨ إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ أَيُّهَا الْكُفَّارُ، تَطْلُبُوا الْفَتْحَ، أَيِ: الْقَضَاءَ، حَيْثُ قَالَ أَبُو جَهْلٍ مِنْكُمْ: «اللَّهُمَّ أَيُّنَا كَانَ أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ، وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُ فَأَحِنْهُ الْغَدَاةَ»، أَيْ: أَهْلِكْهُ ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ﴾ الْقَضَاءُ بِهَلَاكِ مَنْ هُوَ كَذَلِكَ، وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ وَمَنْ قُتِلَ مَعَهُ، دُونَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ[2] ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عَنِ الْكُفْرِ وَالْحَرْبِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن

جاء الخبر إلى عمر رضي الله عنه فقال: لو انحاز إلي كنت له فئة فأنا فئة كل مسلم. وقال بعضهم: حكم الآية عام في حق كل من ولى منهزما. جاء في الحديث: «مِنَ الْكَبَائِرِ الْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ». أخرجه الطبراني (١٣٠٢٣). وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله عز وجل: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فليس لقوم أن يفروا من مثلهم فنسخت تلك إلا في هذه العدة، وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا أو يولوا ظهورهم إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة، وإن كانوا أقل من ذلك جاز لهم أن يولوا ظهورهم وينحازوا عنهم قال ابن عباس رضي الله عنهما: من فر من ثلاثة فلم يفر، ومن اثنين فقد فر. [البغوي (٣/ ٣٣٧)].

(١) هذه الآية نزلت في شأن رميه ﷺ المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته. ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ، فكان منه ﷺ مبدأ الرمي وهو الحذف، ومن الرب تعالى نهايته، وهو الإيصال. فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ونفي عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته. ونظير هذا قوله في الآية نفسها: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ فأخبر أنه وحده هو الذي تفرد بقتلهم، ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصباء إلى أعينهم، ولم يكن ذلك برسوله. ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسبابا ظاهرة لدفع المشركين، وتولى دفعهم وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس. فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافا إليه وبه، وهو خير الناصرين. [مدارج السالكين لابن القيم (٤/ ٤١٠)].

(٢) المراد بالفتح هنا في هذه الآية عند جمهور العلماء: الحكم وذلك أن قريشا لما أرادوا الخروج إلى غزوة بدر تعلقوا بأستار الكعبة، وزعموا أنهم قطان بيت الله الحرام، وأنهم يسقون الحجيج، ونحو ذلك، وأن محمدا ﷺ فرق الجماعة، وقطع الرحم، وسفه الآباء، وعاب الدين، ثم سألوا الله أن يحكم بينهم، وبين النبي ﷺ، بأن يهلك الظالم منهم، وينصر المحق، فحكم الله بذلك وأهلكهم، ونصره، وأنزل الآية، ويدل على أن المراد بالفتح هنا الحكم أنه تعالى أتبعه بما يدل على أن الخطاب لكفار مكة، وهو قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، ويبين ذلك إطلاق الفتح بمعنى الحكم في القرآن في قوله عن شعيب وقومه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، أي: احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين، ويدل لذلك قوله تعالى: عن شعيب في نفس القصة ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وهذه لغة حمير؛ لأنهم يسمون القاضي فتاحا والحكومة فتاحة. [الشنقيطي (٢/ ٤٠٩)].

تَعُودُواْ﴾ لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿نَعُدۡ﴾ لِنَصْرِهِ عَلَيْكُمْ ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾ تَدْفَعَ ﴿عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ﴾ جَمَاعَاتُكُمْ ﴿شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَإِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾ بِكَسْرِ ﴿إِنَّ﴾ اسْتِئْنَافًا، وَفَتْحِهَا عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ﴾ تُعْرِضُوا ﴿عَنۡهُ﴾ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ الْقُرْآنَ وَالْمَوَاعِظَ. ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ وَاتِّعَاظٍ، وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ، أَوِ الْمُشْرِكُونَ ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾ عَنِ النُّطْقِ بِهِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ هُ. ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ صَلَاحًا بِسَمَاعِ الْحَقِّ ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ سَمَاعَ تَفَهُّمٍ ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾ فَرْضًا، وَقَدْ عَلِمَ أَنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ﴿لَتَوَلَّواْ﴾ عَنْهُ ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ عَنْ قَبُولِهِ، عِنَادًا وَجُحُودًا. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ أَوْ يَكْفُرَ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ[1] ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ﴾ إِنْ أَصَابَتْكُمْ[2] ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ بَلْ تَعُمُّهُمْ وَغَيْرَهُمْ، وَاتِّقَاؤُهَا بِإِنْكَارِ مُوجِبِهَا مِنَ الْمُنْكَرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ لِمَنْ خَالَفَهُ. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَرْضِ مَكَّةَ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يَأْخُذَكُمُ الْكُفَّارُ بِسُرْعَةٍ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ قَوَّاكُمْ ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ بِالْمَلَائِكَةِ ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الْغَنَائِمِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ نِعَمَهُ. وَنَزَلَ فِي أَبِي لُبَابَةَ مَرْوَانَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ وَقَدْ بَعَثَهُ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ فَاسْتَشَارُوهُ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ[3] لِأَنَّ عِيَالَهُ وَمَالَهُ فِيهِمْ[4]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَ﴾ لَا ﴿تَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ مَا اُئْتُمِنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك. قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء. فقال: «إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ». أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٧٧٣٧)، وأحمد (٢٤٦٠٤).

(٢) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ خطاب للمؤمنين مطلقاً صلحائهم وغيرهم ﴿فِتۡنَةٗ﴾ المراد بها العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء، وتسلط الظلمة وغير ذلك، أي: اتقوا سبب فتنة. [صديق حسن (٥/ ١٥٨)].

(٣) أي: بيده، وكانت هذه الإشارة معناها أن محمدا ﷺ سيحكم فيكم بالقتل والذبح.

(٤) لما ذكرهم تعالى بإسباغ نعمه عليهم ليشكروه، وكان من شكره الوقوف عند حدوده، بين لهم ما يحذر منها، وهو الخيانة. ويدخل في خيانة الله تعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده، وفي خيانة رسوله رفض سنته، وإفشاء سره للمشركين. وفي خيانة أماناتهم الغلول في المغانم،

اَلدِّينِ وَغَيْرِهِ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لَكُمْ صَادَّةٌ عَنْ أُمُورِ اَلْآخِرَةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ فَلَا تَفُوتُوهُ بِمُرَاعَاةِ اَلْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْخِيَانَةِ لِأَجْلِهِمْ. وَنَزَلَ فِي تَوْبَتِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بِالْأَمَانَةِ وَغَيْرِهَا ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مَا تَخَافُونَ فَتَنْجُونَ ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾ ذُنُوبَكُمْ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩ وَ﴾ اُذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وَقَدِ اجْتَمَعُوا لِلْمُشَاوَرَةِ فِي شَأْنِكَ بِدَارِ اَلنَّدْوَةِ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يُوثِقُوكَ وَيَحْبِسُوكَ ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كُلُّهُمْ قِتْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَۚ﴾ مِنْ مَكَّةَ ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بِكَ ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ بِهِمْ، بِتَدْبِيرِ أَمْرِكَ؛ بِأَنْ أَوْحَى إِلَيْكَ مَا دَبَّرُوهُ وَأَمَرَكَ بِالْخُرُوجِ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ أَعْلَمُهُمْ بِهِ[1]. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ اَلْقُرْآنُ ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ قَالَهُ اَلنَّضْرُ بْنُ اَلْحَارِثِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْتِي اَلْحِيرَةَ يَتَّجِرُ فَيَشْتَرِي كُتُبَ أَخْبَارِ اَلْأَعَاجِمِ، وَيُحَدِّثُ بِهَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ﴾ اَلْقُرْآنُ ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ أَكَاذِيبُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ اَلَّذِي يَقْرَؤُهُ مُحَمَّدٌ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ اَلْمُنَزَّلَ ﴿مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ مُؤْلِمٍ عَلَى إِنْكَارِهِ، قَالَهُ اَلنَّضْرُ وَغَيْرُهُ، اِسْتِهْزَاءً وَإِيهَامًا أَنَّهُ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَجَزْمٍ بِبُطْلَانِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بِمَا سَأَلُوهُ ﴿وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ لِأَنَّ اَلْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ عَمَّ، وَلَمْ تُعَذَّبْ أُمَّةٌ إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِ نَبِيِّهَا وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ حَيْثُ يَقُولُونَ فِي طَوَافِهِمْ: «غُفْرَانَكَ غُفْرَانَكَ»، وَقِيلَ: هُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ اَلْمُسْتَضْعَفُونَ فِيهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥][2]. ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بِالسَّيْفِ بَعْدَ خُرُوجِكَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ، وَعَلَى اَلْقَوْلِ اَلْأَوَّلِ: هِيَ نَاسِخَةٌ لِمَا قَبْلَهَا، وَقَدْ عَذَّبَهُمُ اَللهُ بِبَدْرٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يَمْنَعُونَ اَلنَّبِيَّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ كَمَا زَعَمُوا ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ أَنْ لَا وِلَايَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ. ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً﴾ صَفِيرًا ﴿وَتَصْدِيَةًۚ﴾ تَصْفِيقًا، أَيْ: جَعَلُوا ذَلِكَ مَوْضِعَ صَلَاتِهِمُ اَلَّتِي

أي: السرقة منها، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر، وكل ما تعبدوا به. وقد روي في نزول الآية شيء مما ذكرنا. ولفظ الآية مطلق يتناوله وغيره. [القاسمي (٥/ ٢٧٩)]. فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. [ابن كثير (٤/ ٤١)].

(١) انظر التعليق على آية (٥٤) من آل عمران.

(٢) قال الطيبي: وهذا الوجه أبلغ، لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة. [القاسمي (٥/ ٢٨٥)].

أُمِرُوا بِهَا ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ بِبَدْرٍ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فِي حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ﴾ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ نَدَامَةً، لِفَوَاتِهَا وَفَوَاتِ مَا قَصَدُوهُ ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مِنْهُمْ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿يُحْشَرُونَ ٣٦﴾ يُسَاقُونَ. ﴿لِيَمِيزَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿تَكُونُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أَيْ: يَفْصِلَ ﴿ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ الْكَافِرَ ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الْمُؤْمِنِ ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ يَجْمَعَهُ مُتَرَاكِمًا، بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٣٧ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كَأَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ عَنِ الْكُفْرِ وَقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ إِلَى قِتَالِهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨﴾ أَيْ: سُنَّتُنَا فِيهِمْ بِالْإِهْلَاكِ، فَكَذَا نَفْعَلُ بِهِمْ. ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾ تُوجَدَ ﴿فِتْنَةٌ﴾ شِرْكٌ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ وَحْدَهُ، وَلَا يُعْبَدُ غَيْرُهُ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ عَنِ الْكُفْرِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٩﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِهِ. ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ﴾ نَاصِرُكُمْ وَمُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ هُوَ ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ أَيِ: النَّاصِرُ لَكُمْ. ﴿*وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ أَخَذْتُمْ مِنَ الْكُفَّارِ قَهْرًا ﴿مِّن شَيْءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ يَأْمُرُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ هَلَكَ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ فُقَرَاءُ ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ ذَوِي الْحَاجَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَيْ: يَسْتَحِقُّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَالْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ، عَلَى مَا كَانَ يَقْسِمُهُ، مِنْ أَنَّ لِكُلٍّ خُمُسَ الْخُمُسِ، وَالْأَخْمَاسُ الْأَرْبَعَةُ الْبَاقِيَةُ لِلْغَانِمِينَ ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ فَاعْلَمُوا ذَلِكَ ﴿وَمَآ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿بِٱللَّهِ﴾ ﴿أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْآيَاتِ ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أَيْ: يَوْمَ بَدْرٍ، الْفَارِقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ الْمُسْلِمُونَ وَالْكُفَّارُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾ وَمِنْهُ نَصْرُكُمْ مَعَ قِلَّتِكُمْ وَكَثْرَتِهِمْ. ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ يَوْمَ ﴿أَنتُم﴾ كَائِنُونَ ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الْقُرْبَى مِنَ الْمَدِينَةِ، وَهِيَ بِضَمِّ الْعَيْنِ وَكَسْرِهَا: جَانِبُ الْوَادِي ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ الْبُعْدَى مِنْهَا ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ الْعِيرُ كَائِنُونَ بِمَكَانٍ ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أَنْتُمْ وَالنَّفِيرُ لِلْقِتَالِ ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن﴾ جَمَعَكُمْ بِغَيْرِ مِيعَادٍ ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فِي عِلْمِهِ وَهُوَ نَصْرُ الْإِسْلَامِ، وَمَحْقُ الْكُفْرِ، فَعَلَ ذَلِكَ: ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ يَكْفُرَ ﴿مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ أَيْ: بَعْدَ حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ قَامَتْ عَلَيْهِ، وَهِيَ: نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ قِلَّتِهِمْ عَلَى الْجَيْشِ الْكَثِيرِ ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ يُؤْمِنَ ﴿مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢﴾. اُذْكُرْ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾ أَيْ: نَوْمِكَ ﴿قَلِيلٗاۖ﴾ فَأَخْبَرْتَ بِهِ أَصْحَابَكَ فَسُرُّوا ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرٗا لَّفَشِلْتُمْ﴾ جَبُنْتُمْ

﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ اِخْتَلَفْتُمْ ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أَمْرِ الْقِتَالِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ كُمْ مِنَ الْفَشَلِ وَالتَّنَازُعِ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ. ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾ نَحْوَ سَبْعِينَ أَوْ مِائَةٍ وَهُمْ أَلْفٌ؛ لِتُقْدِمُوا عَلَيْهِمْ ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ لِيُقْدِمُوا وَلَا يَرْجِعُوا عَنْ قِتَالِكُمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْتِحَامِ الْحَرْبِ، فَلَمَّا الْتَحَمَ أَرَاهُمْ إِيَّاهُمْ مِثْلَيْهِمْ، كَمَا فِي «آلِ عِمْرَانَ»[1] ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ﴾ تَصِيرُ ﴿ٱلۡأُمُورُ ٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ﴾ جَمَاعَةً كَافِرَةً ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ لِقِتَالِهِمْ وَلَا تَنْهَزِمُوا ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ اُدْعُوهُ بِالنَّصْرِ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ تَفُوزُونَ. ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ تَخْتَلِفُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ تَجْبُنُوا ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ قُوَّتُكُمْ وَدَوْلَتُكُمْ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ بِالنَّصْرِ وَالْعَوْنِ. ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ لِيَمْنَعُوا عِيرَهُمْ، وَلَمْ يَرْجِعُوا بَعْدَ نَجَاتِهَا ﴿بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ حَيْثُ قَالُوا: «لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَنَنْحَرَ الْجَزُورَ، وَتَضْرِبَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ بِبَدْرٍ، فَيَتَسَامَعَ بِذَلِكَ النَّاسُ»[2] ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ[3] ﴿مُحِيطٞ ٤٧﴾ عِلْمًا، فَيُجَازِيهِمْ بِهِ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إِبْلِيسُ ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ بِأَنْ شَجَّعَهُمْ عَلَى لِقَاءِ الْمُسْلِمِينَ، لَمَّا خَافُوا الْخُرُوجَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ بَنِي بَكْرٍ ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ مِنْ كِنَانَةَ، وَكَانَ أَتَاهُمْ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ سَيِّدِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾ اِلْتَقَتْ ﴿ٱلۡفِئَتَانِ﴾ الْمُسْلِمَةُ وَالْكَافِرَةُ، وَرَأَى الْمَلَائِكَةَ وَكَانَ يَدُهُ فِي يَدِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ﴿نَكَصَ﴾ رَجَعَ ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ هَارِبًا ﴿وَقَالَ﴾ لَمَّا قَالُوا لَهُ: أَتَخْذُلُنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ مِنْ جِوَارِكُمْ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أَنْ يُهْلِكَنِي ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضَعْفُ اعْتِقَادٍ ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيِ: الْمُسْلِمِينَ ﴿دِينُهُمۡۗ﴾ إِذْ خَرَجُوا مَعَ قِلَّتِهِمْ، يُقَاتِلُونَ الْجَمْعَ الْكَثِيرَ، تَوَهُّمًا أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ بِسَبَبِهِ، قَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِهِمْ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يَثِقْ بِهِ يَغْلِبْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴿حَكِيمٞ ٤٩﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذۡ يَتَوَفَّى﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ﴾ حَالٌ ﴿وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ بِمَقَامِعَ مِنْ

---

(١) أي: الآية (١٣) من آل عمران.

(٢) انظر: الدر المنثور (٧/ ١٤٣ – ١٤٤).

(٣) القراءة بالتاء ليست من القراءات العشر.

حديدٍ ﴿وَ﴾ ويقولونَ لَهُمْ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ أيِ: النَّارِ، وَجوابُ ﴿لَوْ﴾: لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّعْذِيبُ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ عَبَّرَ بِهَا دُونَ غَيْرِهَا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تُزَاوَلُ بِهَا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ أَيْ: بِذِي ظُلْمٍ ﴿لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. دَأْبُ هَؤُلَاءِ ﴿كَدَأْبِ﴾ كَعَادَةِ ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بِالْعِقَابِ ﴿بِذُنُوبِهِمْۗ﴾ جُمْلَةُ ﴿كَفَرُواْ﴾ وَمَا بَعْدَهَا مُفَسِّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ عَلَى مَا يُرِيدُهُ ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٥٢ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: تَعْذِيبُ الْكَفَرَةِ ﴿بِأَنَّ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّ ﴿ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ مُبَدِّلًا لَهَا بِالنِّقْمَةِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ يُبَدِّلُوا نِعْمَتَهُمْ كُفْرًا، كَتَبْدِيلِ كُفَّارِ مَكَّةَ إِطْعَامَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ وَبَعْثَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ، بِالْكُفْرِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ﴾ قَوْمَهُ مَعَهُ ﴿وَكُلٌّ﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾. وَنَزَلَ فِي قُرَيْظَةَ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أَنْ لَا يُعِينُوا الْمُشْرِكِينَ ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ عَاهَدُوا فِيهَا ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾ اللهَ فِي غَدْرِهِمْ[1]. ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تَجِدَنَّهُمْ ﴿فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ﴾ فَرِّقْ ﴿بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ مِنَ الْمُحَارِبِينَ، بِالتَّنْكِيلِ بِهِمْ وَالْعُقُوبَةِ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أَيِ: الَّذِينَ خَلْفَهُمْ ﴿يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾ يَتَّعِظُونَ بِهِمْ. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ عَاهَدُوكَ ﴿خِيَانَةً﴾ فِي الْعَهْدِ بِأَمَارَةٍ تَلُوحُ لَكَ ﴿فَٱنۢبِذْ﴾ اطْرَحْ عَهْدَهُمْ ﴿إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ حَالٌ، أَيْ: مُسْتَوِيًا أَنْتَ وَهُمْ فِي الْعِلْمِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ بِأَنْ تُعْلِمَهُمْ بِهِ؛ لِئَلَّا يَتَّهِمُوكَ بِالْغَدْرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾. وَنَزَلَ فِيمَنْ أَفْلَتَ يَوْمَ بَدْرٍ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ اللهَ، أَيْ: فَاتُوهُ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ لَا يَفُوتُونَهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتَانِيَّةِ، فَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ مَحْذُوفٌ، أَيْ: أَنْفُسَهُمْ، وَفِي أُخْرَى بِفَتْحِ «أَنَّ» عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ. ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ لِقِتَالِهِمْ ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ قَالَ ﷺ: «هِيَ الرَّمْيُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2] ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى حَبْسِهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿تُرْهِبُونَ﴾ تُخَوِّفُونَ ﴿بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أَيْ: غَيْرَهُمْ وَهُمْ

---

(١) أي: شر ما يدب على وجه الأرض في حكم الله وقضائه المصرون على الكفر المتمادون في الضلال، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم، ومع ذلك هم شر من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]. [صديق حسن (٥/ ١٩٧)].

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٧) بلفظ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ».

الْمُنَافِقُونَ أَوِ الْيَهُودُ ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جَزَاؤُهُ ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ تُنْقَصُونَ مِنْهُ شَيْئًا. ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ﴾ مَالُوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بِكَسْرِ السِّينِ وَفَتْحِهَا، الصُّلْحِ ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ وَعَاهِدْهُمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «هَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ»، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «مَخْصُوصٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ إِذْ نَزَلَتْ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»(١) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ثِقْ بِهِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦١﴾ بِالْفِعْلِ. ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ بِالصُّلْحِ لِيَسْتَعِدُّوا لَكَ ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ كَافِيكَ ﴿ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ﴾ جَمَعَ ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ بَعْدَ الْإِحَنِ ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴿حَكِيمٞ ۝٦٣﴾ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ حِكْمَتِهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَ﴾ حَسْبُكَ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ﴾ حُثَّ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ لِلْكُفَّارِ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَإِن يَكُن﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مِّنكُم مِّاْئَةٞ﴾ صَابِرَةٌ ﴿يَغْلِبُوٓاْ أَلْفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿قَوْمٞ لَّا يَفْقَهُونَ ۝٦٥﴾ وَهَذَا خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَيْ: لِيُقَاتِلِ الْعِشْرُونَ مِنْكُمُ الْمِائَتَيْنِ، وَالْمِائَةُ الْأَلْفَ، وَيَثْبُتُوا لَهُمْ، ثُمَّ نُسِخَ لَمَّا كَثُرُوا(٢)، بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ

---

(١) وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله ... وقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيه نظر أيضا؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفا، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم. [ابن كثير (٤/ ٨٤)].

(٢) قال في «اللباب»: فظاهر هذا أن قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ ناسخ لما تقدم في الآية الأولى، وكان هذا الأمر يوم بدر، فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين، فثقل ذلك على المؤمنين، فنزلت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفٗاۚ﴾ يعني في قتال الواحد للعشرة، فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. فرد العشرة إلى الاثنين، فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا، فأيما رجل فر من ثلاثة فلم يفر، ومن فر من اثنين فقد فر. انتهى. قال في «العناية»: وذهب مكي إلى أنها مخففة لا ناسخة، كتخفيف الفطر للمسافر. وثمرة الخلاف أنه لو قاتل واحد عشرة، فقتل، هل يأثم أو لا؟ فعلى الأول يأثم، وعلى الثاني لا يأثم ... وبالجملة، فالآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص، والثانية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هؤلاء الجماعة، فلم يثبت ذلك الحكم، وعلى هذا فلا نسخ، ولا يقال إن قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ مشعر بأن هذا التكليف كان متوجها عليهم قبله، لأن لفظ التخفيف لا يستلزم الدلالة على حصول التثقيل قبله، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام، كقوله تعالى في ترخيصه للحر في نكاح الأمة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ﴾ [النساء: ٢٨] وليس هناك نسخ، وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر، فكذا هاهنا. ومما يدل على عدم النسخ

﴿ضُعۡفٗاۚ﴾ بِضَمِّ الضَّادِ وَفَتْحِهَا، عَنْ قِتَالِ عَشَرَةِ أَمْثَالِكُمْ ﴿فَإِن يَكُن﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ بِإِرَادَتِهِ(١)، وَهُوَ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَيْ: لِتُقَاتِلُوا مِثْلَيْكُمْ وَتَثْبُتُوا لَهُمْ ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ بِعَوْنِهِ. وَنَزَلَ لَمَّا أَخَذُوا الْفِدَاءَ مِنْ أَسْرَى بَدْرٍ(٢): ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن تَكُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يُبَالِغَ فِي قَتْلِ الْكُفَّارِ ﴿تُرِيدُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ حُطَامَهَا بِأَخْذِ الْفِدَاءِ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ لَكُمْ ﴿ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ أَيْ: ثَوَابَهَا بِقَتْلِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧﴾ وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤](٣). ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْرَى لَكُمْ ﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ مِنَ الْفِدَاءِ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ٱلۡأُسَٰرَىٰٓ﴾ ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ إِيمَانًا وَإِخْلَاصًا ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ مِنَ الْفِدَاءِ، بِأَنْ يُضَعِّفَهُ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيُثِيبَكُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذُنُوبَكُمْ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أَيِ: الْأَسْرَى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بِمَا أَظْهَرُوا

ذكر هذه الآية مقارنة للأولى وجعل الناسخ مقارنا للمنسوخ، لا يجوز إلا بدليل قاهر. [القاسمي (٥/ ٣٢٣)].

(١) أي: بمعونته وتأييده، إذ لا نصر بدون عون من الله تعالى وإذن. [أبو بكر الجزائري (٢/ ٣٢٧)].

(٢) أخرج مسلم في «أفراده» من حديث عمر بن الخطاب، قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فدية. فتكون لنا قوة على الكفار. فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قلت: لا. والله ما أرى الذي رأى أبو بكر. ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم. فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه. وتمكني من فلان - نسيبا لعمر - فأضرب عنقه. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر. ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك. فإن وجدت بكاء بكيت. وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، وَلَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾. أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(٣) وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر ... وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه. [ابن كثير (٤/ ٩١)].

مِنَ الْقَوْلِ ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ قَبْلَ بَدْرٍ بِالْكُفْرِ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ بِبَدْرٍ قَتْلًا وَأَسْرًا، فَلْيَتَوَقَّعُوا مِثْلَ ذَلِكَ إِنْ عَادُوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ النَّبِيَّ ﷺ ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ وَهُمُ الْأَنْصَارُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فِي النُّصْرَةِ وَالْإِرْثِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ بِكَسْرِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ فَلَا إِرْثَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآخِرِ السُّورَةِ[1] ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ لَهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عَهْدٌ، فَلَا تَنْصُرُوهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فِي النُّصْرَةِ وَالْإِرْثِ، فَلَا إِرْثَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أَيْ: تَوَلِّي الْمُسْلِمِينَ وَقَمْعَ الْكُفَّارِ ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ بِقُوَّةِ الْكُفْرِ، وَضَعْفِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ فِي الْجَنَّةِ[2]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ﴾ أَيْ: بَعْدَ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ ذَوُو الْقَرَابَاتِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فِي الْإِرْثِ مِنَ التَّوَارُثِ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ، الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ وَمِنْهُ حِكْمَةُ الْمِيرَاثِ.

---

(١) قال كثير من المفسرين هذه الولاية هي في الموالاة والمؤازرة والمعاونة دون الميراث. [ابن عاشور (١٠/ ٨٥)]. وذلك أن تلك الآية، لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث، بين الله تعالى في هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة، إلا ما خصه الدليل، فيكون المقصود من الآية إزالة هذا الوهم. قال الرازي: وهذا أولى، لأن تكثير النسخ من غير ضرورة وحاجة، لا يجوز. [القاسمي (٥/ ٣٣٧)].

(٢) أي: الكاملون في الإيمان، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء، والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة. [الشوكاني (٢/ ٣٧٦)]. ونصب حقًا على المصدر المؤكد أو تقديره إيمانًا حقًا، قاله في جامع البيان. وقال أبو السعود: كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان مع الوعد الكريم اهـ. والحاصل أنهم هم الكاملون في الإيمان لأنهم حققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى. [صديق حسن (٥/ ٢٢١)].

(٣) أي: في حكمه وشرعه. [السعدي (ص:٣٢٧)].

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مَدَنِيَّةٌ إِلَّا الْآيَتَيْنِ آخِرُهَا، مَائَةٌ وَثَلَاثُونَ أَوْ إِلَا آيَةٌ

وَلَمْ تُكْتَبْ فِيهَا الْبَسْمَلَةُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ حَدِيثٍ رَوَاهُ الْحَاكِمُ(١)، وَأَخْرَجَ فِي مَعْنَاهُ عَنْ عَلِيٍّ: «أَنَّ الْبَسْمَلَةَ أَمَانٌ، وَهِيَ نَزَلَتْ لِرَفْعِ الْأَمْنِ بِالسَّيْفِ»، وَعَنْ حُذَيْفَةَ: «إِنَّكُمْ تُسَمُّونَهَا سُورَةَ التَّوْبَةِ وَهِيَ سُورَةُ الْعَذَابِ»، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنِ الْبَرَاءِ: «أَنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ»(٢).

هَذِهِ ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ وَاصِلَةٌ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ عَهْدًا مُطْلَقًا، أَوْ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَوْ فَوْقَهَا. وَنَقَضُوا الْعَهْدَ بِمَا يُذْكَرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسِيحُوا۟﴾ سِيرُوا آمِنِينَ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أَوَّلُهَا شَوَّالٌ؛ بِدَلِيلِ مَا سَيَأْتِي، وَلَا أَمَانَ لَكُمْ بَعْدَهَا ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: فَائِتِي عَذَابَهُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ مُذِلُّهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ، وَالْأُخْرَى بِالنَّارِ. ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ إِعْلَامٌ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يَوْمَ النَّحْرِ ﴿أَنَّ﴾ أَيْ: بِأَنَّ ﴿ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وَعُهُودِهِمْ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بَرِيءٌ أَيْضًا، وَقَدْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا مِنَ السَّنَةِ، وَهِيَ: سَنَةُ تِسْعٍ، فَأَذَّنَ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣) ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ﴾ أَخْبِرْ(٤) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ مُؤْلِمٍ، وَهُوَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّارُ فِي الْآخِرَةِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ مِنْ شُرُوطِ الْعَهْدِ ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾ يُعَاوِنُوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ﴾ انْقِضَاءِ ﴿مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ الَّتِي عَاهَدْتُمْ عَلَيْهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ بِإِتْمَامِ الْعُهُودِ. ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ خَرَجَ ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ وَهِيَ آخِرُ مُدَّةِ التَّأْجِيلِ ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ فِي حِلٍّ، أَوْ حَرَمٍ ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ بِالْأَسْرِ ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ فِي الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ، حَتَّى يُضْطَرُّوا إِلَى الْقَتْلِ أَوِ الْإِسْلَامِ ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ﴾ طَرِيقٍ يَسْلُكُونَهُ، وَنَصْبُ ﴿كُلَّ﴾ عَلَى

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٠)، وأخرج الحاكم أثر علي (٢/ ٣٣٤)، وحذيفة (٣/ ٣٣١) رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٥٤)، ومسلم (١٦١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧).

(٤) عبر عن الإخبار بالبشارة تهكماً بهم وفيه من التهديد ما لا يخفى. [صديق حسن (٥/ ٢٣٤)].

نَزْعِ الْخَافِضِ ﴿فَإِن تَابُوا﴾ مِنَ الْكُفْرِ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ لِمَنْ تَابَ. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ مَرْفُوعٌ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ اِسْتَأْمَنَكَ مِنَ الْقَتْلِ ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أَمِّنْهُ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أَيْ: مَوْضِعَ أَمْنِهِ وَهُوَ دَارُ قَوْمِهِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنْ، لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ دِينَ اللهِ، فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ لِيَعْلَمُوا(١).

﴿كَيْفَ﴾ أَيْ: لَا ﴿يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ وَهُمْ كَافِرُونَ بِهِمَا، غَادِرُونَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَهُمْ «قُرَيْشٌ» الْمُسْتَثْنَوْنَ مِنْ قَبْلُ ﴿فَمَا اسْتَقَٰمُوا لَكُمْ﴾ أَقَامُوا عَلَى الْعَهْدِ وَلَمْ يَنْقُضُوهُ ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ، وَ «مَا» شَرْطِيَّةٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ وَقَدِ اسْتَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَهْدِهِمْ، حَتَّى نَقَضُوا بِإِعَانَةِ بَنِي بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ. ﴿كَيْفَ﴾ يَكُونُ لَهُمْ عَهْدٌ ﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يَظْفَرُوا بِكُمْ ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ يُرَاعُوا ﴿فِيكُمْ إِلًّا﴾ قَرَابَةً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عَهْدًا، بَلْ يُؤْذُوكُمْ مَا اسْتَطَاعُوا، وَجُمْلَةُ الشَّرْطِ حَالٌ ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بِكَلَامِهِمُ الْحَسَنِ ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الْوَفَاءَ بِهِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨﴾ نَاقِضُونَ لِلْعَهْدِ. ﴿اشْتَرَوْا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا، أَيْ: تَرَكُوا اتِّبَاعَهَا لِلشَّهَوَاتِ، وَالْهَوَى ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ دِينِهِ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩﴾ ـهُ عَمَلُهُمْ هَذَا. ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أَيْ: فَهُمْ إِخْوَانُكُمْ ﴿فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَإِن نَّكَثُوا﴾ نَقَضُوا ﴿أَيْمَٰنَهُم﴾ مَوَاثِيقَهُمْ ﴿مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ عَابُوهُ ﴿فَقَٰتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ رُؤَسَاءَهُ، فِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَٰنَ﴾ عُهُودَ ﴿لَهُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْكَسْرِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾ عَنِ الْكُفْرِ. ﴿أَلَا﴾ لِلتَّحْضِيضِ ﴿تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا

---

(١) أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم، أي: استأمنك بعد انقضاء أشهر العهد، فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي: القرآن الذي تقرؤه عليه، ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر، وتقوم عليه حجة الله به، فإن أسلم ثبت له ما للمسلمين، وإن أبى فإنه يرد إلى مأمنه وداره التي يأمن فيها، ثم قاتله إن شئت ... ودلت الآية على أن المستأمن لا يؤذى، وأنه يمكن من العود من غير غدر به ولا خيانة، ولذا ورد في الترهيب من عدم الوفاء بالعهد والغدر ما يزجر أشد الزجر. عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا». أخرجه البزار (٢٣٠٨)، والطبراني في المعجم الأوسط (٤٢٥٢). [القاسمي (٥/ ٣٥٥)]. ولما كان القرآن أعظم المعجزات، علق السماع به، وذكر السماع؛ لأنه الطريق إلى الفهم. وقد يراد بالسماع الفهم، تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك: أنت لم تسمع، تريد لم تفهم. [أبو حيان (٣/ ٣٧٥)].

﴿نَكَثُوٓاْ﴾ نَقَضوا ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ عُهُودَهُمْ ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ مِنْ مَكَّةَ، لَمَّا تَشاوَرُوا فِيهِ بِدارِ النَّدْوَةِ ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾ بِالْقِتالِ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ حَيْثُ قاتَلُوا خُزاعَةَ حُلَفاءَكُمْ مَعَ بَنِي بَكْرٍ، فَما يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُقاتِلُوهُمْ ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ أَتَخافُونَهُمْ؟ ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ فِي تَرْكِ قِتالِهِمْ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾ يَقْتُلْهُمْ ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ﴾ يُذِلَّهُمْ بِالأَسْرِ وَالْقَهْرِ ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾ بِما فُعِلَ بِهِمْ، هُمْ بَنُو خُزاعَةَ. ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ كَرْبَها ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ بِالرُّجُوعِ إِلَى الإِسْلامِ، كَأَبِي سُفْيانَ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ﴾ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الإِنْكارِ ﴿حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا﴾ لَمْ ﴿يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾ عِلْمَ ظُهُورٍ ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ بِإِخْلاصٍ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾ بِطانَةً وَأَوْلِياءَ، الْمَعْنَى: وَلَمْ يَظْهَرِ الْمُخْلِصُونَ - وَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ بِما ذُكِرَ - مِنْ غَيْرِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بِالإِفْرادِ وَالْجَمْعِ، بِدُخُولِهِ وَالْقُعُودِ فِيهِ(١) ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ لِعَدَمِ شَرْطِها(٢) ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ﴾ أَحَدًا ﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨ ۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أَيْ: أَهْلَ ذَلِكَ ﴿كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ فِي الْفَضْلِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ الْكافِرِينَ، نَزَلَتْ رَدًّا عَلَى مَنْ قالَ ذَلِكَ، وَهُوَ الْعَبَّاسُ أَوْ غَيْرُهُ(٣). ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ

---

(١) هذا ابتداء غرض من أغراض معاملة المشركين، وهو منع المشركين من دخول المسجد الحرام في العام القابل، وهو مرتبط بما تضمنته البراءة في قوله: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] ولما اتصل بتلك الآية من بيان النبي ﷺ الذي أرسل به مع أبي بكر الصديق: «أَنَّ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ». أخرجه البخاري (٤٦٥٥)، ومسلم (١٣٤٧). وهو توطئة لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة: ٢٨] ... والمراد المسجد الحرام وما يتبعه من المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجمرات، والمنحر من منى ... وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية: «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك»، ومثل سجودهم للأصنام، وطوافهم بها، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها. [ابن عاشور (١٠/ ١٣٩)].

(٢) أي: بطلت وذهبت أجورها، لأنها لم تكن لله بل كانت للشيطان. [الطبري (١١/ ٣٧٥)].

(٣) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال العباس حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام،

دَرَجَةً﴾ رُتْبَةً ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ مِنْ غَيْرِهِمْ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ٢٠﴾ الظَّافِرُونَ بِالْخَيْرِ. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٖ مِّنْهُ
وَرِضْوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾ دَائِمٌ. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ﴿فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٞ
٢٢﴾. وَنَزَلَ فِيمَنْ تَرَكَ الْهِجْرَةَ لِأَجْلِ أَهْلِهِ وَتِجَارَتِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ
إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ﴾ اخْتَارُوا ﴿ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ
وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أَقْرِبَاؤُكُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عَشِيرَاتُكُمْ﴾، ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾
اكْتَسَبْتُمُوهَا ﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ عَدَمَ نَفَاقِهَا ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ
فِي سَبِيلِهِۦ﴾ فَقَعَدْتُمْ لِأَجْلِهِ عَنِ الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ انْتَظِرُوا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٤ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ﴾ لِلْحَرْبِ ﴿كَثِيرَةٖ﴾ كَبَدْرٍ، وَقُرَيْظَةَ، وَالنَّضِيرِ ﴿وَ﴾ اذْكُرْ
﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وَادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، أَيْ: يَوْمَ قِتَالِكُمْ فِيهِ هَوَازِنَ، وَذَلِكَ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ ثَمَانٍ ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ﴾،
﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فَقُلْتُمْ: لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَالْكُفَّارُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ ﴿فَلَمْ تُغْنِ
عَنكُمْ شَيْـٔٗا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ «مَا» مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: مَعَ رُحْبِهَا، أَيْ: سَعَتِهَا، فَلَمْ تَجِدُوا مَكَانًا
تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَكُمْ مِنَ الْخَوْفِ ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ٢٥﴾ مُنْهَزِمِينَ، وَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ،
وَلَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ الْعَبَّاسِ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِرِكَابِهِ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ طُمَأْنِينَتَهُ ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾
فَرَدُّوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا نَادَاهُمُ الْعَبَّاسُ بِإِذْنِهِ، وَقَاتَلُوا ﴿وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ مَلَائِكَةً ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾
بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ مِنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَٱللَّهُ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٞ﴾ قَذَرٌ لِخُبْثِ بَاطِنِهِمْ ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾
أَيْ: لَا يَدْخُلُوا الْحَرَمَ ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾ عَامَ تِسْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةٗ﴾ فَقْرًا، بِانْقِطَاعِ تِجَارَتِهِمْ عَنْكُمْ
﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ وَقَدْ أَغْنَاهُمْ بِالْفُتُوحِ، وَالْجِزْيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨ قَٰتِلُواْ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وَإِلَّا لَآمَنُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ كَالْخَمْرِ
﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ الثَّابِتِ النَّاسِخِ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَدْيَانِ، وَهُوَ: دِينُ الْإِسْلَامِ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بَيَانٌ لِـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾

ونسقي الحاج، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله، والجهاد مع النبي ﷺ خير مما هم عليه. [انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٧٠)، أسباب النزول للواحدي (ص: ٢٧٩)].

﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَيِ: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ الْخَرَاجَ الْمَضْرُوبَ عَلَيْهِمْ كُلَّ عَامٍ ﴿عَن يَدٍ﴾ حَالٌ، أَيْ: مُنْقَادِينَ، أَوْ بِأَيْدِيهِمْ لَا يُوَكِّلُونَ بِهَا ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ أَذِلَّاءُ مُنْقَادُونَ لِحُكْمِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ﴾ عِيسَى ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ عَلَيْهِ، بَلْ ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يُشَابِهُونَ بِهِ ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ مِنْ آبَائِهِمْ تَقْلِيدًا لَهُمْ ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾ لَعَنَهُمُ ﴿ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ﴾ كَيْفَ ﴿يُؤْفَكُونَ ٣٠﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ مَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ. ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ عُبَّادَ النَّصَارَى ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حَيْثُ اتَّبَعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ﴾ أَيْ: بِأَنْ يَعْبُدُوا ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ شَرْعَهُ وَبَرَاهِينَهُ ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بِأَقْوَالِهِمْ فِيهِ ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ﴾ يُظْهِرَ ﴿نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ ذَلِكَ. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾ يُعْلِيَهُ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٣٣﴾ ذَلِكَ. ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ﴾ يَأْخُذُونَ ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ كَالرُّشَا فِي الْحُكْمِ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ دِينِهِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ أَيِ: الْكُنُوزَ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لَا يُؤَدُّونَ مِنْهَا حَقَّهُ مِنَ الزَّكَاةِ، وَالْخَبَرُ ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ أَخْبِرْهُمْ ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٤﴾ مُؤْلِمٍ. ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ﴾ تُحْرَقُ ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ﴾ وَتُوَسَّعُ جُلُودُهُمْ حَتَّى تُوضَعَ عَلَيْهَا كُلُّهَا، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ٣٥﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ. ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ الْمُعْتَدِّ بِهَا لِلسَّنَةِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ﴾ أَيِ: الشُّهُورِ ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾ مُحَرَّمَةٌ: «ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ» ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: تَحْرِيمُهَا ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ الْمُسْتَقِيمُ ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ﴾ أَيِ: الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ﴿أَنفُسَكُمْۚ﴾ بِالْمَعَاصِي فَإِنَّهَا فِيهَا أَعْظَمُ وِزْرًا، وَقِيلَ فِي الْأَشْهُرِ كُلِّهَا ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أَيْ: جَمِيعًا فِي كُلِّ الشُّهُورِ(1) ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ

---

(١) اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم. فقال قوم: كان كبيرا ثم نسخ بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ كأنه يقول فيهن وفي غيرهن. وهو قول قتادة، وعطاء الخراساني، والزهري، وسفيان الثوري، وقالوا: إن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين، وثقيفا بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة. وقال آخرون: إنه غير منسوخ: قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يُقاتلوا فيها وما نسخت. [البغوي (٤/ ٤٥)]. لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ. ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أَيِ: التَّأْخِيرُ لِحُرْمَةِ شَهْرٍ إِلَى آخَرَ، كَمَا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ، مِنْ تَأْخِيرِ حُرْمَةِ الْمُحَرَّمِ إِذَا هَلَّ وَهُمْ فِي الْقِتَالِ إِلَى صَفَرَ ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ لِكُفْرِهِمْ بِحُكْمِ اللهِ فِيهِ ﴿يُضَلُّ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِهَا ﴿بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ﴾ أَيِ: النَّسِيءَ ﴿عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ يُوَافِقُوا بِتَحْلِيلِ شَهْرٍ وَتَحْرِيمِ آخَرَ بَدَلَهُ ﴿عِدَّةَ﴾ عَدَدَ ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الْأَشْهُرِ فَلَا يَزِيدُوا عَلَى تَحْرِيمِ أَرْبَعَةٍ وَلَا يَنْقُصُونَ، وَلَا يَنْظُرُوا إِلَى أَعْيَانِهَا ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ فَظَنُّوهُ حَسَنًا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾. وَنَزَلَ لَمَّا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانُوا فِي عُسْرَةٍ وَشِدَّةٍ وَحَرٍّ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الْمُثَلَّثَةِ وَاجْتِلَابِ هَمْزَةِ الْوَصْلِ، أَيْ: تَبَاطَأْتُمْ، وَمِلْتُمْ عَنِ الْجِهَادِ ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وَالْقُعُودِ فِيهَا؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وَلَذَّاتِهَا ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أَيْ: بَدَلَ نَعِيمِهَا ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي﴾ جَنْبِ مَتَاعِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ حَقِيرٌ. ﴿إِلَّا﴾ بِإِدْغَامِ «لَا» فِي نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿تَنفِرُواْ﴾ تَخْرُجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْجِهَادِ ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ مُؤْلِمًا ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أَيْ: يَأْتِ بِهِمْ بَدَلَكُمْ ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ أَيِ: اللهَ، أَوِ النَّبِيَّ ﷺ ﴿شَيۡـٔٗاۗ﴾ بِتَرْكِ نَصْرِهِ، فَإِنَّ اللهَ نَاصِرُ دِينِهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ وَمِنْهُ نَصْرُ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ. ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أَيِ: النَّبِيَّ ﷺ ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ﴾ حِينَ ﴿أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ مَكَّةَ، أَيْ: أَلْجَأُوهُ إِلَى الْخُرُوجِ، لَمَّا أَرَادُوا قَتْلَهُ أَوْ حَبْسَهُ أَوْ نَفْيَهُ بِدَارِ النَّدْوَةِ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ حَالٌ، أَيْ: أَحَدَ اثْنَيْنِ وَالْآخَرُ أَبُو بَكْرٍ، الْمَعْنَى: نَصَرَهُ اللهُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالَةِ، فَلَا يَخْذُلُهُ فِي غَيْرِهَا ﴿إِذۡ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذۡ﴾ قَبْلَهُ ﴿هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ نَقْبٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ﴿إِذۡ﴾ بَدَلٌ ثَانٍ ﴿يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أَبِي بَكْرٍ، وَقَدْ قَالَ لَهُ لَمَّا رَأَى أَقْدَامَ الْمُشْرِكِينَ: «لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ

ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] ... وأما قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال، ... وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما، ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا هو أمر مقرر، وله نظائر كثيرة. [ابن كثير (٤/ ١٤٩)].

لَأَبْصَرَنَا» ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بِنَصْرِهِ[1] ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ طُمَأْنِينَتَهُ ﴿عَلَيْهِ﴾ قِيلَ: عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقِيلَ: عَلَى أَبِي بَكْرٍ[2] ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ أَيْ: النَّبِيَّ ﷺ ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ مَلَائِكَةٍ فِي الْغَارِ، وَمَوَاطِنِ قِتَالِهِ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَيْ: دَعْوَةَ الشِّرْكِ ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾ الْمَغْلُوبَةَ ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ ﴿هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ الظَّاهِرَةُ الْغَالِبَةُ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ نِشَاطًا وَغَيْرَ نِشَاطٍ، وَقِيلَ: أَقْوِيَاءَ وَضُعَفَاءَ، أَوْ أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ [التوبة: ٩١] ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ فَلَا تَتَثَاقَلُوا[3]. وَنَزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا: ﴿لَوْ كَانَ﴾ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ﴿عَرَضًا﴾ مَتَاعًا مِنَ الدُّنْيَا ﴿قَرِيبًا﴾ سَهْلَ الْمَأْخَذِ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وَسَطًا ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ طَلَبًا لِلْغَنِيمَةِ ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ الْمَسَافَةُ، فَتَخَلَّفُوا ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ الْخُرُوجَ ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢﴾ فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ. وَكَانَ ﷺ أَذِنَ لِجَمَاعَةٍ فِي التَّخَلُّفِ بِاجْتِهَادٍ مِنْهُ[4]، فَنَزَلَ عِتَابًا لَهُ، وَقُدِّمَ الْعَفْوُ تَطْمِينًا لِقَلْبِهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ فِي التَّخَلُّفِ؟ وَهَلَّا تَرَكْتَهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ فِي الْعُذْرِ ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٤٣﴾ فِيهِ. ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فِي التَّخَلُّفِ، عَنْ ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝٤٤ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ فِي التَّخَلُّفِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

---

(١) عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا». أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

(٢) ويؤيد كون الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ للنبي ﷺ الضمير في ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فإنه للنبي ﷺ ... وقيل: إنه لا محذور في رجوع الضمير من ﴿عَلَيْهِ﴾ إلى أبي بكر، ومن ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ إلى النبي ﷺ فإن ذلك كثير في القرآن وفي كلام العرب. [الشوكاني (٢/ ٤١٤)]. قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينة. [ابن كثير (٤/ ١٥٥)].

(٣) قال بعض الناس: هذا أمر عام لجميع المؤمنين فعبر عنه بالفرض على الأعيان في تلك المدة، ثم نسخه الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ﴾ الآية [التوبة: ١٢٢]، روي ذلك عن الحسن وعكرمة. وقال جل الناس: بل هذا حض، والأمر في نفسه موقوف على فرض الكفاية، ولم يقصد بالآية فرضه على الأعيان. [ابن عطية (٣/ ٣٧)].

(٤) وقيل: إن هذا عتاب له ﷺ في إذنه للمنافقين بالخروج معه لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج ... وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢] ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستثبات. [الشوكاني (٢/ ٤١٧)].

وَٱرْتَابَتْ﴾ شَكَّتْ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ فِي اَلدِّينِ ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝٤٥﴾ يَتَحَيَّرُونَ. ﴿۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ﴾ مَعَكَ
﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أُهْبَةً مِنَ اَلْآلَةِ وَالزَّادِ ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أَيْ: لَمْ يُرِدْ خُرُوجَهُمْ ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ كَسَّلَهُمْ
﴿وَقِيلَ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ اَلْمَرْضَى وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، أَيْ: قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ. ﴿لَوْ خَرَجُواْ
فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فَسَادًا، بِتَخْذِيلِ اَلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ أَيْ: أَسْرَعُوا بَيْنَكُمْ بِالْمَشْيِ
بِالنَّمِيمَةِ ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ يَطْلُبُونَ لَكُمُ ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ بِإِلْقَاءِ اَلْعَدَاوَةِ ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ مَا يَقُولُونَ سَمَاعَ قَبُولٍ
﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ﴾ لَكَ ﴿ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أَوَّلَ مَا قَدِمْتَ اَلْمَدِينَةَ ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾
أَيْ: أَجَالُوا اَلْفِكْرَ فِي كَيْدِكَ، وَإِبْطَالِ دِينِكَ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ اَلنَّصْرُ ﴿وَظَهَرَ﴾ عَزَّ ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ دِينُهُ ﴿وَهُمْ
كَٰرِهُونَ ۝٤٨﴾ لَهُ، فَدَخَلُوا فِيهِ ظَاهِرًا. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ فِي اَلتَّخَلُّفِ ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ﴾ وَهُوَ اَلْجَدُّ بْنُ
قَيْسٍ، قَالَ لَهُ اَلنَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ لَكَ فِي جِلَادِ بَنِي اَلْأَصْفَرِ؟»، فَقَالَ: إِنِّي مُغْرَمٌ بِالنِّسَاءِ، وَأَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي
اَلْأَصْفَرِ أَنْ لَا أَصْبِرَ عَنْهُنَّ فَأَفْتَتِنَ(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ﴾ بِالتَّخَلُّفِ، وَقُرِئَ: ﴿سَقَطَ﴾(٢)، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ لَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنْهَا. ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ كَنَصْرٍ وَغَنِيمَةٍ ﴿تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ﴾ شِدَّةٌ ﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ بِالْحَزْمِ، حِينَ تَخَلَّفْنَا ﴿مِن قَبْلُ﴾ قَبْلَ هَٰذِهِ اَلْمُصِيبَةِ ﴿وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ
فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ بِمَا أَصَابَكَ. ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ إِصَابَتَهُ ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ﴾ نَاصِرُنَا، وَمُتَوَلِّي
أُمُورِنَا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى اَلتَّاءَيْنِ مِنَ اَلْأَصْلِ، أَيْ: تَنْتَظِرُونَ أَنْ
يَقَعَ ﴿بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى﴾ اَلْعَاقِبَتَيْنِ ﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ﴾ تَثْنِيَةُ حُسْنَى، تَأْنِيثُ أَحْسَنَ: اَلنَّصْرِ أَوِ اَلشَّهَادَةِ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾
نَنْتَظِرُ ﴿بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ بِقَارِعَةٍ مِنَ اَلسَّمَاءِ ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ﴾ بِأَنْ يَأْذَنَ لَنَا بِقِتَالِكُمْ
﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بِنَا ذَلِكَ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ عَاقِبَتَكُمْ. ﴿قُلْ أَنفِقُواْ﴾ فِي طَاعَةِ اللهِ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن
يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ مَا أَنْفَقْتُمُوهُ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣﴾ وَالْأَمْرُ هُنَا بِمَعْنَى اَلْخَبَرِ. ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ﴾
بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ﴾ فَاعِلٌ، وَ﴿أَن تُقْبَلَ﴾ مَفْعُولٌ، ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ مُتَثَاقِلُونَ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ اَلنَّفَقَةَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعُدُّونَهَا مَغْرَمًا. ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٦٧٨٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠٣٩٩).

(٢) قراءة شاذة.

﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ أَيْ: لَا تَسْتَحْسِنِ نِعَمَنَا عَلَيْهِمْ، فَهِيَ اسْتِدْرَاجٌ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ أَيْ: أَنْ يُعَذِّبَهُمْ ﴿بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بِمَا يَلْقَوْنَ فِي جَمْعِهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ وَفِيهَا مِنَ الْمَصَائِبِ ﴿وَتَزْهَقَ﴾ تَخْرُجَ ﴿أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ الْعَذَابِ. ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أَيْ: مُؤْمِنُونَ ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يَخَافُونَ أَنْ تَفْعَلُوا بِهِمْ كَالْمُشْرِكِينَ، فَيَحْلِفُونَ تَقِيَّةً. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ سَرَادِيبَ ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ مَوْضِعًا يَدْخُلُونَهُ ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يُسْرِعُونَ فِي دُخُولِهِ وَالِانْصِرَافِ عَنْكُمْ، إِسْرَاعًا لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ، كَالْفَرَسِ الْجَمُوحِ. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يَعِيبُكَ ﴿فِى﴾ قَسْمِ ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ مِنَ الْغَنَائِمِ وَنَحْوِهَا ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا﴾ كَافِينَا ﴿ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مِنْ غَنِيمَةٍ أُخْرَى مَا يَكْفِينَا ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أَنْ يُغْنِيَنَا، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ. ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾ الزَّكَوَاتُ مَصْرُوفَةٌ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَقَعُ مَوْقِعًا مِنْ كِفَايَتِهِمْ ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أَيِ: الصَّدَقَاتِ، مِنْ جَابٍ وَقَاسِمٍ وَكَاتِبٍ وَحَاشِرٍ ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ لِيُسْلِمُوا أَوْ يَثْبُتَ إِسْلَامُهُمْ أَوْ يُسْلِمَ نُظَرَاؤُهُمْ أَوْ يَذُبُّوا عَنِ الْمُسْلِمِينَ - أَقْسَامٌ - الْأَوَّلُ وَالْأَخِيرُ لَا يُعْطَيَانِ الْيَوْمَ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ لِعِزِّ الْإِسْلَامِ، بِخِلَافِ الْآخَرَيْنِ فَيُعْطَيَانِ عَلَى الْأَصَحِّ ﴿وَفِى﴾ فَكِّ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ أَيِ: الْمُكَاتَبِينَ ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ أَهْلِ الدَّيْنِ إِنِ اسْتَدَانُوا لِغَيْرِ مَعْصِيَةٍ، أَوْ تَابُوا وَلَيْسَ لَهُمْ وَفَاءٌ، أَوْ لِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَلَوْ أَغْنِيَاءَ ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: الْقَائِمِينَ بِالْجِهَادِ مِمَّنْ لَا فَيْءَ لَهُمْ وَلَوْ أَغْنِيَاءَ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ ﴿فَرِيضَةً﴾ نُصِبَ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ فِي صُنْعِهِ، فَلَا يَجُوزُ صَرْفُهَا لِغَيْرِ هَؤُلَاءِ، وَلَا مَنْعُ صِنْفٍ مِنْهُمْ إِذَا وُجِدَ، فَيَقْسِمُهَا الْإِمَامُ عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَهُ تَفْضِيلُ بَعْضِ آحَادِ الصِّنْفِ عَلَى بَعْضٍ، وَأَفَادَتِ اللَّامُ وُجُوبَ اسْتِغْرَاقِ أَفْرَادِهِ، لَكِنْ لَا يَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الْمَالِ إِذَا قَسَمَ لِعُسْرِهِ بَلْ يَكْفِي إِعْطَاءُ ثَلَاثَةٍ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ وَلَا يَكْفِي دُونَهَا، كَمَا أَفَادَتْهُ صِيغَةُ الْجَمْعِ[1]،

---

(١) قد اختلف العلماء هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة، فذهب إلى الأولى حذيفة والشافعي وجماعة من أهل العلم، وذهب إلى الثاني مالك وأبو حنيفة وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران. قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، احتج الأولون بما في الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء

وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّ شَرْطَ الْمُعْطَى مِنْهَا الْإِسْلَامُ، وَأَلَّا يَكُونَ هَاشِمِيًّا وَلَا مُطَّلِبِيًّا. ﴿**وَمِنْهُمُ**﴾ أَي: الْمُنَافِقِينَ ﴿**ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ**﴾ بِعَيْبِهِ وَبِنَقْلِ حَدِيثِهِ ﴿**وَيَقُولُونَ**﴾ إِذَا نُهُوا عَنْ ذَلِكَ لِئَلَّا يَبْلُغَهُ ﴿**هُوَ أُذُنٌۚ**﴾ أَي: يَسْمَعُ كُلَّ قِيلٍ وَيَقْبَلُهُ، فَإِذَا حَلَفْنَا لَهُ أَنَّا لَمْ نَقُلْ صَدَّقَنَا ﴿**قُلْ**﴾ هُوَ ﴿**أُذُنُ**﴾ مُسْتَمِعُ ﴿**خَيْرٍ لَّكُمْ**﴾ لَا مُسْتَمِعَ شَرٍّ ﴿**يُؤْمِنُ**﴾ يُصَدِّقُ ﴿**بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ فِيمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ لَا لِغَيْرِهِمْ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ لِلْفَرْقِ بَيْنَ إِيمَانِ التَّسْلِيمِ وَغَيْرِهِ ﴿**وَرَحْمَةٌ**﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى ﴿أُذُنُ﴾، وَالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى ﴿خَيْرٍ﴾، ﴿**لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ**﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، فِيمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُمْ مِنْ أَذَى الرَّسُولِ، أَنَّهُمْ مَا أَتَوْهُ ﴿**لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ**﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿**إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ٦٢**﴾ حَقًّا، وَتَوْحِيدُ الضَّمِيرِ لِتَلَازُمِ الرِّضَاءَيْنِ، وَخَبَرُ ﴿ٱللَّهُ﴾ أَوْ ﴿رَسُولُهُۥٓ﴾ مَحْذُوفٌ. ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ**﴾ بِـ ﴿**أَنَّهُۥ**﴾ أَي: الشَّأْنَ ﴿**مَن يُحَادِدِ**﴾ يُشَاقِقِ ﴿**ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ**﴾ جَزَاءً ﴿**خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ٦٣ يَحْذَرُ**﴾ يَخَافُ ﴿**ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ**﴾ أَي: الْمُؤْمِنِينَ ﴿**سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ**﴾ مِنَ النِّفَاقِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿**قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ**﴾ أَمْرُ تَهْدِيدٍ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ**﴾ مُظْهِرٌ ﴿**مَّا تَحْذَرُونَ ٦٤**﴾ إِخْرَاجَهُ مِنْ نِفَاقِكُمْ. ﴿**وَلَئِن**﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿**سَأَلْتَهُمْ**﴾ عَنِ اسْتِهْزَائِهِمْ بِكَ وَالْقُرْآنِ، وَهُمْ سَائِرُونَ مَعَكَ إِلَى تَبُوكَ ﴿**لَيَقُولُنَّ**﴾ مُعْتَذِرِينَ ﴿**إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ**﴾ فِي الْحَدِيثِ لِنَقْطَعَ بِهِ الطَّرِيقَ، وَلَمْ نَقْصِدْ ذَلِكَ[1] ﴿**قُلْ**﴾ لَهُمْ: ﴿**أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ**﴾ مِنْهُ ﴿**قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ**

أعطيتك. أخرجه الدارقطني كتاب الزكاة (٢/ ١٣٧). وأجاب الآخرون بأن ما في الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف لا لوجوب استيعاب الأصناف، وبان في إسناد الحديث: عبد الرحمن ابن زياد ابن أنعم الإفريقي وهو ضعيف. ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ [البقرة: ٢٧١] والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة، وصح عنه ﷺ أنه قال: «فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ». أخرجه مسلم (١٩). وقد ادعى مالك الإجماع على القول الآخر. قال ابن عبد البر: يريد إجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفاً منهم وقدم الفقراء لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم. [صديق حسن (٥/ ٣٢٧)].

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبدالله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾. أخرجه الطبري في تفسير (١٤/ ٣٣٣).

إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ أَيْ: ظَهَرَ كُفْرُكُمْ بَعْدَ إِظْهَارِ الإِيمَانِ[١] ﴿إِن يُعْفَ﴾ بِالْيَاءِ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ، وَالنُّونِ مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ ﴿عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بِإِخْلَاصِهَا وَتَوْبَتِهَا كَمَخْشِيِّ بْنِ حُمَيْرٍ ﴿تُعَذَّبْ﴾ بِالتَّاءِ وَالنُّونِ ﴿طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ مُصِرِّينَ عَلَى النِّفَاقِ وَالِاسْتِهْزَاءِ. ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أَيْ: مُتَشَابِهُونَ فِي الدِّينِ، كَأَبْعَاضِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ الإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ عَنِ الإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَةِ ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ تَرَكُوا طَاعَتَهُ ﴿فَنَسِيَهُمْۚ﴾ تَرَكَهُمْ مِنْ لُطْفِهِ[٢] ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ﴾ جَزَاءً وَعِقَابًا ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾ دَائِمٌ. أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ تَمَتَّعُوا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ نَصِيبِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ ﴿بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ﴾ فِي الْبَاطِلِ وَالطَّعْنِ فِي النَّبِيِّ ﷺ ﴿كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ أَيْ: كَخَوْضِهِمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٦٩ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ﴾ خَبَرُ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾ قَوْمِ هُودٍ ﴿وَثَمُودَ﴾ قَوْمِ صَالِحٍ ﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ قَوْمِ شُعَيْبٍ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ﴾ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ، أَيْ: أَهْلِهَا ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ، فَكَذَّبُوهُمْ فَأُهْلِكُوا ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِأَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾ بِارْتِكَابِ الذَّنْبِ. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ عَنْ إِنْجَازِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ﴿حَكِيمٌ ۝٧١﴾ لَا يَضَعُ شَيْئًا إِلَّا فِي مَحِلِّهِ. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ إِقَامَةً ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بِالسَّيْفِ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بِاللِّسَانِ وَالْحُجَّةِ ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾

---

(١) أي: لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فالنهي عن الاشتغال به وإدامته إذ أصله وقع ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ أي: أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه وباستهزائكم بمقالكم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ أي: بعد إظهاركم الإيمان. قال في «الإكليل»: قال إلكيا: فيه دلالة على أن اللاعب والجاد في إظهار كلمة الكفر سواء، وأن الاستهزاء بآيات الله كفر، انتهى. قال الرازي: لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف، والعمدة الكبرى في الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان، والجمع بينهما محال. [القاسمي (٥/ ٤٤٨)].

(٢) أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]. [ابن كثير (٤/ ١٧٣)].

بِالِانْتِهَارِ وَالْمَقْتِ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣﴾ الْمَرْجِعُ هِيَ. ﴿يَحْلِفُونَ﴾ أَيِ: الْمُنَافِقِينَ ﴿بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ مَا بَلَغَكَ عَنْهُمْ مِنَ السَّبِّ ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ، بَعْدَ إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ مِنَ الْفَتْكِ بِالنَّبِيِّ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ عِنْدَ عَوْدِهِ مِنْ تَبُوكَ، وَهُمْ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَضَرَبَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وُجُوهَ الرَّوَاحِلِ لَمَّا غَشُوهُ فَرُدُّوا[١] ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾ أَنْكَرُوا ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بِالْغَنَائِمِ بَعْدَ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ، وَالْمَعْنَى: لَمْ يَنَلْهُمْ مِنْهُ إِلَّا هَذَا وَلَيْسَ مِمَّا يُنْقَمُ ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ عَنِ النِّفَاقِ وَيُؤْمِنُوا بِكَ ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ بِالنَّارِ ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ﴾ يَحْفَظُهُمْ مِنْهُ ﴿وَلَا نَصِيرٍ ۝٧٤﴾ يَمْنَعُهُمْ. ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ وَهُوَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ مَالًا وَيُؤَدِّيَ مِنْهُ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَدَعَا لَهُ فَوَسَّعَ عَلَيْهِ، فَانْقَطَعَ عَنِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنَعَ الزَّكَاةَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ﴾ أَيْ: فَصَيَّرَ عَاقِبَتَهُمْ ﴿نِفَاقًا﴾ ثَابِتًا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أَيِ: اللهَ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ فِيهِ، فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَكَاتِهِ فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ»، فَجَعَلَ يَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَقْبَلْهَا، ثُمَّ إِلَى عُمَرَ فَلَمْ يَقْبَلْهَا، ثُمَّ إِلَى عُثْمَانَ فَلَمْ يَقْبَلْهَا، وَمَاتَ فِي زَمَانِهِ[٢]. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أَيِ: الْمُنَافِقُونَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ مَا أَسَرُّوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ مَا

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨١٠٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٦٠).

(٢) تفسير الطبري (١٤/ ٣٧٠)، وقد أنكر العلماء هذه القصة وقالوا ببطلانها، فممن قال بذلك الإمام ابن حزم، قال في المحلى (١١/ ٢٠٧، ٢٠٨): على أنه قد روينا أثرا لا يصح وأنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، وهذا باطل؛ لأن ثعلبة بدري معروف، ثم ساق الحديث بإسناده من طريق معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة، وقال: وهذا باطل لا شك؛ لأن الله أمر بقبض زكوات أموال المسلمين، وأمر عليه السلام عند موته ألا يبقى في جزيرة العرب دينان فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلما ففرض على أبي بكر وعمر قبض زكاته ولا بد ولا فسحة في ذلك، وإن كان كافرا ففرض ألا يبقى في جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك، وفي رواته معان بن رفاعة، والقاسم بن عبد الرحمن وعلي بن يزيد - هو ابن عبد الملك - وكلهم ضعفاء. وللفاضل عداب الحمش رسالة في نقد هذه القصة جمع فيها أقوال أهل العلم فيها سماها (ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه). قال القرطبي: وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان، حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة، فما روي عنه غير صحيح، وضعفها البيهقي في دلائل النبوة وابن الأثير في أسد الغابة والهيثمي في مجمع الزوائد وابن حجر في مواضع من كتبه ومن المعاصرين أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري والألباني في

تناجَوْا بِهِ بَيْنَهُمْ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾ مَا غَابَ عَنِ الْعِيَانِ. وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ، جَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: مُرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، فَنَزَلَ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿يَلْمِزُونَ﴾ يَعِيبُونَ ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ الْمُتَنَفِّلِينَ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طَاقَتَهُمْ فَيَأْتُونَ بِهِ ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ وَالْخَبَرُ ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جَازَاهُمْ عَلَى سُخْرِيَتِهِمْ[1] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩ ٱسْتَغْفِرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ تَخْيِيرٌ لَهُ فِي الِاسْتِغْفَارِ وَتَرْكِهِ، قَالَ ﷺ: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ» - يَعْنِي الِاسْتِغْفَارَ -. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[2]. ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالسَّبْعِينَ الْمُبَالَغَةُ فِي كَثْرَةِ الِاسْتِغْفَارِ. وَفِي الْبُخَارِيِّ حَدِيثُ: «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَزِدْتُ عَلَيْهَا»[3]. وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْعَدَدُ الْمَخْصُوصُ، لِحَدِيثِهِ أَيْضًا: «وَسَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ»[4]. فَبُيِّنَ لَهُ حَسْمُ الْمَغْفِرَةِ، بِآيَةِ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٨٠ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عَنْ تَبُوكَ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أَيْ: بِقُعُودِهِمْ ﴿خِلَٰفَ﴾ أَيْ: بَعْدَ ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟﴾ أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿لَا تَنفِرُوا۟﴾ تَخْرُجُوا إِلَى الْجِهَادِ ﴿فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ﴾ مِنْ تَبُوكَ فَالْأَوْلَى أَنْ يَتَّقُوهَا بِتَرْكِ التَّخَلُّفِ ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ۝٨١﴾ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا تَخَلَّفُوا. ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلْيَبْكُوا۟﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾ خَبَرٌ عَنْ حَالِهِمْ، بِصِيغَةِ الْأَمْرِ. ﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾ رَدَّكَ ﴿ٱللَّهُ﴾ مِنْ تَبُوكَ ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ مِمَّنْ تَخَلَّفَ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ مَعَكَ إِلَى غَزْوَةٍ أُخْرَى ﴿فَقُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟

ضعيف الجامع الصغير ومقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ... وقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين ... قلت: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم، إلا أن قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقا من قبل، إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقا ثبتوا عليه إلى الممات.

(١) وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليما. [ابن كثير (٤/ ١٨٨)].

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٦).

(٣) هو نفس الحديث السابق برقم (١٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٤٠٠).

مَعِىَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْغَزْوِ، مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَغَيْرِهِمْ. وَلَمَّا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ نَزَلَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ﴾ لِدَفْنٍ، أَوْ زِيَارَةٍ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ كَافِرُونَ. ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ﴾ تَخْرُجَ ﴿أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أَيْ: طَائِفَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿أَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ ذَوُو الْغِنَى ﴿مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ جَمْعُ «خَالِفَةٍ»، أَيِ: النِّسَاءِ اللَّاتِي تَخَلَّفْنَ فِي الْبُيُوتِ ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ الْخَيْرَ. ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أَيِ: الْفَائِزُونَ. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّالِ، أَيِ: «الْمُعْتَذِرُونَ»، بِمَعْنَى: الْمَعْذُورِينَ، وَقُرِئَ بِهِ[1] ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ فِي الْقُعُودِ لِعُذْرِهِمْ، فَأَذِنَ لَهُمْ ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ فِي ادِّعَاءِ الْإِيمَانِ مِنْ مُنَافِقِي الْأَعْرَابِ عَنِ الْمَجِيءِ لِلِاعْتِذَارِ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ كَالشُّيُوخِ ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ كَالْعُمْيِ وَالزَّمْنَى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ فِي الْجِهَادِ ﴿حَرَجٌ﴾ إِثْمٌ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهُ ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ فِي حَالِ قُعُودِهِمْ، بِعَدَمِ الْإِرْجَافِ وَالتَّثْبِيطِ وَالطَّاعَةِ ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بِذَلِكَ ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾ طَرِيقٍ بِالْمُؤَاخَذَةِ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ بِهِمْ فِي التَّوْسِعَةِ فِي ذَلِكَ. ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ مَعَكَ إِلَى الْغَزْوِ، وَهُمْ سَبْعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَقِيلَ بَنُو مُقَرِّنٍ ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حَالٌ ﴿تَوَلَّواْ﴾ جَوَابُ ﴿إِذَا﴾، أَيِ: انْصَرَفُوا ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تَسِيلُ ﴿مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ لِأَجْلِ ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فِي الْجِهَادِ[2]. ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ فِي التَّخَلُّفِ ﴿وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ. ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ فِي التَّخَلُّفِ

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) قال السيوطي في «الإكليل»: في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ إلخ رفع الجهاد عن الضعيف والمريض، ومن لا يجد نفقة ولا أهبة للجهاد ولا محملا. [القاسمي (٥/ ٤٧٨)]. قال ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا سِرْتُمْ مَسِيرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ». أخرجه البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١).

﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ الْغَزْوِ ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ نُصَدِّقَكُمْ ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أَيْ: أَخبَرَنَا بِأَحْوالِكُمْ ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أَيِ: اللهِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٩٤﴾ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ رَجَعْتُمْ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ مِنْ تَبُوكَ، أَنَّهُمْ مَعْذُورُونَ فِي التَّخَلُّفِ ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ بِتَرْكِ الْمُعَاتَبَةِ ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ قَذَرٌ لِخُبْثِ بَاطِنِهِمْ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٩٦﴾ أَيْ: عَنْهُمْ، وَلَا يَنْفَعُ رِضَاكُمْ مَعَ سَخَطِ اللهِ. ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أَهْلُ الْبَدْوِ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أَهْلِ الْمُدُنِ؛ لِجَفَائِهِمْ، وَغِلَظِ طِبَاعِهِمْ، وَبُعْدِهِمْ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أَوْلَى ﴿أَن﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿لَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ ٩٧﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿مَغْرَمًا﴾ غَرَامَةً وَخُسْرَانًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَرْجُو ثَوَابَهُ بَلْ يُنْفِقُهُ خَوْفًا، وَهُمْ بَنُو أَسَدٍ وَغَطَفَانُ ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ يَنْتَظِرُ ﴿بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ دَوَائِرَ الزَّمَانِ أَنْ تَنْقَلِبَ عَلَيْكُمْ، فَيَتَخَلَّصَ ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ، أَيْ: يَدُورُ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ عَلَيْهِمْ، لَا عَلَيْكُمْ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿عَلِيمٌ ٩٨﴾ بِأَفْعَالِهِمْ. ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ كَجُهَيْنَةَ وَمُزَيْنَةَ ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ تُقَرِّبُهُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَ﴾ وَسِيلَةً إِلَى ﴿صَلَوَٰتِ﴾ دَعَوَاتِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ لَهُ ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾ أَيْ: نَفَقَتُهُمْ ﴿قُرْبَةٌ﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِهَا ﴿لَّهُمْ﴾ عِنْدَهُ ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ جَنَّتِهِ(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ﴿رَّحِيمٌ ٩٩﴾ بِهِمْ. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ وَهُمْ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، أَوْ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ فِي الْعَمَلِ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بِثَوَابِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِزِيَادَةِ «مِنْ» ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ١٠٠ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ كَأَسْلَمَ وَأَشْجَعَ وَغِفَارٍ ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ مُنَافِقُونَ أَيْضًا ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ لَجُّوا فِيهِ وَاسْتَمَرُّوا ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بِالْفَضِيحَةِ، أَوِ الْقَتْلِ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْقَبْرِ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَىٰ

(١) في جملة عباده الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباده برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات. [السعدي (ص:٣٤٩)].

عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ هُوَ النَّارُ. ﴿وَ﴾ قَوْمٌ ﴿ءَاخَرُونَ﴾ مُبْتَدأٌ ﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ مِنَ التَّخَلُّفِ، نَعْتُهُ وَالْخَبَرُ: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وَهُوَ جِهَادُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ أَوِ اعْتِرَافُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وَهُوَ تَخَلُّفُهُمْ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ وَجَمَاعَةٍ، أَوْثَقُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَوَارِي الْمَسْجِدِ لَمَّا بَلَغَهُمْ مَا نَزَلَ فِي الْمُتَخَلِّفِينَ، وَحَلَفُوا لَا يُحِلُّهُمْ إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ، فَحَلَّهُمْ لَمَّا نَزَلَتْ[1]. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فَأَخَذَ ثُلُثَ أَمْوَالِهِمْ وَتَصَدَّقَ بِهَا ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ﴾ أَيِ: ادْعُ لَهُمْ ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ﴾ رَحْمَةٌ ﴿لَّهُمْۗ﴾ وَقِيلَ: طُمَأْنِينَةٌ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ﴾ يَقْبَلُ ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ عَلَى عِبَادِهِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ بِهِمْ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ وَالْقَصْدُ بِهِ هُوَ تَهْيِيجُهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالصَّدَقَةِ. ﴿وَقُلِ﴾ لَهُمْ أَوْ لِلنَّاسِ: ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ مَا شِئْتُمْ ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أَيِ: اللهِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ، مُؤَخَّرُونَ عَنِ التَّوْبَةِ ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بِأَنْ يُمِيتَهُمْ بِلَا تَوْبَةٍ ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ، وَهُمُ الثَّلَاثَةُ الْآتُونَ بَعْدُ: مَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ، تَخَلَّفُوا كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَى الدَّعَةِ لَا نِفَاقًا، وَلَمْ يَعْتَذِرُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَغَيْرِهِمْ، فَوَقَفَ أَمْرُهُمْ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَهَجَرَهُمُ النَّاسُ، حَتَّى نَزَلَتْ تَوْبَتُهُمْ بَعْدُ. ﴿وَ﴾ مِنْهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾ وَهُمُ اثْنَا عَشَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ضِرَارًا﴾ مُضَارَّةً لِأَهْلِ مَسْجِدِ قُبَاءَ ﴿وَكُفْرًا﴾؛ لِأَنَّهُمْ بَنَوْهُ بِأَمْرِ أَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ لِيَكُونَ مَعْقِلًا لَهُ، يَقْدُمُ فِيهِ مَنْ يَأْتِي مِنْ عِنْدِهِ، وَكَانَ ذَهَبَ لِيَأْتِيَ بِجُنُودٍ مِنْ قَيْصَرَ لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الَّذِينَ يُصَلُّونَ بِقُبَاءَ، بِصَلَاةِ بَعْضِهِمْ فِي

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي ﷺ إذا رجع عليهم، فلما رآهم قال: «مَنْ هَؤُلَاءِ الْمُوثِقُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي»، قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تطلقهم وتعذرهم قال: «وَأَنَا أُقْسِمُ بِاللهِ لَا أُطْلِقُهُمْ وَلَا أَعْذِرُهُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ: رَغِبُوا عَنِّي، وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ»، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فنزلت ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٢٧١ - ٢٧٢)، والطبري في تفسيره (١١/ ٦٥١). وقيل الآية تعم جميع المسلمين، والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصاً بمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وروى الطبراني عن أبي عثمان قال: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية. [الخازن (٢/ ٤٠٢)].

مَسْجِدِهِمْ ﴿وَإِرْصَادًا﴾ تَرَقُّبًا ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾ أَيْ: قَبْلَ بِنَائِهِ، وَهُوَ أَبُو عَامِرٍ الْمَذْكُورُ ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ﴾ مَا ﴿أَرَدْنَآ﴾ بِبِنَائِهِ ﴿إِلَّا﴾ الْفِعْلَةَ ﴿ٱلْحُسْنَىٰۖ﴾ مِنَ الرِّفْقِ بِالْمِسْكِينِ فِي الْمَطَرِ وَالْحَرِّ وَالتَّوْسِعَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾ فِي ذَلِكَ. وَكَانُوا سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، فَنَزَلَ: ﴿لَا تَقُمْ﴾ تُصَلِّ ﴿فِيهِ أَبَدًاۚ﴾ فَأَرْسَلَ جَمَاعَةً هَدَمُوهُ وَحَرَّقُوهُ وَجَعَلُوا مَكَانَهُ كُنَاسَةً تُلْقَى فِيهَا الْجِيَفُ ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ بُنِيَتْ قَوَاعِدُهُ ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ وُضِعَ، يَوْمَ حَلَلْتَ بِدَارِ الْهِجْرَةِ، وَهُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ(١) ﴿أَحَقُّ﴾ مِنْهُ ﴿أَن﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿تَقُومَ﴾ تُصَلِّيَ ﴿فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ﴾ هُمُ الْأَنْصَارُ ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ أَيْ: يُثِيبُهُمْ(٢)، فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الطَّاءِ، رَوَى ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُوَيْمِرِ بْنِ سَاعِدَةَ أَنَّهُ ﷺ أَتَاهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمُ الثَّنَاءَ فِي الطُّهُورِ فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ فَمَا هَذَا الطُّهُورُ الَّذِي تَطَّهَّرُونَ بِهِ؟» قَالُوا: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَعْلَمُ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَانٌ مِنَ الْيَهُودِ وَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَدْبَارَهُمْ مِنَ الْغَائِطِ فَغَسَلْنَا كَمَا غَسَلُوا(٣). وَفِي حَدِيثٍ رَوَاهُ الْبَزَّارُ: فَقَالُوا نَتْبَعُ الْحِجَارَةَ بِالْمَاءِ، فَقَالَ: «هُوَ ذَاكَ فَعَلَيْكُمُوهُ»(٤). ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ﴾ مَخَافَةٍ ﴿مِنَ ٱللَّهِ وَ﴾ رَجَاءِ ﴿رِضْوَٰنٍ﴾ مِنْهُ ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ طَرَفِ ﴿جُرُفٍ﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِهَا جَانِبٍ ﴿هَارٍ﴾ مُشْرِفٍ عَلَى السُّقُوطِ ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ سَقَطَ مَعَ بَانِيهِ ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ خَيْرٌ؟ تَمْثِيلٌ لِلْبِنَاءِ عَلَى ضِدِّ التَّقْوَى بِمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَيْ: الْأَوَّلُ خَيْرٌ وَهُوَ مِثَالُ مَسْجِدِ قُبَاءَ، وَالثَّانِي مِثَالُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً﴾ شَكًّا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ تَنْفَصِلَ ﴿قُلُوبُهُمْۗ﴾ بِأَنْ يَمُوتُوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ ١١٠﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿*إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) مذهب أهل السنة والجماعة أن الله يُحِبُّ ويُحَبُّ حقيقة، كما قال سبحانه وتعالى في القوم الذين أثنى عليهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة ٥٤]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران ٣١] ... ومن التأويل المذموم الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره بغير حجة توجب ذلك. هذه التأويلات المبنية على أن الله تعالى لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ حقيقة، وهذا عين ما تقوله الجهمية. وأما الأشاعرة فينفون المحبة من جهة الله تعالى، وأهل التأويل منهم يفسرونها بالإرادة أو الإثابة. وأما المحبة من جهة العبد، فمنهم من يثبتها كما ذكر عن المازري، ومنهم من يتأولها كما ذكر عن ابن التين. [البراك في التعليق على فتح الباري (١٣/ ٣٥٧)].

(٣) أخرجه أحمد (١٥٤٨٥)، وابن خزيمة (٨٣)، والحاكم (١/ ١٥٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٥٥)، والدارقطني (١/ ٦٢)، والحاكم (١/ ٥٥).

ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ بِأَنْ يَبْذُلُوهَا فِي طَاعَتِهِ كَالْجِهَادِ ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ جُمْلَةُ اِسْتِئْنَافٍ بَيَانٌ لِلشِّرَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَقْدِيمِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، أَيْ: فَيُقْتَلُ بَعْضُهُمْ، وَيُقَاتِلُ الْبَاقِي ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مَصْدَرَانِ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا الْمَحْذُوفِ ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَوْفَى مِنْهُ ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ فِيهِ اِلْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ﴾ الْبَيْعُ ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ الْمُنِيلُ غَايَةَ الْمَطْلُوبِ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ رُفِعَ عَلَى الْمَدْحِ بِتَقْدِيرِ مُبْتَدَأٍ، مِنَ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الْمُخْلِصُونَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصَّائِمُونَ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ أَيِ: الْمُصَلُّونَ ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ لِأَحْكَامِهِ بِالْعَمَلِ بِهَا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ بِالْجَنَّةِ. وَنَزَلَ فِي اِسْتِغْفَارِهِ ﷺ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَاسْتِغْفَارِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ لِأَبَوَيْهِ الْمُشْرِكَيْنِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ ذَوِي قَرَابَةٍ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ النَّارِ، بِأَنْ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ. ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ بِقَوْلِهِ: «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي»، رَجَاءَ أَنْ يُسْلِمَ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بِمَوْتِهِ عَلَى الْكُفْرِ ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وَتَرَكَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ كَثِيرُ التَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ ﴿حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ صَبُورٌ عَلَى الْأَذَى. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ لِلْإِسْلَامِ ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ مِنَ الْعَمَلِ، فَلَا يَتَّقُوهُ فَيَسْتَحِقُّوا الْإِضْلَالَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ وَمِنْهُ مُسْتَحِقُّ الْإِضْلَالِ وَالْهِدَايَةِ(١). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يَحْفَظُكُمْ مِنْهُ ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ يَمْنَعُكُمْ عَنْ ضَرَرِهِ. ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: أَدَامَ تَوْبَتَهُ ﴿عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أَيْ: وَقْتَهَا، وَهِيَ حَالُهُمْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، كَانَ الرَّجُلَانِ يَقْتَسِمَانِ تَمْرَةً، وَالْعَشَرَةُ

---

(١) هذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدا قط إلا بعد هذا البيان. وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] فالأول: كفر عناد، والثاني: كفر طبع، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له. [مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٦٦)].

يَعْتَقِبُونَ الْبَعِيرَ الْوَاحِدَ، وَاشْتَدَّ الْحَرُّ حَتَّى شَرِبُوا الْفَرْثَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ تَمِيلُ ﴿قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ﴾ عَنِ اتِّبَاعِهِ إِلَى التَّخَلُّفِ، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّدَّةِ ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ﴾ بِالثَّبَاتِ ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧ وَ﴾ تَابَ ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عَنِ التَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ بِقَرِينَةِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أَيْ: مَعَ رَحْبِهَا، أَيْ: سِعَتِهَا، فَلَا يَجِدُونَ مَكَانًا يَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قُلُوبُهُمْ، لِلْغَمِّ وَالْوَحْشَةِ بِتَأْخِيرِ تَوْبَتِهِمْ، فَلَا يَسَعُهَا سُرُورٌ وَلَا أُنْسٌ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أَيْقَنُوا ﴿أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ وَفَّقَهُمْ لِلتَّوْبَةِ ﴿لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُهُودِ، بِأَنْ تَلْزَمُوا الصِّدْقَ[1]. ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ إِذَا غَزَا ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ بِأَنْ يَصُونُوهَا عَمَّا رَضِيَهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ، وَهُوَ نَهْيٌ بِلَفْظِ الْخَبَرِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ النَّهْيُ عَنِ التَّخَلُّفِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٞ﴾ عَطَشٌ ﴿وَلَا نَصَبٞ﴾ تَعَبٌ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٞ﴾ جُوعٌ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئٗا﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: «وَطْئًا» ﴿يَغِيظُ﴾ يُغْضِبُ ﴿ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوّٖ﴾ لِلَّهِ ﴿نَّيْلًا﴾ قَتْلًا أَوْ أَسْرًا أَوْ نَهْبًا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ لِيُجَازَوْا عَلَيْهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠﴾ أَيْ: أَجْرَهُمْ بَلْ يُثِيبُهُمْ. ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ فِيهِ ﴿نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ﴾ وَلَوْ تَمْرَةً ﴿وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ بِالسَّيْرِ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢١﴾ أَيْ: جَزَاءَهُمْ. وَلَمَّا وُبِّخُوا عَلَى التَّخَلُّفِ وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً نَفَرُوا جَمِيعًا، فَنَزَلَ: ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ﴾

---

(١) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، تخلفوا عن غزوة تبوك، من غير عذر ومن غير نفاق ولا قصد للمخالفة، فلما رجع رسول الله ﷺ عتب عليهم، وأمر ألا يكلمهم أحد، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، فبقوا على ذلك مدة إلى أن أنزل الله توبتهم، وقد روي حديثهم في البخاري ومسلم والسير، ومعنى ﴿خُلِّفُواْ﴾ هنا: أي: عن الغزوة. وقال كعب بن مالك معناه: خُلفوا عن قبول الضر وليس بالتخلف عن الغزو. يقوّي ذلك كونه جعل إذا ضاقت غاية للتخلف ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ عبارة عما أصابه من الغم والخوف من الله ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ أي: رجع بهم ليستقيموا على التوبة، ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يحتمل أن يريد صدق اللسان إذا كانوا هؤلاء الثلاثة قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب، فنفعهم الله بذلك، ويحتمل أن يريد أعم من صدق اللسان، وهو الصدق في الأقوال والأفعال والمقاصد والعزائم، والمراد بالصادقين: المهاجرون لقول الله في الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨]، إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ وقد احتج بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه على الأنصار يوم السقيفة، فقال: نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا، أي: تابعين لنا. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٤٩)].

إِلَى الْغَزْوِ ﴿كَآفَّةً فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ قَبِيلَةٍ ﴿مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ، وَمَكَثَ الْبَاقُونَ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ أَيِ: الْمَاكِثُونَ ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ الْغَزْوِ بِتَعْلِيمِهِمْ مَا تَعَلَّمُوهُ مِنَ الْأَحْكَامِ[1] ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ عِقَابَ اللهِ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَهَذِهِ مَخْصُوصَةٌ بِالسَّرَايَا، وَالَّتِي قَبْلَهَا بِالنَّهْيِ عَنْ تَخَلُّفِ وَاحِدٍ فِيمَا إِذَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ[2]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ أَيِ: الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ مِنْهُمْ[3] ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شِدَّةً، أَيْ: أَغْلِظُوا عَلَيْهِمْ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ. ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿فَمِنْهُم﴾ أَيِ: الْمُنَافِقِينَ ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لِأَصْحَابِهِ اسْتِهْزَاءً: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ تَصْدِيقًا؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لِتَصْدِيقِهِمْ بِهَا ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ يَفْرَحُونَ بِهَا. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضَعْفُ اعْتِقَادٍ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ؛ لِكُفْرِهِمْ بِهَا ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بِالْيَاءِ، أَيِ: الْمُنَافِقُونَ، وَالتَّاءِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يُبْتَلَوْنَ ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بِالْقَحْطِ وَالْأَمْرَاضِ ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ مِنْ نِفَاقِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ يَتَّعِظُونَ. ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فِيهَا ذِكْرُهُمْ وَقَرَأَهَا النَّبِيُّ ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يُرِيدُونَ الْهَرَبَ يَقُولُونَ: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ إِذَا قُمْتُمْ؟ فَإِنْ لَمْ يَرَهُمْ أَحَدٌ قَامُوا، وَإِلَّا ثَبَتُوا ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ عَلَى كُفْرِهِمْ ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عَنِ الْهُدَى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ الْحَقَّ لِعَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾

---

(١) قال السيوطي في «الإكليل»: في الآية أن الجهاد فرض كفاية، وأن التفقه في الدين، ونشر العلم، وتعليم الجاهلين كذلك، وفيها الرحلة في طلب العلم. [القاسمي (٥/ ٥٢٩)].

(٢) والقول الثاني: أن النبي كما دعا على مضر، وقال: «اَللَّهُمَّ اجْعَلْ سِنِيهُم كَسِنِي يُوسُفَ». أخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، قال: فأصابهم قحط شديد وجدب، فجعلت القبيلة تقبل إلى المدينة بأجمعهم ويقولون: أسلمنا، فكانوا يضيقون على أهل المدينة منازلهم ويلوثون الطرقات، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فردهم رسول الله إلى قبائلهم. [السمعاني (٢/ ٣٥٩)].

(٣) نقل عن بعض العلماء أنه قال أنزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] صارت ناسخة لهذه الآية. وقال المحققون من العلماء: ولا وجه للنسخ فإنه تعالى أمرهم بقتالهم كافة وأرشدهم الطريق الأصوب الأصلح وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب قرباً مكانياً لا قرباً نسبياً حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد، وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور، ولهذا السبب قد قاتل رسول الله ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم إلى قتال أهل الكتاب، وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك، ثم انتقل إلى غزو الروم والشام فكان فتحه في زمن الصحابة ثم أنهم انتقلوا إلى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب أولاً تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد. [الخازن (٢/ ٤٢٣)].

أَيْ: مِنْكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿عَزِيزٌ﴾ شَدِيدٌ ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَيْ: عَنَتُكُمْ، أَيْ: مَشَقَّتُكُمْ، وَلِقَاؤُكُمُ الْمَكْرُوهَ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أَنْ تَهْتَدُوا ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾ شَدِيدُ الرَّحْمَةِ ﴿رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ يُرِيدُ لَهُمُ الْخَيْرَ. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ﴾ كَافِيَّ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ بِهِ وَثِقْتُ لَا بِغَيْرِهِ ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ﴾ الْكُرْسِيِّ[1] ﴿ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾ خَصَّهُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ[2].

---

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وقد رويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته وقدره، وقال السيوطي: الكرسي، قال الصاوي: قوله الكرسي مرور على القول باتحاد العرش مع الكرسي، وهو خلاف الصحيح أن العرش غير الكرسي. اهـ وعبارة الخازن: اعترض بعضهم على هذا التفسير بأن العرش غير الكرسي وأن الكرسي أصغر من العرش فكيف يفسر به، وهو مدفوع بأن المسألة خلافية والمشهور ما سمعته؛ وقيل: إنهما اسمان لشيء واحد فالعرش والكرسي معناهما الجسم العظيم المحيط بجميع المخلوقات المسمى بالعرش على القول المشهور. أ. هـ. [صديق حسن (٥/ ٤٣٣)]. والصواب: أن الكرسي مخلوق آخر غير العرش، فالعرش فوق المخلوقات سواء كان محيطا بالأفلاك أو غير ذلك، وهو فوق الكرسي، والكرسي فوق الأفلاك كلها، ونسبة الأفلاك وما فيها إلى الكرسي كحلقة في فلاة، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، إذن العرش أعظم المخلوقات، ثم يليه في العظم الكرسي، وهو مخلوق عظيم، قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله: هذا الذي عرفناه عن ابن عباس رضي الله عنهما صحيحا مشهورا، فالكرسي مخلوق عظيم، وهو موضع القدمين لله سبحانه كما روى ابن أبي شيبة والحاكم، وقال: على شرط الشيخين، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أنه قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ». أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٣٩٩) وهو منقطع وقد جاء موصولا من طريق ابن أبي شيبة في صفة العرش (٥٨). [شرح العقيدة الطحاوية لعبد العزيز الراجحي (ص: ٢٠٠)].

(٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية نزلت ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ... وحاول بعضهم التوفيق بين هذه الروايات بما لا يخلو عن كدر، وفي هذه الآية إشكال مشهور في كتب الحديث. [صديق حسن (٥/ ٤٣٤)].

سُورَةُ يُونُس

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ اَلْآيَتَيْنِ أَوْ اَلثَّلَاثِ، أَوْ ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ اَلْآيَةِ، مِائَةٌ وَتِسْعُ أَوْ عَشْرُ آيَاتٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ(١) ﴿تِلْكَ﴾ أَيْ: هَذِهِ اَلْآيَاتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اَلْقُرْآنِ وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «مِنْ» ﴿ٱلْحَكِيمِ ①﴾ اَلْمُحْكَمِ. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّةَ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿عَجَبًا﴾ بِالنَّصْبِ خَبَرُ «كَانَ»، وَبِالرَّفْعِ اِسْمُهَا(٢)، وَالْخَبَرُ وَهُوَ اِسْمُهَا عَلَى اَلْأُولَى: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ أَيْ: إِيحَاؤُنَا ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿أَنْ﴾ مُفَسِّرَةٌ ﴿أَنذِرِ﴾ خَوِّفْ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اَلْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ﴾ أَيْ: بِأَنَّ ﴿لَهُمْ قَدَمَ﴾ سَلَفَ ﴿صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ أَيْ: أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوهُ مِنَ اَلْأَعْمَالِ ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا﴾ اَلْقُرْآنَ اَلْمُشْتَمِلَ عَلَى ذَلِكَ ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ②﴾ بَيِّنٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ اَلنَّبِيُّ ﷺ. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِنْ أَيَّامِ اَلدُّنْيَا، أَيْ: فِي قَدْرِهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لَمْحَةٍ، وَالْعُدُولُ عَنْهُ لِتَعْلِيمِ خَلْقِهِ اَلتَّثَبُّتَ(٣) ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ اِسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ(٤) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ﴾ بَيْنَ اَلْخَلَائِقِ ﴿مَا مِن﴾ صِلَةٌ ﴿شَفِيعٍ﴾ يَشْفَعُ لِأَحَدٍ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ﴾ رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ اَلْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ(٥) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ اَلْخَالِقُ اَلْمُدَبِّرُ ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾ بِإِدْغَامِ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلذَّالِ(٦). ﴿إِلَيْهِ﴾ تَعَالَى ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ مَصْدَرَانِ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا اَلْمُقَدَّرِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ بِالْكَسْرِ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) قراءة شاذة.

(٣) ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة. [السعدي (ص:٣٥٧)].

(٤) قال أبو العالية: استوى إلى السماء: ارتفع، وقال مجاهد: استوى على العرش علا، أي: بلا تمثيل ولا تكييف. [القاسمي (٦/ ٦)].

(٥) فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له. [السعدي (ص:٣٥٧)].

(٦) أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]. [ابن كثير (٤/ ٢٤٧)].

اِسْتِئْنَافًا، وَالْفَتْحِ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أَيْ: بَدَأَهُ بِالْإِنْشَاءِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿لِيَجْزِىَ﴾ يُثِيبَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مَاءٍ بَالِغٍ نِهَايَةَ الْحَرَارَةِ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ مُؤْلِمٌ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ أَيْ: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ. ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ ذَاتَ ضِيَاءٍ، أَيْ: نُورٍ[1] ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ﴾ مِنْ حَيْثُ سَيْرُهُ ﴿مَنَازِلَ﴾ ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ مَنْزِلًا فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَيَسْتَتِرُ لَيْلَتَيْنِ إِنْ كَانَ الشَّهْرُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَوْ لَيْلَةً إِنْ كَانَ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾ بِذَلِكَ[2] ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورَ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ لَا عَبَثًا، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ﴿يُفَصِّلُ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ، يُبَيِّنُ ﴿ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ، وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ وَنُجُومٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَ﴾ فِي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِنْ حَيَوَانٍ وَجِبَالٍ وَبِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَغَيْرِهَا ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ ـهُ فَيُؤْمِنُونَ، خَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بِالْبَعْثِ ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بَدَلَ الْآخِرَةِ لِإِنْكَارِهِمْ لَهَا ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ سَكَنُوا إِلَيْهَا ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ تَارِكُونَ النَّظَرَ فِيهَا. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ﴾ يُرْشِدُهُمْ ﴿رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ﴾ بِهِ بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نُورًا يَهْتَدُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ طَلَبُهُمْ يَشْتَهُونَهُ فِي الْجَنَّةِ أَنْ يَقُولُوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أَيْ: يَا اللهُ فَإِذَا مَا طَلَبُوهُ وَجَدُوهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ[3] ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ﴾ مُفَسِّرَةٌ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾. وَنَزَلَ لَمَّا اسْتَعْجَلَ الْمُشْرِكُونَ الْعَذَابَ: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ أَيْ: كَاسْتِعْجَالِهِمْ ﴿بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَلِلْفَاعِلِ ﴿إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، بِأَنْ يُهْلِكَهُمْ وَلَكِنْ

---

(١) الضياء ما كان بالذات والنور ما كان بالعرض، فما قام بالشمس يقال له ضياء وما قام بالقمر يقال له نور. ومن هنا قال الحكماء إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس. [الشوكاني (٢/ ٤٨٣)].

(٢) قال السيوطي: هذه الآية أصل في علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ. [القاسمي (٦/ ٧)].

(٣) أي: عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائض، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألذ عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النَّفَس، من دون كلفة ومشقة. [السعدي (ص:٣٥٨)].

يُمْهِلُهُمْ ﴿فَنَذَرُ﴾ نَتْرُك ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ يَتَرَدَّدُونَ مُتَحَيِّرِينَ. ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ الْكَافِرَ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ الْمَرَضُ، وَالْفَقْرُ ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أَيْ: مُضْطَجِعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أَيْ: فِي كُلِّ حَالٍ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ عَلَى كُفْرِهِ ﴿كَأَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: كَأَنَّهُ ﴿لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا زُيِّنَ لَهُ الدُّعَاءُ عِنْدَ الضَّرِرِ، وَالإِعْرَاضُ عِنْدَ الرَّخَاءِ ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ الْمُشْرِكِينَ ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ الْأُمَمَ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ بِالشِّرْكِ ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْۚ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿ظَلَمُواْ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا أَهْلَكْنَا أُولَئِكَ ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿خَلَـٰٓئِفَ﴾ جَمْعُ خَلِيفَةٍ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ فِيهَا، وَهَلْ تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ فَتُصَدِّقُوا رُسُلَنَا. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ ظَاهِرَاتٍ، حَالٌ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لَا يَخَافُونَ الْبَعْثَ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ﴾ لَيْسَ فِيهِ عَيْبُ آلِهَتِنَا ﴿أَوْ بَدِّلْهُۚ﴾ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَا يَكُونُ﴾ يَنْبَغِي ﴿لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ﴾ قِبَلِ ﴿نَفْسِىٓۖ إِنْ﴾ مَا ﴿أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بِتَبْدِيلِهِ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم﴾ أَعْلَمَكُمْ ﴿بِهِۦۖ﴾ وَ«لَا» نَافِيَةٌ، عَطْفٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِلَامِ جَوَابِ ﴿لَّوْ﴾[1]، أَيْ: لَأُعْلِمَكُمْ بِهِ عَلَى لِسَانِ غَيْرِي ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ﴾ مَكَثْتُ ﴿فِيكُمْ عُمُرًا﴾ سِنِينًا أَرْبَعِينَ ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓۚ﴾ لَا أُحَدِّثُكُمْ بِشَيْءٍ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قِبَلِي. ﴿فَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓۚ﴾ الْقُرْآنِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الشَّأْنَ ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ يَسْعَدُ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ الْمُشْرِكُونَ. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إِنْ عَبَدُوهُ، وَهُوَ الْأَصْنَامُ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عَنْهَا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ تُخْبِرُونَهُ ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ شَرِيكٌ لَعَلِمَهُ، إِذْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ ـهُ مَعَهُ. ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى نُوحٍ، وَقِيلَ: مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عَمْرِو بْنِ لُحَيٍّ ﴿فَٱخْتَلَفُواْۚ﴾ بِأَنْ ثَبَتَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ الْجَزَاءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيِ: النَّاسِ فِي الدُّنْيَا

---

(١) أي: قراءة البزي عن ابن كثير ﴿وَلَأَدْرَىٰكُم﴾.

﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٩﴾ مِنَ الدِّينِ، بِتَعْذِيبِ الْكَافِرِينَ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كَمَا كَانَ لِلأَنْبِيَاءِ، مِنَ النَّاقَةِ وَالْعَصَا وَالْيَدِ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ﴾ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ، أَيْ: أَمْرُهُ ﴿لِلَّهِ﴾ وَمِنْهُ الْآيَاتُ فَلا يَأْتِي بِهَا إِلَّا هُوَ، وَإِنَّمَا عَلَيَّ التَّبْلِيغُ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ الْعَذَابَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٢٠ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿رَحْمَةً﴾ مَطَرًا وَخِصْبًا ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ بُؤْسٍ وَجَدْبٍ ﴿مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ بِالِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ مُجَازَاةً[(١)] ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الْحَفَظَةَ ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَنشُرُكُمْ﴾، ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السُّفُنِ ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لَيِّنَةٍ ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ، تَكْسِرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أَيْ: أُهْلِكُوا ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الدُّعَاءَ ﴿لَئِنْ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الْأَهْوَالِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾ الْمُوَحِّدِينَ. ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بِالشِّرْكِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ ظُلْمُكُمْ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾؛ لِأَنَّ إِثْمَهُ عَلَيْهَا، هُوَ ﴿مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تُمَتَّعُونَ فِيهَا قَلِيلًا ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣﴾ فَنُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَصْبِ ﴿مَّتَـٰعَ﴾ أَيْ: تَتَمَتَّعُونَ. ﴿إِنَّمَا مَثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ﴾ مَطَرٍ ﴿أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ بِسَبَبِهِ ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ وَاشْتَبَكَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ مِنَ الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ مِنَ الْكَلَأِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ بَهْجَتَهَا مِنَ النَّبَاتِ ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ بِالزَّهْرِ، وَأَصْلُهُ «تَزَيَّنَتْ» أُبْدِلَتِ التَّاءُ زَايًا، وَأُدْغِمَتْ فِي الزَّايِ ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ مُتَمَكِّنُونَ مِنْ تَحْصِيلِ ثِمَارِهَا ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ قَضَاؤُنَا، أَيْ: عَذَابُنَا ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا﴾ أَيْ: زَرْعَهَا ﴿حَصِيدًا﴾ كَالْمَحْصُودِ بِالْمَنَاجِلِ[(٢)] ﴿كَأَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: كَأَنَّهَا ﴿لَّمْ تَغْنَ﴾ تَكُنْ ﴿بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

---

(١) قال مقاتل: لا يقولون هذا رزق الله إنما يقولون سقينا بنوء كذا وكذا. [الواحدي (١١/ ١٥٥)]. أي: ... الله عز وجل أسرع مكراً منكم فسوف يريكم عاقبة مكره بكم وهي إذلالكم وخزيكم في الدنيا وعذابكم في الآخرة إن متم على كفركم، وقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تقرير لما أعلمهم به من مكر الله تعالى بهم إذ كتابة الملائكة ما يمكرون دليل على تبييت الله تعالى لهم المكروه الذي يريد أن يجازيهم به على مكرهم. [أبو بكر الجزائري (٢/ ٤٦١)].

(٢) ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للدنيا بالنبات الناعم المختلط بعضه ببعض، وعما قليل ييبس، ويكون حصيدا يابسا كأنه

﴿٢٤﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: السَّلامَةِ وهِيَ الْجَنَّةُ، بالدُّعاءِ إِلَى الْإِيمانِ ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ هِدايَتَهُ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ دِينِ الْإِسْلامِ. ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ بالإيمانِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الْجَنَّةُ ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ هِيَ: النَّظَرُ إِلَيْهِ تَعالَى، كَمَا فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ[1] ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ يَغْشَى ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٞ﴾ سَوادٌ ﴿وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ كَآبَةٌ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ﴾ عطفٌ عَلَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ أَيْ: ولِلَّذِينَ ﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عَمِلُوا الشِّرْكَ ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ﴾ زائِدَةٌ ﴿عَاصِمٖۖ﴾ مانِعٍ ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ أُلْبِسَتْ ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعٗا﴾ بِفَتْحِ الطَّاءِ جَمْعُ قِطْعَةٍ وإِسْكانِها، أَيْ: جُزْءًا ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَ﴾ واذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أَيِ: الْخَلْقَ ﴿جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ﴾ نُصِبَ بِـ «الْزَمُوا» مُقَدَّرًا ﴿أَنتُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ الْمُسْتَتِرِ فِي الْفِعْلِ الْمُقَدَّرِ؛ لِيَعْطِفَ عَلَيْهِ ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْۚ﴾ أَيِ: الْأَصْنامُ ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ مَيَّزْنا ﴿بَيْنَهُمْۖ﴾ وبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا فِي آيَةِ: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ ﴿شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ﴿مَّا﴾ نافِيَةٌ، وقَدَّمَ الْمَفْعُولَ لِلْفاصِلَةِ. ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: إِنَّا ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْيَوْمَ ﴿تَبْلُواْ﴾ مِنَ الْبَلْوَى، وفِي قِراءَةٍ: بِتاءَيْنِ مِنَ التِّلاوَةِ ﴿كُلُّ نَفْسٖ مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾ قَدَّمَتْ مِنَ الْعَمَلِ ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ﴾ الثَّابِتِ الدَّائِمِ ﴿وَضَلَّ﴾ غابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ عَلَيْهِ مِنَ الشُّرَكاءِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بِالنَّباتِ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ﴾ بِمَعْنَى الْأَسْماعِ، أَيْ: خَلْقَها ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

لم يكن قط، وضرب لها أيضا المثل المذكور في «الكهف» في قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمٗا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وأشار لهذا المثل بقوله في «الزمر»: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرّٗا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله في «الحديد»: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: ٢٠]. والتشبيه في الآيات المذكورة عند البلاغيين من التشبيه المركب؛ لأن وجه الشبه صورة منتزعة من أشياء، وهو كون كل من المشبه والمشبه به يمكث ما شاء الله، وهو في إقبال وكمال، ثم عما قليل يضمحل ويزول، والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٢/ ٥٦٤)].

(١) عن صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه مسلم (١٨١).

ﭐلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ بَيْنَ الْخَلَائِقِ؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ هُوَ ﴿ٱللَّهُۚ فَقُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ هُ فَتُؤْمِنُونَ. ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الْفَاعِلُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ الثَّابِتُ ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ، أَيْ: لَيْسَ بَعْدَهُ غَيْرُهُ، فَمَنْ أَخْطَأَ الْحَقَّ وَهُوَ عِبَادَةُ اللهِ، وَقَعَ فِي الضَّلَالِ ﴿فَأَنَّىٰ﴾ كَيْفَ ﴿تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ عَنِ الْإِيمَانِ مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا صَرَفَ هَؤُلَاءِ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ كَفَرُوا، وَهِيَ: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] الْآيَةَ، أَوْ هِيَ ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣٤﴾ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ مَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ. ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾ بِنَصْبِ الْحُجَجِ، وَخَلْقِ الِاهْتِدَاءِ[1] ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ وَهُوَ اللهُ ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ يَهْتَدِي ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ؟ اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ وَتَوْبِيخٍ[2]، أَيِ: الْأَوَّلُ أَحَقُّ ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾ هَذَا الْحُكْمَ الْفَاسِدَ، مِنِ اتِّبَاعِ مَا لَا يَحِقُّ اتِّبَاعُهُ. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ﴿إِلَّا ظَنًّاۚ﴾ حَيْثُ قَلَّدُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ فِيمَا الْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْعِلْمُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ﴾ أَيِ: افْتِرَاءً ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿وَلَٰكِن﴾ أُنْزِلَ ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾

(١) الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وقوله: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾ [الأعلى: ٢-٣]، وفعل الهداية يجيء متعدياً بـ «اللام» و«إلى» وهما بمعنى واحد، روى ذلك عن الزجاج. وقيل: كما يعدى بـ «إلى» لتضمنه معنى الانتهاء باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية والمعنى متقارب، وقد يحذف الحرف تخفيفاً وقد جمع بين المتعديين هنا بحرف الجر، فعدى الأول والثالث بـ «إلى» والثاني بـ «اللام» والتعدية بهذين الحرفين من باب التفنن في البلاغة، ولذلك قال الزمخشري: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين، والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد الباطل. ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين أمر الله رسوله ﷺ أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي له الإحاطة الكاملة ﴿يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ من يشاء دون غيره ممن زعمتموهم شركاء، ودليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات وإرساله للرسل وإنزاله للكتب، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام والأسماع والأبصار. [صديق حسن (٦/ ٥٩)].

(٢) فإن قيل: كيف قال: ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾ والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يهدى؟ قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تحمل وتنقل، يتبين به عجز الأصنام. وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر عمن يعلم ويعقل. [البغوي (٤/ ١٣٣)].

تَبْيِينَ مَا كَتَبَهُ اللهُ، مِنَ الْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا ﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿تَصْدِيقَ﴾ أَوْ بِـ «أُنْزِلَ» الْمَحْذُوفِ، وَقُرِئَ[1] بِرَفْعِ ﴿تَصْدِيقُ﴾ وَ﴿وَتَفْصِيلُ﴾ بِتَقْدِيرِ: «هُوَ» ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ اِخْتَلَقَهُ مُحَمَّدٌ؟ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ فِي الْفَصَاحَةِ، وَالْبَلَاغَةِ، عَلَى وَجْهِ الِافْتِرَاءِ، فَإِنَّكُمْ عَرَبِيُّونَ فُصَحَاءُ مِثْلِي ﴿وَادْعُوا﴾ لِلْإِعَانَةِ عَلَيْهِ ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ فِي أَنَّهُ افْتِرَاءٌ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ وَلَمْ يَتَدَبَّرُوهُ ﴿وَلَمَّا﴾ لَمْ ﴿يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ عَاقِبَةُ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴿كَذَلِكَ﴾ التَّكْذِيبِ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلَهُمْ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، أَيْ: آخِرُ أَمْرِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ؟ فَكَذَلِكَ يَهْلِكُ هَؤُلَاءِ. ﴿وَمِنْهُم﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّةَ ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لِعِلْمِ اللهِ ذَلِكَ مِنْهُمْ ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أَبَدًا ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل﴾ لَهُمْ: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أَيْ: لِكُلٍّ جَزَاءُ عَمَلِهِ ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ[2]. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِمَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ مَعَ الصَّمَمِ ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدَمِ الِاهْتِدَاءِ بَلْ أَعْظَمُ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن﴾ أَيْ: كَأَنَّهُمْ ﴿لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ فِي الدُّنْيَا أَوِ الْقُبُورِ ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ لِهَوْلِ مَا رَأَوْا، وَجُمْلَةُ التَّشْبِيهِ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا بُعِثُوا، ثُمَّ يَنْقَطِعُ التَّعَارُفُ لِشِدَّةِ الْأَهْوَالِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَوْ مُتَعَلَّقُ الظَّرْفِ[3] ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) وقد قيل إن هذا منسوخ بآية السيف لما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم كما ذهب إليه جماعة من المفسرين منهم مقاتل والكلبي، وعن ابن زيد قال: أمره الله بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم. قال الرازي: وهو بعيد لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، بل هو باق فكان القول بالنسخ باطلاً. [صديق حسن (٦/ ٦٧)].

(٣) المراد باللبث هو اللبث في الدنيا، وقيل: في القبور، استقلوا المدة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة، أو لطول وقوفهم في المحشر، أو لشدة ما هم فيه من العذاب، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ومثل هذا

بِالْبَعْثِ ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝٤٥ وَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي حَيَاتِكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: فَذَاكَ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قَبْلَ تَعْذِيبِهِمْ ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مُطَّلِعٌ ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، فَيُعَذِّبُهُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَمِ ﴿رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُ ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ، فَيُعَذَّبُونَ وَيُنَجَّى الرَّسُولُ وَمَنْ صَدَّقَهُ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٤٧﴾ بِتَعْذِيبِهِمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ، فَكَذَلِكَ نَفْعَلُ بِهَؤُلَاءِ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾ فِيهِ. ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ أَدْفَعُهُ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ أَجْلِبُهُ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَنْ يُقْدِرَنِي عَلَيْهِ، فَكَيْفَ أَمْلِكُ لَكُمْ حُلُولَ الْعَذَابِ؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مُدَّةٌ مَعْلُومَةٌ لِهَلَاكِهِمْ ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾ يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهِ. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ أَيِ: اللهِ ﴿بَيَٰتًا﴾ لَيْلًا ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا﴾ أَيُّ شَيْءٍ ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ أَيِ: الْعَذَابِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠﴾ الْمُشْرِكُونَ؟ فِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، وَجُمْلَةُ الِاسْتِفْهَامِ جَوَابُ الشَّرْطِ؛ كَقَوْلِكَ: «إِنْ أَتَيْتُكَ مَاذَا تُعْطِينِي؟»

قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، أو لأن مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً. والمقصود من هذا التشبيه كما قاله أبو السعود بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة إليه تعالى ولو بعد دهر طويل، وإظهار بطلان استبعادهم وإنكارهم له بقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: ٤٩] ونحو ذلك، أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الأشكال والصور فإن اللبث اليسير يلزمه عدم التبدل والتغير. والمراد بالساعة الزمن القليل فإنها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، بيان وتقرير لما سبق وذلك يقع في الحشر الذي هو الاجتماع، أي: في ابتدائه وينقطع في أثنائه، وقيل: عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول المذهلة للأفهام، وأما البعث فلا تعارف فيه لعدم الاجتماع الذي هو لازمه. وهذا أحد وجهين في المقام ذكره البيضاوي وأبو البقاء، وغالب المفسرين على خلافه وهو تفسير الحشر بالبعث من القبور وجرى على هذا أبو السعود والخازن والقرطبي، وقيل: أن هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع يقول بعضهم لبعض أنت أضللتني وأغويتني، لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فيجمع بأن المراد بالتعارف هو تعارف التوبيخ، وعليه يحمل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] الآية، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآية، قال القرطبي: وهو الصحيح. وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر. [صديق حسن (٦/ ٩٦)].

وَالْمُرَادُ بِهِ التَّهْوِيلُ، أَيْ: مَا أَعْظَمَ مَا اسْتَعْجَلُوهُ. ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ حَلَّ بِكُمْ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أَيِ: اللهِ، أَوِ الْعَذَابِ عِنْدَ نُزُولِهِ، وَالْهَمْزَةُ لِإِنْكَارِ التَّأْخِيرِ، فَلَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ، وَيُقَالُ لَكُمْ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تُؤْمِنُونَ ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾ اسْتِهْزَاءً. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أَيِ: الَّذِي تَخْلُدُونَ فِيهِ ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾ ۞ ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ يَسْتَخْبِرُونَكَ ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أَيْ: مَا وَعَدْتَنَا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْبَعْثِ ﴿قُلْ إِي﴾ نَعَمْ[1] ﴿وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ بِفَائِتِينَ الْعَذَابَ. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ كَفَرَتْ ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ مِنَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أَخْفَاهَا رُؤَسَاؤُهُمْ عَنِ الضُّعَفَاءِ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ مَخَافَةَ التَّعْيِيرِ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾ شَيْئًا. ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ﴿حَقٌّ﴾ ثَابِتٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَيِ: النَّاسِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾ ذَلِكَ. ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾ فِي الْآخِرَةِ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كِتَابٌ فِيهِ مَا لَكُمْ وَمَا عَلَيْكُمْ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ دَوَاءٌ ﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ مِنَ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ وَالشُّكُوكِ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالِ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ بِهِ. ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الْإِسْلَامِ ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ الْقُرْآنِ[2] ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ﴿فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ مِنَ الدُّنْيَا، بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ أَخْبِرُونِي ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ خَلَقَ[3] ﴿لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْمَيْتَةِ ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فِي ذَلِكَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ؟ لَا ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ تَكْذِبُونَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ. ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى

---

(١) قيل: كلا الضميرين للقرآن، و﴿إِي﴾ بمعنى: نعم، وهو من لوازم القسم ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال: «إي والله» ولا يقال إي وحده. [البيضاوي (٣/ ١١٦)].

(٢) والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أولياً. فالمراد بالفضل من الله سبحانه تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر، والرحمة رحمته لهم. [صديق حسن (٦/ ٨٣)].

(٣) عبر عن إعطاء الرزق بالإنزال لأن معظم أموالهم كانت الثمار والأعناب والحبوب، وكلها من آثار المطر الذي هو نازل من السحاب بتكوين الله، فأسند إنزاله إلى الله بهذا الاعتبار، ومعظم أموالهم الأنعام، وحياتها من العشب والكلأ وهي من أثر المطر، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]. [ابن عاشور (١١/ ٢٠٩)].

﴿ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ ظَنُّهُم بِهِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَا يُعَاقِبُهُمْ؟ لَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بِإِمْهَالِهِمْ، وَالْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ وَمَا تَكُونُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِى شَأْنٍ﴾ أَمْرٍ ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ أَيْ: مِنَ الشَّأْنِ، أَوِ اللهِ ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ خَاطَبَهُ وَأُمَّتَهُ ﴿مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رُقَبَاءَ ﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾ تَأْخُذُونَ ﴿فِيهِ﴾ أَيِ: الْعَمَلِ ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ يَغِيبُ ﴿عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ﴾ وَزْنِ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرِ نَمْلَةٍ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ بَيِّنٍ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ فِي الْآخِرَةِ. هُمْ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ اللهَ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فُسِّرَتْ فِي حَدِيثٍ صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ بِـ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ يَرَاهَا الرَّجُلُ، أَوْ تُرَى لَهُ»(١). ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بِالْجَنَّةِ وَالثَّوَابِ(٢) ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لَا خُلْفَ لِمَوَاعِيدِهِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لَكَ: لَسْتَ مُرْسَلًا، وَغَيْرُهُ ﴿إِنَّ﴾ اسْتِئْنَافٌ ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ الْقُوَّةَ ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦٥﴾ بِالْفِعْلِ فَيُجَازِيهِمْ، وَيَنْصُرُكَ. ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عَبِيدًا وَمُلْكًا وَخَلْقًا ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ أَصْنَامًا ﴿شُرَكَآءَ﴾ لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ﴿إِن﴾ مَا ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أَيْ: ظَنَّهُمْ أَنَّهَا آلِهَةٌ تَشْفَعُ لَهُمْ ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٦٦﴾ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ. ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ إِسْنَادُ الْإِبْصَارِ إِلَيْهِ مَجَازٌ؛ لِأَنَّهُ يُبْصَرُ فِيهِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧﴾ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ وَاتِّعَاظٍ. ﴿قَالُواْ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ قَالَ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنِ الْوَلَدِ ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُ الْوَلَدَ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حُجَّةٍ ﴿بِهَٰذَآ﴾ الَّذِي تَقُولُونَهُ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بِنِسْبَةِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٣٨٩٨)، وأحمد (٢٢٦٨٨).

(٢) أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق. وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم. وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم. [السعدي ص:٣٦٨].

الْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ لَا يَسْعَدُونَ. لَهُمْ ﴿مَتَٰعٌ﴾ قَلِيلٌ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِمْ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بِالْمَوْتِ ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ * ﴿وَٱتْلُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿نَبَأَ﴾ خَبَرَ ﴿نُوحٍ﴾ وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ شَقَّ ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ لُبْثِي فِيكُمْ ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ وَعْظِي إِيَّاكُمْ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ اعْزِمُوا عَلَى أَمْرٍ تَفْعَلُونَهُ بِي ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الْوَاوُ بِمَعْنَى: «مَعَ» ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مَسْتُورًا، بَلْ أَظْهِرُوهُ وَجَاهِرُونِي بِهِ ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ امْضُوا فِيمَا أَرَدْتُمُوهُ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ تُمْهِلُونِ، فَإِنِّي لَسْتُ مُبَالِيًا بِكُمْ. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنْ تَذْكِيرِي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ ثَوَابٍ عَلَيْهِ فَتَتَوَلَّوْا ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ﴾ ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ السَّفِينَةِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أَيْ: مَنْ مَعَهُ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بِالطُّوفَانِ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝٧٣﴾ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ، فَكَذَلِكَ نَفْعَلُ بِمَنْ كَذَّبَ. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أَيْ: نُوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كَإِبْرَاهِيمَ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ بَعْثِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ نَخْتِمُ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤﴾ فَلَا تَقْبَلُ الْإِيمَانَ، كَمَا طَبَعْنَا عَلَى قُلُوبِ أُولَئِكَ. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ قَوْمِهِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التِّسْعِ ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦﴾ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ. ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ إِنَّهُ لَسِحْرٌ؟ ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَتَى بِهِ، وَأَبْطَلَ سِحْرَ السَّحَرَةِ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧﴾؟ وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلْإِنْكَارِ. ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لِتَرُدَّنَا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ الْمُلْكُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾ مُصَدِّقِينَ. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾ فَائِقٍ فِي عِلْمِ السِّحْرِ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ بَعْدَ مَا قَالُوا لَهُ: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا﴾ اسْتِفْهَامِيَّةٌ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ: ﴿جِئْتُم بِهِ ءَآلسِّحْرُ﴾ بَدَلٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ إِخْبَارٌ فَـ ﴿مَا﴾ مَوْصُولٌ مُبْتَدَأٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أَيْ: سَيَمْحَقُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ﴾ يُثْبِتُ

وَيُظْهِرُ ﴿ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بِمَوَاعِيدِهِ(١) ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ طَائِفَةٌ ﴿مِّن﴾ أَوْلَادِ ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أَيْ: فِرْعَوْنَ ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يَصْرِفَهُمْ عَنْ دِينِهِ بِتَعْذِيبِهِ ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ مُتَكَبِّرٌ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الْمُتَجَاوِزِينَ الْحَدَّ بِادِّعَاءِ الرُّبُوبِيَّةِ. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أَيْ: لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا، فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ فَيُفْتَتَنُوا بِنَا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ اتَّخِذَا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ مُصَلًّى تُصَلُّونَ فِيهِ؛ لِتَأْمَنُوا مِنَ الْخَوْفِ، وَكَانَ فِرْعَوْنُ مَنَعَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ(٢) ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَتِمُّوهَا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بِالنَّصْرِ وَالْجَنَّةِ. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا﴾ آتَيْتَهُمْ ذَلِكَ ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ فِي عَاقِبَتِهِ ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾ دِينِكَ ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ امْسَخْهَا ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ اطْبَعْ عَلَيْهَا وَاسْتَوْثِقْ ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ الْمُؤْلِمَ، دَعَا عَلَيْهِمْ وَأَمَّنَ هَارُونُ عَلَى دُعَائِهِ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ فَمُسِخَتْ أَمْوَالُهُمْ حِجَارَةً، وَلَمْ يُؤْمِنْ فِرْعَوْنُ حَتَّى أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ عَلَى الرِّسَالَةِ وَالدَّعْوَةِ، إِلَى أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ فِي اسْتِعْجَالِ قَضَائِي، رُوِيَ أَنَّهُ مَكَثَ بَعْدَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً(٣). ﴿۞وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لَحِقَهُمْ ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ أَيْ: بِأَنَّهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْكَسْرِ، اسْتِئْنَافًا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ كَرَّرَ لِيُقْبَلَ مِنْهُ فَلَمْ يُقْبَلْ، وَدَسَّ جِبْرِيلُ فِي فِيهِ مِنْ حَمْأَةِ الْبَحْرِ مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ(٤). وَقَالَ لَهُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تُؤْمِنُ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ

---

(١) ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين، أو بوعده الصادق لموسى أنه يظهره، أو بما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة، أو بأوامره وأحكامه، والأول أولى. [صديق حسن (٦/ ١٠٧)].

(٢) أي: اجعلوها محلا، تصلون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبيع العامة. [السعدي (ص:٣٧٢)].

(٣) قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوما. [ابن كثير (٤/ ٢٤١)]. وهذا التحديد ليس عليه دليل. قال الرازي: وهذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهارون كما أن قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] لا يدل على صدور الشرك منه. [صديق حسن (٦/ ١١٥)]

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٠٧)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٣٨)، وأحمد (٢٨٢٠). بسند ضعيف وصح عن ابن عباس موقوفًا.

مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ بِضَلَالِكَ وَإِضْلَالِكَ عَنِ الْإِيمَانِ(١). ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نُخْرِجُكَ مِنَ الْبَحْرِ ﴿بِبَدَنِكَ﴾ جَسَدِكَ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ بَعْدَكَ ﴿ءَايَةً﴾ عِبْرَةً، فَيَعْرِفُوا عُبُودِيَّتَكَ وَلَا يُقْدِمُوا عَلَى مِثْلِ فِعْلِكَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكُّوا فِي مَوْتِهِ، فَأُخْرِجَ لَهُمْ لِيَرَوْهُ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا. ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أَنْزَلْنَا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ مَنْزِلَ كَرَامَةٍ، وَهُوَ الشَّامُ وَمِصْرُ ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ بِأَنْ آمَنَ بَعْضٌ، وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، بِإِنْجَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَعْذِيبِ الْكَافِرِينَ. ﴿فَإِن كُنتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الْقَصَصِ فَرْضًا ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ ﴿مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ فَإِنَّهُ ثَابِتٌ عِنْدَهُمْ يُخْبِرُونَكَ بِصِدْقِهِ، قَالَ ﷺ: «لَا أَشُكُّ، وَلَا أَسْأَلُ»(٢). ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ الشَّاكِّينَ فِيهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وَجَبَتْ ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ فَلَا يَنْفَعُهُمْ حِينَئِذٍ. ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿ءَامَنَتْ﴾ قَبْلَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِهَا ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ عِنْدَ رُؤْيَةِ أَمَارَةِ الْعَذَابِ، وَلَمْ يُؤَخِّرُوا إِلَى حُلُولِهِ ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ بِمَا لَمْ يَشَأْهُ اللهُ مِنْهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ لَا. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ بِإِرَادَتِهِ(٣) ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ الْعَذَابَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ يَتَدَبَّرُونَ آيَاتِ اللهِ. ﴿قُلِ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿ٱنظُرُوا۟ مَاذَا﴾ أَيِ: الَّذِي ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ جَمْعُ نَذِيرٍ، أَيِ: الرُّسُلُ ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ فِي عِلْمِ اللهِ. أَيْ: مَا تَنْفَعُهُمْ

---

(١) وإنما لم ينفعه إيمانه لأنه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ﴾ [النساء: ١٨]. [ابن عاشور (١١/ ٢٧٧)].

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسير القرآن (٢/ ٢٩٨)، والطبري في تفسيره (١١/ ١٦٨).

(٣) يقول تعالى ذكره لنبيه: وما كان لنفس خلقتُها من سبيل إلى تصديقك يا محمد، إلا بأن آذن لها في ذلك، فلا تجهدنَّ نفسك في طلب هداها، وبلِّغها وعيد الله. [الطبري (١٢/ ٢٩٩)].

﴿فَهَلْ﴾ فما ﴿يَنتَظِرُونَ﴾ بتكذيبك ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الأُمَمِ، أَيْ: مِثْلَ وَقَائِعِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ذَلِكَ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّى﴾ الْمُضَارِعُ لِحِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ ﴿رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإِنْجَاءِ ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، حِينَ تَعْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أَنَّهُ حَقٌّ ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ وَهُوَ الأَصْنَامُ؛ لِشَكِّكُمْ فِيهِ ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٤ وَ﴾ قِيلَ لِي: ﴿أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ مَائِلًا إِلَيْهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٥ وَلَا تَدْعُ﴾ تَعْبُدْ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إِنْ عَبَدْتَهُ ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إِنْ لَمْ تَعْبُدْهُ ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ ذَلِكَ فَرْضًا[1] ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ يُصِبْكَ ﴿ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ كَفَقْرٍ وَمَرَضٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ رَافِعَ ﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ﴾ دَافِعَ ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾ الَّذِي أَرَادَكَ بِهِ ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالْخَيْرِ ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لِأَنَّ ثَوَابَ اهْتِدَائِهِ لَهُ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ لِأَنَّ وَبَالَ ضَلَالِهِ عَلَيْهَا ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨﴾ فَأُجْبِرَكُمْ عَلَى الْهُدَى. ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ مِنْ رَبِّكَ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ عَلَى الدَّعْوَةِ وَأَذَاهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ﴾ فِيهِمْ بِأَمْرِهِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾ أَعْدَلُهُمْ، وَقَدْ صَبَرَ حَتَّى حُكِمَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ، وَأَهْلِ الْكِتَابِ بِالْجِزْيَةِ.

---

(١) والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره ﷺ. [صديق حسن (٦/ ١٣١)]. فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟! [السعدي (ص:٣٧٥)].

سُورَةُ هُودٍ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآيَةِ، وَإِلَّا ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ﴾ الآيَةِ، وَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ الآيَةِ، مِائَةٌ وَثِنْتَانِ أَوْ ثَلَاثٍ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ(١)، هَذَا ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بِعَجِيبِ النَّظْمِ، وَبَدِيعِ الْمَعَانِي ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنَتْ بِالْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ وَالْمَوَاعِظِ ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①﴾ أَيِ: اللهِ. ﴿أَلَّا﴾ أَيْ: بِأَنْ لَا ﴿تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ بِالْعَذَابِ إِنْ كَفَرْتُمْ ﴿وَبَشِيرٌ ②﴾ بِالثَّوَابِ إِنْ آمَنْتُمْ. ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ ارْجِعُوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ بِطِيبِ عَيْشٍ، وَسِعَةِ رِزْقٍ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هُوَ الْمَوْتُ ﴿وَيُؤْتِ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ فِي الْعَمَلِ ﴿فَضْلَهُۥ﴾ جَزَاءَهُ ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ، أَيْ: تُعْرِضُوا ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④﴾ وَمِنْهُ الثَّوَابُ وَالْعَذَابُ. وَنَزَلَ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِيمَنْ كَانَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَتَخَلَّى، أَوْ يُجَامِعَ فَيُفْضِيَ إِلَى السَّمَاءِ، وَقِيلَ فِي الْمُنَافِقِينَ(٣) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ أَيِ: اللهِ ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يَتَغَطَّوْنَ بِهَا ﴿يَعْلَمُ﴾ تَعَالَى ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ فَلَا يُغْنِي اسْتِخْفَاؤُهُمْ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑤﴾ أَيْ: بِمَا فِي الْقُلُوبِ. ﴿۞ وَمَا مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هِيَ مَا دَبَّ عَلَيْهَا ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تَكَفَّلَ بِهِ فَضْلًا مِنْهُ تَعَالَى ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ مَسْكَنَهَا فِي الدُّنْيَا أَوِ الصُّلْبِ ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَوْ فِي الرَّحِمِ ﴿كُلٌّ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ⑥﴾ بَيِّنٍ، هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٢).

(٣) يقال: ثنى صدره عن الشيء، إذا أزور وانحرف عنه، فيكون في الكلام كناية عن الإعراض. وقيل: معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق، وعداوة النبي ﷺ بحيث يكون ذلك مخفياً مستوراً فيها، كما تعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكف كما كان دأب المنافقين، والوجه الثاني أولى، ويؤيده قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ أي: من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين، أو من رسول الله ﷺ. [صديق حسن (٦/ ١٤٠)].

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أَوَّلُهَا الْأَحَدُ، وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ قَبْلَ خَلْقِهِمَا ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ وَهُوَ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ(١) ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِخَلَقَ، أَيْ: خَلَقَهُمَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ مَنَافِعَ لَكُمْ وَمَصَالِحَ لِيَخْتَبِرَكُمْ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَيْ: أَطْوَعُ لِلَّهِ ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ﴾ الْقُرْآنُ النَّاطِقُ بِالْبَعْثِ وَالَّذِي تَقُولُهُ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ بَيِّنٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَٰحِرٌ﴾ وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ. ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ﴾ مَجِيءِ ﴿أُمَّةٍ﴾ أَوْقَاتٍ ﴿مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ﴾ اسْتِهْزَاءً ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ النُّزُولِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ مَدْفُوعًا ﴿عَنْهُمْ وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ مِنَ الْعَذَابِ. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الْكَافِرَ ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ غِنًى وَصِحَّةً ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ قَنُوطٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ﴿كَفُورٌ ۝٩﴾ شَدِيدُ الْكُفْرِ بِهِ. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ﴾ فَقْرٍ وَشِدَّةٍ ﴿مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾ الْمَصَائِبُ ﴿عَنِّيٓ﴾ وَلَمْ يَتَوَقَّعْ زَوَالَهَا، وَلَا شُكْرَ عَلَيْهَا ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ﴾ بَطِرٌ ﴿فَخُورٌ ۝١٠﴾ عَلَى النَّاسِ بِمَا أُوتِيَ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ عَلَى الضَّرَّاءِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فِي النَّعْمَاءِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فَلَا تُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ لِتَهَاوُنِهِمْ بِهِ ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ بِتِلَاوَتِهِ عَلَيْهِمْ(٢)، لِأَجْلِ ﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يُصَدِّقُهُ كَمَا اقْتَرَحْنَا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ لَا الْإِتْيَانُ بِمَا اقْتَرَحُوهُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾ حَفِيظٌ فَيُجَازِيهِمْ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ فَإِنَّكُمْ عَرَبِيُّونَ فُصَحَاءُ مِثْلِي، تَحَدَّاهُمْ بِهَا أَوَّلًا ثُمَّ بِسُورَةٍ(٣) ﴿وَٱدْعُواْ﴾ لِلْمُعَاوَنَةِ

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه سُئل عن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، على أيِّ شيء كان الماء؟ قال: على متن الرِّيح. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٠٨٩)، وابن جرير (١٢/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٠٥)، وأبو الشيخ (٢١٢)، والحاكم (٢/ ٣٤١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٢). والحديث المأثور عن النبي ﷺ أنه قال: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ». أخرجه البخاري (٧٤١٨).

(٢) والمقصود بالآية تسلية للنبي ﷺ عن قولهم، حتى يبلغ الرسالة ولا يبالي بهم، وإنما قال: ﴿ضَآئِقُۢ﴾ ولم يقل: «ضيق» ليدل على اتساع صدره عليه السلام وقلة ضيقه. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٦٦)].

(٣) فإن قيل: قد قال في سورة يونس: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] وقد عجزوا عنه فكيف قال: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ فهو كرجل يقول لآخر: أعطني درهما فيعجز، فيقول: أعطني عشرة؟ الجواب: قد قيل سورة هود نزلت أولا. وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة

عَلَى ذَلِكَ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ فِي أَنَّهُ افْتِرَاءٌ. ﴿فَإِ﴾ نْ ﴿لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أَيْ: مَنْ دَعَوْتُمُوهُمْ لِلْمُعَاوَنَةِ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ خِطَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ مُلْتَبِسًا ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ وَلَيْسَ افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴿وَأَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٤﴾ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ، أَيْ: أَسْلِمُوا. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بِأَنْ أَصَرَّ عَلَى الشِّرْكِ، وَقِيلَ: هِيَ فِي الْمُرَائِينَ(١) ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أَيْ: جَزَاءَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ، كَصَدَقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ ﴿فِيهَا﴾ بِأَنْ نُوَسِّعَ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أَيِ: الدُّنْيَا ﴿لَا يُبْخَسُونَ ١٥﴾ يُنْقَصُونَ شَيْئًا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ﴾ بَطَلَ ﴿مَا صَنَعُواْ﴾ ـهُ ﴿فِيهَا﴾ أَيِ: الْآخِرَةِ، فَلَا ثَوَابَ لَهُ ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بَيَانٍ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ أَوِ الْمُؤْمِنُونَ، وَهِيَ الْقُرْآنُ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يَتْبَعُهُ ﴿شَاهِدٌ﴾ لَهُ بِصِدْقِهِ ﴿مِّنْهُ﴾ أَيْ: مِنَ اللهِ وَهُوَ جِبْرِيلُ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أَيْ: الْقُرْآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ التَّوْرَاةُ، شَاهِدٌ لَهُ أَيْضًا ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حَالٌ، كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أَيْ: مَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالْقُرْآنِ، فَلَهُمُ الْجَنَّةُ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ جَمِيعِ الْكُفَّارِ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ شَكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ١٧ وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِي جُمْلَةِ الْخَلْقِ ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ جَمْعُ شَاهِدٍ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ، وَعَلَى الْكُفَّارِ بِالتَّكْذِيبِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ الْمُشْرِكِينَ. ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يَطْلُبُونَ السَّبِيلَ ﴿عِوَجًا﴾ مُعْوَجَّةً ﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿كَٰفِرُونَ ١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ اللهَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أَنْصَارٍ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بِإِضْلَالِهِمْ غَيْرَهُمْ ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ لِلْحَقِّ ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ٢٠﴾ ـهُ، أَيْ: لِفَرْطِ كَرَاهَتِهِمْ لَهُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٢١﴾ عَلَى اللهِ مِنْ

يونس أولا، وقال: معنى قوله في سورة يونس: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة. [البغوي (٤/ ١٦٥)].

(١) والأول أرجح؛ لتقدم ذكر الكفار المناقضين للقرآن. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٦٧)].

دَعْوَى الشَّرِيكِ. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ سَكَنُوا وَاطْمَأَنُّوا، أَوْ أَنَابُوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣﴾ * ﴿مَثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ هَذَا مَثَلُ الْكَافِرِ ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ هَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ لَا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّالِ تَتَّعِظُونَ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنِّي﴾ أَيْ: بِأَنِّي، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْكَسْرِ عَلَى حَذْفِ الْقَوْلِ ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ. ﴿أَن﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إِنْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٖ ۝٢٦﴾ مُؤْلِمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وَهُمُ الْأَشْرَافُ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثْلَنَا﴾ وَلَا فَضْلَ لَكَ عَلَيْنَا ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أَسَافِلُنَا، كَالْحَاكَةِ وَالْأَسَاكِفَةِ[1] ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ، أَيِ: ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ تَفَكُّرٍ فِيكَ، وَنَصْبُهُ عَلَى الظَّرْفِ، أَيْ: وَقْتَ حُدُوثِ أَوَّلِ رَأْيِهِمْ[2] ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلِۭ﴾ فَتَسْتَحِقُّونَ بِهِ الِاتِّبَاعَ مِنَّا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ، أَدْرَجُوا قَوْمَهُ مَعَهُ فِي الْخِطَابِ. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ بَيَانٍ ﴿مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةٗ﴾ نُبُوَّةً[3] ﴿مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ﴾ خَفِيَتْ ﴿عَلَيْكُمْ﴾

---

(١) جمع أرذل وهم سفلة الناس، وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم، جهلاً منهم واعتقاداً أن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كما اعتقدوا، بل المؤمنون كانوا أشرف منهم على حال فقرهم وخمولهم في الدنيا ... واختار ابن عطية أنهم أرادوا أنهم أراذل في أفعالهم لقول نوح: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٦٨)].

(٢) «بادي» قرأه أبو عمرو بالهمزة، والباقون بالياء. فأما الأول فمعناه: أول الرأي. بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل، أول وهلة. وأما الثاني: فيحتمل أن أصله ما تقدم، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفا، ويحتمل أنها أصلية من بدا يبدو، كعلا يعلو. والمعنى: ظاهر الرأي دون باطنه، ولو تؤمل لعرف باطنه، وهو في المعنى كالأول ... ولا خفاء في أنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، بل أتباعه هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأدنون، ولو كانوا أغنياء. وفي الغالب، ما يتبع الحق إلا ضعفة الخلق، كما يغلب على الكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ولما سأل هرقل ملك الروم، أبا سفيان عن نعوت النبي ﷺ، قال لهم فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل. أخرجه البخاري (٧). وأما البدار لاعتناق الحق فهو من أسمى الفضائل؛ لأن الحق إذا وضح فلا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، ولا بد من اتباعه حالتئذ لكل ذي فطنة، ولا يتردد إلا غبي أو عيي، ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام. [القاسمي (٦/ ٨٧)].

(٣) أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم. [ابن كثير (٤/ ٣١٧)].

وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ وَالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أَنُجْبِرُكُمْ عَلَى قَبُولِهَا ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ لَا نَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ. ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ﴿مَالًا﴾ تُعْطُونِيهِ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ﴾ ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ كَمَا أَمَرْتُمُونِي ﴿إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ بِالْبَعْثِ فَيُجَازِيهِمْ وَيَأْخُذُ لَهُمْ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَطَرَدَهُمْ ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ. ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى﴾ يَمْنَعُنِي ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عَذَابِهِ ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ﴾ أَيْ: لَا نَاصِرَ لِي ﴿أَفَلَا﴾ فَهَلَّا ﴿تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّالِ تَتَّعِظُونَ. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ﴾ إِنِّي ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ بَلْ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ﴾ تَحْتَقِرُ ﴿أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قُلُوبِهِمْ ﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ إِنْ قُلْتُ ذَلِكَ ﴿لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا﴾ خَاصَمْتَنَا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فِيهِ. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ تَعْجِيلَهُ لَكُمْ، فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَيْهِ لَا إِلَيَّ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ بِفَائِتِينَ اللهَ. ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ أَيْ: إِغْوَاءَكُمْ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ﴾، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿يَقُولُونَ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ اخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ الْقُرْآنَ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ إِثْمِي، أَيْ: عُقُوبَتُهُ ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ مِنْ إِجْرَامِكُمْ فِي نِسْبَةِ الِافْتِرَاءِ إِلَيَّ(١). ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ تَحْزَنْ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ مِنَ الشِّرْكِ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [نوح: ٢٦] إِلَى آخِرِهِ، فَأَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ. وَقَالَ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ السَّفِينَةَ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بِمَرْأًى مِنَّا وَحِفْظِنَا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أَمْرِنَا(٢) ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ كَفَرُوا بِتَرْكِ إِهْلَاكِهِمْ ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حِكَايَةُ حَالٍ مَاضِيَةٍ ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾ اسْتَهْزَؤُوا بِهِ ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ إِذَا نَجَوْنَا وَغَرِقْتُمْ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن﴾ مَوْصُولَةٌ، مَفْعُولُ الْعِلْمِ ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ﴾ يَنْزِلُ ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ دَائِمٌ. ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غَايَةٌ

---

(١) وقد اختلف المفسرون في هذه الآية فقيل: أنها حكاية عن نوح وما قاله لقومه، وقيل: هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد ﷺ وكفار مكة قاله مقاتل، فعلى هذا تكون الآية معترضة في قصة نوح، والأول أولى؛ لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام. [الشوكاني (٢/ ٥٦٤)].

(٢) أي: إليك، كيف تصنعها، وتعليمنا وإلهامنا. قيل: لم يكن قبله سفينة. [القاسمي (٦/ ٩٢)].

لِلصُّنْعِ ﴿إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ لِلْخَبَّازِ بِالْمَاءِ[1]، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً لِنُوحٍ ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ فِي السَّفِينَةِ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، أَيْ: مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِهِمَا ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذَكَرًا وَأُنْثَى وَهُوَ مَفْعُولٌ، وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ اللهَ حَشَرَ لِنُوحٍ السِّبَاعَ وَالطَّيْرَ وَغَيْرَهَا، فَجَعَلَ يَضْرِبُ بِيَدِهِ فِي كُلِّ نَوْعٍ، فَتَقَعُ يَدُهُ الْيُمْنَى عَلَى الذَّكَرِ وَالْيُسْرَى عَلَى الْأُنْثَى، فَيَحْمِلُهَا فِي السَّفِينَةِ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أَيْ: زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أَيْ: مِنْهُمْ بِالْإِهْلَاكِ، وَهُوَ وَلَدُهُ كَنْعَانُ[2] وَزَوْجَتُهُ وَاعِلَةُ، بِخِلَافِ سَامٍ وَحَامٍ وَيَافِثَ فَحَمَلَهُمْ وَزَوْجَاتِهِمُ الثَّلَاثَةَ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ قِيلَ: كَانُوا سِتَّةَ رِجَالٍ وَنِسَاءَهُمْ، وَقِيلَ: جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ نِصْفُهُمْ رِجَالٌ وَنِصْفُهُمْ نِسَاءٌ ﴿۞ وَقَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ﴾ بِفَتْحِ الْمِيمَيْنِ[3]، وَضَمِّهِمَا مَصْدَرَانِ، أَيْ: جَرْيُهَا وَرَسْوُهَا، أَيْ: مُنْتَهَى سَيْرِهَا ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ حَيْثُ لَمْ يُهْلِكْنَا. ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ فِي الِارْتِفَاعِ وَالْعِظَمِ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كَنْعَانَ ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عَنِ السَّفِينَةِ ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى﴾ يَمْنَعُنِي ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ عَذَابِهِ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَن رَّحِمَ ۚ﴾ اللهُ فَهُوَ الْمَعْصُومُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الَّذِي نَبَعَ مِنْكِ، فَشَرِبَتْهُ دُونَ مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَصَارَ أَنْهَارًا وَبِحَارًا ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أَمْسِكِي عَنِ الْمَطَرِ، فَأَمْسَكَتْ ﴿وَغِيضَ﴾ نَقَصَ ﴿ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ تَمَّ أَمْرُ هَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ وَقَفَتِ السَّفِينَةُ ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ﴾ جَبَلٍ بِالْجَزِيرَةِ، بِقُرْبِ الْمَوْصِلِ ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ هَلَاكًا ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الْكَافِرِينَ[4].

---

(١) اختلفوا في التنور، قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة. وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: فار التنور، أي: طلع الفجر ونور الصبح. وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين. [االسمعاني (٢/ ٤٢٨)].

(٢) وهو غير جد الكنعانين العرب.

(٣) قراءة شاذة.

(٤) أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغه من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عن الوصف وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الأقدام في علم البيان، الراسخين في اللغة المطلعين على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها. قال الصاوي وسليمان الجمل: قال بعضهم: هذه الآية أبلغ آية في القرآن باحتوائها على أحد وعشرين نوعـًا من أنواع البديع، والحال أن كلماتها تسعة عشر، انتهى. [صديق حسن (٦/ ١٩٠)].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى﴾ كَنْعَانَ ﴿مِنْ أَهْلِى﴾ وَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاتِهِمْ ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ٱلَّذِي لَا خُلْفَ فِيهِ ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أَعْلَمُهُمْ وَأَعْدَلُهُمْ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ٱلنَّاجِينَ، أَوْ مِنْ أَهْلِ دِينِكَ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: سُؤَالَكَ إِيَّايَ بِنَجَاتِهِ ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فَإِنَّهُ كَافِرٌ، وَلَا نَجَاةَ لِلْكَافِرِينَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ مِيمِ ﴿عَمِلَ﴾ فِعْلٌ، وَنَصْبِ ﴿غَيْرَ﴾ فَالضَّمِيرُ لـ «ابْنِهِ»[1] ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِّ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مِنْ إِنْجَاءِ ابْنِكَ ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بِسُؤَالِكَ مَا لَمْ تَعْلَمْ. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ مِنْ ﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ مَا فَرَطَ مِنِّي ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ انْزِلْ مِنَ السَّفِينَةِ ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ بِسَلَامَةٍ أَوْ بِتَحِيَّةٍ ﴿مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ خَيْرَاتٍ ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ فِي السَّفِينَةِ، أَيْ: مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَأُمَمٌ﴾ بِالرَّفْعِ مِمَّنْ مَعَكَ ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَهُمُ الْكُفَّارُ. ﴿تِلْكَ﴾ أَيْ: هَٰذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَضَمِّنَةُ قِصَّةَ نُوحٍ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أَخْبَارِ مَا غَابَ عَنْكَ ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ عَلَى التَّبْلِيغِ وَأَذَى قَوْمِكَ، كَمَا صَبَرَ نُوحٌ ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ الْمَحْمُودَةَ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَ﴾ وَأَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ مِنَ الْقَبِيلَةِ ﴿هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿مَا لَكُم مِّنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ﴾ فِي عِبَادَتِكُمُ الْأَوْثَانَ ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ كَاذِبُونَ عَلَى اللهِ. ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى التَّوْحِيدِ ﴿أَجْرًا إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ خَلَقَنِي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟﴾ ارْجِعُوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ الْمَطَرَ، وَكَانُوا قَدْ مُنِعُوهُ ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ كَثِيرَ الدُّرُورِ ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ﴾ مَعَ ﴿قُوَّتِكُمْ﴾ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ مُشْرِكِينَ. ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بُرْهَانٍ عَلَى قَوْلِكَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أَيْ: لِقَوْلِكَ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن﴾ مَا ﴿نَّقُولُ﴾ فِي شَأْنِكَ ﴿إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أَصَابَكَ ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ فَخَبَلَكَ لِسَبِّكَ إِيَّاهَا، فَأَنْتَ تَهْذِي ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ عَلَيَّ ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ـهُ بِهِ. ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى﴾ احْتَالُوا فِي

---

(١) فيه ثلاث تأويلات على قراءة الجمهور: أحدها: أن يكون الضمير في إنه لسؤال نوح نجاة ابنه، والثاني: أن يكون الضمير لابن نوح وحذف المضاف من الكلام تقديره: إنه ذو عمل غير صالح، والثالث: أن يكون الضمير لابن نوح، وعمل: مصدر وصف به مبالغة كقولك: رجل صوم، وقرأ الكسائي ﴿عَمِلَ﴾ بفعل ماض «غير صالح» بالنصب، والضمير على هذا لابن نوح بلا إشكال. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٧٢)].

هَلَاكِي ﴿جَمِيعًا﴾ أَنْتُمْ وَأَوْثَانُكُمْ ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ تُمْهِلُونِ. ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿دَآبَّةٍ﴾ نَسَمَةٍ تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ أَيْ: مَالِكُهَا وَقَاهِرُهَا، فَلَا نَفْعَ وَلَا ضَرَرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَخَصَّ النَّاصِيَةَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ مَنْ أُخِذَ بِنَاصِيَتِهِ يَكُونُ فِي غَايَةِ الذُّلِّ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ أَيْ: طَرِيقِ الْحَقِّ، وَالْعَدْلِ. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّائَيْنِ، أَيْ: تُعْرِضُوا ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ﴾ بِإِشْرَاكِكُمْ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ رَقِيبٌ. ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عَذَابُنَا ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ﴾ هِدَايَةٍ[1] ﴿مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ شَدِيدٍ. ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى آثَارِهِمْ، أَيْ: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ وَانْظُرُوا إِلَيْهَا[2]، ثُمَّ وَصَفَ أَحْوَالَهُمْ فَقَالَ: ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ جَمَعَ؛ لِأَنَّ مَنْ عَصَى رَسُولًا عَصَى جَمِيعَ الرُّسُلِ؛ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي أَصْلِ مَا جَاءُوا بِهِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟﴾ أَيْ: السَّفَلَةُ ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ مُعَارِضٍ لِلْحَقِّ مِنْ رُؤَسَائِهِمْ. ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ لَعْنَةً عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟﴾ جَحَدُوا ﴿رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ * ﴿وَ﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ مِنَ الْقَبِيلَةِ ﴿صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم﴾ ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهَا ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ جَعَلَكُمْ عُمَّارًا تَسْكُنُونَ بِهَا ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟﴾ ارْجِعُوا ﴿إِلَيْهِ ۚ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ مِنْ خَلْقِهِ بِعِلْمِهِ[3] ﴿مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ لِمَنْ سَأَلَهُ. ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ سَيِّدًا ﴿قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ﴾ الَّذِي صَدَرَ مِنْكَ ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿مُرِيبٍ ۝٦٢﴾ مُوقِعٍ فِي الرَّيْبِ. ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بَيَانٍ ﴿مِّن

---

(١) أي: برحمة عظيمة كائنة منا؛ لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله. [الشوكاني (٢/ ٥٧٤)].

(٢) أنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة على ما قيل، فالإشارة إلى ما في الذهن وصيغة البعيد لتحقيرهم أو لتنزيلهم منزلة البعيد لعدمهم، أو الإشارة إلى قبورهم ومصارعهم، وحينئذ الإشارة للبعيد المحسوس، والإسناد مجازي أو هو من مجاز الحذف، أي: تلك قبور عاد، وجوز أن يكون بتقدير أصحاب تلك عاد، والجملة مبتدأ وخبر، وكان المقصود الحث على الاعتبار بهم والاتعاظ بأحوالهم. [الآلوسي (٦/ ٢٨٤)].

(٣) أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه، من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩]. [السعدي (ص:٣٨٤)].

رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نُبُوَّةً ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ يَمْنَعُنِي ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عَذَابِهِ ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بِأَمْرِكُمْ لِي بِذَلِكَ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ تَضْلِيلٍ. ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ حَالٌ عَامِلُهُ ٱلْإِشَارَةُ ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ عَقْرٍ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ إِنْ عَقَرْتُمُوهَا. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عَقَرَهَا «قُدَارٌ» بِأَمْرِهِمْ ﴿فَقَالَ﴾ صَالِحٌ: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ عِيشُوا ﴿فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثُمَّ تُهْلَكُونَ ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ فِيهِ. ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ وَهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَ﴾ نَجَّيْنَاهُمْ ﴿مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ بِكَسْرِ ٱلْمِيمِ إِعْرَابًا، وَفَتْحِهَا بِنَاءً؛ لِإِضَافَتِهِ إِلَى مَبْنِيٍّ وَهُوَ ٱلْأَكْثَرُ[1] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ ٱلْغَالِبُ. ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ بَارِكِينَ عَلَى ٱلرُّكَبِ مَيِّتِينَ. ﴿كَأَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: كَأَنَّهُمْ ﴿لَّمْ يَغْنَوْا﴾ يُقِيمُوا ﴿فِيهَآ﴾ فِي دَارِهِمْ ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ بِالصَّرْفِ وَتَرْكِهِ، عَلَى مَعْنَى: ٱلْحَيِّ، وَالْقَبِيلَةِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بَعْدَهُ ﴿قَالُوا سَلَٰمًا﴾ مَصْدَرٌ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ عَلَيْكُمْ ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ مَشْوِيٍّ. ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ بِمَعْنَى أَنْكَرَهُمْ ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خَوْفًا ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ لِنُهْلِكَهُمْ. ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أَيِ: ٱمْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ «سَارَّةُ» ﴿قَآئِمَةٌ﴾ تَخْدُمُهُمْ ﴿فَضَحِكَتْ﴾ ٱسْتِبْشَارًا بِهَلَاكِهِمْ ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ﴾ بَعْدِ ﴿إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ وَلَدِهِ، تَعِيشُ إِلَى أَنْ تَرَاهُ[2]. ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كَلِمَةٌ تُقَالُ عِنْدَ أَمْرٍ عَظِيمٍ، وَٱلْأَلِفُ مُبْدَلَةٌ مِنْ يَاءِ ٱلْإِضَافَةِ ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ لِي تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ لَهُ مِائَةٌ أَوْ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَنَصْبُهُ عَلَى ٱلْحَالِ، وَٱلْعَامِلُ فِيهِ مَا فِي «ذَا» مِنَ ٱلْإِشَارَةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ أَنْ يُولَدَ وَلَدٌ لِهَرِمَيْنِ. ﴿قَالُوٓا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قُدْرَتِهِ؟[3] ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ

---

(١) أي: في اللغة.

(٢) أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه، ولله الحمد. [ابن كثير (٤/ ٣٣٤)].

(٣) قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. [ابن كثير (٤/ ٣٣٤)].

وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ يا ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ[١] ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ﴾ مَحْمُودٌ ﴿مَّجِيدٞ ٧٣﴾ كَرِيمٌ. ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ الْخَوْفُ ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ بِالْوَلَدِ، أَخَذَ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ يُجَادِلُ رُسُلَنَا ﴿فِي﴾ شَأْنِ ﴿قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ كَثِيرُ الْأَنَاةِ ﴿أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ رَجَّاعٌ، فَقَالَ لَهُمْ: أَتُهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا ثَلَاثُمِائَةِ مُؤْمِنٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَفَتُهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا مِائَتَا مُؤْمِنٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَفَتُهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا أَرْبَعُونَ مُؤْمِنًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَفَتُهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ مُؤْمِنًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: إِنَّ فِيهَا لُوطًا، قَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا إِلَى آخِرِهِ[٢]. فَلَمَّا أَطَالَ مُجَادَلَتَهُمْ قَالُوا: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ الْجِدَالِ ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ بِهَلَاكِهِمْ ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ حَزِنَ بِسَبَبِهِمْ ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ صَدْرًا؛ لِأَنَّهُمْ حِسَانُ الْوُجُوهِ فِي صُورَةِ أَضْيَافٍ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ قَوْمَهُ ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ شَدِيدٌ. ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ لَمَّا عَلِمُوا بِهِمْ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ يُسْرِعُونَ ﴿إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ﴾ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ وَهِيَ إِتْيَانُ الرِّجَالِ فِي الْأَدْبَارِ ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ: ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ فَتَزَوَّجُوهُنَّ[٣] ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ تَفْضَحُونِ ﴿فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ أَضْيَافِي ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ. ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ حَاجَةٍ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ مِنْ إِتْيَانِ الرِّجَالِ. ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ طَاقَةً ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ عَشِيرَةٍ تَنْصُرُنِي لَبَطَشْتُ بِكُمْ. فَلَمَّا رَأَتِ الْمَلَائِكَةُ ذَلِكَ ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ بِسُوءٍ ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ﴾ طَائِفَةٍ ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ لِئَلَّا يَرَى عَظِيمَ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتُكَۖ﴾ بِالرَّفْعِ بَدَلٌ مِنْ ﴿أَحَدٌ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ اسْتِثْنَاءً مِنَ الْأَهْلِ، أَيْ: فَلَا تَسْرِ بِهَا ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ فَقِيلَ: لَمْ يَخْرُجْ بِهَا، وَقِيلَ: خَرَجَتْ وَالْتَفَتَتْ، فَقَالَتْ: وَاقَوْمَاهُ،

---

(١) وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته لأنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي ﷺ بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة ... وهو ظاهر جلي من سورة الأحزاب لأنه ناداهن بقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٣٠] ثم بقوله: أهل البيت. [ابن عطية (٣/ ١٩١)].

(٢) انظر تفسير الطبري (٧/ ٧٧).

(٣) يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. [ابن كثير (٤/ ٣٣٧)].

فَجَاءَهَا حَجَرٌ فَقَتَلَهَا، وَسَأَلَهُمْ عَنْ وَقْتِ هَلَاكِهِمْ؟ فَقَالُوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فَقَالَ: أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا﴾ أَيْ: قُرَاهُمْ ﴿سَافِلَهَا﴾ أَيْ: بِأَنْ رَفَعَهَا جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ وَأَسْقَطَهَا مَقْلُوبَةً إِلَى الْأَرْضِ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ طِينٍ طُبِخَ بِالنَّارِ(١) ﴿مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ مُتَتَابِعٍ. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعَلَّمَةً عَلَيْهَا اسْمُ مَنْ يُرْمَى بِهَا ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظَرْفٌ لَهَا ﴿وَمَا هِيَ﴾ الْحِجَارَةُ أَوْ بِلَادُهُمْ ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّةَ ﴿بِبَعِيدٍ ۝٨٣ * وَ﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ نِعْمَةٍ تُغْنِيكُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ(٢) ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤﴾ بِكُمْ يُهْلِكُكُمْ، وَوَصْفُ الْيَوْمِ بِهِ مَجَازٌ لِوُقُوعِهِ فِيهِ. ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أَتِمُّوهُمَا ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لَا تُنْقِصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ مِنْ «عَثِيَ» بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَةِ أَفْسَدَ، وَمُفْسِدِينَ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى عَامِلِهَا ﴿تَعْثَوْاْ﴾. ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ رِزْقُهُ الْبَاقِي لَكُمْ بَعْدَ إِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنَ الْبَخْسِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٦﴾ رَقِيبٍ أُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا ﴿قَالُواْ﴾ لَهُ اسْتِهْزَاءً: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ بِتَكْلِيفِ ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿أَوْ﴾ نَتْرُكَ ﴿أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ الْمَعْنَى: هَذَا أَمْرٌ بَاطِلٌ، لَا يَدْعُو إِلَيْهِ دَاعِي خَيْرٍ ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧﴾ قَالُوا ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ حَلَالًا، أَفَأَشُوبُهُ بِالْحَرَامِ مِنَ الْبَخْسِ وَالتَّطْفِيفِ؟ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ وَأَذْهَبَ ﴿إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ فَأَرْتَكِبُهُ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ لَكُمْ بِالْعَدْلِ ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ قُدْرَتِي عَلَى ذَلِكَ، وَغَيْرِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ أَرْجِعُ. ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يَكْسِبَنَّكُمْ ﴿شِقَاقِيٓ﴾ خِلَافِي، فَاعِلُ «يَجْرِمُ»، وَالضَّمِيرُ مَفْعُولٌ أَوَّلُ، وَالثَّانِي ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ﴾ أَيْ: مَنَازِلُهُمْ أَوْ زَمَنُ هَلَاكِهِمْ ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ فَاعْتَبِرُوا. ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾

---

(١) قال [تعالى] في الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣] أي: مستحجرة قوية شديدة. [ابن كثير (٤/ ٣٤٠)].

(٢) بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقها أن تتفضلوا على الناس شكرا عليها لا أن تنقصوا حقوقهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه وهو في الجملة علة للنهي. [البيضاوي (٣/ ١٤٤)].

إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ مُحِبٌّ لَهُمْ. ﴿قَالُواْ﴾ إِيذَانًا بِقِلَّةِ الْمُبَالَاةِ: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ نَفْهَمُ
﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ ذَلِيلًا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عَشِيرَتُكَ ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ بِالْحِجَارَةِ ﴿وَمَآ أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ كَرِيمٍ عَنِ الرَّجْمِ، وَإِنَّمَا رَهْطُكَ هُمُ الْأَعِزَّةُ. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فَتَتْرُكُوا
قَتْلِي لِأَجْلِهِمْ، وَلَا تَحْفَظُونِي لِلَّهِ ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أَيِ: اللهَ ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ مَنْبُوذًا خَلْفَ ظُهُورِكُمْ لَا تُرَاقِبُونَهُ ﴿إِنَّ
رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ عِلْمًا فَيُجَازِيكُمْ. ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حَالَتِكُمْ ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ عَلَى
حَالَتِي(١) ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن﴾ مَوْصُولَةٌ مَفْعُولُ الْعِلْمِ ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ﴾ انْتَظِرُوا
عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ مُنْتَظِرٌ. ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صَاحَ بِهِمْ جِبْرِيلُ ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ بَارِكِينَ عَلَى
الرُّكَبِ مَيِّتِينَ. ﴿كَأَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: كَأَنَّهُمْ ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ يُقِيمُوا ﴿فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ بُرْهَانٍ بَيِّنٍ ظَاهِرٍ. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ
فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ سَدِيدٍ. ﴿يَقْدُمُ﴾ يَتَقَدَّمُ ﴿قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فَيَتْبَعُونَهُ كَمَا اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾
أَدْخَلَهُمْ ﴿ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ هِيَ. ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾ أَيِ: الدُّنْيَا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لَعْنَةً
﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ﴾ الْعَوْنُ ﴿ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ رِفْدُهُمْ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾
يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنْهَا﴾ أَيِ: الْقُرَى ﴿قَآئِمٌ﴾ هَلَكَ أَهْلُهُ دُونَهُ ﴿وَ﴾ مِنْهَا ﴿حَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ هَلَكَ بِأَهْلِهِ فَلَا أَثَرَ لَهُ؛ كَالزَّرْعِ
الْمَحْصُودِ بِالْمَنَاجِلِ. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بِالشِّرْكِ ﴿فَمَآ أَغْنَتْ﴾
دَفَعَتْ ﴿عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ
رَبِّكَ﴾ عَذَابُهُ ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بِعِبَادَتِهِمْ لَهَا ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ تَخْسِيرٍ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مِثْلُ ذَلِكَ الْأَخْذِ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ
إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ بِالذُّنُوبِ، أَيْ: فَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ أَخْذِهِ شَيْءٌ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ
﴿١٠٢﴾﴾ رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ

---

(١) ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على غاية تمكنكم واستطاعتكم ... وإنما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه، وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها، من قولهم: مكان ومكانة كمقام ومقامة، والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي، وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه، وابذلوا جهدكم في مضارتي وإيقاع ما في نيتكم وإخراج ما في أمنيتكم من القوة إلى الفعل. ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على مكانتي حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التأييد والتوفيق. [أبو السعود (٤/ ٢٣٦)].

يُفْلِتْهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢] الْآيَةَ[1]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنَ الْقَصَصِ ﴿لَأٓيَةً﴾ لَعِبْرَةً ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ﴾ فِيهِ ﴿ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ يَشْهَدُهُ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ. ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللهِ. ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ تَعَالَى ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أَيِ: الْخَلْقِ ﴿شَقِىٌّ وَ﴾ مِنْهُمْ ﴿سَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ كُتِبَ كُلٌّ فِي الْأَزَلِ[2]. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟﴾ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى ﴿فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ صَوْتٌ شَدِيدٌ ﴿وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ صَوْتٌ ضَعِيفٌ[3] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أَيْ: مُدَّةَ دَوَامِهِمَا فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَّا﴾ غَيْرَ ﴿مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مُدَّتِهِمَا مِمَّا لَا مُنْتَهَى لَهُ، وَالْمَعْنَى: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ * ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سَعِدُوا۟﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَضَمِّهَا ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا﴾ غَيْرَ ﴿مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ، وَدَلَّ عَلَيْهِ فِيهِمْ قَوْلُهُ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ مَقْطُوعٍ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّأْوِيلِ هُوَ الَّذِي ظَهَرَ وَهُوَ خَالٍ مِنَ التَّكَلُّفِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ[4]. ﴿فَلَا تَكُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ شَكٍّ ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله، فعلى ما نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «بَلْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ وَجَرَتْ بِهِ الأَقْلَامُ يَا عُمَرُ، وَلَكِنْ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ». أخرجه أحمد (٥١٤٠)، والترمذي (٢١٣٥).

(٣) الزفير: إخراج الأنفاس بدفع وشدة بسبب ضغط التنفس. والشهيق: عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة، لقوة الاحتياج إلى التنفس. وخص بالذكر من أحوالهم في جهنم الزفير والشهيق تنفيرا من أسباب المصير إلى النار؛ لما في ذكر هاتين الحالتين من التشويه بهم، وذلك أخوف لهم من الألم. [ابن عاشور (١٢/ ١٦٥)].

(٤) العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدا قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، ... يعنون بذلك كلمة: «أبدا»، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم. [الطبري (١٢/ ٥٧٨)]. قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السماوات والأرض: الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم:٤٨]. [ابن كثير (٤/ ٣٥١)] [وقيل:] خالدين فيها أبدا، إلا المدة التي شاء الله، ألا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها ... فالاستثناء على هذا، راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها. [السعدي (ص:٣٨٩)]. وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ في هذا الاستثناء ثلاثة أقوال: قيل إنه على طريق التأدب مع الله كقولك: إن شاء الله، وإن كان الأمر واجبًا، وقيل: المراد به زمان خروج المذنبين من النار، ويكون الذين شقوا على هذا يعم الكفار والمذنبين، وقيل: استثنى مدة كونهم

﴿هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ مِنَ ٱلْأَصْنَامِ، إِنَّمَا نُعَذِّبُهُمْ كَمَا عَذَّبْنَا مَنْ قَبْلَهُمْ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ أَيْ: كَعِبَادَتِهِمْ ﴿مِّن قَبْلُۚ﴾ وَقَدْ عَذَّبْنَاهُمْ ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾ مِثْلَهُمْ ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ حَظَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩﴾ أَيْ: تَامًّا. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ٱلتَّوْرَاةَ ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِۗ﴾ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، كَالْقُرْآنِ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ ٱلْحِسَابِ وَٱلْجَزَاءِ لِلْخَلَائِقِ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ﴾ فِي ٱلدُّنْيَا فِيمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَيِ: ٱلْمُكَذِّبُونَ بِهِ ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ١١٠﴾ مُوقِعٍ فِي ٱلرِّيبَةِ. ﴿وَإِن﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿كُلًّا﴾ أَيْ: كُلَّ ٱلْخَلَائِقِ ﴿لَّمَا﴾ «مَا» زَائِدَةٌ، وَاللَّامُ مُوَطِّئَةٌ لِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، أَوْ فَارِقَةٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ ﴿لَّمَّا﴾ بِمَعْنَى: «إِلَّا»، فَـ«إِنْ» نَافِيَةٌ ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ أَيْ: جَزَاءَهَا ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١﴾ عَالِمٌ بِبَوَاطِنِهِ كَظَوَاهِرِهِ. ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ عَلَى ٱلْعَمَلِ بِأَمْرِ رَبِّكَ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ ﴿كَمَآ أُمِرْتَ وَ﴾ لِيَسْتَقِمْ ﴿مَن تَابَ﴾ آمَنَ ﴿مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ﴾ تُجَاوِزُوا حُدُودَ ٱللهِ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ تَمِيلُوا ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بِمَوَدَّةٍ، أَوْ مُدَاهَنَةٍ، أَوْ رِضًا بِأَعْمَالِهِمْ[1] ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ تُصِيبَكُمْ ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يَحْفَظُونَكُمْ مِنْهُ ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ تُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِهِ. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ ٱلْغَدَاةَ وَٱلْعَشِيَّ، أَيِ: ٱلصُّبْحَ وَٱلظُّهْرَ وَٱلْعَصْرَ ﴿وَزُلَفًا﴾ جَمْعُ زُلْفَةٍ، أَيْ: طَائِفَةٍ ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾ أَيِ: ٱلْمَغْرِبَ وَٱلْعِشَاءَ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ كَالصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ ٱلذُّنُوبَ ٱلصَّغَائِرَ، نَزَلَتْ فِيمَنْ قَبَّلَ أَجْنَبِيَّةً فَأَخْبَرَهُ ٱلنَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ أَلِي هَذَا؟ فَقَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ». رَوَاهُ ٱلشَّيْخَانِ[2]. ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ عِظَةٌ لِلْمُتَّعِظِينَ. ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ أَوْ عَلَى ٱلصَّلَاةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٥﴾ بِالصَّبْرِ عَلَى ٱلطَّاعَةِ. ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ ٱلْأُمَمِ ٱلْمَاضِيَةِ ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أَصْحَابُ دِينٍ وَفَضْلٍ ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلنَّفْيُ، أَيْ: مَا كَانَ فِيهِمْ ذَلِكَ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ ﴿قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ﴾ نَهَوْا فَنَجَوْا، وَ«مِنْ» لِلْبَيَانِ ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بِالْفَسَادِ وَتَرْكِ ٱلنَّهْيِ ﴿مَآ أُتْرِفُواْ﴾ نُعِّمُوا ﴿فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ

في الدنيا وفي البرزخ، وأما الاستثناء في أهل الجنة فيصح فيه القول الأول والثالث دون الثاني. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٧٨)].

(١) الركون: هو المحبة والمودة والميل بالقلب. [السمعاني (٢/ ٤٦٤)]. وقيل: خاصة وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين وإنهم المرادون بالذين ظلموا. وقد روي ذلك عن ابن عباس، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. [الشوكاني (٢/ ٦٠١)].

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٦) ومسلم (٢٧٦٣).

ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ مِنْهُ لَهَا ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ مُؤْمِنُونَ[١]. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أَهْلَ دِينٍ وَاحِدٍ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ فِي الدِّينِ. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أَرَادَ لَهُمُ الْخَيْرَ فَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أَيْ: أَهْلَ الِاخْتِلَافِ لَهُ، وَأَهْلَ الرَّحْمَةِ لَهَا[٢] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وَهِيَ[٣]: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا﴾ نُصِبَ بِـ ﴿نَّقُصُّ﴾ وَتَنْوِينُهُ عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيْ: كُلَّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿كُلًّا﴾، ﴿نُثَبِّتُ﴾ نُطَمِّنُ ﴿بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ قَلْبَكَ ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ الْأَنْبَاءِ، أَوِ الْآيَاتِ ﴿ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِانْتِفَاعِهِمْ بِهَا فِي الْإِيمَانِ، بِخِلَافِ الْكُفَّارِ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حَالَتِكُمْ ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ عَلَى حَالَتِنَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ ذَلِكَ. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: عِلْمُ مَا غَابَ فِيهِمَا ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ: يَعُودُ، وَلِلْمَفْعُولِ: يُرَدُّ ﴿ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ فَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ عَصَى ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ وَحِّدْهُ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ثِقْ بِهِ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِوَقْتِهِمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْفَوْقَانِيَّةِ.

---

(١) أي: لا يقع إهلاك الله ظالما لقوم مصلحين. والمصلحون مقابل المفسدين في قوله قبله: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾، فالله تعالى لا يهلك قوما ظالما لهم، ولكن يهلك قوما ظالمين أنفسهم. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] والمراد: الإهلاك العاجل الحال بهم في غير وقت حلول أمثاله، دون الإهلاك المكتوب على جميع الأمم، وهو فناء أمة وقيام أخرى في مدد معلومة حسب سنن معلومة. [ابن عاشور (١٢/ ١٨٦)].

(٢) لذلك الاختلاف خلقهم فخلق فريقا للجنة وفريقا للسعير، كما نص عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]، ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَقُولُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَه، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ». أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣). ومن حديث عائشة رضي الله عنها: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ». أخرجه مسلم (٢٦٦٢) ... والإرادة في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إرادة كونية قدرية، والإرادة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادة شرعية دينية، [فلا تعارض]. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ١٧١)].

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضَعَفَةُ النَّاسِ وسَقطُهم؟ وَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ، أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ. وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتَ عَذَابِي، أَنْتَقِمُ بِكِ مِمَّنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ، حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمه، فَتَقُولُ: قَطْ قَطٍ، وَعِزَّتِكُ». أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

سُورَةُ يُوسُفَ

مَكِّيَّةٌ، مِائَةٌ وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[1] ﴿تِلۡكَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «مِنْ» ﴿ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ الْمُظْهِرِ لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ. ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ تَفْقَهُونَ مَعَانِيَهُ[2]. ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ بِإِيحَائِنَا ﴿إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: وَإِنَّهُ ﴿كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾. اُذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يَعْقُوبَ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بِالْكَسْرِ دَلَالَةً عَلَى يَاءِ الْإِضَافَةِ الْمَحْذُوفَةِ، وَالْفَتْحِ دَلَالَةً عَلَى أَلِفٍ مَحْذُوفَةٍ قُلِبَتْ عَنِ الْيَاءِ ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ فِي الْمَنَامِ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ جُمِعَ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ لِلْوَصْفِ بِالسُّجُودِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْعُقَلَاءِ. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ يَحْتَالُونَ فِي هَلَاكِكَ حَسَدًا، لِعِلْمِهِمْ بِتَأْوِيلِهَا مِنْ أَنَّهُمُ الْكَوَاكِبُ وَالشَّمْسُ أُمُّكَ وَالْقَمَرُ أَبُوكَ[3] ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا رَأَيْتَ ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ يَخْتَارُكَ ﴿رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ أَوْلَادِهِ ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٞ ۝٦﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي﴾ خَبَرِ ﴿يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ﴾ وَهُمْ أَحَدَ عَشَرَ ﴿ءَايَٰتٞ﴾ عِبَرٌ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ عَنْ خَبَرِهِمْ. اُذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالُواْ﴾ أَيْ: بَعْضُ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِبَعْضِهِمْ ﴿لَيُوسُفُ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿وَأَخُوهُ﴾ شَقِيقُهُ بِنْيَامِينُ ﴿أَحَبُّ﴾ خَبَرٌ ﴿إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ﴾ خَطَأٍ ﴿مُّبِينٍ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) أي: لكي تفهموه، وتحيطوا بمعانيه، ولا يلتبس عليكم. كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾ [فصلت: ٤٤]، قال بعضهم: نزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وفي أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكمل له الشرف من كل الوجوه. [القاسمي (٦/ ١٤٥)].

(٣) الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن «فعلى» كالسقيا والبشرى وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف، نهى يعقوب ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على أخوته لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها عليهم فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له. [الشوكاني (٣/ ٧)].

﴿٨﴾ بَيِّنٍ بِإِيثَارِهِمَا عَلَيْنَا. ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أَيْ: بِأَرْضٍ بَعِيدَةٍ ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ بِأَنْ يُقْبِلَ عَلَيْكُمْ وَلَا يَلْتَفِتُ لِغَيْرِكُمْ ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أَيْ: بَعْدَ قَتْلِ يُوسُفَ، أَوْ طَرْحِهِ ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ بِأَنْ تَتُوبُوا[1]. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هُوَ يَهُوذَا ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ﴾ اِطْرَحُوهُ ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ مُظْلِمِ الْبِئْرِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْجَمْعِ ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ الْمُسَافِرِينَ ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ مَا أَرَدْتُمْ مِنَ التَّفْرِيقِ، فَاكْتَفُوا بِذَلِكَ. ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ لَقَائِمُونَ بِمَصَالِحِهِ. ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إِلَى الصَّحْرَاءِ ﴿نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ فِيهِمَا، نَنْشَطْ وَنَتَّسِعْ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ﴾ أَيْ: ذَهَابُكُمْ ﴿بِهِۦ﴾ لِفِرَاقِهِ ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ الْمُرَادُ بِهِ «الْجِنْسُ» وَكَانَتْ أَرْضُهُمْ كَثِيرَةَ الذِّئَابِ ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ مَشْغُولُونَ. ﴿قَالُواْ لَئِنْ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ عَاجِزُونَ، فَأَرْسَلَهُ مَعَهُمْ. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ﴾ عَزَمُوا ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ وَجَوَابُ «لَمَّا» مَحْذُوفٌ، أَيْ: فَعَلُوا ذَلِكَ؛ بِأَنْ نَزَعُوا قَمِيصَهُ بَعْدَ ضَرْبِهِ وَإِهَانَتِهِ وَإِرَادَةِ قَتْلِهِ، وَأَدْلَوْهُ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى نِصْفِ الْبِئْرِ أَلْقَوْهُ لِيَمُوتَ، فَسَقَطَ فِي الْمَاءِ ثُمَّ أَوَى إِلَى صَخْرَةٍ، فَنَادَوْهُ فَأَجَابَهُمْ يَظُنُّ رَحْمَتَهُمْ، فَأَرَادُوا رَضْخَهُ بِصَخْرَةٍ، فَمَنَعَهُمْ يَهُوذَا[2] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ فِي الْجُبِّ وَحْيَ حَقِيقَةٍ، وَلَهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً أَوْ دُونَهَا، تَطْمِينًا لِقَلْبِهِ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ بَعْدَ الْيَوْمِ ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ بِصَنِيعِهِمْ ﴿هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ بِكَ حَالَ الْإِنْبَاءِ. ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ وَقْتَ الْمَسَاءِ ﴿يَبْكُونَ

---

(١) أي: تائبين إلى الله عما جنيتم، فيكون صلاحكم فداء عن معصية قتله أو طرحه، أو تصلح دنياكم، وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم ... قال ابن كثير: اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك. ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل. ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب. يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف. ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم. والله أعلم. [القاسمي (٦/ ١٥٥)].

(٢) هذه التفصيلات من أقاصيص الإسرائيليات، وما يأتي عن بني إسرائيل ويحكى عنهم ذكر أهل العلم أنه على ثلاثة أقسام: قسم يوافق ما في القرآن فيصدق، وهكذا ما وافق السنة الصحيحة، وقسم يخالف القرآن والسنة، فهذا باطل مكذب، وقسم ثالث ليس في القرآن والسنة ما يدل على صدقه ولا على كذبه، فهذا يروى ويحكى ولا يصدق ولا يكذب، كما قال النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ». أخرجه البخاري (٤٤٨٥)، فما لم يرد في الكتاب والسنة ما يدل على صدقه وكذبه فإنه موقوف لا يكذب ولا يصدق، ولكن يحكى من باب التعجب لقوله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ». أخرجه البخاري (٣٤٦١).

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ نَرْمِي ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ ثِيَابِنَا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ﴾ بِمُصَدِّقٍ ﴿لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ عِنْدَكَ، لَاتَّهَمْتَنَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ لِمَحَبَّةِ يُوسُفَ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تُسِيءُ الظَّنَّ بِنَا. ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ مَحَلُّهُ نَصْبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، أَيْ: فَوْقَهُ ﴿بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ أَيْ: ذِي كَذِبٍ، بِأَنْ ذَبَحُوا سَخْلَةً وَلَطَّخُوهُ بِدَمِهَا، وَذَهَلُوا عَنْ شَقِّهِ، وَقَالُوا إِنَّهُ دَمُهُ ﴿قَالَ﴾ يَعْقُوبُ لَمَّا رَآهُ صَحِيحًا وَعَلِمَ كَذِبَهُمْ ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ زَيَّنَتْ ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ فَفَعَلْتُمُوهُ بِهِ ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ لَا جَزَعَ فِيهِ[1]، وَهُوَ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: أَمْرِي ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْعَوْنُ ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ تَذْكُرُونَ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ. ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ مُسَافِرُونَ مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ، فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ جُبِّ يُوسُفَ ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ الَّذِي يَرِدُ الْمَاءَ لِيَسْتَقِيَ مِنْهُ ﴿فَأَدۡلَىٰ﴾ أَرْسَلَ ﴿دَلۡوَهُۥۖ﴾ فِي الْبِئْرِ، فَتَعَلَّقَ بِهَا يُوسُفُ فَأَخْرَجَهُ، فَلَمَّا رَآهُ ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ وَنِدَاؤُهَا مَجَازٌ، أَيِ: احْضُرِي فَهَذَا وَقْتُكِ ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ فَعَلِمَ بِهِ إِخْوَتُهُ فَأَتَوْهُ[2] ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أَيْ: أَخْفَوْا أَمْرَهُ جَاعِلِيهِ ﴿بِضَٰعَةٗۚ﴾ بِأَنْ قَالُوا: هَذَا عَبْدُنَا أَبَقَ، وَسَكَتَ يُوسُفُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقْتُلُوهُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩ وَشَرَوۡهُ﴾ بَاعُوهُ مِنْهُمْ ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ نَاقِصٍ ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ عِشْرِينَ، أَوِ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ ﴿وَكَانُواْ﴾ أَيْ: إِخْوَتُهُ ﴿فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ فَجَاءَتْ بِهِ السَّيَّارَةُ إِلَى مِصْرَ، فَبَاعَهُ الَّذِي اشْتَرَاهُ بِعِشْرِينَ دِينَارًا وَزَوْجَيْ نَعْلٍ وَثَوْبَيْنِ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ﴾ وَهُوَ قِطْفِيرُ الْعَزِيزُ ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ زُلَيْخَا ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ مُقَامَهُ عِنْدَنَا ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ وَكَانَ حَصُورًا[3] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجُبِّ، وَعَطَّفْنَا عَلَيْهِ قَلْبَ الْعَزِيزِ ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، عُطِفَ عَلَى مُقَدَّرٍ مُتَعَلِّقٍ بِـ﴿مَكَّنَّا﴾

---

(١) ذكر الله الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فالصبر الجميل الذي لا شكوى معه، والهجر الجميل الذي لا أذى معه، والصفح الجميل الذي لا عتاب معه. [مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ١٨٣)].

(٢) أي: أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف عن بقية الرفقة فلم يظهروه لهم، وقيل: أنهم لم يخفوه ولكن أخفوا وجدانهم له في الجب وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليبيعوه لهم بمصر. وقال مجاهد: أسره التجار بعضهم من بعض، وقيل: ضمير الفاعل في أسروه لإخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام فأتاه يوم خروجه من البئر فلم يجده فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم، وسكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه. وعن ابن عباس: يعني إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فباعه إخوته بثمن بخس والأول أولى. [صديق حسن (٦/ ٣٠٣)].

(٣) قيل: كان العزيز حصوراً لا يأتي النساء أو كان عقيماً لا يولد له. [صديق حسن (٦/ ٣٠٦)].

أَيْ: لِنُملِّكَهُ، أَوِ «الْوَاوُ» زَائِدَةٌ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ تَعَالَى لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وَهُمُ الْكُفَّارُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ ذَلِكَ. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ وَثَلَاثٌ[1] ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا﴾ حِكْمَةً ﴿وَعِلۡمًاۚ﴾ فِقْهًا فِي الدِّينِ، قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ لِأَنْفُسِهِمْ. ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ هِيَ زُلَيْخَا ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ أَيْ: طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُوَاقِعَهَا ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ لِلْبَيْتِ ﴿وَقَالَتۡ﴾ لَهُ: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أَيْ: هَلُمَّ، وَاللَّامُ: لِلتَّبْيِينِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ الْهَاءِ، وَأُخْرَى بِضَمِّ التَّاءِ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُۥ﴾ الَّذِي اشْتَرَانِي ﴿رَبِّيٓ﴾ سَيِّدِي ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ مُقَامِي فَلَا أَخُونُهُ فِي أَهْلِهِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الشَّأْنُ ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ الزُّنَاةُ. ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ قَصَدَتْ مِنْهُ الْجِمَاعَ ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قَصَدَ ذَلِكَ[3] ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ

---

(١) قال الراغب: وفيه تنبيه على أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله ولم يقل هنا واستوى كما قال في شأن موسى في سورة القصص لأن موسى كان قد بلغ أربعين سنة وهي مدة النبوة فقد استوى وتهيأ لحمل أعباء الرسالة وأسرار النبوة وأما يوسف فلم يكن إذ ذاك بلغ هذا السن. [صديق حسن (٦/ ٣٠٨)].

(٢) قيل: جعلناه المستولي على الحكم، فكان يحكم في سلطان الملك، أي: وآتيناه علما بالحكم. وقال مجاهد: العقل والفهم والنبوة. وقيل: الحكم النبوة، والعلم علم الدين، وقيل: علم الرؤيا، ومن قال: أوتي النبوة صبيا، قال: لما بلغ أشده زدناه فهما وعلما. [القرطبي].

(٣) ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه، ولكن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به. أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود. أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ .... وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ .... وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ .... وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾. فإن قيل: قد بينتم دلالة القرآن على براءته عليه السلام مما لا ينبغي في الآيات المتقدمة، ولكن ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾؟ فالجواب من وجهين: الأول: إن المراد بـ«هم يوسف بها» خاطر قلبي صرف عنه وازع التقوى، وقال بعضهم: هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف، كما في الحديث عنه ﷺ: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ». أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، يعني ميل القلب الطبيعي... بخلاف هم امرأة العزيز، فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه. ومثل هذا التصميم على المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه ﷺ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قالوا: يا

﴿رَبِّهِۦ﴾ قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: مُثِّلَ لَهُ يَعْقُوبُ فَضَرَبَ صَدْرَهُ فَخَرَجَتْ شَهْوَتُهُ مِنْ أَنَامِلِهِ(١)، وَجَوَابُ ﴿لَوْلَآ﴾ مَحْذُوفٌ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَرَيْنَاهُ اَلْبُرْهَانَ ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ اَلْخِيَانَةَ ﴿وَٱلْفَحْشَآءَۚ﴾ الزِّنَى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ٢٤﴾ فِي اَلطَّاعَةِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ «اَللَّامِ»، أَيِ: اَلْمُخْتَارِين. ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ بَادَرَ إِلَيْهِ يُوسُفُ لِلْفِرَارِ وَهِيَ لِلتَّشَبُّثِ بِهِ، فَأَمْسَكَتْ ثَوْبَهُ وَجَذَبَتْهُ إِلَيْهَا ﴿وَقَدَّتْ﴾ شَقَّتْ ﴿قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا﴾ وَجَدَا ﴿سَيِّدَهَا﴾ زَوْجَهَا ﴿لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ فَنَزَّهَتْ نَفْسَهَا، ثُمَّ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ زِنًا ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ يُحْبَسَ فِي سِجْنٍ ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٥﴾ مُؤْلِمٌ بِأَنْ يُضْرَبَ. ﴿قَالَ﴾ يُوسُفُ مُتَبَرِّئًا: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ اِبْنُ عَمِّهَا، رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ فِي اَلْمَهْدِ(٢)، فَقَالَ: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ قُدَّامٍ ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ

رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». أخرجه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨). فصرح ﷺ بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار .... والجواب الثاني وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف لم يقع منه هم أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان. قال مقيده عفا الله عنه: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب: أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، .... وعلى هذا القول: فمعنى الآية، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، أي: لولا أن رآه هم بها، فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فما قبل لولا دليل الجواب، أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به. [الشنقيطي (٣/ ٦٦)].

(١) اختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو، فقيل: أن زليخا قامت عند أن همت به وهم بها إلى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال ما تصنعين؟ قالت: استحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى إن استحي من الله تعالى .... وقيل: نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء، وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدار عاضاً على أنملته يتوعده... وقيل: مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: رأى جبريل ... قال الخفاجي: هذا مع ما في القصص ونحوه مما لا يليق ذكره، وتركه أحسن منه كله مما لا أصل له والنص ناطق بخلافه، والبرهان ما عنده من العلم الدال على تحريم ما همت به وإنه لا يمكن الهم فضلاً عن الوقوع فيه، هذا هو الذي يجب اعتقاده والحمل عليه.ا.هـ... والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما هم به والله أعلم بما هو وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه بلا دليل يدل عليه من السنة المطهرة واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً. [صديق حسن (٦/ ٣١٤)].

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكلم أربعة صغار: عيسى ابن مريم عليه السلام، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون. أخرجه أحمد (٢٨٢١)، والطبراني (١٢٢٨٠). وكونه من أهلها أوجبُ للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف، وكونه لم يتكلم قط، ثم تكلم بذلك كرامة ليوسف عليه السلام. [ابن جزي (١/ ٣٨٥)].

قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ خلفٍ ﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا﴾ زَوْجُهَا ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: قَوْلَكِ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أَيُّهَا النِّسَاءُ ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾. ثُمَّ قَالَ: يَا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ الْأَمْرِ وَلَا تَذْكُرْهُ، لِئَلَّا يَشِيعَ ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾ يَا زُلَيْخَا ﴿لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ الْآثِمِينَ(١). وَاشْتَهَرَ الْخَبَرُ وَشَاعَ ﴿۞وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مَدِينَةِ مِصْرَ ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ عَبْدَهَا ﴿عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تَمْيِيزٌ، أَيْ: دَخَلَ حُبُّهُ شِغَافَ قَلْبِهَا، أَيْ: غِلَافَهُ ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ﴾ خَطَأٍ ﴿مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ بَيِّنٍ بِحُبِّهَا إِيَّاهُ. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ غِيبَتِهِنَّ لَهَا ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ﴾ أَعَدَّتْ ﴿لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ طَعَامًا يُقَطَّعُ بِالسِّكِّينِ، لِلِاتِّكَاءِ عِنْدَهُ، وَهُوَ الْأُتْرُجُّ ﴿وَءَاتَتْ﴾ أَعْطَتْ ﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ﴾ لِيُوسُفَ: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أَعْظَمْنَهُ ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بِالسَّكَاكِينِ وَلَمْ يَشْعُرْنَ بِالْأَلَمِ لِشُغْلِ قَلْبِهِنَّ بِيُوسُفَ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿مَا هَٰذَا﴾ أَيْ: يُوسُفُ ﴿بَشَرًا إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ لِمَا حَوَاهُ مِنَ الْحُسْنِ الَّذِي لَا يَكُونُ عَادَةً فِي النَّسَمَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّهُ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ»(٢). ﴿قَالَتْ﴾ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ لَمَّا رَأَتْ مَا حَلَّ بِهِنَّ: ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ فَهَذَا هُوَ ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ فِي حُبِّهِ، بَيَانٌ لِعُذْرِهَا ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ امْتَنَعَ ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ بِهِ ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ الذَّلِيلِينَ. فَقُلْنَ لَهُ: أَطِعْ مَوْلَاتَكَ، ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ﴾ أَمِلْ ﴿إِلَيْهِنَّ وَأَكُن﴾ أَصِرْ ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾ الْمُذْنِبِينَ، وَالْقَصْدُ بِذَلِكَ الدُّعَاءُ، فَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ دُعَاءَهُ ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٣٤﴾ بِالْفِعْلِ. ﴿ثُمَّ بَدَا﴾ ظَهَرَ ﴿لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدَّالَّاتِ عَلَى بَرَاءَةِ يُوسُفَ أَنْ يَسْجِنُوهُ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ﴾ إِلَى ﴿حِينٍ ۝٣٥﴾ يَنْقَطِعُ فِيهِ كَلَامُ النَّاسِ. فَسُجِنَ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ غُلَامَانِ لِلْمَلِكِ، أَحَدُهُمَا سَاقِيهِ وَالْآخَرُ صَاحِبُ طَعَامِهِ، فَرَأَيَاهُ يُعَبِّرُ الرُّؤْيَا فَقَالَا: لَنَخْتَبِرَنَّهُ(٣) ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وَهُوَ السَّاقِي: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾

---

(١) قال أبو بكر الأصم: إن ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار. قال صاحب الكشاف: وإنما قال من الخاطئين بلفظ التذكير، تغليبا للذكور على الإناث، ويحتمل أن يقال: المراد إنك من نسل الخاطئين، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك. والله أعلم. [الرازي (١٨/ ٤٤٧)].

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٣) كان تعبير الرؤيا من فنون علمائهم فلذلك أيد الله به يوسف عليه السلام بينهم. وهذان الفتيان توسما من يوسف عليه السلام كمال

أَيْ: عِنبًا ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وَهُوَ صَاحِبُ الطَّعَامِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا﴾ خَبِّرْنَا ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ بِتَعْبِيرِهِ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ﴾ لَهُمَا مُخْبِرًا أَنَّهُ عَالِمٌ بِتَعْبِيرِ الرُّؤْيَا: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ فِي مَنَامِكُمَا ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ فِي الْيَقَظَةِ ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ تَأْوِيلُهُ ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ فِيهِ حَثٌّ عَلَى إِيمَانِهِمَا، ثُمَّ قَوَّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ﴾ دِينَ ﴿قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم﴾ تَأْكِيدٌ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ﴾ يَنْبَغِي ﴿لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيۡءٖۚ﴾ لِعِصْمَتِنَا ﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّوْحِيدُ ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وَهُمُ الْكُفَّارُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ اللهَ فَيُشْرِكُونَ. ثُمَّ صَرَّحَ بِدُعَائِهِمَا إِلَى الْإِيمَانِ فَقَالَ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ﴾ سَاكِنَي ﴿ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ خَيْرٌ، اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ. ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ سَمَّيْتُمْ بِهَا أَصْنَامًا ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ بِعِبَادَتِهَا ﴿مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ ﴿إِنِ﴾ مَا ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ الْقَضَاءُ ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ﴾ التَّوْحِيدُ ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ الْمُسْتَقِيمُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وَهُمُ الْكُفَّارُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ فَهُمْ يُشْرِكُونَ. ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ أَيِ: السَّاقِي فَيَخْرُجُ بَعْدَ ثَلَاثٍ ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾ سَيِّدَهُ ﴿خَمۡرٗاۖ﴾ عَلَى عَادَتِهِ ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ فَيَخْرُجُ بَعْدَ ثَلَاثٍ ﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكُمَا، فَقَالَا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا، فَقَالَ: ﴿قُضِيَ﴾ تَمَّ ﴿ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ سَأَلْتُمَا عَنْهُ صَدَّقْتُمَا، أَمْ كَذَّبْتُمَا(١). ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾ أَيْقَنَ ﴿أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾ وَهُوَ السَّاقِي: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ سَيِّدِكَ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّ فِي السِّجْنِ غُلَامًا مَحْبُوسًا ظُلْمًا، فَخَرَجَ ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ أَيِ: السَّاقِيَ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ﴾ يُوسُفَ عِنْدَ ﴿رَبِّهِۦ فَلَبِثَ﴾ مَكَثَ يُوسُفُ ﴿فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ قِيلَ: سَبْعًا، وَقِيلَ: اِثْنَتَيْ عَشْرَةَ. ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ مَلِكُ مِصْرَ الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ أَيْ: رَأَيْتُ ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ﴾ يَبْتَلِعُهُنَّ ﴿سَبۡعٌ﴾ مِنَ الْبَقَرِ ﴿عِجَافٞ﴾ جَمْعُ عَجْفَاءَ ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ﴾ أَيْ: سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ

العقل والفهم فظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا ولم يكونا علما منه ذلك من قبل، وقد صادفا الصواب، ولذلك قالا: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي المحسنين التعبير، أو المحسنين الفهم. [ابن عاشور (١٢/ ٢٦٩)].

(١) قال مقاتل بن سليمان: فكره الخباز تعبير رؤياه، فقال: ما رأيت شيئًا، إنما كنت ألعب. فقال له يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ يقول: رأيتما أو لم تريا فقد وقع بكما ما عَبَّرت لكما. [مقاتل (٢/ ٣٣٥)].

﴿يَابِسَٰتٖ﴾ قَدِ الْتَوتْ عَلَى الْخُضْرِ، وَعَلَتْ عَلَيْهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾ بَيِّنُوا لِي تَعْبِيرَهَا ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ٤٣﴾ فَاعْبُرُوهَا. ﴿قَالُوٓاْ﴾ هَذِهِ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٖ﴾ أَخْلَاطُ(١) ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أَيْ: مِنَ الْفَتَيَيْنِ وَهُوَ السَّاقِي ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ فِيهِ إِبْدَالُ «التَّاءِ» فِي الْأَصْلِ «دَالًا»، وَإِدْغَامُهَا فِي «الدَّالِ»، أَيْ: تَذَكَّرَ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ حِينٍ حَالَ يُوسُفَ، قَالَ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ٤٥﴾ فَأَرْسَلُوهُ. فَأَتَى يُوسُفَ فَقَالَ: يَا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ الْكَثِيرُ الصِّدْقِ ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٞ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أَيِ: الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ٤٦﴾ تَعْبِيرَهَا. ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ أَيِ: ازْرَعُوا ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ مُتَتَابِعَةً، وَهِيَ تَأْوِيلُ السَّبْعِ السِّمَانِ ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ أَيِ: اتْرُكُوهُ ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ لِئَلَّا يَفْسُدَ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧﴾ فَادْرُسُوهُ. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: السَّبْعِ الْمُخْصِبَاتِ ﴿سَبْعٞ شِدَادٞ﴾ مُجْدِبَاتٌ صِعَابٌ، وَهِيَ تَأْوِيلُ السَّبْعِ الْعِجَافِ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ مِنَ الْحَبِّ الْمَزْرُوعِ فِي السِّنِينَ الْمُخْصِبَاتِ، أَيْ: تَأْكُلُونَهُ فِيهِنَّ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ٤٨﴾ تَدَّخِرُونَ. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: السَّبْعِ الْمُجْدِبَاتِ ﴿عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ٤٩﴾ الْأَعْنَابَ وَغَيْرَهَا لِخِصْبِهِ. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ لَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ وَأَخْبَرَهُ بِتَأْوِيلِهَا: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالَّذِي عَبَرَهَا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ﴾ أَيْ: يُوسُفُ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ وَطَلَبَهُ لِلْخُرُوجِ ﴿قَالَ﴾ قَاصِدًا إِظْهَارَ بَرَاءَتِهِ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ﴾ أَنْ يَسْأَلَ ﴿مَا بَالُ﴾ حَالُ ﴿ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي﴾ سَيِّدِي(٢) ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ فَرَجَعَ فَأَخْبَرَ الْمَلِكَ فَجَمَعَهُنَّ. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ شَأْنُكُنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ هَلْ وَجَدْتُنَّ مِنْهُ مَيْلًا إِلَيْكُنَّ؟ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا

---

(١) قال ابن الأنباري: ومعنى الآية: أنهم نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له من الرؤيا، ولم ينفوا عن أنفسهم علم تأويل ما يصح منها، فعنوا بقولهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٖ﴾ هذه منامات كاذبة لا يصح تأويلها، وما نحن بتأويل الأحلام التي هذا وصفها بعالمين، إذ كنا نعلم تأويل ما يصح، هذا معنى قول أكثر المفسرين: الكلبي وغيره، ونحوه قال ابن عباس في رواية عطاء، وهو اختيار الزجاج؛ لأنه قال: إنهم قالوا له رؤياك أخلاط، وليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل، فعلى هذا لم يقروا بالجهل والعجز عن تأويل الأحلام، وإنما قالوا: إن رؤياك فاسدة ولا تأويل للفاسدة عندنا، وذهب آخرون إلى أنهم قالوا: هذه منامات مختلطة لا نعلمها نحن؛ إذ لم نكن من أهل العبارة، إنما يعلمها من خص بالنفاذ في البصر، وحسن استخراج ما يغمض من تأويلها، ذهب إلى هذا المعنى مقاتل بن سليمان ونفر معه. [الواحدي (١٢/ ١٣٠)].

(٢) فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنياً عن التصريح، وقيل: المراد بالرب هنا الملك وجعله رباً لنفسه لكونه مربياً له، والأول أولى وفيه تعظيم كيدهن والوعيد لهن على كيدهن. [صديق حسن (٦/ ٣٥٢)].

عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ﴾ وَضَحَ ﴿ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿هِىَ رَٰوَدَتۡنِى عَن نَّفۡسِىۚ﴾ فَأُخْبِرَ يُوسُفُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: طَلَبُ الْبَرَاءَةِ ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ الْعَزِيزُ ﴿أَنِّى لَمۡ أَخُنۡهُ﴾ فِي أَهْلِهِ(١) ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حَالٌ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾. ثُمَّ تَوَاضَعَ لِلَّهِ، فَقَالَ: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِىٓۚ﴾ مِنَ الزَّلَلِ ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ الْجِنْسَ ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾ كَثِيرَةُ الْأَمْرِ ﴿بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا﴾ بِمَعْنَى «مَنْ» ﴿رَحِمَ رَبِّىٓۚ﴾ فَعَصَمَهُ ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِى بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِىۖ﴾ أَجْعَلْهُ خَالِصًا لِي دُونَ شَرِيكٍ، فَجَاءَهُ الرَّسُولُ وَقَالَ: أَجِبِ الْمَلِكَ، فَقَامَ وَوَدَّعَ أَهْلَ السِّجْنِ وَدَعَا لَهُمْ، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَلَبِسَ ثِيَابًا حِسَانًا، وَدَخَلَ عَلَيْهِ ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ﴾ لَهُ: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ۝٥٤﴾ ذُو مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ عَلَى أَمْرِنَا، فَمَاذَا تَرَى أَنْ نَفْعَلَ؟ قَالَ: اجْمَعِ الطَّعَامَ وَازْرَعْ زَرْعًا كَثِيرًا فِي هَذِهِ السِّنِينَ الْمُخْصِبَةِ، وَادَّخِرِ الطَّعَامَ فِي سُنْبُلِهِ، فَتَأْتِي إِلَيْكَ الْخَلْقُ لِيَمْتَارُوا مِنْكَ. فَقَالَ: وَمَنْ لِي بِهَذَا؟ ﴿قَالَ﴾ يُوسُفُ لَهُ: ﴿ٱجۡعَلۡنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥﴾ ذُو حِفْظٍ وَعِلْمٍ بِأَمْرِهَا، وَقِيلَ: كَاتِبٌ حَاسِبٌ(٢). ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَإِنْعَامِنَا عَلَيْهِ بِالْخَلَاصِ مِنَ السِّجْنِ ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ يَنْزِلُ ﴿مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ بَعْدَ الضِّيقِ وَالْحَبْسِ، وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّ الْمَلِكَ تَوَّجَهُ وَخَتَّمَهُ وَوَلَّاهُ مَكَانَ الْعَزِيزِ وَعَزَلَهُ وَمَاتَ بَعْدُ، فَزَوَّجَهُ امْرَأَتَهُ فَوَجَدَهَا عَذْرَاءَ، وَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ(٣)، وَأَقَامَ الْعَدْلَ بِمِصْرَ وَدَانَتْ

---

(١) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحق وظهر وبرز. ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتۡنِى عَن نَّفۡسِىۚ﴾، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّى لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ذلك ليعلم زوجي أن لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِىٓۚ﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى ... وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة. [ابن كثير (٤/ ٣٩٤)].

(٢) صفتان تعمان وجوه المعرفة والضبط للخزائن وقيل: حفيظ للحساب عليم بالألسن، واللفظ أعم من ذلك، ويستدل بذلك أنه يجوز للرجل أن يعرف بنفسه ويمدح نفسه بالحق إذا جهل أمره وإذا كان في ذلك فائدة. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٩٠)].

(٣) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٧/ ٢١٦١)، والطبري في جامع البيان (١٦/ ١٥١). وورد نحوه عن زيد بن أسلم التابعي الجليل، وعن وهب بن منبه المعروف بالرواية عن الإسرائيليات. نقل ذلك السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٥٣). وقال ابن القيم رحمه الله: مَن ترك لله شيئًا عوضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجن على الفاحشة، فعوضه الله أن مكّنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرة سائلة راغبة في الوصل الحلال، فتزوجها فلما دخل بها، قال: هذا خير مما كنت تريدين.

لَهُ الرِّقَابُ ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ﴾ مِنْ أَجْرِ الدُّنْيَا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾. وَدَخَلَتْ سِنِيُّ الْقَحْطِ، وَأَصَابَ أَرْضَ كَنْعَانَ وَالشَّامِ ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ إِلَّا بِنْيَامِينَ، لِيَمْتَارُوا لَمَّا بَلَغَهُمْ أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ يُعْطِي الطَّعَامَ بِثَمَنِهِ ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ أَنَّهُمْ إِخْوَتُهُ ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ لَا يَعْرِفُونَهُ لِبُعْدِ عَهْدِهِمْ بِهِ وَظَنِّهِمْ هَلَاكَهُ، فَكَلَّمُوهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، فَقَالَ كَالْمُنْكِرِ عَلَيْهِمْ: مَا أَقْدَمَكُمْ بِلَادِي؟ فَقَالُوا: لِلْمِيرَةِ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ عُيُونٌ؟ قَالُوا: مَعَاذَ اللهِ، قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ، وَأَبُونَا يَعْقُوبُ نَبِيُّ اللهِ، قَالَ: وَلَهُ أَوْلَادٌ غَيْرُكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، كُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ فَذَهَبَ أَصْغَرُنَا هَلَكَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ أَحَبَّنَا إِلَيْهِ، وَبَقِيَ شَقِيقُهُ فَاحْتَبَسَهُ لِيَتَسَلَّى بِهِ عَنْهُ، فَأَمَرَ بِإِنْزَالِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ. ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ وَفَّى لَهُمْ كَيْلَهُمْ ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ أَيْ: بِنْيَامِينَ لِأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا قُلْتُمْ ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ أُتِمُّهُ مِنْ غَيْرِ بَخْسٍ ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ أَيْ: مِيرَةَ ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾ نَهْيٌ، أَوْ عَطْفٌ عَلَى مَحَلِّ ﴿فَلَا كَيْلَ﴾، أَيْ: تُحْرَمُوا وَلَا تَقْرَبُوا. ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سَنَجْتَهِدُ فِي طَلَبِهِ مِنْهُ ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ۝٦١﴾ ذَلِكَ. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰتِهِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ غِلْمَانِهِ ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ الَّتِي أَتَوْا بِهَا ثَمَنَ الْمِيرَةِ وَكَانَتْ دَرَاهِمَ ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أَوْعِيَتِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وَفَرَّغُوا أَوْعِيَتَهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٦٢﴾ إِلَيْنَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِلُّونَ إِمْسَاكَهَا. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ إِنْ لَمْ تُرْسِلْ أَخَانَا إِلَيْهِ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلْ﴾ مَا ﴿ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يُوسُفَ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وَقَدْ فَعَلْتُمْ بِهِ مَا فَعَلْتُمْ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًاۖ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿حَٰفِظًاۖ﴾ تَمْيِيزٌ، كَقَوْلِهِمْ: «لِلَّهِ دَرُّهُ فَارِسًا» ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ فَأَرْجُو أَنْ يَمُنَّ بِحِفْظِهِ. ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ﴾ ﴿مَا﴾ اسْتِفْهَامِيَّةٌ، أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ نَطْلُبُ مِنْ إِكْرَامِ الْمَلِكِ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا، وَقُرِئَ: بِالْفَوْقَانِيَّةِ(١) خِطَابًا لِيَعْقُوبَ، وَكَانُوا ذَكَرُوا لَهُ إِكْرَامَهُ لَهُمْ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نَأْتِي بِالْمِيرَةِ لَهُمْ وَهِيَ الطَّعَامُ

فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن، أن مكَّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذل له العزيز امرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة. انتهى من روضة المحبين (ص:٤٤٥). وهذا لا يعني القطع بثبوت هذه القصة، بل الظاهر أنها مأخوذة عن أهل الكتاب، وقد أمرنا بعدم تصديقهم وعدم تكذيبهم أيضاً، قال النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». رواه البخاري (٤٤٨٥).

(١) ﴿تَبْغِيۖ﴾ وهي قراءة شاذة.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لِأَخِينا ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ۝٦٥﴾ سَهْلٌ عَلَى الْمَلِكِ لِسَخَائِهِ(١). ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾ عَهْدًا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بِأَنْ تَحْلِفُوا ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ بِأَنْ تَمُوتُوا أَوْ تُغْلَبُوا فَلا تُطِيقُوا الْإِتْيَانَ بِهِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ بِذَلِكَ ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ نَحْنُ وَأَنْتُمْ ﴿وَكِيلٌ ۝٦٦﴾ شَهِيدٌ، وَأَرْسَلَهُ مَعَهُمْ. ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟﴾ مِصْرَ ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لِئَلَّا تُصِيبَكُمُ الْعَيْنُ(٢) ﴿وَمَآ أُغْنِى﴾ أَدْفَعُ ﴿عَنكُم﴾ بِقَوْلِي ذَلِكَ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَىْءٍ﴾ قَدَّرَهُ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَفَقَةٌ ﴿إِنِ﴾ مَا ﴿ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ بِهِ وَثِقْتُ ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أَيْ: مُتَفَرِّقِينَ ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: قَضَائِهِ ﴿مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَىْءٍ إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وَهِيَ: إِرَادَةُ دَفْعِ الْعَيْنِ شَفَقَةً ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وَهُمُ الْكُفَّارُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ إِلْهَامَ اللهِ لِأَصْفِيَائِهِ(٣). ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ﴾ ضَمَّ ﴿إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ تَحْزَنْ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٦٩﴾ مِنَ الْحَسَدِ لَنَا، وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يُخْبِرَهُمْ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ عَلَى أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَى أَنْ يُبْقِيَهُ عِنْدَهُ. ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾

---

(١) أي: مكيل قليل لا يكفينا، استقلوا ما كيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: ذلك شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك ولا يتعاظمه، وقيل: إنه من كلام يعقوب ومعناه، إن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد. [البيضاوي (٣/ ١٦٩)].

(٢) أكثر المفسرين على أنه خاف العين: لأنه كانوا أعطوا جمالا وقوة وامتداد قامة، هذا قول ابن عباس وغيره من المفسرين، والعين حق. وقد روي عن النبي أنه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ». أخرجه البخاري (٣٣٧١). وفي الباب أخبار كثيرة، وفي بعض الآثار: «الْعَيْنُ حَقٌّ تُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ وَالرَّجُلَ الْقَبْرَ». أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠)، والخطيب في تاريخه (٩/ ٢٤٤). وفي الآية قول آخر: وهو أنه خاف عليهم ملك مصر إذا رأى قوتهم واجتماعهم أن يحبسهم أو يقتلهم ... والصحيح هو الأول. [السمعاني (٣/ ٤٧)].

(٣) الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ منقطع، والمعنى ولكن حاجة كانت في نفسه وهي شفقته عليهم ومحبته لسلامتهم أظهرها يعقوب لهم ووصاهم بها غير معتقد إن للتدبير الذي دبره لهم تأثيراً في دفع ما قضاه الله عليهم. [صديق حسن (٦/ ٣٧٠)]. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: علم جليل، لتعليمنا إياه بالوحي، ونصب الأدلة، حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر، وأن التدبير له حظ من التأثير. وفي تأكيد الجملة بـ«إن» و«اللام» وتنكير العلم، وتعليله بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه؛ من الدلالة على شأن يعقوب عليه السلام، وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى، أفاده أبو السعود. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فيظنون الأسباب مؤثرات. [القاسمي (٦/ ١٩٨)].

هِيَ صَاعٌ مِنَ الذَّهَبِ مُرَصَّعٌ بِالْجَوْهَرِ(١) ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بِنْيَامِينَ ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نَادَى مُنَادٍ بَعْدَ انْفِصَالِهِمْ عَنْ مَجْلِسِ يُوسُفَ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ الْقَافِلَةُ ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُواْ وَ﴾ قَدْ ﴿أَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا﴾ مَا الَّذِي ﴿تَفْقِدُونَ ۝٧١﴾ ـهُ. ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ﴾ صَاعَ ﴿ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ مِنَ الطَّعَامِ ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ﴾ بِالْحِمْلِ ﴿زَعِيمٌ ۝٧٢﴾ كَفِيلٌ. ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾ مَا سَرَقْنَا قَطُّ. ﴿قَالُواْ﴾ أَيِ: الْمُؤَذِّنُ وَأَصْحَابُهُ: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أَيِ: السَّارِقُ ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤﴾ فِي قَوْلِكُمْ: «مَا كُنَّا سَارِقِينَ»، وَوُجِدَ فِيكُمْ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ يُسْتَرَقُّ، ثُمَّ أُكِّدَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَهُوَ﴾ أَيِ: السَّارِقُ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أَيِ: الْمَسْرُوقُ لَا غَيْرُ، وَكَانَتْ سُنَّةَ آلِ يَعْقُوبَ(٢) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الْجَزَاءِ ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ بِالسَّرِقَةِ. فَصُرِفُوا إِلَى يُوسُفَ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَتِهِمْ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ فَفَتَّشَهَا ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لِئَلَّا يُتَّهَمَ ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أَيِ: السِّقَايَةَ ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الْكَيْدِ ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ عَلَّمْنَاهُ الِاحْتِيَالَ فِي أَخْذِ أَخِيهِ(٣) ﴿مَا كَانَ﴾ يُوسُفُ ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ رَقِيقًا عَنِ السَّرِقَةِ ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ حُكْمِ مَلِكِ مِصْرَ، لِأَنَّ جَزَاءَهُ عِنْدَهُ الضَّرْبُ وَتَغْرِيمُ مِثْلَيِ الْمَسْرُوقِ لَا الِاسْتِرْقَاقُ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَخْذَهُ بِحُكْمِ أَبِيهِ، أَيْ: لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ أَخْذِهِ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ بِإِلْهَامِهِ سُؤَالَ إِخْوَتِهِ وَجَوَابِهِمْ بِسُنَّتِهِمْ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بِالْإِضَافَةِ وَالتَّنْوِينِ فِي الْعِلْمِ كَيُوسُفَ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ﴾ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ﴿عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ أَعْلَمُ مِنْهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى اللهِ

---

(١) السقاية: هي إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب قاله ابن زيد كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد. [ابن كثير (٤/ ٤٠٠)].

(٢) هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستعبد السارق، وكان في دين مصر أن يضرب ويضعف عليه الغرم، فعلم يوسف أن إخوته -لثقتهم ببراءة ساحتهم- سيدعون في السرقة إلى حكمهم، فتحيل لذلك، واستسهل الأمر على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخال الهم على يعقوب عليه السلام وعليهم، لما علم في ذلك من الصلاح في الأجل، وبوحي لا محالة وإرادة من الله محنتهم بذلك. هذا تأويل قوم، ويقويه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾. وقيل: إنما أوحي إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط، ثم إن حافظها فقدها، فنادى برأيه على ما ظهر إليه، ورجحه الطبري، وتفتيش الأوعية يرد عليه. وقيل: إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا، وأنه عوقب على ذلك بأن قالوا: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾. [ابن عطية (٣/ ٢٦٣)].

(٣) قال ابن الأعرابي: الكيد التدبير بالباطل وبالحق، وقيل: الكيد هنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا بيوسف عليه السلام في الابتداء فعلنا بهم، وقيل غير ذلك والأول أولى، وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعـًا ثابتـًا. [صديق حسن (٦/ ٣٧٧)].

تعالَى. ﴿*قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ أَيْ: يُوسُفُ وَكَانَ سَرَقَ لِأَبِي أُمِّهِ صَنَمًا مِنْ ذَهَبٍ فَكَسَرَهُ لِئَلَّا يَعْبُدَهُ(١) ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا﴾ يُظْهِرْهَا ﴿لَهُمۡۚ﴾ وَالضَّمِيرُ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ ﴿قَالَ﴾ فِي نَفْسِهِ: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ لِسَرِقَتِكُمْ أَخَاكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ وَظُلْمِكُمْ لَهُ ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ عَالِمٌ ﴿بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ تَذْكُرُونَ مِنْ أَمْرِهِ. ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ يُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنَّا، وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنْ وَلَدِهِ الْهَالِكِ وَيُحْزِنُهُ فِرَاقُهُ ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا﴾ اسْتَعْبِدْهُ ﴿مَكَانَهُۥٓۖ﴾ بَدَلًا مِنْهُ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ فِي أَفْعَالِكَ. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ حُذِفَ فِعْلُهُ وَأُضِيفَ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَيْ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ﴿أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ لَمْ يَقُلْ: «مَنْ سَرَقَ» تَحَرُّزًا مِنَ الْكَذِبِ ﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ إِنْ أَخَذْنَا غَيْرَهُ ﴿لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾ يَئِسُوا ﴿مِنۡهُ خَلَصُواْ﴾ اعْتَزَلُوا ﴿نَجِيّٗاۖ﴾ مَصْدَرٌ يَصْلُحُ لِلْوَاحِدِ وَغَيْرِهِ، أَيْ: يُنَاجِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ سِنًّا «رُوبِيلُ»، أَوْ رَأْيًا «يَهُوذَا» ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا﴾ عَهْدًا ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فِي أَخِيكُمْ ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ وَقِيلَ: ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿مِن قَبۡلُ﴾، ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ﴾ أُفَارِقَ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ أَرْضَ مِصْرَ ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بِالْعَوْدَةِ إِلَيْهِ ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بِخَلَاصِ أَخِي ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ أَعْدَلُهُمْ. ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ﴾ عَلَيْهِ ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ تَيَقُّنًا مِنْ مُشَاهَدَةِ الصَّاعِ فِي رَحْلِهِ ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ﴾ لِمَا غَابَ عَنَّا حِينَ إِعْطَاءِ الْمَوْثِقِ ﴿حَٰفِظِينَ ٨١﴾ وَلَوْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يَسْرِقُ لَمْ نَأْخُذْهُ. ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ هِيَ مِصْرُ، أَيْ: أَرْسِلْ إِلَى أَهْلِهَا فَاسْأَلْهُمْ ﴿وَٱلۡعِيرَ﴾ أَيْ: أَصْحَابَ الْعِيرِ ﴿ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ كَنْعَانَ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾ فِي قَوْلِنَا، فَرَجَعُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ ذَلِكَ. ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ زَيَّنَتْ ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ فَفَعَلْتُمُوهُ، اتَّهَمَهُمْ لِمَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ صَبْرِي ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ﴾ بِيُوسُفَ وَأَخَوَيْهِ ﴿جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بِحَالِي ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ تَارِكًا خِطَابَهُمْ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ «الْأَلِفُ» بَدَلٌ مِنْ «يَاءِ» الْإِضَافَةِ، أَيْ: يَا حُزْنِي ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ انْمَحَقَ سَوَادُهُمَا وَبُدِّلَ بَيَاضًا مِنْ بُكَائِهِ ﴿مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ عَلَيْهِ ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾ مَغْمُومٌ مَكْرُوبٌ

---

(١) في البحر لابن المنير أن ما ذكر في تفسير السرقة تكلف لا يسوغ نسبة مثله إلى بيت النبوة ولا إلى أحد من الأشراف فالواجب تركه، وإليه ذهب مكي وفسره بعضهم بإن يسرق فقد سرق مثله من بني آدم، وذكر له نظائر في الحديث، قال الخفاجي وهو كلام حقيق بالقبول. [صديق حسن (٦/ ٣٨٠)]. وإنما قالوا: ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ بهتانا ونفيا للمعرة عن أنفسهم. وليس ليوسف عليه السلام يومئذ سرقة قبل. ولم يكن إخوة يوسف عليه السلام أنبياء. [ابن عاشور (١٣/ ٣٤)].

لَا يُظْهِرُ كَرْبَهُ. ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ لَا ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ تَزَالُ ﴿تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مُشْرِفًا عَلَى الْهَلَاكِ لِطُولِ مَرَضِكَ، وَهُوَ مَصْدَرٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَغَيْرُهُ ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الْمَوْتَى. ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ هُوَ عَظِيمُ الْحُزْنِ الَّذِي لَا يُصْبَرُ عَلَيْهِ حَتَّى يُبَثَّ إِلَى النَّاسِ ﴿وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لَا إِلَى غَيْرِهِ فَهُوَ الَّذِي تَنْفَعُ الشَّكْوَى إِلَيْهِ ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ مِنْ أَنَّ رُؤْيَا يُوسُفَ صِدْقٌ وَهُوَ حَيٌّ. ثُمَّ قَالَ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اُطْلُبُوا خَبَرَهُمَا ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ﴾ تَقْنَطُوا ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ رَحْمَتِهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ فَانْطَلَقُوا نَحْوَ مِصْرَ لِيُوسُفَ. ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ الْجُوعُ ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ مَدْفُوعَةٍ، يَدْفَعُهَا كُلُّ مَنْ رَآهَا لِرَدَاءَتِهَا، وَكَانَتْ دَرَاهِمَ زُيُوفًا أَوْ غَيْرَهَا ﴿فَأَوۡفِ﴾ أَتِمَّ ﴿لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ بِالْمُسَامَحَةِ عَنْ رَدَاءَةِ بِضَاعَتِنَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ يُثِيبُهُمْ، فَرَقَّ لَهُمْ وَأَدْرَكَتْهُ الرَّحْمَةُ وَرَفَعَ الْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ. ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ﴾ مِنَ الضَّرْبِ وَالْبَيْعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَأَخِيهِ﴾ مِنْ هَضْمِكُمْ لَهُ بَعْدَ فِرَاقِ أَخِيهِ ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ يُوسُفَ. ﴿قَالُوٓاْ﴾ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوهُ لِمَا ظَهَرَ مِنْ شَمَائِلِهِ مُسْتَثْبِتِينَ: ﴿أَءِنَّكَ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ ﴿لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ﴾ أَنْعَمَ ﴿ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بِالِاجْتِمَاعِ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ يَخَفِ اللهَ ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ عَلَى مَا يَنَالُهُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ. ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ﴾ فَضَّلَكَ ﴿ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بِالْمُلْكِ وَغَيْرِهِ ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: إِنَّا ﴿كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ آثِمِينَ فِي أَمْرِكَ فَأَذَلَّنَا اللهُ لَكَ. ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ﴾ عَتْبَ ﴿عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ خَصَّهُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مَظَنَّةُ التَّثْرِيبِ فَغَيْرُهُ أَوْلَى ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[1]. وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَبِيهِ، فَقَالُوا: ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ وَهُوَ قَمِيصُ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي لَبِسَهُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ كَانَ فِي عُنُقِهِ فِي الْجُبِّ وَهُوَ مِنَ الْجَنَّةِ أَمَرَهُ جِبْرِيلُ بِإِرْسَالِهِ، وَقَالَ: إِنَّ فِيهِ رِيحَهَا، وَلَا يُلْقَى عَلَى مُبْتَلًى إِلَّا عُوفِيَ[2] ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ﴾ يَصِرْ ﴿بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ خَرَجَتْ مِنْ عَرِيشِ مِصْرَ ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ لِمَنْ حَضَرَ مِنْ

---

(١) فسمح لهم سماحا تاما، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين. [السعدي (ص:٤٠٤)].

(٢) وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بعد، ولو كان من قمص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد. [ابن عطية (٣/ ٢٧٨)].

بَنِيهِ وَأَوْلَادِهِمْ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أَوْصَلَتْهُ إِلَيْهِ «الصَّبَا» بِإِذْنِهِ تَعَالَى مِنْ مَسِيرِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَوْ ثَمَانِيَةٍ، أَوْ أَكْثَرَ ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ تُسَفِّهُونِ لَصَدَّقْتُمُونِي ﴿قَالُواْ﴾ لَهُ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ﴾ خَطَئِكَ ﴿ٱلْقَدِيمِ ٩٥﴾ مِنْ إِفْرَاطِكَ فِي مَحَبَّتِهِ، وَرَجَاءِ لِقَائِهِ، عَلَى بُعْدِ الْعَهْدِ. ﴿فَلَمَّآ أَن﴾ زَائِدَةٌ ﴿جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ يَهُوذَا بِالْقَمِيصِ، وَكَانَ قَدْ حَمَلَ قَمِيصَ الدَّمِ، فَأَحَبَّ أَنْ يُفْرِحَهُ كَمَا أَحْزَنَهُ ﴿أَلْقَىٰهُ﴾ طَرَحَ الْقَمِيصَ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ﴾ رَجَعَ ﴿بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ أَخَّرَ ذَلِكَ إِلَى السَّحَرِ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى الْإِجَابَةِ، وَقِيلَ: إِلَى لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ. ثُمَّ تَوَجَّهُوا إِلَى مِصْرَ وَخَرَجَ يُوسُفُ وَالْأَكَابِرُ لِتَلَقِّيهِمْ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ فِي مَضْرِبِهِ ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ ضَمَّ ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أَبَاهُ وَأُمَّهُ أَوْ خَالَتَهُ ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ فَدَخَلُوا وَجَلَسَ يُوسُفُ عَلَى سَرِيرِهِ. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ السَّرِيرِ ﴿وَخَرُّواْ﴾ أَيْ: أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ ﴿لَهُۥ سُجَّدًا﴾ سُجُودَ انْحِنَاءٍ، لَا وَضْعَ جَبْهَةٍ، وَكَانَ تَحِيَّتَهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ إِلَيَّ ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ لَمْ يَقُلْ: «مِنَ الْجُبِّ»، تَكَرُّمًا لِئَلَّا يُخْجِلَ إِخْوَتَهُ ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ الْبَادِيَةِ[1] ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ أَفْسَدَ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ فِي صُنْعِهِ. وَأَقَامَ عِنْدَهُ أَبُوهُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، أَوْ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَتْ مُدَّةُ فِرَاقِهِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ، أَوْ أَرْبَعِينَ، أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَحَضَرَهُ الْمَوْتُ فَوَصَّى يُوسُفَ أَنْ يَحْمِلَهُ وَيَدْفِنَهُ عِنْدَ أَبِيهِ، فَمَضَى بِنَفْسِهِ وَدَفَنَهُ ثَمَّةَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ وَأَقَامَ بَعْدَهُ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَلَمَّا تَمَّ أَمْرُهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَدُومُ تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمُلْكِ الدَّائِمِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا ﴿فَاطِرَ﴾ خَالِقَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ مُتَوَلِّي صَالِحِي ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي

---

(١) هذه الآية يدل ظاهرها على أن بعض الأنبياء ربما بعث من البادية، وقد جاء في موضع آخر ما يدل على خلاف ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]. وأجيب عن هذا بأجوبة: منها أن يعقوب نبئ من الحضر، ثم انتقل بعد ذلك إلى البادية. ومنها أن المراد بالبدو نزول موضع اسمه بدا ... وهذا القول مروي عن ابن عباس، ولا يخفى بعد هذا القول كما نبه عليه الآلوسي في تفسيره. ومنها أن البدو الذي جاءوا منه مستند للحضر، فهو في حكمه، والله تعالى أعلم. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:١٧٥)].

بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ مِنْ آبائِي، فَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ أُسْبوعًا أَوْ أَكْثَرَ[1] وَمَاتَ وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَتَشَاحَّ الْمِصْرِيُّونَ فِي قَبْرِهِ فَجَعَلُوهُ فِي صُنْدُوقٍ مِنْ مَرْمَرٍ وَدَفَنُوهُ فِي أَعْلَى النِّيلِ لِتَعُمَّ الْبَرَكَةُ جَانِبَيْهِ[2] فَسُبْحَانَ مَنْ لَا انْقِضَاءَ لِمُلْكِهِ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ أَخْبَارِ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ مَا غَابَ عَنْكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ لَدَى إِخْوَةِ يُوسُفَ ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ فِي كَيْدِهِ، أَيْ: عَزَمُوا عَلَيْهِ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بِهِ، أَيْ: لَمْ تَحْضُرْهُمْ فَتَعْرِفَ قِصَّتَهُمْ فَتُخْبِرَ بِهَا، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَكَ عِلْمُهَا مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ. ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّةَ ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ عَلَى إِيمَانِهِمْ ﴿بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿مِنْ أَجْرٍ ۚ﴾ تَأْخُذُهُ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن﴾ وَكَمْ ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ دَالَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يُشَاهِدُونَهَا ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ بِهَا. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ حَيْثُ يُقِرُّونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ بِهِ، بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَلِذَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: «لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ»، يَعْنُونَهَا. ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ﴾ نِقْمَةٌ تَغْشَاهُمْ ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فَجْأَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ بِوَقْتِ إِتْيَانِهَا. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ وَفَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى﴾ دِينِ ﴿ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ آمَنَ بِي عَطَفَ عَلَى ﴿أَنَا۠﴾ الْمُبْتَدَأُ الْمُخْبَرُ عَنْهُ بِمَا قَبْلَهُ ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنِ الشُّرَكَاءِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ مِنْ جُمْلَةِ سَبِيلِهِ أَيْضًا. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰٓ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ وَكَسْرِ الْحَاءِ ﴿إِلَيْهِم﴾ لَا مَلَائِكَةً ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾ الْأَمْصَارِ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ وَأَحْلَمُ، بِخِلَافِ أَهْلِ الْبَوَادِي لِجَفَائِهِمْ وَجَهْلِهِمْ[3] ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ أَهْلُ مَكَّةَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) وليس في اللفظ ما يدل أنه طلب الوفاة في الحال ولهذا ذهب الجمهور إلى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على دين الإسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله. [صديق حسن (٦/ ٤٠٧)].

(٢) راجع التعليق على آية (١٥) من هذه السورة.

(٣) هذه الآية تتضمن الرد على مستغربي إرسال الرسل من البشر، كالطائفة التي قالت: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وكالطائفة التي اقترحت مَلَكًا، وغيرهما. و ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾: المدن، وخصصها دون القوم المتنوين أهل العمود، فإنهم في كل أمة أهل جفاء وجهالة مفرطة، قال ابن زيد: أهل القرى أعلم وأحلم من أهل العمود ... وقال الحسن: لم يبعث الله رسولا قط من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن ... والتبدي مكروه إلا في الفتن وحين يفر بالدين، كقوله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ». [أخرجه البخاري (١٩)] ... ويعترض هذا ببدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين: أحدهما:

﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ أَيْ: آخِرُ أَمْرِهِمْ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أَيِ: الْجَنَّةُ ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ اللهَ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، يَا أَهْلَ مَكَّةَ هَذَا فَتُؤْمِنُونَ. ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غَايَةٌ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ أَيْ: فَتَرَاخَى نَصْرُهُمْ، حَتَّى ﴿إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ﴾ يَئِسَ ﴿ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ﴾ أَيْقَنَ الرُّسُلُ ﴿أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُواْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ تَكْذِيبًا لَا إِيمَانَ بَعْدَهُ، وَالتَّخْفِيفِ، أَيْ: ظَنَّ الْأُمَمُ أَنَّ الرُّسُلَ أُخْلِفُوا مَا وُعِدُوا بِهِ مِنَ النَّصْرِ[1] ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ﴾ بِنُونَيْنِ مُشَدَّدًا وَمُخَفَّفًا، وَبِنُونٍ مُشَدَّدًا مَاضٍ[2] ﴿مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾ عَذَابُنَا ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ الْمُشْرِكِينَ. ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ أَيِ: الرُّسُلِ ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ أَصْحَابِ الْعُقُولِ[3] ﴿مَا كَانَ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ يُخْتَلَقُ ﴿وَلَٰكِن﴾ كَانَ ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَتَفۡصِيلَ﴾ تَبْيِينَ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ ﴿وَهُدٗى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِانْتِفَاعِهِمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود، بل هو بتقر وفي منازل وربوع، والثاني: أنه إنما جعله بدوا بالإضافة إلى مصر، كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر. [ابن عطية (٣/ ٢٨٦)].

(١) هذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي الوقوف، عليه لئلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم. [القرطبي (٩/ ٢٧٥)]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ متصل بالمعنى بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾، إلى قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، ويأسهم: يحتمل أن يكون من إيمان قومهم أو من النصر، والأول أحسن ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قرئ بتشديد الذال وتخفيفها، فأما التشديد فالضمير في ظنوا وكذبوا للرسل، والظن يحتمل أن يكون على بابه، أو بمعنى اليقين: أي علم الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيئسوا من إيمانهم، وأما التخفيف، فالضميران فيه للقوم المرسل إليهم، أي: ظنوا أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من الرسالة، أو من النصرة عليهم. [ابن جُزَيّ (١/ ٣٩٧)].

(٢) ظاهر كلام المؤلف أن القراءات الثلاث سبعية، والصحيح أن القراءة الأولى شاذة وهي قراءة التشديد مع النونين.

(٣) وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حديثهم ومنهم يوسف عليه السلام وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأحبارهم، وعبارة الكرخي وجه الاعتبار بقصصهم أنه قال في أول السورة: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ ثم قال هاهنا: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ وذلك تنبيه على أن حسن هذه القصة إنما هو لأجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة. [صديق حسن (٦/ ٤٢٠)].

سُورَةُ الرَّعْدِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الْآيَةَ، وَ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلٗاۚ﴾ الْآيَةَ. أَوْ مَدَنِيَّةٌ إِلَّا ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ الْآيَتَيْنِ.

ثَلَاثٌ، أَوْ أَرْبَعٌ، أَوْ خَمْسٌ، أَوْ سِتٌّ، وَأَرْبَعُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ(١) ﴿تِلۡكَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ الْقُرْآنِ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «مِنْ» ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ، مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ لَا شَكَّ فِيهِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى(٢). ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ أَيِ: الْعَمَدَ جَمْعُ «عِمَادٍ» وَهُوَ: الْأُسْطُوَانَةُ، وَهُوَ صَادِقٌ بِأَنْ لَا عَمَدَ أَصْلًا(٣) ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ اِسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ(٤) ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذَلَّلَ ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ﴾ مِنْهُمَا ﴿يَجۡرِي﴾ فِي فَلَكِهِ ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ يَقْضِي أَمْرَ مُلْكِهِ ﴿يُفَصِّلُ﴾ يُبَيِّنُ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ دِلَالَاتِ قُدْرَتِهِ ﴿لَعَلَّكُم﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ﴾

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) كقوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق. [ابن كثير (٤/ ٤٢٨)].

(٣) ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن السماء مرفوعة على عمد، ولكننا لا نراها، ونظير هذه الآية قوله أيضا في أول سورة لقمان: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [لقمان: ١٠]. واختلف العلماء في قوله: ترونها على قولين: أحدهما أن لها عمدا ولكننا لا نراها، كما يشير إليه ظاهر الآية، وممن روي عنه هذا القول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد، كما قاله ابن كثير. وروي عن قتادة أيضا أن المعنى أنها مرفوعة بلا عمد أصلا، وهو قول إياس بن معاوية، وهذا القول يدل عليه تصريحه تعالى في سورة الحج أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج: ٦٥]. قال ابن كثير: فعلى هذا يكون قوله: ترونها تأكيدا لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها كذلك، وهذا هو الأكمل في القدرة. [الشنقيطي (٣/ ٨٩)].

(٤) انظر التعليق على تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

بَسَطَ[١] ﴿ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ﴾ خَلَقَ ﴿فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جِبالًا ثَوابِتَ ﴿وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ﴾ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ ﴿يُغْشِى﴾ يُغَطِّي ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بِظُلْمَتِهِ ﴿ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورِ ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ دِلَالَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾ فِي صُنْعِ اَللهِ. ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ بِقَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ ﴿مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ﴾ مُتَلَاصِقَاتٌ، فَمِنْهَا طَيِّبٌ وَسَبْخٌ، وَقَلِيلُ اَلرِّيعِ وَكَثِيرُهُ، وَهُوَ مِنْ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿وَجَنَّـٰتٌ﴾ بَسَاتِينُ ﴿مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى ﴿جَنَّـٰتٌ﴾، وَالْجَرِّ عَلَى ﴿أَعْنَـٰبٍ﴾، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ جَمْعُ «صِنْوٍ» وَهِيَ: اَلنَّخَلَاتُ يَجْمَعُهَا أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَتَتَشَعَّبُ فُرُوعُهَا ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ مُنْفَرِدَةٌ[٢] ﴿تُسْقَىٰ﴾ بِالتَّاءِ، أَيِ: اَلْجَنَّاتُ وَمَا فِيهَا، وَالْيَاءِ، أَيِ: اَلْمَذْكُورُ ﴿بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ﴾ بِضَمِّ اَلْكَافِ وَسُكُونِهَا، فَمِنْ حُلْوٍ وَحَامِضٍ وَهُوَ مِنْ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى[٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورِ ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَكْذِيبِ اَلْكُفَّارِ لَكَ ﴿فَعَجَبٌ﴾ حَقِيقٌ بِالْعَجَبِ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ مُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾؛ لِأَنَّ اَلْقَادِرَ عَلَى إِنْشَاءِ اَلْخَلْقِ وَمَا تَقَدَّمَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِمْ، وَفِي اَلْهَمْزَتَيْنِ فِي اَلْمَوْضِعَيْنِ اَلتَّحْقِيقُ، وَتَحْقِيقُ اَلْأُولَى وَتَسْهِيلُ اَلثَّانِيَةِ وَإِدْخَالُ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى اَلْوَجْهَيْنِ وَتَرْكُهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالِاسْتِفْهَامِ فِي اَلْأَوَّلِ وَالْخَبَرِ فِي اَلثَّانِي، وَأُخْرَى عَكْسُهُ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ٥﴾. وَنَزَلَ فِي اِسْتِعْجَالِهِمُ اَلْعَذَابَ اِسْتِهْزَاءً: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ اَلْعَذَابِ ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ اَلرَّحْمَةِ ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ﴾ جَمْعُ اَلْمَثُلَةِ بِوَزْنِ اَلسَّمُرَةِ، أَيْ:

---

(١) أي: بسطها وجعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها. قال الشهاب: استدل به بعضهم على تسطيح الأرض، وأنها غير كروية بالفعل. وأن من أثبته أراد به أنه مقتضى طبعها، ورد بأنه ثبت كرويتها بأدلة عقلية، لكنه لعظم جرمها يشهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح، وهكذا كل دائرة عظيمة. [القاسمي (٦/ ٢٥٦)].

(٢) هذا قول جميع أهل اللغة والتفسير، فالصنوان جمع صنو وهي النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها، فالصنو المفرد واحد هذه النخلات، قال ابن الأعرابي: الصنو المثل. ومنه قوله ﷺ: «عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ». أخرجه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣). فمعنى الآية على هذا أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون. قال في الكشاف: جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد، وقيل: الصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق. [صديق حسن (٧/ ١٥)].

(٣) محل الأعجوبة، أن القطع المتجاورة تنبت نباتًا مختلفًا، منه الحلو والعذب والحامض البعيد من الحلاوة، وشربها واحد ومكانها مجتمع لا تفاوت بينها ولا تباين، وفي هذا أوضح آية على نفاذ قدرة الله. [الواحدي (١٢/ ٢٨٨)].

عُقُوبَاتُ أَمْثَالِهِمْ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ، أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ﴾ مَعَ ﴿ظُلْمِهِمْ﴾ وَإِلَّا لَمْ يَتْرُكْ عَلَى ظَهْرِهَا دَابَّةً ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٦﴾ لِمَنْ عَصَاهُ. ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَالنَّاقَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مُخَوِّفُ ٱلْكَافِرِينَ وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِتْيَانُ ٱلْآيَاتِ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ٧﴾ نَبِيٌّ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ بِمَا يُعْطِيهِ مِنَ ٱلْآيَاتِ، لَا بِمَا يَقْتَرِحُونَ. ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَوَاحِدٍ وَمُتَعَدِّدٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ تَنْقُصُ ﴿ٱلْأَرْحَامُ﴾ مِنْ مُدَّةِ ٱلْحَمْلِ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ مِنْهُ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ٨﴾ بِقَدَرٍ وَحَدٍّ لَا يَتَجَاوَزُهُ. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ ٱلْعَظِيمُ ﴿ٱلْمُتَعَالِ ٩﴾ عَلَى خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ[1] بِيَاءٍ وَدُونِهَا. ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ مُسْتَتِرٌ ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ بِظَلَامِهِ ﴿وَسَارِبٌ﴾ ظَاهِرٌ بِذَهَابِهِ فِي سَرْبِهِ، أَيْ: طَرِيقِهِ ﴿بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ﴾ لِلْإِنْسَانِ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ مَلَائِكَةٌ تَتَعَقَّبُهُ ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ قُدَّامِهِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وَرَائِهِ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: بِأَمْرِهِ مِنَ ٱلْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ لَا يَسْلُبُهُمْ نِعْمَتَهُ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ مِنَ ٱلْحَالَةِ ٱلْجَمِيلَةِ، بِالْمَعْصِيَةِ ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ عَذَابًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ مِنَ ٱلْمُعَقِّبَاتِ وَلَا غَيْرِهَا ﴿وَمَا لَهُم﴾ لِمَنْ أَرَادَ ٱللهُ بِهِمْ سُوءًا ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أَيْ: غَيْرِ ٱللهِ ﴿مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿وَالٍ ١١﴾ يَمْنَعُهُ عَنْهُمْ. ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِرِينَ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي ٱلْمَطَرِ ﴿وَيُنشِئُ﴾ يَخْلُقُ

---

(١) أي: العظيم الذي كل شيء دونه، المتعالي عما يقوله المشركون، أو المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره، أو المتعالي عن الخلق باستوائه على عرشه ومباينته عن خلقه وهو الأولي. [صديق حسن (٧/ ٢٥)].

(٢) قال الفراء في هذا قولان: أحدهما: أنه على التقديم والتأخير، أي: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه. والثاني: أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به، قال الزجاج: المعنى حفظهم إياه من أمر الله، أي: مما أمرهم به، لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله. قال ابن الأنباري: وفي هذا قول آخر وهو أن «من» بمعنى «الباء» أي: يحفظونه بأمر الله وإعانته واستظهره السفاقسي، وقيل: أنَّ «من» بمعنى «عن» أي: يحفظونه عن أمر الله، بمعنى من عند الله لا من عند أنفسهم كقوله: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش: ٤] أي: عن جوع. وقيل: يحفظونه عن ملائكة العذاب، وقيل: يحفظونه من الجن والأنس فهي على بابها، واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب والحراس والجلاوزة بين أيدي الأمراء في حول السلطان على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله وبإذن الله، لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحداً من أمر الله ومما قضاه الله عليه إلا بأمره وإذنه، وعن قتادة مثله. [صديق حسن (٧/ ٢٨)].

﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ بِالْمَطَرِ. ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ هُوَ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ يَسُوقُهُ مُلْتَبِسًا[1] ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أَيْ: يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَ﴾ تُسَبِّحُ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أَيِ: اللهِ ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ وَهِيَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ السَّحَابِ ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فَتُحْرِقُهُ، نَزَلَ فِي رَجُلٍ بَعَثَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ يَدْعُوهُ فَقَالَ: مَنْ رَسُولُ اللهِ وَمَا اللهُ؟ أَمِنْ ذَهَبٍ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَمْ نُحَاسٍ؟ فَنَزَلَتْ بِهِ صَاعِقَةٌ فَذَهَبَتْ بِقِحْفِ رَأْسِهِ[2] ﴿وَهُمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ يُخَاصِمُونَ النَّبِيَّ ﷺ ﴿فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ١٣﴾ الْقُوَّةِ أَوِ الْأَخْذِ. ﴿لَهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: كَلِمَتُهُ وَهِيَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ[3]، يَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ وَهُمُ الْأَصْنَامُ ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ مِمَّا يَطْلُبُونَهُ ﴿إِلَّا﴾ اسْتِجَابَةً ﴿كَبَٰسِطِ﴾ أَيْ: كَاسْتِجَابَةِ بَاسِطِ ﴿كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ عَلَى شَفِيرِ الْبِئْرِ يَدْعُوهُ ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ بِارْتِفَاعِهِ مِنَ الْبِئْرِ إِلَيْهِ ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أَيْ: فَاهُ أَبَدًا، فَكَذَلِكَ مَا هُمْ بِمُسْتَجِيبِينَ لَهُمْ[4] ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عِبَادَتُهُمُ الْأَصْنَامَ أَوْ حَقِيقَةُ الدُّعَاءِ ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ١٤﴾ ضَيَاعٍ. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾ كَالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَكَرْهًا﴾ كَالْمُنَافِقِينَ، وَمَنْ أُكْرِهَ بِالسَّيْفِ ﴿وَ﴾ يَسْجُدُ ﴿ظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ﴾ الْبُكَرِ ﴿وَٱلْآصَالِ ١٥﴾ الْعَشَايَا[5]. ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ

---

(١) أكثر المفسرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعلي ديته. [البغوي]. وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللهُ»، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زَجْرَةٌ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ». قالوا: صدقت. أخرجه الترمذي (٣١١٧).

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٢١) (كشف الأستار) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٢): رجاله رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة.

(٣) قراءة شاذة.

(٤) شبَّه إجابة الأصنام لمن عبدهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفيه، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه، ولا يبلغ فمه على هذا أبداً؛ لأن الماء جماد لا يعقل المراد، فكذلك الأصنام. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٠٢)]. وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة ... فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. [السعدي (ص:٤١٥)].

(٥) جمع ظل والمراد به من له ظل منهم كالإنسان لا الجن ولا الملك إذ لا ظل لهما والمعنى سجوده حقيقة تبعاً لصاحبه حيث صار لازماً لا ينفك عنه، قال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله فظله يسجد لله، وقال ابن الأنباري: ولا يبعد أن يخلق الله تعالى

﴿ٱللَّهُۚ﴾ إنْ لَمْ يَقُولُوهُ لَا جَوَابَ غَيْرُهُ ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ وَتَرَكْتُمْ مَالِكَهُمَا؟ اِسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ اَلْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ اَلْكُفْرُ ﴿وَٱلنُّورُۗ﴾ اَلْإِيمَانُ؟ لَا ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ﴾ أَيْ: خَلْقُ اَلشُّرَكَاءِ بِخَلْقِ اَللهِ ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فَاعْتَقَدُوا اِسْتِحْقَاقَ عِبَادَتِهِمْ بِخَلْقِهِمْ، اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، أَيْ: لَيْسَ اَلْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَلَا يَسْتَحِقُّ اَلْعِبَادَةَ إِلَّا اَلْخَالِقُ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي اَلْعِبَادَةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ لِعِبَادِهِ. ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَقَالَ: ﴿أَنزَلَ﴾ تَعَالَى ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ مَطَرًا ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ بِمِقْدَارِ مِلْئِهَا ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ عَالِيًا عَلَيْهِ، هُوَ مَا عَلَى وَجْهِهِ مِنْ قَذَرٍ وَنَحْوِهِ ﴿وَمِمَّا تُوقِدُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ مِنْ جَوَاهِرِ اَلْأَرْضِ، كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ طَلَبَ ﴿حِلۡيَةٍ﴾ زِينَةٍ ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ يُنْتَفَعُ بِهِ، كَالْأَوَانِي إِذَا أُذِيبَتْ ﴿زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ أَيْ: مِثْلُ زَبَدِ اَلسَّيْلِ وَهُوَ خَبَثُهُ، اَلَّذِي يَنْفِيهِ اَلْكِيرُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورِ ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ أَيْ: مَثَلَهُمَا ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ مِنَ اَلسَّيْلِ، وَمَا أُوقِدَ عَلَيْهِ مِنَ اَلْجَوَاهِرِ ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ بَاطِلًا مَرْمِيًّا بِهِ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ مِنَ اَلْمَاءِ وَالْجَوَاهِرِ ﴿فَيَمۡكُثُ﴾ يَبْقَى ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ زَمَانًا، كَذَلِكَ اَلْبَاطِلُ يَضْمَحِلُّ وَيَنْمَحِقُ وَإِنْ عَلَا عَلَى اَلْحَقِّ فِي بَعْضِ اَلْأَوْقَاتِ، وَالْحَقُّ ثَابِتٌ بَاقٍ(١)

للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً وظل الكافر يسجد لله كرهاً. وقيل: المراد بالسجود ميلان الظلال من جانب إلى جانب آخر وطولها تارة وقصرها أخرى بسبب ارتفاع الشمس ونزولها والأول أولى. ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي: البكر والعشايا وخصهما بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما وهما ظرف للسجود المقدر، أي: ويسجد ظلالهم في هذين الوقتين، وقيل: لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما، والغدو بالضم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والغدوة والغداة أول النهار، وقيل: إلى نصف النهار. والآصال جمع أصيل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، قيل: وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة، فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة. [صديق حسن (٧/ ٣٧)].

(١) ذكر الله مثلين مائي وناري في سورة الرعد، ولكن في حق المؤمنين؛ فشبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها؛ وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿يَضْرِبُ﴾ يُبَيِّنُ ﴿ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ١٧ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ أَجَابُوهُ بِالطَّاعَةِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الْجَنَّةُ ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ وَهُمُ الْكُفَّارُ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وَهُوَ الْمُؤَاخَذَةُ بِكُلِّ مَا عَمِلُوهُ، لَا يُغْفَرُ مِنْهُ شَيْءٌ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٨﴾ الْفِرَاشُ هِيَ. وَنَزَلَ فِي حَمْزَةَ وَأَبِي جَهْلٍ(١): ﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فَآمَنَ بِهِ ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ لَا يَعْلَمُهُ وَلَا يُؤْمِنُ بِهِ، لَا ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَّعِظُ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ أَصْحَابُ الْعُقُولِ. ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الْمَأْخُوذِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي عَالَمِ الذَّرِّ، أَوْ كُلَّ عَهْدٍ(٢) ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ٢٠﴾ بِتَرْكِ الْإِيمَانِ، أَوِ الْفَرَائِضِ. ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ وَالرَّحِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَيْ: وَعِيدَهُ ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ٢١﴾ تَقَدَّمَ. ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبَلَاءِ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾

فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها؛ وهكذا يضرب الله الحق والباطل. ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمى ويطرح ويذهب جفاء؛ فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره؛ ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق. [إعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ٢٧٢)].

(١) [وقيل:] نزل في عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن المغيرة المخزومي. [مقاتل (٢/ ٣٧٥)]. وحمل الآية على العموم أولى، وإن كان السبب مخصوصا، والمعنى: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه. وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي لرشد، وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل [الخازن (٣/ ١٤)].

(٢) هذا مشروع في بيان صفاتهم المقتضية إنعامهم وإكرامهم، فذكر لهم ثماني صفات هي كالتالي: الوفاء بالعهود وعدم نقضها: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ إذ «لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ». أخرجه أحمد (١٢٥٦٧). ووصل ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان والإسلام والإحسان والأرحام: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾. وخشية الله المقتضية لطاعته: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. والخوف من سوء الحساب يوم القيامة المقتضي لمحاسبة النفس على الصغيرة والكبيرة: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾. والصبر طلبا لمرضاة الله على الطاعات وعن المعاصي، وعلى البلاء: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾. وإقامة الصلاة وهي أداؤها في أوقاتها جماعة بكامل الشروط والأركان والسنن والآداب: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. والانفاق مما رزقهم الله في الزكاة والصدقات الواجبة والمندوبة: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾. ودفع السيئة بالحسنة فيدرؤون سيئة الجهل عليهم بحسنة الحلم، وسيئة الأذى بحسنة الصبر ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾. [أبو بكر الجزائري (٣/ ٢٣)].

طَلَبَ ﴿وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا غَيْرِهِ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟﴾ فِي الطَّاعَةِ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ﴾ يَدْفَعُونَ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ كَالْجَهْلِ بِالْحِلْمِ، وَالأَذَى بِالصَّبْرِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ أَيِ: الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. هِيَ: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٍ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ هُمْ ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ آمَنَ ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلُوا بِعَمَلِهِمْ، يَكُونُونَ فِي دَرَجَاتِهِمْ تَكْرِمَةً لَهُمْ(١) ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ أَوِ الْقُصُورِ، أَوَانَ أَوَّلِ دُخُولِهِمْ لِلتَّهْنِئَةِ(٢). يَقُولُونَ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ هَذَا الثَّوَابُ ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بِصَبْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ عُقْبَاكُمْ. ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ الْبُعْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ الْعَاقِبَةُ السَّيِّئَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَهِيَ جَهَنَّمُ. ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿وَفَرِحُوا۟﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ، فَرَحَ بَطَرٍ ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: بِمَا نَالُوهُ فِيهَا ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى﴾ جَنْبِ حَيَاةِ ﴿ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ شَيْءٌ قَلِيلٌ، يُتَمَتَّعُ بِهِ وَيَذْهَبُ. ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَالنَّاقَةِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إِضْلَالَهُ، فَلَا تُغْنِي عَنْهُ الْآيَاتُ شَيْئًا ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ يُرْشِدُ ﴿إِلَيْهِ﴾ إِلَى دِينِهِ ﴿مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ رَجَعَ إِلَيْهِ. وَيُبْدَلُ مِنْ ﴿مَنْ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ﴾ تَسْكُنُ ﴿قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: وَعْدِهِ(٣) ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ أَيْ: قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿طُوبَىٰ﴾ مَصْدَرٌ مِنَ الطِّيبِ، أَوْ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا(٤) ﴿لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ مَرْجِعٍ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾

---

(١) كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

(٢) قيل: في أول دخولهم قاله السيوطي، والتقييد بهذا لم نره لغيره من المفسرين. بل في كلام غيره ما يدل على عدمه. [صديق حسن (٤٨/٧)].

(٣) رأى آخرون أن المراد ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ القرآن؛ لأنه يسمى ذكرا، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] لأنه آية بينة تسكن القلوب، وتثبت اليقين فيها. وهذا المعنى يناسب قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد: ٢٧] أي: هؤلاء ينكرون كونه آية، والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين. قال الشهاب: وهو أنسب الوجوه. [القاسمي (٦/ ٢٨٢)].

(٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال له: يا رسول الله، طوبى لمن رآك، وآمن بك، قال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ

كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَكَ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ﴾ تَقْرَأَ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ حَيْثُ قَالُوا لَمَّا أُمِرُوا بِالسُّجُودِ لَهُ: «وَمَا الرَّحْمَنُ»؟ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا لَهُ: «إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَسَيِّرْ عَنَّا جِبَالَ مَكَّةَ وَاجْعَلْ لَنَا فِيهَا أَنْهَارًا وَعُيُونًا لِنَغْرِسَ وَنَزْرَعَ، وَابْعَثْ لَنَا آبَاءَنَا الْمَوْتَى يُكَلِّمُونَا أَنَّكَ نَبِيٌّ»، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ نُقِّلَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ شُقِّقَتْ ﴿بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾ بِأَنْ يُحْيَوْا، لَمَا آمَنُوا ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ لَا لِغَيْرِهِ، فَلَا يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ شَاءَ إِيمَانَهُ دُونَ غَيْرِهِ، وَإِنْ أُوتُوا مَا اقْتَرَحُوا، وَنَزَلَ لَمَّا أَرَادَ الصَّحَابَةُ إِظْهَارَ مَا اقْتَرَحُوا طَمَعًا فِي إِيمَانِهِمْ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ يَعْلَمِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ آيَةٍ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ بِصُنْعِهِمْ، أَيْ: كُفْرِهِمْ ﴿قَارِعَةٌ﴾ دَاهِيَةٌ تَقْرَعُهُمْ بِصُنُوفِ الْبَلَاءِ، مِنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْحَرْبِ وَالْجَدْبِ ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ يَا مُحَمَّدُ بِجَيْشِكَ ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ مَكَّةَ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ﴾ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٣١﴾ وَقَدْ حَلَّ بِالْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى أَتَى فَتْحُ مَكَّةَ. ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كَمَا اسْتُهْزِئَ بِكَ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أَمْهَلْتُ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ﴾ بِالْعُقُوبَةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾ أَيْ: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقِعَهُ، فَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِمَنِ اسْتَهْزَأَ بِكَ. ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ رَقِيبٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَهُوَ اللهُ، كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ مِنَ الْأَصْنَامِ؟ لَا، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ لَهُ مَنْ هُمْ ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ تُخْبِرُونَ اللهَ ﴿بِمَا﴾ أَيْ: بِشَرِيكٍ ﴿لَا يَعْلَمُ﴾ هُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، أَيْ: لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ لَوْ كَانَ لَعَلِمَهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ﴿أَم﴾ بَلْ تُسَمُّونَهُمْ شُرَكَاءَ ﴿بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾ بِظَنٍّ بَاطِلٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْبَاطِنِ ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ كُفْرُهُمْ ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ أَشَدُّ مِنْهُ ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عَذَابِهِ ﴿مِن وَاقٍ ۝٣٤﴾ مَانِعٍ. ﴿۞مَّثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، أَيْ: فِيمَا يُقَصُّ عَلَيْكُمْ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا﴾ مَا يُؤْكَلُ فِيهَا ﴿دَآئِمٌ﴾ لَا يَفْنَى ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾ دَائِمٌ لَا تَنْسَخُهُ شَمْسٌ لِعَدَمِهَا فِيهَا ﴿تِلْكَ﴾ أَيِ: الْجَنَّةُ ﴿عُقْبَى﴾ عَاقِبَةُ

رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي»، قال له رجل: وما طوبى؟ قال ﷺ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ». أخرجه أحمد (١١٦٧٣)، وأبو يعلى (١٣٧٤).

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ الشِّرْكَ ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ مِنْ
مُؤْمِنِي الْيَهُودِ ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ لِمُوَافَقَتِهِ مَا عِنْدَهُمْ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَيْكَ بِالْمُعَادَاةِ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ كَذِكْرِ الرَّحْمَنِ وَمَا عَدَا الْقَصَصَ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾ فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ ﴿أَنۡ﴾
أَيْ: بِأَنْ ﴿أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ مَرْجِعِي. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الْإِنْزَالِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أَيِ:
الْقُرْآنَ ﴿حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ بِلُغَةِ الْعَرَبِ تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ فِيمَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ
مِنْ مِلَّتِهِمْ فَرْضًا ﴿بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بِالتَّوْحِيدِ ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿وَلِيّٖ﴾ نَاصِرٍ ﴿وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾
مَانِعٍ مِنْ عَذَابِهِ(١). وَنَزَلَ لَمَّا عَيَّرُوهُ بِكَثْرَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ أَوْلَادًا،
وَأَنْتَ مِثْلُهُمْ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ لِأَنَّهُمْ عَبِيدٌ مَرْبُوبُونَ ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ﴾ مُدَّةٍ ﴿كِتَابٞ ٣٨﴾
مَكْتُوبٌ فِيهِ تَحْدِيدُهُ. ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ﴾ مِنْهُ ﴿مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، فِيهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا
﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ أَصْلُهُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ مَا كَتَبَهُ فِي الْأَزَلِ(٢). ﴿وَإِن مَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ»
الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي حَيَاتِكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَيْ:
فَذَاكَ ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قَبْلَ تَعْذِيبِهِمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ مَا عَلَيْكَ إِلَّا التَّبْلِيغُ ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾ إِذَا صَارُوا
إِلَيْنَا فَنُجَازِيهِمْ. ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ نَقْصِدُ أَرْضَهُمْ ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ بِالْفَتْحِ عَلَى
النَّبِيِّ ﷺ(٣) ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾ لَا رَادَّ ﴿لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤١ وَقَدۡ مَكَرَ

---

(١) هو حث للنبي ﷺ على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدرا وأعلى مرتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى. [الخازن (٣/ ٢٢)].

(٢) أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب. فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ. [السعدي (ص:٤١٩)].

(٣) معناه: ألم يروا أنا نأتي أرض هؤلاء بالفتح عليك فننقصها بما يدخل في دينك من القبائل والبلاد المجاورة لهم، فما يؤمنهم أن نمكنك منهم أيضا كما فعلنا بمجاوريهم؟ قاله ابن عباس، والضحاك، وهذا القول لا يتأتى إلا بأن نقدر نزول هذه الآية بالمدينة. ومن قال: إن

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِنَ الْأُمَمِ بِأَنْبِيَائِهِمْ، كَمَا مَكَرُوا بِكَ[1] ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ وَلَيْسَ مَكْرُهُمْ كَمَكْرِهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ فَيُعِدُّ لَهَا جَزَاءَهُ وَهَذَا هُوَ الْمَكْرُ كُلُّهُ؛ لِأَنَّهُ يَأْتِيهِمْ بِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكَٰفِرُ﴾ الْمُرَادُ بِهِ الْجِنْسُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ٱلۡكُفَّٰرُ﴾، ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾ أَيِ: الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَلَهُمْ أَمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ[2]. ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لَكَ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٤٣﴾ مِنْ مُؤْمِنِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى[3].

الأرض اسم جنس جعل الانتقاص من الأطراف بتخريب العمران الذي يحله الله بالكفرة، هذا قول ابن عباس أيضا ومجاهد، وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت البشر، وهلاك الثمرات، ونقص البركة، قاله ابن عباس أيضا والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت الأخيار والعلماء، قال ذلك ابن عباس أيضا ومجاهد، وكل ما ذكر يدخل في لفظ الآية. والطرف من كل شيء: خياره. [ابن عطية (٣/ ٣١٩)]. قال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء، وذهاب الفقهاء. عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣). [البغوي (٤/ ٣٢٧)].

(١) ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ الآية [النمل: ٥٠ -٥٢]. [ابن كثير (٤/ ٤٧٣)].

(٢) يقول تعالى: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كقوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل: ٥٠-٥٢]. [ابن كثير (٤/ ٤٧٣)].

(٣) أي: علم جنس الكتاب السماوي كالتوراة والإنجيل، فإن أهلهما العالمين بهما كانوا يعلمون صحة رسالة رسول الله ﷺ، وقد أخبر بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وكعب الأحبار وتميم الداري ونحوهم، وقد كان المشركون من العرب يسألون أهل الكتاب ويرجعون إليهم فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك. [صديق حسن (٧/ ٧٥)].

سُورَةُ إِبراهِيمَ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ﴾ الآيتين، إِحْدَى أَوْ ثِنْتَانِ أَوْ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[1]، هَذَا الْقُرْآنُ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الْإِيمَانِ ﴿بِإِذۡنِ﴾ بِأَمْرِ[2] ﴿رَبِّهِمۡ﴾ وَيُبْدَلُ مِنْ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ طَرِيقِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الْغَالِبِ ﴿ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ الْمَحْمُودِ. ﴿ٱللَّهِ﴾ بِالْجَرِّ: بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ وَمَا بَعْدَهُ صِفَةٌ، وَالرَّفْعِ: مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢ ٱلَّذِينَ﴾ نَعْتٌ ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ يَخْتَارُونَ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أَيِ: السَّبِيلَ ﴿عِوَجًاۚ﴾ مُعْوَجَّةً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ﴾ بِلُغَةِ ﴿قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ لِيُفَهِّمَهُمْ مَا أَتَى بِهِ[3] ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ فِي صُنْعِهِ[4]. ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التِّسْعِ، وَقُلْنَا لَهُ ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الْإِيمَانِ ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ بِنِعَمِهِ[5] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التَّذْكِيرِ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) قال الزجاج: بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان. [الشوكاني (٣/ ١١١)].

(٣) فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعا: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ... فإن لم تكن للعرب حجة، فلغيرهم الحجة. قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل؛ فبقي أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه. فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ... ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف. [الزمخشري (٢/ ٥٣٩)].

(٤) أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك. [ابن كثير (٤/ ٤٧٧)]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: جعل المشيئة إليه وحده لا شريك له. [الواحدي (١٢/ ٤٠٠)].

(٥) أي: أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم، كقوم نوح ولوط. ومنه: أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها؛ لأنها تعظم بها الأيام.

﴿لَآيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿شَكُورٖ ٥﴾ لِلنِّعَمِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ الْمَوْلُودِينَ ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ يَسْتَبْقُونَ ﴿نِسَآءَكُمۡۚ﴾ لِقَوْلِ بَعْضِ الْكَهَنَةِ: إِنَّ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ سَبَبَ ذَهَابِ مُلْكِ فِرْعَوْنَ[1] ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الْإِنْجَاءِ أَوِ الْعَذَابِ ﴿بَلَآءٞ﴾ إِنْعَامٌ أَوِ ابْتِلَاءٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦ وَإِذۡ تَأَذَّنَ﴾ أَعْلَمَ ﴿رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ نِعْمَتِي بِالتَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ﴾ جَحَدْتُمُ النِّعْمَةَ بِالْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ لَأُعَذِّبَنَّكُمْ، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لِقَوْمِهِ ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿حَمِيدٌ ٨﴾ مَحْمُودٌ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿نَبَؤُاْ﴾ خَبَرُ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ﴾ قَوْمِ هُودٍ ﴿وَثَمُودَ﴾ قَوْمِ صَالِحٍ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ لِكَثْرَتِهِمْ ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ عَلَى صِدْقِهِمْ ﴿فَرَدُّوٓاْ﴾ أَيِ: الْأُمَمُ ﴿أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أَيْ: إِلَيْهَا لِيَعَضُّوا عَلَيْهَا مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ فِي زَعْمِكُمْ ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ مُوقِعٍ فِي الرِّيبَةِ. ﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، أَيْ: لَا شَكَّ فِي تَوْحِيدِهِ، لِلدَّلَائِلِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِ[2] ﴿فَاطِرِ﴾ خَالِقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ﴾ إِلَى طَاعَتِهِ ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ، فَإِنَّ

وقيل: أيامه: نعماؤه عليهم. فتكون الآية بعدها تفصيلا لها. وقيل: هي أعم من النعماء والبلاء. والوجه الأول أولى فيما أراه؛ لاختصاص كل آية بمقام، والتأسيس خير من التأكيد. وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة، بالإضافة إلى الاسم الجليل، إيذان بفخامة شأنها. قال أبو بكر ابن العربي: هذه الآية في الوعظ المرقق للقلوب. [القاسمي (٦/ ٢٩٩)].

(١) المراد بالعذاب ها هنا غير المراد به في سورة «البقرة» و«الأعراف» لأنه مفسر بالتذبيح والقتل ثمة، ومعطوف عليه التذبيح ها هنا، وهو إما جنس العذاب أو استعبادهم أو استعمالهم بالأعمال الشاقة. [البيضاوي (٣/ ١٩٣)].

(٢) قدم متعلق الشك للاهتمام به، ولو قال: «أشك في الله؟» لم يكن له هذا الوقع. [ابن عاشور (١٣/ ١٩٨)]. يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه. والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب

اَلْإِسْلَامَ يُغْفَرُ بِهِ مَا قَبْلَهُ، أَوْ «تَبْعِيضِيَّةٌ» لِإِخْرَاجِ حُقُوقِ الْعِبَادِ ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ بِلَا عَذَابٍ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ أَجَلِ الْمَوْتِ[1] ﴿قَالُوٓاْ إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٠﴾ حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ عَلَى صِدْقِكُمْ. ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن﴾ مَا ﴿نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كَمَا قُلْتُمْ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿وَمَا كَانَ﴾ مَا يَنْبَغِي ﴿لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ بِأَمْرِهِ[2]؛ لِأَنَّنَا عَبِيدٌ مَرْبُوبُونَ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١١﴾ يَثِقُوا بِهِ. ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لَا مَانِعَ لَنَا مِنْ ذَلِكَ ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ عَلَى أَذَاكُمْ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ لَتَصِيرُنَّ ﴿فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ دِينِنَا ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾ اَلْكَافِرِينَ. ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ أَرْضَهُمْ ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ ﴿ذَٰلِكَ﴾ اَلنَّصْرُ وَإِيرَاثُ الْأَرْضِ ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أَيْ: مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيَّ ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ بِالْعَذَابِ. ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ اِسْتَنْصَرَ الرُّسُلُ بِاللهِ عَلَى قَوْمِهِمْ ﴿وَخَابَ﴾ خَسِرَ ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ مُتَكَبِّرٍ عَنْ طَاعَةِ اللهِ ﴿عَنِيدٍ ١٥﴾ مُعَانِدٍ لِلْحَقِّ. ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ أَيْ: أَمَامَهُ ﴿جَهَنَّمُ﴾ يَدْخُلُهَا ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ فِيهَا ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ١٦﴾ هُوَ: مَا يَسِيلُ مِنْ جَوْفِ أَهْلِ النَّارِ، مُخْتَلِطًا بِالْقَيْحِ وَالدَّمِ. ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يَبْتَلِعُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِمَرَارَتِهِ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يَزْدَرِدُهُ لِقُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أَيْ: أَسْبَابُهُ الْمُقْتَضِيَةُ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَذَابِ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ١٧﴾ قَوِيٌّ مُتَّصِلٌ. ﴿مَّثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ اَلصَّالِحَةُ: كَصِلَةٍ وَصَدَقَةٍ فِي عَدَمِ الِانْتِفَاعِ بِهَا ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ شَدِيدِ هُبُوبِ الرِّيحِ، فَجَعَلَتْهُ هَبَاءً مَنْثُورًا لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ، وَالْمَجْرُورُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا ﴿عَلَىٰ شَيْءٍۚ﴾ أَيْ: لَا يَجِدُونَ لَهُ ثَوَابًا لِعَدَمِ شَرْطِهِ[3] ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ﴾ اَلْهَلَاكُ ﴿ٱلْبَعِيدُ ١٨ أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرْ يَا

الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى. [ابن كثير (٤/ ٤٨٢)].

(١) انظر التعليق على آية (٤) من سورة نوح.

(٢) أي: بمشيئته وإرادته وليس ذلك في قدرتنا، وقيل: بأمره لنا بالإتيان، أي: إذنه لنا فيه، والأول أولى. [صديق حسن (٧/ ٩٣)].

(٣) المثل مستعار للصفة التي فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتي كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها كإنفاق الأموال وعقر الإبل للضيفان، في حبوطها؛ لكونها على غير تقوى وإيمان برماد طيرته الريح العاصف. وقوله تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ إلخ، مستأنف، فذلك للتمثيل بمعنى المقصود منه ومحصل وجهه ... أي: لا يرون له أثرا من ثواب، كما لا يقدر، من الرماد المطير في الريح، على شيء. قال

مُخاطبًا، اسْتِفْهامُ تَقرِيرٍ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿خلَقَ﴾، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيُّها النَّاسُ ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩﴾ بَدَلَكُمْ. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ٢٠﴾ شَدِيدٍ. ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ أَي: الْخلائِقُ، والتَّعبيرُ فِيهِ وفِيما بَعْدَهُ بِالْماضِي لِتحقُّقِ وُقُوعِهِ ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ الْأتْباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ الْمَتْبُوعِينَ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جَمْعُ «تابعٍ» ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ دافِعُونَ ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿مِن﴾ الْأُولَى: لِلتَّبْيِينِ، والثَّانِيَةُ: لِلتَّبْعِيضِ ﴿قَالُوا۟﴾ الْمَتْبُوعُونَ ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ لَدَعَوْناكُمْ إِلَى الْهُدَى ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن﴾ زائِدَةٌ ﴿مَّحِيصٍ ٢١﴾ مَلْجأٍ. ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إِبْلِيسُ ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وأُدْخِلَ أَهْلُ الْجنَّةِ الْجنَّةَ، وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، واجْتمَعُوا عليْهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ بِالْبعْثِ والْجزاءِ فَصَدَقَكُمْ ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ أَنَّهُ غيْرُ كائِنٍ ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن﴾ زائِدَةٌ ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ قُوَّةٍ وقُدْرَةٍ أَقْهَرُكُمْ على مُتابعَتِي[1] ﴿إِلَّآ﴾ لكِنْ ﴿أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ على إجابَتِي ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بِمُغِيثِكُمْ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ بِفَتْحِ «الْياءِ» وكَسْرِها ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ بِإِشْراكِكُمْ إِيَّايَ مَعَ اللهِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ فِي الدُّنْيا، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الْكافِرِينَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٢﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ﴾ حالٌ مُقدَّرةٌ ﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ مِنَ اللهِ ومِنَ الْملائِكَةِ وفِيما بيْنَهُمْ ﴿سَلَٰمٌ ٢٣ أَلَمْ تَرَ﴾ تنْظُرْ ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ ويُبْدَلُ مِنْهُ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ أَي: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هِيَ النَّخْلَةُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فِي الْأرْضِ ﴿وَفَرْعُهَا﴾ غُصْنُها ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤْتِىٓ﴾ تُعْطِي ﴿أُكُلَهَا﴾ ثَمرَها ﴿كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بِإِرادتِهِ، كَذلِكَ كَلِمةُ الْإيمانِ ثابِتَةٌ فِي قلْبِ الْمُؤْمِنِ، وعَمَلُهُ يَصْعَدُ إِلَى السَّماءِ ويَنالُهُ بَرَكَتُهُ وثَوابُهُ كُلَّ وَقْتٍ ﴿وَيَضْرِبُ﴾ يُبيِّنُ ﴿ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

أبوالسعود: الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أن لها عقوبات هائلة؛ للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى، وفيه تهكم بهم. وفي توصيف الضلال بالبعد، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب ... وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. [القاسمي (٦/ ٣٠٨)].

(١) السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان ... كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كان لي من حجة أحتج بها عليكم. أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة. فأما السلطان الذي أثبته في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠]. فهو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم ... كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]. [إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٧١)].

﴿يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُوا. ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هِيَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هِيَ الْحَنْظَلُ ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ اسْتُؤْصِلَتْ ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ٢٦﴾ مُسْتَقَرٍّ وَثَبَاتٍ، كَذَلِكَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ لَا ثَبَاتَ لَهَا وَلَا فَرْعَ وَلَا بَرَكَةَ. ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ هُوَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أَيْ: فِي الْقَبْرِ لَمَّا يَسْأَلُهُمُ الْمَلَكَانِ عَنْ: رَبِّهِمْ، وَدِينِهِمْ، وَنَبِيِّهِمْ، فَيُجِيبُونَ بِالصَّوَابِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّيْخَيْنِ[1] ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الْكُفَّارَ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْجَوَابِ بِالصَّوَابِ، بَلْ يَقُولُونَ: «لَا نَدْرِي». كَمَا فِي الْحَدِيثِ[2] ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ * ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرْ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: شُكْرَهَا ﴿كُفْرًا﴾ هُمْ كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أَنْزَلُوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بِإِضْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ٢٨﴾ الْهَلَاكِ. ﴿جَهَنَّمَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَدْخُلُونَهَا ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ٢٩﴾ الْمَقَرُّ هِيَ. ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شُرَكَاءَ ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾ بِفَتْحِ «الْيَاءِ» وَضَمِّهَا ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بِدُنْيَاكُمْ قَلِيلًا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ مَرْجِعَكُمْ ﴿إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ﴾ فِدَاءَ ﴿فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ مُخَالَّةَ، أَيْ: صَدَاقَةَ تَنْفَعُ، هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُنَ ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ بِالرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بِإِذْنِهِ[3] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ جَارِيَيْنِ فِي فَلَكِهِمَا لَا يَفْتُرَانِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴿وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ لِتَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ. ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ عَلَى حَسَبِ

---

(١) عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وذكر قبض روح المؤمن: «يَأْتِيهِ آتٍ، يَعْنِي فِي قَبْرِهِ، فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. قَالَ: فَيَنْتَهِرُهُ، فَيَقُولُ: مَا رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تَعْرِضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ اللهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيقولُ: ربِّيَ اللهُ، ودِيني الإسلامُ، ونَبِيِّي مُحمَّدٌ، فيُقالُ لَهُ: صَدَقْتَ». أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

(٢) قال ﷺ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ» ... الحديث وفيه «فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللهِ وَعَذَابٍ مُقِيمٍ». أخرجه أحمد (١٨٦١٤).

(٣) بمشيئته التي بها نيط كل شيء، وتخصيصه بالذكر على ما ذكره بعض المحققين للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال، ويندرج في تسخير الفلك كما في البحر تسخيره وكذا تسخير الرياح. [الآلوسي (٧/ ٢١١)].

مَصَالِحِكُمْ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ بِمَعْنَى إِنْعَامِهِ ﴿لَا تُحۡصُوهَآ﴾ لَا تُطِيقُوا عَدَّهَا ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ الْكَافِرَ ﴿لَظَلُومٞ
كَفَّارٞ ٣٤﴾ كَثِيرُ الظُّلْمِ لِنَفْسِهِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَالْكُفْرِ لِنِعْمَةِ رَبِّهِ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾ مَكَّةَ
﴿ءَامِنٗا﴾ ذَا أَمْنٍ، وَقَدْ أَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ فَجَعَلَهُ حَرَمًا لَا يُسْفَكُ فِيهِ دَمُ إِنْسَانٍ، وَلَا يُظْلَمُ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَا يُصَادُ صَيْدُهُ،
وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ بَعِّدْنِي ﴿وَبَنِيَّ﴾ عَنْ ﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامَ ﴿أَضۡلَلۡنَ
كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ بِعِبَادَتِهِمْ لَهَا ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ عَلَى التَّوْحِيدِ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ مِنْ أَهْلِ دِينِي ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ
غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ هَذَا قَبْلَ عِلْمِهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ[(١)]. ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أَيْ: بَعْضَهَا وَهُوَ
إِسْمَاعِيلُ مَعَ أُمِّهِ هَاجَرَ ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ هُوَ مَكَّةُ ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الطُّوفَانِ[(٢)] ﴿رَبَّنَا
لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾ قُلُوبًا ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ﴾ تَمِيلُ وَتَحِنُّ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ قَالَ: «أَفْئِدَةَ
النَّاسِ»، لَحَنَّتْ إِلَيْهِ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ. ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ وَقَدْ فَعَلَ بِنَقْلِ
الطَّائِفِ إِلَيْهِ[(٣)]. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي﴾ نُسِرُّ ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا
فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى، أَوْ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ[(٤)]. ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي﴾ أَعْطَانِي ﴿عَلَى﴾
مَعَ ﴿ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ وُلِدَ وَلَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً ﴿وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ وُلِدَ وَلَهُ مِائَةٌ وَاثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ

---

(١) قوله: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ ظاهره بالكفر لمعادلة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ وإذا كان ذلك كذلك، فقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ معناه: بتوبتك على الكفرة حتى يؤمنوا، لا أنه أراد أن الله يغفر لكافر، ولكن حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب ﷺ، قال قتادة: اسمعوا قول الخليل، والله ما كانوا طعانين ولا لعانين، وكذلك قال نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. [ابن عطية (٣/ ٣٤١)].

(٢) فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ ولم يكن هناك بيت حينئذ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمدة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه: أحدها: أن الله تعالى حرم موضع البيت منذ خلق السماوات والأرض، قاله ابن السائب. والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يرفع أيام الطوفان. والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا ذكرهم ابن جرير. [ابن الجوزي (٢/ ٥١٥)]. [وقيل:] هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيدا ورغبة إلى الله. [ابن كثير (٤/ ٥١٣)].

(٣) المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار، وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [القصص: ٥٧]. [الخازن (٣/ ٤١)].

(٤) قال جمهور المفسرين هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم ... وإنما ذكر السماوات والأرض لأنهما المشاهدتان للعباد، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه خافية. [صديق حسن (٧/ ١٢٧)].

ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَ﴾ اجْعَلْ ﴿مِن ذُرِّيَّتِى﴾ مَنْ يُقِيمُهَا، وَأَتَى بِـ ﴿مِن﴾ لِإِعْلَامِ اللهِ تَعَالَى لَهُ أَنَّ مِنْهُمْ كُفَّارًا ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ الْمَذْكُورَ. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ عَدَاوَتُهُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ(١)، وَقِيلَ: أَسْلَمَتْ أُمُّهُ، وَقُرِئَ: ﴿وَالِدِى﴾ مُفْرَدًا، وَ﴿وَلَدَىَّ﴾(٢) ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ﴾ يَثْبُتُ ﴿ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ بِلَا عَذَابٍ ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ لِهَوْلِ مَا تَرَى، يُقَالُ: شَخَصَ بَصَرُ فُلَانٍ، أَيْ: فَتَحَهُ فَلَمْ يُغْمِضْهُ. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مُسْرِعِينَ حَالٌ ﴿مُقْنِعِى﴾ رَافِعِي ﴿رُءُوسِهِمْ﴾ إِلَى السَّمَاءِ ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بَصَرُهُمْ ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ﴾ قُلُوبُهُمْ ﴿هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ خَالِيَةٌ مِنَ الْعَقْلِ لِفَزَعِهِمْ(٣). ﴿وَأَنذِرِ﴾ خَوِّفْ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الْكُفَّارَ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كَفَرُوا ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ بِأَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدُّنْيَا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فَيُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾ حَلَفْتُمْ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مَا لَكُم مِّن﴾ زَائِدَةٌ ﴿زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ عَنْهَا إِلَى الْآخِرَةِ. ﴿وَسَكَنتُمْ﴾ فِيهَا ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بِالْكُفْرِ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ مِنَ الْعُقُوبَةِ فَلَمْ تَنْزَجِرُوا ﴿وَضَرَبْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ تَعْتَبِرُوا. ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟﴾ بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿مَكْرَهُمْ﴾ حَيْثُ أَرَادُوا قَتْلَهُ أَوْ تَقْيِيدَهُ أَوْ إِخْرَاجَهُ ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أَيْ: عِلْمُهُ، أَوْ جَزَاؤُهُ ﴿وَإِن﴾ مَا ﴿كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ وَإِنْ عَظُمَ ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ الْمَعْنَى: لَا يُعْبَأُ بِهِ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ. وَالْمُرَادُ بِالْجِبَالِ هُنَا قِيلَ: حَقِيقَتُهَا، وَقِيلَ: شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ الْمُشَبَّهَةُ بِهَا فِي الْقَرَارِ وَالثَّبَاتِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ لَامِ ﴿لَتَزُولُ﴾ وَرَفْعِ الْفِعْلِ، فَـ ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَالْمُرَادُ: تَعْظِيمُ مَكْرِهِمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمَكْرِ كُفْرُهُمْ، وَيُنَاسِبُهُ عَلَى الثَّانِيَةِ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]، وَعَلَى الْأَوَّلِ: مَا قُرِئَ:

---

(١) بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم طلب المغفرة لوالديه، وبين في آيات أخر أن طلبه الغفران لأبيه إنما كان قبل أن يعلم أنه عدو لله فلما علم ذلك تبرأ منه، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. [الشنقيطي (٣/ ١٣٥)].

(٢) قراءتان شاذتان.

(٣) ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم قد صعدت إلى الحناجر لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق. [السعدي (ص:٤٢٧)].

«وَمَا كَانَ»(١). ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ بِالنَّصرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ﴾ غَالِبٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧﴾ مِمَّنْ عَصَاهُ. اُذْكُرْ ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ هُوَ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ، فَيُحْشَرُ اَلنَّاسُ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ اَلصَّحِيحَيْنِ، وَرَوَى مُسْلِمٌ حَدِيثَ: سُئِلَ اَلنَّبِيُّ ﷺ أَيْنَ اَلنَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: «عَلَى اَلصِّرَاطِ»(٢). ﴿وَبَرَزُواْ﴾ خَرَجُوا مِنَ اَلْقُبُورِ ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨ وَتَرَى﴾ يَا مُحَمَّدُ: تُبْصِرُ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ اَلْكَافِرِينَ ﴿يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ﴾ مَشْدُودِينَ مَعَ شَيَاطِينِهِمْ ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩﴾ اَلْقُيُودِ أَوِ اَلْأَغْلَالِ. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قُمُصُهُمْ ﴿مِّن قَطِرَانٖ﴾ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ لِاشْتِعَالِ اَلنَّارِ ﴿وَتَغۡشَىٰ﴾ تَعْلُو ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠ لِيَجۡزِيَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿بَرَزُواْ﴾، ﴿ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١﴾ يُحَاسِبُ جَمِيعَ اَلْخَلْقِ فِي قَدْرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ اَلدُّنْيَا، لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ(٣). ﴿هَٰذَا﴾ اَلْقُرْآنُ ﴿بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أَيْ: أُنْزِلَ لِتَبْلِيغِهِمْ ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ بِمَا فِيهِ مِنَ اَلْحُجَجِ ﴿أَنَّمَا هُوَ﴾ أَيِ: اَللَّهُ ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ﴾ بِإِدْغَامِ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلذَّالِ: يَتَّعِظَ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ أَصْحَابُ اَلْعُقُولِ(٤).

---

(١) أي: قرئ بقراءة شاذة: ﴿وَمَا كَانَ مَكْرُهُمْ﴾.

(٢) الحديث الأول أخرجه البخاري (٦١٥٦)، ومسلم (٢٧٩٠). والثاني أخرجه مسلم (٢٧٩١).

(٣) انظر إلى التعليق على هذا القول عند الآية (٢٠٢) من سورة البقرة. [وقال ابن كثير (٤/ ٥٢٣):] ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

(٤) قد رتبت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على ترتيب عقلي بحسب حصول بعضها عقب بعض، فابتدئ بالصفة العامة وهي حصول التبليغ، ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار، ثم ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانية لما في خلال هذه السورة من الدلائل، ثم بالتذكير فيما جاء به ذلك البلاغ وهو تفاصيل العلم والعمل، وهذه المراتب هي جامع حكمة ما جاء به الرسول ﷺ موزعة على من بلغ إليهم، ويختص المسلمون بمضمون قوله ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾. [ابن عاشور (١٣/ ٢٥٥)].

سُورَةُ الحِجرِ

مَكِّيَّةٌ، تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[1] ﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «مِنْ» ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ١﴾ مُظْهِرٍ لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، عَطْفٌ بِزِيَادَةِ صِفَةٍ. ﴿رُّبَمَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿يَوَدُّ﴾ يَتَمَنَّى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا عَايَنُوا حَالَهُمْ وَحَالَ الْمُسْلِمِينَ ﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ٢﴾ وَرُبَّ لِلتَّكْثِيرِ، فَإِنَّهُ يَكْثُرُ مِنْهُمْ تَمَنِّي ذَلِكَ، وَقِيلَ: لِلتَّقْلِيلِ فَإِنَّ الْأَهْوَالَ تُدْهِشُهُمْ فَلَا يُفِيقُونَ حَتَّى يَتَمَنَّوْا ذَلِكَ إِلَّا فِي أَحْيَانٍ قَلِيلَةٍ. ﴿ذَرْهُمْ﴾ اُتْرُكِ الْكُفَّارَ يَا مُحَمَّدُ ﴿يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بِدُنْيَاهُمْ ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ يَشْغَلُهُمْ ﴿ٱلْأَمَلُ﴾ بِطُولِ الْعُمُرِ وَغَيْرِهِ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٣﴾ عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ[2]. ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿قَرْيَةٍ﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ أَجَلٌ ﴿مَّعْلُومٌ ٤﴾ مَحْدُودٌ لِهَلَاكِهَا. ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ٥﴾ يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ. ﴿وَقَالُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ الْقُرْآنُ فِي زَعْمِهِ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ٦ لَّوْ مَا﴾ هَلَّا ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾ فِي قَوْلِكَ إِنَّكَ نَبِيٌّ، وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا تَنَزَّلُ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا﴾ أَيْ: حِينَ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ بِالْعَذَابِ ﴿مُّنظَرِينَ ٨﴾ مُؤَخَّرِينَ. ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ تَأْكِيدٌ لِاسْمِ «إِنَّ»، أَوْ فَصْلٌ ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّحْرِيفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رُسُلًا ﴿فِى شِيَعِ﴾ فِرَقِ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) ذكر هذا كثير من المفسرين، انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ص (٥٨)، المحرر الوجيز: (٨ / ٢٨١)، زاد المسير: (٤ / ٣٨٢). وبعض العلماء توسعوا كثيرا في الحكم على كثير من آيات الصبر والمسالمة والإعراض عن المشركين وتهديدهم بالعذاب بالنسخ، وجعلوا آية القتال أو آية السيف ناسخة لأكثر من مائة آية في القرآن الكريم. وفي هذا غلو في القول بالنسخ، وخروج به عن مفهومه الصحيح. [انظر: علوم القرآن، للدكتور عدنان محمد زرزور ص: (٢١٠-٢١٢)]. [وقد] هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه ﷺ أن يتركهم يأكلون ويتمتعون، فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم ... كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. [الشنقيطي (٣/ ١٤٠)].

﴿ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا﴾ كَانَ ﴿يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١١﴾ كَاسْتِهْزَاءِ قَوْمِكَ بِكَ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ. ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ أَيْ: مِثْلَ إِدْخَالِنَا التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِ أُولَئِكَ، نُدْخِلُهُ ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢﴾ أَيْ: كُفَّارِ مَكَّةَ. ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ أَيْ: سُنَّةُ اللهِ فِيهِمْ، مِنْ تَعْذِيبِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ مِثْلُهُمْ. ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ﴾ فِي الْبَابِ ﴿يَعۡرُجُونَ ۝١٤﴾ يَصْعَدُونَ. ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ﴾ سُدَّتْ ﴿أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ۝١٥﴾ يُخَيَّلُ إِلَيْنَا ذَلِكَ. ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ اثْنَيْ عَشَرَ: الْحَمَلَ وَالثَّوْرَ وَالْجَوْزَاءَ وَالسَّرَطَانَ وَالْأَسَدَ وَالسُّنْبُلَةَ وَالْمِيزَانَ وَالْعَقْرَبَ وَالْقَوْسَ وَالْجَدْيَ وَالدَّلْوَ وَالْحُوتَ، وَهِيَ مَنَازِلُ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ: الْمِرِّيخُ وَلَهُ الْحَمَلُ وَالْعَقْرَبُ، وَالزُّهَرَةُ وَلَهَا الثَّوْرُ وَالْمِيزَانُ، وَعُطَارِدُ وَلَهُ الْجَوْزَاءُ وَالسُّنْبُلَةُ، وَالْقَمَرُ وَلَهُ السَّرَطَانُ، وَالشَّمْسُ وَلَهَا الْأَسَدُ، وَالْمُشْتَرِي وَلَهُ الْقَوْسُ وَالْحُوتُ، وَزُحَلُ وَلَهُ الْجَدْيُ وَالدَّلْوُ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بِالْكَوَاكِبِ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا﴾ بِالشُّهُبِ ﴿مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾ مَرْجُومٍ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ خَطِفَهُ ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ۝١٨﴾ كَوْكَبٌ يُضِيءُ، يُحْرِقُهُ أَوْ يَثْقُبُهُ أَوْ يُخَبِّلُهُ[1]. ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ بَسَطْنَاهَا ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ لِئَلَّا تَتَحَرَّكَ بِأَهْلِهَا ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ۝١٩﴾ مَعْلُومٍ مُقَدَّرٍ. ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ بِالْيَاءِ مِنَ الثِّمَارِ وَالْحُبُوبِ ﴿وَ﴾ جَعَلْنَا لَكُمْ ﴿مَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾ مِنَ الْعَبِيدِ، وَالدَّوَابِّ، وَالْأَنْعَامِ فَإِنَّمَا يَرْزُقُهُمُ اللهُ[2]. ﴿وَإِن﴾ مَا ﴿مِّن﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهِ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢١﴾ عَلَى حَسَبِ الْمَصَالِحِ. ﴿وَأَرۡسَلۡنَا

---

(١) المعنى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنه تتبعه وتلحقه الشهب فتقتله أو تخبله أو تحرقه أو تثقبه، ومعنى ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾: تبعه ولحقه أو أدركه، و«الشهاب» الكوكب نفسه أو النار المشتعلة الساطعة منه كما في قوله: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ [النمل: ٧] ... واختلف هل كان رمي بالشهب قبل المبعث فقال الأكثرون نعم: وقيل: لا، وإنما ذلك بعد المبعث، قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبي ﷺ مما حدث بعد مولده لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم والجمع بين هذين القولين إن الرمي بالنجوم كان موجوداً قبل مبعث النبي ﷺ فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صوناً لأخبار الغيوب. [صديق حسن (٧/ ١٥٥)].

(٢) قال الله فيهم: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٣١]. [الماوردي (٣/ ١٥٤)]. ومعناه: جعلنا فيها معايش لكم، وجعلنا فيها من لستم فيها برازقين، وهي الدواب والطيور والوحوش. وفي الآية قول آخر: وهو أنا جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم أيضا الدواب والطيور والأنعام، وكفيناكم رزقها، فإن قال قائل: قد قال: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾، و«من» إنما تقال فيمن يعقل لا فيمن لا يعقل؟ والجواب عنه: أن العبيد والمماليك قد دخلوا في هؤلاء، والعرب إذا جمعت بين من يعقل وبين من لا يعقل غلبت من يعقل. [السمعاني (٣/ ١٣٤)].

﴿ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ تُلَقِّحُ السَّحابَ، فَيَمْتَلِئُ ماءً ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السَّحابِ ﴿مَآءً﴾ مطَرًا ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أَيْ: لَيْستْ خزائِنُهُ بِأَيْدِيكُم. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الْباقُونَ نَرِثُ جَمِيعَ الْخَلْقِ. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أَيْ: مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الْمُتَأَخِّرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ آدَمَ ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ طِينٍ يابِسٍ، يُسْمَعُ لَهُ صَلْصلَةٌ إِذا نُقِرَ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ طِينٍ أَسْوَدَ ﴿مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ مُتَغَيِّرٍ(١). ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أَبا الْجِنِّ، وَهُوَ إِبْلِيسُ(٢) ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ هِيَ نارٌ لا دُخانَ لَها، تَنْفُذُ مِنَ الْمَسامِّ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أَتْمَمْتُهُ ﴿وَنَفَخْتُ﴾ أَجْرَيْتُ ﴿فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فَصارَ حَيًّا، وَإِضافَةُ الرُّوحِ إِلَيْهِ تَشْرِيفٌ لِآدَمَ ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالِانْحِناءِ(٣). ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فِيهِ تَأْكِيدانِ. ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ هُوَ أَبُو الْجِنِّ كانَ بَيْنَ الْمَلائِكَةِ ﴿أَبَىٰٓ﴾ اِمْتَنَعَ مِنْ ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ﴾ تَعالَى: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ ما مَنَعَكَ ﴿أَلَّا﴾ زائِدَةٌ ﴿تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ لا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْجُدَ ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنَ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ مِنَ السَّماواتِ(٤) ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ

---

(١) ظاهر هذه الآية أن آدم خلق من صلصال، أي: طين يابس. وقد جاء في آيات أخر ما يدل على خلاف ذلك، كقوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] وكقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. والجواب أنه ذكر أطوار ذلك التراب، فذكر طوره الأول بقوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾، ثم بل فصار طينا لازبا، ثم خمر فصار حمأ مسنونا، ثم يبس فصار صلصالا كالفخار. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:١٨٥)].

(٢) قال الحسن: يعني إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام. وسمي «جانا» لتواريه عن الأعين. عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ جَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَتَمَالَكُ». أخرجه مسلم (٢٦١١). [القرطبي (١٠/٢٣)]. ومعنى «لَا يَتَمَالَكُ» أي: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل لا يملك نفسه عند الغضب. [الخازن (٤/٣٧٦)] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

(٣) قوله: «بالانحناء» فيه نظر؛ لأن السجود هو الوقوع على الأرض، وهو ظاهر الآية، ولكن يقال: إن هذا السجود للغير تحية كان جائزا ولكنه نسخ بعد ذلك. [ابن عثيمين تفسير الحجر (ص:٢٣٦)].

(٤) قيل: الظاهر أن الضمير للسماء وإن لم يجر لها ذكر، وأيد بظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، وقيل: لزمرة الملائكة

﴿٣٤﴾ مَطْرُودٌ. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ الْجَزَاءِ. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أَيِ: النَّاسُ. ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وَقْتِ النَّفْخَةِ الْأُولَى. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أَيْ: بِإِغْوَائِكَ لِي، وَالْبَاءُ لِلْقَسَمِ[1] وَجَوَابُهُ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الْمَعَاصِي ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾. وَهُوَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قُوَّةٌ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ الْكَافِرِينَ[2]. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أَيْ: مَنِ اتَّبَعَكَ مَعَكَ. ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أَطْبَاقٍ[3] ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ مِنْهَا ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ﴾ نَصِيبٌ ﴿مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ تَجْرِي فِيهَا. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أَيْ: سَالِمِينَ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ، أَوْ مَعَ سَلَامٍ، أَيْ: سَلِّمُوا وَادْخُلُوا ﴿ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ مِنْ كُلِّ فَزَعٍ. ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ حِقْدٍ[4] ﴿إِخْوَٰنًا﴾ حَالٌ مِنْ «هُمْ» ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ حَالٌ أَيْضًا، أَيْ: لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ

عليهم السلام ويلزم خروجه من السماء إذ كونه بانزوائه عنهم في جانب لا يعد خروجا في المتبادر وكفى به قرينة، وقيل: للجنة لقوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ولوقوع الوسوسة فيها، ورُدَّ بأن وقوعها كان بعد الأمر بالخروج. [الآلوسي (٧/ ٢٩١)].

(١) [وقيل:] الباء للسببية، أي: لأغوينهم بسبب إغوائك لي ... والضمير لذرية آدم. [ابن جُزَيّ (١/ ٤١٨)].

(٢) استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لإبليس ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] عن طريق الحق الواقعين في الضلال، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾. ويمكن أن يقال بين الكلامين فرق، فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس، وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلا المخلصين، فدخل فيهم من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً. والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصة ولا غاوية تابعة لإبليس، وقد قيل إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، قال أبو السعود: وفيه مع كونه تحقيقاً لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين، وبيان لمنزلتهم، ولانقطاع مخالب الإغواء عنهم وإن إغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم. [صديق حسن (٧/ ١٧١)].

(٣) الظاهر أن السبعة مستعملة في الكثرة فيكون كقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]، أو أريد بالأبواب الكناية عن طبقات جهنم؛ لأن الأبواب تقتضي منازل ... وجملة ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ صفة لـ «أبواب» وتقسيمها بالتعيين يعلمه الله تعالى. وضمير منهم عائد لـ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، أي: لكل باب فريق يدخل منه، أو لكل طبقة من النار قسم من أهل النار مقسوم على طبقات أقسام النار. [ابن عاشور (١٤/ ٥٣)].

(٤) انظر التعليق على آية (٤٣) من سورة الأعراف.

لِدَوَرَانِ ٱلْأَسِرَّةِ بِهِمْ(١) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أَبَدًا. ﴿۞نَبِّئْ﴾ خَبِّرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ بِهِمْ. ﴿وَأَنَّ عَذَابِى﴾ لِلْعُصَاةِ ﴿هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ ٱلْمُؤْلِمُ. ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ وَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ٱثْنَا عَشَرَ أَوْ عَشَرَةٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ، مِنْهُمْ جِبْرِيلُ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أَيْ: هَذَا ٱللَّفْظُ ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَكْلَ فَلَمْ يَأْكُلُوا: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ خَائِفُونَ. ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ لَا تَخَفْ ﴿إِنَّا﴾ رُسُلُ رَبِّكَ ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ ذِي عِلْمٍ كَثِيرٍ، هُوَ إِسْحَاقُ كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ «هُودٍ»(٢). ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ بِالْوَلَدِ ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ حَالٌ، أَيْ: مَعَ مَسِّهِ إِيَايَ ﴿فَبِمَ﴾ فَبِأَيِّ شَيْءٍ ﴿تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ٱسْتِفْهَامُ تَعَجُّبٍ. ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ٱلْآيِسِينَ. ﴿قَالَ وَمَن﴾ أَيْ: لَا ﴿يَقْنَطُ﴾ بِكَسْرِ «النُّونِ» وَفَتْحِهَا ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ ٱلْكَافِرُونَ. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ شَأْنُكُمْ ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ كَافِرِينَ، أَيْ: قَوْمِ لُوطٍ لِإِهْلَاكِهِمْ. ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾ لِإِيمَانِهِمْ. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ٱلْبَاقِينَ فِي ٱلْعَذَابِ لِكُفْرِهَا(٣). ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ﴾ أَيْ: لُوطًا ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لَا أَعْرِفُكُمْ. ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟﴾ أَيْ: قَوْمُكَ ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ يَشُكُّونَ، وَهُوَ ٱلْعَذَابُ. ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فِي قَوْلِنَا. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ ٱمْشِ خَلْفَهُمْ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لِئَلَّا يَرَى عَظِيمَ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وَهُوَ ٱلشَّامُ. ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ أَوْحَيْنَا ﴿إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ وَهُوَ: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ حَالٌ، أَيْ: يَتِمُّ ٱسْتِئْصَالُهُمْ فِي ٱلصَّبَاحِ. ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ مَدِينَةِ سَدُومَ، وَهُمْ قَوْمُ لُوطٍ، لَمَّا أُخْبِرُوا أَنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ مُرْدًا حِسَانًا، وَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ حَالٌ، طَمَعًا فِي فِعْلِ ٱلْفَاحِشَةِ بِهِمْ. ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ بِقَصْدِكُمْ إِيَّاهُمْ بِفِعْلِ ٱلْفَاحِشَةِ بِهِمْ. ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ عَنْ إِضَافَتِهِمْ. ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ

---

(١) انظر التعليق على آية (٤٤) من سورة الصافات.

(٢) سورة هود آية (٧١).

(٣) الغابر يقال: بمعنى الباقي، وبمعنى الذاهب، وإنما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، وهو لله وحده لما لهم من القرب والاختصاص بالله، لا سيما في هذه القضية، كما تقول خاصة الملك للملك: دبرنا كذا، ويحتمل أن يكون حكاية عن الله. [ابن جُزَيّ (١/ ٤١٩)].

﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ مَا تُرِيدُونَ مِنْ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ فَتَزَوَّجُوهُنَّ[1]. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَيْ: وَحَيَاتِكَ[2] ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ يَتَرَدَّدُونَ. ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ صَيْحَةُ جِبْرِيلَ ﴿مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ. ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾ أَيْ: قُرَاهُمْ ﴿سَافِلَهَا﴾ بِأَنْ رَفَعَهَا جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَسْقَطَهَا مَقْلُوبَةً إِلَى الْأَرْضِ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ طِينٍ طُبِخَ بِالنَّارِ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ لِلنَّاظِرِينَ الْمُعْتَبِرِينَ. ﴿وَإِنَّهَا﴾ أَيْ: قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦﴾ طَرِيقِ قُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ لَمْ تَنْدَرِسْ، أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهِمْ؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ لَعِبْرَةً ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: إِنَّهُ ﴿كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ هِيَ: غَيْضَةُ شَجَرٍ بِقُرْبِ مَدْيَنَ، وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ ﴿لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ شُعَيْبًا. ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ بِأَنْ أَهْلَكْنَاهُمْ بِشِدَّةِ الْحَرِّ ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أَيْ: قُرَى قَوْمِ لُوطٍ وَالْأَيْكَةِ ﴿لَبِإِمَامٖ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّبِينٖ ٧٩﴾ وَاضِحٍ، أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ؟ ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ وَادٍ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ، وَهُمْ ثَمُودُ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ صَالِحًا؛ لِأَنَّهُ تَكْذِيبٌ لِبَاقِي الرُّسُلِ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْمَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ فِي النَّاقَةِ ﴿فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا. ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ وَقْتَ الصَّبَاحِ. ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ دَفَعَ ﴿عَنۡهُم﴾ الْعَذَابَ ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ مِنْ بِنَاءِ الْحُصُونِ، وَجَمْعِ الْأَمْوَالِ. ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ لَا مَحَالَةَ، فَيُجَازَى كُلُّ أَحَدٍ بِعَمَلِهِ ﴿فَٱصۡفَحِ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَنْ قَوْمِكَ ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ أَعْرِضْ عَنْهُمْ إِعْرَاضًا لَا جَزَعَ فِيهِ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ[3]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ. ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ قَالَ ﷺ: «هِيَ الْفَاتِحَةُ». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[4]؛ لِأَنَّهَا تُثْنَى فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧ لَا

---

(١) انظر التعليق على آية (٧٨) من سورة هود.

(٢) قال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ. وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى هاهنا بحياة محمد ﷺ تشريفا له، قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده. وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله، فليس لعباده أن يقسموا بغيره، وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. [صديق حسن (٧/ ١٨٥)].

(٣) قال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا فإن هذه مكية، والقتال إنما شرع بعد الهجرة. [ابن كثير (٤/ ٥٤٥)].

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٠٤).

تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أَصْنَافًا ﴿مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ أَلِنْ جَانِبَكَ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ ﴿ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ الْبَيِّنُ الْإِنْذَارِ. ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ الْعَذَابَ ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أَيْ: كُتُبَهُمُ الْمُنَزَّلَةَ عَلَيْهِمْ ﴿عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ أَجْزَاءً، حَيْثُ آمَنُوا بِبَعْضٍ، وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمُ الَّذِينَ اقْتَسَمُوا طُرُقَ مَكَّةَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فِي الْقُرْآنِ سِحْرٌ، وَبَعْضُهُمْ: كَهَانَةٌ، وَبَعْضُهُمْ: شِعْرٌ. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ سُؤَالُ تَوْبِيخٍ. ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ بِهِ، أَيِ: اجْهَرْ بِهِ وَأَمْضِهِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ هَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ[1]. ﴿إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بِكَ، بِإِهْلَاكِنَا كُلًّا مِنْهُمْ بِآفَةٍ، وَهُمْ: «الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ وَالْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ وَعَدِيُّ بْنُ قَيْسٍ وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ وَالْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ»[2]. ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ صِفَةٌ، وَقِيلَ: مُبْتَدَأٌ، وَلِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الشَّرْطِ دَخَلَتِ الْفَاءُ فِي خَبَرِهِ، وَهُوَ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ عَاقِبَةَ أَمْرِهِمْ. ﴿وَلَقَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ[3]. ﴿فَسَبِّحْ﴾ مُلْتَبِسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَيْ: قُلْ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الْمُصَلِّينَ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ الْمَوْتُ[4].

---

(١) ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تبال بهم ولا تلتفت إليهم إذا لاموك على إظهار الدعوة ... وليس للنسخ وجه لأن معنى الإعراض ترك المبالاة بهم والالتفات إليهم، فلا يكون منسوخاً. [صديق حسن (٧/ ٢٠٠)].

(٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما زال النبي ﷺ مستخفيا، حتى نزلت: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ... فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]. [ابن كثير (٤/ ٥٥١)].

(٣) لما ذكر تعالى أن قومه يهزؤون ويسفهون؛ أعلمه بما يعلمه سبحانه منه، من ضيق صدره وانقباضه بما يقولون؛ لأن الجبلة البشرية والمزاج الإنساني يقتضي ذلك. ثم أعلمه بما يزيل ضيق الصدر والحزن، وذلك أمره من التسبيح والتحميد والصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾ [البقرة: ٤٥] وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ... وقد روي في شمائله صلوات الله عليه؛ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، تأويلا لما ذكر. [القاسمي (٦/ ٣٤٧)].

(٤) قال الزجاج: المعنى اعبد ربك أبداً، لأنه لو قيل أعبد ربك بغير توقيت لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعاً. [الواحدي (١٢/ ٦٧٦)] ومثله قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

سُورَةُ النَّحلِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إِلَى آخرِهَا، مِائَةٌ وَثَمانٍ وَعِشْرُونَ آيَةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمَّا اسْتَبْطَأَ الْمُشْرِكُونَ الْعَذابَ نَزَلَ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: السَّاعَةُ، وَ﴿أَتَىٰٓ﴾ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِتَحقُّقِ وُقُوعِهِ، أَيْ: قَرُبَ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ تَطْلُبُوهُ قَبْلَ حِينِهِ، فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لَا مَحالَةَ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾ بِهِ غَيْرَهُ. ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أَيْ: جِبْرِيلَ ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بِالْوَحْيِ ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بِإِرَادَتِهِ[1] ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ﴿أَنْ﴾ مُفَسِّرَةٌ ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾ خَوِّفُوا الْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ، وَأَعْلِمُوهُمْ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ②﴾ خَافُونِ[2]. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: مُحِقًّا ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③﴾ بِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ إِلَى أَنْ صَيَّرَهُ قَوِيًّا شَدِيدًا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ ﴿مُّبِينٌ ④﴾ بَيِّنُهَا فِي نَفْيِ الْبَعْثِ. قَائِلًا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ «الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ» وَنَصْبُهُ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ مِنْ جُمْلَةِ النَّاسِ ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ مَا تَسْتَدْفِئُونَ بِهِ مِنَ الْأَكْسِيَةِ وَالْأَرْدِيَةِ مِنْ أَشْعَارِهَا وَأَصْوَافِهَا ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ مِنَ النَّسْلِ وَالدَّرِّ وَالرُّكُوبِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤﴾ قَدَّمَ الظَّرْفَ لِلْفَاصِلَةِ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زِينَةٌ ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تَرُدُّونَهَا إِلَى مُرَاحِهَا بِالْعَشِيِّ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ⑥﴾ تُخْرِجُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى بِالْغَدَاةِ. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أَحْمَالَكُمْ ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ وَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَلَى غَيْرِ الْإِبِلِ ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ بِجَهْدِهَا ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑦﴾ بِكُمْ حَيْثُ خَلَقَهَا لَكُمْ. ﴿وَ﴾ خَلَقَ ﴿ٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، وَالتَّعْلِيلُ بِهِمَا بِتَعْرِيفِ النِّعَمِ لَا يُنَافِي خَلْقَهَا لِغَيْرِ ذَلِكَ، كَالْأَكْلِ فِي الْخَيْلِ، الثَّابِتِ فِي حَدِيثِ

---

(١) الروح هو الوحي، الذي من جملته القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] والتعبير عنه بالروح على نهج الاستعارة. فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل. و﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان للروح، أو حال منه، أو صفة، أو متعلق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾ و﴿مِنْ﴾ للسببية. و﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ بدل من الروح. أي: أخبروهم بالتوحيد والتقوى. [القاسمي (٦/ ٣٥٠)].

(٢) كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال في هذه الآية: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري. [ابن كثير (٤/ ٥٥٦)].

ٱلصَّحِيحَيْنِ[1] ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلْغَرِيبَةِ. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ: بَيَانُ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿وَمِنْهَا﴾ أَيِ: ٱلسَّبِيلِ ﴿جَآئِرٌ﴾ حَائِدٌ عَنِ ٱلِاسْتِقَامَةِ ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ هِدَايَتَكُمْ ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ ﴿أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ فَتَهْتَدُونَ إِلَيْهِ بِٱخْتِيَارٍ مِنْكُمْ. ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تَشْرَبُونَهُ ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ يَنْبُتُ بِسَبَبِهِ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ تَرْعَوْنَ دَوَابَّكُمْ. ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ ٱلْمَذْكُورِ ﴿لَءَايَةً﴾ دَالَّةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾ فِي صُنْعِهِ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَالرَّفْعُ مُبْتَدَأٌ ﴿وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ بِالنَّصْبِ حَالٌ، وَالرَّفْعِ خَبَرٌ ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بِإِرَادَتِهِ[2] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَ﴾ سَخَّرَ لَكُمْ ﴿مَا ذَرَأَ﴾ خَلَقَ ﴿لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ كَأَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَأَخْضَرَ وَغَيْرِهَا[3] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣﴾ يَتَّعِظُونَ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ ذَلَّلَهُ لِرُكُوبِهِ وَالْغَوْصِ فِيهِ ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هُوَ ٱلسَّمَكُ ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هِيَ ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿وَتَرَى﴾ تُبْصِرُ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ ٱلسُّفُنَ ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ تَمْخُرُ ٱلْمَاءَ، أَيْ: تَشُقُّهُ بِجَرْيِهَا فِيهِ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً، بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ تَطْلُبُوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ تَعَالَى بِالتِّجَارَةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٤﴾ ٱللَّهَ عَلَى ذَلِكَ. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿تَمِيدَ﴾ تَتَحَرَّكَ ﴿بِكُمْ وَ﴾ جَعَلَ فِيهَا ﴿أَنْهَٰرًا﴾ كَالنِّيلِ، ﴿وَسُبُلًا﴾ طُرُقًا ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾ إِلَى مَقَاصِدِكُمْ. ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ تَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى ٱلطُّرُقِ، كَالْجِبَالِ بِالنَّهَارِ ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾ بِمَعْنَى ٱلنُّجُومِ ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ إِلَى ٱلطُّرُقِ وَٱلْقِبْلَةِ بِاللَّيْلِ. ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ وَهُوَ ٱلْأَصْنَامُ، حَيْثُ تُشْرِكُونَهَا مَعَهُ فِي ٱلْعِبَادَةِ؟ لَا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ هَذَا فَتُؤْمِنُوا. ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ تَضْبِطُوهَا، فَضْلًا أَنْ تُطِيقُوا شُكْرَهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: نَحَرْنا على عَهْدِ النبيِّ ﷺ فَرَسًا فأكَلْناهُ. أخرجه البخاري (٥٥١٠)، ومسلم (١٩٤٢).

(٢) بأمر الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر. [الطبري (١٤/ ١٨٤)]. فتجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان، ولا تصرف لها في نفسها فضلاً عن غيرها، وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لأنهم يعتقدون أن هذه النجوم هي الفعالة المتصرفة في العالم السفلي فأخبر سبحانه أنها مذللات تحت قهره وإرادته. [صديق حسن (٧/ ٢١٧)].

(٣) أي: هيئاته ومناظره، فإن ذرء هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده. [الشوكاني (٣/ ١٨٣)].

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ حَيْثُ يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ مَعَ تَقْصِيرِكُمْ وَعِصْيَانِكُمْ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وَهُمُ الْأَصْنَامُ ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾ يُصَوَّرُونَ مِنَ الْحِجَارَةِ وَغَيْرِهَا ﴿شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ﴾ لَا رُوحَ فِيهِمْ، خَبَرٌ ثَانٍ ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامُ ﴿أَيَّانَ﴾ وَقْتَ ﴿يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ أَيِ: الْخَلْقُ، فَكَيْفَ يُعْبَدُونَ؟ إِذْ لَا يَكُونُ إِلَهًا إِلَّا الْخَالِقُ الْحَيُّ الْعَالِمُ بِالْغَيْبِ. ﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ مِنْكُمْ ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي ذَاتِهِ وَلَا صِفَاتِهِ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَى ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جَاحِدَةٌ لِلْوَحْدَانِيَّةِ ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مُتَكَبِّرُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِذَلِكَ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ(١). وَنَزَلَ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ(٢): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّا﴾ اسْتِفْهَامِيَّةٌ ﴿ذَآ﴾ مَوْصُولَةٌ ﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ﴾ أَكَاذِيبُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ إِضْلَالًا لِلنَّاسِ. ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذُنُوبَهُمْ ﴿كَامِلَةً﴾ لَمْ يُكَفَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ﴾ بَعْضِ ﴿أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لِأَنَّهُمْ دَعَوْهُمْ إِلَى الضَّلَالِ فَاتَّبَعُوهُمْ فَاشْتَرَكُوا فِي الْإِثْمِ ﴿أَلَا سَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يَحْمِلُونَهُ حَمْلُهُمْ هَذَا. ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وَهُوَ «نَمْرُوذُ» بَنَى صَرْحًا طَوِيلًا لِيَصْعَدَ مِنْهُ إِلَى السَّمَاءِ لِيُقَاتِلَ أَهْلَهَا ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ قَصَدَ ﴿بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ الْأَسَاسِ فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الرِّيحَ وَالزَّلْزَلَةَ فَهَدَمَتْهُ ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أَيْ: وَهُمْ تَحْتَهُ ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، وَقِيلَ: هَذَا تَمْثِيلٌ لِإِفْسَادِ مَا أَبْرَمُوهُ مِنَ الْمَكْرِ بِالرُّسُلِ(٣). ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يُذِلُّهُمْ ﴿وَيَقُولُ﴾ اللهُ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ تَوْبِيخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ﴾ تُخَالِفُونَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿فِيهِمْ﴾ فِي شَأْنِهِمْ؟ ﴿قَالَ﴾ أَيْ: يَقُولُ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يَقُولُونَهُ شَمَاتَةً بِهِمْ. ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بِالْكُفْرِ ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ انْقَادُوا وَاسْتَسْلَمُوا عِنْدَ الْمَوْتِ قَائِلِينَ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ شِرْكٍ، فَتَقُولُ

---

(١) أي: لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبيائه، [الشوكاني (٣/ ١٨٨)]. بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. [السعدي (ص:٤٣٧)].

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/ ٤٦٣-٤٦٥).

(٣) والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين الماكرين الذين يحاولون إلحاق الضر بالمحقين المؤمنين، ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير الذي لا يطابق الحق، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأن مكرهم سيعود عليهم. [صديق حسن (٧/ ٢٣١)].

اَلْمَلائِكَةُ: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ فَيُجازِيكُمْ بِهِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى﴾ مَأْوَى ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ ۞ ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ اَلشِّرْكَ ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ بِالْإِيمَانِ ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أَيِ: اَلْجَنَّةُ ﴿خَيۡرٞۚ﴾ مِنَ اَلدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، قَالَ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠﴾ هِيَ. ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إِقَامَةٍ، مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ﴾ اَلْجَزَاءِ ﴿يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ﴾ نَعْتٌ ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طَاهِرِينَ مِنَ اَلْكُفْرِ ﴿يَقُولُونَ﴾ لَهُمْ عِنْدَ اَلْمَوْتِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ هَلۡ﴾ مَا ﴿يَنظُرُونَ﴾ يَنْتَظِرُ اَلْكُفَّارُ ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ اَلْعَذَابِ أَوِ اَلْقِيَامَةُ اَلْمُشْتَمِلَةُ عَلَيْهِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا فَعَلَ هَؤُلَاءِ ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ مِنَ اَلْأُمَمِ، كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فَأُهْلِكُوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ بِالْكُفْرِ. ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أَيْ: جَزَاؤُهَا ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ أَيِ: اَلْعَذَابُ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ مِنَ اَلْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ، فَإِشْرَاكُنَا وَتَحْرِيمُنَا بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ رَاضٍ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أَيْ: كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ﴿فَهَلۡ﴾ فَمَا ﴿عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ اَلْإِبْلَاغُ اَلْبَيِّنُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمُ اَلْهِدَايَةُ. ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ كَمَا بَعَثْنَاكَ فِي هَؤُلَاءِ ﴿أَنِ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ اَلْأَوْثَانَ أَنْ تَعْبُدُوهَا ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فَآمَنَ ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ﴾ وَجَبَتْ ﴿عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ فِي عِلْمِ اللهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ ﴿فَسِيرُواْ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ رُسُلَهُمْ مِنَ اَلْهَلَاكِ. ﴿إِن تَحۡرِصۡ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ وَقَدْ أَضَلَّهُمُ اللهُ، لَا تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُهۡدَىٰ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَلِلْفَاعِلِ ﴿مَن يُضِلُّۖ﴾ مَنْ يُرِيدُ إِضْلَالَهُ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٧﴾ مَانِعِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ. ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أَيْ: غَايَةَ اجْتِهَادِهِمْ فِيهَا ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ﴾ يَبْعَثُهُمْ ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ مَصْدَرَانِ مُؤَكِّدَانِ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا اَلْمُقَدَّرِ، أَيْ: وَعَدَ ذَلِكَ وَحَقَّهُ حَقًّا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ ذَلِكَ. ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «يَبْعَثُهُمْ» اَلْمُقَدَّرِ ﴿لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ﴾ مَعَ اَلْمُؤْمِنِينَ ﴿فِيهِ﴾ مِنْ أَمْرِ اَلدِّينِ بِتَعْذِيبِهِمْ وَإِثَابَةِ اَلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ٣٩﴾ فِي إِنْكَارِ اَلْبَعْثِ. ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ أَيْ: أَرَدْنَا إِيجَادَهُ، وَ﴿قَوۡلُنَا﴾ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

﴿فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ أَيْ: فَهُوَ يَكُونُ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿نَّقُولَ﴾، وَالْآيَةُ لِتَقْرِيرِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ لِإِقَامَةِ دِينِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ بِالْأَذَى مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ نُنْزِلُهُمْ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ دَارًا ﴿حَسَنَةً﴾ هِيَ الْمَدِينَةُ ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ: الْجَنَّةُ ﴿أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ، أَوِ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْهِجْرَةِ، مَا لِلْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْكَرَامَةِ لَوَافَقُوهُمْ. هُمُ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْهِجْرَةِ لِإِظْهَارِ الدِّينِ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ فَيَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ لَا مَلَائِكَةً[1] ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ الْعُلَمَاءَ بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ، وَأَنْتُمْ إِلَى تَصْدِيقِهِمْ أَقْرَبُ مِنْ تَصْدِيقِ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَيْ: أَرْسَلْنَاهُمْ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الْكُتُبِ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فِيهِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ فِي ذَلِكَ فَيَعْتَبِرُوا. ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ الْمَكَرَاتِ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، مِنْ تَقْيِيدِهِ أَوْ قَتْلِهِ أَوْ إِخْرَاجِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي الْأَنْفَالِ[2] ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كَقَارُونَ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥﴾ أَيْ: مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِبَالِهِمْ، وَقَدْ أُهْلِكُوا بِبَدْرٍ وَلَمْ يَكُونُوا يُقَدِّرُونَ ذَلِكَ. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ فِي أَسْفَارِهِمْ لِلتِّجَارَةِ ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦﴾ بِفَائِتِي الْعَذَابِ. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ تَنَقُّصٍ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى يَهْلِكَ الْجَمِيعُ، حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ أَوِ الْمَفْعُولِ ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٤٧﴾ حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ لَهُ ظِلٌّ كَشَجَرَةٍ وَجَبَلٍ ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ تَتَمَيَّلُ ﴿ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ جَمْعُ شِمَالٍ، أَيْ: عَنْ جَانِبَيْهِمَا أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ حَالٌ، أَيْ: خَاضِعِينَ لَهُ بِمَا يُرَادُ مِنْهُمْ[3] ﴿وَهُمْ﴾ أَيِ: الظِّلَالُ ﴿دَاخِرُونَ ۝٤٨﴾ صَاغِرُونَ، نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أَيْ: نَسَمَةٍ تَدِبُّ عَلَيْهَا، أَيْ: تَخْضَعُ لَهُ بِمَا يُرَادُ مِنْهَا، وَغَلَّبَ فِي الْإِتْيَانِ بِـ «مَا» مَا لَا يَعْقِلُ لِكَثْرَتِهِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ خَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ تَفْضِيلًا ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. ﴿يَخَافُونَ﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةُ، حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ حَالٌ مِنْ

---

(١) وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] معناه: رسلا إلى الملائكة، أو إلى الرسل. [أبو السعود (٥/ ١١٦)].

(٢) الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٣) انظر حاشية تفسير آية (١٥) من سورة الرعد.

﴿هُمْ﴾ أَيْ: عَالِيًا عَلَيْهِمْ بِالْقَهْرِ(١) ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ بِهِ. ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أَتَى بِهِ لِإِثْبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ خَافُونِ دُونَ غَيْرِي، وَفِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ. ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ الطَّاعَةُ ﴿وَاصِبًاۚ﴾ دَائِمًا، حَالٌ مِنَ ﴿ٱلدِّينُ﴾ وَالْعَامِلُ فِيهِ مَعْنَى الظَّرْفِ ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾ وَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ لَا يَأْتِي بِهَا غَيْرُهُ، وَ«مَا» شَرْطِيَّةٌ أَوْ مَوْصُولَةٌ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ﴾ أَصَابَكُمُ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ الْفَقْرُ وَالْمَرَضُ ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ تَرْفَعُونَ أَصْوَاتَكُمْ بِالِاسْتِغَاثَةِ وَالدُّعَاءِ، وَلَا تَدْعُونَ غَيْرَهُ. ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ مِنَ النِّعْمَةِ ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ بِاجْتِمَاعِكُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، أَمْرُ تَهْدِيدٍ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ عَاقِبَةَ ذَلِكَ. ﴿وَيَجۡعَلُونَ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أَنَّهَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَهِيَ: الْأَصْنَامُ ﴿نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ، بِقَوْلِهِمْ: «هَذَا لِلَّهِ، وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا» ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ سُؤَالَ تَوْبِيخٍ، وَفِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ عَلَى اللهِ مِنْ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ. ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ بِقَوْلِهِمْ: «الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ» ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَمَّا زَعَمُوا ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ـهُ، أَيِ: الْبَنُونَ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ أَوْ نَصْبٍ بِـ«يَجْعَلُ». الْمَعْنَى يَجْعَلُونَ لَهُ الْبَنَاتِ الَّتِي يَكْرَهُونَهَا وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ الْوَلَدِ، وَيَجْعَلُونَ لَهُمُ الْأَبْنَاءَ الَّذِينَ يَخْتَارُونَهُمْ، فَيَخْتَصُّونَ بِالْأَسْنَى(٢)، كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩]. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ تُولَدُ لَهُ ﴿ظَلَّ﴾ صَارَ ﴿وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ مُتَغَيِّرًا تَغَيُّرَ مُغْتَمٍّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾﴾ مُمْتَلِئٌ غَمًّا. فَكَيْفَ تُنْسَبُ الْبَنَاتُ إِلَيْهِ تَعَالَى؟ ﴿يَتَوَٰرَىٰ﴾ يَخْتَفِي ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أَيْ: قَوْمِهِ ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾ خَوْفًا مِنَ التَّعْيِيرِ، مُتَرَدِّدًا فِيمَا يَفْعَلُ بِهِ ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ يَتْرُكُهُ بِلَا قَتْلٍ ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ هَوَانٍ وَذُلٍّ ﴿أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ﴾ بِأَنْ يَئِدَهُ ﴿أَلَا سَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ حُكْمُهُمْ هَذَا، حَيْثُ نَسَبُوا لِخَالِقِهِمُ الْبَنَاتِ اللَّاتِي هُنَّ عِنْدَهُمْ بِهَذَا الْمَحَلِّ. ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أَيِ: الصِّفَةُ السُّوأَى، بِمَعْنَى: الْقَبِيحَةِ، وَهِيَ: وَأْدُهُمُ الْبَنَاتِ مَعَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِنَّ لِلنِّكَاحِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ الصِّفَةُ الْعُلْيَا، وَهُوَ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾

---

(١) مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره. [السعدي (ص:٤٤٢)].

(٢) الأرفع، أي: الذكور.

بِالْمَعَاصِي ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أَيِ: الْأَرْضِ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ نَسَمَةٍ تَدِبُّ عَلَيْهَا ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عَنْهُ ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ عَلَيْهِ. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَۚ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ، مِنَ الْبَنَاتِ وَالشَّرِيكِ فِي الرِّيَاسَةِ وَإِهَانَةِ الرُّسُلِ ﴿وَتَصِفُ﴾ تَقُولُ ﴿أَلْسِنَتُهُمُ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿الْكَذِبَ﴾ وَهُوَ: ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰۖ﴾ عِنْدَ اللهِ، أَيِ: الْجَنَّةَ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ﴾ [فصلت: ٥٠]، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ مَتْرُوكُونَ فِيهَا أَوْ مُقَدَّمُونَ إِلَيْهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِكَسْرِ «الرَّاءِ» أَيْ: مُتَجَاوِزُونَ الْحَدَّ. ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رُسُلًا ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ السَّيِّئَةَ فَرَأَوْهَا حَسَنَةً، فَكَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ مُتَوَلِّي أُمُورِهِمْ ﴿الْيَوْمَ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ مُؤْلِمٌ فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْيَوْمِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ الْآتِيَةِ، أَيْ: لَا وَلِيَّ لَهُمْ غَيْرُهُ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ نَصْرِ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَنْصُرُهُمْ. ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ لِلنَّاسِ ﴿الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ﴿وَهُدًى﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ بِهِ. ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآۚ﴾ يُبْسِهَا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَأٓيَةً﴾ دَالَّةً عَلَى الْبَعْثِ ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ. ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ﴾ اعْتِبَارًا ﴿نُّسْقِيكُم﴾ بَيَانٌ لِلْعِبْرَةِ ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أَيِ: الْأَنْعَامِ ﴿مِنْ﴾ لِلِابْتِدَاءِ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ ﴿نُّسْقِيكُم﴾ ﴿بَيْنِ فَرْثٍ﴾ ثُفْلِ الْكَرِشِ ﴿وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنَ الْفَرْثِ وَالدَّمِ، مِنْ طَعْمٍ أَوْ رِيحٍ أَوْ لَوْنٍ، وَهُوَ بَيْنَهُمَا ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ سَهْلَ الْمُرُورِ فِي حَلْقِهِمْ لَا يُغَصُّ بِهِ. ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَٰبِ﴾ ثَمَرٌ ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ خَمْرًا يُسْكِرُ، سُمِّيَتْ بِالْمَصْدَرِ وَهَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِهَا[1] ﴿وَرِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ كَالتَّمْرِ وَالزَّبِيبِ وَالْخَلِّ وَالدِّبْسِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَأٓيَةً﴾ دَالَّةً عَلَى قُدْرَتِهِ

---

(١) السكر ما يسكر، هذا هو المشهور في اللغة. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر. وأراد بالسكر الخمر، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابن جبير والنخعي والشعبي وأبو ثور. وقد قيل: إن السكر الخل بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام. وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكرا لأنه قد يصير مسكرا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. قال ابن العربي: أسد، هذه الأقوال قول ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى: أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم. والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني. قلت: فعلى أن السكر الخمر أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن. [القرطبي (١٠/ ١٢٨)].

تَعَالَى ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ وَحْيَ إِلْهَامٍ[1] ﴿أَنِ﴾ مُفَسِّرَةٌ أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ تَأْوِينَ إِلَيْهَا ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ بُيُوتًا ﴿وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ٦٨﴾ أَيِ: النَّاسُ يَبْنُونَ لَكِ مِنَ الْأَمَاكِنِ وَإِلَّا لَمْ تَأْوِ إِلَيْهَا[2]. ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي﴾ أُدْخُلِي ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ طُرُقَهُ فِي طَلَبِ الْمَرْعَى ﴿ذُلُلٗاۚ﴾ جَمْعُ ذَلُولٍ حَالٌ مِنَ السُّبُلِ، أَيْ: مُسَخَّرَةً لَكِ فَلَا تَعْسُرُ عَلَيْكِ وَإِنْ تَوَعَّرَتْ، وَلَا تَضِلِّي عَلَى الْعَوْدِ مِنْهَا وَإِنْ بَعُدَتْ، وَقِيلَ: مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿ٱسۡلُكِي﴾، أَيْ: مُنْقَادَةً لِمَا يُرَادُ مِنْكِ ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾ هُوَ الْعَسَلُ ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ﴾ مِنَ الْأَوْجَاعِ، قِيلَ: لِبَعْضِهَا كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ تَنْكِيرُ ﴿شِفَآءٞ﴾، أَوْ لِكُلِّهَا بِضَمِيمَتِهِ إِلَى غَيْرِهِ، أَقُولُ: وَبِدُونِهَا بِنِيَّتِهِ، وَقَدْ أَمَرَ بِهِ ﷺ مَنِ اسْتَطْلَقَ عَلَيْهِ بَطْنُهُ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[3] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ فِي صُنْعِهِ تَعَالَى. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ عِنْدَ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أَيْ أَخَسِّهِ مِنَ الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَصِرْ بِهَذِهِ الْحَالَةِ[4] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ﴾ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ ﴿قَدِيرٞ ٧٠﴾ عَلَى مَا يُرِيدُهُ. ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾

---

(١) الوحي: الكلام الخفي والإشارة الدالة على معنى كلامي، ومنه سمي ما يلقيه الملك إلى الرسول وحيا؛ لأنه خفي عن أسماع الناس. وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعضه على بعض لا يختلف فيه آحادها، تشبيها للإلهام بكلام خفي يتضمن ذلك الترتيب الشبيه بعمل المتعلم بتعليم المعلم، أو المؤتمر بإرشاد الآمر، الذي تلقاه سرا، فإطلاق الوحي استعارة تمثيلية. [ابن عاشور (١٤/ ٢٠٥)].

(٢) اتخاذ البيوت هو أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل؛ فإنها تبني بيوتا بنظام دقيق، ثم تقسم أجزاءها أقساما متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع، بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات؛ لأن خصائص الأشكال المسدسة إذا ضم بعضها إلى بعض أن تتصل فتصير كقطعة واحدة، وما عداها من الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم تتصل، وحصلت بينها فرج، ثم تغشي على سطوح المسدسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنية متميعة أقرب إلى الجمود، تتكون في كيس دقيق جدا تحت بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها، وتمضغه، وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدس المسمى بالشهد لتمنع تسرب العسل منها. ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفي في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير بها. وأشير إلى أنها تتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى، وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة. [ابن عاشور (١٤/ ٢٠٦)].

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧٧)، ومسلم (٤١٠٧).

(٤) ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ [التين: ٤-٥]، وعن السدي

فَمِنْكُمْ غَنِيٌّ وَفَقِيرٌ، وَمَالِكٌ وَمَمْلُوكٌ ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ أَيِ: الْمَوَالِي ﴿بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أَيْ: بِجَاعِلِي مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا شَرِكَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَمَالِيكِهِمْ ﴿فَهُمْ﴾ أَيِ: الْمَمَالِيكُ وَالْمَوَالِي ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾ شُرَكَاءُ، الْمَعْنَى: لَيْسَ لَهُمْ شُرَكَاءُ مِنْ مَمَالِيكِهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَكَيْفَ يَجْعَلُونَ بَعْضَ مَمَالِيكِ اللهِ شُرَكَاءَ لَهُ؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ يَكْفُرُونَ، حَيْثُ يَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ. ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ، وَسَائِرَ النَّاسِ مِنْ نُطَفِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أَوْلَادَ الْأَوْلَادِ ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ الثِّمَارِ وَالْحُبُوبِ وَالْحَيَوَانِ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ الصَّنَمِ[1] ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ بِإِشْرَاكِهِمْ. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿شَيْـًٔا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿رِزْقًا﴾، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ، وَهُمُ الْأَصْنَامُ. ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَشْبَاهًا تُشْرِكُونَهُمْ بِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أَنْ لَا مِثْلَ لَهُ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ذَلِكَ. ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ صِفَةٌ تُمَيِّزُهُ مِنَ الْحُرِّ، فَإِنَّهُ عَبْدُ اللهِ ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لِعَدَمِ مُلْكِهِ ﴿وَمَن﴾ نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، أَيْ: حُرًّا ﴿رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أَيْ: يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَالْأَوَّلُ مَثَلُ الْأَصْنَامِ، وَالثَّانِي مَثَلُهُ تَعَالَى[2] ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ أَيِ: الْعَبِيدُ الْعَجَزَةُ، وَالْحُرُّ الْمُتَصَرِّفُ، لَا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيُشْرِكُونَ. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وُلِدَ أَخْرَسَ ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لِأَنَّهُ لَا يَفْهَمُ وَلَا يُفْهِمُ ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثَقِيلٌ ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ وَلِيِّ أَمْرِهِ ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ يَصْرِفْهُ ﴿لَا يَأْتِ﴾ مِنْهُ ﴿بِخَيْرٍ﴾ يَنْجَحُ، وَهَذَا مَثَلُ الْكَافِرِ ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ أَيِ: الْأَبْكَمُ الْمَذْكُورُ ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أَيْ: وَمَنْ هُوَ نَاطِقٌ نَافِعٌ لِلنَّاسِ، حَيْثُ يَأْمُرُ بِهِ وَيَحُثُّ عَلَيْهِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ وَهُوَ الثَّانِي الْمُؤْمِنُ لَا، وَقِيلَ: هَذَا مَثَلُ

قال: هو الخرف ... وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح وغيره أنه: كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر. [صديق حسن (٧/ ٢٧٨)].

(١) أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئا مذكورا ثم أوجده الله وليس له من وجوده سوى العدم فلا تخلق ولا ترزق ولا تدبر من الأمر شيئا، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله فإنها باطلة فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟ [السعدي (ص: ٤٤٤)].

(٢) يعني أن مثل هؤلاء في إشراكهم، مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك يتصرف في ماله كيف يشاء، ولا مساواة بينهما، مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله. فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات. [القاسمي (٦/ ٣٩١)].

لِلَّهِ وَالْأَبْكَمُ لِلْأَصْنَامِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ لِلْكَافِرِ وَلِلْمُؤْمِنِ[١]. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أَيْ: عِلْمُ مَا غَابَ فِيهِمَا ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ﴾؛ لِأَنَّهُ بِلَفْظِ: «كُنْ» فَيَكُونُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ اَلْجُمْلَةُ حَالٌ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ بِمَعْنَى اَلْأَسْمَاعِ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ اَلْقُلُوبَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ ـهُ عَلَى ذَلِكَ فَتُؤْمِنُوا. ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ مُذَلَّلَاتٍ لِلطَّيَرَانِ ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيِ: اَلْهَوَاءِ بَيْنَ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عِنْدَ قَبْضِ أَجْنِحَتِهِنَّ أَوْ بَسْطِهَا أَنْ يَقَعْنَ ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٧٩﴾ هِيَ خَلْقُهَا بِحَيْثُ يُمْكِنُهَا اَلطَّيَرَانُ، وَخَلْقُ اَلْجَوِّ بِحَيْثُ يُمْكِنُ اَلطَّيَرَانُ فِيهِ وَإِمْسَاكُهَا. ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ مَوْضِعًا تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ كَالْخِيَامِ وَالْقِبَابِ ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ لِلْحَمْلِ ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ سَفَرِكُمْ ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أَيِ: اَلْغَنَمِ ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أَيِ: اَلْإِبِلِ ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ أَيِ: اَلْمَعِزِ ﴿أَثَٰثًا﴾ مَتَاعًا لِبُيُوتِكُمْ، كَبُسُطٍ وَأَكْسِيَةٍ ﴿وَمَتَٰعًا﴾ تَتَمَتَّعُونَ بِهِ ﴿إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾ يَبْلَى فِيهِ. ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ مِنَ اَلْبُيُوتِ وَالشَّجَرِ وَالْغَمَامِ ﴿ظِلَٰلًا﴾ جَمْعُ ظِلٍّ تَقِيكُمْ حَرَّ اَلشَّمْسِ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ جَمْعُ «كِنٍّ» وَهُوَ مَا يُسْتَكَنُّ فِيهِ، كَالْغَارِ وَالسَّرَبِ[٢] ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ قُمُصًا ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أَيْ: وَالْبَرْدَ ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ﴾ حَرْبَكُمْ، أَيِ: اَلطَّعْنَ وَالضَّرْبَ فِيهَا، كَالدُّرُوعِ وَالْجَوَاشِنِ[٣] ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا خَلَقَ هَٰذِهِ اَلْأَشْيَاءَ

---

(١) يقال هنا كما قيل في المثل السابق: إنه حيث لم يستو الفريقان في الفضل والشرف مع استوائهما في الماهية والصورة فلأن يحكم بأن الصنم الذي لا ينطق ولا يسمع وهو عاجز لا يقدر على شيء كل على عابده يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويمسح عنه الأذى إذا وقع عليه ويخدمه وإن وجهه إلى أي مهم من مهماته لا ينفعه ولا يأت له به لا يساوي رب العالمين وهو هو في استحقاق المعبودية أحرى وأولى، وقيل: هذا تمثيل للمؤمن والكافر فالأبكم هو الكافر ومن يأمر بالعدل هو المؤمن، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأيا ما كان فليس المراد برجلين رجلان معينان بل رجلان متصفان بما ذكر من الصفات مطلقا، وما روي من أن الأبكم أبو جهل والآمر بالعدل عمار أو الأبكم أبي بن خلف والآمر عثمان بن مظعون فقال أبو حيان: لا يصح إسناده، وما أخرج ابن جرير وابن عساكر وغيرهما عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ إلخ في عثمان بن عفان ومولى له كافر وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفي عليه ويكفله ويكفيه المؤنة وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما فبعد تحقق صحته لا يضرنا في إرادة الموصوفين مطلقا بحيث يدخل فيهما من ذكر فقد صرحوا بأن خصوص السبب لا ينافي العموم. [الآلوسي (٧/ ٤٣٤)].

(٢) السرب: بيت في الأرض لا منفذ له. والمراد المغارة. [المصباح المنير (١/ ٢٧٢)].

(٣) الجواشن: جمع جوشن، وهو ما ينسج من الدروع على قدر الصدر. [أساس البلاغة للزمخشري (١/ ١٥٦)].

﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِخَلْقِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ تُوَحِّدُونَهُ. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الإِسْلَامِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ الإِبْلَاغُ الْبَيِّنُ، وَهَذَا قَبْلَ الأَمْرِ بِالْقِتَالِ[1]. ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: يُقِرُّونَ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بِإِشْرَاكِهِمْ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَ﴾ وَاذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ هُوَ نَبِيُّهَا يَشْهَدُ لَهَا وَعَلَيْهَا، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فِي الاعْتِذَارِ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ الْعُتْبَى، أَيِ: الرُّجُوعَ إِلَى مَا يُرْضِي اللهَ. ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كَفَرُوا ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ النَّارَ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ الْعَذَابُ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ يُمْهَلُونَ عَنْهُ إِذَا رَأَوْهُ. ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ﴾ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَغَيْرِهَا ﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ﴾ نَعْبُدُهُمْ ﴿مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أَيْ: قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فِي قَوْلِكُمْ: «إِنَّكُمْ عَبَدْتُمُونَا»، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم: ٨٢]. ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ أَيِ: اسْتَسْلَمُوا لِحُكْمِهِ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ مِنْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ لَهُمْ. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ النَّاسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الَّذِي اسْتَحَقُّوهُ بِكُفْرِهِمْ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «عَقَارِبُ أَنْيَابُهَا كَالنَّخْلِ الطِّوَالِ»[2] ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ بِصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنِ الإِيمَانِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ وَهُوَ نَبِيُّهُمْ ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيْ: قَوْمِكَ[3] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿تِبْيَٰنًا﴾ بَيَانًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَمْرِ

---

(١) ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الواضح وليس عليك غير ذلك وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلية له، وهذا قبل الأمر بالقتال فتكون الآية منسوخة الحكم وهو لا يظهر إلا لو قدر جواب الشرط فأعرض عنهم ولا تقاتلهم مع أن أكثر المفسرين قدروه بقولهم فلا عتب عليك ولا مؤاخذة في عدم إيمانهم لأنك بلغت ما أمرت بتبليغه وهدايتهم من الله لا إليك، وهذا لا ينافي أن يكون مأموراً بقتالهم. [صديق حسن (٧/ ٢٩٤)].

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٨٧)، والطبراني في الكبير (٩١٠٤)، وابن أبي شيبة (٣٤١٣٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٥٤٦).

(٣) أي: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة «النساء» فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ»، قال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان. أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠). [ابن كثير (٤/ ٥٩٤)].

اَلشَّرِيعَةِ[١] ﴿وَهُدَى﴾ مِنَ اَلضَّلَالَةِ ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ اَلْمُوَحِّدِينَ. ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ اَلتَّوْحِيدِ أَوِ اَلْإِنْصَافِ ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أَدَاءِ اَلْفَرَائِضِ، أَوْ «أَنْ تَعْبُدَ اَللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، كَمَا فِي اَلْحَدِيثِ[٢] ﴿وَإِيتَآيِٕ﴾ إِعْطَاءِ ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ اَلْقَرَابَةِ خَصَّهُ بِالذِّكْرِ اِهْتِمَامًا بِهِ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ اَلزِّنَى ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ شَرْعًا مِنَ اَلْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ اَلظُّلْمِ لِلنَّاسِ، خَصَّهُ بِالذِّكْرِ اِهْتِمَامًا كَمَا بَدَأَ بِالْفَحْشَاءِ كَذَلِكَ ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ تَتَّعِظُونَ، وَفِيهِ إِدْغَامُ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلذَّالِ، وَفِي اَلْمُسْتَدْرَكِ عَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ: «هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي اَلْقُرْآنِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ»[٣]. ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ مِنَ اَلْبَيْعِ وَالْأَيْمَانِ وَغَيْرِهَا ﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تَوْثِيقِهَا ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ بِالْوَفَاءِ حَيْثُ حَلَفْتُمْ بِهِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ﴾ أَفْسَدَتْ ﴿غَزْلَهَا﴾ مَا غَزَلَتْهُ ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ إِحْكَامٍ لَهُ وَبَرْمٍ ﴿أَنكَٰثًا﴾ حَالٌ جَمْعُ «نِكْثٍ» وَهُوَ: مَا يُنْكَثُ، أَيْ: يُحَلُّ إِحْكَامُهُ، وَهِيَ اِمْرَأَةٌ حَمْقَاءُ مِنْ مَكَّةَ كَانَتْ تَغْزِلُ طُولَ يَوْمِهَا ثُمَّ تَنْقُضُهُ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿تَكُونُوا۟﴾، أَيْ: لَا تَكُونُوا مِثْلَهَا فِي اِتِّخَاذِكُمْ ﴿أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا﴾ هُوَ مَا يَدْخُلُ فِي اَلشَّيْءِ وَلَيْسَ مِنْهُ، أَيْ: فَسَادًا وَخَدِيعَةً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بِأَنْ تَنْقُضُوهَا ﴿أَن﴾ أَيْ: لِأَنْ ﴿تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿هِىَ أَرْبَىٰ﴾ أَكْثَرُ ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ وَكَانُوا يُحَالِفُونَ اَلْحُلَفَاءَ، فَإِذَا وُجِدَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ

---

(١) في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبيانا لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح. [السعدي (ص:٤٤٦)].

(٢) قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٥٦). فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء. [السعدي (ص:٤٤٧)]. ولذلك اعتاد الخطباء قراءتها على المنابر يوم الجمعة؛ لأنها عظة جامعة للمأمورات والمنهيات.

وَأَعَزُّ نَقَضُوا حِلْفَ أُولَئِكَ وَحَالَفُوهُمْ[1] ﴿**إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ**﴾ يَخْتَبِرُكُمْ ﴿**ٱللَّهُ بِهِۦ**﴾ أَيْ: بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ لِيَنْظُرَ الْمُطِيعَ مِنْكُمْ وَالْعَاصِيَ، أَوْ بِكَوْنِ أُمَّةٍ هِيَ أَرْبَى لِيَنْظُرَ: أَتَفُونَ أَمْ لَا ﴿**وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢**﴾ أَيْ: الدُّنْيَا، مِنْ أَمْرِ الْعَهْدِ وَغَيْرِهِ، بِأَنْ يُعَذِّبَ النَّاكِثَ وَيُثِيبَ الْوَافِي. ﴿**وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً**﴾ أَهْلَ دِينٍ وَاحِدٍ ﴿**وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ**﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُؤَالَ تَبْكِيتٍ ﴿**عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣**﴾ لِتُجَازُوا عَلَيْهِ. ﴿**وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ**﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا ﴿**فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ**﴾ أَيْ: أَقْدَامُكُمْ عَنْ مَحَجَّةِ الْإِسْلَامِ ﴿**بَعْدَ ثُبُوتِهَا**﴾ اِسْتِقَامَتِهَا عَلَيْهَا ﴿**وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ**﴾ أَيْ: الْعَذَابَ ﴿**بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ أَيْ: بِصَدِّكُمْ عَنِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، أَوْ بِصَدِّكُمْ غَيْرَكُمْ عَنْهُ لِأَنَّهُ يُسْتَنُّ بِكُمْ ﴿**وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤**﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿**وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ**﴾ مِنَ الدُّنْيَا بِأَنْ تَنْقُضُوهُ لِأَجْلِهِ ﴿**إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ**﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿**هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ مِمَّا فِي الدُّنْيَا ﴿**إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥**﴾ ذَلِكَ فَلَا تَنْقُضُوا. ﴿**مَا عِندَكُمْ**﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿**يَنفَدُ**﴾ يَفْنَى ﴿**وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ**﴾ دَائِمٌ ﴿**وَلَيَجْزِيَنَّ**﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿**ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ**﴾ مِنَ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ ﴿**أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٦**﴾ أَحْسَنُ بِمَعْنَى: حَسَنٍ. ﴿**مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ**﴾ قِيلَ: هِيَ حَيَاةُ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا بِالْقَنَاعَةِ، أَوِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ**﴾ أَيْ: أَرَدْتَ قِرَاءَتَهُ ﴿**فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨**﴾ أَيْ قُلْ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». ﴿**إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ**﴾ تَسَلُّطٌ ﴿**عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ**﴾ بِطَاعَتِهِ ﴿**وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ**﴾ أَيْ: اللهِ ﴿**مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ**﴾ بِنَسْخِهَا وَإِنْزَالِ

---

(١) ﴿أَنكَـٰثًا﴾ جمع نكث بكسر النون ما ينكث فتله ليغزل ثانياً بمعنى منكوث، أي: منقوض، يقال: نكث الرجل العهد نكثاً من باب قتل نقضه ونبذه فانتكث، قال ابن قتيبة: هذه الآية متعلقة بما قبلها والتقدير وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمته ثم جعلته أنكاثاً، أي: أقطاعاً وأجزاء. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ قال الجوهري: الدخل المكر والخديعة، وقال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل، وقيل: الدخل ما أدخل في الشيء على فساده، وقال الزجاج: غشاً وغلاً، وقيل: أصل الدخل العيب والعيب ليس من الشيء الذي يدخل فيه ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي: بأن تكون جماعة أو لأجل وجدانكم أمة ﴿هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ﴾ جماعة، أي: أكثر عدداً منها وأوفر مالاً، يقال: ربى الشيء يربو إذ كثر، قال الفراء: المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالإيمان، قيل: وقد كانت قريش إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم قاله مجاهد، وقيل: هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي ﷺ. [صديق حسن (٣٠٧/٧)].

غَيْرِهَا لِمَصْلَحَةِ اَلْعِبَادِ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ﴾ أَي: اَلْكُفَّارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ كَذَّابٌ، تَقُولُهُ مِنْ عِنْدِكَ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾ حَقِيقَةَ اَلْقُرْآنِ وَفَائِدَةَ اَلنَّسْخِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ جِبْرِيلُ ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿نَزَّلَهُۥ﴾، ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِإِيمَانِهِمْ بِهِ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢ وَلَقَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ اَلْقُرْآنَ ﴿بَشَرٌ﴾ وَهُوَ قَيْنٌ نَصْرَانِيٌّ، كَانَ اَلنَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْهِ[1]، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِّسَانُ﴾ لُغَةُ ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ يَمِيلُونَ ﴿إِلَيْهِ﴾ أَنَّهُ يُعَلِّمُهُ ﴿أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا﴾ اَلْقُرْآنُ ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ ذُو بَيَانٍ وَفَصَاحَةٍ، فَكَيْفَ يُعَلِّمُهُ أَعْجَمِيٌّ؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ اَلْقُرْآنِ، بِقَوْلِهِمْ: هَذَا مِنْ قَوْلِ اَلْبَشَرِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ وَالتَّأْكِيدُ بِالتَّكْرَارِ، وَ«إِنَّ» وَغَيْرُهُمَا رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾. ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ عَلَى اَلتَّلَفُّظِ بِالْكُفْرِ، فَتَلَفَّظَ بِهِ[2] ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وَ﴿مَنْ﴾ مُبْتَدَأٌ أَوْ شَرْطِيَّةٌ، وَالْخَبَرُ أَوِ اَلْجَوَابُ: لَهُمْ وَعِيدٌ شَدِيدٌ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ لَهُ، أَيْ: فَتَحَهُ وَوَسَّعَهُ، بِمَعْنَى: طَابَتْ بِهِ نَفْسُهُ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٦ ذَٰلِكَ﴾ اَلْوَعِيدُ لَهُمْ ﴿بِأَنَّهُمُ

---

(١) القين: هو الحداد الذي يصنع السلاح، [قال الشوكاني (٣/ ٢٣٢):] وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانياً حداداً رومياً فأسلم، وكان قريش إذا سمعوا من النبي ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أمياً قالوا إنما يعلمه جبر. وقيل: اسمه عايش أو يعيش عبد لبني الحضرمي وكان يقرأ الكتب الأعجمية، وقيل: غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل: عنوا سلمان الفارسي، وقيل: عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة، وقيل: عنوا رجلاً نصرانياً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عداس وقيل: أرادوا بالبشر غلامين اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر، وكانا صيقليين يعملان السيوف بمكة، وكانا يقرآن كتاباً لهم، وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل وكان النبي ﷺ يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه فقال المشركون إنما يتعلم منهما؛ قاله عبد الله بن مسلم الحضرمي. قال النحاس: وهذه الأقوال غير متناقضة لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال أنه سلمان لأن هذه الآية مكية وهو إنما أتى النبي ﷺ بالمدينة.

(٢) أي: تلفظ وتكلم بالكفر أو فعل فعل كفر سواء كان مختاراً في ذلك أو مكرهاً عليه فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ متصل. وقال القرطبي: أجمع المفسرون وأهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر. وذهب الحسن البصري والأوزاعي والشافعي وسحنون إلى أن هذه الرخصة إنما جاءت في القول وأما في الفعل فلا رخصة مثل أن يكره على السجود لغير الله، ويدفعه ظاهر الآية فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل كما تقدم، والمعنى إلا من كفر بإكراه والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته. [صديق حسن (٧/ ٣١٩)].

ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ اِخْتَارُوهَا ﴿عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ﴿أَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ عُذِّبُوا وَتَلَفَّظُوا بِالْكُفْرِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، أَيْ: كَفَرُوا أَوْ فَتَنُوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أَيْ: الْفِتْنَةِ ﴿لَغَفُورٞ﴾ لَهُمْ ﴿رَّحِيمٞ ١١٠﴾ بِهِمْ، وَخَبَرُ ﴿إِنَّ﴾ الْأُولَى دَلَّ عَلَيْهِ خَبَرُ الثَّانِيَةِ. اُذْكُرْ ﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِى كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ﴾ تُحَاجُّ ﴿عَن نَّفۡسِهَا﴾ لَا يُهِمُّهَا غَيْرُهَا وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ جَزَاءَ ﴿مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ شَيْئًا. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿قَرۡيَةٗ﴾ هِيَ مَكَّةُ، وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا[1] ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾ مِنَ الْغَارَاتِ لَا تُهَاجُ ﴿مُّطۡمَئِنَّةٗ﴾ لَا يُحْتَاجُ إِلَى الِانْتِقَالِ عَنْهَا لِضِيقٍ أَوْ خَوْفٍ ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا﴾ وَاسِعًا ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ بِتَكْذِيبِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ﴾ فَقُحِطُوا سَبْعَ سِنِينَ ﴿وَٱلۡخَوۡفِ﴾ بِسَرَايَا النَّبِيِّ ﷺ ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الْجُوعُ وَالْخَوْفُ ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣ فَكُلُواْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ[2] ١١٥ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ﴾ أَيْ: لِوَصْفِ أَلْسِنَتِكُمْ ﴿ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾ لِمَا لَمْ يُحِلَّهُ اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهُ ﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾. لَهُمْ ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَهُمۡ﴾ فِي

---

(١) ضرب مضمن معنى: «جعل» ولذا عُدِّيَ إلى مفعولين، وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذا القرية قرية معينة أو المراد قرية غير معينة. قال الزمخشري: بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، ونحوه في البيضاوي. قال القرطبي: إنه مثل مضروب لأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة، ويجوز أن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها. وذهب الأكثرون إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ». أخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥). فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، والثاني أرجح لأن تنكير قرية يفيد بذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخولاً أوليـاً. وأيضا يكون الوعيد أبلغ والمثل أكمل وغير مكة مثلها، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها. [صديق حسن (٧/ ٣٢٤)].

(٢) انظر تفسير الآيتين (١٧٢-١٧٣) من سورة البقرة.

اَلْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أَيِ: اَلْيَهُودِ ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ فِي آيَةِ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] إِلَى آخِرِهَا ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بِتَحْرِيمِ ذَٰلِكَ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ بِارْتِكَابِ اَلْمَعَاصِي اَلْمُوجِبَةِ لِذَٰلِكَ. ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ اَلشِّرْكَ ﴿بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ﴾ رَجَعُوا ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ عَمَلَهُمْ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أَيِ: اَلْجَهَالَةِ أَوِ اَلتَّوْبَةِ ﴿لَغَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ بِهِمْ. ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إِمَامًا قُدْوَةً جَامِعًا لِخِصَالِ اَلْخَيْرِ[١] ﴿قَانِتًا﴾ مُطِيعًا ﴿لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ مَائِلًا إِلَى اَلدِّينِ اَلْقَيِّمِ ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ﴾ اِصْطَفَاهُ ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ فِيهِ اِلْتِفَاتٌ عَنِ اَلْغَيْبَةِ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ هِيَ اَلثَّنَاءُ اَلْحَسَنُ فِي كُلِّ أَهْلِ اَلْأَدْيَانِ ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ اَلَّذِينَ لَهُمُ اَلدَّرَجَاتُ اَلْعُلَى. ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ﴾ دِينَ ﴿إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ كُرِّرَ رَدًّا عَلَى زَعْمِ اَلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ. ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ فُرِضَ تَعْظِيمُهُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ﴾ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَهُمُ اَلْيَهُودُ، أُمِرُوا أَنْ يَتَفَرَّغُوا لِلْعِبَادَةِ يَوْمَ اَلْجُمُعَةِ، فَقَالُوا: لَا نُرِيدُهُ، وَاخْتَارُوا اَلسَّبْتَ، فَشُدِّدَ عَلَيْهِمْ فِيهِ[٢] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ مِنْ أَمْرِهِ، بِأَنْ يُثِيبَ اَلطَّائِعَ وَيُعَذِّبَ اَلْعَاصِيَ بِانْتِهَاكِ حُرْمَتِهِ. ﴿ٱدْعُ﴾ اَلنَّاسَ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ دِينِهِ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ مَوَاعِظِ اَلْقُرْآنِ أَوِ اَلْقَوْلِ اَلرَّقِيقِ ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى﴾ أَيِ:

---

(١) قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم أمة، والأمة الرجل الجامع للخير. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين معنى الأمة: المعلم للخير وبه قال ابن مسعود، وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم أمة أنه كان معلماً للخير أو جامعاً لخصال الخير أو عالماً بما علمه الله من الشرائع. وقيل: أنه كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار، فلهذا المعنى كان أمة وحده ... قال مجاهد: قيل بمعنى مأموم، أي: الذي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، كما قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وحكى ابن الجوزي عن ابن الأنباري أنه قال: هذا مثل قول العرب: فلان رحمة وعلامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث التناهي في المعنى الذي يصفونه به، والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد، كقوله ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩] وإنما ناداه جبريل وحده، وإنما سمي إبراهيم أمة لأنه اجتمع فيه من صفات الفضل وسمات الخير والأخلاق الحميدة ما اجتمع من أمة. [صديق حسن (٧/ ٣٣٤)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نَحْنُ اَلْآخِرُونَ اَلسَّابِقُونَ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا اَلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ اَلَّذِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، اَلْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ». أخرجه البخاري (٦٦٢٤) ومسلم (٨٥٥).

الْمُجادَلَةِ الَّتِي ﴿هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ كَالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ بِآيَاتِهِ، وَالدُّعَاءِ إِلَى حُجَجِهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أَيْ: عَالِمٌ ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥﴾ فَيُجَازِيهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ(١). وَنَزَلَ لَمَّا قُتِلَ حَمْزَةُ وَمُثِّلَ بِهِ فَقَالَ ﷺ وَقَدْ رَآهُ: «لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ». ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عَنِ الِانْتِقَامِ ﴿لَهُوَ﴾ أَيِ: الصَّبْرُ ﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ فَكَفَّ ﷺ وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ. رَوَاهُ الْبَزَّارُ(٢). ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بِتَوْفِيقِهِ(٣) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا لِحِرْصِكَ عَلَى إِيمَانِهِمْ ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ أَيْ: لَا تَهْتَمَّ بِمَكْرِهِمْ، فَأَنَا نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ بِالطَّاعَةِ وَالصَّبْرِ، بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ(٤).

---

(١) قال بعضهم: لا حاجة إلى دعوى النسخ إذ الأمر بالمجادلة ليس فيه تعريض للنهي عن المقاتلة. [صديق حسن (٧/ ٣٤٠)].

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣ - ١٤). والبزار في مسنده (١٧٩٥). والطبراني في الكبير (٢٩٣٦). قال ابن كثير (٤/ ٦١٤): هذا إسناد فيه ضعف لأن صالحًا هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث.

(٣) أمر نبيه ﷺ صريحا بما ندب إليه غيره تعريضا من الصبر لأنه ﷺ أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشؤونه سبحانه ووثوقه به تعالى فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية وعاينت من إعراضهم بعد الدعوة عن الحق بالكلية ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء، أي: وما صبرك ملابسا ومصحوبا بشيء من الأشياء إلا بذكر الله تعالى والاستغراق بمراقبة شؤونه والتبتل إليه سبحانه بمجامع الهمة، وفيه من تسلية النبي ﷺ وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه أو إلا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جليلة قاله شيخ الإسلام. وقال غير واحد: أي إلا بتوفيقه ومعونته فالتسلية من حيث تيسير الصبر وتسهيله ولعل ذلك أظهر مما تقدم. [الآلوسي (٧/ ٤٩١)].

(٤) أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. [ابن كثير (٤/ ٦١٥)].

سُورَةُ الإِسرَاءِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ اَلْآيَاتِ اَلثَّمَانَ، مِائَةٌ وَعَشْرُ آيَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ﴾ أَيْ: تَنْزِيهَ ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ(١) ﴿لَيْلًا﴾ نُصِبَ عَلَى اَلظَّرْفِ، وَالْإِسْرَاءُ: سَيْرُ اَللَّيْلِ، وَفَائِدَةُ ذِكْرِهِ اَلْإِشَارَةُ بِتَنْكِيرِهِ إِلَى تَقْلِيلِ مُدَّتِهِ ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أَيْ: مَكَّةَ ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ بَيْتِ اَلْمَقْدِسِ، لِبُعْدِهِ مِنْهُ ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ بِالثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ(٢) ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ عَجَائِبَ قُدْرَتِنَا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ أَيِ: اَلْعَالِمُ بِأَقْوَالِ اَلنَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِهِ(٣)، فَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْإِسْرَاءِ اَلْمُشْتَمِلِ عَلَى اِجْتِمَاعِهِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَعُرُوجِهِ إِلَى اَلسَّمَاءِ، وَرُؤْيَةِ عَجَائِبِ اَلْمَلَكُوتِ، وَمُنَاجَاتِهِ لَهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ اَلْحِمَارِ وَدُونَ اَلْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ فَرَكِبْتُهُ، فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ اَلْمَقْدِسِ فَرَبَطْتُ اَلدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ اَلَّتِي تَرْبِطُ فِيهَا اَلْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اَللَّبَنَ، قَالَ جِبْرِيلُ: أَصَبْتَ اَلْفِطْرَةَ. قَالَ: ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى اَلسَّمَاءِ اَلدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ قِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:

---

(١) ذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته في مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي، فقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ولم يقل برسوله ولا نبيه إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه. وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وقال في مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ عَبْدٌ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ». أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣). فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن اسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بمحابه وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم. [مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٠)].

(٢) أي: جوانبه ببركات الدين والدنيا؛ لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم ومنمى الزروع والثمار. فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها. فبركته إذن مضاعفة؛ لكونه في أرض مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى، والمساجد بيوت الله، ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم. [القاسمي (٦/ ٤٢٩)].

(٣) يعني تعالى نفسه بأنه هو السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم، فاقتضت حكمته هذا الاسراء العجيب ليزداد الذين آمنوا إيمانـًا، وليرتاب المرتابون ويزدادون كفراً وعناداً. [أبو بكر الجزائري (٣/ ١٧٣)].

جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِالْخَيْرِ، ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى فَرَحَّبَا بِي، وَدَعَوَا لِي بِالْخَيْرِ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ أَوَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ، فَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا أَوْرَاقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا، قَالَ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَلَيْلَةٍ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: أَيْ رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قَالَ مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي، وَبَيْنَ مُوسَى، وَيَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ فَقُلْتُ قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ،

وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ[١]، وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»[٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لِـ ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ يُفَوِّضُونَ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿تَتَّخِذُوا۟﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ اِلْتِفَاتًا فَـ «أَنْ» زَائِدَةٌ وَالْقَوْلُ مُضْمَرٌ. يَا ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فِي السَّفِينَةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ كَثِيرَ الشُّكْرِ لَنَا، حَامِدًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ أَوْحَيْنَا[٣] ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ التَّوْرَاةِ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ الشَّامِ بِالْمَعَاصِي ﴿مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ تَبْغُونَ بَغْيًا عَظِيمًا. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أُولَى مَرَّتَي الْفَسَادِ ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أَصْحَابَ قُوَّةٍ فِي الْحَرْبِ وَالْبَطْشِ ﴿فَجَاسُوا۟﴾ تَرَدَّدُوا لِطَلَبِكُمْ ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وَسْطَ دِيَارِكُمْ لِيَقْتُلُوكُمْ وَيَسْبُوكُمْ ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ وَقَدْ أَفْسَدُوا الْأُولَى بِقَتْلِ زَكَرِيَّا، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ جَالُوتَ وَجُنُودَهُ فَقَتَلُوهُمْ وَسَبَوْا أَوْلَادَهُمْ وَخَرَّبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ الدَّوْلَةَ وَالْغَلَبَةَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ بِقَتْلِ جَالُوتَ ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾ عَشِيرَةً. وَقُلْنَا: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لِأَنَّ ثَوَابَهُ لَهَا ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ بِالْفَسَادِ ﴿فَلَهَا﴾ إِسَاءَتُكُمْ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ الْمَرَّةِ ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بَعَثْنَاهُمْ ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ يُحْزِنُوكُمْ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، حُزْنًا يَظْهَرُ فِي وُجُوهِكُمْ ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَيُخَرِّبُوهُ ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ وَخَرَّبُوهُ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ يُهْلِكُوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ غَلَبُوا عَلَيْهِ ﴿تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ إِهْلَاكًا، وَقَدْ أَفْسَدُوا ثَانِيًا بِقَتْلِ يَحْيَى، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ بُخْتُنَصَّرَ فَقَتَلَ مِنْهُمْ أُلُوفًا وَسَبَى ذُرِّيَّتَهُمْ وَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ. وَقُلْنَا فِي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) مطولاً، وأحمد (٢٦٣٤). قال البيهقي: في حديث شريك زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه، يعني قوله: ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهم في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح. وهذا الذي قاله البيهقي هو الحق في هذه المسألة، فإن أبا ذر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال ﷺ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ». وفي رواية: «رَأَيْتُ نُورًا». أخرجه مسلم (١٧٨).

(٣) قيل: إن قضينا هنا بمعنى علمنا وأخبرنا، كما قيل في: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، والكتاب على هذا التوراة، وقيل: قضينا إليه من القضاء والقدر، والكتاب على هذا اللوح المحفوظ، الذي كتبت فيه مقادير الأشياء، و «إلى» بمعنى «على»، ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ هذه الجملة بيان للمقضي، وهي في وضع جواب قضينا إذا كان من القضاء والقدر، لأنه جرى مجرى القسم، وإن كان بمعنى أعلمنا فهو جواب قسم محذوف، تقديره: والله لتفسدن، والجملة في موضع معمول قضينا. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٤١)].

ٱلْكِتَابِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ﴾ بَعْدَ ٱلْمَرَّةِ ٱلثَّانِيَةِ إِنْ تُبْتُمْ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إِلَى ٱلْفَسَادِ ﴿عُدْنَاۘ﴾ إِلَى ٱلْعُقُوبَةِ، وَقَدْ عَادُوا بِتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسُلِّطَ عَلَيْهِمْ بِقَتْلِ قُرَيْظَةَ وَنَفْيِ ٱلنَّضِيرِ وَضَرْبِ ٱلْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ مَحْبِسًا وَسِجْنًا. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى﴾ أَيْ: لِلطَّرِيقَةِ ٱلَّتِي ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ أَعْدَلُ وَأَصْوَبُ[1] ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٩ وَ﴾ يُخْبِرُ ﴿أَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾ أَعْدَدْنَا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٠﴾ مُؤْلِمًا هُوَ ٱلنَّارُ. ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ إِذَا ضَجِرَ ﴿دُعَآءَهُۥ﴾ أَيْ: كَدُعَائِهِ لَهُ ﴿بِٱلْخَيْرِۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ٱلْجِنْسُ ﴿عَجُولًا ١١﴾ بِالدُّعَاءِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَدَمِ ٱلنَّظَرِ فِي عَاقِبَتِهِ[2]. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ﴾ دَالَّتَيْنِ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ طَمَسْنَا نُورَهَا بِالظَّلَامِ لِتَسْكُنُوا فِيهِ، وَالْإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أَيْ: مُبْصَرًا فِيهَا بِالضَّوْءِ ﴿لِّتَبْتَغُواْ﴾ فِيهِ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بِالْكَسْبِ ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ بِهِمَا ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ﴾ لِلْأَوْقَاتِ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ١٢﴾ بَيَّنَّاهُ تَبْيِينًا. ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عَمَلَهُ[3] يَحْمِلُهُ ﴿فِى عُنُقِهِۦۖ﴾ خُصَّ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ ٱللُّزُومَ فِيهِ أَشَدُّ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَفِي عُنُقِهِ وَرَقَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»[4]. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ مَكْتُوبًا فِيهِ عَمَلُهُ ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣﴾ صِفَتَانِ لِـ ﴿كِتَٰبًا﴾. وَيُقَالُ لَهُ: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ

---

(١) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدا برب العالمين جل وعلا، يهدي للتي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب ... وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. [الشنقيطي (٣/ ٤٨٧)].

(٢) المعنى ذم، وعتاب لما يفعله الناس عند الغضب من الدعاء على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وأنهم يدعون بالشر في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت التثبت. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٤٢)]. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْۖ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وفي الحديث: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، أَنْ تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةَ إِجَابَةٍ يَسْتَجِيبُ فِيهَا». أخرجه مسلم (٣٠٠٩). [ابن كثير (٥/ ٤٩)].

(٣) في معنى الطائر وجهان معروفان من التفسير: الأول: أن المراد بالطائر: العمل، من قولهم: طار له سهم إذا خرج له، أي: ألزمناه ما طار له من عمله. الثاني: أن المراد بالطائر ما سبق له في علم الله من شقاوة أو سعادة، والقولان متلازمان؛ لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة. [الشنقيطي (٣/ ٥٥٠)].

(٤) من طريق أبي داود أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (١٧٤٣)، وأخرجه الطبري (١٤/ ٥٢٠) عن واصل به.

عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ مُحاسِبًا. ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لِأَنَّ ثَوابَ اهْتِدائِهِ لَهُ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ لِأَنَّ إِثْمَهُ عَلَيْهَا ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نَفْسٌ ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثِمَةٌ، أَيْ: لا تَحْمِلُ ﴿وِزْرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أَحَدًا ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ يُبَيِّنُ لَهُ ما يَجِبُ عَلَيْهِ(١). ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ مُنَعَّمِيها، بِمَعْنَى: رُؤَسائِها بِالطَّاعَةِ عَلَى لِسانِ رُسُلِنا(٢) ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ فَخَرَجُوا عَنْ أَمْرِنا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ بِالْعَذابِ ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أَهْلَكْناها بِإِهْلاكِ أَهْلِها وَتَخْرِيبِها. ﴿وَكَمْ﴾ أَيْ: كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ عالِمًا بِبَواطِنِها وَظَواهِرِها وَ«بِهِ» يَتَعَلَّقُ ﴿بِذُنُوبِ﴾. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أَيِ: الدُّنْيا ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ التَّعْجِيلَ لَهُ، بَدَلٌ مِنْ: ﴿لَهُۥ﴾ بِإِعادَةِ الْجارِّ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يَدْخُلُها ﴿مَذْمُومًا﴾ مَلُومًا ﴿مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ مَطْرُودًا عَنِ الرَّحْمَةِ. ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ عَمِلَ عَمَلَها اللَّائِقَ بِها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حالٌ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ عِنْدَ اللهِ، أَيْ: مَقْبُولًا مُثابًا عَلَيْهِ. ﴿كُلًّا﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿نُّمِدُّ﴾ نُعْطِي ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بَدَلٌ ﴿مِنْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿نُّمِدُّ﴾ ﴿عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ فِي الدُّنْيا ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ فِيها ﴿مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ مَمْنُوعًا عَنْ أَحَدٍ. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فِي الرِّزْقِ وَالْجاهِ ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ ﴿دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ مِنَ الدُّنْيا فَيَنْبَغِي الِاعْتِناءُ بِها دُونَها. ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ لا

---

(١) إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨-٩]. [ابن كثير (٥/ ٢٥)].

(٢) قيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرا قدريا، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. [ابن كثير]. والصواب الذي يشهد له القرآن، وعليه جمهور العلماء أن الأمر في قوله: أمرنا هو الأمر الذي هو ضد النهي، وأن متعلق الأمر محذوف لظهوره، والمعنى: أمرنا مترفيها بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به، فخرجوا عن طاعة أمر ربهم، وعصوه وكذبوا رسله، وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ الآية [الأعراف: ٢٨]. فتصريحه جل وعلا بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل واضح على أن قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟﴾، أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء. [الشنقيطي (٥/ ٦١)].

ناصِر لَكَ. ﴿۞وَقَضَىٰ﴾ أَمَرَ ﴿رَبُّكَ أَلَّا﴾ أَيْ: بِأَنْ لَا ﴿تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَ﴾ أَنْ تُحْسِنُوا ﴿بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ بِأَنْ تَبَرُّوهُمَا ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ﴾ فَاعِلٌ ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَبْلُغَانِّ﴾ فَأَحَدُهُمَا بَدَلٌ مِنْ أَلِفِهِ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ بِفَتْحِ الْفَاءِ وَكَسْرِهَا مُنَوَّنًا وَغَيْرَ مُنَوَّنٍ، مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: تَبًّا وَقُبْحًا(١) ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ تَزْجُرْهُمَا ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ جَمِيلًا لَيِّنًا. ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أَلِنْ لَهُمَا جَانِبَكَ الذَّلِيلَ(٢) ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أَيْ: لِرِقَّتِكَ عَلَيْهِمَا ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا﴾ رَحِمَانِي حِينَ ﴿رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ﴾ مِنْ إِضْمَارِ الْبِرِّ وَالْعُقُوقِ ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ طَائِعِينَ لِلَّهِ ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ الرَّجَّاعِينَ إِلَى طَاعَتِهِ ﴿غَفُورٗا ٢٥﴾ لِمَا صَدَرَ مِنْهُمْ فِي حَقِّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ بَادِرَةٍ وَهُمْ لَا يُضْمِرُونَ عُقُوقًا. ﴿وَءَاتِ﴾ أَعْطِ ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الْقَرَابَةِ ﴿حَقَّهُۥ﴾ مِنَ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦﴾ بِالْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ أَيْ: عَلَى طَرِيقَتِهِمْ(٣) ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾ شَدِيدَ الْكُفْرِ لِنِعَمِهِ،

---

(١) فلا تتضجر مما يستقذر منهما وتستثقل من مؤنتهما، وهو صوت يدل على تضجر. وقيل: هو اسم الفعل الذي هو أتضجر، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين وتنوينه في قراءة نافع وحفص للتنكير. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف. وقرئ به منونا وبالضم للإتباع كمنذ منونا وغير منون، والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسا بطريق الأولى. [البيضاوي (٣/ ٢٥٢)].

(٢) تذلل لهما وتواضع. وفيه استعارة مكنية وتخييلية. فشبه الذل بطائر تشبيها مضمرا، وأثبت له الجناح تخييلا، والخفض ترشيحا. و«خفضه» ما يفعله إذا ضم أفراخه للتربية. أو استعارة تصريحية في المفرد وهو الجناح، والخفض ترشيح. و«الجناح» الجانب كما يقال: «جناحا العسكر» وخفضه مجاز، كما يقال: «لين الجانب» و«منخفض الجانب». وإضافة الجناح إلى الذل للبيان؛ لأنه صفة مبينة. أي: جناحك الذليل. وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر. فكأنه جعل عين الذل. أو التركيب استعارة تمثيلية. فيكون مثلا لغاية التواضع. وسر ذكر الجناح وخفضه، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس. و ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ابتدائية على سبيل التعليل. أي: من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما، لكبرهما وافتقارهما اليوم، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس. وافتقار المرء إلى من كان مفتقرا له، غاية في الضراعة والمسكنة، فيرحمه أشد رحمة. [القاسمي (٦/ ٤٥٤)].

(٣) المراد بالأخوة المماثلة التامة وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به، وهذا غاية المذمة لأنه لا شر من الشياطين، والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم. قال ابن مسعود: التبذير إنفاق المال في غير حقه ... وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان. [صديق حسن (٧/ ٣٨١)].

فَكَذَلِكَ أَخُوهُ الْمُبَذِّرُ. ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أَيِ: الْمَذْكُورِينَ مِنْ ذِي الْقُرْبَى وَمَا بَعْدَهُمْ فَلَمْ تُعْطِهِمْ ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أَيْ: لِطَلَبِ رِزْقٍ تَنْتَظِرُهُ يَأْتِيكَ فَتُعْطِيهِمْ مِنْهُ ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ لَيِّنًا سَهْلًا، بِأَنْ تَعِدَهُمْ بِالْإِعْطَاءِ عِنْدَ مَجِيءِ الرِّزْقِ. ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أَيْ: لَا تُمْسِكْهَا عَنِ الْإِنْفَاقِ كُلَّ الْإِمْسَاكِ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ فِي الْإِنْفَاقِ ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ رَاجِعٌ لِلْأَوَّلِ ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ مُنْقَطِعًا لَا شَيْءَ عِنْدَكَ، رَاجِعٌ لِلثَّانِي[1]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ عَالِمًا بِبَوَاطِنِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ فَيَرْزُقُهُمْ عَلَى حَسَبِ مَصَالِحِهِمْ. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ بِالْوَأْدِ ﴿خَشْيَةَ﴾ مَخَافَةَ ﴿إِمْلَٰقٍ﴾ فَقْرٍ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا﴾ إِثْمًا ﴿كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ عَظِيمًا. ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أَبْلَغُ مِنْ: «لَا تَأْتُوهُ»[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ قَبِيحًا ﴿وَسَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ طَرِيقًا هُوَ. ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ لِوَارِثِهِ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ تَسَلُّطًا عَلَى الْقَاتِلِ ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ يَتَجَاوَزِ الْحَدَّ ﴿فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ بِأَنْ يَقْتُلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ أَوْ بِغَيْرِ مَا قُتِلَ بِهِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ إِذَا عَاهَدْتُمُ اللهَ أَوِ النَّاسَ ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ عَنْهُ. ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ﴾ أَتِمُّوهُ ﴿إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ الْمِيزَانِ السَّوِيِّ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

---

(١) أي: لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: بالتبذير والسرف. قال ابن كثير: أي: لا تسرف في الإنفاق، فتعطي غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي: فتبقى: ﴿مَلُومًا﴾ يلومك الفقراء والقرابة: ﴿مَّحْسُورًا﴾ أي: نادما، من «الحسرة» أو منقطعا بك لا شيء عندك، من «حسره السفر» إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه. وفي النهيين استعارتان تمثيليتان شبه في الأولى فعل الشحيح في منعه، بمن يده مغلولة لعنقه، بحيث لا يقدر على مدها. وفي الثانية شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئا. وهو ظاهر. [القاسمي (٦/ ٤٥٧)]. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدَيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ -أَوْ: وَفَرَتْ- عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ. وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ». أخرجه البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١).

(٢) بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته، والنهي عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن قربانه داع إلى مباشرته، وفسره الراغب بوطء المرأة من غير عقد شرعي، وجاء فيه المد والقصر، وإذا مد يصح أن يكون مصدر المفاعلة، وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة مطلقا كما قال شيخ الإسلام باعتبار أنه قتل للأولاد لما أنه تضييع للأنساب فإن من لم يثبت نسبه ميت حكما. [الآلوسي (٨/ ٦٦)].

﴿٣٥﴾ مَآلًا. ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ تَتْبَعْ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ اَلْقَلْبَ ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ صَاحِبُهُ مَاذَا فَعَلَ بِهِ(١). ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾ أَيْ: ذَا مَرَحٍ بِالْكِبْرِ وَالْخُيَلَاءِ ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ تَثْقُبَهَا حَتَّى تَبْلُغَ آخِرَهَا بِكِبْرِكَ ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ اَلْمَعْنَى أَنَّكَ لَا تَبْلُغُ هَذَا الْمَبْلَغَ فَكَيْفَ تَخْتَالُ. ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورُ(٢) ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ﴾ اَلْمَوْعِظَةِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ مَطْرُودًا عَنْ رَحْمَةِ اللهِ. ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ أَخْلَصَكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ﴾ بَنَاتٍ لِنَفْسِهِ بِزَعْمِكُمْ ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ بِذَلِكَ ﴿قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ مِنَ الْأَمْثَالِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ يَتَّعِظُوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذَلِكَ ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ عَنِ الْحَقِّ(٣). ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ أَيْ: اَللهِ ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ طَلَبُوا ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أَيِ: اَللهِ ﴿سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ لِيُقَاتِلُوهُ(٤). ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تَنْزِيهًا

---

(١) أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جوابا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى. [السعدي (ص:٤٥٧)].

(٢) إشارة إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة. من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ... ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ يعني المنهي عنه فإن المذكورات مأمورات ومناه. وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿سَيِّئَةً﴾ على أنها خبر كان والاسم ضمير ﴿كُلُّ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما نهى عنه خاصة وعلى هذا قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدل من ﴿سَيِّئَةً﴾ أو صفة لها محمولة على المعنى، فإنه بمعنى سيئا وقد قرئ به، ويجوز أن ينتصب مكروها على الحال من المستكن في ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو في الظرف على أنه صفة ﴿سَيِّئَةً﴾، والمراد به المبغوض المقابل للمرضي، لا ما يقابل المراد، لقيام القاطع على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى. [البيضاوي (٣/ ٢٥٥)].

(٣) يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن أي: نوع الأحكام ووضحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه وما يضرهم فيدعوه. ولكن أبى أكثر الناس إلا نفورا عن آيات الله لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل حتى تعصبوا لباطلهم ولم يعيروا آيات الله لهم سمعا ولا ألقوا لها بالا. ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئا كثيرا بحيث من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكا ولا ريبا. [السعدي (ص:٤٥٨)].

(٤) ﴿قُل﴾ لهم في شأن الاستدلال على إبطال التعدد الذي زعموه وإثبات الوحدانية ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا﴾ أي: كونا مشابهة لما ﴿يَقُولُونَ﴾ والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة، قرئ بالتحتية وبالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى ﴿إِذًا﴾ قال

لَهُ ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مِنَ الشُّرَكَاءِ ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ﴾ تُنَزِّهُهُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن﴾ مَا ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ مُتَلَبِّسًا ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أَيْ يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ تَفْهَمُونَ ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِلُغَتِكُمْ(١) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْكُمْ

الزمخشري: هي دالة على أن ما بعدها وهو ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ جواب لمقالة المشركين وجزاء للو ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ هو الله سبحانه ﴿سَبِيلًا﴾ طريقـًا للمغالبة والمقاتلة والممانعة ليزيلوا ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض من المقاتلة والمصاولة عند تعددهم. وقيل: معناه إذاً لابتغت الآلهة إلى الله القربة والزلفة عنده لأنهم دونه، والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله، والظاهر المعنى الأول، ومثله معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وحاصل الدليل أنه قياس استثنائي يستثنى فيه نقيض التالي لينتج نقيض المقدم، وحذف منه كل من الاستثنائية والنتيجة والتقدير لكنهم لم يطلبوا طريقـًا لقتاله فلم يكن. هناك تعدد. [صديق حسن (٧/ ٣٩٥)].

(١) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قال فيهن بضمير العقلاء لإسناده إليها التسبيح الذي هو فعل العقلاء، وقد أخبر سبحانه عن السماوات والأرض بأنها تسبحه، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة من الإنس والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل. ففيه دلالة على أن الأكوان بأسرها دالة شاهدة بتلك النزاهة، ولكن المشركين لا يفهمون تسبيحها، فالقصد من هذا توبيخهم وتقريعهم على اتباعهم الشركاء لله مع أن كل شيء ممن عداهم ينزهه عن كل نقص ... ثم زاد ذلك تعميمـًا وتأكيداً فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ متلبسـًا ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ فيشمل كل ما يسمى شيئـًا كائنـًا ما كان ... وقيل: أنه يحمل قوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ على الملائكة والثقلين ويحمل قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات. وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا، فقالت طائفة: ليس بمخصوص، وحملوا التسبيح على تسبيح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسبيح على حقيقته والعموم على ظاهره، والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله هذا التسبيح الذي معناه التنزيه، وإن كان البشر لا يسمعون ذلك لكونهم محجوبين عن سماعه ولا يفهمونه لكونه بغير لغاتهم. وهذا يقتضي أن تسبيح الجماد بلسان المقال وهو الذي اختاره الخازن وأثبته بأحاديث متعددة ... ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ بالتاء والياء ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهومـًا لكل أحد. وأجيب بأن المراد بقوله: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار، وقالت طائفة: هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات، وقيل: خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات ... ويؤيد حمل الآية على العموم قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، ونحو ذلك من الآيات. وثبت في الصحيح: «أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ». أخرجه البخاري (٣٥٧٩). وهكذا حديث: «حنين الجذع». أخرجه البخاري (٣٥٨٣). وحديث: «أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي ﷺ». أخرجه مسلم (٢٢٧٧). وكلها في الصحيح ... ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات، ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده. [الشوكاني (٣/ ٢٧٤)].

بِالْعُقُوبَةِ. ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ أَيْ: سَاتِرًا لَكَ عَنْهُمْ فَلَا يَرَوْنَكَ، نَزَلَ فِيمَنْ أَرَادَ الْفَتْكَ بِهِ ﷺ(١). ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَغْطِيَةً ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مِنْ أَنْ يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ، أَيْ: فَلَا يَفْهَمُونَهُ ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقَلًا فَلَا يَسْمَعُونَهُ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ عَنْهُ. ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ بِسَبَبِهِ مِنَ الْهُزْءِ ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إِلَى قِرَاءَتِكَ ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ يَتَنَاجَوْنَ بَيْنَهُمْ، أَيْ: يَتَحَدَّثُونَ ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ «إِذْ» قَبْلَهُ ﴿يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فِي تَنَاجِيهِمْ ﴿إِن﴾ مَا ﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ مَخْدُوعًا مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ بِالْمَسْحُورِ وَالْكَاهِنِ وَالشَّاعِرِ ﴿فَضَلُّوا۟﴾ بِذَلِكَ عَنِ الْهُدَى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ طَرِيقًا إِلَيْهِ. ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ مُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ *﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ يَعْظُمُ عَنْ قَبُولِ الْحَيَاةِ، فَضْلًا عَنِ الْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِيجَادِ الرُّوحِ فِيكُمْ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ إِلَى الْحَيَاةِ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا؛ لِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْبَدْءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ، بَلْ هِيَ أَهْوَنُ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ يُحَرِّكُونَ ﴿إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ تَعَجُّبًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ اسْتِهْزَاءً: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أَيِ: الْبَعْثُ ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يُنَادِيكُمْ مِنَ الْقُبُورِ عَلَى لِسَانِ إِسْرَافِيلَ ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ فَتُجِيبُونَ دَعْوَتَهُ مِنَ الْقُبُورِ ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ بِأَمْرِهِ، وَقِيلَ: وَلَهُ الْحَمْدُ ﴿وَتَظُنُّونَ إِن﴾ مَا ﴿لَّبِثْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ لِهَوْلِ مَا تَرَوْنَ. ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿يَقُولُوا۟﴾ لِلْكُفَّارِ الْكَلِمَةَ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ﴾ يُفْسِدُ ﴿بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ بَيِّنَ الْعَدَاوَةِ(٢). وَالْكَلِمَةُ

---

(١) في معناه قولان: أحدهما: أن الله أخبر نبيه ﷺ أنه يستره من الكفار إذا أرادوا به شراً، ويحجبه منهم، والآخر: أنه يحجب الكفار عن فهم القرآن، وهذا أرجح لما بعده، والمستور هنا قيل: معناه مستور عن أعين الخلق؛ لأنه من لطف الله وكفايته فهو من المغيبات، وقيل: معناه ساتر. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٤٧)].

(٢) هذا من لطفه بعباده حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما. والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره. [السعدي (ص:٤٦٠)]. وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان، وما يصدر منه، وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أمره بأعمال تدخله الجنة، ثم قال له: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟»

الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ هِيَ: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ ﴿أَوْ إِن يَشَأْ﴾ تَعْذِيبَكُمْ ﴿يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ بِالْمَوْتِ عَلَى الْكُفْرِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾ فَتُجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ فَيَخُصُّهُمْ بِمَا شَاءَ عَلَى قَدْرِ أَحْوَالِهِمْ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ بِتَخْصِيصِ كُلٍّ مِنْهُمْ بِفَضِيلَةٍ، كَمُوسَى بِالْكَلَامِ، وَإِبْرَاهِيمَ بِالْخُلَّةِ، وَمُحَمَّدٍ بِالْإِسْرَاءِ[1] ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝٥٥ قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أَنَّهُمْ آلِهَةً ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ كَالْمَلَائِكَةِ وَعِيسَى وَعُزَيْرٍ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ لَهُ إِلَى غَيْرِكُمْ. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هُمْ آلِهَةً ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يَطْلُبُونَ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الْقُرْبَةَ بِالطَّاعَةِ ﴿أَيُّهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنْ وَاوِ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أَيْ: يَبْتَغِيهَا الَّذِي هُوَ ﴿أَقْرَبُ﴾ إِلَيْهِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ كَغَيْرِهِمْ، فَكَيْفَ يَدْعُونَهُمْ آلِهَةً؟[2] ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧ وَإِن﴾ مَا ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بِالْمَوْتِ ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ مَكْتُوبًا. ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الَّتِي اقْتَرَحَهَا أَهْلُ مَكَّةَ ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ﴾ لَمَّا أَرْسَلْنَاهَا فَأَهْلَكْنَاهُمْ، وَلَوْ أَرْسَلْنَاهَا إِلَى هَؤُلَاءِ لَكَذَّبُوا بِهَا

قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، قال: قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ، أوْ قالَ على مَناخِرِهِمْ، إلّا حَصائِدُ ألْسِنَتِهِمْ». أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦). والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضا بحسن المعاملة، وإلانة القول؛ لأن القول ينم عن المقاصد بقرينة قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾، ثم تأديبهم في مجادلة المشركين اجتنابا لما تثيره المشادة والغلظة من ازدياد مكابرة المشركين، وتصلبهم فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوهم، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. [ابن عاشور (١٥/ ١٣٢)].

(١) وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين [البخاري (٣٤١٤)، مسلم (٢٣٧٣)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِياءِ»؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإنه إذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، ولا خلاف أن محمدا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم. [ابن كثير (٥/ ٨٧)].

(٢) وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير. فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور. وعلامة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب. [السعدي (ص:٤٦٠)].

وَاسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاكَ، وَقَدْ حَكَمْنَا بِإِمْهَالِهِمْ لِإِتْمَامِ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ آيَةً ﴿مُبْصِرَةً﴾ بَيِّنَةً وَاضِحَةً ﴿فَظَلَمُواْ﴾ كَفَرُوا ﴿بِهَا﴾ فَأُهْلِكُوا ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ لِلْعِبَادِ لِيُؤْمِنُوا. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ عِلْمًا وَقُدْرَةً، فَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ، فَبَلِّغْهُمْ وَلَا تَخَفْ أَحَدًا، فَهُوَ يَعْصِمُكَ مِنْهُمْ ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ عِيَانًا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أَهْلِ مَكَّةَ إِذْ كَذَّبُوا بِهَا وَارْتَدَّ بَعْضُهُمْ لَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِهَا ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ وَهِيَ الزَّقُّومُ الَّتِي تَنْبُتُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لَهُمْ، إِذْ قَالُوا النَّارُ تُحْرِقُ الشَّجَرَ فَكَيْفَ تُنْبِتُهُ(١) ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بِهَا ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تَخْوِيفُنَا ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ۝٦٠ وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالِانْحِنَاءِ ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ نَصْبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَيْ: مِنْ طِينٍ. ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾ أَيْ: أَخْبِرْنِي ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾ فَضَّلْتَ ﴿عَلَىَّ﴾ بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿لَئِنْ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ لَأَسْتَأْصِلَنَّ ﴿ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ بِالْإِغْوَاءِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾ مِنْهُمْ مِمَّنْ عَصَمْتَهُ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿ٱذْهَبْ﴾ مُنْظَرًا إِلَى وَقْتِ النَّفْخَةِ الْأُولَى(٢) ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أَنْتَ وَهُمْ ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ وَافِرًا كَامِلًا. ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ اسْتَخِفَّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ بِدُعَائِكَ بِالْغِنَاءِ وَالْمَزَامِيرِ وَكُلِّ دَاعٍ إِلَى الْمَعْصِيَةِ ﴿وَأَجْلِبْ﴾ صِحْ ﴿عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ وَهُمُ الرُّكَّابُ وَالْمُشَاةُ فِي الْمَعَاصِي ﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ الْمُحَرَّمَةِ كَالرِّبَا وَالْغَصْبِ ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ مِنَ الزِّنَى ﴿وَعِدْهُمْۚ﴾ بِأَنْ لَا بَعْثَ وَلَا جَزَاءَ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بِذَلِكَ ﴿إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤﴾ بَاطِلًا. ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ﴾ تَسَلُّطٌ وَقُوَّةٌ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ حَافِظًا لَهُمْ مِنْكَ. ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾ يُجْرِي ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُنَ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ﴾ تَطْلُبُوا ﴿مِن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ تَعَالَى بِالتِّجَارَةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦﴾ فِي تَسْخِيرِهَا لَكُمْ. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ الشِّدَّةُ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ خَوْفَ الْغَرَقِ ﴿ضَلَّ﴾ غَابَ عَنْكُمْ ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ مِنَ الْآلِهَةِ، فَلَا تَدْعُونَهُ ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ تَعَالَى، فَإِنَّكُمْ

---

(١) بين أن هذا هو المراد من كون الشجرة المذكورة فتنة لهم، بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤﴾ الآية [الصافات: ٦٢ - ٦٤] وهو واضح كما ترى. [الشنقيطي (٣/ ٧١٣)].

(٢) ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء، وإنما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلانـًا وتخلية بينه وبين ما سولته نفسه، أمره بأوامر خمسة القصد بها التهديد والاستدراج لا التكليف، لأنها كلها معاص والله لا يأمر بها؛ والمعنى اذهب منظراً إلى وقت النفخة الأولى مع أن غرضه الإمهال والإنظار إلى النفخة الثانية، وغرضه بذلك طلب ألا يموت أصلاً لأنه يعلم أنه لا موت بعد النفخة الثانية. [صديق حسن (٧/ ٤١٨)].

تَدْعُونَهُ وَحْدَهُ لِأَنَّكُمْ فِي شِدَّةٍ لَا يَكْشِفُهَا إِلَّا هُوَ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ مِنَ الْغَرَقِ وَأَوْصَلَكُمْ ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عَنِ التَّوْحِيدِ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ جَحُودًا لِلنِّعَمِ(١). ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أَيِ: الْأَرْضِ كَقَارُونَ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أَيْ: يَرْمِيكُمْ بِالْحَصْبَاءِ كَقَوْمِ لُوطٍ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨﴾ حَافِظًا مِنْهُ. ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ﴾ أَيْ: فِي الْبَحْرِ ﴿فِيهِ تَارَةً﴾ مَرَّةً ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أَيْ: رِيحًا شَدِيدَةً لَا تَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا قَصَفَتْهُ فتكسِرَ فُلْكَكُمْ ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بِكُفْرِكُمْ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ۝٦٩﴾ نَاصِرًا وَتَابِعًا يُطَالِبُنَا بِمَا فَعَلْنَا بِكُمْ. ﴿*وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾ فَضَّلْنَا ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بِالْعِلْمِ وَالنُّطْقِ وَاعْتِدَالِ الْخَلْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَمِنْهُ طَهَارَتُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ(٢) ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ عَلَى الدَّوَابِّ ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ عَلَى السُّفُنِ ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ كَالْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ ﴿تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ فَـ «مَنْ» بِمَعْنَى «مَا»، أَوْ عَلَى بَابِهَا وَتَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْمُرَادُ تَفْضِيلُ الْجِنْسِ، وَلَا يَلْزَمُ تَفْضِيلُ أَفْرَادِهِ إِذْ هُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ(٣). اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ بِنَبِيِّهِمْ فَيُقَالُ يَا أُمَّةَ فُلَانٍ، أَوْ بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُقَالُ: يَا صَاحِبَ

---

(١) أي: ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه وتعبدونه، إلا إياه وحده. فإنكم لا تذكرون سواه. فطرة فطر الله الخلق عليها. وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة. وقد استدل لكثير من الأصول بها، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة في مسائل شتى. كمسألة وجود الخالق وعلوه، والمعاد وغيرها. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ أي: من الغرق ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن التوحيد: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ أي: بأنعم الله. والجملة كالتعليل للإعراض. قال الشهاب: وفيه لطف، حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم. وذكر أن جنس الإنسان مجبول على هذا، فلما أعرضوا أعرض الله عنهم. [القاسمي (٦/ ٤٧٦)].

(٢) تضعيف كرم، أي: جعلنا لهم كرما، أي: شرفا وفضلا. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المركبات من الأطعمة. والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله. [القرطبي (١٠/ ٢٩٣)].

(٣) الفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شئونه، ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم، هذا هو التفضيل المراد. وأما نسبة التفاضل بين نوع الإنسان، وأنواع من الموجودات الخفي عنا كالملائكة والجن فليست هنا، وإنما تعرف بأدلة توقيفية من قبل الشريعة، فلا تفرض هنا مسألة التفضيل بين البشر والملائكة المختلف في تفاصيلها. [ابن عاشور (١٥/ ١٦٦)].

اَلشَّرِّ وَهُوَ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ[1] ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ مِنْهُمْ ﴿كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وَهُمُ اَلسُّعَدَاءُ أُولُو اَلْبَصَائِرِ فِي اَلدُّنْيَا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يُنْقَصُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿فَتِيلًا ۝٧١﴾ قَدْرَ قِشْرَةِ اَلنَّوَاةِ[2]. ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ أَيِ: اَلدُّنْيَا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عَنِ اَلْحَقِّ ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عَنْ طَرِيقِ اَلنَّجَاةِ وَقِرَاءَةِ اَلْكِتَابِ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ أَبْعَدُ طَرِيقًا عَنْهُ. وَنَزَلَ فِي ثَقِيفٍ وَقَدْ سَأَلُوهُ ﷺ أَنْ يُحَرِّمَ وَادِيَهُمْ وَأَلَحُّوا عَلَيْهِ: ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿كَادُواْ﴾ قَارَبُوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ لَيَسْتَنْزِلُونَكَ ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا﴾ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ عَلَى اَلْحَقِّ بِالْعِصْمَةِ ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾ قَارَبْتَ ﴿تَرْكَنُ﴾ تَمِيلُ ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا﴾ رُكُونًا ﴿قَلِيلًا ۝٧٤﴾ لِشِدَّةِ اِحْتِيَالِهِمْ وَإِلْحَاحِهِمْ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَرْكَنْ وَلَا قَارَبَ[3]. ﴿إِذًا﴾ لَوْ رَكَنْتَ ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ

---

(١) ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ قال بعض العلماء: المراد ﴿بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ هنا كتاب أعمالهم. ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ الآية [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، واختار هذا القول ابن كثير ... وعزاه لابن عباس وأبي العالية والضحاك والحسن، وعن قتادة ومجاهد: أن المراد ﴿بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ نبيهم، ويدل لهذا القول قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] ... وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الآية [الزمر: ٦٩] ... وقال بعض أهل العلم: ﴿بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ أي: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع؛ وممن قال به: ابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال بعض أهل العلم: ﴿بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ أي: ندعو كل قوم بمن يأتمون به، فأهل الإيمان أئمتهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأهل الكفر أئمتهم سادتهم وكبراؤهم من رؤساء الكفرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ الآية [القصص: ٤١]، وهذا الأخير أظهر الأقوال عندي، والعلم عند الله تعالى. فقد رأيت أقوال العلماء في هذه الآية وما يشهد لها من قرآن، وقوله بعد هذا: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ من القرائن الدالة على ترجيح ما اختاره ابن كثير من أن الإمام في هذه الآية كتاب الأعمال. [الشنقيطي (٣/ ٧٢٨)].

(٢) أي: لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل وهو: القشرة التي في شق النواة، أو هو عبارة عن أقل شيء، وفي النواة أمور ثلاثة: فتيل وهو الخيط الذي في الحز الكائن فيها طولاً، والقطمير وهو قشرة النواة، والنقير وهو الخيط الذي في النقرة التي في ظهرها. [صديق حسن (٧/ ٤٢٩)].

(٣) قال القفال رحمه الله بعد ذكره ما روي في سبب نزولها: ويمكن أيضا تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه؛ لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه. فتارة كانوا يقولون: إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١-٢] وقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليترك ادعاء النبوة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١] ودعوه إلى طرد المؤمنين عن

﴿ضِعۡفَ﴾ عَذَابِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ﴾ عَذَابِ ﴿ٱلۡمَمَاتِ﴾ أَيْ: مِثْلَيْ مَا يُعَذَّبُ غَيْرُكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾ مَانِعًا مِنْهُ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَالْحَقْ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ» ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَرْضِ الْمَدِينَةِ ﴿لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا﴾ لَوْ أَخْرَجُوكَ ﴿لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ فِيهَا ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ ثُمَّ يُهْلَكُونَ. ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ أَيْ: كَسُنَّتِنَا فِيهِمْ، مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ أَخْرَجَهُمْ ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ تَبْدِيلًا. ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أَيْ: مِنْ وَقْتِ زَوَالِهَا ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ إِقْبَالِ ظُلْمَتِهِ، أَيِ: «الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ» ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ صَلَاةَ الصُّبْحِ ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨﴾ تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ(١). ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ﴾ فَصَلِّ ﴿بِهِۦ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ فَرِيضَةً زَائِدَةً لَكَ دُونَ أُمَّتِكَ، أَوْ فَضِيلَةً عَلَى الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ﴾ يُقِيمَكَ

نفسه فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب. وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه، وأن يزيلوه عن منهجه. فبين تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم. وعلى هذا الطريق. فلا حاجة في تفسير هذه الآيات، إلى شيء من تلك الروايات. والله أعلم ... وقال القاضي: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ الآية، إنك كنت على صدد الركون إليهم، لقوة خداعهم وشدة احتيالهم. لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون، فضلا عن أن تركن عليهم. وهو صريح في أنه ﷺ ما هم بإجابتهم، مع قوة الداعي إليها، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه. وجاء في «حواشي جامع البيان» ما مثاله بالحرف: من الفوائد الجليلة في هذه الآية، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك، بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما. فإنها شعائر الكفر والشرك. وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة. وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا وطواغيت تعبد من دون الله. والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض، مع القدرة على إزالته. وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وأعظم شرك عندها وبها. فإن اللات - على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد - رجل كان يلت لهم السويق فمات. فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه. ولم يقولوا: إن اللات خلقت السماوات والأرض، بل كان شركهم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه، من النذور لها، والشرك بها، والتمسح بها، وتقبيلها، واستلامها. وما طلبوا من رسول الله ﷺ إلا مجرد مس آلهتهم، كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا، وما التمسوا منه إلا التمتيع باللات سنة من غير عبادة، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم. فالرزية كل الرزية ما ابتلي به القبوريون من أهل هذا الزمان. فإنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام، إلا فعلوه بالقبور. فإنا لله وإنا إليه راجعون. [القاسمي (٦/ ٤٨٠)].

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فَضْلُ صَلَاةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ». ويقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾. أخرجه البخاري (٤٧١٧).

﴿رَبُّكَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾ يَحْمَدُكَ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَهُوَ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ(١). وَنَزَلَ لَمَّا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ الْمَدِينَةَ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ إِدْخَالًا مَرْضِيًّا لَا أَرَى فِيهِ مَا أَكْرَهُ ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ مِنْ مَكَّةَ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إِخْرَاجًا لَا أَلْتَفِتُ بِقَلْبِي إِلَيْهَا(٢) ﴿وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ٨٠﴾ قُوَّةً تَنْصُرُنِي بِهَا عَلَى أَعْدَائِكَ(٣). ﴿وَقُلْ﴾ عِنْدَ دُخُولِكَ مَكَّةَ: ﴿جَآءَ الْحَقُّ﴾ الْإِسْلَامُ ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ بَطَلَ الْكُفْرُ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١﴾ مُضْمَحِلًّا زَائِلًا، وَقَدْ دَخَلَهَا ﷺ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى سَقَطَتْ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤). ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ مِنَ

---

(١) قال ابن جرير: «قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم» ... قال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وقاله الحسن البصري. وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قلت: لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكبا إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر واردا منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل الناس آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لَسْتُ لَهَا» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: «أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا». أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣). ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصور: إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك. عن آدم بن علي، سمعت ابن عمر يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا. أخرجه البخاري (٤٧١٨). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ لِأُمَّتِي فِيهِ». أخرجه أحمد (٤٤٤). [ابن كثير (٥/ ١٠٤)].

(٢) المدخل: دخوله إلى المدينة، والمخرج خروجه من مكة، وقيل: المدخل في القبر، والمخرج إلى البعث، واختار ابن عطية أن يكون على العموم في جميع الأمور. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٥٣)].

(٣) حجة تنصرني على من خالفني أو ملكا ينصر الإسلام على الكفر، فاستجاب له بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. [البيضاوي (٣/ ٢٦٤)].

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١).

اَلضَّلَالَةِ[1] ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اَلْكَافِرِينَ ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ لِكُفْرِهِمْ بِهِ[2]. ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ اَلْكَافِرِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عَنِ اَلشُّكْرِ ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ ثَنَى عِطْفَهُ مُتَبَخْتِرًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ اَلْفَقْرُ وَالشِّدَّةُ ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ قَنُوطًا مِنْ رَحْمَةِ اَللهِ[3]. ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ طَرِيقَتِهِ ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ طَرِيقًا فَيُثِيبُهُ. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أَيِ: اَلْيَهُودُ ﴿عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ اَلَّذِي يَحْيَا بِهِ اَلْبَدَنُ ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أَيْ: عِلْمِهِ، لَا تَعْلَمُونَهُ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِهِ تَعَالَى[4].

---

(١) «من» لابتداء الغاية قاله أبو حيان، ويصح أن تكون لبيان الجنس قاله الزمخشري وابن عطية وأبو البقاء، فإن جميع القرآن شفاء، وقدم على المبين للاهتمام وأبو حيان ينكر جوازه لأن التي للبيان لا بد أن يتقدمها ما تبينه لا أن تتقدم هي عليه فالمختار هو الأول، وقيل: للتبعيض وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه، ورده ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله. واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على قولين: الأول: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه. الثاني: أنه شفاء عن الأمراض الظاهرة بالرقي والتعوذ ونحو ذلك والتبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأدواء والأسقام يدل عليه ما روي عن النبي ﷺ في فاتحة الكتاب وما يدريك أنها رقية، ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز أو من باب حمل المشترك على معنييه. [صديق حسن (٧/ ٤٤٤)].

(٢) والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. [ابن كثير (٥/ ١١٢)].

(٣) إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال. وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وكفران نعمه تعالى، بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأس من الفرج عند مس شر قضى عليه. وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان. فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين. ويتيقن في الحالة الأولى؛ أن الشكر رباط النعم. وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم. فيشكر ويصبر. ويعلم أن المنعم يقدر، فلم يعرض عند النعمة بطرا وأشرا. ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النقمة جزعا وضجرا. فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة. كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩-١١]. [القاسمي (٦/ ٤٩٩)].

(٤) السائلون اليهود، وقيل: قريش بإشارة اليهود، والروح هنا عند الجمهور هو الذي في الجسم، وقد يقال فيه: النفس، وقيل: الروح هنا جبريل، وقيل: القرآن، والأول هو الصواب لدلالة ما بعده على ذلك ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من الأمور التي استأثر الله بها ولم يطلع عليها خلقه، وكانت اليهود قد قالت لقريش اسألوه عن الروح، فإن لم يجبكم فيه بشيء فهو نبي، وذلك أنه كان عندهم في التوراة أن الروح مما انفرد الله بعلمه، وقال ابن بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعرف الروح، ولقد كثر اختلاف الناس في النفس والروح، وليس في أقوالهم في ذلك ما يعول عليه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خطاب عام لجميع الناس، لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٥٣)].

﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أَيِ: مِنَ الْقُرْآنِ بِأَنْ نَمْحُوَهُ مِنَ الصُّدُورِ وَالْمَصَاحِفِ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا﴾ لَكِنْ أَبْقَيْنَاهُ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ عَظِيمًا، حَيْثُ أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ وَأَعْطَاكَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ مُعِينًا، نَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] [1]. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ، أَيْ: مَثَلًا مِنْ جِنْسِ كُلِّ مَثَلٍ [2]؛ لِيَتَّعِظُوا ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ جُحُودًا لِلْحَقِّ. ﴿وَقَالُوا۟﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَبَىٰ﴾: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ عَيْنًا يَنْبُعُ مِنْهَا الْمَاءُ. ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بُسْتَانٌ ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا﴾ وَسَطَهَا ﴿تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قِطَعًا ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ مُقَابَلَةً وَعِيَانًا فَنَرَاهُمْ. ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ ذَهَبٍ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ تَصْعَدَ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ عَلَى السُّلَّمِ ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لَوْ رَقِيتَ فِيهَا ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ مِنْهَا ﴿كِتَٰبًا﴾ فِيهِ تَصْدِيقُكَ ﴿نَّقْرَؤُهُۥۗ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾ تَعَجُّبٌ ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ كَسَائِرِ الرُّسُلِ؟ وَلَمْ يَكُونُوا يَأْتُونَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ. ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ أَيْ: قَوْلُهُمْ مُنْكِرِينَ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ وَلَمْ يَبْعَثْ مَلَكًا. ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بَدَلَ الْبَشَرِ ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ إِذْ لَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمٍ رَسُولٌ إِلَّا مِنْ جِنْسِهِمْ، يُمْكِنُهُمْ مُخَاطَبَتُهُ وَالْفَهْمُ عَنْهُ. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۚ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ عَالِمًا بِبَوَاطِنِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ. ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن

---

(١) نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له. [ابن كثير]. وفي تقاصر قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك، مع طول الزمن، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتيد صدوره عن البشر، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة. [القاسمي].

(٢) أي: رددنا القول فيه بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان، وكررنا بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي، وأقاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة، وقيل: من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ووقوعه موقعاً في الأنفس، والأول أولى. [صديق حسن (٧/ ٤٥٢)].

يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يَهْدُونَهُمْ ﴿مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مَاشِينَ[1] ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ سَكَنَ لَهَبُهَا ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ۝٩٧﴾ تَلَهُّبًا وَاشْتِعَالًا. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ﴾ مُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ۝٩٨﴾ * ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ يَعْلَمُوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ مَعَ عِظَمِهِمَا ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾ أَيِ: الْأَنَاسِيَّ فِي الصِّغَرِ ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا﴾ لِلْمَوْتِ وَالْبَعْثِ ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ۝٩٩﴾ جُحُودًا لَهُ. ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ مِنَ الرِّزْقِ وَالْمَطَرِ ﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ﴾ لَبَخِلْتُمْ ﴿خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ خَوْفَ نَفَادِهَا بِالْإِنْفَاقِ فَتَفْتَقِرُوا ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ۝١٠٠﴾ بَخِيلًا[2]. ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ وَهِيَ: «الْيَدُ، وَالْعَصَا، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ أَوِ الطَّمْسُ، وَالسِّنِينُ، وَنَقْصُ الثَّمَرَاتِ» ﴿فَسۡـَٔلۡ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عَنْهُ سُؤَالَ تَقْرِيرٍ لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى صِدْقِكَ، أَوْ فَقُلْنَا لَهُ: اِسْأَلْ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِلَفْظِ الْمَاضِي[3] ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ۝١٠١﴾ مَخْدُوعًا مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِكَ. ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الْآيَاتِ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ عِبَرًا وَلَكِنَّكَ تُعَانِدُ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ التَّاءِ ﴿وَإِنِّي

---

(١) فيه وجهان: أحدهما: أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، من قول العرب: قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا. الثاني: أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه. وهذا هو الصحيح، لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا قال: يا رسول الله، الذين يحشرون على وجوههم، أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال قتادة حين بلغه: بلى وعزة ربنا. أخرجه البخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦). [القرطبي (١٠/ ٣٣٣)].

(٢) يقول تعالى لرسوله ﷺ قل لهم يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق. قال ابن عباس، وقتادة: أي: الفقر، أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبدا؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ قال ابن عباس، وقتادة: أي: بخيلا منوعا. وقال الله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيبا في ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: ١٩ -٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُم مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ». أخرجه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣). [ابن كثير (٥/ ١٢٤)].

(٣) قراءة شاذة.

﴿لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ هالِكًا أَوْ مَصْرُوفًا عَنِ الْخَيْرِ. ﴿فَأَرَادَ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾ يُخْرِجَ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أَيِ: السَّاعَةُ ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾ جَمِيعًا أَنْتُمْ وَهُمْ. ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ الْمُشْتَمِلِ عَلَيْهِ ﴿نَزَلَۗ﴾ كَمَا أُنْزِلَ لَمْ يَعْتَرِهِ تَبْدِيلٌ(١) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ. ﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ نَزَّلْنَاهُ مُفَرَّقًا فِي عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ وَثَلَاثٍ ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ مَهْلٍ وَتُؤَدَةٍ لِيَفْهَمُوهُ ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ عَلَى حَسَبِ الْمَصَالِحِ(٢). ﴿قُلۡ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ قَبْلَ نُزُولِهِ وَهُمْ مُؤْمِنُوا أَهْلِ الْكِتَابِ(٣) ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ

---

(١) ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي: بالحقيقة أنزلناه كتابا من لدنا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ أي: متلبسا بالحق الذي هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه. وهو ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ومحاسن الأخلاق وكل ما خالف الباطل. كقوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصلت: ٤٢]. [القاسمي (٦/ ٥٢٠)].

(٢) عن ابن عباس قال: نزل القرآن إلى السماء في ليلة القدر من رمضان جملة واحدة فكان المشركون إذا أحدثوا شيئـًا أحدث الله لهم جوابـًا ففرقه الله في ثلاث وعشرين سنة ... وعنه ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ فصلناه على مكث بأمد. قال في الجمل وبالتشديد قرأ علي وجماعة من الصحابة وغيرهم، وفيه وجهان: أحدهما: أن التضعيف للتكثير، أي: فرقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار ماضية ومستقبلة. والثاني: أنه دال على التفريق والتنجيم. انتهى. ثم ذكر سبحانه العلة لقوله فرقناه فقال: ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: على تطاول في المدة شيئـًا بعد شيء، على القراءة الثانية، أو أنزلناه آية آية وسورة سورة، ومعناه على القراءة الأولى على ترسل وتمهل وتؤدة في التلاوة؛ فإن ذلك أقرب إلى الفهم وأسهل للحفظ ... ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ التأكيد بالمصدر للمبالغة والمعنى أنزلناه منجمـًا مفرقـًا في ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث لما في ذلك من المصلحة، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا ولم يطيقوا. [صديق حسن (٧/ ٤٦٦)].

(٣) أمر باحتقارهم وعدم الاكتراث بهم، كأنه يقول: سواء آمنتم أو لم تؤمنوا، لكونكم لستم بحجة، وإنما الحجة أهل العلم من قبله، وهم المؤمنون من أهل الكتاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ يعني المؤمنين من أهل الكتاب وقيل: الذين كانوا على الحنيفية قبل البعثة كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، والأول أظهر، وهذه الجملة تعليل لما تقدم، والمعنى: إن لم تؤمنوا به أنتم، فقد آمن به من هو أعلم منكم. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٥٦)].

عَنْ خُلْفِ الْوَعْدِ ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بِنُزُولِهِ وَبَعْثِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿لَمَفْعُولًا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ عَطْفٌ بِزِيَادَةِ صِفَةٍ ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ الْقُرْآنُ ﴿خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾ تَوَاضُعًا لِلَّهِ. وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: «يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ»، فَقَالُوا: يَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ إِلَهَيْنِ وَهُوَ يَدْعُو إِلَهًا آخَرَ مَعَهُ، فَنَزَلَ: ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أَيْ: سَمُّوهُ بِأَيِّهِمَا، أَوْ نَادُوهُ بِأَنْ تَقُولُوا: «يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ» ﴿أَيًّا﴾ شَرْطِيَّةٌ ﴿مَّا﴾ زَائِدَةٌ، أَيْ: أَيَّ هَذَيْنِ ﴿تَدْعُوا﴾ فَهُوَ حَسَنٌ، دَلَّ عَلَى هَذَا ﴿فَلَهُ﴾ أَيْ: فَلِمُسَمَّاهُمَا ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وَهَذَانِ مِنْهَا، فَإِنَّهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيْمِنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ، الْوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ، الرَّافِعُ، الْمُعِزُّ، الْمُذِلُّ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكَمُ، الْعَدْلُ، اللَّطِيفُ، الْخَبِيرُ، الْحَلِيمُ، الْعَظِيمُ، الْغَفُورُ، الشَّكُورُ، الْعَلِيُّ، الْكَبِيرُ، الْحَفِيظُ، الْمَقِيتُ، الْحَسِيبُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرَّقِيبُ، الْمُجِيبُ، الْوَاسِعُ، الْحَكِيمُ، الْوَدُودُ، الْمَجِيدُ، الْبَاعِثُ، الشَّهِيدُ، الْحَقُّ، الْوَكِيلُ، الْقَوِيُّ، الْمَتِينُ، الْوَلِيُّ، الْحَمِيدُ، الْمُحْصِي، الْمُبْدِئُ، الْمُعِيدُ، الْمُحْيِي، الْمُمِيتُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْوَاجِدُ، الْمَاجِدُ، الْوَاحِدُ، الْأَحَدُ، الصَّمَدُ، الْقَادِرُ، الْمُقْتَدِرُ، الْمُقَدِّمُ، الْمُؤَخِّرُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ، الْوَالِي، الْمُتَعَالِي، الْبَرُّ، التَّوَّابُ، الْمُنْتَقِمُ، الْعَفُوُّ، الرَّؤُوفُ، مَالِكُ الْمُلْكِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، الْمُقْسِطُ، الْجَامِعُ، الْغَنِيُّ، الْمُغْنِي، الْمَانِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، النُّورُ، الْهَادِي، الْبَدِيعُ، الْبَاقِي، الْوَارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بِقِرَاءَتِكَ بِهَا فَيَسْمَعَكَ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوكَ، وَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ ﴿وَلَا تُخَافِتْ﴾ تُسِرَّ ﴿بِهَا﴾ لِيَنْتَفِعَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن حبان (٨٠٨)، والحاكم (٤١). ونقل النووي اتفاق العلماء على أن أسماء الله تعالى ليست محصورة في هذا العدد. واستدلوا على عدم حصر أسماء الله تعالى الحسنى في هذا العدد بما ثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي إِلا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا». أخرجه أحمد (٣٧٠٤). فقوله ﷺ: «أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»، دليل على أن مِن أسماء الله تعالى الحسنى ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، وهذا يدل على أنها أكثر من تسعة وتسعين. وأما قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧). فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله: «مَنْ أَحْصَاهَا» تكميل للجملة الأولى وليست استئنافية منفصلة. [انظر القول المفيد للشيخ ابن عثيمين (٢/١٨٦)].

أَصْحابُكَ ﴿وَٱبۡتَغِ﴾ اقصِدْ ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ الْجَهْرِ وَالْمُخَافَتَةِ ﴿سَبِيلٗا ١١٠﴾ طَرِيقًا وَسَطًا[١]. ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ فِي الْأُلُوهِيَّةِ ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ﴾ يَنْصُرُهُ ﴿مِّنَ﴾ أَجلِ ﴿ٱلذُّلِّۖ﴾ أَيْ: لَمْ يُذَلَّ فَيَحْتَاجَ إِلَى نَاصِرٍ ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ عظِّمْهُ عَظَمَةً تَامَّةً، عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَالذُّلِّ وَكُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَتَرْتِيبُ الْحَمْدِ عَلَى ذَلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَتَفَرُّدِهِ فِي صِفَاتِهِ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ مُعَاذٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «آيَةُ الْعِزِّ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ[٢]»، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. قَالَ مُؤَلِّفُهُ: هَذَا آخِرُ مَا كَمَّلْتُ بِهِ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي أَلَّفَهُ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْمُحَقِّقُ جَلَالُ الدِّينِ الْمَحَلِّيُّ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَفْرَغْتُ فِيهِ جُهْدِي وَبَذَلْتُ فِكْرِي فِيهِ فِي نَفَائِسَ أَرَاهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى تُجْدِي، وَأَلَّفْتُهُ فِي مُدَّةٍ قَدْرِ مِيعَادِ الْكَلِيمِ، وَجَعَلْتُهُ وَسِيلَةً لِلْفَوْزِ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْكِتَابِ الْمُكَمَّلِ، وَعَلَيْهِ فِي الْآيِ الْمُتَشَابِهَةِ الِاعْتِمَادُ وَالْمُعَوَّلُ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَءًا نَظَرَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ إِلَيْهِ، وَوَقَفَ فِيهِ عَلَى خَطَأٍ فَأَطْلَعَنِي عَلَيْهِ وَقَدْ قُلْتُ:

حَمِدْتُ اللهَ رَبِّي إِذْ هَدَانِي ... لِمَا أَبْدَيْتُ مَعَ عَجْزِي وَضَعْفِي
فَمَنْ لِي بِالْخَطَأِ فَأَرُدَّ عَنْهُ ... وَمَنْ لِي بِالْقَبُولِ وَلَوْ بِحَرْفِ

هَذَا وَلَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي خَلَدِي أَنْ أَتَعَرَّضَ لِذَلِكَ لِعِلْمِي بِالْعَجْزِ عَنِ الْخَوْضِ فِي هَذِهِ الْمَسَالِكِ وَعَسَى اللهُ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ نَفْعًا جَمًّا وَيَفْتَحَ بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا وَأَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا، وَكَأَنِّي بِمَنِ اعْتَادَ الْمُطَوَّلَاتِ وَقَدْ أَضْرَبَ عَنْ هَذِهِ التَّكْمِلَةِ، وَأَصْلُهَا حَسْمًا وَعَدَلَ إِلَى صَرِيحِ الْعِنَادِ وَلَمْ يُوَجِّهْ إِلَى دَقَائِقِهَا فَهْمًا ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢]، رَزَقَنَا اللهُ بِهِ هِدَايَةً إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَتَوْفِيقًا، وَاطِّلَاعًا عَلَى دَقَائِقِ كَلِمَاتِهِ وَتَحْقِيقًا، وَجَعَلَنَا بِهِ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وَفُرِغَ مِنْ تَأْلِيفِهِ يَوْمَ الْأَحَدِ عَاشِرِ شَوَّالٍ سَنَةَ سَبْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَكَانَ الِابْتِدَاءُ فِي يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ مُسْتَهَلِّ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَفُرِغَ

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾. أخرجه البخاري (٢٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٣٤)، والطبراني (٤٢٩).

مِنْ تَبْيِيضِهِ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ سَادِسِ صَفَرَ سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ[1].

---

(١) جاء في بعض النسخ بعد هذا زيادة، وهي: قَالَ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْخَطِيبُ الطُّوخِيُّ: أَخْبَرَنِي صَدِيقِي الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ كَمَالُ الدِّينِ الْمَحَلِّيُّ أَخُو شَيْخِنَا الشَّيْخِ جَلَالِ الدِّينِ الْمَحَلِّيِّ - رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى - أَنَّهُ رَأَى أَخَاهُ الشَّيْخَ جَلَالَ الدِّينِ الْمَذْكُورَ فِي النَّوْمِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ صَدِيقُنَا الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ الْمُحَقِّقُ جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ مُصَنِّفُ هَذِهِ التَّكْمِلَةِ، وَقَدْ أَخَذَ الشَّيْخُ هَذِهِ التَّكْمِلَةَ فِي يَدِهِ وَتَصَفَّحَهَا وَيَقُولُ لِمُصَنِّفِهَا الْمَذْكُورِ أَيُّهُمَا أَحْسَنُ وَضْعِي أَوْ وَضْعُكَ؟ فَقَالَ: وَضْعِي، فَقَالَ: أُنْظُرْ وَعَرَضَ عَلَيْهِ مَوَاضِعَ فِيهَا وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى اعْتِرَاضٍ فِيهَا بِلُطْفٍ، وَمُصَنِّفُ هَذِهِ التَّكْمِلَةِ كُلَّمَا أَوْرَدَ عَلَيْهِ شَيْئًا يُجِيبُهُ وَالشَّيْخُ يَتَبَسَّمُ وَيَضْحَكُ، قَالَ شَيْخُنَا الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ جَلَالُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ السُّيُوطِيُّ مُصَنِّفُ هَذِهِ التَّكْمِلَةِ: الَّذِي أَعْتَقِدُهُ وَأَجْزِمُ بِهِ أَنَّ الْوَضْعَ الَّذِي وَضَعَهُ الشَّيْخُ جَلَالُ الدِّينِ الْمَحَلِّيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي قِطْعَتِهِ أَحْسَنُ مِنْ وَضْعِي أَنَا بِطَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَيْفَ وَغَالِبُ مَا وَضَعْتُهُ هُنَا مُقْتَبَسٌ مِنْ وَضْعِهِ وَمُسْتَفَادٌ مِنْهُ لَا مِرْيَةَ عِنْدِي فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا الَّذِي رُؤِيَ فِي الْمَنَامِ الْمَكْتُوبِ أَعْلَاهُ فَلَعَلَّ الشَّيْخَ أَشَارَ بِهِ إِلَى الْمَوَاضِعِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي خَالَفْتُ وَضْعَهُ فِيهَا لِنُكْتَةٍ وَهِيَ يَسِيرَةٌ جِدًّا مَا أَظُنُّهَا تَبْلُغُ عَشَرَةَ مَوَاضِعَ مِنْهَا أَنَّ الشَّيْخَ قَالَ فِي سُورَةِ «ص» وَالرُّوحُ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَحْيَا بِهِ الْإِنْسَانُ بِنُفُوذِهِ فِيهِ، وَكُنْتُ تَبِعْتُهُ أَوَّلًا فَذَكَرْتُ هَذَا الْحَدَّ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ، ثُمَّ ضَرَبْتُ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] الْآيَةَ، فَهِيَ صَرِيحَةٌ أَوْ كَالصَّرِيحَةِ فِي أَنَّ الرُّوحَ مِنْ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى لَا نَعْلَمُهُ فَالْإِمْسَاكُ عَنْ تَعْرِيفِهَا أَوْلَى، وَلِذَا قَالَ الشَّيْخُ تَاجُ الدِّينِ بْنُ السُّبْكِيِّ فِي جَمْعِ الْجَوَامِعِ: وَالرُّوحُ لَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَنُمْسِكُ عَنْهَا. وَمِنْهَا أَنَّ الشَّيْخَ قَالَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ: الصَّابِئُونَ فِرْقَةٌ مِنَ الْيَهُودِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَزِدْتُ أَوِ النَّصَارَى بَيَانًا لِقَوْلٍ ثَانٍ. فَإِنَّهُ الْمَعْرُوفُ خُصُوصًا عِنْدَ أَصْحَابِنَا الْفُقَهَاءِ، وَفِي الْمِنْهَاجِ: وَإِنْ خَالَفَتِ السَّامِرَةُ الْيَهُودَ وَالصَّابِئَةُ النَّصَارَى فِي أَصْلِ دِينِهِمْ، وَفِي شَرْحِهِ أَنَّ الشَّافِعِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَصَّ عَلَى أَنَّ الصَّابِئِينَ فِرْقَةٌ مِنَ النَّصَارَى، وَلَا أَسْتَحْضِرُ الْآنَ مَوْضِعًا ثَالِثًا فَكَأَنَّ الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يُشِيرُ إِلَى مِثْلِ هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ.

سُورَةُ الكَهفِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ اَلْآيَة، مِائَةٌ وَعَشْرُ آيَاتٍ أَوْ خَمْس عَشْرَة آيَةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هُوَ اَلْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ، ثَابِتٌ ﴿لِلَّهِ﴾ تَعَالَى، وَهَلِ اَلْمُرَادُ اَلْإِعْلَامُ بِذَلِكَ لِلْإِيمَانِ بِهِ، أَوِ اَلثَّنَاءُ بِهِ، أَوْ هُمَا؟ اِحْتِمَالَاتٌ، أَفْيَدُهَا اَلثَّالِثُ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ اَلْقُرْآنَ ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ﴾ أَيْ: فِيهِ ﴿عِوَجَا ۜ ١﴾ اِخْتِلَافًا أَوْ تَنَاقُضًا، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ اَلْكِتَابِ. ﴿قَيِّمًا﴾ مُسْتَقِيمًا، حَالٌ ثَانِيَةٌ مُؤَكِّدَةٌ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يُخَوِّفَ بِالْكِتَابِ اَلْكَافِرِينَ ﴿بَأْسًا﴾ عَذَابًا ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ مِنْ قِبَلِ اللهِ ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ٣﴾ هُوَ اَلْجَنَّةُ. ﴿وَيُنذِرَ﴾ مِنْ جُمْلَةِ اَلْكَافِرِينَ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ بِهَذَا اَلْقَوْلِ ﴿مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ﴾ مِنْ قَبْلِهِمُ اَلْقَائِلِينَ لَهُ ﴿كَبُرَتْ﴾ عَظُمَتْ ﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ ﴿كَلِمَةً﴾ تَمْيِيزٌ مُفَسِّرٌ لِلضَّمِيرِ اَلْمُبْهَمِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، أَيْ: مَقَالَتُهُمُ اَلْمَذْكُورَةُ ﴿إِن﴾ مَا ﴿يَقُولُونَ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿إِلَّا﴾ مَقُولًا ﴿كَذِبًا ٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ مُهْلِكٌ ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ بَعْدَهُمْ، أَيْ: بَعْدَ تَوَلِّيهِمْ عَنْكَ ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿أَسَفًا ٦﴾ غَيْظًا وَحُزْنًا مِنْكَ لِحِرْصِكَ عَلَى إِيمَانِهِمْ، وَنَصْبُهُ عَلَى اَلْمَفْعُولِ لَهُ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ اَلْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْأَنْهَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ لِنَخْتَبِرَ اَلنَّاسَ نَاظِرِينَ إِلَى ذَلِكَ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٧﴾ فِيهِ، أَيْ: أَزْهَدُ لَهُ. ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا﴾ فُتَاتًا ﴿جُرُزًا ٨﴾ يَابِسًا لَا يُنْبِتُ. ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ أَيْ: ظَنَنْتَ ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ اَلْغَارِ فِي اَلْجَبَلِ ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ اَللَّوْحِ اَلْمَكْتُوبِ فِيهِ أَسْمَاؤُهُمْ وَأَنْسَابُهُمْ(١)، وَقَدْ سُئِلَ ﷺ عَنْ قِصَّتِهِمْ ﴿كَانُواْ﴾ فِي قِصَّتِهِمْ ﴿مِنْ﴾ جُمْلَةِ ﴿ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾ خَبَرُ كَانَ وَمَا قَبْلَهُ حَالٌ. أَيْ: كَانُوا عَجَبًا دُونَ بَاقِي اَلْآيَاتِ أَوْ أَعْجَبَهَا؟ لَيْسَ اَلْأَمْرُ كَذَلِكَ. اُذْكُرْ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ جَمْعُ فَتًى - وَهُوَ اَلشَّابُّ اَلْكَامِلُ - خَائِفِينَ عَلَى إِيمَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمُ اَلْكُفَّارِ ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ مِنْ قِبَلِكَ ﴿رَحْمَةً وَهَيِّئْ﴾ أَصْلِحْ ﴿لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ١٠﴾ هِدَايَةً. ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أَيْ: أَنَمْنَاهُمْ ﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١﴾ مَعْدُودَةً. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أَيْقَظْنَاهُمْ ﴿لِنَعْلَمَ﴾ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ ﴿أَىُّ

(١) قال سعيد بن جبير: هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم، وهذا أظهر الأقاويل، ثم وضعوه على باب الكهف. [البغوي (٥/ ١٤٥)].

﴿ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ الْفَرِيقَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ فِي مُدَّةِ لُبْثِهِمْ[1] ﴿أَحْصَىٰ﴾ أَفْعَلُ بِمَعْنَى: «أَضْبَطَ» ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ لِلُبْثِهِمْ مُتَعَلِّقٌ بِمَا بَعْدَهُ ﴿أَمَدًا ١٢﴾ غَايَةً. ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾ نَقرأُ ﴿عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قَوَّيْنَاهَا عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِهِمْ وَقَدْ أَمَرَهُمْ بِالسُّجُودِ لِلأَصْنَامِ ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ١٤﴾ أَيْ: قَوْلًا ذَا شَطَطٍ، أَيْ: إِفْرَاطٍ فِي الْكُفْرِ إِنْ دَعَوْنَا إِلَهًا غَيْرَ اللهِ فَرْضًا. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿قَوْمُنَا﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا﴾ هَلَّا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ عَلَى عِبَادَتِهِمْ ﴿بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍۖ﴾ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ١٥﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ تَعَالَى. قَالَ بَعْضُ الْفِتْيَةِ لِبَعْضٍ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ١٦﴾ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِ الْفَاءِ وَبِالْعَكْسِ، مَا تَرْتَفِقُونَ بِهِ مِنْ غَدَاءٍ وَعَشَاءٍ. ﴿*وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ، تَمِيلُ ﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ نَاحِيَتَهُ ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ تَتْرُكُهُمْ وَتَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ فَلَا تُصِيبُهُمُ الْبَتَّةَ ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ﴾ مُتَّسَعٍ مِنَ الْكَهْفِ، يَنَالُهُمْ بَرْدُ الرِّيحِ وَنَسِيمُهَا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ[2] ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ١٧ وَتَحْسَبُهُمْ﴾ لَوْ رَأَيْتَهُمْ ﴿أَيْقَاظًا﴾ أَيْ: مُنْتَبِهِينَ؛ لِأَنَّ أَعْيُنَهُمْ مُفَتَّحَةٌ، جَمْعُ «يَقِظٍ» بِكَسْرِ الْقَافِ ﴿وَهُمْ رُقُودٌۚ﴾ نِيَامٌ جَمْعُ «رَاقِدٍ»

---

(١) من قوم الفتية أهل الهدى وأهل الضلالة فالمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين والكافرين المختلفين في مدة لبثهم، وقيل: المراد نفس أصحاب الكهف لا أهل المدينة اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا، وقيل: المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكاً بعد ملك وأصحاب الكهف، وقيل: إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب، وقال الفراء: أن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم. [صديق حسن (٨/ ١٧)].

(٢) قيل: هنا كلام محذوف تقديره: فأوى القوم إلى الكهف ومكثوا فيه، وضرب الله على آذانهم، ومعنى تزاور: تميل وتزوغ، ومعنى تقرضهم: تقطعهم، أي: تبعد عنهم، وهو بمعنى القطع، وذات اليمين والشمال أي: جهته، ومعنى الآية: أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها، ولا عند غروبها لئلا يحترقوا بحرها، فقيل: إن ذلك كرامة لهم وخرق عادة، وقيل: كان باب الكهف شمالياً يستقبل بنات نعش، فلذلك لا تصيبهم الشمس، والأول أظهر لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في موضع واسع، وذلك مفتح لإصابة الشمس، ومع ذلك حجبها الله عنهم ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الإشارة إلى حجب الشمس عنهم إن كان خرق عادة، وإن كان لكون بابهم إلى الشمال فالإشارة إلى أمرهم بجملته. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٦٠)].

﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ﴾ لِئَلَّا تَأْكُلَ الْأَرْضُ لُحُومَهُمْ ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ﴾ يَدَيْهِ ﴿بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ بِفِنَاءِ الْكَهْفِ، وَكَانُوا إِذَا انْقَلَبُوا انْقَلَبَ مَعَهُمْ، وَهُوَ مِثْلُهُمْ فِي النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِّئۡتَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَضَمِّهَا، مَنَعَهُمُ اللهُ بِالرُّعْبِ مِنْ دُخُولِ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ(١). ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا فَعَلْنَا بِهِمْ مَا ذَكَرْنَا ﴿بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ أَيْقَظْنَاهُمْ ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ عَنْ حَالِهِمْ وَمُدَّةِ لُبْثِهِمْ ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾؛ لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا الْكَهْفَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَبُعِثُوا عِنْدَ غُرُوبِهَا، فَظَنُّوا أَنَّهُ غُرُوبُ يَوْمِ الدُّخُولِ، ثُمَّ ﴿قَالُواْ﴾ مُتَوَقِّفِينَ فِي ذَلِكَ: ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾ بِسُكُونِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا، بِفِضَّتِكُمْ ﴿هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ يُقَالُ إِنَّهَا الْمُسَمَّاةُ الْآنَ «طَرَسُوس» بِفَتْحِ الرَّاءِ ﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾ أَيْ: أَيُّ أَطْعِمَةِ الْمَدِينَةِ أَحَلُّ ﴿فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ يَقْتُلُوكُمْ بِالرَّجْمِ ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أَيْ: إِنْ عُدْتُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴿أَبَدٗا ٢٠ وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا بَعَثْنَاهُمْ ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ أَطْلَعْنَا ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ قَوْمَهُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ أَيْ: قَوْمُهُمْ ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿حَقّٞ﴾ بِطَرِيقِ: أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِنَامَتِهِمُ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَإِبْقَائِهِمْ عَلَى حَالِهِمْ بِلَا غِذَاءٍ، قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ﴾ لَا شَكَّ ﴿فِيهَآ إِذۡ﴾ مَعْمُولٌ لِـ ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنُونَ وَالْكُفَّارُ ﴿بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ﴾ أَمْرَ الْفِتْيَةِ فِي الْبِنَاءِ حَوْلَهُمْ ﴿فَقَالُواْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ ﴿ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم﴾ أَيْ: حَوْلَهُمْ ﴿بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ يَسْتُرُهُمْ ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ أَمْرِ الْفِتْيَةِ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم﴾ حَوْلَهُمْ ﴿مَّسۡجِدٗا ٢١﴾ يُصَلَّى فِيهِ وَفُعِلَ ذَلِكَ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ(٢). ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أَيِ: الْمُتَنَازِعُونَ فِي عَدَدِ

---

(١) أي: لما حفهم الله تعالى من الرعب واكتنفهم من الهيبة. وقيل: لوحشة مكانهم، وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوحش في الظاهر لينفر الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد منهم على الدنو إليهم. وقيل: الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم، ... وهذا بعيد، لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾. ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها، إلا أن يقال: إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبل لهم ثوب ولم تغير صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم. [القرطبي (١٠/ ٣٧٣)].

(٢) طوي هنا وصف العثور عليهم، وذكر عودهم إلى الكهف؛ لعدم تعلق الغرض بذكره، إذ ليس موضع عبرة؛ لأن المصير إلى مرقدهم وطرو الموت عليهم شأن معتاد لكل حي ... والذين غلبوا على أمرهم ولاة الأمور بالمدينة، فضمير ﴿أَمۡرَهُمۡۖ﴾ يعود إلى ما عاد إليه ضمير

اَلْفِتْيَةِ فِي زَمَنِ اَلنَّبِيِّ ﷺ أَيْ: يَقُولُ بَعْضُهُمْ: هُمْ ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ﴾ أَيْ: بَعْضُهُمْ ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وَالْقَوْلَانِ لِنَصَارَى نَجْرَانَ ﴿رَجْمَۢا بِٱلْغَيْبِۖ﴾ أَيْ: ظَنًّا فِي اَلْغَيْبَةِ عَنْهُمْ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى اَلْقَوْلَيْنِ مَعًا وَنَصْبُهُ عَلَى اَلْمَفْعُولِ لَهُ، أَيْ: لِظَنِّهِمْ ذَلِكَ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أَيِ: اَلْمُؤْمِنُونَ ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْۚ﴾ اَلْجُمْلَةُ مِنَ اَلْمُبْتَدَأِ وَخَبَرِهِ صِفَةُ «سَبْعَةٌ» بِزِيَادَةِ اَلْوَاوِ، وَقِيلَ: تَأْكِيدًا وَدَلَالَةً عَلَى لُصُوقِ اَلصِّفَةِ بِالْمَوْصُوفِ، وَوَصْفُ اَلْأَوَّلَيْنِ بِالرَّجْمِ دُونَ اَلثَّالِثِ؛ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَرْضِيٌّ وَصَحِيحٌ ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ﴾ قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: «أَنَا مِنَ اَلْقَلِيلِ»(١)، وَذَكَرَهُمْ سَبْعَةً ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ تُجَادِلْ ﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ تَطْلُبِ اَلْفُتْيَا ﴿مِّنْهُمْ﴾ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ اَلْيَهُودِ ﴿أَحَدًا ٢٢﴾. وَسَأَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ عَنْ خَبَرِ أَهْلِ اَلْكَهْفِ؟ فَقَالَ: «أُخْبِرُكُمْ بِهِ غَدًا»، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اَللهُ، فَنَزَلَ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ﴾ أَيْ: لِأَجْلِ شَيْءٍ ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣﴾ أَيْ: فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ اَلزَّمَانِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أَيْ: إِلَّا مُلْتَبِسًا بِمَشِيئَةِ اَللهِ تَعَالَى بِأَنْ تَقُولَ: «إِنْ شَاءَ اَللهُ» ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾

﴿فَقَالُواْ﴾ أي: اللذين غلبوا على أمر القائلين: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ﴾. وإنما رأوا أن يكون البناء مسجدا ليكون إكراما لهم، ويدوم تعهد الناس كهفهم، وقد كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنة النصارى، «ونهى عنه النبي ﷺ كما في الحديث يوم وفاة رسول الله ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره». أخرجه البخاري (٤٤٤١)، ومسلم (٥٢٩)، أي: لأبرز في المسجد النبوي، ولم يجعل وراء جدار الحجرة. واتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها منهي عنه؛ لأن ذلك ذريعة إلى عبادة صاحب القبر أو شبيه بفعل من يعبدون صالحي ملتهم، وإنما كانت الذريعة مخصوصة بالأموات؛ لأن ما يعرض لأصحابهم من الأسف على فقدانهم يبعثهم على الإفراط فيما يحسبون أنه إكرام لهم بعد موتهم، ثم يتناسى الأمر، ويظن الناس أن ذلك لخاصية في ذلك الميت، وكان بناء المساجد على القبور سنة لأهل النصرانية، فإن كان شرعا لهم فقد نسخه الإسلام، وإن كان بدعة منهم في دينهم فأجدر. [ابن عاشور (١٥/ ٢٨٩)]. والسبب في ذلك أن البناء على قبر النبي والولي مدعاة للإقبال عليه والتضرع إليه. ففيه فتح لباب الشرك وتوسل إليه بأقرب وسيلة. وهل أصل عبادة الأصنام إلا ذلك؟ كما قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: هؤلاء كانوا قوما صالحين في قومهم، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فلما طال فيهم الأمد عبدوهم، فهؤلاء لما قصدوا الانتفاع بالموتى، قادهم ذلك إلى عبادة الأصنام ... وتلقاه عنهم من تلقاه ممن لم يحط علما بالشرك وأسبابه ووسائله. ومن هاهنا يظهر سر مقصود النبي ﷺ بنهيه عن تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والسرج. ولعنه فاعل ذلك وإخباره بشدة غضب الله عليه. ونهيه عن الصلاة إليها، ونهيه عن اتخاذ قبره عيدا. وسؤاله ربه تعالى ألا يجعل قبره وثنا يعبد. فهذا نهيه عن تعظيم القبور. وذلك تعليمه وإرشاده للزائر أن يقصد نفع الميت والدعاء له والإحسان إليه، لا الدعاء به ولا الدعاء عنده. [القاسمي (٧/ ١٦)].

(١) انظر الدر المنثور (٤/ ٣٩٣).

أَيْ: مَشِيئَتَهُ مُعَلِّقًا بِهَا ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ التَّعْلِيقَ بِهَا، وَيَكُونُ ذِكْرُهَا بَعْدَ النِّسْيَانِ كَذِكْرِهَا مَعَ الْقَوْلِ، قَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: مَا دَامَ فِي الْمَجْلِسِ[١] ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ مِنْ خَبَرِ أَهْلِ الْكَهْفِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى نُبُوَّتِي ﴿رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ هِدَايَةً، وَقَدْ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ. ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ بِالتَّنْوِينِ ﴿سِنِينَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ لِـ ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾، وَهَذِهِ السِّنُونَ الثَّلَاثُمِائَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْكَهْفِ شَمْسِيَّةٌ، وَتَزِيدُ الْقَمَرِيَّةُ عَلَيْهَا عِنْدَ الْعَرَبِ تِسْعَ سِنِينَ وَقَدْ ذُكِرَتْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ أَيْ: تِسْعَ سِنِينَ، فَالثَّلَاثُمِائَةِ الشَّمْسِيَّةُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعٌ قَمَرِيَّةٌ. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ مِمَّنِ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: عِلْمُهُ ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ أَيْ: بِاللهِ هِيَ صِيغَةُ تَعَجُّبٍ ﴿وَأَسْمِعْ﴾ بِهِ كَذَلِكَ، بِمَعْنَى: مَا أَبْصَرَهُ وَمَا أَسْمَعَهُ، وَهُمَا عَلَى جِهَةِ الْمَجَازِ[٢]، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغِيبُ عَنْ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ شَيْءٌ ﴿مَا لَهُم﴾ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ نَاصِرٍ ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الشَّرِيكِ. ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ مَلْجَأً. ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احْبِسْهَا ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ﴾ بِعِبَادَتِهِمْ ﴿وَجْهَهُۥ﴾ تَعَالَى لَا شَيْئًا مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، وَهُمُ الْفُقَرَاءُ[٣] ﴿وَلَا تَعْدُ﴾ تَنْصَرِفْ ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ عَبَّرَ بِهِمَا عَنْ صَاحِبِهِمَا ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ، هُوَ عُيَيْنَةُ بْنُ

---

(١) انظر الدر المنثور (٤/ ٣٩٤).

(٢) هذا يسميه النحويون فعل تعجب، فـ ﴿أَبْصِرْ﴾ بمعنى: ما أبصره، و﴿أَسْمِعْ﴾ بمعنى: ما أسمعه، وهو غاية ما يكون من علو هذين الوصفين؛ البصر والسمع، فالله تبارك وتعالى يبصر كل شيء، يبصر دبيب النمل على الصفاة السوداء في ظلمة الليل، يبصر ما لا تدركه أعين الناس مما هو أخفى وأدق، كذلك في السمع يسمع كل شيء، يعلم السر وأخفى من السر، ويعلم الجهر، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. [ابن عثيمين تفسير الكهف (ص:٥٢)].

(٣) أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ... ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام:٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾، عن سعد ابن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾. أخرجه مسلم (٢٤١٣). [ابن كثير (٥/ ١٥٢)].

حِصْنٍ وَأَصْحَابُهُ(١) ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فِي الشِّرْكِ ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ إِسْرَافًا. ﴿وَقُلِ﴾ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ: هَذَا الْقُرْآنُ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أَيِ: الْكَافِرِينَ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ مَا أَحَاطَ بِهَا ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ كَعَكَرِ الزَّيْتِ ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ مِنْ حَرِّهِ إِذَا قُرِّبَ إِلَيْهَا ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ هُوَ ﴿وَسَآءَتْ﴾ أَيِ: النَّارُ ﴿مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ مُتَّكَأً، تَمْيِيزٌ مَنْقُولٌ عَنِ الْفَاعِلِ، أَيْ: قَبُحَ مُرْتَفَقُهَا، وَهُوَ مُقَابِلٌ لِقَوْلِهِ الْآتِي فِي ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وَإِلَّا فَأَيُّ ارْتِفَاقٍ فِي النَّارِ؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ الْجُمْلَةُ خَبَرُ ﴿إِنَّ﴾ وَفِيهَا إِقَامَةُ الظَّاهِرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ، وَالْمَعْنَى: أَجْرُهُمْ، أَيْ: نُثِيبُهُمْ بِمَا تَضَمَّنَهُ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٍ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ قِيلَ: ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ، وَقِيلَ: لِلتَّبْعِيضِ، وَهِيَ: جَمْعُ «أَسْوِرَةٍ» كَأَحْمِرَةٍ جَمْعُ سِوَارٍ ﴿مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ﴾ مَا رَقَّ مِنَ الدِّيبَاجِ ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ مَا غَلُظَ مِنْهُ، وَفِي آيَةِ «الرَّحْمَنِ»: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ [الرحمن: ٥٤] ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ﴾ جَمْعُ «أَرِيكَةٍ»، وَهِيَ: السَّرِيرُ فِي الْحَجَلَةِ(٢) وَهِيَ: بَيْتٌ يُزَيَّنُ بِالثِّيَابِ وَالسُّتُورِ لِلْعَرُوسِ ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الْجَزَاءُ الْجَنَّةُ ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ * ﴿وَٱضْرِبْ﴾ اجْعَلْ ﴿لَهُم﴾ لِلْكُفَّارِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ بَدَلٌ، وَهُوَ وَمَا بَعْدَهُ تَفْسِيرٌ لِلْمَثَلِ ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ الْكَافِرِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بُسْتَانَيْنِ ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ يُقْتَاتُ بِهِ. ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ كِلْتَا مُفْرَدٌ يَدُلُّ عَلَى التَّثْنِيَةِ مُبْتَدَأٌ ﴿ءَاتَتْ﴾ خَبَرُهُ ﴿أُكُلَهَا﴾ ثَمَرَهَا ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾ تَنْقُصْ ﴿مِّنْهُ شَيْـًٔاۚ وَفَجَّرْنَا﴾ أَيْ: شَقَقْنَا ﴿خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾ يَجْرِي بَيْنَهُمَا. ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ مَعَ الْجَنَّتَيْنِ ﴿ثَمَرٌ﴾ بِفَتْحِ الثَّاءِ وَالْمِيمِ، وَبِضَمِّهِمَا، وَبِضَمِّ الْأَوَّلِ وَسُكُونِ الثَّانِي، وَهُوَ جَمْعُ «ثَمَرَةٍ» كَشَجَرَةٍ وَشَجَرٍ، وَخَشَبَةٍ وَخَشَبٍ، وَبَدَنَةٍ وَبَدَنٍ ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ الْمُؤْمِنِ ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يُفَاخِرُهُ ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ عَشِيرَةً. ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ بِصَاحِبِهِ يَطُوفُ بِهِ فِيهَا وَيُرِيهِ أَثْمَارَهَا، وَلَمْ يَقُلْ: «جَنَّتَيْهِ» إِرَادَةً لِلرَّوْضَةِ، وَقِيلَ: اكْتِفَاءً بِالْوَاحِدَةِ ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بِالْكُفْرِ ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ تَنْعَدِمَ ﴿هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ فِي الْآخِرَةِ عَلَى زَعْمِكَ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ مَرْجِعًا. ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يُجَاوِبُهُ ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾

---

(١) سبب هذه الآية أن عظماء الكفار قيل: من أهل مكة، وقيل: عيينة بن حصن وأصحابه، والأول أصوب لأن السورة مكية. [ابن عطية (٣/ ٥١٢)].

(٢) الحجلة بالتحريك: بيت كالقبة يستر بالثياب وتكون له أزرار كبار، وتجمع على حجال. [غريب الحديث لابن الأثير (١/ ٣٤٦)].

لِأَنَّ آدَمَ خُلِقَ مِنْهُ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ عَدَلَكَ وَصَيَّرَكَ ﴿رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠﴾ أَصْلُهُ «لَكِنْ أَنَا» نُقِلَتْ حَرَكَةُ الْهَمْزَةِ إِلَى النُّونِ، أَوْ حُذِفَتِ الْهَمْزَةُ ثُمَّ أُدْغِمَتِ النُّونُ فِي مِثْلِهَا ﴿هُوَ﴾ ضَمِيرُ الشَّأْنِ تُفَسِّرُهُ الْجُمْلَةُ بَعْدَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَا أَقُولُ ﴿ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ عِنْدَ إِعْجَابِكَ بِهَا: هَذَا ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أُعْطِيَ خَيْرًا مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ، فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَمْ يَرَ فِيهِ مَكْرُوهًا»[1]. ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠﴾ ضَمِيرُ فَصْلٍ بَيْنَ الْمَفْعُولَيْنِ ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ جَمْعُ «حُسْبَانَةٍ» أَيْ: صَوَاعِقَ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ أَرْضًا مَلْسَاءَ لَا يَثْبُتُ عَلَيْهَا قَدَمٌ. ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ بِمَعْنَى: غَائِرًا، عَطْفٌ عَلَى ﴿يُرْسِلَ﴾ دُونَ «تُصْبِحَ»؛ لِأَنَّ غَوْرَ الْمَاءِ لَا يَتَسَبَّبُ عَنِ الصَّوَاعِقِ ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ۝٤١﴾ حِيلَةً تُدْرِكُهُ بِهَا. ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ بِأَوْجُهِ الضَّبْطِ السَّابِقَةِ مَعَ جَنَّتِهِ بِالْهَلَاكِ فَهَلَكَتْ[2] ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ نَدَمًا وَتَحَسُّرًا[3] ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ فِي عِمَارَةِ جَنَّتِهِ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ سَاقِطَةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ دَعَائِمِهَا لِلْكَرْمِ، بِأَنْ سَقَطَتْ ثُمَّ سَقَطَ الْكَرْمُ[4] ﴿وَيَقُولُ يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ۝٤٢ وَلَمْ تَكُن﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عِنْدَ هَلَاكِهَا ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۝٤٣﴾ عِنْدَ هَلَاكِهَا بِنَفْسِهِ. ﴿هُنَالِكَ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ: النُّصْرَةُ، وَبِكَسْرِهَا: الْمُلْكُ ﴿لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾ بِالرَّفْعِ: صِفَةُ الْوَلَايَةِ، وَبِالْجَرِّ: صِفَةُ الْجَلَالَةِ ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ مِنْ ثَوَابِ غَيْرِهِ لَوْ كَانَ يُثِيبُ ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِهَا عَاقِبَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَصْبُهُمَا عَلَى

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٩٩٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٥٧)، بلفظ: «مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ فَيَقُولُ: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ. فَيَرَى فِيهِ آفَةً دُونَ الْمَوْتِ» وَكَانَ يَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩].

(٢) أي: أمواله كالنقد والمواشي وهذا راجع لقوله: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ [يوسف: ٦٦] وهي عبارة عن إهلاكه وإفنائه، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل: فوقع ما توقعه المؤمن فهلكت جنته بالصواعق وغور الماء وأحيط بثمره، أي: أحاط العذاب والهلاك بثمره. [الشوكاني (٣/ ٣٤١)].

(٣) يريد: يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى، وذلك فعل المتلهف المتأسف على فائت أو خسارة أو نحوها، ومن عبر بـ «يصفق» فلم يتقن. [ابن عطية (٣/ ٥١٩)].

(٤) الكرم: العنب. [انظر: مجمل اللغة لابن فارس (٣/ ٧٨٢)].

ٱلتَّمْيِيزِ. ﴿وَٱضْرِبْ﴾ صَيِّرْ ﴿لَهُم﴾ لِقَوْمِكَ ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ ﴿كَمَآءٍ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ تَكَاثَفَ بِسَبَبِ نُزُولِ ٱلْمَاءِ ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أَوِ ٱمْتَزَجَ ٱلْمَاءُ بِٱلنَّبَاتِ فَرَوِيَ وَحَسُنَ ﴿فَأَصْبَحَ﴾ صَارَ ٱلنَّبَاتُ ﴿هَشِيمًا﴾ يَابِسًا مُتَفَرِّقَةً أَجْزَاؤُهُ ﴿تَذْرُوهُ﴾ تَنْثُرُهُ وَتُفَرِّقُهُ ﴿ٱلرِّيَٰحُ﴾ فَتَذْهَبُ بِهِ، ٱلْمَعْنَى: شَبَّهَ ٱلدُّنْيَا بِنَبَاتٍ حَسُنَ فَيَبِسَ فَتَكَسَّرَ فَفَرَّقَتْهُ ٱلرِّيَاحُ[1]، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ قَادِرًا. ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُتَجَمَّلُ بِهِمَا فِيهَا ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هِيَ: «سُبْحَانَ ٱللهِ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللهُ وَٱللهُ أَكْبَرُ»، زَادَ بَعْضُهُمْ: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللهِ»[2] ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ أَيْ: مَا يَأْمُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ وَيَرْجُوهُ عِنْدَ ٱللهِ تَعَالَى. ﴿وَ﴾ ٱذْكُرْ ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ يُذْهَبُ بِهَا عَنْ وَجْهِ ٱلْأَرْضِ فَتَصِيرُ هَبَاءً مُنْبَثًّا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِٱلنُّونِ وَكَسْرِ ٱلْيَاءِ وَنَصْبِ ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظَاهِرَةً لَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ جَبَلٍ

---

(١) يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلا، ولمن قام بوراثته بعده تبعا: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيما تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح، أو سيئ أعماله، هنالك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الجازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدري أنك قد مت، ولا بد أن تموتي، فأي: الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل، لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين؟ فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه. [السعدي (ص: ٤٧٨)].

(٢) أي: والأعمال التي تبقى ثمراتها الأخروية، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات، خير عند ربك من المال والبنين، في الجزاء والفائدة وخير مما يتعلق بهما من الأمل. فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية، أمرها إلى الزوال. وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الرباني والنعيم الأبدي، لا يزول ولا يحول ... [و] وقع في كلام السلف تفسير ﴿ٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعتق، وقوله: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» والكلام الطيب، وبغيرهما، مما روي مرفوعا وموقوفا. والمرفوع من ذلك كله لم يُخرج في الصحيحين. وكله على طريق التمثيل. وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفراده. [القاسمي (٧/ ٣٩)].

وَلَا غَيْرِه[1] ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴿فَلَمۡ نُغَادِرۡ﴾ نَتْرُكْ ﴿مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا﴾ حَالٌ، أَيْ: مُصْطَفِّينَ كُلُّ أُمَّةٍ صَفٌّ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ﴾ أَيْ: فُرَادَى «حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا»[2]، وَيُقَالُ لِمُنْكِرِي الْبَعْثِ: ﴿بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَ﴾ نْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ٤٨﴾ لِلْبَعْثِ. ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ كِتَابُ كُلِّ امْرِئٍ فِي يَمِينِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِي شِمَالِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ خَائِفِينَ ﴿مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ﴾ عِنْدَ مُعَايَنَتِهِمْ مَا فِيهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ ﴿يَٰ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿وَيۡلَتَنَا﴾ هَلْكَتَنَا، وَهُوَ مَصْدَرٌ لَا فِعْلَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنْ ذُنُوبِنَا ﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ عَدَّهَا وَأَثْبَتَهَا تَعَجَّبُوا مِنْهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ مُثْبَتًا فِي كِتَابِهِمْ ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ لَا يُعَاقِبُهُ بِغَيْرِ جُرْمٍ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ مُؤْمِنٍ ﴿وَإِذۡ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» ﴿قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ سُجُودَ انْحِنَاءٍ، لَا وَضْعِ جَبْهَةٍ، تَحِيَّةً لَهُ ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ قِيلَ: هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَالِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ،

---

(١) ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من أن يوم القيامة يختل فيه نظام هذا العالم الدنيوي، فتسير جباله، وتبقى أرضه بارزة لا حجر فيها ولا شجر، ولا بناء ولا وادي ولا علم، ذكره في مواضع أخر كثيرة، فذكر أنه يوم القيامة يحمل الأرض والجبال من أماكنهما، ويدكهما دكة واحدة، وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٥]. وما ذكره من تسيير الجبال في هذه الآية الكريمة ذكره أيضا في مواضع أخر، كقوله: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ١٠﴾ [الطور: ٩ - ١٠]، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨]. ثم ذكر في مواضع أخر أنه جل وعلا يفتتها حتى تذهب صلابتها الحجرية وتلين، فتكون في عدم صلابتها ولينها كالعهن المنفوش، وكالرمل المتهايل، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩﴾ [المعارج: ٨ - ٩]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥﴾ [القارعة: ٤ - ٥]، والعهن: الصوف، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾ [المزمل: ١٤]. ثم ذكر جل وعلا أنه يجعلها هباء وسرابا. قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦﴾ [الواقعة: ٥-٦]، وقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾، البروز: الظهور، أي: ترى الأرض ظاهرة منكشفة لذهاب الجبال والظراب والآكام، والشجر والعمارات التي كانت عليها. وهذا المعنى الذي ذكره هنا بينه أيضا في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، وأقوال العلماء في معنى ذلك راجعة إلى شيء واحد، وهو أنها أرض مستوية لا نبات فيها، ولا بناء ولا ارتفاع ولا انحدار. [الشنقيطي (٤/ ١٤٢)].

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

وَقِيلَ: هُوَ مُنْقَطِعٌ وَإِبْلِيسُ هُوَ أَبُو الْجِنِّ، فَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ذُكِرَتْ مَعَهُ بَعْدُ، وَالْمَلَائِكَةُ لَا ذُرِّيَّةَ لَهُمْ[1] ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أَيْ: خَرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ بِتَرْكِ السُّجُودِ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ الْخِطَابُ لِآدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، وَالْهَاءُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِإِبْلِيسَ ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ تُطِيعُونَهُمْ ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوُّۢ﴾ أَيْ: أَعْدَاءٌ، حَالٌ ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ إِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ فِي إِطَاعَتِهِمْ، بَدَلَ إِطَاعَةِ اللهِ. ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ أَيْ: إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتَهُ ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أَيْ: لَمْ أُحْضِرْ بَعْضَهُمْ خَلْقَ بَعْضٍ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ الشَّيَاطِينَ ﴿عَضُدًا ۝٥١﴾ أَعْوَانًا فِي الْخَلْقِ فَكَيْفَ تُطِيعُونَهُمْ. ﴿وَيَوْمَ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ«اذْكُرْ» ﴿يَقُولُ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ﴾ الْأَوْثَانَ ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ لِيَشْفَعُوا لَكُمْ بِزَعْمِكُمْ ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ لَمْ يُجِيبُوهُمْ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بَيْنَ الْأَوْثَانِ وَعَابِدِيهَا ﴿مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾ وَادِيًا مِنْ أَوْدِيَةِ جَهَنَّمَ يَهْلِكُونَ فِيهِ جَمِيعًا، وَهُوَ مِنْ: «وَبَقَ» بِالْفَتْحِ هَلَكَ[2]. ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ أَيْ: أَيْقَنُوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أَيْ: وَاقِعُونَ فِيهَا ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ مَعْدِلًا. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ صِفَةٌ لِمَحْذُوفٍ، أَيْ: مَثَلًا مِنْ جِنْسِ كُلِّ مَثَلٍ لِيَتَّعِظُوا[3] ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أَيِ: الْكَافِرُ

---

(١) قوله في هذه الآية الكريمة، ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، ظاهر في أن سبب فسقه عن أمر ربه كونه من الجن، وقد تقرر في الأصول في مسلك النص وفي مسلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل، كقولهم: سرق فقطعت يده، أي: لأجل سرقته. وكذلك قوله هنا: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ أي: لعلة كينونته من الجن؛ لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة؛ لأنهم امتثلوا الأمر وعصا هو؛ ولأجل ظاهر هذه الآية الكريمة ذهبت جماعة من العلماء إلى أن إبليس ليس من الملائكة في الأصل بل من الجن، وأنه كان يتعبد معهم، فأطلق عليه اسمهم لأنه تبع لهم، كالحليف في القبيلة يطلق عليه اسمها. والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل وقد مسخه الله شيطانا، أو ليس في الأصل بملك، وإنما شمله لفظ الملائكة لدخوله فيهم وتعبده معهم مشهور عند أهل العلم. وحجة من قال: إن أصله ليس من الملائكة أمران: أحدهما عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس. كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ... والثاني: أن الله صرح في هذه الآية الكريمة بأنه من الجن، والجن غير الملائكة. قالوا: وهو نص قرآني في محل النزاع. [الشنقيطي (٤/ ١٥٤)].

(٢) ﴿مَّوْبِقًا﴾ أي: مهلكا يشتركون فيه، وهو النار. أو عداوة هي في الشدة نفس الهلاك. كقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا»، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١-٨٢] قال ابن كثير: وأما إن جعل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ عائدا إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]. [القاسمي (٥/ ٢٢٩)].

(٣) يحتمل وجهين: أحدهما: ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني: ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية، وقد تقدم في «سبحان»

﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ خُصومَةً فِي الْبَاطِلِ(١)، وَهُوَ تَمْيِيزٌ مَنْقُولٌ مِنَ اسْمِ «كَانَ»، الْمَعْنَى: وَكَانَ جَدَلُ الْإِنْسَانِ أَكْثَرَ شَيْءٍ فِيهِ. ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ الْقُرْآنُ ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فَاعِلٌ، أَيْ: سُنَّتُنَا فِيهِمْ وَهِيَ الْإِهْلَاكُ الْمُقَدَّرُ عَلَيْهِمْ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ مُقَابَلَةً وَعِيَانًا وَهُوَ الْقَتْلُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمَّتَيْنِ جَمْعُ «قَبِيلٍ» أَيْ: أَنْوَاعًا. ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مُخَوِّفِينَ لِلْكَافِرِينَ ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وَنَحْوِهِ ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ لِيُبْطِلُوا بِجِدَالِهِمْ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ بِهِ مِنَ النَّارِ ﴿هُزُوًا ۝٥٦﴾ سُخْرِيَةً. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ مَا عَمِلَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَغْطِيَةً ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أَيْ: مِنْ أَنْ يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ، أَيْ: فَلَا يَفْهَمُونَهُ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقَلًا فَلَا يَسْمَعُونَهُ ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا﴾ أَيْ: بِالْجَعْلِ الْمَذْكُورِ(٢) ﴿أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ فِيهَا ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾ مَلْجَأً. ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أَيْ: أَهْلُهَا كَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمَا ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ كَفَرُوا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ لِإِهْلَاكِهِمْ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْمِيمِ أَيْ: لِهَلَاكِهِمْ ﴿مَّوْعِدًا ۝٥٩ وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ هُوَ ابْنُ عِمْرَانَ ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، كَانَ يَتْبَعُهُ وَيَخْدُمُهُ وَيَأْخُذُ عَنْهُ الْعِلْمَ: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لَا أَزَالُ أَسِيرُ ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مُلْتَقَى بَحْرِ الرُّومِ وَبَحْرِ فَارِسَ مِمَّا يَلِي الْمَشْرِقَ، أَيِ: الْمَكَانَ الْجَامِعَ لِذَلِكَ(٣) ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ دَهْرًا طَوِيلًا فِي بُلُوغِهِ إِنْ

[سورة الإسراء آية (٨٩)]، فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان. [القرطبي (١١/ ٥)].

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ. قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ». أخرجه مسلم (٢٩٦٩).

(٢) أي: وجعلنا فيها ثقلا يمنعهم من استماعه. والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم، بأنهم مطبوع على قلوبهم. وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. [القاسمي (٧/ ٤٥)].

(٣) مجمع البحرين لا ينبغي أن يختلف في أنه مكان من أرض فلسطين، والأظهر أنه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنه النهر العظيم

بَعْدَ. ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نَسِيَ يُوشَعُ حَمْلَهُ عِنْدَ الرَّحِيلِ، وَنَسِيَ مُوسَى تَذْكِيرُهُ ﴿فَاتَّخَذَ﴾ الْحُوتُ ﴿سَبِيلَهُۥ فِى الْبَحْرِ﴾ أَيْ: جَعَلَهُ بِجَعْلِ اللهِ ﴿سَرَبًا ۝٦١﴾ أَيْ: مِثْلَ السَّرَبِ، وَهُوَ: الشَّقُّ الطَّوِيلُ لَا نَفَاذَ لَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمْسَكَ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَ الْمَاءِ، فَانْجَابَ عَنْهُ فَبَقِيَ كَالْكُوَّةِ لَمْ يَلْتَئِمْ، وَجَمَدَ مَا تَحْتَهُ مِنْهُ[1] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذَلِكَ الْمَكَانَ، بِالسَّيْرِ إِلَى وَقْتِ الْغَدَاءِ مِنْ ثَانِي يَوْمٍ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ هُوَ مَا يُؤْكَلُ أَوَّلَ النَّهَارِ ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢﴾ تَعَبًا، وَحُصُولُهُ بَعْدَ الْمُجَاوَزَةِ. ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ﴾ أَيْ: تَنَبَّهْ ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ بِذَلِكَ الْمَكَانِ ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا الشَّيْطَٰنُ﴾ يُبْدَلُ مِنَ «الْهَاءِ»: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، أَيْ: أَنْسَانِي ذِكْرَهُ ﴿وَاتَّخَذَ﴾ الْحُوتُ ﴿سَبِيلَهُۥ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا ۝٦٣﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ، أَيْ: يَتَعَجَّبُ مِنْهُ مُوسَى وَفَتَاهُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي بَيَانِهِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: فَقْدُنَا الْحُوتَ ﴿مَا﴾ أَيِ: الَّذِي ﴿كُنَّا نَبْغِ﴾ نَطْلُبُهُ، فَإِنَّهُ عَلَامَةٌ لَنَا عَلَى وُجُودِ مَنْ نَطْلُبُهُ ﴿فَارْتَدَّا﴾ رَجَعَا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ يَقُصَّانِهَا ﴿قَصَصًا ۝٦٤﴾. فَأَتَيَا الصَّخْرَةَ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ هُوَ الْخَضِرُ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ نُبُوَّةً فِي قَوْلٍ، وَوَلَايَةً فِي آخَرَ، وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ[2] ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ مِنْ قِبَلِنَا ﴿عِلْمًا ۝٦٥﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ، أَيْ: مَعْلُومًا مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ حَدِيثَ: «أَنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ

الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه، وكانت تسمى عند الإسرائيليين بحر الجليل، فإن موسى عليه السلام بلغ إليه بعد مسير يوم وليلة راجلا؛ فعلمنا أنه لم يكن مكانا بعيدا جدا، وأراد موسى أن يبلغ ذلك المكان؛ لأن الله أوحى إليه أن يجد فيه العبد الذي هو أعلم منه فجعله ميقاتا له. ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنه يعلم علوما من معاملة الناس لم يعلمها الله لموسى، فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم، وهو تفاوت نسبي. [ابن عاشور (١٥/ ٣٦٢)].

(١) أي: اتخذ الحوت سبيلا سربا، وهو النفق الذي يكون في الأرض للضب ونحوه من الحيوانات. قال سعيد بن جبير: أثره يابس في البحر كأنه في جحر، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق، فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقائه وانجباب الماء عنه بالسرب الذي هو الكوة المحفورة في الأرض. [صديق حسن (٨/ ٧٦)].

(٢) هل هو من العباد الصالحين؟ أو من الأولياء الذين لهم كرامات؟ أو من الأنبياء؟ أو من الرسل؟ كل ذلك ممكن، لكن النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كرامات؛ ليتبين بذلك أن موسى لا يحيط بكل شيء علمًا، وأنه يفوته من العلم شيء كثير. [ابن عثيمين تفسير الكهف (ص:١١٢)].

حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَوَضَعَا رَأْسَيْهِمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنِ الْحُوتِ جَرْيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا حَتَّى إِذَا كَانَا مِنَ الْغَدَاةِ، قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قَالَ: وَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا»[1] إِلَى آخِرِهِ. **﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾** أَيْ: صَوَابًا أَرْشَدُ بِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِ الشِّينِ، وَسَأَلَهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْعِلْمِ مَطْلُوبَةٌ **﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾** فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ عَقِبَ هَذِهِ الْآيَةِ: «يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ»، وَقَوْلُهُ: ﴿خُبْرًا﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: لَمْ تُحِطْ، أَيْ: لَمْ تُخْبَرْ حَقِيقَتَهُ. **﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى﴾** أَيْ: وَغَيْرَ عَاصٍ **﴿لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾** تَأْمُرُنِي بِهِ، وَقَيَّدَ بِالْمَشِيئَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ نَفْسِهِ فِيمَا الْتَزَمَ، وَهَذِهِ عَادَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ أَنْ لَا يَثِقُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ[2]. **﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى﴾** وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ **﴿عَن شَىْءٍ﴾** تُنْكِرُهُ مِنِّي فِي عِلْمِكَ وَاصْبِرْ **﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾** أَيْ: أَذْكُرُهُ لَكَ بِعِلَّتِهِ، فَقَبِلَ مُوسَى شَرْطَهُ رِعَايَةً لِأَدَبِ الْمُتَعَلِّمِ مَعَ الْعَالِمِ. **﴿فَٱنطَلَقَا﴾** يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾** الَّتِي مَرَّتْ بِهِمَا **﴿خَرَقَهَا﴾** الْخَضِرُ بِأَنِ اقْتَلَعَ لَوْحًا أَوْ لَوْحَيْنِ مِنْهَا مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ بِفَأْسٍ، لَمَّا بَلَغَتِ اللُّجَّ **﴿قَالَ﴾** لَهُ مُوسَى: **﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾** وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ التَّحْتَانِيَّةِ وَالرَّاءِ وَرَفْعِ ﴿أَهْلُهَا﴾ **﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾** أَيْ: عَظِيمًا مُنْكَرًا، رُوِيَ أَنَّ الْمَاءَ لَمْ يَدْخُلْهَا. **﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾** أَيْ: غَفَلْتُ عَنِ التَّسْلِيمِ لَكَ وَتَرْكِ الْإِنْكَارِ عَلَيْكَ **﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾** تُكَلِّفْنِي **﴿مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾** مَشَقَّةً فِي صُحْبَتِي إِيَّاكَ، أَيْ: عَامِلْنِي فِيهَا بِالْعَفْوِ وَالْيُسْرِ. **﴿فَٱنطَلَقَا﴾** بَعْدَ خُرُوجِهِمَا مِنَ السَّفِينَةِ يَمْشِيَانِ **﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾** لَمْ يَبْلُغِ الْحِنْثَ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ أَحْسَنُهُمْ وَجْهًا **﴿فَقَتَلَهُۥ﴾** الْخَضِرُ بِأَنْ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ مُضْطَجِعًا، أَوِ اقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، أَوْ ضَرَبَ رَأْسَهُ بِالْجِدَارِ أَقْوَالٌ، وَأَتَى هُنَا بِالْفَاءِ الْعَاطِفَةِ لِأَنَّ الْقَتْلَ عَقِبَ اللُّقِيِّ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٦)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) التقييد بقوله: «إن شاء الله» شامل للصبر ونفي المعصية، وقيل: أن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر لأنه أمر مستقبل لا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه في الحال، ويجاب عنه بأن الصبر ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزومًا عليه في الحال وفي كون كل واحد منهما لا يدرى كيف حاله فيه في المستقبل. [صديق حسن (٨/ ٨٢)].

وَجَوابُ ﴿إِذَا﴾: ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أَيْ: طَاهِرَةً لَمْ تَبْلُغْ حَدَّ التَّكْلِيفِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿زَكِيَّةً﴾ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ بِلَا أَلِفٍ ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أَيْ: لَمْ تَقْتُلْ نَفْسًا ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ بِسُكُونِ الْكَافِ وَضَمِّهَا، أَيْ: مُنْكَرًا. ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ زَادَ ﴿لَّكَ﴾ عَلَى مَا قَبْلَهُ لِعَدَمِ الْعُذْرِ هُنَا. وَلِهَذَا ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا﴾ أَيْ: بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ لَا تَتْرُكْنِي أَتْبَعُكَ ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، مِنْ قِبَلِي ﴿عُذْرًا ۝٧٦﴾ فِي مُفَارَقَتِكَ لِي. ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هِيَ أَنْطَاكِيَةُ ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ طَلَبَا مِنْهُمُ الطَّعَامَ ضِيَافَةً ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ ارْتِفَاعُهُ مِائَةُ ذِرَاعٍ ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أَيْ: يَقْرُبُ أَنْ يَسْقُطَ لِمَيَلَانِهِ ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الْخَضِرُ بِيَدِهِ ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لَاتَّخَذْتَ﴾ ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧﴾ جُعْلًا حَيْثُ لَمْ يُضَيِّفُونَا مَعَ حَاجَتِنَا إِلَى الطَّعَامِ. ﴿قَالَ﴾ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ﴾ أَيْ: وَقْتُ فِرَاقِ ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فِيهِ إِضَافَةُ «بَيْنَ» إِلَى غَيْرِ مُتَعَدِّدٍ، سَوَّغَهَا تَكْرِيرُهُ بِالْعَطْفِ بِالْوَاوِ ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ قَبْلَ فِرَاقِي لَكَ ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ عَشَرَةٍ ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ بِهَا مُؤَاجَرَةً لَهَا طَلَبًا لِلْكَسْبِ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ إِذَا رَجَعُوا، أَوْ أَمَامَهُمُ الْآنَ ﴿مَّلِكٌ﴾ كَافِرٌ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صَالِحَةٍ ﴿غَصْبًا ۝٧٩﴾ نَصْبُهُ عَلَى الْمَصْدَرِ الْمُبَيِّنِ لِنَوْعِ الْأَخْذِ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠﴾ فَإِنَّهُ كَمَا فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ: «طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَهُمَا»[1]؛ ذَلِكَ لِمَحَبَّتِهِمَا لَهُ يَتَّبِعَانِهِ فِي ذَلِكَ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أَيْ: صَلَاحًا وَتُقًى ﴿وَأَقْرَبَ﴾ مِنْهُ ﴿رُحْمًا ۝٨١﴾ بِسُكُونِ الْحَاءِ وَضَمِّهَا، أَيْ: رَحْمَةً، وَهِيَ: الْبِرُّ بِوَالِدَيْهِ، فَأَبْدَلَهُمَا تَعَالَى جَارِيَةً تَزَوَّجَتْ نَبِيًّا، فَوَلَدَتْ نَبِيًّا، فَهَدَى اللهُ تَعَالَى بِهِ أُمَّةً. ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ﴾ مَالٌ مَدْفُونٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ﴿لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فَحُفِظَا بِصَلَاحِهِ فِي أَنْفُسِهِمَا وَمَالِهِمَا ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أَيْ: إِينَاسَ رُشْدِهِمَا ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ عَامِلُهُ «أَرَادَ» ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ أَيْ: مَا ذُكِرَ، مِنْ خَرْقِ السَّفِينَةِ وَقَتْلِ الْغُلَامِ وَإِقَامَةِ الْجِدَارِ ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ أَيِ: اخْتِيَارِي، بَلْ بِأَمْرِ إِلْهَامٍ مِنَ اللهِ ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ يُقَالُ: اسْطَاعَ وَاسْتَطَاعَ، بِمَعْنَى: «أَطَاقَ»، فَفِي هَذَا وَمَا قَبْلَهُ جَمْعٌ بَيْنَ اللُّغَتَيْنِ، وَنُوِّعَتِ الْعِبَارَةُ فِي: «فَأَرَدْتُ، فَأَرَدْنَا، فَأَرَادَ» رَبُّكَ. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ ﴿عَن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦١).

﴿ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ اِسْمُهُ اَلْإِسْكَنْدَرُ، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ﴾ سَأَقُصُّ ﴿عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ مِنْ حَالِهِ ﴿ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ خَبَرًا. ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِتَسْهِيلِ اَلسَّيْرِ فِيهَا ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ طَرِيقًا يُوصِلُهُ إِلَى مُرَادِهِ. ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ سَلَكَ طَرِيقًا نَحْوَ اَلْغَرْبِ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ مَوْضِعَ غُرُوبِهَا ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذَاتِ حَمْأَةٍ، وَهِيَ: اَلطِّينُ اَلْأَسْوَدُ، وَغُرُوبُهَا فِي اَلْعَيْنِ: فِي رَأْيِ اَلْعَيْنِ، وَإِلَّا فَهِيَ أَعْظَمُ مِنَ اَلدُّنْيَا ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أَيِ: اَلْعَيْنِ ﴿قَوْمًا﴾ كَافِرِينَ ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ بِإِلْهَامٍ ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ اَلْقَوْمَ بِالْقَتْلِ ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ بِالْأَسْرِ. ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ بِالشِّرْكِ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ نَقْتُلُهُ ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ بِسُكُونِ اَلْكَافِ وَضَمِّهَا، أَيْ: شَدِيدًا فِي اَلنَّارِ. ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَيِ: اَلْجَنَّةُ، وَالْإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَصْبِ ﴿جَزَآءً﴾ وَتَنْوِينِهِ، قَالَ اَلْفَرَّاءُ: نَصْبُهُ عَلَى اَلتَّفْسِيرِ، أَيْ: لِجِهَةِ اَلنِّسْبَةِ ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ أَيْ: نَأْمُرُهُ بِمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ نَحْوَ اَلْمَشْرِقِ[1]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ مَوْضِعَ طُلُوعِهَا ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ هُمُ اَلزَّنْجُ[2] ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ أَيِ: اَلشَّمْسِ ﴿سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ مِنْ لِبَاسٍ وَلَا سَقْفٍ؛ لِأَنَّ أَرْضَهُمْ لَا تَحْمِلُ بِنَاءً، وَلَهُمْ سُرُوبٌ يَغِيبُونَ فِيهَا عِنْدَ طُلُوعِ اَلشَّمْسِ وَيَظْهَرُونَ عِنْدَ اِرْتِفَاعِهَا. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيِ: اَلْأَمْرُ كَمَا قُلْنَا ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ أَيْ: عِنْدَ ذِي اَلْقَرْنَيْنِ مِنَ اَلْآلَاتِ وَالْجُنْدِ وَغَيْرِهِمَا ﴿خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ عِلْمًا. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بِفَتْحِ اَلسِّينِ وَضَمِّهَا هُنَا وَبَعْدُ[3]: جَبَلَانِ بِمُنْقَطَعِ بِلَادِ اَلتُّرْكِ[4]، سَدَّ اَلْإِسْكَنْدَرُ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا سَيَأْتِي ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أَيْ: أَمَامَهُمَا ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ أَيْ: لَا يَفْهَمُونَهُ إِلَّا بَعْدَ بُطْءٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ اَلْيَاءِ وَكَسْرِ

---

(١) دون شمالها وجنوبها؛ لأن الشمال والجنوب ليس محلًّا للسُكْنَى، أقصاه من الشمال وأقصاه من الجنوب كله ثلج، ليس فيه سكان، السكان يتّبعون الشمس من المشرق للمغرب أو من المغرب إلى المشرق. [ابن عثيمين تفسير الكهف (ص:١٢٩)].

(٢) هم على ما قيل: قوم من الزنج، وقيل: من الهنود، وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان. [الآلوسي (٨/ ٣٥٧)]. [والمقصود أنها تطلع على قوم] بدائيين لم تساعدهم الأرض التي يعشيون عليها على التحضر فلذا هم لا يبنون الدور ولا يلبسون الثياب، ولكن يسكنون الكهوف والمغارات والسراديب وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا﴾ أي الشمس ﴿سِتْرًا﴾. [أبو بكر الجزائري (٣/ ٢٨٣)].

(٣) أي: قراءة: ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾ في هذه الآية، و ﴿سُدًّا﴾ في آية (٩٤).

(٤) وقيل: هما بموضع من الأرض لا نعلمه وكم فيها من أرض مجهولة. [الآلوسي (٨/ ٣٥٩)].

اَلْقَافِ. ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ، هُمَا اِسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ لِقَبِيلَتَيْنِ فَلَمْ يَنْصَرِفَا ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالنَّهْبِ وَالْبَغْيِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ إِلَيْنَا ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعْلًا مِنَ الْمَالِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿خَرَاجًا﴾، ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ حَاجِزًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْنَا. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنُونَيْنِ مِنْ غَيْرِ إِدْغَامٍ ﴿فِيهِ رَبِّى﴾ مِنَ الْمَالِ وَغَيْرِهِ ﴿خَيْرٌ﴾ مِنْ خَرْجِكُمُ الَّذِي تَجْعَلُونَهُ لِي فَلَا حَاجَةَ بِي إِلَيْهِ، وَأَجْعَلُ لَكُمُ السَّدَّ تَبَرُّعًا ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ لِمَا أَطْلُبُهُ مِنْكُمْ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ حَاجِزًا حَصِينًا. ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ قِطَعَهُ عَلَى قَدْرِ الْحِجَارَةِ الَّتِي يَبْنِي بِهَا، فَبَنَى بِهَا وَجَعَلَ بَيْنَهَا الْحَطَبَ وَالْفَحْمَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصُّدُفَيْنِ﴾ بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ وَفَتْحِهِمَا وَضَمِّ الْأَوَّلِ وَسُكُونِ الثَّانِي، أَيْ: جَانِبَيِ الْجَبَلَيْنِ بِالْبِنَاءِ وَوَضَعَ الْمَنَافِخَ وَالنَّارَ حَوْلَ ذَلِكَ ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ فَنَفَخُوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أَيِ: الْحَدِيدَ ﴿نَارًا﴾ أَيْ: كَالنَّارِ ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ هُوَ النُّحَاسُ الْمُذَابُ، تَنَازَعَ فِيهِ الْفِعْلَانِ وَحُذِفَ مِنَ الْأَوَّلِ لِإِعْمَالِ الثَّانِي، فَأَفْرَغَ النُّحَاسَ الْمُذَابَ عَلَى الْحَدِيدِ الْمَحْمِيِّ فَدَخَلَ بَيْنَ زُبَرِهِ فَصَارَا شَيْئًا وَاحِدًا ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ أَيْ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ يَعْلُوا ظَهْرَهُ لِارْتِفَاعِهِ وَمَلَاسَتِهِ ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ خَرْقًا، لِصَلَابَتِهِ وَسُمْكِهِ. ﴿قَالَ﴾ ذُو الْقَرْنَيْنِ: ﴿هَٰذَا﴾ أَيِ: السَّدُّ، أَيِ: الْإِقْدَارُ عَلَيْهِ ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ نِعْمَةٌ[1]؛ لِأَنَّهُ مَانِعٌ مِنْ خُرُوجِهِمْ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ بِخُرُوجِهِمُ الْقَرِيبِ مِنَ الْبَعْثِ ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ مَدْكُوكًا مَبْسُوطًا ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى﴾ بِخُرُوجِهِمْ وَغَيْرِهِ ﴿حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ كَائِنًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ ﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ يَخْتَلِطُ بِهِ لِكَثْرَتِهِمْ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أَيِ: الْقَرْنِ لِلْبَعْثِ ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾ أَيِ: الْخَلَائِقَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا﴾ قَرَّبْنَا ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ «الْكَافِرِينَ» ﴿فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ، فَهُمْ عُمْيٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهِ ﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ أَيْ: لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنَ النَّبِيِّ مَا يَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ؛ بُغْضًا لَهُ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾ أَيْ: مَلَائِكَتِي وَعِيسَى وَعُزَيْرًا ﴿مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أَرْبَابًا، مَفْعُولٌ ثَانٍ لِـ ﴿يَتَّخِذُوا﴾، وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي لِـ ﴿أَفَحَسِبَ﴾ مَحْذُوفٌ، الْمَعْنَى: أَظَنُّوا أَنَّ الِاتِّخَاذَ الْمَذْكُورَ لَا

---

(١) فلما فعل هذا الفعل الجميل ... أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله ... بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشرا وبطرا. كما قال قارون لما آتاه الله قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]. [السعدي (ص:٤٨٦)].

يُغْضِبُنِي وَلَا أُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ؟ كَلَّا ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ ﴿نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ أَيْ: هِيَ مُعَدَّةٌ لَهُمْ كَالْمَنْزِلِ الْمُعَدِّ لِلضَّيْفِ. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ تَمْيِيزٌ طَابَقَ الْمُمَيَّزَ. وَبَيَّنَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بَطَلَ عَمَلُهُمْ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ يَظُنُّونَ ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ عَمَلًا يُجَازَوْنَ عَلَيْهِ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بِدَلَائِلِ تَوْحِيدِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ أَيْ: وَبِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بَطَلَتْ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ أَيْ: لَا نَجْعَلُ لَهُمْ قَدْرًا. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: الْأَمْرُ الَّذِي ذَكَرْتُ مِنْ حُبُوطِ أَعْمَالِهِمْ وَغَيْرِهِ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ أَيْ: مَهْزُوءًا بِهِمَا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ﴾ فِي عِلْمِ اللهِ ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ هُوَ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا، وَالْإِضَافَةُ إِلَيْهِ لِلْبَيَانِ ﴿نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ مَنْزِلًا. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ﴾ يَطْلُبُونَ ﴿عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ تَحَوُّلًا إِلَى غَيْرِهَا. ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ أَيْ: مَاؤُهُ ﴿مِدَادًا﴾ هُوَ مَا يُكْتَبُ بِهِ ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الدَّالَّةِ عَلَى حِكَمِهِ وَعَجَائِبِهِ بِأَنْ تُكْتَبَ بِهِ ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ فِي كِتَابَتِهَا ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، تَفْرُغَ ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ أَيِ: الْبَحْرِ ﴿مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ زِيَادَةً فِيهِ لَنَفِدَ وَلَمْ تَفْرُغْ هِيَ(١)، وَنَصْبُهُ عَلَى التَّمْيِيزِ. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ آدَمِيٌّ ﴿مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ «أَنَّ» الْمَكْفُوفَةُ بِـ «مَا» بَاقِيَةٌ عَلَى مَصْدَرِيَّتِهَا، وَالْمَعْنَى: يُوحَى إِلَيَّ وَحْدَانِيَّةُ الْإِلَهِ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾ يَأْمُلُ ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ أَيْ: فِيهَا بِأَنْ يُرَائِيَ(٢) ﴿أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾(٣).

---

(١) وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة منقضية منتهية، وأما كلام الله، فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأي سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك. [السعدي (ص:٤٨٨)].

(٢) قال الماوردي: قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية إن المعنى لا يرائي بعمله أحداً. وأقول إن دخول الشرك الجلي الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء. ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية. [الشوكاني (٣/ ٣٧٥)].

(٣) المقبول [من الأعمال] ما كان لله خالصا وللسنة موافقا، والمردود ما فقد منه الوصفان أو أحدهما ... قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه، فسئل عن معنى ذلك، فقال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾. [أعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ٥١٦)].

سُورَةُ مَرِيَمَ

مَكِّيَّةٌ أَوْ إِلَّا سَجْدَتُهَا فَمَدَنِيَّةٌ، أَوْ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ اَلْآيَتَيْنِ فَمَدَنِيَّتَانِ، وَهِيَ ثَمَانٌ أَوْ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾ اَللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[١]. هَذَا ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ﴾ مَفْعُولُ ﴿رَحۡمَتِ﴾ ﴿زَكَرِيَّآ ②﴾ بَيَانٌ لَهُ[٢]. ﴿إِذۡ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿رَحۡمَتِ﴾ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً﴾ مُشْتَمِلًا عَلَى دُعَاءٍ ﴿خَفِيّٗا ③﴾ سِرًّا جَوْفَ اَللَّيْلِ؛ لِأَنَّهُ أَسْرَعُ لِلْإِجَابَةِ[٣]. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ﴾ ضَعُفَ ﴿ٱلۡعَظۡمُ﴾ جَمِيعُهُ[٤] ﴿مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ﴾ مِنِّي ﴿شَيۡبٗا﴾ تَمْيِيزٌ مُحَوَّلٌ عَنِ اَلْفَاعِلِ، أَيِ: اِنْتَشَرَ اَلشَّيْبُ فِي شَعْرِي كَمَا يَنْتَشِرُ شُعَاعُ اَلنَّارِ فِي اَلْحَطَبِ[٥]، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوكَ ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ أَيْ: بِدُعَائِي إِيَّاكَ ﴿رَبِّ شَقِيّٗا ④﴾ أَيْ: خَائِبًا فِيمَا مَضَى، فَلَا تُخَيِّبْنِي فِيمَا يَأْتِي. ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾ أَيِ: اَلَّذِينَ يَلُونِي فِي اَلنَّسَبِ كَبَنِي اَلْعَمِّ ﴿مِن وَرَآءِي﴾ أَيْ: بَعْدَ مَوْتِي عَلَى اَلدِّينِ أَنْ يُضَيِّعُوهُ، كَمَا شَاهَدْتُهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ تَبْدِيلِ اَلدِّينِ ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ لَا تَلِدُ ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ مِنْ عِنْدِكَ ﴿وَلِيّٗا ⑤﴾ اِبْنًا. ﴿يَرِثُنِي﴾ بِالْجَزْمِ جَوَابُ اَلْأَمْرِ، وَبِالرَّفْعِ صِفَةُ وَلِيًّا ﴿وَيَرِثُ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ ﴿مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾ جَدِّي، اَلْعِلْمَ وَالنُّبُوَّةَ[٦] ﴿وَٱجۡعَلۡهُ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) وصفه بالعبودية تشريفاً له، وإعلاماً له بتخصيصه وتقريبه، ونصب عبده على أنه مفعول لرحمة، فإنها مصدر أضيف إلى الفاعل، ونصب المفعول، وقيل: هو مفعول بفعل مضمر، تقديره: رحمة عبده، وعلى هذا يوقف على ما قبله وهذا ضعيف، وفيه تكلف الإضمار من غير حاجة إليه، وقطع العامل عن العمل بعد تهيئته له. [ابن جُزَيّ (١/ ٤٧٧)].

(٣) لأن الإخفاء والجهر عند الله سيان، والإخفاء أشد إخباتا وأكثر إخلاصا، أو لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبر، أو لئلا يطلع عليه مواليه الذين خافهم، أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته. [البيضاوي (٤/ ٥)].

(٤) ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما في الإنسان وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحد العظم قصداً إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام. [القرطبي (١١/ ٧٦)].

(٥) الاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية بأن حذف المشبه به، وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها. قال الزجاج: يقال للشيب إذا كثر جداً. قد اشتعل رأس فلان. [الشوكاني (٣/ ٣٧٩)].

(٦) اختلفوا في هذا الإرث؛ قال الحسن: معناه يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة. وقيل: أراد ميراث النبوة والعلم. وقيل: أراد

﴿رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ أَيْ: مَرْضِيًّا عِنْدَكَ. قَالَ تَعَالَى فِي إِجَابَةِ طَلَبِهِ الِابْنَ الْحَاصِلِ بِهِ رَحْمَتَهُ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ يَرِثُ كَمَا سَأَلْتَ ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ أَيْ: مُسَمًّى بِيَحْيَى(١). ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ كَيْفَ ﴿يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عُتِيًّا ۝٨﴾ مِنْ «عَتَا» يَبِسَ، أَيْ: نِهَايَةَ السِّنِّ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَبَلَغَتِ امْرَأَتُهُ ثَمَانِيَ وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَأَصْلُ عِتِيٍّ: «عُتُوٌّ»، وَكُسِرَتِ التَّاءُ تَخْفِيفًا، وَقُلِبَتِ الْوَاوُ الْأُولَى يَاءً لِمُنَاسَبَةِ الْكَسْرَةِ، وَالثَّانِيَةُ يَاءً لِتُدْغَمَ فِيهَا الْيَاءُ. ﴿قَالَ﴾: الْأَمْرُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِنْ خَلْقِ غُلَامٍ مِنْكُمَا ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ أَيْ: بِأَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ قُوَّةَ الْجِمَاعِ، وَأَفْتُقَ رَحِمَ امْرَأَتِكَ لِلْعُلُوقِ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ قَبْلَ خَلْقِكَ. وَلِإِظْهَارِ اللهِ هَذِهِ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ أَلْهَمَهُ السُّؤَالَ لِيُجَابَ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا. وَلَمَّا تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى سُرْعَةِ الْمُبَشَّرِ بِهِ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أَيْ: عَلَامَةً عَلَى حَمْلِ امْرَأَتِي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ عَلَيْهِ ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أَيْ: تَمْتَنِعَ مِنْ كَلَامِهِمْ بِخِلَافِ ذِكْرِ اللهِ ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ أَيْ: بِأَيَّامِهَا كَمَا فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿سَوِيًّا ۝١٠﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿تُكَلِّمَ﴾، أَيْ: بِلَا عِلَّةٍ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أَيِ: الْمَسْجِدِ، وَكَانُوا يَنْتَظِرُونَ فَتْحَهُ لِيُصَلُّوا فِيهِ بِأَمْرِهِ عَلَى الْعَادَةِ ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أَشَارَ ﴿إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟﴾ صَلُّوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ أَوَائِلَ النَّهَارِ وَأَوَاخِرَهُ عَلَى الْعَادَةِ، فَعَلِمَ بِمَنْعِهِ مِنْ كَلَامِهِمْ حَمْلَهَا بِيَحْيَى وَبَعْدَ وِلَادَتِهِ بِسَنَتَيْنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾

إرث الحبورة، لأن زكريا كان رأس الأحبار. [البغوي (٥/ ٢١٩)]. [فزكريا] خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة، وأجل قدرا من أن يشفق على ماله ... هذا وجه. والوجه الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. والوجه الثالث: أنه قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ». أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩). وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورَثُ». أخرجه الترمذي (١٦١٠). وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في النبوة، إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك. [ابن كثير (٥/ ٢١٢)].

(١) فعيل بمعنى مفعول، أي: مسمى يحيى، قال أكثر المفسرين: معناه لم نسم أحداً قبله يحيى. وقال مجاهد وابن عباس وجماعة: معناه أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السمو، ورد هذا بأنه يقتضي تفضيله على إبراهيم وموسى. وقيل: معناه لم تلد عاقر مثله، والأول أولى. وفي إخباره سبحانه بأنه لم يُسم بهذا الاسم قبله أحداً فضيلة له من جهتين. الأولى: أن الله سبحانه هو الذي تولى تسميته به ولم يكلها إلى الأبوين، وسماه بخصوص يحيى لأنه به حيي رحم أمه بعد موته بالعقم، والجهة الثانية: أن تسميته باسم لم يوضع لغيره تفيد تشريفه وتعظيمه. [صديق حسن (٨/ ١٣٨)].

أَي: اَلتَّوْرَاةَ ﴿بِقُوَّةٍۖ﴾ بِجِدٍّ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ اَلنُّبُوَّةَ(١) ﴿صَبِيًّا ١٢﴾ اِبْنَ ثَلَاثِ سِنِينَ(٢). ﴿وَحَنَانًا﴾ رَحْمَةً لِلنَّاسِ ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ مِنْ عِنْدِنَا ﴿وَزَكَوٰةًۖ﴾ صَدَقَةً عَلَيْهِمْ ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ١٣﴾ رُوِيَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً وَلَمْ يَهِمَّ بِهَا. ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أَيْ: مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ مُتَكَبِّرًا ﴿عَصِيًّا ١٤﴾ عَاصِيًا لِرَبِّهِ. ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ مِنَّا ﴿عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥﴾ أَيْ: فِي هَذِهِ اَلْأَيَّامِ اَلْمَخُوفَةِ اَلَّتِي يَرَى فِيهَا مَا لَمْ يَرَهُ قَبْلَهَا، فَهُوَ آمِنٌ فِيهَا. ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿مَرْيَمَ﴾ أَيْ: خَبَرَهَا ﴿إِذِ﴾ حِينَ ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٦﴾ أَي: اِعْتَزَلَتْ فِي مَكَانٍ نَحْوَ اَلشَّرْقِ مِنَ اَلدَّارِ. ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَرْسَلَتْ سِتْرًا تَسْتَتِرُ بِهِ، لِتُفَلِّيَ رَأْسَهَا أَوْ ثِيَابَهَا أَوْ تَغْتَسِلَ مِنْ حَيْضِهَا ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جِبْرِيلَ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ بَعْدَ لُبْسِهَا ثِيَابَهَا ﴿بَشَرًا سَوِيًّا ١٧﴾ تَامَّ اَلْخَلْقِ. ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ١٨﴾ فَتَنْتَهِي عَنِّي بِتَعَوُّذِي. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ بِالنُّبُوَّةِ. ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ بِتَزَوُّجٍ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٠﴾ زَانِيَةً. ﴿قَالَ﴾ اَلْأَمْرُ ﴿كَذَٰلِكِ﴾ مِنْ خَلْقِ غُلَامٍ مِنْكِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌۖ﴾ أَيْ: بِأَنْ يَنْفُخَ بِأَمْرِي جِبْرِيلُ فِيكِ فَتَحْمِلِي بِهِ، وَلِكَوْنِ مَا ذُكِرَ فِي مَعْنَى اَلْعِلَّةِ، عَطَفَ عَلَيْهِ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾ لِمَنْ آمَنَ بِهِ ﴿وَكَانَ﴾ خَلْقُهُ ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٢١﴾ بِهِ فِي عِلْمِي. فَنَفَخَ جِبْرِيلُ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا فَأَحَسَّتْ بِالْحَمْلِ فِي بَطْنِهَا مُصَوَّرًا ﴿۞فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ﴾ تَنَحَّتْ ﴿بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢﴾ بَعِيدًا مِنْ أَهْلِهَا. ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ جَاءَ بِهَا ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وَجَعُ اَلْوِلَادَةِ ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لِتَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فَوَلَدَتْ، وَالْحَمْلُ وَالتَّصْوِيرُ وَالْوِلَادَةُ فِي سَاعَةٍ(٣) ﴿قَالَتْ يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ اَلْأَمْرِ ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ٢٣﴾ شَيْئًا مَتْرُوكًا لَا يُعْرَفُ وَلَا يُذْكَرُ. ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾

---

(١) أي: أعطيناه الحكم، وللعلماء في المراد بالحكم أقوال متقاربة، مرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الله أعطاه الفهم في الكتاب، أي: إدراك ما فيه والعمل به في حال كونه صبيا. [الشنقيطي (٤/ ٢٨٦)].

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعطي الفهم، والعبادة، وهو ابن سبع سنين. [الدر المنثور (٥/ ٤٨٤)].

(٣) اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. [وعن] ابن عباس وسئل عن حبل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت. وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ... ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۚ﴾ [الحج: ٦٣] فالمشهور الظاهر والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن. [ابن كثير (٥/ ٢٢٢)].

أَي :جِبْرِيلُ، وَكَانَ أَسْفَلَ مِنْهَا ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ نَهَرَ مَاءٍ كَانَ قَدِ انْقَطَعَ. ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ كَانَتْ يَابِسَةً وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ ﴿تُسَاقِطْ﴾ أَصْلُهُ بِتَاءَيْنِ قُلِبَتِ الثَّانِيَةُ سِينًا وَأُدْغِمَتْ فِي السِّينِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: تَرْكُهَا[1] ﴿عَلَيْكِ رُطَبًا﴾ تَمْيِيزٌ ﴿جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ صِفَتُهُ. ﴿فَكُلِي﴾ مِنَ الرُّطَبِ ﴿وَاشْرَبِي﴾ مِنَ السَّرِيِّ ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بِالْوَلَدِ، تَمْيِيزٌ مُحَوَّلٌ مِنَ الْفَاعِلِ، أَيْ: لِتَقَرَّ عَيْنُكِ بِهِ، أَيْ: تَسْكُنُ فَلَا تَطْمَحُ إِلَى غَيْرِهِ ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الزَّائِدَةِ ﴿تَرَيِنَّ﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ لَامُ الْفِعْلِ وَعَيْنُهُ وَأُلْقِيَتْ حَرَكَتُهَا عَلَى الرَّاءِ، وَكُسِرَتْ يَاءُ الضَّمِيرِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فَيَسْأَلُكِ عَنْ وَلَدِكِ ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أَيْ: إِمْسَاكًا عَنِ الْكَلَامِ فِي شَأْنِهِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنَاسِيِّ بِدَلِيلِ ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ أَيْ: بَعْدَ ذَلِكَ. ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ حَالٌ، فَرَأَوْهُ ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ عَظِيمًا حَيْثُ أَتَيْتِ بِوَلَدٍ مِنْ غَيْرِ أَبٍ. ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ هُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ، أَيْ: يَا شَبِيهَتَهُ فِي الْعِفَّةِ ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ أَيْ: زَانِيًا ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ أَيْ: زَانِيَةً، فَمِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا الْوَلَدُ؟ ﴿فَأَشَارَتْ﴾ لَهُمْ ﴿إِلَيْهِ﴾ أَنْ كَلِّمُوهُ ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ﴾ أَيْ: وُجِدَ ﴿فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أَيِ: الْإِنْجِيلَ ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أَيْ: نَفَّاعًا لِلنَّاسِ، إِخْبَارٌ بِمَا كُتِبَ لَهُ ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ أَمَرَنِي بِهِمَا ﴿وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ مَنْصُوبٌ بِـ﴿جَعَلَنِي﴾ مُقَدَّرًا ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ مُتَعَاظِمًا ﴿شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ عَاصِيًا لِرَبِّهِ. ﴿وَالسَّلَامُ﴾ مِنَ اللهِ ﴿عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ يُقَالُ فِيهِ مَا تَقَدَّمَ فِي السَّيِّدِ يَحْيَى[2]. قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ الْحَقِّ﴾ بِالرَّفْعِ: خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: قَوْلُ ابْنِ مَرْيَمَ، وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرِ: «قُلْتُ»، وَالْمَعْنَى: الْقَوْلُ الْحَقُّ ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ مِنَ الْمِرْيَةِ، أَيْ: يَشُكُّونَ، وَهُمُ النَّصَارَى، قَالُوا: إِنَّ عِيسَى ابْنُ اللهِ. كَذَبُوا ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ ذَلِكَ ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أَيْ: أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

---

(١) أي: ترك التاء المقلوبة سيناً.

(٢) أي: ما ذكر في الآية (١٥). وقوله: «السَّيِّدِ يَحْيَى»، في إطلاق لفظ «السيد» مطلقا بدون اضافة حديث عن مطرف، قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ: فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السَّيِّدُ اللهُ»، قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: «قُولُوا بِقَولِكُم أو بَعضِ قَولِكُم، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ». أخرجه أبو داود (٤٨٠٦). في هذا الحديث لم ينههم ﷺ عن قولهم: «أنت سيدنا»، بل أذن لهم بذلك، فقال: «قُولُوا بِقَولِكُم أَو بَعضِ قَولِكُم» لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة؛ لأن «سيدنا» سيادة خاصة مضافة، و «السيد» سيادة عامة مطلقة غير مضافة. [القول المفيد لابن عثيمين (٢/ ٥١٥)].

﴿٣٥﴾ بِالرَّفْعِ بِتَقْدِيرِ: «هُوَ»، وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرِ: «أَنْ»، وَمِنْ ذَلِكَ خَلْقُ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بِفَتْحِ ﴿أَنَّ﴾ بِتَقْدِيرِ: «اُذْكُرْ»، وَبِكَسْرِهَا بِتَقْدِيرِ: «قُلْ»، بِدَلِيلِ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ﴿هَٰذَا﴾ اَلْمَذْكُورُ ﴿صِرَٰطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ مُؤَدٍّ إِلَى اَلْجَنَّةِ. ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أَيِ: اَلنَّصَارَى، فِي عِيسَى أَهُوَ اِبْنُ اَللهِ، أَوْ إِلَهٌ مَعَهُ، أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ[1] ﴿فَوَيْلٌ﴾ فَشِدَّةُ عَذَابٍ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِمَا ذُكِرَ أَوْغَيْرِهِ ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ أَيْ: حُضُورِ يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ بِهِمْ، صِيغَتَا تَعَجُّبٍ بِمَعْنَى: مَا أَسْمَعَهُمْ، وَمَا أَبْصَرَهُمْ ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ فِي اَلْآخِرَةِ ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مِنْ إِقَامَةِ اَلظَّاهِرِ مَقَامَ اَلْمُضْمَرِ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أَيْ: فِي اَلدُّنْيَا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أَيْ: بَيِّنٍ بِهِ صُمُّوا عَنْ سَمَاعِ اَلْحَقِّ وَعَمُوا عَنْ إِبْصَارِهِ، أَيِ: اِعْجَبْ مِنْهُمْ يَا مُخَاطَبُ فِي سَمْعِهِمْ وَإِبْصَارِهِمْ فِي اَلْآخِرَةِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي اَلدُّنْيَا صُمًّا عُمْيًا. ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ خَوِّفْ يَا مُحَمَّدُ كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ هُوَ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ يَتَحَسَّرُ فِيهِ اَلْمُسِيءُ عَلَى تَرْكِ اَلْإِحْسَانِ فِي اَلدُّنْيَا ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ لَهُمْ فِيهِ بِالْعَذَابِ ﴿وَهُمْ﴾ فِي اَلدُّنْيَا ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ عَنْهُ ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بِهِ. ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ مِنَ اَلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ فِيهِ لِلْجَزَاءِ. ﴿وَٱذْكُرْ﴾ لَهُمْ ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أَيْ: خَبَرَهُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ مُبَالِغًا فِي اَلصِّدْقِ ﴿نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ وَيُبْدَلُ مِنْ «خَبَرِهِ». ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزَرَ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ «اَلتَّاءُ» عِوَضٌ عَنْ «يَاءِ» اَلْإِضَافَةِ، وَلَا يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا، وَكَانَ يَعْبُدُ اَلْأَصْنَامَ ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ﴾ لَا يَكْفِيكَ ﴿شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ. ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا﴾ طَرِيقًا ﴿سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ مُسْتَقِيمًا. ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ بِطَاعَتِكَ إِيَّاهُ فِي عِبَادَةِ اَلْأَصْنَامِ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ كَثِيرَ اَلْعِصْيَانِ. ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إِنْ لَمْ تَتُبْ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ نَاصِرًا وَقَرِينًا فِي اَلنَّارِ. ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فَتَعِيبُهَا ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عَنِ اَلتَّعَرُّضِ لَهَا ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بِالْحِجَارَةِ أَوْ بِالْكَلَامِ اَلْقَبِيحِ، فَاحْذَرْنِي ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ دَهْرًا طَوِيلًا. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ مِنِّي، أَيْ: لَا أُصِيبُكَ بِمَكْرُوهٍ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا

(١) أي: اختلف قول أهل الكتاب في عيسى، بعد بيان أمره ووضوح حاله. وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر. وانقسمت النصارى في أمره انقساما يفوت الحصر. وكله ضلال وشرك وكفر. وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه. وهذا من فضله تعالى ومنه. [القاسمي (٧/ ٩٧)].

﴿٤٧﴾ مِنْ حَفِي، أَيْ: بَارًّا فَيُجِيبُ دُعَائِي، وَقَدْ أَوْفَى بِوَعْدِهِ الْمَذْكُورِ فِي الشُّعَرَاءِ: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ [الشعراء: ٨٦]، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي «بَرَاءَة»(١) ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ﴾ أَعْبُدُ ﴿رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾﴾ كَمَا شَقِيتُمْ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ(٢). ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بِأَنْ ذَهَبَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ ابْنَيْنِ يَأْنَسُ بِهِمَا ﴿إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا﴾ مِنْهُمَا ﴿جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم﴾ لِلثَّلَاثَةِ ﴿مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ الْمَالَ وَالْوَلَدَ ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾ رَفِيعًا، هُوَ: الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي جَمِيعِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ(٣). ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا، مِنْ أَخْلَصَ فِي عِبَادَتِهِ، وَأَخْلَصَهُ اللهُ مِنَ الدَّنَسِ ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ بِقَوْلِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ اسْمُ جَبَلٍ ﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أَيِ: الَّذِي يَلِي يَمِينَ مُوسَى حِينَ أَقْبَلَ مِنْ مَدْيَنَ ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾﴾ مُنَاجِيًا، بِأَنْ أَسْمَعَهُ اللهُ تَعَالَى كَلَامَهُ(٤) ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ﴾ نِعْمَتِنَا(٥) ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾﴾ حَالٌ هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالْهِبَةِ، إِجَابَةً لِسُؤَالِهِ أَنْ يُرْسِلَ أَخَاهُ مَعَهُ، وَكَانَ أَسَنَّ مِنْهُ. ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ لَمْ يَعِدْ شَيْئًا إِلَّا وَفَى بِهِ، وَانْتَظَرَ مَنْ وَعَدَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ حَوْلًا حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ فِي مَكَانِهِ(٦) ﴿وَكَانَ رَسُولٗا﴾ إِلَى جُرْهُمٍ ﴿نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ أَيْ: قَوْمَهُ ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ

---

(١) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤].

(٢) فيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم، مع التواضع لله بكلمة «عسى» وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى. [القاسمي (٧/ ١٠٢)].

(٣) أي: الثناء الحسن قاله ابن عباس، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به، كما عبر باليد عن العطية، وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد، ففي اللسان مجاز مرسل من إطلاق اسم الآلة وإرادة ما ينشأ منها. والمعنى: وجعلنا لهم ثناء صادقًا يذكرهم الأمم كلها إلى يوم القيامة، بما لهم من الخصال المرضية، ويصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة، وهذا توبيخ لكفار مكة إذ كان مقتضى ترضيهم وثنائهم على المذكورين أن يتبعوهم في الدين مع أنهم لم يفعلوا. [صديق حسن (٨/ ١٦٨)].

(٤) والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم. [السعدي (ص:٤٩٦)].

(٥) في ﴿مِن﴾ وجهان: أحدهما أنها تعليلية، أي: من أجل رحمتنا، والثاني أنها تبعيضية، أي: بعض رحمتنا. [صديق حسن (٨/ ١٦٩)].

(٦) مما يبين من القرآن شدة صدقه في وعده: أنه وعد أباه بصبره له على ذبحه ثم وفى بهذا الوعد، ومن وفى بوعده في تسليم نفسه للذبح فإن ذلك من أعظم الأدلة على عظيم صدقه في وعده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا

رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ أَصْلُهُ «مَرْضُووٌ» قُلِبَتِ الْوَاوَانِ يَاءَيْنِ وَالضَّمَّةُ كَسْرَةً. ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ هُوَ جَدُّ أَبِي نُوحٍ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ هُوَ حَيٌّ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ أَوِ السَّادِسَةِ أَوِ السَّابِعَةِ، أَوْ فِي الْجَنَّةِ، أُدْخِلَهَا بَعْدَ أَنْ أُذِيقَ الْمَوْتَ وَأُحْيِيَ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا(١). ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ صِفَةٌ لَهُ ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بَيَانٌ لَهُمْ، وَهُوَ فِي مَعْنَى الصِّفَةِ، وَمَا بَعْدَهُ إِلَى جُمْلَةِ الشَّرْطِ صِفَةٌ لِـ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ أَيْ: إِدْرِيسُ ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ فِي السَّفِينَةِ، أَيْ: إِبْرَاهِيمُ ابْنُ ابْنِهِ سَامٍ ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أَيْ: إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ ﴿وَ﴾ مِنْ ذُرِّيَّةِ ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هُوَ يَعْقُوبُ، أَيْ: مُوسَى وَهَارُونُ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴿وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ أَيْ: مِنْ جُمْلَتِهِمْ(٢)، وَخَبَرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ جَمْعُ سَاجِدٍ وَبَاكٍ، أَيْ: فَكُونُوا مِثْلَهُمْ، وَأَصْلُ بُكِيٍّ «بُكُويٌ»(٣) قُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً وَالضَّمَّةُ كَسْرَةً(٤).

﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بِتَرْكِهَا كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى(٥) ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ مِنَ الْمَعَاصِي

تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فهذا وعده. وقد بين تعالى وفاءه به في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ الآية [الصافات: ١٠٣]، والتحقيق أن الذبيح هو إسماعيل. [الشنقيطي (٣/ ٤٣٧)].

(١) قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما وغيرهما: يعني السماء الرابعة. وفي الحديث: «ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾». أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢) واعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصه من الثناء، ثم جمعهم آخراً فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الخ، فرتب تعالى أحوال الأنبياء ... منبهاً بذلك على أنهم كما فضلوا بأعمالهم فلهم منزلة في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء، ثم بين أنهم ﴿مِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ منبهاً بذلك على أنهم خصوا بهذه المنازل لهداية الله لهم، ولأنه اختارهم للرسالة. [صديق حسن (٨/ ١٧٣)].

(٣) على وزن «فُعُول» كـ«قُعُود» جمع قاعد.

(٤) أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعا واستكانة، مع ما لهم من علو الرتبة، وسمو الزلفى عنده تعالى، وفي الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة. قال ابن كثير: أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا، اقتداء بهم، واتباعا لمنوالهم.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ سورة مريم فسجد. وقال: هذا السجود فأين البكي. [القاسمي (٧/ ١٠٥)].

(٥) أي: أخروها عن وقتها، قاله الأكثر، وهو ألا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى يأتي المغرب، وقيل: أضاعوا الوقت، وقيل: كفروا بها وجحدوا وجوبها، وقيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع. وقيل: تركوها كاليهود والنصارى، والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو جحدها

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، أَيْ: يَقَعُونَ فِيهِ[١]. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ[٢] ﴿مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يُنْقَصُونَ ﴿شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ مِنْ ثَوَابِهِمْ. ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٍ، بَدَلٌ مِنَ «الْجَنَّةِ» ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ حَالٌ، أَيْ: غَائِبِينَ عَنْهَا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أَيْ: مَوْعُودُهُ ﴿مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ بِمَعْنَى آتِيًا، وَأَصْلُهُ «مَأْتُويٌ»، أَوْ مَوْعُودُهُ هُنَا الْجَنَّةُ يَأْتِيهِ أَهْلُهُ. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ مِنَ الْكَلَامِ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ يَسْمَعُونَ ﴿سَلَٰمًا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ[٣] ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ أَيْ: عَلَى قَدْرِهِمَا فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ نَهَارٌ وَلَا لَيْلٌ، بَلْ ضَوْءٌ وَنُورٌ أَبَدًا[٤]. ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ نُعْطِي وَنُنْزِلُ ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ بِطَاعَتِهِ. وَنَزَلَ لَمَّا تَأَخَّرَ الْوَحْيُ أَيَّامًا وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»؟[٥]: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أَيْ: أَمَامَنَا مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ مِنْ أُمُورِ

دخولاً أولياً. واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقيل في اليهود وقيل في النصارى وقيل في قوم من أمة محمد ﷺ يأتون في آخر الزمان. وقال بالأولين السدي. وقال بالثالث مجاهد. [صديق حسن (٨/ ١٧٥)].

(١) الإطلاق المشهور هو أن الغي الضلال، وفي المراد بقوله: ﴿غَيًّا﴾ في الآية أقوال متقاربة، منها أن الكلام على حذف مضاف، أي: فسوف يلقون جزاء غي، ولا شك أنهم سيلقون جزاء ضلالهم، وممن قال بهذا القول: الزجاج، ونظير هذا التفسير قوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. [الشنقيطي (٤/ ٣٨٧)].

(٢) مما فرط منه من تضييع الصلاة واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله ... والاستثناء منقطع قاله الزجاج وجرى أبو حيان وغيره على أنه متصل، وهو ظاهر الآية، لما روي عن قتادة أنها في حق هذه الأمة، ويجوز أن يحمل على التغليظ، كما قال تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وبهذا التأويل يحسن قول قتادة. إن هذا الكلام نازل في شأن أمة محمد ﷺ، وقيل: في هذا الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة لا في المسلمين. [صديق حسن (٨/ ١٧٧)].

(٣) معناه: لكن يسمعون سلاما. فإن قيل: أيجوز استثناء السلام من اللغو؛ وهو ليس من جنسه؟ قلنا: هو استثناء منقطع. وذكر الأزهري أن تقديره: لا يسمعون فيها لغوا، لا يسمعون إلا سلاما. وأما السلام فهو تسليم بعضهم على بعض، وقيل: تسليم الله عليهم. [السمعاني (٣/ ٣٠٣)].

(٤) أي: يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا إذ لا ليل ولا نهار ثم، لأنهم في النور أبدا وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بإرخائها، والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك، وقيل: أراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان بكرة وعشيا تريد الدوام. [النسفي (٢/ ٣٤٤)].

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٤٦).

اَلدُّنْيَا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مَا يَكُونُ فِي هَذَا اَلْوَقْتِ إِلَى قِيَامِ اَلسَّاعَةِ، أَيْ: لَهُ عِلْمُ ذَلِكَ جَمِيعِهِ[1] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ بِمَعْنَى نَاسِيًا، أَيْ: تَارِكًا لَكَ بِتَأْخِيرِ اَلْوَحْيِ عَنْكَ. هُوَ ﴿رَّبُّ﴾ مَالِكُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أَيِ: اِصْبِرْ عَلَيْهَا ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ أَيْ: مُسَمًّى بِذَلِكَ؟ لَا[2]. ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ اَلْمُنْكِرُ لِلْبَعْثِ، أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ أَوِ اَلْوَلِيدُ بْنُ اَلْمُغِيرَةِ، اَلنَّازِلُ فِيهِ اَلْآيَةُ: ﴿أَءِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَةِ اَلثَّانِيَةِ وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهَا بِوَجْهَيْهَا وَبَيْنَ اَلْأُخْرَى ﴿مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾ مِنَ اَلْقَبْرِ، كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ؟ فَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى اَلنَّفْيِ، أَيْ: لَا أَحْيَا بَعْدَ اَلْمَوْتِ، وَمَا زَائِدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ وَكَذَا اَللَّامُ. وَرُدَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَذَّكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أَصْلُهُ «يَتَذَكَّرُ» أُبْدِلَتِ اَلتَّاءُ ذَالًا وَأُدْغِمَتْ فِي اَلذَّالِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: تَرْكُهَا وَسُكُونُ اَلذَّالِ وَضَمُّ اَلْكَافِ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ فَيُسْتَدَلُّ بِالِابْتِدَاءِ عَلَى اَلْإِعَادَةِ. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أَيِ: اَلْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أَيْ: نَجْمَعُ كُلًّا مِنْهُمْ وَشَيْطَانَهُ فِي سِلْسِلَةٍ ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ مِنْ خَارِجِهَا ﴿جِثِيًّا ۝٦٨﴾ عَلَى اَلرُّكَبِ جَمْعُ جَاثٍ، وَأَصْلُهُ «جُثُوٌّ» أَوْ «جُثُويٌّ» مِنْ جَثَا يَجْثُو أَوْ يَجْثِي لُغَتَانِ. ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ[3] ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾ جَرَاءَةً. ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا﴾ أَحَقُّ بِجَهَنَّمَ، اَلْأَشَدُّ

---

(١) والمعنى: أن الله سبحانه هو المحيط بكل شيء، لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه، وقال: ﴿مَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، ولم يقل: «ما بين ذينك» لأن المراد ما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]. [الشوكاني (٣/ ٤٠٤)].

(٢) أي: هل تعلم لله مساميا ومشابها ومماثلا من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مساميا ولا مشابها، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى. [السعدي (ص:٤٩٨)].

(٣) ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾، أي: لنستخرجن ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: من كل أمة أهل دين واحد، وأصل الشيعة فعلة كفرقة، وهي الطائفة التي شاعت غيرها، أي: تبعته في هدى أو ضلال؛ تقول العرب: شاعه شياعا: إذا تبعه. وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي: لنستخرجن ولنميزن من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأ بتعذيبه وإدخاله النار على حسب مراتبهم في الكفر، والإضلال والضلال، وهذا هو الظاهر في معنى الآية الكريمة: أن الرؤساء القادة في الكفر يعذبون قبل غيرهم ويشدد عليهم العذاب لضلالهم وإضلالهم. وقد جاءت آيات من كتاب الله تعالى تدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] ... وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ

وَغَيْرِهِ مِنْهُمْ ﴿صِلِيًّا ۝٧٠﴾ دُخُولًا وَاحْتِرَاقًا فَنَبْدَأُ بِهِمْ، وَأَصْلُهُ «صُلُويٌ» مِنْ صَلِيَ بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا. ﴿وَإِن﴾ أَيْ: مَا ﴿مِّنكُمْ﴾ أَحَدٌ ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أَيْ: دَاخِلٌ جَهَنَّمَ[١] ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ حَتَمَهُ وَقَضَى بِهِ لَا يَتْرُكُهُ. ﴿ثُمَّ نُنَجِّى﴾ مُشَدَّدًا وَمُخَفَّفًا ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الشِّرْكَ وَالْكُفْرَ مِنْهَا ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بِالشِّرْكِ وَالْكُفْرِ ﴿فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ عَلَى الرُّكَبِ. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ وَاضِحَاتٍ حَالٌ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ نَحْنُ وَأَنْتُمْ ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ مَنْزِلًا وَمَسْكَنًا، بِالْفَتْحِ مِنْ «قَامَ»، وَبِالضَّمِّ مِنْ «أَقَامَ» ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝٧٣﴾ بِمَعْنَى النَّادِي، وَهُوَ مُجْتَمَعُ الْقَوْمِ يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ. يَعْنُونَ: نَحْنُ، فَنَكُونُ خَيْرًا مِنْكُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ﴾ أَيْ: كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أَيْ: أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ مَالًا وَمَتَاعًا ﴿وَرِءْيًا ۝٧٤﴾ مَنْظَرًا، مِنَ «الرُّؤْيَةِ» فَكَمَا أَهْلَكْنَاهُمْ لِكُفْرِهِمْ نُهْلِكُ هَؤُلَاءِ[٢]. ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ شَرْطٌ جَوَابُهُ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ بِمَعْنَى الْخَبَرِ، أَيْ: يَمُدُّ ﴿لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فِي الدُّنْيَا يَسْتَدْرِجُهُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ كَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى جَهَنَّمَ فَيَدْخُلُونَهَا ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾ أَعْوَانًا، أَهُمْ أَمِ الْمُؤْمِنُونَ؟ وَجُنْدُهُمُ الشَّيَاطِينُ، وَجُنْدُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ. ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ

عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. [الشنقيطي (٤/ ٤٣٣)].

(١) هذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكما حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ... واختلف في معنى الورود، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد، ينجي الله المتقين. وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما. وقيل: الورود، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كل بحسب تقواه. [السعدي (ص:٤٩٨)]. عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرِدُ النَّاسُ كُلُّهُمُ النَّارَ، ثُمَّ يُصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَالرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِ». أخرجه الترمذي (٣١٥٩)، وأحمد (٤١٤١).

(٢) المعنى: أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظا من الدنيا، لكونهم أحسن منازل وأرفع دورا وأعمر ناديا ... أي: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم على الحق؟ كما قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الأحقاف: ١١] وقال قوم نوح: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. [القاسمي (٧/ ١٠٩)].

ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ بالإيمانِ ﴿هُدًى﴾ بِمَا يُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الآيَاتِ[1] ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هِيَ الطَّاعَةُ تَبْقَى لِصَاحِبِهَا ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ٧٦﴾ أَيْ: مَا يُرَدُّ إِلَيْهِ وَيَرْجِعُ بِخِلَافِ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ، وَالْخَيْرِيَّةُ هُنَا فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِمْ: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾. ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقَائِلُ هُوَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ ﴿وَقَالَ﴾ لِخَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ الْقَائِلِ لَهُ: «تُبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ»، وَالْمُطَالِبِ لَهُ بِمَالٍ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ الْبَعْثِ ﴿مَالًا وَوَلَدًا ٧٧﴾ فَأَقْضِيكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أَيْ: أَعَلِمَهُ وَأَنْ يُؤْتَى مَا قَالَهُ، وَاسْتُغْنِيَ بِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ فَحُذِفَتْ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ٧٨﴾ بِأَنْ يُؤْتَى مَا قَالَهُ. ﴿كَلَّا﴾ أَيْ: لَا يُؤْتَى ذَلِكَ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ نَأْمُرُ بِكَتْبِ ﴿مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ٧٩﴾ نَزِيدُهُ بِذَلِكَ عَذَابًا فَوْقَ عَذَابِ كُفْرِهِ. ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَرْدًا ٨٠﴾ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ. ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الْأَوْثَانَ ﴿ءَالِهَةً﴾ يَعْبُدُونَهُمْ ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ٨١﴾ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللهِ بِأَلَّا يُعَذَّبُوا. ﴿كَلَّا﴾ أَيْ: لَا مَانِعَ مِنْ عَذَابِهِمْ ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ أَيِ: الْآلِهَةُ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيْ: يَنْفُونَهَا كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ٨٢﴾ أَعْوَانًا وَأَعْدَاءً. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ سَلَّطْنَاهُمْ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ﴾ تُهَيِّجُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي ﴿أَزًّا ٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بِطَلَبِ الْعَذَابِ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ أَوِ الْأَنْفَاسَ ﴿عَدًّا ٨٤﴾ إِلَى وَقْتِ عَذَابِهِمْ. اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بِإِيمَانِهِمْ ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ٨٥﴾ جَمْعُ «وَافِدٍ» بِمَعْنَى: رَاكِبٍ[2]. ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ٨٦﴾ جَمْعُ «وَارِدٍ» بِمَعْنَى: مَاشٍ عَطْشَانٍ. ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ أَيِ: النَّاسُ ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ٨٧﴾ أَيْ: «شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[3]. ﴿وَقَالُواْ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ٨٨﴾. قَالَ

---

(١) الهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح. فكل من سلك طريقا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أمورا أخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. [السعدي (ص:٤٩٩)].

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا». أخرجه البخاري (٦٥٢٢)، ومسلم (٢٨٦١).

(٣) أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] وقد أخبر أنه لا تنفعهم

تعَالَى لَهُمْ: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ أَيْ: مُنْكَرًا عَظِيمًا. ﴿تَكَادُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ التَّاءِ وَتَشْدِيدِ الطَّاءِ بِالِانْشِقَاقِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ ﴿مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ أَيْ: تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ. مِنْ أَجْلِ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ أَيْ: مَا يَلِيقُ بِهِ ذَلِكَ. ﴿إِن﴾ أَيْ: مَا ﴿كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ ذَلِيلًا خَاضِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْهُمْ: عُزَيْرٌ وَعِيسَى. ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَبْلَغُ جَمِيعِهِمْ، وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ. ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ بِلَا مَالٍ، وَلَا نَصِيرٍ يَمْنَعُهُ[1]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ، يَتَوَادُّونَ وَيَتَحَابُّونَ وَيُحِبُّهُمُ اللهُ تَعَالَى[2]. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ الْعَرَبِيِّ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الْفَائِزِينَ بِالْإِيمَانِ ﴿وَتُنذِرَ﴾ تُخَوِّفَ ﴿بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ جَمْعُ «أَلَدِّ»، أَيْ: جَدِلٍ بِالْبَاطِلِ، وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ[3]. ﴿وَكَمْ﴾ أَيْ: كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أَيْ: أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ ﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ تَجِدُ ﴿مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ صَوْتًا خَفِيًّا؟ لَا، فَكَمَا أَهْلَكْنَا أُولَئِكَ نُهْلِكُ هَؤُلَاءِ.

شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهدا بالإيمان به وبرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهدا فآمن به وبرسله واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهدا، لأنه عهد في كتبه وعلى ألسنة رسله، بالجزاء الجميل لمن اتبعهم. [السعدي (ص:٥٠٠)].

(١) كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

(٢) هذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم ودا، أي: محبة ووددا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود تيسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، قَالَ: ثُمَّ يَضَعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ». أخرجه البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧). وإنما جعل الله لهم ودا لأنهم ودوه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه. [السعدي (ص:٥٠١)].

(٣) قال ابن الأنباري: وخص اللد بالإنذار؛ لأنهم إذا قامت عليه الحجة صار غيرهم لاحقًا بهم من أجل أن الذي لا عناد عنده يسرع انقياده، فالمقصود بالإنذار هؤلاء اللد المخاصمون. [الواحدي (١٤/ ٣٤٢)].

سُورَةُ طه

مَكِّيَّةٌ، مِائَةٌ وَخَمْسٌ وَثَلَاثُونَ، أَوْ وَأَرْبَعُونَ، أَوْ وَثِنْتَانِ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ①﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ(١). ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ ②﴾ لِتَتْعَبَ بِمَا فَعَلْتَ بَعْدَ نُزُولِهِ، مِنْ طُولِ قِيَامِكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ، أَيْ: خَفِّفْ عَنْ نَفْسِكَ(٢). ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ أَنْزَلْنَاهُ ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ بِهِ ﴿لِّمَن يَخۡشَىٰ ③﴾ يَخَافُ اللهَ. ﴿تَنزِيلٗا﴾ بَدَلٌ مِنَ اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ النَّاصِبِ لَهُ ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ④﴾ جَمْعُ «عُلْيَا» كَكُبْرَى وَكُبَرَ. هُوَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ وَهُوَ فِي اللُّغَةِ: سَرِيرُ الْمَلِكِ ﴿ٱسۡتَوَىٰ ⑤﴾ اِسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ(٣). ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ⑥﴾ هُوَ التُّرَابُ النَّدِيُّ، وَالْمُرَادُ الْأَرَضُونَ السَّبْعُ لِأَنَّهَا تَحْتَهُ ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ فِي ذِكْرٍ أَوْ دُعَاءٍ، فَاللهُ غَنِيٌّ عَنِ الْجَهْرِ بِهِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ⑦﴾ مِنْهُ، أَيْ: مَا حَدَّثَتْ بِهِ النَّفْسُ وَمَا خَطَرَ وَلَمْ تُحَدِّثْ بِهِ، فَلَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ بِالْجَهْرِ. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ⑧﴾ التِّسْعَةُ وَالتِّسْعُونَ الْوَارِدُ بِهَا الْحَدِيثُ(٤)، وَالْحُسْنَى مُؤَنَّثُ «الْأَحْسَنِ». ﴿وَهَلۡ﴾ قَدْ ﴿أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ⑨ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ﴾ لِامْرَأَتِهِ ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ هُنَا، وَذَلِكَ فِي مَسِيرِهِ مِنْ مَدْيَنَ طَالِبًا مِصْرَ ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ أَبْصَرْتُ ﴿نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ بِشُعْلَةٍ فِي رَأْسِ فَتِيلَةٍ، أَوْ عُودٍ ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ⑩﴾ أَيْ: هَادِيًا يَدُلُّنِي

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) قيل: إن النبي ﷺ قام في الصلاة حتى تورمت قدماه، فنزلت الآية تخفيفا عنه، فالشقاء على هذا إفراط التعب في العبادة، وقيل: المراد به التأسف على كفر الكفار، واللفظ عام في ذلك كله، والمعنى أنه نفى عنه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة، لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب السعادة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥)].

(٣) عن مالك: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، قال البغوي: أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به إلى الله عز وجل، وعن الثوري والأوزاعي والليث وابن عيينة وابن المبارك وغيرهم في أمثال هذه الآيات التي جاءت في الصفات أقروها كما جاءت بلا كيف. [صديق حسن (٨/ ٢١٢)]. وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل. [ابن كثير (٥/ ٢٧٣)]. [فـ] الرحمن على عرشه ارتفع وعلا. [الطبري (١٦/ ١١)].

(٤) انظر التعليق على تفسير آية (١١٠) من سورة الإسراء.

عَلَى الطَّرِيقِ، وَكَانَ أَخْطَأَهَا لِظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَقَالَ: «لَعَلَّ» لِعَدَمِ الْجَزْمِ بِوَفَاءِ الْوَعْدِ. ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ وَهِيَ شَجَرَةُ عَوْسَجٍ ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ﴾ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ بِتَأْوِيلِ ﴿نُودِىَ﴾ بِـ «قِيلَ»، وَبِفَتْحِهَا بِتَقْدِيرِ الْبَاءِ ﴿أَنَا۠﴾ تَأْكِيدٌ لِيَاءِ الْمُتَكَلِّمِ[1] ﴿رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ الْمُطَهَّرِ أَوِ الْمُبَارَكِ ﴿طُوًى ۝١٢﴾ بَدَلٌ، أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ، بِالتَّنْوِينِ وَتَرْكِهِ، مَصْرُوفٌ بِاعْتِبَارِ الْمَكَانِ، وَغَيْرُ مَصْرُوفٍ لِلتَّأْنِيثِ بِاعْتِبَارِ الْبُقْعَةِ مَعَ الْعَلَمِيَّةِ. ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ مِنْ قَوْمِكَ ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ إِلَيْكَ مِنِّي. ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ فِيهَا. ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ عَنِ النَّاسِ[2]، وَيَظْهَرُ لَهُمْ قُرْبُهَا بِعَلَامَاتِهَا ﴿لِتُجْزَىٰ﴾ فِيهَا ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾ بِهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ يَصْرِفَنَّكَ ﴿عَنْهَا﴾ أَيْ: عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فِي إِنْكَارِهَا ﴿فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾ أَيْ: فَتَهْلِكَ إِنْ صُدِدْتَ عَنْهَا. ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ كَائِنَةٌ ﴿بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ؛ لِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ الْمُعْجِزَةَ فِيهَا. ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟﴾ أَعْتَمِدُ ﴿عَلَيْهَا﴾ عِنْدَ الْوُثُوبِ وَالْمَشْيِ ﴿وَأَهُشُّ﴾ أَخْبِطُ وَرَقَ الشَّجَرِ ﴿بِهَا﴾ لِيَسْقُطَ ﴿عَلَىٰ غَنَمِى﴾ فَتَأْكُلُهُ ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ﴾ جَمْعُ مَأْرُبَةٍ مُثَلَّثُ الرَّاءِ، أَيْ: حَوَائِجُ ﴿أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ كَحَمْلِ الزَّادِ وَالسِّقَاءِ وَطَرْدِ الْهَوَامِّ، زَادَ فِي الْجَوَابِ بَيَانَ حَاجَاتِهِ بِهَا. ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ﴾ ثُعْبَانٌ عَظِيمٌ ﴿تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ تَمْشِي عَلَى بَطْنِهَا سَرِيعًا كَسُرْعَةِ الثُّعْبَانِ الصَّغِيرِ الْمُسَمَّى بِـ «الْجَانِّ» الْمُعَبَّرِ بِهِ فِيهَا فِي آيَةٍ أُخْرَى[3]. ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ مِنْهَا ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَيْ: إِلَى حَالَتِهَا ﴿ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي فَمِهَا فَعَادَتْ عَصًا، وَتَبَيَّنَ أَنَّ مَوْضِعَ الْإِدْخَالِ مَوْضِعُ مَسْكِهَا بَيْنَ شُعْبَتَيْهَا، وَأُرِيَ ذَلِكَ السَّيِّدُ مُوسَى[4] لِئَلَّا يَجْزَعَ إِذَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً لَدَى فِرْعَوْنَ. ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ﴾ الْيُمْنَى بِمَعْنَى الْكَفِّ ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أَيْ:

---

(١) فعرف أنه كلام الله تعالى وليس هذا النداء والخطاب هو الذي وقع فيه الصعقة ودك الجبل كما تقدم ذكره في سورة الأعراف، بل هذا غيره؛ إذ هذا أول بدء رسالته، وذاك إنما كان بعد غرق فرعون حين أعطاه الله التوراة. [صديق حسن (٨/ ٢١٩)].

(٢) ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال أكثر المفسرين: أخفيها من نفسي، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة. وقال المبرد وقطرب: هذا على عادة مخاطبة العرب، يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء: كتمته حتى من نفسي، أي: لم أطلع عليه أحداً. ومعنى الآية: أن الله تعالى بالغ في اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب والمعنى في إخفائها التهويل والتخويف؛ وكذلك المعنى في إخفاء وقت الموت على الإنسان ليكون على حذر. [صديق حسن (٨/ ٢٢١)].

(٣) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠].

(٤) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

جَنْبِكَ ٱلْأَيْسَرِ تَحْتَ ٱلْعَضُدِ إِلَى ٱلإِبِطِ، وَأَخرِجْها ﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْأَدَمَةِ ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَيْ: بَرَصٍ، تُضِيءُ كَشُعَاعِ ٱلشَّمْسِ تُغْشِي ٱلْبَصَرَ ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ وَهِيَ وَ«بَيْضَاءُ» حَالَانِ مِنْ ضَمِيرِ ﴿تَخْرُجْ﴾. ﴿لِنُرِيَكَ﴾ بِهَا إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لِإِظْهَارِهَا ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ ٱلآيَةَ ﴿ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ أَيِ: ٱلْعُظْمَى عَلَى رِسَالَتِكَ، وَإِذَا أَرَادَ عَوْدَهَا إِلَى حَالَتِهَا ٱلْأُولَى ضَمَّهَا إِلَى جَنَاحِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَأَخْرَجَهَا. ﴿ٱذْهَبْ﴾ رَسُولًا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وَمَنْ مَعَهُ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ جَاوَزَ ٱلْحَدَّ فِي كُفْرِهِ إِلَى ادِّعَاءِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ. ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ وَسِّعْهُ لِتَحَمُّلِ ٱلرِّسَالَةِ. ﴿وَيَسِّرْ﴾ سَهِّلْ ﴿لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ لِأُبَلِّغَهَا. ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ حَدَثَتْ مِنَ ٱحْتِرَاقِهِ بِجَمْرَةٍ وَضَعَهَا بِفِيهِ وَهُوَ صَغِيرٌ[1]. ﴿يَفْقَهُوا۟﴾ يَفْهَمُوا ﴿قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ عِنْدَ تَبْلِيغِ ٱلرِّسَالَةِ. ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ مُعِينًا عَلَيْهَا ﴿مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ عَطْفُ بَيَانٍ. ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ ظَهْرِي. ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ أَيِ: ٱلرِّسَالَةِ، وَٱلْفِعْلَانِ بِصِيغَتَيِ ٱلْأَمْرِ وَٱلْمُضَارِعِ ٱلْمَجْزُومِ، وَهُوَ جَوَابُ ٱلطَّلَبِ. ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ﴾ تَسْبِيحًا ﴿كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ﴾ ذِكْرًا ﴿كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ عَالِمًا فَأَنْعَمْتَ بِٱلرِّسَالَةِ. ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ مِنًّا عَلَيْكَ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ﴾ لِلتَّعْلِيلِ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ مَنَامًا، أَوْ إِلْهَامًا، لَمَّا وَلَدَتْكَ وَخَافَتْ أَنْ يَقْتُلَكَ فِرْعَوْنُ فِي جُمْلَةِ مَنْ يُولَدُ ﴿مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ فِي أَمْرِكَ. وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ أَلْقِيهِ ﴿فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ﴾ بِالتَّابُوتِ ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ بَحْرِ ٱلنِّيلِ ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أَيْ: شَاطِئِهِ، وَٱلْأَمْرُ بِمَعْنَى ٱلْخَبَرِ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ وَهُوَ فِرْعَوْنُ ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ بَعْدَ أَنْ أَخَذَكَ ﴿عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ لِتُحَبَّ فِي ٱلنَّاسِ، فَأَحَبَّكَ فِرْعَوْنُ وَكُلُّ مَنْ رَآكَ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ تُرَبَّى عَلَى رِعَايَتِي وَحِفْظِي لَكَ[2]. ﴿إِذْ﴾ لِلتَّعْلِيلِ ﴿تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾ مَرْيَمُ لِتَتَعَرَّفَ مِنْ خَبَرِكَ، وَقَدْ أَحْضَرُوا مَرَاضِعَ وَأَنْتَ لَا تَقْبَلُ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ﴿فَتَقُولُ

---

(١) قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كانت في لسانه رتة. وذلك أنه كان في حِجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمة، وأخذ بلحيته فنتفها، فقال فرعون لآسية: هذا عدوي فهات الذباحين. فقالت آسية: على رسلك فإنه صبي لا يفرق بين الأشياء. ثم أتت بطستين فجعلت في أحدهما جمرا وفي الآخر جوهرا فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها في فيه على لسانه، فكانت تلك الرتة. [القرطبي (١١/ ١٩٢)]. وقيل: كانت العقدة في لسانه عليه السلام خِلقة. [الآلوسي (٨/ ٤٩٧)].

(٢) قوله تعالى في قصة موسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ فسرها أهل السنة: أي على رعايته سبحانه وتوفيقه للقائمين على تربيته عليه الصلاة والسلام. وهكذا قوله سبحانه للنبي ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: أنك تحت كلاءتنا وعنايتنا وحفظنا. وليس هذا كله من التأويل، بل ذلك من التفسير المعروف في لغة العرب وأساليبها. [مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: (٤/ ١٢٩)].

هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ فَأُجِيبَتْ، فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بِلِقَائِكَ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هُوَ الْقِبْطِيُّ بِمِصْرَ، فَاغْتَمَمْتَ لِقَتْلِهِ مِنْ جِهَةِ فِرْعَوْنَ ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ اخْتَبَرْنَاكَ بِالْإِيقَاعِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَخَلَّصْنَاكَ مِنْهُ ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ عَشْرًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بَعْدَ مَجِيئِكَ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ عِنْدَ شُعَيْبٍ النَّبِيِّ وَتَزَوُّجِكَ بِابْنَتِهِ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ فِي عِلْمِي بِالرِّسَالَةِ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً مِنْ عُمُرِكَ ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾ اخْتَرْتُكَ ﴿لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ بِالرِّسَالَةِ. ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ إِلَى النَّاسِ ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ التِّسْعِ ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ تَفْتُرَا ﴿فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾ بِتَسْبِيحٍ وَغَيْرِهِ. ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ بِادِّعَائِهِ الرُّبُوبِيَّةَ. ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فِي رُجُوعِهِ عَنْ ذَلِكَ ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَّعِظُ ﴿أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ اللهَ فَيَرْجِعَ، وَالتَّرَجِّي بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا لِعِلْمِهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا يَرْجِعُ. ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أَيْ: يَعْجَلَ بِالْعُقُوبَةِ ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ عَلَيْنَا، أَيْ: يَتَكَبَّرَ. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ بِعَوْنِي[1] ﴿أَسْمَعُ﴾ مَا يَقُولُ ﴿وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ مَا يَفْعَلُ. ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إِلَى الشَّامِ ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أَيْ: خَلِّ عَنْهُمْ، مِنِ اسْتِعْمَالِكَ إِيَّاهُمْ فِي أَشْغَالِكَ الشَّاقَّةِ، كَالْحَفْرِ وَالْبِنَاءِ وَحَمْلِ الثَّقِيلِ ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ بِحُجَّةٍ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ عَلَى صِدْقِنَا بِالرِّسَالَةِ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ أَيْ: السَّلَامَةُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ. ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ مَا جِئْنَا بِهِ ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أَعْرَضَ عَنْهُ. فَأَتَيَاهُ وَقَالَا جَمِيعَ مَا ذُكِرَ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ، وَلِإِدْلَالِهِ عَلَيْهِ بِالتَّرْبِيَةِ. ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مِنَ الْخَلْقِ ﴿خَلْقَهُۥ﴾ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، مُتَمَيِّزٌ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ الْحَيَوَانَ مِنْهُ إِلَى مَطْعَمِهِ، وَمَشْرَبِهِ، وَمَنْكَحِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ: ﴿فَمَا بَالُ﴾ حَالُ ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ ﴿ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ كَقَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَلُوطٍ وَصَالِحٍ، فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَوْثَانَ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿عِلْمُهَا﴾ أَيْ: عِلْمُ حَالِهِمْ مَحْفُوظٌ ﴿عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ يَغِيبُ ﴿رَبِّى﴾ عَنْ شَيْءٍ ﴿وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ رَبِّي شَيْئًا. هُوَ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ فِي جُمْلَةِ الْخَلْقِ ﴿ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فِرَاشًا ﴿وَسَلَكَ﴾ سَهَّلَ ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طُرُقًا ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مَطَرًا، قَالَ تَعَالَى تَتْمِيمًا لِمَا وَصَفَهُ بِهِ مُوسَى، وَخِطَابًا لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أَصْنَافًا ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ صِفَةُ ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أَيْ:

---

(١) أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علي من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي. [ابن كثير (٥/ ٢٩٦)].

مُخْتَلِفَةَ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَغَيْرِهِمَا، وَشَتَّى جَمْعُ «شَتِيتٍ» كَمَرِيضٍ وَمَرْضَى مِنْ شَتَّ الْأَمْرُ تَفَرَّقَ. ﴿كُلُوا﴾ مِنْهَا ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ فِيهَا، جَمْعُ «نَعَمٍ» وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، يُقَالُ: رَعَتِ الْأَنْعَامُ وَرَعَيْتُهَا، وَالْأَمْرُ لِلْإِبَاحَةِ وَتَذْكِيرِ النِّعْمَةِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «أَخْرَجْنَا»، أَيْ: مُبِيحِينَ لَكُمُ الْأَكْلَ وَرَعْيَ الْأَنْعَامِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنَّا ﴿لَآيَاتٍ﴾ لَعِبَرًا ﴿لِأُولِي النُّهَى ۝٥٤﴾ لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ، جَمْعُ «نُهْيَةٍ» كَغُرْفَةٍ وَغُرَفٍ، سُمِّيَ بِهِ الْعَقْلُ؛ لِأَنَّهُ يَنْهَى صَاحِبَهُ عَنِ ارْتِكَابِ الْقَبَائِحِ. ﴿*مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنَ الْأَرْضِ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهَا ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ مَقْبُورِينَ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ ﴿تَارَةً﴾ مَرَّةً ﴿أُخْرَى ۝٥٥﴾ كَمَا أَخْرَجْنَاكُمْ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِكُمْ. ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ أَيْ: أَبْصَرْنَا فِرْعَوْنَ ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ التِّسْعَ ﴿فَكَذَّبَ﴾ بِهَا وَزَعَمَ أَنَّهَا سِحْرٌ ﴿وَأَبَى ۝٥٦﴾ أَنْ يُوَحِّدَ اللهَ تَعَالَى. ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ مِصْرَ، وَيَكُونَ لَكَ الْمُلْكُ فِيهَا ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ يُعَارِضُهُ ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ لِذَلِكَ ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ «فِي» ﴿سُوًى ۝٥٨﴾ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ وَضَمِّهِ، أَيْ: وَسَطًا تَسْتَوِي إِلَيْهِ مَسَافَةُ الْجَائِي مِنَ الطَّرَفَيْنِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يَوْمُ عِيدٍ لَهُمْ يَتَزَيَّنُونَ فِيهِ وَيَجْتَمِعُونَ ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ يُجْمَعَ أَهْلُ مِصْرَ ﴿ضُحًى ۝٥٩﴾ وَقْتَهُ لِلنَّظَرِ فِيمَا يَقَعُ. ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أَدْبَرَ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أَيْ: ذَوِي كَيْدِهِ مِنَ السَّحَرَةِ ﴿ثُمَّ أَتَى ۝٦٠﴾ بِهِمُ الْمَوْعِدَ. ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ وَهُمُ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ حَبْلٌ وَعَصًا: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أَيْ: أَلْزَمَكُمُ اللهُ الْوَيْلَ ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِإِشْرَاكِ أَحَدٍ مَعَهُ ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الْحَاءِ وَبِفَتْحِهِمَا، أَيْ: يُهْلِكَكُمْ ﴿بِعَذَابٍ﴾ مِنْ عِنْدِهِ ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خَسِرَ ﴿مَنِ افْتَرَى ۝٦١﴾ كَذَبَ عَلَى اللهِ. ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ فِي مُوسَى وَأَخِيهِ ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ۝٦٢﴾ أَيِ: الْكَلَامَ بَيْنَهُمْ فِيهِمَا. ﴿قَالُوا﴾ لِأَنْفُسِهِمْ: ﴿إِنَّ هَذَانِ﴾ لِأَبِي عَمْرٍو، وَلِغَيْرِهِ: ﴿هَذَانِ﴾ وَهُوَ مُوَافِقٌ لِلُغَةِ مَنْ يَأْتِي فِي الْمُثَنَّى بِالْأَلِفِ فِي أَحْوَالِهِ الثَّلَاثَةِ ﴿لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۝٦٣﴾ مُؤَنَّثُ «أَمْثَل» بِمَعْنَى أَشْرَف، أَيْ: بِأَشْرَافِكُمْ، بِمَيْلِهِمْ إِلَيْهِمَا لِغَلَبَتِهِمَا. ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ مِنَ السِّحْرِ، بِهَمْزَةِ وَصْلٍ وَفَتْحِ الْمِيمِ مِنْ «جَمَعَ»، أَيْ: لَمَّ، وَبِهَمْزَةِ قَطْعٍ وَكَسْرِ الْمِيمِ مِنْ «أَجْمَعَ» أَحْكَمَ ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ حَالٌ، أَيْ: مُصْطَفِّينَ ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ﴾ فَازَ ﴿الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ۝٦٤﴾ غَلَبَ. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ اخْتَرْ ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ عَصَاكَ أَوَّلًا ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۝٦٥﴾ عَصَاهُ. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ فَأَلْقَوْا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ أَصْلُهُ «عُصُوُوٌ» قُلِبَتِ الْوَاوَانِ يَاءَيْنِ، وَكُسِرَتِ الْعَيْنُ وَالصَّادُ ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا﴾ حَيَّاتٌ ﴿تَسْعَى ۝٦٦﴾ عَلَى بُطُونِهَا. ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أَحَسَّ ﴿فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۝٦٧﴾ أَيْ: خَافَ، مِنْ جِهَةِ

أَنَّ سِحْرَهُمْ يَكُونُ مِنْ جِنْسِ مُعْجِزَتِهِ، أَنْ يَلْتَبِسَ أَمْرُهُ عَلَى النَّاسِ فَلَا يُؤْمِنُوا بِهِ. ﴿قُلْنَا﴾ لَهُ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ عَلَيْهِمْ بِالْغَلَبَةِ. ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ وَهِيَ عَصَاهُ ﴿تَلْقَفْ﴾ تَبْتَلِعُ ﴿مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ أَيْ: جِنْسُهُ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ بِسِحْرِهِ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَتَلَقَّفَتْ كُلَّ مَا صَنَعُوهُ. ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ خَرُّوا سَاجِدِينَ لِلَّهِ تَعَالَى ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَآمَنتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا ﴿لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أَنَا ﴿لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ مُعَلِّمُكُمْ ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ حَالٌ، بِمَعْنَى: مُخْتَلِفَةً، أَيِ: الْأَيْدِيَ الْيُمْنَى وَالْأَرْجُلَ الْيُسْرَى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أَيْ: عَلَيْهَا ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ يَعْنِي نَفْسَهُ وَرَبَّ مُوسَى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾ أَدْوَمَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ. ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ نَخْتَارَكَ ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ مُوسَى ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ خَلَقَنَا قَسَمٌ أَوْ عَطْفٌ عَلَى ﴿مَا﴾ ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ أَيِ: اصْنَعْ مَا قُلْتَهُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢﴾ النَّصْبُ عَلَى الِاتِّسَاعِ، أَيْ: فِيهَا وَتُجْزَى عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ﴾ تَعَلُّمًا وَعَمَلًا لِمُعَارَضَةِ مُوسَى ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ مِنْكَ ثَوَابًا إِذَا أُطِيعَ ﴿وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾ مِنْكَ عَذَابًا إِذَا عُصِيَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ كَافِرًا، كَفِرْعَوْنَ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيَسْتَرِيحَ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾ حَيَاةً تَنْفَعُهُ. ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الْفَرَائِضَ وَالنَّوَافِلَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾ جَمْعُ عُلْيَا مُؤَنَّثِ أَعْلَى. ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أَيْ: إِقَامَةٍ، بَيَانٌ لَهُ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ تَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوبِ. ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ بِهَمْزَةِ قَطْعٍ مِنْ «أَسْرَى»، وَبِهَمْزَةِ وَصْلٍ وَكَسْرِ النُّونِ مِنْ «سَرَى» لُغَتَانِ، أَيْ: سِرْ بِهِمْ لَيْلًا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ﴿فَٱضْرِبْ﴾ اجْعَلْ ﴿لَهُمْ﴾ بِالضَّرْبِ بِعَصَاكَ ﴿طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أَيْ: يَابِسًا، فَامْتَثَلَ مَا أُمِرَ بِهِ وَأَيْبَسَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَمَرُّوا فِيهَا ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أَيْ: أَنْ يُدْرِكَكَ فِرْعَوْنُ ﴿وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ غَرَقًا. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ أَيِ: الْبَحْرِ ﴿مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨﴾ فَأَغْرَقَهُمْ. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ بِدُعَائِهِمْ إِلَى عِبَادَتِهِ ﴿وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ بَلْ أَوْقَعَهُمْ فِي الْهَلَاكِ، خِلَافَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فِرْعَوْنَ بِإِغْرَاقِهِ ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ فَنُؤْتِي مُوسَى

اَلتَّوْرَاةَ لِلْعَمَلِ بِهَا ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠﴾ هُمَا اَلتَّرَنْجَبِينُ وَالطَّيْرُ اَلسُّمَانَى(١) بِتَخْفِيفِ اَلْمِيمِ وَالْقَصْرِ، وَالْمُنَادَى مَنْ وُجِدَ مِنَ اَلْيَهُودِ زَمَنَ اَلنَّبِيِّ ﷺ وَخُوطِبُوا بِمَا أَنْعَمَ اَللهُ بِهِ عَلَى أَجْدَادِهِمْ زَمَنَ اَلنَّبِيِّ مُوسَى. تَوْطِئَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أَيْ: اَلْمُنْعَمِ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ بِأَنْ تَكْفُرُوا اَلنِّعْمَةَ بِهِ ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ بِكَسْرِ اَلْحَاءِ، أَيْ: يَجِبَ، وَبِضَمِّهَا، أَيْ: يَنْزِلَ ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ بِكَسْرِ اَللَّامِ وَضَمِّهَا ﴿فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١﴾ سَقَطَ فِي اَلنَّارِ. ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ مِنَ اَلشِّرْكِ ﴿وَءَامَنَ﴾ وَحَّدَ اَللهَ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَصْدُقُ بِالْفَرْضِ وَالنَّفْلِ ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ بِاسْتِمْرَارِهِ عَلَى مَا ذُكِرَ إِلَى مَوْتِهِ. ﴿۞وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ لِمَجِيءِ مِيعَادِ أَخْذِ اَلتَّوْرَاةِ ﴿يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُولَآءِ﴾ أَيْ: بِالْقُرْبِ مِنِّي يَأْتُونَ ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ عَنِّي، أَيْ: زِيَادَةً فِي رِضَاكَ. وَقَبْلَ اَلْجَوَابِ أَتَى بِالِاعْتِذَارِ بِحَسَبِ ظَنِّهِ، وَتَخَلَّفَ اَلْمَظْنُونُ لَمَّا ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أَيْ: بَعْدَ فِرَاقِكَ لَهُمْ ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ فَعَبَدُوا اَلْعِجْلَ. ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ﴾ مِنْ جِهَتِهِمْ ﴿أَسِفًاۚ﴾ شَدِيدَ اَلْحُزْنِ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ أَيْ: صِدْقًا أَنَّهُ يُعْطِيكُمُ اَلتَّوْرَاةَ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ مُدَّةُ مُفَارَقَتِي إِيَّاكُمْ ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ﴾ يَجِبَ ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بِعِبَادَتِكُمُ اَلْعِجْلَ ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ۝٨٦﴾ وَتَرَكْتُمُ اَلْمَجِيءَ بَعْدِي. ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ مُثَلَّثُ اَلْمِيمِ(٢)، أَيْ: بِقُدْرَتِنَا أَوْ أَمْرِنَا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾ بِفَتْحِ اَلْحَاءِ مُخَفَّفًا، وَبِضَمِّهَا وَكَسْرِ اَلْمِيمِ مُشَدَّدًا ﴿أَوْزَارًا﴾ أَثْقَالًا ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أَيْ: حُلِيِّ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، اِسْتَعَارَهَا مِنْهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِعِلَّةِ عُرْسٍ فَبَقِيَتْ عِنْدَهُمْ ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ طَرَحْنَاهَا فِي اَلنَّارِ بِأَمْرِ اَلسَّامِرِيِّ ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا أَلْقَيْنَا ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾ مَا مَعَهُ مِنْ حُلِيِّهِمْ، وَمِنَ اَلتُّرَابِ اَلَّذِي أَخَذَهُ مِنْ أَثَرِ حَافِرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ، عَلَى اَلْوَجْهِ اَلْآتِي: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ صَاغَهُ مِنَ اَلْحُلِيِّ ﴿جَسَدًا﴾ لَحْمًا وَدَمًا(٣) ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أَيْ: صَوْتٌ يُسْمَعُ، أَيِ: اِنْقَلَبَ كَذَلِكَ بِسَبَبِ اَلتُّرَابِ اَلَّذِي أَثَرُهُ اَلْحَيَاةُ فِيمَا يُوضَعُ فِيهِ وَوَضَعَهُ

---

(١) انظر التعليق على تفسير آية (٥٧) من سورة البقرة.

(٢) أي: بالحركات الثلاث الفتح والضم والكسر للميم.

(٣) الجسد: الجسم ذو الأعضاء سواء كان حيا أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤]. قيل: هو شق طفل ولدته إحدى نسائه كما ورد في الحديث. قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنما هو الجثة، أي: أخرج لهم صورة عجل مجسدة بشكله وقوائمه وجوانبه، وليس مجرد صورة منقوشة على طبق من فضة أو ذهب ... والإخراج: إظهار ما كان محجوبا. والتعبير بالإخراج إشارة إلى أنه صنعه بحيلة مستورة عنهم حتى أتمه. والخوار: صوت البقر. وكان الذي صنع لهم العجل عارفا بصناعة الحيل التي كانوا

بَعْدَ صَوْغِهِ فِي فَمِهِ ﴿فَقَالُواْ﴾ أَيِ: السَّامِرِيُّ وَأَتْبَاعُهُ ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ مُوسَى رَبَّهُ هُنَا وَذَهَبَ يَطْلُبُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَ﴾نْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّا يَرۡجِعُ﴾ الْعِجْلُ ﴿إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ أَيْ: لَا يَرُدُّ لَهُمْ جَوَابًا ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا﴾ أَيْ: دَفْعَهُ ﴿وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾ أَيْ: جَلْبَهُ، أَيْ: فَكَيْفَ يُتَّخَذُ إِلَهًا؟ ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْجِعَ مُوسَى ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي﴾ فِي عِبَادَتِهِ ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾ فِيهَا. ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ﴾ نَزَالَ ﴿عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ عَلَى عِبَادَتِهِ مُقِيمِينَ ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١ قَالَ﴾ مُوسَى بَعْدَ رُجُوعِهِ: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢﴾ بِعِبَادَتِهِ. ﴿أَ﴾نْ ﴿لَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ «لَا» زَائِدَةٌ ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾ بِإِقَامَتِكَ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى. ﴿قَالَ﴾ هَارُونُ: ﴿يَبۡنَؤُمَّ﴾ كَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا أَرَادَ «أُمِّي» وَذِكْرُهَا أَعْطَفُ لِقَلْبِهِ ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي﴾ وَكَانَ أَخَذَهَا بِشِمَالِهِ ﴿وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ وَكَانَ أَخَذَ شَعْرَهُ بِيَمِينِهِ غَضَبًا ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ لَوِ اتَّبَعْتُكَ وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي جَمْعٌ مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وَتَغْضَبَ عَلَيَّ ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ﴾ تَنْتَظِرْ ﴿قَوۡلِي ٩٤﴾ فِيمَا رَأَيْتَهُ فِي ذَلِكَ. ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ﴾ شَأْنُكَ الدَّاعِي إِلَى مَا صَنَعْتَ ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، أَيْ: عَلِمْتُ مَا لَمْ يَعْلَمُوهُ ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ﴾ تُرَابِ ﴿أَثَرِ﴾ حَافِرِ فَرَسِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ جِبْرِيلَ ﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾ أَلْقَيْتُهَا فِي صُورَةِ الْعِجْلِ الْمُصَاغِ ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ﴾ زَيَّنَتْ ﴿لِي نَفۡسِي ٩٦﴾ وَأُلْقِيَ فِيهَا أَنْ آخُذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابِ مَا ذُكِرَ، وَأُلْقِيَهَا عَلَى مَا لَا رُوحَ لَهُ فَيَصِيرُ لَهُ رُوحٌ، وَرَأَيْتُ قَوْمَكَ طَلَبُوا مِنْكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ إِلَهًا، فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْعِجْلُ إِلَهَهُمْ(١). ﴿قَالَ﴾

يصنعون بها الأصنام ويجعلون في أجوافها وأعناقها منافذ كالزمارات تخرج منها أصوات إذا أطلقت عندها رياح بالكير ونحوه. وصنع لهم السامري صنما على صورة عجل؛ لأنهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل ... فلما رأوا ما صاغه السامري في صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأن له خوارا، رسخ في أوهامهم الآفنة أن ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبروا عنه بقولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]؛ لأنهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهموا أنه أفضل من العجل ... وإذ قد كانوا يثبتون إلها محجوبا عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته، فقالوا لموسى: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [النساء: ١٥٣]، حينئذ توهموا أن هذه ضالتهم المنشودة. [ابن عاشور (١٦/ ٢٨٦)].

(١) فيه قولان: أحدهما: أن الرسول جبريل. وفي معرفته قولان: أحدهما: لأنه رآه يوم فلق البحر فعرفه. الثاني: أن حين ولدته أمه جعلته في غار حذرا عليه من فرعون حين كان يقتل بني إسرائيل وكان جبريل يغذوه صغيرا لأجل البلوى، فعرفه حين كبر، فأخذ قبضة تراب من حافر فرسه وشدها في ثوبه ﴿فَنَبَذۡتُهَا﴾ يعني فألقيتها، وفيه وجهان: أحدهما: أنه ألقاها فيما سبكه من الحلي بصياغة العجل حتى خار بعد صياغته. الثاني: أنه ألقاها في جوف العجل بعد صياغته حتى ظهر خواره، فهذا تفسيره على قول من جعل الرسول جبريل. والقول الثاني: أن

لَهُ مُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ﴾ مِنْ بَيْنِنَا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أَيْ: مُدَّةَ حَيَاتِكَ ﴿أَن تَقُولَ﴾ لِمَنْ رَأَيْتَهُ: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أَيْ: لَا تَقْرَبْنِي، فَكَانَ يَهِيمُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَإِذَا مَسَّ أَحَدًا أَوْ مَسَّهُ أَحَدٌ حُمَّا جَمِيعًا ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ لِعَذَابِكَ ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ، أَيْ: لَنْ تَغِيبَ عَنْهُ، وَبِفَتْحِهَا أَيْ: بَلْ تُبْعَثُ إِلَيْهِ ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ﴾ أَصْلُهُ «ظَلِلْتَ» بِلَامَيْنِ أُولَاهُمَا مَكْسُورَةٌ حُذِفَتْ تَخْفِيفًا، أَيْ: دُمْتَ ﴿عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أَيْ: مُقِيمًا تَعْبُدُهُ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بِالنَّارِ ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ نُذْرِيَنَّهُ فِي هَوَاءِ الْبَحْرِ، وَفَعَلَ مُوسَى بَعْدَ ذَبْحِهِ مَا ذَكَرَهُ. ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ تَمْيِيزٌ مُحَوَّلٌ مِنَ الْفَاعِلِ، أَيْ: وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ الْقِصَّةَ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ أَخْبَارِ ﴿مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾ مِنَ الْأُمَمِ ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أَعْطَيْنَاكَ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ مِنْ عِنْدِنَا ﴿ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ قُرْآنًا. ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ حِمْلًا ثَقِيلًا مِنَ الْإِثْمِ. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أَيْ: فِي عَذَابِ الْوِزْرِ ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ تَمْيِيزٌ مُفَسِّرٌ لِلضَّمِيرِ فِي ﴿سَآءَ﴾، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: «وِزْرُهُمْ»، وَاللَّامُ لِلْبَيَانِ وَيُبْدَلُ مِنْ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ﴾ الْقَرْنِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ عُيُونُهُمْ، مَعَ سَوَادِ وُجُوهِهِمْ[1]. ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَتَسَارُّونَ ﴿إِن﴾ مَا ﴿لَّبِثْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ مِنَ اللَّيَالِي بِأَيَّامِهَا. ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

الرسول موسى، وأن أثره شريعته التي شرعها وسنته التي سنها، وأن قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحت شريعة موسى ونبذت سنته، ثم اتخذت العجل جسدا له خوار. [الماوردي (٣/ ٤٢٣)]. وعلى هذا المعنى فسر أبو مسلم الأصفهاني، ورجحه الزمخشري بتقديمه في الذكر على تفسير الجمهور، واختاره الفخر ... فقوله: ﴿بَصُرْتُ﴾ بمعنى علمت واهتديت، أي: اهتديت إلى علم ما لم يعلموه، وهو علم صناعة التماثيل والصور الذي به صنع العجل، وعلم الحيل الذي أوجد به خوار العجل. وكانت القبضة بمعنى النصيب القليل، وكان الأثر بمعنى التعليم، أي: الشريعة، وكان «نبذت» بمعنى أهملت ونقضت، أي: كنت ذا معرفة إجمالية من هدي الشريعة فانخلعت عنها بالكفر ... والمعنى: أنه اعترف أمام موسى بصنعه العجل واعترف بأنه جهل فضل، واعتذر بأن ذلك سولته له نفسه. [ابن عاشور (١٦/ ٢٩٦)].

(١) والزرقة الخضرة في العين كعين السنور ... والزراقة أسوأ ألوان العين، وأبغضها إلى العرب ولذلك قالوا في صفة العدو: «أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين». وقال الفراء: زرقًا أي: عميًا، وقال الأزهري: عطاشًا، وهو قول الزجاج لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقة ... وقيل: هو كناية عن شخوص البصر من شدة الحرص، والقول الأول أولى، والجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم، قال ابن عباس: فيه حالات يكونون في حال زرقًا، وفي حال عميًا. [صديق حسن (٨/ ٢٧٥)].

﴿يَقُولُونَ﴾ فِي ذَلِكَ، أَيْ: لَيْسَ كَمَا قَالُوا ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ﴾ أَعْدَلُهُمْ ﴿طَرِيقَةً﴾ فِيهِ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ يَسْتَقِلُّونَ لُبْثَهُمْ فِي الدُّنْيَا جِدًّا، لِمَا يُعَايِنُونَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ كَيْفَ تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ بِأَنْ يُفَتِّتَهَا كَالرَّمْلِ السَّائِلِ ثُمَّ يُطَيِّرَهَا بِالرِّيَاحِ. ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا﴾ مُنْبَسِطًا ﴿صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ مُسْتَوِيًا. ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ انْخِفَاضًا ﴿وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ ارْتِفَاعًا. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: يَوْمَ إِذْ نُسِفَتِ الْجِبَالُ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أَيِ: النَّاسُ بَعْدَ الْقِيَامِ مِنَ الْقُبُورِ ﴿ٱلدَّاعِىَ﴾ إِلَى الْمَحْشَرِ بِصَوْتِهِ وَهُوَ إِسْرَافِيلُ يَقُولُ: هَلُمُّوا إِلَى عَرْضِ الرَّحْمَنِ(١) ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أَيْ: لِاتِّبَاعِهِمْ، أَيْ: لَا يَقْدِرُونَ أَلَّا يَتَّبِعُوا ﴿وَخَشَعَتِ﴾ سَكَنَتْ ﴿ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ صَوْتَ وَطْءِ الْأَقْدَامِ فِي نَقْلِهَا إِلَى الْمَحْشَرِ كَصَوْتِ أَخْفَافِ الْإِبِلِ فِي مَشْيِهَا ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أَحَدًا ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أَنْ يُشْفَعَ لَهُ ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ بِأَنْ يَقُولَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(٢). ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ خَضَعَتْ ﴿لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أَيِ: اللهِ ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خَسِرَ ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ أَيْ: شِرْكًا. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الطَّاعَاتِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ بِزِيَادَةٍ فِي

---

(١) الداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب. قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب، والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه. ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾: أي: لا يحيدون عنه، ولا يميلون يمينا، ولا شمالا. وقيل: لا عوج لدعاء الملك عن أحد، أي: لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعا. وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ - ٨]، والإهطاع: الإسراع: وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق: ٤١ - ٤٢]. [الشنقيطي (٤/ ٦٤١)].

(٢) أي: رضي قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع، والمعنى: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له وكان له قول يرضى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧] ... وفيه دلالة على أنه لا يشفع أحد لأحد إلا لمن يأذن الله له فيها، فلا شفاعة إلا بإذن منه سبحانه، وهذا يدل على أنه لا يشفع لغير المؤمنين، وبه صرح البغوي، وهذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفساق، لأن قوله ورضي له قولا، يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولا واحدا من أقواله. والفاسق قد رضي الله من أقواله شهادة أن لا إله إلا الله، فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له بعد الإذن، لأن الاستثناء من النفي إثبات. والجملة تفسير لمن يؤذن في الشفاعة له. [صديق حسن (٨/ ٢٧٩)].

سَيِّئَاتِهِ ﴿وَلَا هَضْمًا ١١٢﴾ بِنَقْصٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾، أَيْ: مِثْلَ إِنْزَالِ مَا ذُكِرَ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا﴾ كَرَّرْنَا ﴿فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ الْقُرْآنُ ﴿لَهُمْ ذِكْرًا ١١٣﴾ بِهَلَاكِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فَيَعْتَبِرُوا. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ عَمَّا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أَيْ: بِقِرَاءَتِهِ ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أَيْ: يَفْرُغَ جِبْرِيلُ مِنْ إِبْلَاغِهِ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١١٤﴾ أَيْ: بِالْقُرْآنِ، فَكُلَّمَا نَزَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ زَادَ بِهِ عِلْمُهُ. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ وَصَّيْنَاهُ أَلَّا يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ أَكْلِهِ مِنْهَا ﴿فَنَسِيَ﴾ تَرَكَ عَهْدَنَا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ حَزْمًا وَصَبْرًا عَمَّا نَهَيْنَاهُ عَنْهُ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وَهُوَ أَبُو الْجِنِّ كَانَ يَصْحَبُ الْمَلَائِكَةَ وَيَعْبُدُ اللهَ مَعَهُمْ[1] ﴿أَبَىٰ ١١٦﴾ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]. ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ حَوَّاءَ بِالْمَدِّ ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧﴾ تَتْعَبَ بِالْحَرْثِ وَالزَّرْعِ وَالْحَصْدِ وَالطَّحْنِ وَالْخَبْزِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاقْتَصَرَ عَلَى شَقَائِهِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَسْعَى عَلَى زَوْجَتِهِ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِهَا، عَطْفٌ عَلَى اسْمِ ﴿إِنَّ﴾ وَجُمْلَتِهَا ﴿لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾ تَعْطَشُ ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ١١٩﴾ لَا يَحْصُلُ لَكَ حَرُّ شَمْسِ الضُّحَى، لِانْتِفَاءِ الشَّمْسِ فِي الْجَنَّةِ. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أَيِ: الَّتِي يُخَلَّدُ مَنْ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ١٢٠﴾ لَا يَفْنَى، وَهُوَ لَازِمُ الْخُلُودِ. ﴿فَأَكَلَا﴾ أَيْ: آدَمُ وَحَوَّاءُ ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أَيْ: ظَهَرَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا قُبُلُهُ وَقُبُلُ الْآخَرِ وَدُبُرُهُ، وَسُمِّيَ كُلٌّ مِنْهُمَا سَوْأَةً؛ لِأَنَّ انْكِشَافَهُ يَسُوءُ صَاحِبَهُ ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أَخَذَا يُلْزِقَانِ[2] ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ لِيَسْتَتِرَا بِهِ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ. ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ قَرَّبَهُ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قَبِلَ تَوْبَتَهُ ﴿وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ أَيْ: هَدَاهُ إِلَى الْمُدَاوَمَةِ عَلَى التَّوْبَةِ. ﴿قَالَ ٱهْبِطَا﴾ أَيْ: آدَمُ وَحَوَّاءُ بِمَا اشْتَمَلْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمَا ﴿مِنْهَا﴾ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ﴾ بَعْضُ الذُّرِّيَّةِ ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ مِنْ ظُلْمِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ الْقُرْآنِ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ بِالتَّنْوِينِ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: ضَيِّقَةٍ، وَفُسِّرَتْ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (٣٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر التعليق على تفسير الآية (٢٢) من سورة الأعراف.

فِي حَدِيثٍ: بِعَذَابِ ٱلْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ[(١)] ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ أَيِ: ٱلْمُعْرِضَ عَنِ ٱلْقُرْآنِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ١٢٤﴾ أَيْ: أَعْمَى ٱلْبَصَرِ[(٢)]. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ١٢٥﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَعِنْدَ ٱلْبَعْثِ. ﴿قَالَ﴾ ٱلْأَمْرُ ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ﴾ تَرَكْتَهَا، وَلَمْ تُؤْمِنْ بِهَا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مِثْلَ نِسْيَانِكَ آيَاتِنَا ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ تُتْرَكُ فِي ٱلنَّارِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وَمِثْلَ جَزَائِنَا مَنْ أَعْرَضَ عَنِ ٱلْقُرْآنِ ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ أَشْرَكَ ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ﴾ مِنْ عَذَابِ ٱلدُّنْيَا وَعَذَابِ ٱلْقَبْرِ ﴿وَأَبْقَىٰٓ ١٢٧﴾ أَدْوَمُ. ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ يَتَبَيَّنْ ﴿لَهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ﴿كَمْ﴾ خَبَرِيَّةٌ مَفْعُولٌ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أَيْ: كَثِيرًا إِهْلَاكُنَا ﴿قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أَيِ: ٱلْأُمَمِ ٱلْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِ ٱلرُّسُلِ ﴿يَمْشُونَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «لَهُمْ» ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْۗ﴾ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى ٱلشَّامِ وَغَيْرِهَا فَيَعْتَبِرُوا، وَمَا ذُكِرَ مِنْ أَخْذِ «إِهْلَاكٍ» مِنْ فِعْلِهِ ٱلْخَالِي عَنْ حَرْفٍ مَصْدَرِيٍّ لِرِعَايَةِ ٱلْمَعْنَى، لَا مَانِعَ مِنْهُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ لَعِبَرًا ﴿لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ لِذَوِي ٱلْعُقُولِ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ ٱلْعَذَابِ عَنْهُمْ إِلَى ٱلْآخِرَةِ ﴿لَكَانَ﴾ ٱلْإِهْلَاكُ ﴿لِزَامًا﴾ لَازِمًا لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ١٢٩﴾ مَضْرُوبٌ لَهُمْ، مَعْطُوفٌ عَلَى ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَتِرِ فِي «كَانَ»، وَقَامَ ٱلْفَصْلُ بِخَبَرِهَا مَكَانَ ٱلتَّأْكِيدِ. ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ ٱلْقِتَالِ[(٣)] ﴿وَسَبِّحْ﴾ صَلِّ ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حَالٌ، أَيْ: مُلْتَبِسًا بِهِ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ صَلَاةِ ٱلصُّبْحِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ سَاعَاتِهِ ﴿فَسَبِّحْ﴾ صَلِّ ٱلْمَغْرِبَ وَٱلْعِشَاءَ ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ عَطْفٌ عَلَى مَحَلِّ ﴿مِنْ ءَانَآيِٕ﴾ ٱلْمَنْصُوبِ، أَيْ: صَلِّ ٱلظُّهْرَ؛ لِأَنَّ وَقْتَهَا يَدْخُلُ بِزَوَالِ ٱلشَّمْسِ، فَهُوَ طَرَفُ ٱلنِّصْفِ ٱلْأَوَّلِ وَطَرَفُ ٱلنِّصْفِ ٱلثَّانِي ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ١٣٠﴾ بِمَا تُعْطَى مِنَ ٱلثَّوَابِ[(٤)]. ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أَصْنَافًا ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ زِينَتَهَا وَبَهْجَتَهَا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ

---

(١) انظر الدر المنثور (٤/ ٥٥٦).

(٢) انظر التعليق على تفسير الآية (١٠٢) من سورة طه.

(٣) من أنك ساحر كذاب شاعر كاهن ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة، والمعنى: لا تحتفل بهم فإن لعذابهم وقتاً مضروباً بألا يتقدم ولا يتأخر، وأنهم معذبون لا محالة فتَسَلَّ واصبر. وقيل: هذا منسوخ بآية القتال. وقيل: إنها محكمة. قال الشهاب: الفاء سببية، والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر عنهم لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة. [صديق حسن (٨/ ٢٩٣)].

(٤) أي: رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك، من رفع ذكرك. ونقهرك على عدوك وبلوغ أمنيتك من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]. [القاسمي (٧/ ١٦٦)]. ولعل من الله واجبة. [مكي بن أبي طالب (٧/ ٤٧١٩)].

﴿فِيهِۚ﴾ بِأَنْ يَطْغَوْا ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ﴾ مِمَّا أُوتُوهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ أَدْوَمُ[1]. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ﴾ اِصْبِرْ ﴿عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ﴾ نُكَلِّفُكَ ﴿رِزْقًاۖ﴾ لِنَفْسِكَ وَلَا لِغَيْرِكَ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الْجَنَّةُ ﴿لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ لِأَهْلِهَا[2]. ﴿وَقَالُوا۟﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿يَأْتِينَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ مِمَّا يَقْتَرِحُونَهُ ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿بَيِّنَةُ﴾ بَيَانُ ﴿مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ الْمُشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَإِهْلَاكِهِمْ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ. ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ قَبْلَ مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ ﴿لَقَالُوا۟﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الْمُرْسَلَ بِهَا ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ فِي الْقِيَامَةِ ﴿وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ فِي جَهَنَّمَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿كُلٌّ﴾ مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ مُنْتَظِرٌ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ۖ فَسَتَعْلَمُونَ﴾ فِي الْقِيَامَةِ ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ﴾ الطَّرِيقِ ﴿ٱلسَّوِيِّ﴾ الْمُسْتَقِيمِ ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ أَنَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ.

---

(١) أي: لا تمد عينيك معجبا، ولا تكرر النظر مستحسنا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملة، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها بقطع النظر عن الآخرة القوم الظالمون، ثم تذهب سريعا، وتمضي جميعا، وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارا، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧-٨]. [السعدي (ص:٥١٦)]. في الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهم فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير وليس في البيت إلا صبرة من قرظ، وأهب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟» فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أَوَفِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا». أخرجه البخاري (٤٩١٣). فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئا لغد. [ابن كثير (٣٢٦/٥)].

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧] قال بعض المفسرين: معنى الآية: أقبل مع أهلك على الصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم. ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة، فإن رزقك مكفي من عندنا، ونحن رازقوك. وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقا ولا مفهوما. وفيه حض على القعود عن الكسب، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعي المأمور به. وقد قال تعالى في وصف المتقين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]. [القاسمي (١٦٨/٧)].

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وإِحْدَى أَوَ اثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ قَرُبَ **﴿لِلنَّاسِ﴾** أَهْلِ مَكَّةَ، مُنْكِرِي اَلْبَعْثِ **﴿حِسَابُهُمۡ﴾** يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ **﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾** عَنْهُ **﴿مُّعۡرِضُونَ ١﴾** عَنِ اَلتَّأَهُّبِ لَهُ بِالْإِيمَانِ. **﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾** شَيْئًا فَشَيْئًا، أَيْ: لَفْظِ قُرْآنٍ[1] **﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾** يَسْتَهْزِئُونَ. **﴿لَاهِيَةٗ﴾** غَافِلَةً **﴿قُلُوبُهُمۡۗ﴾** عَنْ مَعْنَاهُ **﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾** أَيْ: اَلْكَلَامَ **﴿ٱلَّذِينَ**

---

(١) استدل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع. وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية. فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثا لكونه مؤلفا من أصوات وحروف. فهو قائم بغيره، وقالوا: معنى كونه متكلما، أنه موجد لتلك الحروف والأصوات في الجسم. كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبي عليه الصلاة والسلام، أو غيرهم كشجرة موسى. وأما الكرامية، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفا للعرف واللغة، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى. فذهبوا إلى حدوث الدال والمدلول. وجوزوا كونه تعالى محلا للحوادث. والأشعرية قالوا: إن الكلام المتلو دال على الصفة القديمة النفسية، التي هي الكلام عندهم حقيقة. قالوا: فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات، وسمعوها وبلغوها إلى أممهم، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول. لا مدلولها التي هي تلك الصفة القديمة. والمسألة شهير ما للعلماء فيها. والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر، حجة فيما ذهب إليها. وقد عد الإمام ابن تيمية، عليه الرحمة والرضوان، هذا الاحتجاج من الأغلاط، وعبارته في كتابه (مطابقة المنقول للمعقول): احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة، بهذه الآية، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم، أقوى منها على قولهم. فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث، وبعضه ليس بمحدث، وهو ضد قولهم. والحدوث في لغة العرب العام ليس هو الحدوث في اصطلاح أهل الكلام. فإن العرب يسمون ما تجدد حادثا، وما تقدم على غيره قديما. وإن كان بعد أن لم يكن كقوله تعالى: ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] وقوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ [الأحقاف: ١١] وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٦] انتهى. [القاسمي (٧/ ١٧٤)]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: السلف قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء. فبينوا أن كلام الله قديم، أي: جنسه قديم لم يزل. ولم يقل أحد منهم: إن نفس الكلام المعين قديم، ولا قال أحد منهم القرآن قديم. بل قالوا: إنه كلام الله منزل غير مخلوق. وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته، كان القرآن كلامه، وكان منزلا منه غير مخلوق، ولم يكن مع ذلك أزليا قديما بقدم الله، وإن كان الله لم يزل متكلما إذا شاء؛ فجنس كلامه قديم. فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض. [مجموع الفتاوى (١٢/ ٥٤)].

ظَلَمُواْ﴾ بَدَلٌ مِنْ وَاوِ ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ ﴿هَلْ هَٰذَآ﴾ أَيْ :مُحَمَّدٌ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ﴾ فَمَا يَأْتِي بِهِ سِحْرٌ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ تَتَّبِعُونَهُ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ٣﴾ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ سِحْرٌ. ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ﴾ كَائِنًا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمَا أَسَرُّوهُ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٤﴾ بِهِ. ﴿بَلْ﴾ لِلانْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلثَّلَاثَةِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ فِيمَا أَتَى بِهِ مِنَ ٱلْقُرْآنِ: هُوَ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أَخْلَاطٌ رَآهَا فِي ٱلنَّوْمِ ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اِخْتَلَقَهُ ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ فَمَا أَتَى بِهِ شِعْرٌ ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ٥﴾ كَالنَّاقَةِ وَالْعَصَا وَالْيَدِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ أَيْ: أَهْلُهَا ﴿أَهْلَكْنَٰهَآۖ﴾ بِتَكْذِيبِهَا مَا أَتَاهَا مِنَ ٱلْآيَاتِ ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ٦﴾ لَا. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْيَاءِ وَفَتْحِ ٱلْحَاءِ ﴿إِلَيْهِمْۖ﴾ لَا مَلَائِكَةً ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ ٱلْعُلَمَاءَ بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٧﴾ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ، وَأَنْتُمْ إِلَى تَصْدِيقِهِمْ أَقْرَبُ مِنْ تَصْدِيقِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ[1]. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ أَيِ: الرُّسُلَ ﴿جَسَدًا﴾ بِمَعْنَى أَجْسَادًا ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ بَلْ يَأْكُلُونَهُ ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾ فِي ٱلدُّنْيَا. ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ بِإِنْجَائِهِمْ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ أَيِ: ٱلْمُصَدِّقِينَ لَهُمْ ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ٩﴾ ٱلْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ. ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۚ﴾ لِأَنَّهُ بِلُغَتِكُمْ[2] ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٠﴾ فَتُؤْمِنُوا بِهِ. ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أَهْلَكْنَا ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ أَيْ: أَهْلِهَا ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ كَافِرَةً ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ أَيْ: شَعَرَ أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ بِالْإِهْلَاكِ ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ١٢﴾ يَهْرُبُونَ مُسْرِعِينَ. فَقَالَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ اِسْتِهْزَاءً: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ﴾ نُعِّمْتُمْ ﴿فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ١٣﴾ شَيْئًا مِنْ دُنْيَاكُمْ عَلَى ٱلْعَادَةِ. ﴿قَالُواْ يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿وَيْلَنَآ﴾ هَلَاكَنَا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾ بِالْكُفْرِ. ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ ٱلْكَلِمَاتُ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ يَدْعُونَ بِهَا وَيُرَدِّدُونَهَا ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ كَالزَّرْعِ ٱلْمَحْصُودِ بِالْمَنَاجِلِ، بِأَنْ قُتِلُوا بِالسُّيُوفِ ﴿خَٰمِدِينَ ١٥﴾ مَيِّتِينَ كَخُمُودِ ٱلنَّارِ إِذَا طُفِئَتْ. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾

---

(١) وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه. وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية. [السعدي (ص:٥١٩)].

(٢) صيتكم كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أو موعظتكم، أو ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق. [البيضاوي (٤/٤٧)].

عَابِثِينَ، بَلْ دَالِّينَ عَلَى قُدْرَتِنَا وَنَافِعِينَ عِبَادَنَا. ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أَيْ: مَا يُلْهَى بِهِ مِنْ زَوْجَةٍ أَوْ وَلَدٍ ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ مِنْ عِنْدِنَا مِنَ الْحُورِ الْعِينِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ ذَلِكَ، لَكِنَّا لَمْ نَفْعَلْهُ فَلَمْ نُرِدْهُ. ﴿بَلْ نَقْذِفُ﴾ نَرْمِي ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الْإِيمَانِ ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ الْكُفْرِ ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ يُذْهِبُهُ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذَاهِبٌ، وَ«دَمَغَهُ» فِي الْأَصْلِ أَصَابَ دِمَاغَهُ بِالضَّرْبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ ﴿وَلَكُمُ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿ٱلْوَيْلُ﴾ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ ﴿مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ اللهَ بِهِ، مِنَ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ. ﴿وَلَهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةُ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩﴾ لَا يَعْيَوْنَ. ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾ عَنْهُ، فَهُوَ مِنْهُمْ كَالنَّفَسِ مِنَّا، لَا يَشْغَلُنَا عَنْهُ شَاغِلٌ. ﴿أَمِ﴾ بِمَعْنَى: «بَلْ» لِلِانْتِقَالِ وَهَمْزَةِ الْإِنْكَارِ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾ كَائِنَةً ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كَحَجَرٍ وَذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ﴿هُمْ﴾ أَيِ: الْآلِهَةُ ﴿يُنشِرُونَ ٢١﴾ أَيْ: يُحْيُونَ الْمَوْتَى؟ لَا، وَلَا يَكُونُ إِلَهًا إِلَّا مَنْ يُحْيِي الْمَوْتَى. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أَيِ: السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أَيْ: خَرَجَتَا عَنْ نِظَامِهِمَا الْمُشَاهَدِ؛ لِوُجُودِ التَّمَانُعِ بَيْنَهُمْ عَلَى وَفْقِ الْعَادَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِ الْحَاكِمِ، مِنَ التَّمَانُعِ فِي الشَّيْءِ وَعَدَمِ الِاتِّفَاقِ عَلَيْهِ[1] ﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ تَنْزِيهُ ﴿ٱللَّهِ رَبِّ﴾ خَالِقِ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ الْكُرْسِيِّ[2] ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ الْكُفَّارُ اللهَ بِهِ مِنَ الشَّرِيكِ لَهُ وَغَيْرِهِ. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ٢٣﴾ عَنْ أَفْعَالِهِمْ. ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ تَعَالَى، أَيْ: سِوَاهُ ﴿ءَالِهَةً﴾ فِيهِ اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ عَلَى ذَلِكَ وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أَيْ: أُمَّتِي، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ مِنَ الْأُمَمِ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ كُتُبِ اللهِ، لَيْسَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا أَنَّ مَعَ اللهِ إِلَهًا مِمَّا قَالُوا تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ تَوْحِيدَ اللهِ ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٤﴾ عَنِ النَّظَرِ الْمُوصِلِ إِلَيْهِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْيَاءِ وَفَتْحِ الْحَاءِ ﴿إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾

---

(١) وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذًا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. [السعدي (ص:٥٢١)].

(٢) انظر إلى التعليق على تفسير آية (٢٥٥) من سورة البقرة.

﴿٢٥﴾ أَيْ: وَحِّدُونِ. ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ﴾ هُمْ ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ عِنْدَهُ، وَالْعُبُودِيَّةُ تُنَافِي الْوِلَادَةَ. ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ لَا يَأْتُونَ بِقَوْلِهِمْ إِلَّا بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أَيْ: بَعْدَهُ. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مَا عَمِلُوا، وَمَا هُمْ عَامِلُونَ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ تَعَالَى أَنْ يُشْفَعَ لَهُ(١) ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ تَعَالَى ﴿مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ خَائِفُونَ. ﴿۞وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أَيِ: اللهِ، أَيْ: غَيْرُهُ وَهُوَ إِبْلِيسُ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَأَمَرَ بِطَاعَتِهَا ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا نَجْزِيهِ ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أَيِ: الْمُشْرِكِينَ. ﴿أَوَلَمْ﴾ بِوَاوٍ وَتَرْكِهَا ﴿يَرَ﴾ يَعْلَمِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ «سَدًّا» بِمَعْنَى: مَسْدُودَةً ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَبْعًا وَالْأَرْضَ سَبْعًا، أَوْ فَتَقَ السَّمَاءَ أَنْ كَانَتْ لَا تُمْطِرُ فَأَمْطَرَتْ، وَفَتَقَ الْأَرْضَ أَنْ كَانَتْ لَا تُنْبِتُ فَأَنْبَتَتْ(٢) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِعِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ مِنْ نَبَاتٍ وَغَيْرِهِ، أَيْ: فَالْمَاءُ سَبَبٌ لِحَيَاتِهِ ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ بِتَوْحِيدِي. ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿تَمِيدَ﴾ تَتَحَرَّكَ ﴿بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ الرَّوَاسِي ﴿فِجَاجًا﴾ مَسَالِكَ ﴿سُبُلًا﴾ بَدَلٌ، طُرُقًا نَافِذَةً وَاسِعَةً(٣) ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ إِلَى مَقَاصِدِهِمْ فِي الْأَسْفَارِ. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ لِلْأَرْضِ كَالسَّقْفِ

---

(١) من جزئيات وصفهم، بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه، شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل، إلا ما كان خالصا لوجهه، متبعا فيه الرسول ﷺ، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. [السعدي (ص:٥٢١)].

(٢) هذا القول قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى: الأولى: أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك؛ لأن الأظهر في «رأى» أنها بصرية، والذي يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها، فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر وإنباته به أنواع النبات. القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله، أي: وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي. القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق: ١١-١٢] لأن المراد بالرجع نزول المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع انشقاق الأرض عن النبات، وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عبس: ٢٤-٢٦]. واختار هذا القول ابن جرير، وابن عطية، وغيرهما؛ للقرائن التي ذكرنا. ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى، وعظم منته على خلقه، وقدرته على البعث. [الشنقيطي (٤/ ٧٠٣)].

(٣) المعنى: وجعلنا في الأرض فجاجا. ولما كان ﴿فِجَاجًا﴾ معناه واسعة كان في المعنى وصفا للسبيل، فلما قدم على موصوفه انتصب

لِلْبَيْتِ ﴿مَّحْفُوظًا﴾ عَنِ الْوُقُوعِ ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ ﴿مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ لا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا فَيَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَهَا لَا شَرِيكَ لَهُ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ تَنْوِينُهُ عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَتَابِعِهِ، وَهُوَ النُّجُومُ ﴿فِى فَلَكٍ﴾ أَيْ: مُسْتَدِيرٍ كَالطَّاحُونَةِ فِي السَّمَاءِ ﴿يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ يَسِيرُونَ بِسُرْعَةٍ، كَالسَّابِحِ فِي الْمَاءِ، وَلِلتَّشْبِيهِ بِهِ أَتَى بِضَمِيرِ جَمْعِ مَنْ يَعْقِلُ[1]. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْكُفَّارُ إِنَّ مُحَمَّدًا سَيَمُوتُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أَيِ: الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ فِيهَا؟ لَا، فَالْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ نَخْتَبِرُكُمْ ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ كَفَقْرٍ وَغِنًى، وَسَقَمٍ وَصِحَّةٍ ﴿فِتْنَةً﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: لِنَنْظُرَ أَتَصْبِرُونَ وَتَشْكُرُونَ، أَمْ لَا ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ فَنُجَازِيكُمْ. ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن﴾ مَا ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أَيْ: مَهْزُوءًا بِهِ، يَقُولُونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أَيْ: يَعِيبُهَا ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لَهُمْ ﴿هُمْ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿كَٰفِرُونَ ۝٣٦﴾ بِهِ، إِذْ قَالُوا مَا نَعْرِفُهُ. وَنَزَلَ

على الحال. والمقصود إتمام المنة بتسخير سطح الأرض ليسلكوا منها طرقا واسعة، ولو شاء لجعل مسالك ضيقة بين الجبال كأنها الأودية. [ابن عاشور (١٧/ ٥٧)].

(١) مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأنه لما ذكر الأشياء المتضادة بالحقائق أو بالأوقات ذكرا مجملا في بعضها الذي هو آيات السماء، ومفصلا في بعض آخر وهو الشمس والقمر، كان المقام مثيرا في نفوس السامعين سؤالا عن كيفية سيرها، وكيف لا يقع لها اصطدام أو يقع منها تخلف عن الظهور في وقته المعلوم، فأجيب بأن كل المذكورات له فضاء يسير فيه لا يلاقي فضاء سير غيره، وضمير ﴿يَسْبَحُونَ﴾ عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر، وأجري عليها ضمير جماعة الذكور باعتبار تذكير أسماء بعضها مثل القمر والكوكب. وقال في الكشاف: إنه روعي فيه وصفها بالسباحة التي هي من أفعال العقلاء فأجري عليها أيضا ضمير العقلاء، يعني فيكون ذلك ترشيحا للاستعارة. وقوله تعالى: ﴿فِى فَلَكٍ﴾ ظرف مستقر خبر عن ﴿كُلٌّ﴾، و ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه، أي: كل تلك، فهو معرفة تقديرا، وهو المقصود من الاستئناف بأن يفاد أن كلا من المذكورات مستقر في فلك لا يصادم فلك غيره، وقد علم من لفظ ﴿كُلٌّ﴾ ومن ظرفية ﴿فِى﴾ أن لفظ ﴿فَلَكٍ﴾ عام، أي: لكل منها فلكه، فهي أفلاك كثيرة. وجملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ في موضع الحال. والسبح: مستعار للسير في متسع، لا طرائق فيه متلاقية كطرائق الأرض، وهو تقريب لسير الكواكب في الفضاء العظيم. والفلك فسره أهل اللغة بأنه مدار النجوم، وكذلك فسره المفسرون لهذه الآية، ... والأصل الأصيل في ذلك كله فلكة المغزل، بفتح الفاء وسكون اللام، وهي خشبة مستديرة في أعلاها مسمار مثني يدخل فيه الغزل ويدار لينفتل الغزل. ومن بدائع الإعجاز في هذه الآية أن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ فيه محسن بديعي، فإن حروفه تقرأ من آخرها على الترتيب كما تقرأ من أولها مع خفة التركيب ووفرة الفائدة وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣] بطرح واو العطف، وكلتا الآيتين بني على سبعة أحرف. [ابن عاشور (١٧/ ٦٠)].

فِي اسْتِعْجَالِهِمْ الْعَذَابَ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ أَيْ: أَنَّهُ لِكَثْرَةِ عَجَلِهِ فِي أَحْوَالِهِ كَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْهُ[1] ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ مَوَاعِيدِي بِالْعَذَابِ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ٣٧﴾ فِيهِ فَأَرَاهُمْ الْقَتْلَ بِبَدْرٍ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بِالْقِيَامَةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ فِيهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ يَدْفَعُونَ ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٣٩﴾ يُمْنَعُونَ مِنْهَا فِي الْقِيَامَةِ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾: مَا قَالُوا ذَلِكَ. ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ الْقِيَامَةُ ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تُحَيِّرُهُمْ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٤٠﴾ يُمْهَلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْذِرَةٍ. ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٤١﴾ وَهُوَ الْعَذَابُ، فَكَذَا يَحِيقُ بِمَنِ اسْتَهْزَأَ بِكَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يَحْفَظُكُمْ ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِۗ﴾ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ نَزَلَ بِكُمْ، أَيْ: لَا أَحَدَ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَالْمُخَاطَبُونَ لَا يَخَافُونَ عَذَابَ اللهِ لِإِنْكَارِهِمْ لَهُ ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿مُّعْرِضُونَ ٤٢﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ. ﴿أَمْ﴾ فِيهَا مَعْنَى الْهَمْزَةِ لِلْإِنْكَارِ، أَيْ: أَ ﴿لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم﴾ مِمَّا يَسُوؤُهُمْ ﴿مِّن دُونِنَاۚ﴾ أَيْ: أَلَهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ غَيْرُنَا؟ لَا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَيِ: الْآلِهَةُ ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ فَلَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴿وَلَا هُم﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ ﴿مِّنَّا﴾ مِنْ عَذَابِنَا ﴿يُصْحَبُونَ ٤٣﴾ يُجَارُونَ، يُقَالُ: صَحِبَكَ اللهُ، أَيْ: حَفِظَكَ وَأَجَارَكَ. ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بِمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۗ﴾ فَاغْتَرُّوا بِذَلِكَ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ نَقْصِدُ أَرْضَهُمْ ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآۚ﴾ بِالْفَتْحِ عَلَى النَّبِيِّ ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ لَا بَلِ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ[2]. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ﴾ مِنَ اللهِ لَا مِنْ قِبَلِ نَفْسِي ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْيَاءِ ﴿مَا يُنذَرُونَ ٤٥﴾ أَيْ: هُمْ لِتَرْكِهِمُ الْعَمَلَ بِمَا

---

(١) كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه. كقولك: خلق زيد من الكرم، تنزيلا لما طبع عليه من الأخلاق، منزلة ما طبع هو منه من الأركان، إيذانا بغاية لزومه له، وعدم انفكاكه عنه، فالآية استعارة مكنية، بتشبيه العَجل لكونه مطبوعا عليه، بمادته. ويجوز أن تكون تصريحية. والمراد بالإنسان الجنس. ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد. [القاسمي (٧/ ١٩٤)].

(٢) اختلف المفسرون في معناه، ... وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]. وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون. [ابن كثير (٥/ ٣٤٥)].

سَمِعُوهُ مِنَ الْإِنْذَارِ، كَالصُّمِّ. ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ وَقْعَةٌ خَفِيفَةٌ ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿وَيْلَنَآ﴾ هَلَاكَنَا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾ بِالْإِشْرَاكِ وَتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ. ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ ذَوَاتَ الْعَدْلِ ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَيْ: فِيهِ ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ مِنْ نَقْصِ حَسَنَةٍ، أَوْ زِيَادَةِ سَيِّئَةٍ ﴿وَإِن كَانَ﴾ الْعَمَلُ ﴿مِثْقَالَ﴾ زِنَةَ ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ بِمَوْزُونِهَا ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ مُحْصِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أَيِ: التَّوْرَاةَ الْفَارِقَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ﴿وَضِيَآءً﴾ بِهَا ﴿وَذِكْرًا﴾ عِظَةً بِهَا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ عَنِ النَّاسِ، أَيْ: فِي الْخَلَاءِ عَنْهُمْ ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أَيْ: أَهْوَالِهَا ﴿مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ خَائِفُونَ. ﴿وَهَٰذَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ الِاسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلتَّوْبِيخِ. ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: هُدَاهُ قَبْلَ بُلُوغِهِ ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ بِأَنَّهُ أَهْلٌ لِذَلِكَ. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الْأَصْنَامُ ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ أَيْ: عَلَى عِبَادَتِهَا مُقِيمُونَ. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ. ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ بِعِبَادَتِهَا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤﴾ بَيِّنٍ. ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فِي قَوْلِكَ هَذَا ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾ فِيهِ. ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ﴾ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ ﴿رَبُّ﴾ مَالِكُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ خَلَقَهُنَّ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ الَّذِي قُلْتُهُ ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾ بِهِ. ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ﴾ بَعْدَ ذَهَابِهِمْ إِلَى مُجْتَمَعِهِمْ فِي يَوْمِ عِيدٍ لَهُمْ ﴿جُذَٰذًا﴾ بِضَمِّ الْجِيمِ وَكَسْرِهَا، فُتَاتًا بِفَأْسٍ ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ عَلَّقَ الْفَأْسَ فِي عُنُقِهِ ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أَيْ: إِلَى الْكَبِيرِ ﴿يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ فَيَرَوْنَ مَا فَعَلَ بِغَيْرِهِ. ﴿قَالُوا۟﴾ بَعْدَ رُجُوعِهِمْ وَرُؤْيَتِهِمْ مَا فَعَلَ: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ فِيهِ. ﴿قَالُوا۟﴾ أَيْ: بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أَيْ: يَعِيبُهُمْ ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: ظَاهِرًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ عَلَيْهِ أَنَّهُ الْفَاعِلُ. ﴿قَالُوٓا۟﴾ لَهُ بَعْدَ إِتْيَانِهِ: ﴿ءَأَنتَ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ ﴿فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ﴾ سَاكِتًا عَنْ فِعْلِهِ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ عَنْ فَاعِلِهِ ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ فِيهِ تَقْدِيمُ جَوَابِ الشَّرْطِ، وَفِيمَا قَبْلَهُ تَعْرِيضٌ لَهُمْ بِأَنَّ الصَّنَمَ الْمَعْلُومَ عَجْزُهُ عَنِ الْفِعْلِ لَا يَكُونُ إِلَهًا[1]. ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بِالتَّفَكُّرِ ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لِأَنفُسِهِمْ: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤﴾ أَيْ:

---

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ كُلُّهُنَّ فِي اللهِ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:

بِعِبَادَتِكُمْ مَنْ لَا يَنْطِقُ. ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ﴾ مِنَ اللهِ[1] ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أَيْ: رُدُّوا إِلَى كُفْرِهِمْ، وَقَالُوا: وَاللهِ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أَيْ: فَكَيْفَ تَأْمُرُنَا بِسُؤَالِهِمْ. ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: بَدَلَهُ ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ شَيْئًا إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ. ﴿أُفٍّ﴾ بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحِهَا بِمَعْنَى مَصْدَرٍ، أَيْ: نَتْنًا وَقُبْحًا ﴿لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَلَا تَصْلُحُ لَهَا، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّهَا اللهُ تَعَالَى. ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ أَيْ: إِبْرَاهِيمَ ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أَيْ: بِتَحْرِيقِهِ ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ نُصْرَتَهَا. فَجَمَعُوا لَهُ الْحَطَبَ الْكَثِيرَ وَأَضْرَمُوا النَّارَ فِي جَمِيعِهِ وَأَوْثَقُوا إِبْرَاهِيمَ وَجَعَلُوهُ فِي مَنْجَنِيقٍ وَرَمَوْهُ فِي النَّارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ فَلَمْ تُحْرِقْ مِنْهُ غَيْرَ وَثَاقِهِ، وَذَهَبَتْ حَرَارَتُهَا وَبَقِيَتْ إِضَاءَتُهَا، وَبِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ سَلِمَ مِنَ الْمَوْتِ بِبَرْدِهَا. ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ وَهُوَ التَّحْرِيقُ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ فِي مُرَادِهِمْ. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ ابْنَ أَخِيهِ هَارَانَ مِنَ الْعِرَاقِ ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ بِكَثْرَةِ الْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَهِيَ: الشَّامُ، نَزَلَ إِبْرَاهِيمُ بِفِلَسْطِينَ، وَلُوطٌ بِالْمُؤْتَفِكَةِ، وَبَيْنَهُمَا يَوْمٌ. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أَيْ: لِإِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ سَأَلَ وَلَدًا كَمَا ذُكِرَ فِي الصَّافَّاتِ[2] ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أَيْ: زِيَادَةً عَلَى الْمَسْؤُولِ، أَوْ هُوَ وَلَدُ الْوَلَدِ ﴿وَكُلًّا﴾ أَيْ: هُوَ وَوَلَدَاهُ ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أَنْبِيَاءَ[3]. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً، يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْخَيْرِ ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إِلَى دِينِنَا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ

٨٩] ولَمْ يَكُنْ سَقِيمًا، وقَوْلُهُ لِسارَةَ: أُخْتِي. وقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. أخرجه الترمذي (٣٤٣٧)، وأخرجه بنحوه البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١).

(١) أي: رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه. وقيل: المعنى أنه طأطأوا رؤوسهم خجلة من إبراهيم، وهو ضعيف لأنه لم يقل نكَسوا رؤوسهم بفتح الكاف؛ وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير، بل قال: نُكِسوا على رؤوسهم. [الشوكاني (٣/ ٤٨٩)].

(٢) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

(٣) قال مجاهد وعطاء: معنى النافلة العطية، وهما جميعا من عطاء الله نافلة يعني عطاء، قال الحسن والضحاك: فضلا. وعن ابن عباس وأبي بن كعب وأبي زيد وقتادة رضي الله عنهم: النافلة هو يعقوب لأن الله عز وجل أعطاه إسحاق بدعائه حيث قال: ﴿هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وزاد يعقوب ولد الولد [كما قال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].] والنافلة الزيادة، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ يعني: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. [البغوي (٥/ ٣٣٠)].

﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أَيْ: أَنْ تُفْعَلَ وَتُقَامَ وَتُؤْتَى مِنْهُمْ وَمِنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَحَذْفُ هَاءِ «إِقَامَةِ» تَخْفِيفٌ ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا﴾ فَصْلًا بَيْنَ الْخُصُومِ ﴿وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ﴾ أَيْ: أَهْلُهَا(١)، الْأَعْمَالَ ﴿ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ مِنَ اللِّوَاطِ وَالرَّمْيِ بِالْبُنْدُقِ وَاللَّعِبِ بِالطُّيُورِ(٢) وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ مَصْدَرُ «سَاءَهُ» نَقِيضُ سَرَّهُ ﴿فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ بِأَنْ أَنْجَيْنَاهُ مِنْ قَوْمِهِ ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَ﴾ اذْكُرْ ﴿نُوحًا﴾ وَمَا بَعْدَهُ بَدَلٌ مِنْهُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦] إِلَى آخِرِهِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ الَّذِينَ فِي سَفِينَتِهِ ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ أَيِ: الْغَرَقِ وَتَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ. ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ﴾ مَنَعْنَاهُ ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى رِسَالَتِهِ، أَنْ لَا يَصِلُوا إِلَيْهِ بِسُوءٍ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَ﴾ اذْكُرْ ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ أَيْ: قِصَّتَهُمَا، وَيُبْدَلُ مِنْهُمَا: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ هُوَ زَرْعٌ أَوْ كَرْمٌ ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أَيْ: رَعَتْهُ لَيْلًا بِلَا رَاعٍ بِأَنِ انْفَلَتَتْ ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فِيهِ اسْتِعْمَالُ ضَمِيرِ الْجَمْعِ لِاثْنَيْنِ، قَالَ دَاوُدُ: لِصَاحِبِ الْحَرْثِ رِقَابُ الْغَنَمِ، وَقَالَ سُلَيْمَانُ: يَنْتَفِعُ بِدَرِّهَا وَنَسْلِهَا وَصُوفِهَا إِلَى أَنْ يَعُودَ الْحَرْثُ كَمَا كَانَ بِإِصْلَاحِ صَاحِبِهَا فَيَرُدَّهَا إِلَيْهِ ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا﴾ أَيِ: الْحُكُومَةَ ﴿سُلَيْمَـٰنَ﴾ وَحُكْمُهُمَا بِاجْتِهَادٍ وَرَجَعَ دَاوُدُ إِلَى سُلَيْمَانَ، وَقِيلَ بِوَحْيٍ، وَالثَّانِي نَاسِخٌ لِلْأَوَّلِ ﴿وَكُلًّا﴾ مِنْهُمَا ﴿ءَاتَيْنَا﴾ هُ ﴿حُكْمًا﴾ نُبُوَّةً ﴿وَعِلْمًا﴾ بِأُمُورِ الدِّينِ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ كَذَلِكَ سُخِّرَا لِلتَّسْبِيحِ مَعَهُ لِأَمْرِهِ بِهِ إِذَا وَجَدَ فَتْرَةً لِيَنْشَطَ لَهُ ﴿وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ تَسْخِيرَ تَسْبِيحِهِمَا مَعَهُ وَإِنْ كَانَ عَجَبًا عِنْدَكُمْ، أَيْ: مُجَاوَبَتُهُ لِلسَّيِّدِ دَاوُدَ(٣). ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ وَهِيَ الدِّرْعُ لِأَنَّهَا تُلْبَسُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَنَعَهَا وَكَانَ قَبْلَهَا صَفَائِحُ ﴿لَّكُمْ﴾ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بِالنُّونِ لِلَّهِ، وَبِالتَّحْتَانِيَّةِ لِدَاوُدَ، وَبِالْفَوْقَانِيَّةِ لِلَّبُوسِ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ حَرْبِكُمْ مَعَ أَعْدَائِكُمْ ﴿فَهَلْ أَنتُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ نِعَمِي بِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ؟، أَيِ: اشْكُرُونِي بِذَلِكَ. ﴿وَ﴾ وَسَخَّرْنَا ﴿لِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿رُخَآءً﴾ [ص: ٣٦]، أَيْ: شَدِيدَةَ الْهُبُوبِ وَخَفِيفَتَهُ بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ

---

(١) القرية [هي] سدوم ... والمراد من القرية أهلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. [ابن عاشور (١٧/ ١١٢)].

(٢) يعني: اللواطة، وكانت أشنع أفعالهم. وبها استحقوا الإهلاك. ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمي اللوطي منكسا من مكان عال، وطرح الحجارة عليه، كما فعل بهم. [القاسمي (٧/ ٢٠٦)].

(٣) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ﴾ وَهِيَ اَلشَّامُ(١) ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ مِنْ ذَلِكَ عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِأَنَّ مَا يُعْطِيهِ سُلَيْمَانَ يَدْعُوهُ إِلَى اَلْخُضُوعِ لِرَبِّهِ، فَفَعَلَهُ تَعَالَى عَلَى مُقْتَضَى عِلْمِهِ. ﴿وَ﴾ سَخَّرْنَا ﴿مِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ يَدْخُلُونَ فِي اَلْبَحْرِ فَيُخْرِجُونَ مِنْهُ اَلْجَوَاهِرَ لِسُلَيْمَانَ ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أَيْ: سِوَى اَلْغَوْصِ، مِنَ اَلْبِنَاءِ وَغَيْرِهِ ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾ مِنْ أَنْ يُفْسِدُوا مَا عَمِلُوا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا فَرَغُوا مِنْ عَمَلٍ قَبْلَ اَللَّيْلِ أَفْسَدُوهُ إِنْ لَمْ يَشْتَغِلُوا بِغَيْرِهِ(٢). ﴿۞وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿أَيُّوبَ﴾ وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ لَمَّا اُبْتُلِيَ بِفَقْدِ جَمِيعِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ، وَتَمْزِيقِ جَسَدِهِ، وَهَجْرِ جَمِيعِ اَلنَّاسِ لَهُ إِلَّا زَوْجَتَهُ، سِنِينَ ثَلَاثًا أَوْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِي عَشْرَةَ، وَضِيقِ عَيْشِهِ ﴿أَنِّي﴾ بِفَتْحِ اَلْهَمْزَةِ بِتَقْدِيرِ اَلْيَاءِ ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أَيِ: اَلشِّدَّةُ ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ دُعَاءَهُ ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾ أَوْلَادَهُ اَلذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ، بِأَنْ أُحْيُوا لَهُ وَكُلٌّ مِنَ اَلصِّنْفَيْنِ ثَلَاثٌ أَوْ سَبْعٌ(٣) ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ مِنْ زَوْجَتِهِ، وَزِيدَ فِي شَبَابِهَا، «وَكَانَ لَهُ أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَتَيْنِ أَفْرَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ اَلْقَمْحِ اَلذَّهَبَ، وَأَفْرَغَتِ اَلْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ اَلشَّعِيرِ اَلْوَرِقَ، حَتَّى فَاضَ»(٤) ﴿رَحۡمَةٗ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ صِفَةٌ ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ لِيَصْبِرُوا فَيُثَابُوا. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَعَنْ مَعَاصِيهِ. ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ مِنَ اَلنُّبُوَّةِ(٥) ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ لَهَا، وَسُمِّيَ ذَا اَلْكِفْلِ؛ لِأَنَّهُ تَكَفَّلَ بِصِيَامِ جَمِيعِ نَهَارِهِ وَقِيَامِ جَمِيعِ لَيْلِهِ، وَأَنْ يَقْضِيَ بَيْنَ اَلنَّاسِ وَلَا يَغْضَبَ، فَوَفَّى بِذَلِكَ، وَقِيلَ: لَمْ

---

(١) وكانت مسكنه وموضع ملكه، فخص في الآية الرجوع إليها لأنه يدل على الانتقال منها. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٧)].

(٢) أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو محكم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ [ص:٣٨]. [ابن كثير (٥/ ٣٥٩)].

(٣) الإيتاء: عطاء، أي: أعطيناه أهله، وأهل الرجل أهل بيته وقرابته. وفهم من تعريف الأهل بالإضافة أن الإيتاء إرجاع ما سلب منه من أهل، يعني بموت أولاده وبناته، وهو على تقدير مضاف بين من السياق، أي: مثل أهله بأن رزق أولادا بعدد ما فقد، وزاده مثلهم فيكون قد رزق أربعة عشر ابنا وست بنات من زوجه التي كانت بلغت سن العقم. [ابن عاشور (١٧/ ١٢٨)].

(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٧) وأخرجه البزار في مسنده (٢٣٥٧).

(٥) أهل السنة والجماعة يثبتون لله سبحانه وتعالى صفة الرحمة على حقيقتها، وأما أهل الكلام ... فهم ينفون حقيقتها ويفسرون الرحمة في حقه بنحو ما يفسرون به المحبة، يفسرونها بالإرادة، أو بما يخلق الله من النعم والمنافع التي ينتفع بها العباد وينفون حقيقة الرحمة. [شرح العقيدة الواسطية للشيخ البراك (ص:٢٥)].

يَكُنْ نَبِيًّا[١]. ﴿وَ﴾ اذكُرْ ﴿ذَا ٱلنُّونِ﴾ صَاحِبَ الْحُوتِ وَهُوَ يُونُسُ بْنُ مَتَّى، وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لِقَوْمِهِ، أَيْ: غَضْبَانَ عَلَيْهِمْ مِمَّا قَاسَى مِنْهُمْ، وَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أَيْ: نَقْضِيَ عَلَيْهِ بِمَا قَضَيْنَاهُ مِنْ حَبْسِهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، أَوْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ[٢] ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَظُلْمَةِ الْبَحْرِ وَظُلْمَةِ بَطْنِ الْحُوتِ ﴿أَن﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ فِي ذَهَابِي مِنْ بَيْنِ قَوْمِي بِلَا إِذْنٍ. ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ بِتِلْكَ الظُّلُمَاتِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا نَجَّيْنَاهُ ﴿نُـۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ مِنْ كَرْبِهِمْ إِذَا اسْتَغَاثُوا بِنَا دَاعِينَ. ﴿وَ﴾ اذكُرْ ﴿زَكَرِيَّآ﴾ وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِى فَرۡدًا﴾ أَيْ: بِلَا وَلَدٍ يَرِثُنِي ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِكَ. ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ نِدَاءَهُ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ وَلَدًا ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ فَأَتَتْ بِالْوَلَدِ بَعْدَ عُقْمِهَا ﴿إِنَّهُمۡ﴾ أَيْ: مَنْ ذُكِرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ﴾ يُبَادِرُونَ ﴿فِى ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ الطَّاعَاتِ ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا﴾ فِي رَحْمَتِنَا ﴿وَرَهَبًا﴾ مِنْ عَذَابِنَا ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ مُتَوَاضِعِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ مَرْيَمَ ﴿ٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ حَفِظَتْهُ مِنْ أَنْ يُنَالَ ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أَيْ: جِبْرِيلَ، حَيْثُ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا فَحَمَلَتْ بِعِيسَى ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، حَيْثُ وَلَدَتْهُ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أَيْ: مِلَّةَ الْإِسْلَامِ ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ دِينُكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ، أَيْ: يَجِبُ أَنْ تَكُونُوا عَلَيْهَا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حَالٌ لَازِمَةٌ ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ وَحِّدُونِ. ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أَيْ: بَعْضُ الْمُخَاطَبِينَ

---

(١) قال ابن كثير: أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وقد تقدم ذكره في سورة مريم. وكذا إدريس عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلا صالحا، وكان ملكا عادلا وحكما مقسطا، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم. وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام. [القاسمي (٧/ ٢١٤)].

(٢) ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ بفتح النون وكسر الدال؛ واختلف في معنى الآية على هذه القراءة، فقيل: معناها أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته، وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير، وهو قول مردود؛ فإن هذا الظن بالله كفر ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم السلام. وذهب جمهور العلماء إلى أن معناها فظن أن لن نضيق عليه كقوله: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي يضيق، ومنه قوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] يقال يقدر وقدر وقتر وقتر، أي: ضيق، وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم دون القدرة والاستطاعة، أي: فظن أن لن نقضي عليه العقوبة، قاله قتادة ومجاهد، واختاره الفراء والزجاج. قال ثعلب: هو من القدير ليس من القدرة يقال منه قدر الله لك الخير يقدره قدراً؛ ويؤيده قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري «نُقَدِّر» بضم النون وتشديد الدال من التقدير، وحكى هذا عن ابن عباس، ويؤيده قراءة قتادة والأعرج «يُقَدَّرَ» مبنياً للمفعول من التقدير. [الشوكاني (٣/ ٤٩٦)].

﴿أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرّقوا أمر دينهم متخالفين فيه، وهم طوائف اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣﴾ أي: فنجازيه بعمله. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ﴾ أي: لا جحود ﴿لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾ بأن نأمر الحفظة بكتبه، فنجازيه عليه. ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أريد أهلها ﴿أَنَّهُمْ لَا﴾ زائدة ﴿يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ أي: ممتنع رجوعهم إلى الدنيا(١). ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لامتناع رجوعهم ﴿إِذَا فُتِحَتْ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ بالهمز وتركه: اسمان أعجميان لقبيلتين، ويقدّر قبله مضاف، أي: سدّهما وذلك قرب القيامة ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ مرتفع من الأرض ﴿يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾ يسرعون. ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ أي: القصة(٢) ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في ذلك اليوم لشدته، يقولون: ﴿يَٰ﴾ للتنبيه ﴿وَيْلَنَا﴾ هلاكنا ﴿قَدْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ اليوم ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾ أنفسنا بتكذيبنا للرسل. ﴿إِنَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره من الأوثان ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقودها ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ داخلون فيها. ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثان ﴿ءَالِهَةً﴾ كما زعمتم ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ دخلوها ﴿وَكُلٌّ﴾ من العابدين والمعبودين ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ﴾ للعابدين ﴿فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾ شيئًا لشدة غليانها. ونزل لما قال ابن الزبعرى: «عُبِد عزير، والمسيح، والملائكة فهم في النار»(٣)، على مقتضى ما تقدم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أي: وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم، فأهلكهم بذنوبهم، أن يرجعوا إلى أهلهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١] وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] وزيادة «لا» هنا لتأكيد معنى النفي من «حرام» وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة. وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه، هو الصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوعهم من الهلاك المؤبد، وفوات أمنيتهم الكبرى، وهي حياتهم الدنيا. وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها، و«لا» فيها على بابها. وهي مع «حرام» من قبيل نفي النفي. فيدل على الإثبات. والمعنى: وحرام على القرية المهلكة، عدم رجوعها إلى الآخرة. بل واجب رجوعها للجزاء. فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث. وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعي أحد. وأنه سبحانه سيحييه، وبعمله يجزيه. واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه. إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآي أولى. وأما ذكر سواهما، فلا يدل عليه السياق ولا النظير. وفيه ما يخل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير. [القاسمي (٧/ ٢٢٣)].

(٢) إذا هنا للمفاجأة، والضمير عند سيبويه ضمير القصة، وعند الفراء، للأبصار، وشاخصة من الشخوص وهو: إحداد النظر من الخوف. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٠)].

(٣) مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعا إليه مقابلة حكاية حال الكافرين وما يقال لهم يوم القيامة بحكاية ما يلقاه الذين آمنوا يوم القيامة وما يقال لهم. فالذين سبقت لهم الحسنى هم الفريق المقابل لفريق القرية التي سبق في علم الله إهلاكها، ولما كان فريق القرية هم المشركين فالفريق

سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا﴾ اَلْمَنْزِلَةُ ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ ذُكِرَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صَوْتَهَا[١] ﴿وَهُمْ فِيمَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ مِنَ اَلنَّعِيمِ ﴿خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وَهُوَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْعَبْدِ إِلَى اَلنَّارِ[٢] ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ تَسْتَقْبِلُهُمْ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ اَلْقُبُورِ، يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ فِي اَلدُّنْيَا. ﴿يَوْمَ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» مُقَدَّرًا قَبْلَهُ ﴿نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ اِسْمُ مَلَكٍ ﴿لِلْكِتَٰبِ﴾ صَحِيفَةُ اِبْنِ آدَمَ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ، أَوِ اَلسِّجِلُّ اَلصَّحِيفَةُ وَالْكِتَابُ بِمَعْنَى اَلْمَكْتُوبِ وَاللَّامُ بِمَعْنَى عَلَى، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ جَمْعًا[٣] ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ مِنْ عَدَمٍ ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ بَعْدَ إِعْدَامِهِ، فَالْكَافُ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ «نُعِيدُ» وَضَمِيرُهُ عَائِدٌ إِلَى ﴿أَوَّلَ﴾ وَ«مَا» مَصْدَرِيَّةٌ ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «وَعَدْنَا» مُقَدَّرًا قَبْلَهُ، وَهُوَ مُؤَكِّدٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ مَا وَعَدْنَاهُ. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ بِمَعْنَى اَلْكِتَابِ، أَيْ: كُتُبِ اللهِ اَلْمُنَزَّلَةِ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ بِمَعْنَى: أُمِّ اَلْكِتَابِ اَلَّذِي عِنْدَ اَللهِ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أَرْضَ اَلْجَنَّةِ[٤] ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ عَامٌّ فِي كُلِّ

المقابل له هم المؤمنون. ولا علاقة لهذه الجملة بجملة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولا هي مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بل قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ عام يعم كل مؤمن مات على الإيمان والعمل الصالح. [ابن عاشور (١٧/ ١٥٥)]. كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠].

(١) أي: حسها وحركة تلهبها. والحَسِيسُ والحِسُّ: الحركة. وقال الليث: الحِسُّ والحسيس تسمعه من الشيء يمر منك قريبًا ولا تراه... وقال أبو عبيدة: الحسيس والحس والجَرْس واحد، وهو الصوت الخفي الذي لا يحس. والظاهر أن هذا مطلق لا يسمعون حسيسها أبداً. وقال بعض المفسرين: يعني إذا نزلوا منازلهم من الجنة. وعلى هذا كأنهم قبل دخول الجنة يسمعون حسَّ النار. [الواحدي (١٥/ ٢١٤)].

(٢) قال ابن عباس: الفزع الأكبر: النفخة الأخيرة بدليل قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] قال الحسن: حين يؤمر بالعبد إلى النار. قال ابن جريج: حين يذبح الموت وينادى يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. وقال سعيد بن جبير والضحاك: هو أن تطبق عليهم جهنم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرجه. [البغوي (٥/٣٥٧)].

(٣) السجل الصحيفة، والكتاب مصدر: أي: كما يطوي السجل ليكتب فيه، أو ليصان الكتاب الذي فيه، وقيل: السجل رجل كاتب وهذا ضعيف، وقيل: هو ملك في السماء الثانية: ترفع إليه الأعمال، وهذا أيضاً ضعيف. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٠)].

(٤) قد اختلف في معنى هذه الآية فقيل: المراد أرض الجنة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقيل: هي الأرض المقدسة، وقيل: هي أرض الأمم الكثيرة الكافرة، يرثها نبينا ﷺ وأمته بفتحها، وقيل: المراد بذلك بنو إسرائيل بدليل قوله سبحانه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى

صالحٍ. ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿لَبَلَٰغًا﴾ كِفايَةً فِي دُخُولِ اَلْجَنَّةِ ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ عَامِلِينَ بِهِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ أَيْ: لِلرَّحْمَةِ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ اَلْإِنْسِ وَالْجِنِّ بِكَ[١]. ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أَيْ: مَا يُوحَى إِلَيَّ فِي أَمْرِ اَلْإِلَهِ إِلَّا وَحْدَانِيَّتُهُ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨﴾ مُنْقَادُونَ لِمَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ وَحْدَانِيَّةِ اَلْإِلَهِ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى اَلْأَمْرِ. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عَنْ ذَلِكَ ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾ أَعْلَمْتُكُمْ بِالْحَرْبِ ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ حَالٌ مِنَ اَلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، أَيْ: مُسْتَوِينَ فِي عِلْمِهِ لَا أَسْتَبِدُّ بِهِ دُونَكُمْ لِتَتَأَهَّبُوا ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ مِنَ اَلْعَذَابِ، أَوِ اَلْقِيَامَةِ اَلْمُشْتَمِلَةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُهُ اَللهُ. ﴿إِنَّهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وَالْفِعْلِ مِنْكُمْ وَمِنْ غَيْرِكُمْ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ١١٠﴾ أَنْتُمْ وَغَيْرُكُمْ مِنَ اَلسِّرِّ. ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أَيْ: مَا أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ وَلَمْ يُعْلَمْ وَقْتُهُ ﴿فِتْنَةٌ﴾ اِخْتِبَارٌ ﴿لَّكُمْ﴾ لِيَرَى كَيْفَ صُنْعُكُمْ ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تَمَتُّعٌ بِهِ ﴿إِلَىٰ حِينٍ ١١١﴾ أَيْ: اِنْقِضَاءِ آجَالِكُمْ، وَهَذَا مُقَابِلٌ لِلْأَوَّلِ اَلْمُتَرَجَّى بِـ«لَعَلَّ» وَلَيْسَ اَلثَّانِي مَحَلًّا لِلتَّرَجِّي. ﴿قُلْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قَٰلَ﴾ ﴿رَبِّ ٱحْكُم﴾ بَيْنِي وَبَيْنَ مُكَذِّبِيَّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بِالْعَذَابِ لَهُمْ أَوِ اَلنَّصْرِ عَلَيْهِمْ، فَعُذِّبُوا بِبَدْرٍ وَأُحُدٍ وَحُنَيْنٍ وَالْأَحْزَابِ وَالْخَنْدَقِ، وَنُصِرَ عَلَيْهِمْ ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ مِنْ كَذِبِكُمْ عَلَى اَللهِ فِي قَوْلِكُمْ: «اِتَّخَذَ وَلَدًا»، وَعَلَيَّ فِي قَوْلِكُمْ: «سَاحِرٌ»، وَعَلَى اَلْقُرْآنِ فِي قَوْلِكُمْ: «شِعْرٌ»[٢].

بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. والظاهر أن هذا تبشير لأمته ﷺ بوراثة أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين. [الشوكاني (٣/٥٠٨)].

(١) أي: وما أرسلناك بهذه الحنيفية والدين الفطري، إلا حال كونك رحمة للخلق، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية. وجوز كون ﴿رَحْمَةً﴾ مفعولا له. أي: للرحمة، فهو نبي الرحمة. [القاسمي (٧/٢٢٦)]. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إِنِّي لَمْ أُبعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً». أخرجه مسلم برقم (٢٥٥٩).

(٢) أي: تصفونه بألسنتكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد، وغير ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ٦٢] وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ١١٦]. [الشنقيطي (٤/٤٧١)].

سُورَةُ الحَجِّ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾ ٱلۡآيَتَيۡنِ، أَوْ إِلَّا ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ السِّتُّ آيَاتٍ فَمَدَنِيَّاتٍ، وَهِيَ أَرْبَعُ أَوْ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ أَوْ ثَمَانٌ وَسَبْعُونَ آيَةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ وَغَيْرَهُمْ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ أَيْ: عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أَيِ: الْحَرَكَةَ الشَّدِيدَةَ لِلْأَرْضِ، الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا الَّذِي هُوَ قُرْبُ السَّاعَةِ(١) ﴿شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ فِي إِزْعَاجِ النَّاسِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْعِقَابِ. ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ﴾ بِسَبَبِهَا ﴿كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾ بِالْفِعْلِ ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ أَيْ: تَنْسَاهُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ أَيْ: حُبْلَى ﴿حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ مِنَ الشَّرَابِ ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ فَهُمْ يَخَافُونَهُ(٢). وَنَزَلَ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَجَمَاعَتِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ قَالُوا: «الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَالْقُرْآنُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، وَأَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَإِحْيَاءَ مَنْ صَارَ تُرَابًا ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ فِي جِدَالِهِ ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ أَيْ: مُتَمَرِّدٍ. ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ قُضِيَ عَلَى الشَّيْطَانِ ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أَيِ: اتَّبَعَهُ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ﴾ يَدْعُوهُ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ أَيِ: النَّارِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ شَكٍّ ﴿مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ أَيْ: أَصْلَكُمْ آدَمَ ﴿مِّن تُرَابٖ ثُمَّ﴾ خَلَقْنَا ذُرِّيَّتَهُ

---

(١) اختلف المفسرون في «الزلزلة» المذكورة، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور: هي في الدنيا، والضمير في ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ عائد على الزلزلة، وقوى قولهم أن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا، وقالت فرقة: «الزلزلة» في يوم القيامة، واحتجت بحديث أنس ... إذ قرأ رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «إِنَّهُ الْيَوْمَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ لِآدَمَ: أَخْرِجْ بَعْثَ النارِ». أخرجه أحمد (١٩٨٨٤)، والترمذي (٣٤٤٠). ... وهذا الحديث لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن النبي ﷺ قرأ الآية المتضمنة ابتداء أمر الساعة، ثم قصد في تذكيره وتخويفه إلى فصل من فصول يوم القيامة فنص ذكره، وهذا من الفصاحة، والضمير عند هذه الفرقة عائد على الساعة، أي: يوم يرون ابتداءها في الدنيا، فيصح لهم بهذا التأويل ألا يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة، وإن أعادوه على الزلزلة فسد قولهم بما يلزمهم. على أن النقاش ذكر أن المراد بـ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ من مات من الإناث ولدها في جوفها وهذا ضعيف. [ابن عطية (٤/ ١٠٦)].

(٢) لما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذي لأجله شابهوا السكارى فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى، بجامع سلب كمال التميز وصحة الإدراك. [صديق حسن (٩/ ١١)].

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وَهِيَ الدَّمُ الْجَامِدُ ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وَهِيَ لَحْمَةٌ قَدْرُ مَا يُمْضَغُ ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ مُصَوَّرَةٍ تَامَّةِ الْخَلْقِ ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أَيْ: غَيْرِ تَامَّةِ الْخِلْقَةِ ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كَمَالَ قُدْرَتِنَا؛ لِتَسْتَدِلُّوا بِهَا فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ عَلَى إِعَادَتِهِ[1] ﴿وَنُقِرُّ﴾ مُسْتَأْنَفٌ ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وَقْتِ خُرُوجِهِ ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿طِفْلًا﴾ بِمَعْنَى أَطْفَالًا ﴿ثُمَّ﴾ نُعَمِّرُكُمْ ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أَيِ: الْكَمَالَ وَالْقُوَّةَ وَهُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِينَ إِلَى الْأَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ يَمُوتُ قَبْلَ بُلُوغِ الْأَشُدِّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أَخَسِّهِ مِنَ الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَصِرْ بِهَذِهِ الْحَالَةِ[2] ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يَابِسَةً ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تَحَرَّكَتْ ﴿وَرَبَتْ﴾ ارْتَفَعَتْ وَزَادَتْ ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿كُلِّ زَوْجٍ﴾ صِنْفٍ ﴿بَهِيجٍ ۝٥﴾ حَسَنٍ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ بَدْءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ إِلَى آخِرِ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ الدَّائِمُ[3] ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾. وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾ مَعَهُ ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ لَهُ نُورٌ مَعَهُ. ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حَالٌ، أَيْ: لَاوِيَ عُنُقَهُ تَكَبُّرًا عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْعِطْفُ: الْجَانِبُ عَنْ يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: دِينِهِ ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ عَذَابٌ فَقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ أَيِ: الْإِحْرَاقَ بِالنَّارِ. وَيُقَالُ لَهُ:

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمـاً نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرَّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِماتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سعِيدٌ. فَوَ الَّذِي لا إله غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى ما يَكُونَ بَيْنَهُ وبَيْنَها إِلاَّ ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُها، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَها إِلاَّ ذِراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُها». أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) والمعنى: أنه يصير من بعد أن كان ذا علم بالأشياء وفهم لها لا علم له ولا فهم كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة الرأي وقلة الفقه والعقل والفهم فينسى ما يعلمه، وينكر ما يعرفه. [البيضاوي (٤/ ٦٥)]. ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٤-٥].

(٣) أي: ذلك الذي ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة، وتصريفه في أحوال متباينة، وإحياء الأرض بعد موتها، حاصل بسبب أن الله هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله. المحقق لما سواه من الأشياء، فهي من آثار ألوهيته وشؤونه الذاتية وحده؛ وما سواه مما يعبد باطل، لا يقدر على شيء من ذلك. [القاسمي (٧/ ٢٣٣)].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أَيْ: قَدَّمْتَهُ، عَبَّرَ عَنْهُ بِهِمَا دُونَ غَيْرِهِمَا لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تُزَاوَلُ بِهِمَا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ أَيْ: بِذِي ظُلْمٍ ﴿لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أَيْ: شَكٍّ فِي عِبَادَتِهِ، شُبِّهَ بِالْحَالِ عَلَى حَرْفِ جَبَلٍ فِي عَدَمِ ثَبَاتِهِ[1] ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ صِحَّةٌ وَسَلَامَةٌ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ مِحْنَةٌ وَسَقَمٌ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أَيْ: رَجَعَ إِلَى الْكُفْرِ ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا﴾ بِفَوَاتِ مَا أَمَّلَهُ مِنْهَا ﴿وَٱلْآخِرَةَ﴾ بِالْكُفْرِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ الْبَيِّنُ. ﴿يَدْعُواْ﴾ يَعْبُدُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الصَّنَمِ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إِنْ لَمْ يَعْبُدْهُ ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إِنْ عَبَدَهُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدُّعَاءُ ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿يَدْعُواْ لَمَن﴾ اللَّامُ زَائِدَةٌ ﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ إِنْ نَفَعَ بِتَخَيُّلِهِ ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ هُوَ أَيِ: النَّاصِرُ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ الصَّاحِبُ هُوَ. وَعُقِّبَ ذِكْرُ الشَّاكِّ بِالْخُسْرَانِ، بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّوَابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِنَ الْفُرُوضِ وَالنَّوَافِلِ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ مِنْ إِكْرَامِ مَنْ يُطِيعُهُ، وَإِهَانَةِ مَنْ يَعْصِيهِ. ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: مُحَمَّدًا نَبِيَّهُ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بِحَبْلٍ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ: سَقْفِ بَيْتِهِ يَشُدُّهُ فِيهِ وَفِي عُنُقِهِ ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أَيْ: لِيَخْتَنِقَ بِهِ، بِأَنْ يَقْطَعَ نَفَسَهُ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا فِي «الصِّحَاحِ»[2] ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ فِي عَدَمِ نُصْرَةِ النَّبِيِّ ﴿مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ مِنْهَا، الْمَعْنَى فَلْيَخْتَنِقْ غَيْظًا مِنْهَا فَلَا بُدَّ مِنْهَا[3]. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ إِنْزَالِنَا الْآيَةَ السَّابِقَةَ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ

---

(١) قال أكثر المفسرين الحرف الشك. وأصله من حرف الشيء، أي: طرفه. مثل حرف الجبل والحائط فإن القائم عليه غير مستقر. والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه. فقيل للشاك في دينه إنه يعبد الله على حرف. أي: متزلزلاً لأنه على غير يقين من وعده ووعيده بخلاف المؤمن لأنه يعبده على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف. ففي الآية استعارة تمثيلية. وقيل: الحرف الشرط. والشرط هو قوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ دنيوي من رخاء وصحة وعافية وسلامة وخصب وكثرة مال ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي: ثبت على دينه واستمر على عبادته أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه وسكن إليه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: شيء يفتتن به من مكروه يصيبه في أهله وماله أو نفسه ومعيشته كالجدب والمرض وسائر المحن. ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتد ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر. [الشوكاني (٣/ ٥٢٠)].

(٢) أي: كتاب «تاج اللغة وصحاح العربية» للجوهري.

(٣) والقول الثاني: أن الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائد الى ﴿مَن﴾، والمعنى على هذا من ظنَّ بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله، فليختنق وليمت بغيظه، فإنه لا يقدر على غير ذلك، فموجب الاختناق على هذا القنوط والسخط من القضاء، وسوء الظنِّ بالله حتى ييأس

اَلْبَاقِي ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ ظَاهِرَاتٍ، حَالٌ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ هُدَاهُ مَعْطُوفٌ عَلَى هَاءِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هُمُ الْيَهُودُ ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ[1] ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ بِإِدْخَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ، وَإِدْخَالِ غَيْرِهِمُ النَّارَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ﴾ مِنْ عَمَلِهِمْ ﴿شَهِيدٌ ١٧﴾ عَالِمٌ بِهِ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ أَيْ: تَخْضَعُ لَهُ بِمَا يُرَادُ مِنْهَا ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، بِزِيَادَةٍ عَلَى الْخُضُوعِ فِي سُجُودِ الصَّلَاةِ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُۗ﴾ وَهُمُ الْكَافِرُونَ؛ لِأَنَّهُمْ أَبَوُا السُّجُودَ الْمُتَوَقِّفَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ يُشْقِهِ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ مُسْعِدٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْإِكْرَامِ. ﴿۞هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنُونَ خَصْمٌ، وَالْكُفَّارُ الْخَمْسَةُ خَصْمٌ[2]، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ ﴿ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْۖ﴾ أَيْ: فِي دِينِهِ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ يَلْبَسُونَهَا، يَعْنِي أُحِيطَتْ بِهِمُ النَّارُ ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ١٩﴾ الْمَاءُ الْبَالِغُ نِهَايَةَ الْحَرَارَةِ. ﴿يُصْهَرُ﴾ يُذَابُ ﴿بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ مِنْ شُحُومٍ وَغَيْرِهَا ﴿وَ﴾ تُشْوَى بِهِ ﴿ٱلْجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٖ ٢١﴾ لِضَرْبِ رُؤُوسِهِمْ. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ أَيِ: النَّارِ ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ يَلْحَقُهُمْ بِهَا ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ رُدُّوا إِلَيْهَا بِالْمَقَامِعِ ﴿وَ﴾ قِيلَ لَهُمْ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ٢٢﴾ أَيِ: الْبَالِغِ نِهَايَةَ الْإِحْرَاقِ. وَقَالَ فِي الْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

من نصره، ولذلك فسر بعضهم ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ بمعنى: «أن لن يرزقه»، وهذا القول أرجح من الأول لوجهين: أحدهما: أن هذا القول مناسب لمن يعبد الله على حرف، لأنه إذا أصابته فتنة انقلب وقنط، حتى ظنَّ أن الله لن ينصره، فيكون هذا الكلام متصلاً بما قبله، ويدل على ذلك قوله قبل هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: الأمور بيد الله، فلا ينبغي لأحد أن يتسخط من قضاء الله، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة، والوجه الثاني: أن الضمير في ينصره على هذا القول يعود على ما تقدَّمه، وأما على القول الأول فلا يعود على مذكور قبله؛ لأن النبي ﷺ لم يذكر قبل ذلك بحيث يعود الضمير عليه، ولا يدل سياق الكلام عليه دلالة ظاهرة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٥)].

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (٦٢) من سورة البقرة.

(٢) أي: اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا، وقيل: المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر ... وقد كان أبو ذر يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين، وقد ثبت في صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْۖ﴾ قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة، أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة والوليد بن عتبة. أخرجه البخاري (٣٩٦٥). [صديق حسن (٩/ ٢٨)].

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ بِالْجَرِّ، أَيْ: مِنْهُمَا بِأَنْ يُرَصَّعَ اللُّؤْلُؤُ بِالذَّهَبِ، وَبِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ هُوَ الْمُحَرَّمُ لُبْسُهُ عَلَى الرِّجَالِ فِي الدُّنْيَا[١]. ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وَهُوَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ أَيْ: طَرِيقِ اللهِ الْمَحْمُودَةِ وَدِينِهِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طَاعَتِهِ ﴿وَ﴾ عَنْ ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلْنَٰهُ﴾ مَنْسَكًا وَمُتَعَبَّدًا ﴿لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ﴾ الْمُقِيمُ ﴿فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ الطَّارِئُ[٢] ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ الْبَاءُ زَائِدَةٌ ﴿بِظُلْمٍ﴾ أَيْ: بِسَبَبِهِ، بِأَنِ ارْتَكَبَ مَنْهِيًّا وَلَوْ بِشَتْمِ الْخَادِمِ[٣] ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ مُؤْلِمٍ، أَيْ: بَعْضَهُ، وَمِنْ هَذَا يُؤْخَذُ خَبَرُ ﴿إِنَّ﴾، أَيْ: نُذِيقُهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ بَوَّأْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ لِيَبْنِيَهُ، وَكَانَ قَدْ رُفِعَ مِنْ زَمَنِ الطُّوفَانِ[٤]، وَأَمَرْنَاهُ ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ

---

(١) غير الأسلوب حيث لم يقل: «ويلبسون فيها حريراً» للمحافظة على الفواصل، وللدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة في الجنة، فإن العدول إلى الجملة الاسمية يدل على الدوام. [صديق حسن (٩/ ٣٢)]. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ». أخرجه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

(٢) العاكف: المقيم في البلد، والبادي: القادم عليه من غيره، والمعنى: أن الناس سواء في المسجد الحرام، لا يختص به أحد دون أحد وذلك إجماع، وقال أبو حنيفة: حكم سائر مكة في ذلك كالمسجد الحرام، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء، وليس لأحد فيها ملك، والمراد عنده بالمسجد الحرام جميع مكة، وقال مالك وغيره: ليست الدور في ذلك كالمسجد، بل هي متملكة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٧)].

(٣) يشمل الإلحاد الإشراك ومنع الناس من عمارته، واقتراف الآثام. وتدل الآية على أن الواجب على من كان فيه، أن يضبط نفسه، ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده. وقد ذهب بعض السلف إلى أن السيئة في الحرم أعظم منها في غيره، وأنها تضاعف فيه، وإن هم بها فيه أخذ بها. [القاسمي (٧/ ٢٣٩)]. والباء في قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ لأجل أن الإرادة مضمنة معنى الهم؛ أي: ومن يهمم فيه بإلحاد، ... فهذه الآية الكريمة مخصصة لعموم قوله ﷺ: «وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً» الحديث. أخرجه أحمد (٢٥١٩). وعليه فهذا التخصيص لشدة التغليظ في المخالفة في الحرم المكي، ووجه هذا ظاهر ... ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في جميع بقاع الله؛ مكة وغيرها. والدليل على أن إرادة الذنب إذا كانت عزما مصمما عليه أنها كارتكابه حديث أبي بكرة الثابت في الصحيح قال ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨). [الشنقيطي (٥/ ٦٣)].

(٤) انظر التعليق على تفسير آية (٩٧) من سورة آل عمران.

﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾ اَلْمُقِيمِينَ بِهِ ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ جَمْعُ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ اَلْمُصَلِّينَ. ﴿وَأَذِّن﴾ نَادِ ﴿فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ فَنَادَى عَلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيسٍ: «يا أيها النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ بَنَى بَيْتًا وَأَوْجَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ إِلَيْهِ فَأَجِيبُوا رَبَّكُمْ»، وَالْتَفَتَ بِوَجْهِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا فَأَجَابَهُ كُلُّ مَنْ كُتِبَ لَهُ أَنْ يَحُجَّ مِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ[١]، وَجَوَابُ الْأَمْرِ ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا﴾ مُشَاةً جَمْعُ «رَاجِلٍ» كَقَائِمٍ وَقِيَامٍ ﴿وَ﴾ رُكْبَانًا ﴿عَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ أَيْ: بَعِيرٍ مَهْزُولٍ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى ﴿يَأۡتِينَ﴾ أَيِ: الضَّوَامِرُ حَمْلًا عَلَى الْمَعْنَى ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ طَرِيقٍ بَعِيدٍ. ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ أَيْ: لِيَحْضُرُوا ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالتِّجَارَةِ، أَوْ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ فِيهِمَا، أَقْوَالٌ[٢] ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ أَيْ: عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ أَوْ يَوْمِ عَرَفَةَ أَوْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، أَقْوَالٌ ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ الَّتِي تُنْحَرُ فِي يَوْمِ الْعِيدِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ إِذَا كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ أَيِ: الشَّدِيدَ الْفَقْرِ. ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ أَيْ: يُزِيلُوا أَوْسَاخَهُمْ وَشَعَثَهُمْ، كَطُولِ الظُّفُرِ ﴿وَلۡيُوفُواْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿نُذُورَهُمۡ﴾ مِنَ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ أَيِ: الْقَدِيمِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ. ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مُقَدَّرٍ، أَيِ: الْأَمْرُ، أَوِ الشَّأْنُ ذَلِكَ الْمَذْكُورُ ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هِيَ مَا لَا يَحِلُّ انْتِهَاكُهُ ﴿فَهُوَ﴾ أَيْ:

---

(١) المراد بالحج: القصد إلى بيت الله. وصار لفظ الحج علما بالغلبة على الحضور بالمسجد الحرام لأداء المناسك. ومن حكمة مشروعيته تلقي عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة للهيكل الذي أقيم لذلك حتى يرسخ معنى التوحيد في النفوس؛ لأن للنفوس ميلا إلى المحسوسات ليتقوى الإدراك العقلي بمشاهدة المحسوس. فهذه أصل في سنة المؤثرات لأهل المقصد النافع. وفي تعليق فعل ﴿يَأۡتُوكَ﴾ بضمير خطاب إبراهيم دلالة على أنه كان يحضر موسم الحج كل عام يبلغ للناس التوحيد وقواعد الحنيفية. روي أن إبراهيم لما أمره الله بذلك اعتلى جبل أبي قيس وجعل إصبعيه في أذنيه ونادى: «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا». وذلك أقصى استطاعته في امتثال الأمر بالتأذين. وقد كان إبراهيم رحالة فلعله كان ينادي في الناس في كل مكان يحل فيه. [ابن عاشور (١٧/ ٢٤٣)]. وقيل: إن الخطاب لنبينا محمد ﷺ، والمعنى أعلمهم يا محمد بوجوب الحج عليهم، وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وقيل: إن خطابه انتهى عند قوله: ﴿مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، وما بعده خطاب لنبينا محمد ﷺ أمره أن يقول ذلك في حجة الوداع. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أَيها النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا». أخرجه مسلم (١٣٣٧). [الشوكاني (٣/ ٥٣٠)].

(٢) وقيل: هو عموم، أي: ليحضروا منافع لهم، أي: ما يرضي الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة، قال مجاهد وعطاء واختاره ابن العربي، فإنه يجمع ذلك كله من نسك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى. ولا خلاف في أن المراد بقوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨] التجارة. [القرطبي (١٢/ ٤١)].

تَعْظِيمُهَا ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أَكْلًا بَعْدَ الذَّبْحِ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ﴾
تَحْرِيمُهُ فِي ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] الْآيَةَ فَالِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا وَالتَّحْرِيمُ
لِمَا عَرَضَ مِنَ الْمَوْتِ وَنَحْوِهِ ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ ﴿مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ، أَيِ: الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ ﴿وَٱجْتَنِبُواْ
قَوْلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ أَيِ: الشِّرْكَ بِاللهِ فِي تَلْبِيَتِكُمْ، أَوْ شَهَادَةَ الزُّورِ. ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مُسْلِمِينَ، عَادِلِينَ عَنْ كُلِّ دِينٍ سِوَى
دِينِهِ ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ، وَهُمَا حَالَانِ مِنَ الْوَاوِ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ﴾ سَقَطَ ﴿مِنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أَيْ: تَأْخُذُهُ بِسُرْعَةٍ ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أَيْ: تُسْقِطُهُ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ٣١﴾ بَعِيدٍ فَهُوَ
لَا يُرْجَى خَلَاصُهُ. ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ يُقَدَّرُ قَبْلَهُ «الْأَمْرُ»: مُبْتَدَأٌ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا﴾ أَيْ: فَإِنَّ تَعْظِيمَهَا، وَهِيَ:
الْبُدْنُ الَّتِي تُهْدَى لِلْحَرَمِ بِأَنْ تُسْتَحْسَنَ وَتُسْتَسْمَنَ ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ٣٢﴾ مِنْهُمْ، وَسُمِّيَتْ شَعَائِرَ لِإِشْعَارِهَا بِمَا
تُعْرَفُ بِهِ أَنَّهَا هَدْيٌ، كَطَعْنِ حَدِيدٍ بِسَنَامِهَا. ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كَرُكُوبِهَا وَالْحَمْلِ عَلَيْهَا مَا لَا يَضُرُّهَا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى﴾ وَقْتِ نَحْرِهَا ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أَيْ: مَكَانُ حِلِّ نَحْرِهَا ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٣٣﴾ أَيْ: عِنْدَهُ، وَالْمُرَادُ الْحَرَمُ
جَمِيعُهُ. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: جَمَاعَةٍ مُؤْمِنَةٍ سَلَفَتْ قَبْلَكُمْ ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ بِفَتْحِ السِّينِ مَصْدَرٌ، وَبِكَسْرِهَا اسْمُ مَكَانٍ،
أَيْ: ذَبْحًا قُرْبَانًا، أَوْ مَكَانَهُ ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ﴾ عِنْدَ ذَبْحِهَا ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ﴾ انْقَادُوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٣٤﴾ الْمُطِيعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ خَافَتْ
﴿قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِنَ الْبَلَايَا ﴿وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فِي أَوْقَاتِهَا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣٥﴾
يَتَصَدَّقُونَ. ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾ جَمْعُ «بَدَنَةٍ» وَهِيَ الْإِبِلُ ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أَعْلَامِ دِينِهِ ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ﴾
نَفْعٌ فِي الدُّنْيَا كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَجْرٌ فِي الْعُقْبَى ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عِنْدَ نَحْرِهَا ﴿صَوَآفَّۖ﴾ قَائِمَةً عَلَى ثَلَاثٍ
مَعْقُولَةَ الْيَدِ الْيُسْرَى ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ بَعْدَ النَّحْرِ وَهُوَ وَقْتُ الْأَكْلِ مِنْهَا ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾
إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ﴾ الَّذِي يَقْنَعُ بِمَا يُعْطَى وَلَا يَسْأَلُ وَلَا يَتَعَرَّضُ ﴿وَٱلْمُعْتَرَّۚ﴾ وَالسَّائِلَ أَوِ الْمُعْتَرِضَ
﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ التَّسْخِيرِ ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ بِأَنْ تُنْحَرَ وَتُرْكَبَ وَإِلَّا لَمْ تُطِقْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦﴾
إِنْعَامِي عَلَيْكُمْ. ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أَيْ: لَا يُرْفَعَانِ إِلَيْهِ ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ أَيْ:
يُرْفَعُ إِلَيْهِ مِنْكُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْخَالِصُ لَهُ مَعَ الْإِيمَانِ ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ﴾
أَرْشَدَكُمْ لِمَعَالِمِ دِينِهِ وَمَنَاسِكِ حَجِّهِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ أَيِ: الْمُوَحِّدِينَ. ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْۗ﴾ غَوَائِلَ الْمُشْرِكِينَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ فِي أَمَانَتِهِ ﴿كَفُورٍ ٣٨﴾ لِنِعْمَتِهِ، وَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، الْمَعْنَى:

أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ(١). ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ أَيْ: لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا وَهَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿ظُلِمُوا۟ۚ﴾ لِظُلْمِ الْكَافِرِينَ إِيَّاهُمْ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾. هُمْ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فِي الْإِخْرَاجِ، مَا أُخْرِجُوا ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟﴾ أَيْ: بِقَوْلِهِمْ ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ وَحْدَهُ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَقٌّ، فَالْإِخْرَاجُ بِهِ إِخْرَاجٌ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ بَدَلُ بَعْضٍ مِنَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ﴿بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ لِلتَّكْثِيرِ وَبِالتَّخْفِيفِ ﴿صَوَٰمِعُ﴾ لِلرُّهْبَانِ ﴿وَبِيَعٌ﴾ كَنَائِسُ لِلنَّصَارَى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ كَنَائِسُ لِلْيَهُودِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ﴿وَمَسَـٰجِدُ﴾ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ أَيِ: الْمَوَاضِعِ الْمَذْكُورَةِ ﴿ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ﴾ وَتَنْقَطِعُ الْعِبَادَاتُ بِخَرَابِهَا(٢) ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ أَيْ: يَنْصُرُ دِينَهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ ﴿عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ مَنِيعٌ فِي سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ. ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِنَصْرِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ﴾: جَوَابُ الشَّرْطِ، وَهُوَ وَجَوَابُهُ صِلَةُ الْمَوْصُولِ، وَيُقَدَّرُ قَبْلَهُ «هُمْ» مُبْتَدَأً ﴿وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ أَيْ: إِلَيْهِ مَرْجِعُهَا فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ إِلَى آخِرِهِ(٣)، فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تَأْنِيثُ «قَوْمٍ» بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى ﴿وَعَادٌ﴾ قَوْمُ هُودٍ ﴿وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ قَوْمُ صَالِحٍ. ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَۖ﴾ قَوْمُ شُعَيْبٍ ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ﴾ كَذَّبَهُ الْقِبْطُ، لَا قَوْمُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، أَيْ: كَذَّبَ هَؤُلَاءِ رُسُلَهُمْ فَلَكَ أُسْوَةٌ بِهِمْ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ أَمْهَلْتُهُمْ بِتَأْخِيرِ الْعِقَابِ لَهُمْ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ تَكْذِيبَهُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَيْ: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقِعَهُ. ﴿فَكَأَيِّن﴾ أَيْ: كَمْ ﴿مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أَيْ: أَهْلُهَا بِكُفْرِهِمْ ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ سَاقِطَةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سُقُوفِهَا ﴿وَ﴾ كَمْ مِنْ ﴿بِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ مَتْرُوكَةٍ بِمَوْتِ أَهْلِهَا ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ رَفِيعٍ خَالٍ بِمَوْتِ أَهْلِهِ. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ

---

(١) أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، ولا يفي بما قال. والكفر: الجحد للنعم، فلا يعترف بها. [ابن كثير (٥/ ٤٣٣)].

(٢) المعنى: لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء بعضهم ببعض، وإقامة الحدود لاستولى أهل الشرك وذهبت مواضع العبادة من الأرض، وقيل المعنى: لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل هذه الآية فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ. [صديق حسن (٩/ ٥٧)].

(٣) أي: إلى آخر الآيات القادمة إلى آية (٤٤).

﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ مَا نَزَلَ بِالْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أَخْبَارَهُمْ بِالْإِهْلَاكِ وَخَرَابِ الدِّيَارِ فَيَعْتَبِرُوا ﴿فَإِنَّهَا﴾ أَيِ: الْقِصَّةُ ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ تَأْكِيدٌ. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بِإِنْزَالِ الْعَذَابِ، فَأَنْزَلَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، فِي الدُّنْيَا. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ الْمُرَادُ أَهْلُهَا ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ الْمَرْجِعُ. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ، وَأَنَا بَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ بِإِبْطَالِهَا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ، أَيْ: يَنْسُبُونَهُمْ إِلَى الْعَجْزِ، وَيُثَبِّطُونَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، أَوْ مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا عَنْهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مُسَابِقِينَ لَنَا، أَيْ: يَظُنُّونَ أَنْ يَفُوتُونَا بِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالْعِقَابَ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ النَّارِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ هُوَ: نَبِيٌّ أُمِرَ بِالتَّبْلِيغِ ﴿وَلَا نَبِىٍّ﴾ أَيْ: لَمْ يُؤْمَرْ بِالتَّبْلِيغِ[١] ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قَرَأَ ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قِرَاءَتِهِ مَا لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا يَرْضَاهُ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُورَةِ «النَّجْمِ» بِمَجْلِسٍ مِنْ قُرَيْشٍ بَعْدَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٠] بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ ﷺ بِهِ: «تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَا وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى»، فَفَرِحُوا بِذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ جِبْرِيلُ بِمَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ ذَلِكَ فَحَزِنَ فَسُلِّيَ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِيَطْمَئِنَّ[٢]. ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ يُبْطِلُ ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ

---

(١) فيه دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي. وسئل النبي ﷺ عن الأنبياء فقال: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ». أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩٦٢)، والطبراني (٧٨٧١)، والفرق بينهما أن الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عيانًا ومحاورته شفاهًا، والنبي الذي يكون وحيه إلهامًا أو منامًا. وقيل: الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله ولم ينزل عليه كتاب. ولا بد لهما جميعًا من المعجزة الظاهرة. [صديق حسن (٩/ ٦٦)].

(٢) قد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرانيق، وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين: وهو أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ، هذا الشرك الأكبر والكفر البواح الذي هو قولهم: «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى»، يعنون: اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، الذي لا شك في بطلانه في نفس سياق آيات «النجم» التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول؛ لأن النبي ﷺ قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى، في اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] وليس من المعقول أن النبي ﷺ يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخرا عن ذكره لها بالخير المزعوم، إلا وغضبوا، ولم يسجدوا؛ لأن العبرة بالكلام الأخير، مع أنه قد دلت آيات

ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ يُثَبِّتُهَا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِإِلْقَاءِ الشَّيْطَانِ مَا ذُكِرَ ﴿حَكِيمٌ ٥٢﴾ فِي تَمْكِينِهِ مِنْهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ مِحْنَةً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شَكٌّ وَنِفَاقٌ ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكِينَ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣﴾ خِلَافٍ طَوِيلٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، حَيْثُ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ ذِكْرُ آلِهَتِهِمْ بِمَا يُرْضِيهِمْ ثُمَّ أُبْطِلَ ذَلِكَ(١). ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ التَّوْحِيدَ وَالْقُرْآنَ ﴿أَنَّهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ﴾ تَطْمَئِنَّ ﴿لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ أَيْ: دِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شَكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ، بِمَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ثُمَّ أُبْطِلَ(٢) ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أَيْ: سَاعَةُ مَوْتِهِمْ أَوِ الْقِيَامَةُ فَجْأَةً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ

قرآنية على بطلان هذا القول، وهي الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطانا على النبي ﷺ، وإخوانه من الرسل، وأتباعهم المخلصين كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل: ٩٩ - ١٠٠]، وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأي سلطان له أكبر من ذلك. ومن الآيات الدالة على بطلان ذلك القول المزعوم قوله تعالى في النبي ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: ٣ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢] فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم. واعلم: أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعا، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب، قال الشوكاني في هذه القصة: ولم يصح شيء من هذا، ولا يثبت بوجه من الوجوه. فالذي يظهر لنا أنه الصواب، وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة، وإن لم يتنبه له من تكلم على الآية من المفسرين: هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي ﷺ: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده. والدليل على هذا المعنى: أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق، لأنه قال: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ﴾، وهذا يدل على أن الشيطان يلقي عليهم، أن الذي يقرؤه النبي ﷺ ليس بحق فيصدقه الأشقياء، ويكون ذلك فتنة لهم، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم، ويعلمون أنه الحق لا الكذب؛ كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه: فهذا الامتحان لا يناسب شيئا زاده الشيطان من نفسه في القراءة، والعلم عند الله تعالى. وعلى هذا القول، فمعنى نسخ ما يلقي الشيطان: إزالته وإبطاله، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أوتوا العلم. ومعنى يحكم آياته: يتقنها بالإحكام، فيظهر أنها وحي منزل منه بحق، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صد الناس عنها بإلقائه المذكور. [الشنقيطي بتصرف (٥/ ٧٩٤)].

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) انظر التعليق السابق.

عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ، لَا خَيْرَ فِيهِ لِلْكُفَّارِ، كَالرِّيحِ الْعَقِيمِ الَّتِي لَا تَأْتِي بِخَيْرٍ، أَوْ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا لَيْلَ بَعْدَهُ. ﴿**ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ**﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿**لِّلَّهِ**﴾ وَحْدَهُ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الِاسْتِقْرَارِ نَاصِبٌ لِلظَّرْفِ ﴿**يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ**﴾ بِالْمُجَازَاةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بِمَا بُيِّنَ بَعْدَهُ ﴿**فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦**﴾ فَضْلًا مِنَ اللهِ. ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥٧**﴾ شَدِيدٌ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ. ﴿**وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ**﴾ أَيْ: طَاعَتِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿**ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ**﴾ هُوَ رِزْقُ الْجَنَّةِ ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨**﴾ أَفْضَلُ الْمُعْطِينَ. ﴿**لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا**﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، أَيْ: إِدْخَالًا، أَوْ مَوْضِعًا ﴿**يَرۡضَوۡنَهُۥۗ**﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ ﴿**وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ**﴾ بِنِيَّاتِهِمْ ﴿**حَلِيمٞ ۝٥٩**﴾ عَنْ عِقَابِهِمْ. الْأَمْرُ ﴿***ذَٰلِكَۖ**﴾ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ ﴿**وَمَنۡ عَاقَبَ**﴾ جَازَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿**بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ**﴾ ظُلْمًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أَيْ: قَاتَلَهُمْ كَمَا قَاتَلُوهُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴿**ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ**﴾ مِنْهُمْ، أَيْ: ظُلِمَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ مَنْزِلِهِ ﴿**لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ**﴾ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿**غَفُورٞ ۝٦٠**﴾ لَهُمْ عَنْ قِتَالِهِمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ النَّصْرُ ﴿**بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ**﴾ أَيْ: يُدْخِلُ كُلًّا مِنْهُمَا فِي الْآخَرِ بِأَنْ يَزِيدَ بِهِ، وَذَلِكَ مِنْ أَثَرِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى الَّتِي بِهَا النَّصْرُ[1] ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ**﴾ دُعَاءَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿**بَصِيرٞ ۝٦١**﴾ بِهِمْ، حَيْثُ جَعَلَ فِيهِمُ الْإِيمَانَ فَأَجَابَ دُعَاءَهُمْ. ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ النَّصْرُ أَيْضًا ﴿**بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ**﴾ الثَّابِتُ ﴿**وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ**﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ يَعْبُدُونَ ﴿**مِن دُونِهِۦ**﴾ وَهُوَ الْأَصْنَامُ ﴿**هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ**﴾ الزَّائِلُ ﴿**وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ**﴾ أَيِ: الْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ[2] ﴿**ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢**﴾ الَّذِي يَصْغُرُ كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ[3]. ﴿**أَلَمۡ تَرَ**﴾ تَعْلَمْ ﴿**أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ**﴾ مَطَرًا ﴿**فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ**﴾ بِالنَّبَاتِ، وَهَذَا مِنْ أَثَرِ

---

(١) الباء للسببية، أي: ذلك النصر بسبب أنه سبحانه قادر، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل. قاله الرازي. وقال البيضاوي: قادر على تقليب الأمور بعضها على بعض، جارية عادته على المداولة بين الأشياء المتعاندة، وعبر عن الزيادة بالإيلاج لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر. [صديق حسن (٩/ ٧٦)].

(٢) العلي في ذاته فهو عال على جميع المخلوقات، وفي قدره فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه، ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السماوات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته. [السعدي (ص:٥٤٣)].

(٣) وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه،

قُدْرَتِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بِعِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِ النَّبَاتِ بِالْمَاءِ ﴿خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ عِنْدَ تَأْخِيرِ الْمَطَرِ. ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عَلَى جِهَةِ الْمُلْكِ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ عِبَادِهِ ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ لِأَوْلِيَائِهِ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ الْبَهَائِمِ ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُنَ ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لِلرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بِإِذْنِهِ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ مِنْ ﴿أَن﴾ أَوْ لِئَلَّا ﴿تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ فَتَهْلِكُوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ فِي التَّسْخِيرِ وَالْإِمْسَاكِ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بِالْإِنْشَاءِ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكَ ﴿لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾ لِنِعَمِ اللهِ بِتَرْكِهِ تَوْحِيدَهُ. ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَكَسْرِهَا، شَرِيعَةً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عَامِلُونَ بِهِ ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ يُرَادُ بِهِ: لَا تُنَازِعْهُمْ ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أَيْ: أَمْرِ الذَّبِيحَةِ، إِذْ قَالُوا: مَا قَتَلَ اللهُ أَحَقُّ أَنْ تَأْكُلُوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إِلَى دِينِهِ ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ دِينٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ فِي أَمْرِ الدِّينِ ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ مِنَ التَّكْذِيبِ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ[1]. ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بِأَنْ يَقُولَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ خِلَافَ قَوْلِ الْآخَرِ. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الِاسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلتَّقْرِيرِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مَا ذُكِرَ ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: عِلْمُ مَا ذُكِرَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ سَهْلٌ. ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ هُوَ الْأَصْنَامُ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ حُجَّةً ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أَنَّهَا آلِهَةٌ ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بِالْإِشْرَاكِ ﴿مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ يَمْنَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللهِ. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ظَاهِرَاتٍ، حَالٌ ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أَيِ: الْإِنْكَارَ لَهَا، أَيْ: أَثَرَهُ مِنَ الْكَرَاهَةِ وَالْعُبُوسِ ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أَيْ: يَقَعُونَ فِيهِمْ بِالْبَطْشِ ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ أَيْ: بِأَكْرَهَ إِلَيْكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَتْلُوِّ عَلَيْكُمْ، هُوَ: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بِأَنَّ مَصِيرَهُمْ إِلَيْهَا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ هِيَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ هُوَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ وَهُمُ الْأَصْنَامُ ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ اسْمُ جِنْسٍ وَاحِدُهُ

وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعارا للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها. [السعدي (ص:٥٤٣)].

(١) ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ آية موادعة نسختها آية السيف، أي: وإن أبوا للجاجهم إلا المجادلة بعد اجتهادك ألا يكون بينك وبينهم تنازع فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ خطاب من الله للمؤمنين والكافرين، أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب، ومسلاة لرسول الله ﷺ بما كان يلقى منهم. [أبو حيان (١٠/٥٢٦)].

«ذُبَابَةٌ»، يَقَعُ عَلَى الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ لِخَلْقِهِ ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ مِمَّا عَلَيْهِمْ مِنَ الطِّيبِ وَالزَّعْفَرَانِ الْمُلَطَّخِينَ بِهِ ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ﴾ لَا يَسْتَرِدُّوهُ ﴿مِنۡهُۚ﴾ لِعَجْزِهِمْ، فَكَيْفَ يَعْبُدُونَ شُرَكَاءَ اللهِ تَعَالَى؟ هَذَا أَمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ عَبَّرَ عَنْهُ بِـ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ﴾، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ الْعَابِدُ ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ الْمَعْبُودُ[1]. ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ عَظَّمُوهُ ﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾ عَظَمَتِهِ، إِذْ أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يَمْتَنِعْ مِنَ الذُّبَابِ وَلَا يَنْتَصِفُ مِنْهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ غَالِبٌ. ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ رُسُلًا، نَزَلَ لَمَّا قَالَ الْمُشْرِكُونَ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص:٨] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لِمَقَالَتِهِمْ ﴿بَصِيرٞ ٧٥﴾ بِمَنْ يَتَّخِذُهُ رَسُولًا؛ كَـ«جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ» وَغَيْرِهِمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ. ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ أَيْ: مَا قَدَّمُوا وَمَا خَلَّفُوا، وَمَا عَمِلُوا وَمَا هُمْ عَامِلُونَ بَعْدُ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ﴾ أَيْ: صَلُّوا ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ كَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧﴾ تَفُوزُونَ بِالْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ. ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ لِإِقَامَةِ دِينِهِ ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ بِاسْتِفْرَاغِ الطَّاقَةِ فِيهِ[2]، وَنُصِبَ ﴿حَقَّ﴾ عَلَى الْمَصْدَرِ ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ اخْتَارَكُمْ لِدِينِهِ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ أَيْ: ضِيقٍ بِأَنْ سَهَّلَهُ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ؛

---

(١) تخصيصه الذباب، لمهانته وضفعه واستقذاره. وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل المشركين. حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها، صورا وتماثيل، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله، ولو اجتمعوا لذلك: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ أي: هذا الخلق الأقل الأذل، لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه، لم يقدروا: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ أي: الصنم يطلب ما سلب منه: ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ أي: الذباب بما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف. فإن الذباب حيوان وهو جماد. وهو غالب وذلك مغلوب. وجوز أن يراد بالطالب عابد الصنم، وبالمطلوب معبوده. قيل: وهو أنسب بالسياق لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم. فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذييل. واختار الوجه الأول الزمخشري. لما فيه من التهكم، بجعل الصنم طالبا على الفرض تهكما وأنه أضعف من الذباب لأنه مسلوب وجماد، وذلك حيوان بخلافه. [القاسمي (٧/ ٢٧٥)].

(٢) المبالغة في الأمر بهذا الجهاد باستفراغ الطاقة لأنه أضاف الحق إلى الجهاد، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق، أي: جهاداً خالصاً لله، فعكس ذلك لقصد المبالغة، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعاً أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ومن أجله، وقيل: المراد بـ«حق جهاده» هو أن لا يخافوا في الله لومة لائم، وقيل: المراد به استفراغ ما في وسعهم في إحياء دين الله، وقال مقاتل والكلبي: إن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، كما أن قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] منسوخ بذلك، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ. [صديق حسن (٩/ ٨٨)].

كَالْقَصْرِ، وَالتَّيَمُّمِ، وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ، وَالْفِطْرِ لِلْمَرَضِ وَالسَّفَرِ ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ الْكَافِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿هُوَ﴾ أَيِ: اللهُ ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ هَذَا الْكِتَابِ ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ(١) ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ بَلَّغَكُمْ ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ أَنْتُمْ ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أَنَّ رُسُلَهُمْ بَلَّغَتْهُمْ(٢) ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دَاوِمُوا عَلَيْهَا ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ثِقُوا بِهِ ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ نَاصِرُكُمْ وَمُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ هُوَ ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ النَّاصِرُ لَكُمْ.

---

(١) اختلف في مرجع الضمير الذي هو لفظ «هو» من قوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ فقال بعضهم: «الله» ... وهذا القول مروي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعطاء، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وقتادة، كما نقله عنهم ابن كثير، وقال بعضهم هو أي: «إبراهيم»، واستدل لهذا بقول إبراهيم وإسماعيل: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وبهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما نقله عنه ابن كثير ... وفي هذه الآيات قرينتان تدلان على أن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم غير صواب. إحداهما: أن الله قال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾، أي: القرآن، ومعلوم أن إبراهيم لم يسمهم المسلمين في القرآن، لنزوله بعد وفاته بأزمان طويلة كما نبه على هذا ابن جرير. القرينة الثانية: أن الأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله، لا إلى إبراهيم ... فإن قيل: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور للضمير المذكور: هو إبراهيم. فالجواب: أن محل رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محله ما لم يصرف عنه صارف، وهنا قد صرف عنه صارف؛ لأن قوله: ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ يعني القرآن، دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه: هو الله لا إبراهيم، وكذلك سياق الجمل المذكورة قبله نحو: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يناسبه أن يكون هو سماكم أي: الله، المسلمين.... [وفي الحديث]: «فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللهِ الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ». أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٤٩). [الشنقيطي (٥/٨١٨)].

(٢) اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يتعلق بقوله: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الحج: ٧٧] أو بقوله: ﴿ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي ليكون الرسول، أي: محمد ﷺ شهيدا على الأمة الإسلامية بأنها آمنت به، وتكون الأمة الإسلامية شاهدة على الناس، أي: على الأمم بأن رسلهم بلغوهم الدعوة فكفر بهم الكافرون. ومن جملة الناس القوم الذين كفروا بمحمد ﷺ. وقدمت شهادة الرسول للأمة هنا، وقدمت شهادة الأمة في آية البقرة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] لأن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول. فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية البقرة صدرت بالثناء على الأمة فكان ذكر شهادة الأمة أهم. [ابن عاشور (١٧/ ٣٥٢)].

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَمَانِي أَوْ تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿أَفْلَحَ﴾ فَازَ ﴿الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ مُتَوَاضِعُونَ[1]. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ مِنَ الْكَلَامِ وَغَيْرِهِ ﴿مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ مُؤَدُّونَ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ عَنِ الْحَرَامِ. ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ أَيْ: مِنْ زَوْجَاتِهِمْ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أَيِ: السَّرَارِي ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ فِي إِتْيَانِهِنَّ. ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ مِنَ الزَّوْجَاتِ وَالسَّرَارِي، كَالِاسْتِمْنَاءِ بِيَدِهِ[2] ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ الْمُتَجَاوِزُونَ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَهُمْ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ جَمْعًا وَمُفْرَدًا ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَوْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا ﴿رَاعُونَ ۝٨﴾ حَافِظُونَ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ جَمْعًا وَمُفْرَدًا ﴿يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ يُقِيمُونَهَا فِي أَوْقَاتِهَا. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠﴾ لَا غَيْرُهُمْ. ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ هُوَ جَنَّةُ أَعْلَى الْجِنَانِ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ فِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَعَادِ، وَيُنَاسِبُهُ ذِكْرُ الْمَبْدَأِ بَعْدَهُ. ﴿وَ﴾ اللهِ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ آدَمَ ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ هِيَ مِنْ سَلَلْتُ الشَّيْءَ مِنَ الشَّيْءِ، أَيِ: اسْتَخْرَجْتُهُ مِنْهُ وَهُوَ خُلَاصَتُهُ ﴿مِنْ طِينٍ ۝١٢﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿سُلَالَةٍ﴾، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أَيِ: الْإِنْسَانَ نَسْلَ آدَمَ ﴿نُطْفَةً﴾ مَنِيًّا ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٣﴾ هُوَ الرَّحِمُ. ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ دَمًا جَامِدًا ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ لَحْمَةً قَدْرَ مَا يُمْضَغُ ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عَظْمًا﴾ وَ﴿الْعَظْمَ﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَ﴿خَلَقْنَا﴾ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثِ بِمَعْنَى: صَيَّرْنَا ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ أَيِ: الْمُقَدِّرِينَ، وَمُمَيِّزُ ﴿أَحْسَنُ﴾

---

(١) الخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضرا القربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبا بين يدي ربه، مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها. [السعدي (ص:٥٤٧)].

(٢) أي: المجاوزون إلى ما لا يحل لهم فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عادياً. وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة. واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من الوراء لما ذكر، فهو حرام عند الجمهور. [الشوكاني (٣/ ٥٦١)].

مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، أَيْ: خَلْقًا. ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أَيْ: سَمَاوَاتٍ جَمْعُ «طَرِيقَةٍ» لِأَنَّهَا طُرُقُ الْمَلَائِكَةِ[1] ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ الَّتِي تَحْتَهَا ﴿غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ فَتُهْلِكَهُمْ بَلْ نُمْسِكُهَا؛ كَآيَةِ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ مِنْ كِفَايَتِهِمْ ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ فَيَمُوتُونَ مَعَ دَوَابِّهِمْ عَطَشًا. ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ هُمَا أَكْثَرُ فَوَاكِهِ الْعَرَبِ ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾ صَيْفًا وَشِتَاءً. ﴿وَ﴾ أَنْشَأْنَا ﴿شَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ جَبَلٌ، بِكَسْرِ السِّينِ وَفَتْحِهَا، وَمَنْعُ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ لِلْبُقْعَةِ[2] ﴿تَنۢبُتُ﴾ مِنَ الرُّبَاعِيِّ وَالثُّلَاثِيِّ ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾ الْبَاءُ زَائِدَةٌ عَلَى الْأَوَّلِ، وَمُعَدِّيَةٌ عَلَى الثَّانِي، وَهِيَ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ عَطْفٌ عَلَى «الدُّهْنِ»، أَيْ: إِدَامٍ يَصْبُغُ اللُّقْمَةَ بِغَمْسِهَا فِيهِ، وَهُوَ الزَّيْتُ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ﴿لَعِبْرَةً﴾ عِظَةً تَعْتَبِرُونَ بِهَا ﴿نُّسْقِيكُم﴾ بِفَتْحِ النُّونِ وَضَمِّهَا ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ أَيِ: اللَّبَنَ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ مِنَ الْأَصْوَافِ وَالْأَوْبَارِ وَالْأَشْعَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا﴾ أَيِ: الْإِبِلِ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أَيِ: السُّفُنِ ﴿تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَطِيعُوهُ وَوَحِّدُوهُ ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وَهُوَ اسْمُ ﴿مَا﴾ وَمَا قَبْلَهُ الْخَبَرُ، وَ﴿مِّنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تَخَافُونَ عُقُوبَتَهُ بِعِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ. ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ لِأَتْبَاعِهِمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ﴾ يَتَشَرَّفَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِأَنْ يَكُونَ مَتْبُوعًا وَأَنْتُمْ أَتْبَاعُهُ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَلَّا يُعْبَدَ غَيْرُهُ ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بِذَلِكَ لَا بَشَرًا ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ نُوحٌ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أَيِ: الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ. ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا نُوحٌ ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ حَالَةُ جُنُونٍ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ انْتَظِرُوهُ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ إِلَى زَمَنِ مَوْتِهِ. ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عَلَيْهِمْ ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّايَ بِأَنْ تُهْلِكَهُمْ. قَالَ تَعَالَى مُجِيبًا دُعَاءَهُ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ السَّفِينَةَ

---

(١) الطرائق هي السماوات، قال الخليل والفراء والزجاج: سميت طرائق لأنها طورق بعضها فوق بعض، كمطارقة المنعل، وكل ما فوقه مثله، فهو طريقه، قاله البيضاوي، قال أبو عبيدة: طارقت الشيء جعلت بعضه فوق بعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة، وقيل: لأنها طرائق الملائكة في العروج والهبوط والطيران، قاله الرازي، وقيل: لأنها طرائق الكواكب ومتقلباتها. [صديق حسن (٩/ ١٠٥)].

(٢) هو جبل بفلسطين، أو بين مصر وأيلة - بفتح الهمزة - محل معروف يسمى اليوم «العقبة» وهو على مراحل من مصر. قاله الشهاب «والشجرة» شجرة الزيتون، نسبت إلى الطور لأنه مبدؤها. أو لكثرتها فيه. [القاسمي (٧/ ٢٨٦)].

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بمَرْأى منَّا وحِفْظِنا[1] ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أمرنا ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ لِلْخَبَّازِ بالْمَاءِ[2] وكَانَ ذَلِكَ علامةً لِنُوحٍ ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أَدْخِلْ فِي السَّفِينَةِ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ ذكرٍ وأُنثى، أيْ: منْ كُلِّ أَنْوَاعِهِمَا ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذكرًا وأُنثى وهُوَ مَفْعُولٌ و﴿مِن﴾ مُتعلِّقَةٌ بِـ﴿ٱسْلُكْ﴾، وفِي الْقِصَّةِ أنَّ اللهَ تعالى حَشَرَ لِنُوحٍ السِّبَاعَ والطَّيْرَ وغَيْرَهُما، فَجَعَلَ يَضْرِبُ بِيَدَيْهِ فِي كُلِّ نَوْعٍ فَتَقَعُ يَدُهُ الْيُمْنَى عَلَى الذَّكَرِ والْيُسْرَى عَلَى الْأُنْثَى فيَحْمِلُهُما فِي السَّفِينَةِ، وفِي قِرَاءَةٍ: ﴿كُلِّ﴾ بالتَّنْوِينِ، فَـ﴿زَوْجَيْنِ﴾ مفعولٌ و﴿ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيدٌ لَهُ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ زَوْجَتَهُ وأوْلادَهُ ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ بالإهْلاكِ، وهُوَ: زَوْجَتُهُ ووَلَدُهُ كَنْعَانُ، بِخِلافِ سَامٍ وحَامٍ ويَافِثَ فَحَمَلَهُمْ وزَوْجَاتِهِمْ ثَلاثَةً، وفِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، قِيلَ: كَانُوا سِتَّةَ رِجَالٍ ونِسَاؤُهُمْ، وقِيلَ: جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانِيَةٌ وسَبْعُونَ، نِصْفُهُمْ رِجَالٌ ونِصْفُهُمْ نِسَاءٌ ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ كَفَرُوا بِتَرْكِ إهْلاكِهِمْ ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ اعْتَدَلْتَ ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨﴾ الْكَافِرِينَ وإهْلاكِهِمْ. ﴿وَقُل﴾ عِنْدَ نُزُولِكَ مِنَ الْفُلْكِ: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وفَتْحِ الزَّايِ: مَصْدَرٌ أوِ اسْمُ مَكَانٍ، وبِفَتْحِ الْمِيمِ وكَسْرِ الزَّايِ: مَكَانُ النُّزُولِ ﴿مُّبَارَكًا﴾ ذَلِكَ الإنْزَالُ أوِ الْمَكَانُ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ مَا ذُكِرَ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنْ أَمْرِ نُوحٍ والسَّفِينَةِ وإهْلاكِ الْكُفَّارِ ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دَلالاتٍ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تعالى ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ واسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝٣٠﴾ مُخْتَبِرِينَ قَوْمَ نُوحٍ بِإرْسَالِهِ إلَيْهِمْ ووَعْظِهِ. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا﴾ قَوْمًا ﴿ءَاخَرِينَ ۝٣١﴾ هُمْ عَادٌ[3]. ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هُودًا ﴿أَنِ﴾ بِأَنْ ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢﴾ عِقَابَهُ فتُؤْمِنُوا. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ بِالْمَصِيرِ إلَيْهَا ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ نَعَّمْنَاهُمْ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَ﴾ اللهِ ﴿لَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فِيهِ قَسَمٌ

---

(١) هذا تعبير عن دلالة الكلام، ومعنى: تجري بمرأى منا: تجري والله يرعاها، ويراها بعينه التي لا تنام، وليس هذا تأويلا للعين، ولا نفيا للعين؛ بل هذا يتضمن إثبات العين؛ لأن العين بها تكون الرؤية. [توضيح مقاصد العقيدة الواسطية (ص:٨٤) البراك].

(٢) انظر التعليق على تفسير آية (٤٠) من سورة هود.

(٣) قال أكثر المفسرين: إن هؤلاء هم عاد قوم هود لمجيء قصتهم على أثر قصة نوح في غير هذا الموضع؛ ولقوله في الأعراف: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقيل: هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة، وقد قال سبحانه في هذه القصة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وقيل: هم أصحاب مدين قوم شعيب، لأنهم ممن أهلك بالصيحة. [الشوكاني (٣/ ٥٧١)].

وَشَرْطٌ، وَالْجَوَابُ لِأَوَّلِهِمَا وَهُوَ مُغْنٍ عَنْ جَوَابِ الثَّانِي ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أَيْ: إِذَا أَطَعْتُمُوهُ ﴿لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾ أَيْ: مَغْبُونُونَ. ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥﴾ هُوَ خَبَرُ ﴿أَنَّكُم﴾ الْأُولَى، وَ﴿أَنَّكُم﴾ الثَّانِيَةُ تَأْكِيدٌ لَهَا لَمَّا طَالَ الْفَصْلُ ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ اِسْمُ فِعْلٍ مَاضٍ بِمَعْنَى مَصْدَرٍ، أَيْ: بَعُدَ بَعُدَ ﴿لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾ مِنَ الْإِخْرَاجِ مِنَ الْقُبُورِ وَاللَّامُ زَائِدَةٌ لِلْبَيَانِ. ﴿إِنْ هِيَ﴾ أَيْ: مَا الْحَيَاةُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ بِحَيَاةِ أَبْنَائِنَا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧ إِنْ هُوَ﴾ أَيْ: مَا الرَّسُولُ ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾ مُصَدِّقِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ مِنَ الزَّمَانِ وَمَا زَائِدَةٌ ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾ لَيَصِيرُنَّ ﴿نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صَيْحَةُ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ كَائِنَةً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فَمَاتُوا ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ وَهُوَ نَبْتٌ يَبِسَ، أَيْ: صَيَّرْنَاهُمْ مِثْلَهُ فِي الْيُبْسِ ﴿فَبُعْدًا﴾ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ الْمُكَذِّبِينَ. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا﴾ أَيْ: أُمَمًا ﴿ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ بِأَنْ تَمُوتَ قَبْلَهُ ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣﴾ عَنْهُ ذُكِرَ الضَّمِيرُ بَعْدَ تَأْنِيثِهِ رِعَايَةً لِلْمَعْنَى. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ بِالتَّنْوِينِ وَعَدَمِهِ، مُتَتَابِعِينَ بَيْنَ كُلِّ اثْنَيْنِ زَمَانٌ طَوِيلٌ ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوَاوِ ﴿رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ فِي الْهَلَاكِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥﴾ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، وَهِيَ: الْيَدُ وَالْعَصَا وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْآيَاتِ. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَبِاللهِ ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦﴾ قَاهِرِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالظُّلْمِ. ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ مُطِيعُونَ خَاضِعُونَ. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝٤٨ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ قَوْمَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿يَهْتَدُونَ ۝٤٩﴾ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأُوتِيَهَا بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، جُمْلَةً وَاحِدَةً. ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عِيسَى ﴿وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ لَمْ يَقُلْ: «آيَتَيْنِ» لِأَنَّ الْآيَةَ فِيهِمَا وَاحِدَةٌ، وِلَادَتُهُ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ، وَهُوَ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ أَوْ دِمَشْقُ أَوْ فِلَسْطِينُ، أَقْوَالٌ ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أَيْ: مُسْتَوِيَةٍ يَسْتَقِرُّ عَلَيْهَا سَاكِنُوهَا ﴿وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ وَمَاءٍ جَارٍ ظَاهِرٍ تَرَاهُ الْعُيُونُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الْحَلَالَاتِ ﴿وَٱعْمَلُوا صَٰلِحًا﴾ مِنْ فَرْضٍ وَنَفْلٍ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ فَأُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. ﴿وَ﴾ اعْلَمُوا ﴿أَنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أَيْ: مِلَّةَ الْإِسْلَامِ ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ دِينُكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ، أَيْ: يَجِبُ أَنْ تَكُونُوا عَلَيْهَا ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حَالٌ لَازِمَةٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَخْفِيفِ النُّونِ، وَفِي أُخْرَى بِكَسْرِ هَمْزَةِ ﴿إِنَّ﴾ مُشَدَّدَةٍ اِسْتِئْنَافًا ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ فَاحْذَرُونِ. ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ أَيِ: الْأَتْبَاعُ ﴿أَمْرَهُم﴾ دِينَهُمْ ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ «تَقَطَّعُوا»، أَيْ:

أَحْزَابًا مُتَخَالِفِينَ، كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمَا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أَيْ: عِنْدَهُمْ مِنَ الدِّينِ ﴿فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ مَسْرُورُونَ. ﴿فَذَرْهُمْ﴾ اُتْرُكْ كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ ضَلَالَتِهِمْ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ أَيْ: حِينِ مَوْتِهِمْ. ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ نُعْطِيهِمْ ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥﴾ فِي الدُّنْيَا. ﴿نُسَارِعُ﴾ نُعَجِّلُ ﴿لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ لَا ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ لَهُمْ[1]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ خَوْفِهِمْ مِنْهُ ﴿مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ خَائِفُونَ مِنْ عَذَابِهِ. ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الْقُرْآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ ۝٥٨﴾ يُصَدِّقُونَ. ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾ مَعَهُ غَيْرَهُ. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ يُعْطُونَ ﴿مَا آتَوا﴾ أَعْطَوْا مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خَائِفَةٌ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ[2] ﴿أَنَّهُمْ﴾ يُقَدَّرُ قَبْلَهُ لَامُ الْجَرِّ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٦١﴾ فِي عِلْمِ اللهِ[3]. ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طَاقَتَهَا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ قَائِمًا فَلْيُصَلِّ جَالِسًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصُومَ فَلْيَأْكُلْ[4] ﴿وَلَدَيْنَا﴾ عِنْدَنَا ﴿كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ بِمَا عَمِلَتْهُ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ تُسَطَّرُ فِيهِ

---

(١) عطف على مقدر ينسحب إليه الكلام، أي: إضراب انتقالي عن الحسبان المستفهم عنه، استفهام تقريع، والمعنى: كلا لا نفعل ذلك، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل، فإن ما خولناهم من النعم وأمددناهم به من الخيرات، إنما هو استدراج لهم واستجرار إلى زيادة الإثم ليزدادوا إثمـاً، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات. [صديق حسن (٩/ ١٢٨)].

(٢) عن عبد الرحمن الهمداني: أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قالت عائشة رضي الله عنها: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال ﷺ: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ». أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨). وقال الحسن البصري: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم. [السمعاني (٣/ ٤٨٠)].

(٣) فيه معنيان: أحدهما أنهم يبادرون إلى فعل الطاعات، والآخر أنهم يتعجلون ثواب الخيرات، وهذا مطابق للآية المتقدمة، لأنه أثبت فيهم ما نفى عن الكفار من المسارعة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ فيه المعنيان المذكوران في يسارعون للخيرات، وقيل: معناه سبقت لهم السعادة في الأزل. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥٣)].

(٤) جملة مستأنفة سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، أي: عادتنا جارية على أن لا نكلف نفسا من النفوس إلا ما في وسعها، على أن المراد استمرار النفي بمعونة المقام لا نفي الاستمرار ... أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما في وسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم. قال مقاتل: من لم يستطع القيام فليصل

اَلْأَعْمَالُ ﴿وَهُمْ﴾ أَيِ: اَلنُّفُوسُ اَلْعَامِلَةُ ﴿لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢﴾ شَيْئًا مِنْهَا، فَلَا يُنْقَصُ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِ اَلْخَيْرَاتِ وَلَا يُزَادُ فِي اَلسَّيِّئَاتِ. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيِ: اَلْكُفَّارُ ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ جَهَالَةٍ ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورِ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣﴾ فَيُعَذَّبُونَ عَلَيْهَا. ﴿حَتَّىٰٓ﴾ اِبْتِدَائِيَّةٌ ﴿إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أَغْنِيَاءَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ أَيِ: اَلسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ[1] ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤﴾ يَضِجُّونَ. يُقَالُ لَهُمْ: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥﴾ لَا تُمْنَعُونَ. ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى﴾ مِنَ اَلْقُرْآنِ ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦﴾ تَرْجِعُونَ اَلْقَهْقَرَى. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ عَنِ اَلْإِيمَانِ ﴿بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالْبَيْتِ، أَوِ اَلْحَرَمِ، بِأَنَّهُمْ أَهْلُهُ فِي أَمْنٍ، بِخِلَافِ سَائِرِ اَلنَّاسِ فِي مَوَاطِنِهِمْ ﴿سَٰمِرًا﴾ حَالٌ، أَيْ: جَمَاعَةً يَتَحَدَّثُونَ فِي اللَّيْلِ حَوْلَ اَلْبَيْتِ ﴿تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾ مِنَ اَلثُّلَاثِيِّ تَتْرُكُونَ اَلْقُرْآنَ، وَمِنَ اَلرُّبَاعِيِّ، أَيْ: تَقُولُونَ غَيْرَ اَلْحَقِّ فِي اَلنَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ﴾ أَصْلُهُ «يَتَدَبَّرُوا» فَأُدْغِمَتِ اَلتَّاءُ فِي اَلدَّالِ ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنَ اَلدَّالَّ عَلَى صِدْقِ اَلنَّبِيِّ ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ اَلِاسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلتَّقْرِيرِ بِالْحَقِّ، مِنْ صِدْقِ اَلنَّبِيِّ، وَمَجِيءِ اَلرُّسُلِ لِلْأُمَمِ اَلْمَاضِيَةِ، وَمَعْرِفَةِ رَسُولِهِمْ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، وَأَنْ لَا جُنُونَ بِهِ ﴿بَلْ﴾ لِلِانْتِقَالِ ﴿جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنِ اَلْمُشْتَمِلِ عَلَى اَلتَّوْحِيدِ وَشَرَائِعِ اَلْإِسْلَامِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ

قاعدا، ومن لم يستطع القعود فليوم إيماء. [أبو السعود (٦/ ١٤١)].

(١) العذاب الذي أخذهم ربهم به، قيل: هو عذاب يوم بدر بالقتل والأسر، وقيل: الجوع والقحط الشديد الذي أصابهم، لما دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ». أخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥). فأصابهم بسبب دعوته ﷺ من الجوع الشديد، عذاب أليم، وأظهرها عندي أنه أخذهم بالعذاب يوم القيامة. وقد بين تعالى في هاتين الآيتين أنه أخذ مترفيهم بالعذاب، والمترفون هم أصحاب النعمة والرفاهية في دار الدنيا، وهذا المعنى أشار له بقوله: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ [المزمل: ١١-١٣] ... وقوله: يجأرون، الجؤار: الصراخ باستغاثة، والعرب تقول: جأر الثور يجأر: صاح، فالجؤار كالخوار ... فمعنى الآية الكريمة: أن المنعمين في الدنيا من الكفار، إذا أخذهم الله بالعذاب يوم القيامة، صاحوا مستصرخين مستغيثين، يطلبون الخلاص مما هم فيه، وصراخهم واستغاثتهم المشار له هنا، جاء في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧] فقوله: يصطرخون: يفتعلون من الصراخ، مستغيثين يريدون الخروج مما هم فيه، بدليل قوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ فهذا الصراخ المذكور في هذه الآية العام للمترفين وغيرهم، هو الجؤار المذكور عن المترفين هنا. [الشنقيطي (٥/ ٨٧١)].

﴿ٱلْحَقُّ﴾ أَي: اَلْقُرْآنُ ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ بِأَنْ جَاءَ بِمَا يَهْوَوْنَهُ مِنَ اَلشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ لِلَّهِ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ خَرَجَتْ عَنْ نِظَامِهَا اَلْمُشَاهَدِ، لِوُجُودِ اَلتَّمَانُعِ فِي اَلشَّيْءِ عَادَةً عِنْدَ تَعَدُّدِ اَلْحَاكِمِ[1] ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أَي: اَلْقُرْآنِ اَلَّذِي فِيهِ ذِكْرُهُمْ وَشَرَفُهُمْ ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ۝٧١ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أَجْرًا عَلَى مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ اَلْإِيمَانِ ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ أَجْرُهُ وَثَوَابُهُ وَرِزْقُهُ ﴿خَيْرٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿خَرْجًا﴾ فِي اَلْمَوْضِعَيْنِ، وَفِي قِرَاءَةٍ أُخْرَى: ﴿خَرَاجًا﴾ فِيهِمَا ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾ أَفْضَلُ مَنْ أَعْطَى وَآجَرَ. ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾ أَيْ: دِينِ اَلْإِسْلَامِ. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بِالْبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أَي: اَلطَّرِيقِ ﴿لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾ عَادِلُونَ[2]. ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ جُوعٍ أَصَابَهُمْ بِمَكَّةَ سَبْعَ سِنِينَ ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ تَمَادَوْا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ ضَلَالَتِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ يَتَرَدَّدُونَ. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ اَلْجُوعِ ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ تَوَاضَعُوا ﴿لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾ يَرْغَبُونَ إِلَى اَللهِ بِالدُّعَاءِ. ﴿حَتَّىٰٓ﴾ اِبْتِدَائِيَّةٌ ﴿إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا﴾ صَاحِبَ ﴿عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ بِالْقَتْلِ[3] ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾ آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) اختلف العلماء في المراد بالحق في هذه الآية، فقال بعضهم: الحق: هو الله تعالى، ومعلوم أن الحق من أسمائه الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] ... وكون المراد بالحق في الآية: هو الله عزاه القرطبي للأكثرين، وممن قال به: مجاهد وابن جريج، وأبو صالح، والسدي، وروي عن قتادة، وغيرهم. وعلى هذا القول فالمعنى لو أجابهم الله إلى تشريع ما أحبوا تشريعه وإرسال من اقترحوا إرساله، بأن جعل أمر التشريع وإرسال الرسل ونحو ذلك تابعا لأهوائهم الفاسدة، لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن؛ لأن أهواءهم الفاسدة وشهواتهم الباطلة، لا يمكن أن تقوم عليها السماء والأرض وذلك لفساد أهوائهم، واختلافها ... القول الثاني: أن المراد بالحق في الآية: الحق الذي هو ضد الباطل المذكور في قوله قبله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] وهذا القول الأخير اختاره ابن عطية، وأنكر الأول. وعلى هذا القول فالمعنى: أنه لو فرض كون الحق متبعا لأهوائهم، التي هي الشرك بالله، وادعاء الأولاد، والأنداد له ونحو ذلك لفسد كل شيء؛ لأن هذا الفرض يصير به الحق، هو أبطل الباطل، ولا يمكن أن يقوم نظام السماء والأرض على شيء، هو أبطل الباطل؛ لأن استقامة نظام هذا العالم لا تمكن إلا بقدرة وإرادة إله هو الحق منفرد بالتشريع، والأمر والنهي كما لا يخفى على عاقل والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٥/ ٨٧٨)].

(٢) لعادلون عنه فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه. [البيضاوي (٤/ ٩٢)]. وقال الحسن: تاركون له. وقال قتادة: حائرون. وقال الكلبي: معرضون، وهذه أقوال متقاربة المعنى. [أبو حيان (٧/ ٥٧٦)].

(٣) قيل: إن هذا العذاب هو الجوع بالقحط، وأن الباب ذا العذاب الشديد المتوعد به بعد هذا يوم بدر، وهذا مردود بأن العذاب الذي أصابهم إنما كان بعد بدر، وقيل: إن العذاب الذي أخذهم هو يوم بدر، والباب المتوعد به هو القحط، وقيل: الباب ذو العذاب الشديد:

أَنشَأَ﴾ خلَقَ ﴿لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ بِمَعْنَى الْأَسْمَاعِ ﴿وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الْقُلُوبَ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ تَأْكِيدٌ لِلْقِلَّةِ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ خلَقَكُمْ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ تُبْعَثُونَ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ﴾ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِي الْمُضْغَةِ ﴿وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بِالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ صُنْعَهُ تَعَالَى فَتَعْتَبِرُوا. ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟﴾ أَيِ: الْأَوَّلُونَ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ لَا، وَفِي الْهَمْزَتَيْنِ التَّحْقِيقُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالُ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ. ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا﴾ أَيِ: الْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿مِن قَبْلُ إِنْ﴾ مَا ﴿هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ﴾ أَكَاذِيبُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾ كَالْأَضَاحِيكِ وَالْأَعَاجِيبِ، جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ. ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ مِنَ الْخَلْقِ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ خَالِقَهَا وَمَالِكَهَا. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الذَّالِ: تَتَّعِظُونَ، فَتَعْلَمُوا أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْخَلْقِ ابْتِدَاءً قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ الْكُرْسِيِّ[1] ﴿سَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ تَحْذَرُونَ عِبَادَةَ غَيْرِهِ. ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ مُلْكُ ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يَحْمِي وَلَا يُحْمَى عَلَيْهِ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لِلَّهِ ۚ﴾ بِلَامِ الْجَرِّ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، نَظَرًا إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى: مَنْ لَهُ مَا ذُكِرَ ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ تُخْدَعُونَ وَتُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، أَيْ: كَيْفَ يُخَيَّلُ لَكُمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ؟ ﴿بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ فِي نَفْيِهِ. وَهُوَ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا﴾ أَيْ: لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ انْفَرَدَ بِهِ، وَمَنَعَ الْآخَرَ مِنَ الِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ[2] ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾

عذاب الآخرة، وهذا أرجح، ولذلك وصفه بالشدة لأنه أشد من عذاب الدنيا، وقال: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: أي يائسون من الخير، وإنما يقع لهم اليأس في الآخرة كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢]. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥٥)].

(١) العرش العظيم، يعني: الذي هو سقف المخلوقات، وفي الحديث: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَإِنَّ الْكُرْسِيَّ بِمَا فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ كَتِلْكَ الْحَلْقَةِ فِي تِلْكَ الْفَلَاةِ». رواه الطبري في تفسيره (٥/ ٣٩٩).

(٢) هذا برهان على الوحدانية، وبيانه أن يقال: لو كان مع الله إلهـًا آخر لانفرد كل واحد منهما بمخلوقاته عن مخلوقات الآخر، واستبد كل واحد منهما بملكه، وطلب غلبة الآخر والعلو عليه كما ترى حال ملوك الدنيا، ولكن لما رأينا جميع المخلوقات مرتبطة بعضها ببعض حتى كأن العالم كله كرة واحدة: علمنا أن مالكه ومدبره واحد، لا إله غيره. وليس هذا البرهان بدليل التمانع كما فهم ابن عطية وغيره، بل هو دليل آخر، فإن قيل:

مُغَالَبَةً كَفِعْلِ مُلُوكِ الدُّنْيَا ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ ـهُ بِهِ مِمَّا ذُكِرَ. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ، بِالْجَرِّ: صِفَةٌ، وَالرَّفْعِ: خَبَرُ «هُوَ» مُقَدَّرًا ﴿فَتَعَٰلَىٰ﴾ تَعَظَّمَ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ـهُ مَعَهُ. ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الزَّائِدَةِ ﴿تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ـهُ مِنَ الْعَذَابِ، هُوَ صَادِقٌ بِالْقَتْلِ بِبَدْرٍ. ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ فَأَهْلِكَ بِإِهْلَاكِهِمْ. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أَيِ: الْخَلَّةِ، مِنَ الصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أَذَاهُمْ إِيَّاكَ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أَيْ: يَكْذِبُونَ وَيَقُولُونَ، فَنُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ﴾ أَعْتَصِمُ ﴿بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ نَزَغَاتِهِمْ بِمَا يُوَسْوِسُونَ بِهِ. ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ فِي أُمُورِي؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَحْضُرُونَ بِسُوءٍ. ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وَرَأَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ آمَنَ[1] ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ الْجَمْعُ لِلتَّعْظِيمِ. ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ بِأَنْ أَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَكُونُ ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ضَيَّعْتُ مِنْ عُمْرِي، أَيْ: فِي مُقَابَلَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ﴾ أَيْ: لَا رُجُوعَ ﴿إِنَّهَا﴾ أَيْ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ وَلَا فَائِدَةَ لَهُ فِيهَا ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أَمَامَهُمْ ﴿بَرْزَخٌ﴾ حَاجِزٌ يَصُدُّهُمْ عَنِ الرُّجُوعِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ وَلَا رُجُوعَ بَعْدَهُ. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الْقَرْنِ النَّفْخَةَ الْأُولَى أَوِ الثَّانِيَةَ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يَتَفَاخَرُونَ بِهَا[2] ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ عَنْهَا، خِلَافَ حَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَشْغَلُهُمْ مِنْ عِظَمِ الْأَمْرِ عَنْ ذَلِكَ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْقِيَامَةِ، وَفِي بَعْضِهَا يُفِيقُونَ، وَفِي آيَةٍ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠][3]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾

«إذ» لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، فكيف دخلت هنا ولم يتقدم قبلها شرط ولا سؤال سائل؟ فالجواب: أن الشرط محذوف تقديره لو كان معه آلهة وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾، وهو جواب للكفار الذين وقع الرد عليهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥٦)].

(١) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا رَأَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً». أخرجه البخاري (٦٥٦٩).

(٢) المعنى: أنه ينقطع يومئذ التعاطف والشفقة التي بين القرابة؛ لاشتغال كل أحد بنفسه. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥٧)].

(٣) السؤال: قال: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ مع أنه ذكر في آيات أخر أنهم في الآخرة يتساءلون؟ الجواب من ثلاثة أوجه: الأول: هو قول من قال: إن نفي السؤال بعد النفخة الأولى، وقبل الثانية، وإثباته بعدهما معا، وهذا الجواب فيما يظهر لا يخلو من نظر. الثاني: أن نفي السؤال عند اشتغالهم بالصعق والمحاسبة، والجواز على الصراط وإثباته فيما عدا ذلك وهو عن السدي، من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. الثالث: أن السؤال المنفي سؤال خاص، وهو سؤال بعضهم العفو من بعض، فيما بينهم من الحقوق، لقنوطهم من الإعطاء، ولو

بِالْحَسَنَاتِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢﴾ الْفَائِزُونَ. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بِالسَّيِّئَاتِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ فَهُمْ ﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تُحْرِقُهَا ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ شَمَّرَتْ
شِفَاهُهُمُ الْعُلْيَا وَالسُّفْلَى عَنْ أَسْنَانِهِمْ. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تُخَوَّفُونَ بِهَا
﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿شَقَاوَتُنَا﴾ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَأَلِفٍ، وَهُمَا
مَصْدَرَانِ بِمَعْنًى ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ عَنِ الْهِدَايَةِ(١). ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا﴾ إِلَى الْمُخَالَفَةِ ﴿فَإِنَّا
ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ﴾ لَهُمْ بِلِسَانِ «مَالِكٍ» بَعْدَ قَدْرِ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ(٢): ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ ابْعُدُوا فِي النَّارِ أَذِلَّاءَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ
١٠٨﴾ فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ، لِيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهُمْ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا
فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ بِضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا مَصْدَرٌ، بِمَعْنَى: «الْهُزْءِ»،
مِنْهُمْ: «بِلَالٌ وَصُهَيْبٌ وَعَمَّارٌ وَسَلْمَانُ» ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ فَتَرَكْتُمُوهُ لِاشْتِغَالِكُمْ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، فَهُمْ سَبَبُ
الْإِنْسَاءِ فَنُسِبَ إِلَيْهِمْ(٣) ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ عَلَى

كان المسؤول أبا أو ابنا أو أما أو زوجة، ذكر هذه الأوجه الثلاثة صاحب الإتقان. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٢٣٠)].

(١) أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. [السعدي (ص:٥٦٠)].

(٢) هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي. قال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. [ابن كثير (٥/٤٩٨)].

(٣) فالكفار يسخرون من ضعفاء المؤمنين في الدنيا حتى ينسيهم ذلك ذكر الله، والإيمان به فيدخلون بذلك النار. وما ذكره تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أشار له في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وكل ذلك احتقار منهم لهم، وإنكارهم أن الله يمن عليهم بخير ... وقوله تعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وكل ذلك احتقار منهم لهم، وقوله: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ والسخري بالضم والكسر: مصدر سخر منه، إذا استهزأ به على سبيل الاحتقار، قال الزمخشري في ياء النسب: زيادة في الفعل، كما قيل في الخصوصية بمعنى الخصوص، ومعناه: أن الياء المشددة في آخره تدل على زيادة سخرهم منهم ومبالغتهم في ذلك. [الشنقيطي (٥/٩٠٥)].

اِسْتِهْزَائِكُمْ بِهِمْ وَأَذَاكُمْ إِيَّاهُمْ ﴿إِنَّهُمْ﴾ بِكَسْرِ اَلْهَمْزَةِ ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ١١١﴾ بِمَطْلُوبِهِمْ اِسْتِئْنَافٌ، وَبِفَتْحِهَا مَفْعُولٌ ثَانٍ لِـ ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾. ﴿قَٰلَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ بِلِسَانِ مَالِكٍ(١)، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قُلْ﴾: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فِي اَلدُّنْيَا وَفِي قُبُورِكُمْ ﴿عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾ تَمْيِيزٌ. ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ شَكُّوا فِي ذَلِكَ، وَاسْتَقْصَرُوهُ لِعِظَمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ اَلْعَذَابِ ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ١١٣﴾ أَيِ: اَلْمَلَائِكَةَ اَلْمُحْصِينَ أَعْمَالَ اَلْخَلْقِ. ﴿قَٰلَ﴾ تَعَالَى بِلِسَانِ مَالِكٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قُلْ﴾ أَيْ: مَا ﴿لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١١٤﴾ مِقْدَارَ لُبْثِكُمْ مِنَ اَلطُّولِ كَانَ قَلِيلًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى لُبْثِكُمْ فِي اَلنَّارِ. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ لَا لِحِكْمَةٍ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ، لَا بَلْ لِنَتَعَبَّدَكُمْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَتَرْجِعُوا إِلَيْنَا وَنُجَازِيَ عَلَى ذَلِكَ. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ عَنِ اَلْعَبَثِ وَغَيْرِهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ١١٦﴾ اَلْكُرْسِيِّ: هُوَ اَلسَّرِيرُ اَلْحَسَنُ(٢) ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ لَا مَفْهُومَ لَهَا ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ جَزَاؤُهُ ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ لَا يَسْعَدُونَ(٣). ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ اَلْمُؤْمِنِينَ، فِي اَلرَّحْمَةِ زِيَادَةٌ عَنِ اَلْمَغْفِرَةِ ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ أَفْضَلُ رَاحِمٍ.

---

(١) انظر التعليق على الآية (١٠٨) من هذه السورة.

(٢) انظر التعليق على الآية (٨٧) من هذه السورة.

(٣) لما كان أعظم ما دعا الله إليه توحيده، وكان أصل ضلالة المشركين إشراكهم أعقب وصف الله بالعلو العظيم والقدرة الواسعة ببيان أن الحساب الواقع بعد البعث ينال الذين دعوا مع الله آلهة دعوى لا عذر لهم فيها؛ لأنها عرية عن البرهان، أي: الدليل، لأنهم لم يثبتوا لله الملك الكامل إذ أشركوا معه آلهة، ولم يثبتوا ما يقتضي له عظيم التصرف إذ أشركوا معه تصرف آلهة. فقوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ حال من ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وهي حال لازمة؛ لأن دعوى الإله مع الله لا تكون إلا عرية عن البرهان. ونظير هذا الحال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، والقصر في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ قصر حقيقي. وفيه إثبات الحساب وأنه لله وحده في تخطئتهم وتهديدهم. ويجوز أن يكون القصر إضافيا تطمينا للنبي ﷺ بأن الله لا يؤاخذه باستمرارهم على الكفر كقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وهذا أسعد بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ﴾ [المؤمنون: ١١٨]. ويدل على ذلك تذييله بجملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وفيه ضرب من رد العجز على الصدر إذ افتتحت السورة بـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وختمت بـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهو نفي الفلاح عن الكافرين ضد المؤمنين. [ابن عاشور (١٨/ ١٣٦)].

سُورَةُ النُّورِ

مَدَنِيَّةٌ وَهِيَ ثِنْتَانِ أَوْ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ آيَةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَذِهِ ﴿**سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا**﴾ مُخَفَّفَةٌ وَمُشَدَّدَةٌ لِكَثْرَةِ الْمَفْرُوضِ فِيهَا ﴿**وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ**﴾ وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ ﴿**لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١**﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الذَّالِ تَتَّعِظُونَ. ﴿**ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى**﴾ أَيْ: غَيْرُ الْمُحْصَنَيْنِ لِرَجْمِهِمَا بِالسُّنَّةِ، وَ«أَلْ» فِيمَا ذُكِرَ مَوْصُولَةٌ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَلِشَبَهِهِ بِالشَّرْطِ دَخَلَتِ الْفَاءُ فِي خَبَرِهِ، وَهُوَ: ﴿**فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ**﴾ أَيْ: ضَرْبَةٍ، يُقَالُ: جَلَدَهُ ضَرَبَ جِلْدَهُ، وَيُزَادُ عَلَى ذَلِكَ بِالسُّنَّةِ تَغْرِيبُ عَامٍ[١]، وَالرَّقِيقُ عَلَى النِّصْفِ مِمَّا ذُكِرَ ﴿**وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ**﴾ أَيْ: حُكْمِهِ، بِأَنْ تَتْرُكُوا شَيْئًا مِنْ حَدِّهِمَا ﴿**إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ**﴾ أَيْ: يَوْمِ الْبَعْثِ، فِي هَذَا تَحْرِيضٌ عَلَى مَا قَبْلَ الشَّرْطِ، وَهُوَ جَوَابُهُ أَوْ دَالٌّ عَلَى جَوَابِهِ[٢] ﴿**وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا**﴾ الْجَلْدَ ﴿**طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢**﴾ قِيلَ: ثَلَاثَةٌ، وَقِيلَ: أَرْبَعَةٌ، عَدَدُ شُهُودِ الزِّنَى[٣]. ﴿**ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ**﴾ يَتَزَوَّجُ ﴿**إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ**﴾ أَيِ: الْمُنَاسِبُ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَا ذُكِرَ

---

(١) عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما، في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني كان عسيفا – يعني أجيرا –على هذا فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ: الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ. وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ –لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ –إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا». فغدا عليها فاعترفت، فرجمها. أخرجه البخاري (٢٣١٤)، ومسلم (١٦٩٧).

(٢) نهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رأفة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع. [السعدي (ص:٥٦١)].

(٣) ندبـًا، والطائفة الفرقة التي تكون حافة حول الشيء من الطوف، وأقلها ثلاثة، لأنه أقل الجمع، وقيل: اثنان. قاله عكرمة. وقيل: واحد. قاله مجاهد. وقيل: أربعة لأنهم عدد شهود الزنا. وقيل: عشرة. قال ابن عباس: الطائفة الرجل فما فوقه، ولا يجب على الإمام حضور رجم، ولا على الشهود، لأنه ﷺ أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما، وإنما خص المؤمنين بالحضور لأن ذلك أفضح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل، وتسمية الجلد عذابـًا دليل على أنه عقوبة. [صديق حسن (٩/ ١٦٧)].

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: نِكَاحُ الزَّوَانِي ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ٣﴾ الْأَخْيَارِ، نَزَلَ ذَلِكَ لَمَّا هَمَّ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا بَغَايَا الْمُشْرِكِينَ وَهُنَّ مُوسِرَاتٍ لِيُنْفِقْنَ عَلَيْهِمْ، فَقِيلَ: التَّحْرِيمُ خَاصٌّ بِهِمْ، وَقِيلَ: عَامٌّ. وَنُسِخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢][1]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ الْعَفِيفَاتِ بِالزِّنَى[2] ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ عَلَى زِنَاهُنَّ بِرُؤْيَتِهِمْ ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ أَيْ: كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ﴿ثَمَـٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَـٰدَةً﴾ فِي شَيْءٍ ﴿أَبَدًا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ٤﴾ لِإِتْيَانِهِمْ كَبِيرَةً[3]. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ عَمَلَهُمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ قَذْفَهُمْ ﴿رَّحِيمٌ ٥﴾ بِهِمْ بِإِلْهَامِهِمُ التَّوْبَةَ، فَبِهَا يَنْتَهِي فِسْقُهُمْ وَتُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ، وَقِيلَ: لَا تُقْبَلُ، رُجُوعًا بِالِاسْتِثْنَاءِ إِلَى الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ. ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ بِالزِّنَى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ عَلَيْهِ ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ وَقَعَ ذَلِكَ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ ﴿بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٦﴾ فِيمَا رَمَى بِهِ زَوْجَتَهُ مِنَ الزِّنَى. ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ٧﴾ فِي ذَلِكَ، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ: تَدْفَعُ عَنْهُ حَدَّ الْقَذْفِ. ﴿وَيَدْرَؤُاْ﴾ أَيْ: يَدْفَعُ ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أَيْ: حَدَّ الزِّنَى الَّذِي ثَبَتَ بِشَهَادَتِهِ ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ٨﴾ فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزِّنَى. ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٩﴾ فِي ذَلِكَ[4]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾

---

(١) هذا القول الذي هو أن المراد بالنكاح في الآية التزويج لا الوطء في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحته، وتلك القرينة هي ذكر المشرك والمشركة في الآية؛ لأن الزاني المسلم لا يحل له نكاح مشركة، وكذلك الزانية المسلمة لا يحل لها نكاح المشرك، فنكاح المشركة والمشرك لا يحل بحال، وذلك قرينة على أن المراد بالنكاح في الآية التي نحن بصددها الوطء الذي هو الزنى، لا عقد النكاح؛ لعدم ملاءمة عقد النكاح لذكر المشرك والمشركة، والقول بأن نكاح الزاني للمشركة، والزانية للمشرك منسوخ ظاهر السقوط؛ لأن سورة النور مدنية، ولا دليل على أن ذلك أحل بالمدينة ثم نسخ، والنسخ لا بد له من دليل يجب الرجوع إليه. [الشنقيطي (٦/ ٨٠)].

(٢) هذا حد القذف، وهو الفرية التي عبر الله عنها بالرمي، والمحصنات يراد بهن هنا العفائف من النساء، وخصهن بالذكر لأن قذفهن أكثر وأشنع من قذف الرجال، ودخل الرجال في ذلك بالمعنى إذ لا فرق بينهم، وأجمع العلماء على أن حكم الرجال والنساء هنا واحد، وقيل: إن المعنى؛ يرمون الأنفس المحصنات، فيعم اللفظ على هذا النساء والرجال. [ابن جُزَيّ (٢/ ٦١)].

(٣) فأوجب على القاذف إذا لم يقم بينة على صحة ما قاله ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة. الثاني: أنه ترد شهادته دائما. الثالث: أن يكون فاسقا ليس بعدل، لا عند الله ولا عند الناس. [ابن كثير (٦/ ١٤)].

(٤) هذه الآيات في قذف الرجل لامرأته فيجب اللعان بذلك، وسببها أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فسكت عنه نبي الله ﷺ، ثم عاد فقال مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ قد أنزل فيك وفي صاحبتك فأتني بها فأتى بها فتلاعنا

بِالسَّتْرِ فِي ذَٰلِكَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ بِقَبُولِهِ اَلتَّوْبَةَ فِي ذَٰلِكَ وَغَيْرِهِ ﴿حَكِيمٌ ⑩﴾ فِيمَا حَكَمَ بِهِ فِي ذَٰلِكَ وَغَيْرِهِ لِيَبِينَ اَلْحَقُّ فِي ذَٰلِكَ، وَعَاجَلَ بِالْعُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أَسْوَأَ اَلْكَذِبِ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها أُمِّ اَلْمُؤْمِنِينَ بِقَذْفِهَا ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جَمَاعَةٌ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: «حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ وَمِسْطَحٌ وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ»[(١)] ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ أَيُّهَا اَلْمُؤْمِنُونَ غَيْرُ اَلْعُصْبَةِ ﴿شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يَأْجُرُكُمُ اللهُ بِهِ، وَيُظْهِرُ بَرَاءَةَ عَائِشَةَ[(٢)] وَمَنْ جَاءَ مَعَهَا مِنْهُ وَهُوَ صَفْوَانُ، فَإِنَّهَا قَالَتْ: «كُنْتُ مَعَ اَلنَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ اَلْحِجَابُ، فَفَرَغَ مِنْهَا وَرَجَعَ وَدَنَا مِنَ اَلْمَدِينَةِ، وَآذَنَ بِالرَّحِيلِ لَيْلَةً فَمَشَيْتُ وَقَضَيْتُ شَأْنِي، وَأَقْبَلْتُ إِلَى اَلرَّحْلِ فَإِذَا عِقْدِي اِنْقَطَعَ - هُوَ بِكَسْرِ اَلْمُهْمَلَةِ اَلْقِلَادَةُ - فَرَجَعْتُ أَلْتَمِسُهُ، وَحَمَلُوا هَوْدَجِي - هُوَ مَا يُرْكَبُ فِيهِ - عَلَى بَعِيرِي يَحْسَبُونَنِي فِيهِ، وَكَانَتِ اَلنِّسَاءُ خِفَافًا إِنَّمَا يَأْكُلْنَ اَلْعُلْقَةَ - هُوَ بِضَمِّ اَلْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ اَللَّامِ - مِنَ اَلطَّعَامِ، أَيِ: اَلْقَلِيلَ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي وَجِئْتُ بَعْدَ مَا سَارُوا، فَجَلَسْتُ فِي اَلْمَنْزِلِ اَلَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ اَلْقَوْمَ سَيَفْقِدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَغَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ اَلْجَيْشِ فَادَّلَجَ - هُمَا بِتَشْدِيدِ اَلرَّاءِ وَالدَّالِ أَيْ: نَزَلَ مِنْ آخِرِ اَللَّيْلِ لِلِاسْتِرَاحَةِ فَسَارَ مِنْهُ - فَأَصْبَحَ فِي مَنْزِلِهِ فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ - أَيْ: شَخْصَهُ - فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي - وَكَانَ يَرَانِي

وفرق رسول الله ﷺ بينهما. أخرجه البخاري (٤٧٤٦)، ومسلم (١٤٩٢). وموجب اللعان عند مالك شيئان: أحدهما أن يدعي الزوج أنه رأى امرأته تزني. والآخر أن ينفي حملها ويدعى الاستبراء قبله، فإذا تلاعن الزوج تعلقت به ثلاثة أحكام: نفي حد القذف عنه، وانتفاء سبب الولد منه، ووجوب حد الزنا عليها إن لم تلاعن، فإن تلاعنت سقط الحد عنها، ولفظ الآية عام في الزوجات الحرائر والمماليك، والمسلمات والكافرات والعدول وغيرهم، وبذلك أخذ مالك واشترط في الزوج الإسلام واشترط أبو حنيفة أن يكونا مسلمين حرين عدلين ... فيقول الزوج أربع مرات: أشهد بالله لقد رأيت هذه المرأة تزني، أو أشهد بالله ما هذا الحمل مني؛ ولقد زنت وإني في ذلك لمن الصادقين، ثم يقول في الخامسة لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وزاد أشهب أن يقول: أشهد بالله الذي لا إله إلا هو ... ويدفعه التعان المرأة، وهي أن تقول أربع مرات: أشهد بالله ما زنيت، وإنه في ذلك لمن الكاذبين، ثم تقول في الخامس: غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ويتعلق بالتعانها ثلاثة أحكام: دفع الحد عنها، والتفريق بينها وبين زوجها، وتأبيد الحرمة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٦١)].

(١) أخرجه البخاري في قصة الإفك (٢٦٦١).

(٢) ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف بشاهد من أهلها، وموسى بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بإنطاق ولدها، وعائشة بهذه الآي العظام في كتابه المعجز؛ المتلو على وجه الدهر، بهذه المبالغات؛ فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك حيث لم يرض لها ببراءة صبي ولا نبي. حتى برأها بكلامه من القذف والبهتان؛ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسوله. والتنبيه على أنافة محله صلى الله عليه وآله وأصحابه أجمعين. [صديق حسن (٩/ ١٩٣)].

قَبْلَ اَلْحِجَابِ - فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي - أَيْ: قَوْلِهِ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي - أَيْ: غَطَّيْتُهُ بِالْمُلَاءَةِ - وَاللهِ مَا كَلَّمَنِي بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اِسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ وَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي اَلرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا اَلْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ - أَيْ: مِنْ أَوْغَرَ وَاقِفِينَ فِي مَكَانٍ وَغْرٍ مِنْ شِدَّةِ اَلْحَرِّ - فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِيَّ، وَكَانَ اَلَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ عَبْدُ اَللهِ بْنُ أُبَيٍّ اِبْنِ سَلُولَ» . اِنْتَهَى قَوْلُهَا. رَوَاهُ اَلشَّيْخَانِ(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿**لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم**﴾ أَيْ: عَلَيْهِ ﴿**مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ**﴾ فِي ذَلِكَ ﴿**وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ**﴾ أَيْ: تَحَمَّلَ مُعْظَمَهُ فَبَدَأَ بِالْخَوْضِ فِيهِ وَأَشَاعَهُ - وَهُوَ عَبْدُ اَللهِ بْنُ أُبَيٍّ - ﴿**لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١**﴾ هُوَ اَلنَّارُ فِي اَلْآخِرَةِ. ﴿**لَّوۡلَآ**﴾ هَلَّا ﴿**إِذۡ**﴾ حِينَ ﴿**سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ**﴾ أَيْ: ظَنَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ﴿**خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢**﴾ كَذِبٌ بَيِّنٌ، فِيهِ اِلْتِفَاتٌ عَنِ اَلْخِطَابِ، أَيْ: ظَنَنْتُمْ أَيُّهَا اَلْعُصْبَةُ وَقُلْتُمْ(٢). ﴿**لَّوۡلَا**﴾ هَلَّا ﴿**جَآءُو**﴾ أَيِ: اَلْعُصْبَةُ ﴿**عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ**﴾ شَاهَدُوهُ ﴿**فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ**﴾ أَيْ: فِي حُكْمِهِ ﴿**هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣**﴾ فِيهِ. ﴿**وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ**﴾ أَيُّهَا اَلْعُصْبَةُ، أَيْ: خُضْتُمْ ﴿**فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤**﴾ فِي اَلْآخِرَةِ. ﴿**إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ**﴾ أَيْ: يَرْوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَحُذِفَ مِنَ اَلْفِعْلِ إِحْدَى اَلتَّاءَيْنِ، وَ﴿إِذْ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ﴿مَسَّكُمْ﴾، أَوْ بِـ﴿أَفَضْتُمْ﴾ ﴿**وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا**﴾ لَا إِثْمَ فِيهِ ﴿**وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥**﴾ فِي اَلْإِثْمِ(٣). ﴿**وَلَوۡلَآ**﴾

---

(١) قصة الحديث أخرجها البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٢٧٧٠)، وهي هنا مختصرة مع زيادات تفسير الغريب.

(٢) العدول عن ضمير الخطاب في إسناد فعل الظن إلى المؤمنين التفات، فمقتضى الظاهرة أن يقال: ظننتم بأنفسكم خيرا، فعدل عن الخطاب للاهتمام بالتوبيخ فإن الالتفات ضرب من الاهتمام بالخبر، وليصرح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك في الإيمان يقتضي ألا يصدق مؤمن على أخيه وأخته في الدين ولا مؤمنة على أخيها وأختها في الدين قول عائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في مؤمن أن يبني الأمر فيها على الظن لا على الشك، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحية المقام فإذا نسب سوء إلى من عرف بالخير ظن أن ذلك إفك وبهتان حتى يتضح البرهان. وفيه تعريض بأن ظن السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلة بصارة فكفى بذلك تشنيعا له. [ابن عاشور (١٨/ ١٧٤)].

(٣) ﴿عَظِيمٌ﴾ في الوزر واستجرار العذاب، فهذه ثلاثة آثام مترتبة علق بها مس العذاب العظيم، تلقي الإفك بألسنتهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك، وهو عند الله عظيم. [البيضاوي (٤/ ١٠١)]. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿بِأَفۡوَاهِكُم﴾ والقول لا يكون إلا بالفم؟ قلت: معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، فيترجم عنه اللسان. وهذا الإفك ليس إلا قولا يجرى على ألستكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. [الزمخشري (٣/ ٢١٩)].

هَلَّا ﴿إِذۡ﴾ حِينَ ﴿سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ﴾ مَا يَنْبَغِي ﴿لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ﴾ هُوَ لِلتَّعْجِيبِ هُنَا(١) ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ﴾ كَذِبٌ ﴿عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ يَنْهَاكُمْ ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧﴾ تَتَّعِظُونَ بِذَلِكَ. ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ﴿حَكِيمٌ ١٨﴾ فِيهِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ﴾ بِاللِّسَانِ ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِنِسْبَتِهَا إِلَيْهِمْ، وَهُمُ الْعُصْبَةُ ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بِالْحَدِّ لِلْقَذْفِ ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بِالنَّارِ لِحَقِّ اللهِ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ انْتِفَاءَهَا عَنْهُمْ ﴿وَأَنتُمۡ﴾ أَيُّهَا الْعُصْبَةُ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِفْكِ ﴿لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾ وُجُودَهَا فِيهِمْ. ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أَيُّهَا الْعُصْبَةُ ﴿وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾ بِكُمْ لَعَاجَلَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ. ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أَيْ: طُرُقَ تَزْيِينِهِ ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الْمُتَّبَعُ ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أَيِ: الْقَبِيحِ ﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ شَرْعًا بِاتِّبَاعِهِمَا ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم﴾ أَيُّهَا الْعُصْبَةُ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِفْكِ ﴿مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ أَيْ: مَا صَلُحَ وَطَهُرَ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي﴾ يُطَهِّرُ ﴿مَن يَشَآءُۗ﴾ مِنَ الذَّنْبِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ مِنْهُ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بِمَا قُلْتُمْ ﴿عَلِيمٞ ٢١﴾ بِمَا قَصَدْتُمْ. ﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾ يَحْلِفْ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ﴾ أَصْحَابُ الْغِنَى ﴿مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن﴾ لَا ﴿يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ حَلَفَ أَنْ لَا يُنْفِقَ عَلَى مِسْطَحٍ، وَهُوَ ابْنُ خَالَتِهِ مِسْكِينٌ مُهَاجِرٌ بَدْرِيٌّ، لَمَّا خَاضَ فِي الْإِفْكِ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَنَاسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَقْسَمُوا أَنْ لَا يَتَصَدَّقُوا عَلَى مَنْ تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِفْكِ ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «بَلَى أَنَا أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي»، وَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ مَا كَانَ يُنْفِقُهُ عَلَيْهِ(٢). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ بِالزِّنَى ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الْعَفَائِفَ ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ عَنِ الْفَوَاحِشِ بِأَلَّا يَقَعَ فِي قُلُوبِهِنَّ فِعْلُهَا(٣)

---

(١) هذا تأديب آخر بعد الأول: الأمر بالظن خيرا، أي: إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخَيِّرة فأولى ينبغي الظن بهم خيرا، وألا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالا فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حدَّثت بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ». أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧). [ابن كثير (٦/ ٢٩)].

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٧٩).

(٣) ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ العفائف ... والإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حد القذف، ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ أي: اللاتي غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهن ولا يفطن لها، وفي ذلك من الدلائل على كمال النزاهة، وطهارة الجيب ما لم يكن في المحصنات. [صديق حسن (٩/ ١٩٠)]. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ». قيل: يا رسول الله، وما هن؟

﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ﴾ نَاصِبُهُ الِاسْتِقْرَارُ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ «لَهُمْ» ﴿تَشۡهَدُ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَهُوَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ يُجَازِيهِمْ جَزَاءَهُ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ حَيْثُ حَقَّقَ لَهُمْ جَزَاءَهُ الَّذِي كَانُوا يَشُكُّونَ فِيهِ، وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، وَالْمُحْصَنَاتُ هُنَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يُذْكَرْ فِي قَذْفِهِنَّ تَوْبَةٌ وَمَنْ ذُكِرَ فِي قَذْفِهِنَّ أَوَّلَ سُورَةِ التَّوْبَةِ غَيْرُهُنَّ[1]. ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ مِنَ النِّسَاءِ وَمِنَ الْكَلِمَاتِ ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ مِنْهُمْ ﴿لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ مِمَّا ذُكِرَ، أَيِ: اللَّائِقُ بِالْخَبِيثِ مِثْلُهُ وَبِالطَّيِّبِ مِثْلُهُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الطَّيِّبُونَ وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ وَمِنْهُمْ عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ أَيِ: الْخَبِيثُونَ وَالْخَبِيثَاتُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِيهِمْ ﴿لَهُم﴾ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾ فِي الْجَنَّةِ، وَقَدِ افْتَخَرَتْ عَائِشَةُ بِأَشْيَاءَ مِنْهَا: «أَنَّهَا خُلِقَتْ طَيِّبَةً، وَوُعِدَتْ مَغْفِرَةً، وَرِزْقًا كَرِيمًا». ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أَيْ: تَسْتَأْذِنُوا ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ فَيَقُولُ الْوَاحِدُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ» كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ[2]، ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مِنَ الدُّخُولِ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الذَّالِ، خَيْرِيَّتَهُ فَتَعْمَلُوا بِهِ. ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا﴾ يَأْذَنُ لَكُمْ ﴿فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ بَعْدَ الِاسْتِئْذَانِ ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ﴾ أَيِ: الرُّجُوعُ ﴿أَزۡكَىٰ﴾ أَيْ: خَيْرٌ ﴿لَكُمۡۚ﴾ مِنَ الْقُعُودِ عَلَى الْبَابِ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِنَ الدُّخُولِ بِإِذْنٍ وَغَيْرِ إِذْنٍ ﴿عَلِيمٞ ٢٨﴾ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ

قال: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(١) هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات -خرج مخرج الغالب- المؤمنات. فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما. وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآيات، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن. وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي، والله أعلم. [ابن كثير (٦/ ٣١)].

(٢) عن رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه «اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمْهُ الِاسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل. أخرجه أبو داود (٤٥٠٨).

فِيهَا مَتَٰعٌ﴾ أَيْ: مَنْفَعَةٌ ﴿لَّكُمۡۚ﴾ بِاسْتِكْنَانٍ وَغَيْرِهِ، كَبُيُوتِ الرُّبُطِ وَالْخَانَاتِ الْمُسَبَّلَةِ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ تُظْهِرُونَ ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ تُخْفُونَ فِي دُخُولِ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ مِنْ قَصْدِ صَلَاحٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَسَيَأْتِي أَنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا بُيُوتَهُمْ يُسَلِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ نَظَرُهُ، وَ ﴿مِنۡ﴾ زَائِدَةٌ[1] ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ فِعْلُهُ بِهَا[2] ﴿ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ﴾ أَيْ: خَيْرٌ ﴿لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ بِالْأَبْصَارِ وَالْفُرُوجِ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ نَظَرُهُ ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ فِعْلُهُ بِهَا ﴿وَلَا يُبۡدِينَ﴾ يُظْهِرْنَ ﴿زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ وَهُوَ الْوَجْهُ وَالْكَفَّانِ، فَيَجُوزُ نَظَرُهُ لِأَجْنَبِيٍّ إِنْ لَمْ يُخَفْ فِتْنَةٌ فِي أَحَدِ وَجْهَيْنِ، وَالثَّانِي يَحْرُمُ لِأَنَّهُ مَظِنَّةُ الْفِتْنَةِ، وَرُجِّحَ حَسْمًا لِلْبَابِ ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ أَيْ: يَسْتُرْنَ الرُّؤُوسَ وَالْأَعْنَاقَ وَالصُّدُورَ بِالْمَقَانِعِ ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الْخَفِيَّةَ وَهِيَ مَا عَدَا الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ[3] ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ جَمْعُ بَعْلٍ، أَيْ: زَوْجٍ ﴿أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ

---

(١) أظهر ما في «من» أن تكون للتبعيض، وذلك أن أول نظرة لا يملكها الإنسان، وإنما يغض فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعيض، ويؤيد هذا التأويل ما روي من قوله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لَا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ الْأُولَى لَكَ وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةُ» الحديث. أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (٢٢٩٧٤). وقال جرير بن عبد الله: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «اصْرِفْ بَصَرَكَ». أخرجه أبو داود (٢١٤٨)، وأحمد (١٩٢٢٠). ويصح أن تكون «من» لبيان الجنس، ويصح أن تكون لابتداء الغاية، والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه. [ابن عطية (٤/ ١٧٧)].

(٢) أي: يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم ولا يحل لهم. وقيل: المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج، وقيل: وجه المجيء بـ«من» في الأبصار دون الفروج أنه موسع في النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن؟ ... بخلاف حفظ الفرج، فإنه مضيق فيه. فإنه لا يحل منه إلا ما استثنى. وقيل: الوجه أن غض البصر كلّه كالمتعذر، بخلاف حفظ الفرج، فإنه ممكن على الإطلاق، قال أبو العالية: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا ما في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه. [صديق حسن (٩/ ٢٠٢)].

(٣) اعلم أولا أن كلام العلماء في هذه الآية يرجع جميعه إلى ثلاثة أقوال: الأول: أن المراد بالزينة ما تتزين به المرأة خارجا عن أصل خلقتها، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شيء من بدنها؛ كقول ابن مسعود رضي الله عنه، ومن وافقه: إنها ظاهر الثياب؛ لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهي ظاهرة بحكم الاضطرار، كما ترى. وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها، وأبعدها من الريبة وأسباب الفتنة. القول الثاني: أن المراد بالزينة: ما تتزين به، وليس من أصل خلقتها أيضا، لكن النظر إلى تلك الزينة يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة، وذلك كالخضاب والكحل، ونحو ذلك؛ لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع الملابس له من البدن، كما لا يخفى. القول الثالث: أن المراد

﴿أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فَيَجُوزُ لَهُمْ نَظَرُهُ إِلَّا مَا بَيْنَ اَلسُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ(١)، فَيَحْرُمُ نَظَرُهُ لِغَيْرِ اَلْأَزْوَاجِ، وَخَرَجَ بِـ ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ اَلْكَافِرَاتُ(٢) فَلَا يَجُوزُ

بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذي هو من أصل خلقتها؛ كقول من قال: إن المراد بما ظهر منها الوجه والكفان. وهذا القول الأخير، توجد في الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول، وهي أن الزينة في لغة العرب، هي ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها: كالحلي، والحلل. فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا يجوز الحمل عليه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وبه تعلم أن قول من قال: الزينة الظاهرة: الوجه، والكفان خلاف ظاهر معنى لفظ الآية، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول، فلا يجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه. ولفظ الزينة يكثر تكرره في القرآن العظيم مرادا به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين بها؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وغيرها من الآيات فلفظ الزينة فيها كلها يراد به ما يزين به الشيء وهو ليس من أصل خلقته كما ترى، وكون هذا المعنى هو الغالب في لفظ الزينة في القرآن، يدل على أن لفظ الزينة في محل النزاع يراد به هذا المعنى، الذي غلبت إرادته في القرآن العظيم، وبه تعلم أن تفسير الزينة في الآية بالوجه والكفين، فيه نظر. وإذا علمت أن المراد بالزينة في القرآن ما يتزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة، وأن من فسروها من العلماء بهذا اختلفوا على قولين، فقال بعضهم: هي زينة لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة كظاهر الثياب. وقال بعضهم: هي زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة؛ كالكحل والخضاب، ونحو ذلك. وأظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود رضي الله عنه: أن الزينة الظاهرة هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا إن هذا القول هو الأظهر؛ لأنه هو أحوط الأقوال، وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأطهرها لقلوب الرجال والنساء، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها؛ كما هو معلوم والجاري على قواعد الشرع الكريم، هو تمام المحافظة، والابتعاد من الوقوع فيما لا ينبغي. واعلم أن الحديث الذي عند أبي داود، وهو حديث عائشة رضي الله عنها في دخول أسماء على النبي ﷺ في ثياب رقاق، وأنه قال لها: «إنَّ المَرْأَةَ إذا بَلَغَتِ المَحِيضَ لَمْ يَصْلُحْ أنْ يُرى مِنها إلّا هَذا»، وأشار إلى وجهه وكفيه، حديث ضعيف عند أهل العلم بالحديث؛ قال ابن كثير فيه: قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي: هو مرسل، وخالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها. [الشنقيطي (٦/ ٢١٤)].

(١) المراد موضع الزينة وهو الوجه واليد والذراع لأن فيها السوار والقلب، والعضد وهو موضع الدملج، والنحر والصدر موضع القلادة، والساق موضع الخلخال، فاقتضى ذلك إباحة النظر للمذكورين في الآية إلى هذه المواضع وهي مواضع الزينة الباطنة، لأنه خص في أول الآية إباحة الزينة الظاهرة للأجنبيين، وروي عن ابن مسعود والزبير رضي الله عنهما: القرط والقلادة والسوار والخلخال. [أحكام القران للجصاص (٣/ ٤٠٩)].

(٢) اختلف المفسرون فيها، فمنهم من قال: إن الإضافة للنوع. ومنهم من قال: إن الإضافة للجنس. فعلى القول الأول: لا يجوز للمرأة المسلمة أن تُبدي زينتها للكافرة، السبب؟ لأنها ليست من نوعها، فلا يجوز إبداؤها، ولأنها في الحقيقة الكافرة غير مؤتمنة قد تُغري بها الفُساق والكفار إذا رأتها تتجمل وتتبهى وتبدي الزينة. والقول الثاني: أن المراد بنسائهن، النساء اللاتي من جنسهن. وعليه فيجوز للمرأة أن

لِلْمُسْلِمَاتِ ٱلْكَشْفُ لَهُنَّ، وَشَمَلَ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ ٱلْعَبِيدَ(١) ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ﴾ فِي فُضُولِ ٱلطَّعَامِ ﴿غَيْرِ﴾ بِٱلْجَرِّ صِفَةٌ، وَٱلنَّصْبِ ٱسْتِثْنَاءٌ ﴿أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ أَصْحَابِ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلنِّسَاءِ ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ بِأَنْ لَمْ يَنْتَشِرْ ذَكَرُ كُلٍّ(٢) ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ بِمَعْنَى ٱلْأَطْفَالِ ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ﴾ يَطَّلِعُوا ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لِلْجِمَاعِ، فَيَجُوزُ أَنْ يُبْدِينَ لَهُمْ، مَا عَدَا مَا بَيْنَ ٱلسُّرَّةِ وَٱلرُّكْبَةِ(٣) ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ مِنْ خَلْخَالٍ يَتَقَعْقَعُ(٤) ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مِمَّا وَقَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلنَّظَرِ ٱلْمَمْنُوعِ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ تَنْجُونَ مِنْ ذَلِكَ لِقَبُولِ ٱلتَّوْبَةِ مِنْهُ، وَفِي ٱلْآيَةِ تَغْلِيبُ ٱلذُّكُورِ عَلَى ٱلْإِنَاثِ. ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ جَمْعُ أَيِّمٍ وَهِيَ مَنْ لَيْسَ

تُبدي ما خفي من زينتها لجميع النساء؛ من مؤمنات وغير مؤمنات، وهذا هو الأقرب، واحتمال أن هذه المرأة الكافرة تُغري بها الفساق والكفار هذا وارد، لكن هذا الاحتمال أيضًا وارد في المسلمات. [ابن عثيمين تفسير النور (ص:١٧٦)].

(١) العبيد: فيهم ثلاثة أقوال: منع رؤيتهم لسيدتهم وهو قول الشافعي، والجواز: وهو قول ابن عباس وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والجواز بشرط أن يكون العبد وغداً وهو مذهب مالك. [ابن جُزَيّ (٢/ ٦٧)].

(٢) التابع هو الذي يتبع أهل البيت إما لكونه خادمًا عندهم، وإما لكونه يتلقى فضول الطعام منهم. لكن التابعين يجوز إبداء الزينة لهم بشرط؛ ألَّا يكون لهم إربة يعني: حاجة في النساء. وقول المؤلف: «بأن لم ينتشر ذَكَر كُلٍّ»، ما هو العلامة؟ ليس العلامة ألَّا ينتشر ذكره، بل العلامة ألَّا يُعرف منه ميل إلى النساء؛ لأن من الناس من يميل إلى النساء وإن كان ذكره لا ينتشر ... فالعلامة ألَّا يوجد منه ميل إلى النساء إطلاقًا لا عند قيام ذَكَره ولا عند عدم قيامه. لذلك الصحيح في هذه المسألة أننا نعلم عدم حاجته بعدم ميله إلى النساء. [ابن عثيمين تفسير النور (ص:١٨٠)]. عن أم سلمة؛ أن مخنثا كان عندها ورسول الله ﷺ في البيت. فقال لأخي أم سلمة: يا عبد الله بن أبي أمية، إن فتح الله عليكم الطائف غدا، فإني أدلك على بنت غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. قال فسمعه رسول الله ﷺ فقال: «لَا يَدْخُلْ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُمْ». أخرجه البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠).

(٣) والراجح أنهن يبدين فقط: موضع الزينة وهو الوجه واليد والذراع، على ما سبق ذكره من قول الجصاص، وهو الذي رجحه بعض الصحابة.

(٤) أي: لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون أنها ذات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إلى الرجال وهذا سد لباب المحرمات وتعليم للأحوط وإلا فصوت النساء ليس بعورة عند الشافعي، فضلاً عن صوت خلخالهن، وقال الزجاج: وسماع هذه الزينة أشد تحريكـًا للشهوة من إبدائها، قال ابن عباس في الآية: وهو أن تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال أو تكون في رجلها خلاخل، فتحركهن عند الرجال، فنهى الله عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان. وسماع صوت الزينة كإظهارها ومنه سمي صوت الحلى وسواسـًا فنبه به على أن الذي لأجله نهى عنه به ما عليهن من الحلي وغيره. وفي القرطبي: من فعل ذلك منهن فرحـًا بحليهن فهو مكروه، ومن فعل ذلك منهن تبرجـًا وتعرضـًا للرجال فهو حرام مذموم. [صديق حسن (٩/ ٢١١)].

لَهَا زَوْجٌ بِكْرًا كَانَتْ أَوْ ثَيِّبًا، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ زَوْجٌ، وَهَذَا فِي الْأَحْرَارِ وَالْحَرَائِرِ ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ وَعِبَادٌ مِنْ جُمُوعِ «عَبْدٍ» ﴿إِن يَكُونُواْ﴾ أَيِ: الْأَحْرَارُ ﴿فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ بِالتَّزَوُّجِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لِخَلْقِهِ ﴿عَلِيمٞ ٣٢﴾ بِهِمْ. ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ مَا يَنْكِحُونَ بِهِ مِنْ مَهْرٍ وَنَفَقَةٍ، عَنِ الزِّنَى ﴿حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يُوَسِّعَ عَلَيْهِمْ ﴿مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ فَيَنْكِحُونَ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بِمَعْنَى الْمُكَاتَبَةِ ﴿مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ أَيْ: أَمَانَةً وَقُدْرَةً عَلَى الْكَسْبِ لِأَدَاءِ مَالِ الْكِتَابَةِ، وَصِيغَتُهَا مَثَلًا: «كَاتَبْتُكَ عَلَى أَلْفَيْنِ فِي شَهْرَيْنِ، كُلَّ شَهْرٍ أَلْفٌ فَإِذَا أَدَّيْتَهَا فَأَنْتَ حُرٌّ، فَيَقُولُ: قَبِلْتُ» ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أَمْرٌ لِلسَّادَةِ ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ مَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ فِي أَدَاءِ مَا الْتَزَمُوهُ لَكُمْ، وَفِي مَعْنَى الْإِيتَاءِ حَطُّ شَيْءٍ مِمَّا الْتَزَمُوهُ ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ أَيْ: إِمَاءَكُمْ ﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ الزِّنَى ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ تَعَفُّفًا عَنْهُ، وَهَذِهِ الْإِرَادَةُ مَحَلُّ الْإِكْرَاهِ فَلَا مَفْهُومَ لِلشَّرْطِ[1] ﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾ بِالْإِكْرَاهِ ﴿عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ كَانَ يُكْرِهُ جَوَارِيَهُ عَلَى الْكَسْبِ بِالزِّنَى[2] ﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ﴾ لَهُنَّ ﴿رَّحِيمٞ ٣٣﴾ بِهِنَّ. ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا، فِي هَذِهِ السُّورَةِ بُيِّنَ فِيهَا مَا ذُكِرَ أَوْ بَيِّنَتُهُ ﴿وَمَثَلٗا﴾ خَبَرًا عَجِيبًا وَهُوَ خَبَرُ عَائِشَةَ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أَيْ: مِنْ جِنْسِ أَمْثَالِهِمْ، أَيْ: أَخْبَارِهِمُ الْعَجِيبَةِ كَخَبَرِ يُوسُفَ وَمَرْيَمَ ﴿وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم﴾ إِلَى آخِرِهِ، ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن

---

(١) لأن الإكراه لا يتصور، ولا يكون إلا عند إرادتهن للتحصن، فإن من لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها مكرهة على الزنا، والمراد بالتحصن هنا التعفف والتزوج، وقيل: إن هذا القيد راجع إلى الأيامى. قال الزجاج، والحسن بن الفضل: في الكلام تقديم، وتأخير، أي: «وأنكحوا الأيامى منكم، والصالحين من عبادكم وإمائكم، إن أردن تحصناً». وقيل: إن هذا الشرط ملغى، وقيل: إن هذا الشرط باعتبار ما عليه، فإنهم كانوا يكرهونهن، وهن يردن التعفف، وليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهن التعفف عن الزنا، وقيل: إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب لأن الغالب أن الإكراه لا يكون إلا عند إرادة التحصن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه. فإن الأمة قد تكون غير مريدة للحلال، ولا للحرام، كما فيمن لا رغبة لها في النكاح، والصغيرة، فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصن، فلا يتم ما قيل من أنه لا يتصور الإكراه إلا عند إرادة التحصن إلا أن يقال إن المراد بالتحصن هنا مجرد التعفف. [صديق حسن (٩/ ٢١٩)].

(٢) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها مسيكة، وأخرى يقال لها أميمة، فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾». أخرجه مسلم (٣٠٢٩).

تَعُودُواْ﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَتَخْصِيصُهَا بِالْمُتَّقِينَ لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا. ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أَيْ: مُنَوِّرُهُمَا بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ[1] ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أَيْ: صِفَتُهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ﴿كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ هِيَ: الْقِنْدِيلُ، وَالْمِصْبَاحُ: السِّرَاجُ، أَيِ: الْفَتِيلَةُ الْمَوْقُودَةُ، وَالْمِشْكَاةُ: الطَّاقَةُ غَيْرُ النَّافِذَةِ، أَيِ: الْأُنْبُوبَةُ فِي الْقِنْدِيلِ ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾ وَالنُّورُ فِيهَا ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ أَيْ: مُضِيءٌ بِكَسْرِ الدَّالِ وَضَمِّهَا، مِنَ «الدَّرْءِ» بِمَعْنَى: الدَّفْعِ، لِدَفْعِهَا الظَّلَامَ، وَبِضَمِّهَا وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ مَنْسُوبٌ إِلَى «الدُّرِّ» اللُّؤْلُؤِ ﴿تُوقَدُ﴾ الْمِصْبَاحُ بِالْمَاضِي، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِمُضَارِعِ «أَوْقَدَ» مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ بِالتَّحْتَانِيَّةِ، وَفِي أُخْرَى ﴿تُوقَدُ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ، أَيِ: الزُّجَاجَةُ ﴿مِن﴾ زَيْتِ ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ بَلْ بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَمَكَّنُ مِنْهَا حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ مُضِرَّانِ ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ لِصَفَائِهِ ﴿نُّورٌ﴾ بِهِ ﴿عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ بِالنَّارِ، وَنُورُ اللهِ، أَيْ: هُدَاهُ لِلْمُؤْمِنِ نُورٌ عَلَى نُورِ الْإِيمَانِ[2] ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أَيْ: دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ﴾ يُبَيِّنُ ﴿ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ تَقْرِيبًا لِأَفْهَامِهِمْ لِيَعْتَبِرُوا فَيُؤْمِنُوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ وَمِنْهُ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ. ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿يُسَبِّحُ﴾ الْآتِي ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ تُعَظَّمَ ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ بِتَوْحِيدِهِ ﴿يُسَبِّحُ﴾ بِفَتْحِ الْمُوَحَّدَةِ وَكَسْرِهَا، أَيْ: يُصَلِّي ﴿لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى «الْغَدَوَاتِ» أَيِ: الْبُكَرِ ﴿وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦﴾ الْعَشَايَا مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ. ﴿رِجَالٞ﴾ فَاعِلُ ﴿يُسَبِّحُ﴾ بِكَسْرِ الْبَاءِ، وَعَلَى فَتْحِهَا نَائِبُ الْفَاعِلِ ﴿لَهُۥ﴾، وَرِجَالٌ فَاعِلُ فِعْلٍ مُقَدَّرٍ جَوَابُ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ يُسَبِّحُهُ؟ ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ﴾ شِرَاءٌ

---

(١) قال السدي في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فبنوره أضاءت السماوات والأرض. وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أَعوذُ بنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظلماتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أمرُ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عليَّ سُخْطُكَ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى ترضى، وَلَا حولَ وَلَا قوةَ إِلَّا بِكَ». أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٤٢٠). وفي الصحيحين، عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ». أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه». [ابن كثير (٦/ ٥٨)].

(٢) وجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره. [السعدي (ص:٥٦٨)].

﴿وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ حَذْفُ هَاءِ «إِقَامَةِ» تَخْفِيفٌ ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمًا تَتَقَلَّبُ﴾ تَضْطَرِبُ ﴿فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ مِنَ الْخَوْفِ، الْقُلُوبُ بَيْنَ النَّجَاةِ وَالْهَلَاكِ، وَالْأَبْصَارُ بَيْنَ نَاحِيَتَيِ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أَيْ: ثَوَابَهُ، وَ ﴿أَحۡسَنَ﴾ بِمَعْنَى: حَسَنٍ ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٨﴾ يُقَالُ فُلَانٌ يُنْفِقُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، أَيْ: يُوَسِّعُ كَأَنَّهُ لَا يَحْسُبُ مَا يُنْفِقُهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ جَمْعُ «قَاعٍ»، أَيْ: فِي فَلَاةٍ، وَهُوَ شُعَاعٌ يُرَى فِيهَا نِصْفَ النَّهَارِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ يُشْبِهُ الْمَاءَ الْجَارِيَ ﴿يَحۡسَبُهُ﴾ يَظُنُّهُ ﴿ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ أَيِ: الْعَطْشَانُ ﴿مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ مِمَّا حَسِبَهُ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّ عَمَلَهُ كَصَدَقَةٍ يَنْفَعُهُ، حَتَّى إِذَا مَاتَ وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ لَمْ يَجِدْ عَمَلَهُ، أَيْ: لَمْ يَنْفَعْهُ ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أَيْ: عِنْدَ عَمَلِهِ ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ أَيْ: جَازَاهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ أَيِ: الْمُجَازَاةِ. ﴿أَوۡ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمُ السَّيِّئَةُ ﴿كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ عَمِيقٍ ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ﴾ أَيِ: الْمَوْجِ ﴿مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ﴾ أَيِ: الْمَوْجِ الثَّانِي ﴿سَحَابٞۚ﴾ أَيْ: غَيْمٌ. هَذِهِ ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ ظُلْمَةُ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةُ الْمَوْجِ الْأَوَّلِ، وَظُلْمَةُ الثَّانِي، وَظُلْمَةُ السَّحَابِ، ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ﴾ النَّاظِرُ ﴿يَدَهُۥ﴾ فِي هَذِهِ الظُّلُمَاتِ ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ أَيْ: لَمْ يَقْرُبْ مِنْ رُؤْيَتِهَا ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ أَيْ: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللهُ لَمْ يَهْتَدِ. ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وَمِنَ التَّسْبِيحِ صَلَاةٌ ﴿وَٱلطَّيۡرُ﴾ جَمْعُ طَائِرٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ حَالٌ بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهُنَّ ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ﴾ اللهُ ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١﴾ فِيهِ تَغْلِيبُ الْعَاقِلِ. ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خَزَائِنُ الْمَطَرِ وَالرِّزْقِ وَالنَّبَاتِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢﴾ الْمَرْجِعُ. ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ يَسُوقُهُ بِرِفْقٍ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ يَضُمُّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ، فَيَجْعَلُ الْقِطَعَ الْمُتَفَرِّقَةَ قِطْعَةً وَاحِدَةً ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ الْمَطَرَ ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ مَخَارِجِهِ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن﴾ زَائِدَةٌ ﴿جِبَالٖ فِيهَا﴾ فِي السَّمَاءِ بَدَلٌ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ أَيْ: بَعْضِهِ ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ﴾ يَقْرُبُ ﴿سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ لَمَعَانُهُ ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣﴾ النَّاظِرَةِ لَهُ، أَيْ: يَخْطَفُهَا. ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أَيْ: يَأْتِي بِكُلٍّ مِنْهُمَا بَدَلَ الْآخَرِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التَّقْلِيبِ ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ دَلَالَةً ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ لِأَصْحَابِ الْبَصَائِرِ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ﴾ أَيْ: حَيَوَانٍ ﴿مِّن مَّآءٖۖ﴾ أَيْ: نُطْفَةٍ ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كَالْحَيَّاتِ وَالْهَوَامِّ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾ كَالْبَهَائِمِ وَالْأَنْعَامِ(١) ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٤٥ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾ أَيْ: بَيِّنَاتٍ هِيَ الْقُرْآنُ ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤٦﴾ أَيْ: دِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أَيْ: الْمُنَافِقُونَ ﴿ءَامَنَّا﴾ صَدَّقْنَا ﴿بِٱللَّهِ﴾ بِتَوْحِيدِهِ ﴿وَبِٱلرَّسُولِ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿وَأَطَعۡنَا﴾ هُمَا فِيمَا حَكَمَا بِهِ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يُعْرِضُ ﴿فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾ عَنْهُ ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الْمُعْرِضُونَ ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾ الْمَعْهُودِينَ الْمُوَافِقِ قُلُوبُهُمْ لِأَلْسِنَتِهِمْ. ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الْمُبَلِّغِ عَنْهُ ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٤٨﴾ عَنِ الْمَجِيءِ إِلَيْهِ. ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝٤٩﴾ مُسْرِعِينَ طَائِعِينَ. ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كُفْرٌ ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ أَيْ: شَكُّوا فِي نُبُوَّتِهِ ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ فِي الْحُكْمِ، أَيْ: يُظْلَمُوا فِيهِ، لَا ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أَيْ: الْقَوْلُ اللَّائِقُ بِهِمْ ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ بِالْإِجَابَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١﴾ النَّاجُونَ. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ يَخَافُهُ ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ بِسُكُونِ الْهَاءِ وَكَسْرِهَا، بِأَنْ يُطِيعَهُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ بِالْجَنَّةِ. ﴿۞وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ غَايَتَهَا ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ﴾ بِالْجِهَادِ ﴿لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ لِلنَّبِيِّ خَيْرٌ مِنْ قَسَمِكُمُ الَّذِي لَا تَصْدُقُونَ فِيهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣﴾ مِنْ طَاعَتِكُمْ بِالْقَوْلِ، وَمُخَالَفَتِكُمْ بِالْفِعْلِ. ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عَنْ طَاعَتِهِ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ، خِطَابٌ لَهُمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾ مِنَ التَّبْلِيغِ ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ مِنْ طَاعَتِهِ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤﴾ أَيِ: التَّبْلِيغُ الْبَيِّنُ. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بَدَلًا عَنِ الْكُفَّارِ ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَالْمَفْعُولِ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، بَدَلًا عَنِ الْجَبَابِرَةِ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ بِأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَيُوَسِّعَ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ فَيَمْلِكُوهَا ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ

---

(١) ولم يتعرض سبحانه لما يمشي على أكثر من أربع لقلته. وقيل: لأن المشي على أربع فقط، وإن كانت القوائم كثيرة، وقيل: ليس في القرآن ما يدل على عدم المشي على أكثر من أربع لأنه لم ينف ذلك، ولا جاء بما يقتضي الحصر، وفي مصحف أُبي: «ومنهم من يمشي على أكثر»، فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع، كالسرطان، والعناكب، والحيوان المعروف بأم أربع وأربعين، وكثير من خشاش الأرض كالعقارب. وقيل: إنما لم يتعرض لهذا القسم لدخوله في قوله: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: مما ذكر هنا، ومما لم يذكره. [صديق حسن (٩/ ٢٤٥)].

﴿خَوۡفِهِمۡ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿أَمۡنٗاۚ﴾ وَقَدْ أَنْجَزَ اللهُ وَعْدَهُ لَهُمْ بِمَا ذُكِرَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ هُوَ مُسْتَأْنَفٌ فِي حُكْمِ التَّعْلِيلِ ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ الْإِنْعَامِ مِنْهُمْ بِهِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ وَأَوَّلُ مَنْ كَفَرَ بِهِ قَتَلَةُ عُثْمَانَ رضي الله عنه، فَصَارُوا يَقْتَتِلُونَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا إِخْوَانًا(١). ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾ أَيْ: رَجَاءَ الرَّحْمَةِ. ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ، وَالْفَاعِلُ الرَّسُولُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ لَنَا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بِأَنْ يَفُوتُونَا ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ﴾ مَرْجِعُهُمْ ﴿ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾ الْمَرْجِعُ هِيَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ مِنَ الْأَحْرَارِ وَعَرَفُوا أَمْرَ النِّسَاءِ ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ﴾ فِي ثَلَاثَةِ أَوْقَاتٍ ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أَيْ: وَقْتَ الظُّهْرِ ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ بِالرَّفْعِ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُقَدَّرٍ بَعْدَهُ مُضَافٌ وَقَامَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، أَيْ: هِيَ أَوْقَاتٌ، وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرِ «أَوْقَاتٍ» مَنْصُوبًا بَدَلًا مِنْ مَحَلِّ مَا قَبْلَهُ قَامَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، وَهِيَ لِإِلْقَاءِ الثِّيَابِ تَبْدُو فِيهَا الْعَوْرَاتُ ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أَيِ: الْمَمَالِيكُ وَالصِّبْيَانُ ﴿جُنَاحُۢ﴾ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ ﴿بَعۡدَهُنَّۚ﴾ أَيْ: بَعْدَ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ، هُمْ ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ لِلْخِدْمَةِ ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾ طَائِفٌ ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ وَالْجُمْلَةُ مُؤَكِّدَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا بُيِّنَ مَا ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ أَيِ: الْأَحْكَامَ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِأُمُورِ خَلْقِهِ ﴿حَكِيمٞ ٥٨﴾ بِمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ، وَآيَةُ الِاسْتِئْذَانِ، قِيلَ: مَنْسُوخَةٌ، وَقِيلَ: لَا، وَلَكِنْ تَهَاوَنَ النَّاسُ فِي تَرْكِ الِاسْتِئْذَانِ(٢). ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ﴾ أَيُّهَا الْأَحْرَارُ ﴿ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ﴾ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ﴿كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أَيِ: الْأَحْرَارُ الْكِبَارُ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ

---

(١) عن أبي العالية قال: الكفر بهذه النعمة ليس الكفر بالله، ولذلك قال الفاسقون ولم يقل الكافرون. قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة، وجحد حقها الذين قتلوا عثمان فلما قتلوه غير الله ما بهم من الأمن وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً والقصة معروفة. [صديق حسن (٩/ ٢٥٧)].

(٢) وهذه الآية محكمة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تركها الناس، وكذلك ترك الناس قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، فأبى الناس إلا أن الأكرم هو الأنسب ... وهذه العبارة بترك الناس إغلاظ وزجر، إذ لم تلتزم حق الالتزام، وإلا فما قال الله تعالى هو المعتقد في ذلك عند العلماء المكتوب في تواليفهم، أعني أن الكرم التقوى، وأما أمر الاستئذان فإن تغيير المباني والحجب أغنت عن كثير من الاستئذان، وصيرته على حد آخر، وأين أبواب المنازل اليوم من مواضع النوم؟ وقد ذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان العمل بهذه الآية واجبا إذ كانوا لا غلق ولا أبواب، ولو عادت الحال لعاد الوجوب. [ابن عطية (٤/ ١٩٣)].

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قَعَدْنَ عَنِ الْحَيْضِ وَالْوَلَدِ لِكِبَرِهِنَّ ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لِذَلِكَ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ مِنَ الْجِلْبَابِ وَالرِّدَاءِ وَالْقِنَاعِ فَوْقَ الْخِمَارِ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ مُظْهِرَاتٍ ﴿بِزِينَةٍ﴾ خَفِيَّةٍ كَقِلَادَةٍ وَسِوَارٍ وَخَلْخَالٍ ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بِأَنْ لَا يَضَعْنَهَا ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِقَوْلِكُمْ ﴿عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ[1]. ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فِي مُؤَاكَلَةِ مُقَابِلِيهِمْ ﴿وَلَا﴾ حَرَجَ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ بُيُوتِ أَوْلَادِكُمْ ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أَيْ: خَزَنْتُمُوهُ لِغَيْرِكُمْ[2] ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وَهُوَ: مَنْ صَدَقَكُمْ فِي مَوَدَّتِهِ، الْمَعْنَى: يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنْ بُيُوتِ مَنْ ذُكِرَ وَإِنْ لَمْ يَحْضُرُوا، إِذَا عُلِمَ رِضَاهُمْ بِهِ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ مُتَفَرِّقِينَ جَمْعُ «شَتٍّ»، نَزَلَ فِيمَنْ تَحَرَّجَ أَنْ يَأْكُلَ وَحْدَهُ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ مَنْ يُؤَاكِلُهُ يَتْرُكُ الْأَكْلَ[3] ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ لَكُمْ، لَا أَهْلَ فِيهَا ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أَيْ: قُولُوا: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ»، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْكُمْ[4]، وَإِنْ كَانَ بِهَا أَهْلٌ فَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ ﴿تَحِيَّةً﴾ مَصْدَرُ: «حَيَّا» ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ يُثَابُ عَلَيْهَا ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أَيْ: يُفَصِّلُ لَكُمْ مَعَالِمَ دِينِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ لِكَيْ تَفْهَمُوا ذَلِكَ[5]. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أَيِ: الرَّسُولِ

---

(١) أي: والتي قعدت عن الحيض والولادة لكبر سنها بحيث أصبحت لا ترجو نكاحاً ولا يرجى منها ذلك فهذه ليس عليها إثم ولا حرج في أن تضع خمارها من فوق رأسها، أو عباءتها من فوق ثيابها التي على جسمها حال كونها غير متبرجة، أي: مظهرة زينة لها كخضاب اليدين والأساور في المعصمين والخلاخل في الرجلين، أو أحمر الشفتين، وما إلى ذلك مما هو زينة يجب ستره وقوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: ومن لازمت خمارها وعجارها ولم تظهر للأجانب كاشفة وجهها ومحاسنها خير لها حالاً ومآلاً، وحسبها ان يختار الله لها فما اختاره لها لن يكون إلا خيراً في الدنيا والآخرة فعلى المؤمنات أن يخترن ما اختار الله لهن. [أبو بكر الجزائري (٣/ ٥٨٩)].

(٢) أي: البيوت التي تملكون التصرف فيها. بإذن أربابها وذلك كالوكلاء، والخزان فيهم فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته وإعطائهم مفتاحه، وقيل: المراد بها بيوت المماليك. [الشوكاني (٤/ ٦٢)].

(٣) وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام. [السعدي (ص:٥٧٥)].

(٤) عن قتادة قال: إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإن الملائكة ترد عليك. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٤٥٥).

(٥) لتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل

﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ كَخُطْبَةِ الْجُمُعَةِ ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ لِعُرُوضِ عُذْرٍ لَهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾ أَمْرِهِمْ ﴿فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ بِالِانْصِرَافِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ بِأَنْ تَقُولُوا: «يَا مُحَمَّدُ»، بَلْ قُولُوا: «يَا نَبِيَّ اللهِ، يَا رَسُولَ اللهِ» فِي لِينٍ وَتَوَاضُعٍ وَخَفْضِ صَوْتٍ ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ أَيْ: يَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي الْخُطْبَةِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ خُفْيَةً مُسْتَتِرِينَ بِشَيْءٍ، وَ﴿قَدۡ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ أَيِ: اللهِ أَوْ رَسُولِهِ ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ بَلَاءٌ ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ فِي الْآخِرَةِ(١). ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ﴾ أَيُّهَا الْمُكَلَّفُونَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ ﴿وَ﴾ يَعْلَمُ ﴿يَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ، أَيْ: مَتَى يَكُونُ ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ فِيهِ ﴿بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَغَيْرِهَا ﴿عَلِيمُۢ ٦٤﴾.

المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك. وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: أن «العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ» فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه. [السعدي (ص:٥٧٥)].

(١) أي: عن أمر رسول الله ﷺ، سبيله هو ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنا ما كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ». أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨). أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنا أو ظاهرا ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، ﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّاتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ ويتقحّمن فِيهَا». قال: «فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا». أخرجه مسلم (٢٢٨٤). [ابن كثير (٦/ ٩٠)]. وهذه الآية الكريمة قد استدل بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضي الوجوب؛ لأنه جل وعلا توعد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم، وحذرهم من مخالفة الأمر، وكل ذلك يقتضي أن الأمر للوجوب، ما لم يصرف عنه صارف؛ لأن غير الواجب لا يستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير. [الشنقيطي (٦/ ٢٨١)].

سُورَةُ الفُرقَانِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إِلَى ﴿رَّحِيمًا﴾ فَمَدَنِيٌ، وَهِيَ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ﴾ تَعَالَى ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ اَلْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أَيْ: اَلْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿نَذِيرًا ①﴾ مُخَوِّفًا مِنْ عَذَابِ اللهِ. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخْلَقَ[1] ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ②﴾ سَوَّاهُ تَسْوِيَةً. ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ أَيِ: اَلْكُفَّارُ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيِ: اللهِ، أَيْ: غَيْرَهُ ﴿ءَالِهَةً﴾ هِيَ اَلْأَصْنَامُ ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أَيْ: دَفْعَهُ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ أَيْ: جَرَّهُ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ أَيْ: إِمَاتَةً لِأَحَدٍ وَإِحْيَاءً لِأَحَدٍ ﴿وَلَا نُشُورًا ③﴾ أَيْ: بَعْثًا لِلْأَمْوَاتِ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾ أَيْ: مَا اَلْقُرْآنُ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كَذِبٌ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ وَهُمْ مِنْ أَهْلِ اَلْكِتَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ④﴾ كُفْرًا وَكَذِبًا، أَيْ: بِهِمَا. ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أَيْضًا: هُوَ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أَكَاذِيبُهُمْ جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ اِنْتَسَخَهَا مِنْ ذَلِكَ اَلْقَوْمِ بِغَيْرِهِ ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ﴾ تُقْرَأُ ﴿عَلَيْهِ﴾ لِيَحْفَظَهَا ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤﴾ غُدْوَةً وَعَشِيًّا. قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ اَلْغَيْبَ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَّحِيمًا ⑥﴾ بِهِمْ. ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ⑦﴾ يُصَدِّقُهُ. ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ مِنَ اَلسَّمَاءِ يُنْفِقُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى اَلْمَشْيِ فِي اَلْأَسْوَاقِ لِطَلَبِ اَلْمَعَاشِ ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ بُسْتَانٌ ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنْ ثِمَارِهَا فَيَكْتَفِي بِهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿نَأْكُلُ﴾ بِالنُّونِ أَيْ: نَحْنُ، فَيَكُونُ لَهُ مَزِيَّةٌ عَلَيْنَا بِهَا ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أَيِ: اَلْكَافِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿إِن﴾ مَا

---

(١) لو احتجَّ المعتزلة والجهمية الذين يقولون: إنَّ القرآن مخلوق بهذه الآية، نُجيبهم بأحد وجهين: الوجه الأول أن يُقال: إنَّ هذا من باب العامِّ المراد به الخاص؛ يعني كلَّ شيءٍ مِن شأنه أن يُخلق، هذا وجه، وبهذا أجاب كثيرٌ من السلف، قال الله عن ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، ومع ذلك هي لم تدمر السماء ولا الأرض ولا المساكن؛ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف ٢٥]. والبعض الآخر من العلماء يقول: الآية على عمومها، والقرآن غير داخلٍ إطلاقًا حتى نحتاج إلى إخراجه؛ لماذا؟ لأنَّه إذا كان خالقًا فالخالق غير المخلوق، والقرآن كلام الله، وكلام الله من صفاته، وصفات الخالق غير مخلوقة؛ لأن الصفة تابعةٌ للموصوف. [ابن عثيمين تفسير الفرقان (ص:٢٤)].

﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ مَخْدُوعًا مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ بِالْمَسْحُورِ، وَالْمُحْتَاجِ إِلَى مَا يُنْفِقُهُ، وَإِلَى مَلَكٍ يَقُومُ مَعَهُ بِالْأَمْرِ ﴿فَضَلُّواْ﴾ بِذَلِكَ عَنِ الْهُدَى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ طَرِيقًا إِلَيْهِ. ﴿تَبَارَكَ﴾ تَكَاثَرَ خَيْرُ ﴿ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي قَالُوهُ مِنَ الْكَنْزِ وَالْبُسْتَانِ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهَا فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيَجْعَل﴾ بِالْجَزْمِ ﴿لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾ أَيْضًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ اسْتِئْنَافًا. ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ نَارًا مُسْتَعِرَةً، أَيْ: مُشْتَدَّةً. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ غَلَيَانًا، كَالْغَضْبَانِ إِذَا غَلَى صَدْرُهُ مِنَ الْغَضَبِ ﴿وَزَفِيرًا ۝١٢﴾ صَوْتًا شَدِيدًا، وَسَمَاعُ التَّغَيُّظِ: رُؤْيَتُهُ وَعِلْمُهُ(١). ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ بِأَنْ يُضَيَّقَ عَلَيْهِمْ، وَ﴿مِنْهَا﴾ حَالٌ مِنْ ﴿مَكَانًا﴾ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ صِفَةٌ لَهُ ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مُصَفَّدِينَ قَدْ قُرِنَتْ، أَيْ: جُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ، وَالتَّشْدِيدُ لِلتَّكْثِيرِ ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ هَلَاكًا. فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ لِعَذَابِكُمْ. ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنَ الْوَعِيدِ وَصِفَةِ النَّارِ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ هَا ﴿ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ﴾ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى ﴿جَزَآءً﴾ ثَوَابًا ﴿وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ مَرْجِعًا. ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ﴾ حَالٌ لَازِمَةٌ ﴿كَانَ﴾ وَعْدُهُمْ مَا ذُكِرَ ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ وُعِدَ بِهِ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، أَوْ تَسْأَلُهُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨]. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ بِالنُّونِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَعِيسَى وَعُزَيْرٍ وَالْجِنِّ ﴿فَيَقُولُ﴾ تَعَالَى بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَالنُّونِ، لِلْمَعْبُودِينَ إِثْبَاتًا لِلْحُجَّةِ عَلَى الْعَابِدِينَ:

---

(١) الفاعل هي السعير، وفيه دليل على أنها ترى، وهذه الرؤية يجب أن نحملها على المعنى الحقيقي. ولا يمكن أن نقول: إن هذا من باب الاستعارة، وإنه معنى مجازي؛ لأنه من الجائز أن يخلق الله تعالى فيها إدراك الرؤية، وإن كانت هي ليست من ذوات الرؤية في العادة، ولكن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، كما أن الأرض تسمع وتُحدِّث ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة ٤]، وإنها تتغيَّظ ويُسمَع لتغيُّظها صوتٌ مثل تغيظ الإنسان الغضبان، إذا امتلأ صدره غضبًا فإنك تسمع له صوتًا من الغضب. وهذا دليل على شدة حَنَقِها -والعياذ بالله- على أهلها، وأنها كما قال الله تعالى في سورة تبارك: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك ٧، ٨]، المؤلف يقول: (وَسَمَاعُ التَّغَيُّظِ: رُؤْيَتُهُ وَعِلْمُهُ) هذا ليس بصحيح وإن كان محتملًا، لكن المعنى الأولى أن تُحمَل الرؤية على الحقيقة، هذا هو الواجب. وقد مرَّ علينا من قواعد التفسير، بل من قواعد كل كلام: أنه يجب أن يُحمَل على ظاهره وعلى حقيقته ما لم يوجد دليل يصرف عن الحقيقة أو الظاهر. [ابن عثيمين تفسير الفرقان (ص:٦٢)].

﴿ءَأَنتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ ﴿أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَوْقَعْتُمُوهُمْ فِي الضَّلَالِ بِأَمْرِكُمْ إِيَّاهُمْ بِعِبَادَتِكُمْ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ طَرِيقَ الْحَقِّ بِأَنْفُسِهِمْ؟ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى﴾ يَسْتَقِيمُ ﴿لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ أَيْ: غَيْرِكَ ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ، وَمِنْ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ وَمَا قَبْلَهُ الثَّانِي، فَكَيْفَ نَأْمُرُ بِعِبَادَتِنَا؟ ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ مِنْ قَبْلِهِمْ بِإِطَالَةِ الْعُمُرِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ تَرَكُوا الْمَوْعِظَةَ وَالْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ هلْكَى. قَالَ تعالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ أَيْ: كَذَّبَ الْمَعْبُودُونَ الْعَابِدِينَ ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَالْفَوْقَانِيَّةِ، أَيْ: لَا هُمْ وَلَا أَنْتُمْ ﴿صَرْفًا﴾ دفعًا لِلْعَذَابِ عَنْكُمْ ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ مَنْعًا لَكُمْ مِنْهُ ﴿وَمَن يَظْلِم﴾ يُشْرِكْ ﴿مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ شَدِيدًا فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فَأَنْتَ مِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ بَلِيَّةً ابْتُلِيَ الْغَنِيُّ بِالْفَقِيرِ، وَالصَّحِيحُ بِالْمَرِيضِ، وَالشَّرِيفُ بِالْوَضِيعِ، يَقُولُ الثَّانِي فِي كُلٍّ: مَا لِي لَا أَكُونُ كَالْأَوَّلِ فِي كُلٍّ[1] ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ عَلَى مَا تَسْمَعُونَ مِمَّنِ ابْتُلِيتُمْ بِهِمْ؟ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَيْ: اصْبِرُوا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ بِمَنْ يَصْبِرُ وَبِمَنْ يَجْزَعُ. ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لَا يَخَافُونَ الْبَعْثَ ﴿لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فَكَانُوا رُسُلًا إِلَيْنَا ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فَيُخْبِرُنَا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تكبَّروا ﴿فِىٓ﴾ شَأْنِ ﴿أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ﴾ طغَوْا ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ بِطَلَبِهِمْ رُؤْيَةَ اللهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، وَ«عَتَوْا» بِالْوَاوِ عَلَى أَصْلِهِ، بِخِلَافِ «عُتِيٍّ» بِالْإِبْدَالِ فِي «مَرْيَمَ»[2]. ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فِي جُمْلَةِ الْخَلَائِقِ، هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَنَصْبُهُ بِـ «اذْكُرْ» مُقَدَّرًا ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أَيْ: الْكَافِرِينَ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمُ الْبُشْرَى بِالْجَنَّةِ ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ شِدَّةٌ، أَيْ: عَوْذًا مُعَاذًا يَسْتَعِيذُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ عَمَدْنَا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ مِنَ الْخَيْرِ، كَصَدَقَةٍ وَصِلَةِ رَحِمٍ وَقِرَى ضَيْفٍ وَإِغَاثَةِ مَلْهُوفٍ، فِي الدُّنْيَا ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ هُوَ مَا يُرَى فِي الْكُوَى الَّتِي عَلَيْهَا الشَّمْسُ كَالْغُبَارِ الْمُفَرَّقِ،

---

(١) الرسول فتنة للمرسل إليهم واختبار للمطيعين من العاصين والرسل فتناهم بدعوة الخلق، والغنى فتنة للفقير والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار. [السعدي (ص:٥٨٠)].

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

أَيْ: مِثْلَهُ فِي عَدَمِ النَّفْعِ بِهِ، إِذْ لَا ثَوَابَ فِيهِ لِعَدَمِ شَرْطِهِ، وَيُجَازَوْنَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا[1]. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ مِنْهُمْ، أَيْ: مَوْضِعَ قَائِلَةٍ فِيهَا، وَهِيَ الِاسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ فِي الْحَرِّ، وَأُخِذَ مِنْ ذَلِكَ انْقِضَاءُ الْحِسَابِ فِي نِصْفِ نَهَارٍ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ[2]. ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أَيْ: كُلُّ سَمَاءٍ ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أَيْ: مَعَهُ وَهُوَ غَيْمٌ أَبْيَضُ ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ ﴿تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَنَصْبُهُ بِـ «اذْكُرْ» مُقَدَّرًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ شِينِ ﴿تَشَقَّقُ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِيهَا، وَفِي أُخْرَى ﴿نُنْزِلُ﴾ بِنُونَيْنِ الثَّانِيَةُ سَاكِنَةٌ وَضَمِّ اللَّامِ، وَنَصْبِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾. ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ أَحَدٌ ﴿وَكَانَ﴾ الْيَوْمُ ﴿يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ الْمُشْرِكُ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ كَانَ نَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ ثُمَّ رَجَعَ، إِرْضَاءً لِأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ[3] ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ نَدَمًا وَتَحَسُّرًا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿يَقُولُ يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى. ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ أَلِفُهُ عِوَضٌ عَنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، أَيْ: وَيْلَتِي، وَمَعْنَاهُ: هَلَكَتِي ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ أَيْ: أُبَيًّا ﴿خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ بِأَنْ رَدَّنِي عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ﴾ الْكَافِرِ ﴿خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ بِأَنْ يَتْرُكَهُ وَيَتَبَرَّأَ مِنْهُ عِنْدَ الْبَلَاءِ. ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ قُرَيْشًا ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ مَتْرُوكًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَعَلْنَا لَكَ عَدُوًّا مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ قَبْلَكَ ﴿عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الْمُشْرِكِينَ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لَكَ ﴿وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ نَاصِرًا لَكَ عَلَى أَعْدَائِكَ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، قَالَ تَعَالَى: نَزَّلْنَاهُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُتَفَرِّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ نُقَوِّيَ قَلْبَكَ ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أَيْ: أَتَيْنَا بِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ

---

(١) وهذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا، فتكون أبعد من القبول حينئذ. [ابن كثير (٦/ ١٠٣)].

(٢) انظر التعليق على تفسير آية (٢٠٢) من سورة البقرة.

(٣) وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم. [ابن كثير (٦/ ١٠٨)].

بتمهُّلٍ وَتُؤدَةٍ، لِتَيْسِيرِ فَهْمِهِ وَحِفْظِهِ. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ فِي إِبْطَالِ أَمْرِكَ ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ٱلدَّافِعِ لَهُ
﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣﴾ بَيَانًا. هُمُ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أَيْ: يُسَاقُونَ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾
هُوَ جَهَنَّمُ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٣٤﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهُوَ كُفْرُهُمْ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ٱلتَّوْرَاةَ
﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ٣٥﴾ مُعِينًا. ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أَيِ: ٱلْقِبْطِ فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِ، فَذَهَبَا إِلَيْهِمْ بِالرِّسَالَةِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ٣٦﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكًا. ﴿وَ﴾ ٱذْكُرْ ﴿قَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا
كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ نُوحًا لِطُولِ لُبْثِهِ فِيهِمْ فَكَأَنَّهُ رُسُلٌ، أَوْ لِأَنَّ تَكْذِيبَهُ تَكْذِيبٌ لِبَاقِي ٱلرُّسُلِ لِٱشْتِرَاكِهِمْ فِي
ٱلْمَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ جوابُ ﴿لَّمَّا﴾ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ﴾ بَعْدَهُمْ ﴿ءَايَةً﴾ عِبْرَةً ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ فِي ٱلْآخِرَةِ
﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ ٱلْكَافِرِينَ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ٣٧﴾ مُؤْلِمًا، سِوَى مَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي ٱلدُّنْيَا. ﴿وَ﴾ ٱذْكُرْ ﴿عَادًا﴾ قَوْمَ هُودٍ
﴿وَثَمُودَاْ﴾ قَوْمَ صَالِحٍ ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ ٱسْمُ بِئْرٍ وَنَبِيُّهُمْ قِيلَ شُعَيْبٌ وَقِيلَ غَيْرُهُ، كَانُوا قُعُودًا حَوْلَهَا فَٱنْهَارَتْ بِهِمْ
وَبِمَنَازِلِهِمْ ﴿وَقُرُونَۢا﴾ أَقْوَامًا ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ٣٨﴾ أَيْ: بَيْنَ عَادٍ وَأَصْحَابِ ٱلرَّسِّ. ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ فِي
إِقَامَةِ ٱلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فَلَمْ نُهْلِكْهُمْ إِلَّا بَعْدَ ٱلْإِنْذَارِ ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ٣٩﴾ أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا بِتَكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ. ﴿وَلَقَدْ
أَتَوْاْ﴾ أَيْ: مَرَّ كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ مَصْدَرُ سَاءَ، أَيْ: بِالْحِجَارَةِ، وَهِيَ: عُظْمَى قُرَى
قَوْمِ لُوطٍ فَأَهْلَكَ ٱللَّهُ أَهْلَهَا لِفِعْلِهِمُ ٱلْفَاحِشَةَ ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى ٱلشَّامِ فَيَعْتَبِرُوا، وَٱلِاسْتِفْهَامُ
لِلتَّقْرِيرِ ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ﴾ يَخَافُونَ ﴿نُشُورًا ٤٠﴾ بَعْثًا فَلَا يُؤْمِنُونَ. ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن﴾ مَا ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾
مَهْزُوءًا بِهِ، يَقُولُونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ فِي دَعْوَاهُ، مُحْتَقِرِينَ لَهُ عَنِ ٱلرِّسَالَةِ. ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ
ٱلثَّقِيلَةِ، وَٱسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّهُ ﴿كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يَصْرِفُنَا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لَصَرَفَنَا عَنْهَا، قَالَ
تَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ عِيَانًا فِي ٱلْآخِرَةِ ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا، أَهُمْ أَمِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ. ﴿أَرَءَيْتَ﴾ أَخْبِرْنِي ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أَيْ: مَهْوِيَّهُ، قُدِّمَ ٱلْمَفْعُولُ ٱلثَّانِي؛ لِأَنَّهُ أَهَمُّ، وَجُمْلَةُ ﴿مَنِ
ٱتَّخَذَ﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ لِـ «رَأَيْتَ»، وَٱلثَّانِي ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ حَافِظًا تَحْفَظُهُ عَنِ ٱتِّبَاعِ هَوَاهُ؟ لَا. ﴿أَمْ
تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سَمَاعَ تَفَهُّمٍ ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ مَا تَقُولُ لَهُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
سَبِيلًا ٤٤﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا تَنْقَادُ لِمَنْ يَتَعَهَّدُهَا، وَهُمْ لَا يُطِيعُونَ مَوْلَاهُمُ ٱلْمُنْعِمَ عَلَيْهِمْ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرْ
﴿إِلَىٰ﴾ فِعْلِ ﴿رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ مِنْ وَقْتِ ٱلْإِسْفَارِ إِلَى وَقْتِ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ رَبُّكَ ﴿لَجَعَلَهُۥ
سَاكِنًا﴾ مُقِيمًا لَا يَزُولُ بِطُلُوعِ ٱلشَّمْسِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أَيِ: ٱلظِّلِّ ﴿دَلِيلًا ٤٥﴾ فَلَوْلَا ٱلشَّمْسُ مَا عُرِفَ

الظِّلَّ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي: الظِّلَّ المَمْدُودَ ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ خفِيًّا بِطُلُوعِ الشَّمْسِ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ساتِرًا كاللِّباسِ ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحَةً لِلأَبْدانِ بِقَطْعِ الأَعْمالِ ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ مَنْشُورًا فِيهِ لابْتِغاءِ الرِّزْقِ وغَيْرِه. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وفي قِراءَةٍ: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ ﴿نُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ مُتَفَرِّقَةً قُدَّامَ المَطَرِ، وفي قِراءَةٍ: بِسُكُونِ الشِّينِ تَخْفِيفًا، وفي أُخْرَى بِسُكُونِها وفَتْحِ النُّونِ مَصْدَرًا، وفي أُخْرَى بِسُكُونِها وضَمِّ المُوَحَّدَةِ بَدَلَ النُّونِ، أي: مُبَشِّراتٍ، ومُفْرَدُ الأُولَى «نَشُورٌ» كـ «رَسُولٌ» والأَخِيرَةُ «بَشِيرٌ» ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ مُطَهِّرًا. ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بِالتَّخْفِيفِ يَسْتَوِي فِيهِ المُذَكَّرُ والمُؤَنَّثُ، ذَكَرَهُ باعْتِبارِ المَكانِ ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي: الماءَ ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ إِبِلًا وبَقَرًا وغَنَمًا ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ جَمْعُ إِنْسانٍ، وأَصْلُهُ «أَناسِينُ» فَأُبْدِلَتِ النُّونُ ياءً وأُدْغِمَتْ فِيها الياءُ، أو جَمْعُ «إِنْسِيٍّ». ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: الماءَ ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أَصْلُهُ «يَتَذَكَّرُوا» أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الذَّالِ، وفي قِراءَةٍ: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ بِسُكُونِ الذَّالِ وضَمِّ الكافِ، أي: نِعْمَةَ اللهِ بِهِ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ جُحُودًا لِلنِّعْمَةِ، حَيْثُ قالُوا: «مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا»[1]. ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ يُخَوِّفُ أَهْلَها، ولَكِنْ بَعَثْناكَ إِلَى أَهْلِ القُرَى كُلِّها نَذِيرًا لِيَعْظُمَ أَجْرُكَ. ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في هَواهُمْ ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بِالقُرْآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ * ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أَرْسَلَهُما مُتَجاوِرَيْنِ ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شَدِيدُ العُذُوبَةِ ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شَدِيدُ المُلُوحَةِ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجِزًا لا يَخْتَلِطُ أَحَدُهُما بِالآخَرِ ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ سِتْرًا مَمْنُوعًا بِهِ اخْتِلاطُهُما. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ مِنَ المَنِيِّ إِنْسانًا ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا﴾ ذا نَسَبٍ ﴿وَصِهْرًا ۗ﴾ ذا صِهْرٍ، بِأَنْ يَتَزَوَّجَ ذَكَرًا كانَ أو أُنْثَى طَلَبًا لِلتَّناسُلِ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ قادِرًا عَلَى ما يَشاءُ[2]. ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي: الكُفَّارُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ بِعِبادَتِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ﴾ بِتَرْكِها وهُوَ

---

(١) عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوما، على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَاكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَاكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ». أخرجه مسلم (٧١).

(٢) كلمة «على ما يشاء» نحن نعرف أن من الناس من يكون هذا القيد دالًّا على بدعة ارتكبها؛ لأن القدرية يقولون: إن الله سبحانه وتعالى لا يقدر إلا على ما يشاء، وإنه لا يشاء أفعال العباد، وعلى هذا فلا يكون قادرًا عليها. ولا شك أن هذا قول تبطله النصوص والعقل، فالله هو الذي يهدي ويضل، وما معنى الهداية والإضلال إلا أنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء حتى فيما يتعلق بأفعال العبد. لهذا نرى أن تقييد القدرة بالمشيئة لا ينبغي ولا يليق للوجوه الآتية: أولًا: أن الله سبحانه وتعالى أطلق هذا الوصف لنفسه بدون قيد، ولا ينبغي لنا أن نقيد ما أطلقه الله؛

الْأَصْنَامُ ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ مُعِينًا لِلشَّيْطَانِ بِطَاعَتِهِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾ مُخَوِّفًا مِنَ النَّارِ. ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَى تَبْلِيغِ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧﴾ طَرِيقًا بِإِنْفَاقِ مَالِهِ فِي مَرْضَاتِهِ تَعَالَى، فَلَا أَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ﴾ مُتَلَبِّسًا ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أَيْ: قُلْ: «سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨﴾ عَالِمًا، تَعَلَّقَ ﴿بِهِ﴾ بِـ«ذُنُوبِ». هُوَ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، أَيْ: فِي قَدْرِهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لَمْحَةٍ، وَالْعُدُولُ عَنْهُ لِتَعْلِيمِ خَلْقِهِ التَّثَبُّتَ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هُوَ فِي اللُّغَةِ سَرِيرُ الْمُلْكِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بَدَلٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، أَيِ: اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ(١) ﴿فَسْـَٔلْ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿بِهِۦ﴾ بِالرَّحْمَنِ ﴿خَبِيرًا ۝٥٩﴾ يُخْبِرُكَ بِصِفَاتِهِ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ، وَالْآمِرُ مُحَمَّدٌ وَلَا نَعْرِفُهُ؟ لَا ﴿وَزَادَهُمْ﴾ هَذَا الْقَوْلُ لَهُمْ ﴿نُفُورًا ۩ ۝٦٠﴾ عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تَعَاظَمَ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ اثْنَيْ عَشَرَ: الْحَمَلَ وَالثَّوْرَ وَالْجَوْزَاءَ وَالسَّرَطَانَ وَالْأَسَدَ وَالسُّنْبُلَةَ وَالْمِيزَانَ وَالْعَقْرَبَ وَالْقَوْسَ وَالْجَدْيَ وَالدَّلْوَ وَالْحُوتَ، وَهِيَ مَنَازِلُ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ: الْمِرِّيخِ وَلَهُ الْحَمَلُ وَالْعَقْرَبُ، وَالزُّهَرَةِ: وَلَهَا الثَّوْرُ وَالْمِيزَانُ، وَعُطَارِدَ: وَلَهُ الْجَوْزَاءُ وَالسُّنْبُلَةُ، وَالْقَمَرِ: وَلَهُ السَّرَطَانُ، وَالشَّمْسِ: وَلَهَا الْأَسَدُ، وَالْمُشْتَرَى: وَلَهُ الْقَوْسُ وَالْحُوتُ، وَزُحَلَ: وَلَهُ الْجَدْيُ وَالدَّلْوُ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أَيْضًا ﴿سِرَٰجًا﴾ هُوَ الشَّمْسُ ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سُرُجًا﴾ بِالْجَمْعِ، أَيْ: نَيِّرَاتٍ، وَخُصَّ الْقَمَرُ مِنْهَا بِالذِّكْرِ لِنَوْعِ فَضِيلَةٍ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أَيْ: يَخْلُفُ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ كَمَا تَقَدَّمَ، مَا فَاتَهُ فِي أَحَدِهِمَا مِنْ خَيْرٍ فَيَفْعَلُهُ فِي الْآخَرِ ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ أَيْ: شُكْرًا لِنِعْمَةِ رَبِّهِ عَلَيْهِ فِيهِمَا. ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ صِفَاتٌ لَهُ إِلَى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ غَيْرَ

لأن صفات الله توقيفية يتوقف فيها على ما ورد. الثاني: أنه خلاف طريقة الرسول ﷺ وأصحابه، بل طريقة الرسل كلهم؛ لأنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم ٨]، لا يقولون: إنك على ما تشاء قدير. الثالث: أنه يوهم أن القدرة تتعلق بما يشاء فقط، وعلى هذا فيكون ما لا يشاؤه ليس بمقدور الله، وهذا معنى باطل، فهو قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، لكن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهو قادر على الأمرين جميعًا، ليس على ما يشاء فقط. [ابن عثيمين تفسير الفرقان (ص:٢٢٤)].

(١) معناه صحيح، لكن يحتاج إلى تكميل، وهو أن يُفَسَّر يعني يُصَرَّح ويوضح معنى الاستواء. فيقال: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عَلا عليه على وجه يليق به. [ابن عثيمين تفسير الفرقان (ص:٢٤١)].

الْمُعْتَرِضِ فِيهِ(١) ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَيْ: بِسَكِينَةٍ وَتَوَاضُعٍ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ بِمَا يَكْرَهُونَهُ ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ أَيْ: قَوْلًا يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ. ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ جَمْعُ سَاجِدٍ ﴿وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ بِمَعْنَى: قَائِمِينَ يُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ. ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أَيْ: لَازِمًا. ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ﴾ بِئْسَتْ ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ هِيَ، أَيْ: مَوْضِعَ اسْتِقْرَارٍ وَإِقَامَةٍ. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ عَلَى عِيَالِهِمْ ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَضَمِّهِ، أَيْ: لَمْ يُضَيِّقُوا ﴿وَكَانَ﴾ إِنْفَاقُهُمْ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الْإِسْرَافِ وَالْإِقْتَارِ ﴿قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ وَسَطًا. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قَتْلَهَا ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مَا ذُكِرَ مِنَ الثَّلَاثَةِ ﴿يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ أَيْ: عُقُوبَةً(٢). ﴿يُضَٰعَفْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعَّفْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ﴿لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ بِجَزْمِ الْفِعْلَيْنِ «بَدَلًا»، وَبِرَفْعِهِمَا «اسْتِئْنَافًا» ﴿مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ حَالٌ. ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ مِنْهُمْ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الْمَذْكُورَةَ ﴿حَسَنَٰتٍۗ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿وَمَن تَابَ﴾ مِنْ ذُنُوبِهِ، غَيْرِ مَنْ ذُكِرَ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ أَيْ: يَرْجِعُ إِلَيْهِ رُجُوعًا، فَيُجَازِيهِ خَيْرًا(٣). ﴿وَٱلَّذِينَ لَا

---

(١) كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته والسجود له، والإضافة للتشريف، وهو مبتدأ خبره ما بعده من الموصول، وما عطف عليه، وقيل: هو ما في آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة الإشارة. [أبو السعود (٦/ ٢٢٨)].

(٢) عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تجعل لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ». قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. أخرجه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦).

(٣) لا يقال: من قام فإنه يقوم، فكيف قال من تاب فإنه يتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحا وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا، أي: فإني قدمتهم وفضلتهم على من قاتل النبي ﷺ واستحل المحارم. وقال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا. وقيل: أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله، فليست تلك التوبة نافعة، بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابا، أي: تاب حق التوبة وهي النصوح ولذا أكد بالمصدر. فـ﴿مَتَابًا﴾ مصدر معناه التأكيد، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] أي: فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا. [القرطبي (١٣/ ٧٩)].

﴿يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أَيِ: اَلْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ﴾ مِنَ اَلْكَلَامِ اَلْقَبِيحِ وَغَيْرِهِ ﴿مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ مُعْرِضِينَ عَنْهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعِظُوا ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنِ ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ﴾ يَسْقُطُوا ﴿عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾ بَلْ خَرُّوا سَامِعِينَ نَاظِرِينَ مُنْتَفِعِينَ[1]. ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ ﴿قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ لَنَا بِأَنْ نَرَاهُمْ مُطِيعِينَ لَكَ ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ فِي اَلْخَيْرِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ اَلدَّرَجَةَ اَلْعُلْيَا فِي اَلْجَنَّةِ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ مَعَ فَتْحِ اَلْيَاءِ ﴿فِيهَا﴾ فِي اَلْغُرْفَةِ ﴿تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ مِنَ اَلْمَلَائِكَةِ. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ مَوْضِعَ إِقَامَةٍ لَهُمْ. وَ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وَمَا بَعْدَهُ خَبَرُ ﴿عِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ اَلْمُبْتَدَأِ. ﴿قُلۡ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿مَا﴾ نَافِيَةٌ ﴿يَعۡبَؤُاْ﴾ يَكْتَرِثُ ﴿بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ إِيَّاهُ فِي اَلشَّدَائِدِ فَيَكْشِفُهَا[2] ﴿فَقَدۡ﴾ أَيْ: فَكَيْفَ يَعْبَأُ بِكُمْ وَقَدْ ﴿كَذَّبۡتُمۡ﴾ اَلرَّسُولَ وَالْقُرْآنَ ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ﴾ اَلْعَذَابُ ﴿لِزَامَۢا ٧٧﴾ مُلَازِمًا لَكُمْ فِي اَلْآخِرَةِ بَعْدَ مَا يَحِلُّ بِكُمْ فِي اَلدُّنْيَا، فَقُتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعُونَ، وَجَوَابُ ﴿لَوۡلَا﴾ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهَا.

---

(١) قال ابن قتيبة: المعنى لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها، قال ابن جرير: ليس ثَمَّ خرور، بل كما يقال: «قعد يبكي»، وإن كان غير قاعد. قال ابن عطية: كأن المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام. [صديق حسن (٩/ ٣٥٤)].

(٢) يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية، وفي معنى الدعاء هنا ثلاثة أقوال: الأول: أن المعنى إن الله لا يبالي بكم لولا عبادتكم له، فالدعاء بمعنى العبادة وهذا قريب من معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] الثاني: أن الدعاء بمعنى الاستغاثة والسؤال، والمعنى لا يبالي الله بكم، ولكن يرحمكم إذا استغثتم به ودعوتموه ويكون على هذين القولين خطاباً لجميع الناس من المؤمنين والكافرين، لأن فيهم من يعبد الله ويدعوه، أو خطاباً للمؤمنين خاصة، لأنهم هم الذين يدعون الله ويعبدونه، ولكن يضعف هذا بقوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾، الثالث: أنه خطاب للكفار خاصة والمعنى على هذا: ما يعبأ بكم ربي لولا أن يدعوكم إلى دينه، والدعاء على هذا بمعنى الأمر بالدخول في الدين، وهو مصدر مضاف إلى المفعول، وأما على القول الأول والثاني فهو مصدر مضاف إلى الفاعل. [ابن جُزَيّ (٢/ ٨٧)].

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ إِلَى آخِرِهَا فَمَدَنِي، وَهِيَ مِائَتَانِ وَسَبْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ①﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[1]. ﴿تِلْكَ﴾ أَيْ: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى: مِنْ ﴿ٱلْمُبِينِ ②﴾ الْمُظْهِرِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ. ﴿لَعَلَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قَاتِلَهَا غَمًّا مِنْ أَجْلِ ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿مُؤْمِنِينَ ③﴾ وَ«لَعَلَّ» هُنَا لِلْإِشْفَاقِ، أَيْ: أَشْفِقْ عَلَيْهَا بِتَخْفِيفِ هَذَا الْغَمِّ. ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ﴾ بِمَعْنَى الْمُضَارِعِ، أَيْ: تَظَلُّ، أَيْ: تَدُومُ ﴿أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ④﴾ فَيُؤْمِنُونَ، وَلَمَّا وُصِفَتِ الْأَعْنَاقُ بِالْخُضُوعِ الَّذِي هُوَ لِأَرْبَابِهَا جُمِعَتِ الصِّفَةُ مِنْهُ جَمْعَ الْعُقَلَاءِ[2]. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ قُرْآنٍ ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ[3] ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ⑤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ بِهِ ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟﴾ عَوَاقِبُ ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑥ أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أَيْ: كَثِيرًا ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾ نَوْعٍ حَسَنٍ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ دَلَالَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧﴾ فِي عِلْمِ اللهِ، وَ﴿كَانَ﴾ قَالَ سِيبَوَيْهِ: زَائِدَةٌ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ ذُو الْعِزَّةِ يَنْتَقِمُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ٱلرَّحِيمُ ⑨﴾ يَرْحَمُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ لَيْلَةَ رَأَى النَّارَ وَالشَّجَرَةَ ﴿أَنِ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا، ولكنا لا نفعل ذلك؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، فنفذ قدره، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم. [ابن كثير (٦/ ١٣٥)].

(٣) الصفة الكاشفة هي التي تبيِّنُ الواقع، ولا تُقيِّد الموصوف؛ لأن الصفات منها صفة مقيِّدة تخرج ما سواه، ومنها صفة كاشفة تبين حقيقة أمره، فهنا يقول المؤلف: إن كلمة ﴿مُحْدَثٍ﴾ صفة كاشفة؛ لأن القرآن ما يأتيهم من ذكر محدث، كلمة ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ تدل على محدث فلا مفهوم لها؛ لأنه إذا كان يأتيهم، وجب أن يكون مُحْدَثًا؛ لأن بإتيانه إياهم صار محدثًا؛ ووجه ذلك ظاهر أنها صفة كاشفة؛ لأنه لو كان غيرَ مُحْدَثٍ ما صحَّ أن يقول: وما يأتيهم إذ هو آت من الأصل. وقوله: ﴿مُحْدَثٍ﴾ ظاهر الآية الكريمة أنَّ المحدثَ هو الذكر نفسه، فيكون في الآية دلالة على أن الله تعالى يتكلم بالقرآن حين إنزاله. [ابن عثيمين تفسير الشعراء (ص:٢٧)].

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ رَسُولًا. ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ﴾ معَهُ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكُفْرِ بِاللهِ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ بِاسْتِعْبَادِهِمْ ﴿أَلَا﴾ الْهَمْزَةُ لِلاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ﴿يَتَّقُونَ ١١﴾ اللهَ بِطَاعَتِهِ فيُوَحِّدُوهُ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لِي ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ بِأَدَاءِ الرِّسَالَةِ، لِلْعُقْدَةِ الَّتِي فِيهِ ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ﴾ أَخِي ﴿هَٰرُونَ ١٣﴾ مَعِي. ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ بِقَتْلِ الْقِبْطِيِّ مِنْهُمْ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ بِهِ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿كَلَّاۖ﴾ لَا يَقْتُلُونَكَ ﴿فَٱذۡهَبَا﴾ أَيْ: أَنْتَ وَأَخُوكَ، فَفِيهِ تَغْلِيبُ الْحَاضِرِ عَلَى الْغَائِبِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥﴾ مَا تَقُولُونَ وَمَا يُقَالُ لَكُمْ، أُجْرِيَا مَجْرَى الْجَمَاعَةِ. ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا﴾ كُلًّا مِنَّا ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ إِلَيْكَ. ﴿أَنۡ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿أَرۡسِلۡ مَعَنَا﴾ إِلَى الشَّامِ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ فَأَتَيَاهُ فَقَالَا لَهُ مَا ذُكِرَ. فَـ ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ أَيْ: فِي مَنَازِلِنَا ﴿وَلِيدٗا﴾ صَغِيرًا قَرِيبًا مِنَ الْوِلَادَةِ بَعْدَ فِطَامِهِ ﴿وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ ثَلَاثِينَ سَنَةً، يَلْبَسُ مِنْ مَلَابِسِ فِرْعَوْنَ وَيَرْكَبُ مِنْ مَرَاكِبِهِ وَكَانَ يُسَمَّى ابْنَهُ[1]. ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ هِيَ قَتْلُهُ الْقِبْطِيَّ ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ الْجَاحِدِينَ لِنِعْمَتِي عَلَيْكَ بِالتَّرْبِيَةِ وَعَدَمِ الِاسْتِعْبَادِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿فَعَلۡتُهَآ إِذٗا﴾ أَيْ: حِينَئِذٍ ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ عَمَّا آتَانِي اللهُ بَعْدَهَا، مِنَ الْعِلْمِ وَالرِّسَالَةِ[2]. ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا﴾ عِلْمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أَصْلُهُ: تَمُنُّ بِهَا عَلَيَّ ﴿أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ بَيَانٌ لِـ ﴿تِلۡكَ﴾، أَيْ: اتَّخَذْتَهُمْ عَبِيدًا وَلَمْ تَسْتَعْبِدْنِي، لَا نِعْمَةَ لَكَ بِذَلِكَ لِظُلْمِكَ بِاسْتِعْبَادِهِمْ، وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ أَوَّلَ الْكَلَامِ هَمْزَةَ اسْتِفْهَامٍ لِلْإِنْكَارِ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ لِمُوسَى ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ الَّذِي قُلْتَ إِنَّكَ رَسُولُهُ، أَيْ: أَيُّ شَيْءٍ هُوَ؟ وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ سَبِيلٌ لِلْخَلْقِ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَهُ بِصِفَاتِهِ، أَجَابَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِبَعْضِهَا[3]. ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ أَيْ: خَالِقُ ذَلِكَ

---

(١) هذا على جهة المن عليه والاحتقار، أي: ربيناك صغيرا، أو لم نقتلك في جملة من قتلنا فلبثت فينا سنين، فمتى كان هذا الذي تدعيه؟ [ابن عطية (٤/ ٢٢٧)].

(٢) أي: الجاهلين قاله ابن عباس، فنفى عليه الصلاة والسلام عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله، وقيل: المعنى من الجاهلين أن تلك الوكزة تبلغ القتل، وقال أبو عبيدة: من الناسين، وقيل: من المخطئين. قال ابن جرير: العرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال. [صديق حسن (٩/ ٣٦٩)].

(٣) يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع ويعتقدون أنه لا رب

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ بِأَنَّهُ تَعَالَى خَالِقُهُ فَآمِنُوا بِهِ وَحْدَهُ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ﴾ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥﴾ جَوَابَهُ الَّذِي لَمْ يُطَابِقِ السُّؤَالَ[1]. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦﴾ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِيمَا قَبْلَهُ يَغِيظُ فِرْعَوْنَ[2]، وَلِذَلِكَ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ أَنَّهُ كَذَلِكَ فَآمِنُوا بِهِ وَحْدَهُ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾ كَانَ سِجْنُهُ شَدِيدًا، يَحْبِسُ الشَّخْصَ فِي مَكَانٍ تَحْتَ الْأَرْضِ وَحْدَهُ، لَا يُبْصِرُ وَلَا يَسْمَعُ فِيهِ أَحَدًا ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿أَوَلَوْ﴾ أَيْ: أَتَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَوْ ﴿جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ بُرْهَانٍ بَيِّنٍ عَلَى رِسَالَتِي. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لَهُ: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١﴾ فِيهِ. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢﴾ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أَخْرَجَهَا مِنْ جَيْبِهِ ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ ذَاتُ شُعَاعٍ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُدْمَةِ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ فَائِقٌ فِي عِلْمِ السِّحْرِ. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أَخِّرْ أَمْرَهُمَا ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾ جَامِعِينَ. ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾ يَفْضُلُ مُوسَى فِي عِلْمِ السِّحْرِ. ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨﴾ وَهُوَ وَقْتُ الضُّحَى مِنْ يَوْمِ الزِّينَةِ. ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾ الِاسْتِفْهَامُ لِلْحَثِّ عَلَى الِاجْتِمَاعِ، وَالتَّرَجِّي عَلَى تَقْدِيرِ غَلَبَتِهِمْ،

لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، قال له: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٤٩-٥٠]. ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها. [ابن كثير (٦/ ١٣٨)].

(١) أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه: أن لكم إلها غيري؟ [ابن الجوزي (٣/ ٣٣٨)].

(٢) وخص من العام المتقدم أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه. وهي أظهر دلالة على القادر فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا رب كما يدعيه. والمعنى أن هذا الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلق آباءكم الأولين وخلقكم، فكيف تعبدون من هو واحد منكم؟ مخلوق كخلقكم، وله آباء قد فنوا كآبائكم، فلم يجبه فرعون عند ذلك بشيء يعتد به، بل جاء بما يشكك قومه ويخيل إليهم أن هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء. [صديق حسن (٩/ ٣٧١)].

لِيَسْتَمِرُّوا عَلَى دِينِهِمْ فَلَا يَتْبَعُوا مُوسَى. ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ ﴿لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا﴾ أَيْ: حِينَئِذٍ ﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ بَعْدَ مَا قَالُوا لَهُ: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣﴾ فَالْأَمْرُ مِنْهُ لِلْإِذْنِ بِتَقْدِيمِ إِلْقَائِهِمْ تَوَسُّلًا بِهِ إِلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ. ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ: تَبْتَلِعُ ﴿مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥﴾ يَقْلِبُونَهُ بِتَمْوِيهِهِمْ فَيُخَيِّلُونَ أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ حَيَّاتٌ تَسْعَى. ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْعَصَا لَا يَتَأَتَّى بِالسِّحْرِ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَامَنتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا ﴿لَهُۥ﴾ لِمُوسَى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أَنَا ﴿لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فَعَلَّمَكُمْ شَيْئًا مِنْهُ وَغَلَبَكُمْ بِآخَرَ ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ﴾ مَا يَنَالُكُمْ مِنِّي ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أَيْ: يَدَ كُلِّ وَاحِدٍ الْيُمْنَى وَرِجْلَهُ الْيُسْرَى ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ﴾ لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بَعْدَ مَوْتِنَا بِأَيِّ وَجْهٍ كَانَ ﴿مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾ رَاجِعُونَ فِي الْآخِرَةِ. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نَرْجُو ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ فِي زَمَانِنَا[1]. ﴿۞وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ بَعْدَ سِنِينَ أَقَامَهَا بَيْنَهُمْ يَدْعُوهُمْ بِآيَاتِ اللهِ إِلَى الْحَقِّ، فَلَمْ يَزِيدُوا إِلَّا عُتُوًّا[2] ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ﴾ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ النُّونِ وَوَصْلِ هَمْزَةِ ﴿ٱسْرِ﴾ مِنْ «سَرَى» لُغَةٌ فِي «أَسْرَى»، أَيْ: سِرْ بِهِمْ لَيْلًا إِلَى الْبَحْرِ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾ يَتْبَعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَيَلِجُونَ وَرَاءَكُمُ الْبَحْرَ، فَأُنْجِيكُمْ وَأُغْرِقُهُمْ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حِينَ أُخْبِرَ بِسَيْرِهِمْ ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ قِيلَ: كَانَ لَهُ أَلْفُ مَدِينَةٍ وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ قَرْيَةٍ ﴿حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾ جَامِعِينَ الْجَيْشَ. قَائِلًا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾ طَائِفَةٌ ﴿قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ قِيلَ: كَانُوا سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ وَسَبْعِينَ أَلْفًا وَمُقَدَّمَةُ جَيْشِهِ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَلَّلَهُمْ

---

(١) أي: أنهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية أو من أهل المشهد. وقال الفراء أول مؤمني زمانهم، وأنكره الزجاج، وقال: قد روي أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفـًا، وهم الذين عناهم فرعون بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. [الشوكاني (٤/ ١١٦)].

(٢) هذه قصة أخرى من أحوال موسى في دعوة فرعون، فالواو لعطف القصة، ولا تفيد قرب القصة من القصة فقد لبث موسى زمنا يطالب فرعون بإطلاق بني إسرائيل ليخرجوا من مصر، وفرعون يماطل في ذلك حتى رأى الآيات التسع كما تقدم في سورة الأعراف. ونظير بعض هذه الآية تقدم في سورة طه. وزادت هذه بقوله: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: أعلم الله موسى أن فرعون سيتبعهم بجنده كما في آية سورة طه. والقصد من إعلامه بذلك تشجيعه. [ابن عاشور (١٩/ ١٢٩)].

بِالنَّظَرِ إِلَى كَثْرَةِ جَيْشِهِ. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فَاعِلُونَ مَا يَغِيظُنَا. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ مُتَيَقِّظُونَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿حَاذِرُونَ﴾ مُسْتَعِدُّونَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾ أَيْ: فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنْ مِصْرَ، لِيَلْحَقُوا مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴿مِّن جَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ كَانَتْ عَلَى جَانِبَيِ النِّيلِ ﴿وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾ أَنْهَارٍ جَارِيَةٍ فِي الدُّورِ مِنَ النِّيلِ. ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أَمْوَالٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَسُمِّيَتْ كُنُوزًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطَ حَقَّ اللهِ تَعَالَى مِنْهَا[1] ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ مَجْلِسٍ حَسَنٍ لِلْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ يَحُفُّهُ أَتْبَاعُهُمْ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: إِخْرَاجُنَا كَمَا وَصَفْنَا ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ بَعْدَ إِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ. ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾ لَحِقُوهُمْ ﴿مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ رَأَى كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ يُدْرِكُنَا جَمْعُ فِرْعَوْنَ، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿كَلَّآ﴾ أَيْ: لَنْ يُدْرِكُونَا ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ بِنَصْرِهِ ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ طَرِيقَ النَّجَاةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فَضَرَبَهُ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ فَانْشَقَّ اثْنَيْ عَشَرَ فِرْقًا ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ الْجَبَلِ الضَّخْمِ بَيْنَهُمَا مَسَالِكُ سَلَكُوهَا، لَمْ يَبْتَلَّ مِنْهَا سُرُجُ الرَّاكِبِ وَلَا لِبْدُهُ. ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قَرَّبْنَا ﴿ثَمَّ﴾ هُنَاكَ ﴿ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، حَتَّى سَلَكُوا مَسَالِكَهُمْ. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمَذْكُورَةِ. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، بِإِطْبَاقِ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ، لَمَّا تَمَّ دُخُولُهُمْ فِي الْبَحْرِ وَخُرُوجُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْهُ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿لَءَايَةً﴾ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ بِاللهِ تَعَالَى، لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ غَيْرُ: آسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَحِزْقِيلَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمَ بِنْتِ نَامُوصِي الَّتِي دَلَّتْ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فَانْتَقَمَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِإِغْرَاقِهِمْ ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجَاهُمْ مِنَ الْغَرَقِ. ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿نَبَأَ﴾ خَبَرَ ﴿إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾. وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ صَرَّحُوا بِالْفِعْلِ لِيَعْطِفُوا عَلَيْهِ: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ نُقِيمُ نَهَارًا عَلَى

---

(١) المراد بالكنوز الأموال الظاهرة من الذهب والفضة، وسميت كنوزاً لأنه لم يعط حق الله منها، وفي الشهاب: المراد بها إما الأموال التي تحت الأرض، وخصها لأن ما فوقها انطمس، أو مطلق المال الذي لم يؤد منه حق الله لأنه يقال له كنز، والأول أوفق باللغة، والثاني مروي عن السلف فلا وجه للتحكم هنا. [صديق حسن (٩/ ٣٨٢)].

(٢) عظام يوسف هذا خطأ؛ لأنه ثبت أن الله حَرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، فكيف يقال: إنه ما بقي إلا عظامه؟! فالحاصل أن مثل هذه الإسرائيليات يُؤْسَف من المؤلف ومن غيره أن ينقلوها. [ابن عثيمين تفسير الشعراء (ص:١٤٧)]. [وقيل المعنى:] وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما أتاك الله من الحق المبين، فسابق في علمي أنهم لا يؤمنون. [الطبري (١٧/ ٥٨٨)].

عِبادَتِهَا، زَادُوهُ فِي الْجَوَابِ افْتِخَارًا بِهِ. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ﴾ حِينَ ﴿تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ إِنْ عَبَدْتُمُوهُمْ ﴿أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ كُمْ إِنْ لَمْ تَعْبُدُوهُمْ؟ ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أَيْ: مِثْلَ فِعْلِنَا. ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ لَا أَعْبُدُهُمْ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فَإِنِّي أَعْبُدُهُ. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إِلَى الدِّينِ. ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ﴾ أَرْجُو ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ الْجَزَاءِ. ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ عِلْمًا ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أَيْ: النَّبِيِّينَ. ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثَنَاءً حَسَنًا ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ(١). ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ مِمَّنْ يُعْطَاهَا. ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ بِأَنْ تَتُوبَ عَلَيْهِ فَتَغْفِرَ لَهُ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ(٢). ﴿وَلَا تُخْزِنِى﴾ تَفْضَحْنِي ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ النَّاسُ. قَالَ تَعَالَى فِيهِ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أَحَدًا. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ مِنَ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ، وَهُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ. ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ قُرِّبَتْ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فَيَرَوْنَهَا. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أُظْهِرَتْ ﴿لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ بِدَفْعِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ؟ لَا. ﴿فَكُبْكِبُواْ﴾ أُلْقُوا ﴿فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ أَتْبَاعُهُ وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ﴾ أَيِ: الْغَاوُونَ ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ مَعَ مَعْبُودِيهِمْ ﴿تَٱللَّهِ إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّهُ ﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ بَيِّنٍ. ﴿إِذْ﴾ حَيْثُ ﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ فِي الْعِبَادَةِ. ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ عَنِ الْهُدَى ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أَيِ: الشَّيَاطِينُ، أَوْ أَوَّلُونَا الَّذِينَ اقْتَدَيْنَا بِهِمْ. ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ كَمَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَلَا صَدِيقٍ

---

(١) أي: اجعل لي ثناء حسناً وذكراً جميلاً وجاهاً وصيتاً وقبولاً عاماً في الأمم الآخرين، الذين يأتون بعدي في الدنيا يبقى أثره إلى يوم القيامة. قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون بها، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة، وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨]، وأجاب دعاءه فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه. وكل أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه، خصوصاً هذه الأمة وخصوصاً في كل تشهد من تشهدات الصلوات. [صديق حسن (٩/ ٣٩١)].

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ يُهِمُّهُ أَمْرُنَا. ﴿فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ ﴿لَوۡ﴾ هُنَا لِلتَّمَنِّي وَ﴿نَكُونَ﴾ جَوَابُهُ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ ﴿لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْمَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ(١)، أَوْ لِأَنَّهُ لِطُولِ لُبْثِهِ فِيهِمْ كَأَنَّهُ رُسُلٌ، وَتَأْنِيثُ ﴿قَوۡمُ﴾ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ، وَتَذْكِيرُهُ بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ. ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ﴾ نَسَبًا ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ اللهَ. ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾﴾ عَلَى تَبْلِيغِ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ، مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَطَاعَتِهِ. ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغِهِ ﴿مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ﴾ مَا ﴿أَجۡرِيَ﴾ أَيْ: ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا. ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ﴾ نُصَدِّقُ ﴿لَكَ﴾ لِقَوْلِكَ ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَأَتۡبَاعُكَ﴾ جَمْعُ «تَابِعٍ» مُبْتَدَأٌ ﴿ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ السَّفَلَةُ، كَالْحَاكَةِ وَالْأَسَاكِفَةِ. ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي﴾ أَيُّ عِلْمٍ لِي ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ﴾ مَا ﴿حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ﴾ فَيُجَازِيهِمْ ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا عَيَّرْتُمُوهُمْ. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ﴾ مَا ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ. ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ عَمَّا تَقُولُ لَنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ بِالْحِجَارَةِ، أَوْ بِالشَّتْمِ. ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾ أَيْ: احْكُمْ ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ الْمَمْلُوءِ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ﴾ بَعْدَ إِنْجَائِهِمْ ﴿ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ مِنْ قَوْمِهِ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ﴾ مَا ﴿أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ

---

(١) كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وقد بين تعالى أن مكذب بعضهم مكذب للجميع بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]. ويأتي مثل هذا الإشكال، والجواب في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٤]، وقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢]. وكذلك في قصة لوط وشعيب، على الجميع وعلى نبينا الصلاة والسلام. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ٢٤٢)].

﴿ءَايَةً﴾ بِناءً عَلَمًا لِلْمَارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ ١٢٨﴾ بِمَنْ يَمُرُّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ(١)، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «تَبْنُونَ». ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ لِلْمَاءِ تَحْتَ الْأَرْضِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ كَأَنَّكُمْ ﴿تَخْلُدُونَ ١٢٩﴾ فِيهَا لَا تَمُوتُونَ. ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم﴾ بِضَرْبٍ أَوْ قَتْلٍ ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ مِنْ غَيْرِ رَأْفَةٍ. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَطِيعُونِ ١٣١﴾ فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم﴾ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ ١٣٤﴾ أَنْهَارٍ. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٣٥﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنْ عَصَيْتُمُونِي. ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ مُسْتَوٍ عِنْدَنَا ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ١٣٦﴾ أَصْلًا، أَيْ: لَا نَرْعَوِي لِوَعْظِكَ. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا﴾ الَّذِي خَوَّفْتَنَا بِهِ ﴿إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ أَيْ: اِخْتِلَاقُهُمْ وَكَذِبُهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْخَاءِ وَاللَّامِ، أَيْ: مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ لَا نُبْعَثُ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ، أَيْ: طَبِيعَتُهُمْ وَعَادَتُهُمْ. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالرِّيحِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٤٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٤٤ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا﴾ مِنَ الْخَيْرَاتِ ﴿آمِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ١٤٨﴾ لَطِيفٌ لَيِّنٌ ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ١٤٩﴾ بَطِرِينَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَرِهِينَ﴾ حَاذِقِينَ. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٥٠﴾ فِيمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ. ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْمَعَاصِي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ١٥٢﴾ بِطَاعَةِ اللهِ. ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ الَّذِينَ سُحِّرُوا كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِمْ. ﴿مَا أَنتَ﴾ أَيْضًا ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١٥٤﴾ فِي رِسَالَتِكَ. ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ﴾ نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦﴾ بِعِظَمِ الْعَذَابِ. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عَقَرَهَا بَعْضُهُمْ بِرِضَاهُمْ ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ١٥٧﴾ عَلَى عَقْرِهَا. ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الْمَوْعُودُ بِهِ فَهَلَكُوا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٥٩ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

---

(١) أي: ببنائها لا للحاجة إليها. بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة. ولهذا أنكر عليهم ذلك. لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة. واشتغال بما هم في غنى عنه. وبما في الشغف به انصراف عن الجد في العمل، وصرف للأموال في غير ما خلقت له، من النظر للنفس والأهل والدين. [القاسمي (٧/ ٤٦٧)].

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ أَيْ: النَّاسِ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أَقْبَالِهِنَّ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ مُتَجَاوِزُونَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ. ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عَنْ إِنْكَارِكَ عَلَيْنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ مِنْ بَلْدَتِنَا. ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ الْمُبْغِضِينَ. ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أَيْ: مِنْ عَذَابِهِ(١). ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا﴾ امْرَأَتَهُ ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ الْبَاقِينَ أَهْلَكْنَاهَا. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ حِجَارَةً مِنْ جُمْلَةِ الْإِهْلَاكِ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ مَطَرُهُمْ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ وَإِلْقَاءِ حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ وَفَتْحِ الْهَاءِ، هِيَ غَيْضَةُ شَجَرٍ قُرْبَ مَدْيَنَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ لَمْ يَقُلْ: أَخُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أَتِمُّوهُ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ النَّاقِصِينَ. ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ الْمِيزَانِ السَّوِيِّ. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لَا تُنْقِصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ، مِنْ «عَثِيَ» بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَةِ أَفْسَدَ، وَ ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى عَامِلِهَا ﴿تَعْثَوْا۟﴾. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ الْخَلِيقَةَ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّهُ ﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ بِسُكُونِ السِّينِ وَفَتْحِهَا، قِطَعًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ فِي رِسَالَتِكَ. ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ هِيَ سَحَابَةٌ أَظَلَّتْهُمْ بَعْدَ حَرٍّ شَدِيدٍ أَصَابَهُمْ، فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا فَاحْتَرَقُوا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ جِبْرِيلُ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ بَيِّنٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ ﴿نَزَّلَ﴾ وَنَصْبِ ﴿ٱلرُّوحَ﴾ وَالْفَاعِلُ اللهُ. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ ذِكْرَ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿لَفِى زُبُرِ﴾ كُتُبِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ كَالتَّوْرَاةِ

---

(١) يدل عليه أن الاستجابة من الله كانت في نجاته من عذاب ذنوبهم. قال المفسرون: أي من عقوبة صنيعهم. [الواحدي (١٧/ ١١٢)].

وَالْإِنْجِيلِ(١). ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ﴿ءَايَةً﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ مِمَّنْ آمَنُوا، فَإِنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِذَلِكَ، وَ﴿يَكُن﴾ بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَنَصْبِ ﴿ءَايَةً﴾، وَبِالْفَوْقَانِيَّةِ وَرَفْعِ ﴿ءَايَةٌ﴾. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ جَمْعُ أَعْجَمَ. ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ أَنَفَةً مِنَ اتِّبَاعِهِ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ إِدْخَالِنَا التَّكْذِيبَ بِهِ بِقِرَاءَةِ الْأَعْجَمِ ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ أَدْخَلْنَا التَّكْذِيبَ بِهِ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ كُفَّارِ مَكَّةَ بِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ(٢). ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ مُمْهَلُونَ لِنُؤْمِنَ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ: لَا، قَالُوا مَتَى هَذَا الْعَذَابُ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ﴾ أَخْبِرْنِي ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ مِنَ الْعَذَابِ. ﴿مَآ﴾ اسْتِفْهَامِيَّةٌ بِمَعْنَى: أَيَّ شَيْءٍ ﴿أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ أَوْ تَخْفِيفِهِ، أَيْ: لَمْ يُغْنِ. ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ رُسُلٌ تُنْذِرُ أَهْلَهَا. ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عِظَةً لَهُمْ ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ فِي إِهْلَاكِهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ. وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى﴾ يَصْلُحُ ﴿لَهُمْ﴾ أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ ذَلِكَ. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ لِكَلَامِ الْمَلَائِكَةِ ﴿لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ مَحْجُوبُونَ بِالشُّهُبِ. ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الَّذِي دَعَوْكَ إِلَيْهِ. ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ جِهَارًا، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(٣).

---

(١) ﴿لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ذكر إنزال القرآن، قاله أكثر المفسرين. وقال مقاتل: ذكر محمد ﷺ ونعته ... ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ معناه: أو لم يكن لهؤلاء المنكرين علم بني إسرائيل آية، أي: علامة ودلالة على نبوة محمد ﷺ؛ لأن العلماء الذين كانوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه. قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا نجد في التوراة نعته وصفته، فكان ذلك آية على صدقه. [البغوي (٦/ ١٢٩)].

(٢) سلكناه معناه: أدخلناه، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ قاله الحسن، وقيل: الضمير للتكذيب، وقيل: للقرآن ورجح بأنه المتبادر إلى الذهن، والمجرمون أراد به مجرمي كل أمة، أي: أن هذه عادة الله فيهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، فكفار قريش كذلك. [الثعالبي (٤/ ٢٣٧)].

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: «يَابني فِهْرٍ يَابني عَدِيٍّ» - لبطون قريش - حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيكُمْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ أَلِنْ جَانِبَكَ ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ الْمُوَحِّدِينَ. ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾ عَشِيرَتُكَ ﴿فَقُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ. ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ بِالْوَاوِ وَالْفَاءِ ﴿عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧﴾ اللهِ، أَيْ: فَوِّضْ إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِكَ. ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨﴾ إِلَى الصَّلَاةِ. ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾ فِي أَرْكَانِ الصَّلَاةِ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا ﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ الْمُصَلِّينَ(١). ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ. ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كَذَّابٍ ﴿أَثِيمٖ ٢٢٢﴾ فَاجِرٍ، مِثْلِ مُسَيْلِمَةَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكَهَنَةِ. ﴿يُلۡقُونَ﴾ أَيْ: الشَّيَاطِينُ ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ أَيْ: مَا سَمِعُوهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى الْكَهَنَةِ ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣﴾ يَضُمُّونَ إِلَى الْمَسْمُوعِ كَذِبًا كَثِيرًا، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ حُجِبَتِ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمَاءِ. ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ٢٢٤﴾ فِي شِعْرِهِمْ، فَيَقُولُونَ بِهِ وَيَرْوُونَهُ عَنْهُمْ، فَهُمْ مَذْمُومُونَ. ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تَعْلَمْ ﴿أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ﴾ مِنْ أَوْدِيَةِ الْكَلَامِ وَفُنُونِهِ ﴿يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ يَمْضُونَ فَيُجَاوِزُونَ الْحَدَّ مَدْحًا وَهِجَاءً. ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ﴾ فَعَلْنَا ﴿مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦﴾ أَيْ: يَكْذِبُونَ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِنَ الشُّعَرَاءِ ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أَيْ: لَمْ يَشْغَلْهُمُ الشِّعْرُ عَنِ الذِّكْرِ ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾ بِهَجْوِهِمُ الْكُفَّارَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ بِهَجْوِ الْكُفَّارِ لَهُمْ فِي جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسُوا مَذْمُومِينَ(٢)، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَغَيْرِهِم ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ﴾ مَرْجِعٍ ﴿يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ يَرْجِعُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ.

كَسَبَ ٢﴾ [المسد: ١-٢]. أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(١) قال مجاهد وقتادة: في المصلين. وقال ابن عباس: أي في أصلاب الآباء، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيا. [القرطبي (١٣/ ١٤٤)].

(٢) اعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام. وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب، وقد وردت أحاديث في ذمه وذم الاستكثار منه، ووردت أحاديث أخر في إباحته وتجويزه. [الشوكاني (٤/ ١٤٠)] أخرج مسلم (٢٢٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا». وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه؟ فقال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ». أخرجه أحمد (٢٧١٧٤). وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً». أخرجه البخاري (٦١٤٥). وقالت عائشة: الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح، فخذ الحسن ودع القبيح.

سُورَةُ النَّمْلِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلَاثٌ أَوْ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَتِسْعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**طسٓ**﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[١] ﴿**تِلۡكَ**﴾ أَيْ: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿**ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ**﴾ آيَاتٌ مِنْهُ ﴿**وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ١**﴾ مُظْهِرٍ لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، عَطْفٌ بِزِيَادَةِ صِفَةٍ. هُوَ ﴿**هُدٗى**﴾ هَادٍ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿**وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢**﴾ الْمُصَدِّقِينَ بِهِ بِالْجَنَّةِ[٢]. ﴿**ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ**﴾ يَأْتُونَ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا ﴿**وَيُؤۡتُونَ**﴾ يُعْطُونَ ﴿**ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣**﴾ يَعْلَمُونَهَا بِالِاسْتِدْلَالِ وَأُعِيدَ ﴿هُمۡ﴾ لَمَّا فَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَبَرِ. ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ**﴾ الْقَبِيحَةَ، بِتَرْكِيبِ الشَّهْوَةِ حَتَّى رَأَوْهَا حَسَنَةً[٣] ﴿**فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤**﴾ يَتَحَيَّرُونَ فِيهَا لِقُبْحِهَا عِنْدَنَا. ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ**﴾ أَشَدُّهُ فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ ﴿**وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥**﴾ لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿**وَإِنَّكَ**﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿**لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ**﴾ يُلْقَى عَلَيْكَ بِشِدَّةٍ ﴿**مِن لَّدُنۡ**﴾ مِنْ عِنْدِ ﴿**حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦**﴾ فِي ذَلِكَ. اُذْكُرْ ﴿**إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ**﴾ زَوْجَتِهِ عِنْدَ مَسِيرِهِ مِنْ مَدْيَنَ إِلَى مِصْرَ ﴿**إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ**﴾ أَبْصَرْتُ مِنْ بَعِيدٍ ﴿**نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ**﴾ عَنْ حَالِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ ضَلَّهَا ﴿**أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ**﴾ بِالْإِضَافَةِ لِلْبَيَانِ وَتَرْكِهَا، أَيْ: شُعْلَةِ نَارٍ فِي رَأْسِ فَتِيلَةٍ أَوْ عُودٍ ﴿**لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٧**﴾ تَسْتَدْفِئُونَ مِنَ الْبَرْدِ، وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الِافْتِعَالِ، مِنْ «صَلِيَ بِالنَّارِ» بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا. ﴿**فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ**﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿**بُورِكَ**﴾ أَيْ: بَارَكَ اللهُ ﴿**مَن**

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الإيمان ليس مجرد التصديق فقط، بل الإيمان الموجود في القرآن لا بد فيه من قبول وإذعان مع التصديق، والدليل أن أبا طالب كان مصدِّقًا لما جاء به الرسول ﷺ يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّـــدٍ مِـــنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّـــةِ دِينَـــا

لَـــوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّـــةٍ لَـــرَأَيْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

إذن لم يقبل ولم يذعن، فلم يكن مؤمنا، فكلما وجدت الإيمان في كتاب الله فالمراد به التصديق المستَلْزِم للقبول والإذعان، وليس مجرد التصديق فقط. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص:١٧)].

(٣) أي: حسنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. [ابن كثير (٦/١٧٨)].

﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ أَيْ: مُوسَى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةُ[١] أَوِ الْعَكْسُ، وَ«بَارَكَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِالْحَرْفِ، وَيُقَدَّرُ بَعْد «فِي»: «مَكَانِ»[٢] ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ مِنْ جُمْلَةِ مَا نُودِيَ، وَمَعْنَاهُ تَنْزِيهُ اللهِ مِنَ السُّوءِ. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ﴾ أَيِ: الشَّأْنُ ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ﴾ فَأَلْقَاهَا ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرَّكُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حيَّةٌ خَفِيفَةٌ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ﴾ يَرْجِعْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ مِنْهَا ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ عِنْدِي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ مِنْ حَيَّةٍ وَغَيْرِهَا. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نَفْسَهُ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا﴾ أَتَاهُ ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أَيْ: تَابَ ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ أَقْبَلُ التَّوْبَةَ وَأَغْفِرُ لَهُ. ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ طَوْقَ قَمِيصِكَ ﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافَ لَوْنِهَا مِنَ الْأُدْمَةِ ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ﴾ بَرَصٍ، لَهَا شُعَاعٌ يُغْشِي الْبَصَرَ، آيَةً ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ مُرْسَلًا بِهَا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أَيْ: مُضِيئَةً وَاضِحَةً ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ. ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ لَمْ يُقِرُّوا ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿ٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أَيْ: تَيَقَّنُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ تَكَبُّرًا عَنِ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، رَاجِعٌ إِلَى الْجَحْدِ ﴿فَٱنظُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ الَّتِي عَلِمْتَهَا مِنْ إِهْلَاكِهِمْ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ابْنَهُ ﴿عِلْمًاۖ﴾ بِالْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَقَالَا﴾ شُكْرًا لِلَّهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بِالنُّبُوَّةِ وَتَسْخِيرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ النُّبُوَّةَ وَالْعِلْمَ دُونَ بَاقِي أَوْلَادِهِ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ أَيْ: فَهْمَ أَصْوَاتِهِ ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ تُؤْتَاهُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُلُوكُ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الْمُؤْتَى ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾ الْبَيِّنُ الظَّاهِرُ. ﴿وَحُشِرَ﴾ جُمِعَ ﴿لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ فِي مَسِيرٍ لَهُ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾ يُجْمَعُونَ ثُمَّ يُسَاقُونَ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ هُوَ بِالطَّائِفِ أَوْ بِالشَّامِ، نَمْلُهُ صِغَارٌ أَوْ كِبَارٌ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ مَلِكَةُ النَّمْلِ وَقَدْ رَأَتْ جُنْدَ سُلَيْمَانَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ يَكْسِرَنَّكُمْ ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾ بِهَلَاكِكُمْ، وَنُزِّلَ النَّمْلُ مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ فِي الْخِطَابِ بِخِطَابِهِمْ. ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سُلَيْمَانُ

---

(١) المنادي هو الله عز وجل، والنداء لا يلزم منه القرب أو البعد، وقد يكون الله ناداه من بعيد ثم قربه نجيا، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص:٥٦)].

(٢) ﴿فِي﴾ للظرفية و﴿ٱلنَّارِ﴾ ظرف، فهل موسى في النار؟ المؤلف قدر لهذا، يعني: من في مكان النار؛ لأنه لو كان في النار حقيقة لاحترق، ولكن يقدر مكان. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص:٥٧)].

اِبْتِدَاءً ﴿ضَاحِكًا﴾ اِنْتِهَاءً[1] ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾ وَقَدْ سَمِعَهُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ حَمَلَتْهُ إِلَيْهِ الرِّيحُ[2]، فَحَبَسَ جُنْدَهُ حِينَ أَشْرَفَ عَلَى وَادِيهِمْ حَتَّى دَخَلُوا بُيُوتَهُمْ، وَكَانَ جُنْدُهُ رُكْبَانًا وَمُشَاةً فِي هَذَا الْمَسِيرِ ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بِهَا ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ. ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ لِيَرَى الْهُدْهُدَ الَّذِي يَرَى الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ بِنَقْرِهِ فِيهَا فَتَسْتَخْرِجُهُ الشَّيَاطِينُ لِاحْتِيَاجِ سُلَيْمَانَ إِلَيْهِ لِلصَّلَاةِ، فَلَمْ يَرَهُ ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أَيْ: أَعَرَضَ لِي مَا مَنَعَنِي مِنْ رُؤْيَتِهِ ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ فَلَمْ أَرَهُ لِغَيْبَتِهِ. فَلَمَّا تَحَقَّقَهَا قَالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ أَيْ: تَعْذِيبًا ﴿شَدِيدًا﴾ بِنَتْفِ رِيشِهِ وَذَنَبِهِ، وَرَمْيِهِ فِي الشَّمْسِ فَلَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْهَوَامِّ[3] ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ بِقَطْعِ حُلْقُومِهِ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ بِنُونٍ مُشَدَّدَةٍ مَكْسُورَةٍ أَوْ مَفْتُوحَةٍ يَلِيهَا نُونٌ مَكْسُورَةٌ ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ بِبُرْهَانٍ بَيِّنٍ ظَاهِرٍ عَلَى عُذْرِهِ. ﴿فَمَكُثَ﴾ بِضَمِّ الْكَافِ وَفَتْحِهَا ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يَسِيرًا مِنَ الزَّمَنِ، وَحَضَرَ لِسُلَيْمَانَ مُتَوَاضِعًا بِرَفْعِ رَأْسِهِ وَإِرْخَاءِ ذَنَبِهِ وَجَنَاحَيْهِ، فَعَفَا عَنْهُ وَسَأَلَهُ عَمَّا لَقِيَ فِي غَيْبَتِهِ ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أَيِ: اِطَّلَعْتُ عَلَى مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ بِالصَّرْفِ وَتَرْكِهِ، قَبِيلَةٌ بِالْيَمَنِ سُمِّيَتْ بِاسْمِ جَدٍّ لَهُمْ بِاعْتِبَارِهِ صُرِفَ ﴿بِنَبَإٍ﴾ خَبَرٍ ﴿يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ أَيْ: هِيَ مَلِكَةٌ لَهُمُ اسْمُهَا بِلْقِيسُ ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ مِنَ الْآلَةِ وَالْعُدَّةِ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سَرِيرٌ ﴿عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ طُولُهُ ثَمَانُونَ ذِرَاعًا وَعَرْضُهُ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا وَارْتِفَاعُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا، مَضْرُوبٌ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، مُكَلَّلٌ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ وَالزَّبَرْجَدِ الْأَخْضَرِ وَالزُّمُرُّدِ، وَقَوَائِمُهُ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ وَالزَّبَرْجَدِ

---

(١) الضحك ثلاثة أنواع: ابتدائي: التبسم. ووسط: الضحك. والمنتهى: القهقهة. والقهقهة ما تليق بالإنسان العاقل الرزين، والتبسم هو أكثر ضحك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والضحك يكون من الأنبياء أحيانًا، فهنا تبسم ضاحكًا. المؤلف رحمه الله يرى أن سليمان ﷺ كان له مرحلتان، ابتدأ بالتبسم وانتهى بالضحك، ويحتمل أن يكون «تبسم ضاحكًا» أي: ضحك متبسمًا. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص:١٢٤)].

قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجبا، لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك. [البغوي (٦/ ١٥٢)].

(٢) هذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب. وقد أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم. فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روي: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ». أخرجه أبو داود (٣٦٦٢)، وأحمد (١٠١٣٤)، فليس ذلك مما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم. [صديق حسن (١٠/ ٣٠)].

(٣) انظر التعليق السابق.

اَلْأَخْضَرِ وَالزُّمُرُّدِ، عَلَيْهِ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بَابٌ مُغْلَقٌ[١]. ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ طَرِيقِ اَلْحَقِّ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ أَيْ: أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ فَزِيدَتْ «لَا» وَأُدْغِمَ فِيهَا نُونُ «أَنْ» كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ مَفْعُولِ ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بِإِسْقَاطِ «إِلَى» ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى اَلْمَخْبُوءِ مِنَ اَلْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ﴾ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٢٥﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾ اِسْتِئْنَافُ جُمْلَةُ ثَنَاءٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى عَرْشِ اَلرَّحْمَنِ فِي مُقَابَلَةِ عَرْشِ بِلْقِيسَ، وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ عَظِيمٌ[٢]. ﴿۞ قَالَ﴾ سُلَيْمَانُ لِلْهُدْهُدِ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فِيمَا أَخْبَرْتَنَا بِهِ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ أَيْ: مِنْ هَذَا اَلنَّوْعِ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ: «أَمْ كَذَبْتَ فِيهِ»، ثُمَّ دَلَّهُمْ عَلَى اَلْمَاءِ فَاسْتُخْرِجَ وَارْتَوُوا وَتَوَضَّؤُوا وَصَلَّوْا، ثُمَّ كَتَبَ سُلَيْمَانُ كِتَابًا صُورَتُهُ: «مِنْ عَبْدِ اَللهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إِلَى بِلْقِيسَ مَلِكَةِ سَبَأٍ بِسْمِ اللهِ اَلرَّحْمَنِ اَلرَّحِيمِ اَلسَّلَامُ عَلَى مَنِ اِتَّبَعَ اَلْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَلَا تَعْلُوا عَلَيَّ، وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ»، ثُمَّ طَبَعَهُ بِالْمِسْكِ وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ. ثُمَّ قَالَ لِلْهُدْهُدِ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ: بِلْقِيسَ وَقَوْمِهَا ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ اِنْصَرِفْ ﴿عَنْهُمْ﴾ وَقِفْ قَرِيبًا مِنْهُمْ ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ يَرُدُّونَ مِنَ اَلْجَوَابِ، فَأَخَذَهُ وَأَتَاهَا وَحَوْلَهَا جُنْدُهَا، وَأَلْقَاهُ فِي حِجْرِهَا، فَلَمَّا رَأَتْهُ أُرْعِدَتْ وَخَضَعَتْ خَوْفًا، ثُمَّ وَقَفَتْ عَلَى مَا فِيهِ. ثُمَّ ﴿قَالَتْ﴾ لِأَشْرَافِ قَوْمِهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾ بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَتَيْنِ وَقَلْبِ اَلثَّانِيَةِ وَاوًا ﴿أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ۝٢٩﴾ مَخْتُومٌ. ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ﴾ أَيْ: مَضْمُونَهُ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى﴾ بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَتَيْنِ وَقَلْبِ اَلثَّانِيَةِ وَاوًا، أَيْ: أَشِيرُوا عَلَيَّ ﴿فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ قَاضِيَتَهُ ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ۝٣٢﴾ تَحْضُرُونَ. ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أَيْ: أَصْحَابُ شِدَّةٍ فِي اَلْحَرْبِ ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ۝٣٣﴾ نَا نُطِعْكِ. ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ بِالتَّخْرِيبِ ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾ أَيْ: مُرْسِلُو اَلْكِتَابِ[٣]. ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ مِنْ قَبُولِ اَلْهَدِيَّةِ أَوْ رَدِّهَا؛ إِنْ كَانَ مَلِكًا قَبِلَهَا

---

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) ظاهر أنه من قول الهدهد، ... ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في شرع؟ ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى، فهو اعتراض بين الكلامين، وهو الثابت مع التأمل. [القرطبي (١٣ / ١٨٧)].

(٣) أرادت أن هذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير، لأنها كانت في بيت الملك القديم؛ فسمعت نحو ذلك ورأت. قال ابن الأنباري: الوقف

أَوْ نَبِيًّا لَمْ يَقْبَلْهَا، فَأَرْسَلَتْ خَدَمًا ذُكُورًا وَإِنَاثًا أَلْفًا بِالسَّوِيَّةِ، وَخَمْسَمِائَةِ لَبِنَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَتَاجًا مُكَلَّلًا بِالْجَوَاهِرِ، وَمِسْكًا وَعَنْبَرًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ، مَعَ رَسُولٍ بِكِتَابٍ، فَأَسْرَعَ الْهُدْهُدُ إِلَى سُلَيْمَانَ يُخْبِرُهُ الْخَبَرَ، فَأَمَرَ أَنْ تُضْرَبَ لَبِنَاتُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَنْ تُبْسَطَ مِنْ مَوْضِعِهِ إِلَى تِسْعَةِ فَرَاسِخَ مَيْدَانًا، وَأَنْ يَبْنُوا حَوْلَهُ حَائِطًا مُشْرِفًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْ يُؤْتَى بِأَحْسَنِ دَوَابِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَعَ أَوْلَادِ الْجِنِّ عَنْ يَمِينِ الْمَيْدَانِ وَشِمَالِهِ. ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ الرَّسُولُ بِالْهَدِيَّةِ وَمَعَهُ أَتْبَاعُهُ ﴿سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ۝٣٦﴾ لِفَخْرِكُمْ بِزَخَارِفِ الدُّنْيَا. ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بِمَا أَتَيْتَ مِنَ الْهَدِيَّةِ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ﴾ لَا طَاقَةَ ﴿لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ مِنْ بَلَدِهِمْ سَبَأٍ سُمِّيَتْ بِاسْمِ أَبِي قَبِيلَتِهِمْ ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٣٧﴾ إِنْ لَمْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهَا الرَّسُولُ بِالْهَدِيَّةِ جَعَلَتْ سَرِيرَهَا دَاخِلَ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ دَاخِلَ قَصْرِهَا، وَقَصْرُهَا دَاخِلَ سَبْعَةِ قُصُورٍ، وَأَغْلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَجَعَلَتْ عَلَيْهَا حَرَسًا، وَتَجَهَّزَتْ لِلْمَسِيرِ إِلَى سُلَيْمَانَ لِتَنْظُرَ مَا يَأْمُرُهَا بِهِ، فَارْتَحَلَتْ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ(١) مَعَ كُلِّ قَيْلٍ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ إِلَى أَنْ قَرُبَتْ مِنْهُ عَلَى فَرْسَخٍ شَعَرَ بِهَا. ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ﴾ فِي الْهَمْزَتَيْنِ مَا تَقَدَّمَ ﴿يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨﴾ مُنْقَادِينَ طَائِعِينَ؟ فَلِي أَخْذُهُ قَبْلَ ذَلِكَ لَا بَعْدَهُ. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هُوَ الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ الَّذِي تَجْلِسُ فِيهِ لِلْقَضَاءِ، وَهُوَ مِنَ الْغَدَاةِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ﴾ أَيْ: عَلَى حَمْلِهِ ﴿أَمِينٌ ۝٣٩﴾ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِهَا، قَالَ سُلَيْمَانُ: أُرِيدُ أَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ. ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْمُنَزَّلِ وَهُوَ «آصِفُ بْنُ بَرْخِيَا» كَانَ صِدِّيقًا يَعْلَمُ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أُجِيبَ ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَۚ﴾ إِذَا نَظَرْتَ بِهِ إِلَى شَيْءٍ، قَالَ لَهُ: انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ رَدَّ بِطَرْفِهِ فَوَجَدَهُ مَوْضُوعًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَفِي نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ دَعَا آصِفُ بِالِاسْمِ الْأَعْظَمِ أَنْ يَأْتِيَ اللهُ بِهِ فَحَصَلَ بِأَنْ جَرَى تَحْتَ الْأَرْضِ حَتَّى نَبَعَ تَحْتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ(٢) ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾ سَاكِنًا ﴿عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا﴾ أَيِ: الْإِتْيَانُ لِي بِهِ ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ لِيَخْتَبِرَنِي

على قوله: ﴿أَذِلَّةًۖ﴾ وقف تام، فقال الله عز وجل تحقيقـًا وتصديقـًا لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. وقيل: هذه الجملة من تمام كلامها، فيكون من جملة مقول قولها أكدت به ما قبله، وعلى الأول مستأنفة لا محل لها من الإعراب. [صديق حسن (١٠/ ٤١)].

(١) القَيل: الملك من ملوك حمير. [تاج العروس (٣٠/ ٣٠٨)].

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر ٥٠]. فالله تبارك وتعالى إذا أجاب الداعي لا يحتاج إلى مدة ولا إلى مهلة، ولكن مع ذلك يقدر الله تبارك وتعالى الأمور بأسبابها ... وقوله: «انظر إلى السماء»، «ففي نظره إلى السماء دعا آصف بالاسم الأعظم»،

﴿ءَأَشْكُرُ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ الْأُخْرَى وَتَرْكِهِ ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ النِّعْمَةَ ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أَيْ: لِأَجْلِهَا لِأَنَّ ثَوَابَ شُكْرِهِ لَهُ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النِّعْمَةَ ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عَنْ شُكْرِهِ ﴿كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ بِالْإِفْضَالِ عَلَى مَنْ يَكْفُرُهَا. ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أَيْ: غَيِّرُوهُ إِلَى حَالٍ تُنْكِرُهُ إِذَا رَأَتْهُ ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ﴾ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١﴾ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يُغَيَّرُ عَلَيْهِمْ، قَصَدَ بِذَلِكَ اخْتِبَارَ عَقْلِهَا، لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ فِيهِ شَيْئًا(١)، فَغَيَّرُوهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نَقْصٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ﴾ لَهَا: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ أَيْ: أَمِثْلُ هَذَا عَرْشُكِ؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ أَيْ: فَعَرَفَتْهُ، وَشَبَّهَتْ عَلَيْهِمْ كَمَا شَبَّهُوا عَلَيْهَا، إِذْ لَمْ يَقُلْ: أَهَذَا عَرْشُكِ؟ وَلَوْ قِيلَ: هَذَا، قَالَتْ: نَعَمْ(٢)، قَالَ سُلَيْمَانُ لَمَّا رَأَى لَهَا مَعْرِفَةً وَعِلْمًا: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢ وَصَدَّهَا﴾ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٤٣ قِيلَ لَهَا﴾ أَيْضًا: ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ هُوَ سَطْحٌ مِنْ زُجَاجٍ أَبْيَضَ شَفَّافٍ، تَحْتَهُ مَاءٌ عَذْبٌ جَارٍ فِيهِ سَمَكٌ، اِصْطَنَعَهُ سُلَيْمَانُ لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ سَاقَيْهَا وَرِجْلَيْهَا كَقَدَمَيِ الْحِمَارِ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ مِنَ الْمَاءِ ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لِتَخُوضَهُ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ عَلَى سَرِيرِهِ فِي صَدْرِ الصَّرْحِ، فَرَأَى سَاقَيْهَا وَقَدَمَيْهَا حِسَانًا ﴿قَالَ﴾ لَهَا: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مُمَلَّسٌ ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أَيْ: زُجَاجٍ، وَدَعَاهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بِعِبَادَةِ غَيْرِكَ ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ كَائِنَةً ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٤﴾ وَأَرَادَ تَزَوُّجَهَا فَكَرِهَ شَعْرَ سَاقَيْهَا، فَعَمِلَتْ لَهُ الشَّيَاطِينُ النُّورَةَ فَأَزَالَتْهُ بِهَا(٣)، فَتَزَوَّجَهَا وَأَحَبَّهَا وَأَقَرَّهَا عَلَى مُلْكِهَا، وَكَانَ يَزُورُهَا فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً وَيُقِيمُ عِنْدَهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَانْقَضَى مُلْكُهَا بِانْقِضَاءِ

«نبع من تحت الكرسي»، كل هذا لا ينبغي الجزم به، بل يقال: إن الله على كل شيء قدير. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص:٢١٥)].

(١) ﴿نَنظُرْ﴾ فقرئ بالجزم على الجواب، وبالرفع على الاستئناف، واختلفوا في ﴿أَتَهْتَدِيٓ﴾ على وجهين: أحدهما: أتعرف أنه عرشها أم لا؟ الثاني: أتعرف به نبوة سليمان أم لا؟ ولذلك قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وذلك كالذم ولا يليق إلا بطريقة الدلالة، فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار متنقلا من المكان البعيد إلى هناك، وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام، ويعرف بذلك أيضا فضل عقلها لأغراض كانت له، فعند ذلك سألها. [الرازي (٢٤/٥٥٨)].

(٢) قال عكرمة: كانت حكيمة: قال: إن قلت: هو خشيت أن أكذب، وإن قلت: لا خشيت أن أكذب، فقالت: كأنه هو. [الواحدي (١٧/٢٤٧)].

(٣) [ورد في أثر] منكر غريب جدا، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم. والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاه عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، ... مما حرف وبدل ونسخ. وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، ولله الحمد والمنة. [ابن كثير (٦/١٩٧)].

مُلْكِ سُلَيْمَانَ، رُوِيَ أَنَّهُ مَلَكَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا انْقِضَاءَ لِدَوَامِ مُلْكِهِ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ مِنَ الْقَبِيلَةِ ﴿صَٰلِحًا أَنِ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وَحِّدُوهُ ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ فِي الدِّينِ فَرِيقٌ مُؤْمِنُونَ مِنْ حِينِ إِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ وَفَرِيقٌ كَافِرُونَ. ﴿قَالَ﴾ لِلْمُكَذِّبِينَ: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أَيْ: بِالْعَذَابِ قَبْلَ الرَّحْمَةِ، حَيْثُ قُلْتُمْ: إِنْ كَانَ مَا أَتَيْتَنَا بِهِ حَقًّا فَأْتِنَا بِالْعَذَابِ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ فَلَا تُعَذَّبُونَ. ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا﴾ أَصْلُهُ «تَطَيَّرْنَا» أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الطَّاءِ وَاجْتُلِبَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ، أَيْ: تَشَاءَمْنَا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أَيْ: الْمُؤْمِنِينَ، حَيْثُ قَحَطُوا الْمَطَرَ وَجَاعُوا ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ شُؤْمُكُمْ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أَتَاكُمْ بِهِ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ تُخْتَبَرُونَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ. ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مَدِينَةِ ثَمُودَ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أَيْ: رِجَالٍ ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْمَعَاصِي، مِنْهَا قَرْضُهُمُ الدَّنَانِيرَ وَالدَّرَاهِمَ[1] ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ بِالطَّاعَةِ. ﴿قَالُواْ﴾ أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ أَيْ: احْلِفُوا ﴿بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ بِالنُّونِ، وَالتَّاءِ وَضَمِّ التَّاءِ الثَّانِيَةِ ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أَيْ: مَنْ آمَنَ بِهِ، أَيْ: نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بِالنُّونِ، وَالتَّاءِ وَضَمِّ اللَّامِ الثَّانِيَةِ ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ أَيْ: وَلِيِّ دَمِهِ ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ حَضَرْنَا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، أَيْ: إِهْلَاكَهُمْ، أَوْ هَلَاكَهُمْ، فَلَا نَدْرِي مَنْ قَتَلَهُمْ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ أَيْ: جَازَيْنَاهُمْ بِتَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِمْ[2] ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ بِصَيْحَةِ جِبْرِيلَ، أَوْ بِرَمْيِ الْمَلَائِكَةِ بِحِجَارَةٍ يَرَوْنَهَا وَلَا يَرَوْنَهُمْ. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

---

(١) قيل: إنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم ولفظ الفساد أعم من ذلك. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٠٤)]. وهم الذين اتفقوا على عقر الناقة، وهم غواة قوم صالح، ورأسهم قدار بن سالف، وهو الذي تولى عقرها، كانوا يعملون بالمعاصي. [البغوي (٦/ ١٧٠)].

(٢) الصحيح في هذه المسألة الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى يوصف بالمكر لا على الإطلاق، فلا يقال: إن الله ماكر؛ لأنه على الإطلاق يتضمن صفة الذم، وإنما يقال: ماكرٌ بمن يمكر به أو بمن يستحق المكر، وحينئذٍ يكون صفة مدح. والصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام: أحدها: صفاتٌ حسنى بكل حال، فهذه ثابتةٌ لله على وجه الإطلاق، كالسمع، والبصر، والعلم، والحياة، والقدرة، وما أشبه ذلك. والثاني: صفات نقصٍ على كل حال أو صفات سوءٍ على كل حال، فهذه يُنزه الله عنها على كل حال، مثل: الظلم، واللغوب، والجهل، والعمى، والموت، والمرض، والجوع، والعطش، والولادة، والوزير والشريك وما إلى ذلك، هذه ينزه الله عنها في كل حال. والثالث: صفاتٌ ذات وجهين؛ تكون مدحًا في حال، وتكون ذمًا في حال، فهذه لا يوصف الله بها بإطلاق، ولا تنفى عنه على الإطلاق، مثل: المكر، والخداع، والاستهزاء، والسخرية، وأمثالها، هذه لا يوصف الله بها على كل حال، ولا تنفى عنه في كل حال، بل يوصف بها حيث تكون كمالًا، وتنفى عنه حيث تكون نقصًا. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص:٢٩٤)].

خَاوِيَةً﴾ أَيْ: خَالِيَةً، وَنَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى الْإِشَارَةِ **﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾** بِظُلْمِهِمْ، أَيْ: كُفْرِهِمْ **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾** لَعِبْرَةً **﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾** قُدْرَتَنَا فَيَتَّعِظُونَ. **﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾** بِصَالِحٍ، وَهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ **﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾** الشِّرْكَ. **﴿وَلُوطًا﴾** مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» مُقَدَّرًا قَبْلَهُ، وَيُبْدَلُ مِنْهُ: **﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾** أَيِ: اللِّوَاطَ **﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾** أَيْ: يُبْصِرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا انْهِمَاكًا فِي الْمَعْصِيَةِ. **﴿أَئِنَّكُمْ﴾** بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ **﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾** عَاقِبَةَ فِعْلِكُمْ. **﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾** أَهْلَهُ **﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾** مِنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ. **﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا﴾** جَعَلْنَاهَا بِتَقْدِيرِنَا **﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾** الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ. **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾** هُوَ حِجَارَةُ السِّجِّيلِ أَهْلَكَتْهُمْ **﴿فَسَآءَ﴾** بِئْسَ **﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾** بِالْعَذَابِ مَطَرُهُمْ. **﴿قُلِ﴾** يَا مُحَمَّدُ **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** عَلَى هَلَاكِ الْكُفَّارِ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ **﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾** هُمْ **﴿ءَآللَّهُ﴾** بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ[1] **﴿خَيْرٌ﴾** لِمَنْ يَعْبُدُهُ **﴿أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾** بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ بِهِ، أَيْ: الْآلِهَةُ خَيْرٌ لِعَابِدِيهَا[2]؟ **﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾** فِيهِ الْتِفَاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ **﴿بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾** جَمْعُ «حَدِيقَةٍ»، وَهُوَ: الْبُسْتَانُ الْمَحُوطُ **﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾** حُسْنٍ **﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾** لِعَدَمِ قُدْرَتِكُمْ عَلَيْهِ **﴿أَءِلَٰهٌ﴾** بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِي مَوَاضِعِهِ السَّبْعَةِ **﴿مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾** أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ؟ أَيْ: لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ **﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾** يُشْرِكُونَ بِاللهِ غَيْرَهُ. **﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾** أَيْ: لَا تَمِيدُ بِأَهْلِهَا **﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾** فِيمَا بَيْنَهَا **﴿أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾** جِبَالًا أَثْبَتَ بِهَا الْأَرْضَ **﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾** بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمِلْحِ، لَا يَخْتَلِطُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ **﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾** تَوْحِيدَهُ. **﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾** الْمَكْرُوبَ الَّذِي مَسَّهُ الضُّرُّ **﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾** عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ **﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾** الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «فِي»، أَيْ: يَخْلُفُ كُلُّ قَرْنٍ الْقَرْنَ الَّذِي قَبْلَهُ **﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا**

---

(١) وهم من المحلي إذ لا يصح من هذه القراءات إلا اثنتان الثانية والثالثة أما الأولى والرابعة فلا تصح.

(٢) على وجه الرد على المشركين، فدخلت خير التي يراد بها التفضيل لتبكيتهم وتعنيفهم، مع أنه معلوم أنه لا خير فيما أشركوا أصلاً، ثم أقام عليهم الحجة بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وبغير ذلك مما ذكره إلى تمام هذه الآيات. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٠٥)].

﴿مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ تَتَعِظُونَ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ، وَفِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الذَّالِ وَ ﴿مَّا﴾ زَائِدَةٌ لِتَقْلِيلِ الْقَلِيلِ. ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ يُرْشِدُكُمْ إِلَى مَقَاصِدِكُمْ ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بِالنُّجُومِ لَيْلًا، وَبِعَلَامَاتِ الْأَرْضِ نَهَارًا ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قُدَّامَ الْمَطَرِ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣﴾ بِهِ غَيْرَهُ. ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ فِي الْأَرْحَامِ مِنْ نُطْفَةٍ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَإِنْ لَمْ تَعْتَرِفُوا بِالْإِعَادَةِ لِقِيَامِ الْبَرَاهِينِ عَلَيْهَا ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أَيْ: لَا يَفْعَلُ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ إِلَّا اللهُ، وَلَا إِلَهَ مَعَهُ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ حُجَّتَكُمْ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦٤﴾ أَنَّ مَعِي إِلَهًا فَعَلَ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ. وَسَأَلُوهُ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَنَزَلَ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ أَيْ: مَا غَابَ عَنْهُمْ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ ﴿ٱللَّهُ ۚ﴾ يَعْلَمُهُ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: الْكُفَّارُ كَغَيْرِهِمْ ﴿أَيَّانَ﴾ وَقْتَ ﴿يُبْعَثُونَ ۝٦٥ بَلِ﴾ بِمَعْنَى: «هَلْ» ﴿أَدْرَكَ﴾ بِوَزْنِ «أَكْرَمَ»، وَفِي قِرَاءَةٍ أُخْرَى: ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، وَأَصْلُهُ «تَدَارَكَ» أُبْدِلَتِ التَّاءُ دَالًا وَأُدْغِمَتْ فِي الدَّالِ وَاجْتُلِبَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ، أَيْ: بَلَغَ وَلَحِقَ، أَوْ تَتَابَعَ وَتَلَاحَقَ ﴿عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ أَيْ: بِهَا، حَتَّى سَأَلُوا عَنْ وَقْتِ مَجِيئِهَا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾ مِنْ عَمَى الْقَلْبِ وَهُوَ أَبْلَغُ مِمَّا قَبْلَهُ، وَالْأَصْلُ «عَمِيُونَ» اسْتُثْقِلَتِ الضَّمَّةُ عَلَى الْيَاءِ فَنُقِلَتْ إِلَى الْمِيمِ بَعْدَ حَذْفِ كَسْرَتِهَا. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أَيْضًا فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧﴾ مِنَ الْقُبُورِ. ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾ جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ، أَيْ: مَا سُطِرَ مِنَ الْكَذِبِ. ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾ بِإِنْكَارِهِمْ وَهِيَ هَلَاكُهُمْ بِالْعَذَابِ. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَيْ: لَا تَهْتَمَّ بِمَكْرِهِمْ عَلَيْكَ، فَأَنَا نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٧١﴾ فِيهِ. ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ﴾ قَرُبَ ﴿لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾ فَحَصَلَ لَهُمُ الْقَتْلُ بِبَدْرٍ، وَبَاقِي الْعَذَابِ يَأْتِيهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وَمِنْهُ تَأْخِيرُ الْعَذَابِ عَنِ الْكُفَّارِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ فَالْكُفَّارُ لَا يَشْكُرُونَ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ لِإِنْكَارِهِمْ وُقُوعَهُ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تُخْفِيهِ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٤﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ: أَيْ: شَيْءٌ فِي غَايَةِ الْخَفَاءِ عَلَى النَّاسِ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾ بَيِّنٍ، هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَمَكْنُونُ عِلْمِهِ تَعَالَى، وَمِنْهُ تَعْذِيبُ الْكُفَّارِ. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الْمَوْجُودِينَ فِي زَمَانِ نَبِيِّنَا ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ أَيْ: بِبَيَانِ مَا ذُكِرَ عَلَى وَجْهِهِ الرَّافِعِ لِلِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمْ

لَوْ أَخَذُوا بِهِ وَأَسْلَمُوا. ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ مِنَ الْعَذَابِ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ كَغَيْرِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أَيْ: عَدْلِهِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ ﴿الْعَلِيمُ ۝٧٨﴾ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَحَدًا مُخَالَفَتَهُ كَمَا خَالَفَ الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا أَنْبِيَاءَهُ. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثِقْ بِهِ ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٩﴾ أَيْ: الدِّينِ الْبَيِّنِ، فَالْعَاقِبَةُ لَكَ بِالنَّصْرِ عَلَى الْكُفَّارِ. ثُمَّ ضَرَبَ أَمْثَالًا لَهُمْ بِالْمَوْتَى(١) وَالصُّمِّ وَالْعُمْيِ فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْيَاءِ ﴿وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن﴾ مَا ﴿تُسْمِعُ﴾ سَمَاعَ إِفْهَامٍ وَقَبُولٍ ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١﴾ مُخْلِصُونَ بِتَوْحِيدِ اللهِ. ﴿*وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حَقَّ الْعَذَابُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ فِي جُمْلَةِ الْكُفَّارِ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ أَيْ: تُكَلِّمُ الْمَوْجُودِينَ حِينَ خُرُوجِهَا بِالْعَرَبِيَّةِ، تَقُولُ لَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ كَلَامِهَا عَنَّا: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ كُفَّارَ مَكَّةَ، وَعَلَى قِرَاءَةِ فَتْحِ هَمْزَةِ ﴿أَنَّ﴾ تُقَدَّرُ الْبَاءُ بَعْدَ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ ﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ أَيْ: لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْعِقَابِ(٢)، وَبِخُرُوجِهَا يَنْقَطِعُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ

---

(١) أي: لا تسمع الكفار الذين أمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدى وانتفاع ... ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا، أنه جل وعلا قال بعده: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ فمقابلته جل وعلا بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها لمن يؤمن بآياته، فهو مسلم ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية موت الكفر والشقاء، واعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى الكفار. [الشنقيطي (٦/ ٤٦٠)].

(٢) هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل: من مكة. وقيل: من غيرها. فتكلم الناس على ذلك. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة وروي عن علي: تكلمهم كلاما، أي: تخاطبهم مخاطبة. وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾. واختاره ابن جرير. وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم. وقال ابن عباس في رواية تجرحهم. وعنه رواية، قال: كُلا تفعل يعني هذا وهذا، وهو قول حسن، ولا منافاة، والله أعلم ... عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيَّتُهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا». أخرجه مسلم (٢٩٤١)، ورواه الإمام أحمد (٧٩٣٧) وقال: «فَتَخْطِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ، وَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْخُوَانِ الْوَاحِدِ لَيَجْتَمِعُونَ فَيَقُولُ هَذَا: يَا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ هَذَا: يَا كَافِرُ». [ابن كثير (٦/ ٢١٠)].

الْمُنْكَرِ، وَلَا يُؤْمِنُ كَافِرٌ(١)، كَمَا أَوْحَى اللهُ إِلَى نُوحٍ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ جَمَاعَةً ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمُ الْمُتَّبَعُونَ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣﴾ أَيْ: يُجْمَعُونَ بِرَدِّ آخِرِهِمْ إِلَى أَوَّلِهِمْ ثُمَّ يُسَاقُونَ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مَكَانَ الْحِسَابِ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أَنْبِيائِي ﴿بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟﴾ مِنْ جِهَةِ تَكْذِيبِكُمْ ﴿بِهَا عِلْمًا أَمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ «مَا» الِاسْتِفْهَامِيَّةِ ﴿ذَا﴾ مَوْصُولٌ، أَيْ: مَا الَّذِي ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾ مِمَّا أُمِرْتُمْ بِهِ. ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ حَقَّ الْعَذَابُ ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أَيْ: أَشْرَكُوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ۝٨٥﴾ إِذْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ. ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خَلَقْنَا ﴿ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ كَغَيْرِهِمْ ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ بِمَعْنَى: يُبْصَرُ فِيهِ لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾ خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِانْتِفَاعِهِمْ بِهَا فِي الْإِيمَانِ بِخِلَافِ الْكَافِرِينَ. ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ الْقَرْنِ النَّفْخَةَ الْأُولَى مِنْ إِسْرَافِيلَ ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَافُوا الْخَوْفَ الْمُفْضِيَ إِلَى الْمَوْتِ كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَصَعِقَ﴾(٢) وَالتَّعْبِيرُ فِيهِ بِالْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ أَيْ: جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمُ الشُّهَدَاءُ إِذْ هُمْ ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَكُلٌّ﴾ تَنْوِينُهُ عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيْ: وَكُلُّهُمْ بَعْدَ إِحْيَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَتَوْهُ﴾ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ وَاسْمِ الْفَاعِلِ ﴿دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ صَاغِرِينَ، وَالتَّعْبِيرُ فِي الْإِتْيَانِ بِالْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ. ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ تُبْصِرُهَا وَقْتَ النَّفْخَةِ ﴿تَحْسَبُهَا﴾ تَظُنُّهَا ﴿جَامِدَةً﴾ وَاقِفَةً مَكَانَهَا لِعِظَمِهَا ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ﴾ الْمَطَرِ إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ، أَيْ: تَسِيرُ سَيْرَهُ حَتَّى تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ، فَتَسْتَوِيَ بِهَا مَبْسُوسَةً(٣)، ثُمَّ تَصِيرُ كَالْعِهْنِ، ثُمَّ تَصِيرُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ قَبْلَهُ أُضِيفَ إِلَى فَاعِلِهِ بَعْدَ حَذْفِ عَامِلِهِ، أَيْ: صَنَعَ اللهُ ذَلِكَ صُنْعًا ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ﴾ أَحْكَمَ ﴿كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ صَنَعَهُ ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، أَيْ: أَعْدَاؤُهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَأَوْلِيَاؤُهُ مِنَ الطَّاعَةِ. ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أَيْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾ ثَوَابٌ

---

(١) نقول: إيماننا بهذا أن نقول: إنه إذا وقع القول على الناس باستحقاق العذاب أخرج الله لهم هذه الدابة التي تكلمهم، ولا نزيد على هذا، ولا نقول: ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا نقول: إنه لا يؤمن كافر؛ لأن ذلك أمر يحتاج إلى توقيف. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص:٤٦٤)].

(٢) قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

(٣) «البس» الفت، يقال: بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتًا، ويقال: بس السويق إذا لَتَّهُ بالسمن أو بالزيت. [الشوكاني (٥/ ١٧٧)]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥].

﴿مِّنْهَا﴾ أَيْ: بِسَبَبِهَا وَلَيْسَ لِلتَّفْضِيلِ، إِذْ لَا فِعْلَ خَيْرٌ مِنْهَا وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿وَهُم﴾ أَيْ: الْجَاءُونَ بِهَا ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بِالْإِضَافَةِ وَكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، وَ﴿فَزَعٍ﴾ مُنَوَّنًا وَفَتْحِ الْمِيمِ ﴿ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أَيِ: الشِّرْكِ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ بِأَنْ وَلِيَتْهَا، وَذُكِرَتِ الْوُجُوهُ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ الشَّرَفِ مِنَ الْحَوَاسِّ فَغَيْرُهَا مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَيُقَالُ لَهُمْ تَبْكِيتًا: ﴿هَلْ﴾ أَيْ: مَا ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي. قُلْ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ أَيْ: مَكَّةَ ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أَيْ: جَعَلَهَا حَرَمًا آمِنًا[١]، لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمُ إِنْسَانٍ وَلَا يُظْلَمُ فِيهَا أَحَدٌ وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا، وَذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ عَلَى قُرَيْشٍ أَهْلِهَا فِي رَفْعِ اللهِ عَنْ بَلَدِهِمُ الْعَذَابَ وَالْفِتَنَ الشَّائِعَةَ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْعَرَبِ ﴿وَلَهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿كُلُّ شَىْءٍ﴾ فَهُوَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَمَالِكُهُ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١﴾ لِلَّهِ بِتَوْحِيدِهِ. ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ عَلَيْكُمْ تِلَاوَةَ الدَّعْوَى إِلَى الْإِيمَانِ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ لَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أَيْ: لِأَجْلِهَا فَإِنَّ ثَوَابَ اهْتِدَائِهِ لَهُ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَأَخْطَأَ طَرِيقَ الْهُدَى ﴿فَقُلْ﴾ لَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝٩٢﴾ الْمُخَوِّفِينَ فَلَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا التَّبْلِيغُ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ[٢]. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فَأَرَاهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ الْقَتْلَ وَالسَّبْيَ وَضَرْبَ الْمَلَائِكَةِ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ، وَعَجَّلَهُمُ اللهُ إِلَى النَّارِ[٣] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَإِنَّمَا يُمْهِلُهُمْ لِوَقْتِهِمْ.

---

(١) أي: جعلها حرماً آمناً، لا يقاتل فيها أحد ولا ينتهك حرمتها، ونسب تحريمها هنا إلى الله؛ لأنه بسبب قضائه وأمره، ونسبه النبي ﷺ إلى إبراهيم عليه السلام في قوله: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ». أخرجه البخاري (٣٣٦٧)، ومسلم (١٣٦٥). لأن إبراهيم هو الذي أعلمَ الناس بتحريمها، فليس بين الحديث والآية تعارض وقد جاء في حديث آخر أن: «مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ». أخرجه البخاري (٤٣١٣)، ومسلم (١٣٥٣). [ابن جُزَيّ (٢/ ١٠٨)].

(٢) المؤلف رحمه الله يسلك هذا المسلك كثيرًا في مثل هذه الآية، ويقول: «قبل الأمر بالقتال». وهذا يتضمن أن تكون الآية منسوخة، لا يعمل بها، ولكن هذا قول في غاية الضعف، والصواب: أن هذا يقال حتى بعد الأمر بالقتال. فالنبي ﷺ عليه الإنذار والتبليغ، وليس عليه الهداية، والرسول ﷺ يقرأ في كل جمعة غالبًا أو كثيرًا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦] وكيف تكون مثل هذه الآيات التي تكرر على المسلمين في جمعاتهم تكون منسوخة؟ [ابن عثيمين تفسير النمل (ص:٥٣٥)].

(٣) أي: في أنفسكم وفي غيركم، كما قال [تعالى]: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السماوات وفي الأرض، نظيره قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. [القرطبي (١٣/ ٢٤٦)].

سُورَةُ القَصَصِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ﴾ ٱلْآيَةَ نَزَلَتْ بِالْجُحْفَةِ، وَإِلَّا ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إِلَى ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وَهِيَ سَبْعٌ أَوْ ثَمَانٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ١﴾ اَللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ(١). ﴿تِلْكَ﴾ أَيْ: هَذِهِ اَلْآيَاتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اَلْإِضَافَةُ بِمَعْنَى: «مِنْ» ﴿ٱلْمُبِينِ ٢﴾ اَلْمُظْهِرِ اَلْحَقَّ مِنَ اَلْبَاطِلِ. ﴿نَتْلُواْ﴾ نَقُصُّ ﴿عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ﴾ خَبَرِ ﴿مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ اَلصِّدْقِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣﴾ لِأَجْلِهِمْ لِأَنَّهُمُ اَلْمُنْتَفِعُونَ بِهِ. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ تَكَبَّرَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فِرَقًا فِي خِدْمَتِهِ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ اَلْمَوْلُودِينَ ﴿وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْۚ﴾ يَسْتَبْقِيهِنَّ أَحْيَاءً؛ لِقَوْلِ بَعْضِ اَلْكَهَنَةِ لَهُ: إِنَّ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ سَبَبَ ذَهَابِ مُلْكِكَ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٤﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ. ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ اَلثَّانِيَةِ يَاءً، يُقْتَدَى بِهِمْ فِي اَلْخَيْرِ ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥﴾ مُلْكَ فِرْعَوْنَ. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَيَرَى﴾ بِفَتْحِ اَلتَّحْتَانِيَّةِ وَالرَّاءِ، وَرَفْعِ اَلْأَسْمَاءِ اَلثَّلَاثَةِ ﴿مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ٦﴾ يَخَافُونَ، مِنَ اَلْمَوْلُودِ اَلَّذِي يَذْهَبُ مُلْكُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ. ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ وَحْيَ إِلْهَامٍ أَوْ مَنَامٍ ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وَهُوَ اَلْمَوْلُودُ اَلْمَذْكُورُ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِوِلَادَتِهِ غَيْرُ أُخْتِهِ ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ اَلْبَحْرِ، أَيِ: اَلنِّيلِ ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ غَرَقَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓۖ﴾ لِفِرَاقِهِ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧﴾ فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ لَا يَبْكِي، وَخَافَتْ عَلَيْهِ فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ مَطْلِيٍّ بِالْقَارِّ مِنْ دَاخِلٍ مُمَهَّدٍ لَهُ فِيهِ وَأَغْلَقَتْهُ وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ اَلنِّيلِ لَيْلًا ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ﴾ بِالتَّابُوتِ صَبِيحَةَ اَللَّيْلِ ﴿ءَالُ﴾ أَعْوَانُ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ فَوَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَفُتِحَ وَأُخْرِجَ مُوسَى مِنْهُ وَهُوَ يَمُصُّ مِنْ إِبْهَامِهِ لَبَنًا(٢) ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ فِي عَاقِبَةِ اَلْأَمْرِ(٣) ﴿عَدُوًّا﴾

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) وأما كونه يمص من إبهامه لبنًا، فهذا من الأمور الإسرائيلية التي لا تُصدَّق ولا تكذب. [ابن عثيمين تفسير القصص (ص:٣٢)].

(٣) اللام لام التعليل المعروفة بلام كي، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ صريح في أن الله تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته

يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ ﴿وَحَزَنًا﴾ يَسْتَعْبِدُ نِسَاءَهُمْ[1]، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ، لُغَتَانِ فِي الْمَصْدَرِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى: اِسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ «حَزَنَهُ» كَأَحْزَنَهُ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وَزِيرَهُ ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ مِنَ «الْخَطِيئَةِ»، أَيْ: عَاصِينَ فَعُوقِبُوا عَلَى يَدَيْهِ. ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وَقَدْ هَمَّ مَعَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِهِ: هُوَ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فَأَطَاعُوهَا[2] ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ مَعَهُ. ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ لَمَّا عَلِمَتْ بِالْتِقَاطِهِ ﴿فَٰرِغًا ۖ﴾ مِمَّا سِوَاهُ[3] ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّهَا ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أَيْ: بِأَنَّهُ اِبْنُهَا ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بِالصَّبْرِ، أَيْ: سَكَّنَّاهُ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ الْمُصَدِّقِينَ بِوَعْدِ اللهِ، وَجَوَابُ ﴿لَوْلَآ﴾ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهَا. ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مَرْيَمَ: ﴿قُصِّيهِ ۖ﴾ اِتَّبِعِي أَثَرَهُ حَتَّى تَعْلَمِي خَبَرَهُ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أَبْصَرَتْهُ ﴿عَن جُنُبٍ﴾ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ اِخْتِلَاسًا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ أَنَّهَا أُخْتُهُ وَأَنَّهَا تَرْقُبُهُ. ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ رَدِّهِ إِلَى أُمِّهِ، أَيْ: مَنَعْنَاهُ مِنْ قَبُولِ ثَدْيِ مُرْضِعَةٍ غَيْرِ أُمِّهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنَ الْمَرَاضِعِ الْمُحْضَرَةِ لَهُ ﴿فَقَالَتْ﴾ أُخْتُهُ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ لَمَّا رَأَتْ حُنُوَّهُمْ عَلَيْهِ ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ بِالْإِرْضَاعِ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ وَفُسِّرَتْ ضَمِيرُ ﴿لَهُۥ﴾ بِالْمَلِكِ جَوَابًا لَهُمْ، فَأُجِيبَتْ فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، وَأَجَابَتْهُمْ عَنْ قَبُولِهِ بِأَنَّهَا طَيِّبَةُ الرِّيحِ طَيِّبَةُ اللَّبَنِ، فَأُذِنَ لَهَا بِإِرْضَاعِهِ فِي بَيْتِهَا فَرَجَعَتْ بِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بِلِقَائِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾

بمشيئته جل وعلا، إلى ما سبق به علمه، وقد صرف مشيئة فرعون وقومه بمشيئته جل وعلا إلى التقاطهم موسى؛ ليجعله لهم عدوا وحزنا، فكأنه يقول: قدرنا عليهم التقاطه بمشيئتنا ليكون لهم عدوا وحزنا، وهذا معنى واضح، لا لبس فيه ولا إشكال، كما ترى ... وبهذا التحقيق تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين، وينشدون له الشواهد من أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة والصيرورة خلاف الصواب، وأن ما يقوله البيانيون من أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ فيها استعارة تبعية في متعلق معنى الحرف، خلاف الصواب أيضا. [الشنقيطي (٦/ ٥٠٠)].

(١) [أي:] يكون لهم عدوا في دينهم، وحزنًا على ما ينالهم منه من المكروه. [الطبري (١٨/ ١٦٢)].

(٢) كان قولها لهذا القول عند رؤيتها له، لما وصل إليها وأخرجته من التابوت، وخاطبت بقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فرعون ومن عنده من قومه ... قيل: إنها قالت: هذا الولد أكبر من سنه، وأنت تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي. [صديق حسن (١٠/ ٩٢)].

(٣) أي: خاليا من العقل. لما دهمها من فرط الجزع، وأطار عقلها من الدهش، لما بلغها وقوعه في يد فرعون ... قال الزمخشري: ويجوز، وأصبح فؤادها فارغا من الهم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه. إن كادت لتبدي بأنه ولدها، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت. لولا أنا طامنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله، لا بتبني فرعون وتعطفه. [القاسمي (٧/ ٥١٥)].

بِرَدِّهِ إِلَيْهَا ﴿حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَيِ: النَّاسِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ بِهَذَا الْوَعْدِ، وَلَا بِأَنَّ هَذِهِ أُخْتُهُ وَهَذِهِ أُمُّهُ[(١)]، فَمَكَثَ عِنْدَهَا إِلَى أَنْ فَطَمَتْهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهَا أُجْرَتُهَا لِكُلِّ يَوْمٍ دِينَارٌ، وَأَخَذَتْهَا لِأَنَّهَا مَالُ حَرْبِيٍّ، فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ فَتَرَبَّى عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَةً، أَوْ وَثَلَاثٌ ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمَةً ﴿وَعِلْمًا﴾ فِقْهًا فِي الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ لِأَنْفُسِهِمْ. ﴿وَدَخَلَ﴾ مُوسَى ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ وَهِيَ: «مَنْفُ» بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهَا مُدَّةً ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وَقْتَ الْقَيْلُولَةِ ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أَيْ: إِسْرَائِيلِيٌّ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أَيْ: قِبْطِيٌّ يُسَخِّرُ إِسْرَائِيلِيًّا لِيَحْمِلَ حَطَبًا إِلَى مَطْبَخِ فِرْعَوْنَ ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: خَلِّ سَبِيلَهُ، فَقِيلَ إِنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَيْكَ ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أَيْ: ضَرَبَهُ بِجُمْعِ كَفِّهِ وَكَانَ شَدِيدَ الْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: قَتَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ قَصَدَ قَتْلَهُ[(٢)]، وَدَفَنَهُ فِي الرَّمْلِ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أَيْ: قَتْلُهُ ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الْمُهَيِّجِ غَضَبِي ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ لِابْنِ آدَمَ ﴿مُّضِلٌّ﴾ لَهُ ﴿مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ بَيِّنُ الْإِضْلَالِ. ﴿قَالَ﴾ نَادِمًا: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بِقَتْلِهِ ﴿فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ أَيِ: الْمُتَّصِفُ بِهِمَا أَزَلًا وَأَبَدًا. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ بِحَقِّ إِنْعَامِكَ ﴿عَلَىَّ﴾ بِالْمَغْفِرَةِ اعْصِمْنِي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ عَوْنًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ الْكَافِرِينَ بَعْدَ هَذِهِ إِنْ عَصَمْتَنِي[(٣)]. ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يَنْتَظِرُ مَا يَنَالُهُ مِنْ جِهَةِ الْقَتِيلِ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ

---

(١) استمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليها. وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أُمًّا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله، صدقا وحقا. [السعدي (ص:٦١٢)].

(٢) أي: قتله، ولم يرد أن يقتله ولكن وافقت وكزته الأجل، فندم وقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: إن الغضب الذي أوجب ذلك كان من الشيطان، ثم اعترف واستغفر فغفر الله له، فإن قيل: كيف استغفر من القتل وكان المقتول كافراً؟ فالجواب أنه لم يؤذن له في قتله، ولذلك يقول يوم القيامة: «إِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا». أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤). [ابن جُزَيّ (٢/ ١١٠)].

(٣) قال عليه السلام معاهدا لربه عز وجل: «رب بنعمتك علي وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألا أكون معينا للمجرمين»، هذا أحسن ما تؤول، وقال الطبري: إنه قسم، أقسم بنعمة الله تبارك وتعالى. ويضعفه صورة جواب القسم؛ فإنه غير متمكن في قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾؛

بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يَسْتَغِيثُ بِهِ عَلَى قِبْطِيٍّ آخَرَ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ بَيِّنُ الْغَوَايَةِ لِمَا فَعَلْتَهُ بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ. ﴿فَلَمَّآ أَنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لِمُوسَى وَالْمُسْتَغِيثِ بِهِ ﴿قَالَ﴾ الْمُسْتَغِيثُ ظَانًّا أَنَّهُ يَبْطِشُ بِهِ لِمَا قَالَ لَهُ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن﴾ مَا ﴿تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ فَسَمِعَ الْقِبْطِيُّ ذَلِكَ فَعَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ مُوسَى، فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ بِقَتْلِ مُوسَى، فَأَخَذُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ. ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ هُوَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ آخِرِهَا ﴿يَسْعَىٰ﴾ يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِهِمْ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ﴾ لُحُوقَ طَالِبٍ أَوْ غَوْثَ اللهِ إِيَّاهُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ قَوْمِ فِرْعَوْنَ. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ قَصَدَ بِوَجْهِهِ ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ جِهَتَهَا وَهِيَ قَرْيَةُ شُعَيْبٍ مَسِيرَةَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ مِصْرَ، سُمِّيَتْ بِمَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ طَرِيقَهَا ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ أَيْ: قَصْدَ الطَّرِيقِ، أَيِ: الطَّرِيقَ الْوَسَطَ إِلَيْهَا، فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِيَدِهِ عَنَزَةٌ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَيْهَا[1]. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ بِئْرٌ فِيهَا، أَيْ: وَصَلَ إِلَيْهَا ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جَمَاعَةً ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مَوَاشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ سِوَاهُمْ ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ﴾ تَمْنَعَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنِ الْمَاءِ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى لَهُمَا: ﴿مَا خَطْبُكُمَا ۖ﴾ أَيْ: مَا شَأْنُكُمَا لَا تَسْقِيَانِ؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ﴾ جَمْعُ «رَاعٍ»، أَيْ: يَرْجِعُوا مِنْ سَقْيِهِمْ، خَوْفَ الزِّحَامِ فَنَسْقِي، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُصْدِرَ﴾ مِنَ الرُّبَاعِيِّ، أَيْ: يَصْرِفُوا مَوَاشِيَهُمْ عَنِ الْمَاءِ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْقِيَ. ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مِنْ بِئْرٍ أُخْرَى بِقُرْبِهِمَا، رَفَعَ حَجَرًا عَنْهَا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشَرَةُ أَنْفُسٍ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ انْصَرَفَ ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ لِسَمُرَةٍ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ وَهُوَ جَائِعٌ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ طَعَامٍ ﴿فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ مُحْتَاجٌ، فَرَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَا فِي زَمَنٍ أَقَلَّ مِمَّا كَانَتَا تَرْجِعَانِ فِيهِ، فَسَأَلَهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَنْ سَقَى لَهُمَا، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا: ادْعِيهِ لِي. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أَيْ: وَاضِعَةً كُمَّ دِرْعِهَا عَلَى وَجْهِهَا حَيَاءً مِنْهُ ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى

لأن القسم لا يتلقى بـ«لن»، والفاء تمنع أن تنزل «لن» منزلة «لا» أو «ما» فتأمله، ... واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيء من أمرهم، ورأوا أنها تتناول ذلك، نص عليه عطاء بن أبي رباح. [ابن عطية (٤/ ٢٨١)].

(١) وقيل: أراد سبيل الهدى وهذا أظهر، ويدل كلامه هذا على أنه كان عارفاً بالله قبل نبوته. [ابن جُزَيّ (٢/ ١١١)].

يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ فَأَجَابَهَا مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ؛ كَأَنَّهَا قَصَدَتِ الْمُكَافَأَةَ إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُرِيدُهَا، فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا فَتَكْشِفُ سَاقَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ فَفَعَلَتْ[1]، إِلَى أَنْ جَاءَ أَبَاهَا وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِنْدَهُ عَشَاءٌ، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَتَعَشَّ، قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عِوَضًا مِمَّا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَطْلُبُ عَلَى عَمَلِ خَيْرٍ عِوَضًا، قَالَ: لَا، عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نُقْرِي الضَّيْفَ وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، فَأَكَلَ وَأَخْبَرَهُ بِحَالِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَقْصُوصِ، مِنْ قَتْلِهِ الْقِبْطِيَّ وَقَصْدِهِمْ قَتْلَهُ وَخَوْفِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَوْنَ عَلَى مَدْيَنَ. ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وَهِيَ الْمُرْسَلَةُ الْكُبْرَى أَوِ الصُّغْرَى ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ﴾ اتَّخِذْهُ أَجِيرًا يَرْعَى غَنَمَنَا، بَدَلَنَا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ أَيِ: اسْتَأْجِرْهُ لِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ[2]، فَسَأَلَهَا عَنْهُمَا فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ، مِنْ رَفْعِهِ حَجَرَ الْبِئْرِ، وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: «امْشِي خَلْفِي»، وَزِيَادَةِ أَنَّهَا لَمَّا جَاءَتْهُ وَعَلِمَ بِهَا صَوَّبَ رَأْسَهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ فَرَغِبَ فِي إِنْكَاحِهِ. فَـ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ وَهِيَ الْكُبْرَى أَوِ الصُّغْرَى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ تَكُونَ أَجِيرًا لِي فِي رَعْيِ غَنَمِي ﴿ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ﴾ أَيْ: سِنِينَ ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾ أَيْ: رَعْيَ عَشْرِ سِنِينَ ﴿فَمِنْ عِندِكَۖ﴾ التَّمَامُ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ﴾ بِاشْتِرَاطِ الْعَشْرِ ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ[3] ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ الْوَافِينَ بِالْعَهْدِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي قُلْتَهُ ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الثَّمَانِ أَوِ الْعَشْرِ

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٢٢١)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٦٥).

(٢) وهذان الوصفان هما رُكنان في كلِّ عمل، فكلُّ عملٍ لا بدَّ فيه من هذين الأمرين، ما يكون إلا بهما، وهما: القوة والأمانة، فبالقوة يكون الفعل، وبالأمانة يكون تمام الفعل، وأمَّا مَن ليس قويًّا لا يفعل، ومن ليس أمينًا لا يُتمِّم الفعل وقد لا يفعله أصلًا، ولذلك إذا كان الإنسان قويًّا أمينًا حصل به تمام الفعل. وهذان الوصفان أساسيَّان في كل ولاية؛ في الخلافة، والإمارة، والإدارة، والوكالة، والوصيَّة، وغير ذلك، كل ولاية لازم فيها من الأمرين: القوة والأمانة. [ابن عثيمين تفسير القصص (ص:١٠٦)]، وقولها كلام حكيم جامع؛ لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر، فقد تم المقصود، وهو كلام جرى مجرى المثل، وصار مطروقا للناس، وكان ذلك تعليلا للاستئجار، وكأنها قالت: استأجره لأمانته وقوته، وصار الوصفان منبهين عليه. [أبو حيان (٨/ ٢٩٩)].

(٣) لا ينبغي أن نحمله على التبرك، بل نحمله على التعليق الحقيقي بالمشيئة؛ لأن عزم الإنسان على الشيء مجزوم به، لكن تنفيذ الشيء لا يستطيع أن يجزم به الإنسان أبدًا مهما كان العمل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، فالذي نرى أن هذا التعليق على حقيقته ليس للتبرك، لماذا؟ لأن تنفيذ هذا الشيء ليس بيد صاحب مدين، فإن الأمور قد تُطلق. [ابن عثيمين تفسير القصص (ص:١١٤)].

وَ«مَا» زَائِدَةٌ، أَيْ: رَعْيِهِ ﴿قَضَيْتُ﴾ بِهِ، أَيْ: فَرَغْتُ مِنْهُ ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أَنَا وَأَنْتَ ﴿وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ حَفِيظٌ أَوْ شَهِيدٌ، فَتَمَّ الْعَقْدُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ شُعَيْبٌ ابْنَتَهُ أَنْ تُعْطِي مُوسَى عَصًا يَدْفَعُ بِهَا السِّبَاعَ عَنْ غَنَمِهِ وَكَانَتْ عِصِيُّ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ، فَوَقَعَ فِي يَدِهَا عَصَا آدَمَ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ فَأَخَذَهَا مُوسَى بِعِلْمِ شُعَيْبٍ[1]. ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أَيْ: رَعْيَهُ وَهُوَ ثَمَانٍ أَوْ عَشْرُ سِنِينَ وَهُوَ الْمَظْنُونُ بِهِ ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ زَوْجَتِهِ بِإِذْنِ أَبِيهَا نَحْوَ مِصْرَ ﴿ءَانَسَ﴾ بَصَرَ مِنْ بَعِيدٍ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ اسْمِ جَبَلٍ ﴿نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ هُنَا ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ أَخْطَأَهَا ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ بِتَثْلِيثِ الْجِيمِ: قِطْعَةٍ وَشُعْلَةٍ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تَسْتَدْفِئُونَ، وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الِافْتِعَالِ مِنْ «صَلِيَ النَّارَ» بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا. ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ﴾ جَانِبِ ﴿ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ لِمُوسَى ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ لِمُوسَى لِسَمَاعِهِ كَلَامَ اللهِ فِيهَا ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿شَٰطِيِٕ﴾ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ لِنَبَاتِهَا فِيهِ وَهِيَ شَجَرَةُ عُنَّابٍ أَوْ عُلَّيْقٍ أَوْ عَوْسَجٍ ﴿أَن﴾ مُفَسِّرَةٌ لَا مُخَفَّفَةٌ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۚ﴾ فَأَلْقَاهَا ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتَحَرَّكُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وَهِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ مِنْ سُرْعَةِ حَرَكَتِهَا ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هَارِبًا مِنْهَا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْۚ﴾ أَيْ: يَرْجِعْ، فَنُودِيَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ﴾ أَدْخِلْ ﴿يَدَكَ﴾ الْيُمْنَى بِمَعْنَى الْكَفِّ ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ هُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ، وَأَخْرِجْهَا ﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُدْمَةِ ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَيْ: بَرَصٍ، فَأَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تُغْشِي الْبَصَرَ ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ﴾ بِفَتْحِ الْحَرْفَيْنِ وَسُكُونِ الثَّانِي مَعَ فَتْحِ الْأَوَّلِ وَضَمِّهِ، أَيِ: الْخَوْفِ الْحَاصِلِ مِنْ إِضَاءَةِ الْيَدِ بِأَنْ تُدْخِلَهَا فِي جَيْبِكَ فَتَعُودَ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْجَنَاحِ لِأَنَّهَا لِلْإِنْسَانِ كَالْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ، أَيِ: الْعَصَا وَالْيَدُ، وَهُمَا مُؤَنَّثَانِ وَإِنَّمَا ذُكِّرَ الْمُشَارُ بِهِ إِلَيْهِمَا الْمُبْتَدَأُ لِتَذْكِيرِ خَبَرِهِ ﴿بُرْهَٰنَانِ﴾ مُرْسَلَانِ ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ هُوَ الْقِبْطِيُّ السَّابِقُ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ بِهِ. ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أَبْيَنُ ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ مُعِينًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الدَّالِ بِلَا هَمْزَةٍ ﴿يُصَدِّقُنِيٓۖ﴾ بِالْجَزْمِ جَوَابُ الدُّعَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ ﴿رِدْءًا﴾، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ نُقَوِّيكَ ﴿بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ

---

(١) هذه من الإسرائيليات اللي لا تُصدق. هل نأخذ من الآية أن موسى عليه الصلاة والسلام أخذ عصا؟ لا يوجد في الآية دليل أنه أخذ عصا، تم العقد بهذا وصار يعمل له. [ابن عثيمين تفسير القصص (ص:١١٩)].

لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ غلبةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بسوءٍ، اذهبا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لهم. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ، حالٌ ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ مُخْتَلَقٌ ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ كائنًا ﴿فِىٓ﴾ أيامِ ﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ﴾ بواوٍ وبدونها ﴿مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ﴾ أي: عالمٌ ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ الضميرُ للربِّ ﴿وَمَن﴾ عطفٌ على «مَنْ» قبلَها ﴿تَكُونُ﴾ بالفوقانيَّةِ والتحتانيَّةِ ﴿لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبةُ المحمودةُ في الدارِ الآخرةِ، أي: وهو أنا في الشقَّين، فأنا مُحقٌّ فيما جئتُ به ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الكافرون. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فاطبُخْ لي الآجُرَّ ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قصرًا عاليًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أنظرُ إليه وأقفُ عليه ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في ادِّعائِه إلهًا آخرَ وأنَّه رسولُه. ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بالبناءِ للفاعلِ وللمفعولِ. ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ طرحناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ البحرِ المالحِ، فغرقوا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ حينَ صاروا إلى الهلاكِ. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَئِمَّةً﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وإبدالِ الثانيةِ ياءً: رؤساءَ في الشركِ ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بدعائِهم إلى الشركِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ بدفعِ العذابِ عنهم. ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ خزيًا ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ المُبعَدين. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرَهم ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حالٌ من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ جمعُ بصيرةٍ، وهي: نورُ القلبِ، أي: أنوارًا للقلوبِ ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالةِ لمن عملَ به ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمنَ به ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يتعظونَ بما فيه من المواعظِ. ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمدُ ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبلِ أو الوادي أو المكانِ ﴿ٱلْغَرْبِىِّ﴾ من موسى حينَ المناجاةِ ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أوحينا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بالرسالةِ إلى فرعونَ وقومِه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لذلكَ، فتعلمَهُ فتُخبِرَ به. ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أممًا من بعدِ موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: طالتْ أعمارُهم، فنسوا العهودَ واندرستِ العلومُ وانقطعَ الوحيُ، فجئنا بك رسولًا وأوحينا إليك خبرَ موسى وغيرِه ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مُقيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ خبرٌ ثانٍ، فتعرفُ قصتَهم فتُخبرُ بها ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ لكَ وإليكَ بأخبارِ المتقدِّمين. ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ الجبلِ ﴿إِذْ﴾ حينَ ﴿نَادَيْنَا﴾ موسى: أنْ ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] ﴿وَلَٰكِن﴾ أرسلناك ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وهم أهلُ مكةَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يتعظونَ. ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ عقوبةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفرِ

وَغَيْرِهِ ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ اَلْمُرْسَلَ بِهَا ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ وَجَوَابُ ﴿لَوْلَآ﴾ مَحْذُوفٌ، وَمَا بَعْدَهُ مُبْتَدَأٌ، وَالْمَعْنَى: لَوْلَا اَلْإِصَابَةُ اَلْمُسَبَّبُ عَنْهَا، أَيْ: قَوْلُهُمْ، أَوْ لَوْلَا قَوْلُهُمُ اَلْمُسَبَّبُ عَنْهَا، أَيْ: لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ مُحَمَّدٌ[1] ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ مِنَ اَلْآيَاتِ: كَالْيَدِ اَلْبَيْضَاءِ وَالْعَصَا وَغَيْرِهِمَا، أَوِ اَلْكِتَابِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حَيْثُ ﴿قَالُواْ﴾ فِيهِ وَفِي مُحَمَّدٍ: ﴿سَٰحِرَانِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سِحْرَانِ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنُ وَالتَّوْرَاةُ ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تَعَاوَنَا ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ﴾ مِنَ اَلنَّبِيَّيْنِ وَالْكِتَابَيْنِ ﴿كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أَيْ: مِنَ اَلْكِتَابَيْنِ ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فِي قَوْلِكُمْ. ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ دُعَاءَكَ، بِالْإِتْيَانِ بِكِتَابٍ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فِي كُفْرِهِمْ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِنْهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ اَلْكَافِرِينَ. ﴿۞وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ اَلْقُرْآنَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُوا. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنِ ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أَيْضًا، نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا، مِنَ اَلْيَهُودِ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ وَمِنَ اَلنَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ اَلْحَبَشَةِ وَمِنَ اَلشَّامِ. ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ اَلْقُرْآنُ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ مُوَحِّدِينَ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بِإِيمَانِهِمْ بِالْكِتَابَيْنِ[2] ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بِصَبْرِهِمْ عَلَى اَلْعَمَلِ بِهِمَا ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يَدْفَعُونَ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يَتَصَدَّقُونَ. ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ اَلشَّتْمَ وَالْأَذَى مِنَ اَلْكُفَّارِ ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ سَلَامُ مُتَارَكَةٍ، أَيْ: سَلِمْتُمْ مِنَّا مِنَ اَلشَّتْمِ وَغَيْرِهِ ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ لَا نَصْحَبُهُمْ. وَنَزَلَ فِي حِرْصِهِ ﷺ عَلَى إِيمَانِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ[3] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هِدَايَتَهُ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ

---

(١) يعني القرآن ونبوة محمد ﷺ. [ابن جُزَيّ (٢/ ١١٥)].

(٢) عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَرَجُلٌ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ». أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤).

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾. أخرجه مسلم (٢٥).

﴿أَعۡلَمُ﴾ عالِمٌ ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوٓاْ﴾ أَيْ: قَوْمُهُ ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ نُنْتَزَعْ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الْإِغَارَةِ وَالْقَتْلِ الْوَاقِعَيْنِ مِنْ بَعْضِ الْعَرَبِ عَلَى بَعْضٍ ﴿تُجۡبَىٰٓ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ﴿رِّزۡقًا﴾ لَهُمْ ﴿مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾ أَنَّ مَا نَقُولُهُ حَقٌّ. ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ﴾ أَيْ: فِي عَيْشِهَا، وَأُرِيدَ بِالْقَرْيَةِ أَهْلُهَا ﴿فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ لِلْمَارَّةِ يَوْمًا أَوْ بَعْضَهُ ﴿وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾ مِنْهُمْ. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ بِظُلْمِ أَهْلِهَا ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ أَيْ: أَعْظَمِهَا(١) ﴿رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ. ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ أَيْ: تَتَمَتَّعُونَ وَتَتَزَيَّنُونَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِكُمْ ثُمَّ يَفْنَى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وَهُوَ ثَوَابُهُ ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٠﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، أَنَّ الْبَاقِيَ خَيْرٌ مِنَ الْفَانِي. ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ مُصِيبُهُ، وَهُوَ الْجَنَّةُ ﴿كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فَيَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٦١﴾ النَّارَ، الْأَوَّلُ الْمُؤْمِنُ وَالثَّانِي الْكَافِرُ، أَيْ: لَا تَسَاوِيَ بَيْنَهُمَا. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ اللهُ ﴿فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۝٦٢﴾ هُمْ شُرَكَائِي. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بِدُخُولِ النَّارِ، وَهُمْ رُؤَسَاءُ الضَّلَالَةِ: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ هُمْ، مُبْتَدَأٌ وَصِفَةٌ، ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ خَبَرُهُ، فَغَوَوْا ﴿كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ لَمْ نُكْرِهْهُمْ عَلَى الْغَيِّ ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ مِنْهُمْ ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ۝٦٣﴾ ﴿مَا﴾ نَافِيَةٌ، وَقُدِّمَ الْمَفْعُولُ لِلْفَاصِلَةِ ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامَ الَّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللهِ ﴿فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ دُعَاءَهُمْ ﴿وَرَأَوُاْ﴾ هُمْ ﴿ٱلۡعَذَابَۚ﴾ أَبْصَرُوهُ ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ۝٦٤﴾ فِي الدُّنْيَا مَا رَأَوْهُ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦٥﴾ إِلَيْكُمْ. ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ الْأَخْبَارُ الْمُنْجِيَةُ فِي الْجَوَابِ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ لَمْ يَجِدُوا خَبَرًا لَهُمْ فِيهِ نَجَاةٌ ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۝٦٦﴾ عَنْهُ فَيَسْكُتُونَ. ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَءَامَنَ﴾ صَدَّقَ بِتَوْحِيدِ اللهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أَدَّى الْفَرَائِضَ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ۝٦٧﴾ النَّاجِينَ بِوَعْدِ اللهِ. ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ مَا يَشَاءُ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ لِلْمُشْرِكِينَ

---

(١) إن كانت الإبادة للقرى بالإطلاق في كل زمن فأمها في هذا الموضع عظيمها وأفضلها التي هي بمثابة مكة في عصر محمد ﷺ، وإن كانت مكة أم القرى كلها أيضا من حيث هي أول ما خلق من الأرض، ومن حيث فيها البيت، ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى يقيم الحجة على عباده بالرسل، فلا يعذب إلا بعد نذارة، وبعد أن يتمادى أهل القرى في ظلم وطغيان. والظلم: هنا يجمع الكفر والمعاصي والتقصير في الجهاد، وبالجملة وضع الباطل موضع الحق. [ابن عطية (٦/ ٦٠١)].

﴿ٱلْخِيَرَةُۚ﴾ الِاخْتِيَارُ فِي شَيْءٍ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾ عَنْ إِشْرَاكِهِمْ. ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تُسِرُّ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ الدُّنْيَا ﴿وَٱلْآخِرَةِۖ﴾ الْجَنَّةِ ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ بِالنُّشُورِ. ﴿قُلْ﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أَيْ: أَخْبِرُونِي ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دَائِمًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ﴾ نَهَارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ الْمَعِيشَةَ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١﴾ ذَلِكَ سَمَاعَ تَفَهُّمٍ، فَتَرْجِعُوا عَنِ الْإِشْرَاكِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ﴾ تَسْتَرِيحُونَ ﴿فِيهِۖ﴾ مِنَ التَّعَبِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَأِ فِي الْإِشْرَاكِ فَتَرْجِعُوا عَنْهُ. ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ تَعَالَى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ بِالْكَسْبِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ النِّعْمَةَ فِيهِمَا. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٧٤﴾ ذُكِرَ ثَانِيًا لِيُبْنَى عَلَيْهِ. ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أَخْرَجْنَا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وَهُوَ نَبِيُّهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوهُ[1] ﴿فَقُلْنَا﴾ لَهُمْ: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ عَلَى مَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِشْرَاكِ ﴿فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ فِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿لِلَّهِ﴾ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٧٥﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنَّ مَعَهُ شَرِيكًا تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ. ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ ابْنَ عَمِّهِ أَوِ ابْنَ خَالَتِهِ وَآمَنَ بِهِ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ﴾ بِالْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ وَكَثْرَةِ الْمَالِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾ تُثْقِلُ ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الْجَمَاعَةِ ﴿أُوْلِى﴾ أَصْحَابِ ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ أَيْ: تُثْقِلُهُمْ فَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، وَعِدَّتُهُمْ قِيلَ: سَبْعُونَ، وَقِيلَ: أَرْبَعُونَ، وَقِيلَ: عَشَرَةٌ، وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ، اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿لَا تَفْرَحْۖ﴾ بِكَثْرَةِ الْمَالِ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ بِذَلِكَ. ﴿وَٱبْتَغِ﴾ اطْلُبْ ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الْمَالِ ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَۖ﴾ بِأَنْ تُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ﴿وَلَا تَنسَ﴾ تَتْرُكْ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ أَيْ: أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِلْآخِرَةِ[2] ﴿وَأَحْسِن﴾ لِلنَّاسِ بِالصَّدَقَةِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ﴾ تَطْلُبْ ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ﴾ بِعَمَلِ الْمَعَاصِي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ[3]. ﴿قَالَ إِنَّمَآ

---

(١) ومثله قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

(٢) وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال، وطلبك إياه، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآني. [صديق حسن (١٠/ ١٥٠)].

(٣) أي: إن الله لا يحب بغاة البغي والمعاصي. [الطبري (١٨/ ٣٢٥)].

أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: الْمَالَ ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ أي: فِي مُقَابَلَتِهِ وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَاةِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ ﴿مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ لِلْمَالِ، أَيْ: هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَيُهْلِكُهُ اللهُ ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾ لِعِلْمِهِ تَعَالَى بِهَا فَيَدْخُلُونَ النَّارَ بِلَا حِسَابٍ.

﴿فَخَرَجَ﴾ قَارُونُ ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ بِأَتْبَاعِهِ الْكَثِيرِينَ رُكْبَانًا، مُتَحَلِّينَ بِمَلَابِسِ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ عَلَى خُيُولٍ وَبِغَالٍ مُتَحَلِّيَةٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ﴾ نَصِيبٍ ﴿عَظِيمٖ ٧٩﴾ وَافٍ فِيهَا. ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ بِمَا وَعَدَ اللهُ فِي الْآخِرَةِ: ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ كَلِمَةُ زَجْرٍ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ ﴿خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ﴾ مِمَّا أُوتِيَ قَارُونُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: الْجَنَّةَ الْمُثَابَ بِهَا ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ. ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ﴾ بِقَارُونَ ﴿وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غَيْرِهِ بِأَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ الْهَلَاكَ. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١﴾ مِنْهُ. ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي: مِنْ قَرِيبٍ ﴿يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ﴾ يُوَسِّعُ ﴿ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ يُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَ«وَيْ» اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى: أَعْجَبُ، أَيْ: أَنَا، وَ«الْكَافُ» بِمَعْنَى: اللَّامِ ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ لِنِعْمَةِ اللهِ كَقَارُونَ[١]. ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ أي: الْجَنَّةُ ﴿نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بِالْبَغْيِ ﴿وَلَا فَسَادٗاۚ﴾ بِعَمَلِ الْمَعَاصِي ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ الْمَحْمُودَةُ ﴿لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ عِقَابَ اللهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ[٢]. ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ ثَوَابٌ بِسَبَبِهَا، وَهُوَ: عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ أي: مِثْلَهُ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أَنْزَلَهُ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَ قَدِ

---

(١) ومعنى الآية: ... أن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهم لما رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفي تصرفات الله تعالى في خلقه، وعلموا وجوب الرضى بما قدر للناس من الرزق، فخاطب بعضهم بعضا بذلك وأعلنوه. [ابن عاشور (٢٠/١٨٨)].

(٢) عن علي رضي الله عنه قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾. وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». أخرجه مسلم (٢٨٦٥). وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلا قال: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ردائي حسنا ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لَا، إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». أخرجه مسلم (٩١). [ابن كثير (٦/٢٥٨)].

اِشْتَاقَهَا(١) ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٨٥﴾ نَزَلَ جَوَابًا لِقَوْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ لَهُ: «إِنَّكَ فِي ضَلَالٍ»، أَيْ: فَهُوَ الْجَائِي بِالْهُدَى، وَهُمْ فِي الضَّلَالِ، وَ﴿أَعۡلَمُ﴾ بِمَعْنَى: عَالِمٌ. ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الْقُرْآنُ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ أُلْقِيَ إِلَيْكَ ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا﴾ مُعِينًا ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي دَعَوْكَ إِلَيْهِ(٢). ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أَصْلُهُ «يَصُدُّونَنَّكَ» حُذِفَتْ نُونُ الرَّفْعِ لِلْجَازِمِ وَالْوَاوُ لِلْفَاعِلِ لِالْتِقَائِهَا مَعَ النُّونِ السَّاكِنَةِ ﴿عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾ أَيْ: لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَٱدۡعُ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ بِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧﴾ بِإِعَانَتِهِمْ(٣)، وَلَمْ يُؤَثِّرِ الْجَازِمُ فِي الْفِعْلِ لِبِنَائِهِ. ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ تَعْبُدْ ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ إِلَّا إِيَّاهُ(٤) ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾ بِالنُّشُورِ مِنْ قُبُورِكُمْ.

---

(١) ﴿فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أي: أنزله عليك وأثبته، وقيل المعنى: أعطاك القرآن، والمعنى متقارب، وقيل: فرض عليك أحكام القرآن، فهي على حذف مضاف ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ المعاد الموضع الذي يعاد إليه، فقيل: يعني مكة، والآية نزلت حين الهجرة، ففيها وعد بالرجوع إلى مكة وفتحها، وقيل: يعني الآخرة فمعناها إعلام بالحشر، وقيل: يعني الجنة. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٢٠)].

(٢) ﴿ظَهِيرٗا﴾ أي: معينا ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالمكث بين ظهرانيهم، أو بالفتور عن الاجتهاد في دعائهم، يأسا منهم لما ترى من بعدهم من الإجابة وإن طال إنذارك، لا تمل أنت كما لم نمل نحن، فقد وصلنا لهم القول، وتابعنا لهم الوعظ والقص، ونحن قادرون على إهلاكهم في لحظة، وهدايتهم في أقل لمحة. [البقاعي (١٤/ ٣٧٩)].

(٣) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الخطاب في الظاهر للنبي ﷺ والمراد به أهل دينه، أي: لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم. [البغوي (٦/ ٢٢٨)].

(٤) إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]، فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ها هنا: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ أي: إلا إياه ... وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له. [ابن كثير (٦/ ٢٦١)].

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعٌ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**الٓمٓ** ١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[1]. ﴿**أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ**﴾ أَيْ: بِقَوْلِهِمْ ﴿**ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ** ٢﴾ يُخْتَبَرُونَ بِمَا يَتَبَيَّنُ بِهِ حَقِيقَةُ إِيمَانِهِمْ، نَزَلَ فِي جَمَاعَةٍ آمَنُوا فَآذَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ.[2] ﴿**وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ**﴾ فِي إِيمَانِهِمْ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ ﴿**وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ** ٣﴾ فِيهِ. ﴿**أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**﴾ الشِّرْكَ وَالْمَعَاصِي ﴿**أَن يَسۡبِقُونَاۚ**﴾ يَفُوتُونَا فَلَا نَنْتَقِمَ مِنْهُمْ ﴿**سَآءَ**﴾ بِئْسَ ﴿**مَا**﴾ الَّذِي ﴿**يَحۡكُمُونَ** ٤﴾ ـهُ حُكْمُهُمْ هَذَا. ﴿**مَن كَانَ يَرۡجُواْ**﴾ يَخَافُ ﴿**لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ**﴾ بِهِ ﴿**لَأٓتٖۚ**﴾ فَلْيَسْتَعِدَّ لَهُ ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ**﴾ لِأَقْوَالِ الْعِبَادِ ﴿**ٱلۡعَلِيمُ** ٥﴾ بِأَفْعَالِهِمْ. ﴿**وَمَن جَٰهَدَ**﴾ جِهَادَ حَرْبٍ، أَوْ نَفْسٍ ﴿**فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ**﴾ لِأَنَّ مَنْفَعَةَ جِهَادِهِ لَهُ، لَا لِلَّهِ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ٦﴾ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَعَنْ عِبَادَتِهِمْ. ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ**﴾ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ﴿**وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ**﴾ بِمَعْنَى: «حَسَنَ» وَنَصْبُهُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ الْبَاءِ ﴿**ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ** ٧﴾ وَهُوَ الصَّالِحَاتُ. ﴿**وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ**﴾ أَيْ: إِيصَاءً ذَا حُسْنٍ، بِأَنْ يَبَرَّهُمَا ﴿**وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ**﴾ بِإِشْرَاكِهِ ﴿**عِلۡمٞ**﴾ مُوَافَقَةٌ لِلْوَاقِعِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ ﴿**فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ**﴾ فِي الْإِشْرَاكِ ﴿**إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ** ٨﴾ فَأُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ** ٩﴾ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ بِأَنْ نَحْشُرَهُمْ مَعَهُمْ. ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ**﴾ أَيْ: أَذَاهُمْ لَهُ ﴿**كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ**﴾ فِي الْخَوْفِ مِنْهُ، فَيُطِيعُهُمْ فَيُنَافِقُ ﴿**وَلَئِن**﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿**جَآءَ نَصۡرٞ**﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿**مِّن رَّبِّكَ**﴾ فَغَنِمُوا ﴿**لَيَقُولُنَّ**﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ، وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿**إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ**﴾ فِي الْإِيمَانِ فَأَشْرِكُونَا فِي الْغَنِيمَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**أَوَلَيۡسَ**

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) في الحديث الصحيح: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلَاءِ». أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٤٨١)، وأحمد (١٤٨١). وهذه الآية كقوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. [ابن كثير (٦/ ٢٦٣)].

﴿ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ﴾ أَيْ: بِعَالِمٍ ﴿بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ؟ بَلَى. ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِقُلُوبِهِمْ ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ فَيُجَازِي الْفَرِيقَيْنِ، وَاللَّامُ فِي الْفِعْلَيْنِ لَامُ قَسَمٍ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ طَرِيقَنَا فِي دِينِنَا ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ فِي اتِّبَاعِنَا إِنْ كَانَتْ، وَالْأَمْرُ بِمَعْنَى: الْخَبَرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾ فِي ذَلِكَ. ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ أَوْزَارَهُمْ ﴿وَأَثۡقَالًا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ بِقَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾، وَإِضْلَالِهِمْ مُقَلِّدِيهِمْ ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾ يَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ، سُؤَالَ تَوْبِيخٍ، وَاللَّامُ فِي الْفِعْلَيْنِ لَامُ قَسَمٍ، وَحُذِفَ فَاعِلُهُمَا: الْوَاوُ وَنُونُ الرَّفْعِ. ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ وَعُمُرُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرُ ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ فَكَذَّبُوهُ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أَيِ: الْمَاءُ الْكَثِيرُ، طَافَ بِهِمْ وَعَلَاهُمْ فَغَرِقُوا ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ مُشْرِكُونَ. ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ أَيْ: نُوحًا ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أَيِ: الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِيهَا ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً﴾ عِبْرَةً(١) ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ النَّاسِ إِنْ عَصَوْا رُسُلَهُمْ، وَعَاشَ نُوحٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِّينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ حَتَّى كَثُرَ النَّاسُ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ﴾ خَافُوا عِقَابَهُ ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٦﴾ الْخَيْرَ مِنْ غَيْرِهِ. ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿أَوۡثَٰنًا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ تَقُولُونَ كَذِبًا: «إِنَّ الْأَوْثَانَ شُرَكَاءُ لِلَّهِ» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا﴾ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَرْزُقُوكُمْ ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ اُطْلُبُوهُ مِنْهُ ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ أَيْ: تُكَذِّبُونِي يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ﴾ مِنْ قَبْلِي ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾ إِلَّا الْبَلَاغُ الْبَيِّنُ، فِي هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ تَعَالَى فِي قَوْمِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، يَنْظُرُوا

---

(١) الضمير للسفينة، ومعنى كونها آية أنها دليل على وقوع الطوفان عذابا من الله للمكذبين الرسل، فكانت السفينة آية ماثلة في عصور جميع الأمم الذين جاءتهم الرسل بعد نوح موعظة للمكذبين وحجة للمؤمنين. وقد أبقى الله بقية السفينة إلى صدر الأمة الإسلامية، ففي صحيح البخاري: قال قتادة: بقيت بقايا السفينة على الجودي حتى نظرتها أوائل هذه الأمة. ويقال: إنها دامت إلى أوائل الدولة العباسية ثم غمرتها الثلوج. وكان الجودي قرب «باقردى» وهي قرية من جزيرة ابن عمر بالموصل شرقي دجلة ... وقال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]. وإنما قال للعالمين الشامل لجميع سكان الأرض؛ لأن من لم يشاهد بقايا سفينة نوح يشاهد السفن فيتذكر سفينة نوح وكيف كان صنعها بوحي من الله لإنجاء نوح ومن شاء الله نجاته؛ ولأن الذين من أهل قريتها يخبرون عنها تنقل أخبارهم فتصير متواترة. [ابن عاشور (٢٠/ ٢٢٢)].

﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ هُوَ بِضَمِّ أَوَّلِهِ، وَقُرِئَ: بِفَتْحِهِ(١) مِنْ بَدَأَ وَأَبْدَأَ بِمَعْنًى، أَيْ: يَخْلُقُهُمُ ابْتِدَاءً ﴿ثُمَّ﴾ هُوَ ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾ أَيِ: الْخَلْقَ كَمَا بَدَأَهُمْ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورَ مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ١٩﴾ فَكَيْفَ يُنْكِرُونَ الثَّانِيَ. ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ لِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَأَمَاتَهُمْ ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ مَدًّا وَقَصْرًا مَعَ سُكُونِ الشِّينِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٠﴾ وَمِنْهُ الْبَدْءُ وَالْإِعَادَةُ. ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تَعْذِيبَهُ ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ رَحْمَتَهُ(٢) ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ٢١﴾ تُرَدُّونَ. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ رَبَّكُمْ عَنْ إِدْرَاكِكُمْ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لَوْ كُنْتُمْ فِيهَا، أَيْ: لَا تَفُوتُونَهُ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يَمْنَعُكُمْ مِنْهُ ﴿وَلَا نَصِيرٍ ٢٢﴾ يَنْصُرُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ وَالْبَعْثِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ أَيْ: جَنَّتِي(٣) ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٣﴾ مُؤْلِمٌ. قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ الَّتِي قَذَفُوهُ فِيهَا، بِأَنْ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: إِنْجَائِهِ مِنْهَا ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ هِيَ عَدَمُ تَأْثِيرِهَا فِيهِ مَعَ عِظَمِهَا، وَإِخْمَادُهَا وَإِنْشَاءُ رَوْضٍ مَكَانَهَا فِي زَمَنٍ يَسِيرٍ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٤﴾ يُصَدِّقُونَ بِتَوْحِيدِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ؛ لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا. ﴿وَقَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ تَعْبُدُونَهَا، وَ«مَا» مَصْدَرِيَّةٌ ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ خَبَرُ «إِنَّ»، وَعَلَى قِرَاءَةِ النَّصْبِ: مَفْعُولٌ لَهُ وَ«مَا» كَافَّةٌ، الْمَعْنَى: تَوَادَدْتُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فعدل؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «إِنَّ اللهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ». أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧). [ابن كثير (٦/ ٢٧٠)].

(٣) حولها إلى الرحمة المخلوقة لا إلى الرحمة التي هي صفة الله عز وجل؛ وذلك لأن الرحمة المضافة إلى الله قد يراد بها دار رحمته فتكون مخلوقة كما في الحديث القدسي أن الله قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ». أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، وتطلق على الرحمة التي هي وصف الله عز وجل وحينئذ تكون صفة من صفات الله غير مخلوقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والظاهر أن المراد بها هنا الرحمة التي هي صفته؛ لأنه إذا أطلقت الرحمة مضافة إلى الله فالمراد بها الصفة، لا نحملها على أنها بمعنى موضع الرحمة إلا إذا وجدت قرينة فنعمل بهذه القرينة وإلا فالأصل أنها صفة من صفات الله. وما ذكره المؤلف فهو محتمل. [ابن عثيمين تفسير العنكبوت (ص:١٠١)].

﴿بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ يَتبرَّأُ الْقادةُ مِنَ الْأَتْباعِ ﴿وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ يَلْعَنُ الْأَتْباعُ الْقادةَ ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ﴾ مَصِيرُكُمْ جَمِيعًا ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٥﴾ مَانِعِينَ مِنْهَا. ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ﴾ صَدَّقَ بِإِبْرَاهِيمَ ﴿لُوطٞۘ﴾ وَهُوَ ابْنُ أَخِيهِ هَارَانَ(١) ﴿وَقَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ مِنْ قَوْمِي ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓۖ﴾ أَيْ: إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي رَبِّي، وَهَجَرَ قَوْمَهُ وَهَاجَرَ مِنْ سَوَادِ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ ﴿إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ بَعْدَ إِسْحَاقَ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ فَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ بِمَعْنَى الْكُتُبِ، أَيِ: «التَّوْرَاةَ، وَالْإِنْجِيلَ، وَالزَّبُورَ، وَالْقُرْآنَ» ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وَهُوَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي كُلِّ أَهْلِ الْأَدْيَانِ(٢) ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ الَّذِينَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿لُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَئِنَّكُمۡ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ(٣) ﴿لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ أَيْ: أَدْبَارَ الرِّجَالِ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ طَرِيقَ الْمَارَّةِ بِفِعْلِكُمُ الْفَاحِشَةَ بِمَنْ يَمُرُّ بِكُمْ، فَتَرَكَ النَّاسُ الْمَمَرَّ بِكُمْ ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ أَيْ: مُتَحَدَّثِكُمْ ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ فِعْلَ الْفَاحِشَةِ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ(٤) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن

---

(١) لم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل. لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين الحديث الوارد في الصحيح: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ مَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْجَبَّارِ، فَسَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ سَارَّةَ: مَا هِيَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: هِيَ أُخْتِي، ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَهُ: إِنَّكِ: أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ مُؤْمِنٌ غَيْرُكِ وَغَيْرِي، فَأَنْتِ أُخْتِي فِي الدِّينِ». أخرجه مسلم (٢٣٧١). وكأن المراد من هذا والله أعلم أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك. [ابن كثير (٦/ ٢٧٢)].

(٢) معنى إيتاء الأجر في الدنيا أنه أعطي فيها الأولاد في غير أوانه وأخبر الله باستمرار النبوة فيهم، وذلك مما تقر به عينه، ويزداد به سروره. وقيل: أجره في الدنيا: إن أهل الملل كلها تدَّعيه، وتقول: هو منهم، ويثنون عليه الثناء الحسن، ويذكره أهل الإسلام في آخر كل تشهد إلى آخر الدهر، وقيل: أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً، وعاقبة حسنة، وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا. وعن ابن عباس قال: إن الله وصى أهل الأديان بدينه، فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم ويرضون به، وقال: أجر الدنيا الذكر الحسن، وقال أيضاً: الولد الصالح والثناء. [صديق حسن (١٠/ ١٨٥)].

(٣) في الموضع الثاني آية (٢٩) أجمع القراء على الاستفهام.

(٤) أي: في مجالسكم، المنكر فيه أربعة أوجه: أحدها: هو أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، قالته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. الثاني: أنهم كانوا يخذفون من يمر بهم ويسخرون منه روته أم هانئ عن النبي ﷺ. الثالث: أنهم كانوا يجامعون الرجال في مجالسهم، رواه منصور عن مجاهد. الرابع: هو الصفير ولعب الحمام والجلاهق والسحاق وحل أزرار القيان في المجلس، رواه الحاكم عن مجاهد. [الماوردي (٤/ ٢٨٢)].

﴿كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ فِي اسْتِقْبَاحِ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِفَاعِلِيهِ. ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ بِتَحْقِيقِ قَوْلِي فِي إِنْزَالِ الْعَذَابِ ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ٣٠﴾ الْعَاصِينَ بِإِتْيَانِ الرِّجَالِ، فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ. ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بَعْدَهُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أَيْ: قَرْيَةِ لُوطٍ ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١﴾ كَافِرِينَ. ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ﴾ أَيِ: الرُّسُلُ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ. ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ حَزِنَ بِسَبَبِهِمْ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ صَدْرًا؛ لِأَنَّهُمْ حِسَانُ الْوُجُوهِ فِي صُورَةِ أَضْيَافٍ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ قَوْمَهُ، فَأَعْلَمُوهُ أَنَّهُمْ رُسُلُ رَبِّهِ ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٣٣﴾ وَنُصِبَ ﴿أَهْلَكَ﴾ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ الْكَافِ. ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عَذَابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا﴾ بِالْفِعْلِ الَّذِي ﴿كَانُواْ يَفْسُقُونَ ٣٤﴾ بِهِ، أَيْ: بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ ظَاهِرَةً، هِيَ آثَارُ خَرَابِهَا[1] ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَ﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ اِخْشَوْهُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِهَا، مِنْ «عَثِيَ» بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَةِ، أَفْسَدَ. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾ بَارِكِينَ عَلَى الرُّكَبِ مَيِّتِينَ. ﴿وَ﴾ أَهْلَكْنَا ﴿عَادًا وَثَمُودَا﴾ بِصَرْفِ «ثَمُودَ» وَتَرْكِهِ، بِمَعْنَى: الْحَيِّ وَالْقَبِيلَةِ ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم﴾ إِهْلَاكُهُمْ ﴿مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ بِالْحِجْرِ وَالْيَمَنِ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سَبِيلِ الْحَقِّ ﴿وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨﴾ ذَوِي بَصَائِرَ[2]. ﴿وَ﴾ أَهْلَكْنَا

---

(١) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي: أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة وهي الآثار التي بها من الحجارة التي رجموا بها حتى أدركها أوائل هذه الأمة، وخراب الديار، وآثار منازلهم الخربة، وقال مجاهد: هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر. [الشوكاني (٤/ ٢٣٣)]. وفي الصافات: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٧ –١٣٨] فكان العرب يمرون على هذه القرى ذاهبين وجائين إلى الشام، فيرون من آثار العذاب ما هو ظاهر، لكنهم لا يستبصرون؛ ولهذا قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. [ابن عثيمين تفسير العنكبوت (ص:١٧٦)].

(٢) بواسطة الرسل، يعني لم يكن لهم في ذلك عذر لأن الرسل أوضحوا السبيل قاله الرازي. وقيل: مستبصرين في الضلالة قاله ابن عباس، أي: أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال لكنهم لم يفعلوا. وقال الفراء: كانوا عقلاء ألباء ذوي بصائر في أمور الدنيا، فلم ينفعهم بصائرهم، وقيل: المعنى كانوا مستبصرين في كفرهم وضلالتهم معجبين بها، يحسبون أنهم على هدى، ويرون أن أمرهم حق،

﴿قَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم﴾ مِنْ قَبْلُ ﴿مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الْحُجَجِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩﴾ فَائِتِينَ عَذَابَنَا. ﴿فَكُلًّا﴾ مِنَ الْمَذْكُورِينَ ﴿أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا﴾ رِيحًا عَاصِفَةً فِيهَا حَصْبَاءُ كَقَوْمِ لُوطٍ ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كَثَمُودَ ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ كَقَارُونَ ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَا ۚ﴾ كَقَوْمِ نُوحٍ وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ فَيُعَذِّبَهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٠﴾ بِارْتِكَابِ الذَّنْبِ. ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ أَيْ: أَصْنَامًا يَرْجُونَ نَفْعَهَا ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًا ۖ﴾ لِنَفْسِهَا تَأْوِي إِلَيْهِ ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ﴾ أَضْعَفَ ﴿ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ ۚ﴾ لَا يَدْفَعُ عَنْهَا حَرًّا وَلَا بَرْدًا، كَذَلِكَ الْأَصْنَامِ لَا تَنْفَعُ عَابِدِيهَا ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝٤١﴾ ذَلِكَ مَا عَبَدُوهَا[1]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا﴾ بِمَعْنَى: الَّذِي ﴿يَدۡعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ، بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ غَيْرِهِ ﴿مِن شَيۡءٍ ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٤٢﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ فِي الْقُرْآنِ ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ نَجْعَلُهَا ﴿لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ﴾ أَيْ: يَفْهَمُهَا ﴿إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ الْمُتَدَبِّرُونَ. ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ۚ﴾ أَيْ: مُحِقًّا[2] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ دَالَّةً عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٤﴾ خُصُّوا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهَا فِي الْإِيمَانِ بِخِلَافِ الْكَافِرِينَ. ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِىَ

فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم، أو متبينين أن العذاب لاحق لهم بإخبار الرسل لهم، ولكنهم لجوا حتى هلكوا. [صديق حسن (١٠/ ١٩٢)].

(١) هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتَّقوِّي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتا يقيها من الحر والبرد والآفات، ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ ۚ﴾ فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفا إلى ضعفهم، ووهنا إلى وهنهم. فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوها عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل. فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرءوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مئونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله. ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها وعدمها. [السعدي (ص:٦٣١)].

(٢) أي: محقا مراعيا للحكم والمصالح، مقدسا عن أن يقصد به باطلا. فالباء للملابسة، والجار والمجرور حال. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]. [القاسمي (٧/ ٥٥٦)].

إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ شَرْعًا، أَيْ: مِنْ شَأْنِهَا ذَٰلِكَ مَا دَامَ اَلْمَرْءُ فِيهَا[1] ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ اَلطَّاعَاتِ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى﴾ أَيِ: اَلْمُجَادَلَةِ اَلَّتِي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ كَالدُّعَاءِ إِلَى اَللهِ بِآيَاتِهِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى حُجَجِهِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ﴾ بِأَنْ حَارَبُوا وَأَبَوْا أَنْ يُقِرُّوا بِالْجِزْيَةِ، فَجَالِدُوهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُسْلِمُوا أَوْ يُعْطُوا اَلْجِزْيَةَ[2] ﴿وَقُولُوٓاْ﴾ لِمَنْ قَبِلَ اَلْإِقْرَارَ بِالْجِزْيَةِ إِذَا أَخْبَرُوكُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا فِي كُتُبِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ فِي ذَلِكَ[3] ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ مُطِيعُونَ. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ﴾ اَلْقُرْآنَ، كَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ اَلتَّوْرَاةَ وَغَيْرَهَا ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اَلتَّوْرَاةَ كَعَبْدِ اَللهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بَعْدَ

---

(١) ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثَم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها كما تقدم بنفسها من أكبر الذكر. [السعدي (ص:٦٣٢)].

(٢) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ﴾ بأن أفرطوا في المجادلة، ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشين في مجادلتهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقيل: معنى الآية لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن، يعني بالموافقة فيما حدثوكم به، من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا هم الباقون على كفرهم. قال مجاهد: هذه الآية محكمة فيجوز مجادلتهم بها، وقيل: هي منسوخة بآية القتال، وبذلك قال قتادة ومقاتل، قال النحاس وغيره: من قال هي منسوخة احتج بأن الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية ولا غير ذلك. وقول مجاهد حسن، لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة، إلا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول، واختار هذا القول ابن العربي. [صديق حسن (١٠/ ٢٠١)].

(٣) يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا، ولا على تصديقه فلعله أن يكون باطلا، ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». أخرجه البخاري (٤٤٨٥). [ابن كثير (٦/ ٢٨٣)].

ظُهُورِهَا ﴿إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أَيِ: الْيَهُودُ، وَظَهَرَ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَالْجَائِي بِهِ مُحِقٌّ وَجَحَدُوا ذَلِكَ[1]. ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا﴾ أَيْ: لَوْ كُنْتَ قَارِئًا كَاتِبًا ﴿لَّٱرْتَابَ﴾ شَكَّ ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الْيَهُودُ فِيكَ، وَقَالُوا: «الَّذِي فِي التَّوْرَاةِ أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ»[2] ﴿بَلْ هُوَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ﴿ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنُونَ يَحْفَظُونَهُ[3] ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ

---

(١) قد أشار قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ إلى أن من هؤلاء الذين يؤمنون بالقرآن من أهل الكتاب وأهل مكة من يكتم إيمانه جحودا منهم لأجل تصلبهم في الكفر. فالتعريف في الكافرون للدلالة على معنى الكمال في الوصف المعرف، أي: إلا المتوغلون في الكفر الراسخون فيه، ليظهر وجه الاختلاف بين «ما يجحد» وبين «الكافرون»، إذ لولا الدلالة على معنى الكمال لصار معنى الكلام: وما يجحد إلا الجاحدون. وعبر عن الكتاب بالآيات؛ لأنه آيات دالة على أنه من عند الله بسبب إعجازه وتحديه وعجز المعاندين عن الإتيان بسورة مثله. وهذا يتوجه ابتداء إلى المشركين؛ لأن جحودهم واقع، وفيه تهيئة لتوجهه إلى من عسى أن يجحد به من أهل الكتاب من دون أن يواجههم بأنهم كافرون؛ لأنه لم يعرف منهم ذلك الآن، فإن فعلوه فقد أوجبوا ذلك على أنفسهم. [ابن عاشور (٢١/٩)].

(٢) أي: فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لما يكفل سعادة الدارين في شرائعه وقضاياه، على أمي لم يعرف بالقراءة والتعلم، خارق للعادة. وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي، ونفي للتجوز في الإسناد: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت ممن يخط ويقرأ، لقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده، من كتب مأثورة عن الأنبياء. تنبيه: قال السيوطي في «الإكليل»: في هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب. وفيها رد على من زعم أنه كتب. انتهى. وقال ابن كثير: وهذه صفته في الكتب المتقدمة. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده. بل كان له كُتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم، من متأخري الفقهاء، كالقاضي ابن الوليد الباجي ومن تابعه، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: «ثُمَّ أَخَذَ فَكَتَبَ» وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثُمَّ أَمَرَ فَكَتَبَ» ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم. وإنما أراد الرجل أعني الباجي فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة. لا أنه كان يحسن الكتابة. وما أورده بعضهم من الحديث؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له. انتهى. [القاسمي (٧/٥٥٩)].

(٣) أي: هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، أمرا ونهيا وخبرا، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا». أخرجه البخاري (٧٢٧٤). وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم (٢٨٦٥): «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُبْتَلٍ بِكَ، وَمُنْزِلٌ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ» ... لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظا ومعنى؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة، في صفة هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم».

﴿٤٩﴾ أَيِ: اَلْيَهُودُ، وَجَحَدُوهَا بَعْدَ ظُهُورِهَا لَهُمْ. ﴿وَقَالُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ: ﴿لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ءَايَةٌ﴾ كَنَاقَةِ صَالِحٍ وَعَصَا مُوسَى وَمَائِدَةِ عِيسَى ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يُنَزِّلُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ بِالنَّارِ. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ فِيمَا طَلَبُوا ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اَلْقُرْآنَ ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فَهُوَ آيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ لَا انْقِضَاءَ لَهَا(١)، بِخِلَافِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْآيَاتِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ اَلْكِتَابِ ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾ عِظَةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بِصِدْقِي ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَمِنْهُ حَالِي وَحَالُكُمْ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وَهُوَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ مِنْكُمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ فِي صَفْقَتِهِمْ، حَيْثُ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لَهُ ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عَاجِلًا ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ بِوَقْتِ إِتْيَانِهِ. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ فِي اَلدُّنْيَا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَنَقُولُ﴾ فِيهِ بِـ«النُّونِ»، أَيْ: نَأْمُرُ بِالْقَوْلِ، وَبِـ«الْيَاءِ» ﴿يَقُولُ﴾ أَيِ: اَلْمُوَكَّلُ بِالْعَذَابِ ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ فَلَا تَفُوتُونَا. ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ فِي أَيِّ أَرْضٍ تَيَسَّرَتْ فِيهَا الْعِبَادَةُ، بِأَنْ تُهَاجِرُوا إِلَيْهَا مِنْ أَرْضٍ لَمْ تَتَيَسَّرْ فِيهَا، نَزَلَ فِي ضُعَفَاءِ مُسْلِمِي مَكَّةَ كَانُوا فِي ضِيقٍ مِنْ إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تخطه بيمينك، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جريج. وحكى الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم. [ابن كثير (٦/ ٢٨٦)].

(١) أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣] ... وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [أخرجه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢)]. [ابن كثير (٦/ ٢٨٧)]. والاستفهام تعجيبي إنكاري. والمعنى: وهل لا يكفيهم من الآيات آيات القرآن، فإن كل مقدار من مقادير إعجازه آية على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فإن آيات القرآن زهاء ستة آلاف آية. ومقدار كل ثلاث آيات مقدار معجز، فيحصل من القرآن مقدار ألفي معجزة، وذلك لم يحصل لأحد من رسل الله. [ابن عاشور (٢١/ ١٤)].

بِهَا(١). ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، بَعْدَ الْبَعْثِ(٢). ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ نُنْزِلَنَّهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْمُثَلَّثَةِ بَعْدَ النُّونِ مِنَ «الثَّوِيِّ» الْإِقَامَةِ، وَتَعْدِيَتُهُ إِلَى ﴿غُرَفًا﴾ بِحَذْفِ «فِي» ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ﴾ مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ ﴿فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾ هَذَا الْأَجْرُ. هُمْ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَالْهِجْرَةِ لِإِظْهَارِ الدِّينِ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ فَيَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ. ﴿وَكَأَيِّن﴾ كَمْ ﴿مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لِضَعْفِهَا ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُهَاجِرُونَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَكُمْ زَادٌ وَلَا نَفَقَةٌ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِكُمْ ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾ بِضَمَائِرِكُمْ. ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿سَأَلْتَهُم﴾ أَيِ: الْكُفَّارَ ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ يُصْرَفُونَ عَنْ تَوْحِيدِهِ بَعْدَ إِقْرَارِهِمْ بِذَلِكَ. ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ اِمْتِحَانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ ﴿لَهُۥٓ﴾ بَعْدَ الْبَسْطِ لِمَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢﴾ وَمِنْهُ مَحَلُّ الْبَسْطِ وَالتَّضْيِيقِ. ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ بِهِ؟ ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى ثُبُوتِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٦٣﴾ تَنَاقُضَهُمْ فِي ذَلِكَ. ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ وَأَمَّا «الْقُرَبُ» فَمِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ لِظُهُورِ ثَمَرَتِهَا فِيهَا. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ بِمَعْنَى الْحَيَاةِ(٣) ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ ذَلِكَ مَا آثَرُوا الدُّنْيَا عَلَيْهَا. ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أَيِ: الدُّعَاءَ، أَيْ: لَا يَدْعُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُمْ فِي شِدَّةٍ لَا يَكْشِفُهَا إِلَّا هُوَ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ

---

(١) المعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرون فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربهم واسعة فليهاجروا إلى موضع منها يقدرون فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول الله ﷺ والمسلمون. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. [الشنقيطي (٦/٥١٨)].

(٢) تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجعى. أو تسلية للمهاجر إلى الله، وتشجيع له، بأن لا يثبطه عن هجرته خوف الموت بسببها. فلا المقام بأرضه يدفعه، ولا هجرته عنه تمنعه. وفيه استعارة بديعة لتشبيه الموت بأمر كريه الطعم. [القاسمي (٧/٥٦٣)].

(٣) أي: الحياة الدائمة الخالدة التي لا موت فيها، قال الواحدي وهو قول جميع المفسرين، ... وأنه مصدر، بمنزلة الحياة فيكون كالنزوان والغليان، فهي دار الحياة الباقية التي لا تزول، أو لا ينغصها موت ولا مرض ولا هم ولا غم. [صديق حسن (١٠/٢١٦)].

إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ بِهِ(١). ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ مِنَ النِّعْمَةِ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ۖ﴾ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ اللَّامِ أَمْرُ تَهْدِيدٍ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ عَاقِبَةَ ذَلِكَ(٢). ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يَعْلَمُوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ بَلَدَهُمْ مَكَّةَ ﴿حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ قَتْلًا وَسَبْيًا دُونَهُمْ(٣) ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ الصَّنَمِ ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ بِإِشْرَاكِهِمْ. ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بِأَنْ أَشْرَكَ بِهِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ النَّبِيِّ أَوِ الْكِتَابِ ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مَأْوًى ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ أَيْ: فِيهَا ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْهُمْ(٤). ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ فِي حَقِّنَا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ أَيْ: طَرِيقَ السَّيْرِ إِلَيْنَا(٥) ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالْعَوْنِ.

---

(١) أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائما، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ﴾ [الإسراء:٦٧] ... وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارا منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي هاهنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضا، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفا رحيما، وكان كذلك. [ابن كثير (٦/ ٢٩٤)].

(٢) هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل. [ابن كثير (٦/ ٢٩٥)]. [والمعنى] ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم. [السعدي (ص:٦٣٥)].

(٣) امتن الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة على قريش، بأنه جعل لهم حرما آمنا، يعني حرم مكة، فهم آمنون فيه على أموالهم ودمائهم، والناس الخارجون عن الحرم، يتخطفون قتلا وأسرا. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبينا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣-٤]. [الشنقيطي (٦/ ٥٢٠)].

(٤) أي: مكان يستقرون فيه، والاستفهام للتقرير، والمعنى أليس يستحقون الاستقرار فيها؟ وقد فعلوا ما فعلوا لأن همزة الإنكار، إذا دخلت على النفي صار إيجاباً فيرجع إلى معنى التقرير. أو ألم يصح عندهم أن جهنم مثواهم حين اجترأوا مثل هذه الجرأة؟ [صديق حسن (١٠/ ٢١٩)].

(٥) هداية الدلالة والعلم، وهداية التوفيق والإرشاد، والإنسان إذا عمل بعلمه فإن الله تعالى يزيده علما، قال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾ [مريم: ٧٦]. [ابن عثيمين تفسير العنكبوت (ص:٤١٤)].

سُورَةُ الرُّومِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتُّونَ أَوْ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ①﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ فِي ذَلِكَ[(١)]. ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ②﴾ وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، غَلَبَتْهَا فَارِسُ وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ بَلْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَفَرِحَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبُكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فَارِسُ الرُّومَ ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: أَقْرَبِ أَرْضِ الرُّومِ إِلَى فَارِسَ، بِالْجَزِيرَةِ الْتَقَى فِيهَا الْجَيْشَانِ وَالْبَادِي بِالْغَزْوِ الْفُرْسُ ﴿وَهُم﴾ أَيِ: الرُّومُ ﴿مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ أُضِيفَ الْمَصْدَرُ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَيْ: غَلَبَةِ فَارِسَ إِيَّاهُمْ ﴿سَيَغْلِبُونَ ③﴾ فَارِسَ. ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التِّسْعِ أَوِ الْعَشْرِ، فَالْتَقَى الْجَيْشَانِ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الِالْتِقَاءِ الْأَوَّلِ، وَغَلَبَتِ الرُّومُ فَارِسَ[(٢)] ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ غَلْبِ الرُّومِ وَمِنْ بَعْدِهِ، الْمَعْنَى: أَنَّ غَلَبَةَ فَارِسَ أَوَّلًا وَغَلَبَةَ الرُّومِ ثَانِيًا بِأَمْرِ اللهِ، أَيْ: إِرَادَتِهِ[(٣)] ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: يَوْمَ تَغْلِبُ الرُّومُ ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِسَ، وَقَدْ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) عن نيار بن مكرم الأسلمي رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١-٤]، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤﴾ [الروم: ٤-٥]، فكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية، خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾، قال ناس من قريش لأبي بكر رضي الله عنه: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك، قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر رضي الله عنه والمشركون وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر رضي الله عنه: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطا تنتهي إليه، قال: فسموا بينهم ست سنين، قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر رضي الله عنه، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر رضي الله عنه تسمية ست سنين، لأن الله تعالى قال في بضع سنين، قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. أخرجه الترمذي (٣١٩٢).

(٣) المراد بالأمر هنا القول، أي: الأمر الكوني والشرعي. والإرادة ليست هي القول، فإن الإرادة صفة لا تستلزم القول؛ إذ إن المريد قد يفعل ما أراد أو قد يقوله، وأما القول فإنه أخص من الإرادة، كل قول فهو متضمن للإرادة، وليست كل إرادة متضمنة للقول. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص:٢٢)].

فَرِحُوا بِذَلِكَ، وَعَلِمُوا بِهِ يَوْمَ وُقُوعِهِ يَوْمَ بَدْرٍ بِنُزُولِ جِبْرِيلَ بِذَلِكَ مَعَ فَرَحِهِمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيهِ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ﴾ مَصْدَرٌ، بَدَلٌ مِنَ اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، وَالْأَصْلُ: وَعَدَهُمُ اللهُ النَّصْرَ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بِهِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ وَعْدَهُ تَعَالَى بِنَصْرِهِمْ. ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: مَعَايِشَهَا مِنَ التِّجَارَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَالْبِنَاءِ وَالْغَرْسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ إِعَادَةُ ﴿هُمْ﴾ تَأْكِيدٌ[1]. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ لِيَرْجِعُوا عَنْ غَفْلَتِهِمْ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾ لِذَلِكَ تَفْنَى عِنْدَ انْتِهَائِهِ وَبَعْدَهُ الْبَعْثُ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ أَيْ: لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ مِنَ الْأُمَمِ وَهِيَ إِهْلَاكُهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كَعَادٍ وَثَمُودَ ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ حَرَثُوهَا وَقَلَّبُوهَا لِلزَّرْعِ وَالْغَرْسِ ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ﴾ بِالْحُجَجِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ. ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تَأْنِيثُ «الْأَسْوَأُ»، الْأَقْبَحُ، خَبَرُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى رَفْعِ ﴿عَٰقِبَةُ﴾، وَاسْمُ ﴿كَانَ﴾ عَلَى نَصْبِ ﴿عَٰقِبَةَ﴾، وَالْمُرَادُ بِهَا جَهَنَّمُ وَإِسَاءَتُهُمْ، ﴿أَن﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ أَيْ: يُنْشِئُ خَلْقَ النَّاسِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أَيْ: خَلْقَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝١١﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ يَسْكُتُ الْمُشْرِكُونَ؛ لِانْقِطَاعِ حُجَّتِهِمْ[2]. ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ أَيْ: لَا يَكُونُ ﴿لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ مِمَّنْ أَشْرَكُوهُمْ

---

(١) معرفة الحياة الدنيا ليست بمذمة؛ لأن المؤمنين كانوا أيضا يعلمون ظاهر الحياة الدنيا، وإنما المذموم أن المشركين يعلمون ما هو ظاهر من أمور الدنيا ولا يعلمون أن وراء عالم المادة عالما آخر هو عالم الغيب. وقد اقتصر في تجهيلهم بعالم الغيب على تجهيلهم بوجود الحياة الآخرة اقتصارا بديعا حصل به التخلص من غرض الوعد بنصر الروم إلى غرض أهم وهو إثبات البعث مع أنه يستلزم إثبات عالم الغيب، ويكون مثالا لجهلهم بعالم الغيب وذما لجهلهم به بأنه أوقعهم في ورطة إهمال رجاء الآخرة وإهمال الاستعداد لما يقتضيه ذلك الرجاء. [ابن عاشور (٢١/ ٥٠)].

(٢) قرئ على البناء للفاعل يقال: أبلس الرجل إذا سكت، وانقطعت حجته؛ فهو قاصر لا يتعدى، قال الفراء والزجاج: المبلس الساكت المنقطع في حجته، الذي أيس أن يهتدي إليها، وقرئ مبنيًا للمفعول، وفيه بعد، لأن أبلس لا يتعدى وقال الكلبي: أي يأس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب ... وقال ابن عباس: يبلس ييتئس، وعنه: يكتئب، وعنه: الإبلاس الفضيحة. [صديق حسن (١٠/ ٢٣١)].

بِاللهِ، وَهُمُ: الْأَصْنَامُ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ﴾ أَيْ: يَكُونُونَ ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ١٣﴾ أَيْ: مُتَبَرِّئِينَ مِنْهُمْ. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾ أَيْ: الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ جَنَّةٍ ﴿يُحْبَرُونَ ١٥﴾ يُسَرُّونَ. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ١٦ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: سَبِّحُوا اللهَ بِمَعْنَى: صَلُّوا ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ أَيْ: تَدْخُلُونَ فِي الْمَسَاءِ، وَفِيهِ صَلَاتَانِ الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧﴾ تَدْخُلُونَ فِي الصَّبَاحِ، وَفِيهِ صَلَاةُ الصُّبْحِ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعْتِرَاضٌ، وَمَعْنَاهُ: يَحْمَدُهُ أَهْلُهُمَا ﴿وَعَشِيًّا﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿حِينَ﴾، وَفِيهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ١٨﴾ تَدْخُلُونَ فِي الظَّهِيرَةِ، وَفِيهِ صَلَاةُ الظُّهْرِ. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كَالْإِنْسَانِ مِنَ النُّطْفَةِ وَالطَّائِرِ مِنَ الْبَيْضَةِ ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ﴾ النُّطْفَةَ وَالْبَيْضَةَ ﴿مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾ أَيْ: يَبْسِهَا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الْإِخْرَاجِ ﴿تُخْرَجُونَ ١٩﴾ مِنَ الْقُبُورِ، بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أَيْ: أَصْلَكُمْ آدَمَ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ﴾ مِنْ دَمٍ وَلَحْمٍ ﴿تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ فِي الْأَرْضِ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ فَخُلِقَتْ حَوَّاءُ مِنْ ضِلَعِ آدَمَ، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ نُطَفِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ وَتَأْلَفُوهَا(١) ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ جَمِيعًا ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ فِي صُنْعِ اللهِ تَعَالَى. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ أَيْ: لُغَاتِكُمْ مِنْ عَرَبِيَّةٍ وَعَجَمِيَّةٍ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْۚ﴾ مِنْ بَيَاضٍ وَسَوَادٍ وَغَيْرِهِمَا، وَأَنْتُمْ أَوْلَادُ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ٢٢﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وَكَسْرِهَا، أَيْ: ذَوِي الْعُقُولِ وَأُولِي الْعِلْمِ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بِإِرَادَتِهِ رَاحَةً لَكُمْ ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم﴾ بِالنَّهَارِ ﴿مِّن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ أَيْ: تَصَرُّفُكُمْ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ بِإِرَادَتِهِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ٢٣﴾ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ وَاعْتِبَارٍ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ أَيْ: إِرَاءَتُكُمْ ﴿ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِرِ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي الْمَطَرِ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ﴾ أَيْ: يُبْسِهَا بِأَنْ تُنْبِتَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾

---

(١) كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ... ثم من تمام رحمته بني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك. [ابن كثير (٦/ ٣٠٩)].

اَلْمَذْكُورِ ﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ بِإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ[1] ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بِأَنْ يَنْفُخَ إِسْرَافِيلُ فِي اَلصُّورِ لِلْبَعْثِ مِنَ اَلْقُبُورِ ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥﴾ مِنْهَا أَحْيَاءً، فَخُرُوجُكُمْ مِنْهَا بِدَعْوَةٍ مِنْ آيَاتِهِ تَعَالَى. ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ مُطِيعُونَ[2]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ لِلنَّاسِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ مِنَ اَلْبَدْءِ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا عِنْدَ اَلْمُخَاطَبِينَ مِنْ أَنَّ إِعَادَةَ اَلشَّيْءِ أَسْهَلُ مِنِ ابْتِدَائِهِ، وَإِلَّا فَهُمَا عِنْدَ اَللهِ تَعَالَى سَوَاءٌ فِي اَلسُّهُولَةِ ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أَيِ: اَلصِّفَةُ اَلْعُلْيَا، وَهِيَ أَنَّهُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ»[3] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿ضَرَبَ﴾ جَعَلَ ﴿لَكُم﴾ أَيُّهَا اَلْمُشْرِكُونَ ﴿مَّثَلٗا﴾ كَائِنًا ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾ وَهُوَ ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم﴾ أَيْ: مِنْ مَمَالِيكِكُمْ ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ لَكُمْ ﴿فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ مِنَ اَلْأَمْوَالِ

---

(١) فسره بقوله: من غير عمد، وهذا يدل على أنه ذهب إلى أن المراد بالقيام هنا القيام الحسي، يعني: أن تبقى غير واقعة على الأرض، بل هي ممسكة بأمر الله سبحانه وتعالى بغير عمد، ... والصواب ... أنه يشمل القيام الحسي والقيام المعنوي، فالسماوات قائمة بأمر الله قياما حسيا بما فيها من الانتظام بما خلق الله عز وجل من الأفلاك المتضمنة للشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، وكذلك الأرض قائمة قياما حسيا بما أودع الله تعالى فيها من مصالح الخلق، من أشجار ونبات وأنهار وبحار، وغير ذلك، هذا قيام حسي. فيه أيضا قيام معنوي، وهو قيام هذه بطاعة الله، فإن المعاصي إفساد في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالسماوات أيضا والأرض تقوم بأمر الله الشرعي كما تقوم بأمره الكوني، ولا قيام للأرض ولا للسماوات إلا بالتزام أمر الله الشرعي، فحينئذ يفسر القيام بأنه قيام حسي وقيام معنوي. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص:١٣٧)].

(٢) مطيعون طاعة انقياد قاله النحاس، وقيل: مقرون بالعبودية إما بالمقال وإما بالدلالة قاله عكرمة وأبو مالك والسدي، وقيل: مصلون، وقيل: قائمون يوم القيامة، كقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] أي: للحساب قاله الربيع بن أنس، وقيل: بالشهادة أنهم عباده قال الحسن، وقيل: مطيعون لأفعاله لا يمتنع عليه شيء يريد فعله بهم، من حياة وموت ومرض وصحة فهي طاعة الإرادة، لا طاعة العبادة، وقيل: مخلصون قاله سعيد بن جبير، وقال ابن عباس: مطيعون في الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. [صديق حسن (١٠/ ٢٤١)].

(٣) كل صفة كاملة فلله سبحانه وتعالى أكملها، وكل صفة نقص فإنه مُنَزَّهٌ عنها، وأما قول المؤلف: «وهي أنه لا إله إلا الله» فهذا فرد من أفراد المثل الأعلى، وليس هو المثل الأعلى كله، فإن لا إله إلا الله تدل على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية، وهذا من المثل الأعلى، لكن المثل الأعلى أعم من ذلك، فله مثلًا القدرة الكاملة، والعلم الكامل، والحياة الكاملة، والسمع الكامل، والبصر الكامل، والحكمة البالغة، وهكذا. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص:١٤٩)].

وَغَيْرِهَا ﴿فَأَنتُمْ﴾ وَهُمْ ﴿فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أَيْ: أَمْثَالَكُمْ مِنَ الْأَحْرَارِ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ، الْمَعْنَى لَيْسَ مَمَالِيكُكُمْ شُرَكَاءَ لَكُمْ إِلَى آخِرِهِ عِنْدَكُمْ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ بَعْضَ مَمَالِيكِ اللهِ شُرَكَاءَ لَهُ؟ ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ نُبَيِّنُهَا مِثْلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بِالْإِشْرَاكِ ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أَيْ: لَا هَادِيَ لَهُ ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾ مَانِعِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ. ﴿فَأَقِمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾ مَائِلًا إِلَيْهِ، أَيْ: أَخْلِصْ دِينَكَ لِلَّهِ أَنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خِلْقَتَهُ ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ وَهِيَ دِينُهُ[1]، أَيِ: الْزَمُوهَا ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ لِدِينِهِ، أَيْ: لَا تُبَدِّلُوهُ بِأَنْ تُشْرِكُوا ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ الْمُسْتَقِيمُ تَوْحِيدُ اللهِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ تَوْحِيدَ اللهِ. ﴿۞مُنِيبِينَ﴾ رَاجِعِينَ ﴿إِلَيْهِ﴾ تَعَالَى فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ، حَالٌ مِنْ فَاعِلِ «أَقِمْ» وَمَا أُرِيدَ بِهِ، أَيْ: أَقِيمُوا ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ خَافُوهُ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ بَدَلٌ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بِاخْتِلَافِهِمْ فِيمَا يَعْبُدُونَهُ ﴿وَكَانُواْ شِيَعًاۖ﴾ فِرَقًا فِي ذَلِكَ ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عِنْدَهُمْ ﴿فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ مَسْرُورُونَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَٰرَقُواْ﴾ أَيْ: تَرَكُوا دِينَهُمُ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ. ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿ضُرٌّ﴾ شِدَّةٌ ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ﴾ رَاجِعِينَ ﴿إِلَيْهِ﴾ دُونَ غَيْرِهِ ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بِالْمَطَرِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ﴾ أُرِيدَ بِهِ التَّهْدِيدُ ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ عَاقِبَةَ تَمَتُّعِكُمْ، فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ. ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تَكَلُّمَ دَلَالَةٍ ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝٣٥﴾ أَيْ: يَأْمُرُهُمْ بِالْإِشْرَاكِ؟ لَا. ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ كُفَّارَ مَكَّةَ وَغَيْرَهُمْ ﴿رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً[2] ﴿فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ فَرَحَ بَطَرٍ[3] ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شِدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ يَيْأَسُونَ مِنَ

---

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]. أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) يشمل جميع النِّعم من مال، وأولاد، وأمن، ورخاء في العيش، وغير ذلك. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص:٢١٣)].

(٣) احترازًا من الفرح بنعمة الله فرح شكر؛ لأن هذا لا يذم كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، فأمر الله تعالى أن نفرح بفضل الله ورحمته، وعلى هذا فالفرح نوعان؛ فرح بطر يؤدي إلى الأشر والاستكبار عن الحق والتَّعلِّي عن الخلق، هذا هو المذموم، والثاني: فرح شُكْر، يكون الإنسان فرحًا بنعمة الله، لكن هذا الفرح يحمله على شكر النعمة. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص:٢١٣)].

اَلرَّحْمَةِ، وَمِنْ شَأْنِ اَلْمُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ اَلنِّعْمَةِ، وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ اَلشِّدَّةِ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يَعْلَمُوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ اِمْتِحَانًا، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ اِبْتِلَاءً، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣٧﴾ بِهَا. ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ اَلْقَرَابَةِ ﴿حَقَّهُۥ﴾ مِنَ اَلْبِرِّ وَالصِّلَةِ ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ اَلْمُسَافِرَ مِنَ اَلصَّدَقَةِ، وَأُمَّةُ اَلنَّبِيِّ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: ثَوَابَهُ بِمَا يَعْمَلُونَ[1] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٣٨﴾ اَلْفَائِزُونَ. ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ بِأَنْ يُعْطَى شَيْءٌ هِبَةً أَوْ هَدِيَّةً؛ لِيُطْلَبَ أَكْثَرُ مِنْهُ، فَسُمِّيَ بِاسْمِ اَلْمَطْلُوبِ مِنَ اَلزِّيَادَةِ فِي اَلْمُعَامَلَةِ ﴿لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ اَلْمُعْطِينَ، أَيْ: لِيَزِيدَ ﴿فَلَا يَرْبُواْ﴾ يَزْكُو ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لَا ثَوَابَ فِيهِ لِلْمُعْطِينَ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ صَدَقَةٍ ﴿تُرِيدُونَ﴾ بِهَا ﴿وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾ ثَوَابَهُمْ بِمَا أَرَادُوهُ، فِيهِ اِلْتِفَاتٌ عَنِ اَلْخِطَابِ. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ مِمَّنْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ لَا ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٤٠﴾ بِهِ. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ﴾ أَيِ: اَلْقِفَارِ بِقَحْطِ اَلْمَطَرِ وَقِلَّةِ اَلنَّبَاتِ ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ أَيِ: اَلْبِلَادِ اَلَّتِي عَلَى اَلْأَنْهَارِ بِقِلَّةِ مَائِهَا ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ مِنَ اَلْمَعَاصِي ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أَيْ: عُقُوبَتَهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٤١﴾ يَتُوبُونَ. ﴿قُلْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ٤٢﴾ فَأُهْلِكُوا بِإِشْرَاكِهِمْ، وَمَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ خَاوِيَةٌ. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ دِينِ اَلْإِسْلَامِ ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ هُوَ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾ فِيهِ إِدْغَامُ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلصَّادِ، يَتَفَرَّقُونَ بَعْدَ اَلْحِسَابِ إِلَى اَلْجَنَّةِ وَالنَّارِ. ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ وَبَالُ كُفْرِهِ وَهُوَ اَلنَّارُ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ٤٤﴾ يُوَطِّئُونَ[2] مَنَازِلَهُمْ فِي اَلْجَنَّةِ. ﴿لِيَجْزِىَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يُثِيبُهُمْ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ٤٥﴾ أَيْ: يُعَاقِبُهُمْ[3]. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ تَعَالَى: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بِمَعْنَى: لِتُبَشِّرَكُمْ بِالْمَطَرِ ﴿وَلِيُذِيقَكُم﴾ بِهَا ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ اَلْمَطَرَ وَالْخِصْبَ ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ اَلسُّفُنُ بِهَا ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ تَطْلُبُوا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ اَلرِّزْقَ بِالتِّجَارَةِ فِي اَلْبَحْرِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

---

(١) أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى. [ابن كثير (٦/ ٣١٨)].

(٢) التمهيد بمعنى التوطئة، ومنه قولهم: هذا طريق ممهَّد، يعني: موطأ محسن لأجل أن تطأه الأقدام ... وذلك لأن الذين يعملون صالحًا يتوصلون بعملهم الصالح إلى دخول الجنة، فيسهل لهم الطريق الذي يوصلهم إليها. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص:٢٧٦)].

(٣) هذه الجملة علة لجملة محذوفة إذ التقدير: ويجزي الكافرين بعدله وهو سوء العذاب لأنه لا يحب الكافرين. [أبو بكر الجزائري (٤/ ١٨٦)].

﴿٤٦﴾ هَذِهِ النِّعَمَ يَا أَهْلَ مَكَّةَ فَتُوَحِّدُوهُ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ، عَلَى صِدْقِهِمْ فِي رِسَالَتِهِمْ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أَهْلَكْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوهُمْ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ بِإِهْلَاكِهِمْ، وَإِنْجَاءِ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تُزْعِجُهُ[١] ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ مِنْ قِلَّةٍ وَكَثْرَةٍ ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِهَا، قِطَعًا مُتَفَرِّقَةً[٢] ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ الْمَطَرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أَيْ: وَسَطِهِ[٣] ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بِالْوَدْقِ ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يَفْرَحُونَ بِالْمَطَرِ. ﴿وَإِن﴾ وَقَدْ ﴿كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ آيِسِينَ مِنْ إِنْزَالِهِ. ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿آثَارِ﴾ ﴿رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أَيْ: نِعْمَتِهِ بِالْمَطَرِ[٤] ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَيْ: يُبْسِهَا بِأَنْ تُنْبِتَ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الْمُحْيِيَ الْأَرْضَ ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مُضِرَّةً عَلَى نَبَاتٍ ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا﴾ صَارُوا جَوَابُ الْقَسَمِ ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أَيْ: بَعْدِ اصْفِرَارِهِ ﴿يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ يَجْحَدُونَ النِّعْمَةَ بِالْمَطَرِ[٥]. ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْيَاءِ ﴿وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن﴾ مَا ﴿تُسْمِعُ﴾ سَمَاعَ إِفْهَامٍ وَقَبُولٍ ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مُخْلِصُونَ بِتَوْحِيدِ اللهِ[٦]. ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ آخَرَ

---

(١) أي: ينشره. [البغوي (٦/ ٢٧٦)].

(٢) أي: سحابا ثخينا قد طبق بعضه فوق بعض. [السعدي (ص:٦٤٤)].

(٣) نقطا صغارا متفرقة، لا تنزل جميعا فتفسد ما أتت عليه. [السعدي (ص:٦٤٤)].

(٤) الرحمة في مثل هذا يصح أن تكون اسما للمخلوق ويصح أن تكون من صفات الله؛ فإن كان المراد الأثر المباشر فالمراد بالرحمة المطر؛ لأن هذا النبات نبت بماذا؟ بالمطر، وإن كان المراد السبب غير المباشر فالمراد بالرحمة صفة الله؛ يعني لكون الله جل وعلا رحيما فهذه من آثار الرحمة أنه ينزل المطر، وتنبت به الأرض، ويزول به القحط، فالآية صالحة لهذا ولهذا. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص:٣١٨)].

(٥) وهذه الجملة سيقت للتنبيه على أن الكفران مطبوع في نفوسهم بحيث يعاودهم بأدنى سبب، فهم إذا أصابتهم النعمة استبشروا ولم يشكروا، وإذا أصابتهم البأساء أسرعوا إلى الكفران، فصور لكفرهم أعجب صورة وهي إظهارهم إياه بحدثان ما كانوا مستبشرين منه إذ يكون الزرع أخضر والأمل في الارتزاق منه قريبا فيصيبه إعصار فيحترق فيضجون من ذلك وتكون حالهم حالة من يكفر بالله وتجري على أقوالهم عبارات السخط والقنوط. [ابن عاشور (٢١/ ١٢٤)].

(٦) يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مدبرون

وَهُوَ ضَعْفُ اَلطُّفُولِيَّةِ ﴿قُوَّةً﴾ أَيْ: قُوَّةَ اَلشَّبَابِ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ ضَعْفَ اَلْكِبَرِ وَشَيْبَ اَلْهَرَمِ وَالضَّعْفُ فِي اَلثَّلَاثَةِ بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِهِ ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ﴾ مِنَ اَلضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ وَالشَّبَابِ وَالشَّيْبَةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ ﴿ٱلۡقَدِيرُ ٥٤﴾ عَلَى مَا يَشَاءُ. ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ﴾ يَحْلِفُ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ اَلْكَافِرُونَ ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ فِي اَلْقُبُورِ ﴿غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ اَلْحَقِّ اَلْبَعْثِ، كَمَا صُرِفُوا عَنِ اَلْحَقِّ اَلصِّدْقِ فِي مُدَّةِ اَللُّبْثِ[1]. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ مِنَ اَلْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ[2]: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فِيمَا كَتَبَهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ اَلَّذِي أَنْكَرْتُمُوهُ ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦﴾ وُقُوعَهُ. ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ فِي إِنْكَارِهِمْ لَهُ ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمُ «اَلْعُتْبَى»، أَيِ: اَلرُّجُوعُ إِلَى مَا يُرْضِي اَللهَ[3]. ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ

عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]. [ابن كثير (٦/ ٣٢٤)].

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم. انتهى. وقال الشهاب: المراد من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ تشابه حاليهم في الكذب، وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم؛ لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل، والغرض من سوق الآية، وصف المجرمين بالتمادي في الباطل، والكذب الذي ألفوه. انتهى. وقيل: كان قسمهم استقلالا لأجل الدنيا، لما عاينوا الآخرة، تأسفا على ما أضاعوا في الدنيا. [القاسمي (٨/ ٢٢)].

(٢) اختلف في تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: علماء الأمم، وقيل مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع. [الشوكاني (٤/ ٢٦٧)].

(٣) قال الزمخشري: من قولك: استعتبني فلان فأعتبته: أي: استرضاني فأرضيته، وذلك إذا كان جانيا عليه، وحقيقته: أعتبته: أزلت عتبه ... والمعنى: لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]. فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات، وغير معتبين في بعضها؟ وقوله: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين فهذا معناه، وأما كونهم غير معتبين فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جني عليهم، فهم عاتبون على الجاني، غير راضين منه. فإن يستعتبوا الله: أي: يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته. وقال ابن عطية: هذا

مَثَلٍۚ﴾ تَنْبِيهًا لَهُمْ[(١)] ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿جِئْتَهُم﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ مِثْلِ الْعَصَا وَالْيَدِ لِمُوسَى ﴿لَّيَقُولَنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ، وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مِنْهُمْ: ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ﴾ أَيْ: مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أَصْحَابُ أَبَاطِيلَ. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ التَّوْحِيدَ، كَمَا طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ[(٢)]. ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِنَصْرِكَ عَلَيْهِمْ ﴿حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بِالْبَعْثِ، أَيْ: لَا يَحْمِلَنَّكَ عَلَى الْخِفَّةِ وَالطَّيْشِ بِتَرْكِ الصَّبْرِ[(٣)]، أَيْ: لَا تَتْرُكْهُ.

إخبار عن هول يوم القيامة، وشدة أحواله على الكفرة في أنهم لا ينفعهم الاعتذار، ولا يعطون عتبى، وهو الرضا. [أبو حيان (٨/ ٤٠٣)].

(١) أي: وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، وكذا ضربنا لهم من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله، وصدق رسله، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وفيه إشارة إلى إزالة الأعذار، والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار. [صديق حسن (١٠/ ٢٦٩)].

(٢) أي: مثل ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحقين مبطلين وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة. [النسفي (٢/ ٧٠٨)].

(٣) الله تعالى قد بين في بعض الآيات القرآنية أنه يخاطب النبي ﷺ بخطاب لا يريد به نفس رسول الله ﷺ، وإنما يريد به التشريع. ومن أصرح الآيات في ذلك قوله تعالى مخاطبا له ﷺ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ الآية [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل نزول هذه الآية بزمن طويل، فلا وجه البتة لاشتراط بلوغهما، أو بلوغ أحدهما الكبر عنده، بل المراد تشريع بر الوالدين لأمته، بخطابه ﷺ. وبهذا تعلم أن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، يراد به التشريع لأمته؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك الكفر الذي نهي عنه. [الشنقيطي (٦/ ٥٤٢)].

سُورَةُ لُقمَانَ

مَكِّيَّةٌ أَوْ إِلَّا ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ ٱلْآيَتَينِ فَمَدَنِيتَانِ، وَهِيَ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ[١]. ﴿تِلْكَ﴾ أَيْ: هَذِهِ ٱلْآيَاتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ٱلْقُرْآنِ ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ ذِي ٱلْحِكْمَةِ[٢]، وَٱلْإِضَافَةُ بِمَعْنَى: «مِنْ». هُوَ ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ بِٱلرَّفْعِ ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ وَفِي قِرَاءَةِ ٱلْعَامَّةِ بِٱلنَّصْبِ حَالًا مِنَ ٱلْآيَاتِ، ٱلْعَامِلِ فِيهَا مَا فِي ﴿تِلْكَ﴾ مِنْ مَعْنَى ٱلْإِشَارَةِ. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بَيَانٌ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ ﴿هُمْ﴾ ٱلثَّانِي تَوْكِيدٌ. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ ٱلْفَائِزُونَ. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أَيْ: مَا يُلْهِي مِنْهُ عَمَّا يَعْنِي[٣] ﴿لِيُضِلَّ﴾ بِفَتْحِ ٱلْيَاءِ وَضَمِّهَا ﴿عَن

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير. من إحكامها: أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها. ومن إحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف. ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح، يناقض ما دلت عليه. ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته. ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم، فتعمل بالحزم. ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض، ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبرا، وأعمل فيها العقل تفكرا، انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزما لا يمترى فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد. ولكن مع أنه حكيم يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه. [السعدي (ص:٦٤٦)].

(٣) لهو الحديث: الغناء، وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد الآية ... وذكره أبو الفرج الجوزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنخعي. قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب، وقاله مجاهد، وزاد: إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل. وقال الحسن: لهو الحديث المعازف والغناء. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل والباطل في النار. [القرطبي (١٤/ ٥١)].

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى «يُضِلَّ»، وَبِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى ﴿يَشْتَرِى﴾ ﴿هُزُوًا﴾ مَهْزُوءًا بِهَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ مُتكبِّرًا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ صَمَمًا، وَجُمْلَتَا التَّشْبِيهِ حَالَانِ مِنْ ضَمِيرِ ﴿وَلَّىٰ﴾، أَوِ الثَّانِيَةُ بَيَانٌ لِلْأُولَى ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أَعْلِمْهُ ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾ مُؤْلِمٍ، ذِكْرُ الْبِشَارَةِ تَهَكُّمٌ بِهِ، وَهُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ كَانَ يَأْتِي الْحِيرَةَ يَتَّجِرُ فَيَشْتَرِي كُتُبَ أَخْبَارِ الْأَعَاجِمِ وَيُحَدِّثُ بِهَا أَهْلَ مَكَّةَ، وَيَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُحَدِّثُكُمْ أَحَادِيثَ عَادٍ وَثَمُودَ، وَأَنَا أُحَدِّثُكُمْ أَحَادِيثَ فَارِسَ وَالرُّومِ، فَيَسْتَمْلِحُونَ حَدِيثَهُ وَيَتْرُكُونَ اسْتِمَاعَ الْقُرْآنِ(١). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيْ: مُقَدَّرًا خُلُودُهُمْ فِيهَا إِذَا دَخَلُوهَا ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أَيْ: وَعَدَهُمُ اللهُ ذَلِكَ، وَحَقَّهُ حَقًّا ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ فَيَمْنَعَهُ مِنْ إِنْجَازِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ الَّذِي لَا يَضَعُ شَيْئًا إِلَّا فِي مَحِلِّهِ. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أَيِ: الْعَمَدُ جَمْعُ «عِمَادٍ» وَهُوَ الْأُسْطُوَانَةُ، وَهُوَ صَادِقٌ بِأَنْ لَا عَمَدَ أَصْلًا(٢) ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جِبَالًا مُرْتَفِعَةً(٣) لِـ ﴿أَن﴾ لَا ﴿تَمِيدَ﴾ تَتَحَرَّكَ ﴿بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ صِنْفٍ حَسَنٍ. ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مَخْلُوقُهُ ﴿فَأَرُونِى﴾ أَخْبِرُونِي يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ غَيْرُهُ، أَيْ: آلِهَتُكُمْ حَتَّى أَشْرَكْتُمُوهَا بِهِ تَعَالَى، وَ«مَا» اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ مُبْتَدَأٌ، وَ«ذَا» بِمَعْنَى: الَّذِي بِصِلَتِهِ خَبَرُهُ، وَ«أَرُونِي» مُعَلَّقٌ عَنِ الْعَمَلِ، وَمَا بَعْدَهُ سَدَّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ ﴿بَلِ﴾ لِلِانْتِقَالِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾ بَيِّنٍ بِإِشْرَاكِهِمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ مِنْهَا: الْعِلْمُ وَالدِّيَانَةُ وَالْإِصَابَةُ فِي الْقَوْلِ، وَحِكَمُهُ كَثِيرَةٌ مَأْثُورَةٌ، كَانَ يُفْتِي قَبْلَ بَعْثِ دَاوُدَ، وَأَدْرَكَ زَمَنَهُ وَأَخَذَ عَنْهُ الْعِلْمَ وَتَرَكَ الْفُتْيَا، وَقَالَ فِي ذَلِكَ: «أَلَا أَكْتَفِي إِذَا كُفِيتُ؟»

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:٢٣٢) عن الكلبي ومقاتل، وهما متهمان بالكذب. وعن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ، وَلَا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ، وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ»، في مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية. أخرجه الترمذي (١٢٨٢)، وأحمد (٢٢٢٨٠). قال ابن القيم: إن كان مداره على عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم فعبيد الله ابن زحر ثقة والقاسم ثقة وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات. [إغاثة اللهفان (١/ ٣٦٢)].

(٢) انظر التعليق على تفسير الآية (٢) من سورة الرعد.

(٣) أي: من مظاهر قدرته وحكمته إلقاء الجبال الرواسي على الأرض لتحفظ توازنها حتى لا تميل بأهلها فيفسد ويسقط ما عليها وتنعدم الحياة عليها وهو معنى ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: تميل، وإذا مالت تصدع كل ما عليها وخرب. [أبو بكر الجزائري (٤/ ٢٠١)].

وَقِيلَ لَهُ: أَيُّ اَلنَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «اَلَّذِي لَا يُبَالِي إِنْ رَآهُ اَلنَّاسُ مُسِيئًا»(١) ﴿أَنِ﴾ أَيْ: وَقُلْنَا لَهُ: أَنْ ﴿ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ﴾ عَلَى مَا أَعْطَاكَ مِنَ اَلْحِكْمَةِ ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ﴾ لِأَنَّ ثَوَابَ شُكْرِهِ لَهُ ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ اَلنِّعْمَةَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿حَمِيدٌ ۝١٢﴾ مَحْمُودٌ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾ تَصْغِيرُ إِشْفَاقٍ ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بِاللهِ ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَأَسْلَمَ. ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أَمَرْنَاهُ أَنْ يَبَرَّهُمَا ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ فَوَهَنَتْ ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أَيْ: ضَعُفَتْ لِلْحَمْلِ، وَضَعُفَتْ لِلطَّلْقِ، وَضَعُفَتْ لِلْوِلَادَةِ ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أَيْ: فِطَامُهُ ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ وَقُلْنَا لَهُ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤﴾ أَيِ: اَلْمَرْجِعُ. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مُوَافَقَةٌ لِلْوَاقِعِ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ أَيْ: بِالْمَعْرُوفِ، اَلْبِرِّ وَالصِّلَةِ ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ طَرِيقَ ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ رَجَعَ ﴿إِلَىَّۚ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ فَأُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَجُمْلَةُ اَلْوَصِيَّةِ وَمَا بَعْدَهَا اِعْتِرَاضٌ. ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ﴾ أَيِ: اَلْخَصْلَةُ اَلسَّيِّئَةُ ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: فِي أَخْفَى مَكَانٍ مِنْ ذَلِكَ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ فَيُحَاسِبُ عَلَيْهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بِاسْتِخْرَاجِهَا ﴿خَبِيرٌ ۝١٦﴾ بِمَكَانِهَا. ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ بِسَبَبِ اَلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورَ ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧﴾ أَيْ: مَعْزُومَاتِهَا اَلَّتِي يُعْزَمُ عَلَيْهَا لِوُجُوبِهَا(٢). ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿تُصَٰعِرْ﴾ ﴿خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لَا تُمِلْ وَجْهَكَ عَنْهُمْ تَكَبُّرًا ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ أَيْ: خُيَلَاءَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ مُتَبَخْتِرٍ فِي مَشْيِهِ ﴿فَخُورٍ ۝١٨﴾ عَلَى اَلنَّاسِ. ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ تَوَسَّطْ فِيهِ بَيْنَ اَلدَّبِيبِ وَالْإِسْرَاعِ، وَعَلَيْكَ اَلسَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ

---

(١) اختلف في لقمان، هل هو عربي؟ أم أعجمي؟ مشتق من اللقم، فمن قال: إنه أعجمي منعه للتعريف والعجمة. ومن قال: إنه عربي منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون. قال الحفناوي: والأول أظهر ... والحكمة التي آتاه الله هي الفقه، والعقل، والإصابة في القول ... وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه. ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء، ولا يثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله، وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع، وفيه كفاية ... ولم يكن نبيًا، حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناد ما روي عنه من الكلمات، حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلام الحكمة التي هي ضالة المؤمن. [صديق حسن (١٠/ ٢٨١)].

(٢) أي: من المحن والبلايا، أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه، وهو أظهر. ويطابقه آية: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. [القاسمي (٨/ ٣١)].

﴿وَٱغۡضُضۡ﴾ اِخفِض ﴿مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ﴾ أَقبَحَها ﴿لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ أَوَّلُهُ زَفِيرٌ وَآخِرُهُ شَهِيقٌ[١].

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ تَعلَمُوا يَا مُخَاطَبِينَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ لِتَنْتَفِعُوا بِهَا ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِنَ الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالدَّوَابِّ ﴿وَأَسۡبَغَ﴾ أَوْسَعَ وَأَتَمَّ ﴿عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ وَهِيَ حُسْنُ الصُّورَةِ وَتَسْوِيَةُ الْأَعْضَاءِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ ﴿وَبَاطِنَةًۗ﴾ هِيَ الْمَعْرِفَةُ وَغَيْرُهَا[٢] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّةَ ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدٗى﴾ مِنْ رَسُولٍ ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ أَنْزَلَهُ اللهُ، بَلْ بِالتَّقْلِيدِ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَ﴾ يَتَّبِعُونَهُمْ ﴿وَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ أَيْ: مُوجِبَاتِهِ، لَا. ﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: يُقْبِلْ عَلَى طَاعَتِهِ ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ مُوَحِّدٌ[٣] ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ بِالطَّرَفِ الْأَوْثَقِ الَّذِي لَا يُخَافُ انْقِطَاعُهُ[٤] ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾ مَرْجِعُهَا. ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ لَا تَهْتَمَّ بِكُفْرِهِ ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣﴾ أَيْ: بِمَا فِيهَا كَغَيْرِهِ، فَمُجَازٍ عَلَيْهِ. ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿قَلِيلٗا﴾ أَيَّامَ حَيَاتِهِمْ ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، لَا يَجِدُونَ عَنْهُ مَحِيصًا. ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي الْأَمْثَالِ، وَوَاوُ الضَّمِيرِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ عَلَى ظُهُورِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْحِيدِ ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٥﴾ وُجُوبَهُ عَلَيْهِمْ.

---

(١) تعليل للأمر على أبلغ وجه وآكده، مبني على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، وإفراط في التحذير عن رفع الصوت، والتنفير عنه، وإفراد الصوت مع إضافته إلى الجمع لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس. [أبو السعود (٧/ ٧٣)].

(٢) قرأ جمهور الناس: ﴿نِعۡمَةً﴾ على الإفراد، فقال مجاهد: المراد «لا إله إلا الله»، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أراد «الإسلام»، والظاهر عندي أنه اسم جنس، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨]. [ابن عطية (٤/ ٣٥٢)].

(٣) ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعا، قد اتبع فيه الرسول ﷺ. أو: ومن يسلم وجهه إلى الله، بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها، بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه. أو ومن يسلم وجهه إلى الله، بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم. والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين، على وجه تقبل به وتكمل. [السعدي (ص: ٦٥٠)].

(٤) أي: تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب، وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه. [أبو السعود (٧/ ٧٤)].

﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ فِيهِمَا غَيْرُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ الْمَحْمُودُ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ﴾ عَطْفٌ عَلَى اِسْمِ «أَنَّ» ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مِدَادًا ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ الْمُعَبَّرُ بِهَا عَنْ مَعْلُومَاتِهِ(١)، بِكَتْبِهَا بِتِلْكَ الْأَقْلَامِ بِذَلِكَ الْمِدَادِ وَلَا بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَعْلُومَاتِهِ تَعَالَى غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ. ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ خَلْقًا وَبَعْثًا؛ لِأَنَّهُ بِكَلِمَةِ «كُنْ» فَيَكُونُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يَسْمَعُ كُلَّ مَسْمُوعٍ ﴿بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ يُبْصِرُ كُلَّ مُبْصَرٍ، لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمْ يَا مُخَاطَبُ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ يُدْخِلُ ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ يُدْخِلُهُ ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾ فَيَزِيدُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِمَا نَقَصَ مِنَ الْآخَرِ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ مِنْهُمَا ﴿يَجْرِىٓ﴾ فِي فَلَكِهِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، يَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ الزَّائِلُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ(٢) ﴿ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ الْعَظِيمُ. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُنَ ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم﴾ يَا مُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ ﴿مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ عِبَرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَنْ مَعَاصِي اللهِ ﴿شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ لِنِعْمَتِهِ. ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أَيْ: عَلَا الْكُفَّارَ ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ كَالْجِبَالِ الَّتِي تُظِلُّ مَنْ

---

(١) عبَّر المؤلف بقوله: إنَّ المراد بالكلمات المعلومات –معلومات الله– يعني: ما نفد ما يعلمه. لكن هذا تحريفٌ ظاهر للقرآن؛ الله يقول: ما نفدتْ كلماتُه، والكلمات هي اللي تُكتب، أمَّا المعلومات فقد تُكتب وقد لا تُكتب، فهل كل معلوماتك تكتبها؟! لكن كلماتك إذا أردتَ أن تعبِّر عنها للغير تنطق بها وتكتبها. [ابن عثيمين تفسير لقمان (ص:١٦٤)]، وفي الآية اختصار تقديره: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفدت كلمات الله. [البغوي (٦/ ٢٩٢)]. فهذا التمثيل من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر، أضعافا كثيرة، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة. وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاده، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاد له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد، بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية. والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئًا منه، وإلا فالأمر أعظم وأجل. [السعدي (ص:٦٥٠)].

(٢) وبذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم. [السعدي (ص:٦٥١)].

تَحْتَهَا ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أَيِ: الدُّعَاءَ بِأَنْ يُنْجِيَهُمْ، أَيْ: لَا يَدْعُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَمِنْهُمْ بَاقٍ عَلَى كُفْرِهِ(١) ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وَمِنْهَا الْإِنْجَاءُ مِنَ الْمَوْجِ ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غَدَّارٍ ﴿كَفُورٍ ٣٢﴾ لِنِعَمِ اللهِ تَعَالَى. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى﴾ يُغْنِي ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فِيهِ شَيْئًا ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ فِيهِ ﴿شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ عَنِ الْإِسْلَامِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ فِي حِلْمِهِ وَإِمْهَالِهِ ﴿ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ الشَّيْطَانُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مَتَى تَقُومُ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ بِوَقْتٍ يَعْلَمُهُ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى(٢)، وَلَا يَعْلَمُ وَاحِدًا مِنَ الثَّلَاثَةِ غَيْرُ اللهِ تَعَالَى ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَيَعْلَمُهُ اللهُ تَعَالَى ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وَيَعْلَمُهُ اللهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿خَبِيرٌ ٣٤﴾ بِبَاطِنِهِ كَظَاهِرِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ حَدِيثَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسَةٌ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾» ... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ(٣).

---

(١) أي: فقسم مقتصد، أي: عدل موف في البر، بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر، وأخرجه إلى البر سالماً. قال الحسن: معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: مقتصد في القول مضمر للكفر. وقال الرازي: المقتصد المتوسط بين السابق بالخيرات، والظالم لنفسه، وهو الذي تساوت سيئاته وحسناته، وقيل: متوسط بين الكفر والإيمان، لأنه انزجر بعض الانزجار، ومنهم باق على كفره لأن بعضهم كان أشد قولاً، وأعلى افتراء من بعض، والأولى ما ذكرناه. [صديق حسن (١٠/ ٣٠١)].

(٢) عبر بـ﴿مَا﴾؛ لأنها أعم وأشمل من «من»، إذ «من» تختص بالعاقل، ومن جهة أخرى ﴿مَا﴾ تختص بالصفات، و«من» بالذوات، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء ٣] ... قال: ﴿مَا طَابَ﴾ دون (من)؛ لأن النكاح يرتكز على صفة المرأة... فالجنين الذي في الرحم ليس العلم المختص به بمجرد كونه ذكرا أو أنثى، لا، هناك أبلغ من ذلك، وهو صفات هذا الجنين، ماذا يكون شقيا أم سعيدا، طويل العمر أم قصير العمر؟ هل عمله صالح، أو عمله فاسد؟ ولهذا الآن يطلعون على علمه بكونه ذكرا أم أنثى، يعرفون ذلك قبل أن يولد، فعلى هذا يتبين بلاغة القرآن. [ابن عثيمين تفسير لقمان (ص:٢٠٤)].

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٢٧) بلفظ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهَا إِلا اللهُ: لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلا اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا اللهُ».

سُورَةُ السَّجدَةِ

مَكِّيَّةٌ، ثَلاثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ[1]. ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ مُبْتَدَأٌ ﴿لَا رَيۡبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ خَبَرٌ أَوَّلُ ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ خَبَرٌ ثَانٍ. ﴿أَمۡ﴾ بَلْ ﴿يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ مُحَمَّدٌ لَا ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ﴾ بِهِ ﴿قَوۡمًا مَّآ﴾ نَافِيَةٌ ﴿أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣﴾ بِإِنْذَارِكَ. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أَوَّلُهَا الْأَحَدُ وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ هُوَ فِي اللُّغَةِ سَرِيرُ الْمُلْكِ، اِسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ[2] ﴿مَا لَكُم﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ اِسْمُ ﴿مَا﴾ بِزِيَادَةِ «مِنْ»، أَيْ: نَاصِرٌ ﴿وَلَا شَفِيعٍۚ﴾ يَدْفَعُ عَذَابَهُ عَنْكُمْ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤﴾ هَذَا فَتُؤْمِنُوا بِهِ. ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُدَّةَ الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ﴾ يَرْجِعُ الْأَمْرُ وَالتَّدْبِيرُ[3] ﴿إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ فِي الدُّنْيَا، وَفِي سُورَةِ «سَأَلَ» خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ[4]، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِشِدَّةِ أَهْوَالِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَكُونُ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الاستواء ورد في سبع مواضع من القرآن الكريم والأصل الراجح أن نعتقد ما ورد به القرآن ولا نؤوله ولا نصرفه عن وجهه وهو نص وظاهر في أن الله تعالى فوق العرش، ... وردَّت الجهمية هذه الصفة الثابتة له سبحانه، وتبعها المعتزلة، ورد عليهم الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين بثمانية عشر وجهاً، يطول ذكرها، ...فالاستواء على العرش، وكونه تعالى فوق الخلق عالياً عليهم، قد نطق به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها، ويطول نشرها، وكذلك صرح به رسول الله ﷺ في غير حديث، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس في نفسه، ويحسه في فطرته، وتجذبه إليه طبيعته، كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه، والتجأ إليه، ووجه دعاءه إلى جنابه الرفيع، وعزه المنيع، فإنه يشير عند ذلك بكفه، أو يرمي بطرفه، يستوى في ذلك عند عروض أسباب الأدعية، وحدوث بواعث الاستغاثة، ووجود مقتضيات الانزعاج، وظهور دواعي الالتجاء، عالم الناس وجاهلهم، وباديهم وحاضرهم، ... فالاستواء ثابت على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف، ولا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تمثيل، والمؤول غير مقتد بالسلف، ولا واقف في طريق النجاة. [صديق حسن (١١/ ١٠)].

(٣) أي: يصعد إليه. [القاسمي (٨/ ٣٨)].

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن يوم الألف في سورة «الحج»: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم الألف في سورة «السجدة»: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ

مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ[١]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أَيْ: مَا غَابَ عَنِ الْخَلْقِ وَمَا حَضَرَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الْمَنِيعُ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ فِعْلًا مَاضِيًا صِفَةٌ، وَبِسُكُونِهَا بَدَلُ اشْتِمَالٍ ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ آدَمَ ﴿مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ ذُرِّيَّتَهُ ﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾ عَلَقَةٍ ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨﴾ ضَعِيفٍ هُوَ النُّطْفَةُ. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أَيْ: خَلْقَ آدَمَ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ أَيْ: جَعَلَهُ حَيًّا حَسَّاسًا بَعْدَ أَنْ كَانَ جَمَادًا[٢] ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ أَيْ: لِذُرِّيَّتِهِ ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ بِمَعْنَى الْأَسْمَاعِ ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ الْقُلُوبَ ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ مَا زَائِدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِلْقِلَّةِ. ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أَيْ: مُنْكِرُو الْبَعْثِ ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ غِبْنَا فِيهَا، بِأَنْ صِرْنَا تُرَابًا مُخْتَلِطًا بِتُرَابِهَا ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ أَيْ: يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١﴾ أَحْيَاءً فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ مُطَأْطِئُوهَا حَيَاءً[٣]، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ مَا أَنْكَرْنَا مِنَ الْبَعْثِ ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ مِنْكَ تَصْدِيقَ الرُّسُلِ فِيمَا

مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى، ويوم الخمسين ألفا ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤] هو يوم القيامة. [وقيل:] أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن اختلاف زمن اليوم إنما هو باعتبار حال المؤمن، وحال الكافر؛ لأن يوم القيامة أخف على المؤمن منه على الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المدثر: ٩-١٠]. [الشنقيطي (٥/ ٧٨٤)]. وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقدار ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه ونزوله إلى الأرض ألف سنة مما تعدون من أيامكم خمس مئة في النزول وخمس مئة في الصعود، لأن ذلك أظهر معانيه وأشبهها بظاهر التنزيل. [الطبري (١٨/ ٥٩٦)].

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: يوما كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا». أخرجه أحمد (١١٧١٧)، وأبو يعلى (١٣٩٠)، وابن حبان (٧٣٣٤).

(٢) أضافه إليه تعالى تشريفا له، وإيذانا بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وأن له شأنا، ... وإن أقصى ما تنتهي إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذي يعبر عنه تارة بالإضافة إليه تعالى، وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. [أبو السعود (٧/ ٨١)].

(٣) يعني: عند الله عز وجل، وهم بين يديه يوم القيامة، ولكن ناكسوها يقول المؤلف: «حياء» وفي النفس من هذا التفسير شيء، ولكن

كَذَّبْنَاهُمْ فِيهِ ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إِلَى الدُّنْيَا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فِيهَا ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ الْآنَ، فَمَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَرْجِعُونَ[١]، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فَظِيعًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ فَتَهْتَدِي بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ بِاخْتِيَارٍ مِنْهَا[٢] ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ وَهُوَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ الْجِنِّ ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾[٣]. وَتَقُولُ لَهُمُ الْخَزَنَةُ[٤] إِذَا دَخَلُوهَا: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ الْعَذَابَ[٥] ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أَيْ: بِتَرْكِكُمُ الْإِيمَانَ بِهِ ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تَرَكْنَاكُمْ فِي الْعَذَابِ[٦] ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الدَّائِمِ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ مِنَ الْكُفْرِ

الظاهر أنهم ناكسوها ذلا وخضوعا لسلطان الله، بدليل قوله: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ أما «حياء» فالحياء محمود، لكن كونهم ناكسوها ذلا هذا هو الواقع ... كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى ٤٥]. [ابن عثيمين تفسير السجدة (ص:٦٣)]. والناكس: الذي يجعل أعلى شيء إلى أسفل ... ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة، وذلك مما يلاقون من التقريع والإهانة. [ابن عاشور (٢١/ ٢٢١)].

(١) لأن كل من شاهد العذاب فإنه لا ينفعه الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤-٨٥] ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] ولهذا يجب على الإنسان أن يبادر عمره قبل أن يحل به أجله فلا يستطيع الخلاص. [ابن عثيمين تفسير السجدة (ص:٦٤)].

(٢) كل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشيئتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة، تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ أي: وجب، وثبت ثبوتًا لا تغير فيه. [السعدي (ص:٦٥٤)].

(٣) هذا هو القول الذي وجب من الله، وحق على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطى كل نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى، وقدم الجن لأن المقام مقام تحقير، ولأن الجهنميين منهم أكثر فيما قيل ... والظاهر أنها لعموم الأفراد، والتعريف فيهما للعهد، والمراد عصاتهما، ويؤيده قوله في آية أخرى خطابًا لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] قاله الشهاب. [صديق حسن (١١/ ٢٢)].

(٤) الصواب: أن هذا القول من قول الله عز وجل، يقول لهم تقريعًا وتوبيخًا وتنديمًا أيضًا. [ابن عثيمين تفسير السجدة (ص:٧٤)].

(٥) واستعار الذوق للإحساس، وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس، وإن لم يكن مطعومـًا لإحساسها به كإحساس الذائقة بذوق المطعوم. [صديق حسن (١١/ ٢٣)].

(٦) أي: إنا سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]. [ابن كثير (٦/ ٣٦٢)]. والدليل على إطلاق النسيان على الترك قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ

وَالتَّكْذِيبِ. ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعِظُوا ﴿بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ﴾ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أَيْ: قَالُوا: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ. ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾ تَرْتَفِعُ ﴿عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ مَوَاضِعِ الِاضْطِجَاعِ بِفُرُشِهَا لِصَلَاتِهِمْ بِاللَّيْلِ تَهَجُّدًا[1] ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا﴾ مِنْ عِقَابِهِ ﴿وَطَمَعٗا﴾ فِي رَحْمَتِهِ ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ يَتَصَدَّقُونَ. ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ﴾ خُبِّئَ ﴿لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ مَا تَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ[2]، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ «الْيَاءِ» مُضَارِعٌ ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنُونَ وَالْفَاسِقُونَ. ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا﴾ هُوَ مَا يُعَدُّ لِلضَّيْفِ ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ بِالْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ عَذَابِ الدُّنْيَا، بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْجَدْبِ سِنِينَ وَالْأَمْرَاضِ ﴿دُونَ﴾ قَبْلَ ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ عَذَابِ الْآخِرَةِ ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أَيْ: مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ﴿يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ إِلَى الْإِيمَانِ. ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ

فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٧]، وهذه الآية ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾ بمعنى تركناكم، وليس معناها ذهول القلب عن معلوم، كقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه ٥٢]، فالنسيان المُثبت له هو الترك، والنسيان المنفي عنه هو الذهول عن الشيء. [ابن عثيمين تفسير السجدة (ص:٧٥)].

(١) عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوما قريبا منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ الله ولا تشرك به شيئا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ». ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ». ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾. ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» فقلت: بلى، يا رسول الله. فقال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِه الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ». ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» فقلت: بلى، يا نبي الله. فأخذ بلسانه ثم قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به. فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ». أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦).

(٢) قال الزجاج: يقال أقر الله عينك، أي: صادف فؤادك ما تحبه ... قيل: أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم. [صديق حسن (٩/ ٣٥٥)].
عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». قال أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾. أخرجه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤).

رَبِّهِۦ﴾ الْقُرْآنِ ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الْمُشْرِكِينَ[١] ﴿مُنتَقِمُونَ ٢٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ﴾ شَكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ وَقَدِ الْتَقَيَا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ[٢] ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾ أَيْ :مُوسَى، أَوِ الْكِتَابَ ﴿هُدٗى﴾ هَادِيًا ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً، قَادَةً[٣] ﴿يَهۡدُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ عَلَى دِينِهِمْ وَعَلَى الْبَلَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِنَا وَوَحْدَانِيَّتِنَا ﴿يُوقِنُونَ ٢٤﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ اللَّامِ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ. ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ أَيْ: يَتَبَيَّنْ لِكُفَّارِ مَكَّةَ إِهْلَاكُنَا كَثِيرًا ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ بِكُفْرِهِمْ ﴿يَمۡشُونَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿لَهُمۡ﴾ ﴿فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ فِي أَسْفَارِهِمْ إِلَى الشَّامِ وَغَيْرِهَا فَيَعْتَبِرُوا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ٢٦﴾ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ وَاتِّعَاظٍ. ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ الْيَابِسَةِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا ﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ٢٧﴾ هَذَا فَيَعْلَمُوا أَنَّا نَقْدِرُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٨ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ﴾ بِإِنْزَالِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾ يُمْهَلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْذِرَةٍ. ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ﴾ إِنْزَالَ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ٣٠﴾ بِكَ حَادِثَ مَوْتٍ أَوْ قَتْلٍ فَيَسْتَرِيحُونَ مِنْكَ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ[٤].

---

(١) ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ قيل: أي من كل من اتصف بالإجرام، وكسب الأمور المذمومة، وإن لم يكن بهذه المثابة ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل جارم، ففي الجملة إثبات الانتقام منه بطريق برهاني ... وفسر البغوي المجرمين هنا بالمشركين. وقال الطيبي عليه الرحمة بعد حكايته: ولا ارتياب أن الكلام في ذم المعرضين، وهذا الأسلوب أذم، لأنه يقر أن الكافر إذا وصف بالظلم، والإجرام حمل على نهاية كفره وغاية تمرده. [الآلوسي (١١/ ١٣٤)].

(٢) أي: لقاء الكتاب الذي هو القرآن، وعود الضمير إلى الكتاب المتقدم، والمراد غيره على طريق الاستخدام، أو إرادة العهد، أو تقدير مضاف، أي: تلقي مثله، أي: فلا تكن في مرية من كونه وحيا متلقى من لدنه تعالى. والمعنى: إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه من الوحي مثل ما لقيناك، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله. ونهيه ﷺ عن الشك، المقصود به نهي أمته، والتعريض بمن صدر منه مثله. [القاسمي (٨/ ٤٣)].

(٣) يعني: الأنبياء الذين كانوا فيهم. وقال قتادة: أتباع الأنبياء. [البغوي (٦/ ٣٠٩)].

(٤) وقيل: غير منسوخة إذ يقع الإعراض مع الأمر بالقتال. [صديق حسن (١١/ ٣٧)].

سُورَةُ الأَحزَابِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ دُمْ عَلَى تَقْوَاهُ[1] ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ فِيمَا يُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِمَا يَكُونُ قَبْلَ كَوْنِهِ ﴿حَكِيمًا ①﴾ فِيمَا يَخْلُقُهُ. ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ②﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتَانِيَّةِ. ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فِي أَمْرِكَ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ③﴾ حَافِظًا لَكَ، وَأُمَّتُهُ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ. ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ رَدًّا عَلَى مَنْ قَالَ مِنَ الْكُفَّارِ: «إِنَّ لَهُ قَلْبَيْنِ، يَعْقِلُ بِكُلٍّ مِنْهُمَا أَفْضَلَ مِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ»[2] ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔي﴾ بِهَمْزَةٍ وَيَاءٍ وَبِلَا يَاءٍ ﴿تُظَـٰهِرُونَ﴾ بِلَا أَلِفٍ قَبْلَ الْهَاءِ وَبِهَا، وَالتَّاءُ الثَّانِيَةُ فِي الْأَصْلِ مُدْغَمَةٌ فِي الظَّاءِ ﴿مِنۡهُنَّ﴾ يَقُولُ الْوَاحِدُ مَثَلًا لِزَوْجَتِهِ: «أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي» ﴿أُمَّهَٰتِكُمۡۚ﴾ أَيْ: كَالْأُمَّهَاتِ فِي تَحْرِيمِهَا بِذَلِكَ، الْمُعَدِّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا، وَإِنَّمَا تَجِبُ بِهِ الْكَفَّارَةُ بِشَرْطِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ «الْمُجَادَلَةِ»[3] ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ﴾ جَمْعُ «دَعِيٍّ» وَهُوَ مَنْ يُدْعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ ابْنًا لَهُ ﴿أَبۡنَآءَكُمۡۚ﴾ حَقِيقَةً ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ أَيِ: الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ، قَالُوا لَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، الَّتِي كَانَتِ امْرَأَةَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ الَّذِي تَبَنَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالُوا: «تَزَوَّجَ مُحَمَّدٌ امْرَأَةَ ابْنِهِ»، فَأَكْذَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ④﴾ سَبِيلَ الْحَقِّ. لَكِنْ ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ﴾

---

(١) هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى. وقد قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله. [ابن كثير (٦/ ٣٧٥)].

(٢) تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره بل ليس إلا قلب واحد فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلا انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه واستطرد منه إلى أنه لم يجعل دعيه ابنه فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب. [روضة المحبين لابن القيم (ص:٤٠٣)].

(٣) سورة المجادلة الآية (٢).

أَعْدَلُ ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾ بَنُو عَمِّكُمْ(١) ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ﴾ فِيهِ، وَهُوَ بَعْدَ النَّهْيِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا كَانَ مِنْ قَوْلِكُمْ قَبْلَ النَّهْيِ ﴿رَّحِيمًا ۝٥﴾ بِكُمْ فِي ذَلِكَ. ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَدَعَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ إِلَى خِلَافِهِ(٢) ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ فِي حُرْمَةِ نِكَاحِهِنَّ عَلَيْهِمْ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ ذَوُو الْقَرَابَاتِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فِي الْإِرْثِ ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أَيْ: مِنَ الْإِرْثِ بِالْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ الَّذِي كَانَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ فَنُسِخَ(٣) ﴿إِلَّآ﴾ لَكِنْ ﴿أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾ بِوَصِيَّةٍ فَجَائِزٌ(٤) ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: نَسْخُ

---

(١) الواو للتقسيم وهي بمعنى «أو» فتصلح لمعنى التخيير، أي: فإن لم تعلموا آباءهم فادعوهم إن شئتم بإخوان وإن شئتم ادعوهم موالي إن كانوا كذلك. وهذا توسعة على الناس. وفي للظرفية المجازية، أي: إخوانكم أخوة حاصلة بسبب الدين كما يجمع الظرف محتوياته، أو تجعل في للتعليل والتسبب، أي: إخوانكم بسبب الإسلام. والمراد بالولاء في قوله: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾ ولاء المحالفة لا ولاء العتق، فالمحالفة مثل الأخوة. وهذه الآية ناسخة لما كان جاريا بين المسلمين ومن النبي ﷺ من دعوة المتبنين إلى الذين تبنوهم، فهو من نسخ السنة الفعلية والتقريرية بالقرآن. وذلك مراد من قال: إن هذه الآية نسخت حكم التبني. [ابن عاشور (٢١/ ٢٦٣)].

(٢) أي: هو أحق بهم، وأرأف، وأشفق في كل ما دعاهم إليه من أمور الدين والدنيا، فإن نفوسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وهو يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا، فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا، أَوْ ضَيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ». أخرجه البخاري (٢٢٦٩). وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». أخرجه البخاري (١٤). [صديق حسن (١١/ ٤٦)].

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ ... وعن الزبير بن العوام قال: أنزل الله، عز وجل، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم وورثناهم ... قال الزبير: وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى مواريثنا. [ابن كثير (٦/ ٣٨١)].

(٤) قال في الخازن: إن الله لما نسخ التوارث بالحلف، والإخاء، والهجرة، أباح أن يوصي الرجل لمن تولاه بما أحب من ثلث ماله، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعًا، والمعنى: لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به وضمن ﴿تَفْعَلُوٓاْ﴾ معنى توصلوا أو تسدوا، فعُدِّي بـ«إلى». وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمة. [صديق حسن (١١/ ٤٩)].

الْإِرْثِ بِالْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ بِإِرْثِ ذَوِي الْأَرْحَامِ ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ وَأُرِيدَ بِالْكِتَابِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ(١). ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ حِينَ أُخْرِجُوا مِنْ صُلْبِ آدَمَ كَالذَّرِّ جَمْعُ ذَرَّةٍ - وَهِيَ أَصْغَرُ النَّمْلِ -(٢) ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ بِأَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَيَدْعُوا إِلَى عِبَادَتِهِ، وَذِكْرُ الْخَمْسَةِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ(٣) ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ شَدِيدًا بِالْوَفَاءِ بِمَا حَمَلُوهُ، وَهُوَ الْيَمِينُ بِاللهِ تَعَالَى ثُمَّ أَخَذَ الْمِيثَاقَ. ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ اللهُ ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، تَبْكِيتًا لِلْكَافِرِينَ بِهِمْ ﴿وَأَعَدَّ﴾ تَعَالَى ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ بِهِمْ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾ مُؤْلِمًا، هُوَ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ مُتَحَزِّبُونَ أَيَّامَ حَفْرِ الْخَنْدَقِ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بِالتَّاءِ مِنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَبِالْيَاءِ مِنْ تَحْزِيبِ الْمُشْرِكِينَ ﴿بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ مِنْ أَعْلَى الْوَادِي وَأَسْفَلِهِ، مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ مَالَتْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى عَدُوِّهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ جَمْعُ «حَنْجَرَةٍ» وَهِيَ: مُنْتَهَى الْحُلْقُومِ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠﴾ الْمُخْتَلِفَةَ بِالنَّصْرِ وَالْيَأْسِ. ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اخْتُبِرُوا لِيَتَبَيَّنَ الْمُخْلِصُ مِنْ غَيْرِهِ ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ حُرِّكُوا ﴿زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضَعْفُ اعْتِقَادٍ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ بَاطِلًا. ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أَيِ: الْمُنَافِقُونَ ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هِيَ أَرْضُ الْمَدِينَةِ، وَلَمْ تُصْرَفْ لِلْعَلَمِيَّةِ

---

(١) أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي. [ابن كثير (٦/ ٣٨٢)].

(٢) هو الميثاق بتبليغ الرسالة والقيام بالشرائع، وقيل: هو الميثاق الذي أخذه حين أخرج بني آدم من صلب آدم كالذر، والأول أرجح لأنه هو المختص بالأنبياء. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٤٦)].

(٣) ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم أصحاب الشرائع المشهورة، والكتب المذكورة، ومن أولي العزم من الرسل وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى. [صديق حسن (١١/ ٥٠)].

وَوَزْنِ ٱلْفِعْلِ ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بِضَمِّ ٱلْمِيمِ وَفَتْحِهَا، أَيْ: لَا إِقَامَةَ وَلَا مَكَانَةَ ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ إِلَى مَنَازِلِكُمْ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ،
وَكَانُوا خَرَجُوا مَعَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ إِلَى «سَلْعٍ» -جَبَلٍ خَارِجَ ٱلْمَدِينَةِ- لِلْقِتَالِ ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ فِي ٱلرُّجُوعِ
﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غَيْرُ حَصِينَةٍ يُخْشَى عَلَيْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن﴾ مَا ﴿يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا
١٣﴾ مِنَ ٱلْقِتَالِ. ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أَيِ :ٱلْمَدِينَةُ ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ نَوَاحِيهَا ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ﴾ أَيْ: سَأَلَهُمُ ٱلدَّاخِلُونَ
﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ ٱلشِّرْكَ ﴿لَآتَوْهَا﴾ بِٱلْمَدِّ وَٱلْقَصْرِ، أَيْ: أَعْطَوْهَا وَفَعَلُوهَا(١) ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ١٤ وَلَقَدْ كَانُواْ
عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ١٥﴾ عَنِ ٱلْوَفَاءِ بِهِ. ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن
فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا﴾ إِنْ فَرَرْتُمْ ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ فِي ٱلدُّنْيَا بَعْدَ فِرَارِكُمْ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ١٦﴾ بَقِيَّةَ آجَالِكُمْ.
﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ يُجِيرُكُمْ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ هَلَاكًا وَهَزِيمَةً ﴿أَوْ﴾ يُصِيبُكُمْ بِسُوءٍ إِنْ
﴿أَرَادَ﴾ ٱللهُ ﴿بِكُمْ رَحْمَةً ۚ﴾ خَيْرًا(٢) ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿وَلِيًّا﴾ يَنْفَعُهُمْ ﴿وَلَا نَصِيرًا ١٧﴾
يَدْفَعُ ٱلضُّرَّ عَنْهُمْ ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ ٱلْمُثَبِّطِينَ ﴿مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ﴾ تَعَالَوْا ﴿إِلَيْنَا ۖ وَلَا
يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ ٱلْقِتَالَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾ رِيَاءً وَسُمْعَةً. ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ﴾ بِٱلْمُعَاوَنَةِ، جَمْعُ «شَحِيحٍ» وَهُوَ حَالٌ مِنْ
ضَمِيرِ ﴿يَأْتُونَ﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى﴾ كَنَظَرِ، أَوْ كَدَوَرَانِ ٱلَّذِي
﴿يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ أَيْ: سَكَرَاتِهِ ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وَحِيزَتِ ٱلْغَنَائِمُ ﴿سَلَقُوكُم﴾ آذَوْكُمْ أَوْ ضَرَبُوكُمْ
﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾ أَيِ: ٱلْغَنِيمَةِ يَطْلُبُونَهَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ حَقِيقَةً ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ
ذَٰلِكَ﴾ ٱلْإِحْبَاطُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩﴾ بِإِرَادَتِهِ. ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ مِنَ ٱلْكُفَّارِ ﴿لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ﴾ إِلَى مَكَّةَ لِخَوْفِهِمْ
مِنْهُمْ ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كَرَّةً أُخْرَى ﴿يَوَدُّواْ﴾ يَتَمَنَّوْا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أَيْ: كَائِنُونَ فِي ٱلْبَادِيَةِ
﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ﴾ أَخْبَارِكُمْ مَعَ ٱلْكُفَّارِ ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ هَٰذِهِ ٱلْكَرَّةَ ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ٢٠﴾ رِيَاءً
وَخَوْفًا مِنَ ٱلتَّعْيِيرِ. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ﴾ بِكَسْرِ ٱلْهَمْزَةِ وَضَمِّهَا ﴿حَسَنَةٌ﴾ اِقْتِدَاءٌ بِهِ فِي ٱلْقِتَالِ

---

(١) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أي: يثرب: ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: بأن دخل عليهم العدو من سائر جوانبها، وأخذ في النهب والسلب ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: الرجعة إلى الكفر ﴿لَآتَوْهَا﴾ أي: لفعلوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: وما توقفوا بإعطائها إلا ريثما يكون السؤال والجواب؛ أي: فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به، مع أدنى خوف وفزع. وهذا منتهى الذم لهم. [القاسمي (٨/ ٥٦)].

(٢) استفهام في معنى النفي، أي: لا أحد يمنعكم من الله عز وجل وقدره جل جلاله إن خيرا وإن شرا، فجعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة مع أنه لا عصمة إلا من السوء لما في العصمة من معنى المنع. [الآلوسي (١١/ ١٦٠)].

وَالثَّبَاتِ فِي مَوَاطِنِهِ ﴿لِّمَن﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿لَكُمْ﴾ ﴿كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ يَخَافُهُ ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ بِخِلَافِ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ. ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالنَّصْرِ ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فِي الْوَعْدِ ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذَلِكَ ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ تَصْدِيقًا بِوَعْدِ اللهِ ﴿وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ لِأَمْرِهِ. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ مِنَ الثَّبَاتِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ مَاتَ، أَوْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ذَلِكَ ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ فِي الْعَهْدِ، وَهُمْ بِخِلَافِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ(١). ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ بِأَنْ يُمِيتَهُمْ عَلَى نِفَاقِهِمْ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لِمَنْ تَابَ(٢) ﴿رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ بِهِ. ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَيِ: الْأَحْزَابَ ﴿بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ مُرَادَهُمْ مِنَ الظَّفَرِ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بِالرِّيحِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ عَلَى إِيجَادِ مَا يُرِيدُهُ ﴿عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ غَالِبًا عَلَى أَمْرِهِ. ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَيْ: قُرَيْظَةَ ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ حُصُونِهِمْ جَمْعُ «صِيصَةَ»، وَهُوَ مَا يُتَحَصَّنُ بِهِ ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الْخَوْفَ ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ مِنْهُمْ وَهُمُ الْمُقَاتِلَةُ ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ مِنْهُمْ، أَيِ: الذَّرَارِيَّ. ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بَعْدُ، وَهِيَ خَيْبَرُ أُخِذَتْ بَعْدَ قُرَيْظَةَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وَهُنَّ تِسْعٌ، وَطَلَبْنَ مِنْهُ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا مَا لَيْسَ عِنْدَهُ: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أَيْ: مُتْعَةَ الطَّلَاقِ ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أُطَلِّقْكُنَّ مِنْ غَيْرِ ضِرَارٍ. ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أَيِ: الْجَنَّةَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بِإِرَادَةِ الْآخِرَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ أَيْ:

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين: ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. قال أنس: كنا نرى أو نظن: أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية». أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

(٢) تعليل للمنطوق والمعرض به، فكأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى، والتوبة عليهم مشروطة بتوبتهم أو المراد بها التوفيق للتوبة. [البيضاوي (٤/ ٢٢٩)].

اَلْجَنَّةَ، فَاخْتَرْنَ اَلْآخِرَةَ عَلَى اَلدُّنْيَا[1]. ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ بِفَتْحِ اَلْيَاءِ وَكَسْرِهَا، أَيْ: بُيِّنَتْ أَوْ هِيَ بَيِّنَةٌ ﴿يُضَٰعَفْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعَّفْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَفِي أُخْرَى: ﴿نُضَعِّفْ﴾ بِالنُّونِ مَعَهُ وَنَصْبِ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ ﴿لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضِعْفَيْ عَذَابِ غَيْرِهِنَّ، أَيْ: مِثْلَيْهِ[2] ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ *﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ يُطِعْ ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أَيْ: مِثْلَيْ ثَوَابِ غَيْرِهِنَّ مِنَ اَلنِّسَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتَانِيَّةِ فِي ﴿تَعْمَلْ﴾ وَ ﴿نُؤْتِهَآ﴾ ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ فِي اَلْجَنَّةِ زِيَادَةً. ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾ كَجَمَاعَةٍ[3] ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ اَللهَ فَإِنَّكُنَّ أَعْظَمُ[4] ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ لِلرِّجَالِ ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ نِفَاقٌ ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾ مِنْ غَيْرِ خُضُوعٍ[5]. ﴿وَقِرْنَ﴾ بِكَسْرِ اَلْقَافِ وَفَتْحِهَا ﴿فِى

---

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر رضي الله عنه فدخل، ثم أقبل عمر رضي الله عنه، فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا، قال: فقال: لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة، فقمت إليها، فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ»، فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها يجأ عنقها، فقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة رضي الله عنها يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده. ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال فبدأ بعائشة رضي الله عنها، فقال ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله، ورسوله، والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا». أخرجه مسلم (١٤٧٨).

(٢) يقول تعالى واعظا نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] ... فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع. [ابن كثير (٦/ ٤٠٨)].

(٣) أصل أحد وحد بمعنى الواحد، ثم وضع في النفي العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل. [البيضاوي (٤/ ٢٣١)].

(٤) فضلهن الله على النساء بشرط التقوى، وقد حصل لهن التقوى فحصل التفضيل على جميع النساء، إلا أنه يخرج من هذا العموم فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون لشهادة رسول الله ﷺ لكل واحدة منهن بأنها سيدة نساء عالمها. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٥١)].

(٥) هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك. [ابن كثير (٦/ ٤٠٨)].

﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ مِنَ ٱلْقَرَارِ، وَأَصْلُهُ «أَقْرِرْنَ» بِكَسْرِ ٱلرَّاءِ وَفَتْحِهَا مِنْ «قَرَرْتُ» بِفَتْحِ ٱلرَّاءِ وَكَسْرِهَا نُقِلَتْ حَرَكَةُ ٱلرَّاءِ إِلَى ٱلْقَافِ وَحُذِفَتْ مَعَ هَمْزَةِ ٱلْوَصْلِ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ بِتَرْكِ إِحْدَى ٱلتَّاءَيْنِ مِنْ أَصْلِهِ ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أَيْ: مَا قَبْلَ ٱلْإِسْلَامِ، مِنْ إِظْهَارِ ٱلنِّسَاءِ مَحَاسِنَهُنَّ لِلرِّجَالِ، وَٱلْإِظْهَارُ بَعْدَ ٱلْإِسْلَامِ مَذْكُورٌ فِي آيَةِ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ ٱلْإِثْمَ، يَا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أَيْ: نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِنْهُ ﴿تَطْهِيرًا ٣٣ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ٱلْقُرْآنِ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ ٱلسُّنَّةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿خَبِيرًا ٣٤﴾ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ ٱلْمُطِيعَاتِ ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ فِي ٱلْإِيمَانِ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ عَلَى ٱلطَّاعَاتِ ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ ٱلْمُتَوَاضِعِينَ ﴿وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عَنِ ٱلْحَرَامِ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لِلْمَعَاصِي ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٥﴾ عَلَى ٱلطَّاعَاتِ(١). ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن تَكُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَٱلْيَاءِ ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أَيِ: ٱلِاخْتِيَارُ ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ خِلَافَ أَمْرِ ٱللهِ وَرَسُولِهِ، نَزَلَتْ فِي عَبْدِ ٱللهِ بْنِ جَحْشٍ وَأُخْتِهِ زَيْنَبَ خَطَبَهَا ٱلنَّبِيُّ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، فَكَرِهَا ذَلِكَ حِينَ عَلِمَا لِظَنِّهِمَا قَبْلُ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ خَطَبَهَا لِنَفْسِهِ ثُمَّ رَضِيَا(٢)، لِلْآيَةِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ٣٦﴾ بَيِّنًا، فَزَوَّجَهَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ لِزَيْدٍ، ثُمَّ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينٍ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ حُبُّهَا وَفِي نَفْسِ زَيْدٍ كَرَاهَتُهَا، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُرِيدُ

---

(١) روى الترمذي (٣٢١١): «أن أم عمارة الأنصارية أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزلت هذه الآية». والمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة النساء، وأما ذكر الرجال فللإشارة إلى أن الصنفين في هذه الشرائع سواء ليعلموا أن الشريعة لا تختص بالرجال لا كما كان معظم شريعة التوراة خاصا بالرجال إلا الأحكام التي لا تتصور في غير النساء، فشريعة الإسلام بعكس ذلك، الأصل في شرائعها أن تعم الرجال والنساء إلا ما نص على تخصيصه بأحد الصنفين، ولعل بهذه الآية وأمثالها تقرر أصل التسوية فأغنى عن التنبيه عليه في معظم أقوال القرآن والسنة، ولعل هذا هو وجه تعداد الصفات المذكورة لئلا يتوهم التسوية في خصوص صفة واحدة. [ابن عاشور (٢٢/ ٢٠)].

(٢) معظم الروايات على أن هذه الآية نزلت في شأن خطبة زينب بنت جحش على زيد بن حارثة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «انطلق رسول الله ﷺ يخطب على فتاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش فاستنكفت وأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، فتابعته ورضيت»؛ لأن تزويج زينب بزيد بن حارثة كان قبل الهجرة فتكون هذه الآية نزلت بمكة، ويكون موقعها في هذه السورة التي هي مدنية إلحاقا لها بها لمناسبة أن تكون مقدمة لذكر تزوج رسول الله ﷺ زينب الذي يظهر أنه وقع بعد وقعة الأحزاب، وقد علم الله ذلك من قبل فقدر له الأحوال التي حصلت من بعد. [ابن عاشور (٢٢/ ٢٦)].

فِراقَهَا، فَقَالَ: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾[1]. كَمَا قَالَ تَعَالَى. ﴿وَإِذۡ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» ﴿تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ بِالْإِعْتَاقِ، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ كَانَ مِنْ سَبْيِ الْجَاهِلِيَّةِ، اشْتَرَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَأَعْتَقَهُ وَتَبَنَّاهُ ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فِي أَمْرِ طَلَاقِهَا ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾ مُظْهِرُهُ مِنْ مَحَبَّتِهَا، وَأَنْ لَوْ فَارَقَهَا زَيْدٌ تَزَوَّجْتَهَا[2] ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ أَنْ يَقُولُوا تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَتَزَوَّجْهَا وَلَا عَلَيْكَ مِنْ قَوْلِ النَّاسِ، ثُمَّ طَلَّقَهَا زَيْدٌ وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ حَاجَةً[3] ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ[4]، وَأَشْبَعَ الْمُسْلِمِينَ خُبْزًا وَلَحْمًا ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ مَقْضِيُّهُ ﴿مَفۡعُولٗا ٣٧ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ﴾ أَحَلَّ ﴿ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: كَسُنَّةِ اللهِ، فَنُصِبَ بِنَزْعِ الْخَافِضِ ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ

---

(١) التحقيق إن شاء الله في هذه المسألة هو أن الله أعلم نبيه ﷺ بأن زيدا يطلق زينب، وأنه يزوجها إياه ﷺ، وهي في ذلك الوقت تحت زيد، فلما شكاها زيد إليه ﷺ قال له: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، فعاتبه الله على قوله: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ بعد علمه أنها ستصير زوجته هو ﷺ، وخشي مقالة الناس أن يقولوا: لو أظهر ما علم من تزويجه إياها أنه يريد تزويج زوجة ابنه في الوقت الذي هي فيه في عصمة زيد. والدليل على هذا أمران: الأول: أن الله جل وعلا قال: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ﴾، وهذا الذي أبداه الله جل وعلا هو زواجه إياها في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾، ولم يبد جل وعلا شيئا مما زعموه أنه أحبها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى كما ترى. الأمر الثاني: أن الله جل وعلا صرح بأنه هو الذي زوجه إياها، وأن الحكمة الإلاهية في ذلك التزويج هي قطع تحريم أزواج الأدعياء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ الآية، فقوله تعالى: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ﴾، تعليل صريح لتزويجه إياها لما ذكرنا، وكون الله هو الذي زوجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو محبته لها التي كانت سببا في طلاق زيد لها كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ الآية؛ لأنه يدل على أن زيدا قضى وطره منها، ولم تبق له بها حاجة، فطلقها باختياره، والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٦/ ٦٤١)].

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) قضاء الوطر في اللغة بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء يقال قضى وطراً منه إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه ... والمراد هنا أنه قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وتقاصرت عنه همته وطابت عنها نفسه. وقيل: المراد به الطلاق لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة. [الشوكاني (٤/ ٣٢٧)].

(٤) يعني لم نحوجك إلى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشريفاً لك ولها، فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا عقد ولا تقدير صداق ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أُمته، وهذا من خصوصياته ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين. [صديق حسن (١١/ ٩٧)].

مِن قَبْلُ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ لَا حَرَجَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ تَوْسِعَةً لَهُمْ فِي النِّكَاحِ **﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾** فِعْلُهُ **﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾** مَقْضِيًّا. **﴿ٱلَّذِينَ﴾** نَعْتٌ لِـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ **﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾** فَلَا يَخْشَوْنَ مَقَالَةَ النَّاسِ فِيمَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ **﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾** حَافِظًا لِأَعْمَالِ خَلْقِهِ وَمُحَاسِبَهِمْ. **﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾** فَلَيْسَ أَبَا زَيْدٍ[1]، أَيْ: وَالِدَهُ فَلَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ التَّزَوُّجُ بِزَوْجَتِهِ زَيْنَبَ **﴿وَلَٰكِن﴾** كَانَ **﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾** فَلَا يَكُونُ لَهُ ابْنٌ رَجُلٌ بَعْدَهُ يَكُونُ نَبِيًّا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ التَّاءِ، كَـ«آلَةِ الْخَتْمِ» أَيْ: بِهِ خُتِمُوا[2] **﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾** مِنْهُ أَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَإِذَا نَزَلَ السَّيِّدُ[3] عِيسَى يَحْكُمُ بِشَرِيعَتِهِ. **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾** أَيْ: اُذْكُرُوهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ **﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾** أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ[4]. **﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾** أَيْ: يَرْحَمُكُمْ[5] **﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾** أَيْ: يَسْتَغْفِرُونَ لَكُمْ **﴿لِيُخْرِجَكُم﴾** لِيُدِيمَ

---

(١) قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي: كان يقال زيد بن محمد: حتى نزل ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، فقال: أنا زيد بن حارثة وحرم عليه أنا زيد بن محمد، فلما نزع هذا الشرف وهذا الفخر منه، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يختص بها أحد من أصحاب النبي ﷺ وهو أنه سمَّاه في القرآن، أي: في هذه الآية، فذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم، حتى صار اسمه قرآنًا يتلى في المحاريب، ونوه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوة محمد ﷺ. [صديق حسن (١١/٩٦)].

(٢) فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ». أخرجه مسلم (٥٢٣). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ». أخرجه الترمذي (٢٢٧٢)، وأحمد (١٣٨٢٤). [ابن كثير (٦/٤٢٨)]

(٣) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

(٤) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، ذِكْرُ اللهِ». أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (١٤٤١).

(٥) هذا تهييج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يَقُولُ اللهُ: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ». أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥). والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية. ورواه أبو جعفر الرازي، عن

إِخْرَاجُهُ إِيَّاكُمْ ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أَيِ: الْكُفْرِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ أَيِ: الْإِيمَانِ ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مِنْهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ بِلِسَانِ الْمَلَائِكَةِ(١) ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرٗا كَرِيمٗا ٤٤﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ عَلَى مَنْ أُرْسِلْتَ إِلَيْهِمْ ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ مَنْ صَدَّقَكَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ مُنْذِرًا مَنْ كَذَّبَكَ بِالنَّارِ. ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إِلَى طَاعَتِهِ(٢) ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بِأَمْرِهِ ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ أَيْ: مِثْلَهُ فِي الِاهْتِدَاءِ بِهِ(٣). ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلٗا كَبِيرٗا ٤٧﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فِيمَا يُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ﴿وَدَعْ﴾ اتْرُكْ ﴿أَذَىٰهُمْ﴾ لَا تُجَازِهِمْ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تُؤْمَرَ فِيهِمْ بِأَمْرٍ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فَهُوَ كَافِيكَ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ مُفَوَّضًا إِلَيْهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿تُمَاسُّوهُنَّ﴾ أَيْ: تُجَامِعُوهُنَّ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٖ تَعْتَدُّونَهَاۖ﴾ تُحْصُونَهَا بِالْأَقْرَاءِ وَغَيْرِهَا ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أَعْطُوهُنَّ مَا

الربيع بن أنس عنه. وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة ورد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٞۖ﴾ [البقرة: ١٥٧] ... وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٖ رَّحْمَةٗ وَعِلْمٗا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٖ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٩﴾. [غافر: ٧-٩]. [ابن كثير (٦/ ٤٣٦)].

(١) أي: يحيون يوم لقائه، بالموت أو الخروج من القبر أو دخول الجنة بسلام؛ تبشيرا بالسلامة من كل مكروه وآفة، والإضافة إما من إضافة المصدر إلى المفعول، والمحيي لهم، إما الله جل جلاله، لقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوْلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] تعظيما لهم وتفضلا منه عليهم، كما تفضل عليهم بصنوف الإكرام، وإما الملائكة لآية: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] أو من إضافة المصدر لفاعله؛ أي: تحية بعضهم بعضا بالسلام، وقد يستدل له بآية: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ [يونس: ١٠]. [القاسمي (٨/ ٩١)].

(٢) قول المؤلف: «إلى طاعته» فيه نظر بل الأَوْلَى أن تبقى الآية على ظاهرها، وأن النبي ﷺ يدعو إلى الله عز وجل إلى الوصول إليه في دار كرامته، ولا وصول إليه في دار كرامته إلا بامتثال أمره واجتناب نهيه فهو داعٍ إلى الله تعالى بطاعته واجتناب نهيه. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص: ٣٤٠)].

(٣) هذا النداء الثالث للنبي ﷺ فإن الله لما أبلغه بالنداء الأول ما هو متعلق بذاته، وبالنداء الثاني ما هو متعلق بأزواجه وما تخلل ذلك من التكليف والتذكير، ناداه بأوصاف أودعها سبحانه فيه للتنويه بشأنه وزيادة رفعة مقداره وبين له أركان رسالته، فهذا الغرض هو وصف تعلقات رسالته بأحوال أمته وأحوال الأمم السالفة. وذكر له هنا خمسة أوصاف هي: شاهد. ومبشر. ونذير. وداع إلى الله. وسراج منير. فهذه الأوصاف ينطوي إليها وتنطوي على مجامع الرسالة المحمدية فلذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة. [ابن عاشور (٢٢/ ٥٢)].

يَسْتَمْتِعْنَ بِهِ، أَيْ: إِنْ لَمْ يُسَمَّ لَهُنَّ أَصْدِقَةٌ، وَإِلَّا فَلَهُنَّ نِصفُ الْمُسَمَّى فَقَطْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ﴿**وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا** ﴿٤٩﴾﴾ خَلُّوا سَبِيلَهُنَّ مِنْ غَيْرِ إِضْرَارٍ. ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ**﴾ مُهُورَهُنَّ ﴿**وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ**﴾ مِنَ الْكُفَّارِ بِالسَّبْيِ، كَصَفِيَّةَ وَجُوَيْرِيَةَ ﴿**وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ**﴾ بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْنَ ﴿**وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا**﴾ يَطْلُبَ نِكَاحَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ ﴿**خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ**﴾ النِّكَاحُ بِلَفْظِ الْهِبَةِ مِنْ غَيْرِ صَدَاقٍ[1] ﴿**قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ**﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿**فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ**﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ بِأَنْ لَا يَزِيدُوا عَلَى أَرْبَعِ نِسْوَةٍ، وَلَا يَتَزَوَّجُوا إِلَّا بِوَلِيٍّ وَشُهُودٍ وَمَهْرٍ ﴿**وَ**﴾ فِي ﴿**مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ**﴾ مِنَ الْإِمَاءِ بِشِرَاءٍ وَغَيْرِهِ، بِأَنْ تَكُونَ الْأَمَةُ مِمَّنْ تَحِلُّ لِمَالِكِهَا كَالْكِتَابِيَّةِ، بِخِلَافِ الْمَجُوسِيَّةِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَأَنْ تُسْتَبْرَأَ قَبْلَ الْوَطْءِ ﴿**لِكَيْلَا**﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَ ذَلِكَ ﴿**يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ**﴾ ضِيقٌ فِي النِّكَاحِ ﴿**وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا**﴾ لِمَا يَعْسُرُ التَّحَرُّزُ عَنْهُ ﴿**رَّحِيمًا** ﴿٥٠﴾﴾ بِالتَّوْسِعَةِ فِي ذَلِكَ. ﴿**۞ تُرْجِئُ**﴾ بِالْهَمْزَةِ وَالْيَاءِ، بَدَلَهُ: تُؤَخِّرُ ﴿**مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ**﴾ أَيْ: أَزْوَاجِكَ عَنْ نَوْبَتِهَا ﴿**وَتُـْٔوِيٓ**﴾ تَضُمُّ ﴿**إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ**﴾ مِنْهُنَّ فَتَأْتِيهَا ﴿**وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ**﴾ طَلَبْتَ ﴿**مِمَّنْ عَزَلْتَ**﴾ مِنَ الْقِسْمَةِ ﴿**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ**﴾ فِي طَلَبِهَا وَضَمِّهَا إِلَيْكَ، خُيِّرَ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَ الْقَسْمُ وَاجِبًا عَلَيْهِ[2] ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ التَّخْيِيرُ ﴿**أَدْنَىٰٓ**﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿**أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ**﴾ مَا ذَكَرَ الْمُخَيَّرَ فِيهِ ﴿**كُلُّهُنَّ**﴾ تَأْكِيدٌ لِلْفَاعِلِ فِي ﴿يَرْضَيْنَ﴾ ﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ**

---

(١) قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يحتمل أن تكون صفةً لقوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ ويحتمل أن تكون مفعولًا لفعل محذوف، والتقدير: جعلناها خالصة لك؛ أي: هذه الشرعة جعلناها خالصة لك، والخالص من الشيء هو الذي لا يخالطه غيره؛ فمعنى ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يعني: لا يشاركك أحد فيها فيما إذا وهبت امرأة نفسها لأحد فإنها لا تحل له، وهل المراد بـ«الخالص» هنا أن يتزوج بلا مهر ولا ولي أو أن يقع ذلك بلفظ الهبة؟ الصحيح الأول؛ أن الخالص هو أن يكون ذلك بدون مهر ولا ولي ولا شهود على القول باشتراط الشهود؛ لأن الهبة ما هي؟ هي التبرع بلا عوض؛ فالمقصود المعنى لا اللفظ؛ يعني: أن الذي اختصَّ به الرسول ﷺ هو أن المرأة تأتي إليه وتقول: وهبت نفسي لك ويأخذها، وهذا قد وقع فعلًا أكثر من مرة؛ تأتي النساء إلى الرسول ﷺ ويَهَبْن أنفسهن له، فالخالص للرسول والخاص به هو أن يكون النكاح مجانًا بلا وَلِيٍّ ولا شهود. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص:٣٧٤)].

(٢) اختلف في المراد بهذا الإرجاء والإيواء، فقيل إن ذلك في القسمة بينهن، أي: تكثر لمن شئت، وتقلل لمن شئت، وقيل: إنه في الطلاق، أي: تمسك من شئت وتطلق من شئت؛ وقيل: معناه تتزوج من شئت، وتترك من شئت، والمعنى على كل قول: توسعة على النبي ﷺ، وإباحة له أن يفعل ما يشاء، وقد اتفق الناقلون على أنه ﷺ كان يعدل في القسمة بين نسائه، أخذاً منه بأفضل الأخلاق مع إباحة الله له. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٥٥)].

﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ﴾ مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ وَالْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ، وَإِنَّمَا خَيَّرْنَاكَ فِيهِنَّ تَيْسِيرًا عَلَيْكَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَلِيمًا ۝٥١﴾ عَنْ عِقَابِهِمْ. ﴿لَّا تَحِلُّ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ بَعْدَ التِّسْعِ الَّتِي اخْتَرْنَكَ[1] ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ بِتَرْكِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْلِ ﴿بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بِأَنْ تُطَلِّقَهُنَّ أَوْ بَعْضَهُنَّ، وَتَنْكِحَ بَدَلَ مَنْ طَلَّقْتَ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ فَتَحِلُّ لَكَ، وَقَدْ مَلَكَ ﷺ بَعْدَهُنَّ مَارِيَةَ، وَوَلَدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمَ وَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝٥٢﴾ حَفِيظًا. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فِي الدُّخُولِ بِالدُّعَاءِ ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فَتَدْخُلُوا ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ مُنْتَظِرِينَ ﴿إِنَىٰهُ﴾ نُضْجَهُ، مَصْدَرُ: أَنَى يَأْنِي ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا﴾ تَمْكُثُوا ﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ مِنْ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ الْمُكْثَ ﴿كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ﴾ أَنْ يُخْرِجَكُمْ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ أَنْ يُخْرِجَكُمْ، أَيْ: لَا يَتْرُكُ بَيَانَهُ[2]، وَقُرِئَ: ﴿يَسْتَحِي﴾ بِيَاءٍ وَاحِدَةٍ[3] ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أَيْ:

---

(١) من بعد التسع، لأن التسع نصاب رسول الله ﷺ، من الأزواج، كما أن الأربع نصاب أمته، ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بالطلاق، والمعنى: ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا أخر، بكلهن، أو بعضهن، كرامة لهن، وجزاء على ما اخترن ورضين، فقصر رسول الله ﷺ عليهن، وهن التسع التي مات عنهن: عائشة، حفصة، أم حبيبة، سودة، أم سلمة، صفية، ميمونة، زينب بنت جحش، جويرية ... وعن عائشة، وأم سلمة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء. يعني أن الآية نسخت، ونسخها إما بالسنة، أو بقوله: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف. [النسفي (٣/ ٤٠)].

(٢) يقول المؤلف: «أن يخرجكم» هكذا قال المؤلف، إن الله لا يستحي أن يخرجكم، وفيما قاله نظر، بل الصواب: ﴿لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ أن يبينه لكم؛ لأن المقام هنا ليس مقام إخراج، المقام مقام تبيين لما يجب على هؤلاء الذين استأذنوا على الرسول ﷺ، فالمعنى: ... لا يستحيي أن يبين لكم ما يلزمكم فتخرجوا. ثم قال المؤلف عفا الله عنه: «أي لا يترك بيانه» أي: لا يترك بيان الحق ... حيث فسر الحياء بلازمِهِ وهو الترك؛ لأن من لازم الحياء من الشيء أن يدعه الحيي منه ... وفي قوله: «لا يترك بيانه» مع قوله: «أن يخرجكم» فيه شيء من التناقض؛ لأنه جعل المستحيا منه هنا «بيان الحق»، وجعله بالأول «الإخراج»، والصواب قوله الثاني، أي: لا يستحي من بيان الحق، لكن تفسيره الاستحياء بالترك هذا باطل؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ، والواجب علينا فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته أن نجريها على ظاهرها اللائق بالله سبحانه وتعالى، معتقدين أنه لا مثيل له في هذه الصفة، ومبتعدين عن تكييفها. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص:٤٢٦)]. عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا». أخرجه أحمد (٢٣٢٠٢) وأبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥).

(٣) قراءة شاذة.

أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ سِتْرٍ ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ مِنَ الْخَوَاطِرِ الْمُرِيبَةِ[1] ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بِشَيْءٍ ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ذَنْبًا[2] ﴿عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ مِنْ نِكَاحِهِنَّ بَعْدَهُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أَيْ: الْمُؤْمِنَاتِ ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ وَالْعَبِيدِ، أَنْ يَرَوْهُنَّ وَيُكَلِّمُوهُنَّ مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ فِيمَا أُمِرْتُنَّ بِهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ أَيْ: قُولُوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ»[4]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وَهُمُ الْكُفَّارُ، يَصِفُونَ اللهَ بِمَا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ مِنَ الْوَلَدِ

---

(١) قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنا أعلم الناس بهذه الآية آية الحجاب، لما أهديت زينب رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ كانت معه في البيت، صنع طعاما ودعا القوم، فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾، فضرب الحجاب وقام القوم». أخرجه البخاري (٤٥١٢)، ومسلم (١٤٢٨).

(٢) هو تقرير لحكم أمومة أزواجه للمؤمنين السالف في قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْۗ﴾ ... وتقييد العظيم بكونه عند الله للتهويل والتخويف؛ لأنه عظيم في الشناعة. وعلة كون تزوج أحد المسلمين إحدى نساء النبي ﷺ إثما عظيما عند الله، أن الله جعل نساء النبي ﷺ أمهات للمؤمنين فاقتضى ذلك أن تزوج أحد المسلمين إحداهن له حكم تزوج المرء أمه، وذلك إثم عظيم. [ابن عاشور (٢٢/٩٣)]. وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ، وإيجاب حرمته حيا وميتا، ما لا يخفى. ولذلك بالغ تعالى في الوعيد. [الآلوسي (١١/٢٤٩)].

(٣) قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يصلون: يبركون. هكذا علقه البخاري عنهما ... والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا. [ابن كثير (٦/٤٥٧)].

(٤) الآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة، وقيل: تجب الصلاة كلما جرى ذكره لقوله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ». أخرجه الترمذي (٣٥٤٥) ... وتجوز الصلاة على غيره تبعا. وتكره استقلالا لأنه في العرف صار شعارا لذكر الرسول ﷺ ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزا وجليلا. [البيضاوي (٤/٢٣٨)].

وَالشَّرِيكِ وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَهُ[1] ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أَبْعَدَهُمْ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ ذَا إِهَانَةٍ وَهُوَ النَّارُ. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ يَرْمُونَهُمْ بِغَيْرِ مَا عَمِلُوا ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ تَحَمَّلُوا كَذِبًا ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٨﴾ بَيِّنًا. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جَمْعُ جِلْبَابٍ وَهِيَ الْمُلَاءَةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ بِهَا الْمَرْأَةُ، أَيْ: يُرْخِينَ بَعْضَهَا عَلَى الْوُجُوهِ إِذَا خَرَجْنَ لِحَاجَتِهِنَّ إِلَّا عَيْنًا وَاحِدَةً ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بِأَنَّهُنَّ حَرَائِرُ ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بِالتَّعَرُّضِ لَهُنَّ، بِخِلَافِ الْإِمَاءِ فَلَا يُغَطِّينَ وُجُوهَهُنَّ فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَعَرَّضُونَ لَهُنَّ[2] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سَلَفَ مِنْهُنَّ مِنْ تَرْكِ السَّتْرِ ﴿رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ بِهِنَّ إِذْ سَتَرَهُنَّ. ﴿۞لَّئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ[3] ﴿لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عَنْ نِفَاقِهِمْ ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بِالزِّنَى[4]

---

(١) إذاية الله هي بالإشراك به ونسبة الصاحبة والولد به، وليس معنى إذايته أنه يضره الأذى، لأنه تعالى لا يضره شيء ولا ينفعه شيء ... ورد في الحديث: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَشْتِمُنِي ابْنُ آدَمَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتِمَنِي، وَيُكَذِّبُنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، أَمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي». أخرجه البخاري (٤٩٧٤). وأما إذاية رسول الله ﷺ فهي التعرض له بما يكره من الأقوال أو الأفعال. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٥٨)].

(٢) لتسترهن بالعفة، فلا يتعرض لهن، ولا يلقين بما يكرهن؛ لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة، فإنها مطموع فيها. [أبو حيان (٨/ ٥٠٤)]. ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ دل على وجود أذية، إن لم يحتجبن، وذلك، لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض. [السعدي (ص:٦٧١)]. قال الزمخشري: الجلباب ثوب واسع، أوسع من الخمار، ودون الرداء، تلويه المرأة على رأسها ويبقى منه ما ترسله على صدرها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل، ثم قال: ومعنى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن، يقال إذا زل عن وجه المرأة: أدني ثوبك على وجهك ... عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينا واحدة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان، من السكينة. وعليهن أكسية سود يلبسنها. [القاسمي (٨/ ١١٢)].

(٣) يقول المؤلف: «لام قسم» يعني لام موطئة للقسم، وليست هي أداة القسم، بل القسم محذوف والتقدير: والله لئن لم ينتهِ، أو: وَرَبِّك لئن لم ينتهِ؛ فهي مُوطِّئة للقسم. وإنما قال المؤلف: «لام قسم» لئلا يتوهم واهم أنها لام الابتداء. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص:٤٩٣)].

(٤) قوله: «بالزنى» وهذا بناءً على أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أن المراد الأذية بالتعرُّض لهن بالفاحشة؛ فالمعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم الذين يتعرضون للنساء بطلب الفاحشة والزنى، ويحتمل أن يكون المعنى أعم مما قال المؤلف؛ أي: في قلوبهم مرض من الشك وسوء الخلق وغير ذلك، وهو أعم وأحسن. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص:٤٩٣)]. أي: مرض شك أو شهوة. [السعدي (ص:٦٧١)].

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِمْ: «قَدْ أَتَاكُمُ الْعَدُوُّ وَسَرَايَاكُمْ قُتِلُوا أَوْ هُزِمُوا»[١] ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لَنُسَلِّطَنَّكَ عَلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ يُسَاكِنُونَكَ ﴿فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ ثُمَّ يُخْرَجُونَ[٢]. ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مُبْعَدِينَ عَنِ الرَّحْمَةِ ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ وُجِدُوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ أَيِ: الْحُكْمُ فِيهِمْ هَذَا عَلَى جِهَةِ الْأَمْرِ بِهِ. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: سَنَّ اللهُ ذَلِكَ ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، فِي مُنَافِقِيهِمُ الْمُرْجِفِينَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ مِنْهُ. ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ مَتَى تَكُونُ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يُعْلِمُكَ بِهَا، أَيْ: أَنْتَ لَا تَعْلَمُهَا ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ﴾ تُوجَدُ[٣] ﴿قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أَبْعَدَهُمْ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ نَارًا شَدِيدَةً يَدْخُلُونَهَا. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مُقَدَّرًا خُلُودُهُمْ ﴿فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَحْفَظُهُمْ عَنْهَا ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ يَدْفَعُهَا عَنْهُمْ. ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ﴾ أَيِ: الْأَتْبَاعُ مِنْهُمْ ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَادَاتِنَا﴾ جَمْعُ الْجَمْعِ ﴿وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ طَرِيقَ الْهُدَى. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أَيْ: مِثْلَيْ عَذَابِنَا ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ عَذِّبْهُمْ ﴿لَعْنًا كَثِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ عَدَدُهُ. وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْمُوَحَّدَةِ[٤]، أَيْ: عَظِيمًا. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ﴾ مَعَ نَبِيِّكُمْ ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ بِقَوْلِهِمْ مَثَلًا: «مَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ» ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ بِأَنْ وَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ لِيَغْتَسِلَ فَفَرَّ الْحَجَرُ بِهِ حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَدْرَكَهُ مُوسَى فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَاسْتَتَرَ بِهِ، فَرَأَوْهُ وَلَا أُدْرَةَ بِهِ[٥] وَهِيَ: نَفْخَةٌ فِي الْخُصْيَةِ ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ ذَا جَاهٍ، وَمِمَّا أُوذِيَ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ أَنَّهُ قَسَمَ قَسْمًا، فَقَالَ

---

(١) الرجفة هي الزلزلة، والمرجف هو الذي يقول: قد أتاكم العدو، وإن لكم عدوا كثيرا، وسرايا كم قد قتلت وما أشبه ذلك، يدخل الخوف والرعب في قلوب الناس، وسمي ذلك إرجافا؛ لأنه يزلزل ثقة الإنسان بنفسه وبإخوانه؛ ولأنه يزلزل أمنه وطمأنينته، [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص:٤٩٤)].

(٢) أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم. وهذا فيه دليل، لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر، وأبعد منه. [السعدي (ص:٦٧١)].

(٣) قد أوضح جل وعلا اقترابها في آيات أخر، كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ الآية [القمر: ١]، وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]. [الشنقيطي (٦/ ٦٦٥)].

(٤) أي: ﴿كَبِيرًا﴾ بدل ﴿كَثِيرًا﴾.

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاةً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى ﷺ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ آدَرُ، فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَخَرَجَ مُوسَى فِي إِثْرِهِ،

رَجُلٌ: هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ تَعَالَى فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠﴾ صَوَابًا. ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَتَقَبَّلْهَا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧١﴾ نَالَ غَايَةَ مَطْلُوبِهِ. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الصَّلَوَاتِ وَغَيْرَهَا، بِمَا فِي فِعْلِهَا مِنَ الثَّوَابِ وَتَرْكِهَا مِنَ الْعِقَابِ ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ بِأَنْ خُلِقَ فِيهِمَا فَهْمًا وَنُطْقًا ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ﴾ خِفْنَ ﴿مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ﴾ آدَمُ بَعْدَ عَرْضِهَا عَلَيْهِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لِنَفْسِهِ بِمَا حَمَلَهُ ﴿جَهُولًا ٧٢﴾ بِهِ(٢). ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ اللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ﴿عَرَضْنَا﴾ الْمُتَرَتِّبِ عَلَيْهِ حَمْلُ آدَمَ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ الْمُضَيِّعِينَ الْأَمَانَةَ ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ الْمُؤَدِّينَ الْأَمَانَةَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَّحِيمًا ٧٣﴾ بِهِمْ.

يَقُولُ: ثَوْبِي يَا حَجَرُ، حَتَّى نَظَرَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى مُوسَى، فَقَالُوا: وَاللهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، وَأَخَذَ ثَوْبَهُ، فَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا». فقال أبو هريرة رضي الله عنه: والله إنه لندب بالحجر، ستة أو سبعة، ضربا بالحجر». أخرجه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩).

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٦)، ومسلم (١٠٦٢).

(٢) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه عرض الأمانة، وهي التكاليف مع ما يتبعها من ثواب وعقاب على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها وأشفقن منها، أي: خفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك عذاب الله وسخطه، وهذا العرض والإباء، والإشفاق كله حق، وقد خلق الله للسماوات والأرض والجبال إدراكا يعلمه هو جل وعلا ونحن لا نعلمه، ... كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، الظاهر أن المراد بالإنسان آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، راجع للفظ: الإنسان، مجردا عن إرادة المذكور منه، الذي هو آدم. والمعنى: أنه أي الإنسان الذي لا يحفظ الأمانة ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، أي: كثير الظلم والجهل، والدليل على هذا أمران: أحدهما: قرينة قرآنية دالة على انقسام الإنسان في حمل الأمانة المذكورة إلى معذب ومرحوم في قوله تعالى بعده، متصلا به: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، فدل هذا على أن الظلوم الجهول من الإنسان هو المعذب، والعياذ بالله، وهم المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، دون المؤمنين والمؤمنات. واللام في قوله: ليعذب: لام التعليل، وهي متعلقة بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ﴾. الأمر الثاني: أن الأسلوب المذكور – الذي هو رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي – معروف في اللغة التي نزل بها القرآن، وقد جاء فعلا في آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾ [فاطر: ١١]؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾، راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلي؛ كما هو ظاهر. [الشنقيطي (٦/ ٦٦٦)].

سُورَةُ سَبَإٍ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ اَلْآيَةَ فَمَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ تَعَالَى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بِهِ: اَلثَّنَاءُ بِمَضْمُونِهِ، مِنْ ثُبُوتِ اَلْحَمْدِ وَهُوَ اَلْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ لِلَّهِ تَعَالَى ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ كَالدُّنْيَا، يَحْمَدُهُ أَوْلِيَاؤُهُ إِذَا دَخَلُوا اَلْجَنَّةَ[1] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي فِعْلِهِ ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ يَدْخُلُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كَمَاءٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَنَبَاتٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ لَهُمْ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ اَلْقِيَامَةُ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بِالْجَرِّ: صِفَةٌ، وَالرَّفْعِ: خَبَرُ مُبْتَدَإٍ، وَ﴿عَلَّامِ﴾ بِالْجَرِّ ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ يَغِيبُ ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ﴾ وَزْنُ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرِ نَمْلَةٍ[2] ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ بَيِّنٍ، هُوَ: اَللَّوْحُ اَلْمَحْفُوظُ. ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ فِيهَا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ حَسَنٌ فِي اَلْجَنَّةِ. ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ﴾ إِبْطَالِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ هُنَا وَفِيمَا

---

(١) أخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]. ولهذا قال هاهنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، كما قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣]. [ابن كثير (٦/ ٤٩٤)].

(٢) قد تكرر في القرآن إتباع ذكر الساعة بذكر انفراده تعالى بعلمها لأن الكافرين بها جعلوا من عدم العلم بها دليلا سفسطائيا على أنها ليست بواقعة ولذلك سماها القرآن «الواقعة» في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: ١-٢] والعزوب: الخفاء. ومادته تحوم حول معاني البعد عن النظر وفي مضارعه ضم العين وكسرها. قرأ الجمهور بضم الزاي، وقرأه الكسائي بكسر الزاي ومعنى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يعزب عن علمه. وفي سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]. وفي سورة الأنبياء: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وأشار بقوله: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ إلى تقريب معنى إمكان الحشر لأن الكافرين أحالوه بعلة أن الأجساد تصير رفاتا وترابا فلا تمكن إعادتها فنبهوا إلى أن علم الله محيط بأجزائها. [ابن عاشور (٢٢/ ١٤٠)].

يَأْتِي: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أَيْ: مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا، أَوْ مُسَابِقِينَ لَنَا فَيَفُوتُونَا، لِظَنِّهِمْ أَنْ لَا بَعْثَ وَلَا عِقَابَ[1] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ سَيِّءِ الْعَذَابِ ﴿أَلِيمٌ ⑤﴾ مُؤْلِمٍ، بِالْجَرِّ وَالرَّفْعِ صِفَةٌ لِـ ﴿رِّجْزٍ﴾ أَوْ ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿وَيَرَى﴾ يَعْلَمُ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿هُوَ﴾ فَصْلٌ ﴿ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ طَرِيقِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑥﴾ أَيِ: اللهِ ذِي الْعِزَّةِ الْمَحْمُودَةِ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى جِهَةِ التَّعْجِيبِ لِبَعْضٍ ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يُخْبِرُكُمْ أَنَّكُمْ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ قُطِّعْتُمْ ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بِمَعْنَى: تَمْزِيقٍ[2] ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦ أَفْتَرَىٰ﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ لِلِاسْتِفْهَامِ وَاسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فِي ذَلِكَ ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ جُنُونٌ تَخَيَّلَ بِهِ ذَلِكَ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ فِيهَا ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ⑧﴾ عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا. ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ مَا فَوْقَهُمْ وَمَا تَحْتَهُمْ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ بِسُكُونِ السِّينِ وَفَتْحِهَا، قِطَعًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ بِالْيَاءِ[3] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الْمَرْئِيِّ ﴿لَأَيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑨﴾ رَاجِعٍ إِلَى رَبِّهِ، تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ عَلَى الْبَعْثِ وَمَا يَشَاءُ[4]. ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ﴾ نُبُوَّةً وَكِتَابًا، وَقُلْنَا: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾ رَجِّعِي

---

(١) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بالطعن فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مقدرين الغلبة والعجز في زعمهم الفاسد وظنهم الباطل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ وهو أسوأ العذاب و ﴿مِّن﴾ للبيان ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة عذاب، وبالجر صفة لـ ﴿رِّجْزٍ﴾، قراءتان ... وفي التعبير عن طعنهم وصدهم بالسعي، تمثيل لحالهم. فإن المكذب آت بإخفاء آيات بينات، فيحتاج إلى السعي العظيم، والجد البليغ، ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به. [القاسمي (٨/ ١٣٤)].

(٢) ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ أي: هل نرشدكم إلى رجل يعنون محمداً ﷺ والتعبير برجل المنكر من باب التجاهل، كأنهم لم يعرفوا منه إلا أنه رجل وهو عندهم أشهر من الشمس قاله الشهاب، وقال القرطبي: كانوا يقصدون بذلك السخرية والهزأة. ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم بأمر عجيب ونبأ غريب هو أنكم ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرقتم كل تفريق وقطعتم كل تقطيع وصرتم بعد موتكم رفاتاً وتراباً، وقال الكرخي: أي: كل مكان تمزيق من القبور، وبطون الوحش والطير. ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: تخلقون وتنشئون خلقاً جديداً، وتبعثون من قبوركم أحياء، وتعودون إلى الصور التي كنتم عليها بعد أن تمزقت أجسادكم كل تمزيق، قال هذا القول بعضهم لبعض استهزاء بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث، وأخرجوا الكلام مخرج التلهي به والتضاحك مما يقوله من ذلك. [صديق حسن (١١/ ١٦٥)].

(٣) الأفعال الثلاثة هي: ﴿نَّشَأْ﴾، ﴿نَخْسِفْ﴾، ﴿نُسْقِطْ﴾.

(٤) انظر التعليق على آية (١٧) من سورة المائدة.

﴿مَعَهُۥ﴾ بِالتَّسْبِيحِ ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ «اَلْجِبَالِ»، أَيْ: وَدَعَوْنَاهَا تُسَبِّحُ مَعَهُ ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ فَكَانَ فِي يَدِهِ كَالْعَجِينِ. وَقُلْنَا: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ مِنْهُ ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ دُرُوعًا كَوَامِلَ يَجُرُّهَا لَابِسُهَا عَلَى الْأَرْضِ ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أَيْ: نَسْجِ اَلدُّرُوعِ، قِيلَ لِصَانِعِهَا «سَرَّادٌ» أَيِ: اِجْعَلْهُ بِحَيْثُ تَتَنَاسَبُ حِلَقُهُ ﴿وَٱعْمَلُواْ﴾ أَيْ: آلُ دَاوُدَ مَعَهُ ﴿صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ فَأُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَ﴾ سَخَّرْنَا ﴿لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ وَقِرَاءَةُ اَلرَّفْعِ بِتَقْدِيرِ: تَسْخِيرِ ﴿غُدُوُّهَا﴾ مَسِيرُهَا مِنَ اَلْغُدْوَةِ بِمَعْنَى: اَلصَّبَاحِ إِلَى اَلزَّوَالِ ﴿شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا﴾ سَيْرُهَا مِنَ اَلزَّوَالِ إِلَى اَلْغُرُوبِ ﴿شَهْرٌ﴾ أَيْ: مَسِيرَتُهُ ﴿وَأَسَلْنَا﴾ أَذَبْنَا ﴿لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أَيِ: اَلنُّحَاسَ فَأُجْرِيَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهِنَّ كَجَرْيِ اَلْمَاءِ، وَعَمَلُ اَلنَّاسِ إِلَى اَلْيَوْمِ مِمَّا أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ[1] ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ﴾ بِأَمْرِ ﴿رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ﴾ يَعْدِلْ ﴿مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ لَهُ بِطَاعَتِهِ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢﴾ اَلنَّارِ فِي اَلْآخِرَةِ، وَقِيلَ: فِي اَلدُّنْيَا أَنْ يَضْرِبَهُ مَلَكٌ بِسَوْطٍ مِنْهَا ضَرْبَةً تُحْرِقُهُ. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أَبْنِيَةٍ مُرْتَفِعَةٍ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِدَرَجٍ ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جَمْعُ «تِمْثَالٍ» وَهُوَ: كُلُّ شَيْءٍ مَثَّلْتَهُ بِشَيْءٍ، أَيْ: صُوَرًا مِنْ نُحَاسٍ وَزُجَاجٍ وَرُخَامٍ وَلَمْ يَكُنِ اتِّخَاذُ اَلصُّوَرِ حَرَامًا فِي شَرِيعَتِهِ[2] ﴿وَجِفَانٍ﴾ جَمْعُ «جَفْنَةٍ» ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ ي أَيْ: جَمْعُ «جَابِيَةٍ» وَهُوَ حَوْضٌ كَبِيرٌ يَجْتَمِعُ عَلَى اَلْجَفْنَةِ أَلْفُ

---

(١) «فأجريت الثلاثة أيام بلياليهن كجري الماء» هذا التقدير يحتاج إلى توقيف؛ يعني أن الله أجراها له ثلاثة أيام فقط قد نقول: إن الله سبحانه وتعالى أسال له عين القطر يتصرف فيها كما يشاء، وهذا يقتضي أن تكون هذه الإسالة مستمرة حيث ما أرادها وجدها، وهذا هو الأقرب، ولا يمكن أن نحددها بثلاثة أيام إلا بدليل من الشرع إما من الكتاب أو من السنة، وليس في الكتاب تحديد وكذلك ليس في السنة، فالأولى أن نجعلها على ظاهرها قال المؤلف: «وعمل الناس إلى اليوم مما أعطي سليمان» معنى عمل الناس إلى اليوم؟ يعني أن انتفاع الناس بهذا النحاس وتذويبه حتى يكون كالماء هذا أثره من عمل سليمان؛ يعني أن النحاس إنما ذاب من وقت سليمان إلى اليوم. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص:١٠١)].

(٢) وهذا مبني على أن المراد بالتماثيل تماثيل ما يحرُم تصويره كالحيوان من إنسان وغيره، ولكن نقول: إن هذا لا يلزم؛ أي: لا يلزم أن يكون المراد بالتماثيل هي صور الحيوان؛ فمن الجائز أن ينحتوا له مما ذكر من النحاس والزجاج والرخام أن ينحتوا له أشياء على صور شجر، ويقال: إن هذا تمثال ... وما أشبه ذلك، ... وهناك أيضًا مجسمات على صورة حيوان؛ أسد، أو جمل، أو بقر، أو ما أشبه ذلك، هذا أيضًا تمثال. فنحن الآن نقول: إن كان قوله: ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ إنه عام لتمثال الحيوان والأشجار وغيرها فنحتاج حينئذ أن نجيب بما أجاب به المؤلف، وهو أن الصور في شريعته ليست حرامًا، ولكن ما دام الأمر غير لازم. إذ من الممكن أن تكون التماثيل التي يأمرهم بها تماثيل أشياء يجوز تصويرها فلا حاجة إلى هذا الجواب. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص:١١٣)]. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «يحتمل أن يقال: إن التماثيل كانت على صورة النقوش لغير ذوات الأرواح، وإذا كان اللفظ محتملا، لم يتعين الحمل على المعنى المشكِل. روى البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨)، حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا في قصة الكنيسة التي كانت بأرض الحبشة، وما فيها من التصاوير،

رَجُلٍ يَأْكُلُونَ مِنْهَا ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ ثَابِتَاتٍ لَهَا قَوَائِمُ لَا تَتَحَرَّكُ عَنْ أَمَاكِنِهَا تُتَّخَذُ مِنَ الْجِبَالِ بِالْيَمَنِ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِالسَّلَالِمِ، وَقُلْنَا: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾ يَا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ بِطَاعَةِ اللهِ ﴿شُكْرًاۚ﴾ لَهُ عَلَى مَا آتَاكُمْ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ الْعَامِلُ بِطَاعَتِي شُكْرًا لِنِعْمَتِي. ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ عَلَى سُلَيْمَانَ ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ أَيْ: مَاتَ، وَمَكَثَ قَائِمًا عَلَى عَصَاهُ حَوْلًا مَيِّتًا، وَالْجِنُّ تَعْمَلُ تِلْكَ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ عَلَى عَادَتِهَا لَا تَشْعُرُ بِمَوْتِهِ، حَتَّى أَكَلَتِ الْأَرَضَةُ عَصَاهُ فَخَرَّ مَيِّتًا ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ مَصْدَرُ «أُرِضَتِ الْخَشَبَةُ» بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَكَلَتْهَا الْأَرَضَةُ ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ بِأَلِفٍ: «عَصَاهُ» لِأَنَّهَا يُنْسَأُ: يُطْرَدُ وَيُزْجَرُ بِهَا ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ مَيِّتًا ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ انْكَشَفَتْ لَهُمْ ﴿أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: أَنَّهُمْ ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْتِ سُلَيْمَانَ ﴿مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ١٤﴾ الْعَمَلِ الشَّاقِّ لَهُمْ، لِظَنِّهِمْ حَيَاتَهُ خِلَافَ ظَنِّهِمْ عِلْمَ الْغَيْبِ، وَعُلِمَ كَوْنُهُ سَنَةً بِحِسَابِ مَا أَكَلَتْهُ الْأَرَضَةُ مِنَ الْعَصَا بَعْدَ مَوْتِهِ يَوْمًا وَلَيْلَةً مَثَلًا. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بِالصَّرْفِ وَعَدَمِهِ قَبِيلَةٌ سُمِّيَتْ بِاسْمِ جَدٍّ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ بِالْيَمَنِ ﴿ءَايَةٌۖ﴾ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى ﴿جَنَّتَانِ﴾ بَدَلٌ ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾ عَنْ يَمِينِ وَادِيهِمْ وَشِمَالِهِ، وَقِيلَ لَهُمْ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ عَلَى مَا رَزَقَكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ فِي أَرْضِ سَبَأٍ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ لَيْسَ فِيهَا سِبَاخٌ وَلَا بَعُوضَةٌ وَلَا ذُبَابَةٌ وَلَا بُرْغُوثٌ وَلَا عَقْرَبٌ وَلَا حَيَّةٌ وَيَمُرُّ الْغَرِيبُ فِيهَا وَفِي ثِيَابِهِ قَمْلٌ فَيَمُوتُ لِطِيبِ هَوَائِهَا[1] ﴿وَ﴾ اللهُ ﴿رَبٌّ غَفُورٌ ١٥ فَأَعْرَضُواْ﴾ عَنْ شُكْرِهِ وَكَفَرُوا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ جَمْعُ «عَرِمَةٍ» وَهُوَ مَا يُمْسِكُ الْمَاءَ مِنْ بِنَاءٍ وَغَيْرِهِ إِلَى وَقْتِ حَاجَتِهِ، أَيْ: سَيْلَ وَادِيهِمُ الْمَمْسُوكَ بِمَا ذُكِرَ فَأَغْرَقَ جَنَّتَيْهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ[2] ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ﴾ تَثْنِيَةُ ذَوَاتٍ، مُفْرَدٌ عَلَى الْأَصْلِ ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ مُرٍّ بَشِعٍ

وأنه ﷺ قال: «أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ». فإن ذلك يشعر بأنه لو كان ذلك جائزا في ذلك الشرع، ما أطلق عليه ﷺ أن الذي فعله شر الخلق، فدل على أن فعل صور الحيوان فعل محدث، أحدثه عباد الصور والله أعلم» انتهى، من «فتح الباري» (١٠/ ٣٨٢).

(١) هي بلدة طيبة، أما كونه غريب يأتي من البر وفي ثيابه القمل فيموت القمل لطيب الهواء، فالله أعلم، لكن نقول: لا شك أن وصف الله إياها بالطيبة أنها من أحسن البلاد في هوائها، وفي قرّها وفي حرها، ليس فيها الحر الشديد ولا القرّ القارص، وليس فيها عفونة الهواء والماء وما أشبه ذلك، فخُذْ بما شئت من طيب المسكن في كل ما يُسَمَّى طيبًا. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص:١٣٠)].

(٢) أي: سيل الأمر العرم، أي: الصعب والمطر الشديد أو الوادي أو السكر الذي يحبس الماء أو هو البناء الرصين المبني بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخزنها، وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا أهلكهم الله بخراب هذا البناء، فانهال

بِإِضَافَةِ ﴿أُكُلٍ﴾ بِمَعْنَى مَأْكُولٍ وَتَرْكِهَا، وَيُعْطَفُ عَلَيْهِ ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ﴾ التَّبْدِيلُ ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿وَهَلْ يُجَٰزَىٰٓ إِلَّا ٱلْكَفُورُ ﴿١٧﴾﴾ بِالْيَاءِ، وَالنُّونِ مَعَ كَسْرِ الزَّايِ وَنَصْبِ ﴿ٱلْكَفُورَ﴾ أَيْ: مَا يُنَاقَشُ إِلَّا هُوَ[1]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ سَبَأٍ وَهُمْ بِالْيَمَنِ ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بِالْمَاءِ وَالشَّجَرِ، وَهِيَ: قُرَى الشَّامِ الَّتِي يَسِيرُونَ إِلَيْهَا لِلتِّجَارَةِ ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ مُتَوَاصِلَةً مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ بِحَيْثُ يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى إِلَى انْتِهَاءِ سَفَرِهِمْ، وَلَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى حَمْلِ زَادٍ وَمَاءٍ، أَيْ: وَقُلْنَا ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ لَا تَخَافُونَ فِي لَيْلٍ وَلَا فِي نَهَارٍ. ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿بَعِّدْ﴾ ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ إِلَى الشَّامِ اجْعَلْهَا مَفَاوِزَ؛ لِيَتَطَاوَلُوا عَلَى الْفُقَرَاءِ بِرُكُوبِ الرَّوَاحِلِ وَحَمْلِ الزَّادِ وَالْمَاءِ فَبَطِرُوا النِّعْمَةَ[2] ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بِالْكُفْرِ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فَرَّقْنَاهُمْ فِي الْبِلَادِ كُلَّ التَّفْرِيقِ[3] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ عِبَرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَنِ الْمَعَاصِي ﴿شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ عَلَى النِّعَمِ. ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ مِنْهُمْ سَبَأٌ ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أَنَّهُمْ بِإِغْوَائِهِ يَتَّبِعُونَهُ ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ فَـ ﴿صَدَقَ﴾

عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم، واضطر من نجا منهم للنزوح عنها. كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمر مر، أو بشع لا يؤكل: ﴿وَأَثْلٍ﴾ شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهو شجر النبق؛ أي: قلة لا تسمن ولا تغني من جوع، فهذا تبديل النعم بالنقم، لمن لم يشكر النعم. [القاسمي (٨/ ١٣٨)].

(١) أي: وما نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ، قرأ الجمهور: بضم التحتية وفتح الزاي على البناء للمفعول، وقرئ: بالنون وكسر الزاي مبنياً للفاعل، وهو الله سبحانه، والكفور على الأولى مرفوع، وعلى الثانية منصوب، وظاهر الآية أنه لا يجازي إلا الكفور، مع كون أهل المعاصي يجازون، وقد قال قوم إن معنى الآية أنها لا يجازي هذا الجزاء وهو الاصطلام والإهلاك إلا من كفر، وقال مجاهد: إن المؤمن تكفَّر عنه سيئاته والكافر يجازى بكل عمل عمله، وقال طاووس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش. وقال الحسن: إن المعنى أنه يجازي الكافر مثلاً بمثل ورجح هذا الجواب النحاس. [الشوكاني (٤/ ٣٦٨)].

(٢) بطروا النعمة، وسئموا أطيب العيش، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل، مكان المن والسلوى. وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهيه، وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل، ويتزودوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء. فعجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب. [أبو السعود (٧/ ١٢٩)].

(٣) أي: فرقناهم في البلاد حتى ضرب المثل بفرقتهم يقال: «تفرقوا أيدي سبأ» واليد: الطريق، وفي الحديث: «إِنَّ سَبأً رَجُلٌ وَلَدَ عَشَرَةً مِنَ الْعَرَبِ فَتَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ». أخرجه الترمذي (٣٢٢٢). [ابن جُزَيّ (٢/ ١٦٥)].

بِالتَّخْفِيفِ فِي ظَنِّهِ، أَوْ ﴿صَدَّقَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ظَنَّهُ، أَيْ: وَجَدَهُ صَادِقًا ﴿إِلَّا﴾ بِمَعْنِي لَكِنْ ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٠﴾ لِلْبَيَانِ، أَيْ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ. ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تَسْلِيطٍ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ عِلْمَ ظُهُورٍ[1] ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ فَنُجَازِي كُلًّا مِنْهُمَا ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ٢١﴾ رَقِيبٌ. ﴿قُلِ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أَيْ: زَعَمْتُمُوهُمْ آلِهَةً ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ لِيَنْفَعُوكُمْ بِزَعْمِكُمْ، قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ﴾ وَزْنَ ﴿ذَرَّةٍ﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ شَرِكَةٍ ﴿وَمَا لَهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿مِنْهُم﴾ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿مِّن ظَهِيرٍ ٢٢﴾ مُعِينٍ. ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ تَعَالَى، رَدًّا لِقَوْلِهِمْ إِنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ عِنْدَهُ[2] ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَضَمِّهَا ﴿لَهُۥ﴾ فِيهَا[3] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾

---

(١) اللام هنا يحتمل أن تكون للتعليل أو للعاقبة، وعلى كلا التقديرين فيها إشكال؛ الإشكال هو أن ظاهرها تَجَدُّد علم الله، ومعلوم أن علم الله أزليٌّ أبدي، أي: قديم مستمر، لا بد أن يستمر، فكيف صحَّ أن تكون اللام هنا للتعليل أو للعاقبة؟ يقول المؤلف في تفسيرها: (علم ظهور)؛ وذلك لأن تَعَلُّق علم الله بالشيء له حالان: الحال الأولى: قبل وجوده. والحال الثانية: بعد وجوده. فتعلق علم الله به بعد الوجود يُسَمَّى علم ظهور، أي: علمه بعد أن ظهر وبان، وعلم الله تعالى قبل وجوده عِلْمُ تَقْدِير، أي: أنه قَدَّر أن يكون، وعلم التقدير ثابت بلا شك، فإن الله لن يزل ولا يزال عالمًا بكل ما يكون. فإذا قلنا: إن العلم علمُ تقديرٍ وعلم ظهور زال الإشكال، وصار علم الله للشيء بعد وقوعه بأنه ظهر ووقع، وعلم الله قبل وقوعه علمًا بأنه سيقع، وفرق بين المتعلقين. وقيل: إن المراد بالعلم هنا: العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وذلك لا يكون إلا بعد الامتحان، فإن علم الله تعالى بالشيء قبل أن يقع علم لا يترتب عليه لا ثواب ولا عقاب؛ لأن المكلف لم يؤمر ولم ينه، فإذا أُمِر ففعل أو أُمِر فلم يفعل حينئذ صار مثابًا أو معاقبًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وعلى هذا الوجه يكون علم الله تعالى علمين: علم معناه أن الله تعالى عالم بأن هذا الشيء سيقع، ولكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب. وعلم يترتب عليه الثواب والعقاب، وذلك لا يكون إلا بعد امتحان المكلف به وهل يَفْعَل أو لا يَفْعَل؛ يعني: هل يمتثل أو لا يمتثل. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص:١٥٣)].

(٢) هذه أنواع التعلقات، التي يتعلق بها المشركون بأندادهم، وأوثانهم، من البشر، والشجر، وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها، تبيينا حاسما لمواد الشرك، قاطعا لأصوله، لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء، هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعوه غير الله، لا مالكا للنفع والضر، ولا شريكا للمالك، ولا عونا وظهيرا للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء، وهذه العبادة، ضلالا في العقل، باطلة في الشرع. [السعدي (ص:٦٧٨)].

(٣) استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل، ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين، ويجوز أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له، أي: لأجله وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم لا من عداهم من غير

بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ كُشِفَ عَنْهَا الْفَزَعُ بِالْإِذْنِ فِيهَا ﴿قَالُوا۟﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اِسْتِبْشَارًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فِيهَا؟ ﴿قَالُوا۟﴾ الْقَوْلَ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أَيْ: قَدْ أَذِنَ فِيهَا ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ ﴿ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ الْعَظِيمُ[1]. ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الْمَطَرَ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ النَّبَاتَ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إِنْ لَمْ يَقُولُوهُ لَا جَوَابَ غَيْرُهُ ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أَيْ: أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ بَيِّنٍ، فِي الْإِبْهَامِ تَلَطُّفٌ بِهِمْ دَاعٍ إِلَى الْإِيمَانِ إِذَا وُفِّقُوا لَهُ[2] ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ أَذْنَبْنَا ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾؛ لِأَنَّا بَرِيئُونَ مِنْكُمْ[3]. ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يَحْكُمُ ﴿بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فَيُدْخِلُ الْمُحِقِّينَ الْجَنَّةَ، وَالْمُبْطِلِينَ النَّارَ

المستحقين لها. قيل: والمراد بقوله لا تنفع الشفاعة أنها لا توجد أصلاً إلا لمن أذن له، وإنما علق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها. [صديق حسن (١١/ ١٨٨)].

(١) ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم، وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته. ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو وتذعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين. وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي، سمعته الملائكة، فصعقوا، وخروا لله سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفزع، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالا، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقا، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق. فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدفوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم العلي الكبير، الذي من عظمته وجلاله أن الملائكة الكرام، والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق، عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق. فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه. فتعالى العلي الكبير، عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم. [السعدي (ص:٦٧٨)].

(٢) هذه ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، كقولك: الله يعلم أن أحدنا على حق وأن الآخر على باطل، ولا تُعين بالتصريح أحدهما، ولكن تنبه الخصم على النظر حتى يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل، والمقصود من الآية أن المؤمنين على هدى، وأن الكفار على ضلال مبين. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٦٦)].

(٣) أي: إنما أدعوكم إلى ما فيه خير لكم ونفع، ولا ينالني من كفركم وترككم لإجابتي ضرر، وهذا كقوله سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وفي إسناد الجرم إلى المسلمين ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص والطاعة المحضة وأعمال الكفار من المعصية البينة والإثم الواضح، من الإنصاف ما لا يقادر قدره، والمقصود المهادنة والمتاركة، وقد قيل: نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف. [الشوكاني (٤/ ٣٧٤)].

﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الْحَاكِمُ ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ(١). ﴿قُلْ أَرُونِىَ﴾ أَعْلِمُونِي ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ فِي الْعِبَادَةِ(٢) ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُمْ عَنِ اعْتِقَادِ شَرِيكٍ لَهُ ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ فِي تَدْبِيرِهِ لِخَلْقِهِ، فَلَا يَكُونُ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً﴾ حَالٌ مِنَ «النَّاسِ» قُدِّمَ لِلِاهْتِمَامِ(٣) ﴿لِّلنَّاسِ بَشِيرًا﴾ مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ مُنْذِرًا لِلْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾ ذَلِكَ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ فِيهِ. ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾ عَلَيْهِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا

---

(١) ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يقضي بالعدل؛ لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال، فيتبين يومئذ المهتدي منا من الضال، ويجزي كلا بعمله، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم ١٤-١٦] ولهذا قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تُعرفه المحق من المبطل. [القاسمي (٨/ ١٤٧)].

(٢) في هذا ما سبق من أنه من آداب المناظرة سلوك التحدي فيما يُعلم امتناعه من الخصم؛ لأنك إذا تحديته بأمر لا يمكن وظهر عجزه تبين بطلان دعواه ... يعني أعلموني ماذا خلقوا؟ ماذا نفعوا؟ لم يخلقوا شيئًا، ولم ينفعوا، ولم يدفعوا ضررًا كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النحل: ٢٠-٢١] وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص:١٨٩)].

(٣) المعنى أن الله أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الناس، وهذه إحدى الخصال التي أعطاه الله دون سائر الأنبياء، وإعراب ﴿كَآفَّةً﴾ حال من الناس قدمت للاهتمام، هكذا قال ابن عطية، وقال الزمخشري: ذلك خطأ لأن تقدم حال المجرور عليه لا يجوز، وتقديره عنده: وما أرسلناك إلا رسالة عامة للناس، فكافة صفة للمصدر المحذوف، وقال الزجَّاج: المعنى أرسلناك جامعـًا للناس في الإنذار، والتبشير، فجعله حالاً من الكاف، والتاء على هذا للمبالغة كالتاء في راوية وعلامة. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٦٦)]. أي: وما أرسلناك إلا رسالة عامة لجميع الخلائق من المكلفين، تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ... وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسـًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١). [القاسمي (٨/ ١٤٨)].

﴿ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيْ: تَقَدَّمَهُ كَالتَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ الدَّالَّيْنِ عَلَى الْبَعْثِ لِإِنْكَارِهِمْ لَهُ(١)، قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الأَتْبَاعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الرُّؤَسَاءِ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ صَدَدْتُمُونَا عَنِ الإِيمَانِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ بِالنَّبِيِّ. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ لَا ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فِي أَنْفُسِكُمْ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أَيْ: مَكْرٌ فِيهِمَا مِنْكُمْ بِنَا ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ شُرَكَاءَ ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ أَيِ: الْفَرِيقَانِ ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ عَلَى تَرْكِ الإِيمَانِ بِهِ ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أَيْ: أَخْفَاهَا كُلٌّ عَنْ رَفِيقِهِ مَخَافَةَ التَّعْيِيرِ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فِي النَّارِ ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فِي الدُّنْيَا. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ رُؤَسَاؤُهَا الْمُتَنَعِّمُونَ(٢) ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ مِمَّنْ آمَنَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ اِمْتِحَانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ اِبْتِلَاءً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ذَلِكَ(٣). ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قُرْبَى، أَيْ: تَقْرِيبًا(٤) ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ

---

(١) قيل: إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم. [القرطبي (١٤/ ٣٠٢)]. ويحتمل أن يراد بقوله: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما يأتي مما أخبر به، فإن ما بين يدي الشيء مستقبله، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والمعنيان صحيحان، وإذا كانت الآية تحتمل معنيين صحيحين لا يتنافيان وجب حملها على الجميع؛ لأن القرآن شامل واسع. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص:٢٠٢)].

(٢) تسلية لرسول الله ﷺ مما مني به من قومه، وتخصيص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي المعظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، ولذلك ضموا التهكم والمفاخرة إلى التكذيب. [البيضاوي (٤/ ٢٤٨)].

(٣) أي: يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيئته في عباده، من يحب ومن لا يحب، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه، فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها، ولذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك. فيزعمون أن مدار البسط الكرامة، والتضييق الهوان. ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى، إنما هو الكمالات النفسية، وذلك بصدق الإيمان وحسن الاتباع. [القاسمي (٨/ ١٥١)].

(٤) ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مصدر بمعنى القرب، كأنه قال: تقربكم قربى ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استثناء من المفعول في تقربكم، والمعنى: أن الأموال لا

﴿ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أَيْ: جَزَاءُ الْحَسَنَةِ مَثَلًا بِعَشْرٍ فَأَكْثَرَ ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿ءَامِنُونَ ٣٧﴾ مِنَ الْمَوْتِ وَغَيْرِهِ(١)، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ٱلۡغُرۡفَةِ﴾ بِمَعْنَى الْجَمْعِ. ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ بِالْإِبْطَالِ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لَنَا، مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا، وَأَنَّهُمْ يَفُوتُونَنَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ امْتِحَانًا ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ ﴿لَهُۥ﴾ بَعْدَ الْبَسْطِ، أَوْ لِمَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ فِي الْخَيْرِ ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ يُقَالُ: كُلُّ إِنْسَانٍ يَرْزُقُ عَائِلَتَهُ، أَيْ: مِنْ رِزْقِ اللهِ(٢). ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أَيِ: الْمُشْرِكِينَ ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الْأُولَى يَاءً وَإِسْقَاطِهَا ﴿كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ عَنِ الشَّرِيكِ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ أَيْ: لَا مُوَالَاةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنْ جِهَتِنَا(٣) ﴿بَلۡ﴾ لِلِانْتِقَالِ ﴿كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ الشَّيَاطِينَ أَيْ: يُطِيعُونَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّانَا ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾ مُصَدِّقُونَ فِيمَا يَقُولُونَ لَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ﴾ أَيْ: بَعْضُ الْمَعْبُودِينَ لِبَعْضِ الْعَابِدِينَ ﴿نَّفۡعٗا﴾ شَفَاعَةً ﴿وَلَا ضَرّٗا﴾ تَعْذِيبًا ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كَفَرُوا: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ وَاضِحَاتٍ بِلِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ الْقُرْآنُ ﴿إِلَّآ إِفۡكٞ﴾ كَذِبٌ ﴿مُّفۡتَرٗىۚ﴾ عَلَى اللهِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ الْقُرْآنِ ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣﴾

تقرب إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله، وقيل: الاستثناء منقطع، والأول أحسن. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٦٨)].

(١) أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه ... عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغرفا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا»، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامٌ». أخرجه الترمذي (١٩٨٤). [ابن كثير (٦/ ٥٢٢)].

(٢) لما كان يقال في الإنسان: إنه يرزق عياله والأمير جنده، قال: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ والرازق من الخلق يرزق، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى. ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. [القرطبي (١٤/ ٣٠٨)].

(٣) أي: يقول تقريعـًا للمشركين وتوبيخـًا لمن عبد غير الله عز وجل كما في قوله لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: ١١٦] وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام لأنهم أشرف معبودات المشركين، قال النحاس: والمعنى أن الملائكة إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت للمشركين وتقريع للكافرين. [صديق حسن (١١/ ٢٠٤)].

بَيِّنٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ فَمِنْ أَيْنَ كَذَّبُوكَ(١). ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ مِنَ الْقُوَّةِ، وَطُولِ الْعُمُرِ، وَكَثْرَةِ الْمَالِ ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ إِلَيْهِمْ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٥﴾ إِنْكَارِي عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ وَالْإِهْلَاكَ، أَيْ: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقِعَهُ(٢). ﴿۞قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ هِيَ ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ أَيْ: لِأَجْلِهِ ﴿مَثۡنَىٰ﴾ أَيِ: اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ وَاحِدًا وَاحِدًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ فَتَعْلَمُوا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ مُحَمَّدٍ ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾ جُنُونٍ ﴿إِنۡ﴾ مَا ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ﴾ أَيْ: قَبْلَ ﴿عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾ فِي الْآخِرَةِ إِنْ عَصَيْتُمُوهُ. ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿مَا سَأَلۡتُكُم﴾ عَلَى الْإِنْذَارِ وَالتَّبْلِيغِ ﴿مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ أَيْ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ﴾ مَا ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧﴾ مُطَّلِعٌ يَعْلَمُ صِدْقِي. ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ يُلْقِيهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٤٨﴾ مَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الْإِسْلَامُ ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ الْكُفْرُ ﴿وَمَا يُعِيدُ ٤٩﴾ أَيْ: لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ. ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ أَيْ: إِثْمُ ضَلَالِي عَلَيْهَا ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ(٣) ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ﴾ لِلدُّعَاءِ ﴿قَرِيبٞ ٥٠ وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذۡ فَزِعُواْ﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ لَهُمْ مِنَّا، أَيْ: لَا يَفُوتُونَنَا ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١﴾ أَيِ: الْقُبُورِ. ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بِمُحَمَّدٍ أَوِ الْقُرْآنِ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بِوَاوٍ وَبِالْهَمْزَةِ بَدَلَهَا، أَيْ: تَنَاوُلُ الْإِيمَانِ ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٥٢﴾ عَنْ مَحِلِّهِ،

---

(١) الآية: في معناها وجهين: أحدهما: ليس عندهم كتب تدل على صحة أقوالهم، ولا جاءهم نذير يشهد بما قالوه؛ فأقوالهم باطلة إذ لا حجة لهم عليها، فالقصد على هذا ردا عليهم، والآخر: أنهم ليس عندهم كتب ولا جاءهم نذير فهم محتاجون إلى من يعلمهم وينذرهم ولذلك بعث الله إليهم محمداً ﷺ، فالقصد على هذا إثبات نبوة محمد ﷺ. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٦٨)].

(٢) ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيف كان نكيري لهم فليحذر هؤلاء من مثله، ولا تكرير في كذب لأن الأول للتكثير والثاني للتكذيب، أو الأول مطلق والثاني مقيد ولذلك عطف عليه بالفاء. [البيضاوي (٤/ ٢٥٠)].

(٣) إن قيل: مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها، أن يقال: «وإن اهتديت فإنما أهتدي لها». فلم عدل عنها إلى ما ذكر؟ قيل: إن المقابلة تكون باللفظ وتكون بالمعنى. وما هنا من الثاني، بيانه أن النفس كل ما عليها فهو بها، أي: كل ما هو وبال عليها، وضار لها، فهو بسببها ومنها لأنها الأمارة بالسوء، وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها. وهذا حكم عام لكل مكلف، وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل في عمومه مع علو محله وسداد طريقته كان غيره أولى به. [القاسمي (٨/ ١٥٦)].

إِذْ هُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ وَمَحِلُّهُ ٱلدُّنْيَا[1]. ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ﴾ فِي ٱلدُّنْيَا ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ يَرْمُونَ ﴿بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ أَيْ: بِمَا غَابَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ غَيْبَةً بَعِيدَةً، حَيْثُ قَالُوا فِي ٱلنَّبِيِّ: سَاحِرٌ شَاعِرٌ كَاهِنٌ، وَفِي ٱلْقُرْآنِ: سِحْرٌ شِعْرٌ كَهَانَةٌ[2]. ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ ٱلْإِيمَانِ، أَيْ: قَبُولِهِ[3] ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ أَشْبَاهِهِمْ فِي ٱلْكُفْرِ ﴿مِّن قَبْلُۚ﴾ أَيْ: قَبْلَهُمْ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبِۭ ۝٥٤﴾ مَوْقِعِ ٱلرِّيبَةِ لَهُمْ فِيمَا آمَنُوا بِهِ ٱلْآنَ، وَلَمْ يَعْتَدُّوا بِدَلَائِلِهِ فِي ٱلدُّنْيَا[4].

---

(١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ أي: هؤلاء المكذبون عند الموت أو البعث أو ظهور الحق وسلطانه، ودخولهم تحت أسره: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: لهم، بهرب أو التجاء؛ إذ لا وزر لهم ولا ملجأ: ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا، أو من الموقف إلى النار إذا بعثوا، أو ظفر بهم بسهولة بعد تعذره. ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ أو القرآن ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ومن أين لهم تناول الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، لأنهم صاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء ... قال الزمخشري: التناوش والتناول، أخوان، إلا أن التناوش، تناول سهل لشيء قريب ... وهذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة [- وهو السهم إذا رميت به أبعد ما تقدر عليه -]، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع، تناولا سهلا لا تعب فيه. انتهى. أي: ففيه استعارة تمثيلية؛ شبه إيمانهم حيث لا يقبل، بمن كان عنده شيء يمكن أخذه، فلما بعد عنه فرسخا، مد يده لتناوله. [القاسمي (٨/ ١٥٦)].

(٢) جملة ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ﴾ في موضع الحال، أي: كيف يقولون آمنا به في وقت الفوات والحال أنهم كفروا به من قبل في وقت التمكن، فهو كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]. ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ عطف على كفروا فهي حال ثانية. والتقدير: وكانوا يقذفون بالغيب. واختيار صيغة المضارع لحكاية الحالة كقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨]. والقذف: الرمي باليد من بعد. وهو هنا مستعار للقول بدون ترو ولا دليل، أي يتكلمون فيما غاب عن القياس من أمور الآخرة بما لا علم لهم به إذ أحالوا البعث والجزاء. [ابن عاشور (٢٢/ ٢٤٤)].

(٣) قال الحسن البصري، والضحاك، وغيرهما: يعني: الإيمان. وقال السدي: هي التوبة. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل. وروي ذلك عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس. وهو قول البخاري وجماعة. والصحيح: أنه لا منافاة بين القولين؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة، فمنعوا منه. [ابن كثير (٦/ ٥٢٩)].

(٤) تعليل لما قبله، أي: في شك موقع في الريبة، أو ذي ريبة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار، أو في التوحيد وما جاءتهم به الرسل من الدين، يقال: أراب الرجل إذا صار ذا ريبة فهو مريب، وقيل: هو من الريب الذي هو الشك والتهمة، فهو كما يقال: عجب عجيب وشعر شاعر، وهذا رد على من زعم أن الله لا يعذب على الشك والله أعلم. [صديق حسن (١١/ ٢١٤)].

سُورَةُ فَاطِرٍ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسٌ أَوْ سِتٌّ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ اللهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِذَلِكَ كَمَا بُيِّنَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ «سَبَأٍ» ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خَالِقِهِمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ[1] ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ[2] ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ فِي الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهَا ﴿مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ كَرِزْقٍ وَمَطَرٍ ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ مِنْ ذَلِكَ ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ أَيْ: بَعْدَ إِمْسَاكِهِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾ فِي فِعْلِهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ بِإِسْكَانِكُمُ الْحَرَمَ، وَمَنْعِ الْغَارَاتِ عَنْكُمْ ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ﴾ مِنْ زَائِدَةٌ، وَ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ بِالرَّفْعِ وَالْجَرِّ، نَعْتٌ لِـ ﴿خَٰلِقٍ﴾ لَفْظًا وَمَحَلًّا، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الْمَطَرَ ﴿وَ﴾ مِنْ ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ النَّبَاتَ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَيْ: لَا خَالِقَ رَازِقَ غَيْرُهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ مِنْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ عَنْ تَوْحِيدِهِ، مَعَ إِقْرَارِكُمْ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ[3]. ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ فِي مَجِيئِكَ بِالتَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْعِقَابِ ﴿فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ فِي ذَلِكَ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾ فِي الْآخِرَةِ، فَيُجَازِي الْمُكَذِّبِينَ وَيَنْصُرُ الْمُرْسَلِينَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) الظاهر أن هذا ليس من معنى الفطر لغة، وإنما أخذوه من المعنى وسياق الكلام، وأصل الفطر في اللغة الشق عن الشيء مطلقاً ... ومنه فطر ناب البعير إذا طلع فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء تشقق، وقيل: الشق طولاً فكأنه شق العدم بإخراجهما منه، ... والفطر أيضاً الابتداء والاختراع، وهو المراد هنا. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت لا أدري ما فاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول ابتدأتها وعنه الفاطر البديع، والمعنى: الحمد لله مبدع السماوات والأرض ومخترعهما، والمقصود من هذا: أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الإعادة، وإنما حمد سبحانه وتعالى نفسه بذلك تعظيماً له وتعليماً لعباده كيفية الثناء عليه. [صديق حسن (١١/ ٢١٧)].

(٢) أي: أرسلهم إلى من شاء من خلقه وفيما شاء وبما شاء من أمره ونهيه، والرسل هم هاهنا: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. [مكي بن أبي طالب (٩/ ٥٩٤٧)]. فالأصح: إلى الأنبياء وغيرهم، يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام ٦١] ... فهم رسل إلى الأنبياء وإلى غيرهم، فتخصيص الآية بالأنبياء يعتبر قصورًا في التفسير. [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص:١٢)].

(٣) «الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنه قيل: وإذا تبين تفرده تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك. [أبو السعود (٧/ ١٤٣)].

ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ فِي حِلْمِهِ وَإِمْهَالِهِ ﴿ٱلۡغَرُورُ ٥﴾ الشَّيْطَانُ. ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ بِطَاعَةِ اللهِ، وَلَا تُطِيعُوهُ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾ أَتْبَاعَهُ فِي الْكُفْرِ ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ النَّارِ الشَّدِيدَةِ. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧﴾ هَذَا بَيَانُ مَا لِمُوَافِقِي الشَّيْطَانِ، وَمَا لِمُخَالِفِيهِ. وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بِالتَّمْوِيهِ ﴿فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ «مَنْ» مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: كَمَنْ هَدَاهُ اللهُ؟ لَا، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ﴾ عَلَى الْمُزَيَّنِ لَهُمْ ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾ بِاغْتِمَامِكَ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿الرِّيحَ﴾ ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ الْمُضَارِعُ لِحِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ، أَيْ: تُزْعِجُهُ ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ، لَا نَبَاتَ بِهَا ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ مِنَ الْبَلَدِ ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ يُبْسِهَا، أَيْ: أَنْبَتْنَا بِهِ الزَّرْعَ وَالْكَلَأَ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ أَيِ: الْبَعْثُ وَالْإِحْيَاءُ. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا تُنَالُ مِنْهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، فَلْيُطِعْهُ ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يَعْلَمُهُ[1]، وَهُوَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَنَحْوُهَا ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ يَقْبَلُهُ[2] ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ﴾ الْمَكَرَاتِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بِالنَّبِيِّ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، مِنْ تَقْيِيدِهِ أَوْ قَتْلِهِ أَوْ إِخْرَاجِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي الْأَنْفَالِ[3] ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾ يَهْلِكُ.

---

(١) ﴿ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر الله وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتلاوة وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد أو بالتحميد والتمجيد. [الشوكاني (٤/ ٣٩١)]. والمراد بالآية ما هو ظاهرها أن الكلم الطيب يصعد إلى الله يعني يعرج إلى الله عز وجل ...؛ لأن الله عز وجل في العلو، وأدلة العلو قد بُيِّنت في العقائد، وأنها خمسة أنواع: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، كلها مُتَّفِقة على علو الله سبحانه وتعالى بذاته. [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص:٨٤)].

(٢) ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ أي: يرفع الكلم الطيب ... ووجهه: أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. وقيل: إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب، ومفعوله العمل الصالح، ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان، وقيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عز وجل، والمعنى أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب، لأن العمل يحقق الكلام، وقيل: العمل الصالح يرفع صاحبه وهو الذي أراد العزة، وقال قتادة: المعنى أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه، أي: يقبله، فيكون قوله والعمل الصالح مبتدأ وخبره يرفع، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه. [صديق حسن (١١/ ٢٢٧)].

(٣) الأنفال آية (٣٠).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهُ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أَيْ: مَنِيٍّ بِخَلْقِ ذُرِّيَّتِهِ مِنْهَا ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ حَالٌ، أَيْ: مَعْلُومَةً لَهُ ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أَيْ: مَا يُزَادُ فِي عُمُرِ طَوِيلِ الْعُمُرِ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الْمُعَمَّرِ، أَوْ مُعَمَّرٍ آخَرَ(١) ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ١١﴾ هَيِّنٌ. ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شَدِيدُ الْعُذُوبَةِ ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ شُرْبُهُ ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شَدِيدُ الْمُلُوحَةِ ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ مِنْهُمَا ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هُوَ

---

(١) أما كون الضمير في قوله تعالى: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ يعود على معمر آخر فهذا لا إشكال فيه؛ لأنه يكون معمرا فيكون الثاني ناقصا، لكن الإشكال إذا قلنا: إن الضمير يعود على المعمر نفسه فكيف يكون معمرا وهو في الوقت نفسه منقوص من عمره؟ الجواب: هذا محل إشكال فيما يظهر؛ لذلك اختلف المفسرون رحمهم الله في توجيهه؛ فقال بعضهم: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ إن النقص هنا في مقابل الزيادة؛ لأن الإنسان كلما تقدم يوما في الدنيا نقص عمره باعتبار آخر عمره؛ مثلا الذي له عشر سنوات فإذا صار له إحدى عشرة، وقدر أنه سيموت في عشرين سنة، فهذا نقص، لأنه كلما زاد من وجه نقص من وجه آخر. فالمعنى: أنه يكتب نقصه كما تكتب زيادته، وإلى هذا ذهب بعض التابعين رحمهم الله. ولكن آخرين من أهل العلم من المفسرين رحمهم الله قالوا: إن هذا حين أخبر به النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧). وبين أن الإنسان ينقص عمره ويزاد بحسب صلة الرحم؛ مثلما ينقص من عمره إذا لم يصل رحمه، ويزاد في عمره إذا وصله. والمعنى على هذا التفسير: أن زيادة العمر أو نقصه مكتوب عند الله عز وجل، فمن قدر له أن عمره يطول بصلة الرحم فسوف يقدر له أن يصل رحمه، ومن قدر له أن ينقص عمره بقطيعة الرحم فسوف يكون قاطعا لرحمه؛ لأن المسببات مربوطة بأسبابها، معلومة عند الله. وهذا يزيل عنا الإشكال الذي أورده بعض العلماء رحمهم الله في هذا الحديث، وحاولوا أن يفسروا زيادة العمر بالبركة في عمر الإنسان، بأن الله إذا أنزل بركة في العمر وإن كان قصيرا صار خيرا من عمر طويل بلا بركة، ولكن تقدم لنا أن هذا لا يخرجهم من الإشكال؛ لأن البركة أيضا مكتوبة، وكذلك محقها مكتوب، فلا يخرجهم ذلك من الإشكال، لا يخرجون من الإشكال إلا أن نقول: إن عمر الإنسان المطول بسبب صلة الرحم قد كتب، وقد كتب أن يصل رحمه، إذن ما الفائدة من قول الرسول ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»؟ الجواب: الفائدة من ذلك: الحث على صلة الرحم، كما أننا نقول: «من أحب أن يدخل الجنة فليعمل عملا صالحا» فلا يقول قائل: إذا كانت الجنة مكتوبة فكيف يدخلها ولم يعمل؟ كيف إذا عمل كتبت له الجنة؟ ونقول: هي مكتوبة من قبل أن يعمل، لكن قد كتبت له الجنة وكتب أن يعمل لها عملها، وعلى هذا كل ما حصل من تقديرات الله عز وجل؛ فإن هذا لا يختص بالعمر، الإشكال وارد على الجميع، ولكن الجواب عنه بسيط: وهو أن يقال: إن هذا مكتوب نتيجة لهذا السبب، وهو معلوم عند الله، أما عندنا فليس بمعلوم. إذن: يكون أحسن ما يشار إليه في الآية أن المراد ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: معمر، وأن الإنسان قد يزاد في عمره لسبب من الأسباب، وقد ينقص من عمره لسبب آخر. [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص:٩٨)].

اَلسَّمَكُ ﴿وَتَسۡتَخۡرِجُونَ﴾ مِنَ اَلْمِلْحِ، وَقِيلَ: مِنْهُمَا[1] ﴿حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ هِيَ اَللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿وَتَرَى﴾ تُبْصِرُ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ اَلسُّفُنَ ﴿فِيهِ﴾ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا ﴿مَوَاخِرَ﴾ تَمْخُرُ اَلْمَاءَ، أَيْ: تَشُقُّهُ بِجَرْيِهَا فِيهِ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ ﴿لِتَبۡتَغُواْ﴾ تَطْلُبُوا ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ تَعَالَى بِالتِّجَارَةِ ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ اَللهَ عَلَى ذَلِكَ. ﴿يُولِجُ﴾ يُدْخِلُ اَللهُ ﴿ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فَيَزِيدُ ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ يُدْخِلُهُ ﴿فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فَيَزِيدُ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ﴾ مِنْهُمَا ﴿يَجۡرِي﴾ فِي فَلَكِهِ ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ وَهُمُ اَلْأَصْنَامُ ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ لُفَافَةِ اَلنَّوَاةِ. ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ فَرْضًا ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ مَا أَجَابُوكُمْ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ بِإِشْرَاكِكُمْ إِيَّاهُمْ مَعَ اَللهِ، أَيْ: يَتَبَرَّءُونَ مِنْكُمْ وَمِنْ عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُمْ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ بِأَحْوَالِ اَلدَّارَيْنِ ﴿مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ عَالِمٍ، وَهُوَ اَللهُ تَعَالَى[2]. ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ بِكُلِّ حَالٍ ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ اَلْمَحْمُودُ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦﴾ بَدَلَكُمْ. ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ١٧﴾ شَدِيدٍ. ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نَفْسٌ ﴿وَازِرَةٞ﴾ آثِمَةٌ، أَيْ: لَا تَحْمِلُ ﴿وِزۡرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ﴾ نَفْسٌ ﴿مُثۡقَلَةٌ﴾ بِالْوِزْرِ ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ مِنْهُ أَحَدًا لِيَحْمِلَ بَعْضَهُ ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ﴾ اَلْمَدْعُوُّ ﴿ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ قَرَابَةٍ كَالْأَبِ وَالِابْنِ، وَعَدَمُ اَلْحَمْلِ فِي اَلشِّقَّيْنِ حُكْمٌ مِنَ اَللهِ[3] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أَيْ: يَخَافُونَهُ وَمَا رَأَوْهُ؛ لِأَنَّهُمُ اَلْمُنْتَفِعُونَ بِالْإِنْذَارِ

---

(١) فإن قيل: إن الحلية لا تخرج إلا من البحر الملح دون العذب، فكيف قال: ﴿وَمِن كُلّٖ﴾ أي: من كل واحد منهما؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: الأول: أن ذلك تجوز في العبارة كما قال: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠] والرسل إنما هي من الإنس. الثاني: أن المرجان إنما يوجد في البحر الملح حيث تنصب أنهار الماء العذب، أو ينزل المطر فلما كانت الأنهار والمطر وهي البحر العذب تنصب في البحر الملح كان الإخراج منهما جميعاً. الثالث: زعم قومٌ أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح والعذب، وهذا قول يبطله الحس، أي: الواقع. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٧٣)].

(٢) أي: لا أحد ينبئك أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رَأْيُ عين، فلا تشك فيه ولا تمتر. فتضمنت هذه الآيات، الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئا من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئا. [السعدي (ص:٦٨٦)].

(٣) الحمل عبارة عن الذنوب، والمثقلة الثقيلة الحمل أو النفس الكثيرة الذنوب، والمعنى أنها لو دعت أحداً إلى أن يحمل عنها ذنوبها لم يحمل عنها، وحذف مفعول ﴿إِن تَدۡعُ﴾ لدلالة المعنى وقصد العموم، وهذه الآية بيان وتكميل لمعنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ ... لأن كل واحد يقول: نفسي نفسي. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٧٤)].

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَدَامُوهَا ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ مِنَ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ فَصَلَاحُهُ مُخْتَصٌّ بِهِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾ الْمَرْجِعُ، فَيَجْزِي بِالْعَمَلِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ١٩﴾ الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ. ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ الْكُفْرُ ﴿وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾ الْإِيمَانُ. ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١﴾ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ. ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا الْكُفَّارُ، وَزِيَادَةُ «لَا» فِي الثَّلَاثَةِ تَأْكِيدٌ[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هِدَايَتَهُ فَيُجِيبُهُ بِالْإِيمَانِ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ٢٢﴾ أَيِ: الْكُفَّارَ، شَبَّهَهُمْ بِالْمَوْتَى فَلَا يُجِيبُوا[2]. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾ مُنْذِرٌ لَهُمْ. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بِالْهُدَى ﴿بَشِيرًا﴾ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَنْ لَمْ يُجِبْ إِلَيْهِ ﴿وَإِن﴾ مَا ﴿مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾ سَلَفَ ﴿فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾ نَبِيٌّ يُنْذِرُهَا[3]. ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ٢٥﴾ هُوَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦﴾ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْإِهْلَاكِ؟ أَيْ: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقِعَهُ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ كَأَخْضَرَ وَأَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَغَيْرِهَا ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ جَمْعُ «جُدَّةٍ»، طَرِيقٌ فِي الْجَبَلِ وَغَيْرِهِ ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ وَصُفْرٌ ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بِالشِّدَّةِ وَالضَّعْفِ ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ٢٧﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿جُدَدٌ﴾، أَيْ: صُخُورٌ شَدِيدَةُ السَّوَادِ، يُقَالُ كَثِيرًا: أَسْوَدُ غِرْبِيبٌ، وَقَلِيلًا: غِرْبِيبٌ أَسْوَدُ. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ

(١) قال قتادة هذه كلها أمثال، أي: كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، وقد زيدت «لا» في المواضع الثلاثة خمس مرات اثنتين في الأولى واثنتين في الثانية وواحدة في الثالثة. والكل لتأكيد نفي الاستواء فالزيادة شاملة لأصل زيادتهما كالأولى من الجملة الأولى ولتكريرها كالثانية منها. [صديق حسن (١١/ ٢٤٠)].

(٢) أي: كما لا يسمع وينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم. [ابن كثير (٦/ ٥٤٣)].

(٣) معناه أن الله قد بعث إلى كل أمة نبيا يقيم عليهم الحجة، فإن قيل: كيف ذلك وقد كان بين الأنبياء فترات وأزمنة طويلة؟ ألا ترى أن بين عيسى ومحمدا ﷺ ستمائة سنة لم يبعث فيها نبي؟ فالجواب أن دعوة عيسى ومن تقدمه من الأنبياء كانت قد بلغتهم فقامت عليهم الحجة. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] فالجواب أنهم لم يأتهم نذير معاصر لهم، فلا يعارض ذلك من تقدم قبل عصرهم، وأيضا فإن المراد بقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أن نبوة محمد ﷺ ليست ببدع فلا ينبغي أن تنكر، لأن الله أرسله كما أرسل من قبله، والمراد بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أنهم محتاجون إلى الإنذار، لكونهم لم يتقدم من ينذرهم فاختلف سياق الكلام فلا تعارض بينهما. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٧٤)].

﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ﴾ كَاخْتِلَافِ الثِّمَارِ وَالْجِبَالِ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ بِخِلَافِ الْجُهَّالِ(١)، كَكُفَّارِ مَكَّةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿غَفُورٌ ٢٨﴾ لِذُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾ يَقْرَأُونَ(٢) ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَدَامُوهَا(٣) ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ زَكَاةً وَغَيْرَهَا ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ تَهْلِكَ. ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمُ الْمَذْكُورَةِ ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ لِذُنُوبِهِمْ ﴿شَكُورٞ ٣٠﴾ لِطَاعَتِهِمْ. ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ﴾ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ عَالِمٌ بِالْبَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِرِ. ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا﴾ أَعْطَيْنَا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ وَهُمْ أُمَّتُكَ ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ بِالتَّقْصِيرِ فِي الْعَمَلِ بِهِ ﴿وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ يَعْمَلُ بِهِ أَغْلَبَ الْأَوْقَاتِ ﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ يَضُمُّ إِلَى الْعِلْمِ التَّعْلِيمَ وَالْإِرْشَادَ إِلَى الْعَمَلِ(٤) ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: إِيرَاثُهُمُ الْكِتَابَ ﴿هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أَيْ: إِقَامَةٍ

---

(١) إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذلك قال ﷺ: «إِنِّي أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ». أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١). ولذلك أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته، وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر. [البيضاوي (٤/٢٥٨)].

(٢) الصواب أن التلاوة أعم من القراءة، فالتلاوة نوعان تلاوة لفظية وهي القراءة، وتلاوة عملية وهي اتباع القرآن تصديقًا للخبر وامتثالًا للأمر؛ ولهذا يقال: تلاه بمعنى تبعه؛ أي: جاء بعده ... والتلاوة العملية تستلزم فهم المعنى، لأنه لا يمكن أن يعمل إلا بما يفهم، وعلى هذا يكون فعل الصحابة ﵃ تطبيقًا لهذه الآية تمامًا؛ لأنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل قالوا: «فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا». أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١٤٥٢) والفريابي في فضائل القرآن (١٦٩). [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص:٢٠٤)].

(٣) أي: أتوا بها مستقيمة، فيشمل فِعْل الصلاة تامةً بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، ويشمل الإدامة، ... فالرجل الذي جاء يصلي ولا يطمئن كان يصلي هذه الصلاة منذ أسلم والرسول ﷺ قال له: «صَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». أخرجه البخاري (٦٢٥١)، ومسلم (٣٩٧). مع أنه يديم الصلاة ويصلي لكنه لم يصل حيث إنه لم يأت بها قائمة على الوجه المطلوب، فالصواب أن الإقامة هنا بمعنى أن يفعلها على الوجه المطلوب منه. [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص:٢٠٥)].

(٤) ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ يعني أمة محمد ﷺ، والتوريث عبارة عن أن الله أعطاهم الكتاب بعد غيرهم من الأمم ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب وعائشة ﵃ وأكثر المفسرين هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ: فالظالم لنفسه العاصي والسابق التقي والمقتصد بينهما وقال الحسن: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، وجميعهم يدخلون الجنة ... فإن قيل: لم قدم الظالم

﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ الثَّلَاثَةُ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ، خَبَرُ ﴿جَنَّٰتُ﴾ الْمُبْتَدَأِ ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ ﴿فِيهَا مِنۡ﴾ بَعْضِ ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ مُرَصَّعٍ بِالذَّهَبِ ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ جَمِيعَهُ ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ﴾ لِلذُّنُوبِ ﴿شَكُورٌ ٣٤﴾ لِلطَّاعَاتِ. ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ الْإِقَامَةِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ﴾ تَعَبٌ ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ إِعْيَاءٌ مِنَ التَّعَبِ لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ فِيهَا، وَذَكَرَ الثَّانِيَ التَّابِعَ لِلْأَوَّلِ لِلتَّصْرِيحِ بِنَفْيِهِ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ بِالْمَوْتِ ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ يَسْتَرِيحُوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ طَرْفَةَ عَيْنٍ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿يُجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ كَافِرٍ، بِالْيَاءِ وَالنُّونِ الْمَفْتُوحَةِ مَعَ كَسْرِ الزَّايِ وَنَصْبِ ﴿كُلَّ﴾. ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يَسْتَغِيثُونَ بِشِدَّةٍ وَعَوِيلٍ، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ مِنْهَا ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا﴾ وَقْتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ الرَّسُولُ(١) فَمَا أَجَبْتُمْ ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ يَدْفَعُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ، فَعِلْمُهُ بِغَيْرِهِ أَوْلَى بِالنَّظَرِ إِلَى حَالِ النَّاسِ. ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جَمْعُ خَلِيفَةٍ، أَيْ: يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ مِنْكُمْ ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ﴾ أَيْ: وَبَالُ كُفْرِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ﴾ غَضَبًا ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩﴾ لِلْآخِرَةِ. ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ وَهُمُ الْأَصْنَامُ، الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللهِ تَعَالَى ﴿أَرُونِي﴾ أَخْبِرُونِي ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ﴾ شَرِكَةٌ مَعَ اللهِ ﴿فِي﴾ خَلْقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ﴾ حُجَّةٍ ﴿مِّنۡهُۚ﴾ بِأَنَّ لَهُمْ مَعِي شَرِكَةً؟ لَا شَيْءَ مِنْ ذَلِكَ ﴿بَلۡ إِن﴾ مَا ﴿يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠﴾ بَاطِلًا، بِقَوْلِهِمْ: الْأَصْنَامُ تَشْفَعُ لَهُمْ. ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ أَيْ: يَمْنَعُهُمَا مِنَ الزَّوَالِ ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿زَالَتَآ إِنۡ﴾ مَا ﴿أَمۡسَكَهُمَا﴾ يُمْسِكُهُمَا ﴿مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ أَيْ: سِوَاهُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ فِي تَأْخِيرِ

ووسط المقتصد وأخر السابق؟ فالجواب: أنه قدم الظالم لنفسه رفقا به لئلا ييئس وأخر السابق لئلا يعجب بنفسه، وقال الزمخشري: قدم الظالم لكثرة الظالمين وآخر السابق لقلة السابقين. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٧٥)].

(١) ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ الآية توبيخ لهم وإقامة حجة عليهم، وقيل: إن مدة التذكير ستون سنة، وقيل: أربعون، وقيل: البلوغ، والأول أرجح لقول رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي العُمُرِ». أخرجه البخاري (٦٤١٩). ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ يعني النبي ﷺ، وقيل: يعني الشيب، لأنه نذير بالموت، والأول أظهر. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٧٧)].

عِقَابِ الْكُفَّارِ. ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ غَايَةَ اجْتِهَادِهِمْ فِيهَا ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رَسُولٌ ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ، أَيْ: أَيِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِمَا رَأَوْا مِنْ تَكْذِيبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، إِذْ ﴿قَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مَجِيئُهُ ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ تَبَاعُدًا عَنِ الْهُدَى. ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿وَمَكْرَ﴾ الْعَمَلِ ﴿ٱلسَّيِّئِ﴾ مِنَ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يُحِيطُ ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وَهُوَ الْمَاكِرُ وَوَصْفُ الْمَكْرِ بِالسَّيِّئِ أَصْلٌ، وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ، قِيلَ: اِسْتِعْمَالٌ آخَرُ قُدِّرَ فِيهِ مُضَافٌ حَذَرًا مِنَ الْإِضَافَةِ إِلَى الصِّفَةِ(١) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ يَنْتَظِرُونَ ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سُنَّةَ اللهِ فِيهِمْ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أَيْ: لَا يُبَدَّلُ بِالْعَذَابِ غَيْرُهُ، وَلَا يُحَوَّلُ إِلَى غَيْرِ مُسْتَحِقِّهِ. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ يَسْبِقَهُ وَيَفُوتَهُ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ﴿قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ عَلَيْهَا. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِنَ الْمَعَاصِي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أَيِ: الْأَرْضِ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ نَسَمَةٍ تَدِبُّ عَلَيْهَا ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيْ: يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ فَيُجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، بِإِثَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِقَابِ الْكَافِرِينَ.

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ يدل على أن المكر هنا شيء غير السيئ للزوم المغايرة بين المضاف والمضاف إليه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ يدل على أن المراد بالمكر هنا هو السيئ بعينه لا شيء آخر، فالتنافي بين التركيب الإضافي والتركيب التقييدي ظاهر. والذي يظهر والله تعالى أعلم أن التحقيق جواز إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلفت الألفاظ، لأن المغايرة بين الألفاظ ربما كفت في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه، فالظاهر أنه أسلوب من أساليب العربية بدليل كثرة وروده ... كقوله: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ [الأعراف: ١٦٩] والدار هي الآخرة. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٢٦٧)].

سُورَةُ يس

مَكِّيَّةٌ، أَوْ إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟﴾ الْآيَةِ، أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَثَمَانُونَ آيَةٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ(١). ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ الْمُحْكَمِ بِعَجِيبِ النَّظْمِ وَبَدِيعِ الْمَعَانِي. ﴿إِنَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ أَيْ: طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى، وَالتَّأْكِيدُ بِالْقَسَمِ وَغَيْرِهِ رَدٌّ لِقَوْلِ الْكُفَّارِ لَهُ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]. ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ بِخَلْقِهِ، خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مُقَدَّرٍ، أَيِ: الْقُرْآنُ. ﴿لِتُنذِرَ﴾ بِهِ ﴿قَوْمًا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ﴿تَنزِيلَ﴾ ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أَيْ: لَمْ يُنْذَرُوا فِي زَمَنِ الْفَتْرَةِ ﴿فَهُمْ﴾ أَيِ: الْقَوْمُ ﴿غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَالرُّشْدِ(٢). ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وَجَبَ ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾ أَيِ: الْأَكْثَرُ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ بِأَنْ تُضَمَّ إِلَيْهَا الْأَيْدِي؛ لِأَنَّ الْغُلَّ يَجْمَعُ الْيَدَ إِلَى الْعُنُقِ ﴿فَهِىَ﴾ أَيِ: الْأَيْدِي مَجْمُوعَةٌ ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ جَمْعُ «ذَقَنٍ» وَهِيَ مُجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾ رَافِعُونَ رُؤُوسَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ خَفْضَهَا وَهَذَا تَمْثِيلٌ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَا يُذْعِنُونَ لِلْإِيمَانِ وَلَا يَخْفِضُونَ رُؤُوسَهُمْ لَهُ. ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَضَمِّهَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ تَمْثِيلٌ أَيْضًا لِسَدِّ طُرُقِ الْإِيمَانِ عَلَيْهِمْ(٣). ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الذين في زمن الفترة منهم من عنده علم من الرسالة لكنه عاند، وبقي على ما كان عليه آباؤه كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فإنا نعلم علم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة، ولولا ذلك ما كانوا من أهل النار ... وآخرون لا ندري عنهم شيئا؛ فالواجب أن نتوقف في أمرهم، ونقول: الله أعلم بما كانوا عاملين، وأصح الأقوال فيهم أنهم يمتحنون يوم القيامة بتكاليف الله أعلم بها، فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار. [ابن عثيمين تفسير يس (ص:٢١)].

(٣) المراد بالآية الكريمة: أن هؤلاء الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علم الله المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صرفهم الله عن الإيمان صرفا عظيما مانعا من وصوله إليهم؛ لأن من جعل في عنقه غل، وصار الغل إلى ذقنه، حتى صار رأسه مرفوعا لا يقدر أن يطأطئه، وجعل أمامه سدا، وخلفه سدا، وجعل على بصره الغشاوة لا حيلة له في التصرف، ولا في جلب نفع لنفسه، ولا في دفع ضر عنها، فالذين أشقاهم الله بهذه المثابة لا يصل إليهم خير. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من كونه جل وعلا يصرف الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه عن الحق ويحول بينهم وبينه، جاء موضحا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا

الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ يَنْفَعُ إِنْذَارُكَ ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ خَافَهُ وَلَمْ يَرَهُ ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ لِلْبَعْثِ ﴿وَنَكْتُبُ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ[1] ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ فِي حَيَاتِهِمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ لِيُجَازُوا عَلَيْهِ ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ مَا اسْتُنَّ بِهِ بَعْدَهُمْ[2] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ نَصَبَهُ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضَبَطْنَاهُ ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ۝١٢﴾ كِتَابٍ بَيِّنٍ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. ﴿وَاضْرِبْ﴾ اجْعَلْ ﴿لَهُم مَّثَلًا﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ ﴿أَصْحَابَ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿الْقَرْيَةِ﴾ أَنْطَاكِيَّةَ ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ إِلَى آخِرِهِ، بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ﴿الْمُرْسَلُونَ ۝١٣﴾ أَيْ: رُسُلُ عِيسَى. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ إِلَى آخِرِهِ، بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذْ﴾ الْأُولَى إِلَى آخِرِهِ ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، قَوَّيْنَا الِاثْنَيْنِ ﴿بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ جَارٍ مَجْرَى الْقَسَمِ، وَزِيدَ التَّأْكِيدُ بِهِ وَبِاللَّامِ عَلَى مَا قَبْلَهُ لِزِيَادَةِ الْإِنْكَارِ فِي ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝١٧﴾ التَّبْلِيغُ

جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]. [الشنقيطي (٦/ ٧١٢)].

(١) اللوح المحفوظ انتهت كتابته، ولا يمكن أن تصاغ ﴿نَكْتُبُ﴾ لشيء انتهى، فالصواب نكتب في صحائف الأعمال، والذين يكتبون: الملائكة بأمر الله عز وجل. [ابن عثيمين تفسير يس (ص:٤٧)].

(٢) أي: ما أبقوه من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت كمن سن سنة حسنة كعلم علموه أو كتاب صنفوه، أو حبس حبسوه، أو بناء بنوه من مسجد أو رباط، أو قنطرة، أو نحو ذلك، أو السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها، كمن سن سُنة سيئة كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاءٍ ونحو ذلك. قال مجاهد وابن زيد: نظيره قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]، وقوله: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقيل: المراد بالآية آثار المشائين إلى المساجد، وبه قال جماعة من الصحابة والتابعين، قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية لأنها نزلت في ذلك [فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ آثَارَكُمْ تُكْتَبُ فَلَا تَنْتَقِلُوا» أخرجه الترمذي (٣٢٢٦)]، ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير والشر، والإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره، فلهذا قدم الإحياء. [صديق حسن (١١/ ٢٧٥)].

اَلْبَيِّنُ اَلظَّاهِرُ بِالْأَدِلَّةِ اَلْوَاضِحَةِ، وَهِيَ: إِبْرَاءُ اَلْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ وَالْمَرِيضِ وَإِحْيَاءِ اَلْمَيِّتِ[1]. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا﴾ تَشَاءَمْنَا ﴿بِكُمۡۖ﴾ لِانْقِطَاعِ اَلْمَطَرِ عَنَّا بِسَبَبِكُمْ ﴿لَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بِالْحِجَارَةِ ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ شُؤْمُكُمْ ﴿مَّعَكُمۡ﴾ بِكُفْرِكُمْ ﴿أَئِن﴾ هَمْزَةُ اِسْتِفْهَامٍ دَخَلَتْ عَلَى «إِنِ» اَلشَّرْطِيَّةِ وَفِي هَمْزَتِهَا اَلتَّحْقِيقُ وَالتَّسْهِيلُ وَإِدْخَالُ أَلِفٍ بَيْنَهَا بِوَجْهَيْهَا وَبَيْنَ اَلْأُخْرَى ﴿ذُكِّرۡتُمۚ﴾ وُعِظْتُمْ وَخُوِّفْتُمْ، وَجَوَابُ اَلشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: تَطَيَّرْتُمْ وَكَفَرْتُمْ، وَهُوَ مَحَلُّ اَلِاسْتِفْهَامِ وَالْمُرَادُ بِهِ اَلتَّوْبِيخُ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝١٩﴾ مُتَجَاوِزُونَ اَلْحَدَّ بِشِرْكِكُمْ. ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾ هُوَ حَبِيبٌ اَلنَّجَّارُ، كَانَ قَدْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَمَنْزِلُهُ بِأَقْصَى اَلْبَلَدِ[2] ﴿يَسۡعَىٰ﴾ يَشْتَدُّ عَدْوًا لَمَّا سَمِعَ بِتَكْذِيبِ اَلْقَوْمِ اَلرُّسُلَ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ﴾ تَأْكِيدٌ لِلْأَوَّلِ ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ عَلَى رِسَالَتِهِ ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١﴾ فَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ عَلَى دِينِهِمْ. فَقَالَ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ خَلَقَنِي، أَيْ: لَا مَانِعَ لِي مِنْ عِبَادَتِهِ اَلْمَوْجُودِ مُقْتَضِيهَا، وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢﴾ بَعْدَ اَلْمَوْتِ، فَيُجَازِيكُمْ بِكُفْرِكُمْ. ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾ فِي اَلْهَمْزَتَيْنِ مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ فِي ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ وَهُوَ اِسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى اَلنَّفْيِ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ أَصْنَامًا ﴿ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ اَلَّتِي زَعَمْتُمُوهَا ﴿شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣﴾ صِفَةُ ﴿ءَالِهَةً﴾. ﴿إِنِّيٓ إِذٗا﴾ أَيْ: إِنْ عَبَدْتُ غَيْرَ اللهِ ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ بَيِّنٍ. ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ۝٢٥﴾ أَيِ: اِسْمَعُوا قَوْلِي، فَرَجَمُوهُ فَمَاتَ. ﴿قِيلَ﴾ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ وَقِيلَ: دَخَلَهَا حَيًّا[3]

---

(١) يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تجيبوا فستعلمون غب ذلك، والله أعلم. [ابن كثير (٦/ ٥٦٩)].

(٢) التقدير: من بعيد المدينة، أي: طرف المدينة، وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليهم الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف أطراف سكان المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين لأن سكان أطراف المدينة غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو ... وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترفق وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة، ووصف الرجل بالسعي يفيد أنه جاء مسرعا وأنه بلغه هم أهل المدينة برجم الرسل أو تعذيبهم، فأراد أن ينصحهم خشية عليهم وعلى الرسل، وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنه ممن يقتدى به في الإسراع إلى تغيير المنكر. [ابن عاشور (٢٢/ ٣٦٥)].

(٣) اختلف هل دخلها حين موته كالشهداء؟ أو هل ذلك بمعنى البشارة بالجنة ورؤيته لمقعده منها. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٨١)]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ

﴿قَالَ يَٰـ﴾ حَرْفُ تَنْبِيهٍ ﴿لَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ بِغُفْرَانِهِ ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾ *﴿وَمَآ﴾ نَافِيَةٌ ﴿أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ أَيْ: حَبِيبٍ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ بَعْدَ مَوْتِهِ ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ: مَلَائِكَةٍ لِإِهْلَاكِهِمْ ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨﴾ مَلَائِكَةً لِإِهْلَاكِ أَحَدٍ. ﴿إِن﴾ مَا ﴿كَانَتۡ﴾ عُقُوبَتُهُمْ ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صَاحَ بِهِمْ جِبْرِيلُ ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾ سَاكِنُونَ مَيِّتُونَ. ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ هَؤُلَاءِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَأُهْلِكُوا، وَهِيَ شِدَّةُ التَّأَلُّمِ وَنِدَاؤُهَا مَجَازٌ، أَيْ: هَذَا أَوَانُكِ فَاحْضُرِي[1] ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠﴾ مَسُوقٌ لِبَيَانِ سَبَبِهَا؛ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمُ الْمُؤَدِّي إِلَى إِهْلَاكِهِمُ الْمُسَبَّبِ عَنْهُ الْحَسْرَةُ. ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ الْقَائِلُونَ لِلنَّبِيِّ: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ [الرعد: ٤٣] وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَيْ: عَلِمُوا ﴿كَمۡ﴾ خَبَرِيَّةٌ، بِمَعْنَى: كَثِيرًا، مَعْمُولَةٌ لِمَا بَعْدَهَا مُعَلِّقَةٌ لِمَا قَبْلَهَا عَنِ الْعَمَلِ، وَالْمَعْنَى: «أَنَّا» ﴿أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ كَثِيرًا ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ ﴿أَنَّهُمۡ﴾ أَيِ: الْمُهْلَكِينَ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ أَيِ: الْمُكَذِّبِينَ ﴿لَا يَرۡجِعُونَ ۝٣١﴾ أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهِمْ، وَ﴿أَنَّهُمۡ﴾ إِلَى آخِرِهِ: بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ بِرِعَايَةِ الْمَعْنَى الْمَذْكُورِ. ﴿وَإِن﴾ نَافِيَةٌ أَوْ مُخَفَّفَةٌ ﴿كُلٌّ﴾ أَيْ: كُلُّ الْخَلَائِقِ، مُبْتَدَأٌ ﴿لَّمَّا﴾ بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى: إِلَّا، أَوْ بِالتَّخْفِيفِ فَاللَّامُ فَارِقَةٌ وَ«مَا» مَزِيدَةٌ ﴿جَمِيعٞ﴾ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، أَيْ: مَجْمُوعُونَ ﴿لَّدَيۡنَا﴾ عِنْدَنَا فِي الْمَوْقِفِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ ﴿مُحۡضَرُونَ ۝٣٢﴾ لِلْحِسَابِ خَبَرٌ ثَانٍ. ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ﴾ عَلَى الْبَعْثِ، خَبَرٌ مُقَدَّمٌ ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ بِالْمَاءِ، مُبْتَدَأٌ ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا﴾ كَالْحِنْطَةِ ﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ﴾ بَسَاتِينَ ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ۝٣٤﴾ أَيْ: بَعْضَهَا. ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ بِفَتْحَتَيْنِ وَضَمَّتَيْنِ، أَيْ: ثَمَرِ الْمَذْكُورِ مِنَ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ أَيْ: لَمْ تَعْمَلِ الثَّمَرَ[2] ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ۝٣٥﴾

ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾. [ابن كثير (٦/ ٥٧٢)].

(١) نداء للحسرة كأنه قال: يا حسرة احضري فهذا وقتك، وهذا التفجع عليهم استعارة في معنى التهويل والتعظيم لما فعلوا من استهزائهم بالرسل، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة، أو المؤمنين من الناس، وقيل: المعنى يا حسرة العباد على أنفسهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٨١)].
والمستهزئون بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا على أنفسهم حيث فوتوا عليها السعادة الأبدية وعوضوها العذاب المقيم، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس، وأبي، وعلي بن الحسين، والضحاك، ومجاهد، والحسن ﴿يَٰحَسۡرَةَ ٱلۡعِبَادِۚ﴾ والحسرة على ما قال الراغب: الغم على ما فات والندم عليه؛ كأن المتحسر انحسر عنه قواه من فرط ذلك أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه، وفي البحر: هي أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى حسيرا. [الآلوسي (١٢/ ٤)].

(٢) عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما، وقيل «ما» نافية والمراد أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم، ويؤيد الأول

أَنْعَمَهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الْأَصْنَافَ ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ مِنَ الْحُبُوبِ وَغَيْرِهَا ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ٣٦﴾ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَجِيبَةِ الْغَرِيبَةِ. ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ عَلَى الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ نَفْصِلُ ﴿مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ٣٧﴾ دَاخِلُونَ فِي الظَّلَامِ. ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ إِلَى آخِرِهِ، مِنْ جُمْلَةِ الْآيَةِ لَهُمْ، أَوْ آيَةٌ أُخْرَى، وَالْقَمَرُ كَذَلِكَ ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ أَيْ: إِلَيْهِ لَا تَتَجَاوَزُهُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: جَرْيُهَا ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلْعَلِيمِ ٣٨﴾ بِخَلْقِهِ[1]. ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَهُوَ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ مَا بَعْدَهُ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ مِنْ حَيْثُ سَيْرُهُ ﴿مَنَازِلَ﴾ ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ مَنْزِلًا فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَيَسْتَتِرُ لَيْلَتَيْنِ إِنْ كَانَ الشَّهْرُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَلَيْلَةً إِنْ كَانَ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ فِي آخِرِ مَنَازِلِهِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾ أَيْ: كَعُودِ الشَّمَارِيخِ إِذَا عَتَقَ فَإِنَّهُ يَدِقُّ وَيَتَقَوَّسُ وَيَصْفَرُّ. ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى﴾ يَسْهُلُ وَيَصِحُّ ﴿لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ فَتَجْتَمِعَ مَعَهُ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ فَلَا يَأْتِي قَبْلَ انْقِضَائِهِ ﴿وَكُلٌّ﴾ تَنْوِينُهُ عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيْ: الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ ﴿فِى فَلَكٍ﴾ مُسْتَدِيرٍ ﴿يَسْبَحُونَ ٤٠﴾ يَسِيرُونَ[2]، نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ. ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أَيْ: آبَاءَهُمُ الْأُصُولَ ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أَيْ: سَفِينَةِ نُوحٍ ﴿ٱلْمَشْحُونِ ٤١﴾ الْمَمْلُوءِ. ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أَيْ: مِثْلِ فُلْكِ نُوحٍ، وَهُوَ مَا عَمِلُوهُ عَلَى شَكْلِهِ مِنَ السُّفُنِ الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ، بِتَعْلِيمِ اللهِ تَعَالَى ﴿مَا يَرْكَبُونَ ٤٢﴾ فِيهِ[3]. ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مَعَ إِيجَادِ

قراءة الكوفيين غير حفص بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن من غيرها. [البيضاوي (٤/ ٢٦٨)].

(١) ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ أي: لحد لها مؤقت مقدر ينتهي إليه دورها اليومي أو السنوي، شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره. فالمستقر اسم مكان تقطعه في حركتها الدائمة ثم تعود. ووجه الشبه الانتهاء إلى محل معين، واللام تعليلية، أو بمعنى «إلى». وقيل مستقرها: منقطع جريها عند خراب العالم. ومستقر عليه اسم زمان: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: ذلك الجري المتضمن للحكم، والمصالح، والمنافع، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا اختلال، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، المحيط علما بكل معلوم. [القاسمي (٨/ ١٨٤)].

(٢) النجوم هنا غير مذكورة، والصواب: من الشمس والقمر؛ لأنه لا ذكر للنجوم هنا ... وقوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ «أي: يسيرون» المعنى أدق مما قال المؤلف؛ لأن السبح هو العوم في الماء، فكأن هذه عائمة في الفلك الواسع تدور، ليست تسير على أرض مسطحة أو على ماء، بل هي تعوم في هذا الأفق. [ابن عثيمين تفسير يس (ص:١٤٧)].

(٣) أي: وخلقنا لهم مما يماثل الفلك ما يركبونه على أن ﴿مَا﴾ هي الموصولة و ﴿مِّن﴾ زائدة، قال مجاهد وقتادة وجماعة من أهل العلم من المفسرين: هي الإبل خلقها لهم للركوب في البر مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تسمي الإبل سفائن البر، وقيل: المعنى وخلقنا لهم سفناً أمثال تلك السفن يركبونها، قاله الحسن والضحاك وأبو مالك، وقال النحاس: وهذا أصح لأنه متصل الإسناد عن ابن عباس

السُّفُنِ ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ مُغِيثَ ﴿لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يُنْجَونَ. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: لَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا رَحْمَتُنَا لَهُمْ وَتَمْتِيعُنَا إِيَّاهُمْ بِلَذَّاتِهِمْ إِلَى انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا كَغَيْرِكُمْ ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أَعْرَضُوا. ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ﴾ أَيْ: قَالَ فُقَرَاءُ الصَّحَابَةِ ﴿لَهُمْ أَنفِقُواْ﴾ عَلَيْنَا ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ اسْتِهْزَاءً بِهِمْ ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ فِي مُعْتَقَدِكُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنتُمْ﴾ فِي قَوْلِكُمْ لَنَا ذَلِكَ، مَعَ مُعْتَقَدِكُمْ هَذَا ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ بَيِّنٍ، وَلِلتَّصْرِيحِ بِكُفْرِهِمْ مَوْقِعٌ عَظِيمٌ[١]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فِيهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أَيْ: مَا يَنْتَظِرُونَ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وَهِيَ نَفْخَةُ إِسْرَافِيلَ الْأُولَى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ بِالتَّشْدِيدِ أَصْلُهُ «يَخْتَصِمُونَ» نُقِلَتْ حَرَكَةُ التَّاءِ إِلَى الْخَاءِ وَأُدْغِمَتْ فِي الصَّادِ، أَيْ: وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا، بِتَخَاصُمٍ وَتَبَايُعٍ وَأَكْلٍ وَشُرْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَخْصِمُونَ﴾ كَيَضْرِبُونَ، أَيْ: يَخْصِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أَيْ: أَنْ يُوصُوا ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ، بَلْ يَمُوتُونَ فِيهَا[٢]. ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هُوَ قَرْنُ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ لِلْبَعْثِ، وَبَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ سَنَةً ﴿فَإِذَا هُم﴾ أَيِ: الْمَقْبُورُونَ ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ الْقُبُورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يَخْرُجُونَ بِسُرْعَةٍ[٣]. ﴿قَالُواْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ مِنْهُمْ: ﴿يَٰ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿وَيْلَنَا﴾ هَلَاكَنَا، وَهُوَ مَصْدَرٌ لَا

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ... قلت: والعموم أولى ولا وجه للتخصيص، فيشمل كل ما يركب حيواناً كان أو جماداً دخاناً كان أو ريحاً، كالعجلات الحادثة في هذا الزمان، وما سيحدث في المستقبل بتلاحق الأفكار وتعامل الأيدي والأنظار. [صديق حسن (١١/ ٢٩٩)].

(١) لأن الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتصريح بكفرهم. ومثل هذه المقالة لا تصدر إلا من كافر، فيكون الكفر عاما لكل من قال هذه المقالة. [ابن عثيمين تفسير يس (ص:١٦٩)].

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ مِنْ تَحْتِهَا فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهُ». أخرجه البخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (٢٩٥٤).

(٣) «النسل والنسلان» الإسراع في السير يقال: نسل الذئب ينسل كضرب يضرب، ويقال: ينسل بالضم أيضاً وهو الإسراع في المشي. [صديق حسن (١١/ ٣٠٥)]. أي: يعدون مسرعين، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] ولا منافاة بين هذا وما في آية: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] لأنهما في زمان واحد متقارب. [القاسمي (٨/ ١٨٩)]. ويسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. [أبو السعود (٧/ ١٧١)].

فِعْلَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ نَائِمِينَ لَمْ يُعَذَّبُوا(١) ﴿هَٰذَا﴾ أَيِ: الْبَعْثُ ﴿مَا﴾ أَيِ: الَّذِي ﴿وَعَدَ﴾ بِهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ﴾ فِيهِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢﴾ أَقَرُّوا حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِقْرَارُ، وَقِيلَ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ(٢). ﴿إِن﴾ مَا ﴿كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا﴾ عِنْدَنَا ﴿مُحۡضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٥٤ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٍ﴾ بِسُكُونِ الْغَيْنِ وَضَمِّهَا عَمَّا فِيهِ أَهْلُ النَّارِ مِمَّا يَتَلَذَّذُونَ بِهِ كَافْتِضَاضِ الْأَبْكَارِ لَا شُغْلَ يَتْعَبُونَ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ لَا نَصَبَ فِيهَا ﴿فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ نَاعِمُونَ(٣) خَبَرٌ ثَانٍ لِـ ﴿إِنَّ﴾ وَالْأَوَّلُ ﴿فِي شُغُلٍ﴾. ﴿هُمۡ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ جَمْعُ ظُلَّةٍ أَوْ ظِلٍّ خَبَرٌ، أَيْ: لَا تُصِيبُهُمُ الشَّمْسُ(٤) ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ جَمْعُ أَرِيكَةٍ وَهُوَ السَّرِيرُ فِي الْحَجَلَةِ(٥) أَوِ الْفُرُشُ فِيهَا ﴿مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ خَبَرٌ ثَانٍ مُتَعَلِّقٌ ﴿عَلَى﴾. ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم﴾ فِيهَا ﴿مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾ يَتَمَنَّوْنَ. ﴿سَلَٰمٞ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿قَوۡلٗا﴾ أَيْ: بِالْقَوْلِ، خَبَرُهُ: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾ بِهِمْ، أَيْ: يَقُولُ لَهُمْ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ». ﴿وَ﴾ يَقُولُ: ﴿ٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩﴾ أَيِ: انْفَرِدُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ اخْتِلَاطِهِمْ بِهِمْ. ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ﴾ آمُرْكُمْ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ عَلَى لِسَانِ رُسُلِي ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ لَا تُطِيعُوهُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠﴾ بَيِّنُ الْعَدَاوَةِ. ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾ وَحِّدُونِي وَأَطِيعُونِي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا﴾ خَلْقًا جَمْعُ «جَبِيلٍ» كَقَدِيمٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ:

---

(١) قال ابن عطية هذا غير صحيح الإسناد، وإنما الوجه في معنى قولهم: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ أنها استعارة وتشبيه به يعني أن قبورهم شبهت بالمضاجع، لكونهم فيها على هيئة الرقاد، وإن لم يكن رقاد في الحقيقة. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٨٤)]. [أي:] يعنون: من قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. [ابن كثير (٦/ ٥٨١)].

(٢) ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ اختلف في هذه المقالة، من قالها؟ فقال ابن زيد: هي من قول الكفرة لما رأوا البعث والنشور الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، وقالت فرقة: ذلك من قول الله تبارك وتعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف، وقال الفراء: هو من قول الملائكة، وقال قتادة ومجاهد: هو من قول المؤمنين للكفار على جهة التقريع. [ابن عطية (٤/ ٤٥٨)]. [وهذ القول الأخير] أشبه بظاهر التنزيل، وهو أن يكون من كلام المؤمنين، لأن الكفار في قيلهم ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مرقدهم جُهَّالا ولذلك من جهلهم استثبتوا، ومحال أن يكونوا استثبتوا ذلك إلا من غيرهم، ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك. [الطبري (١٩/ ٤٥٨)].

(٣) قرئ بالألف ومعناه أصحاب فاكهة، وبغير ألف وهو من الفكاهة بمعنى الراحة والسرور. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٨٥)].

(٤) والمعنى ... هم في ظلالٍ ليس عندهم شمس تصهرهم أو تسخن الجو، وإنما هو أنوار. [ابن عثيمين تفسير يس (ص:٢٠٠)].

(٥) الحجلة بالتحريك: بيت كالقبة يستر بالثياب وتكون له أزرار كبار، وتجمع على حجال. [غريب الحديث لابن الأثير (١/ ٣٤٦)].

بِضَمِّ اَلْبَاءِ[1] ﴿كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ٦٢﴾ عَدَاوَتَهُ وَإِضْلَالَهُ، أَوْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ اَلْعَذَابِ فَتُؤْمِنُوا. وَيُقَالُ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٦٣﴾ بِهَا. ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٦٤ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أَيِ: اَلْكُفَّارِ، لِقَوْلِهِمْ: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وَغَيْرُهَا ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ٦٥﴾ فَكُلُّ عُضْوٍ يَنْطِقُ بِمَا صَدَرَ مِنْهُ[2]. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لَأَعْمَيْنَاهُمْ طَمْسًا[3] ﴿فَٱسْتَبَقُواْ﴾ اِبْتَدَرُوا ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ اَلطَّرِيقَ ذَاهِبِينَ كَعَادَتِهِمْ ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فَكَيْفَ ﴿يُبْصِرُونَ ٦٦﴾ حِينَئِذٍ، أَيْ: لَا يُبْصِرُونَ.[4] ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، أَوْ حِجَارَةً ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مَكَانَاتِهِمْ﴾ جَمْعُ «مَكَانَةٍ» بِمَعْنَى: مَكَانٍ، أَيْ: فِي مَنَازِلِهِمْ[5] ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ٦٧﴾ أَيْ: لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَهَابٍ وَلَا مَجِيءٍ. ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ بِإِطَالَةِ أَجَلِهِ ﴿نُنَكِّسْهُ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ ﴿نُنْكِسْهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ مِنَ

---

(١) الجِبِلّ: الأمة العظيمة، وقال الضحاك: أقلها عشرة آلاف ولا نهاية لأكثرها. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٨٥)].

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: لَا أُجِيزُ عَلَيَّ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقال لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحقًا، فعنكنَّ كنتُ أُنَاضِلُ». أخرجه مسلم (٢٩٦٩).

(٣) قال الحسن وقتادة: أراد الأعين حقيقة، والمعنى: لأعميناهم فلا يرون كيف يمشون، ويؤيد هذا مجانسة المسخ الحقيقي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد أعين البصائر، والمعنى: ولو شئنا لختمنا عليهم بالكفر فلم يهتد منهم أحد. و«الطمس» إذهاب الآثار من المشي والهيئات حتى كأنه لم يكن، أي: جعلنا جلود وجوههم متصلة حتى كأنه لم تكن فيها عين قط. [ابن عطية (٤/ ٤٦١)].

(٤) المعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقا إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها. وهذا اختيار الطبري ... وقد روي عن عبد الله بن سلام في تأويل هذه الآية غير ما تقدم، وتأولها على أنها في يوم القيامة. وقال: إذا كان يوم القيامة ومد الصراط، نادى مناد ليقم محمد ﷺ وأمته، فيقومون برهم وفاجرهم يتبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه. [القرطبي (١٥/ ٤٩)].

(٥) المسخ تبديل الخلقة، أي: تغيير الصورة وإبطال القوى إلى حجر أو غيره من الجماد أو بهيمة. والمكانة المكان أي: لو شئنا لبدلنا خلقهم على المكان الذي هم فيه، قيل: والمكانة أخص من المكان كالمقامة والمقام، قال الحسن: أي لأقعدناهم، وقيل: لمسخناهم في المكان الذي فعلوا فيه المعصية، وقيل: المعنى لو نشاء لأهلكناهم في مساكنهم قاله ابن عباس، وقال يحيى بن سلام: هذا كله يوم القيامة. [صديق حسن (١١/ ٣١٥)].

«اَلتَّنْكِيسِ» ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أَيْ: خَلْقِهِ، فَيَكُونُ بَعْدَ قُوَّتِهِ وَشَبَابِهِ ضَعِيفًا وَهَرِمًا[١] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾ أَنَّ اَلْقَادِرَ عَلَى ذَلِكَ اَلْمَعْلُومِ عِنْدَهُمْ قَادِرٌ عَلَى اَلْبَعْثِ، فَيُؤْمِنُوا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّاءِ. ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ أَيْ: اَلنَّبِيَّ ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: «إِنَّ مَا أَتَى بِهِ مِنَ اَلْقُرْآنِ شِعْرٌ» ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ يَتَسَهَّلُ ﴿لَهُۥٓ﴾ اَلشِّعْرُ[٢] ﴿إِنْ هُوَ﴾ لَيْسَ اَلَّذِي أَتَى بِهِ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩﴾ مُظْهِرٌ لِلْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا. ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ بِهِ ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ يَعْقِلُ مَا يُخَاطَبُ بِهِ وَهُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧٠﴾ وَهُمْ كَالْمَيِّتِينَ لَا يَعْقِلُونَ مَا يُخَاطَبُونَ بِهِ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يَعْلَمُوا، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، وَالْوَاوُ لِلْعَطْفِ ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ فِي جُمْلَةِ اَلنَّاسِ ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ عَمِلْنَاهُ بِلَا شَرِيكٍ وَلَا مُعِينٍ ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ هِيَ اَلْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١﴾ ضَابِطُونَ[٣]. ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا﴾ سَخَّرْنَاهَا

---

(١) أي: بتناقص قواه وضعف بنيته حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم، كما قال عز وجل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: من قدر على ذلك، قدر على الطمس والمسخ، وأن يفعل ما يشاء. [القاسمي (٨/ ١٩٣)].

(٢) رد وإبطال لما كانوا يقولونه في حقه ﷺ من أنه شاعر، وما يقوله شعر، أي: ما علمناه الشعر بتعليم القرآن على معنى أن القرآن ليس بشعر، فإن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر، المنزه عن مماثلة كلام البشر، المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومن أين اشتبه عليهم الشؤون، واختلط بهم الظنون؟ ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصح له الشعر، ولا يتأتى له لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له، كما جعلناه أميا لا يهتدي للخط. [أبو السعود (٧/ ١٧٧)].

(٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ الهمزة للإنكار والتعجيب من حالهم، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، والرؤية هي القلبية، أي: أولم يعلموا بالتفكر والاعتبار ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: لأجلهم. انتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة ... وقوله: ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ مفعول خلقنا، وهي جمع نعم، وهي: البقر والغنم والإبل وإنما خصها بالذكر وإن كانت الأشياء كلها من خلق الله وإيجاده؛ لأن النعم أكثر أموال العرب والنفع بها أعم. ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام فقال: ﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ أي: ضابطون قاهرون، يتصرفون بها كيف شاءوا، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم ولم يقدروا على ضبطها، أو المراد أنها صارت في أملاكهم ومعدودة في جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك، وهذا أظهر. [صديق حسن (١١/ ٣٢٠)]. وليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك سبحانه وتعالى ... لقال: مما عملنا بأيدينا كما قال تعالى في آدم يخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص ٧٥]، فهنا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليد. أما هنا فأضاف العمل إلى اليد ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى ٣٠] وما أشبهها مما يضاف فيه الفعل إلى اليد والمراد الإنسان. [ابن عثيمين تفسير يس (ص: ٢٥٨)].

﴿لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مَرْكُوبُهُمْ ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كَأَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴿وَمَشَارِبُ﴾ مِنْ لَبَنِهَا جَمْعُ «مَشْرَبٍ» بِمَعْنَى: شُرْبٍ، أَوْ مَوْضِعِهِ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝﴾ الْمُنْعِمَ عَلَيْهِمْ بِهَا فَيُؤْمِنُوا، أَيْ: مَا فَعَلُوا ذَلِكَ. ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ أَصْنَامًا ﴿ءَالِهَةً﴾ يَعْبُدُونَهَا ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝﴾ يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى بِشَفَاعَةِ آلِهَتِهِمْ بِزَعْمِهِمْ. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَيْ: آلِهَتُهُمْ، نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ ﴿نَصْرَهُمْ وَهُمْ﴾ أَيْ: آلِهَتُهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿لَهُمْ جُندٌ﴾ بِزَعْمِهِمْ نَصْرَهُمْ ﴿مُّحْضَرُونَ ۝﴾ فِي النَّارِ مَعَهُمْ. ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لَكَ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]، وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝﴾ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ فَنُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يَعْلَمْ، وَهُوَ: الْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ إِلَى أَنْ صَيَّرْنَاهُ شَدِيدًا قَوِيًّا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ لَنَا ﴿مُّبِينٌ ۝﴾ بَيِّنُهَا فِي نَفْيِ الْبَعْثِ. ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ مِنَ الْمَنِيِّ، وَهُوَ أَغْرَبُ مِنْ مَثَلِهِ ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝﴾ أَيْ: بَالِيَةٌ، وَلَمْ يَقُلْ رَمِيمَةٌ بِالتَّاءِ لِأَنَّهُ اسْمٌ لَا صِفَةٌ، رُوِيَ أَنَّهُ أَخَذَ عَظْمًا رَمِيمًا فَفَتَّتَهُ، وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَتَرَى يُحْيِي اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا بَلِيَ وَرَمَّ؟ فَقَالَ ﷺ: «نَعَمْ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ»(١). ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أَيْ: مَخْلُوقٍ ﴿عَلِيمٌ ۝﴾ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا قَبْلَ خَلْقِهِ وَبَعْدَ خَلْقِهِ. ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ الْمَرْخِ وَالْعَفَارِ أَوْ كُلِّ شَجَرٍ إِلَّا الْعُنَّابَ(٢) ﴿نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝﴾ تَقْدَحُونَ، وَهَذَا دَالٌّ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ، فَإِنَّهُ جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ وَالْخَشَبِ فَلَا الْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ وَلَا النَّارُ تُحْرِقُ الْخَشَبَ. ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مَعَ عِظَمِهِمَا ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أَيِ: الْأَنَاسِيَّ فِي الصِّغَرِ؟ ﴿بَلَىٰ﴾ أَيْ: هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، أَجَابَ نَفْسَهُ ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الْكَثِيرُ الْخَلْقِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ شَأْنُهُ ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أَيْ: خَلْقَ شَيْءٍ ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝﴾ أَيْ: فَهُوَ يَكُونُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿يَقُولَ﴾. ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ مُلْكُ، زِيدَتِ الْوَاوُ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيِ: الْقُدْرَةُ عَلَى ﴿كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾ تُرَدُّونَ فِي الْآخِرَةِ.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٢/ ٣١).

(٢) وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران. [الشوكاني (٤/ ٤٤٠)].

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مَكِّيَّةٌ، مِائَةٌ وَاثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١﴾ اَلْمَلَائِكَةِ تَصُفُّ نُفُوسَهَا فِي الْعِبَادَةِ[١] أَوْ أَجْنِحَتَهَا فِي الْهَوَاءِ تَنْتَظِرُ مَا تُؤْمَرُ بِهِ[٢]. ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢﴾ اَلْمَلَائِكَةِ تَزْجُرُ السَّحَابَ، أَيْ: تَسُوقُهُ. ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ جَمَاعَةِ قُرَّاءِ الْقُرْآنِ تَتْلُوهُ ﴿ذِكۡرًا ٣﴾ مَصْدَرٌ مِنْ مَعْنَى التَّالِيَاتِ[٣]. ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥﴾ أَيْ: وَالْمَغَارِبِ لِلشَّمْسِ، وَلَهَا كُلَّ يَوْمٍ مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ[٤]. ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾ أَيْ:

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُقَدَّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». أخرجه مسلم (٤٣٠).

(٢) افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته، إظهارا لعظم شأنها وكبر فوائدها، وتنبيها إلى الاعتبار بصفتها وما تستدعيه من سمتها. ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ جمع صافة، أي: طائفة صافة، أو جماعة صافة. فيكون في المعنى جمع الجمع، أو على تأنيث مفرده، باعتبار أنه ذات ونفس. والمراد بالصافات الملائكة؛ لقيامها مصطفة في مقام العبودية لمالك الملك. من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥] أو لصفها أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله تعالى. [القاسمي (٨/ ٢٠٠)].

(٣) أي: الملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدي، وقيل: المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع تعظيماً له مع أنه لا يخلو من أتباع له من الملائكة، وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله وكتبه، وقيل: المراد آيات القرآن ووصفها بالتلاوة وإن كانت متلوة، كما في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]. وقيل: لأن بعضها يتلو بعضاً ويتبعه. وذكر الماوردي: أن التاليات هم الأنبياء يتلون الذكر على أممهم؛ وانتصاب ذكراً على أنه مفعول به، ويجوز أن يكون مصدراً كما قبله، قيل: وهذه الفاء في قوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾، ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ إما لترتيب الصفات أنفسها في الوجود، أو لترتيب موصوفاتها في الفضل؛ وفي الكل نظر. [الشوكاني (٤/ ٤٤٣)].

(٤) جمع المشارق باعتبار اختلاف مطلع الشمس في أيام نصف سنة دورتها وهي السنة الشمسية وهي مائة وثمانون شرقا باعتبار أطول نهار في السنة الشمسية وأقصره مكررة مرتين في السنة، ابتداء من الرجوع الشتوي إلى الرجوع الخريفي، وهي مطالع متقاربة ليست متحدة، فإن المشرق اسم لمكان شروق الشمس وهو ظهورها فإذا راعوا الجهة دون الفصل قالوا: ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ بالإفراد، وإذا روعي الفصلان الشتاء والصيف قيل: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، على أن جمع ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ قد يكون بمراعاة اختلاف المطالع في مبادئ الفصول الأربعة. والآية صالحة للاعتبارين ليعتبر كل فريق من الناس بها على حسب مبالغ علمهم. [ابن عاشور (٢٣/ ٨٦)].

بِضَوْئِهَا أَوْ بِهَا، وَالْإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ، كَقِرَاءَةِ: تَنْوِينِ ﴿زِينَةٍ﴾ اَلْمُبَيَّنَةِ بِـ ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾. ﴿وَحِفْظًا﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: حَفِظْنَاهَا بِالشُّهُبِ ﴿مِّن كُلِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالْمُقَدَّرِ ﴿شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ عَاتٍ خَارِجٍ عَنِ الطَّاعَةِ. ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ أَيِ: اَلشَّيَاطِينُ، مُسْتَأْنَفٌ وَسَمَاعُهُمْ هُوَ فِي الْمَعْنَى الْمَحْفُوظِ عَنْهُ ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ اَلْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ، وَعُدِّيَ السَّمَاعُ بِـ «إِلَى» لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الْإِصْغَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ وَالسِّينِ أَصْلُهُ «يَتَسَمَّعُونَ» أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي السِّينِ ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أَيِ: اَلشَّيَاطِينُ بِالشُّهُبِ ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ. ﴿دُحُورًا﴾ مَصْدَرُ «دَحَرَهُ»، أَيْ: طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ، وَهُوَ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿وَلَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ دَائِمٌ. ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ مَصْدَرٌ، أَيِ: الْمَرَّةَ، وَالِاسْتِثْنَاءُ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ أَيْ: لَا يَسْمَعُ إِلَّا الشَّيْطَانُ، الَّذِي سَمِعَ الْكَلِمَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَأَخَذَهَا بِسُرْعَةٍ ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ كَوْكَبٌ مُضِيءٌ ﴿ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ يَثْقُبُهُ أَوْ يُحْرِقُهُ أَوْ يَخْبِلُهُ. ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ اِسْتَخْبِرْ كُفَّارَ مَكَّةَ تَقْرِيرًا أَوْ تَوْبِيخًا ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرَضِينَ وَمَا فِيهِمَا، وَفِي الْإِتْيَانِ بِـ ﴿مَّنْ﴾ تَغْلِيبُ الْعُقَلَاءِ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾ أَيْ: أَصْلَهُمْ آدَمَ ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ لَازِمٍ يُلْصَقُ بِالْيَدِ، الْمَعْنَى: أَنَّ خَلْقَهُمْ ضَعِيفٌ، فَلَا يَتَكَبَّرُوا بِإِنْكَارِ النَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ الْمُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِهِمُ الْيَسِيرِ. ﴿بَلْ﴾ لِلِانْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرَ، وَهُوَ الْإِخْبَارُ بِحَالِهِ وَحَالِهِمْ ﴿عَجِبْتَ﴾ بِفَتْحِ التَّاءِ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَيْ: مِنْ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاكَ ﴿وَ﴾ هُمْ ﴿يَسْخَرُونَ ۝١٢﴾ مِنْ تَعَجُّبِكَ. ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ وُعِظُوا بِالْقُرْآنِ ﴿لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴾ لَا يَتَّعِظُونَ. ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً﴾ كَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾ يُسْتَهْزِئُونَ بِهَا. ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ فِيهَا: ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ بَيِّنٌ. وَقَالُوا مُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦﴾ فِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ التَّحْقِيقُ، وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالُ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ. ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ بِسُكُونِ الْوَاوِ عَطْفًا بِـ «أَوْ»، وَبِفَتْحِهَا وَالْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ وَالْعَطْفُ بِـ «الْوَاوِ» وَالْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ مَحَلُّ «إِنَّ» وَاسْمِهَا، أَوِ الضَّمِيرُ فِي ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وَالْفَاصِلُ هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ. ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تُبْعَثُونَ ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ۝١٨﴾ صَاغِرُونَ. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ ضَمِيرٌ مُبْهَمٌ يُفَسِّرُهُ ﴿زَجْرَةٌ﴾ أَيْ: صَيْحَةٌ ﴿وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ﴾ أَيِ: الْخَلَائِقُ أَحْيَاءٌ ﴿يَنظُرُونَ ۝١٩﴾ مَا يُفْعَلُ بِهِمْ. ﴿وَقَالُوا۟﴾ أَيِ: الْكُفَّارُ ﴿يَٰ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿وَيْلَنَا﴾ هَلَاكَنَا، وَهُوَ مَصْدَرٌ لَا فِعْلَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ وَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠﴾ يَوْمُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ. ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾. وَيُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أَنْفُسَهُمْ بِالشِّرْكِ ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ قُرَنَاءَهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ دُلُّوهُمْ وَسُوقُوهُمْ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ طَرِيقِ النَّارِ. ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ اِحْبِسُوهُمْ عِنْدَ

ٱلصِّرَاطِ ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ عَنْ جَمِيعِ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ. وَيُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لَا يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَحَالِكُمْ فِي ٱلدُّنْيَا. وَيُقَالُ عَنْهُمْ: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مُنْقَادُونَ أَذِلَّاءُ. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يَتَلَاوَمُونَ وَيَتَخَاصَمُونَ. ﴿قَالُوٓاْ﴾ أَيِ: ٱلْأَتْبَاعُ مِنْهُمْ لِلْمَتْبُوعِينَ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ عَنِ ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي كُنَّا نَأْمَنُكُمْ مِنْهَا لِحَلِفِكُمْ أَنَّكُمْ عَلَى ٱلْحَقِّ(١) فَصَدَّقْنَاكُمْ وَٱتَّبَعْنَاكُمْ، ٱلْمَعْنَى: أَنَّكُمْ أَضْلَلْتُمُونَا. ﴿قَالُواْ﴾ أَيِ: ٱلْمُتَّبَعُونَ لَهُمْ ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وَإِنَّمَا يَصْدُقُ ٱلْإِضْلَالُ مِنَّا أَنْ لَوْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَرَجَعْتُمْ عَنِ ٱلْإِيمَانِ إِلَيْنَا. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ قُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ تَقْهَرُكُمْ عَلَى مُتَابَعَتِنَا ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ضَالِّينَ مِثْلَنَا. ﴿فَحَقَّ﴾ وَجَبَ ﴿عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ﴾ بِٱلْعَذَابِ، أَيْ: قَوْلُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ﴿إِنَّا﴾ جَمِيعًا ﴿لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ ٱلْعَذَابَ بِذَلِكَ ٱلْقَوْلِ، وَنَشَأَ عَنْهُ قَوْلُهُمْ: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ ٱلْمُعَلَّلَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أَيْ: لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي ٱلْغَوَايَةِ. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا نَفْعَلُ بِهَؤُلَاءِ ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾ غَيْرِ هَؤُلَاءِ، أَيْ: نُعَذِّبُهُمُ ٱلتَّابِعَ مِنْهُمْ وَٱلْمَتْبُوعَ. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أَيْ: هَؤُلَاءِ، بِقَرِينَةِ مَا بَعْدَهُ ﴿كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا﴾ فِي هَمْزَتَيْهِ مَا تَقَدَّمَ ﴿لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ أَيْ: لِأَجْلِ مُحَمَّدٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ٱلْجَائِينَ بِهِ، وَهُوَ: «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱللهُ»(٢). ﴿إِنَّكُمْ﴾ فِيهِ ٱلْتِفَاتٌ ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أَيِ: ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ. أَيْ: ذُكِرَ جَزَاؤُهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾ فِي ٱلْجَنَّةِ ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ بُكْرَةً وَعَشِيًّا. ﴿فَوَٰكِهُ﴾ بَدَلٌ أَوْ بَيَانٌ لِلرِّزْقِ وَهُوَ مَا يُؤْكَلُ تَلَذُّذًا، لَا لِحِفْظِ صِحَّةٍ؛ لِأَنَّ أَهْلَ ٱلْجَنَّةِ مُسْتَغْنُونَ عَنْ حِفْظِهَا بِخَلْقِ أَجْسَامِهِمْ لِلْأَبَدِ ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ بِثَوَابِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لَا يَرَى بَعْضُهُمْ قَفَا بَعْضٍ(٣). ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمْ ﴿بِكَأْسٍ﴾ هُوَ ٱلْإِنَاءُ بِشَرَابِهِ ﴿مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾﴾ مِنْ خَمْرٍ يَجْرِي عَلَى

---

(١) وهذا كقول الله تعالى عن الشيطان: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص:٦٥)].

(٢) الذين جاؤوا قبله: لأنه جاء بمثل ما جاؤوا به، ويحتمل أن يكون صدقهم لأنهم أخبروا بنبوته، فظهر صدقهم لما بعث ﷺ. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٩١)].

(٣) ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ فيما بينهم قد صفت قلوبهم، ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على تقابل قلوبهم، وتأدب بعضهم مع بعض فلم يستدبره، أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب، ما دل عليه ذلك التقابل. [السعدي ص:٧٠٢].

وَجْهِ الْأَرْضِ كَأَنْهَارِ الْمَاءِ. ﴿بَيْضَآءَ﴾ أَشَدَّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ ﴿لَذَّةٍ﴾ لَذِيذَةٍ ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦﴾ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا كَرِيهَةٌ عِنْدَ الشُّرْبِ. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ مَا يَغْتَالُ عُقُولَهُمْ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾ بِفَتْحِ الزَّايِ وَكَسْرِهَا، مِنْ نُزِفَ الشَّارِبُ وَأَنْزَفَ، أَيْ: يَسْكَرُونَ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا. ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ حَابِسَاتُ الْأَعْيُنِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ لِحُسْنِهِمْ عِنْدَهُنَّ ﴿عِينٌ ٤٨﴾ ضِخَامُ الْأَعْيُنِ حِسَانُهَا. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ فِي اللَّوْنِ ﴿بَيْضٌ﴾ لِلنَّعَامِ ﴿مَّكْنُونٌ ٤٩﴾ مَسْتُورٌ بِرِيشِهِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ غُبَارٌ، وَلَوْنُهُ وَهُوَ الْبَيَاضُ فِي صُفْرَةٍ، أَحْسَنُ أَلْوَانِ النِّسَاءِ. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ بَعْضُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾ عَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا. ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ٥١﴾ صَاحِبٌ يُنْكِرُ الْبَعْثَ(١). ﴿يَقُولُ﴾ لِي تَبْكِيتًا: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ٥٢﴾ بِالْبَعْثِ. ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا﴾ فِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الثَّلَاثَةِ مَوَاضِعَ مَا تَقَدَّمَ ﴿لَمَدِينُونَ ٥٣﴾ مَجْزِيُّونَ وَمُحَاسَبُونَ، أَنْكَرَ ذَلِكَ أَيْضًا. ﴿قَالَ﴾ ذَلِكَ الْقَائِلُ لِإِخْوَانِهِ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤﴾ مَعِي إِلَى النَّارِ لِنَنْظُرَ حَالَهُ؟ فَيَقُولُونَ: لَا. ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ ذَلِكَ الْقَائِلُ مِنْ بَعْضِ كُوَى الْجَنَّةِ ﴿فَرَءَاهُ﴾ أَيْ: رَأَى قَرِينَهُ ﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ٥٥﴾ فِي وَسَطِ النَّارِ. ﴿قَالَ﴾ لَهُ تَشْمِيتًا: ﴿تَٱللَّهِ إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ ﴿كِدتَّ﴾ قَارَبْتَ ﴿لَتُرْدِينِ ٥٦﴾ لَتُهْلِكُنِي بِإِغْوَائِكَ. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى﴾ أَيْ: إِنْعَامُهُ عَلَيَّ بِالْإِيمَانِ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ٥٧﴾ مَعَكَ فِي النَّارِ. وَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ الَّتِي فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩﴾ هُوَ اسْتِفْهَامُ تَلَذُّذٍ وَتَحَدُّثٍ بِنِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى مِنْ تَأْبِيدِ الْحَيَاةِ وَعَدَمِ التَّعْذِيبِ(٢). ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٦٠ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ٦١﴾ قِيلَ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ، وَقِيلَ: هُمْ يَقُولُونَهُ(٣). ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ لَهُمْ ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ وَهُوَ مَا يُعَدُّ لِلنَّازِلِ مِنْ ضَيْفٍ وَغَيْرِهِ ﴿أَمْ

---

(١) ﴿إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ في الدنيا ينكر البعث. قال مجاهد: كان شيطانا. وقال الآخرون: كان من الإنس. وقال مقاتل: كانا أخوين. وقال الباقون: كانا شريكين أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا، وهما اللذان قص الله تعالى خبرهما في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]. [البغوي (٧/ ٤١)].

(٢) أي: يقوله المؤمن، مبتهجا بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب؛ استفهام بمعنى الإثبات والتقرير، أي: يقول لقرينه المعذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى، ولا بعث بعدها ولا عذاب. [السعدي (ص:٧٠٣)].

(٣) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يحتمل أن يكون من كلام المؤمن، أو من كلامه وكلام رفقائه في الجنة أو من كلام الله تعالى، وكذلك يحتمل هذه الوجوه في قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ والأول أرجح فيه أن يكون من كلام الله تعالى، لأن الذي بعده من كلام الله فيكون متصلاً به، ولأن الأمر بالعمل إنما هو حقيقة في الدنيا ففيه تحضيض على العمل الصالح. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٩٢)].

شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ﴾ اَلْمُعَدَّةِ لِأَهْلِ اَلنَّارِ(١)، وَهِيَ مِنْ أَخْبَثِ اَلشَّجَرِ اَلْمُرِّ بِتُهَامَةَ(٢)، يُنْبِتُهَا اَللهُ فِي اَلْجَحِيمِ كَمَا سَيَأْتِي. ﴿**إِنَّا جَعَلْنَٰهَا**﴾ بِذَلِكَ ﴿**فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾**﴾ أَي: اَلْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، إِذْ قَالُوا: «اَلنَّارُ تُحْرِقُ اَلشَّجَرَ، فَكَيْفَ تُنْبِتُهُ؟» ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾**﴾ أَيْ: قَعْرِ جَهَنَّمَ وَأَغْصَانُهَا تَرْتَفِعُ إِلَى دَرَكَاتِهَا. ﴿**طَلْعُهَا**﴾ اَلْمُشَبَّهُ بِطَلْعِ اَلنَّخْلِ ﴿**كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾**﴾ اَلْحَيَّاتِ اَلْقَبِيحَةَ اَلْمَنْظَرِ(٣). ﴿**فَإِنَّهُمْ**﴾ أَيِ: اَلْكُفَّارُ ﴿**لَأٓكِلُونَ مِنْهَا**﴾ مَعَ قُبْحِهَا لِشِدَّةِ جُوعِهِمْ ﴿**فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾**﴾ أَيْ: مَاءٍ حَارٍّ يَشْرَبُونَهُ، فَيَخْتَلِطُ بِالْمَأْكُولِ مِنْهَا فَيَصِيرُ شَوْبًا لَهُ(٤). ﴿**ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾**﴾ يُفِيدُ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا لِشُرْبِ اَلْحَمِيمِ وَأَنَّهُ خَارِجَهَا(٥). ﴿**إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ**﴾ وَجَدُوا ﴿**ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾**﴾ يُزْعَجُونَ إِلَى

---

(١) قد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠]، يعني الزيتونة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الواقعة: ٥١-٥٢]. [ابن كثير (١٨/٧)].

(٢) ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ أي: التي حاصلها الألم والغم ... قال الواحدي: وهو شيء مر كريه يكره أهل النار على تناوله فهم يتزقمونه فهي على هذا مشتقة من التزقم؛ وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها؛ واختلف فيها: هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب؟ أم لا؟ على قولين أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا، فقال قطرب: إنها شجرة مرة كريهة الرائحة تكون بتهامة من أخبث الشجر، وقال غيره: بل هو كل نبات قاتل، وقيل: شجرة مسمومة متى مست جسد أحد تورم فمات والإضافة من إضافة المسمى إلى الاسم. القول الثاني: أنها غير معروفة في شجر الدنيا. [الشوكاني (٤٥٦/٤)].

(٣) الواجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن نقول: المراد بالشياطين، الشيطان المعروف، وإنما شُبِّهت برؤوس الشياطين مع عدم رؤية الناس لها؛ لأن كل أحد يعرف أن ما يُنسب إلى الشيطان فهو قبيح منفر، لا يركن إليه أحد، فالتشبيه هنا تشبيه بما يُتخيل فكرًا، لا بما يُعلم حِسًّا، وعلى هذا فهو من أبلغ ما يكون من التشبيه القبيح. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص:١٤٩)]. فشبه المحسوس بالمتخيل؛ وإن كان غير مرئي للدلالة على أنه غاية في القبح كما يقولون في تشبيه من يستقبحونه كأنه شيطان، وفي تشبيه من يستحسنونه كأنه ملك كما في قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]. [صديق حسن (٣٩٣/١١)].

(٤) الشوب الخلط، قال الفراء: يقال شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبها شوبـًا وشيابة، وقال ابن عباس: شوبـًا مزجـًا، أي: يخالط طعامهم ويشاب بالحميم وهو الماء الحار، فأخبر الله سبحانه أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحار ليكون أفظع لعذابهم وأشنع لحالهم، كما في قوله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. [صديق حسن (٣٩٤/١١)].

(٥) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتها أو إلى نفسها، فإن الزقوم والحميم نُزل يقدم إليهم قبل دخولهم، وقيل:

اتِّبَاعِهِمْ فَيُسْرِعُونَ إِلَيْهِ(١). ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ مِنَ الرُّسُلِ مُخَوِّفِينَ. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الْكَافِرِينَ، أَيْ: عَاقِبَتُهُمُ الْعَذَابُ. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ نَجَوْا مِنَ الْعَذَابِ لِإِخْلَاصِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ، أَوْ لِأَنَّ اللهَ أَخْلَصَهُمْ لَهَا عَلَى قِرَاءَةِ فَتْحِ اللَّامِ. ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ بِقَوْلِهِ: رَبِّ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ لَهُ نَحْنُ، أَيْ: دَعَانَا عَلَى قَوْمِهِ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِالْغَرَقِ. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ أَيِ: الْغَرَقِ. ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ نَسْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ: سَامٍ وَهُوَ أَبُو الْعَرَبِ وَالْفُرْسِ وَالرُّومِ، وَحَامٍ وَهُوَ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافِثُ وَهُوَ أَبُو التُّرْكِ وَالْخَزَرِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَمَا هُنَالِكَ(٢). ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أَبْقَيْنَا ﴿عَلَيْهِ﴾ ثَنَاءً حَسَنًا ﴿فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿سَلَٰمٌ﴾ مِنَّا ﴿عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ كُفَّارَ قَوْمِهِ. ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أَيْ: مِمَّنْ تَابَعَهُ فِي أَصْلِ الدِّينِ ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ أَلْفَانِ وَسِتُّمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَكَانَ بَيْنَهُمَا هُودٌ وَصَالِحٌ. ﴿إِذْ جَآءَ﴾ أَيْ: تَابَعَهُ وَقْتَ مَجِيئِهِ ﴿رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ مِنَ الشَّكِّ وَغَيْرِهِ. ﴿إِذْ قَالَ﴾ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ لَهُ ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ مُوَبِّخًا: ﴿مَاذَا﴾ مَا الَّذِي ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا﴾ فِي هَمْزَتَيْهِ مَا تَقَدَّمَ ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ وَ«إِفْكًا» مَفْعُولٌ لَهُ، وَ﴿ءَالِهَةً﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لِـ﴿تُرِيدُونَ﴾،

الحميم خارج عنها لقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن: ٤٣-٤٤] يوردون إليه كما تورد الإبل إلى الماء ثم يردون إلى الجحيم. [البيضاوي (٥/ ١٢)].

(١) أي: من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أو لا، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والإهراع الإسراع الشديد، وقال الفراء: الإسراع برعدة، وقال أبو عبيدة: يهرعون يستحثون من خلفهم، يقال: جاء فلان يهرع إلى النار إذا استحثه البرد إليها، وقال المفضل: يزعجون من شدة الإسراع، قال الزجاج: هرع وأهرع إذا استحث وأزعج، والمعنى يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم وذلك في الدنيا. [صديق حسن (١١/ ٣٩٥)]. أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب، ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. [السعدي (ص: ٧٠٤)].

(٢) وقيل: إنه كان لمن مع نوح ذرية كما يدل عليه قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]، وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، فيكون على هذا معنى الآية: ذريته وذرية من معه دون ذرية من كفر، فإن الله أغرقهم فلم يبق لهم ذرية. [الشوكاني (٤/ ٤٥٩)].

وَ«الإِفْكُ»: أَسْوَأُ الْكَذِبِ، أَيْ: أَتَعْبُدُونَ غَيْرَ اللهِ؟ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ إِذْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ أَنَّهُ يَتْرُكُكُمْ بِلَا عِقَابٍ؟ لَا، وَكَانُوا نَجَّامِينَ فَخَرَجُوا إِلَى عِيدٍ لَهُمْ وَتَرَكُوا طَعَامَهُمْ عِنْدَ أَصْنَامِهِمْ زَعَمُوا التَّبَرُّكَ عَلَيْهِ فَإِذَا رَجَعُوا أَكَلُوهُ، وَقَالُوا لِلسَّيِّدِ(١) إِبْرَاهِيمَ أُخْرُجْ مَعَنَا. ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨﴾ إِيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا لِيَتَّبِعُوهُ(٢). ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ عَلِيلٌ، أَيْ: سَأَسْقَمُ(٣). ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ إِلَى عِيدِهِمْ ﴿مُدْبِرِينَ ۝٩٠ فَرَاغَ﴾ مَالَ فِي خُفْيَةٍ ﴿إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ هِيَ الْأَصْنَامُ وَعِنْدَهَا الطَّعَامُ ﴿فَقَالَ﴾ اِسْتِهْزَاءً ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١﴾ فَلَمْ يَنْطِقُوا. فَقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾ فَلَمْ يُجَبْ. ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ۝٩٣﴾ بِالْقُوَّةِ(٤) فَكَسَّرَهَا، فَبَلَغَ قَوْمَهُ مِمَّنْ رَآهُ. ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾ أَيْ: يُسْرِعُونَ الْمَشْيَ، فَقَالُوا لَهُ: نَحْنُ نَعْبُدُهَا وَأَنْتَ تُكَسِّرُهَا. ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوَبِّخًا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥﴾ مِنَ الْحِجَارَةِ وَغَيْرِهَا أَصْنَامًا. ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ مِنْ نَحْتِكُمْ وَمَنْحُوتِكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَ«مَا»: مَصْدَرِيَّةٌ، وَقِيلَ: مَوْصُولَةٌ، وَقِيلَ: مَوْصُوفَةٌ(٥). ﴿قَالُوا۟﴾ بَيْنَهُمْ: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ فَامْلَؤُوهُ حَطَبًا وَأَضْرِمُوهُ بِالنَّارِ فَإِذَا

---

(١) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

(٢) قال الخليل والمبرد: تقول العرب لكل من نظر في أمره وتدبر ماذا يفعل قد نظر في النجوم، هذا قول، والقول الثاني: أنه كان نجم يطلع في ذلك الزمان، وكان كل من نظر إليه يزعمون أنه يصيبه الطاعون، ويقال: إنه كان زحل؛ فقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ أي: نظر إلى النجم: ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي: أصابني الطاعون على ما تزعمون، وكانوا يفرون من المطعون فرارا عظيما، ويزعمون أنه يعدي، ذكره السدي. والقول الثالث: أن معنى قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ أي: فيما نجم له من الأمر، أي: ظهر. والقول الرابع: أن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ أي: ينظر في النجوم على ما ينظر فيه أهل النجوم، وكايدهم بذلك عن دينه، وكانوا أهل نجوم، ويزعمون أن الأحكام تصدر منها، والحوادث تكون عنها؛ فنظر في النجوم، وقال هذه المقالة ليتركوه، ويتوصل بذلك إلى كيد أصنامهم. [السمعاني (٤/ ٤٠٤)].

(٣) ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف. فأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، غَيْرَ ثَلَاثِ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَقَوْلُهُ فِي سَارَةَ: هِيَ أُخْتِي». أخرجه البخاري (٥٠٨٤)، ومسلم (٢٣٧١). فهو ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ». أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٩). [ابن كثير (٧/ ٢٥)].

(٤) قال الواحدي: قال المفسرون يعني بيده اليمنى يضربهم بها، وقال الضحاك والربيع ابن أنس: المراد باليمين اليمين التي حلفها حين قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]. [صديق حسن (١١/ ٤٠٢)].

(٥) ذهب قوم إلى أن «ما» مصدرية والمعنى: الله خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وقيل: إنها موصولة

اِلْتَهَبَ ﴿فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧﴾ اَلنَّارِ اَلشَّدِيدَةِ. ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ بِإِلْقَائِهِ فِي اَلنَّارِ لِتُهْلِكَهُ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ۝٩٨﴾ اَلْمَقْهُورِينَ فَخَرَجَ مِنَ اَلنَّارِ سَالِمًا. ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ مُهَاجِرٌ إِلَيْهِ مِنْ دَارِ اَلْكُفْرِ ﴿سَيَهۡدِينِ ۝٩٩﴾ إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي رَبِّي بِالْمَصِيرِ إِلَيْهِ وَهُوَ اَلشَّامُ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى اَلْأَرْضِ اَلْمُقَدَّسَةِ، قَالَ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي﴾ وَلَدًا ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١﴾ أَيْ: ذِي حِلْمٍ كَثِيرٍ. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أَيْ: أَنْ يَسْعَى مَعَهُ وَيُعِينَهُ، قِيلَ: بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، وَقِيلَ: ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ أَيْ: رَأَيْتُ ﴿فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ وَرُؤْيَا اَلْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ، وَأَفْعَالُهُمْ بِأَمْرِ اَللهِ تَعَالَى ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ مِنَ اَلرَّأْيِ، شَاوَرَهُ لِيَأْنَسَ بِالذَّبْحِ وَيَنْقَادَ لِلْأَمْرِ بِهِ(١) ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾ اَلتَّاءُ عِوَضٌ عَنْ يَاءِ اَلْإِضَافَةِ ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ بِهِ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ عَلَى ذَلِكَ. ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ خَضَعَا وَانْقَادَا لِأَمْرِ اَللهِ تَعَالَى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣﴾ صَرَعَهُ عَلَيْهِ، وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ جَبِينَانِ بَيْنَهُمَا اَلْجَبْهَةُ، وَكَانَ ذَلِكَ بِمِنًى، وَأَمَرَّ اَلسِّكِّينَ عَلَى حَلْقِهِ فَلَمْ تَعْمَلْ شَيْئًا بِمَانِعٍ مِنَ اَلْقُدْرَةِ اَلْإِلَهِيَّةِ. ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ بِمَا أَتَيْتَ بِهِ مِمَّا أَمْكَنَكَ مِنْ أَمْرِ اَلذَّبْحِ، أَيْ: يَكْفِيكَ ذَلِكَ، فَجُمْلَةُ نَادَيْنَاهُ جَوَابُ لِـ «مَا» بِزِيَادَةِ اَلْوَاوِ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاكَ ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥﴾ لِأَنْفُسِهِمْ بِامْتِثَالِ اَلْأَمْرِ بِإِفْرَاجِ اَلشِّدَّةِ عَنْهُمْ. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ اَلذَّبْحَ اَلْمَأْمُورَ بِهِ ﴿لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦﴾ أَيِ: اَلِاخْتِبَارُ اَلظَّاهِرُ. ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ أَيِ: اَلْمَأْمُورَ بِذَبْحِهِ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ أَوْ

بمعنى «الذي»، والمعنى: الله خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا أليق بسياق الكلام، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام، وقيل: إنها نافية، وقيل: إنها استفهامية، وكلاهما باطل. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٩٥)]. [و] أعمال العباد مخلوقة لله؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ سواء جعلنا «ما» مصدرية أو موصولة، إن جعلناها مصدرية فالأمر واضح، خلقكم وخلق عملكم، وإن جعلناها موصولة فلأن خلق المعمول فرع عن خلق العمل، فإذا كان معمولك الذي باشرت أنت عمله مخلوقا لله فكيف بعملك الذي كان من عند الله. وفي هذه الآية رد على القدرية الذين أنكروا أن يكون لله سبحانه وتعالى شأن في أعمال بني آدم، وقالوا: إن الإنسان مستقل بعمله ليس لله فيه إرادة ولا خلق. وفي الآية أيضا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله؛ لقوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ حيث أضاف العمل إليهم، وإضافة العمل إلى الإنسان تقتضي أنه هو العامل وهو الفاعل حقيقة وهو كذلك، فالإنسان في الواقع هو الذي يعمل ويفعل ويريد ويختار، فالآية تؤيد مذهب أهل السنة والجماعة الذين قالوا: إن الإنسان له قدرة واختيار، وإيجاد لعمله، ولكن الذي خلقه وخلق هذه القدرة والإرادة هو الله، ففعله يضاف إلى الله خلقا وتقديرا، ويضاف إليه إيجادا ومباشرة، فهو مضاف للعبد باعتبار، ومضاف إلى الله باعتبار آخر. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص:٢١٦)].

(١) إن قيل: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٩٦)].

إِسْحَاقَ قَوْلَانِ[(١)] ﴿بِذِبْحٍ﴾ بِكَبْشٍ ﴿عَظِيمٍ ١٠٧﴾ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ الَّذِي قَرَّبَهُ هَابِيلُ جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَذَبَحَهُ السَّيِّدُ[(٢)] إِبْرَاهِيمُ مُكَبِّرًا[(٣)]. ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أَبْقَيْنَا ﴿عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ١٠٨﴾ ثَنَاءً حَسَنًا. ﴿سَلَامٌ﴾ مِنَّا ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١١٠﴾ لِأَنْفُسِهِمْ. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١١١ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ اُسْتُدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ غَيْرُهُ ﴿نَبِيًّا﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيْ: يُوجَدُ مُقَدَّرًا نُبُوَّتُهُ ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ ١١٢ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ بِتَكْثِيرِ ذُرِّيَّتِهِ ﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ وَلَدِهِ بِجَعْلِنَا أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَسْلِهِ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ مُؤْمِنٌ ﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ كَافِرٌ ﴿مُبِينٌ ١١٣﴾ بَيِّنُ الْكُفْرِ[(٤)]. ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ١١٤﴾ بِالنُّبُوَّةِ. ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بَنِي إِسْرَائِيلَ

---

(١) القول الراجح أن الذبيح إسماعيل لعدة أوجه منها: ما سيأتي في كلام المؤلف في قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، حيث قال المؤلف: «استدل بذلك على أن الذبيح غيره». ومنها: أن الله تعالى قال في إسحاق: بشرناه ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وفي الذبيح قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] وهذا غير هذا؛ لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح وتنفيذ أمر الله عز وجل. ومنها: أن الله وصف إسماعيل بأنه صادق الوعد ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وهذا الوصف إنما يقال في أمر عظيم صدق به الإنسان، والوعد الذي وعد هو قوله لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ وقد وفى بذلك. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى بشر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقال: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، ولو كان إسحاق هو الذي أمر بذبحه لكان هناك تناقض؛ لأنه كيف يؤمر بذبحه وقد بشر بابن له، أي: بإسحاق؛ لأن يعقوب ابن إسحاق، فإذا كان قد بشر بأن له ولدا اسمه يعقوب فلا يليق أن يؤمر بذبحه. ومنها: قوله هنا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٢] بعد أن ذكر قصة الذبح كاملة، ولا يمكن أن يكون في القرآن تكرار. ومنها: أن الله تعالى قال في إسحاق: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإذا كان قد بشر بأنه نبي فإنه لا يليق ولا يسوغ أن يأمر بذبحه بعد أن بشر بنبوته. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص:٢٤٤)].

(٢) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

(٣) هذا قول ليس عليه دليل صحيح، وأن هذا الفداء كان من بهيمة الأنعام الموجودة في وقته، وليس هناك دليل على أنه من الجنة ولا على أن في الجنة كباشًا، فالصواب أنه ذبح من ذبح الدنيا أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يذبحه، وظاهر الآية الكريمة أنه ذبحه فداء عن إسماعيل، ويجوز أيضًا أن يكون مع الفِداء شكرًا لله سبحانه وتعالى على نعمته بهذا البلاء المبين. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص:٢٤٣)].

(٤) أي: محسن في عمله بالإيمان والتوحيد، وظالم لها بالكفر والمعاصي، لما ذكر الله سبحانه البركة في الذرية بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف والمحتد المبارك، ليس بنافع لهم ولا يجري أمر الخبث والطيب على العرق والعنصر. فقد يلد البر الفاجر والفاجر البر، وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر، بل إنما ينتفعون بأعمالهم لا بآبائهم فإن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحق فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال المبين، وإن العرب وإن كانوا من ولد إسماعيل فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام، وفيه تنبيه على أن

﴿مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ١١٥﴾ أَي: اِسْتِعْبَادِ فِرْعَوْنَ إِيَاهُمْ. ﴿وَنَصَرۡنَـٰهُمۡ﴾ عَلَى اَلْقِبطِ ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ١١٦ وَءَاتَيۡنَـٰهُمَا ٱلۡكِتَـٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧﴾ اَلْبَلِيغَ اَلْبَيَانِ فِيمَا أَتَى بِهِ مِنَ اَلْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ: اَلتَّوْرَاةُ. ﴿وَهَدَيۡنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ اَلطَّرِيقَ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨ وَتَرَكۡنَا﴾ أَبْقَيْنَا ﴿عَلَيۡهِمَا فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ١١٩﴾ ثَنَاءً حَسَنًا. ﴿سَلَـٰمٌ﴾ مِنَّا ﴿عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمَا ﴿نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢١ إِنَّهُمَا مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٢ وَإِنَّ إِلۡيَاسَ﴾ بِالْهَمْزَةِ أَوَّلَهُ وَتَرْكِهَا ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ قِيلَ: هُوَ اِبْنُ أَخِي هَارُونَ أَخِي مُوسَى، وَقِيلَ: غَيْرُهُ[1]، أُرْسِلَ إِلَى قَوْمٍ بِبَعْلَبَكَّ وَنَوَاحِيهَا. ﴿إِذۡ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» مُقَدَّرًا ﴿قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤﴾ اَللهَ. ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلًا﴾ اِسْمٌ لِصَنَمٍ لَهُمْ مِنْ ذَهَبٍ، وَبِهِ سُمِّيَ اَلْبَلَدُ أَيْضًا مُضَافًا إِلَى «بَكَّ»، أَيْ: أَتَعْبُدُونَهُ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ تَتْرُكُونَ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡخَـٰلِقِينَ ١٢٥﴾ فَلَا تَعْبُدُونَهُ. ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٢٦﴾ بِرَفْعِ اَلثَّلَاثَةِ عَلَى إِضْمَارِ «هُوَ»، وَبِنَصْبِهَا عَلَى اَلْبَدَلِ مِنْ ﴿أَحۡسَنَ﴾. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧﴾ فِي اَلنَّارِ. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨﴾ أَيِ: اَلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ نَجَوْا مِنْهَا. ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِى ٱلۡأٓخِرِينَ ١٢٩﴾ ثَنَاءً حَسَنًا. ﴿سَلَـٰمٌ﴾ مِنَّا ﴿عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾ هُوَ «إِلْيَاسُ» اَلْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، فَجُمِعُوا مَعَهُ تَغْلِيبًا، كَقَوْلِهِمْ لِلْمُهَلَّبِ وَقَوْمِهِ: «اَلْمُهَلَّبُونَ»، وَعَلَى قِرَاءَةِ: ﴿ءَالِ يَاسِينَ﴾ بِالْمَدِّ، أَيْ: أَهْلِهِ وَالْمُرَادُ بِهِ: «إِلْيَاسُ» أَيْضًا. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣﴾. اُذْكُرْ ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَـٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلۡغَـٰبِرِينَ ١٣٥﴾ أَيِ: اَلْبَاقِينَ فِي اَلْعَذَابِ[2]. ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا﴾ أَهْلَكْنَا ﴿ٱلۡأٓخَرِينَ ١٣٦﴾ كُفَّارَ قَوْمِهِ. ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم﴾ عَلَى آثَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فِي أَسْفَارِكُمْ ﴿مُّصۡبِحِينَ ١٣٧﴾ أَيْ: وَقْتَ اَلصَّبَاحِ، يَعْنِي: بِالنَّهَارِ. ﴿وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ مَا حَلَّ بِهِمْ فَتَعْتَبِرُوا بِهِ. ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ﴾ هَرَبَ ﴿إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠﴾ اَلسَّفِينَةِ اَلْمَمْلُوءَةِ حِينَ غَاضَبَ قَوْمَهُ لَمَّا لَمْ يَنْزِلْ بِهِمُ اَلْعَذَابُ اَلَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ، فَرَكِبَ اَلسَّفِينَةَ فَوَقَفَتْ فِي لُجَّةِ اَلْبَحْرِ، فَقَالَ اَلْمَلَّاحُونَ: هُنَا عَبْدٌ أَبَقَ مِنْ سَيِّدِهِ تُظْهِرُهُ اَلْقُرْعَةُ[3]. ﴿فَسَاهَمَ﴾ قَارَعَ أَهْلَ اَلسَّفِينَةِ ﴿فَكَانَ

الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاقب على ما اجترحت يداه لا على ما وجد من أصله وفرعه. [صديق حسن (١١/٤١٦)].

(١) إلياس من ذرية هارون وقيل إنه إدريس، وقد أخطأ من قال: إنه إلياس المذكور في أجداد النبي ﷺ. [ابن جُزَيّ (٢/١٩٦)].

(٢) هي زوجة لوط لم تكن على دينه. [السعدي (ص:٧٠٧)].

(٣) ما ذكره المؤلف ليس عليه دليل، وهو من الإسرائيليات البعيدة، بل إن هذه السفينة المشحونة لما كانت في عرض البحر وهي مشحونة

مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ اَلْمَغْلُوبِينَ بِالْقُرْعَةِ فَأَلْقَوْهُ فِي اَلْبَحْرِ. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ اِبْتَلَعَهُ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أَيْ: آتٍ بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَابِهِ إِلَى اَلْبَحْرِ وَرُكُوبِهِ اَلسَّفِينَةَ بِلَا إِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ(١). ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ اَلذَّاكِرِينَ بِقَوْلِهِ كَثِيرًا فِي بَطْنِ اَلْحُوتِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ اَلظَّالِمِينَ». ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ لَصَارَ بَطْنُ اَلْحُوتِ قَبْرًا لَهُ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ. ﴿۞فَنَبَذْنَٰهُ﴾ أَلْقَيْنَاهُ مِنْ بَطْنِ اَلْحُوتِ ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بِوَجْهِ اَلْأَرْضِ، أَيْ: بِالسَّاحِلِ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَوْ سَبْعَةِ أَيَّامٍ أَوْ عِشْرِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ عَلِيلٌ كَالْفَرْخِ اَلْمُمَعَّطِ(٢). ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ وَهِيَ اَلْقَرْعُ تُظِلُّهُ بِسَاقٍ عَلَى خِلَافِ اَلْعَادَةِ فِي اَلْقَرْعِ مُعْجِزَةً لَهُ(٣)، وَكَانَتْ تَأْتِيهِ وَعْلَةٌ صَبَاحًا وَمَسَاءً يَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا حَتَّى قَوِيَ. ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ كَقَبْلِهِ إِلَى قَوْمٍ بِنِينَوَى مِنْ أَرْضِ اَلْمُوصِلِ ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ﴾ بَلْ ﴿يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ عِشْرِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ أَوْ سَبْعِينَ أَلْفًا. ﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾ عِنْدَ مُعَايَنَةِ اَلْعَذَابِ اَلْمَوْعُودِينَ بِهِ ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ أَبْقَيْنَاهُمْ مُمَتَّعِينَ بِمَا لَهُمْ ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ تَنْقَضِي آجَالُهُمْ فِيهِ. ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ اِسْتَخْبِرْ كُفَّارَ مَكَّةَ تَوْبِيخًا لَهُمْ ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ اَلْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اَللهِ ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ فَيَخْتَصُّونَ

مملوءة وصارت في لجة البحر ثقل الحمل، وإذا ثقل الحمل فلا بد من أحد أمرين؛ إما أن يخفف الحمل وإما أن يغرق الجميع، ولا شك أن تخفيف الحمل أولى من غرق الجميع؛ لأنه إذا خفف الحمل نجا من بقي، وإذا بقي الحمل على ما هو عليه غرق الجميع، وبقاء البعض أولى من هلاك الكل، وهذا أمر عقلي اقترعوا يعني ليس إلقاء بعضهم في البحر أولى من إلقاء الآخر، فلا سبيل حينئذ إلى التخلص من هذه المشكلة إلا بالقرعة فاقترعوا. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص:٢٩٧)]. وأصل الإباق الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به فهو استعارة تصريحية أو مجاز مرسل من استعمال المقيد في المطلق، وقال المبرد: تأويل ابق «تباعد» أي: ذهب إليه. ومن ذلك قولهم: عبد أبق. وقد اختلف أهل العلم: هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه أو بعده؟ [صديق حسن (١١/ ٤٢٢)].

(١) وكان الواجب أن يصبر، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [القلم: ٤٨-٤٩]. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص:٢٩٩)].

(٢) وقيل: كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم تبق له قوة، وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾، وقوله في موضع آخر: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]، فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء، وأجاب النحاس وغيره: بأن الله سبحانه أخبر ههنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم، ولولا رحمته عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم. [صديق حسن (١١/ ٤٢٤)].

(٣) أي: أنبتناها فوقه لتظله وتقيه حر الشمس، واليقطين، القرع وإنما خصه الله به لأنه يجمع برد الظل ولين اللمس وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب. [ابن جُزَيّ (٢/ ١٩٨)].

بِالْأَسْنَى[1]. ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ١٥٠﴾ خَلْقَنَا، فَيَقُولُونَ ذَلِكَ. ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ كَذِبِهِمْ ﴿لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ بِقَوْلِهِمْ: اَلْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾ فِيهِ. ﴿أَصْطَفَى﴾ بِفَتْحِ اَلْهَمْزَةِ لِلِاسْتِفْهَامِ وَاسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ هَمْزَةِ اَلْوَصْلِ فَحُذِفَتْ، أَيِ: اِخْتَارَ ﴿ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ١٥٤﴾ هَذَا اَلْحُكْمَ اَلْفَاسِدَ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾ بِإِدْغَامِ اَلتَّاءِ فِي اَلذَّالِ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ اَلْوَلَدِ. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ١٥٦﴾ حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ أَنَّ لِلَّهِ وَلَدًا. ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ اَلتَّوْرَاةِ فَأَرُونِي ذَلِكَ فِيهِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٥٧﴾ فِي قَوْلِكُمْ ذَلِكَ. ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ أَيِ: اَلْمُشْرِكُونَ ﴿بَيْنَهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ أَيِ: اَلْمَلَائِكَةِ لِاجْتِنَانِهِمْ عَنِ اَلْأَبْصَارِ ﴿نَسَبًا﴾ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّهَا بَنَاتُ اللهِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ أَيْ: قَائِلِي ذَلِكَ ﴿لَمُحْضَرُونَ ١٥٨﴾ لِلنَّارِ يُعَذَّبُونَ فِيهَا[2]. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩﴾ بِأَنَّ لِلَّهِ وَلَدًا ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٠﴾ أَيِ: اَلْمُؤْمِنِينَ، اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيْ: فَإِنَّهُمْ يُنَزِّهُونَ اَللهَ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ. ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١﴾ مِنَ اَلْأَصْنَامِ. ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَى مَعْبُودِكُمْ، وَعَلَيْهِ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿بِفَٰتِنِينَ ١٦٢﴾ أَيْ: أَحَدًا. ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ١٦٣﴾ فِي عِلْمِ اَللهِ تَعَالَى[3]. قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَمَا مِنَّآ﴾ مَعْشَرَ اَلْمَلَائِكَةِ أَحَدٌ ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ١٦٤﴾ فِي اَلسَّمَاوَاتِ نَعْبُدُ اَللهَ فِيهِ لَا نَتَجَاوَزُهُ. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥﴾ أَقْدَامَنَا فِي اَلصَّلَاةِ[4]. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾

---

(١) أي: بالأشرف، وهذا حكم باطل جائر، ولهذا قال الله تعالى في سورة النجم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾ [النجم: ٢١-٢٢] أي: جائرة. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص:٣١٦)].

(٢) أي: قربا منه. قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى. فقال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا قال قتادة وابن زيد، ثم أشار إلى أن لا نسبة تقتضي النسب بوجه ما، عدا عن استحالة ذلك عقلا، بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ أي: المنسوب إليهم هذا النسب ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: في النار يوم القيامة. لكون الجنة كالجن، علما في الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمر ربها من عالم الشياطين، أي: فالمنسوب إليهم يتبرؤون من هذه النسبة، لما يعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير، لا من عالم الأرواح الطاهرة، فما بال هؤلاء المشركين يهرفون بما لا يعرفون؟ وفسر بعضهم ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾ بالملائكة المحدث عنها قبل. والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ للكفرة. ولعل ما ذكرناه أولى، لخلوه عن تشتيت الضمائر، ولموافقته للأغلب من استعمال الجن والجنة. [القاسمي (٨/ ٢٣٠)].

(٣) أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي، والمقصود من هذا، بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى، أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين. [السعدي (ص:٧٠٨)].

(٤) عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ، جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا،

الْمُنَزِّهُونَ اللهَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ. ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ ﴿كَانُواْ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ كِتَابًا ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أَيْ: مِنْ كُتُبِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ. ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ الْعِبَادَةَ لَهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَهُمْ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْأَشْرَفُ مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ بِالنَّصْرِ ﴿لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ وَهِيَ: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١]. أَوْ هِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ الْكُفَّارَ بِالْحُجَّةِ وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَنْتَصِرْ بَعْضٌ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَفِي الْآخِرَةِ[1]. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَيْ: أَعْرِضْ عَنْ كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ تُؤْمَرُ فِيهِ بِقِتَالِهِمْ. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ. فَقَالُوا اسْتِهْزَاءً: مَتَى نُزُولُ هَذَا الْعَذَابِ؟ قَالَ تَعَالَى تَهْدِيدًا لَهُمْ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ بِفِنَائِهِمْ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الْعَرَبُ تَكْتَفِي بِذِكْرِ السَّاحَةِ عَنِ الْقَوْمِ ﴿فَسَآءَ﴾ بِئْسَ صَبَاحًا ﴿صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ فِيهِ إِقَامَةُ الظَّاهِرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ[2]. ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كُرِّرَ تَأْكِيدًا لِتَهْدِيدِهِمْ وَتَسْلِيَةً لَهُ ﷺ. ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ الْغَلَبَةِ[3] ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا. ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ الْمُبَلِّغِينَ عَنِ اللهِ التَّوْحِيدَ وَالشَّرَائِعَ. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ عَلَى نَصْرِهِمْ وَهَلَاكِ الْكَافِرِينَ.

وجُعِلَتْ لَنَا تُرْبَتُهَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ». أخرجه مسلم (٥٢٢). وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فقال: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الملائكةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قالوا: يا رسول الله، وكيف تصف عند ربهم؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». أخرجه مسلم (٤٣٠).

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

(٢) ذكر الصباح لأنه من علائق الهيئة المشبه بها، فإن شأن الغارة أن تكون في الصباح ولذلك كان نذير المجيء بغارة عدو ينادي: «يا صباحاه» نداء ندبة وتفجع. [ابن عاشور (٢٣/ ١٩٧)]. عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر، أتاها ليلا وكان إذا جاء قوما بليل لم يغز حتى يصبح، قال: فلما أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد، والله، محمد والخميس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ». أخرجه البخاري (٩٤٧)، ومسلم (١٣٦٥).

(٣) سئل محمد بن سحنون عن معنى ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ لم جاز ذلك والعزة من صفات الذات، ولا يقال: «رب القدرة» ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ قال: العزة تكون صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وصفة الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ والمعنى: رب العزة التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل. [القرطبي (١٥/ ١٤٠)].

سُورَةُ ص

مَكِّيَّةٌ، سِتٌّ أَوْ ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓۚ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ(١) ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ أَيِ: الْبَيَانِ أَوِ الشَّرَفِ، وَجَوَابُ هَذَا الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: مَا الْأَمْرُ كَمَا قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ مِنْ تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ(٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ حَمِيَّةٍ وَتَكَبُّرٍ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ خِلَافٍ وَعَدَاوَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ. ﴿كَمْ﴾ أَيْ: كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أَيْ: أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿فَنَادَواْ﴾ حِينَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ أَيْ: لَيْسَ الْحِينُ حِينَ فِرَارٍ، وَالتَّاءُ زَائِدَةٌ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ «نَادَوْا» أَيِ: اسْتَغَاثُوا، وَالْحَالُ أَنْ لَا مَهْرَبَ وَلَا مَنْجَى، وَمَا اعْتَبَرَ بِهِمْ كُفَّارُ مَكَّةَ. ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ﴾ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ وَيُخَوِّفُهُمْ بِالنَّارِ بَعْدَ الْبَعْثِ وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾ حَيْثُ قَالَ لَهُمْ قُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، أَيْ: كَيْفَ يَسَعُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ أَيْ: عَجِيبٌ. ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ مِنْ مَجْلِسِ اجْتِمَاعِهِمْ عِنْدَ أَبِي طَالِبٍ وَسَمَاعِهِمْ فِيهِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾ أَيْ: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: امْشُوا ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ﴾ اثْبُتُوا عَلَى عِبَادَتِهَا ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الْمَذْكُورَ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ مِنَّا. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ أَيْ: مِلَّةِ عِيسَى(٣) ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ كَذِبٌ. ﴿أَءُنزِلَ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَتَرْكِهِ ﴿عَلَيْهِ﴾

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء. أحدهما: أن الذكر بمعنى الشرف ... ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: شرف لكم على أحد القولين. الوجه الثاني: أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير؛ لأن القرآن العظيم فيه التذكير والمواعظ، وهذا قول الجمهور واختاره ابن جرير. [الشنقيطي (٢/ ٣٩٤)].

(٣) هذا أيضًا مما حكى الله عنهم من كلامهم، أي: ما سمعنا بالتوحيد في الملة الآخرة، والمراد بالملة الآخرة ملة النصارى، لأنها بعد ذلك ملة موسى وغيره وهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، وقيل: المراد ملة قريش، أي: ما سمعنا بهذا في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، وقيل: المراد الملة المنتظرة إذ كانوا يسمعون من الأحبار والكهان أن رسولاً يبعث يكون آخر الأنبياء. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٠٢)].

عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنُ ﴿مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ وَلَيْسَ بِأَكْبَرِنَا وَلَا أَشْرَفِنَا، أَيْ: لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾ وَحْيِي - اَلْقُرْآنَ - حَيْثُ كَذَّبُوا اَلْجَائِي بِهِ ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ وَلَوْ ذَاقُوهُ لَصَدَّقُوا اَلنَّبِيَّ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ، وَلَا يَنْفَعُهُمُ اَلتَّصْدِيقُ حِينَئِذٍ. ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ﴾ اَلْغَالِبِ ﴿ٱلۡوَهَّابِ ۝٩﴾ مِنَ اَلنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا فَيُعْطُوهَا مَنْ شَاءُوا. ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾ إِنْ زَعَمُوا ذَلِكَ ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠﴾ اَلْمُوصِلَةِ إِلَى اَلسَّمَاءِ، فَيَأْتُوا بِالْوَحْيِ فَيَخُصُّوا بِهِ مَنْ شَاءُوا، وَ ﴿أَمۡ﴾ فِي اَلْمَوْضِعَيْنِ بِمَعْنَى هَمْزَةِ اَلْإِنْكَارِ. ﴿جُندٞ مَّا﴾ أَيْ: هُمْ جُنْدٌ حَقِيرٌ ﴿هُنَالِكَ﴾ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ ﴿مَهۡزُومٞ﴾ صِفَةُ ﴿جُندٞ﴾ ﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١﴾ صِفَةُ ﴿جُندٞ﴾ أَيْضًا، أَيْ: كَالْأَجْنَادِ مِنْ جِنْسِ اَلْأَحْزَابِ اَلْمُتَحَزِّبِينَ عَلَى اَلْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، وَأُولَئِكَ قَدْ قُهِرُوا وَأُهْلِكُوا فَكَذَا نُهْلِكُ هَؤُلَاءِ. ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ تَأْنِيثُ ﴿قَوۡمُ﴾ بِاعْتِبَارِ اَلْمَعْنَى ﴿وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢﴾ كَانَ يَتِدُ لِكُلِّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ، يَشُدُّ إِلَيْهَا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَيُعَذِّبُهُ[1]. ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ﴾ أَيِ: اَلْغَيْضَةِ وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣ إِن﴾ مَا ﴿كُلٌّ﴾ مِنَ اَلْأَحْزَابِ ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ كَذَّبُوا جَمِيعَهُمْ؛ لِأَنَّ دَعْوَتَهُمْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ دَعْوَةُ اَلتَّوْحِيدِ ﴿فَحَقَّ﴾ وَجَبَ ﴿عِقَابِ ۝١٤ وَمَا يَنظُرُ﴾ يَنْتَظِرُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هِيَ نَفْخَةُ اَلْقِيَامَةِ تَحِلُّ بِهِمُ اَلْعَذَابَ ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ۝١٥﴾ بِفَتْحِ اَلْفَاءِ وَضَمِّهَا، رُجُوعٍ. ﴿وَقَالُواْ﴾ لَمَّا نَزَلَ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩] إِلَى آخِرِهِ ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أَيْ: كِتَابَ أَعْمَالِنَا ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝١٦﴾ قَالُوا ذَلِكَ اِسْتِهْزَاءً. قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ أَيِ: اَلْقُوَّةِ فِي اَلْعِبَادَةِ، «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَيَقُومُ نِصْفَ اَللَّيْلِ وَيَنَامُ ثُلُثَهُ وَيَقُومُ سُدُسَهُ»[2] ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧﴾ رَجَّاعٌ إِلَى مَرْضَاةِ اَللهِ. ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾ بِتَسْبِيحِهِ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ وَقْتَ صَلَاةِ اَلْعِشَاءِ ﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨﴾ وَقْتِ صَلَاةِ اَلضُّحَى وَهُوَ أَنْ تُشْرِقَ اَلشَّمْسُ وَيَتَنَاهَى ضَوْءُهَا. ﴿وَ﴾ سَخَّرْنَا ﴿ٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ مَجْمُوعَةً إِلَيْهِ تُسَبِّحُ مَعَهُ ﴿كُلّٞ﴾ مِنَ اَلْجِبَالِ وَالطَّيْرِ ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩﴾ رَجَّاعٌ إِلَى طَاعَتِهِ بِالتَّسْبِيحِ. ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ قَوَّيْنَاهُ بِالْحَرَسِ وَالْجُنُودِ، وَكَانَ يَحْرُسُ مِحْرَابَهُ فِي

---

(١) قال ابن عباس: كانت له أوتاد وخشب يلعب بها وعليها، وقيل: كانت له أوتاد يسمرها في الناس لقتلهم، وقيل: أراد المباني العظام الثابتة، ورجحه ابن عطية، وقال الزمخشري: إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول القائل: في ظل ملك ثابت الأوتاد. [ابن جزيّ (٢/ ٢٠٣)].

(٢) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

كُلّ لَيْلَةٍ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَجُلٍ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ اَلنُّبُوَّةَ وَالْإِصَابَةَ فِي اَلْأُمُورِ ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠﴾ اَلْبَيَانَ اَلشَّافِي فِي كُلِّ قَصْدٍ[1]. ﴿*وَهَلْ﴾ مَعْنَى اَلِاسْتِفْهَامُ هُنَا اَلتَّعْجِيبُ وَالتَّشْوِيقُ إِلَى اِسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ ﴿أَتَىٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ٢١﴾ مِحْرَابَ دَاوُدَ، أَيْ: مَسْجِدَهُ حَيْثُ مُنِعُوا اَلدُّخُولَ عَلَيْهِ مِنَ اَلْبَابِ لِشُغْلِهِ بِالْعِبَادَةِ، أَيْ: خَبَرُهُمْ وَقِصَّتُهُمْ. ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ نَحْنُ ﴿خَصْمَانِ﴾ قِيلَ: فَرِيقَانِ لِيُطَابِقَ مَا قَبْلَهُ مِنْ ضَمِيرِ اَلْجَمْعِ، وَقِيلَ: اِثْنَانِ وَالضَّمِيرُ بِمَعْنَاهُمَا، وَالْخَصْمُ يُطْلَقُ عَلَى اَلْوَاحِدِ وَأَكْثَرَ، وَهُمَا مَلَكَانِ جَاءَا فِي صُورَةِ خَصْمَيْنِ وَقَعَ لَهُمَا مَا ذُكِرَ عَلَى سَبِيلِ اَلْفَرْضِ لِتَنْبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُ وَكَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ اِمْرَأَةً وَطَلَبَ اِمْرَأَةَ شَخْصٍ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهَا وَتَزَوَّجَهَا وَدَخَلَ بِهَا ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ تَجُرْ ﴿وَٱهْدِنَآ﴾ أَرْشِدْنَا ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ وَسَطِ اَلطَّرِيقِ اَلصَّوَابِ. ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أَيْ: عَلَى دِينِي ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ اَلْمَرْأَةِ ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أَيِ: اِجْعَلْنِي كَافِلَهَا ﴿وَعَزَّنِى﴾ غَلَبَنِي ﴿فِى ٱلْخِطَابِ ٢٣﴾ أَيِ: اَلْجِدَالِ، وَأَقَرَّهُ اَلْآخَرُ عَلَى ذَلِكَ. ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ لِيَضُمَّهَا ﴿إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ اَلشُّرَكَاءِ ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ﴿مَّا﴾ لِتَأْكِيدِ اَلْقِلَّةِ، فَقَالَ اَلْمَلَكَانِ صَاعِدَيْنِ فِي صُورَتَيْهِمَا إِلَى اَلسَّمَاءِ: قَضَى اَلرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ، فَتَنَبَّهَ دَاوُدُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَظَنَّ﴾ أَيْ: أَيْقَنَ ﴿دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أَوْقَعْنَاهُ فِي فِتْنَةٍ، أَيْ: بَلِيَّةٍ بِمَحَبَّتِهِ تِلْكَ اَلْمَرْأَةَ[2] ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أَيْ: سَاجِدًا ﴿وَأَنَابَ۩ ٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أَيْ:

---

(١) ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: الفهم في الدين وجودة النظر، هذا قول فرقة، وقالت فرقة: أراد بـ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: النبوة، وقال أبو العالية: الحكمة؛ العلم الذي لا ترده العقول ... واختلف الناس في ﴿فَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ فقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: هو فصل القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه. وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشريح، والشعبي: هو إيجاب اليمين على المدعى عليه، والبينة على المدعي، وقال زياد، والشعبي أيضا: أراد قول: «أما بعد» فإنه أول من قالها ... والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلة فصل المعنى وأوضحه وبينه، لا يأخذه في ذلك حصر ولا ضعف، وهذه صفة قليل من يدركها، فكان كلامه عليه السلام فصلا، وقد قال الله تبارك وتعالى في صفة القرآن: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، ويزيد محمد ﷺ على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة، وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير، وهذا هو الذي تخصص ﷺ به في قوله: «وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ». أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣). فإنها في الخلال التي لم يؤتها أحد قبله. [ابن عطية (٤/ ٤٩٧)].

(٢) قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن أبي حاتم

زِيَادَةَ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾ مَرْجِعٍ فِي الْآخِرَةِ. ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تُدَبِّرُ أَمْرَ النَّاسِ ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أَيْ: هَوَى النَّفْسِ ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أَيْ: عَنِ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ ﴿لَهُمْ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ﴾ بِنِسْيَانِهِمْ ﴿يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ٢٦﴾ الْمُرَتَّبِ عَلَيْهِ تَرْكُهُمُ الْإِيمَانَ وَلَوْ أَيْقَنُوا بِيَوْمِ الْحِسَابِ لَآمَنُوا فِي الدُّنْيَا. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ أَيْ: عَبَثًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: خَلْقُ مَا ذُكِرَ لَا لِشَيْءٍ[1] ﴿ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿فَوَيْلٞ﴾ وَادٍ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ٢٨﴾ نَزَلَ لَمَّا قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّا نُعْطَى فِي الْآخِرَةِ مِثْلَ مَا تُعْطَوْنَ، وَ

هنا حديثا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضا. [ابن كثير (٧/ ٦٠)]. ولكي يستقيم هذا الباطل قالوا: إن المراد بالنعجة هي: المرأة، وأن القصة خرجت مخرج الرمز والإشارة، والحق: أن الآيات ليس فيها شيء مما ذكروا، وليس هذا في شيء من كتب الحديث المعتمدة، وهي التي عليها المعول، وليس هناك ما يصرف لفظ النعجة من حقيقته إلى مجازه، ولا ما يصرف القصة عن ظاهرها إلى الرمز والإشارة. والتفسير الصحيح للآيات: أن داود عليه السلام كان قد وزع مهام أعماله، ومسئولياته نحو نفسه، ونحو الرعية على الأيام، وخص كل يوم بعمل، فجعل يومًا للعبادة، ويومًا للقضاء وفصل الخصومات، ويومًا للاشتغال بشئون نفسه وأهله، ويومًا لوعظ بني إسرائيل ففي يوم العبادة: بينما كان مشتغلا بعبادة ربه في محرابه، إذ دخل عليه خصمان تسورا عليه من السور، ولم يدخلا من المدخل المعتاد، فارتاع منهما، وفزع فزعًا لا يليق بمثله من المؤمنين، فضلًا عن الأنبياء المتوكلين على الله غاية التوكل، الواثقين بحفظه، ورعايته ومثل الأنبياء في علو شأنهم، وقوة ثقتهم بالله والتوكل عليه ألا تعلق نفوسهم بمثل هذه الظنون بالأبرياء، إلا أنه ظن بهما سوءا، وأنهما جاءا ليقتلاه، أو يبغيا به شرًّا، ولكن تبين له أن الأمر على خلاف ما ظن، وأنهما خصمان جاءا يحتكمان إليه، فلما قضى بينهما، وتبين له أنهما بريئان مما ظنه بهما، استغفر ربه، وخر ساجدا لله تعالى؛ تحقيقًا لصدق توبته والإخلاص له، وأناب إلى الله غاية الإنابة. فالرجلان خصمان حقيقة، وليسا ملكين كما زعموا، والنعاج على حقيقتها، وليس ثمة رموز ولا إشارات، وهذا التأويل هو الذي يوافق نظم القرآن ويتفق وعصمة الأنبياء، فالواجب الأخذ به، ونبذ الخرافات، والأباطيل، التي هي من صنع بني اسرائيل، وتلقفها القصاص وأمثالهم ممن لا علم عندهم، ولا تمييز بين الغث والسمين. [الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبة (ص:٢٦٤)].

(١) يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ثم يجمعهم ليوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ أي: الذين لا يرون بعثا ولا معادا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم. [ابن كثير (٧/ ٦٣)].

﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ(١). ﴿كِتَٰبٌ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: هَذَا ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ أَصْلُهُ «يَتَدَبَّرُوا» أُدْغِمَتِ اَلتَّاءُ فِي اَلدَّالِ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ يَنْظُرُوا فِي مَعَانِيهَا فَيُؤْمِنُوا ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ يَتَّعِظَ ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ أَصْحَابُ اَلْعُقُولِ. ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ اِبْنَهُ ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أَيْ: سُلَيْمَانُ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ رَجَّاعٌ فِي اَلتَّسْبِيحِ وَالذِّكْرِ فِي جَمِيعِ اَلْأَوْقَاتِ(٢). ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾ هُوَ مَا بَعْدَ اَلزَّوَالِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ اَلْخَيْلُ جَمْعُ «صَافِنَةٍ» وَهِيَ اَلْقَائِمَةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَأَقَامَتِ اَلْأُخْرَى عَلَى طَرَفِ اَلْحَافِرِ، وَهُوَ مِنْ: صَفَنَ يَصْفِنُ صُفُونًا ﴿ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾ جَمْعُ جَوَادٍ وَهُوَ اَلسَّابِقُ، اَلْمَعْنَى: أَنَّهَا إِذَا اُسْتُوقِفَتْ سَكَنَتْ وَإِنْ رَكَضَتْ سَبَقَتْ، وَكَانَتْ أَلْفَ فَرَسٍ عُرِضَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى اَلظُّهْرَ لِإِرَادَتِهِ اَلْجِهَادَ عَلَيْهَا اَلْعَدُوَّ، فَعِنْدَ بُلُوغِ اَلْعَرْضِ مِنْهَا تِسْعُمِائَةٍ غَرَبَتِ اَلشَّمْسُ، وَلَمْ يَكُنْ صَلَّى اَلْعَصْرَ فَاغْتَمَّ. ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ﴾ أَيْ: أَرَدْتُ ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أَيِ: اَلْخَيْلِ ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أَيْ: صَلَاةِ اَلْعَصْرِ ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أَيِ: اَلشَّمْسُ ﴿بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢﴾ أَيِ: اِسْتَتَرَتْ بِمَا يَحْجُبُهَا عَنِ اَلْأَبْصَارِ. ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أَيِ: اَلْخَيْلَ اَلْمَعْرُوضَةَ، فَرَدُّوهَا ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا﴾ بِالسَّيْفِ ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ جَمْعُ سَاقٍ ﴿وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾ أَيْ: ذَبَحَهَا وَقَطَعَ أَرْجُلَهَا تَقَرُّبًا إِلَى اَللهِ تَعَالَى حَيْثُ اُشْتُغِلَ بِهَا عَنِ اَلصَّلَاةِ، وَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا فَعَوَّضَهُ اَللهُ خَيْرًا مِنْهَا وَأَسْرَعَ، وَهِيَ اَلرِّيحُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ كَيْفَ يَشَاءُ(٣). ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ اِبْتَلَيْنَاهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ وَذَلِكَ لِتَزَوُّجِهِ بِامْرَأَةٍ هَوَاهَا وَكَانَتْ تَعْبُدُ اَلصَّنَمَ فِي

---

(١) ﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ كلتاهما، منقطعة وأم المنقطعة، فيها لعلماء العربية ثلاثة مذاهب: الأول: أنها بمعنى همزة استفهام الإنكار. الثاني: أنها بمعنى بل الإضرابية. والثالث: أنها تشمل معنى الإنكار والإضراب معا، وهو الذي اختاره بعض المحققين. وعليه فالإضراب بها هنا انتقالي لا إبطالي ووجه الإنكار بها عليهم واضح؛ لأن من ظن بالله الحكيم الخبير، أنه يساوي بين الصالح المصلح، والمفسد الفاجر، فقد ظن ظنا قبيحا جديرا بالإنكار. وقد بين جل وعلا هذا المعنى، في غير هذا الموضع، وذم حكم من يحكم به، وذلك في قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. [الشنقيطي (٧/ ٣٢)].

(٢) أي: رجاع إلى الله تعالى بالتوبة كما يشعر به السياق، أو إلى التسبيح مرجع له أو إلى مرضاته عز وجل تعليل للمدح. [الآلوسي (١٢/ ١٨٢)].

(٣) أثنى الله على سليمان بأنه نعم العبد لله، وعلل لتلك الأفضلية بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كثير الأوبة إلى الله تعالى، وهي الرجوع إلى الله بذكره واستغفاره عند الغفلة والنسيان العارض للعبد، وأشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ أي: الخيل القوية على السير التي إذا وقفت تأبى أن تقف على أربع كالحمير بل تقف على ثلاثٍ وترفع الرابعة، والجياد هي السريعة العدو، وهذا العرض كان استعراضا منه لها إعداداً لغزو أراده فاستعرض خيله فانشغل بذلك عن صلاة العصر فلم يشعر إلا وقد غربت الشمس وهو معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: استترت الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: بالأفق الذي حجبها عن أعين الناظرين، فندم لذلك وقال:

دَارِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ، وَكَانَ مُلْكُهُ فِي خَاتَمِهِ فَنَزَعَهُ مَرَّةً عِنْدَ إِرَادَةِ الْخَلَاءِ وَوَضَعَهُ عِنْدَ امْرَأَتِهِ الْمُسَمَّاةِ بِالْأَمِينَةِ عَلَى عَادَتِهِ فَجَاءَهَا جِنِّيٌّ فِي صُورَةِ سُلَيْمَانَ فَأَخَذَهُ مِنْهَا ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ هُوَ ذَلِكَ الْجِنِّيُّ وَهُوَ «صَخْرٌ» أَوْ غَيْرُهُ، جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ وَعَكَفَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ وَغَيْرُهَا، فَخَرَجَ سُلَيْمَانُ فِي غَيْرِ هَيْئَتِهِ فَرَآهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَقَالَ لِلنَّاسِ أَنَا سُلَيْمَانُ فَأَنْكَرُوهُ ﴿ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ رَجَعَ سُلَيْمَانُ إِلَى مُلْكِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ بِأَنْ وَصَلَ إِلَى الْخَاتَمِ فَلَبِسَهُ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ[1] ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى﴾ لَا يَكُونُ ﴿لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أَيْ: سِوَايَ[2]، نَحْوُ: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣] أَيْ: سِوَى اللهِ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ لَيِّنَةً ﴿حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ أَرَادَ. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ يَبْنِي الْأَبْنِيَةَ الْعَجِيبَةَ ﴿وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ فِي الْبَحْرِ يَسْتَخْرِجُ اللُّؤْلُؤَ. ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مِنْهُمْ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مَشْدُودِينَ ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ الْقُيُودِ بِجَمْعِ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ. وَقُلْنَا لَهُ:

﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ وصلى العصر، ثم عاد إلى إكمال الاستعراض فردها رجاله عليه فجعل يمسح بيده سوقها وأعناقها حتى أكمل استعراضها،[عن ابن عباس رضي الله عنهما والزهري وابن كيسان وقطرب: طفق يمسح أعراف الخيل وسوقها بيده حبا لها]، هذا وجه الأوبة التي وصف بها سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾. [أبو بكر الجزائري (٤/ ٤٤٨)]. وقوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ فيه وجهان: أحدهما: عن صلاة العصر، قاله علي رضي الله عنه. الثاني: عن ذكر الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ فيه قولان: أحدهما: حتى توارت الشمس بالحجاب. الثاني: توارت الخيل بالحجاب. والحجاب الليل يسمى حجابا لأنه يستر ما فيه. [الماوردي (٥/ ٩٣)].

(١) هذه الخرافات من أكاذيب بني إسرائيل، قال الإمام القاضي عياض في (الشفا): «ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به، وتسلطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله»، وكذلك الإمام الحافظ الناقد: ابن كثير في تفسيره قال بعد أن ذكر الكثير منها: «وهذه كلها من الإسرائيليات»، والصحيح المتعين في تفسير الفتنة هو ما جاء في الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلَّا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحَدُ شِقَّيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ». فهذا هو المتعين في تفسير الآية، وخير ما يفسر به كلام الله هو ما صح عن رسول الله، وقد بينت بعض الروايات: أن الترك كان نسيانا، والمراد بصاحبه: الملك كما جاء في بعضها. [الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبة (ص:٢٧٥)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾». أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ﴾ أَعْطِ مِنْهُ مَنْ شِئْتَ ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ عَنِ الْإِعْطَاءِ ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ أَيْ: لَا حِسَابَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ.[١] ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ[٢]. ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾ أَيْ: بِأَنِّي ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ﴾ بِضُرٍّ ﴿وَعَذَابٍ ٤١﴾ أَلَمٍ، وَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَى الشَّيْطَانِ وَإِنْ كَانَتِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مِنَ اللهِ تَأَدُّبًا مَعَهُ تَعَالَى. وَقِيلَ لَهُ: ﴿ٱرۡكُضۡ﴾ اِضْرِبْ ﴿بِرِجۡلِكَ﴾ الْأَرْضَ، فَضَرَبَ فَنَبَعَتْ عَيْنُ مَاءٍ، فَقِيلَ: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ﴾ مَاءٌ تَغْتَسِلُ بِهِ ﴿بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ تَشْرَبُ مِنْهُ، فَاغْتَسَلَ وَشَرِبَ فَذَهَبَ عَنْهُ كُلُّ دَاءٍ كَانَ بِبَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ. ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ أَيْ: أَحْيَا اللهُ لَهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أَوْلَادِهِ[٣] وَرَزَقَهُ مِثْلَهُمْ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ نِعْمَةً[٤] ﴿مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ﴾ عِظَةً ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣﴾ لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ. ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ هُوَ حُزْمَةٌ مِنْ حَشِيشٍ أَوْ قُضْبَانٍ ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ زَوْجَتَكَ، وَكَانَ قَدْ حَلَفَ لَيَضْرِبَنَّهَا مِائَةَ ضَرْبَةٍ لِإِبْطَائِهَا عَلَيْهِ يَوْمًا ﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ بِتَرْكِ ضَرْبِهَا، فَأَخَذَ مِائَةَ عُودٍ مِنَ الْإِذْخِرِ[٥] أَوْ غَيْرِهِ فَضَرَبَهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ أَيُّوبُ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾

---

(١) اختلف الناس في المشار إليه بقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ فقال قتادة: إشارة إلى ما فعله بالجن، فامنن على من شئت منهم، وأطلقه من وثاقه وسرحه من خدمته، أو أمسك أمره كما تريد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشار إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليه من جماعهن، وقال الحسن: أشار إلى جميع ما أعطاه من الملك، وأمره بأن يمن على من يشاء ويمسك عمن يشاء، فكأنه وقفه على قدر النعمة ثم أباح له التصرف فيه بمشيئته، وهو تعالى قد علم منه أن مشيئته إنما تتصرف بحكم طاعة الله. وهذا أصح الأقوال وأجمعها لتفسير الآية. [ابن عطية (٤/ ٥٠٦)].

(٢) في الآية (٢٥) من هذه السورة.

(٣) جعل المؤلف الهبة بمعنى الإحياء، ولكنَّ في هذا نظرًا؛ لأن الإحياء يحتاج إلى ثبوت الإماتة من قبل، وليس في الآية ما يدل على هذا، بل إن الله وهب له أهله حيث أَوَوْا إليه بعد أن شردوا منه بسبب المرض. [ابن عثيمين تفسير ص (ص:١٨٥)].

(٤) إن كان عائدًا على الأهل ومَنْ وُهِبَ له من جديد فهي رحمة مخلوقة، والرحمة قد تُطلَق على المخلوق كما قال الله تعالى في الجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦). وعلى هذا فتفسير المؤلف للرحمة بالنعمة صحيح. إذن كلام المؤلف لا يمكن أن يُخطَّأ على الإطلاق حيث فَسَّر الرحمة بالنعمة، ومعروف أن الأشاعرة يفسرون رحمة الله بالنعمة أو بالإحسان، ولا يرون أن لله رحمة هي صفته، فكلام المؤلف لا يُنتَقد من كل وجه؛ لاحتمال أن يكون المراد بالرحمة ما وهب الله له من الأهل ومثلهم معهم، يعني أنها يراد بها الموهوب والموهوب لا شك أنه مخلوق. أما إذا أردنا ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ الرحمة التي هي صفة الله، أي: أن هذا ناشئ عن رحمتنا التي نحن متصفون بها وهو الرب عز وجل فإن تفسير المؤلف ليس بصحيح؛ لأن الرحمة حينئذ تكون صفة من صفات الله ليست نعمة خلقًا بائنًا عن الله عز وجل. [ابن عثيمين تفسير ص (ص:١٨٦)].

(٥) «الإذخر» بكسر الهمزة: حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب. [النهاية لابن الأثير (١/ ٣٣)].

رَجَّاعٌ إِلَى اللهِ تَعَالَى. ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى﴾ أَصْحَابَ الْقُوَى فِي الْعِبَادَةِ ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾ الْبَصَائِرِ فِي الدِّينِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عَبْدَنَا﴾ وَ ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ بَيَانٌ لَهُ، وَمَا بَعْدَهُ عَطْفٌ عَلَى ﴿عَبْدَنَا﴾. ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ هِيَ ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ الْآخِرَةِ، أَيْ: ذِكْرُهَا وَالْعَمَلُ لَهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ وَهِيَ لِلْبَيَانِ. ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ الْمُخْتَارِينَ ﴿ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ جَمْعُ خَيِّرٍ بِالتَّشْدِيدِ. ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ وَهُوَ نَبِيٌّ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ اخْتُلِفَ فِي نُبُوَّتِهِ، قِيلَ: كَفَلَ مِائَةَ نَبِيٍّ فَرُّوا إِلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ[1] ﴿وَكُلٌّ﴾ أَيْ: كُلُّهُمْ ﴿مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ جَمْعُ خَيِّرٍ بِالتَّثْقِيلِ. ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ لَهُمْ بِالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ هُنَا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشَّامِلِينَ لَهُمْ ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾ مَرْجِعٍ فِي الْآخِرَةِ. ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ لِـ ﴿حُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ مِنْهَا. ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ * ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ حَابِسَاتُ الْعَيْنِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ ﴿أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ أَسْنَانُهُنَّ وَاحِدَةٌ وَهُنَّ بَنَاتُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، جَمْعُ «تِرْبٍ». ﴿هَٰذَا﴾ الْمَذْكُورُ ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ بِالْغَيْبَةِ، وَبِالْخِطَابِ الْتِفَاتًا ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾ أَيْ: لِأَجْلِهِ. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ أَيِ: انْقِطَاعٍ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ «رِزْقُنَا» أَوْ خَبَرٌ ثَانٍ لِـ ﴿إِنَّ﴾ أَيْ: دَائِمًا، أَوْ دَائِمٌ. ﴿هَٰذَا﴾ الْمَذْكُورُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ﴾ مُسْتَأْنَفٌ ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يَدْخُلُونَهَا ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾ الْفِرَاشُ. ﴿هَٰذَا﴾ أَيِ: الْعَذَابُ الْمَفْهُومُ مِمَّا بَعْدَهُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ أَيْ: مَاءٌ حَارٌّ مُحْرِقٌ ﴿وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، مَا يَسِيلُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ. ﴿وَأُخَرُ﴾ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ أَيْ: مِثْلِ الْمَذْكُورِ مِنَ الْحَمِيمِ وَالْغَسَّاقِ ﴿أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ أَصْنَافٌ، أَيْ: عَذَابُهُمْ مِنْ أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَيُقَالُ لَهُمْ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ بِأَتْبَاعِهِمْ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ جَمْعٌ ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ دَاخِلٌ ﴿مَّعَكُمْ﴾ النَّارَ بِشِدَّةٍ، فَيَقُولُ الْمَتْبُوعُونَ: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ أَيْ: لَا سَعَةَ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟﴾ أَيِ: الْأَتْبَاعُ ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أَيِ: الْكُفْرَ ﴿لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ لَنَا وَلَكُمُ النَّارُ. ﴿قَالُوا۟﴾ أَيْضًا: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أَيْ: مِثْلَ عَذَابِهِ عَلَى كُفْرِهِ ﴿فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ وَهُمْ فِي النَّارِ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بِضَمِّ السِّينِ وَكَسْرِهَا، كُنَّا نَسْخَرُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْيَاءُ لِلنَّسَبِ، أَيْ: أَمَفْقُودُونَ هُمْ ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾

---

(١) «قيل» تدلُّ على أنه ضعيف، فالظاهر أن معنى «ذا الكفل» يعني: ذا العمل، صاحب العمل الكثير والجد والنشاط. [ابن عثيمين تفسير ص (ص:٢٠٣)].

مَالَتْ ﴿عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣﴾ فَلَمْ نَرَهُمْ، وَهُمْ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ كَعَمَّارٍ وَبِلَالٍ وَصُهَيْبٍ وَسَلْمَان. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ وَاجِبٌ وُقُوعُهُ ﴿تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾ كَمَا تَقَدَّمَ. ﴿قُلۡ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ مُخَوِّفٌ بِالنَّارِ ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥﴾ لِخَلْقِهِ. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾ لِأَوْلِيَائِهِ. ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ وَجِئْتُكُمْ فِيهِ بِمَا لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِوَحْيٍ[1]. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةِ ﴿إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٦٩﴾ فِي شَأْنِ آدَمَ، حِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠] إِلَى آخِرِهِ. ﴿إِن﴾ مَا ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠﴾ أَيْ: أَنِّي ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٧٠﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ. اُذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ هُوَ آدَمُ. ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ﴾ أَتْمَمْتُهُ ﴿وَنَفَخۡتُ﴾ أَجْرَيْتُ[2] ﴿فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فَصَارَ حَيًّا، وَإِضَافَةُ الرُّوحِ إِلَيْهِ تَشْرِيفٌ لِآدَمَ، وَالرُّوحُ: جِسْمٌ لَطِيفٌ يَحْيَا بِهِ الْإِنْسَانُ بِنُفُوذِهِ فِيهِ[3] ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالِانْحِنَاءِ[4] ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣﴾ فِيهِ تَأْكِيدَانِ. ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ هُوَ أَبُو الْجِنِّ كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى. ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ أَيْ: تَوَلَّيْتُ خَلْقَهُ؟ وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِآدَمَ فَإِنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ تَوَلَّى اللهُ خَلْقَهُ[5] ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ الْآنَ عَنِ السُّجُودِ؟ اِسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ ﴿أَمۡ كُنتَ

---

(١) النبأ: الخبر، ويعني به ما تضمنته الشريعة من التوحيد والرسالة والدار الآخرة، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو يوم القيامة والأول أعم وأرجح. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢١٣)].

(٢) كأنه رحمه الله أَوَّل معنى الآية، أَوَّل النفخ بالإجراء، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية، فظاهر الآية أن الله تعالى نفخ فيه من روحه، وهذا النفخ نثبته على ظاهره لكن بدون أن يكون مماثلًا لنفخ المخلوقين، وتفسيره بالإجراء تفسير باللازم؛ لأنه إذا نفخ فيه الروح لزم أن تجري في البدن وتسري فيه. [ابن عثيمين تفسير ص (ص:٢٣٥)].

(٣) تعريف الروح مما استأثر الله بعلمه، لذا لم يتابع السيوطي شيخه المحلي في هذا التعريف، وانظر التعليق علي آية (٨٥) من سورة الإسراء.

(٤) انظر التعليق على آية (٢٩) من سورة الحجر.

(٥) معنى الآية أن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق غير آدم من الشياطين والملائكة بكلمته؛ أي: بقوله: «كن»، ... وهذا هو وجه الميزة، والخصيصة لآدم. [ابن عثيمين تفسير ص (ص:٢٣٩)]. ولفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع. مفردا، ومثنى، ومجموعا. فالمفرد: كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١]، والمثنى كقوله: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، والمجموع كقوله: ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ [يس: ٧١]، فحيث ذكر اليد مثناة. أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد، وعدى الفعل بالباء إليهما، وقال: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها، ولم

مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ اَلْمُتكبِّرِينَ فتكبَّرْتَ عَنِ اَلسُّجُودِ لِكَوْنِكَ مِنْهُمْ. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ مِنَ اَلْجَنَّةِ، وَقِيلَ: مِنَ اَلسَّمَاوَاتِ(١) ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ مَطْرُودٌ. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ اَلْجَزَاءِ. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أَيِ: اَلنَّاسُ. ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ وَقْتِ اَلنَّفْخَةِ اَلْأُولَى. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أَيِ: اَلْمُؤْمِنِينَ. ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ بِنَصْبِهِمَا، وَرَفْعِ اَلْأَوَّلِ وَنَصْبِ اَلثَّانِي، فَنَصْبُهُ بِالْفِعْلِ بَعْدَهُ، وَنَصْبُ اَلْأَوَّلِ قِيلَ: بِالْفِعْلِ اَلْمَذْكُورِ، وَقِيلَ: عَلَى اَلْمَصْدَرِ، أَيْ: أَحُقُّ اَلْحَقَّ، وَقِيلَ: عَلَى نَزْعِ حَرْفِ اَلْقَسَمِ، وَرَفْعُهُ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفُ اَلْخَبَرِ، أَيْ: فَالْحَقُّ مِنِّي. وَقِيلَ: فَالْحَقُّ قَسَمِي، وَجَوَابُ اَلْقَسَمِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ بِذُرِّيَّتِكَ ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أَيِ: اَلنَّاسِ ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ اَلرِّسَالَةِ ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْلٍ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ اَلْمُتَقَوِّلِينَ اَلْقُرْآنَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أَيْ: مَا اَلْقُرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْعُقَلَاءِ دُونَ اَلْمَلَائِكَةِ(٢). ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿نَبَأَهُۥ﴾ خَبَرَ صِدْقِهِ ﴿بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ أَيْ: يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ(٣)، وَ«عَلِمَ» بِمَعْنَى: عَرَفَ، وَاللَّامُ قَبْلَهَا لَامُ قَسَمٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: وَاللهِ.

يعد الفعل بالباء. فهذه ثلاثة فروق: فلا يحتمل ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت؟ وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه. كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ... وأما إذا أضيف إليه الفعل، ثم عدي بالباء إلى اليد مفردة أو مثناة، فهو مما باشرته يده ... وقد أخبر النبي ﷺ أن أهل الموقف يوم القيامة، «يَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ». أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤). [الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٩٢)].

(١) ولا خلاف أنه أهبط إلى الأرض. [ابن عطية (٤/ ٥١٥)].

(٢) لأن المراد بالذكر الموعظة والتخويف، وتذكير العواقب، وهذا إنما يناسب المكلفين، وهم الثقلان فقط. [صديق حسن (١٢/ ٧٣)].

(٣) أي: عند ظهور الإسلام، وانتشاره، ودخول الناس فيه أفواجا أفواجا، من صحة خبره، وأنه الحق والصدق. وهذا من أجل معجزات القرآن؛ لأنه من الغيوب التي ظهر مصداقها؛ إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين، وخوف من المشركين، فلم يمض ردح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة، وضعفهم قوة، وخوفهم أمنا، وكمونهم ظهورا وانتشارا. فصدق الله العظيم، وصدق نبيه الكريم، وحقت كلمة الله على الكافرين، والحمد لله رب العالمين. [القاسمي (٨/ ٢٧٧)].

سُورَةُ الزُّمَرِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الْآيَةَ فَمَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ، مُبْتَدَأٌ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبَرُهُ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعَلِّقٌ بِـ «أَنْزَلَ» ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ مِنَ الشِّرْكِ، أَيْ: مُوَحِّدًا لَهُ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ لا يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُهُ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ الْأَصْنَامَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ، قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ قُرْبَى، مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: تَقْرِيبًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَيُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَالْكَافِرِينَ النَّارَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ فِي نِسْبَةِ الْوَلَدِ إِلَى اللهِ ﴿كَفَّارٌ ۝٣﴾ بِعِبَادَتِهِ غَيْرَ اللهِ. ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كَمَا قَالُوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وَاتَّخَذَهُ وَلَدًا، غَيْرَ مَنْ قَالُوا: الْمَلَائِكَةِ بَنَاتُ اللهِ، وَعُزَيْرٍ ابْنُ اللهِ، وَالْمَسِيحِ ابْنُ اللهِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٤﴾ لِخَلْقِهِ. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعَلِّقٌ بِـ ﴿خَلَقَ﴾ ﴿يُكَوِّرُ﴾ يُدْخِلُ ﴿ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ فَيَزِيدُ ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ﴾ يُدْخِلُهُ ﴿عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ فَيَزِيدُ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى﴾ فِي فَلَكِهِ ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ، الْمُنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾ لِأَوْلِيَائِهِ. ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أَيْ: آدَمَ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوَّاءَ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالضَّأْنِ وَالْمَعْزِ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ مِنْ كُلٍّ زَوْجَانِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، كَمَا بَيَّنَ فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ»[1] ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أَيْ: نُطَفًا ثُمَّ عُلَقًا ثُمَّ مُضَغًا ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ هِيَ: ظُلْمَةُ الْبَطْنِ وَظُلْمَةُ الرَّحِمِ وَظُلْمَةُ الْمَشِيمَةِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ. ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ وَإِنْ أَرَادَهُ مِنْ بَعْضِهِمْ[2] ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ اللهَ فَتُؤْمِنُوا ﴿يَرْضَهُ﴾

---

(١) سورة الأنعام آية (١٤٣).

(٢) يريده بالإرادة الكونية لا الإرادة الشرعية، وهذا رد على قول مبتدَع يقولون: إن الله لا يريد إلا ما يرضى، وأما ما لا يرضاه فلا يريده، وعلى هذا القول الباطل تكون المعاصي واقعة بغير إرادة الله، ولا شك أن هذا قول يبطله نصوص كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

بِسُكُونِ الْهَاءِ وَضَمِّهَا مَعَ إِشْبَاعٍ وَدُونِهِ، أَي: الشُّكْر ﴿لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ﴾ نَفْسٌ ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَىٰۚ﴾ أَيْ: لَا تَحْمِلُهُ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ.

﴿۞وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَٰنَ﴾ أَيِ: الْكَافِرَ ﴿ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ﴾ تَضَرَّعَ ﴿مُنِيبًا﴾ رَاجِعًا ﴿إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً﴾ أَعْطَاهُ إِنْعَامًا ﴿مِّنْهُ نَسِيَ﴾ تَرَكَ ﴿مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ﴾ يَتَضَرَّعُ ﴿إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ وَهُوَ اللهُ فَـ﴿مَا﴾ فِي مَوْضِعِ «مَنْ» ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شُرَكَاءَ ﴿لِّيُضِلَّ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا ﴿عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ بَقِيَّةَ أَجَلِكَ ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ ۝٨ أَمَّنْ﴾ بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قَائِمٌ بِوَظَائِفِ الطَّاعَاتِ ﴿ءَانَآءَ الَّيْلِ﴾ سَاعَاتِهِ ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿يَحْذَرُ الْأٓخِرَةَ﴾ أَيْ: يَخَافُ عَذَابَهَا ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ﴾ جَنَّةَ[1] ﴿رَبِّهِۦۗ﴾ كَمَنْ هُوَ عَاصٍ بِالْكُفْرِ أَوْ غَيْرِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَمَّنْ﴾ بِمَعْنَى: «بَلْ» وَ«الْهَمْزَةِ» ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ أَيْ: لَا يَسْتَوِيَانِ، كَمَا لَا يَسْتَوِي الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَّعِظُ ﴿أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ أَصْحَابُ الْعُقُولِ. ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ أَيْ: عَذَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿حَسَنَةٌۗ﴾ هِيَ الْجَنَّةُ ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ فَهَاجِرُوا إِلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْكُفَّارِ وَمُشَاهَدَةِ الْمُنْكَرَاتِ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَمَا يُبْتَلَوْنَ بِهِ ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ بِغَيْرِ مِكْيَالٍ وَلَا مِيزَانٍ[2]. ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝١١﴾ مِنَ الشِّرْكِ. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾ مِنَ الشِّرْكِ. ﴿فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ غَيْرِهِ، فِيهِ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَإِيذَانٌ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى ﴿قُلْ إِنَّ الْخَٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ

يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فالله عز وجل مريد لهذا وهذا، لكن بالإرادة الكونية؛ لأن الكل ملكه سبحانه وتعالى. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص:٦٦)].

(١) المراد بالرحمة هنا رحمة الله التي هي فِعْلُه؛ يعني يرجو أن يرحمه الله بالأمرين؛ بالنجاة من النار وبدخول الجنة، هذا المعنى أحسن؛ لأن المتبادر في الغالب لمعنى الرحمة أن تكون فعل الله؛ يعني أن الله يرحمك. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص:١٠٠)].

(٢) هذا يحتمل وجهين أحدهما أن الصابر يوفى أجره ولا يحاسب على أعماله، فهو من الذين يدخلون الجنة بغير حساب الثاني أن أجر الصابرين بغير حصر بل أكثر من أن يحصر بعدد أو وزن وهذا قول الجمهور. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢١٨)]. وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور. [السعدي (ص:٧٢٠)].

أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بِتَخْلِيدِ الْأَنْفُسِ فِي النَّارِ، وبِعَدَمِ وُصُولِهِمْ إِلَى الْحُورِ الْمُعَدَّةِ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ الْبَيِّنُ. ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ طِبَاقٌ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ مِنَ النَّارِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ لِيَتَّقُوهُ، يَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ الْأَوْثَانَ ﴿أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟﴾ أَقْبَلُوا ﴿إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وَهُوَ مَا فِيهِ فَلَاحُهُمْ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ أَصْحَابُ الْعُقُولِ. ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أَيْ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] الْآيَةَ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ تُخْرِجُ ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَأُقِيمَ فِيهِ الظَّاهِرُ مَقَامَ الْمُضْمَرِ وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، وَالْمَعْنَى: لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَتِهِ فَتُنْقِذَهُ مِنَ النَّارِ. ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ بِأَنْ أَطَاعُوهُ ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أَيْ: مِنْ تَحْتِ الْغُرَفِ الْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ وَعْدَهُ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ﴾ أَدْخَلَهُ أَمْكِنَةَ نَبْعٍ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يَيْبَسُ ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ بَعْدَ الْخُضْرَةِ مَثَلًا ﴿مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا﴾ فُتَاتًا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ تَذْكِيرًا ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ؛ لِدَلَالَتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ. ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ فَاهْتَدَى[1] ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كَمَنْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿فَوَيْلٌ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ ﴿لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عَنْ قَبُولِ الْقُرْآنِ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ بَيِّنٍ. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿أَحْسَنَ﴾، أَيْ: قُرْآنًا ﴿مُّتَشَـٰبِهًا﴾ أَيْ: يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي النَّظْمِ وَغَيْرِهِ ﴿مَّثَانِىَ﴾ ثُنِّيَ فِيهِ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ وَغَيْرُهُمَا ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾ تَرْتَعِدُ عِنْدَ ذِكْرِ وَعِيدِهِ ﴿جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ يَخَافُونَ ﴿رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ﴾ تَطْمَئِنُّ ﴿جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عِنْدَ ذِكْرِ وَعْدِهِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: الْكِتَابُ ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى﴾ يَلْقَى ﴿بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أَيْ: أَشَدَّهُ بِأَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، كَمَنْ أَمِنَ مِنْهُ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ﴿وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ أَيْ:

---

(١) من رشاقة ألفاظ القرآن إيثار كلمة «شرح» للدلالة على قبول الإسلام لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحا بحاله ومسرة برضى ربه واستخفافا للمصائب والكوارث لجزمه بأنه على حق في أمره وأنه مثاب على ضره وأنه راج رحمة ربه في الدنيا والآخرة ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره. [ابن عاشور (٢٣/ ٣٨٠)].

كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٢٤﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ. ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلَهُمْ فِي إِتْيَانِ الْعَذَابِ ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٥﴾ مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِبَالِهِمْ. ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ، مِنَ الْمَسْخِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِهِمَا ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ﴾ أَيِ: الْمُكَذِّبُونَ ﴿يَعْلَمُونَ ۝٢٦﴾ عَذَابَهَا مَا كَذَّبُوا. ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧﴾ يَتَّعِظُونَ. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أَيْ: لَبْسٍ وَاخْتِلَافٍ ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ الْكُفْرَ. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ لِلْمُشْرِكِ وَالْمُوَحِّدِ ﴿مَثَلًا رَّجُلًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَثَلًا﴾ ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ مُتَنَازِعُونَ سَيِّئَةٌ أَخْلَاقُهُمْ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ خَالِصًا ﴿لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ تَمْيِيزٌ، أَيْ: لَا يَسْتَوِي الْعَبْدُ لِجَمَاعَةٍ وَالْعَبْدُ لِوَاحِدٍ، فَإِنَّ الْأَوَّلَ إِذَا طَلَبَ مِنْهُ كُلٌّ مِنْ مَالِكِيهِ خِدْمَتَهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ تَحَيَّرَ فِيمَنْ يَخْدُمُهُ مِنْهُمْ وَهَذَا مَثَلٌ لِلْمُشْرِكِ، وَالثَّانِي مَثَلٌ لِلْمُوَحِّدِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ وَحْدَهُ(١) ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٩﴾ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيُشْرِكُونَ. ﴿إِنَّكَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ سَتَمُوتُ وَيَمُوتُونَ فَلَا شَمَاتَةَ بِالْمَوْتِ، نَزَلَتْ لَمَّا اسْتَبْطَئُوا مَوْتَهُ ﷺ. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْمَظَالِمِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ * ﴿فَمَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مَأْوًى ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ بَلَى. ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَالَّذِي بِمَعْنَى الَّذِينَ(٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ الشِّرْكَ. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤﴾ لِأَنْفُسِهِمْ بِإِيمَانِهِمْ. ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾

---

(١) والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة، ودرء الفرقة. كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾ قال أبو السعود: تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى. وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته. أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل، أن لهم المثل الأعلى، وللمشركين مثل السوء. صنع جميل ولطف تام منه عز وجل، مستوجب لحمده وعبادته. [القاسمي (٨/ ٢٨٧)].

(٢) قيل: الذي جاء بالصدق النبي ﷺ، والذي صدق به أبو بكر. وقيل: الذي جاء بالصدق جبريل، والذي صدق به محمد ﷺ. وقيل: الذي جاء بالصدق الأنبياء، والذي صدق به المؤمنون. واختار ابن عطية أن يكون على العموم، وجعل الذي للجنس، كأنه قال: الفريق الذي؛ لأنه في مقابلة من كذب على الله وكذب بالصدق والمراد به العموم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٢١)]. ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ). [الشوكاني (٤/ ٥٣١)].

﴿أَسْوَأَ﴾ وَ ﴿أَحْسَنِ﴾ بِمَعْنَى: اَلسَّيِّءِ وَالْحَسَنِ(١). ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أَيِ: اَلنَّبِيَّ؟ بَلَى ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ اَلْخِطَابُ لَهُ ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أَيِ: اَلْأَصْنَامِ أَنْ تَقْتُلَهُ أَوْ تَخْبِلَهُ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غَالِبٍ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ ۝٣٧﴾ مِنْ أَعْدَائِهِ، بَلَى. ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: اَلْأَصْنَامَ ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ لَا ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ لَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ فِيهِمَا ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ يَثِقُ الْوَاثِقُونَ. ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ حَالَتِكُمْ ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ عَلَى حَالَتِي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن﴾ مَوْصُولَةٌ مَفْعُولُ الْعِلْمِ ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ﴾ يَنْزِلُ ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠﴾ دَائِمٌ هُوَ عَذَابُ النَّارِ وَقَدْ أَخْزَاهُمُ اللهُ بِبَدْرٍ. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «أَنْزَلَ» ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ اِهْتِدَاؤُهُ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٤١﴾ فَتُجْبِرَهُمْ عَلَى الْهُدَى. ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ﴾ يَتَوَفَّى ﴿ٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أَيْ: يَتَوَفَّاهَا وَقْتَ النَّوْمِ(٢) ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيْ: وَقْتِ مَوْتِهَا، وَالْمُرْسَلَةُ نَفْسُ التَّمْيِيزِ، تَبْقَى بِدُونِهَا نَفْسُ الْحَيَاةِ، بِخِلَافِ الْعَكْسِ(٣) ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لَدَلَالَاتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى ذَلِكَ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ، وَقُرَيْشٌ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ. ﴿أَمِ﴾ بَلْ ﴿ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامَ آلِهَةً ﴿شُفَعَآءَ﴾ عِنْدَ اللهِ بِزَعْمِهِمْ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَ﴾ يَشْفَعُونَ

---

(١) إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل، قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوئ، وعم الأحسن جميع حسناتهم، ولولا هذا التأويل لاقتضى النظم أنه يكفر عنهم أقبح السيئات فقط ويجزيهم على أفضل الحسنات فقط. [صديق حسن (١٢/ ١١٦)].

(٢) أي يقبضُها لكنه ليس قبضًا تامًّا، بل قبضًا مقيّدًا، ولهذا تجد النائم له إحساسٌ من وجه وليس له إحساس من وجه آخر، فباعتبار القوى الظاهرة لا إحساس له، لا يرى ولا يسمع، وباعتبار القوى الباطنة، وأنه لو نُبِّه لانتبه يكون حيًّا، فصلة الروح بالنائم غير صلتها باليقظان وغير صلتها بالميت، فهي وسط بين الحي اليقظان وبين الميت. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص:٢٩٨)].

(٣) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْه بِدَاخِلَةِ إِزَارِه، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ». أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤). [ابن كثير (٧/ ١٠٢)].

﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ مِنَ الشَّفَاعَةِ وَغَيْرِهَا ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣﴾ أَنَّكُمْ تَعْبُدُونَهُمْ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ؟ لَا. ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ أَيْ: هُوَ مُخْتَصٌّ بِهَا، فَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٤٤ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أَيْ: دُونَ آلِهَتِهِمْ ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ نَفَرَتْ وَانْقَبَضَتْ ﴿قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامُ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥ قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ بِمَعْنَى: يَا اللهُ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبْدِعَهُمَا ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٤٦﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، «اِهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ»(١). ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا﴾ ظَهَرَ ﴿لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾ يَظُنُّونَ(٢). ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾ أَيِ: الْعَذَابُ. ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الْجِنْسَ ﴿ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾ أَعْطَيْنَاهُ ﴿نِعْمَةً﴾ إِنْعَامًا ﴿مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ مِنَ اللهِ بِأَنِّي لَهُ أَهْلٌ ﴿بَلْ هِىَ﴾ أَيِ: الْقَوْلَةُ ﴿فِتْنَةٌ﴾ بَلِيَّةٌ يُبْتَلَى بِهَا الْعَبْدُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩﴾ أَنَّ التَّخْوِيلَ اسْتِدْرَاجٌ وَامْتِحَانٌ. ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ، كَقَارُونَ وَقَوْمِهِ الرَّاضِينَ بِهَا ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾ أَيْ: جَزَاؤُهَا ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيْ: قُرَيْشٍ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾ بِفَائِتِينَ عَذَابَنَا، فَقُحِطُوا سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امْتِحَانًا ﴿وَيَقْدِرُۚ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ بِهِ. ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ﴾ بِكَسْرِ النُّونِ وَفَتْحِهَا، وَقُرِئَ بِضَمِّهَا(٣): تَيْأَسُوا ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ لِمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ(٤) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٢) أي: ظهر لهم يوم القيامة خلاف ما كانوا يظنون لأنهم كانوا يظنون ظنونا كاذبة. قال الزمخشري: المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم، أي: ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن في حسابهم فهو كقوله في الوعد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقيل: معناها عملوا أعمالا حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات، وقال الحسن: ويل لأهل الربا من هذه الآية وهذا على أنها في المسلمين والظاهر أنها في الكفار. [ابن جُزَيّ ٢/ ٢٢٣].

(٣) قراءة شاذة.

(٤) هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها،

ارْجِعُوا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا﴾ أَخْلِصُوا الْعَمَلَ ﴿لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ بِمَنْعِهِ إِنْ
لَمْ تَتُوبُوا. ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ هُوَ الْقُرْآنُ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ
لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قَبْلَ إِتْيَانِهِ بِوَقْتِهِ. بَادِرُوا قَبْلَ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ﴾ أَصْلُهُ «يَا حَسْرَتِي» أَيْ: نَدَامَتِي ﴿عَلَىٰ مَا
فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: طَاعَتِهِ[1] ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيْ: وَإِنِّي ﴿كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ بِدِينِهِ
وَكِتَابِهِ. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ بِالطَّاعَةِ فَاهْتَدَيْتُ ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾ عَذَابَهُ. ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ الْمُؤْمِنِينَ. فَيُقَالُ لَهُ مِنْ قِبَلِ اللهِ: ﴿بَلَىٰ قَدْ
جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾ الْقُرْآنُ، وَهُوَ سَبَبُ الْهِدَايَةِ ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ تَكَبَّرْتَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا ﴿وَكُنتَ مِنَ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى
جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مَأْوًى ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ عَنِ الْإِيمَانِ؟ بَلَى. ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ﴾ مِنْ جَهَنَّمَ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشِّرْكَ
﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أَيْ: بِمَكَانِ فَوْزِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ بِأَنْ يُجْعَلُوا فِيهِ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ
شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ. ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أَيْ: مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهِمَا
مِنَ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ:
﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ. ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾
﴿غَيْرَ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ ﴿أَعْبُدُ﴾ الْمَعْمُولُ لِـ ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ بِنُونٍ وَاحِدَةٍ، وَبِنُونَيْنِ بِإِدْغَامٍ وَفَكٍّ. ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى

وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير التوبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه ... عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان:٦٨]، ونزل قوله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾. أخرجه البخاري (٤٨١٠) ومسلم (١٢٢). [ابن كثير (٧/ ١٠٦)].

(١) الجنب بمعنى الجانب لغة، وإذا كان بمعنى الجانب لغة فلا حاجة إلى التأويل، يكون المعنى: ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في جانب الله، وجانب الله يعني حقه، وهذا التفصيل الذي ذكرناه هو مؤداه كما قال المؤلف رحمه الله: «يعني طاعته» لكن إذا فسرنا الجنب بالطاعة خرجنا به عن المعنى المطابق للفظ، أما إذا قلنا: الجنب لغة بمعنى الجانب فإننا فسرناه بما دلت عليه الكلمة لغة، والجانب من المعلوم أن جانب الله عز وجل، أي: حقه وشرعه. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص:٣٩٩)].

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ واللهِ ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾ يا مُحَمَّدُ فَرْضًا(١) ﴿لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ﴾ وَحْدَهُ ﴿فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾ إِنْعامَهُ عَلَيْكَ. ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، أَوْ مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، حِينَ أَشْرَكُوا بِهِ غَيْرَهُ ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا﴾ حَالٌ، أَي: اَلسَّبْعُ ﴿قَبۡضَتُهُۥ﴾ أَيْ: مَقْبُوضَةٌ لَهُ، أَيْ: فِي مُلْكِهِ وَتَصَرُّفِهِ(٢) ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ﴾ مَجْمُوعَاتٌ ﴿بِيَمِينِهِۦۚ﴾ بِقُدْرَتِهِ(٣) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ مَعَهُ. ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ اَلنَّفْخَةَ اَلْأُولَى ﴿فَصَعِقَ﴾ مَاتَ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ مِنَ اَلْحُورِ وَالْوِلْدَانِ وَغَيْرِهِمَا(٤) ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ﴾ أَيْ: جَمِيعُ اَلْخَلَائِقِ اَلْمَوْتَى ﴿قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ يَنْتَظِرُونَ مَا يُفْعَلُ بِهِمْ. ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أَضَاءَتْ ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ حِينَ يَتَجَلَّى اَللهُ لِفَصْلِ اَلْقَضَاءِ(٥) ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ كِتَابُ اَلْأَعْمَالِ لِلْحِسَابِ ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أَيْ: أُمَّةِ مُحَمَّدٍ يَشْهَدُونَ

---

(١) كلام على سبيل الفرض والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب، وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح، وأن يكون على التقييد بالموت كما صرح به في قوله: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٧] وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب. [البيضاوي (٥/ ٤٨)].

(٢) كل شيء في ملكه وتصرفه، الأرض والسماء يوم القيامة وقبل يوم القيامة، لكن القَبْضَة بمعنى المقبوضة ... فالأرض يوم القيامة قبضة الله عز وجل، وقد جاء ذلك مبينًا في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في قصة النبي ﷺ مع حَبْرٍ من أحبار اليهود: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾» أخرجه البخاري (٧٤١٥)، ومسلم(٢٧٨٦). [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص:٤٤٨)].

(٣) هذا تحريف على مذهب من لا يؤمنون بصفات الله سبحانه وتعالى الخَبَرِيَّة، والصواب أن المراد باليمين اليد اليمنى. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص:٤٥١)].

(٤) كما أبهم الله عز وجل لا نتعرض للتفصيل؛ لأنه ليس هناك دليل صحيح صريح في تعيين هؤلاء المستثنين. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص:٤٦٠)].

(٥) بنور الله الذي هو نوره، وليس بنور مخلوق، فإضافة النور إلى الرب عز وجل من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: أن الله جل وعلا ينير الأرض بنوره. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص:٤٦٣)].

لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ(١) ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أَيِ: الْعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩﴾ شَيْئًا. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ عَالِمٌ ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ. ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بِعُنْفٍ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جَوَابُ ﴿إِذَا﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أَيْ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٩] الْآيَةَ. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى﴾ مَأْوَى ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾ جَهَنَّمُ. ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ بِلُطْفٍ ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ الْوَاوُ فِيهِ لِلْحَالِ بِتَقْدِيرِ «قَدْ» ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ حَالٌ ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ فِيهَا، وَجَوَابُ «إِذَا» مُقَدَّرٌ، أَيْ: دُخُولُهَا وَسَوْقُهُمْ وَفَتْحُ الْأَبْوَابِ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ تَكْرِمَةٌ لَهُمْ، وَسَوْقُ الْكُفَّارِ وَفَتْحُ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ لِيَبْقَى حَرُّهَا إِلَيْهِمْ إِهَانَةً لَهُمْ. ﴿وَقَالُواْ﴾ عُطِفَ عَلَى «دُخُولِهَا» الْمُقَدَّرِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أَيْ: أَرْضَ الْجَنَّةِ(٢) ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ نَنْزِلُ ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ﴾ لِأَنَّهَا كُلَّهَا لَا يُخْتَارُ فِيهَا مَكَانٌ عَلَى مَكَانٍ ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٧٤﴾ الْجَنَّةُ. ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ حَالٌ ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْهُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿حَافِّينَ﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ﴾ مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ، أَيْ: يَقُولُونَ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بَيْنَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ﴿بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أَيِ: الْعَدْلِ، فَيُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ، وَالْكَافِرِينَ النَّارَ ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ خُتِمَ اسْتِقْرَارُ الْفَرِيقَيْنِ بِالْحَمْدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ(٣).

---

(١) ﴿بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر. [ابن كثير (٧/ ١١٨)].

(٢) أي: أرض الجنة قاله قتادة وأبو العالية، كأنها صارت من غيرهم إليهم، فملكوها وتصرفوا فيها تصرف الوارث فيما يرثه، ففي الكلام تجوز. وقيل: إنهم ورثوا الأرض التي كانت لأهل النار لو كانوا مؤمنين، قاله أكثر المفسرين، وقيل: إنها أرض الدنيا وفي الكلام تقديم وتأخير. وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. [ابن كثير (٧/ ١٢٣)].

(٣) القائلون هم المؤمنون، حمدوا الله على قضائه بينهم وبين أهل النار بالحق كما قال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وقيل: القائلون هم الملائكة حمدوا الله تعالى على عدله في الحكم وقضائه بين عباده بالحق. [صديق حسن (١٢/ ١٥٤)].

سُورَةُ غَافِرٍ أَوِ الْمُؤْمِنِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ الْآيَتَيْنِ، خَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ(١). ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ، مُبْتَدَأٌ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خَبَرُهُ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡعَلِيمِ ٢﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ لَهُمْ، مَصْدَرٌ ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ لِلْكَافِرِينَ، أَيْ: مُشَدِّدُهُ ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ أَيْ: الْإِنْعَامِ الْوَاسِعِ، وَهُوَ مَوْصُوفٌ عَلَى الدَّوَامِ بِكُلِّ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَإِضَافَةُ الْمُشْتَقِّ مِنْهَا لِلتَّعْرِيفِ كَالْأَخِيرَةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ الْمَرْجِعُ(٢). ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾ لِلْمَعَاشِ سَالِمِينَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُمُ النَّارُ. ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ﴾ كَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمَا ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ يَقْتُلُوهُ ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ﴾ يُزِيلُوا ﴿بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ بِالْعِقَابِ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾ لَهُمْ، أَيْ: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقِعَهُ. ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أَيْ: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٩] الْآيَةَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾ بَدَلٌ مِنْ: ﴿كَلِمَتُ﴾. ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خَبَرُهُ ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ، أَيْ: يَقُولُونَ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ تَعَالَى بِبَصَائِرِهِمْ، أَيْ: يُصَدِّقُونَ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) وجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن، من المعاني. فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وهذه أسماء، وأوصاف، وأفعال. وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، فهي من تعليم العليم لعباده. وإما إخبار عن نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك، من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ وإما إخبار عن نقمه الشديدة، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات. [السعدي (ص:٧٣١)].

بوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أَيْ: وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ النَّارِ. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٍ ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ﴾ عَطْفٌ عَلَى «هُمْ» فِي ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، أَوْ فِي ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾ ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ أَيْ: عَذَابَهَا ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ مِنْ قِبَلِ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ يَمْقُتُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إِيَّاكُمْ ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إِمَاتَتَيْنِ ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إِحْيَاءَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُمْ نُطَفًا أَمْوَاتٌ فَأُحْيُوا ثُمَّ أُمِيتُوا ثُمَّ أُحْيُوا لِلْبَعْثِ[1] ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ بِكُفْرِنَا بِالْبَعْثِ ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ مِنَ النَّارِ وَالرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا لِنُطِيعَ رَبَّنَا ﴿مِّن سَبِيلٍ ۝١١﴾ طَرِيقٍ؟ وَجَوَابُهُمْ: لَا. ﴿ذَٰلِكُم﴾ أَيِ: الْعَذَابُ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّهُ فِي الدُّنْيَا ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ بِتَوْحِيدِهِ ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ﴾ يُجْعَلْ لَهُ شَرِيكٌ ﴿تُؤْمِنُوا۟ ۚ﴾ تُصَدِّقُوا بِالْإِشْرَاكِ ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ فِي تَعْذِيبِكُمْ ﴿لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ ﴿ٱلْكَبِيرِ ۝١٢﴾ الْعَظِيمِ. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دَلَائِلَ تَوْحِيدِهِ ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَّعِظُ ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ يَرْجِعُ عَنِ الشِّرْكِ. ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤﴾ إِخْلَاصَكُمْ مِنْهُ. ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أَيِ: اللهُ عَظِيمُ الصِّفَاتِ، أَوْ رَافِعُ دَرَجَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ[2] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خَالِقُهُ ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الْوَحْيَ ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أَيْ: قَوْلِهِ[3] ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ

---

(١) ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨].

(٢) رفيع اسم فاعل أو صفة مشبه فاعلها يعود على الله عز وجل المذكور في قوله: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وعلى هذا فلا يصح أن تفسر بأن المراد رافع درجات المؤمنين؛ لأنه على هذا التفسير تكون الدرجات درجات غيره، درجات المؤمنين، ولا يصح أن تُفَسَّر رفيع الدرجات بعظيم الصفات لما بينهما من الفرق العظيم. والصواب أنه سبحان هو رفيع الدرجات، ويدل لهذا ويعينه قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش، والعرش هو أعلى المخلوقات، فكأنه قال: رفيع الدرجات فوق العرش، وهذا هو المتعين. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص:١٥٩)].

(٣) يعني أن الوحي من قول الله عز وجل يقول فيسمع جبريل ثم ينزل به إلى من شاء الله سبحانه وتعالى ... ولم يبين من هؤلاء، ولكننا نعلم أنهم الأنبياء؛ لأنهم هم الذين يُلْقَى إليهم الوحي سواء كانوا رسلًا أم غير رسل. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص:١٦١)].

عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ﴾ يُخَوِّفَ الْمُلْقَى عَلَيْهِ، النَّاسَ ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ بِحَذْفِ الْيَاءِ وَإِثْبَاتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِتَلَاقِي أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْعَابِدِ وَالْمَعْبُودِ وَالظَّالِمِ وَالْمَظْلُومِ فِيهِ. ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ خَارِجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ(١) ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ يَقُولُهُ تَعَالَى، وَيُجِيبُ نَفْسَهُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦﴾ أَيْ: لِخَلْقِهِ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٧﴾ يُحَاسِبُ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي قَدْرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ(٢). ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْ أَزِفَ الرَّحِيلُ قَرُبَ(٣) ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾ تَرْتَفِعُ خَوْفًا ﴿لَدَى﴾ عِنْدَ ﴿ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ مُمْتَلِئِينَ غَمًّا حَالٌ مِنَ ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾، عُومِلَتْ بِالْجَمْعِ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ مُعَامَلَةَ أَصْحَابِهَا(٤) ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ مُحِبٍّ ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ١٨﴾ لَا مَفْهُومَ لِلْوَصْفِ إِذْ لَا شَفِيعَ لَهُمْ أَصْلًا ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠]، أَوْ لَهُ مَفْهُومٌ بِنَاءً عَلَى زَعْمِهِمْ أَنَّ لَهُمْ شُفَعَاءَ، أَيْ: لَوْ شَفَعُوا فَرْضًا لَمْ يُقْبَلُوا. ﴿يَعْلَمُ﴾ أَيِ: اللهُ ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ بِمُسَارَقَتِهَا النَّظَرَ إِلَى مُحَرَّمٍ ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ الْقُلُوبُ. ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ، أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ، بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ وَهُمُ الْأَصْنَامُ ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ فَكَيْفَ يَكُونُونَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿ٱلْبَصِيرُ ٢٠﴾ بِأَفْعَالِهِمْ. ﴿* أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مِنكُمْ﴾ ﴿قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنْ مَصَانِعَ وَقُصُورٍ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَهْلَكَهُمْ ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٢١﴾

---

(١) المعنى أخص مما قال، بل المعنى: يوم هم بارزون؛ أي: ظاهرون ليس لهم ظل يظلهم؛ لا من شجر ولا حجر، ولا بيت ولا غيره؛ لأن البارز هو الظاهر الذي لا يحجبه دونه شيء، وهم بارزون في ذلك اليوم، وتدنو الشمس منهم مقدار ميل، ويعرق الناس في ذلك اليوم على قدر أعمالهم، منهم من يصل العرق إلى كعبيه، ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا على حسب أعمالهم. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص:١٦٦)].

(٢) انظر التعليق على الآية (٢٠٢) من سورة البقرة.

(٣) ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي: قربت الساعة. [الشوكاني (٤/ ٥٥٧)].

(٤) ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ معناه أن القلوب قد صعدت من الصدور، لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجاز عبر به عن شدة الخوف. والحناجر جمع حنجرة وهي الحلق ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي: محزونين حزنًا شديداً كقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] وقيل: معناه يكظمون حزنهم، أي: يطمعون أن يخفوه، والحال تغلبهم، وانتصابه على الحال من أصحاب القلوب، لأن معناه قلوب الناس، أو من المفعول في أنذرهم أو من القلوب. وجمعها جمع المذكر لما وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٢٩)].

عَذَابَهُ. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٢٢ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢٣﴾ بُرْهَانٍ بَيِّنٍ ظَاهِرٍ. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ﴾ هُوَ ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ﴾ اِسْتَبْقُوا ﴿نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ٢٥﴾ هَلَاكٍ. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكُفُّونَهُ عَنْ قَتْلِهِ ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ لِيَمْنَعَهُ مِنِّي ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ مِنْ عِبَادَتِكُمْ إِيَّايَ، فَتَتَّبِعُونَهُ ﴿وَأَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ٢٦﴾ مِنْ قَتْلٍ وَغَيْرِهِ(١)، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَوْ﴾ وَفِي أُخْرَى: بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالْهَاءِ وَضَمِّ الدَّالِ. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لِقَوْمِهِ وَقَدْ سَمِعَ ذَلِكَ: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ٢٧ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قِيلَ: هُوَ ابْنُ عَمِّهِ ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن﴾ أَيْ: لِأَنْ ﴿يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ﴾ أَيْ: ضَرَرُ كَذِبِهِ ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ عَاجِلًا(٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشْرِكٌ ﴿كَذَّابٌ ٢٨﴾ مُفْتَرٍ. ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غَالِبِينَ، حَالٌ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ عَذَابِهِ إِنْ قَتَلْتُمْ أَوْلِيَاءَهُ ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾ أَيْ: لَا نَاصِرَ لَنَا ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أَيْ: مَا أُشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا بِمَا أُشِيرُ بِهِ عَلَى نَفْسِي(٣)، وَهُوَ قَتْلُ مُوسَى ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ

---

(١) أي: يوقع بين الناس الخلاف والفتنة، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى وانتشاره في الأرض واهتداء الناس إليه فساد، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه، والمعنى: أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين أو وقوع الأمرين جميعـًا. [صديق حسن (١٢/ ١٨٠)].

(٢) أي: إن كان موسى كاذبـًا في دعوى الرسالة فلا يضركم كذبه، فلأي شيء تقتلونه، فإن قيل: كيف قال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ بعد أن كان قد آمن به؟ فالجواب أنه لم يقل ذلك على وجه التكذيب له، وإنما قاله على وجه الفرض والتقدير، وقصد بذلك المحاجة لقومه، فقسم أمر موسى إلى قسمين، ليقيم عليهم الحجة في ترك قتله على كل وجه من القسمين، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ﴾ قيل: إن بعض هنا بمعنى كل وذلك بعيد، وإنما قال بعض ولم يقل كل مع أن الذي يصيبهم هو كل ما يعدهم ليلاطفهم في الكلام، ويبعد عن التعصب لموسى، ويظهر النصيحة لفرعون وقومه، فيرتجى إجابتهم للحق. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٣١)].

(٣) أي: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، قاله ابن زيد، وهذا تفسير لمآل المعنى، والتفسير المطابق لجوهر اللفظ ما قال الضحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب، وهو قتل موسى والرؤية هنا هي القلبية الاعتقادية، لا البصرية العينية، فتعدى لمفعولين ثانيهما: ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾. [صديق حسن (١٢/ ١٨٤)].

﴿ٱلرَّشَادِ ۝٢٩﴾ طَرِيقَ الصَّوَابِ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠﴾ أَيْ: يَوْمِ حِزْبٍ بَعْدَ حِزْبٍ. ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ﴿مِثْلَ﴾ بَدَلٌ مِنْ: ﴿مِّثْلَ﴾ قَبْلَهُ، أَيْ: مِثْلَ جَزَاءِ عَادَةِ مَنْ كَفَرَ قَبْلَكُمْ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢﴾ بِحَذْفِ الْيَاءِ وَإِثْبَاتِهَا، أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْثُرُ فِيهِ نِدَاءُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ وَبِالْعَكْسِ، وَالنِّدَاءُ بِالسَّعَادَةِ لِأَهْلِهَا وَبِالشَّقَاوَةِ لِأَهْلِهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ. ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِلَى النَّارِ ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مِنْ عَذَابِهِ ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مَانِعٍ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ مُوسَى، وَهُوَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ فِي قَوْلٍ، عُمِّرَ إِلَى زَمَنِ مُوسَى، أَوْ يُوسُفُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ فِي قَوْلٍ[1] ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ﴾ مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أَيْ: فَلَنْ تَزَالُوا كَافِرِينَ بِيُوسُفَ وَغَيْرِهِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ إِضْلَالِكُمْ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشْرِكٌ ﴿مُّرْتَابٌ ۝٣٤﴾ شَاكٌّ فِيمَا شَهِدَتْ بِهِ الْبَيِّنَاتُ. ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مُعْجِزَاتِهِ، مُبْتَدَأٌ ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ بُرْهَانٍ ﴿أَتَىٰهُمْ كَبُرَ﴾ جِدَالُهُمْ، خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ ﴿مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلَ إِضْلَالِهِمْ ﴿يَطْبَعُ﴾ يَخْتِمُ ﴿ٱللَّهُ﴾ بِالضَّلَالِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ بِتَنْوِينِ ﴿قَلْبٍ﴾ وَدُونِهِ، وَمَتَى تَكَبَّرَ الْقَلْبُ تَكَبَّرَ صَاحِبُهُ وَبِالْعَكْسِ، وَ ﴿كُلِّ﴾ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ: لِعُمُومِ الضَّلَالِ جَمِيعَ الْقَلْبِ، لَا لِعُمُومِ الْقَلْبِ. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ بِنَاءً عَالِيًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ طُرُقَهَا الْمُوصِلَةَ إِلَيْهَا ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى ﴿أَبْلُغُ﴾، وَبِالنَّصْبِ جَوَابًا لِـ ﴿ٱبْنِ﴾ ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ أَيْ :مُوسَى ﴿كَٰذِبًا﴾ فِي أَنَّ لَهُ إِلَهًا غَيْرِي، قَالَ فِرْعَوْنُ ذَلِكَ تَمْوِيهًا ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ

---

(١) حكى المؤلف رحمه الله قولين في المراد بيوسف، فقيل: إنه يوسف بن يعقوب وأنه عُمِّر إلى زمن موسى، وهذا قول باطل لا إشكال فيه؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان يأتي موسى ويتصل به؛ لأنهم كلاهما رسول. القول الثاني: أنه يوسف وجَدُّه يوسف بن يعقوب، يوسف بن إبراهيم بن يوسف وهذا أيضًا لا دليل عليه، والصواب أن المراد به يوسف بن يعقوب وأنه لم يُعَمَّر إلى زمن موسى، وأنه مات في زمنه، لكنه جاء أسلافهم؛ لأن يوسف عليه الصلاة والسلام أخذه المارة الذين مروا بالبئر الذي أُلْقِيَ فيها وذهبوا به إلى مصر، والقصة معروفة في سورة كاملة. فإن قال إنسان: كيف يخاطبهم فيقول: جاءكم، ويوسف بن يعقوب قَبْلَهم بأزمان كثيرة؟ فيقال: إن ما حصل للأسلاف فهو للأخلاف، يعني: أن ما جاء أسلافهم فهو كالذي جاءهم، ودليل ذلك أن الله يخاطب بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ بما حصل لأسلافهم في عهد موسى. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص:٢٧٦)].

﴿وَصَدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ طَرِيقِ الْهُدَى بِفَتْحِ الصَّادِ وَضَمِّهَا ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ٣٧﴾ خَسَارٍ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ وَحَذْفِهَا ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ تَقَدَّمَ(١). ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ تَمَتُّعٌ يَزُولُ ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُدْخَلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الْخَاءِ وَبِالْعَكْسِ ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ٤٠﴾ رِزْقًا وَاسِعًا بِلَا تَبِعَةٍ. ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الْغَالِبِ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ٱلْغَفَّٰرِ ٤٢﴾ لِمَنْ تَابَ. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ لِأَعْبُدَهُ ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: اِسْتِجَابَةُ دَعْوَةٍ ﴿وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ مَرْجِعَنَا ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ فَسَتَذْكُرُونَ﴾ إِذَا عَايَنْتُمُ الْعَذَابَ ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٤٤﴾ قَالَ ذَلِكَ لَمَّا تَوَعَّدُوهُ بِمُخَالَفَةِ دِينِهِمْ. ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ بِهِ مِنَ الْقَتْلِ ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ قَوْمِهِ مَعَهُ ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٤٥﴾ الْغَرَقُ. ثُمَّ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ يُحَوَّفُونَ بِهَا ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً(٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يُقَالُ: ﴿أَدْخِلُوٓا۟﴾ يَا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الْخَاءِ، أَمْرٌ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ٤٦﴾ عَذَابَ جَهَنَّمَ. ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾ يَتَخَاصَمُ الْكُفَّارُ ﴿فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جَمْعُ تَابِعٍ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ دَافِعُونَ ﴿عَنَّا نَصِيبًا﴾ جُزْءًا ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ٤٨﴾ فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَالْكَافِرِينَ النَّارَ. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أَيْ:

---

(١) آية (٢٩) من هذه السورة.

(٢) أخرج البخاري (١٣٧٩) ومسلم (٦٥) وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ. إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ. يُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». زاد ابن مردويه: ثم قرأ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. وعرضهم عليها إحراقهم بها، يقال عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، أي: في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر أو ينفس عنهم، ويجوز أن يكون غدواً وعشياً عبارة عن الدوام. واحتج بعض أهل العلم على إثبات عذاب القبر بهذه الآية أعاذنا الله تعالى منه بمنه وكرمه، وبه قال مجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب كلهم. [صديق حسن (١٢/ ١٩٦)].

قَدْرَ يَوْمٍ ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓا۟﴾ أَيِ: الْخَزَنَةُ تَهَكُّمًا(١) ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أَيْ: فَكَفَرُوا بِهِمْ ﴿قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟﴾ أَنْتُمْ، فَإِنَّا لَا نَشْفَعُ لِلْكَافِرِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ انْعِدَامٍ. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ جَمْعُ «شَاهِدٍ» وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ، وَعَلَى الْكُفَّارِ بِالتَّكْذِيبِ(٢). ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ عُذْرُهُمْ لَوِ اعْتَذَرُوا ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أَيِ: الْبُعْدُ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ الْآخِرَةِ، أَيْ: شِدَّةُ عَذَابِهَا. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ التَّوْرَاةَ وَالْمُعْجِزَاتِ ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴿ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣﴾ التَّوْرَاةَ. ﴿هُدًى﴾ هَادِيًا ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾ تَذْكِرَةً لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ. ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ ﴿حَقٌّ﴾ وَأَنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ لِيُسْتَنَّ بِكَ ﴿وَسَبِّحْ﴾ صَلِّ مُتَلَبِّسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ﴾ وَهُوَ مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ(٣). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ بُرْهَانٍ ﴿أَتَىٰهُمْ إِن﴾ مَا ﴿فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ تَكَبُّرٌ وَطَمَعٌ أَنْ يَعْلُوا عَلَيْكَ ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ﴾ مِنْ شَرِّهِم ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ بِأَحْوَالِهِمْ. وَنَزَلَ فِي مُنْكِرِي الْبَعْثِ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ابْتِدَاءً ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ مَرَّةً ثَانِيَةً وَهِيَ الْإِعَادَةُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيِ: الْكُفَّارَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ ذَلِكَ فَهُمْ كَالْأَعْمَى، وَمَنْ يَعْلَمُهُ كَالْبَصِيرِ. ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَ﴾ لَا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَهُوَ الْمُحْسِنُ ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ فِيهِ زِيَادَةُ لَا ﴿قَلِيلًا

---

(١) هكذا قال المؤلف: «تهكما» ويحتمل أنهم قالوا ذلك تقريعا وتوبيخا وتنديما وليس تهكما، لأن الأمر واقع، فهم يقررونهم بشيء حاصل تنديما لهم ليزدادوا حزنا. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص:٣٥٧)].

(٢) الأشهاد، جمع شهيد، كشريف وأشراف، أو جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]. وقال: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والظاهر أنه من الشهادة. وقيل: من المشاهدة، بمعنى الحضور. [أبو حيان (٩/ ٢٦٥)]. وفي ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ ثلاثة أقاويل: أحدها: أنهم الملائكة شهدوا للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب، قاله مجاهد والسدي. الثاني: أنهم الملائكة والأنبياء، قاله قتادة. الثالث: أنهم أربعة: الملائكة والنبيون والمؤمنون والأجساد. [الماوردي (٥/ ١٦٠)].

(٣) أي: دم على تنزيه الله متلبساً بحمده، وقيل: المراد الصلوات الخمس، والعشي هو من بعد الزوال، وفيه أربع صلوات، والإبكار من الفجر إلى الزوال، وفيه صلاة واحدة. [صديق حسن (١٢/ ٢٠١)].

مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ يَتَّعِظُونَ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، أَيْ: تَذَكُّرُهُمْ قَلِيلٌ جِدًّا. ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بِهَا. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أَيْ: اُعْبُدُونِي أُثِبْكُمْ، بِقَرِينَةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الْخَاءِ وَبِالْعَكْسِ ﴿جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ صَاغِرِينَ. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ إِسْنَادُ الْإِبْصَارِ إِلَيْهِ مَجَازِيٌّ؛ لِأَنَّهُ يُبْصَرُ فِيهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ اللهَ فَلَا يُؤْمِنُونَ. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنِ الْإِيمَانِ مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ؟ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ أَيْ: مِثْلَ إِفْكِ هَؤُلَاءِ إِفْكُ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مُعْجِزَاتِهِ ﴿يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سَقْفًا ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ﴾ اُعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ * ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ(١) ﴿مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهُ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ دَمٍ غَلِيظٍ ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ بِمَعْنَى: أَطْفَالًا ﴿ثُمَّ﴾ يُبْقِيكُمْ ﴿لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ تَكَامُلَ قُوَّتِكُمْ مِنَ الثَّلَاثِينَ سَنَةً إِلَى الْأَرْبَعِينَ ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾ بِضَمِّ الشِّينِ وَكَسْرِهَا ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ الْأَشُدِّ وَالشَّيْخُوخَةِ، فَعَلَ ذَلِكَ بِكُمْ لِتَعِيشُوا ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وَقْتًا مَحْدُودًا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ فَتُؤْمِنُوا. ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أَرَادَ إِيجَادَ شَيْءٍ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ بِضَمِّ النُّونِ وَفَتْحِهَا، بِتَقْدِيرِ «أَنْ» أَيْ: يُوجَدُ عَقِبَ الْإِرَادَةِ الَّتِي هِيَ مَعْنَى الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ(٢). ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) ﴿قُلْ﴾ لهم رداً عليهم فيما طلبوه منك وهو عبادة آلهتهم: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ نهياً عاماً ببراهين العقول ونهياً خاصاً بأدلة النقول ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي الأصنام ثم بين وجه النهي فقال ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ وهي الأدلة العقلية والنقلية فإنها توجب التوحيد ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: استسلم له بالانقياد والخضوع، أو الإخلاص. [صديق حسن (٢/ ٢٠٩)].

(٢) يريد أن ينفي بذلك القول، يعني: أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ إنما يريد أن يقول، فإن مذهب الأشاعرة أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس شيئًا يُسمَع، وليس توجيهًا يُصدَّر إلى الموجَّه إليه، مع أن الآية صريحة: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ قولٌ صريحٌ مُصدَّرٌ، ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. والصواب أنه يقول: قولًا مسموعًا يسمعه الموجَّه إليه، فيمتثل أمر الله عز وجل. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص:٤٧٢)].

فالظاهر في هذا المعنى الحقيقي، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ

﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿أَنَّىٰ﴾ كَيفَ ﴿يُصْرَفُونَ ۝٦٩﴾ عَنِ الْإِيمانِ(١). ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ، وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾ عُقُوبَةَ تَكْذِيبِهِمْ. ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ﴿إِذِ﴾ بِمَعْنَى: «إِذَا» ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ فَتَكُونُ فِي الْأَعْنَاقِ، أَوْ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، أَيْ: فِي أَرْجُلِهِمْ، أَوْ خَبَرُهُ ﴿يُسْحَبُونَ ۝٧١﴾ أَيْ: يُجَرُّونَ بِهَا. ﴿فِي ٱلْحَمِيمِ﴾ أَيْ: جَهَنَّمَ ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ يُوقَدُونَ. ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ تَبْكِيتًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مَعَهُ وَهِيَ الْأَصْنَامُ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ﴾ غَابُوا ﴿عَنَّا﴾ فَلَا نَرَاهُمْ ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أَنْكَرُوا عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهَا(٢) ثُمَّ أُحْضِرَتْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أَيْ: وَقُودُهَا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ إِضْلَالِ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾. وَيُقَالُ لَهُمْ أَيْضًا: ﴿ذَٰلِكُم﴾ الْعَذَابُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾ تَتَوَسَّعُونَ فِي الْفَرَحِ(٣). ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى﴾ مَأْوَى ﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٦ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِعَذَابِهِمْ ﴿حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فِيهِ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ مُدْغَمَةٌ، وَ«مَا» زَائِدَةٌ تُؤَكِّدُ مَعْنَى الشَّرْطِ أَوَّلَ الْفِعْلِ، وَالنُّونُ تُؤَكِّدُ آخِرَهُ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي حَيَاتِكَ وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: فَذَاكَ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أَيْ: قَبْلَ تَعْذِيبِهِمْ ﴿فَإِلَيْنَا

إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. [الشوكاني (١/ ١٥٦)].

(١) تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع، وترتيب الوعيد على ذلك كما أن ما سبق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلخ. بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الأمنية الفارغة فلا تكرير فيه، أي: انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية. [أبو السعود (٧/ ٢٨٤)].

(٢) أي: لم نكن نعبد شيئًا، قالوا هذا بعد ما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة، وأنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة، كقولك: حسبته شيئًا فلم يكن كذلك، وقال المحلي: «أنكروا عبادتهم إياها» انتهى. وهذا المعنى بعيد في مقام الحساب والعرض على رب العالمين. [صديق حسن (١٢/ ٢١٤)].

(٣) ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: ذلك الإضلال المدلول عليه بالفعل أو العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله والسرور بمخالفة رسله وكتبه، وقيل: بما كنتم تفرحون به من المال والأتباع والصحة، وقيل: من إنكار البعث والعذاب، وقيل: المراد بالفرح هنا البطر والتكبر ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ المراد بالمرح الزيادة في البطر، وقال مجاهد وغيره: تبطرون وتأشرون. [الشوكاني (٤/ ٥٧٥)].

﴿يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ فَنُعَذِّبُهُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ، فَالْجَوَابُ الْمَذْكُورُ لِلْمَعْطُوفِ فَقَطْ. ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ رُوِيَ أَنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ ثَمَانِيَةَ آلَافِ نَبِيٍّ: أَرْبَعَةَ آلَافِ نَبِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ(١) ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لِأَنَّهُمْ عَبِيدٌ مَرْبُوبُونَ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بِنُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى الْكُفَّارِ ﴿قُضِيَ﴾ بَيْنَ الرُّسُلِ وَمُكَذِّبِيهَا ﴿بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾ أَيْ: ظَهَرَ الْقَضَاءُ وَالْخُسْرَانُ لِلنَّاسِ، وَهُمْ خَاسِرُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ قَبْلَ ذَلِكَ. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ قِيلَ: الْإِبِلَ خَاصَّةً هُنَا، وَالظَّاهِرُ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ مِنَ الدَّرِّ وَالنَّسْلِ وَالْوَبَرِ وَالصُّوفِ ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ هِيَ حَمْلُ الْأَثْقَالِ إِلَى الْبِلَادِ ﴿وَعَلَيۡهَا﴾ فِي الْبَرِّ ﴿وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ ﴿تُحۡمَلُونَ ٨٠ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ﴿تُنكِرُونَ ٨١﴾ اِسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ، وَتَذْكِيرُ «أَيٍّ» أَشْهَرُ مِنْ تَأْنِيثِهِ. ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِنْ مَصَانِعَ وَقُصُورٍ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الْمُعْجِزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَرِحُواْ﴾ أَيْ: الْكُفَّارُ ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ أَيْ: الرُّسُلِ ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ فَرَحَ اسْتِهْزَاءٍ وَضَحِكٍ مُنْكِرِينَ لَهُ(٢) ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾ أَيْ: الْعَذَابُ. ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أَيْ: شِدَّةَ عَذَابِنَا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ نَصْبُهُ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ مِنْ لَفْظِهِ ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ﴾ فِي الْأُمَمِ أَنْ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ وَقْتَ نُزُولِ الْعَذَابِ(٣) ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٥﴾ تَبَيَّنَ خُسْرَانُهُمْ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَهُمْ خَاسِرُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ قَبْلَ ذَلِكَ.

---

(١) «رُوي» بصيغة التمريض؛ لأن هذا لا يصح؛ كيف يكون من بني إسرائيل وهم متأخرون عن أُمَمٍ كثيرة أربعة آلاف، ومن سائر الناس أربعة آلاف؟! هذا بعيد، بل إن الله أرسل في كل وقت وحين ما تقوم به الحجة. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص:٥٢٤)].

(٢) في تفسير علمهم وجوه: أحدها: أنه ما كانوا يعتقدون من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون، والثاني: أنه علمهم بمنافع الدنيا ووجوه كسبها، والثالث: أنه علم الفلاسفة الذين يحتقرون علوم الشرائع. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٣٦)].

(٣) المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجيًا لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة، قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيمانًا بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب. [السعدي (ص:٧٤٣)].

سُورَةُ فُصِّلَت

مَكِّيَّةٌ، ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ[(١)]. ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾ مُبْتَدأٌ. ﴿كِتَٰبٌ﴾ خَبَرُهُ ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بُيِّنَتْ بِالْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ وَالْمَوَاعِظِ ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ مِنْ ﴿كِتَٰبٌ﴾ بِصِفَتِهِ ﴿لِّقَوۡمٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿فُصِّلَتۡ﴾ ﴿يَعۡلَمُونَ ٣﴾ يَفْهَمُونَ ذَلِكَ وَهُمُ الْعَرَبُ. ﴿بَشِيرًا﴾ صِفَةُ ﴿قُرۡءَانًا﴾ ﴿وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤﴾ سَمَاعَ قَبُولٍ. ﴿وَقَالُواْ﴾ لِلنَّبِيِّ ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ أَغْطِيَةٍ ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ﴾ ثِقَلٌ ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ خِلَافٌ فِي الدِّينِ ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ عَلَى دِينِكَ ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ عَلَى دِينِنَا. ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ ﴿لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ مَقْطُوعٍ. ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهَا بِوَجْهَيْهَا وَبَيْنَ الْأُولَى ﴿لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ ﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ شُرَكَاءَ ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ﴾ مَالِكُ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩﴾ جَمْعُ «عَالَمٍ» وَهُوَ مَا سِوَى اللهِ، وَجُمِعَ لِاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ تَغْلِيبًا لِلْعُقَلَاءِ. ﴿وَجَعَلَ﴾ مُسْتَأْنَفٌ وَلَا يَجُوزُ عَطْفُهُ عَلَى صِلَةِ «الَّذِي» لِلْفَاصِلِ الْأَجْنَبِيِّ[(٢)] ﴿فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ ﴿مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بِكَثْرَةِ الْمِيَاهِ وَالزُّرُوعِ وَالضُّرُوعِ ﴿وَقَدَّرَ﴾ قَسَّمَ ﴿فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا﴾ لِلنَّاسِ وَالْبَهَائِمِ ﴿فِيٓ﴾ تَمَامِ ﴿أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ أَيِ: الْجَعْلُ وَمَا ذُكِرَ مَعَهُ فِي يَوْمِ الثُّلَاثَاءِ وَالْأَرْبِعَاءِ ﴿سَوَآءٗ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيِ: اِسْتَوَتِ الْأَرْبَعَةُ اِسْتِوَاءً لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ عَنْ خَلْقِ الْأَرْضِ بِمَا فِيهَا[(٣)]. ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ قَصَدَ[(٤)]

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) إذا جعلناه مستأنفًا لم يكن الكلام منتظمًا، والصواب أنه على خلاف ما قال المؤلف: أن ﴿جَعَلَ﴾ معطوفة على ﴿خَلَقَ﴾، والفاصل الأجنبي هنا لا يضر إما أنه لا يضر مطلقًا كما قيل به، وإما أنه لا يضر؛ لأنه في مضمون الكلام والكلام واحد. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص:٦٥)].

(٣) يريد أن الأربعة كملت باليومين الأولين، فخلق الأرض في يومين وجعل فيها ما ذكر في يومين، فتلك أربعة أيام. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٣٨)].

(٤) هذا أحد القولين في هذه الجملة أنها بمعنى «قصد» لكن قصدًا كاملًا؛ وذلك لأن ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ تدل على الكمال كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا

﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ بُخَارٌ مُرْتَفِعٌ ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ إِلَى مُرَادِي مِنْكُمَا ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ بِمَنْ فِينَا ﴿طَآئِعِينَ ۝١١﴾ فِيهِ تَغْلِيبُ الْمُذَكَّرِ الْعَاقِلِ أَوْ نُزِّلَتَا لِخِطَابِهِمَا مَنْزِلَتَهُ[(١)] ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى الْجَمْعِ الْآيِلَةِ إِلَيْهِ، أَيْ: صَيَّرَهَا ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ فَرَغَ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْهُ، وَفِيهَا خَلَقَ آدَمَ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ هُنَا ﴿سَوَآءً﴾[(٢)]، وَوَافَقَ مَا هُنَا آيَاتِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ الَّذِي أَمَرَ بِهِ مَنْ فِيهَا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ[(٣)] ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ بِنُجُومٍ ﴿وَحِفْظًا﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، أَيْ: حَفِظْنَاهَا مِنَ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ السَّمْعَ بِالشُّهُبِ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خَوَّفْتُكُمْ ﴿صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ عَذَابًا يُهْلِكُكُمْ مِثْلَ الَّذِي أَهْلَكَهُمْ. ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَيْ: مُقْبِلِينَ عَلَيْهِمْ وَمُدْبِرِينَ عَنْهُمْ، فَكَفَرُوا كَمَا سَيَأْتِي، وَالْإِهْلَاكُ فِي زَمَنِهِ فَقَطْ ﴿أَ﴾ نْ، أَيْ: بِأَنْ ﴿لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ﴾ عَلَيْنَا

بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، والقول الثاني أن ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ بمعنى «استوى على» على السماء، أي: علا عليها، ولكن المعنى الذي سلكه المؤلف أرجح أنه قصد إلى السماء بإرادة تامة مستوية؛ لأن «إلى» تفيد الغاية و«على» تفيد الاستعلاء، ومعلوم أن السماوات لم تكن خُلِقت في تلك الساعة، ثم إننا لو قلنا: إن ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ بمعنى «على» كان قبل ذلك حين خلق الأرض ليس عاليًا على السماء، مع أن علو الله تعالى وصف لازم لذاته. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص:٧٤)].

(١) لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من منافاة هذه الحال وصاحبها، لأنها جمع مذكر عاقل وصاحبها ضمير تثنية لغير عاقل، ولو طابقت صاحبها في التثنية حسب ما يسبق إلى الذهن، لقال: «أتينا طائعتين» والجواب وهو الأظهر عندي، أن جمعه للسماوات والأرض، لأن السماوات سبع والأرضين كذلك، بدليل قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فالتثنية لفظية تحتها أربعة عشر فردا. وأما إتيان الجمع على صيغة جمع العقلاء، فلأن العادة في اللغة العربية أنه إذا وصف غير العاقل بصفة تختص بالعاقل أجري عليه حكمه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، لما كان السجود في الظاهر من خواص العقلاء أجرى حكمهم على الشمس والقمر والكواكب لوصفها به. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٢٧٦)].

(٢) هنا لم يقل: في يومين سواء لماذا؟ لأن بعض اليومين خُلِق فيه آدم، هذا ما ذهب إليه المؤلف، وفيه نظر ظاهر، لأن هذا يقتضي أن آدم خُلِق حين خَلْق السماوات والأرض؛ يعني: في الأيام الستة التي خُلِقت فيها السماوات والأرض وهذا لا شك أنه خطأ، بل إنه خُلِق بعد ذلك. نعم خُلِق آدمُ يوم الجمعة لا شك في ذلك كما ثبت عن النبي ﷺ، لكنها ليست الجمعة التي تم بها خلق السماوات والأرض. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص:٧٩)].

(٣) أي: ورتب مقررا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو. [ابن كثير (٧/ ١٦٧)].

﴿مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ عَلَى زَعْمِكُمْ ﴿كَٰفِرُونَ ١٤ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ﴾ لَمَّا خُوِّفُوا بِالْعَذَابِ ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ، كَانَ وَاحِدُهُمْ يَقْلَعُ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ مِنَ الْجَبَلِ يَجْعَلُهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ يَعْلَمُوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةًۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْمُعْجِزَاتِ ﴿يَجۡحَدُونَ ١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا﴾ بَارِدَةً شَدِيدَةَ الصَّوْتِ بِلَا مَطَرٍ(١) ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا مَشْئُومَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ الذُّلِّ ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ﴾ أَشَدُّ ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾ بِمَنْعِهِ عَنْهُمْ. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ بَيَّنَّا لَهُمْ طَرِيقَ الْهُدَى ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾ اخْتَارُوا الْكُفْرَ ﴿عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾ الْمُهِينِ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧ وَنَجَّيۡنَا﴾ مِنْهَا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾ اللهَ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوۡمَ يُحۡشَرُ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ الْمَفْتُوحَةِ وَضَمِّ الشِّينِ وَفَتْحِ الْهَمْزَةِ ﴿أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩﴾ يُسَاقُونَ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ أَيْ: أَرَادَ نُطْقَهُ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ قِيلَ: هُوَ مِنْ كَلَامِ الْجُلُودِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى كَالَّذِي بَعْدَهُ(٢)، وَمَوْقِعُهُ قَرِيبٌ مِمَّا قَبْلَهُ؛ بِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِنْشَائِكُمُ ابْتِدَاءً، وَإِعَادَتِكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ أَحْيَاءً، قَادِرٌ عَلَى إِنْطَاقِ جُلُودِكُمْ وَأَعْضَائِكُمْ. ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾ عَنِ ارْتِكَابِكُمُ الْفَوَاحِشَ مِنْ ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ لِأَنَّكُمْ لَمْ تُوقِنُوا بِالْبَعْثِ ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ﴾ عِنْدَ اسْتِتَارِكُمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا

(١) في معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان. أحدهما: أن الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا؛ فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي: في صيحة، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم، أي: صوتهما. الوجه الثاني: أن الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧]، أي: فيها برد شديد محرق. والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين، فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد. وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: ٦-٨]. [الشنقيطي (٧/ ١٣٠)].

(٢) ﴿قَالُوٓاْ﴾ مجيبين لهم معتذرين: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ مما ينطق من مخلوقاته، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، وقيل: المعنى ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله والأول أولى، والمعنى: أن نطقنا ليس بعجيب من قدرة الله. [صديق حسن (١٢/ ٢٤١)].

﴿مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بَدَلٌ مِنْهُ ﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾ نَعْتُ الْبَدَلِ، وَالْخَبَرُ ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ أَيْ: أَهْلَكَكُمْ ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ فَإِن يَصۡبِرُواْ﴾ عَلَى الْعَذَابِ ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوًى﴾ مَأْوًى ﴿لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾ يَطْلُبُوا الْعُتْبَى، أَيِ: الرِّضَا ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ الْمَرْضِيِّينَ. ﴿۞ وَقَيَّضۡنَا﴾ سَبَّبْنَا[1] ﴿لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ مِنَ الشَّيَاطِينِ ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، بِقَوْلِهِمْ: لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بِالْعَذَابِ وَهُوَ ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] الْآيَةَ ﴿فِيٓ﴾ جُمْلَةِ ﴿أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾ هَلَكَتْ ﴿مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ٢٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عِنْدَ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ ائْتُوا بِاللَّغَطِ وَنَحْوِهِ، وَصَيِّحُوا فِي زَمَنِ قِرَاءَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ فَيَسْكُتُ عَنِ الْقِرَاءَةِ. قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ أَيْ: قُبْحَ جَزَاءِ عَمَلِهِمْ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، وَأَسْوَأُ الْجَزَاءِ ﴿جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ، وَإِبْدَالِهَا وَاوًا ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ لِـ﴿جَزَآءُ﴾ الْمُخْبَرِ بِهِ عَنْ ﴿ذَٰلِكَ﴾ ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أَيْ: إِقَامَةٍ لَا انْتِقَالَ مِنْهَا ﴿جَزَآءَۢ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿يَجۡحَدُونَ ٢٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فِي النَّارِ ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أَيْ: إِبْلِيسَ وَقَابِيلَ، سَنَّا الْكُفْرَ وَالْقَتْلَ[2] ﴿نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا﴾ فِي النَّارِ ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ أَيْ: أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَغَيْرِهِ مِمَّا وَجَبَ عَلَيْهِمْ ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عِنْدَ الْمَوْتِ ﴿أَ﴾نْ، أَيْ: بِأَنْ ﴿لَّا تَخَافُواْ﴾ مِنَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ عَلَى مَا خَلَّفْتُمْ مِنْ أَهْلٍ وَوَلَدٍ، فَنَحْنُ نَخْلُفُكُمْ فِيهِ ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أَيْ: نَحْفَظُكُمْ فِيهَا ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أَيْ: نَكُونُ مَعَكُمْ فِيهَا حَتَّى تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١﴾ تَطْلُبُونَ. ﴿نُزُلٗا﴾ رِزْقًا مُهَيَّأً،

---

(١) ﴿وَقَيَّضۡنَا﴾ أصل التقييض التيسير والتهيئة، أي: هيأنا ﴿لَهُمۡ﴾ أي: لكفار قريش وغيرهم ﴿قُرَنَآءَ﴾ من الشياطين بمنزلة الإخلاء لهم جمع «قرين» بمعنى: نظير، كقوله: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقال الزجاج: سببنا لهم قرناء حتى أضلوهم، وقيل: سلطنا عليهم قرناء، وقيل: قدرنا، والمعاني متقاربة، أي: يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض، والقيض: قشر البيض الأعلى. [صديق حسن (١٢/ ٢٤٥)].

(٢) معنى ﴿ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾: كل من أغوانا من الجن والإنس، وقيل: المراد ولد آدم الذي سن القتل وإبليس الذي أمر بالكفر والعصيان، وهذا باطل لأن ولد آدم مؤمن عاصي، وإنما طلب هؤلاء من أضلهم بالكفر. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٤٠)].

مَنْصُوبٌ بِـ «جَعَلَ» مُقَدَّرًا ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أَيِ: اللهُ. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ أَحْسَنُ ﴿قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ فِي جُزْئِيَّاتِهِمَا؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴿ٱدْفَعْ﴾ السَّيِّئَةَ ﴿بِٱلَّتِى﴾ أَيْ: بِالْخَصْلَةِ الَّتِي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ كَالْغَضَبِ بِالصَّبْرِ، وَالْجَهْلِ بِالْحِلْمِ، وَالْإِسَاءَةِ بِالْعَفْوِ[1] ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أَيْ: فَيَصِيرُ عَدُوُّكَ كَالصَّدِيقِ الْقَرِيبِ فِي مَحَبَّتِهِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَـ ﴿ٱلَّذِى﴾ مُبْتَدَأٌ وَ ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الْخَبَرُ، وَ﴿إِذَا﴾ ظَرْفٌ لِمَعْنَى التَّشْبِيهِ. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أَيْ: يُؤْتَى الْخَصْلَةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ﴾ ثَوَابٍ ﴿عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الزَّائِدَةِ ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أَيْ: يَصْرِفْكَ عَنِ الْخَصْلَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخَيْرِ صَارِفٌ ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَجَوَابُ الْأَمْرِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: يَدْفَعُهُ عَنْكَ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ بِالْفِعْلِ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أَيِ: الْآيَاتِ الْأَرْبَعَ ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عَنِ السُّجُودِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أَيْ: فَالْمَلَائِكَةُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ يُصَلُّونَ ﴿لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ لَا يَمَلُّونَ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يَابِسَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ تَحَرَّكَتْ ﴿وَرَبَتْ﴾ انْتَفَخَتْ وَعَلَتْ[2] ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ مِنْ

---

(١) والمعنى: أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك، كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه، أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه، ووضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة، لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها. [النيسابوري (٦/ ٥٩)].

(٢) ﴿خَٰشِعَةً﴾ يابسة لا نبات فيها، متطامنة، وهي أنسب بلفظ خاشعة، والخاشعة اليابسة الجدبة الجامدة، وقيل: الغبراء التي لا تنبت، قال الأزهري. إذا يبست الأرض ولم تمطر، قيل: قد خشعت والخشوع التذلل والتقاصر، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥] وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربو، كما قال: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي: ماء المطر أو غيره ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات حركة عظيمة كثيرة سريعة فكان كمن يعالج ذلك بنفسه، يقال اهتز الإنسان إذا تحرك. ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وعلت قبل أن تنبت، قاله مجاهد وغيره، أي: تصدعت عن النبات بعد موتها، وعلى هذا ففي الكلام تقديم وتأخير، وتقديره: ربت واهتزت، وقيل: الاهتزاز والربو قد يكونان قبل خروج النبات من الأرض وقد يكونان بعده، ومعنى الربو لغة الارتفاع. كما يقال للموضع المرتفع: ربوة ورابية فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً. [صديق حسن (١٢/ ٢٥٦)].

أَلْحَدَ وَلَحَدَ ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ اَلْقُرْآنِ بِالتَّكْذِيبِ ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فَنُجَازِيهِمْ ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ نُجَازِيهِمْ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ مَنِيعٌ. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أَيْ: لَيْسَ قَبْلَهُ كِتَابٌ يُكَذِّبُهُ وَلَا بَعْدَهُ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ أَيِ: اللهِ اَلْمَحْمُودِ فِي أَمْرِهِ. ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ مِنَ اَلتَّكْذِيبِ ﴿إِلَّا﴾ مِثْلَ ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ لِلْكَافِرِينَ. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أَيِ: اَلذِّكْرَ ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنَتْ ﴿ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ حَتَّى نَفْهَمَهَا ﴿ءَ﴾ قُرْآنٌ ﴿أَعْجَمِىٌّ وَ﴾ نَبِيٌّ ﴿عَرَبِىٌّ﴾؟ اِسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ مِنْهُمْ، بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَةِ اَلثَّانِيَةِ وَقَلْبِهَا أَلِفًا بِإِشْبَاعٍ وَدُونِهِ(١) ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ مِنَ اَلضَّلَالَةِ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ مِنَ اَلْجَهْلِ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ ثِقَلٌ فَلَا يَسْمَعُونَهُ ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ فَلَا يَفْهَمُونَهُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: هُمْ كَالْمُنَادَى مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَفْهَمُ مَا يُنَادَى بِهِ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ اَلتَّوْرَاةَ ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ كَالْقُرْآنِ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ اَلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ لِلْخَلَائِقِ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي اَلدُّنْيَا فِيمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَيِ: اَلْمُكَذِّبِينَ بِهِ ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ مُوقِعٍ فِي اَلرِّيبَةِ. ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عَمِلَ ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أَيْ: فَضَرَرُ إِسَاءَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ أَيْ: بِذِي ظُلْمٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿* إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مَتَى تَكُونُ؟ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ثَمَرَتٍ﴾ ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أَوْعِيَتِهَا جَمْعُ «كِمٍّ» بِكَسْرِ اَلْكَافِ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أَعْلَمْنَاكَ اَلْآنَ ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ أَيْ: شَاهِدٍ بِأَنَّ لَكَ شَرِيكًا. ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ ﴿مِن قَبْلُ﴾ فِي اَلدُّنْيَا مِنَ اَلْأَصْنَامِ ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أَيْقَنُوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ مَهْرَبٍ مِنَ اَلْعَذَابِ، وَالنَّفْيُ فِي اَلْمَوْضِعَيْنِ مُعَلِّقٌ عَنِ اَلْعَمَلِ وَجُمْلَةُ اَلنَّفْيِ سَدَّتْ مَسَدَّ اَلْمَفْعُولَيْنِ. ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أَيْ: لَا يَزَالُ يَسْأَلُ رَبَّهُ اَلْمَالَ

---

(١) تحقيق الهمزة الثانية أن تقول: ﴿ءَأَعْجَمِىٌّ﴾ كما هي القراءة المشهورة، «وقلبها ألفًا بإشباع» ﴿ءَآعْجَمِىٌّ﴾ قلبنا الثانية ألفًا، «ودونه» ﴿ءَاَعْجَمِىٌّ﴾ بمعنى أنك تمُد الألف مدًّا طبيعيًّا أو تمدُّها مدًّا زائدًا على ذلك، والمد الطبيعي قوله: «ودونه» والمد الزائد قوله: «بإشباع» وعلى هذا فيكون فيها ثلاث قراءات. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص: ٢٦٠)].

وَالصِّحَّةَ، وَغَيْرَهُمَا ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ اَلْفَقْرُ وَالشِّدَّةُ ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَهَذَا وَمَا بَعْدَهُ فِي اَلْكَافِرِينَ[١]. ﴿وَلَئِنْ﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ آتَيْنَاهُ ﴿رَحْمَةً﴾ غِنًى وَصِحَّةً ﴿مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ شِدَّةٍ وَبَلَاءٍ ﴿مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أَيْ: بِعَمَلِي ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أَيِ: اَلْجَنَّةَ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ شَدِيدٍ، وَاللَّامُ فِي اَلْفِعْلَيْنِ لَامُ قَسَمٍ. ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ اَلْجِنْسِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عَنِ اَلشُّكْرِ ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ ثَنَى عِطْفَهُ مُتَبَخْتِرًا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِتَقْدِيمِ اَلْهَمْزَةِ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ كَثِيرٍ[٢]. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كَمَا قَالَ اَلنَّبِيُّ ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ﴾ خِلَافٍ ﴿بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ عَنِ اَلْحَقِّ، أَوْقَعَ هَذَا مَوْقِعَ «مِنْكُمْ» بَيَانًا لِحَالِهِمْ. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ أَقْطَارِ اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ اَلنَّيِّرَاتِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ[٣] ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ مِنْ لَطِيفِ اَلصَّنْعَةِ وَبَدِيعِ اَلْحِكْمَةِ ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ اَلْمُنْزَلَ مِنَ اللهِ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْعِقَابِ، فَيُعَاقَبُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ وَبِالْجَائِي بِهِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ فَاعِلُ ﴿يَكْفِ﴾ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ بَدَلٌ مِنْهُ، أَيْ: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ فِي صِدْقِكَ أَنَّ رَبَّكَ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مَا. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ شَكٍّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ لِإِنْكَارِهِمُ اَلْبَعْثَ ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤﴾ عِلْمًا وَقُدْرَةً، فَيُجَازِيهِمْ بِكُفْرِهِمْ.

---

(١) وهذا صفة الكافر لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وقد بولغ في يأسه من جهة البنية والتكرير وما في القنوط من ظهور أثر اليأس. [البيضاوي (٥/ ٧٤)].

(٢) أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]. [ابن كثير (٧/ ١٨٦)].

(٣) الآيات جمع آية، وهي في اللغة العلامة، والمراد بآيات الله علاماته الدالة على كمال علمه وحكمته وقدرته، وغير ذلك من مقتضيات ربوبيته. واعلم أن آيات الله تعالى نوعان: آيات شرعية؛ وهي ما جاءت به الرسل، ومنها هذا القرآن الكريم، وآيات كونية؛ وهي الدالة على كمال الله تبارك وتعالى في العلم والخلق، وكل ما يتعلق بربوبيته، وهي ما يعجز البشر عن مثله، فالبشر كلهم عاجزون عن أن يخلقوا أرضا، أو سماء، أو نجوما، أو شمسا، أو قمرا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] هذه آيات كونية؛ لأنه يعجز عن مثلها البشر، والآيات الشرعية مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص:٣٣١)].

سُورَةُ الشُّورَى

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ اَلْآيَاتِ اَلْأَرْبَعَ، ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢﴾ اَللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ(١). ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ اَلْإِيحَاءِ ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَ﴾ أَوْحَى ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ فَاعِلُ اَلْإِيحَاءِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ ﴿ٱلۡعَظِيمُ ٤﴾ اَلْكَبِيرُ. ﴿تَكَادُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ بِالنُّونِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّاءِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ أَيْ: تَنْشَقُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ فَوْقَ اَلَّتِي تَلِيهَا مِنْ عَظَمَةِ اَللهِ تَعَالَى(٢) ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أَيْ: مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ بِهِمْ. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيِ: اَلْأَصْنَامَ ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ﴾ مُحْصٍ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ لِيُجَازِيَهُمْ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾ تُحَصِّلُ اَلْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ، مَا عَلَيْكَ إِلَّا اَلْبَلَاغُ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مِثْلَ ذَلِكَ اَلْإِيحَاءِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ﴾ تُخَوِّفَ ﴿أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ، وَسَائِرَ اَلنَّاسِ ﴿وَتُنذِرَ﴾ اَلنَّاسَ ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ يُجْمَعُ فِيهِ اَلْخَلَائِقُ ﴿لَا رَيۡبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهِۚ فَرِيقٞ﴾ مِنْهُمْ ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ اَلنَّارِ. ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أَيْ: عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ اَلْإِسْلَامُ ﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ اَلْكَافِرُونَ ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾ يَدْفَعُ عَنْهُمُ اَلْعَذَابَ. ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيِ: اَلْأَصْنَامَ ﴿أَوۡلِيَآءَۖ﴾ ﴿أَمِ﴾ مُنْقَطِعَةٌ بِمَعْنَى: «بَلِ» اَلَّتِي لِلِانْتِقَالِ وَالْهَمْزَةُ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) سبب مقاربة السماوات للتفطر في هذه الآية الكريمة فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له القرآن: الوجه الأول: أن المعنى: تكاد السماوات يتفطرن خوفا من الله، وهيبة وإجلالا، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ لأن علوه وعظمته سببت للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر. الوجه الثاني: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض جل وعلا من كونه اتخذ ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، وهذا الوجه جاء موضحا في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١﴾ [مريم: ٨٨-٩١]. [الشنقيطي (٧/ ١٦٢)].

لِلْإِنْكَارِ، أَيْ: لَيْسَ الْمُتَّخَذُونَ أَوْلِيَاءَ ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ أَيِ: النَّاصِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْفَاءُ لِمُجَرَّدِ الْعَطْفِ ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ مَعَ الْكُفَّارِ ﴿فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ مِنَ الدِّينِ وَغَيْرِهِ ﴿فَحُكْمُهُۥٓ﴾ مَرْدُودٌ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، قُلْ لَهُمْ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠﴾ أَرْجِعُ. ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُبْدِعُهُمَا ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ حَيْثُ خَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلَعِ آدَمَ ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ بِالْمُعْجَمَةِ: يَخْلُقُكُمْ ﴿فِيهِ﴾ فِي الْجَعْلِ الْمَذْكُورِ، أَيْ: يُكَثِّرُكُمْ بِسَبَبِهِ بِالتَّوَالُدِ وَالضَّمِيرُ لِلْأَنَاسِيِّ وَالْأَنْعَامِ بِالتَّغْلِيبِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ الْكَافُ زَائِدَةٌ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا مِثْلَ لَهُ[1] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ لِمَا يُفْعَلُ. ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهِمَا مِنَ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ، وَغَيْرِهِمَا ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يُوَسِّعُهُ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امْتِحَانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾ *﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ هُوَ أَوَّلُ أَنْبِيَاءِ الشَّرِيعَةِ ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ هَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ الْمُوصَى بِهِ، وَالْمُوحَى إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ التَّوْحِيدُ[2] ﴿كَبُرَ﴾ عَظُمَ ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ﴾

---

(١) المراد بذكر المثل هنا المبالغة في النفي بطريق الكناية فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى، كقولهم: مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود، فإن الكناية باب مسلوك للعرب ومهيع مألوف لهم، قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي: أنا لا يقال لي، وقيل: المراد بالمثل الصفة، فيكون المعنى: ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره وهو محمل سهل. ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمثل، قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، وانثلاج القلوب، فأقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة، والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة، وترغم بها آناف طوائف من القاصرين المتكلفين، والمتكلمين المتأولين. [صديق حسن (١٢/ ٢٨١)]. [فالله] ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ... وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. [السعدي (ص:٧٥٤)].

(٢) الدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وفي الحديث: «نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ». أخرجه البخاري (٣٤٤٢). أي: القدر

إِلَى التَّوحِيدِ ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ يُقْبِلُ إِلَى طَاعَتِهِ. ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ أَيْ: أَهْلُ الْأَدْيَانِ فِي الدِّينِ، بِأَنْ وَحَّدَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ بِالتَّوحِيدِ ﴿بَغۡيَۢا﴾ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ الْجَزَاءِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بِتَعْذِيبِ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مُرِيبٖ ١٤﴾ مُوقِعٍ فِي الرِّيبَةِ. ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ التَّوحِيدِ ﴿فَٱدۡعُۖ﴾ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ عَلَيْهِ ﴿كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ فِي تَرْكِهِ ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ﴾ أَيْ: بِأَنْ أَعْدِلَ ﴿بَيۡنَكُمُۖ﴾ فِي الْحُكْمِ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ فَكُلٌّ يُجَازَى بِعَمَلِهِ ﴿لَا حُجَّةَ﴾ خُصُومَةَ ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ هَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْجِهَادِ ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ فِي الْمَعَادِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ الْمَرْجِعُ(١). ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ﴾ يُجَادِلُونَ ﴿فِي﴾ دِينِ ﴿ٱللَّهِ﴾ نَبِيَّهُ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ بِالْإِيمَانِ لِظُهُورِ مُعْجِزَتِهِ، وَهُمُ الْيَهُودُ ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ بَاطِلَةٌ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿أَنزَلَ﴾ ﴿وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ الْعَدْلَ ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ يُعْلِمُكَ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أَيْ: إِتْيَانَهَا ﴿قَرِيبٞ ١٧﴾ وَلَعَلَّ مُعَلِّقٌ لِلْفِعْلِ عَنِ الْعَمَلِ، وَمَا بَعْدَهُ سَدَّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ. ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ﴾ يَقُولُونَ: مَتَى تَأْتِي؟ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا غَيْرُ آتِيَةٍ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ﴾ خَائِفُونَ ﴿مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ﴾ يُجَادِلُونَ ﴿فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يُهْلِكْهُمْ جُوعًا بِمَعَاصِيهِمْ ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمْ مَا يَشَاءُ ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ عَلَى مُرَادِهِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ. ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أَيْ: كَسْبَهَا وَهُوَ الثَّوَابُ ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ﴾ بِالتَّضْعِيفِ فِيهِ بِالْحَسَنَةِ

المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة:٤٨]. [ابن كثير (٧/ ١٩٥)].

(١) ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أي: لا خصومة ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لأن الحق قد ظهر ووضح، ولم يبق للمحاجة مجال، وليس في الآية إلا ما يدل على المتاركة في المقاولة، والمحاجة لا مطلقًا حتى تكون منسوخة، وإنما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة لهم على زعمهم الباطل، قال ابن عباس ومجاهد: الخطاب لليهود، وقيل: للكفار على العموم. ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ في المحشر لفصل القضاء ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازي كُلاًّ بعمله، وهذا منسوخ بآية السيف، وقيل: ليست بمنسوخة لأن البراهين قد ظهرت والحجج قد قامت فلم يبق إلا العناد وبعد العناد لا حجة ولا جدال. [صديق حسن (١٢/ ٢٨٨)].

إِلَى ٱلْعَشْرِ وَأَكْثَرَ ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ بِلَا تَضْعِيفٍ، مَا قُسِمَ لَهُ ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠ أَمْ﴾ بَلْ ﴿لَهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ هُمْ شَيَاطِينُهُمْ ﴿شَرَعُواْ﴾ أَيِ: الشُّرَكَاءُ ﴿لَهُم﴾ لِلْكُفَّارِ ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ٱلْفَاسِدِ ﴿مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كَالشِّرْكِ وَإِنْكَارِ ٱلْبَعْثِ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أَيِ: ٱلْقَضَاءُ ٱلسَّابِقُ، بِأَنَّ ٱلْجَزَاءَ فِي يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِالتَّعْذِيبِ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٱلْكَافِرِينَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خَائِفِينَ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ فِي ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلسَّيِّئَاتِ، أَنْ يُجَازَوْا عَلَيْهَا ﴿وَهُوَ﴾ أَيِ: ٱلْجَزَاءُ عَلَيْهَا ﴿وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ أَنْزَهِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ دُونَهُمْ[1] ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ﴾ مِنَ «ٱلْبِشَارَةِ» مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلًا، بِهِ ﴿ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ ٱلرِّسَالَةِ ﴿أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ اِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيْ: لَكِنْ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا قَرَابَتِي ٱلَّتِي هِيَ قَرَابَتُكُمْ أَيْضًا، فَإِنَّ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَرَابَةً[2] ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ﴾ يَكْتَسِبْ ﴿حَسَنَةً﴾ طَاعَةً ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ بِتَضْعِيفِهَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلذُّنُوبِ ﴿شَكُورٌ ٢٣﴾ لِلْقَلِيلِ فَيُضَاعِفُهُ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بِنِسْبَةِ ٱلْقُرْآنِ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ﴾ يَرْبِطْ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ بِهَذَا ٱلْقَوْلِ وَغَيْرِهِ،

---

(١) جمع روضة، قال أبو حيان: اللغة الكثيرة تسكين الواو، ولغة هذيل فتحها والروضة الموضع النزه الكثير الخضرة، وروضة الجنة أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا أحسن أمكنتها، وفيه تنبيه على أن عصاة المسلمين من أهل الجنة؛ لأنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في روضات الجنات وهي البقاع الشريفة من الجنة، والبقاع التي دون تلك الأوصاف لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات. [صديق حسن (١٢/ ٢٩٥)].

(٢) فيه خمسة أوجه: أحدها: معناه ألا تؤذوني في نفسي لقرابتي منكم، وهذا لقريش خاصة لأنه لم يكن بطن من قريش إلا بينهم وبين رسول الله ﷺ قرابة، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو مالك. الثاني: معناه إلا أن تؤدوا قرابتي، وهذا قول علي بن الحسين وعمرو بن شعيب والسدي. الثالث: معناه إلا أن توادوني وتؤازروني كما توادون وتؤازرون قرابتكم، قاله ابن زيد. الرابع: معناه إلا أن تتوددوا وتتقربوا إلى الله بالطاعة والعمل الصالح، قاله الحسن، وقتادة. الخامس: معناه إلا أن تودوا قرابتكم وتصلوا أرحامكم، قاله عبد الله بن القاسم. [الماوردي (٥/ ٢٠٢)]. والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري رحمه الله ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرا وحسبا ونسبا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين. [ابن كثير (٧/ ٢٠١)].

وَقَدْ فَعَلَ(١) ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ اَلَّذِي قَالُوهُ ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ يُثْبِتُهُ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ اَلْمُنَزَّلَةِ عَلَى نَبِيِّهِ(٢) ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ بِمَا فِي اَلْقُلُوبِ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ اَلْمُتَابِ عَنْهَا ﴿وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُجِيبُهُمْ إِلَى مَا يَسْأَلُونَ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ * ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ جَمِيعِهِمْ ﴿لَبَغَوْاْ﴾ جَمِيعُهُمْ، أَيْ: طَغَوْا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَضِدِّهِ، مِنَ اَلْأَرْزَاقِ ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ﴾ فَيَبْسُطُهَا لِبَعْضِ عِبَادِهِ دُونَ بَعْضٍ، وَيَنْشَأُ عَنِ اَلْبَسْطِ اَلْبَغْيُ ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ اَلْمَطَرَ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ يَئِسُوا مِنْ نُزُولِهِ ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ﴾ يَبْسُطُ مَطَرَهُ ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ اَلْمُحْسِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ اَلْمَحْمُودُ عِنْدَهُمْ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَ﴾ خَلْقُ ﴿مَا بَثَّ﴾ فَرَّقَ وَنَشَرَ ﴿فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ هِيَ مَا يَدِبُّ عَلَى اَلْأَرْضِ مِنَ اَلنَّاسِ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ لِلْحَشْرِ ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ فِي اَلضَّمِيرِ تَغْلِيبُ اَلْعَاقِلِ عَلَى غَيْرِهِ. ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ بَلِيَّةٍ وَشِدَّةٍ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أَيْ: كَسَبْتُمْ مِنَ اَلذُّنُوبِ، وَعَبَّرَ بِالْأَيْدِي لِأَنَّ أَكْثَرَ اَلْأَفْعَالِ تُزَاوَلُ بِهَا ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ مِنْهَا فَلَا يُجَازِي عَلَيْهِ، وَهُوَ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ اَلْجَزَاءَ فِي اَلْآخِرَةِ، وَأَمَّا غَيْرُ اَلْمُذْنِبِينَ فَمَا يُصِيبُهُمْ فِي اَلدُّنْيَا؛ لِرَفْعِ دَرَجَاتِهِمْ فِي اَلْآخِرَةِ. ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ يَا مُشْرِكِينَ ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ اَللهَ هَرَبًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِۖ﴾ فَتَفُوتُونَهُ ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ يَدْفَعُ عَذَابَهُ عَنْكُمْ. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ اَلسُّفُنُ ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ كَالْجِبَالِ فِي اَلْعِظَمِ. ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ﴾ يَصِرْنَ ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثَوَابِتَ لَا تَجْرِي ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ هُوَ اَلْمُؤْمِنُ يَصْبِرُ فِي اَلشِّدَّةِ وَيَشْكُرُ فِي اَلرَّخَاءِ. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿يُسْكِنِ﴾، أَيْ: يُغْرِقْهُنَّ بِعَصْفِ اَلرِّيحِ بِأَهْلِهِنَّ ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ أَيْ: أَهْلُهُنَّ مِنَ اَلذُّنُوبِ ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) للمفسرين في بيان هذا التفريع وترتبه على ما قبله أفهام عديدة لا يخلو معظمها عن تكلف وضعف اقتناع. والوجه في بيانه: تقدير: فكيف يكون الافتراء منك على الله والله لا يقر أحدا أن يكذب عليه فلو شاء لختم على قلبك، أي: سلبك العقل الذي يفكر في الكذب فتفحم عن الكلام فلا تستطيع أن تتقول عليه، أي: وليس ثمة حائل يحول دون مشيئة الله ذلك لو افتريت عليه، فيكون الشرط كناية عن انتفاء الافتراء لأن الله لا يقر من يكذب عليه كلاما، فحصل بهذا النظم إيجاز بديع، وتكون الآية قريبا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. [ابن عاشور (٢٥/ ٨٦)].

(٢) أي يحق الإسلام بما أنزله من القرآن وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم. وأعلى كلمة الإسلام. [الخازن (٤/ ٩٩)].

مِنْهَا فَلَا يُغْرِقُ أَهْلَهُ. ﴿وَيَعْلَمَ﴾ بِالرَّفْعِ مُسْتَأْنَفٌ، وَبِالنَّصْبِ مَعْطُوفٌ عَلَى تَعْلِيلٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: يُغْرِقُهُمْ لِيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ، وَيَعْلَمَ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥﴾ مَهْرَبٍ مِنَ الْعَذَابِ، وَجُمْلَةُ النَّفْيِ سَدَّتْ مَسَدَّ مَفْعُولَيْ ﴿يَعْلَمَ﴾ وَالنَّفْيُ مُعَلِّقٌ عَنِ الْعَمَلِ. ﴿فَمَآ أُوتِيتُم﴾ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ مِنْ أَثَاثِ الدُّنْيَا ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَزُولُ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦﴾. وَيُعْطَفُ عَلَيْهِمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ مُوجِبَاتِ الْحُدُودِ، مِنْ عَطْفِ الْبَعْضِ عَلَى الْكُلِّ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧﴾ يَتَجَاوَزُونَ. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَدَامُوهَا(١) ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الَّذِي يَبْدُو لَهُمْ ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يَتَشَاوَرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْجَلُونَ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ ﴿يُنفِقُونَ ۝٣٨﴾ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَمَنْ ذُكِرَ صِنْفٌ. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ﴾ الظُّلْمُ ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ صِنْفٌ، أَيْ: يَنْتَقِمُونَ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ بِمِثْلِ ظُلْمِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا﴾ سُمِّيَتِ الثَّانِيَةُ سَيِّئَةً لِمُشَابَهَتِهَا لِلْأُولَى فِي الصُّورَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِيمَا يُقْتَصُّ فِيهِ مِنَ الْجِرَاحَاتِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: وَإِذَا قَالَ لَهُ: أَخْزَاكَ اللهُ، فَيُجِيبُهُ: أَخْزَاكَ اللهُ ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عَنْ ظَالِمِهِ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ الْوُدَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْفُوِّ عَنْهُ ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: إِنَّ اللهَ يَأْجُرُهُ لَا مَحَالَةَ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ أَيِ: الْبَادِئِينَ بِالظُّلْمِ فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمْ عِقَابُهُ. ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أَيْ: ظُلْمِ الظَّالِمِ إِيَّاهُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ مُؤَاخَذَةٍ. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ﴾ يَعْمَلُونَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بِالْمَعَاصِي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ فَلَمْ يَنْتَصِرْ ﴿وَغَفَرَ﴾ تَجَاوَزَ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصَّبْرَ وَالتَّجَاوُزَ ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ أَيْ: مَعْزُومَاتِهَا، بِمَعْنَى: الْمَطْلُوبَاتِ شَرْعًا. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أَيْ: أَحَدٍ يَلِي هِدَايَتَهُ بَعْدَ إِضْلَالِ اللهِ إِيَّاهُ ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدّٖ﴾ إِلَى الدُّنْيَا ﴿مِّن سَبِيلٖ ۝٤٤﴾ طَرِيقٍ. ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أَيِ: النَّارِ ﴿خَٰشِعِينَ﴾ خَائِفِينَ مُتَوَاضِعِينَ ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ﴾ إِلَيْهَا ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيّٖ﴾ ضَعِيفِ النَّظَرِ مُسَارَقَةً، وَ﴿مِن﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ، أَوْ بِمَعْنَى: الْبَاءِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ

---

(١) ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أتوا بها مستقيمة على الوجه الذي طلب منهم؛ لأن هناك فرقًا بين إقامة الصلاة وبين إدامة الصلاة، نعم إدامتها من إقامتها لا شك، ولكن ليست الإقامة هي الإدامة، إذن الإقامة معناه أن يأتي بالصلاة مستقيمة على الوجه المطلوب. [ابن عثيمين تفسير الشورى (ص:٢٨٦)].

﴿أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بِتَخْلِيدِهِمْ فِي اَلنَّارِ، وَعَدَمِ وُصُولِهِمْ إِلَى اَلْحُورِ اَلْمُعَدَّةِ لَهُمْ فِي اَلْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا[1]، وَالْمَوْصُولُ خَبَرُ ﴿إِنَّ﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اَلْكَافِرِينَ ﴿فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ٤٥﴾ دَائِمٍ، هُوَ مِنْ مَقُولِ اَللهِ تَعَالَى. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ يَدْفَعُ عَذَابَهُ عَنْهُمْ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾ طَرِيقٍ، إِلَى اَلْحَقِّ فِي اَلدُّنْيَا، وَإِلَى اَلْجَنَّةِ فِي اَلْآخِرَةِ. ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أَجِيبُوهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ هُوَ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: أَنَّهُ إِذَا أَتَى بِهِ لَا يَرُدُّهُ ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ تَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ٤٧﴾ إِنْكَارٍ لِذُنُوبِكُمْ. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عَنِ اَلْإِجَابَةِ ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تَحْفَظُ أَعْمَالَهُمْ بِأَنْ تُوَافِقَ اَلْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ وَهَذَا قَبْلَ اَلْأَمْرِ بِالْجِهَادِ[2] ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً كَالْغِنَى وَالصِّحَّةِ ﴿فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ اَلضَّمِيرُ لِلْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِ اَلْجِنْسِ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ بَلَاءٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ: قَدَّمُوهُ، وَعَبَّرَ بِالْأَيْدِي لِأَنَّ أَكْثَرَ اَلْأَفْعَالِ تُزَاوَلُ بِهَا ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ٤٨﴾ لِلنِّعْمَةِ[3]. ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مِنَ اَلْأَوْلَادِ ﴿إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ أَيْ: يَجْعَلُهُمْ ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فَلَا يَلِدُ وَلَا يُولَدُ لَهُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ﴾ بِمَا يَخْلُقُ ﴿قَدِيرٌ ٥٠﴾ عَلَى مَا يَشَاءُ. ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا﴾ أَنْ يُوحِيَ إِلَيْهِ ﴿وَحْيًا﴾ فِي اَلْمَنَامِ أَوْ بِإِلْهَامٍ ﴿أَوْ﴾ إِلَّا ﴿مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ بِأَنْ يُسْمِعَهُ كَلَامَهُ وَلَا يَرَاهُ، كَمَا وَقَعَ لِمُوسَى عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ ﴿أَوْ﴾ إِلَّا أَنْ ﴿يُرْسِلَ

---

(١) أما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذبين بها، وأما خسرانهم لأهليهم فلأنهم إن كانوا معهم في النار فلا ينتفعون بهم وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينهم وبينهم، وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين. [الشوكاني (٤/ ٦٢٢)].

(٢) الآية على كلام المؤلف منسوخة ... والصحيح أنها لم تنسخ، والبلاغ واجب عليه ﷺ حتى بعد الأمر بالجهاد، ولا يتنافيان، لا ينافي أن يكون عليه البلاغ وأن يكون مأمورًا بالجهاد. ولكن من حكمة الله عز وجل أن الله لم يفرض الجهاد إلا حين قويت الأمة الإسلامية، لم يفرض الجهاد في مكة، وإنما فرضه في المدينة حين صار للأمة الإسلامية دولة مستقلة تستطيع أن تجاهد، فهذا من الحكمة، ويعبر عنه أنه من باب التدرج في التشريع، ومن باب الحكمة في التشريع. [ابن عثيمين تفسير الشورى (ص:٣٣٠)].

(٣) أي: بليغ الستر للنعم نسَّاء له، ينسى بأول صدمة من النقمة جميع ما تقدم له من النعم، ولا يعرف إلا الحالة الراهنة، فإن كان في نعمه أشر وبطر، وإن كان في نقمه أيس وقنط، وهذا حال الجنس من حيث هو، ومن وفقه الله جنبه ذلك كما قال ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا الْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». أخرجه مسلم (٢٩٩٩). [البقاعي (٧/ ٣٥١)].

﴿رَسُولًا﴾ مَلَكًا كَجِبْرِيلَ(١) ﴿فَيُوحِىَ﴾ ٱلرَّسُولُ إِلَى ٱلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ، أَيْ: يُكَلِّمُهُ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أَيِ: ٱللهِ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ ٱللهُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ عَنْ صِفَاتِ ٱلْمُحْدَثِينَ(٢) ﴿حَكِيمٌ ۝٥١﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ إِيحَائِنَا إِلَى غَيْرِكَ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿رُوحًا﴾ هُوَ ٱلْقُرْآنُ بِهِ تَحْيَا ٱلْقُلُوبُ ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ ٱلَّذِي نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ تَعْرِفُ قَبْلَ ٱلْوَحْيِ إِلَيْكَ ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ ٱلْقُرْآنُ ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أَيْ: شَرَائِعُهُ وَمَعَالِمُهُ(٣)، وَٱلنَّفْيُ مُعَلِّقٌ لِلْفِعْلِ عَنِ ٱلْعَمَلِ، وَمَا بَعْدَهُ سَدَّ مَسَدَّ ٱلْمَفْعُولَيْنِ ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أَيِ: ٱلرُّوحَ، أَوِ ٱلْكِتَابَ ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ تَدْعُو بِٱلْوَحْيِ إِلَيْكَ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ دِينِ ٱلْإِسْلَامِ(٤). ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ تَرْجِعُ.

---

(١) هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئًا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: إِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ». أخرجه البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٠٤). وقوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا» الحديث. أخرجه الترمذي (٣٠١٠). وكان أبوه قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم السلام. [ابن كثير (٧/ ٢١٧)].

(٢) هذا التفسير يوهم أن كل صفة للمخلوق لا تثبت للخالق؛ فالسمع لا يثبت للخالق، والبصر، وكل صفة للمخلوق لا تثبت للخالق، ولذلك لو قال المؤلف رحمه الله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ عن مماثلة المخلوقين وصفات النقص لكان أهون، مع أننا نقول: إنه علي بذاته وصفاته؛ فذاته فوق كل شيء، وصفاته هي المثل الأعلى، هذا هو الصواب. [ابن عثيمين تفسير الشورى (ص:٣٥١)].

(٣) أي: ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذي هو القرآن العظيم، وما كنت تدري ما الإيمان الذي هو تفاصيل هذا الدين الإسلامي، حتى علمتكه. ومعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد. فهو ﷺ ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة، ولا صوم رمضان، ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة، ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، إلى غير ذلك من الآيات. [الشنقيطي (٧/ ٢١٤)].

(٤) شبه الكتاب بالنور لمناسبة الهدي به لأن الإيمان والهدى والعلم تشبه بالنور، والضلال والجهل والكفر تشبه بالظلمة، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. [ابن عاشور (٢٥/ ١٥٤)].

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ إِلَّا ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ الْآيَةَ، تِسْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ[١]. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿ٱلْمُبِينِ ٢﴾ الْمُظْهِرِ طَرِيقَ الْهُدَى، وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أَوْجَدْنَا الْكِتَابَ[٢] ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿تَعْقِلُونَ ٣﴾ تَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ مُثْبَتٌ ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أَصْلِ الْكُتُبِ، أَيِ: اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ[٣] ﴿لَدَيْنَا﴾ بَدَلَ عِنْدَنَا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ عَلَى الْكُتُبِ قَبْلَهُ ﴿حَكِيمٌ ٤﴾ ذُو حِكْمَةٍ بَالِغَةٍ. ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ نُمْسِكُ ﴿عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿صَفْحًا﴾ إِمْسَاكًا، فَلَا تُؤْمَرُونَ وَلَا تُنْهَوْنَ لِأَجْلِ ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ٥﴾ مُشْرِكِينَ؟ لَا. ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ٦ وَمَا﴾ كَانَ ﴿يَأْتِيهِم﴾ أَتَاهُمْ ﴿مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٧﴾ كَاسْتِهْزَاءِ قَوْمِكَ بِكَ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ. ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم﴾ مِنْ قَوْمِكَ ﴿بَطْشًا﴾ قُوَّةً ﴿وَمَضَىٰ﴾ سَبَقَ فِي آيَاتٍ ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨﴾ صِفَتُهُمْ فِي الْإِهْلَاكِ فَعَاقِبَةُ قَوْمِكَ كَذَلِكَ. ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ، وَوَاوُ الضَّمِيرِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ٩﴾ آخِرُ جَوَابِهِمْ، أَيِ: اللهُ ذُو الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ. زَادَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فِرَاشًا كَالْمَهْدِ لِلصَّبِيِّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طُرُقًا ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠﴾ إِلَى مَقَاصِدِكُمْ فِي أَسْفَارِكُمْ. ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أَيْ: بِقَدْرِ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُنَزِّلْهُ طُوفَانًا ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أَحْيَيْنَا ﴿بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ هَذَا الْإِحْيَاءِ ﴿تُخْرَجُونَ ١١﴾

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) معنى جعلناه أي: سميناه ووصفناه، ولذلك تعدى إلى مفعولين. وقال السدي: المعنى: أنزلناه قرآنا. وقال مجاهد: قلناه. وقال سفيان الثوري: بيناه عربيا. وكذا قال الزجاج، أي: أنزل بلسان العرب؛ لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه. [الشوكاني (٤/ ٦٢٦)].

(٣) سُمِّي أُمًّا؛ لأنه مرجع لجميع ما يُكتَب من بعده، والكتابة أنواع؛ الكتابة العظمى العامة الشاملة: ما كتب في اللوح المحفوظ. ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، والظرف هنا حال من ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ يعني أن الذي لدى الله في هذه الآية هو أم الكتاب؛ أي: اللوح المحفوظ عند الله عز وجل، وهو محفوظ من التغيير والتبديل؛ لأنه أم الكتاب. وأما الكتب التي جاءت بها الملائكة ففيها تغيير وتبديل كما قال عز وجل: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]. [ابن عثيمين تفسير الزخرف (ص:٤٣)].

مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً. ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ اَلْأَصْنَافَ ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ اَلسُّفُنِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كَالْإِبِلِ ﴿مَا تَرْكَبُونَ ١٢﴾ حُذِفَ اَلْعَائِدُ اِخْتِصَارًا، وَهُوَ مَجْرُورٌ فِي اَلْأَوَّلِ، أَيْ: «فِيهِ»، مَنْصُوبٌ فِي اَلثَّانِي. ﴿لِتَسْتَوُۥا۟﴾ لِتَسْتَقِرُّوا ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ذَكَّرَ اَلضَّمِيرَ وَجَمَعَ اَلظَّهْرَ نَظَرًا لِلَفْظِ: ﴿مَا﴾ وَمَعْنَاهَا ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ١٣﴾ مُطِيقِينَ. ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ لَمُنْصَرِفُونَ. ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ حَيْثُ قَالُوا: «اَلْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ»؛ لِأَنَّ اَلْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ اَلْوَالِدِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ عِبَادِ اَللهِ تَعَالَى(١) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اَلْقَائِلَ مَا تَقَدَّمَ ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ بَيِّنٌ ظَاهِرُ اَلْكُفْرِ. ﴿أَمِ﴾ بِمَعْنَى هَمْزَةِ اَلْإِنْكَارِ، وَالْقَوْلُ مُقَدَّرٌ، أَيْ: أَتَقُولُونَ ﴿ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لِنَفْسِهِ ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ أَخْلَصَكُمْ ﴿بِٱلْبَنِينَ ١٦﴾ اَللَّازِمِ مِنْ قَوْلِكُمُ اَلسَّابِقِ، فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ اَلْمُنْكَرِ. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ جَعَلَ لَهُ شَبَهًا بِنِسْبَةِ اَلْبَنَاتِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ اَلْوَلَدَ يُشْبِهُ اَلْوَالِدَ، اَلْمَعْنَى: إِذَا أُخْبِرَ أَحَدُهُمْ بِالْبِنْتِ تُولَدُ لَهُ ﴿ظَلَّ﴾ صَارَ ﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ مُتَغَيِّرًا تَغَيُّرَ مُغْتَمٍّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ مُمْتَلِئٌ غَمًّا، فَكَيْفَ يَنْسُبُ اَلْبَنَاتِ إِلَيْهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ. ﴿أَوَ﴾ هَمْزَةُ اَلْإِنْكَارِ وَوَاوُ اَلْعَطْفِ بِجُمْلَةٍ، أَيْ: يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ﴿مَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ اَلزِّينَةِ ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾ مُظْهِرِ اَلْحُجَّةِ لِضَعْفِهِ عَنْهَا بِالْأُنُوثَةِ(٢). ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟﴾ أَحَضَرُوا ﴿خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ بِأَنَّهُمْ إِنَاثٌ ﴿وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾ عَنْهَا فِي اَلْآخِرَةِ، فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا اَلْعِقَابُ. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أَيِ: اَلْمَلَائِكَةَ، فَعِبَادَتُنَا إِيَّاهُمْ بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ رَاضٍ بِهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾

---

(١) يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولدا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفوا أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه: منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة. ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد. [السعدي (ص:٧٦٣)].

(٢) احتج سبحانه على هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات، وإذا بشر بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر منه السواد على وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتا، فكيف تجعلونها لي؟! كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]. ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه له وأنه أنقص الجنسين ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية وأضعفهما بيانا، فقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ فأشار بنشأتهن في الحلية إلى أنهن ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها، وأنهن عييات فلا يبن عن حجتهن وقت الخصومة. [الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٢٤٥)].

اَلْمَقُولِ مِنَ اَلرِّضَا بِعِبَادَتِهَا ﴿مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠﴾ يَكْذِبُونَ فِيهِ، فَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمُ اَلْعِقَابُ بِهِ(١). ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اَللهِ ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ٢١﴾ أَيْ: لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ. ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا﴾ مَاشُونَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢﴾ بِهِمْ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرَ اَللهِ.

---

(١) في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ هو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح؛ لأن الله لو شاء أن لا يعبدوهم ما عبدوهم ... وجه الإشكال، أن الله صرح بكذبهم في هذه الدعوى التي ظاهرها حق، قال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ... والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ أن الله لما كان قادرا على منعهم من الشرك، وهدايتهم إلى الإيمان، ولم يمنعهم من الشرك دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك في زعمهم. قالوا: لأنه لو لم يكن راضيا به لصرفنا عنه، فتكذيب الله لهم في الآيات المذكورة منصب على دعواهم أنه راض به، والله جل وعلا يكذب هذه قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ﴾ [الزمر: ٧]. فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية تستلزم الرضى، وهو زعم باطل، وهو الذي كذبهم الله فيه. وقد أشار تعالى إلى هذه حيث قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: آتيناهم كتابا يدل على أنا راضون منهم بذلك الكفر، ثم أضرب عن هذا إضراب إبطال مبينا أن مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى، وذلك في قوله: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: شريعة وملة، وهي الكفر وعبادة الأوثان ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ فقوله عنهم: ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ هو مصب التكذيب؛ لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال. فالاهتداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى ... قال تعالى في آية النحل بعد ذكره دعواهم المذكورة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦]. فأوضح في هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضيا بكفرهم، وأنه بعث في كل أمة رسولا، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده، ويجتنبوا الطاغوت، أي يتباعدوا عن عبادة كل معبود سواه. وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة، أي: ثبت عليه الكفر والشقاء. وقال تعالى في آية الأنعام: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية، هو الحجة البالغة على خلقه، يعني فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق، فهو فضل منا ورحمة. ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منا وحكمة؛ لأنه لم يكن له ذلك دينا علينا، ولا واجبا مستحقا يستحقه علينا، بل إن أعطينا ذلك ففضل، وإن لم نعطه فعدل. وحاصل هذا أن الله تبارك وتعالى قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق الخلق، وعلم أن قوما صائرون إلى الشقاء وقوما صائرون إلى السعادة، فريق في الجنة وفريق في السعير. وأقام الحجة على الجميع ببعث الرسل وتأييدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبسا، فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك. ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرتهم وإراداتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه من أعمال الخير المستوجبة للسعادة، وأعمال الشر المستوجبة للشقاء. فأتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا، طائعين مختارين، غير مجبورين ولا مقهورين ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]. [الشنقيطي (٧/ ٢٣٦)].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ مُنَعَّمُوهَا مِثْلَ قَوْلِ قَوْمِكَ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ مُتبعُونَ. ﴿۞قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿أَ﴾ تتبعُونَ ذَلِكَ ﴿وَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أَنْتَ وَمَنْ قَبْلَكَ ﴿كَٰفِرُونَ ٢٤﴾. قَالَ تَعَالَى تخويفًا لَهُمْ: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ﴾ أَيْ: مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ قَبْلَكَ ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥ وَ﴾ وَاذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ﴾ بَرِيءٌ ﴿مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقَنِي ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾ يُرْشِدُنِي لِدِينِه. ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أَيْ: كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ الْمَفْهُومَةَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ فِي ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مَنْ يُوَحِّدُ اللهَ ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِمْ. ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ وَلَمْ أُعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الْقُرْآنُ ﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ٢٩﴾ مُظْهِرٌ لَهُمُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ. ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ الْقُرْآنُ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠ وَقَالُواْ لَوۡلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ مِنْ أَيَّةٍ مِنْهُمَا ﴿عَظِيمٍ ٣١﴾ أَيِ: الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بِمَكَّةَ، أَوْ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ بِالطَّائِفِ[1]. ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ النُّبُوَّةَ[2] ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ فَجَعَلْنَا بَعْضَهُمْ غَنِيًّا وَبَعْضَهُمْ فَقِيرًا ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ بِالْغِنَى ﴿فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم﴾ الْغَنِيُّ ﴿بَعۡضٗا﴾ الْفَقِيرَ ﴿سُخۡرِيّٗاۗ﴾ مُسَخَّرًا فِي الْعَمَلِ لَهُ بِالْأُجْرَةِ، وَالْيَاءُ لِلنَّسَبِ، وَقُرِئَ بِكَسْرِ السِّينِ[3] ﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ﴾ أَيِ: الْجَنَّةُ[4] ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾ فِي الدُّنْيَا. ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ عَلَى الْكُفْرِ ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿لِمَن﴾ ﴿سُقُفٗا﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِ الْقَافِ وَبِضَمِّهِمَا جَمْعًا ﴿مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ﴾ كَالدَّرَجِ مِنْ فِضَّةٍ ﴿عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣﴾ يَعْلُونَ إِلَى السَّطْحِ ﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ مِنْ فِضَّةٍ ﴿وَ﴾ جَعَلْنَا لَهُمْ ﴿سُرُرًا﴾ مِنْ فِضَّةٍ جَمْعُ «سَرِيرٍ» ﴿عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخۡرُفٗاۚ﴾ ذَهَبًا، الْمَعْنَى: لَوْلَا خَوْفُ الْكُفْرِ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنْ إِعْطَاءِ الْكَافِرِ مَا ذُكِرَ لَأَعْطَيْنَاهُ ذَلِكَ لِقِلَّةِ

---

(١) أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم في أعينهم من القريتين؟ والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان. [ابن كثير (٧/ ٢٢٦)].

(٢) أي: أهم الخزان لرحمة الله، وبيدهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟ [السعدي (ص:٧٦٤)].

(٣) قراءة شاذة.

(٤) ينبغي أن يقال: رحمة الله أعم من هذا، حتى رحمة الله تعالى للعبد بهدايته للإسلام والإيمان خير مما يجمعون، فالأَوْلى التعميم دون التخصيص. [ابن عثيمين تفسير الزخرف (ص:١٣٣)].

خطَرِ الدُّنْيَا عِنْدَنَا، وَعَدَمِ حَظِّهِ فِي الْآخِرَةِ فِي النَّعِيمِ ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا﴾ بِالتَّخْفِيفِ فَـ «مَا» زَائِدَةٌ، وَبِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى «إِلَّا» فَـ «إِنْ» نَافِيَةٌ ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَزُولُ ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ الْجَنَّةُ ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥ وَمَن يَعْشُ﴾ يُعْرِضْ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿نُقَيِّضْ﴾ نُسَبِّبْ ﴿لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ لَا يُفَارِقُهُ[1]. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَيِ: الشَّيَاطِينَ ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أَيِ: الْعَاشِينَ ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ: طَرِيقِ الْهُدَى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧﴾ فِي الْجَمْعِ رِعَايَةُ مَعْنَى ﴿مَن﴾. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ الْعَاشِي بِقَرِينِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿قَالَ﴾ لَهُ: ﴿يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيْ: مِثْلَ بُعْدِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨﴾ أَنْتَ لِي. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ أَيِ: الْعَاشِينَ تَمَنِّيكُمْ وَنَدَمُكُمْ ﴿ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ أَيْ: تَبَيَّنَ لَكُمْ ظُلْمُكُمْ بِالْإِشْرَاكِ فِي الدُّنْيَا ﴿أَنَّكُمْ﴾ مَعَ قُرَنَائِكُمْ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾ عِلَّةٌ بِتَقْدِيرِ اللَّامِ لِعَدَمِ النَّفْعِ، وَ﴿إِذ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٠﴾ بَيِّنٍ، أَيْ: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «إِنِ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بِأَنْ نُمِيتَكَ قَبْلَ تَعْذِيبِهِمْ ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ فِي حَيَاتِكَ ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم﴾ عَلَى عَذَابِهِمْ ﴿مُّقْتَدِرُونَ ۝٤٢﴾ قَادِرُونَ. ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ[2] ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ لَشَرَفٌ ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ لِنُزُولِهِ بِلُغَتِهِمْ[3] ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّهِ. ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ

---

(١) يعشُ من قولك: عَشِيَ الرجل إذا أظلم بصره، والمراد به هنا ظلمة القلب والبصيرة، وقال الزمخشري: يَعْشَى بفتح الشين إذا حصلت الآفة في عينيه، ويعشو بضم الشين إذا نظر نظرة الأعشى، وليس به آفة، فالفرق بينهما كالفرق بين قولك: عمي وتعامى، فمعنى القراءة بالضم: يتجاهل ويجحد معرفته بالحق، والظاهر أن ذلك عبارة عن الغفلة وإهمال النظر، و ﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قال الزمخشري يريد به القرآن، وقال ابن عطية: يريد به ما ذكر الله به عباده من المواعظ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، ويحتمل عندي أن يريد ذكر العبد لله، [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٥٨)]. ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ أي: نتح له شيطانا ليستولي عليه استيلاء القيض على البيض وهو القشر الأعلى ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ دائما لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وهذا عقاب على الكفر بالختم وعدم الفلاح. [الآلوسي (١٣/ ٨١)].

(٢) تسلية له ﷺ وأمر له ﷺ أو لأمته بالدوام على التمسك بالآيات والعمل بها، والفاء في جواب شرط مقدر، أي: إذا كان أحد هذين الأمرين واقعا لا محالة فاستمسك بالذي أوحيناه إليك. [الآلوسي (١٣/ ٨٤)]. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

(٣) الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للقرآن أو للإسلام، والذكر هنا بمعنى الشرف، وقوم النبي ﷺ هم قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وصارت فيهم الخلافة والملك، وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما نزلت هذه

﴿أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، بِأَنْ جَمَعَ لَهُ الرُّسُلَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أُمَمُ مِنْ أَيِّ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَلَمْ يَسْأَلْ، عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأَمْرِ بِالسُّؤَالِ التَّقْرِيرُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ رَسُولٌ مِنَ اللهِ وَلَا كِتَابٌ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ[1]. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أَيِ: الْقِبْطِ ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى رِسَالَتِهِ ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ مِنْ آيَاتِ الْعَذَابِ، كَالطُّوفَانِ وَهُوَ مَاءٌ دَخَلَ بُيُوتَهُمْ وَوَصَلَ إِلَى حُلُوقِ الْجَالِسِينَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَالْجَرَادُ ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قَرِينَتِهَا الَّتِي قَبْلَهَا ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عَنِ الْكُفْرِ. ﴿وَقَالُوا۟﴾ لِمُوسَى لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ أَيِ: الْعَالِمُ الْكَامِلُ؛ لِأَنَّ السِّحْرَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ عَظِيمٌ[2] ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ مِنْ كَشْفِ الْعَذَابِ عَنَّا، إِنْ آمَنَّا ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أَيْ: مُؤْمِنُونَ. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ بِدُعَاءِ مُوسَى ﴿عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ، وَيُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ. ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ افْتِخَارًا ﴿فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مِنَ النِّيلِ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أَيْ: تَحْتَ قُصُورِي ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ عَظَمَتِي؟ ﴿أَمْ﴾ بَلْ تُبْصِرُونَ، وَحِينَئِذٍ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾ أَيْ: مُوسَى ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضَعِيفٌ حَقِيرٌ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ يُظْهِرُ كَلَامَهُ،

الآية علم رسول الله ﷺ أن الأمر بعده لقريش، ويحتمل أن يريد بالذكر التذكير والموعظة، فقومه على هذا أمته كلهم وكل من بعث إليهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٦٠)]. ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠].

(١) المقصود من هذا الأمر هو إقامة الحجة على المشركين الذين يعبدون مع الله إلهًا آخر؛ يقول للنبي ﷺ: اسأل جميع الرسل السابقين؛ هل جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون حتى يقوم هؤلاء المشركون فيعبدون مع الله غيره؟ ففيه إقامة الحجة على المشركين؛ أن جميع الرسل السابقين ليس فيهم مَنْ يُحِلُّ الإشراك بالله عز وجل. فإن قال قائل: كيف يسألُ مَنْ أرسلَ الله من الرسل قبله وهو لم يدركهم؟ فالجواب أن هذا من أساليب اللغة العربية، والمعنى: إنك إنْ تسأل على الفرض، والتقدير: فلن تجاب بـ«نَعَم»، بل سيكون الجواب «لا»، فهو مِن باب التحدي لهؤلاء المشركين الذين يَدَّعون أنهم على حق. [ابن عثيمين تفسير الزخرف (ص:١٦٨)].

(٢) مخاطبتهم موسى بوصف الساحر مخاطبة تعظيم تزلفا إليه لأن الساحر عندهم كان هو العالم وكانت علوم علمائهم سحرية، أي: ذات أسباب خفية لا يعرفها غيرهم وغير أتباعهم، ألا ترى إلى قول ملأ فرعون له: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٧] ... وفي آية الأعراف قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، ولا تنافي ما هنا لأن الخطاب خطاب إلحاح فهو يتكرر ويعاد بطرق مختلفة. [ابن عاشور (٢٥/ ٢٢٧)].

لِلُثْغَتِهِ بِالْجَمْرَةِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا فِي صِغَرِهِ[1]. ﴿فَلَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾ إِنْ كَانَ صَادِقًا ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ جَمْعُ أَسْوِرَةٍ كَأَغْرِبَةٍ جَمْعُ «سِوَارٍ»، كَعَادَتِهِمْ فِيمَنْ يُسَوِّدُونَهُ أَنْ يُلْبِسُوهُ أَسْوِرَةَ ذَهَبٍ وَيُطَوِّقُونَهُ طَوْقَ ذَهَبٍ ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ مُتَتَابِعِينَ يَشْهَدُونَ بِصِدْقِهِ. ﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾ اِسْتَفَزَّ فِرْعَوْنُ[2] ﴿قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ فِيمَا يُرِيدُ مِنْ تَكْذِيبِ مُوسَى ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أَغْضَبُونَا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ جَمْعُ سَالِفٍ كَخَادِمٍ وَخَدَمٍ، أَيْ: سَابِقِينَ عِبْرَةً ﴿وَمَثَلًا لِّلْأَخِرِينَ ﴿٥٦﴾ *﴾ بَعْدَهُمْ يَتَمَثَّلُونَ بِحَالِهِمْ فَلَا يُقْدِمُونَ عَلَى مِثْلِ أَفْعَالِهِمْ. ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ جُعِلَ ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ حِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: «رَضِينَا أَنْ تَكُونَ آلِهَتُنَا مَعَ عِيسَى لِأَنَّهُ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ» ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿مِنْهُ﴾ مِنَ الْمَثَلِ ﴿يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ يَضِجُّونَ فَرَحًا بِمَا سَمِعُوا[3]. ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أَيْ: عِيسَى؟ فَنَرْضَى أَنْ تَكُونَ آلِهَتُنَا مَعَهُ ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أَيِ: الْمَثَلَ ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ خُصُومَةً بِالْبَاطِلِ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ «مَا» لِغَيْرِ الْعَاقِلِ، فَلَا يَتَنَاوَلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ شَدِيدُو الْخُصُومَةِ. ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا عِيسَى ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ بِوُجُودِهِ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ﴿مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ أَيْ: كَالْمَثَلِ لِغَرَابَتِهِ، يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى مَا يَشَاءُ. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ بَدَلَكُمْ ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بِأَنْ نُهْلِكَكُمْ. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أَيْ: عِيسَى ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ تُعْلَمُ بِنُزُولِهِ ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ تَشُكُّنَّ

---

(١) انظر التعليق على تفسير آية (٢٧) من سورة طه.

(٢) الخفة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتثاقل في اتباعه إلى التعجيل بالامتثال له كما يخف الشيء بعد التثاقل. والمعنى يرجع إلى أنه استخف عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدقوا موسى في نفوسهم لما رأوا آياته نزولا ورفعا. والمراد بـ «قومه» هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى هؤلاء هم الملأ الذين كانوا في صحبة فرعون. [ابن عاشور (٢٥/ ٢٣٣)].

(٣) قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة ابن الزبعري مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال ابن الزبعرى: خصمتك ورب الكعبة أليست النصارى يعبدون المسيح؟ واليهود عزيراً؟ وبنو مليح الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا به، وضحكوا وارتفعت أصواتهم، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآية المذكورة هنا، ولا يخفاك أن ما قاله ابن الزبعري مندفع من أصله، وباطل برمته فإن الله سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون، حتى يدخل في ذلك العقلاء كالمسيح وعزير والملائكة، قال الشهاب: ابن الزبعري هو عبد الله الصحابي المشهور، وهذه القصة على تقدير صحتها كانت قبل إسلامه. [صديق حسن (١٢/ ٣٦٥)].

فِيهَا، حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِلْجَزْمِ، وَوَاوُ الضَّمِيرِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿وَ﴾ وَقُلْ لَهُمْ: ﴿ٱتَّبِعُونِۚ﴾ عَلَى التَّوْحِيدِ ﴿هَٰذَا﴾ الَّذِي آمُرُكُمْ بِهِ ﴿صِرَٰطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُّسْتَقِيمٌ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ يَصْرِفَنَّكُمْ عَنْ دِينِ اللهِ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٦٢﴾ بَيِّنُ الْعَدَاوَةِ. ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ وَالشَّرَائِعِ ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بِالنُّبُوَّةِ وَشَرَائِعِ الْإِنْجِيلِ ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَغَيْرِهِ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَمْرَ الدِّينِ ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُّسْتَقِيمٌ ٦٤ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ﴾ فِي عِيسَى: أَهُوَ اللهُ أَوِ ابْنُ اللهِ أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؟ ﴿فَوَيْلٌ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كَفَرُوا بِمَا قَالُوهُ فِي عِيسَى ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾ مُؤْلِمٍ. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ، أَيْ: مَا يَنْتَظِرُونَ ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجْأَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦﴾ بِوَقْتِ مَجِيئِهَا قَبْلَهُ. ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ عَلَى الْمَعْصِيَةِ فِي الدُّنْيَا ﴿يَوْمَئِذٍۭ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ الْمُتَحَابِّينَ فِي اللهِ عَلَى طَاعَتِهِ فَإِنَّهُمْ أَصْدِقَاءُ. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نَعْتٌ لِـ «عِبَادِي» ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ٦٩ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ زَوْجَاتُكُمْ ﴿تُحْبَرُونَ ٧٠﴾ تُسَرُّونَ وَتُكْرَمُونَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ بِقِصَاعٍ ﴿مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍۖ﴾ جَمْعُ «كُوبٍ» وَهُوَ: إِنَاءٌ لَا عُرْوَةَ لَهُ، لِيَشْرَبَ الشَّارِبُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ تَلَذُّذًا ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ﴾ نَظَرًا ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا﴾ أَيْ: بَعْضَهَا ﴿تَأْكُلُونَ ٧٣﴾ وَكُلُّ مَا يُؤْكَلُ يُخْلَفُ بَدَلُهُ. ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ﴾ يُخَفَّفُ ﴿عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥﴾ سَاكِتُونَ سُكُوتَ يَأْسٍ. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ هُوَ خَازِنُ النَّارِ ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ﴾ لِيُمِتْنَا(١) ﴿قَالَ﴾ بَعْدَ أَلْفِ سَنَةٍ(٢): ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ مُقِيمُونَ فِي الْعَذَابِ دَائِمًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم﴾ أَيْ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ أَحْكَمُوا ﴿أَمْرًا﴾

---

(١) أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦]. [ابن كثير (٧/ ٢٤١)].

(٢) في مدة ما بين ندائهم وجوابه أربعة أقاويل: أحدها: أربعون سنة، قاله عبد الله بن عمرو. الثاني: ثمانون سنة، قاله السدي. الثالث: مائة سنة، قاله نوف. الرابع: ألف سنة، قاله ابن عباس؛ لأن بعد ما بين النداء والجواب أخزى لهم وأذل. [الماوردي (٥/ ٢٤٠)].

فِي كَيْدِ مُحَمَّدٍ اَلنَّبِيِّ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ مُحْكِمُونَ كَيْدَنَا فِي إِهْلَاكِهِمْ[1]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ مَا يُسِرُّونَ إِلَى غَيْرِهِمْ وَمَا يَجْهَرُونَ بِهِ بَيْنَهُمْ ﴿بَلَىٰ﴾ نَسْمَعُ ذَلِكَ ﴿وَرُسُلُنَا﴾ اَلْحَفَظَةُ ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عِنْدَهُمْ ﴿يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ ذَلِكَ. ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ فَرْضًا ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ لِلْوَلَدِ، لَكِنْ ثَبَتَ أَنْ لَا وَلَدَ لَهُ تَعَالَى، فَانْتَفَتْ عِبَادَتُهُ[2]. ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ اَلْكُرْسِيِّ[3] ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يَقُولُونَ مِنَ اَلْكَذِبِ بِنِسْبَةِ اَلْوَلَدِ إِلَيْهِ. ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ فِي بَاطِلِهِمْ ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ فِيهِ اَلْعَذَابَ، وَهُوَ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ هُوَ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَتَيْنِ وَإِسْقَاطِ اَلْأُولَى وَتَسْهِيلِهَا كَالْيَاءِ، أَيْ: مَعْبُودٌ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ وَكُلٌّ مِنَ اَلظَّرْفَيْنِ مُتَعَلِّقٌ بِمَا بَعْدَهُ[4] ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ بِمَصَالِحِهِمْ. ﴿وَتَبَارَكَ﴾ تَعَظَّمَ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مَتَى تَقُومُ ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ، أَيِ: اَلْكُفَّارُ ﴿مِن

---

(١) أي: فإنا محكمو نصره وحمايته، والإبرام: أن تجمع خيطين ثم تفتلهما فتلا متقنا، والبريم: خيط فيه لونان. [ابن عطية (٥/ ٦٥)]. كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

(٢) احتجاج ورد على الكفار، على تقدير قولهم، ومعناها: لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد... ولكن ليس للرحمن ولد، فلست بعابد إلا الله وحده، وهذا نوع من الأدلة يسمى دليل التلازم؛ لأنه علق عبادة الولد بوجوده، ووجوده محال فعبادته محال... [وهي] طريقة معروفة في البراهين والأدلة، وهو الذي عوَّل عليه الزمخشري، وقال الطبري: هو ملاطفة الخطاب ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقال ابن عطية: منه قوله تعالى في مخاطبة الكفار: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ [النحل: ٢٧] يعني: شركائي على قولكم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٦٤)].

(٣) انظر التعليق على تفسير آية (١٢٩) من سورة التوبة.

(٤) الجار والمجرور في الموضعين متعلق بـ «إله» لأنه بمعنى معبود، أو مستحق للعبادة والمعنى وهو الذي معبود في السماء ومعبود في الأرض، أو مستحق للعبادة في السماء والعبادة في الأرض وبما تقرر من أن المراد بـ «إله» معبود اندفع ما قيل هذا يقتضي تعدد الآلهة لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت؛ كقولك: أنت طالق وطالق وإيضاح الاندفاع أن الإله هنا بمعنى المعبود؛ وهو تعالى معبود فيهما والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفي التغاير فيها من أحد الطرفين؛ فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض، مع أن المعبود واحد، وفيه دلالة على اختصاصه باستحقاق الألوهية، فإن التقديم يدل على الاختصاص أفاده الكرخي. [صديق حسن (١٢/ ٣٧٩)]. كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿دُونِهِ﴾ أَيْ: مِنْ دُونِ اللهِ ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ لِأَحَدٍ ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ بِقُلُوبِهِمْ مَا شَهِدُوا بِهِ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَهُمْ عِيسَى وَعُزَيْرٌ وَالْمَلَائِكَةُ، فَإِنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ[١]. ﴿وَلَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ وَوَاوُ الضَّمِيرِ ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ يُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ.[٢] ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ أَيْ: قَوْلَ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، أَيْ: وَقَالَ ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱصْفَحْ﴾ أَعْرِضْ ﴿عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ مِنْكُمْ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِقِتَالِهِمْ[٣] ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، تَهْدِيدٌ لَهُمْ.

---

(١) أي: كل من دعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نطق بلسانه، مقرا بقلبه، عالما بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. [السعدي (ص:٧٧٠)]. [وقيل:] هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. [ابن كثير (٧/ ٢٤٣)].

(٢) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فإقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك. [السعدي (ص:٧٧٠)].

(٣) أي: أمري تسليم منكم، ومتاركة لكم، وقال الفراء إن سلام مرفوع بإضمار عليكم، قال عطاء: يريد مداراة حتى ينزل حكمي، ومعناه المتاركة كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، فليس في الآية مشروعية السلام على الكفار كما قيل، وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفح منسوخـًا بالسيف، وقيل: هي محكمة لم تنسخ. [الشوكاني (٤/ ٦٥٠)]. فالقتال في المحل الذي يجب فيه القتال والصفح عن الجهلة والإعراض عنهم وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك، والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٧/ ٣٣٦)].

سُورَةُ الدُّخَانِ

مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: إِلَّا ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ اَلْآيَةَ، وَهِيَ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ أَوْ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ[١]. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ الْمُظْهِرِ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، أَوْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ[٢]، نَزَلَ فِيهَا مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا[٣] ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ مُخَوِّفِينَ بِهِ. ﴿فِيهَا﴾ أَيْ: فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَوْ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ﴿يُفْرَقُ﴾ يُفْصَلُ ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ مُحْكَمٍ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ وَغَيْرِهِمَا الَّتِي تَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ[٤]. ﴿أَمْرًا﴾ فَرْقًا ﴿مِّنْ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ اَلرُّسُلَ مُحَمَّدًا وَمَنْ قَبْلَهُ. ﴿رَحْمَةً﴾ رَأْفَةً بِالْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ ﴿مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ بِأَفْعَالِهِمْ. ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ﴾ بِرَفْعِ ﴿رَبُّ﴾ خَبَرٌ ثَالِثٌ، وَبِجَرِّهِ بَدَلٌ مِنْ ﴿رَّبِّكَۚ﴾ ﴿إِن كُنتُم﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿مُّوقِنِينَ ۝٧﴾ بِأَنَّهُ تَعَالَى رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَأَيْقِنُوا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ مِنَ الْبَعْثِ ﴿يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ اِسْتِهْزَاءً بِكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: «اَللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»[٥]. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) هي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال: تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] ... ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روي عن عكرمة - فقد أبعد النجعة فإن نص القرآن أنها في رمضان. [ابن كثير (٧/ ٢٤٦)].

(٣) انظر التعليق على تفسير آية (١٨٥) من سورة البقرة.

(٤) أي: يفصل ويبين من قولهم فرقت الشيء أفرقه فرقًا، والأمر الحكيم المحكم المبرم الذي لا يحصل فيه تغيير ولا نقض، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت، وبسط وقبض، وخير وشر، ورزق وأجل، ونصر وهزيمة، وخصب وقحط، وغير ذلك من أقسام الحوادث وجزئياتها في أوقاتها وأماكنها، ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء، فيزدادون بذلك إيمانًا، كذا قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم. [صديق حسن (١٢/ ٣٨٩)].

(٥) عن مسروق قال: دخلت على عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم قال: إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه، فقال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»، فأصابتهم سنة حصت يعني كل شيء حتى كانوا يأكلون الميتة، فكان يقوم أحدهم، فكان يرى بينه وبين السماء مثل

لَهُمْ ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ فَأَجدبَتِ الأَرْض واشْتَدَّ بِهِمُ الْجُوعُ، إِلَى أَنْ رَأَوْا مِنْ شِدَّتِهِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ مُصَدِّقُونَ نَبِيَّكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أَيْ: لَا يَنْفَعُهُمُ الإِيمَانُ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ بَيِّنُ الرِّسَالَةِ. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ﴾ أَيْ: يُعَلِّمُهُ القُرْآنَ بَشَرٌ ﴿مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ أَيِ: الْجُوعَ عَنْكُمْ زَمَنًا ﴿قَلِيلًا﴾ فَكُشِفَ عَنْهُمْ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ إِلَى كُفْرِكُمْ، فَعَادُوا إِلَيْهِ. اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ مِنْهُمْ، وَالْبَطْشُ الأَخْذُ بِقُوَّةٍ. ﴿*وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ بَلَوْنَا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ مَعَهُ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ عَلَى اللهِ تَعَالَى. ﴿أَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الإِيمَانِ، أَيْ: أَظْهِرُوا إِيمَانَكُمْ لِي يَا ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ عَلَى مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ﴾ تَتَجَبَّرُوا ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ بِتَرْكِ طَاعَتِهِ ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ بُرْهَانٍ ﴿مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ بَيِّنٍ عَلَى رِسَالَتِي، فَتَوَعَّدُوهُ بِالرَّجْمِ. فَقَالَ: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ بِالْحِجَارَةِ. ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي﴾ تُصَدِّقُونِي ﴿فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ فَاتْرُكُوا أَذَايَ. فَلَمْ يَتْرُكُوهُ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ﴾ أَيْ: بِأَنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مُشْرِكُونَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْرِ﴾ بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ وَوَصْلِهَا ﴿بِعِبَادِي﴾ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يَتْبَعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ. ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ إِذَا قَطَعْتَهُ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ﴿رَهْوًا﴾ سَاكِنًا مُنْفَرِجًا حَتَّى يَدْخُلَهُ الْقِبْطُ ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فَاطْمَأَنَّ بِذَلِكَ فَأُغْرِقُوا. ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ تَجْرِي. ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ مَجْلِسٍ حَسَنٍ. ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ مُتْعَةٍ ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ نَاعِمِينَ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ، أَيِ: الأَمْرُ ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ أَيْ: أَمْوَالَهُمْ ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أَيْ: بَنِي إِسْرَائِيلَ. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ يَبْكِي عَلَيْهِمْ بِمَوْتِهِمْ مُصَلَّاهُمْ مِنَ الأَرْضِ وَمَصْعَدُ عَمَلِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ(١) ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مُؤَخَّرِينَ لِلتَّوْبَةِ. ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ قَتْلِ الأَبْنَاءِ وَاسْتِخْدَامِ النِّسَاءِ. ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ قِيلَ: بَدَلٌ مِنَ

الدخان من الجهد والجوع، ثم قرأ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ قال عبد الله: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ قال: والبطشة الكبرى يوم بدر». أخرجه البخاري (٤٨٢٢)، ومسلم (٢٧٩٨).

(١) قال الزمخشري: إذا مات رجل خطير، قالت العرب في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض... وذلك على سبيل التمثيل والتخييل. مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه. [القاسمي (٨/ ٤١٨)].

﴿ٱلْعَذَابِ﴾ بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيْ: عَذَابِ، وَقِيلَ: حَالٌ مِنَ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ أَيْ: مُتَكَبِّرًا مُسْرِفًا ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أَيْ: بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنَّا بِحَالِهِمْ ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾ أَيْ: عَالِمِي زَمَانِهِمْ، أَيِ: الْعُقَلَاءِ. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ۝٣٣﴾ نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ، مِنْ فَلْقِ الْبَحْرِ وَالْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَغَيْرِهَا. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِىَ﴾ مَا الْمَوْتَةُ الَّتِي بَعْدَهَا الْحَيَاةُ ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أَيْ: وَهُمْ نُطَفٌ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥﴾ بِمَبْعُوثِينَ أَحْيَاءً بَعْدَ الثَّانِيَةِ. ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ أَحْيَاءً ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٦﴾ أَنَّا نُبْعَثُ بَعْدَ مَوْتِنَا، أَيْ: نَحْيَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هُوَ نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ صَالِحٌ[1] ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ لِكُفْرِهِمْ، وَالْمَعْنَى: لَيْسُوا أَقْوَى مِنْهُمْ وَأُهْلِكُوا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٣٧ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾ بِخَلْقِ ذَلِكَ، حَالٌ. ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: مُحِقِّينَ فِي ذَلِكَ، لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى قُدْرَتِنَا وَوَحْدَانِيَّتِنَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَفْصِلُ اللهُ فِيهِ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾ لِلْعَذَابِ الدَّائِمِ. ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ بِقَرَابَةٍ أَوْ صَدَاقَةٍ، أَيْ: لَا يَدْفَعُ عَنْهُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤١﴾ يُمْنَعُونَ مِنْهُ، وَيَوْمَ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُ يَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِإِذْنِ اللهِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ فِي انْتِقَامِهِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٤٢﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣﴾ هِيَ مِنْ أَخْبَثِ الشَّجَرِ الْمُرِّ بِتِهَامَةَ، يُنْبِتُهَا اللهُ تَعَالَى فِي الْجَحِيمِ[2]. ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الْإِثْمِ الْكَبِيرِ. ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ أَيْ: كَدُرْدِيِّ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ، خَبَرٌ ثَانٍ ﴿تَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ خَبَرٌ ثَالِثٌ، وَبِالتَّحْتَانِيَّةِ حَالٌ مِنَ ﴿ٱلْمُهْلِ﴾. ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ أَيِ: الْمَاءِ الشَّدِيدِ الْحَرَارَةِ. ﴿خُذُوهُ﴾ يُقَالُ لِلزَّبَانِيَةِ: خُذُوا الْأَثِيمَ ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ بِكَسْرِ التَّاءِ وَضَمِّهَا، جُرُّوهُ بِغِلْظَةٍ وَشِدَّةٍ ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧﴾ وَسَطِ النَّارِ. ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾ أَيْ: مِنَ

---

(١) من ملوك اليمن، سمي تبعـًا لكثرة أتباعه، وقيل: كل واحد من ملوك اليمن يسمى تبعـًا لأنه يتبع صاحبه الذي قبله، كما سمي في الإسلام خليفة، وقيل: المراد بقوم تبع جميع أتباعه لا واحد بعينه، وكان تبع هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ». الحديث حسن لغيره، أخرجه أحمد (٢٢٨٨٠)، والروياني في «المسند» (١١١٣)، والطبراني (٦٠١٣). [الخازن (٤/ ١١٩)]

(٢) انظر التعليق على آية (٦٢) من سورة الصافات.

اَلْحَمِيمِ اَلَّذِي لَا يُفَارِقُهُ اَلْعَذَابُ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِمَّا فِي آيَةِ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩][1]. وَيُقَالُ لَهُ: ﴿ذُقْ﴾ أَي: اَلْعَذَابَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ بِزَعْمِكَ، وَقَوْلِكَ: مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا أَعَزُّ وَأَكْرَمُ مِنِّي[2]. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ اَلَّذِي تَرَوْنَ مِنَ اَلْعَذَابِ ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾ فِيهِ تَشُكُّونَ. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾ مَجْلِسٍ ﴿أَمِينٍ ۝٥١﴾ يُؤْمَنُ فِيهِ اَلْخَوْفُ. ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أَيْ: مَا رَقَّ مِنَ اَلدِّيبَاجِ وَمَا غَلُظَ مِنْهُ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾ حَالٌ، أَيْ: لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ، لِدَوَرَانِ اَلْأَسِرَّةِ بِهِمْ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يُقَدَّرُ قَبْلَهُ: اَلْأَمْرُ ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ مِنَ اَلتَّزْوِيجِ، أَوْ قَرَنَّاهُمْ ﴿بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ بِنِسَاءٍ بِيضٍ وَاسِعَاتِ اَلْأَعْيُنِ حِسَانِهَا. ﴿يَدْعُونَ﴾ يَطْلُبُونَ اَلْخَدَمَ ﴿فِيهَا﴾ أَي: اَلْجَنَّةِ، أَنْ يَأْتُوا ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ مِنْهَا ﴿ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ مِنَ اِنْقِطَاعِهَا وَمَضَرَّتِهَا وَمِنْ كُلِّ مَخُوفٍ، حَالٌ. ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أَي: اَلَّتِي فِي اَلدُّنْيَا بَعْدَ حَيَاتِهِمْ فِيهَا، قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا﴾ بِمَعْنَى: «بَعْدَ»[3] ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: تَفَضُّلًا، مَنْصُوبٌ بِـ«تَفَضَّلَ» مُقَدَّرًا ﴿مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ سَهَّلْنَا اَلْقُرْآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بِلُغَتِكَ، لِتَفْهَمَهُ اَلْعَرَبُ عَنْكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُوا، لَكِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ اِنْتَظِرْ هَلَاكَهُمْ ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ هَلَاكَكَ، وَهَذَا قَبْلَ نُزُولِ اَلْأَمْرِ بِجِهَادِهِمْ[4].

---

(١) فعل الصب لا يتعدى إلى العذاب لأن العذاب أمر معنوي لا يصب. فالصب مستعار للتقوية والإسراع فهو تمثيلية اقتضاها ترويع الأثيم حين سمعها، فلما كان المحكي هنا القول الذي يسمعه الأثيم صيغ بطريقة التمثيلية تهويلا، بخلاف قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] الذي هو إخبار عنهم في زمن هم غير سامعيه فلم يؤت بمثل هذه الاستعارة إذ لا مقتضى لها. [ابن عاشور (٢٥/ ٣١٥)].

(٢) أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال الضحاك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي لست بعزيز ولا كريم. [ابن كثير (٧/ ٢٦٠)].

(٣) قدر قوم «إلا» بـ«سوى»، وضعف ذلك الطبري، وقدرها بـ«بعد»، وليس تضعيفه بصحيح، بل يصح المعنى بسوى ويتسق، وأما معنى الآية: فبين أنه تعالى نفى عنهم ذوق الموت، وأنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدم في الدنيا. [ابن عطية (٥/ ٧٨)].

(٤) قال المحلي: «وهذا قبل الأمر بجهادهم»، أي: فهو منسوخ، وليس بصحيح؛ لأن رفع الإباحة الأصلية ليس نسخـًا، إنما النسخ رفع حكم ثبت في الشرع بحكم آخر. [صديق حسن (١٢/ ٤١٤)].

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ﴾ الْآيَة، وَهِيَ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ①﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ[1]. ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ مُبْتَدَأٌ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خَبَرُهُ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمِ ②﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أَيْ: فِي خَلْقِهِمَا ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دَالَّةً عَلَى قُدْرَةِ اللهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ③ وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾ أَيْ: فِي خَلْقِ كُلٍّ مِنْكُمْ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ عَلَقَةٍ ثُمَّ مُضْغَةٍ إِلَى أَنْ صَارَ إِنْسَانًا ﴿وَ﴾ خَلْقِ ﴿مَا يَبُثُّ﴾ يُفَرِّقُ فِي الْأَرْضِ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ هِيَ مَا يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ④﴾ بِالْبَعْثِ. ﴿وَ﴾ فِي ﴿ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ذَهَابِهِمَا وَمَجِيئِهِمَا ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ﴾ مَطَرٍ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ الرِّزْقِ ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ تَقْلِيبِهَا مَرَّةً جَنُوبًا وَمَرَّةً شِمَالًا وَبَارِدَةً وَحَارَّةً ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ⑤﴾ الدَّلِيلَ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿تِلۡكَ﴾ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ حُجَجُهُ الدَّالَّةُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ﴿نَتۡلُوهَا﴾ نَقُصُّهَا ﴿عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «نَتْلُو» ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: حَدِيثِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ حُجَجِهِ ﴿يُؤۡمِنُونَ ⑥﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ، أَيْ: لَا يُؤْمِنُونَ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالتَّاءِ. ﴿وَيۡلٞ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كَذَّابٍ ﴿أَثِيمٖ ⑦﴾ كَثِيرِ الْإِثْمِ. ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ عَلَى كُفْرِهِ ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ مُتَكَبِّرًا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ⑧﴾ مُؤْلِمٍ. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ أَيْ: مَهْزُوءًا بِهَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أَيِ: الْأَفَّاكُونَ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ⑨﴾ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾ أَيْ: أَمَامَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا[2] ﴿جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ﴾ مِنَ الْمَالِ وَالْفِعَالِ ﴿شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامُ ﴿أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑩ هَٰذَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿هُدٗىۖ﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ حَظٌّ ﴿مِّن رِّجۡزٍ﴾ أَيْ: عَذَابٍ ﴿أَلِيمٌ ⑪﴾ مُوجِعٍ. ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) جملة ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾ بيان لجملة ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾. وفي قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾ تحقيق لحصول العذاب وكونه قريبا منهم وأنهم غافلون عن اقترابه كغفلة المرء عن عدو يتبعه من ورائه ليأخذه فإذا نظر إلى أمامه حسب نفسه آمنا. ففي الوراء استعارة تمثيلية للاقتراب والغفلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩]. [ابن عاشور (٢٥/ ٣٣٣)].

﴿لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ﴾ اَلسُّفُنَ ﴿فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ بِإِذْنِهِ ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ تَطْلُبُوا بِالتِّجَارَةِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَنُجُومٍ وَمَاءٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِنْ دَابَّةٍ وَشَجَرٍ وَنَبَاتٍ وَأَنْهَارٍ وَغَيْرِهَا، أَيْ: خَلَقَ ذَلِكَ لِمَنَافِعِكُمْ ﴿جَمِيعٗا﴾ تَأْكِيدٌ ﴿مِّنۡهُۚ﴾ حَالٌ، أَيْ: سَخَّرَهَا كَائِنَةً مِنْهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ فِيهَا فَيُؤْمِنُونَ. ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ﴾ يَخَافُونَ ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ وَقَائِعَهُ، أَيِ: اغْفِرُوا لِلْكُفَّارِ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَى لَكُمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِجِهَادِهِمْ[1] ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ أَيِ: اللهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ ﴿قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ مِنَ الْغَفْرِ لِلْكُفَّارِ أَذَاهُمْ. ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ عَمِلَ ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ﴾ إِسَاءَتُهُ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١٥﴾ تَصِيرُونَ، فَيُجَازِي الْمُصْلِحَ وَالْمُسِيءَ. ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اَلتَّوْرَاةَ ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ لِمُوسَى وَهَارُونَ مِنْهُمْ ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ اَلْحَلَالَاتِ كَالْمَنِّ وَالسَّلْوَى ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ عَالَمِي زَمَانِهِمُ الْعُقَلَاءِ. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ أَيْ: أَمْرِ الدِّينِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ﴾ فِي بَعْثَتِهِ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أَيْ: لِبَغْيٍ حَدَثَ بَيْنَهُمْ حَسَدًا لَهُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٖ﴾ طَرِيقَةٍ ﴿مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أَمْرِ الدِّينِ ﴿فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨﴾ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ[2]. ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ﴾ يَدْفَعُوا ﴿عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ ﴿شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩﴾ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿هَٰذَا﴾ اَلْقُرْآنُ ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ مَعَالِمُ يَتَبَصَّرُونَ بِهَا فِي الْأَحْكَامِ وَالْحُدُودِ ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ بِالْبَعْثِ. ﴿أَمۡ﴾

---

(١) [قيل:] نسختها آية القتال ... والأقرب أن يقال: إنه محمول على ترك المنازعة، وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية. [ابن عادل الحنبلي (١٧/ ٣٥٥)]. ولأن احتمال الأذى مندوب إليه على كل حال. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٧١)].

(٢) ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ أي: حججا وبراهين، وأدلة قاطعات، تأبى الاختلاف، ولكن أبوا إلا الاختلاف: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: ظلما وتعديا منهم، لطلب الحظوظ العاجلة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أي: بالمؤاخذة والمجازاة. قال ابن كثير: وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين، الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا: ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ أي: تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يعني المشركين، وما هم عليه من الأهواء التي لا حجة عليها. [القاسمي (٨/ ٤٢٩)].

بِمَعْنَى هَمْزَةِ ٱلْإِنْكَارِ ﴿حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ﴾ اِكْتَسَبُوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ٱلْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً﴾ خَبَرٌ ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مُبْتَدأٌ وَمَعْطُوفٌ، وَالْجُمْلَةُ بَدَلٌ مِنَ ٱلْكَافِ، وَالضَّمِيرَانِ لِلْكُفَّارِ، ٱلْمَعْنَى: أَحَسِبُوا أَنْ نَجْعَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ فِي خَيْرٍ كَالْمُؤْمِنِينَ؟ أَيْ: فِي رَغَدٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ مُسَاوٍ لِعَيْشِهِمْ فِي ٱلدُّنْيَا، حَيْثُ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: «لَئِنْ بُعِثْنَا لَنُعْطَى مِنَ ٱلْخَيْرِ مِثْلَ مَا تُعْطَوْنَ»، قَالَ تَعَالَى عَلَى وَفْقِ إِنْكَارِهِ بِالْهَمْزَةِ: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١﴾ أَيْ: لَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ عَلَى خِلَافِ عَيْشِهِمْ فِي ٱلدُّنْيَا، وَالْمُؤْمِنُونَ فِي ٱلْآخِرَةِ فِي ٱلثَّوَابِ بِعَمَلِهِمُ ٱلصَّالِحَاتِ فِي ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَ ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: بِئْسَ حُكْمًا حُكْمُهُمْ هَذَا. ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «خَلَقَ» لِيَدُلَّ عَلَى قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِنَ ٱلْمَعَاصِي وَالطَّاعَاتِ فَلَا يُسَاوِي ٱلْكَافِرُ ٱلْمُؤْمِنَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٢ أَفَرَءَيْتَ﴾ أَخْبِرْنِي ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ مَا يَهْوَاهُ مِنْ حَجَرٍ بَعْدَ حَجَرٍ يَرَاهُ أَحْسَنَ ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنْهُ تَعَالَى، أَيْ: عَالِمًا بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ ٱلضَّلَالَةِ قَبْلَ خَلْقِهِ ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فَلَمْ يَسْمَعِ ٱلْهُدَى وَلَمْ يَعْقِلْهُ، فَلَا يَتَفَكَّرُ فِي ٱلْآيَاتِ ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ ظُلْمَةً فَلَمْ يُبْصِرِ ٱلْهُدَى، وَيُقَدَّرُ هُنَا ٱلْمَفْعُولُ ٱلثَّانِي لِـ ﴿رَءَيْتَ﴾ أَيْ: أَيَهْتَدِي؟ ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: بَعْدَ إِضْلَالِهِ إِيَّاهُ، أَيْ: لَا يَهْتَدِي ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾ تَتَّعِظُونَ، فِيهِ إِدْغَامُ إِحْدَى ٱلتَّاءَيْنِ فِي ٱلذَّالِ. ﴿وَقَالُواْ﴾ أَيْ: مُنْكِرُو ٱلْبَعْثِ ﴿مَا هِيَ﴾ أَيِ: ٱلْحَيَاةُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ ٱلَّتِي فِي ﴿ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أَيْ: يَمُوتُ بَعْضٌ وَيَحْيَا بَعْضٌ، بِأَنْ يُولَدُوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أَيْ: مُرُورُ ٱلزَّمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ ٱلْمَقُولِ ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ مِنَ ٱلْقُرْآنِ، ٱلدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى ٱلْبَعْثِ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ وَاضِحَاتٍ، حَالٌ ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ أَحْيَاءً ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٥﴾ أَنَّا نُبْعَثُ. ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ حِينَ كُنْتُمْ نُطَفًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أَحْيَاءً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وَهُمُ ٱلْقَائِلُونَ مَا ذُكِرَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٢٦ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يُبْدَلُ مِنْهُ ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ٢٧﴾ ٱلْكَافِرُونَ، أَيْ: يَظْهَرُ خُسْرَانُهُمْ بِأَنْ يَصِيرُوا إِلَى ٱلنَّارِ. ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أَيْ: أَهْلَ دِينٍ ﴿جَاثِيَةً﴾ عَلَى ٱلرُّكَبِ أَوْ مُجْتَمِعَةً[1] ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ كِتَابِ

---

(١) مستوفزة والمستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه، وأطراف أنامله قال الضحاك: وذلك عند الحساب، وقيل: معنى جاثية مجتمعة، قاله ابن عباس، وقال الفراء: المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين، وقال عكرمة متميزة عن غيرها، وقال مؤرج: معناه بلغة قريش

أَعْمَالِهَا[1]، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ. ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ دِيوَانُ الْحَفَظَةِ ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نُثْبِتُ وَنَحْفَظُ ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ جَنَّتِهِ[2] ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝٣٠﴾ الْبَيِّنُ الظَّاهِرُ. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ الْقُرْآنُ ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تَكَبَّرْتُمْ ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٣١﴾ كَافِرِينَ. ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لَكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ ﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن﴾ مَا ﴿نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ قَالَ الْمُبَرِّدُ: أَصْلُهُ «إِنْ نَحْنُ إِلَّا نَظُنُّ ظَنًّا» ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾ أَنَّهَا آتِيَةٌ. ﴿وَبَدَا﴾ ظَهَرَ ﴿لَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ فِي الدُّنْيَا، أَيْ: جَزَاؤُهَا ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٣﴾ أَيِ: الْعَذَابُ. ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نَتْرُكُكُمْ فِي النَّارِ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أَيْ: تَرَكْتُمُ الْعَمَلَ لِلِقَائِهِ[3] ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤﴾ مِنْهَا. ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ حَتَّى قُلْتُمْ: لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ ﴿مِنْهَا﴾ مِنَ النَّارِ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥﴾ أَيْ: لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ أَنْ يُرْضُوا رَبَّهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ الْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ عَلَى وَفَاءِ وَعْدِهِ فِي الْمُكَذِّبِينَ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦﴾ خَالِقِ مَا ذُكِرَ، وَالْعَالَمُ: مَا سِوَى اللهِ. وَجُمِعَ لِاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، وَ﴿رَبِّ﴾ بَدَلٌ. ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ الْعَظَمَةُ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ حَالٌ أَيْ: كَائِنَةً فِيهِمَا ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ تَقَدَّمَ[4].

خاضعة، وقال الحسن: باركة على الركب، والجثو الجلوس على الركب، تقول: جثا يجثو ويجثي جثواً وجثياً إذا جلس على ركبتيه، والأول أولى. [الشوكاني (٥/ ١٣)].

(١) أي: إلى صحائف أعمالها، وقيل: الكتاب المنزل عليها، والأول أرجح. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٧٣)].

(٢) التي من جملتها الجنة قاله البيضاوي، وهذا تفصيل لحال الفريقين، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة. [صديق حسن (١٢/ ٤٣٤)].

(٣) الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «أَلَمْ أُزَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي». أخرجه مسلم (٢٩٦٨). [ابن كثير (٧/ ٢٧٢)].

(٤) أي: الآية (٢) من هذه السورة.

سُورَةُ الأَحقَافِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الْآيَةَ، وَإِلَّا ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ الْآيَةَ، وَإِلَّا ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ الثَّلَاثَ آيَاتٍ، وَهِيَ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ(١). ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْقُرْآنِ، مُبْتَدَأٌ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خَبَرُهُ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا﴾ خَلْقًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لِيَدُلَّ عَلَى قُدْرَتِنَا وَوَحْدَانِيَّتِنَا ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إِلَى فَنَائِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾ خُوِّفُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ أَخْبِرُونِي ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامَ مَفْعُولٌ أَوَّلُ ﴿أَرُونِى﴾ أَخْبِرُونِي، تَأْكِيدٌ ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بَيَانُ «مَا» ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ مُشَارَكَةٌ ﴿فِى﴾ خَلْقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَعَ اللهِ، وَ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى: هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ مُنَزَّلٍ ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الْقُرْآنِ ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾ بَقِيَّةٍ ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ يُؤْثَرُ عَنِ الْأَوَّلِينَ بِصِحَّةِ دَعْوَاكُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ أَنَّهَا تُقَرِّبُكُمْ إِلَى اللهِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾ فِي دَعْوَاكُمْ. ﴿وَمَنْ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ﴾ يَعْبُدُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرَهُ ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وَهُمُ الْأَصْنَامُ لَا يُجِيبُونَ عَابِدِيهِمْ إِلَى شَيْءٍ يَسْأَلُونَهُ أَبَدًا ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾ عِبَادَتِهِمْ ﴿غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ لِأَنَّهُمْ جَمَادٌ لَا يَعْقِلُونَ. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامُ ﴿لَهُمْ﴾ لِعَابِدِيهِمْ ﴿أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ بِعِبَادَةِ عَابِدِيهِمْ ﴿كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ جَاحِدِينَ(٢). ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: أَهْلِ مَكَّةَ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ ظَاهِرَاتٍ، حَالٌ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْهُمْ ﴿لِلْحَقِّ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ. ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى «بَلْ» وَهَمْزَةِ الْإِنْكَارِ ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ فَرْضًا ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مِنْ عَذَابِهِ ﴿شَيْـًٔا﴾ أَيْ: لَا تَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهِ عَنِّي، إِنْ عَذَّبَنِي اللهُ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تَقُولُونَ فِي الْقُرْآنِ ﴿كَفَىٰ بِهِۦ﴾ تَعَالَى ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لِمَنْ تَابَ ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾ بِهِ، فَلَمْ يُعَاجِلْكُمْ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الضمير في كانوا للأصنام، أي: تتبرأ الأصنام من الذين عبدوها، وإنما ذكر الأصنام بضمائر مثل ضمائر العقلاء لأنه أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء، من الاستجابة والغفلة والعداوة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٧٤)].

بِالْعُقُوبَةِ. ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ بَدِيعًا ﴿مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أَيْ: أَوَّلَ مُرْسَلٍ، قَدْ سَبَقَ قَبْلِي كَثِيرُونَ مِنْهُمْ، فَكَيْفَ تُكَذِّبُونَنِي؟ ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا، أَأُخْرَجُ مِنْ بَلَدِي أَمْ أُقْتَلُ كَمَا فُعِلَ بِالْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، أَوْ تُرْمَونَ بِالْحِجَارَةِ أَمْ يُخْسَفُ بِكُمْ كَالْمُكَذِّبِينَ قَبْلَكُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ، وَلَا أَبْتَدِعُ مِنْ عِنْدِي شَيْئًا ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي مَاذَا حَالُكُمْ ﴿إِن كَانَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ[1] ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أَيْ: عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴿فَـَٔامَنَ﴾ الشَّاهِدُ ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تَكَبَّرْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ بِمَا عُطِفَ عَلَيْهِ: أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ؟ دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أَيْ: فِي حَقِّهِمْ ﴿لَوْ كَانَ﴾ الْإِيمَانُ ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟﴾ أَيِ: الْقَائِلُونَ ﴿بِهِۦ﴾ أَيْ: بِالْقُرْآنِ ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿إِفْكٌ﴾ كَذِبٌ ﴿قَدِيمٌ ۝١١ وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أَيِ: التَّوْرَاةُ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَالَانِ ﴿وَهَٰذَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لِلْكُتُبِ قَبْلَهُ ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي: ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أَيْ: مُشْرِكِي مَكَّةَ ﴿وَ﴾ هُوَ ﴿بُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ ﴿جَزَآءًۢ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، أَيْ: يُجْزَوْنَ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ أَيْ: أَمَرْنَاهُ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِمَا، فَنَصَبُ ﴿إِحْسَٰنًا﴾ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، وَمِثْلُهُ: ﴿حُسْنًا﴾، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أَيْ: عَلَى مَشَقَّةٍ ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ مِنَ الرَّضَاعِ ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ سِتَّةُ أَشْهُرٍ أَقَلُّ مُدَّةِ الْحَمْلِ، وَالْبَاقِي أَكْثَرُ مُدَّةِ الرَّضَاعِ، وَقِيلَ: إِنْ حَمَلَتْ بِهِ سِتَّةً أَوْ تِسْعَةً أَرْضَعَتْهُ الْبَاقِي ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غَايَةٌ لِجُمْلَةٍ مُقَدَّرَةٍ، أَيْ: وَعَاشَ حَتَّى ﴿إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ هُوَ كَمَالُ قُوَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ، أَقَلُّهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ ثَلَاثُونَ

---

(١) هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، فالمعنى: أرأيتم إن اجتمع كون القرآن من عند الله، مع شهادة شاهد من بني إسرائيل على مثله، ثم آمن به هذا الشاهد وكفرتم أنتم، ألستم أضل الناس وأظلم الناس؟ واختلف في الشاهد المذكور على ثلاثة أقوال: أحدها أنه عبد الله بن سلام، فقيل: على هذا إن الآية مدنية، لأنه إنما أسلم بالمدينة، وقيل: إنها مكية وأخبر بشهادته قبل وقوعها ثم وقعت على حسب ما أخبر، وكان عبد الله بن سلام يقول في نزلت الآية. الثاني: أنه رجل من بني إسرائيل كان بمكة. الثالث: أنه موسى عليه السلام ورجح ذلك الطبري. والضمير في ﴿مِثْلِهِۦ﴾ للقرآن، أي: يشهد على مثله فيما جاء به من التوحيد والوعد والوعيد، والضمير في «آمن» للشاهد فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر فإيمانه بيِّن، وإن كان موسى عليه السلام، فإيمانه هو تصديقه بأمر محمد ﷺ وتبشيره به. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٧٥)].

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أَيْ: تَمَامَهَا وَهُوَ أَكْثَرُ الْأَشُدِّ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إِلَى آخِرِهِ، نَزَلَ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ[1] لَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً بَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ آمَنَ بِهِ ثُمَّ آمَنَ أَبَوَاهُ ثُمَّ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو عَتِيقٍ ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بِهَا ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ وَهِيَ نِعْمَةُ التَّوْحِيدِ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ فَأَعْتَقَ تِسْعَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُعَذَّبُونَ فِي اللهِ ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ فَكُلُّهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أَيْ: قَائِلُو هَذَا الْقَوْلِ أَبُوبَكْرٍ وَغَيْرُهُ ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ﴾ بِمَعْنَى: حَسَنَ[2] ﴿مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ حَالٌ، أَيْ: كَائِنِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة: ٧٢]. ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ أُرِيدَ بِهِ الْجِنْسُ ﴿أُفٍّ﴾ بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحِهَا بِمَعْنَى مَصْدَرٍ، أَيْ: نَتْنًا وَقُبْحًا ﴿لَّكُمَآ﴾ أَتَضَجَّرُ مِنْكُمَا ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِدْغَامِ ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ مِنَ الْقَبْرِ ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ﴾ الْأُمَمُ ﴿مِن قَبْلِي﴾ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْقُبُورِ ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يَسْأَلَانِهِ الْغَوْثَ بِرُجُوعِهِ، وَيَقُولَانِ: إِنْ لَمْ تَرْجِعْ ﴿وَيْلَكَ﴾ أَيْ: هَلَاكَكَ، بِمَعْنَى: هَلَكْتَ ﴿ءَامِنْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِهِ ﴿حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أَيِ: الْقَوْلُ بِالْبَعْثِ ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٧﴾ أَكَاذِيبُهُمْ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ﴾ وَجَبَ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلٍّ﴾ مِنْ جِنْسَيِ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ فَدَرَجَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ عَالِيَةٌ، وَدَرَجَاتُ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ سَافِلَةٌ ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْكَافِرُونَ مِنَ الْمَعَاصِي ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ أَيِ: اللهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالنُّونِ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أَيْ: جَزَاءَهَا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾ شَيْئًا يُنْقَصُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيُزَادُ لِلْكُفَّارِ. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ بِأَنْ تُكْشَفَ لَهُمْ، يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بِهَمْزَةٍ وَهَمْزَتَيْنِ، وَبِهَمْزَةٍ وَمَدَّةٍ، وَبِهِمَا وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ بِاشْتِغَالِكُمْ بِلَذَّاتِكُمْ ﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ تَمَتَّعْتُمْ ﴿بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أَيِ: الْهَوَانِ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تَتَكَبَّرُونَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ٢٠﴾ بِهِ، وَتُعَذَّبُونَ بِهَا. ﴿۞وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ هُوَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِذْ﴾ إِلَى آخِرِهِ، بَدَلُ اشْتِمَالٍ ﴿أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ خَوَّفَهُمْ

---

(١) اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية؟ فقال الكلبي ومقاتل والضحاك: إنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال الحسن البصري: إنها عامة في جميع المؤمنين. ومعنى الآية: هو الإرشاد إلى شكر الله ودعاء الوالدين. [السمعاني (٥/ ١٥٤)].

(٢) فالقبول ليس قصراً على أفضل عباداتهم وأحسنها، بل يعم كل طاعاتهم فاضلها ومفضولها، والقبول هو الرضا بالعمل والإثابة عليه، وقيل: إن اسم التفضيل على معناه، ويراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال، لا ما لا يثاب عليه، كالمباح فإنه حسن، وليس بأحسن. [صديق حسن (١٣/ ٢٤)].

﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ وَادٍ بِالْيَمَنِ بِهِ مَنَازِلُهُمْ ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ مَضَتِ الرُّسُلُ ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ هُودٍ وَمِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَقْوَامِهِمْ ﴿أَلَّا﴾ أَيْ: بِأَنْ قَالَ: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وَجُمْلَةُ ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ مُعْتَرِضَةٌ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إِنْ عَبَدْتُمْ غَيْرَ اللهِ ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ لِتَصرِفَنَا عَنْ عِبَادَتِهَا ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى عِبَادَتِهَا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢﴾ فِي أَنَّهُ يَأْتِينَا. ﴿قَالَ﴾ هُودٌ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِيكُمُ الْعَذَابُ ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ إِلَيْكُمْ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾ بِاسْتِعْجَالِكُمُ الْعَذَابَ. ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ أَيْ: مَا هُوَ الْعَذَابُ ﴿عَارِضٗا﴾ سَحَابًا عَرَضَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ أَيْ: مُمْطِرٌ إِيَّانَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿رِيحٞ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَا﴾، ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤﴾ مُؤْلِمٌ[1]. ﴿تُدَمِّرُ﴾ تُهْلِكُ ﴿كُلَّ شَيۡءِۭ﴾ مَرَّتْ عَلَيْهِ[2] ﴿بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ بِإِرَادَتِهِ، أَيْ: كُلَّ شَيْءٍ أَرَادَ إِهْلَاكَهُ بِهَا، فَأَهْلَكَتْ رِجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَصِغَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، بِأَنْ طَارَتْ بِذَلِكَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَزَّقَتْهُ، وَبَقِيَ هُودٌ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ غَيْرَهُمْ. ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ﴾ فِي الَّذِي ﴿إِن﴾ نَافِيَةٌ أَوْ زَائِدَةٌ ﴿مَّكَّنَّٰكُمۡ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿فِيهِ﴾ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَالِ ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا﴾ بِمَعْنَى: أَسْمَاعًا ﴿وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ﴾ قُلُوبًا ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ أَيْ: شَيْئًا مِنَ الْإِغْنَاءِ، وَ ﴿مِّن﴾ زَائِدَةٌ ﴿إِذۡ﴾ مَعْمُولَةٌ لِـ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ وَأُشْرِبَتْ مَعْنَى التَّعْلِيلِ ﴿كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بِحُجَجِهِ الْبَيِّنَةِ ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٢٦﴾ أَيِ: الْعَذَابُ. ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أَيْ: مِنْ أَهْلِهَا كَثَمُودَ وَعَادٍ وَقَوْمِ لُوطٍ ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ كَرَّرْنَا الْحُجَجَ الْبَيِّنَاتِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧ فَلَوۡلَا﴾ فَهَلَّا ﴿نَصَرَهُمُ﴾ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمُ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿قُرۡبَانًا﴾ مُتَقَرَّبًا بِهِمْ إِلَى اللهِ ﴿ءَالِهَةَۢۖ﴾ مَعَهُ، وَهُمُ الْأَصْنَامُ، وَمَفْعُولُ

---

(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه قلت يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، قال: «يَا عَائِشَةُ، مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾». أخرجه البخاري (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩).

(٢) عموم يراد به الخصوص. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٧٨)]. [أي:] كل شيء مستعمل في كثرة الأشياء فإن «كلا» تأتي كثيرا في كلامهم بمعنى الكثرة. والمعنى: تدمر ما من شأنه أن تدمره الريح من الإنسان والحيوان والديار. [ابن عاشور (٢٦/ ٥٠)].

اِتَّخَذَ اَلْأَوَّلُ ضَمِيرٌ مَحْذُوفٌ يَعُودُ عَلَى اَلْمَوْصُولِ، أَيْ: «هُمْ» وَ ﴿قُرْبَانًا﴾ اَلثَّانِي وَ ﴿ءَالِهَةَۢ﴾ بَدَلٌ مِنْهُ ﴿بَلْ ضَلُّواْ﴾ غَابُوا ﴿عَنْهُمْۚ﴾ عِنْدَ نُزُولِ اَلْعَذَابِ ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أَيِ: اِتِّخَاذُهُمُ اَلْأَصْنَامَ آلِهَةً قُرْبَانًا ﴿إِفْكُهُمْ﴾ كَذِبُهُمْ ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٨﴾ يَكْذِبُونَ وَ ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ مَوْصُولَةٌ وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ، أَيْ: فِيهِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ صَرَفْنَآ﴾ أَمَلْنَا ﴿إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جِنَّ نَصِيبِينَ بِالْيَمَنِ أَوْ جِنَّ نِينَوَى، وَكَانُوا سَبْعَةً أَوْ تِسْعَةً «وَكَانَ ﷺ بِبَطْنِ نَخْلَةَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ اَلْفَجْرَ». رَوَاهُ اَلشَّيْخَانِ[1] ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ﴾ أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿أَنصِتُواْۖ﴾ اِصْغَوْا لِاسْتِمَاعِهِ ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ فُرِغَ مِنْ قِرَاءَتِهِ ﴿وَلَّوْاْ﴾ رَجَعُوا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ مُخَوِّفِينَ قَوْمَهُمُ اَلْعَذَابَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَكَانُوا يَهُودًا وَقَدْ أَسْلَمُوا[2]. ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ هُوَ اَلْقُرْآنُ ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيْ: تَقَدَّمَهُ كَالتَّوْرَاةِ ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ اَلْإِسْلَامِ ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ أَيْ: طَرِيقِهِ. ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى اَلْإِيمَانِ ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾ اَللهُ ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أَيْ: بَعْضَهَا؛ لِأَنَّ مِنْهَا اَلْمَظَالِمَ وَلَا تُغْفَرُ إِلَّا بِرِضَا أَصْحَابِهَا ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ مُؤْلِمٍ. ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: لَا يُعْجِزُ اَللهَ بِالْهَرَبِ مِنْهُ فَيَفُوتَهُ ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ﴾ لِمَنْ لَا يُجِيبُ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أَيِ: اَللهِ ﴿أَوْلِيَآءُۚ﴾ أَنْصَارٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ اَلْعَذَابَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اَلَّذِينَ لَمْ يُجِيبُوا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ بَيِّنٍ ظَاهِرٍ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يَعْلَمُوا، أَيْ: مُنْكِرُو اَلْبَعْثِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ لَمْ يَعْجِزْ عَنْهُ ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ خَبَرُ

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه، قالوا: أنصتوا. قال: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾. أخرجه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).

(٢) أي: رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر، وليس فيهم رسل، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: أحدهما. [ابن كثير (٧/ ٣٠٢)].

﴿أَنَّ﴾ وَزِيدَتِ ٱلْبَاءُ فِيهِ؛ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي قُوَّةِ: «أَلَيْسَ ٱللهُ بِقَادِرٍ» ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ﴾ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٣٣ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ بِأَنْ يُعَذَّبُوا بِهَا، يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ ٱلتَّعْذِيبُ ﴿بِٱلْحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٤ فَٱصْبِرْ﴾ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ ذَوُو ٱلثَّبَاتِ وَٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلشَّدَائِدِ ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قَبْلَكَ، فَتَكُونَ ذَا عَزْمٍ، وَ﴿مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ فَكُلُّهُمْ ذَوُو عَزْمٍ، وَقِيلَ: لِلتَّبْعِيضِ فَلَيْسَ مِنْهُمْ آدَمُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمٗا﴾ [طه: ١١٥]، وَلَا يُونُسُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨](1)، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ﴾ لِقَوْمِكَ نُزُولَ ٱلْعَذَابِ بِهِمْ، قِيلَ: كَأَنَّهُ ضَجِرَ مِنْهُمْ فَأَحَبَّ نُزُولَ ٱلْعَذَابِ بِهِمْ، فَأُمِرَ بِالصَّبْرِ وَتَرْكِ ٱلِاسْتِعْجَالِ لِلْعَذَابِ، فَإِنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ مِنَ ٱلْعَذَابِ فِي ٱلْآخِرَةِ لِطُولِهِ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ فِي ٱلدُّنْيَا فِي ظَنِّهِمْ ﴿إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ هَذَا ٱلْقُرْآنُ ﴿بَلَٰغٞۚ﴾ تَبْلِيغٌ مِنَ ٱللهِ إِلَيْكُمْ(2) ﴿فَهَلْ﴾ أَيْ: لَا ﴿يُهْلَكُ﴾ عِنْدَ رُؤْيَةِ ٱلْعَذَابِ ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ أَيِ: ٱلْكَافِرُونَ(3).

---

(١) أولو العزم: أصحاب العزم، أي: المتصفون به. والعزم: نية محققة على عمل أو قول دون تردد. قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ... والعزم المحمود في الدين: العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة، وقوامه الصبر على المكروه وباعثه التقوى، وقوته شدة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبته نفسه قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمٗا﴾ [طه: ١١٥]. وهذا قبل هبوط آدم إلى عالم التكليف، وعلى هذا تكون ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ تبعيضية. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كل الرسل أولو عزم، وعليه تكون ﴿مِنَ﴾ بيانية. وهذه الآية اقتضت أن محمدا ﷺ من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم؛ لأنه ممتثل لأمر ربه، فصبره مثيل لصبرهم، ومن صبر صبرهم كان منهم لا محالة. [ابن عاشور (٢٦/ ٦٧)].

(٢) ﴿بَلَٰغٞۚ﴾ معناه: كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، ذلك لبث بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم، اي: لبث بلاغهم إلى آجالهم، ثم حذف المضاف مثل ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وقيل المعنى: هذا القرآن، أو هذه التلاوة والإنذار بلاغ لهم، أي: كفاية لهم، أن تكفروا واعتبروا وتذكروا. وقيل بلاغ: معناه: قليل، تقول العرب: ما معه من الزاد إلا بلاغ؛ أي: قليل، وقيل المعنى: هذا الذي وعظوا به بلاغ. وقرأ عيسى بن عمر: (بلاغـًا) بالنصب، جعله نعتـًا لساعة، وقيل: نصبه على المصدر. وقرأ أبو مجلز (بَلِّغْ) على الأمر. [مكي بن أبي طالب (١١/ ٦٨٧٣)].

(٣) قال الزجاج: تأويله: لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون، ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية. [البغوي (٧/ ٢٧٣)].

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مَدَنِيَّةٌ إِلَّا ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ اَلْآيَةَ، أَوْ مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَمَانٌ أَوْ تِسْعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿وَصَدُّواْ﴾ غَيْرَهُمْ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: اَلْإِيمَانِ ﴿أَضَلَّ﴾ أَحْبَطَ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ ١﴾ كَإِطْعَامِ الطَّعَامِ وَصِلَةِ اَلْأَرْحَامِ، فَلَا يَرَوْنَ لَهَا فِي اَلْآخِرَةِ ثَوَابًا، وَيُجْزَوْنَ بِهَا فِي اَلدُّنْيَا مِنْ فَضْلِهِ تَعَالَى[1]. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أَيِ: اَلْأَنْصَارُ وَغَيْرُهُمْ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنِ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ﴾ غَفَرَ لَهُمْ ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ٢﴾ حَالَهُمْ، فَلَا يَعْصُونَهُ[2]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: إِضْلَالُ اَلْأَعْمَالِ وَتَكْفِيرُ اَلسَّيِّئَاتِ ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾ اَلشَّيْطَانَ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ﴾ اَلْقُرْآنَ ﴿مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ اَلْبَيَانِ ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ٣﴾ يُبَيِّنُ أَحْوَالَهُمْ، فَالْكَافِرُ يُحْبَطُ عَمَلُهُ وَالْمُؤْمِنُ يُغْفَرُ زَلَلُهُ. ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مَصْدَرٌ، بَدَلٌ مِنَ اَللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، أَيْ: فَاضْرِبُوا رِقَابَهُمْ، أَيِ: اُقْتُلُوهُمْ، وَعَبَّرَ بِضَرْبِ اَلرِّقَابِ لِأَنَّ اَلْغَالِبَ فِي اَلْقَتْلِ أَنْ يَكُونَ بِضَرْبِ اَلرَّقَبَةِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أَكْثَرْتُمْ فِيهِمُ اَلْقَتْلَ ﴿فَشُدُّواْ﴾ فَأَمْسِكُوا عَنْهُمْ، وَأْسِرُوهُمْ وَشُدُّوا ﴿ٱلْوَثَاقَ﴾ مَا يُوثَقُ بِهِ اَلْأَسْرَى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ مَصْدَرٌ بَدَلٌ مِنَ اَللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، أَيْ: تَمُنُّونَ عَلَيْهِمْ بِإِطْلَاقِهِمْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ تُفَادُونَهُمْ بِمَالٍ أَوْ أَسْرَى مُسْلِمِينَ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ﴾ أَيْ: أَهْلُهَا ﴿أَوْزَارَهَاۚ﴾ أَثْقَالَهَا مِنَ اَلسِّلَاحِ وَغَيْرِهِ، بِأَنْ يُسْلِمَ اَلْكُفَّارُ أَوْ يَدْخُلُوا فِي اَلْعَهْدِ، وَهَذِهِ غَايَةٌ لِلْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: اَلْأَمْرُ فِيهِمْ مَا ذُكِرَ ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ بِغَيْرِ قِتَالٍ ﴿وَلَٰكِن﴾ أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ مِنْهُمْ فِي اَلْقِتَالِ، فَيَصِيرَ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ إِلَى اَلْجَنَّةِ

---

(١) جعل مكارمهم كصلة الرحم وفك الأسارى وحفظ الجوار ضالة، أي: ضائعة محبطة بالكفر، أو مغلوبة مغمورة فيه كما يضل الماء في اللبن، أو ضلالا حيث لم يقصدوا به وجه الله، أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسوله والصد عن سبيله بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله. [البيضاوي ٥/ ١١٩]. كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

(٢) قيل: معناه أصلح حالهم وشأنهم، وحقيقة البال الخاطر الذي في القلب، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله، فالمعنى: إصلاح دينهم بالإيمان والإخلاص والتقوى. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٨٠)].

وَمِنْهُمْ إِلَى النَّارِ[1] ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قَتَلُوا﴾، الْآيَةُ نَزَلَتْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدْ فَشَا فِي الْمُسْلِمِينَ الْقَتْلُ وَالْجِرَاحَاتُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ﴾ يُحْبِطَ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ حَالهمْ فِيهِمَا، وَمَا فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يُقْتَل، وَأُدْرِجُوا فِي ﴿قُتِلُواْ﴾ تَغْلِيبًا ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا﴾ بَيَّنَهَا ﴿لَهُمْ ۝٦﴾ فَيَهْتَدُونَ إِلَى مَسَاكِنِهِمْ مِنْهَا وَأَزْوَاجِهِمْ وَخَدَمِهِمْ مِنْ غَيْرِ اسْتِدْلَالٍ[2]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: دِينَهُ وَرَسُولَهُ ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ عَلَى عَدُوِّكُمْ ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ يُثَبِّتْكُمْ فِي الْمُعْتَرَكِ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ «تَعِسُوا» يَدُلُّ عَلَيْهِ ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أَيْ: هَلَاكًا وَخَيْبَةً مِنَ اللهِ ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ عُطِفَ عَلَى «تَعِسُوا». ﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّعْسُ وَالْإِضْلَالُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى التَّكَالِيفِ ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ ۞أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ﴾ أَهْلَكَ أَنْفُسَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾ أَمْثَالُ عَاقِبَةِ مَا قَبْلَهُمْ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَهْرُ الْكَافِرِينَ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى﴾ وَلِيُّ وَنَاصِرُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا بُطُونُهُمْ وَفُرُوجُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى الْآخِرَةِ ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢﴾ مَنْزِلٌ وَمُقَامٌ وَمَصِيرٌ. ﴿وَكَأَيِّن﴾ وَكَمْ ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أُرِيدَ بِهَا أَهْلُهَا ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ مَكَّةَ أَيْ: أَهْلِهَا ﴿ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ رُوعِيَ لَفْظُ ﴿قَرْيَةٍ﴾ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ رُوعِيَ مَعْنَى ﴿قَرْيَةٍ﴾ الْأُولَى ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۝١٣﴾ مِنْ إِهْلَاكِنَا. ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فَرَآهُ حَسَنًا وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ۝١٤﴾ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، أَيْ: لَا مُمَاثَلَةَ بَيْنَهُمَا. ﴿مَّثَلُ﴾ أَيْ: صِفَةُ ﴿ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ دَاخِلِيهَا، مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ كَضَارِبٍ

---

(١) كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و «براءة» في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال في سورة براءة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ [التوبة: ١٤-١٥]. [ابن كثير (٣٠٨/٧)].

(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا». أخرجه البخاري (٦٥٣٥).

وَحذِرٍ، أَيْ: غَيْرِ مُتغَيِّرٍ، بِخِلَافِ مَاءِ الدُّنْيَا فَيَتَغَيَّرُ لِعَارِضٍ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ بِخِلَافِ لَبَنِ الدُّنْيَا لِخُرُوجِهِ مِنَ الضُّرُوعِ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ﴾ لَذِيذَةٍ ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا كَرِيهَةٌ عِنْدَ الشُّرْبِ ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ بِخِلَافِ عَسَلِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ بِخُرُوجِهِ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ يُخَالِطُهُ الشَّمْعُ وَغَيْرُهُ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أَصْنَافٌ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فَهُوَ رَاضٍ عَنْهُمْ مَعَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ بِمَا ذُكِرَ، بِخِلَافِ سَيِّدِ الْعَبِيدِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَعَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ سَاخِطًا عَلَيْهِمْ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: أَمَّنْ هُوَ فِي هَذَا النَّعِيمِ ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ أَيْ: شَدِيدَ الْحَرَارَةِ ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ أَيْ: مَصَارِينَهُمْ فَخَرَجَتْ مِنْ أَدْبَارِهِمْ وَهُوَ جَمْعُ مِعًى بِالْقَصْرِ، وَأَلِفُهُ عَنْ يَاءٍ، لِقَوْلِهِمْ: مِعْيَانٌ. ﴿وَمِنْهُم﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ لِعُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ اسْتِهْزَاءً وَسُخْرِيَّةً ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ، أَيِ: السَّاعَةَ، أَيْ: لَا نَرْجِعُ إِلَيْهِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بِالْكُفْرِ ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ فِي النِّفَاقِ[1]. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿زَادَهُمْ﴾ اللهُ ﴿هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ أَلْهَمَهُمْ مَا يَتَّقُونَ بِهِ النَّارَ[2]. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ مَا يَنْتَظِرُونَ، أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجْأَةً[3] ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ عَلَامَاتُهَا، مِنْهَا بَعْثَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَانْشِقَاقُ الْقَمَرِ وَالدُّخَانُ[4] ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ السَّاعَةُ ﴿ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

---

(١) أي: قريبا، وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهوون فيها إلا الباطل. [السعدي (ص:٧٨٦)].

(٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشدهم. [ابن كثير (٧/ ٣١٥)].

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلاَّ فَقْرًا مُنسِيًا، أَوْ غِنىً مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أدهى وَأَمَرُّ». أخرجه الترمذي (٢٣٠٦).

(٤) ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ [النجم: ٥٦-٥٧] ... وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه ... عن سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ

تُذَكِّرُهُمْ، أَيْ: لَا يَنْفَعُهُمْ. ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أَيْ: دُمْ يَا مُحَمَّدُ عَلَى عِلْمِكَ بِذَلِكَ النَّافِعِ فِي الْقِيَامَةِ(١) ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ لِأَجْلِهِ، قِيلَ لَهُ ذَلِكَ مَعَ عِصْمَتِهِ لِتَسْتَنَّ بِهِ أُمَّتُهُ، وَقَدْ فَعَلَهُ قَالَ ﷺ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ»(٢). ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ فِيهِ إِكْرَامٌ لَهُمْ بِأَمْرِ نَبِيِّهِمْ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾ مُتَصَرَّفَكُمْ لِإِشْغَالِكُمْ فِي النَّهَارِ ﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ مَأْوَاكُمْ إِلَى مَضَاجِعِكُمْ بِاللَّيْلِ، أَيْ: هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا فَاحْذَرُوهُ، وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ. ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ طَلَبًا لِلْجِهَادِ: ﴿لَوۡلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ﴾ فِيهَا ذِكْرُ الْجِهَادِ ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ﴾ أَيْ: لَمْ يُنْسَخْ مِنْهَا شَيْءٌ ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ أَيْ: طَلَبُهُ ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ أَيْ: شَكٌّ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ خَوْفًا مِنْهُ وَكَرَاهَةً لَهُ، أَيْ: فَهُمْ يَخَافُونَ مِنَ الْقِتَالِ وَيَكْرَهُونَهُ ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾ مُبْتَدَأٌ. خَبَرُهُ: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ أَيْ: حَسَنٌ لَكَ ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أَيْ: فُرِضَ الْقِتَالُ ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ فِي الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ

كَهَاتَيْنِ». أخرجه البخاري (٤٩٣٦). [ابن كثير (٧/ ٣١٥)].

(١) العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه. وهذا العلم الذي أمر الله به -وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته ... الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية. الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية ... الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها. الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا ... السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه. السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا، ورأيا وصوابا، وعلما وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك. الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه ... هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره. [السعدي (ص:٧٨٧)].

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٣٤٠)، وابن ماجه (٣٨١٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٥٠). وعن عبد الله بن سرجس قال: أتيت النبي ﷺ فأكلت معه من طعام، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، قال: «وَلَكَ»، فقيل: استغفر لك يا رسول الله ﷺ؟ قال: «نَعَمْ وَلَكُمْ»، وقرأ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾. أخرجه مسلم (٢٣٤٦).

﴿٢١﴾ وَجُمْلَةُ «لَوْ» جَوابُ «إِذَا». ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَكَسْرِهَا، وَفِيهِ الْتِفَاتٌ عَنْ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ، أَيْ: لَعَلَّكُمْ ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ عَنْ الْإِيمَانِ ﴿أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ أَيْ: تَعُودُوا إِلَى أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ الْبَغْيِ وَالْقِتَالِ[1]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أَيْ: الْمُفْسِدُونَ ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ﴾ عَنْ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لَهُمْ ﴿أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ فَلَا يَفْهَمُونَهُ[2]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ﴾ بِالنِّفَاقِ ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ﴾ زَيَّنَ ﴿لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ بِضَمِّ أَوَّلِهِ، وَبِفَتْحِهِ وَاللَّامِ، وَالْمُمْلِي الشَّيْطَانُ بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى فَهُوَ الْمُضِلُّ لَهُمْ[3]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: إِضْلَالُهُمْ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ: لِلْمُشْرِكِينَ ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أَمْرِ الْمُعَاوَنَةِ عَلَى عَدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَثْبِيطِ النَّاسِ عَنْ الْجِهَادِ مَعَهُ، قَالُوا ذَلِكَ سِرًّا فَأَظْهَرَهُ اللهُ تَعَالَى ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ جَمْع «سِرٍّ»، وَبِكَسْرِهَا مَصْدَرٌ. ﴿فَكَيْفَ﴾ حَالُهُمْ ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ حَالٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ ظُهُورَهُمْ بِمَقَامِعَ مِنْ حَدِيدٍ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّوَفِّي عَلَى الْحَالَةِ الْمَذْكُورَةِ ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أَيْ: الْعَمَلَ بِمَا يُرْضِيهِ ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ يُظْهِرَ أَحْقَادَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ عَرَّفْنَاكَهُمْ، وَكُرِّرَتْ اللَّامُ فِي: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ عَلَامَتِهِمْ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ الْوَاو لِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ، وَمَا بَعْدَهَا

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ: نَعَمْ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكَ لَكِ». ثم قال أبو هريرة: فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. أخرجه البخاري (٧٥٠٢)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٢) قال ابن جرير: أي: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه السلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: فلا يصل إليها ذكر، ولا ينكشف لها أمر. وتنكير القلوب للإشعار بفرط جهالتها ونكرها، كأنها مبهمة منكورة. والأقفال مجاز عما يمنع الوصول، وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها، وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة؛ إذ لا يمكن فتحها أبدا. [القاسمي (٨/ ٤٧٦)].

(٣) ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مد لهم في الآمال والأماني ووعدهم طول العمر، وقيل: إن الذي أملى لهم هو الله عز وجل على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة، قرأ الجمهور ﴿أَمْلَىٰ﴾ على البناء للفاعل، وقرئ على البناء للمفعول، أي: أمهلوا ومد في عمرهم، واختار القول بأن الفاعل هو الله الفراء والمفضل، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدم ذكره قريباً. [صديق حسن (١٣/ ٧٢)].

جَوابهُ ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أَيْ: فِي مَعْنَاهُ، إِذَا تَكَلَّمُوا عِنْدَكَ بِأَنْ يَعْرِضُوا بِمَا فِيهِ تَهْجِينُ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ نَخْتَبِرَنَّكُمْ بِالْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ عِلْم ظُهُورٍ ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فِي الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ﴿وَنَبْلُوَاْ﴾ نُظْهِرَ ﴿أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ مِنْ طَاعَتِكُمْ وَعِصْيَانِكُمْ فِي الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ، بِالْيَاءِ وَالنُّونِ فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ﴾ طَرِيقِ ﴿ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ خَالَفُوهُ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ هُوَ مَعْنَى سَبِيلِ اللهِ ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٣٢﴾ يُبْطِلُهَا مِنْ صَدَقَةٍ وَنَحْوِهَا، فَلَا يَرَوْنَ لَهَا فِي الْآخِرَةِ ثَوَابًا[2]، نَزَلَتْ فِي الْمُطْعِمِينَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، أَوْ فِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ. ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾ بِالمَعَاصِي مَثَلًا[3]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طَرِيقِهِ وَهُوَ الْهُدَى ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۝٣٤﴾ نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْقَلِيبِ. ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ تَضْعُفُوا ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَكَسْرِهَا، أَيْ: الصُّلْحِ مَعَ الْكُفَّارِ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ حُذِفَ مِنْهُ وَاو لَامِ الْفِعْلِ، الْأَغْلَبُونَ الْقَاهِرُونَ ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ يُنْقِصَكُمْ ﴿أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾ أَيْ: ثَوَابَهَا. ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ: الِاشْتِغَالُ فِيهَا ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ اللهَ وَذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦﴾ جَمِيعَهَا، بَلْ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ فِيهَا. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يُبَالِغ فِي طَلَبِهَا ﴿تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ﴾ الْبُخْلَ ﴿أَضْغَٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ لِدِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ يَا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مَا فُرِضَ عَلَيْكُمْ ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ يُقَال بَخِلَ عَلَيْهِ وَعَنْهُ ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ نَفَقَتِكُمْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ إِلَيْهِ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ﴾ عَنْ طَاعَتِهِ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أَيْ: يَجْعَلهُمْ بَدَلكُمْ ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ فِي التَّوَلِّي عَنْ طَاعَتِهِ، بَلْ مُطِيعِينَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) لحن القول أسلوبه، أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية، ومنه قيل للمخطئ: لاحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب. [البيضاوي (٥/ ١٢٤)].

(٢) المراد بهذه الأعمال ما صورته صورة أعمال الخير، كإطعام الطعام، وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير، وإن كانت باطلة من الأصل، لأن الكفر مانع، وقيل: المراد بالأعمال المكايد التي نصبوها لإبطال دين الله والغوائل التي كانوا يبغونها برسول الله ﷺ. [الشوكاني (٥/ ٤٩)].

(٣) الظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال، كائنًا ما كان، من غير تخصيص بنوع معين، عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، حتى نزلت هذه الآية، فخافوا أن يبطل الذنب العمل، وفي لفظ فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم. [صديق حسن (١٣/ ٧٧)].

سُورَةُ الفَتْحِ

مَدَنِيَّةٌ، تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ**﴾ قَضَيْنَا بِفَتْحِ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ عَنْوَةً بِجِهَادِكَ ﴿**فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١**﴾ بَيِّنًا ظَاهِرًا[1]. ﴿**لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ**﴾ بِجِهَادِكَ ﴿**مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ مِنْهُ، لِتُرَغِّبَ أُمَّتَكَ فِي ٱلْجِهَادِ، وَهُوَ مُؤَوَّلٌ لِعِصْمَةِ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ ٱلصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالدَّلِيلِ ٱلْعَقْلِيِّ ٱلْقَاطِعِ مِنَ ٱلذُّنُوبِ، وَاللَّامُ لِلْعِلَّةِ ٱلْغَائِيَّةِ فَمَدْخُولُهَا مُسَبَّبٌ لَا سَبَبٌ[2] ﴿**وَيُتِمَّ**﴾ بِالْفَتْحِ الْمَذْكُورِ ﴿**نِعۡمَتَهُۥ**﴾ إِنْعَامَهُ ﴿**عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ**﴾ بِهِ ﴿**صِرَٰطٗا**﴾ طَرِيقًا ﴿**مُّسۡتَقِيمٗا ٢**﴾ يُثَبِّتُكَ عَلَيْهِ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ. ﴿**وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ**﴾ بِهِ ﴿**نَصۡرًا عَزِيزًا ٣**﴾ ذَا عِزٍّ لَا ذُلَّ مَعَهُ. ﴿**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ**﴾ الطُّمَأْنِينَةَ ﴿**فِي**

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾، إلى قوله: ﴿فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ مرجعه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحروا الهدي بالحديبية فقال ﷺ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا». أخرجه مسلم (١٧٨٦).

(٢) يقول: إنا حكمنا لك يا محمد حكما لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك، وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر، لتشكر ربك، وتحمده على نعمته بقضائه لك عليهم، وفتحه ما فتح لك، ولتسبحه وتستغفره، فيغفر لك بفعالك ذلك ربك، ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخَّر بعد فتحه لك ذلك ما شكرته واستغفرته. وإنما اخترنا هذا القول في تأويل هذه الآية لدلالة قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: ١-٣] على صحته، إذ أمره تعالى ذكره أن يسبح بحمد ربه إذا جاءه نصر الله وفتح مكة، وأن يستغفره، وأعلمه أنه تواب على من فعل ذلك، ففي ذلك بيان واضح أن قوله تعالى ذكره: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إنما هو خبر من الله جل ثناؤه نبيه ﷺ عن جزائه له على شكره له، على النعمة التي أنعم بها عليه من إظهاره له ما فتح، لأن جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها. وبعد ففي صحة الخبر عنه ﷺ: أنه كان يقوم حتى ترِم قدماه، فقيل له: يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا». أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩). الدلالة الواضحة على أن الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول، وأن الله تبارك وتعالى، إنما وعد نبيه محمدا ﷺ غفران ذنوبه المتقدمة، فتح ما فتح عليه، وبعده على شكره له، على نعمه التي أنعمها عليه. وكذلك كان يقول ﷺ: «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرةٍ». أخرجه مسلم (٢٧٠٢). ولو كان القول في ذلك أنه من خبر الله تعالى نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر على غير الوجه الذي ذكرنا، لم يكن لأمره إياه بالاستغفار بعد هذه الآية، ولا لاستغفار نبي الله ﷺ ربه جل جلاله من ذنوبه بعدها معنى يعقل، إذ الاستغفار معناه: طلب العبد من ربه عز وجل غفران ذنوبه، فإذا لم يكن ذنوب تغفر لم يكن لمسألته إياه غفرانها معنى، لأنه من المحال أن يقال: اللهم اغفر لي ذنبا لم أعمله. [الطبري (٢١/ ٢٣٦)].

قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بِشَرَائِعِ الدِّينِ، كُلَّمَا نَزَلَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا آمَنُوا بِهَا وَمِنْهَا الْجِهَادُ[1] ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فَلَوْ أَرَادَ نَصْرَ دِينِهِ بِغَيْرِكُمْ لَفَعَلَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا ④﴾ فِي صُنْعِهِ، أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿لِّيُدْخِلَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَيْ: أَمَرَ بِالْجِهَادِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ⑤ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَضَمِّهَا فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ، ظَنُّوا أَنَّهُ لَا يَنْصُرُ مُحَمَّدًا ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ بِالذُّلِّ وَالْعَذَابِ ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أَبْعَدَهُمْ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ⑥﴾ أَيْ: مَرْجِعًا. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمًا ⑦﴾ فِي صُنْعِهِ، أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ عَلَى أُمَّتِكَ فِي الْقِيَامَةِ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا ⑧﴾ مُنْذِرًا مُخَوِّفًا فِيهَا مَنْ عَمِلَ سُوءًا بِالنَّارِ. ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ فِيهِ وَفِي الثَّلَاثَةِ بَعْدَهُ ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ يَنْصُرُوهُ، وَقُرِئَ: بِزَايَيْنِ مَعَ الْفَوْقَانِيَةِ[2] ﴿وَتُوَقِّرُوهُ ۚ﴾ يُعَظِّمُوهُ وَضَمِيرُهُمَا لِلَّهِ أَوْ لِرَسُولِهِ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أَيِ: اللَّهَ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑨﴾ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ بِالْحُدَيْبِيَةِ[3] ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ هُوَ نَحْوُ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ الَّتِي بَايَعُوا بِهَا النَّبِيَّ، أَيْ: هُوَ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى مُبَايَعَتِهِمْ فَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا[4] ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نَقَضَ الْبَيْعَةَ ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾

---

(١) ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات، والحق الذي لا شك فيه أن الإيمان يزيد وينقص، كما عليه أهل السنة والجماعة، وقد دل عليه الوحي من الكتاب والسنة. [الشنقيطي (٧/ ٦٤٠)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) أصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد الذي التزمه له، وهي بيعة الرضوان بالحديبية، فإنهم بايعوه تحت الشجرة على قتال قريش، فبايعه جماعة على الموت منهم سلمة بن الأكوع، وبايعه جماعة على أن لا يفروا منهم معقل بن يسار، والحديبية قرية ليست كبيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة أو مرحلة سميت ببئر هناك، وقد جاء في الحديث أن الحديبية بئر، قال مالك: هي من الحرم وقال ابن القصار: بعضها من الحل ويجوز في الحديبية التخفيف والتشديد، والأول أفصح وعامة المحدثين يشددونها. [صديق حسن (١٣/ ٩٣)].

(٤) أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

يَرْجِعُ وَبَالَ نَقْضِهِ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، أَيْ: الَّذِينَ خَلَّفَهُمُ اللهُ عَنْ صُحْبَتِكَ لَمَّا طَلَبْتَهُمْ لِيَخْرُجُوا مَعَكَ إِلَى مَكَّةَ خَوْفًا مِنْ تَعَرُّضِ قُرَيْشٍ لَكَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ إِذَا رَجَعْتَ مِنْهَا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَكَ ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ اللهَ مِنْ تَرْكِ الْخُرُوجِ مَعَكَ، قَالَ تَعَالَى مُكَذِّبًا لَهُمْ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ أَيْ: مِنْ طَلَبِ الِاسْتِغْفَارِ وَمَا قَبْلَهُ ﴿مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ فَهُمْ كَاذِبُونَ فِي اعْتِذَارِهِمْ ﴿قُلْ فَمَن﴾ اسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ بِفَتْحِ الضَّادِ وَضَمِّهَا ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝١١﴾ أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ[1]. ﴿بَلْ﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلِانْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرَ ﴿ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أَيْ: أَنَّهُمْ يُسْتَأْصَلُونَ بِالْقَتْلِ فَلَا يَرْجِعُونَ ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ هَذَا وَغَيْرَهُ ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢﴾ جَمْعُ بَائِرٍ، أَيْ: هَالِكِينَ عِنْدَ اللهِ بِهَذَا الظَّنِّ. ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾ نَارًا شَدِيدَةً. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٤﴾ أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِمَا ذُكِرَ[2]. ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الْمَذْكُورُونَ ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ هِيَ مَغَانِم خَيْبَرَ ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا﴾ اُتْرُكُونَا ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ لِنَأْخُذَ مِنْهَا ﴿يُرِيدُونَ﴾ بِذَلِكَ ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿كَلِمِ اللهِ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ، أَيْ: مَوَاعِيدَهُ بِغَنَائِمِ خَيْبَرَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَةِ خَاصَّةً ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ عَوْدِنَا ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أَنْ نُصِيبَ مَعَكُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ فَقُلْتُمْ ذَلِكَ ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ مِنَ الدِّينِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥﴾ مِنْهُمْ[3]. ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الْمَذْكُورِينَ

وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. [ابن كثير (٧/ ٣٢٩)].

(١) أي: إن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل كان الله خبيراً بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك، بل للشك والنفاق وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله. [الشوكاني (٥/ ٥٧)].

(٢) قال ابن جرير: هذا من الله جل ثناؤه حث لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ، على التوبة، والمراجعة إلى أمر الله، في طاعة رسوله ﷺ. يقول لهم: بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله ﷺ، فإن الله يغفر للتائبين؛ لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم، ومعاصيهم من عباده، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها. [القاسمي (٨/ ٤٩٤)].

(٣) أي: لا يعلمون إلا علماً قليلاً، وهو علمهم بأمر الدنيا، وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا فقهاً قليلاً، وهو ما يصنعونه نفاقاً بظواهرهم دون بواطنهم، والفرق بين الإضرابين: أن الأول رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم، وإثبات الحسد. والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة

اخْتِبَارًا ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي﴾ أَصْحَابِ ﴿بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قِيلَ: هُمْ بَنُو حَنِيفَةَ أَصْحَابُ الْيَمَامَةِ، وَقِيلَ: فَارِسُ وَالرُّومُ[١] ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، هِيَ الْمَدْعُوُّ إِلَيْهَا فِي الْمَعْنَى ﴿أَوْ﴾ هُمْ ﴿يُسْلِمُونَ﴾ فَلَا تُقَاتِلُونَ ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟﴾ إِلَى قِتَالِهِمْ ﴿يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ مُؤْلِمًا[٢]. ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ[٣] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ بِالْحُدَيْبِيَةِ ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هِيَ سَمُرَةٌ، وَهُمْ أَلْفٌ وَثَلَاثُمِائَةٍ أَوْ أَكْثَرَ، ثُمَّ بَايَعَهُمْ عَلَى أَنْ يُنَاجِزُوا قُرَيْشًا وَأَلَّا يَفِرُّوا وَعَلَى الْمَوْتِ[٤] ﴿فَعَلِمَ﴾ اللهُ ﴿مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ

الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعم منه، وهو الجهل وقلة الفقه، وفيه إن الجهل غاية في الذم، وحب الدنيا ليس من شيمة العالم العاقل. [صديق حسن (١٣/ ١٠٢)].

(١) اختلف في هؤلاء القوم على أربعة أقوال الأول: أنهم هوازن ومن حارب النبي ﷺ في غزوة خيبر، والثاني: أنهم الروم إذ دعا رسول الله ﷺ إلى قتالهم في غزوة تبوك، والثالث: أنهم أهل الردة من بني حنيفة وغيرهم الذين قاتلهم أبو بكر الصديق، والرابع: أنهم الفرس، ويتقوى الأول والثاني بأن ذلك ظهر في حياة رسول الله ﷺ، وقوى المنذر بن سعيد القول الثالث بأن الله جعل حكمهم القتل أو الإسلام ولم يذكر الجزية، قال: وهذا لا يوجد إلا في أهل الردة، قلت: وكذلك هو موجود في كفار العرب، إذ لا تؤخذ منهم الجزية فيقوي ذلك. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٨٨)].

(٢) يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم. [ابن كثير (٧/ ٣٣٩)].

(٣) أي: ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج في التخلف عن الغزو وترك الجهاد لعدم استطاعتهم، قال مقاتل: عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية، والحرج الإثم. وعن زيد بن ثابت ﵁ قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ وإني لواضع القلم على أذني إذا أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال: كيف لي وأنا ذاهب البصر؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآية، قال: هذا في الجهاد وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا. أخرجه الطبراني في الكبير (٤٩٢٦)... وهذه أعذار صحيحة ظاهرة، لأن أصحابها لا يقدرون على الكر والفر، وهناك أعذار أخر ... موضعها كتب الفقه دون التفسير. [صديق حسن (١٣/ ١٠٤)].

(٤) أي: رضي الله عنهم وقت تلك البيعة، وهي بيعة الرضوان وكانت بالحديبية، وهذه الشجرة هي سمرة كانت بها، وقيل: سدرة، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا وروي أنه بايعهم على الموت وأتى بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة ... وفي الصحيح عن ابن عمر ﵄ أن الشجرة أخفيت، والحكمة في ذلك أن لا يحصل الافتتان بها لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن تعظيم الجهال لها، حتى ربما اعتقدوا أن لها قوة نفع أو ضر، كما نشاهده الآن فيما دونها، ولذلك أشار ابن عمر بقوله: كان خفاؤها رحمة من الله، كذا في الفتح وشرح المواهب. [صديق حسن]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر ﵁ بلغه أن قوما يأتون الشجرة، فيصلون عندها، فتوعدهم، ثم أمر بقطعها، فقطعت. ولا ينافي ما تقدم، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها، أو توهموها،

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ هُوَ فَتْحُ خَيْبَرَ بَعْدَ انْصِرَافِهِمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ. ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ مِنْ خَيْبَرَ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٩﴾ أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ[1]. ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾ مِنْ الْفُتُوحَاتِ ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ غَنِيمَةَ خَيْبَرَ ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ فِي عِيَالِكُمْ لَمَّا خَرَجْتُمْ وَهَمَّتْ بِهِمْ الْيَهُود، فَقَذَفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴿وَلِتَكُونَ﴾ أَيْ: الْمُعَجَّلَةُ عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ، أَيْ: فَعَلَ ذَلِكَ لِتَشْكُرُوهُ ﴿ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فِي نَصْرِهِمْ ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠﴾ أَيْ: طَرِيق التَّوَكُّل عَلَيْهِ وَتَفْوِيض الْأَمْرِ إِلَيهِ تَعَالَى. ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ صِفَةُ ﴿مَغَانِمَ﴾ مُقَدَّرًا مُبْتَدَأً ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ هِيَ مِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ[2] ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ عَلِمَ أَنَّهَا سَتَكُونُ لَكُمْ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١﴾ أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِالْحُدَيْبِيَةِ ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يَحْرُسُهُمْ ﴿وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ قَبْلَهُ، مِنْ هَزِيمَةِ الْكَافِرِينَ وَنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: سَنَّ اللهُ ذَلِكَ سُنَّةً ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ مِنْهُ. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ بِالْحُدَيْبِيَةِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ فَإِنَّ ثَمَانِينَ مِنْهُمْ طَافُوا بِعَسْكَرِكُمْ لِيُصِيبُوا مِنْكُمْ فَأُخِذُوا وَأُتِيَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الصُّلْحِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ[3]. ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أَيْ: عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾

فاتخذوها مسجدا، ومكانا مقدسا، فقطعها عمر حالتئذ، صونا لعقيدتهم من الشرك، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعد، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها، وإجلال مثال أصحابها. [القاسمي (٨/ ٤٩٨)].

(١) أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر. [السعدي (ص:٧٩٣)].

(٢) عن قتادة: هي مكة. قال ابن جرير: وهذا القول الذي قاله قتادة، أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل. وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها، ومعقول أنه لا يقال لقوم، لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم. فأما وهم لم يرموها فتتعذر عليهم، فلا يقال إنهم لم يقدروا عليها. فإذا كان ذلك كذلك، وكان معلوما أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه، خيبر لحرب، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشا ولا سرية، علم أن المعنى بقوله: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ غيرها، وأنها هي التي عالجها ورامها فتعذرت، فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر الله تعالى نبيه والمؤمنين، أنه أحاط بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم. [القاسمي (٨/ ٥٠٠)].

(٣) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بعملكم أو بجميع ما تعملونه ومنه العفو بعد الظفر ﴿بَصِيرٗا﴾ فيجازيكم عليه. وقرأ أبو عمرو ﴿يَعۡمَلُونَ﴾

معْطُوفٌ عَلَى «كُمْ» ﴿مَعۡكُوفًا﴾ مَحبُوسًا حَالٌ ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أَيْ: مَكَانُهُ الَّذِي يُنْحَرُ فِيهِ عَادَةً وَهُوَ الْحَرَمُ بَدَلُ اشْتِمَالٍ ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ مَوْجُودُونَ بِمَكَّةَ مَعَ الْكُفَّارِ ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ أَيْ: تَقْتُلُوهُمْ مَعَ الْكُفَّارِ لَوْ أُذِنَ لَكُمْ فِي الْفَتْحِ بَدَلَ اشْتِمَالٍ مِنْ: «هُمْ» ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ أَيْ: إِثْم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ مِنْكُمْ بِهِ، وَضَمَائِرُ الْغَيبَةِ لِلصِّنْفَيْنِ بِتَغْلِيبِ الذُّكُورِ وَجَوَابُ ﴿لَوۡلَا﴾ مَحْذُوفٌ، أَيْ: لَأُذِنَ لَكُمْ فِي الْفَتْحِ لَكِنْ لَمْ يُؤْذَنْ فِيهِ حِينَئِذٍ ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ كَالْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورِينَ ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ تَمَيَّزُوا عَنِ الْكُفَّارِ ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ حِينَئِذٍ بِأَنْ نَأْذَنَ لَكُمْ فِي فَتْحِهَا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾ مُؤْلِمًا. ﴿إِذۡ جَعَلَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «عَذَّبْنَا» ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فَاعِلٌ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ﴾ الْأَنَفَةَ مِنَ الشَّيْءِ ﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ بَدَلٌ مِنَ: الْحَمِيَّةِ، وَهِيَ صَدُّهُمُ النَّبِيَّ وَأَصْحَابَهُ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فَصَالَحُوهُمْ عَلَى أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِلٍ، وَلَمْ يَلْحَقْهُمْ مِنَ الْحَمِيَّةِ مَا لَحِقَ الْكُفَّارَ حَتَّى يُقَاتِلُوهُمْ(١) ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ﴾ أَيْ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» وَأُضِيفَتْ إِلَى التَّقْوَى لِأَنَّهَا سَبَبُهَا ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ بِالْكَلِمَةِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَأَهۡلَهَاۚ﴾ عَطْفُ تَفْسِيرِيٍّ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٢٦﴾ أَيْ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ، وَمِنْ مَعْلُومِهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلُهَا(٢). ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ قَبْلَ خُرُوجِهِ أَنَّهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ آمِنِينَ وَيَحْلِقُونَ وَيُقَصِّرُونَ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ فَفَرِحُوا، فَلَمَّا خَرَجُوا مَعَهُ وَصَدَّهُمُ الْكُفَّارُ بِالْحُدَيْبِيَةِ وَرَجَعُوا وَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَرَابَ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ نَزَلَتْ، وَقَوْلُهُ: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿صَدَقَ﴾ أَوْ حَالٌ مِنَ الرُّؤْيَا، وَمَا بَعْدَهَا تَفْسِيرٌ لَهَا ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ﴾ أَيْ: جَمِيعَ شُعُورِهَا ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بَعْضَ شُعُورِهَا، وَهُمَا حَالَانِ مُقَدَّرَتَانِ ﴿لَا تَخَافُونَۖ﴾ أَبَدًا ﴿فَعَلِمَ﴾ فِي الصُّلْحِ ﴿مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ مِنَ الصَّلَاحِ ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: الدُّخُولِ ﴿فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾ هُوَ

بياء الغيبة فالكلام عليه تهديد للكفار. [الآلوسي (١٣/ ٢٦٦)].

(١) أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين. والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس. وقد بين في هذه السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب، وذلك في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]. [الشنقيطي (٧/ ٦٤٤)].

(٢) فيعلم سبحانه حق كل شيء واستئهاله لما يستأهله فيسوق عز وجل الحق إلى مستحقه والمستأهل إلى مستأهله، أو فيعلم هذا ويعلم ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إنزال السكينة والرضا بالصلح فيكون تذييلا لجميع ما تقدم. [الآلوسي (١٣/ ٢٧٣)].

فَتحُ خَيْبَرَ وَتَحَقَّقَتْ الرُّؤْيَا فِي الْعَامِ الْقَابِلِ(١). ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أَيْ: دِينِ الْحَقِّ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ عَلَى جَمِيعِ بَاقِي الْأَدْيَانِ(٢) ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ أَنَّكَ مُرْسَلٌ بِمَا ذُكِرَ. كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ خَبَرُهُ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أَيْ: أَصْحَابُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُبْتَدَأٌ، خَبَرهُ ﴿أَشِدَّآءُ﴾ غِلَاظٌ ﴿عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ لَا يَرْحَمُونَهُمْ ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، أَيْ: مُتَعَاطِفُونَ مُتَوَادُّونَ كَالْوَالِدِ مَعَ الْوَلَدِ(٣) ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ تُبْصِرهُمْ ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ حَالَانِ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ مُسْتَأْنَفٌ يَطْلُبُونَ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ﴾ عَلَامَتهمْ، مُبْتَدَأٌ ﴿فِى وُجُوهِهِم﴾ خَبَرُهُ، وَهُوَ: نُورٌ وَبَيَاضٌ يُعْرَفُونَ بِهِ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُمْ سَجَدُوا فِي الدُّنْيَا(٤) ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَا تَعَلَّقَ بِهِ الْخَبَر، أَيْ: كَائِنَةٌ، وَأُعْرِبَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِهِ الْمُنْتَقِلِ إِلَى الْخَبَرِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْوَصْفُ الْمَذْكُورُ ﴿مَثَلُهُمْ﴾

---

(١) وقيل: بيعة الرضوان، وقيل: صلح الحديبية، وهذا هو الأصح لأن عمر رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أفتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم. وقيل: هو فتح مكة وهذا ضعيف، لأن معنى قوله: ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ قبل دخول المسجد الحرام، وإنما كان فتح مكة بعد ذلك، فإن الحديبية كانت عام ستة من الهجرة وعمرة القضية عام سبعة وفتح مكة عام ثمانية. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٩٢)].

(٢) ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده التي هي الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقا من بعض الأحكام المتبدلة بتبدل الأعصر وإظهار بطلان ما كان باطلا، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون، وفيه فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة. [أبو السعود (٨/ ١١٣)].

(٣) كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيما برا بالأخيار، غضوبا عبوسا في وجه الكافر، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ». أخرجه البخاري (٣٠١١) ومسلم (٢٥٨٦). وقال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وشبك بين أصابعه. أخرجه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥). [ابن كثير (٧/ ٣٦٠)].

(٤) السيما: العلامة، وفيها لغتان المد والقصر، أي: يظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة لكثرة التعبد بالليل والنهار، وقال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفراً فجعل هذا هو السيما، وقال الزهري: مواضع السجود أشد وجوههم بياضـاً، وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع وبالأول -أعنى كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود- قال به سعيد بن جبير ومالك، وقال ابن جريج: هو الوقار، وقال الحسن: إذا رأيتهم رأيتهم مرضى وما هم بمرضى، وقيل: هو البهاء في الوجه وظهور الأنوار عليه، وبه قال سفيان الثوري، قال ابن عباس: أما إنه ليس الذي ترونه، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وعنه قال: هو السمت الحسن. [صديق حسن (١٣/ ١١٩)].

صِفَتهم، مُبْتَدَأٌ ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ خَبَرُهُ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ بِسُكُونِ الطَّاءِ وَفَتْحِهَا فِرَاخَهُ ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ قَوَّاهُ وَأَعَانَهُ ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ غَلُظَ ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ قَوِيَ وَاسْتَقَامَ ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أُصُولِهِ جَمْعُ سَاقٍ ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أَيْ: زُرَّاعُهُ لِحُسْنِهِ، مَثَّلَ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ بَدَأُوا فِي قِلَّةٍ وَضَعْفٍ فَكَثُرُوا وَقَوُوا عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ(١) ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، أَيْ: شُبِّهُوا بِذَلِكَ(٢) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ الصَّحَابَةُ، وَ«مِنْ» لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ بِالصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ(٣) ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ٢٩﴾ الْجَنَّةُ، وَهُمَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ أَيْضًا فِي آيَاتٍ(٤).

---

(١) هذه الآية الكريمة قد بين الله فيها أنه ضرب المثل في الإنجيل للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم كالزرع يظهر في أول نباته رقيقا ضعيفا متفرقا، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكذلك النبي ﷺ وأصحابه كانوا في أول الإسلام في قلة وضعف ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة حتى بلغوا ما بلغوا ... وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم يكونون في مبدأ أمرهم في قلة وضعف، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون جاء موضحا في آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦]. [الشنقيطي (٧/ ٦٤٥)].

(٢) تعليل لما دل عليه المثل المتقدم من قوة المسلمين، فهو يتعلق بفعل يدل عليه الكلام تقديره: جعلهم الله كذلك ليغيظ بهم الكفار. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٩٣)].

(٣) معنى: ﴿مِنْهُم﴾ للبيان، كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقال ابن عطية: وقوله ﴿مِنْهُم﴾ لبيان الجنس وليست للتبعيض؛ لأنه وعد مدح الجميع ... وذكر عند مالك بن أنس رجل ينتقص الصحابة، فقرأ مالك هذه الآية وقال: من أصبح بين الناس في قلبه غيظ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية. [أبو حيان (٩/ ٥٠٣)].

(٤) أي: بعد الصحابة من التابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١] ونحو ذلك من الآيات. [صديق حسن (١٣/ ١٢٤)].

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ مِنْ «قَدَّمَ» بِمَعْنَى: تَقَدَّمَ، أَيْ: لَا تَقَدَّمُوا بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الْمُبَلِّغُ عَنْهُ، أَيْ: بِغَيْرِ إِذْنِهِمَا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِقَوْلِكُمْ ﴿عَلِيمٌ ①﴾ بِفِعْلِكُمْ، نَزَلَتْ فِي مُجَادَلَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَأْمِيرِ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَوْ الْقَعْقَاعُ بْنُ مَعْبَدٍ[1]. وَنَزَلَ فِيمَنْ رَفَعَ صَوْتَه عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إِذَا نَطَقْتُمْ ﴿فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إِذَا نَطَقَ ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ إِذَا نَاجَيْتُمُوهُ ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ بَلْ دُونَ ذَلِكَ إِجْلَالًا لَهُ[2] ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ②﴾ أَيْ: خَشْيَةَ ذَلِكَ بِالرَّفْعِ وَالْجَهْرِ الْمَذْكُورَيْنِ. وَنَزَلَ فِيمَنْ كَانَ يَخْفِضُ صَوْتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَغَيْرِهِمَا رضي الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ﴾ اخْتَبَرَ ﴿قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ أَيْ: لِتَظْهَرَ مِنْهُمْ[3] ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ③﴾ الْجَنَّةُ. وَنَزَلَ فِي قَوْمٍ جَاءُوا وَقْتَ الظَّهِيرَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ

---

(١) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر رضي الله عنه: أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حتى انقضت الآية. أخرجه البخاري (٤٨٤٧). قال ابن عباس رضي الله عنهما نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه، وهذا يشمل معارضة السنة والكتاب بالرأي، والتقليد أيضاً. [صديق حسن (١٣/ ١٣٠)].

(٢) المراد حقيقة رفع الصوت، لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام، لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير ... قال المفسرون: المراد من الآية تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، وأن لا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً وهذا نهي عن قول، كما أن قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ نهي عن فعل. [صديق حسن (١٣/ ١٣١)]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، جلس ثابت بن قيس رضي الله عنه في بيته وقال: أنا من أهل النار واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: يا أبا عمرو ما شأن ثابت أشتكى؟ فقال سعد: إنه لجاري وما علمت له شكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». أخرجه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩).

(٣) قال الفراء: أي: أخلصها للتقوى. وقال الأخفش: أي: اختصها للتقوى. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طهرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف

فِي مَنْزِلِهِ فَنَادَوْهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ حُجُرَاتِ نِسَائِهِ ﷺ جَمْعُ «حُجْرَةٍ»، وَهِيَ: مَا يُحْجَر عَلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ بِحَائِطٍ وَنَحْوِه، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَادَى خَلْفَ حُجْرَةٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوهُ فِي أَيِّ حُجْرَة، مُنَادَاةُ الْأَعْرَابِ بِغِلْظَةٍ وَجَفَاءٍ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ فِيمَا فَعَلُوهُ، مَحَلَّكَ الرَّفِيعَ وَمَا يُنَاسِبهُ مِنْ التَّعْظِيمِ[١]. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ ﴿أَنَّهُمْ﴾ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ بِالِابْتِدَاءِ، وَقِيلَ: فَاعِلٌ لِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: ثَبَتَ ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ لِمَنْ تَابَ مِنْهُمْ. وَنَزَلَ فِي الْوَلِيدِ بْن عُقْبَةَ وَقَدْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ مُصَدِّقًا، فَخَافَهُمْ لِتِرَةٍ كَانَتْ بَيْنه وَبَيْنهمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَرَجَعَ، وَقَالَ: إِنَّهُمْ مَنَعُوا الصَّدَقَةَ وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ فَهَمَّ النَّبِيُّ ﷺ بِغَزْوِهِمْ، فَجَاؤُوا مُنْكِرِينَ مَا قَالَهُ عَنْهُمْ[٢]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ خَبَرٍ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ مِنَ الثَّبَاتِ[٣] ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: خَشْيَةَ ذَلِكَ ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ، أَيْ: جَاهِلِينَ ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ تَصِيرُوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ مِنَ الْخَطَأِ بِالْقَوْمِ ﴿نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾ وَأَرْسَلَ ﷺ إِلَيْهِمْ بَعْدَ عَوْدِهِمْ إِلَى بِلَادِهِم خَالِدًا، فَلَمْ يَرَ فِيهِمْ إِلَّا الطَّاعَة وَالْخَيْر، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ بِذَلِكَ. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ﴾ فَلَا تَقُولُوا الْبَاطِلَ، فَإِنَّ اللهَ يُخْبِرهُ بِالْحَالِ ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الَّذِي تُخْبِرُونَ بِهِ عَلَى خِلَافِ الْوَاقِعِ،

من الله والتقوى. وقال عمر رضي الله عنه: أذهب عن قلوبهم الشهوات. والامتحان افتعال من محنت الأديم محنا حتى أوسعته. فمعنى: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ وسعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها، كقولك: امتحنت الفضة، أي: اختبرتها حتى خلصت. ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص. وقال أبو عمرو: كل شيء جهدته فقد محنته. [القرطبي (١٦/ ٣٠٩)].

(١) أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في قوم حفاة أجلاف من بني تميم قدموا على النبي ﷺ لفداء ذرارٍ لهم سبيت، وكان النبي ﷺ قد نام للقائلة، فجعلوا ينادونه: يا محمد اخرج إلينا، ولم يعلموا في أي حجرة هو من حجر نسائه، فكانوا يطوفون على الحجر وينادونه: يا محمد اخرج إلينا، وهذا قول جابر وابن عباس والمقاتلين ومجاهد والكلبي. [الواحدي (٢٠/ ٣٤٧)]. فكان في فعلهم ذلك جفاء وبداوة وقلة توقير ... ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون فيهم قليل ممن يعقل ونفي العقل عن أكثرهم لا عن جميعهم، والآخر أن يكون جميعهم ممن لا يعقل، وأوقع القلة موضع النفي والأول أظهر في مقتضى اللفظ. والثاني أبلغ في الذم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٩٥)].

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٥٩).

(٣) ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قرأ الجمهور من التبين، وقرىء: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ من التثبت، والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت الإفادة وعدم العجلة، والتبصر بالأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر، وفي تنكير الفاسق والنبأ شياع في الفساق والأنباء كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا على قول الفاسق لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. [صديق حسن (١٣/ ١٣٦)].

فَيُرَتِّبُ عَلَى ذَلِكَ مُقْتَضَاهُ ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ لَأَثِمْتُمْ دُونه إثم التَّسَبُّب إِلَى الْمُرَتِّبِ[(١)] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ﴾ حَسَّنَهُ ﴿فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ اسْتِدْرَاكٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ مَنْ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْإِيمَانَ إِلَى آخِرِهِ، غَايَرَتْ صِفَتُهُ صِفَةَ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ[(٢)] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ. ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، أَيْ: أَفْضَلُ ﴿وَنِعْمَةً﴾ مِنْهُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِهِمْ ﴿حَكِيمٌ ۝٨﴾ فِي إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْآيَة نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةٍ: هِيَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا وَمَرَّ عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ، فَبَالَ الْحِمَارُ فَسَدَّ ابْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ، فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: وَاللهِ لَبَوْلُ حِمَارِهِ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْ مِسْكِكَ، فَكَانَ بَيْنَ قَوْمَيْهِمَا ضَرْبٌ بِالْأَيْدِي وَالنِّعَالِ وَالسَّعَفِ[(٣)] ﴿ٱقْتَتَلُواْ﴾ جُمِعَ نَظَرًا إِلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ جَمَاعَةٌ، وَقُرِئَ: ﴿ٱقْتَتَلَتَا﴾[(٤)] ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ ثُنِّيَ نَظَرًا إِلَى اللَّفْظِ[(٥)] ﴿فَإِنۢ بَغَتْ﴾ تَعَدَّتْ ﴿إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾ تَرْجِعَ ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الْحَقِّ ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾

---

(١) أي: لشقيتم، والعنت المشقة، وإنما قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ولم يقل: «لو أطاعكم»، للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته ﷺ لهم، والحق خلاف ذلك، وإنما الواجب أن يطيعوه هم لا أن يطيعهم هو، وذلك أن رأي رسول الله ﷺ خير وأصوب من رأي غيره، ولو أطاع الناس في رأيهم لهلكوا، فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٩٦)].

(٢) وفي هذه الآية لطيفة وهو أن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه الثلاثة الأشياء في مقابلة الإيمان الكامل وهو ما اجتمع فيه ثلاثة أمور، إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان، والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان. [صديق حسن (١٣/ ١٣٩)].

(٣) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حمارا، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾. أخرجه البخاري (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩).

(٤) قراءة شاذة.

(٥) سماهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». أخرجه البخاري (٢٧٠٤). فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة. [ابن كثير (٧/ ٣٧٤)].

بالإِنْصَافِ ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ﴾ اعْدِلُوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فِي الدِّينِ[1] ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ إِذَا تَنَازَعَا، وَقُرِئَ: ﴿إِخْوَتِكُمْ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ[2] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ تَمِيمٍ حِينَ سَخِرُوا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَعَمَّارٍ وَصُهَيْبٍ[3]، وَالسُّخْرِيَّةُ: الِازْدِرَاءُ وَالِاحْتِقَارُ ﴿قَوْمٌ﴾ أَيْ: رِجَالٌ مِنْكُمْ ﴿مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ عِنْدَ اللهِ[4] ﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾ مِنْكُمْ ﴿مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لَا تَعِيبُوا فَتُعَابُوا، أَيْ: لَا يَعِبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ﴾ لَا يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلَقَبٍ يَكْرَهُهُ، وَمِنْهُ: يَا فَاسِقُ وَيَا كَافِرُ ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ﴾ أَيْ: الْمَذْكُورُ مِنَ السُّخْرِيَّةِ وَاللَّمْزِ وَالتَّنَابُزِ ﴿ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾ بَدَلٌ مِنْ «الِاسْمِ»، لِإِفَادَتِهِ أَنَّهُ فِسْقٌ لِتَكَرُّرِهِ عَادَةً[5] ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ مِنْ ذَلِكَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾ أَيْ: مُؤْثِمٌ وَهُوَ كَثِيرٌ كَظَنِّ

---

(١) هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون، ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له، ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ آمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ أَحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -، حَسْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ». أخرجه مسلم (١٦٦٣). وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وشبك ﷺ بين أصابعه. أخرجه البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥). ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييدا لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم. [السعدي (ص:٨٠٠)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) أورده السيوطي في الدر: (٧/ ٥٦٣).

(٤) ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ». ويروى: «وَغَمْطُ النَّاسِ». أخرجه مسلم (٩١). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له. [ابن كثير (٧/ ٣٧٦)].

(٥) أي: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتهارهم به، فإن الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، والمراد به: ... أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الإيمان قبيح. [أبو السعود (٨/ ١٢١)].

اَلسَّوْءِ بِأَهْلِ اَلْخَيْرِ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ كَثِيرٌ، بِخِلَافِهِ بِالْفُسَّاقِ مِنْهُمْ فَلَا إِثْمَ فِيهِ، فِي نَحْوِ مَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ[١] ﴿**وَلَا تَجَسَّسُواْ**﴾ حُذِفَ مِنْهُ إِحْدَى اَلتَّاءَيْنِ، وَلَا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِ اَلْمُسْلِمِينَ وَمَعَايِبَهُمْ بِالْبَحْثِ عَنْهَا ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ**﴾ لَا يَذْكُرُهُ بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ[٢] ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد، أَيْ: لَا يَحْسُنُ بِهِ ﴿**فَكَرِهْتُمُوهُۚ**﴾ أَيْ: فَاغْتِيَابُهُ فِي حَيَاتِهِ كَأَكْلِ لَحْمِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ، وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْكُمُ اَلثَّانِي فَكَرِهْتُمُوهُ، فَاكْرَهُوا اَلْأَوَّلَ[٣] ﴿**وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ**﴾ أَيْ: عِقَابَهُ فِي الِاغْتِيَابِ بِأَنْ تَتُوبُوا مِنْهُ ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ**﴾ قَابِلٌ تَوْبَةَ التَّائِبِينَ ﴿**رَّحِيمٌ ١٢**﴾ بِهِمْ. ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ**﴾ آدَمُ وَحَوَّاءُ ﴿**وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا**﴾ جَمْعُ شَعْبٍ بِفَتْحِ الشِّينِ هُوَ أَعْلَى طَبَقَاتِ النَّسَبِ ﴿**وَقَبَآئِلَ**﴾ هِيَ دُونَ الشُّعُوبِ وَبَعْدَهَا الْعَمَائِرُ ثُمَّ الْبُطُونُ ثُمَّ الْأَفْخَاذُ ثُمَّ الْفَصَائِلُ آخِرُهَا، مِثَالُهُ: خُزَيْمَة شَعْبٌ، كِنَانَة قَبِيلَةٌ، قُرَيْش عِمَارَةٌ بِكَسْرِ الْعَيْنِ، قُصَيٌّ بَطْنٌ، هَاشِمٌ فَخْذٌ، الْعَبَّاسُ فَصِيلَةٌ

---

(١) فيه تأديب عظيم يبطل ما كان فاشيا في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد، والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرا من اعتداء مظنون ظنا باطلا، ... وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ... وقال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ». أخرجه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣). ولما جاء الأمر في هذه الآية باجتناب كثير من الظن علمنا أن الظنون الآثمة غير قليلة، فوجب التمحيص والفحص لتمييز الظن الباطل من الظن الصادق. والمراد بـ«الظن» هنا: الظن المتعلق بأحوال الناس، وحذف المتعلق لتذهب نفس السامع إلى كل ظن ممكن هو إثم. [ابن عاشور (٢٦/ ٢٥١)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ». أخرجه أبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٥).

(٣) شبه الله الغيبة بأكل لحم ابن آدم ميتاً، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم، ثم زاد في تقبيحه أن جعله ميتاً لأن الجيفة مستقذرة، ويجوز أن يكون ميتاً حال من الأخ أو من لحمه، وقيل: فكرهتموه إخبار عن حالهم بعد التقرير. كأنه لما قررهم قال: هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟ أجابوا فقالوا: لا نحب ذلك، فقال لهم: فكرهتموه، وبعد هذا محذوف تقديره: فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي تشبهه، وحذف هذا لدلالة الكلام عليه، وعلى هذا المحذوف يعطف قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، قال أبو علي الفارسي، وقال الرماني: كراهة هذا اللحم يدعو إليها الطبع، وكراهة الغيبة يدعو إليها العقل، وهو أحق أن يجاب لأنه بصير عالم، والطبع أعمى جاهل، وقال الزمخشري: في هذه الآية مبالغات كثيرة منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم، والإشعار بأن أحد من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله ميتاً، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله أخاً له. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٩٨)].

﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ حُذِفَ مِنْهُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ لِيَعْرِفَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لَا لِتُفَاخِرُوا بِعُلُوِّ النَّسَبِ وَإِنَّمَا الْفَخْرُ بِالتَّقْوَى[1] ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بِكُمْ ﴿خَبِيرٞ ١٣﴾ بِبَوَاطِنِكُمْ. ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ نَفَرٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ﴿ءَامَنَّاۖ﴾ صَدَّقْنَا بِقُلُوبِنَا ﴿قُل﴾ لَهُمْ: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ انْقَدْنَا ظَاهِرًا[2] ﴿وَلَمَّا﴾ أَيْ: لَمْ ﴿يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ إِلَى الْآنَ، لَكِنَّهُ يُتَوَقَّعُ مِنْكُمْ ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بِالْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ وَبِإِبْدَالِهِ أَلِفًا: لَا يُنْقِصْكُمْ ﴿مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾ أَيْ: مِنْ ثَوَابِهَا ﴿شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَّحِيمٌ ١٤﴾ بِهِمْ. ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أَيْ: الصَّادِقُونَ فِي إِيمَانِهِمْ كَمَا صَرَّحَ بِهِ بَعْدُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ يَشُكُّوا فِي الْإِيمَانِ ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فَجِهَادُهُمْ يَظْهَرُ بِصِدْقِ إِيمَانِهِمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ فِي إِيمَانِهِمْ، لَا مَنْ قَالُوا آمَنَّا، وَلَمْ يُوجَدْ مِنْهُمْ غَيْرُ الْإِسْلَامِ. ﴿قُلۡ﴾ لَهُمْ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ مُضَعَّفُ «عَلِمَ» بِمَعْنَى شَعَرَ، أَيْ: أَتُشْعِرُونَهُ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فِي قَوْلِكُمْ: آمَنَّا ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ قِتَالِهِ مِنْهُمْ ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ الْبَاءِ، وَيُقَدَّرُ قَبْلَ «أَنْ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾ فِي قَوْلِكُمْ: آمَنَّا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أَيْ: مَا غَابَ فِيهِمَا ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قالوا: نعم، قال: «فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا». أخرجه البخاري (٤٦٨٩)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٢) استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئا، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلانا وفلانا ولم تعط فلانا شيئا، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ» حتى أعادها سعد ثلاثا، والنبي ﷺ يقول: «أَوْ مُسْلِمٌ»، ثم قال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأُعْطِي رِجَالًا وَأَدَعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ، لَا أُعْطِيهِ شَيْئًا مَخَافَةَ أَنْ يُكَبُّوا فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ». أخرجه البخاري (٢٧) ومسلم (١٥٠). فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام ... ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلما ليس منافقا؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك. [ابن كثير (٧/ ٣٨٩)].

سُورَةُ ق

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ﴾ الْآيَةَ فَمَدَنِيَّةٌ، خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ﴾ اللهُ أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِهِ(٢) ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ①﴾ الْكَرِيم(٣). مَا آمَنَ كُفَّار مَكَّة بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ يُخَوِّفهُمْ بِالنَّارِ بَعْدَ الْبَعْثِ ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا﴾ الْإِنْذَارُ ﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ ②أَإِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ ﴿مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نَرْجِعُ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③﴾ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ﴾ تَأْكُلُ(٤) ﴿مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، فِيهِ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ الْمُقَدَّرَةِ(٥). ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ بِالْقُرْآنِ(٦) ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ﴾ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ... والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة وحزب المفصل وحده. فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة (ق)، بيانه: ثلاث: «البقرة وآل عمران والنساء». وخمس: «المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة». وسبع: «يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل». وتسع: «سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان». وإحدى عشرة: «الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وألم السجدة وسبأ وفاطر ويس». وثلاث عشرة: «الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات». ثم بعد ذلك الحزب المفصل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم، فتعين أن أوله سورة (ق). [القاسمي (٩/ ٣)].

(٢) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٣) المجيد: ذو المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد، أو لأن من علم معانيه وامتثل أحكامه مَجُد. [البيضاوي (٥/ ١٣٩)].

(٤) هذا رد على الكفار في إنكارهم للبعث معناه: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم من لحومهم وعظامهم فلا يصعب علينا بعثهم، قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ». أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥). وقيل: المعنى قد علمنا ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم، والأول قول ابن عباس والجمهور وهو أظهر. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٠٠)].

(٥) حافظ لتفاصيل الأشياء كلها أو محفوظ من التغير، والمراد: إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء، أو تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده. [أبو السعود (٨/ ١٢٦)].

(٦) إضراب أتبع الإضراب الأول، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم، وهو التكذيب بالحق، الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة، من غير تفكر، ولا تدبر. [النسفي (٣/ ٣٦٢)].

وَالْقُرْآنِ ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ مُضْطَرِبٍ(١)، قَالُوا مَرَّةً: سَاحِرٌ وَسِحْرٌ، وَمَرَّةً: شَاعِرٌ وَشِعْرٌ، وَمَرَّةً: كَاهِنٌ وَكِهَانَةٌ. ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ بِعُيُونِهِمْ مُعْتَبِرِينَ بِعُقُولِهِمْ حِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ كَائِنَةً ﴿فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ بِلَا عَمَدٍ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بِالْكَوَاكِبِ ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ شُقُوقٍ تَعِيبُهَا. ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعِ ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ كَيْفَ ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ دَحَوْنَاهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ(٢) ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جِبَالًا تُثَبِّتُهَا(٣) ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صِنْفٍ ﴿بَهِيجٍ ۝٧﴾ يُبْهِجُ بِهِ لِحُسْنِهِ. ﴿تَبْصِرَةً﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: فَعَلْنَا ذَلِكَ تَبْصِيرًا مِنَّا ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ تَذْكِيرًا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ رَاجِعٍ إِلَى طَاعَتِنَا(٤). ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كَثِيرَ الْبَرَكَةِ ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَحَبَّ﴾ الزَّرْعِ ﴿ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ الْمَحْصُودِ. ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ طِوَالًا حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾

---

(١) يقال للشيء المُخلَّى قد اختلط بعضه ببعض: مريج، ومنه قوله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُغَرْبَلُونَ فِيهِ غَرْبَلَةً، يَبْقَى مِنْهُمْ حُثَالَةٌ، قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا». وشبك بين أصابعه. أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم في (٤٨٠) مختصرًا، وأخرجه موصولًا أبو داود (٤٣٤٢)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، وأحمد (٦٥٠٨). ... وأصله على هذا من قوله: مرج الشيء، إذا أرسله وخلاه، ومرج دابته، خلاها، ومنه قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٩]، والمريج المهمل والمهمل يختلط، فسمي المختلط مريجًا. [الواحدي (٢٠/ ٣٨١)].

(٢) المد: البسط، أي: بسطنا الأرض فلم تكن مجموع نتوءات إذ لو كانت كذلك لكان المشي عليها مرهقا. والمراد: بسط سطح الأرض وليس المراد وصف حجم الأرض لأن ذلك لا تدركه المشاهدة ولم ينظر فيه المخاطبون نظر التأمل فيستدل عليهم بما لا يعلمونه فلا يعتبر في سياق الاستدلال على القدرة على خلق الأمور العظيمة، ولا في سياق الامتنان بما في ذلك الدليل من نعمة فلا علاقة لهذه الآية بقضية كروية الأرض. [ابن عاشور (٢٦/ ٢٨٨)].

(٣) الرسو: الثبات والقرار. وفائدة هذا الوصف زيادة التنبيه إلى بديع خلق الله إذ جعل الجبال متداخلة مع الأرض ولم تكن موضوعة عليها وضعا كما توضع الخيمة لأنها لو كانت كذلك لتزلزلت وسقطت وأهلكت ما حواليها. [ابن عاشور (٢٦/ ٢٨٨)].

(٤) حذف متعلق تبصرة وذكرى ليعم كل ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث كما هو السياق تصريحا وتلويحا. وإنما كانت التبصرة والذكرى علة للأفعال المذكورة لأن التبصرة والذكرى من جملة الحكم التي أوجد الله تلك المخلوقات لأجلها. وليس ذلك بمقتض انحصار حكمة خلقها في التبصرة والذكرى، لأن أفعال الله تعالى لها حكم كثيرة علمنا بعضها وخفي علينا بعض ... والتبصير: جعل المرء مبصرا وهو هنا مجاز في إدراك النفس إدراكا ظاهرا للأمر الذي كان خفيا عنها فكأنها لم تبصره ثم أبصرته. والمنيب: الراجع، والمراد هنا الراجع إلى الحق بطاعة الله فإذا انحرف أو شغله شاغل ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال فلا يفارقه حال الطاعة وإذا فارقه قليلا آب إليه وأناب. وخص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى وإن كان فيما ذكر من أحوال الأرض إفادة التبصرة والذكرى لكل أحد؛ لأن العبد المنيب هو الذي ينتفع بذلك فكأنه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال. وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصر والتذكر. [ابن عاشور (٢٦/ ٢٩٠)].

مُتَرَاكِبٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ مفعُولٌ لَهُ ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يَسْتَوِي فِيهِ الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ هَذَا الْإِحْيَاءِ ﴿ٱلْخُرُوجُ ١١﴾ مِنَ الْقُبُورِ فَكَيْفَ تُنْكِرُونَهُ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ نَظَرُوا وَعَلِمُوا مَا ذُكِرَ. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تَأْنِيثُ الْفِعْلِ لِمَعْنَى ﴿قَوْمُ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ هِيَ بِئْرٌ كَانُوا مُقِيمِينَ عَلَيْهَا بِمَوَاشِيهِمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَنَبِيُّهُمْ قِيلَ: حَنْظَلَةَ بْنَ صَفْوَانٍ، وَقِيلَ: غَيْرُهُ ﴿وَثَمُودُ ١٢﴾ قَوْمُ صَالِحٍ. ﴿وَعَادٌ﴾ قَوْمُ هُودٍ ﴿وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ الْغَيْضَةِ قَوْمُ شُعَيْبٍ ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هُوَ مَلِكٌ كَانَ بِالْيَمَنِ، أَسْلَمَ وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَكَذَّبُوهُ ﴿كُلٌّ﴾ مِنَ الْمَذْكُورِينَ ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ كَقُرَيْشٍ ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ وَجَبَ نُزُولُ الْعَذَابِ عَلَى الْجَمِيعِ فَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ مِنْ كُفْرِ قُرَيْشٍ بِكَ. ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أَيْ: لَمْ نَعْيَ بِهِ فَلَا نَعْيَا بِالْإِعَادَةِ ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ شَكٍّ ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ١٥﴾ وَهُوَ الْبَعْثُ[1]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ﴾ حَالٌ بِتَقْدِيرِ «نَحْنُ» ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿تُوَسْوِسُ﴾ تُحَدِّثُ ﴿بِهِۦ﴾ الْبَاءُ زَائِدَةٌ أَوْ لِلتَّعْدِيَةِ وَالضَّمِيرُ لِلْإِنْسَانِ ﴿نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ بِالْعِلْمِ[2] ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ الْإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ وَالْوَرِيدَانِ عِرْقَانِ بِصَفْحَتَيِ الْعُنُقِ. ﴿إِذْ﴾ نَاصِبُهُ «اُذْكُرْ» مُقَدَّرًا ﴿يَتَلَقَّى﴾ يَأْخُذُ وَيُثْبِتُ ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بِالْإِنْسَانِ مَا يَعْمَلُهُ ﴿عَنِ

---

(١) ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة؟! فالهمزة للإنكار. قال الشهاب: العي هنا بمعنى العجز، لا التعب. قال الكسائي: تقول: أعييت من التعب، وعييت من انقطاع الحيلة، والعجز عن الأمر. وهذا هو المعروف والأفصح، وإن لم يفرق بينهما كثير. و«الخلق الأول» هو الإبداء على ما ذكر، ويحتمل أن يراد به خلق السماوات والأرض؛ لأن خلق الإنسان متأخر عنه، ويدل له آية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣] الآية. وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عطف على مقدر، يدل عليه ما قبله، كأنه قيل: هم معترفون بالخلق الأول، فلا وجه لإنكارهم للثاني، بل هم اختلط عليهم الأمر والتبس؛ لعدم فهمهم إعادة ما مات وتفرق أجزاؤه وإعراضهم عن سلطان القدرة الإلهية، وسهولة ذلك في المقدورات الربانية. [القاسمي (٩/ ١٠)].

(٢) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يعني ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن بإذن الله عز وجل، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فللملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ». أخرجه البخاري (٢٠٣٩)، ومسلم (٢١٧٤). كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. [ابن كثير (٧/ ٣٩٨)].

﴿ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ مِنْهُ ﴿قَعِيدٌ ١٧﴾ أَيْ: قَاعِدَانِ وَهُوَ مُبْتَدأٌ خَبَرُهُ مَا قَبْلَهُ(١). ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حَافِظٌ ﴿عَتِيدٌ ١٨﴾ حَاضِرٌ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا بِمَعْنَى الْمُثَنَّى(٢). ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ غَمْرَتُهُ وَشِدَّتُهُ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ حَتَّى يَرَاهُ الْمُنْكِرُ لَهَا عِيَانًا، وَهُوَ نَفْسُ الشِّدَّةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: الْمَوْتُ ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩﴾ تَهْرُبُ وَتَفْزَعُ. ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لِلْبَعْثِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: يَوْمُ النَّفْخِ ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ٢٠﴾ لِلْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ. ﴿وَجَآءَتْ﴾ فِيهِ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ إِلَى الْمَحْشَرِ ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ مَلَكٌ يَسُوقُهَا إِلَيْهِ ﴿وَشَهِيدٌ ٢١﴾ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا وَهُوَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ وَغَيْرُهَا(٣). وَيُقَالُ لِلْكَافِرِ(٤): ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ النَّازِلِ بِكَ الْيَوْمَ ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أَزَلْنَا غَفْلَتَكَ بِمَا تُشَاهِدُهُ الْيَوْمَ ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ٢٢﴾ حَادٌّ تُدْرِكُ بِهِ مَا أَنْكَرْتَهُ فِي الدُّنْيَا. ﴿وَقَالَ

---

(١) أي: قاعد، ولم يقل: قعيدان، لأنه أراد: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فاكتفى بأحدهما عن الآخر، هذا قول أهل البصرة. وقال أهل الكوفة: أراد: قعودا، كالرسول فجعل للاثنين والجمع، كما قال الله تعالى في الاثنين: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم. وقال مجاهد: القعيد الرصيد. [البغوي (٧/ ٣٥٨)].

(٢) أي: ما يتكلم من كلام فيلفظه ويرميه من فيه إلا لدى ذلك اللافظ ملك يرقب قوله ويكتب، والرقيب الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر، فكاتب الخير هو ملك اليمين. وكاتب الشر ملك الشمال. والعتيد الحاضر المهيأ. قال الجوهري: العتيد المهيأ. ومنه: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١] والمراد ههنا أنه معد للكتابة مهيأ لها. والإفراد في رقيب عتيد مع اطلاعهما معًا على ما صدر منه لما أن كل منهما رقيب لما فوض إليه لا لما فوض لصاحبه كما ينبئ عنه قوله: عتيد. وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص. [صديق حسن (١٣/ ١٦٩)]. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ». أخرجه: مالك (٢٨١٨)، والترمذي (٢٣١٩). [ابن كثير (٧/ ٣٩٨)].

(٣) السائق ملك يسوقه، وأما الشهيد فقيل: ملك آخر يشهد عليه وهو الأظهر، وقيل: صحائف الأعمال، وقيل: جوارح الإنسان. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٠٢)].

(٤) وقيل: للإنسان مطلقا، لقوله: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ والمقصود أنه كشف الغطاء عن البر والفاجر، ورأى كل ما يصير إليه. وعول ابن جرير في الأولوية عليه. قال الزمخشري: جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى بها جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئا، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق. [القاسمي (٩/ ٢٠)].

﴿قَرِينُهُۥ﴾ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: ﴿هَٰذَا مَا﴾ أَيْ: الَّذِي ﴿لَدَيَّ عَتِيدٌ ٢٣﴾ حَاضِرٌ. فَيُقَالُ لِمَالِكٍ: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ أَيْ: أَلْقِ أَلْقِ، أَوْ «أَلْقِيَنْ»، وَبِهِ قَرَأَ الْحَسَنُ(١)، فَأُبْدِلَتْ النُّونُ أَلِفًا ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ٢٤﴾ مُعَانِدٍ لِلْحَقِّ. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كَالزَّكَاةِ ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظَالِمٍ ﴿مُّرِيبٍ ٢٥﴾ شَاكٍّ فِي دِينِهِ. ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مُبْتَدَأٌ ضُمِّنَ مَعْنَى الشَّرْطِ، خَبَرُهُ: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾ *﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الشَّيْطَانُ ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أَضْلَلْتُهُ ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ٢٧﴾ فَدَعَوْتُهُ فَاسْتَجَابَ لِي، وَقَالَ: هُوَ أَطْغَانِي بِدُعَائِهِ لَهُ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ أَيْ: مَا يَنْفَعُ الْخِصَامُ هُنَا ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿بِٱلْوَعِيدِ ٢٨﴾ بِالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ لَوْ لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلَا بُدَّ مِنْهُ. ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ يُغَيَّرُ ﴿ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٢٩﴾ فَأُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ، وَ«ظَلَّامٍ» بِمَعْنَى: ذِي ظُلْمٍ. لِقَوْلِهِ: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]. ﴿يَوْمَ﴾ نَاصِبُهُ «ظَلَّامٍ» ﴿نَقُولُ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ اسْتِفْهَامُ تَحْقِيقٍ لِوَعْدِهِ بِمَلْئِهَا ﴿وَتَقُولُ﴾ بِصُورَةِ الِاسْتِفْهَامِ كَالسُّؤَالِ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ٣٠﴾ أَيْ: فِيَّ؟ لَا أَسَعُ غَيْرَ مَا امْتَلَأْتُ بِهِ، أَيْ: قَدِ امْتَلَأْتُ(٢). ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ قُرِّبَتْ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ مَكَانًا ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ٣١﴾ مِنْهُمْ فَيَرَوْنَهَا(٣). وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَٰذَا﴾ الْمَرْئِيُّ ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ فِي الدُّنْيَا وَيُبْدَلُ مِنْ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رَجَّاعٍ إِلَى طَاعَةِ اللهِ ﴿حَفِيظٍ ٣٢﴾ حَافِظٍ لِحُدُودِهِ. ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ خَافَهُ وَلَمْ يَرَهُ ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ مُقْبِلٍ عَلَى طَاعَتِهِ. وَيُقَالُ لِلْمُتَّقِينَ أَيْضًا: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ سَالِمِينَ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ أَوْ مَعَ سَلَامٍ، أَيْ: سَلِّمُوا وَادْخُلُوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْيَوْمُ الَّذِي حَصَلَ فِيهِ الدُّخُولُ ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ٣٤﴾ الدَّوَامُ فِي الْجَنَّةِ. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ٣٥﴾ زِيَادَةٌ عَلَى مَا عَمِلُوا وَطَلَبُوا(٤). ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أَيْ: أَهْلَكْنَا قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ قُرُونًا، أَيْ:

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) إنما تطلب الزيادة وكانت لم تمتلئ. وقيل: لا مزيد، أي: ليس عندي موضع للزيادة، فهي على هذا قد امتلأت والأول أظهر وأرجح. [ابن جُزَيّ (٢/٣٠٣)]. وقد وعدها الله ملأها، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. [السعدي (ص:٨٠٦)]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُلْقَى فِي النَّارِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ». أخرجه البخاري (٤٨٤٨).

(٣) وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت آت. [ابن كثير (٧/٤٠٦)].

(٤) كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. عن صهيب بن سنان الرومي: «أنها النظر إلى وجه الله الكريم»... وعن أنس بن مالك في قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: «يظهر لهم الرب عز وجل في كل جمعة». [ابن كثير (٧/٤٠٧)].

أُمَمًا كَثِيرَةً مِنَ الْكُفَّارِ ﴿هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ قُوَّةً ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ فَتَّشُوا ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾ لَهُمْ أَوْ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَوْتِ فَلَمْ يَجِدُوا. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿لَذِكۡرَىٰ﴾ لَعِظَةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ عَقْلٌ ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ اسْتَمَعَ الْوَعْظَ ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ حَاضِرُ الْقَلْبِ. ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أَوَّلُهَا الْأَحَدُ وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ[١] ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾ تَعَبٌ، نَزَلَ رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ: «إِنَّ اللهَ اسْتَرَاحَ يَوْمَ السَّبْتِ»، وَانْتِفَاءُ التَّعَبِ عَنْهُ لِتَنَزُّهِهِ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ[٢]، وَلِعَدَمِ الْمُمَاسَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢][٣]. ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أَيْ: الْيَهُودُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ صَلِّ حَامِدًا ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أَيْ: صَلَاةُ الصُّبْحِ ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ٣٩﴾ أَيْ: صَلَاتَيِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ. ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أَيْ: صَلِّ الْعِشَاءَيْنِ ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ جَمْعُ «دُبُرٍ»، وَكَسْرِهَا مَصْدَرُ «أَدْبَرَ»، أَيْ: صَلِّ النَّوَافِلَ الْمَسْنُونَةَ عَقِبَ الْفَرَائِضِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ حَقِيقَةَ التَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ مُلَابِسًا لِلْحَمْدِ. ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ يَا مُخَاطَبُ بِقَوْلِي ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ هُوَ إِسْرَافِيلُ ﴿مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١﴾ مِنَ السَّمَاءِ وَهُوَ صَخْرَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَقْرَبُ مَوْضِعٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ، يَقُولُ: أَيَّتُهَا

---

(١) راجع تفصيل ذلك في تفسير سورة فصلت الآيات (٩-١٢).

(٢) أي: مماثلة صفات المخلوقين، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فأثبت لنفسه السمع والبصر وهما مما يتصف بهما المخلوق، ونفى عن نفسه مماثلة شيء من خلقه. وقال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ [النحل: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فلا ند له ولا نظير. ومن المعلوم أن لله ذاتاً لا تشبه ذوات المخلوقين، وأنه لا يلزم من إثبات الذات له ما يلزم من ذات المخلوق، فالذي صرف التشبيه عن إثبات الذات لله، هو نفسه الذي يصرف التشبيه عن إثبات جميع صفاته. فلما عُلم قطعاً مباينة الخالق للمخلوق في الذات والوجود، علم مباينته لخلقه في الصفات، إذ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، والله عز وجل ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كانت له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات. فلا يلزم من صفات الله تعالى ما يلزم من صفات المخلوق، إذ المخلوق تلزمه أمور من النقص لنقص أصله وفقره وذله وضعفه، ولا يلزم هذا في صفة جبار السماوات والأرض، ومبدع كل شيء وخالقه، الذي لا تحيط بكنه ذاته وصفاته العقول، ولا تدركه الأوهام والظنون. [الأشاعرة في ميزان أهل السنة لفيصل الجاسم ص: ٣٦٠].

(٣) كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. [ابن كثير (٧/٤٠٩)].

الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطِّعَةُ وَاللُّحُومُ الْمُتَمَزِّقَةُ وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ، إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ(١). ﴿يَوْمَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ﴾ قَبْلَهُ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أَيْ: الْخَلْقُ كُلُّهُم ﴿ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ بِالْبَعْثِ، وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ إِسْرَافِيلَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ قَبْلَ نِدَائِهِ وَبَعْدَهُ(٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: يَوْمُ النِّدَاءِ وَالسَّمَاعِ ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ مِنَ الْقُبُورِ، وَنَاصِبُ ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ مُقَدَّرًا، أَيْ: يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ تَكْذِيبِهِمْ. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ﴾ قَبْلَهُ وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ ﴿تَشَقَّقُ﴾ بِتَخْفِيفِ الشِّينِ وَتَشْدِيدِهَا بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِيهَا ﴿ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ جَمْعُ «سَرِيعٍ»، حَالٌ مِنْ مُقَدَّرٍ، أَيْ: فَيَخْرُجُونَ مُسْرِعِينَ(٣) ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ فِيهِ فَصْلٌ بَيْنَ الْمَوْصُوفِ وَالصِّفَةِ بِمُتَعَلِّقِهَا لِلِاخْتِصَاصِ، وَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى الْحَشْرِ الْمُخْبَرِ بِهِ عَنْهُ، وَهُوَ الْإِحْيَاءُ بَعْدَ الْفَنَاءِ وَالْجَمْعُ لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ(٤). ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أَيْ: كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ تُجْبِرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ.

---

(١) ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف، أي: استمع النداء والصوت أو الصيحة وهي صيحة القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل ... وقيل: استمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أي: يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن فكأنما ينادي في آذانهم. [القرطبي (١٧/ ٢٧)]. أخرج ابن عساكر، والواسطي في فضائل بيت المقدس عن يزيد بن جابر أن إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور فيقول: يا أيتها العظام النخرة إلى آخره ... وقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هو صخرة بيت المقدس على ما روي عن يزيد بن جابر وكعب وابن عباس وبريدة وقتادة ... وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل إلا بوحي، ثم إن كونها وسط الأرض مما تأباه القواعد في معرفة العروض والأطوال. [الآلوسي (١٣/ ٣٤٣)].

(٢) «ويحتمل أن تكون قبل ندائه وبعده» قاله الجلال المحلي، وهذا غير مستقيم لأن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٥٣] قال الكلبي: معنى بالحق بالبعث، وهو حال من الواو، أي: يسمعون متلبسين بالحق، أو من الصيحة، أي: متلبسة بالحق، وقال مقاتل: يعني أنها كائنة حقًا. [صديق حسن (١٣/ ١٣٤)].

(٣) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ». أخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤). وما تضمنته هذه الآية الكريمة ... جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]. [الشنقيطي (٧/ ٦٩٦)].

(٤) ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هين، وتقديم الظرف للاختصاص فإن ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. [البيضاوي (٥/ ١٤٥)].

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مَكِّيَّةٌ، سِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ الرِّيَاحِ تَذْرُو التُّرَابَ وَغَيْرَهُ ﴿ذَرْوًا ۝١﴾ مَصْدَرٌ، وَيُقَالُ: تَذْرِيهِ ذَرْيًا تَهُبُّ بِهِ. ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ﴾ السُّحُبِ تَحْمِلُ الْمَاءَ ﴿وِقْرًا ۝٢﴾ ثِقَلًا مَفْعُولُ «اَلْحَامِلَاتِ». ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾ السُّفُنِ تَجْرِي عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿يُسْرًا ۝٣﴾ بِسُهُولَةٍ، مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: مُيَسَّرَةً. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ الْمَلَائِكَةُ تُقَسِّمُ الْأَرْزَاقَ وَالْأَمْطَارَ وَغَيْرَهَا بَيْنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ[1]. ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ «مَا» مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: وَعْدُهُمْ بِالْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿لَصَادِقٌ ۝٥﴾ لَوَعْدٌ صَادِقٌ. ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ الْجَزَاءُ بَعْدَ الْحِسَابِ ﴿لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ لَا مَحَالَةَ. ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ جَمْعُ «حَبِيكَةٍ» كَطَرِيقَةٍ وَطَرِيقٍ، أَيْ: صَاحِبَةِ الطُّرُقِ فِي الْخِلْقَةِ كَالطَّرِيقِ فِي الرَّمْلِ[2]. ﴿إِنَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنِ ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ قِيلَ: شَاعِرٌ سَاحِرٌ كَاهِنٌ، شِعْرٌ سِحْرٌ كَهَانَةٌ. ﴿يُؤْفَكُ﴾ يُصْرَفُ ﴿عَنْهُ﴾ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنِ، أَيْ: عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ﴿مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ صُرِفَ عَنِ الْهِدَايَةِ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَى[3]. ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ لُعِنَ الْكَذَّابُونَ

---

(١) تقسم الأمر وتدبره بإذن الله. [السعدي (ص:٨٠٨)]. وثبت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ قال: الريح. قال: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ قال: السحاب. قال: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ قال: السفن. قال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة. [ابن كثير (٧/ ٤١٣)].

(٢) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة: ذات الخَلق الحسن المستوي، يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد: ما أحسن حبكه، قال سعيد بن جبير: ذات الزينة. قال الحسن: حبكت بالنجوم. قال مجاهد: هي المتقنة البنيان. وقال مقاتل والكلبي والضحاك: ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح، وحبك الرمل والشعر الجعد، ولكنها لا ترى لبعدها من الناس، وهي جمع حباك وحبيكة. [البغوي (٧/ ٣٧١)].

(٣) معنى يؤفك: يصرف، والضمير في عنه يحتمل أربعة أوجه أحدها: أن يكون للنبي ﷺ أو للقرآن أو للإسلام، والمعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف، أي: من سبق في علم الله أنه مصروف. الثاني: أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين، والمعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف. الثالث: أن يكون الضمير للقول المختلف، والمعنى: يصرف عن ذلك القول إلى الإسلام من قضى الله بسعادته، وهذا القول حسن، إلا أن عرف الاستعمال في أفك ويؤفك إنما هو في العرف من خير إلى شر، وهذا من شر إلى خير. الرابع: أن يكون الضمير للقول المختلف، وتكون عن سببية، والمعنى: يصرف بسبب ذلك القول من صرف عن الإيمان. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٠٦)].

أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْمُخْتَلِفِ[(١)]. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ جَهْلٍ يَغْمُرُهُمْ ﴿سَاهُونَ ١١﴾ غَافِلُونَ عَنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ النَّبِيَّ اسْتِهْزَاءً ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾ أَيْ: مَتَى مَجِيئُهُ؟ وَجَوَابهمْ: يَجِيءُ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣﴾ أَيْ: يُعَذَّبُونَ فِيهَا، وَيُقَالُ لَهُمْ حِينَ التَّعْذِيبِ: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ تعْذِيبَكُمْ ﴿هَٰذَا﴾ الْعَذَابُ ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤﴾ فِي الدُّنْيَا اسْتِهْزَاءً. ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ ١٥﴾ تَجْرِي فِيهَا. ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حَالٌ مِنْ الضَّمِيرِ فِي خَبَرِ «إِنَّ» ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمْ﴾ أَعْطَاهُمْ ﴿رَبُّهُمْ﴾ مِنْ الثَّوَابِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: دُخُولِهِمْ الْجَنَّةَ ﴿مُحْسِنِينَ ١٦﴾ فِي الدُّنْيَا. ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧﴾ يَنَامُونَ وَ﴿مَا﴾ زَائِدَةٌ، وَ﴿يَهْجَعُونَ﴾ خَبَرُ «كَانَ»، وَ﴿قَلِيلًا﴾ ظَرْفٌ، أَيْ: يَنَامُونَ فِي زَمَنٍ يَسِيرٍ مِنْ اللَّيْلِ وَيُصَلُّونَ أَكْثَرَهُ. ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾ يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا»[(٢)]. ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾ الَّذِي لَا يَسْأَلُ لِتَعَفُّفِهِ[(٣)]. ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِنْ الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ وَالنَّبَاتِ وَغَيْرِهَا ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دَلَالَاتٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿لِّلْمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ آيَاتٌ أَيْضًا مِنْ مَبْدَأِ خَلْقِكُمْ إِلَى مُنْتَهَاهُ، وَمَا فِي تَرْكِيبِ خَلْقِكُمْ مِنَ الْعَجَائِبِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١﴾ ذَلِكَ، فَتَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى صَانِعِهِ وَقُدْرَتِهِ. ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أَيْ: الْمَطَرُ

---

(١) هذا دعاء عليهم، وحكى الواحدي عن المفسرين جميعًا: أن المعنى: لعن الكذابون، والمراد بالكذابين أصحاب القول المختلف، وأصل هذا التركيب الوعد بالقتل، أجري مجرى اللعن، واستعمل بمعناه تشبيهًا للملعون. الذي يفوته كل خير وسعادة بالمقتول الذي تفوته الحياة، وكل نعمة، وقال ابن الأنباري: والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعنة؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك ... والخراصون الكذابون، الذين يتخرصون فيما لا يعلمون. [صديق حسن (١٣/ ١٩٢)].

(٢) قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ». أخرجه مسلم (٧٥٨). [ابن كثير (٧/ ٤١٨)].

(٣) الحق هنا نوافل الصدقات، وقيل: المراد الزكاة وهذا بعيد؛ لأن الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة، وقيل: إن الآية منسوخة بالزكاة، وهذا لا يحتاج إليه لأن النسخ إنما يكون مع التعارض، ولا تعارض بين الزكاة والنوافل. وتسمية النوافل بالحق كقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وإن كان غير واجب، وقال بعض العلماء: حق سوى الزكاة. ورجحه ابن عطية. واختلف الناس في المحروم حتى قال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم، وقيل: المحروم الذي ليس له في بيت المال سهم، وقيل: الذي اجتيحت ثمرته، وقيل: الذي ماتت ماشيته، والمعنى الجامع لها أن المحروم هو الفقير المستور الحال. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٠٨)].

الْمُسَبَّبُ عَنْهُ النَّبَاتُ الَّذِي هُوَ رِزْقٌ ﴿وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مِنَ الْمَآبِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، أَيْ: مَكْتُوبٌ ذَلِكَ فِي السَّمَاءِ. ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرۡضِ إِنَّهُۥ﴾ أَيْ: مَا تُوعَدُونَ ﴿لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بِرَفْعِ ﴿مِّثۡلُ﴾ صِفَةً، وَ ﴿مَآ﴾ زَائِدَةٌ، وَبِفَتْحِ اللَّامِ مُرَكَّبَةٌ مَعَ ﴿مَآ﴾، الْمَعْنَى: مِثْلُ نُطْقِكُمْ فِي حَقِيقَتِهِ، أَيْ: مَعْلُومِيَّتِهِ عِنْدَكُمْ ضَرُورَةً صُدُورُهُ عَنْكُمْ[١]. ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وَهُمْ مَلَائِكَةٌ اثْنَا عَشَرَ أَوْ عَشَرَةٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ جِبْرِيلُ. ﴿إِذۡ﴾ ظَرْفٌ لِـ ﴿حَدِيثُ ضَيۡفِ﴾ ﴿دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾ أَيْ: هَذَا اللَّفْظَ ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ أَيْ: هَذَا اللَّفْظُ[٢] ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لَا نَعْرِفُهُمْ، قَالَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ خَبَرُ مبتدأٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: هَؤُلَاءِ. ﴿فَرَاغَ﴾ مَالَ ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ سِرًّا ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾﴾ وَفِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [هود: ٦٩] أَيْ: مَشْوِيٍّ. ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَكْلَ فَلَمْ يُجِيبُوا. ﴿فَأَوۡجَسَ﴾ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ ﴿مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾ ذِي عِلْمٍ كَثِيرٍ، وَهُوَ إِسْحَاقُ كَمَا ذُكِرَ فِي هُودٍ[٣]. ﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ سَارَّةُ ﴿فِي صَرَّةٖ﴾ صَيْحَةٍ حَالٌ، أَيْ: جَاءَتْ صَائِحَةً ﴿فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا﴾ لَطَمَتْهُ ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾ لَمْ تَلِد قَطُّ، وَعُمْرُهَا تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً وَعُمْرُ إِبْرَاهِيمَ مِائَةُ سَنَةٍ أَوْ عُمْرُهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَة وَعُمْرُهَا تِسْعُونَ سَنَةً ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ أَيْ: مِثْلُ قَوْلِنَا فِي الْبِشَارَةِ ﴿قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿۞قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ شَأْنُكُمْ ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ كَافِرِينَ هُمْ قَوْمُ لُوطٍ. ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾﴾ مَطْبُوخٍ بِالنَّارِ. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعَلَّمَةً عَلَيْهَا اسْمُ مَنْ يُرْمَى بِهَا ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظَرْفٌ لَهَا ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بِإِتْيَانِهِمُ الذُّكُورَ مَعَ كُفْرِهِمْ. ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ أَيْ: قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿مِنَ

---

(١) يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون. [ابن كثير]. وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه وهو أبر المقسمين، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه، وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معاينًا مشاهدًا بالبصائر وإن لم يعاين بالأبصار، ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له ولا تأخذ له أهبة. [التبيان في أيمان القرآن لابن القيم (١/ ٦٣٩)].

(٢) الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء: ٨٦]، فالخليل اختار الأفضل. [ابن كثير (٧/ ٤٢٠)].

(٣) سورة هود الآيات (٦٩-٧٦).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥﴾ لِإِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ وَهُمْ لُوطٌ وَابْنَتَاهُ وُصِفُوا بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، أَيْ: هُمْ مُصَدِّقُونَ بِقُلُوبِهِمْ عَامِلُونَ بِجَوَارِحِهِمْ الطَّاعَاتَ(1). ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ بَعْدَ إِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ ﴿ءَايَةً﴾ عَلَامَةً عَلَى إِهْلَاكِهِمْ ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾ يَفْعَلُونَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ. ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿فِيهَآ﴾، الْمَعْنَى: وَجَعَلْنَا فِي قِصَّةِ مُوسَى آيَةً ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ مُلْتَبِسًا ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ. ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ مَعَ جُنُودِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَهُ كَالرُّكْنِ ﴿وَقَالَ﴾ لِمُوسَى: هُوَ ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ طَرَحْنَاهُمْ ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ الْبَحْرِ فَغَرِقُوا ﴿وَهُوَ﴾ أَيْ: فِرْعَوْنَ ﴿مُلِيمٌ ۝٤٠﴾ آتٍ بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ مِنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَدَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ. ﴿وَفِى﴾ إِهْلَاكِ ﴿عَادٍ﴾ آيَةٌ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ هِيَ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَحْمِلُ الْمَطَرَ وَلَا تُلَقِّحُ الشَّجَرَ وَهِيَ الدَّبُورُ(2). ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ﴾

---

(١) كل مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] وقد أوضح الفرق رسول الله ﷺ بين الإسلام والإيمان في الحديث الثابت في الصحيحين [أخرجه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٩) بألفاظ مختلفة] وغيرهما من طرق أنه سئل عن الإسلام فقال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ»، وسئل عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». فالمرجع في الفرق بينهما هو الذي قاله الصادق المصدوق ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة متناقضة. وأما ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعاني اللغوية، والاستعمالات العربية، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها، قال الكرخي: فيه إشارة إلى ما قاله الخطابي وغيره: أن المسلم قد يكون مؤمناً وقد لا يكون، والمؤمن مسلم دائماً فهو أخص، وبهذا يستقيم تأويل الآيات والأحاديث. [صديق حسن (١٣/ ٢٠٤)].

(٢) وهي التي لا خير فيها ولا بركة لا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً إنما هي ريح العذاب والإهلاك، قال علي: هي النكباء وهي كل ريح هبت بين ريحين لتنكبها وانحرافها عن مهاب الرياح المعروفة، وهي رياح متعددة لا ريح واحدة، قال ابن عباس: الريح العقيم الشديدة التي لا تلقح شيئاً، وعنه قال: لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب، واختلف فيها فقيل: الجنوب، والأظهر أنها الدبور، لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ». أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠). والعقم ههنا مستعار للمعنى المذكور على سبيل التبعية، شبه ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر أو إلقاح شجر بما في المرأة من الصفة المذكورة التي تمنع من الحمل ... أو سماها عقيماً؛ لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، أفاده الكرخي، وفي الشهاب أصل العقم اليبس المانع من قبول الأثر، كما قاله الراغب، وهو فعيل، بمعنى فاعل أو مفعول، فلما أهلكتهم وقطعت نسلهم شبه ذلك الإهلاك بعدم الحمل لما فيه من إذهاب النسل، وهذا هو المراد هنا. [صديق حسن (١٣/ ٢٠٦)].

نَفْسٍ أَوْ مَالٍ ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ كَالْبَالِي الْمُتَفَتِّتُ. ﴿وَفِي﴾ إِهْلَاكِ ﴿ثَمُودَ﴾ آيَةٌ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ بَعْدَ عَقْرِ النَّاقَةِ: ﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ٤٣﴾ إِلَى انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ كَمَا فِي آيَةِ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]. ﴿فَعَتَوْاْ﴾ تكبَّروا ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: عَنْ اللهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ بَعْدَ مُضِيِّ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَيْ: الصَّيْحَةُ الْمُهْلِكَةُ ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ٤٤﴾ أَيْ: بِالنَّهَارِ. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ مَا قَدَرُوا عَلَى النُّهُوضِ حِينَ نُزُولِ الْعَذَابِ ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥﴾ عَلَى مَنْ أَهْلَكَهُمْ. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ بِالْجَرِّ عُطِفَ عَلَى ﴿ثَمُودَ﴾، أَيْ: وَفِي إِهْلَاكِهِمْ بِمَاءِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَةٌ، وَبِالنَّصْبِ، أَيْ: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ إِهْلَاكِ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٤٦ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ بِقُوَّةٍ[1] ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ قَادِرُونَ، يُقَالُ: آدَ الرَّجُلُ يَئِيدُ: قَوِيَ، وَأَوْسَعَ الرَّجُلُ: صَارَ ذَا سِعَةٍ وَقُوَّةٍ. ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ مَهَّدْنَاهَا ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ٤٨﴾ نَحْنُ. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صِنْفَيْنِ، كَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالسَّهْلِ وَالْجَبَلِ، وَالصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، وَالْحُلْوِ وَالْحَامِضِ، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ فَرْدٌ فَتَعْبُدُونَهُ. ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: إِلَى ثَوَابِهِ مِنْ عِقَابِهِ بِأَنْ تُطِيعُوهُ وَلَا تَعْصُوهُ[2] ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ. ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥١﴾ يُقَدَّرُ قَبْلَ ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾: «قُلْ لَهُمْ». ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾ هُوَ ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

---

(١) ليست من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم، لأن قوله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ ليس جمع «يد»: وإنما «الأيد» القوة، فوزن قوله هنا ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ «فعل»، ووزن الأيدي «أفعل»، فالهمزة في قوله: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ في مكان الفاء، والياء في مكان العين، والدال في مكان اللام، ولو كان قوله تعالى: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ جمع «يد» لكان وزنه أفعلا، فتكون الهمزة زائدة والياء في مكان الفاء، والدال في مكان العين، والياء المحذوفة لكونه منقوصا هي اللام. والأيد، والآد في لغة العرب بمعنى القوة، و«رجل أيد» قوي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أي قويناه به، فمن ظن أنها جمع «يد» في هذه الآية فقد غلط غلطا فاحشا، والمعنى: والسماء بنيناها بقوة. [الشنقيطي (٧/ ٧١٠)].

(٢) لما دعا العباد النظر إلى آياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه، أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المرهوب، وحصل له، نهاية المراد والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فرارا؛ لأن في الرجوع لغيره، أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه، إلا الله تعالى فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه. [السعدي (ص:٨١١)].

﴿٥٢﴾ أَيْ: مِثْلَ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ بِقَوْلِهِمْ: «إِنَّكَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ»، تَكْذِيبُ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ رُسُلَهُمْ بِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ. ﴿أَتَوَاصَوْا﴾ كُلُّهُمْ ﴿بِهِۦ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ جَمَعَهُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ طُغْيَانُهُمْ[١]. ﴿فَتَوَلَّ﴾ أَعْرِضْ ﴿عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ لِأَنَّكَ بَلَّغْتَهُمُ الرِّسَالَةَ. ﴿وَذَكِّرْ﴾ عِظْ بِالْقُرْآنِ ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ مَنْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ يُؤْمِنُ[٢]. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ عَدَمُ عِبَادَةِ الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ الْغَايَةَ لَا يَلْزَمُ وُجُودُهَا كَمَا فِي قَوْلِكَ: «بَرَيْتُ هَذَا الْقَلَمَ لِأَكْتُبَ بِهِ»، فَإِنَّكَ قَدْ لَا تَكْتُبُ بِهِ[٣]. ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ لِي وَلِأَنْفُسِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ وَلَا أَنْفُسَهُمْ وَلَا غَيْرَهُمْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ الشَّدِيدُ. ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ بِالْكُفْرِ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ ﴿ذَنُوبًا﴾ نَصِيبًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ﴾ نَصِيبِ ﴿أَصْحَٰبِهِمْ﴾ الْهَالِكِينَ قَبْلَهُمْ ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ بِالْعَذَابِ إِنْ أَخَّرْتُهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿فَوَيْلٌ﴾ شِدَّةُ عَذَابٍ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن﴾ فِي ﴿يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أَيْ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

---

(١) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب من حالهم أي: هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وتواطؤوا عليه حتى قالوه جميعـًا متفقين عليه؟ أو الاستفهام للنفي، أي: ما وقع منهم وصية بذلك لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن التواصي إلى ما جمعهم من الطغيان، أي: لم يتواصوا بذلك بل جمعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحد في الكفر، فهو إضراب انتقالي. [صديق حسن (١٣/ ٢١٠)].

(٢) أخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ [الأعلى:٩ – ١١] وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة، التي لا يفيدها المطر شيئًا، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. [السعدي (ص:٨١٢)].

(٣) التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم. قال تعالى في أول سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملا، يفسر قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾. [الشنقيطي (٧/ ٧١٤)].

سُورَةُ الطُّورِ

مَكِّيَّةٌ، تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ١﴾ أَيْ: الْجَبَلِ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَى. ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣﴾ أَيْ: التَّوْرَاة، أَوْ الْقُرْآن(١). ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤﴾ هُوَ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ أَوْ السَّادِسَةِ أَوْ السَّابِعَةِ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ يَزُورُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ بِالطَّوَافِ وَالصَّلَاةِ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا(٢). ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥﴾ أَيْ: السَّمَاءِ. ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦﴾ أَيْ: الْمَمْلُوءِ(٣). ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾ لَنَازِلٌ بِمُسْتَحِقِّهِ(٤). ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ٨﴾ عَنْهُ. ﴿يَوۡمَ﴾ مَعْمُولٌ

---

(١) القسم للتأكيد وتحقيق الوعيد، ومناسبة الأمور المقسم بها للمقسم عليه أن هذه الأشياء المقسم بها من شؤون بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وكان هلاك فرعون ومن معه من جراء تكذيبهم موسى عليه السلام. والطور: الجبل باللغة السريانية قاله مجاهد. وأدخل في العربية وهو من الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن. وغلب علما على طور سيناء الذي ناجى فيه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة. فالقسم به باعتبار شرفه بنزول كلام الله فيه ونزول الألواح على موسى وفي ذكر الطور إشارة إلى تلك الألواح لأنها اشتهرت بذلك الجبل فسميت «طور» المعرب بتوراة. وأما الجبل الذي خوطب فيه موسى من جانب الله فهو جبل حوريب، واسمه في العربية «الزبير» ولعله بجانب الطور كما في قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ [القصص: ٢٩]، والقسم بالطور توطئة للقسم بالتوراة التي أنزل أولها على موسى في جبل الطور. والمراد بـ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣﴾ التوراة كلها التي كتبها موسى عليه السلام بعد نزول الألواح، وتنكير كتاب للتعظيم. والرق: الصحيفة تتخذ من جلد مرقق أبيض ليكتب عليه. والمنشور: المبسوط غير المطوي. وكان اليهود يكتبون التوراة في رقوق ملصق بعضها ببعض أو مخيط بعضها ببعض، فتصير قطعة واحدة ويطوونها طيا أسطوانيا لتحفظ، فإذا أرادوا قراءتها نشروا مطويها، ومنه ما في حديث الرجم: «فنشروا التوراة». وليس مراد بكتاب مسطور القرآن؛ لأن القرآن لم يكن يومئذ مكتوبا سطورا ولا هو مكتوبا في رق. [ابن عاشور (٢٧/ ٣٦)].

(٢) قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

(٣) أي: الموقد المحمي من السجر وهو إيقاد النار في التنور ومنه قوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٦] وقد ورد أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون ناراً فيزاد بها في نار جهنم، وقيل: المسجور المملوء بالماء وهو البحر المحيط كما ذكره العمادي، قيل: إنه من أسماء الأضداد، يقال بحر مسجور، أي: مملوء، وبحر مسجور، أي: فارغ خال ... والأول أولى. [صديق حسن (١٣/ ٢١٩)].

(٤) هذا جواب القسم، ويعني عذاب الآخرة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣١١)].

لِـ «وَاقِعٌ» ﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩﴾ تَتَحَرَّكُ وَتَدُورُ. ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾ تَصِيرُ هَبَاءً مَنْثُورًا[1]، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿فَوَيۡلٞ﴾ شِدَّةُ عَذَابٍ ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ لِلرُّسُلِ. ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ﴾ بَاطِلٍ ﴿يَلۡعَبُونَ ۝١٢﴾ أَيْ: يَتَشَاغَلُونَ بِكُفْرِهِمْ[2]. ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾ يُدْفَعُونَ بِعُنْفٍ، بَدَلٌ مِنْ: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ﴾ وَيُقَال لَهُمْ تَبْكِيتًا: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ الْعَذَابُ الَّذِي تَرَوْنَ كَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْوَحْيِ: «هَذَا سِحْرٌ»[3] ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ﴾ عَلَيْهَا ﴿أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ صَبْرُكُمْ وَجَزَعُكُمْ ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ لِأَنَّ صَبْرَكُمْ لَا يَنْفَعُكُمْ ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ[4]. ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ۝١٧ فَٰكِهِينَ﴾ مُتَلَذِّذِينَ ﴿بِمَآ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿ءَاتَىٰهُمۡ﴾ أَعْطَاهُمْ ﴿رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٨﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿ءَاتَىٰهُمۡ﴾ أَيْ: بِإِتْيَانِهِمْ وَوِقَايَتِهِمْ. وَيُقَال لَهُمْ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ حَالٌ، أَيْ: مُتَهَنِّئِينَ ﴿بِمَا﴾ الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُسْتَكِنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ بَعْضُهَا إِلَى جَنْبِ بَعْضٍ ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾، أَيْ: قَرَنَّاهُمْ ﴿بِحُورٍ عِينٖ ۝٢٠﴾ عِظَامُ الْأَعْيُنِ حِسَانُهَا. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿ذُرِّيَّٰتِهِم﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ مِنَ الْكِبَارِ، وَمِنَ الْآبَاءِ فِي الصِّغَارِ، وَالْخَبَرُ: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ

---

(١) المور بفتح الميم وسكون الواو: التحرك باضطراب، ومور السماء هو اضطراب أجسامها من الكواكب واختلال نظامها وذلك عند انقراض عالم الحياة الدنيا. وسير الجبال: انتقالها من مواضعها بالزلازل التي تحدث عند انقراض عالم الدنيا، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]. [ابن عاشور (٢٧/ ٤١)].

(٢) أي: في تردد في الباطل واندفاع فيه يلهون، لا يذكرون حساباً، ولا يخافون عقاباً، والمعنى: أنهم يخوضون في أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء، وقيل: يخوضون في أسباب الدنيا، ويعرضون عن الآخرة، والخوض من المعاني الغالبة، فإنه يصلح للخوض في كل شيء إلا أنه غلب في الخوض في الباطل. [صديق حسن (١٣/ ٢٢١)]. كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥].

(٣) ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحرا، كأنه قيل: كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر فهذا أيضا سحر، وتقديم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر، أو أم سدت أبصاركم كما سدت في الدنيا على زعمكم حيث كنتم تقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥]. [أبو السعود (٨/ ١٤٧)].

(٤) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون في النار لا محالة، سواء صبروا أو لم يصبروا، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع، وقد أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١]. [الشنقيطي (٧/ ٧٢٩)].

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الْمَذْكُورِينَ فِي الْجَنَّة فَيَكُونُونَ فِي دَرَجتهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَعْمَلُوا تَكرِمَةً لِلْآبَاءِ بِاجْتِمَاعِ الْأَوْلَادِ إِلَيْهِمْ ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ بِفَتحِ اللَّامِ وَكَسْرِهَا: نَقَصْناهُمْ ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن﴾ زَائِدَة ﴿شَيْءٍ﴾ يُزَادُ فِي عَمَلِ الْأَوْلَادِ ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ﴾ مِنْ عَمَلِ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿رَهِينٌ ٢١﴾ مَرْهُونٌ، يُؤَاخَذُ بِالشَّرِّ وَيُجَازَى بِالْخَيْرِ(١). ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ زِدْنَاهُمْ فِي وَقْتٍ بَعْدَ وَقْتٍ ﴿بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢٢﴾ وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحُوا بِطَلَبِهِ. ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ يَتَعَاطَوْنَ بَيْنَهُمْ ﴿فِيهَا﴾ أَيْ: الْجَنَّةِ ﴿كَأْسًا﴾ خَمْرًا ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أَيْ: بِسَبَبِ شُرْبِهَا يَقَعُ بَيْنَهُم ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ ٢٣﴾ بِهِ يَلْحَقُهُمْ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا. ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لِلْخِدْمَةِ ﴿غِلْمَانٌ﴾ أَرِقَّاءُ ﴿لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ﴾ حُسْنًا وَلَطَافَةً ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ٢٤﴾ مَصُونٌ فِي الصَّدَفِ؛ لِأَنَّهُ فِيهَا أَحْسَنُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥﴾ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ تَلَذُّذًا وَاعْتِرَافًا بِالنِّعْمَةِ. ﴿قَالُوٓاْ﴾ إِيمَاءً إِلَى عِلَّةِ الْوُصُولِ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مُشْفِقِينَ ٢٦﴾ خَائِفِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بِالْمَغْفِرَةِ ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ أَيْ: النَّارِ لِدُخُولِهَا فِي الْمَسَامِّ. وَقَالُوا إِيمَاءً أَيْضًا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نَعْبُدُهُ مُوَحِّدِينَ ﴿إِنَّهُۥ﴾ بِالْكَسْرِ اسْتِئْنَافًا وَإِنْ كَانَ تَعْلِيلًا مَعْنًى، وَبِالْفَتْحِ تَعْلِيلًا لَفْظًا ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ الْمُحْسِنُ الصَّادِقُ فِي وَعْدِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ الْعَظِيمُ الرَّحْمَةِ. ﴿فَذَكِّرْ﴾ دُمْ عَلَى تَذْكِيرِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَرْجِعُ عَنْهُ لِقَوْلِهِمْ لَكَ: «كَاهِنٌ مَجْنُونٌ» ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْك ﴿بِكَاهِنٍ﴾ خَبَر «مَا» ﴿وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩﴾ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ. ﴿أَمْ﴾ بَل ﴿يَقُولُونَ﴾ هُوَ ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ٣٠﴾ حَوَادِثَ الدَّهْرِ، فَيَهْلَكُ كَغَيْرِهِ مِنْ الشُّعَرَاءِ. ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ﴾ هَلَاكِي ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾ هَلَاكَكُمْ، فَعُذِّبُوا بِالسَّيْفِ يَوْم بَدْرٍ، وَالتَّرَبُّصُ: الِانْتِظَارُ(٢). ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ عُقُولُهُمْ

---

(١) أي: حال كون الذرية متلبسة بإيمان استقلالي أو تبعي، أما الذرية الكافرة فلا تتبع آباءها، وهذا على أن «الباء» للملابسة، لكن جمهور المفسرين على أنها للسببية أو بمعنى «في»، وبهذا الاعتبار لا يظهر دخول الأولاد الكبار، فإن إيمانهم استقلالي لا تبعي كالصغار، وقال أبو السعود: أي: اتبعتهم ذريتهم بإيمان قاصر عن رتبة إيمان الآباء، واعتبار هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقاً. والذرية هنا تصدق على الآباء وعلى الأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله أكثر ألحق به من دونه في العمل، ابناً كان أو أباً، وهو منقول عن ابن عباس وغيره. [صديق حسن (١٣/ ٢٢٤)]. [وقيل:] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي: اقتفت آثارهم في الإيمان والعمل الصالح ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: في الجنات والنعيم، وأما من قال في معناها: إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به، إن كانوا دونه في العمل، فلا تقتضيه الآية تصريحا ولا تلويحا. [القاسمي (٩/ ٥١)].

(٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: حوادث الدهر أو الموت؛ لأن المنون قد يراد به الدهر، وريبه: صروفه. وقد يراد به

﴿بِهَٰذَآۚ﴾ أَيْ: قَوْلِهِمْ لَهُ: «سَاحِرٌ كَاهِنٌ مَجْنُونٌ»، أَيْ: لَا تَأْمُرُهُمْ بِذَلِكَ ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ٣٢﴾ بِعِنَادِهِمْ. ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ؟ لَمْ يَخْتَلِقهُ ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ٣٣﴾ اسْتِكْبَارًا. فَإِنْ قَالُوا: اخْتَلَقَهُ ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ﴾ مُخْتَلَقٍ ﴿مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ فِي قَوْلِهِمْ[١]. ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ أَنْفُسَهُمْ، وَلَا يُعْقَلُ مَخْلُوقٌ بِغَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا مَعْدُومٌ يَخْلُقُ، فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ خَالِقٍ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ، فَلِمَ لَا يُوَحِّدُونَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ[٢]. ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ﴾ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِهِمَا إِلَّا اللهُ الْخَالِقُ، فَلِمَ لَا يَعْبُدُونَهُ؟ ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦﴾ بِهِ، وَإِلَّا لَآمَنُوا بِنَبِيِّهِ. ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِهِمَا، فَيَخُصُّوا مَنْ شَاءُوا بِمَا شَاءُوا ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ٣٧﴾ الْمُتَسَلِّطُونَ الْجَبَّارُونَ، وَفِعْلُهُ: «سَيْطَرَ»، وَمِثْلُهُ: بَيْطَرَ وَبَيْقَرَ[٣]. ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مَرْقًى إِلَى السَّمَاءِ ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ أَيْ: عَلَيْهِ كَلَامَ الْمَلَائِكَةِ، حَتَّى يُمْكِنَهُمْ مُنَازَعَةُ النَّبِيِّ بِزَعْمِهِمْ إِنِ ادَّعَوْا ذَلِكَ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ مُدَّعِي الِاسْتِمَاعِ عَلَيْهِ ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٣٨﴾ بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ، وَلِشِبْهِ هَذَا الزَّعْمِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ٣٩﴾ تَعَالَى اللهُ عَمَّا زَعَمْتُمُوهُ. ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ عَلَى مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ غُرْمِ ذَلِكَ ﴿مُّثْقَلُونَ ٤٠﴾ فَلَا يُسْلِمُونَ[٤]. ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أَيْ: عِلْمُهُ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ٤١﴾ ذَلِكَ، حَتَّى يُمْكِنَهُمْ مُنَازَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي

الموت، وريبه نزوله ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: حتى يأتي أمر الله فيكم، والأمر للتهكم بهم والتهديد. [القاسمي (٩/ ٥٢)].

(١) تحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ الآية. وتحداهم في سورة هود بعشر سور منه في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [هود: ١٣]. وتحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة في قوله: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٣]، وبين في سورة بني إسرائيل أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية [الإسراء: ٨٨]. [الشنقيطي (٧/ ٧٣٧)].

(٢) هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا. عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ٣٧﴾ كاد قلبي أن يطير. أخرجه البخاري (٤٨٥٤). [ابن كثير (٧/ ٤٣٧)].

(٣) لم يأت على مفيعل إلا خمسة ألفاظ، أربعة صفة اسم فاعل مهيمن ومبيقر ومسيطر ومبيطر، وواحد اسم جبل، وهو المحيمر، قال في الصحاح: المصيطر المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله. وأصله من السطر لأن الكتاب يسطر. [صديق حسن (١٣/ ٢٣٣)].

(٤) أي: مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل ومتعبون ومغتمون، من أثقله الحمل أتعبه لكن هذا الثقل معنوي لأن العادة أن من غرم

الْبَعْثِ وَأُمُورِ الْآخِرَةِ بِزَعْمِهِمْ. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ بِكَ لِيُهْلِكُوكَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ الْمَغْلُوبُونَ الْمُهْلَكُونَ، فَحَفِظَهُ اللهُ مِنْهُمْ ثُمَّ أَهْلَكَهُمْ بِبَدْرٍ. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بِهِ مِنَ الْآلِهَةِ، وَالِاسْتِفْهَامِ بِأَمْ فِي مَوَاضِعِهَا لِلتَّقْبِيحِ وَالتَّوْبِيخِ. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ بَعْضًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالُوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الشعراء: ١٨٧] أَيْ: تَعْذِيبًا لَهُمْ ﴿يَقُولُوا﴾ هَذَا ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ مُتَرَاكِبٌ نُرْتَوِي بِهِ، وَلَا يُؤْمِنُوا[١]. ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ يَمُوتُونَ. ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَهُمُ﴾ ﴿عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يُمْنَعُونَ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ، فَعُذِّبُوا بِالْجُوعِ وَالْقَحْطِ سَبْعَ سِنِينَ، وَبِالْقَتْلِ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ بِهِمْ. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بِإِمْهَالِهِمْ وَلَا يَضِقْ صَدْرُكَ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بِمَرْأًى مِنَّا نَرَاكَ وَنَحْفَظُكَ[٢] ﴿وَسَبِّحْ﴾ مُتَلَبِّسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَيْ: قُلْ: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ مِنْ مَنَامِكَ أَوْ مِنْ مَجْلِسِكَ. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ حَقِيقَةً أَيْضًا ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ مَصْدَرٌ، أَيْ: عَقِبَ غُرُوبِهَا سَبِّحْهُ أَيْضًا، أَوْ صَلِّ فِي الْأَوَّلِ الْعِشَاءَيْنِ، وَفِي الثَّانِي الْفَجْرَ، وَقِيلَ: الصُّبْحَ[٣].

إنساناً ما لا يصير الغارم مغتماً منه وكارهاً له فلا يسمع قوله، ولا يمتثله. [صديق حسن (١٣/ ٢٣٤)].

(١) وهو من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤-١٥] ... المقصود أن العناد شيمتهم فرع عليه أن أمر الله رسوله ﷺ بأن يتركهم ... أي: أن لا يسأل الله إظهار ما اقترحوه من الآيات؛ لأنهم لا يقترحون ذلك طلبا للحجة ولكنهم يكابرون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧]. وليس المراد ترك دعوتهم وعرض القرآن عليهم. [ابن عاشور (٢٧/ ٨٠)].

(٢) قال الزجاج: إنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك، فلا يصلون إليك، وإنما جمع لفظ الأعين مع أن مدلوله واحد، وهو المصدر لمناسبة نون العظمة. [صديق حسن (١٣/ ٢٣٧)]. وهذا كما يقول القائل لمن أشفق عليه وأحبه: أنت في عيني، ومن المعلوم أن مثل هذا الأسلوب لا يعني أن مخاطبه حال في عينه، بل المعنى: أنت مني على مرأى وعلى رقابة وعلى حماية. وفي هذه الآية: إثبات العين لله عز وجل، وهي حقيقة، لكنها لا تماثل أعين الخلق أبدا؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. [ابن عثيمين تفسير الطور (ص:٢٠٢)].

(٣) والآية تشير إلى أوقات الرغائب من النوافل وهي صلاة الفجر والأشفاع بعد العشاء وقيام آخر الليل. وقيل: أشارت إلى الصلوات الخمس بوجه الإجمال وبينته السنة. [ابن عاشور (٢٧/ ٨٦)].

سُورَةُ النَّجْمِ

مَكِّيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ الثُّرَيَّا ﴿إِذَا هَوَىٰ ①﴾ غَابَ[1]. ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ طَرِيقِ الْهِدَايَةِ ﴿وَمَا غَوَىٰ ②﴾ مَا لَابَسَ «الْغَيَّ» وَهُوَ: جَهْلٌ مِنْ اعْتِقَادٍ فَاسِدٍ[2]. ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ بِمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③﴾ هَوَى نَفْسِهِ. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④﴾ إِلَيْهِ. ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ إِيَّاهُ مَلَكٌ ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ﴾ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ[3] أَوْ مَنْظَرٍ حَسَنٍ، أَيْ: جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَٱسْتَوَىٰ ⑥﴾ اسْتَقَرَّ ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ⑦﴾ أُفُقِ الشَّمْسِ، أَيْ: عِنْدَ مَطْلَعِهَا عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ بِحِرَاءَ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ[4] وَكَانَ قَدْ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا فَوَاعَدَهُ بِحِرَاءَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ لَهُ فِي صُورَةِ الْآدَمِيِّينَ[5]. ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ قَرُبَ مِنْهُ

---

(١) يقسم تعالى بالنجم عند هويه، أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم، اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم. [السعدي (ص:٨١٨)].

(٢) هذا جواب القسم، والخطاب لقريش، وصاحبكم هو النبي ﷺ، فنفى عنه الضلال والغي، والفرق بينهما: أن الضلال بغير قصد، والغي بقصد وتكسب. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣١٦)].

(٣) ومنه قول النبي ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيّ». أخرجه أبو داود (١٦٣٤) والترمذي (٦٥٢)، وأصل المرة من مرائر الحبل وهي فتله وإحكام عمله. [الثعالبي (٥/ ٣٢٢)]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

(٤) قال رسول الله ﷺ: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا» أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١). وقال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ». تفسير الطبري (٢٧/ ٢٧).

(٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك. قال: فدعا ربه، قال: فطلع عليه سواد من قبل المشرق، قال: فجعل يرتفع وينتشر، قال: فلما رآه النبي ﷺ صعق، فأتاه فنعشه، ومسح البزاق عن شدقه. أخرجه أحمد (٢٩٦٥). وقول المحلي: «فَنَزَلَ جِبْرِيلُ لَهُ فِي صُورَةِ الْآدَمِيِّينَ» أي: بعد ذلك حتى لا يصعق.

﴿فَتَدَلَّىٰ ٨﴾ زَادَ فِي الْقُرْبِ[1]. ﴿فَكَانَ﴾ مِنْهُ ﴿قَابَ﴾ قَدْرَ ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩﴾ مِنْ ذَلِكَ[2] حَتَّى أَفَاقَ وَسَكَنَ رُوْعُهُ. ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ تَعَالَى ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ جِبْرِيلَ ﴿مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُوحَى تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ[3]. ﴿مَا كَذَبَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ أَنْكَرَ ﴿ٱلْفُؤَادُ﴾ فُؤَادُ النَّبِيِّ ﴿مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ بِبَصَرِهِ مِنْ صُورَةِ جِبْرِيلَ. ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أَتُجَادِلُونَهُ وَتَغْلِبُونَهُ ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾ خِطَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ رُؤْيَةَ النَّبِيِّ ﷺ لِجِبْرِيلَ. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ عَلَى صُورَتِهِ[4] ﴿نَزْلَةً﴾ مَرَّةً ﴿أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤﴾ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ فِي السَّمَاوَاتِ، وَهِيَ شَجَرَةُ

---

(١) تدلى: انخفض من علو قليلا، أي: ينزل من طبقات إلى ما تحتها كما يتدلى الشيء المعلق في الهواء بحيث لو رآه الرائي يحسبه متدليا، وهو ينزل من السماء غير منقض. [ابن عاشور (٢٧/ ٩٦)].

(٢) هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة ... وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي هريرة ... وروى مسلم في صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين». أخرجه مسلم (١٧٦). فجعل هذه إحداهما. وجاء في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس في حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا تكلم كثير من الناس في متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسير لهذه الآية؛ فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤﴾ فهذه هي ليلة الإسراء والأولى كانت في الأرض. [ابن كثير (٧/ ٤٤٦)].

(٣) ولم يبين ما أوحى به تعظيمًا له؛ لأن الإبهام يأتي مرادًا به التفخيم والتعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه ٧٨] أي: غشيهم شيءٌ عظيم. [ابن عثيمين تفسير النجم (ص:٢٠٨)].

(٤) هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء ... عن عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله لقد قف شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ الآية [لقمان:٣٤]، ومن أخبرك أن محمدا قد كتم، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧). عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ». لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه

نَبْقٍ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، لَا يَتَجَاوَزُهَا أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ(١). ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥﴾ تَأْوِي إِلَيْهَا الْمَلَائِكَةُ وَأَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ أَوِالْمُتَّقُونَ. ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦﴾ مِنْ طَيْرٍ وَغَيْرِهِ(٢)، وَ﴿إِذْ﴾ مَعْمُولَةٌ لِـ ﴿رَءَاهُ﴾. ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ أَيْ: مَا مَالَ بَصَرُهُ عَنْ مَرْئِيِّهِ الْمَقْصُودِ لَهُ، وَلَا جَاوَزَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ(٣). ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ فِيهَا ﴿مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾ الْعِظَامِ، أَيْ: بَعْضَهَا، فَرَأَى مِنْ عَجَائِبِ الْمَلَكُوتِ رَفْرَفًا أَخْضَرَ سَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ، وَجِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ(٤). ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ﴾ لِلَّتَيْنِ قَبْلَهَا(٥) ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ ٢٠﴾ صِفَةُ ذَمٍّ لِلثَّالِثَةِ(٦)، وَهِيَ أَصْنَامٌ مِنْ حِجَارَةٍ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ

منهبطا من السماء إلى الأرض، سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض. أخرجه مسلم (١٧٧). [ابن كثير (٧/ ٤٥١)].

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رُفِعَتْ لِيَ سِدْرَةُ الْمُنْتَهى فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ، يَخْرُجُ مِنْ سَاقِهَا نَهَرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهَرَانِ بَاطِنَانِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذَا؟ قَالَ: أَمَّا النَّهَرَانِ الْبَاطِنَانِ فَفِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالنِّيلُ وَالْفُرَاتُ». أخرجه البخاري معلقًا (٥٦١٠)، وأخرجه موصولًا مسلم (١٦٢). وعند مسلم: «فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يُحْسِنُ يَصِفُهَا مِنْ حُسْنِهَا». أخرجه مسلم (١٦٢). وفي سبب تسميتها سدرة المنتهى خمسة أوجه: أحدها: لأنه ينتهي علم الأنبياء إليها، ويعزب علمهم عما وراءها، قاله ابن عباس. الثاني: لأن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها، قاله الضحاك. الثالث: لانتهاء الملائكة والنبيين إليها ووقوفهم عندها، قاله كعب. الرابع: لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة رسول الله ﷺ ومنهاجه، قاله الربيع بن أنس. الخامس: لأنه ينتهي إليها كل ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها، قاله ابن مسعود. [الماوردي (٥/ ٣٩٥)].

(٢) فيه إبهام لقصد التعظيم، قال ابن مسعود: غشيها فراش من ذهب، وقيل: كثرة الملائكة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ». أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣). وهذا أولى أن تفسر به الآية. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣١٨)].

(٣) وهذا كمال الأدب منه ﷺ أن قام مقاما أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما ألا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفريط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدة يمينا وشمالا، وهذه الأمور كلها منتفية عنه ﷺ. [السعدي (ص:٨١٨)].

(٤) أخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر وجماعة: عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال في الآية: رأى رفرفا أخضر من الجنة قد سد الأفق. وعن ابن زيد: رأى جبريل عليه السلام في الصورة التي هو بها، والذي ينبغي ألا يحمل ذلك على الحصر كما لا يخفى فقد رأى ﷺ آيات كبرى ليلة المعراج لا تحصى ولا تكاد تستقصى. [الآلوسي (١٤/ ٥٢)].

(٥) يعني أن مناة تثلثهما، أي: تكمل اللات والعزى ليصير الجميع ثلاثة. [المفصل لقباوة (ص:١٨٦٣)].

(٦) أي: المتأخرة في الرتبة، وهي وضيعة المقدار، ولهذا قال عنها المحلي: «صفة ذم». [المفصل لقباوة (ص:١٨٦٣)]. وانظر بطلان قصة الغرانيق حاشية تفسير آية (٥٢) من سورة الحج.

اَللهِ، وَمَفْعُولُ «أَرَأَيْتَ» اَلْأَوَّلُ: اَللَّاتَ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي: مَحْذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: أَخْبِرُونِي أَلِهَذِهِ الْأَصْنَامِ قُدْرَةٌ عَلَى شَيْءٍ مَا، فَتَعْبُدُونَهَا دُونَ اَللهِ اَلْقَادِرِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. وَلَمَّا زَعَمُوا أَيْضًا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اَللهِ مَعَ كَرَاهَتِهِمُ اَلْبَنَاتِ، نَزَلَتْ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ جَائِرَةٌ، مِنْ: ضَازَهُ يَضِيزُهُ، إِذَا ظَلَمَهُ وَجَارَ عَلَيْهِ(١). ﴿إِنْ هِيَ﴾ أَيْ: مَا الْمَذْكُورَاتُ ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أَيْ: سَمَّيْتُمْ بِهَا(٢) ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أَيْ: بِعِبَادَتِهَا ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ ﴿إِن﴾ مَا ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فِي عِبَادَتِهَا ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ مِمَّا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، مِنْ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣﴾ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ، فَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ. ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ﴾ أَيْ: لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ ﴿مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤﴾ مِنْ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ(٣). ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥﴾ أَيْ: الدُّنْيَا، فَلَا يَقَعُ فِيهَا إِلَّا مَا يُرِيدُهُ تَعَالَى. ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ أَيْ: وَكَثِيرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَمَا أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اَللهِ ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لَهُمْ فِيهَا ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ عَنْهُ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا لَا تُوجَدُ مِنْهُمْ إِلَّا بَعْدَ اَلْإِذْنِ فِيهَا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥](٤). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢٧﴾ حَيْثُ قَالُوا:

---

(١) قال البغوي: ليس في كلام العرب «فِعلى» بكسر الفاء في النعوت، إنما تكون في الأسماء مثل: ذكرى وشعرى، قال المؤرج: كرهوا ضم الضاد في «ضيزى»، وخافوا انقلاب الياء واواً، وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا في جمع الأبيض بيض، وكذا قال الزجاج، وقيل: هي مصدر كـ«ذكرى» فيكون المعنى: قسمة ذات جور وظلم، قال ابن عباس: ضيزى جائرة لا حق فيها، وقيل: عوجاء غير معتدلة. [صديق حسن (١٣/ ٢٥٧)].

(٢) الضمير للأصنام، أي: ما هي باعتبار الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها لأنهم يقولون إنها آلهة وليس فيها شيء من معنى الألوهية، أو للصفة التي تصفونها بها من كونها آلهة وبنات وشفعاء، أو للأسماء المذكورة فإنهم كانوا يطلقون اللات عليها باعتبار استحقاقها للعكوف على عبادتها، والعزى لعزتها، ومناة لاعتقادهم أنها تستحق أن يتقرب إليها بالقرابين. [البيضاوي (٥/ ١٥٩)].

(٣) أي: ليس ما يشتهيه من الأمور التي منها طمعه الفارغ في شفاعة الأنداد، وتعنته في دفاع اليقين بالظن، وتركه نفسه وهواها بلا شرع يقيده ولا مهيمن يزعه. فإن ذلك من المحالات في نظر العقل السليم، كقوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]. [القاسمي (٩/ ٧٦)].

(٤) أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله، موافقا فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين. [السعدي (ص: ٨٢٠)].

«هُمْ بَنَاتُ اللهِ». ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ بِهَذَا الْمَقُولِ ﴿مِنْ عِلْمٍۖ إِن﴾ مَا ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فِيهِ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾ الَّذِي تَخَيَّلُوهُ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۝٢٨﴾ أَيْ: عَنِ الْعِلْمِ فِيمَا الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْعِلْمُ. ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أَيْ: الْقُرْآنُ ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩﴾ وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ[1]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: طَلَبُ الدُّنْيَا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ﴾ أَيْ: نِهَايَةُ عِلْمِهِمْ أَنْ آثَرُوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝٣٠﴾ عَالِمٌ بِهِمَا فَيُجَازِيهِمَا. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: هُوَ مَالِكٌ لِذَلِكَ وَمِنْهُ الضَّالُّ وَالْمُهْتَدِي، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ[2] ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ مِنَ الشِّرْكِ وَغَيْرِهِ ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ بِالتَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ﴿بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ أَيْ: الْجَنَّةِ[3]. وَبَيَّنَ الْمُحْسِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ هُوَ صِغَارُ الذُّنُوبِ، كَالنَّظْرَةِ وَالْقُبْلَةِ وَاللَّمْسَةِ، فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَالْمَعْنَى: لَكِنَّ اللَّمَمَ يُغْفَرُ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ[4] ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ بِذَلِكَ وَبِقَبُولِ التَّوْبَةِ، وَنَزَلَ فِيمَنْ كَانَ يَقُولُ: «صَلَاتُنَا

---

(١) أي: اترك مجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك، وأكثر المفسرين يقولون: بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى: «فأعرض» منسوخ بآية القتل وهو باطل، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال، فكيف ينسخ به. [الرازي (٢٨/ ٢٦٠)].

(٢) معترضة، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي، وقيل: هي لام العاقبة، أي: وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسيء أن يجزي الله كلا منهما بعمله. [الشوكاني (٥/ ١٣٥)].

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ هم الذين خالفوا المأمور أو ارتكبوا المحذور، هذا الضابط، هؤلاء أساؤوا ليجزيهم بما عملوا السيئة بسيئة لا تزيد، أو يعفو عز وجل لمن يستحق العفو، وهو كل من مات على غير الشرك مستحق للعفو، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] فلا يمكن أن يزيد سيئة لم يعملها الإنسان، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ بدون زيادة، ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ ولم يقل: «بما عملوا»؛ لأن فضل الله أوسع من أعمالنا، فإذا فعلت حسنة يضاعفها الله إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة. [ابن عثيمين تفسير النجم (ص:٢٢٩)].

(٤) أظهر الأقوال في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ أن المراد باللمم صغائر الذنوب، ومن أوضح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١]. فدلت على أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر، وخير ما يفسر به القرآن القرآن. ويدل لهذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما الثابت في الصحيح قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ». أخرجه البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧). وعلى هذا القول فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ منقطع؛ لأن اللمم الذي هو الصغائر على هذا القول لا يدخل في الكبائر والفواحش. واعلم أن أهل العلم اختلفوا في حد الكبيرة؛ فقال بعضهم: هي كل ذنب استوجب حدا من حدود الله. وقال بعضهم: هي كل ذنب

صِيَامُنَا حَجُّنَا»: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ أَيْ: عَالِمٌ ﴿بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَيْ: خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ التُّرَابِ ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ﴾ جَمْعُ جَنِينٍ ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ لَا تَمْدَحُوهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْجَابِ، أَمَّا عَلَى سَبِيلِ الِاعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ فَحَسَنٌ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ أَيْ: عَالِمٌ ﴿بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣﴾ عَنِ الْإِيمَانِ، أَيْ: اِرْتَدَّ لَمَّا عُيِّرَ بِهِ، وَقَالَ: إِنِّي خَشِيتُ عِقَابَ اللهِ، فَضَمِنَ لَهُ الْمُعَيِّرُ أَنْ يَحْمِلَ عَنْهُ عَذَابَ اللهِ إِنْ رَجَعَ إِلَى شِرْكِهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ مَالِهِ كَذَا فَرَجَعَ. ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا﴾ مِنَ الْمَالِ الْمُسَمَّى ﴿وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ مَنَعَ الْبَاقِيَ، مَأْخُوذٌ مِنَ «الْكُدْيَةِ» وَهِيَ: أَرْضٌ صُلْبَةٌ كَالصَّخْرَةِ، تَمْنَعُ حَافِرَ الْبِئْرِ إِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا مِنَ الْحَفْرِ. ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ٣٥﴾ يَعْلَمُ مِنْ جُمْلَتِهِ أَنَّ غَيْرَهُ يَتَحَمَّلُ عَنْهُ عَذَابَ الْآخِرَةِ؟ لَا، وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ أَوْ غَيْرُهُ، وَجُمْلَةُ ﴿أَعِندَهُۥ﴾ الْمَفْعُولُ الثَّانِي لِـ «رَأَيْتَ» بِمَعْنَى: أَخْبِرْنِي. ﴿أَمۡ﴾ بَلْ ﴿لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦﴾ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ أَوْ صُحُفٍ قَبْلَهَا. ﴿وَ﴾ صُحُفِ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ تَمَّمَ مَا أُمِرَ بِهِ، نَحْوَ: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤][1]، وَبَيَانُ «مَا»: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَأَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيْ: لَا تَحْمِلُ نَفْسٌ ذَنْبَ غَيْرِهَا. ﴿وَأَن﴾ أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ مِنْ خَيْرٍ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ سَعْيِ غَيْرِهِ لِلْخَيْرِ شَيْءٌ[2]. ﴿وَأَنَّ

جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هي كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين. والأظهر عندي في ضابط الكبيرة: أنها كل ذنب اقترن بما يدل على أنه أعظم من مطلق المعصية، سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، أو كان وجوب الحد فيه، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده. [الشنقيطي (٧/ ٢٠٩)].

(١) وفى وأتم ما التزمه أو أمر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله، وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمروذ حتى أتاه جبريل عليه السلام حين ألقي في النار فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وذبح الولد وأنه كان يمشي كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم، وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم. [البيضاوي (٥/ ١٦١)].

(٢) هذه الآية الكريمة تدل على أنه لا ينتفع أحد بعمل غيره. وقد جاءت آية أخرى تدل على أن بعض الناس ربما انتفع بعمل غيره وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية [الطور: ٢١]، فرفع درجات الأولاد ... بعمل آبائهم لا بعمل أنفسهم. اعلم أولا أن ما روي عن ابن عباس من أن هذا كان شرعا لمن قبلنا، فنسخ في شرعنا غير صحيح، بل آية: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ﴾ محكمة، كما أن القول بأن المراد بالإنسان خصوص الكافر غير صحيح أيضا. والجواب من ثلاثة أوجه: الأول: أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه، ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره، ... وبين الأمرين فرق ظاهر، لأن سعي الغير ملك لساعيه، إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه. وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك، مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه. الثاني: أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم، إذ لو كانوا كفارا لما حصل لهم ذلك، وهذا الوجه يشير إليه قوله

سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ يُبْصرُ فِي الْآخِرَةِ. ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ الْأَكْمَلَ، يُقَالُ: جَزَيْتُهُ سَعْيَهُ وَبِسَعْيِهِ(١). ﴿وَأَنَّ﴾ بِالْفَتْحِ عَطْفًا وَقُرِئَ بِالْكَسْرِ(٢) اسْتِئْنَافًا، وَكَذَا مَا بَعْدَهَا، فَلَا يَكُونُ مَضْمُونُ الْجُمَلِ فِي الصُّحُفِ عَلَى الثَّانِي ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَيُجَازِيهِمْ. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ﴾ مَنْ شَاءَ أَفْرَحَهُ ﴿وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ مَنْ شَاءَ أَحْزَنَهُ(٣). ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ لِلْبَعْثِ. ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصِّنْفَيْنِ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ ﴿إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ تُصَبُّ فِي الرَّحِمِ. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ﴾ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ ﴿ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ الْخَلْقَةَ الْآخِرَةَ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْخَلْقَةِ الْأُولَى. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ النَّاسَ بِالْكِفَايَةِ بِالْأَمْوَالِ ﴿وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أَعْطَى الْمَالَ الْمُتَّخَذَ قُنْيَةً. ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ هُوَ كَوْكَبٌ خَلْفَ الْجَوْزَاءِ، كَانَتْ تُعْبَدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. ﴿وَأَنَّهُۥ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِإِدْغَامِ التَّنْوِينِ فِي اللَّامِ وَضَمِّهَا بِلَا هَمْزَةٍ، هِيَ قَوْمُ عَادٍ، وَالْأُخْرَى قَوْمُ صَالِحٍ. ﴿وَثَمُودَا﴾ بِالصَّرْفِ اسْمٌ لِلْأَبِ، وَبِلَا صَرْفٍ اسْمٌ لِلْقَبِيلَةِ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿عَادًا﴾ ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ مِنْهُمْ أَحَدًا. ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أَيْ: قَبْلَ عَادٍ وَثَمُودَ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ، لِطُولِ لُبْثِ نُوحٍ فِيهِمْ، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وَهُمْ مَعَ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِهِ يُؤْذُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وَهِيَ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ أَسْقَطَهَا بَعْدَ رَفْعِهَا إِلَى السَّمَاءِ مَقْلُوبَةً إِلَى الْأَرْضِ بِأَمْرِهِ جِبْرِيلَ بِذَلِكَ. ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ مِنَ الْحِجَارَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ أُبْهِمَ تَهْوِيلًا، وَفِي هُودٍ: ﴿جَعَلْنَا

تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾. الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ولكنه من سعي الآباء فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه، بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم، فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٣٠٠)].

(١) قال الشاعر: (إِنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بْنَ سَعْدٍ سَعْيَهُ   لَمْ أَجْزِهِ بِبَلَاءِ يَوْمٍ وَاحِدِ) فجمع بين اللغتين. [البغوي (٧/ ٤١٧)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) الضحك: أثر سرور النفس، والبكاء: أثر الحزن، وكل من الضحك والبكاء من خواص الإنسان وكلاهما خلق عجيب دال على انفعال عظيم في النفس. وليس لبقية الحيوان ضحك ولا بكاء ... ويُشِّر إلى أن الله هو المتصرف في الإنسان؛ لأنه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حدا عظيما من ذلك خارجا على مقدور الإنسان وذلك لا يمتري فيه أحد إذا تأمل وفيه ما يرشد إلى الإقبال على طاعة الله والتضرع إليه ليقدر للناس أسباب الفرح، ويدفع عنهم أسباب الحزن وإنما جرى ذكر هذا في هذا المقام لمناسبة أن الجزاء الأوفى لسعي الناس: بعضه سار لفريق وبعضه محزن لفريق آخر. [ابن عاشور (٢٧/ ١٤٢)].

عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أَنْعُمِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ ﴿تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ تَتَشَكَّكُ أَيُّهَا الإِنْسَانُ أَوْ تَكْذِبُ(١). ﴿هَٰذَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ مِنْ جِنْسِهِمْ، أَيْ: رَسُولٌ كَالرُّسُلِ قَبْلَهُ، أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ كَمَا أُرْسِلُوا إِلَى أَقْوَامِهِمْ. ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ۝٥٧﴾ قَرُبَتِ الْقِيَامَةُ(٢). ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ نَفْسٌ ﴿كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ أَيْ: لَا يَكْشِفُهَا وَيُظْهِرُهَا إِلَّا هُوَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أَيْ: الْقُرْآنِ ﴿تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ تَكْذِيبًا. ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ اسْتِهْزَاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ لِسَمَاعِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ. ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ لَاهُونَ غَافِلُونَ عَمَّا يُطْلَبُ مِنْكُمْ(٣). ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴿وَٱعْبُدُواْ۩ ۝٦٢﴾ وَلَا تَسْجُدُوا لِلْأَصْنَامِ وَلَا تَعْبُدُوهَا(٤).

(١) سمى هذه الأمور المذكورة آلاء، أي: نعماً مع كون بعضها نقماً لا نعماً، لأنها مشتملة على العبر والمواعظ، ويكون فيها انتقام من العصاة، وفي ذلك نصرة للأنبياء والصالحين. [الشوكاني (٥/ ١٤١)].

(٢) سماها آزفة لقرب قيامها، وقيل: لدنوها من الناس، كما في قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] أخبرهم بذلك ليستعدوا لها. [صديق حسن (١٣/ ٢٧٨)].

(٣) أي: لاهون عما فيه من العبر، معرضون عن آياته كِبرا. قال مجاهد: كانوا يمرون على النبي ﷺ غضابا مبرطمين، أي: شامخين. وعن ابن عباس: هو الغناء: كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهي لغة أهل اليمن. يقولون: اسمد لنا: تغن لنا. والمآل واحد وإن اختلفت العبارة عنه. ولا ريب أن كل ذلك مما كان يصدر عن المشركين. [القاسمي (٩/ ٨٤)].

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. أخرجه البخاري (٤٨٦٢).

سُورَةُ القَمَرِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ الْآيَةَ، وَهِيَ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ قَرُبَتِ الْقِيَامَةُ[١] ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾ انْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ وَقُيَقْعَانَ، آيَةً لَهُ ﷺ وَقَدْ سُئِلَهَا فَقَالَ: «اشْهَدُوا». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢]. ﴿وَإِن يَرَوْا۟﴾ أَيْ: كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿ءَايَةً﴾ مُعْجِزَةً لَهُ ﷺ كَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ ﴿يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟﴾ هَذَا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ②﴾ قَوِيٌّ مِنَ «الْمِرَّةِ» الْقُوَّةِ، أَوْ دَائِمٌ[٣]. ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ النَّبِيَّ ﷺ ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فِي الْبَاطِلِ ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ﴿مُّسْتَقِرٌّ ③﴾ بِأَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ[٤]. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أَخْبَارِ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ رُسُلَهُمْ ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④﴾ لَهُمْ، اسْمُ مَصْدَرٍ أَوِ اسْمُ مَكَانٍ، وَالدَّالُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الِافْتِعَالِ، وَازْدَجَرْتُهُ وَزَجَرْتُهُ نَهَيْتُهُ بِغِلْظَةٍ، وَ«مَا» مَوْصُولَةٌ أَوْ مَوْصُوفَةٌ. ﴿حِكْمَةٌ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَوْ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَا﴾، أَوْ مِنْ ﴿مُزْدَجَرٌ﴾، ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ تَامَّةٌ ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ تَنْفَعُ فِيهِمْ ﴿ٱلنُّذُرُ ⑤﴾ جَمْعُ نَذِيرٍ بِمَعْنَى مُنْذِرٍ، أَيِ: الْأُمُورُ الْمُنْذِرَةُ لَهُمْ، وَ«مَا» لِلنَّفْيِ أَوْ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ وَهِيَ عَلَى الثَّانِي مَفْعُولٌ مُقَدَّمٌ. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هُوَ فَائِدَةُ مَا قَبْلَهُ

---

(١) يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وعن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ هَكَذَا» وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجه البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠). [ابن كثير (٧/ ٤٧٠)].

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٦٩)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٣) هذه الضمائر لقريش والآية المشار إليها انشقاق القمر، وعند ذلك قالت قريش: سحر محمد القمر، ومعنى مستمر: دائم، وقيل: معناه ذاهب يزول عن قريب، وقيل: شديد وهو على هذا المعنى من المِرة وهي القوة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٢٢)].

(٤) استئناف مسوق لإقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره ﷺ حسبما قالوا: سحر مستمر ببيان ثباته ورسوخه، أي: وكل أمر من الأمور مستقر، أي: منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها أمر النبي ﷺ فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه، وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به. وقيل: المعنى: كل أمر من أمرهم وأمره ﷺ مستقر، أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوة أو سعادة في الآخرة، وقرئ بالفتح على أنه مصدر أو اسم مكان أو اسم زمان، أي: ذو استقرار أو ذو موضع استقرار أو ذو زمان استقرار، وبالكسر والجر على أنه صفة أمر وكل عطف على الساعة، أي: اقتربت الساعة وكل أمر مستقر. [أبو السعود (٨/ ١٦٧)].

وَتَمَّ بِهِ الْكَلَامُ[(١)] ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ هُوَ إِسْرَافِيلُ، وَنَاصِبُ ﴿يَوْمَ﴾: ﴿يَخْرُجُونَ﴾ بَعْدُ، ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ بِضَمِّ الْكَافِ وَسُكُونِهَا، أَيْ: مُنْكَرٍ تُنْكِرُهُ النُّفُوسُ لِشِدَّتِهِ وَهُوَ الْحِسَابُ. ﴿خُشَّعًا﴾ أَيْ: ذَلِيلًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿خُشَّعًا﴾ بِضَمِّ الْخَاءِ وَفَتْحِ الشِّينِ مُشَدَّدَةً ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أَيْ: النَّاسُ ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ الْقُبُورِ ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ لَا يَدْرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحِيرَةِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿يَخْرُجُونَ﴾. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أَيْ: مُسْرِعِينَ مَادِّينَ أَعْنَاقَهُمْ ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مِنْهُمْ: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ صَعْبٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، كَمَا فِي الْمُدَّثِّرِ: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المدثر: ٩-١٠][(٢)]. ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أَيْ: قَبْلَ قُرَيْشٍ ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ تَأْنِيثُ الْفِعْلِ لِمَعْنَى ﴿قَوْمُ﴾، ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نُوحًا ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾ انْتَهَرُوهُ بِالسَّبِّ وَغَيْرِهِ[(٣)]. ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾ أَيْ: بِأَنِّي ﴿مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١﴾ مُنْصَبٍّ انْصِبَابًا شَدِيدًا. ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ تَنْبُعُ ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ مَاءُ السَّمَاءِ

---

(١) ها هنا وقف تام. [البغوي (٧/ ٤٢٧)]. والفاء للسببية والمسبب التولي أو الأمر به والسبب عدم الإغناء أو العلم به، والمراد بالتولي إما عدم القتال، فالآية منسوخة، وإما ترك الجدال للجدال فهي محكمة. [الآلوسي (١٤/ ٧٩)].

(٢) قد عد سبعة من مظاهر الأهوال: أولها: دعاء الداعي فإنه مؤذن بأنهم محضرون إلى الحساب ... الثاني: أنه يدعو إلى شيء عظيم، لأن ما في لفظ شيء من الإبهام يشعر بأنه مهول ... وثالثها: وصف شيء بأنه نكر، أي: موصوف بأنه تنكره النفوس وتكرهه ... ورابعها: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح ... وخامسها: تشبيههم بالجراد المنتشر في الاكتظاظ واستتار بعضهم ببعض من شدة الخوف زيادة على ما يفيده التشبيه من الكثرة والتحرك. وسادسها: وصفهم بمهطعين، والمهطع: الماشي سريعا مادا عنقه، وهي مشية مذعور غير ملتفت إلى شيء ... وسابعها: قولهم: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف. وعسر: صفة مشبهة من العسر وهو الشدة والصعوبة ... وأبهم ﴿شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ للتهويل، وذلك هو أهوال الحساب وإهانة الدفع ومشاهدة ما أعد لهم من العذاب ... والأجداث: جمع جدث وهو القبر، وقد جعل الله خروج الناس إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض، كما قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] ... والجراد: اسم جمع واحده جرادة ... والمراد هنا الدبى وهو فراخ الجراد قبل أن تظهر له الأجنحة، لأنه يخرج من ثقب في الأرض هي مبيضات أصوله فإذا تم خلقه خرج من الأرض يزحف بعضه فوق بعض ... وهذا التشبيه تمثيلي لأنه تشبيه هيئة خروج الناس من القبور متراكمين بهيئة خروج الجراد متعاظلا يسير غير ساكن. [ابن عاشور (٢٧/ ١٧٧)]. وذكر المنتشر على لفظ الجراد، نظيرها: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] وأراد أنهم يخرجون فزعين لا جهة لأحد منهم يقصدها، كالجراد لا جهة لها، تكون مختلطة بعضها في بعض. [البغوي (٧/٤٢٨)].

(٣) أي: زجروه بالشتم والتخويف، وقالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. [ابن جُزيّ (٣/ ٣٢٣)].

وَالْأَرْضِ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٍ﴾ حالٍ ﴿قَدۡ قُدِرَ ۝١٢﴾ قُضِيَ بِهِ فِي اَلْأَزَلِ، وَهُوَ هَلَاكُهُمْ غَرَقًا. ﴿وَحَمَلۡنَـٰهُ﴾ أَيْ: نُوحًا ﴿عَلَىٰ﴾ سَفِينَةٍ ﴿ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣﴾ وَهُوَ مَا تُشَدُّ بِهِ الْأَلْوَاحُ مِنَ الْمَسَامِيرِ وَغَيْرِهَا، وَاحِدُهَا «دِسَارٌ» كَكِتَابٍ. ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ بِمَرْأًى مِنَّا[1]، أَيْ: مَحْفُوظَةً ﴿جَزَآءٗ﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: أُغْرِقُوا اِنْتِصَارًا ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ وَهُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ، وَقُرِئَ: ﴿كَفَرَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ[2]، أَيْ: أُغْرِقُوا عِقَابًا لَهُمْ. ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَـٰهَآ﴾ أَبْقَيْنَا هَذِهِ الْفِعْلَةَ ﴿ءَايَةٗ﴾ لِمَنْ يَعْتَبِرُ بِهَا، إِذْ شَاعَ خَبَرُهَا وَاسْتَمَرَّ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥﴾ مُعْتَبِرٍ وَمُتَّعِظٍ بِهَا، وَأَصْلُهُ «مُذْتَكِرٌ» أُبْدِلَتِ اَلتَّاءُ دَالًا مُهْمَلَةً، وَأُدْغِمَتْ فِيهَا. ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾ أَيْ: إِنْذَارِي، اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ، وَ«كَيْفَ» خَبَرُ كَانَ، وَهِيَ لِلسُّؤَالِ عَنِ اَلْحَالِ، وَالْمَعْنَى: حَمْلُ اَلْمُخَاطَبِينَ عَلَى اَلْإِقْرَارِ بِوُقُوعِ عَذَابِهِ تَعَالَى بِالْمُكَذِّبِينَ لِنُوحٍ مَوْقِعَهُ. ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ سَهَّلْنَاهُ لِلْحِفْظِ وَهَيَّأْنَاهُ لِلتَّذَكُّرِ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ مُتَّعِظٍ بِهِ وَحَافِظٍ لَهُ، وَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى اَلْأَمْرِ، أَيِ: اِحْفَظُوهُ وَاتَّعِظُوا بِهِ، وَلَيْسَ يُحْفَظُ مِنْ كُتُبِ اَللهِ عَنْ ظَهْرِ اَلْقَلْبِ غَيْرُهُ[3]. ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾

---

(١) أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ منه لها عن الغرق ونظر وكلائه منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل. [السعدي (ص:٨٢٥)]. كما في قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ إلخ جملة قسمية وردت في آخر القصص الأربع تقريرا المضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم﴾ إلخ وتنبيها على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية في الازدجار، ومع ذلك لم يحصل فيها اعتبار، أي: وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿لِلذِّكۡرِ﴾ أي: للتذكر والاتعاظ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه وآكده يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم، وقيل: المعنى سهلنا القرآن للحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعاني وصحتها وعروه عن الوحشي ونحوه فله تعلق بالقلوب وحلاوة في السمع فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ ومن هنا قال ابن جبير: لم يستظهر شيء من الكتب الإلهية غير القرآن، وأخرج ابن المنذر، وجماعة عن مجاهد أنه قال: يسرنا القرآن هونا قراءته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لولا أن الله تعالى يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى. [الآلوسي (١٤/ ٨٣)]. فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٤٠﴾؟ قلت: فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن، وقوله: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] عند كل آية أوردها في سورة والمرسلات، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة القلوب، مصورة للأذهان،

نَبِيَّهُم هُودًا فَعُذِّبُوا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨﴾ إِنْذَارِي لَهُم بِالْعَذَابِ قَبْلَ نُزُولِهِ، أَيْ: وَقَعَ مَوْقِعَهُ. وَقَدْ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أَيْ: شَدِيدَةَ الصَّوْتِ ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شُؤْمٍ ﴿مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ دَائِمِ الشُّؤْمِ أَوْ قَوِيِّهِ، وَكَانَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ آخِرَ الشَّهْرِ[1]. ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تَقْلَعُهُمْ مِنْ حُفَرِ الْأَرْضِ الْمُنْدَسِّينَ فِيهَا وَتَصْرَعُهُمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ فَتَدُقُّ رِقَابَهُمْ، فَتَبِينُ الرَّأْسُ عَنِ الْجَسَدِ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ وَحَالُهُمْ مَا ذُكِرَ ﴿أَعْجَازُ﴾ أُصُولُ ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ مُنْقَطِعٍ سَاقِطٍ عَلَى الْأَرْضِ، وَشُبِّهُوا بِالنَّخْلِ لِطُولِهِمْ، وَذُكِّرَ هُنَا وَأُنِّثَ فِي الْحَاقَّةِ: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] مُرَاعَاةً لِلْفَوَاصِلِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ[2]. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣﴾ جَمْعُ «نَذِيرٍ»، بِمَعْنَى: مُنْذِرٍ، أَيْ: بِالْأُمُورِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَتَّبِعُوهُ. ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الِاشْتِغَالِ ﴿مِّنَّا وَٰحِدًا﴾ صِفَتَانِ لـ ﴿بَشَرًا﴾ ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ مُفَسِّرٌ لِلْفِعْلِ النَّاصِبِ لَهُ، وَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ، الْمَعْنَى: كَيْفَ نَتَّبِعُهُ وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَلَكٍ؟[3] أَيْ: لَا نَتَّبِعُهُ ﴿إِنَّآ

مذكورة غير منسية في كل أوان. [الزمخشري (٤/ ٤٣٩)].

(١) أريد بـ﴿يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أول أيام الريح التي أرسلت على عاد إذ كانت أيام ... كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]. والنحس: سوء الحال. وإضافة يوم إلى نحس من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه، كقولهم: يوم تحلاق اللمم، ويوم فتح مكة. وإنما يضاف اليوم إلى النحس باعتبار المنحوس، فهو يوم نحس للمعذبين ويوم نصر للمؤمنين، ومصائب قوم عند قوم فوائد. وليس في الأيام يوم يوصف بنحس أو بسعد لأن كل يوم تحدث فيه نحوس لقوم وسعود لآخرين، وما يروى من أخبار في تعيين بعض أيام السنة للنحس هو من أغلاط القصاصين فلا يلقي المسلم الحق إليها سمعه. [ابن عاشور (٢٧/ ١٩٢)].

(٢) النزع: الإزالة بعنف لئلا يبقى اتصال بين المزال وبين ما كان متصلا به، ومنه نزع الثياب. والأعجاز: جمع عجز: وهو أسفل الشيء، وشاع إطلاق العجز على آخر الشيء لأنهم يعتبرون الأجسام منتصبة على الأرض، فأولاها ما كان إلى السماء وآخرها ما يلي الأرض. وشبه الناس المطروحون على الأرض بأصول النخيل المقطوعة التي تقلع من منابتها لموتها إذ تزول فروعها ويتحات ورقها فلا يبقى إلا الجذوع الأصلية فلذلك سميت أعجازا. ومنقعر: اسم فاعل انقعر مطاوع قعره، أي: بلغ قعره بالحفر، يقال: قعر البئر إذا انتهى إلى عمقها، أي: كأنهم أعجاز نخل قعرت دواخله وذلك يحصل لعود النخل إذا طال مكثه مطروحا. قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وكلمة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ في موضع الحال من الناس، ووجه الوصف بمنقعر الإشارة إلى أن الريح صرعتهم صرعا تفلقت منه بطونهم وتطايرت أمعاؤهم وأفئدتهم فصاروا جثثا فرغا. وهذا تفظيع لحالهم، ومُثلة لهم لتخويف من يراهم. [ابن عاشور (٢٧/ ١٩٣)].

(٣) فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشرا منهم واحدا؟ قلت: قالوا أبشرا: إنكارا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس

﴿إِذًا﴾ إِنِ اتَّبَعْنَاهُ ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ ذَهَابٍ عَنِ الصَّوَابِ ﴿وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ جُنُونٍ[1]. ﴿أَءُلْقِىَ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَتَرْكِهِ ﴿ٱلذِّكْرُ﴾ الْوَحْيُ ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أَيْ: لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ فِي قَوْلِهِ: إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ مَا ذُكِرَ ﴿أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ مُتَكَبِّرٌ بَطِرٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ وَهُوَ هُمْ، بِأَنْ يُعَذَّبُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّهُمْ صَالِحًا. ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ مُخْرِجُوهَا مِنَ الْهَضْبَةِ الصَّخْرَةِ كَمَا سَأَلُوا ﴿فِتْنَةً﴾ مِحْنَةً ﴿لَّهُمْ﴾ لِنَخْتَبِرَهُمْ[2] ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ يَا صَالِحُ، أَيْ: اِنْتَظِرْ مَا هُمْ صَانِعُونَ وَمَا يُصْنَعُ بِهِمْ ﴿وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ الطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الِافْتِعَالِ، أَيِ: اِصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ. ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ﴾ مَقْسُومٌ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ النَّاقَةِ، يَوْمٌ لَهُمْ وَيَوْمٌ لَهَا ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ نَصِيبٍ مِنَ الْمَاءِ ﴿مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ يَحْضُرُ الْقَوْمُ يَوْمُهُمْ، وَالنَّاقَةُ يَوْمُهَا. فَتَمَادَوْا عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ مَلُّوهُ فَهَمُّوا بِقَتْلِ النَّاقَةِ ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ قُدَارًا لِيَقْتُلَهَا ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تَنَاوَلَ السَّيْفَ ﴿فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ بِهِ النَّاقَةَ، أَيْ: قَتَلَهَا مُوَافَقَةً لَهُمْ. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ إِنْذَارِي لَهُمْ بِالْعَذَابِ قَبْلَ نُزُولِهِ، أَيْ: وَقَعَ مَوْقِعَهُ. وَبَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ لِغَنَمِهِ حَظِيرَةً مِنْ يَابِسِ الشَّجَرِ وَالشَّوْكِ، يَحْفَظُهُنَّ فِيهَا مِنَ الذِّئَابِ وَالسِّبَاعِ، وَمَا سَقَطَ مِنْ ذَلِكَ فَدَاسَتْهُ هُوَ الْهَشِيمُ[3].

أعلى من جنس البشر وهم الملائكة، وقالوا: ﴿مِّنَّا﴾ لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى، وقالوا واحدا إنكارا لأن تتبع الأمة رجلا واحدا. أو أرادوا واحدا من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم، ويدل عليه قولهم: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أأنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة. [الزمخشري (٤/ ٤٣٧)].

(١) أي: عذاب وعناء وشدة، كذا قال الفراء وغيره، وقال أبو عبيدة: وهو جمع سعير، وهو لهب النار، والسعر الجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدة، وقال مجاهد: سعر بعد عن الحق، وقال السدي: في احتراق، وقيل: المراد به هنا الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أي: كأنها من شدة نشاطها مجنونة، وقال ابن عباس: في شقاء. [صديق حسن (١٣/ ٢٩٨)].

(٢) في هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد يظهر للإنسان من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، حتى إذا استكبر كان استكباره عن علم، فكان عقابه أشد وأوجع، ولهذا جعل الله الناقة فتنة؛ لأنها أظهرت الحق لهم، ولكن لم يقبلوا. [ابن عثيمين تفسير القمر (ص:٢٨١)].

(٣) الصيحة: الصاعقة وهي المعبر عنها بـ «الطاغية» في سورة الحاقة، وفي سورة الأعراف بـ «الرجفة»، وهي صاعقة عظيمة خارقة للعادة أهلكتهم، ولذلك وصفت بواحدة للدلالة على أنها خارقة للعادة إذ أتت على قبيلة كاملة وهم أصحاب الحجر. وكانوا بمعنى: «صاروا»، وتجيء كان بمعنى «صار» حين يراد بها كون متحدد لم يكن من قبل. والهشيم: ما يبس وجف من الكلأ ومن الشجر، وهو مشتق من «الهشم» وهو الكسر، لأن اليابس من ذلك يصير سريع الانكسار. والمراد هنا شيء خاص منه وهو ما جف من أغصان العضاة والشوك وعظيم الكلأ كانوا يتخذون منه حظائر لحفظ أغنامهم من الريح والعادية ولذلك أضيف الهشيم إلى المحتظر. وهو بكسر الظاء المعجمة:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ أَيْ: بِالْأُمُورِ الْمُنْذَرَةِ لَهُمْ عَلَى لِسَانِهِ. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ رِيحًا تَرْمِيهِمْ بِالْحَصْبَاءِ، وَهِيَ صِغَارُ الْحِجَارَةِ الْوَاحِدُ دُونَ مِلْءِ الْكَفِّ، فَهَلَكُوا ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ وَهُمُ ابْنَتَاهُ مَعَهُ ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ مِنَ الْأَسْحَارِ، أَيْ: وَقْتَ الصُّبْحِ مِنْ يَوْمٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ(١)، وَلَوْ أُرِيدَ مِنْ يَوْمٍ مُعَيَّنٍ لَمُنِعَ مِنَ الصَّرْفِ؛ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَعْدُولٌ عَنِ «السَّحَرِ»؛ لِأَنَّ حَقَّهُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الْمَعْرِفَةِ بِـ «أَلْ»، وَهَلْ أُرْسِلَ الْحَاصِبُ عَلَى آلِ لُوطٍ أَوْ لَا؟ قَوْلَانِ، وَعُبِّرَ عَنِ الِاسْتِثْنَاءِ عَلَى الْأَوَّلِ بِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ، وَعَلَى الثَّانِي بِأَنَّهُ مُنْقَطِعٌ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْجِنْسِ تَسَمُّحًا(٢). ﴿نِّعْمَةً﴾ مَصْدَرٌ، أَيْ: إِنْعَامًا ﴿مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ ﴿نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ أَنْعُمَنَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، أَوْ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَطَاعَهُمَا. ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ خَوَّفَهُمْ لُوطٌ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أَخْذَتَنَا إِيَّاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴿فَتَمَارَوْا۟﴾ تَجَادَلُوا وَكَذَّبُوا ﴿بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ بِإِنْذَارِهِ. ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَتَوْهُ فِي صُورَةِ الْأَضْيَافِ لِيَخْبُثُوا بِهِمْ، وَكَانُوا مَلَائِكَةً ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أَعْمَيْنَاهَا وَجَعَلْنَاهَا بِلَا شَقٍّ كَبَاقِي الْوَجْهِ، بِأَنْ صَفَقَهَا جِبْرِيلُ بِجَنَاحِهِ(٣) ﴿فَذُوقُوا۟﴾ فَقُلْنَا لَهُمْ: ذُوقُوا ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾

الذي يعمل الحظيرة ويبنيها، وذلك بأنه يجمع الهشيم ويلقيه على الأرض ليرصفه بعد ذلك سياجا لحظيرته، فالمشبه به هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يسيج ولذلك قال كهشيم المحتظر ولم يقل: كهشيم الحظيرة، لأن المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصف ويصفف وقبل أن تتخذ منه الحظيرة. [ابن عاشور (٢٧/ ٢٠٢)].

(١) وذكر بسحر، أي: في وقت السحر للإشارة إلى إنجائهم قبيل حلول العذاب بقومهم، لقوله بعده: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾. [ابن عاشور (٢٧/ ٢٠٤)].

(٢) ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه متصل، ويكون المعنى: أنه أرسل الحاصب على الجميع إلا أهله، فإنه لم يرسل عليهم. والثاني: أنه منقطع. قال شهاب الدين: ولا أدري ما وجهه، فإن الانقطاع وعدمه عبارة عن عدم دخول المستثنى في المستثنى منه، وهذا داخل ليس إلا. وقال أبو البقاء: هو استثناء منقطع. وقيل: متصل؛ لأن الجميع أرسل عليهم الحاصب فهلكوا إلا آل لوط. وعلى الوجه الأول يكون الحاصب لم يرسل على آل لوط. انتهى. وهو كلام مشكل. قال ابن الخطيب: الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهو يعود على قوم لوط فيقتضي أن آله كذبوا، لكن قد يكون أهله قليلاً فعمهم ظاهر اللفظ فبين بالاستثناء خروجهم لأن المقصود بيان هلاكهم ومن نجا، أو يكون الاستثناء من كلام مدلول عليه، أي: فما أنجينا من الحاصب إلا آل لوط، ويكون الإرسال عليهم والإهلاك عاما، فكأن الحاصب أهلك من كان الإرسال عليه مقصوداً وغيرهم، كالأطفال والدواب. والمراد بآل لوط: من تبع على دينه إلا بنتاه. [ابن عادل الحنبلي (١٨/ ٢٧٠)].

(٣) وقيل: لا، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم

إِنْذَارِي وَتَخْوِيفِي، أَيْ: ثَمَرَتُهُ وَفَائِدَتُهُ. ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ وَقْتَ الصُّبْحِ مِنْ يَوْمٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ دَائِمٌ مُتَّصِلٌ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ(١). ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ قَوْمَهُ مَعَهُ ﴿النُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ الْإِنْذَارُ عَلَى لِسَانِ مُوسَى وَهَارُونَ فَلَمْ يُؤْمِنُوا. بَلْ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ التِّسْعِ الَّتِي أُوتِيَهَا مُوسَى ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ قَوِيٍّ ﴿مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ قَادِرٍ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يَا قُرَيْشُ ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ الْمَذْكُورِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمْ يُعَذَّبُوا؟ ﴿أَمْ لَكُم﴾ يَا كُفَّارَ قُرَيْشٍ ﴿بَرَاءَةٌ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ الْكُتُبِ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أَيْ: كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جَمْعٌ ﴿مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ. وَلَمَّا قَالَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ: «إِنَّا جَمْعٌ مُنْتَصِرٌ». نَزَلَ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ فَهُزِمُوا بِبَدْرٍ، وَنُصِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمْ. ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ أَيْ: عَذَابُهَا ﴿أَدْهَىٰ﴾ أَعْظَمُ بَلِيَّةً ﴿وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ أَشَدُّ مَرَارَةً مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا. ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ هَلَاكٍ بِالْقَتْلِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ نَارٍ مُسَعَّرَةٍ بِالتَّشْدِيدِ، أَيْ: مُهَيَّجَةٍ فِي الْآخِرَةِ. ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ إِصَابَةَ جَهَنَّمَ لَكُمْ(٢). ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ يُفَسِّرُهُ ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ بِتَقْدِيرٍ، حَالٌ مِنْ ﴿كُلَّ﴾، أَيْ: مُقَدَّرًا، وَقُرِئَ: ﴿كُلُّ﴾(٣) بِالرَّفْعِ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿خَلَقْنَاهُ﴾(٤). ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾ لِشَيْءٍ نُرِيدُ وُجُودَهُ ﴿إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ فِي السُّرْعَةِ، وَهِيَ قَوْلُ:

حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم. [القرطبي (١٧/ ١٤٤)].

(١) المستقر: الثابت الدائم الذي يجري على قوة واحدة لا يقلع حتى استأصلهم. [ابن عاشور (٢٧/ ٢٠٧)].

(٢) كقولك: «وجد مس الحمى، وذاق طعم الضرب»، لأن النار إذا أصابتهم بحرها، فكأنها تمسهم مسا بذلك، و ﴿سَقَرَ﴾ غير منصرف للتأنيث والتعريف، لأنها علم لجهنم، من «سقرته النار» إذا لوحته. [النسفي (٣/ ٤٠٧)].

(٣) قراءة شاذة.

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾. أخرجه مسلم (٢٦٥٦). قال النبي ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ». أخرجه مسلم (٢٦٥٥/ ١٨). [قال ابن كثير (٧/ ٤٨٢):] ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة.

«كُنْ» فيُوجَدُ، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ أَشْبَاهَكُمْ فِي اَلْكُفْرِ مِنَ اَلْأُمَمِ اَلْمَاضِيَةِ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝٥١﴾ اِسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى اَلْأَمْرِ، أَي: اُذْكُرُوا وَاتَّعِظُوا. ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾ أَيْ: الْعِبَادُ مَكْتُوبٌ ﴿فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾ كُتُبِ اَلْحَفَظَةِ. ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾ مِنَ اَلذَّنْبِ أَوِ اَلْعَمَلِ ﴿مُّسۡتَطَرٌ ۝٥٣﴾ مَكْتُوبٌ فِي اَللَّوْحِ اَلْمَحْفُوظِ(١). ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَنَهَرٖ ۝٥٤﴾ أُرِيدَ بِهِ اَلْجِنْسُ، وَقُرِئَ: بِضَمِّ اَلنُّونِ وَالْهَاءِ جَمْعًا(٢) كَأَسَدٍ وَأُسُدٍ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَنْهَارِهَا اَلْمَاءَ وَاللَّبَنَ وَالْعَسَلَ وَالْخَمْرَ. ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ مَجْلِسِ حَقٍّ لَا لَغْوَ فِيهِ وَلَا تَأْثِيمَ، أُرِيدَ بِهِ اَلْجِنْسُ، وَقُرِئَ: ﴿مَقَاعِدِ﴾(٣) اَلْمَعْنَى: أَنَّهُمْ فِي مَجَالِسَ مِنَ اَلْجَنَّاتِ سَالِمَةٍ مِنَ اَللَّغْوِ وَالتَّأْثِيمِ، بِخِلَافِ مَجَالِسِ اَلدُّنْيَا فَقَلَّ أَنْ تَسْلَمَ مِنْ ذَلِكَ، وَأُعْرِبَ هَذَا خَبَرًا ثَانِيًا وَبَدَلًا، وَهُوَ صَادِقٌ بِبَدَلِ اَلْبَعْضِ وَغَيْرِهِ ﴿عِندَ مَلِيكٖ﴾ مِثَالُ مُبَالَغَةٍ، أَيْ: عَزِيزِ اَلْمُلْكِ وَاسِعِهِ(٤) ﴿مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾ قَادِرٍ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَهُوَ اَللهُ تَعَالَى، وَ﴿عِندَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى اَلرُّتْبَةِ مِنْ فَضْلِهِ تَعَالَى(٥).

---

(١) أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. [السعدي (ص:٨٢٨)]. أخرج مسلم (٢٦٥٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدْرٍ حَتَّى العَجْزِ والكَيْسِ».

(٢) قراءة شاذة.

(٣) قراءة شاذة.

(٤) أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون ... عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال: «الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا». أخرجه مسلم (١٨٢٧). [ابن كثير (٧/ ٤٨٧)].

(٥) عند ذي مُلك مقتدر على ما يشاء، وهو الله ذو القوة المتين، تبارك وتعالى. [الطبري (٢٢/ ١٦٧)].

سُورَةُ الرَّحۡمَٰن

مَكِّيَّةٌ، أَوْ إِلَّا ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ اَلْآيَةُ فَمَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ سِتٌّ أَوْ ثَمَانٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾ اللهُ تَعَالَى(١). ﴿عَلَّمَ﴾ مَنْ شَاءَ(٢) ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣﴾ أَيِ: اَلْجِنْسَ. ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾ اَلنُّطْقَ(٣). ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ بِحِسَابٍ يَجْرِيَانِ. ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ مَا لَا سَاقَ لَهُ مِنَ النَّبَاتِ ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ مَا لَهُ سَاقٌ ﴿يَسۡجُدَانِ ٦﴾ يَخْضَعَانِ لِمَا يُرَادُ مِنْهُمَا(٤). ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧﴾ أَثْبَتَ الْعَدْلَ. ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾ أَيْ: لِأَجْلِ أَنْ لَا تَجُورُوا ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾ مَا يُوزَنُ بِهِ. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ تُنْقِصُوا اَلْمَوْزُونَ(٥). ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾ أَثْبَتَهَا ﴿لِلۡأَنَامِ ١٠﴾ لِلْخَلْقِ اَلْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ. ﴿فِيهَا

---

(١) هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والآخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. [السعدي (ص:٨٢٨)].

(٢) تعديد نعمة، أي: هو مَنَّ به، وعلمه الناس، وخص حفاظه وفهمته بالفضل، قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكم مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ». أخرجه الترمذي (٢٩٠٩)، وأحمد (١٣١٧). [ابن عطية (٥/ ٢٢٣)].

(٣) إيماء بأن خلق البشر وما يميز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو التعبير عما في الضمير وإفهام الغير لما أدركه لتلقي الوحي وتعرف الحق وتعلم الشرع، وإخلاء الجمل الثلاث التي هي أخبار مترادفة لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ عن العاطف لمجيئها على نهج التعديد. [البيضاوي (٥/ ١٧٠)].

(٤) الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله جل وعلا في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه. ونعني بآية الحج قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ﴾ الآية [الحج: ١٨]. [الشنقيطي (٧/ ٧٨٧)]. وهذه النجوم العليا التي نشاهدها في السماء هي تسجد لله عز وجل سجودًا حقيقيًّا، لكننا لا نعلم كيفيته؛ لأن هذا من الأمور التي لا تدركها العقول، والشجر يسجد لله عز وجل سجودًا حقيقيًّا لكن لا ندري كيف ذلك، كما قال عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء ٤٤]. [ابن عثيمين تفسير الرحمن (ص:٣٠٣)].

(٥) الميزان هنا مراد به العدل، مثل الذي في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] لأنه الذي وضعه الله، أي: عينه لإقامة نظام الخلق، فالوضع هنا مستعار بالجعل فهو كالإنزال. [ابن عاشور (٢٧/ ٢٣٨)].

﴿فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ﴾ الْمَعْهُودُ ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾ أَوْعِيَةِ طَلْعِهَا. ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ التِّبْنِ ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾ الْوَرَقِ الْمَشْمُومِ[1]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ نِعَمِ ﴿رَبِّكُمَا﴾ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴿تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ ذُكِرَتْ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، وَالِاسْتِفْهَامُ فِيهَا لِلتَّقْرِيرِ، لِمَا رَوَى الْحَاكِمُ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سُورَةَ الرَّحْمَنِ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ سُكُوتًا، لَلْجِنُّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا، مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ مَرَّةٍ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»[2]. ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ آدَمَ ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ طِينٍ يَابِسٍ يُسْمَعُ لَهُ صَلْصَلَةٌ، أَيْ: صَوْتٌ إِذَا نُقِرَ ﴿كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾ وَهُوَ مَا طُبِخَ مِنَ الطِّينِ. ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ﴾ أَبَا الْجِنِّ وَهُوَ إِبْلِيسُ ﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ هُوَ لَهَبُهَا الْخَالِصُ مِنَ الدُّخَانِ[3]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ مَشْرِقُ الشِّتَاءِ وَمَشْرِقُ الصَّيْفِ ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾ كَذَلِكَ[4]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨ مَرَجَ﴾ أَرْسَلَ ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ الْعَذْبَ وَالْمِلْحَ[5] ﴿يَلۡتَقِيَانِ ١٩﴾ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ. ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ﴾ حَاجِزٌ مِنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠﴾ لَا يَبْغِي وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَيَخْتَلِطَ بِهِ[6]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

---

(١) الحَب: يعني الذي يؤكل من الحنطة والذرة والدخن والرز وغير ذلك. وقوله: ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ أي: ما يحصل من ساقه عند يبسه وهو ما يعرف بالتبن؛ لأنه يُعصف، أي: تطؤه البهائم بأقدامها حتى ينعصف. [قال تعالى: ﴿كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾]، ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ هو الشجر ذو الرائحة الطيبة، فذكر الله في الأرض الفواكه والنخل والحَب والريحان؛ لأن كل واحد من هذه الأربع له اختصاص يختص به، وكل ذلك من أجل مصلحة العباد ومنفعتهم. [ابن عثيمين تفسير الرحمن (ص:٣٠٥)].

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥/ ٢١٥)، والحاكم (٣٧٦٦)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٢١).

(٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

(٤) المشرق: جهة شروق الشمس، والمغرب: جهة غروبها وتثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر وبمراعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين يتنقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال: المشارق والمغارب كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. [ابن عاشور (٢٧/ ٢٤٧)]. وفيهما من النعم والفوائد التي لا تحصى، كاختلاف الفصول، وحدوث ما يناسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التي بها قوام العالم. [القاسمي (٩/ ١٠٤)].

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ [فاطر: ١٢].

(٦) الله تعالى جعل بينهما برزخا من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ ﴿مِنْهُمَا﴾ مِنْ مَجْمُوعِهِمَا الصَّادِقِ بِأَحَدِهِمَا وَهُوَ الْمِلْحُ[1] ﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ خَرَزٌ أَحْمَرُ أَوْ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ السُّفُنُ ﴿الْمُنشَـَٔاتُ﴾ الْمُحْدَثَاتُ ﴿فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ كَالْجِبَالِ عِظَمًا وَارْتِفَاعًا. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أَيْ: الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانِ ﴿فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ هَالِكٌ وَعَبَّرَ بِـ﴿مَنْ﴾ تَغْلِيبًا لِلْعُقَلَاءِ. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذَاتُهُ ﴿ذُو الْجَلَـٰلِ﴾ الْعَظَمَةِ ﴿وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْعُمِهِ عَلَيْهِمْ[2]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ بِنُطْقٍ أَوْ حَالٍ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالرِّزْقِ وَالْمَغْفِرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ وَقْتٍ ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ أَمْرٍ، يُظْهِرُهُ عَلَى وَفْقِ مَا قَدَّرَهُ فِي الْأَزَلِ، مِنْ: إِحْيَاءٍ وَإِمَاتَةٍ، وَإِعْزَازٍ وَإِذْلَالٍ، وَإِغْنَاءٍ وَإِعْدَامٍ، وَإِجَابَةِ دَاعٍ وَإِعْطَاءِ سَائِلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ[3] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ سَنَقْصِدُ لِحِسَابِكُمْ ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾ تَخْرُجُوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ﴾ نَوَاحِي ﴿السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ أَمْرُ تَعْجِيزٍ ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا

أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك، واللؤلؤ والمرجان. [السعدي (ص:٨٣٠)].

(١) وإنما قيل: منهما مع أنه يخرج من أحدهما، وهو الملح، لأنه لامتزاجهما يكون خارجا منهما حقيقة، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم. قال الناصر: وهذا هو الصواب، ومثله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وإنما أريد إحدى القريتين. [القاسمي (٩/ ١٠٥)].

(٢) يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماوات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدا ... قال الشعبي: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَـٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه: ﴿ذُو الْجَلَـٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] ... قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ذُو الْجَلَـٰلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذو العظمة والكبرياء. [ابن كثير (٧/ ٤٩٤)].

(٣) أي: استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات و«اليوم» عبارة عن الوقت، و«الشأن» هو الأمر، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السماوات والأرض ما يطلبونه منه، على اختلاف حاجاتهم، وتباين أغراضهم ... ولا وجه لتخصيص شأن دون شأن، بل الآية تدل على أنه سبحانه كل يوم في شأن من الشؤون له، أي شأن كان من غير تعيين وشؤونه سبحانه لا تحصى، ولا يعلمها إلا هو، فالعموم أولى وأنسب بمقام القدرة وكمالها. وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شأناً. [صديق حسن (١٣/ ٣٢٧)].

بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ بِقُوَّةٍ، وَلَا قُوَّةَ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ(١). ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ﴾ هُوَ لَهَبُهَا الْخَالِصُ مِنَ الدُّخَانِ أَوْ مَعَهُ ﴿وَنُحَاسٞ﴾ أَيْ: دُخَانٌ لَا لَهَبَ فِيهِ ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ تَمْتَنِعَانِ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ يَسُوقُكُمْ إِلَى الْمَحْشَرِ(٢). ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ انْفَرَجَتْ أَبْوَابًا لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ﴾ أَيْ: مِثْلَهَا مُحْمَرَّةً ﴿كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ كَالْأَدِيمِ الْأَحْمَرِ عَلَى خِلَافِ الْعَهْدِ بِهَا، وَجَوَابُ «إِذَا» فَمَا أَعْظَمَ الْهَوْلَ(٣). ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾﴾ عَنْ ذَنْبِهِ،

---

(١) أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزا لهم: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: تجدون منفذا مسلكا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء. [السعدي (ص:٨٣٠)]. وهذا الخطاب يقال لهما في الآخرة، وقيل: في الدنيا، ويرجح كونه في الآخرة قوله: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فإن هذا الإرسال إنما هو في القيامة ... وكذا قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾. [صديق حسن (١٣/ ٣٢٩)].

(٢) «الشواظ» اللهب الذي لا دخان معه، قال مجاهد: الشواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار، وقال الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب، ليس بدخان الحطب، وقال الأخفش وأبو عمرو: هو النار، والدخان جميعاً وقال ابن عباس: هو لهب النار، وقيل: هو اللهب الخالص ... و«النحاس» الصفر المذاب، يصب على رؤوسهم قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وقال سعيد بن جبير: وهو الدخان الذي لا لهب له، وبه قال الخليل. وقال الضحاك: هو دردي الزيت المغلي، وقال ابن عباس: هو دخان النار. [صديق حسن]. والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾. [ابن كثير (٧/ ٤٩٧)].

(٣) وردة: أي حمراء كلون الورد، وقوله: كالدهان: فيه قولان معروفان للعلماء: الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه. والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به ... وقد أوضحه الله في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في المعارج: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [المعارج:٨] والمهل شيء ذائب على كلا القولين، سواء قلنا: إنه دردي الزيت وهو عكره، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما. وقد أوضح تعالى في الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء، شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]. وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة جاء موضحا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الإنشقاق: ١]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الإنفطار: ١]. [الشنقيطي (٧/ ٨٠٢)].

وَيُسْأَلُونَ فِي وَقْتٍ آخَرَ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢][1] وَ«الْجَانُّ» هُنَا وَفِيمَا سَيَأْتِي بِمَعْنَى الْجِنِّيِّ، وَالْإِنْسُ فِيهِمَا بِمَعْنَى الْإِنْسِيِّ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٠ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ سَوَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾ تُضَمُّ نَاصِيَةُ كُلٍّ مِنْهُمْ إِلَى قَدَمَيْهِ مِنْ خَلْفٍ أَوْ قُدَّامٍ وَيُلْقَى فِي النَّارِ[2]. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ﴾ يَسْعَوْنَ ﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ مَاءٍ حَارٍّ ﴿ءَانٍ ۝٤٤﴾ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ، يُسْقَوْنَهُ إِذَا اسْتَغَاثُوا مِنْ حَرِّ النَّارِ[3]، وَهُوَ مَنْقُوصٌ كَـ «قَاضٍ». ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥ وَلِمَنْ خَافَ﴾ أَيْ: لِكُلٍّ مِنْهُمْ أَوْ لِمَجْمُوعِهِمْ ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ قِيَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْحِسَابِ، فَتَرَكَ مَعْصِيَتَهُ[4] ﴿جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ﴾ تَثْنِيَةُ «ذَوَاتٍ» عَلَى الْأَصْلِ وَلَامُهَا يَاءٌ ﴿أَفْنَانٍ ۝٤٨﴾ أَغْصَانٍ، جَمْعُ «فَنَنٍ» كَطَلَلٍ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ فِي الدُّنْيَا أَوْ كُلِّ مَا يُتَفَكَّهُ بِهِ ﴿زَوْجَانِ ۝٥٢﴾

---

(١) السؤال المنفي هنا هو على وجه الاستخبار وطلب المغفرة إذ لا يحتاج إلى ذلك، لأن المجرمين يعرفون بسيماهم، ولأن أعمالهم معلومة عند الله مكتوبة في صحائفهم، وأما السؤال الثابت في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وغيره، فهو سؤال على وجه الحساب والتوبيخ، فلا تعارض بين المنفي والمثبت، وقيل: إن ذلك باختلاف المواطن والأول أحسن. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٣٠)].

(٢) هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال والسيما العلامة، قال الحسن: سيماهم سواد الوجوه، وزرقة الأعين، كما في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ... وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ النواصي شعور مقدم الرأس والمعنى أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي وتلقيهم الملائكة في النار، ... وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار تارة تأخذ بنواصيهم، وتجرهم على وجوههم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]، وتارة تأخذ بأقدامهم وتجرهم على رؤوسهم. قال ابن عباس: تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه، ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب في التنور. [صديق حسن (١٣/ ٣٣٤)].

(٣) أي: تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر: ٧١-٧٢]. [ابن كثير (٧/ ٥٠٠)]. [ومعنى] ﴿ءَانٍ﴾ أي: انتهى حره، واشتد غليانه. وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أنى، ومنه قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعني إدراكه وبلوغه. [القاسمي (٩/ ١١٢)].

(٤) عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». أخرجه البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠).

نَوْعَانِ: رَطْبٍ وَيَابِسٍ، وَالْمُرُّ مِنْهُمَا فِي الدُّنْيَا كَالْحَنْظَلِ حُلْوٌ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِـِٔينَ﴾ حَالٌ عَامِلُهُ مَحْذُوفٌ، أَيْ: يَتَنَعَّمُونَ ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ مَا غَلُظَ مِنَ الدِّيبَاجِ وَخَشُنَ وَالظَّهَائِرُ مِنَ السُّنْدُسِ ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ ثَمَرُهُمَا ﴿دَانٍ ۝٥٤﴾ قَرِيبٌ، يَنَالُهُ الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالْمُضْطَجِعُ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ فِيهِنَّ﴾ فِي الْجَنَّتَيْنِ وَمَا اشْتَمَلَتَا عَلَيْهِ مِنَ الْعَلَالِيِّ وَالْقُصُورِ ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ الْعَيْنِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ الْمُتَّكِئِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ[1] ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ يَفْتَضَّهُنَّ، وَهُنَّ مِنَ الْحُورِ أَوْ مِنْ نِسَاءِ الدُّنْيَا الْمُنْشَآتِ[2] ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ صَفَاءً ﴿وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ اللُّؤْلُؤُ بَيَاضًا. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ﴾ مَا ﴿جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ بِالنَّعِيمِ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١ وَمِن دُونِهِمَا﴾ الْجَنَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ ﴿جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ أَيْضًا لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ[3]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٣ مُدْهَآمَّتَانِ ۝٦٤﴾ سَوْدَاوَانِ مِنْ شِدَّةِ خُضْرَتِهِمَا. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٥ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦﴾ فَوَّارَتَانِ بِالْمَاءِ لَا تَنْقَطِعَانِ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٧ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ هُمَا مِنْهَا، وَقِيلَ: مِنْ غَيْرِهَا[4]. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦٩ فِيهِنَّ﴾ أَيِ: الْجَنَّتَيْنِ وَقُصُورِهِمَا ﴿خَيْرَٰتٌ﴾

---

(١) صفة لموصوف محذوف تقديره نساء، وشاع المدح بهذا الوصف في الكلام حتى نزل منزلة الاسم، فـ «قاصرات الطرف» نساء في نظرهن مثل القصور والغض خلقة فيهن، وهذا نظير ما يقول الشعراء من المولدين: مراض العيون، أي: مثل المراض خِلقة. والقصور: مثل الغض من صفات عيون المها والظباء. [ابن عاشور (٢٧/ ٢٦٩)].

(٢) المعنى أنهن أبكار، و ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ معناه لم يفتضهن، وقيل: الطمث الجماع سواء كان لبكر أو غيرها، ونفي أن يطمثهن إنس أو جان، مبالغة وقصداً للعموم، فكأنه قال لم يطمثهن شيء، وقيل: أراد لم يطمث نساء الإنس إنس ولم يطمث نساء الجن جن، وهذا القول يفيد بأن الجن يدخلون الجنة ويتلذذون فيها بما يتلذذ البشر. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٣١)].

(٣) اختلف الناس في معنى ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾، فقال ابن زيد وغيره: معناه أن هاتين دون تينك في المنزلة والقدر، والأوليان جنتا السابقين والأخريان جنتا أصحاب اليمين، قال الرماني: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الجنات الأربع للخائف مقام ربه تعالى، وقال الحسن: الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: المعنى: من دونهما في القرب إلى المنعمين، وهاتان المؤخرتان في الذكر أفضل من الأولين، يدل على ذلك أنه وصف عيني هذه بالنضخ والأخريين بالجري فقط، وجعل هاتين مدهامتين من شدة النعمة والأوليين ذواتا أفنان، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مدهامة. وأكثر الناس على التأويل الأول، وهذه استدلالات ليست بقواطع، وروي عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: جنتان للمقربين من ذهب، وجنتان لأهل اليمين من فضة هما دون الأولين. [ابن عطية (٥/ ٢٣٤)].

(٤) حكي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: الرمان ليس من الفاكهة، وكذلك الرطب؛ لأنهما أفردا بالذكر عن الفاكهة، وذكر الفراء هذا أيضا،

أَخْلَاقًا ﴿حِسَانٌ ۝٧٠﴾ وُجُوهًا(١). ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ﴾ شَدِيدَاتُ سَوَادِ الْعُيُونِ وَبَيَاضِهَا ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ مَسْتُورَاتٌ ﴿فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢﴾ مِنْ دُرٍّ مُجَوَّفٍ، مُضَافَةٍ إِلَى الْقُصُورِ شَبِيهَةٍ بِالْخُدُورِ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾ قَبْلَ أَزْوَاجِهِنَّ ﴿وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ﴾ أَيْ: أَزْوَاجُهُنَّ، وَإِعْرَابُهُ كَمَا تَقَدَّمَ ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ جَمْعُ رَفْرَفَةٍ، أَيْ: بُسُطٍ أَوْ وَسَائِدَ ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦﴾ جَمْعُ عَبْقَرِيَّةٍ، أَيْ: طَنَافِسَ(٢). ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ تَقَدَّمَ، وَلَفْظُ ﴿ٱسْمُ﴾ زَائِدٌ(٣).

وهذا عن ابن عباس قول غريب، والأكثرون على أن الجميع فاكهة؛ لأن الفاكهة ما يتفكه به، والإفراد بالذكر للتنبيه على نوع فضل، لا أنه ليس من الفاكهة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]. [السمعاني (٥/ ٣٣٧)].

(١) ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ أي: خَيِّراتٍ فخففت لأن خيرا الذي بمعنى أخير لا يجمع، وقد قرئ على الأصل. ﴿حِسَانٌ﴾ حِسان الخَلْق والخُلُق. [البيضاوي (٥/ ١٧٥)].

(٢) الطنفسة بكسر الطاء والفاء وبضمهما، وبكسر الطاء وفتح الفاء: البساط الذي له خمل رقيق، وجمعه طنافس. [النهاية (٣/ ١٤٠)].

(٣) قال ابن عباس ﵄: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذي العظمة والكبرياء ... عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». أخرجه أحمد (١٧٥٩٦). ... أي: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح ... وعن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد -يعني: بعد الصلاة- إلا قدر ما يقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». أخرجه مسلم (٥٩٢). [ابن كثير (٧/ ٥١٠)]. وقرأ الجمهور بالجر على أنه صفة للرب سبحانه، وقرئ بالرفع على أنه صفة للاسم، وتبارك تفاعل من البركة، قال الرازي: وأصل التبارك من التبرك، وهو الدوام والثبات ومنه برك البعير وبركة الماء، فإن الماء يكون دائمـًا، والمعنى: دام اسمه وثبت أو دام الخير عنده، لأن البركة وإن كانت من الثبات لكنها تستعمل في الخير، أو يكون معناه علا وارتفع شأنه، وقيل: معناه تنزيه الله سبحانه وتقديسه. وإذا كان هذا التبارك منسوبـًا إلى اسمه عز وجل فما ظنك بذاته سبحانه. وقيل: الاسم بمعنى الصفة، وقيل: هو مقحم. [الشوكاني (٥/ ١٧٣)].

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ الْآيَةِ، وَ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الْآيَةِ، وَهِيَ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ أَوْ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١**﴾ قَامَتِ الْقِيَامَةُ. ﴿**لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢**﴾ نَفْسٌ تَكْذِبُ بِأَنْ تَنْفِيَهَا، كَمَا نَفَتْهَا فِي الدُّنْيَا. ﴿**خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣**﴾ أَيْ: مُظْهِرَةٌ لِخَفْضِ أَقْوَامٍ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ، وَلِرَفْعِ آخَرِينَ بِدُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ(٢). ﴿**إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤**﴾ حُرِّكَتْ حَرَكَةً شَدِيدَةً(٣). ﴿**وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥**﴾ فُتِّتَتْ(٤). ﴿**فَكَانَتۡ هَبَآءٗ**﴾ غُبَارًا ﴿**مُّنۢبَثّٗا ٦**﴾ مُنْتَشِرًا(٥)، وَإِذَا الثَّانِيَةُ بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى. ﴿**وَكُنتُمۡ**﴾ فِي الْقِيَامَةِ ﴿**أَزۡوَٰجٗا**﴾ أَصْنَافًا ﴿**ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ**﴾ وَهُمُ الَّذِينَ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿**مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨**﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِمْ بِدُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ. ﴿**وَأَصۡحَٰبُ**

---

(١) عن ابن عباس، قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت، قال: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». أخرجه الترمذي (٣٢٩٧). قال مسروق من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا ونبأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة. [الثعلبي (٢٥/ ٤٠٢)].

(٢) قال محمد بن كعب: خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين، والعرب تستعمل الخفض والرفع في المكان والمكانة، والعز والإهانة، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز، والخافض والرافع في الحقيقة هو الله سبحانه، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ تخفض ناساً وترفع آخرين، وعنه قال: أسمعت القريب والبعيد، وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. [صديق حسن (١٣/ ٣٥٦)].

(٣) يقال: رجه يرجه رجاً إذا حركه، والرجة الاضطراب. وارتج البحر وغيره اضطرب، قال المفسرون: ترتج كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها. [الشوكاني (٥/ ١٧٧)]. وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج: ١].

(٤) أي: فتتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لته، [وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]،] أو سيقت وسيرت من بس الغنم إذا ساقها، [وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ [الطور: ١٠].] [البيضاوي (٥/ ١٧٧)].

(٥) الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة، ولا تكاد ترى إلا في الشمس إذا دخلت على كوة قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هو ما يتطاير من حوافر الدواب من التراب، وقيل: ما تطاير من شرر النار فإذا طفى لم يوجد شيئاً، والمنبث المتفرق. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٣٣)].

﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أَيْ: الشِّمَالِ بِأَنْ يُؤْتَى كُلٌّ مِنْهُمْ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾ تَحْقِيرٌ لِشَأْنِهِمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ. ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ إِلَى الْخَيْرِ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ[1] مُبْتَدأٌ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ تَأْكِيدٌ لِتَعْظِيمِ شَأْنِهِمْ. وَالْخَبَرُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ مُبْتَدأٌ، أَيْ: جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤﴾ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمُ السَّابِقُونَ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَهَذِهِ الْأُمَّةِ[2]. وَالْخَبَرُ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥﴾ مَنْسُوجَةٍ بِقُضْبَانِ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾ حَالَانِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْخَبَرِ[3]. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لِلْخِدْمَةِ ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧﴾ عَلَى شَكْلِ الْأَوْلَادِ لَا يَهْرَمُونَ. ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أَقْدَاحٍ لَا عُرَا لَهَا ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ لَهَا عُرًا وَخَرَاطِيمُ ﴿وَكَأْسٍ﴾ إِنَاءِ شُرْبِ الْخَمْرِ ﴿مِّن مَّعِينٍ ۝١٨﴾ أَيْ: خَمْرٍ جَارِيَةٍ مِنْ مَنْبَعٍ لَا يَنْقَطِعُ أَبَدًا. ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾ بِفَتْحِ الزَّايِ وَكَسْرِهَا، مِنْ نَزَفَ الشَّارِبُ وَأَنْزَفَ، أَيْ: لَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْهَا صُدَاعٌ، وَلَا ذَهَابُ عَقْلٍ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا. ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَ﴾ لَهُمْ لِلِاسْتِمْتَاعِ ﴿حُورٌ﴾ نِسَاءٌ شَدِيدَاتُ سَوَادِ الْعُيُونِ وَبَيَاضِهَا ﴿عِينٌ ۝٢٢﴾ ضِخَامُ الْعُيُونِ كُسِرَتْ عَيْنُهُ بَدَلَ ضَمِّهَا لِمُجَانَسَةِ الْيَاءِ، وَمُفْرَدُهُ «عَيْنَاءُ» كَحَمْرَاءَ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِجَرِّ: ﴿حُورٍ عِينٍ﴾. ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ الْمَصُونِ. ﴿جَزَآءَۢ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ أَوْ مَصْدَرٌ، وَالْعَامِلُ الْمُقَدَّرُ، أَيْ: جَعَلْنَا لَهُمْ مَا ذُكِرَ لِلْجَزَاءِ أَوْ جَزَيْنَاهُمْ ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿لَغْوًا﴾ فَاحِشًا مِنَ الْكَلَامِ ﴿وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥﴾ مَا يُؤْثِمُ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿قِيلًا﴾ قَوْلًا ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾

---

(١) المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل. [ابن كثير (٧/٥١٧)].

(٢) يعني أمة محمد ﷺ، وعلى هذا القول تكون قلة هذه الأمة باعتبار كثرة الأمم السابقة، وليس المعنى أن الذين يدخلون الجنة من الأمم السابقين باعتبار كل نبي أكثر من الذين يدخلون الجنة من هذه الأمة. وقيل: المراد بالأولين أول هذه الأمة؛ أي: ثلة من أول هذه الأمة، وقليل من آخرها، وهذا القول هو الصحيح، بل هو المتعيِّن؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١). أي: نصفهم، ... وعلى هذا فلا يصح أن نقول: قليل من هذه الأمة وكثير من الأمم السابقة، بل نقول: ﴿ثُلَّةٌ﴾ أي: كثير من هذه الأمة من أوّلها، وقليل من آخرها. [ابن عثيمين تفسير الواقعة (ص:٣٣١)].

(٣) والمراد كما قال مجاهد: لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق ورعاية الآداب وصفاء البواطن. [الآلوسي (١٤/١٣٦)].

بَدَلٌ مِنْ ﴿قِيلًا﴾ فَإِنَّهُمْ يَسْمَعُونَهُ[1]. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ﴾ شَجرِ النَّبْقِ ﴿مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ لَا شَوْكَ فِيهِ. ﴿وَطَلْحٍ﴾ شَجَرِ الْمَوْزِ ﴿مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾ بِالْحَمْلِ مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ. ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ دَائِمٍ[2]. ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ جَارٍ دَائِمًا. ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ فِي زَمَنٍ ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ بِثَمَنٍ. ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ عَلَى السُّرُرِ. ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ أَيْ: الْحُورَ الْعِينَ مِنْ غَيْرِ وِلَادَةٍ[3]. ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾ عَذَارَى، كُلَّمَا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَجَدُوهُنَّ عَذَارَى وَلَا وَجَعَ. ﴿عُرُبًا﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِهَا جَمْعُ «عَرُوبٍ» وَهِيَ الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى زَوْجِهَا عِشْقًا لَهُ ﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ جَمْعُ «تِرْبٍ»، أَيْ: مُسْتَوِيَاتٍ فِي السِّنِّ[4]. ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ صِلَةُ ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ أَوْ «جَعَلْنَاهُنَّ». وَهُمْ[5]: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ﴾ رِيحٍ حَارَّةٍ مِنَ النَّارِ تَنْفُذُ فِي الْمَسَامِّ ﴿وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ مَاءٍ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ.

---

(١) قال القاشاني: أي: قولا هو سلام في نفسه منزه عن النقائص، مبرأ عن الفضول والزوائد، أو قولا يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص، ويوجب سروره وكرامته، ويبين كماله وبهجته، لكون كلامهم كله معارف وحقائق، وتحايا ولطائف ... والتكرير للدلالة على فشو السلام بينهم وكثرته، لأن المراد: سلاما بعد سلام، كقرأت النحو بابا بابا، فيدل على تكرره وكثرته. [القاسمي (٩/ ١٢٢)].

(٢) «السدر» شجر معروف، وهو الذي يقال له: شجر أم غيلان، وهو من العضاه، له شوك، وفي الجنة شجر على خلقته له ثمر كقلال هجر، طيب الطعم والريح، ووصفه تعالى بأنه مخضود، أي: مقطوع الشوك لا أذى فيه... و«الطلح» كذلك من العضاه شجر عظام كثير الشوك وشبهه في الجنة على صفات كثيرة مباينة لحال الدنيا، و«منضود» معناه: مركب ثمره بعضه على بعض من أرضه إلى أعلاه ... قال الحسن: ليس بالموز ولكنه شجر ظله بارد طيب. و«الظل الممدود» معناه: الذي لا تنسخه شمس، ويفسر ذلك في قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾». أخرجه البخاري (٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦). [ابن عطية (٥/ ٢٤٣)].

(٣) الضمير لنساء الجنة، فإن سياق الكلام يقتضي ذلك، وإن لم يتقدم ذكرهن، ولكن تقدم ذكر الفرش وهي تدل على النساء، وأما من قال: إن الفرش هي النساء فالضمير عائد عليها، وقيل: يعود على الحور العين المذكورة قبل هذا وذلك بعيد، فإن ذلك في وصف جنات السابقين، وهذا في وصف جنات أصحاب اليمين، ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقاً آخر في غاية الحسن، بخلاف الدنيا فالعجوز ترجع شابة والقبيحة ترجع حسنة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٣٦)].

(٤) كأنهن شبهن في التساوي بالترائب التي هي ضلوع الصدر أو كأنهن وقعن معا على التراب، أي: الأرض، وهن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن. عن معاذ رضي الله عنه مرفوعا: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا مُكَحَّلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ». أخرجه الترمذي (٢٥٤٥)، وأحمد (٢٢١٠٦). والمراد بذلك كمال الشباب. [الآلوسي (١٤/ ١٤٢)].

(٥) يعني: جماعة من أول هذه الأمة، وجماعة من الآخرين. فذكر في السابقين أنهم جماعة من الاولين، وقليل من الآخرين، لأن السابق في آخر الأمة قليل، وأما أصحاب اليمين يكون جماعة من أول الأمة، وجماعة من آخر الأمة. [السمرقندي (٣/ ٣٩٤)].

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾ دُخَانٍ شَدِيدِ ٱلسَّوَادِ. ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلظِّلَالِ ﴿وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ حَسَنِ ٱلْمَنْظَرِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ فِي ٱلدُّنْيَا ﴿مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾ مُنَعَّمِينَ لَا يَتْعَبُونَ فِي ٱلطَّاعَةِ(١). ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ﴾ ٱلذَّنْبِ ﴿ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ أَيْ: ٱلشِّرْكِ(٢). ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧﴾ فِي ٱلْهَمْزَتَيْنِ فِي ٱلْمَوْضِعَيْنِ ٱلتَّحْقِيقُ وَتَسْهِيلُ ٱلثَّانِيَةِ وَإِدْخَالُ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى ٱلْوَجْهَيْنِ. ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨﴾ بِفَتْحِ ٱلْوَاوِ لِلْعَطْفِ، وَٱلْهَمْزَةُ لِلِٱسْتِفْهَامِ وَهُوَ فِي ذَٰلِكَ وَفِيمَا قَبْلَهُ لِلِٱسْتِبْعَادِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ ٱلْوَاوِ عَطْفًا بِـ«أَوْ»، وَٱلْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ مَحَلُّ «إِنْ» وَٱسْمِهَا. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ﴾ لِوَقْتِ ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ أَيْ: يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢﴾ بَيَانٌ لِلشَّجَرِ(٣). ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾ مِنَ ٱلشَّجَرِ ﴿ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أَيِ: ٱلزَّقُّومِ ٱلْمَأْكُولِ ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ﴾ بِفَتْحِ

---

(١) الترف في العيش ليس جريمة في ذاته وكم من مؤمن عاش في ترف، وليس كل كافر مترفا في عيشه، فلا يكون الترف سببا مستقلا في تسبب الجزاء الذي عوملوا به. فتأويل هذا التعليل: إما بأن يكون الإتراف سببا باعتبار ضميمة ما ذكر بعده إليه بأن كان إصرارهم على الحنث وتكذيبهم بالبعث جريمتين عظيمتين لأنهما محفوفتان بكفر نعمة الترف التي خولهم الله إياها على نحو قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] فيكون الإتراف جزء سبب وليس سببا مستقلا، وفي هذا من معنى قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]. وإما أن يراد بأن الترف في العيش علق قلوبهم بالدنيا واطمأنوا بها فكان ذلك ممليا على خواطرهم إنكار الحياة الآخرة، فيكون المراد الترف الذي هذا الإنكار عارض له وشديد الملازمة له، فوازنه وازن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. وفسر مترفين بمعنى متكبرين عن قبول الحق. [ابن عاشور (٢٧/ ٣٠٥)].

(٢) أي: الذنب العظيم من الأقاويل الباطلة والعقائد الفاسدة، التي استحقوا بها العذاب المخلد، والعقاب المؤبد. وفسره السبكي بالقسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] قال الشهاب: وهو تفسير حسن؛ لأن الحنث وإن فسر بالذنب مطلقا أو الذنب العظيم فالمعروف استعماله في عدم البر بالقسم، ولذا تأثره بما كانوا يعتقدونه من إنكار البعث بقوله: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾. [القاسمي (٩/ ١٢٤)].

(٣) زقوم بيان للشجر، وسُمِّي زقومًا؛ لأن الإنسان والعياذ بالله إذا أكله يتزقمه تزقُّمًا لشدة بلعه، لا يبتلعه بسهولة. [ابن عثيمين تفسير الواقعة (ص:٣٤٠)]. مشتقة من التزقم؛ وهو البلع على جهد لكراهتها ونتنها، واختلف فيها: هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب؟ أم لا؟ على قولين أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا، فقال قطرب: إنها شجرة مرة كريهة الرائحة تكون بتهامة من أخبث الشجر ... القول الثاني: أنها غير معروفة في شجر الدنيا. [الشوكاني (٤/ ٤٥٦)].

اَلشِّينِ وَضَمِّهَا مَصْدَرٌ ﴿ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾ اَلْإِبِلِ اَلْعِطَاشِ جَمْعُ «هَيْمَانَ» لِلذَّكَرِ وَ«هَيْمَى» لِلْأُنْثَى كَعَطْشَانَ وَعَطْشَى[١]. ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ مَا أُعِدَّ لَهُمْ ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ. ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أَوْجَدْنَاكُمْ مِنْ عَدَمٍ ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿تُصَدِّقُونَ ۝٥٧﴾ بِالْبَعْثِ إِذِ اَلْقَادِرُ عَلَى اَلْإِنْشَاءِ قَادِرٌ عَلَى اَلْإِعَادَةِ. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ تُرِيقُونَ مِنَ اَلْمَنِيِّ فِي أَرْحَامِ اَلنِّسَاءِ. ﴿ءَأَنتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ اَلثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ اَلْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ فِي اَلْمَوَاضِعِ اَلْأَرْبَعَةِ[٢] ﴿تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أَيِ: اَلْمَنِيَّ بَشَرًا ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ ﴿بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ بِعَاجِزِينَ[٣]. ﴿عَلَىٰٓ﴾ عَنْ ﴿أَن نُّبَدِّلَ﴾ نَجْعَلَ ﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾ مَكَانَكُمْ ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ نَخْلُقَكُمْ ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ مِنَ اَلصُّوَرِ كَالْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ[٤]. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ اَلشِّينِ ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ فِيهِ إِدْغَامُ اَلتَّاءِ اَلثَّانِيَةِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلذَّالِ[٥]. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾ تُثِيرُونَ فِي اَلْأَرْضِ وَتُلْقُونَ اَلْبِذْرَ فِيهَا. ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تُنْبِتُونَهُ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ نَبَاتًا يَابِسًا لَا حَبَّ فِيهِ ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أَصْلُهُ «ظَلِلْتُمْ» بِكَسْرِ اَللَّامِ حُذِفَتْ تَخْفِيفًا، أَيْ: أَقَمْتُمْ نَهَارًا ﴿تَفَكَّهُونَ ۝٦٥﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ إِحْدَى اَلتَّاءَيْنِ فِي اَلْأَصْلِ تَعْجَبُونَ مِنْ ذَلِكَ[٦]. وَتَقُولُونَ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦﴾ نَفَقَةَ زَرْعِنَا. ﴿بَلْ

---

(١) إعادة فشاربون توكيد لفظي لنظيره، وفائدة هذا التوكيد زيادة تقرير ما في هذا الشرب من الأعجوبة وهي أنه مع كراهته يزدادون منه كما ترى الأهيم، فيزيدهم تفظيعا لأمعائهم لإفادة التعجيب من حالهم تعجيبا ثانيا بعد الأول، فإن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة أمر عجيب، وشربهم له كما تشرب الإبل الهيم في الإكثار أمر عجيب أيضا، فكانتا صفتين مختلفتين. [ابن عاشور (٢٧/ ٣١١)].

(٢) المواضع الأربعة هي: هذه الآية، والآيات: (٦٤،٦٨،٧٢). [قباوة (ص:١٨٩٩)].

(٣) المسبوق على الشيء هو المغلوب عليه؛ بحيث لا يقدر عليه. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٣٧)].

(٤) من صور وأشكال أخرى، فكيف نعجز عن إعادتكم؟ قال الشهاب: والظاهر أن قوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ﴾ المراد به إذا بدلناكم بغيركم، لا في الدار الآخرة، كما توهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]. [القاسمي (٩/ ١٢٥)].

(٥) النشأة الأولى: هي ابتداء الخلق من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ولم تكونوا قبل ذلك شيئًا، أو التُرابية لأبيكم آدم، واللُحمية لأمكم حواء، والنطفية لكم، وكل منها تحويل من شيء إلى غيره، ... ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخرى وتقيسونها على النشأة الأولى؟ فإن من قدر على الأولى يقدر على الثانية، فإنها أقل كلفة من الأولى في العادة، ... وفيه دليل على صحة القياس حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى. [صديق حسن (١٣/ ٣٧٦)].

(٦) معناه تندمون وهذا تفسير بلازم المعنى، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده. يقال: تحنث إذا زال الحنث عنه، وتحرج وتحوب، وتأثم، ومنه تفكه. وهذا البناء يقال للداخل في الشيء كتعلم وتحلم، وللخارج منه كتحرج وتأثم. [التبيان في أيمان

﴿نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٦٧﴾ مَمْنُوعُونَ رِزْقَنَا. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ اَلسَّحَابِ جَمْعُ «مُزْنَةٍ» ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ مِلْحًا، لَا يُمْكِنُ شُرْبُهُ ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿تَشْكُرُونَ ٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ٧١﴾ تُخْرِجُونَ مِنَ اَلشَّجَرِ اَلْأَخْضَرِ(١). ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ كَالْمَرْخِ وَالْعَفَارِ وَالْكَلْخِ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ لِنَارِ جَهَنَّمَ ﴿وَمَتَٰعًا﴾ بُلْغَةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ ٧٣﴾ لِلْمُسَافِرِينَ، مِنْ أَقْوَى اَلْقَوْمِ، أَيْ: صَارُوا بِالْقِوَاءِ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ، أَيِ: اَلْقَفْرِ، وَهُوَ مَفَازَةٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا مَاءَ(٢). ﴿فَسَبِّحْ﴾ نَزِّهْ ﴿بِٱسْمِ﴾ زَائِدَةٌ ﴿رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ٧٤﴾ اَللهِ(٣). ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ﴾ «لَا» زَائِدَةٌ ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ بِمَسَاقِطِهَا لِغُرُوبِهَا(٤). ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أَيْ: اَلْقَسَمَ بِهَا ﴿لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ أَيْ: لَوْ كُنْتُمْ مِنْ ذَوِي اَلْعِلْمِ لَعَلِمْتُمْ عِظَمَ هَذَا اَلْقَسَمِ. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: اَلْمَتْلُوَّ عَلَيْكُمْ ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨﴾ مَصُونٍ وَهُوَ اَلْمُصْحَفُ. ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ ﴿إِلَّا

القرآن لابن قيم الجوزية (١/ ٤١٥)].

(١) تورون: مضارع أورى الزند إذا حكه بمثله يستخرج منه النار، كانوا يضعون عودا من شجر النار ويحكونه من أعلاه بعود مثله فتخرج النار من العود الأسفل. [ابن عاشور (٢٧/ ٣٢٦)]. وللعرب شجرتان: إحداهما: المرخ، والأخرى: العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شرر النار. [ابن كثير (٧/ ٥٤١)].

(٢) عن مجاهد قوله: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ المستمتعين، الناس أجمعين. وكذا ذكر عن عكرمة. وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات. فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاما في حق الناس كلهم. وقد يستدل له ... [بحديث]: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: النَّارِ وَالْكَلَأِ وَالْمَاءِ». أخرجه أبو داود (٣٤٧٧)، وأحمد (٢٣١٣٢). [ابن كثير (٧/ ٥٤٣)].

(٣) الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر الله سبحانه وتنزيهه على ما قبلها مما عدده من النعم التي أنعم بها على عباده، وجحود المشركين لها، وتكذيبهم بها، وقيل: قل سبحان ربي العظيم. وجاء مرفوعـًا: أنه لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ». أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤). وسبح متعدي بنفسه وبحرف الجر، فالباء زائد والاسم باق على معناه، أو بمعنى الذات أو بمعنى الذكر، قال الكرخي قالوا: كما يجب تنزيه ذاته وصفاته عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن سوء الأدب. [صديق حسن (١٣/ ٣٨٠)].

(٤) أي: محال وقوعها من ثوابت وسيارة. والوقوع يطلق على السقوط، أي: الهوى، فمواقع النجوم مواضع غروبها فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] والقسم بذلك مما شمله قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]. وجعل مواقع النجوم بهذا المعنى مقسما به لأن تلك المساقط في حال سقوط النجوم عندها تذكر بالنظام البديع المجعول لسير الكواكب كل ليلة لا يختل ولا يتخلف، وتذكر بعظمة الكواكب وبتداولها خلفة بعد أخرى، وذلك أمر عظيم يحق القسم به الراجع إلى القسم بمبدعه. [ابن عاشور (٢٧/ ٣٣٠)].

﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ الَّذِينَ طَهَّرُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ[1]. ﴿تَنزِيلٌ﴾ مُنَزَّلٌ ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ ٨١﴾ مُتَهَاوِنُونَ مُكَذِّبُونَ[2]. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ مِنَ الْمَطَرِ، أَيْ: شُكْرَهُ ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ بِسُقْيَا اللهِ، حَيْثُ قُلْتُمْ: «مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا»[3]. ﴿فَلَوْلَآ﴾ فَهَلَّا ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الرُّوحُ وَقْتَ النَّزْعِ ﴿ٱلْحُلْقُومَ ٨٣﴾ هُوَ مَجْرَى الطَّعَامِ. ﴿وَأَنتُمْ﴾ يَا حَاضِرِي الْمَيِّتَ ﴿حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ٨٤﴾ إِلَيْهِ. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ بِالْعِلْمِ[4] ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ٨٥﴾ مِنَ الْبَصِيرَةِ، أَيْ: لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ[5]. ﴿فَلَوْلَآ﴾ فَهَلَّا ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ٨٦﴾

---

(١) اختلف العلماء في الكتاب المكنون، فقيل: إنه اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ٢٢﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وقيل: المراد به الكتب التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ١٦﴾ [عبس: ١٢-١٦]، وهذا القول رجَّحه ابن القيم رحمه الله في كتابه: التبيان في أقسام القرآن. وأكثر المفسرين على أن المراد به: اللوح المحفوظ. ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ أي: لا يمس هذا الكتاب المكنون إلا المطهرون وهم الملائكة، طهَّرهم الله تعالى من الشرك والمعاصي؛ ولهذا لا تقع من الملائكة معصية بل هم ممتثلون لأمر الله، قائمون به على ما أراد الله ... وذهب بعض المفسرين إلى قول غريب وقال: المراد بقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا يمس القرآن إلا طاهر، ولكن هذا قول ضعيف، لا تدل عليه الآية؛ لأنه لو كان المراد ذلك لقال: «إلا المُطَّهِّرون» -يعني: المتطهرين- ولكنه قال: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من قِبَل الله عز وجل، فهذا القول ضعيف، ولولا أنه يُوجد في بعض التفاسير التي بأيدي الناس ما تعرضنا له؛ لأنه لا قيمة له، والصواب أن المراد بذلك الملائكة. [ابن عثيمين تفسير الواقعة (ص:٣٤٨)].

(٢) أي: مكذبون تكذيب منافق. والمدهن والمداهن بمعنى واحد، والمداهن هو ذو الوجهين، وهو الذي يكون قلبه خلاف لسانه، ولسانه خلاف قلبه. ويقال: المدهنون: هم الذين يدفعون الصدق والحق بأحسن وجه يقدر عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] يعني: تكذب فيكذبون، وترائي فيراءون. [السمعاني (٥/ ٣٦٠)].

(٣) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ». أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٤) أي: بملائكتنا ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ولكن لا ترونهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. [ابن كثير (٧/ ٥٤٨)]. والله يضيف الشيء إلى نفسه وهو من فعل الملائكة؛ لأنهم رُسُله، ففعلهم فعله، ألم تر إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] المراد: قرأهُ جبريل، لكنه أضاف فعل جبريل إليه؛ لأنه بأمره، وهو الذي أرسله به. [ابن عثيمين تفسير الواقعة (ص:٣٥٢)].

(٥) قال جمهور السلف: يعني ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة، أو لا تدركون كنه ما يقاسيه. [القاسمي (٩/ ١٣٣)].

مَجْزِيِّينَ بِأَنْ تُبْعَثُوا، أَيْ: غَيْرَ مَبْعُوثِينَ بِزَعْمِكُمْ. ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ تَرُدُّونَ ٱلرُّوحَ إِلَى ٱلْجَسَدِ بَعْدَ بُلُوغِ ٱلْحُلْقُومِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾ فِيمَا زَعَمْتُمْ، ﴿فَلَوْلَآ﴾ ٱلثَّانِيَةُ تَأْكِيدٌ لِلْأُولَى وَ﴿إِذَا﴾ ظَرْفٌ لِـ «تَرْجِعُونَ» ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ ٱلشَّرْطَانِ، وَٱلْمَعْنَى: هَلَّا تَرْجِعُونَهَا إِنْ نَفَيْتُمُ ٱلْبَعْثَ صَادِقِينَ فِي نَفْيِهِ، أَيْ: لِيَنْتَفِيَ عَنْ مَحِلِّهَا ٱلْمَوْتُ كَٱلْبَعْثِ[1]. ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ ٱلْمَيِّتُ ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ﴾ أَيْ: فَلَهُ ٱسْتِرَاحَةٌ ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ رِزْقٌ حَسَنٌ ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ وَهَلِ ٱلْجَوَابُ لِـ «أَمَّا» أَوْ لِـ «إِنْ» أَوْ لَهُمَا؟ أَقْوَالٌ. ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ أَيْ: لَهُ سَلَامَةٌ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ مِنْهُمْ. ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ مِنْ إِضَافَةِ ٱلْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٩٦﴾ تَقَدَّمَ[2].

---

(١) هذه الآية تحتاج إلى تفسير، فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزما لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول، لما بينهما من التلازم، فيكون الملزوم دليلا على لازمه، ولا يجب العكس. ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقروا بأن لهم ربا قاهرا متصرفا فيهم، ... وإما أن لا يقروا برب هذا شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور، والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه كفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم، ... وهذه غاية التعجيز لهم، إذ بين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها، ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيا لها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه، وتصرفه في عباده، ونفوذ أحكامه فيهم. [الداء والدواء لابن القيم (٢٠٦)].

(٢) ذكر الله تعالى في هذه الآيات حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة، وحال كل امرئ منهم، فأما المرء من «السابقين المقربين» فسيلقى عند موته روحا وريحانا، والروح: الرحمة والسعة والفرج والفرح، ومنه: روح الله، والريحان: الطيب، وهو دليل النعيم. [وأما «أصحاب اليمين»] ليس في أمرهم إلا السلام والنجاة من العذاب، وهذا كما تقول في مدح رجل: أما فلان فناهيك به، أو بحسبك أمره، فهذا يقتضي جملة غير مفصلة من مدحه، وقد اضطربت عبارات المتأولين في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ ... فهذه الكاف في ﴿لَّكَ﴾ إما أن تكون للنبي ﷺ وهو الأظهر ثم لكل معتبر فيها من أمته، وإما أن تكون لمن يخاطبه من أصحاب اليمين، وغير هذا مما قيل فيه تكلف. و«المكذبون الضالون» هم الكفار أصحاب الشمال والمشأمة، و«النزل»: أول شيء يقدم للضيف، و«التصلية» أن تباشر بهم النار، و«الجحيم» معظم النار وحيث تراكمها. [ابن عطية (٥/ ٢٥٤)]، وقوله: «تقدم»، أي: الآية (٧٤) من هذه السورة.

سُورَةُ الحَدِيدِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أَيْ: نَزَّهَهُ كُلُّ شَيْءٍ، فَاللَّامُ مَزِيدَةٌ، وَجِيءَ بِـ﴿مَا﴾ دُونَ «مَنْ» تَغْلِيبًا لِلْأَكْثَرِ(١) ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ﴾ بِالْإِنْشَاءِ ﴿وَيُمِيتُۖ﴾ بَعْدَهُ(٢) ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِلَا بِدَايَةٍ ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ بِلَا نِهَايَةٍ ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بِالْأَدِلَّةِ عَلَيْهِ ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ(٣) ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، أَوَّلُهَا الْأَحَدُ وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ(٤) ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ الْكُرْسِيِّ(٥) اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ(٦) ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ﴾ يَدْخُلُ ﴿فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ كَالْمَطَرِ وَالْأَمْوَاتِ ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ كَالنَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ ﴿وَمَا

---

(١) هذا التسبيح المذكور هنا وفي أوائل سائر السور المسبحات يحتمل أن يكون حقيقة، أو أن يكون بلسان الحال؛ لأن كل ما في السماوات والأرض دليل على وجود الله وقدرته، وحكمته، والأول أرجح لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وذكر التسبيح هنا وفي الحشر والصف بلفظ سبح الماضي، وفي الجمعة والتغابن بلفظ يسبحُ المضارع، وكل واحد منهما يقتضي الدوام. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٤٣)].

(٢) أي: يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه. [القاسمي (٩/ ١٣٧)].

(٣) في الحديث عن النبي ﷺ قال: «أَنْتَ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ». أخرجه مسلم (٢٧١٣). ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ يعني: ليس قبله شيء؛ لأنه لو كان قبله شيء لكان الله مخلوقًا، وهو عز وجل الخالق، ولهذا فسر النبي ﷺ الأول بأنه الذي ليس قبله شيء، كل الموجودات بعد الله عز وجل، ليس أحد مع الله ولا قبل الله. ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء؛ لأنه لو كان بعده شيء لكان ما يأتي بعده غير مخلوق لله، ... فهو الذي ليس بعده شيء. إذن: هو الأول لا ابتداء له، الآخر لا انتهاء له، ليس بعده شيء. ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ الظاهر: [أي:] كل المخلوقات تحته جل وعلا، فليس فوقه شيء. الباطن: ... يعني ما يحول دونه شيء، خبير عليم بكل شيء، ... فالأول والآخر اشتملا على عموم الزمان، والظاهر والباطن على عموم المكان. [ابن عثيمين تفسير الحديد (ص:٣٦١)].

(٤) انظر التعليق على آية (٥٤) من سورة الأعراف.

(٥) انظر التعليق على آية (١٢٩) من سورة التوبة.

(٦) هو الذي أنشأ السماوات السبع والأرضين، فدبرهن وما فيهن، ثم استوى على عرشه فارتفع عليه وعلا. [القاسمي (٩/ ١٣٨)].

﴿يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ ﴿وَمَا يَعۡرُجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَاۖ﴾ كَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسَّيِّئَةِ(١) ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ﴾ بِعِلْمِهِ(٢) ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥﴾ الْمَوْجُودَاتُ جَمِيعهَا(٣). ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ يُدْخِلُهُ ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ اللَّيْلُ ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ﴾ فَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ النَّهَارُ(٤) ﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦﴾ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ(٥). ﴿ءَامِنُواْ﴾ دَاوِمُوا عَلَى الْإِيمَانِ ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ﴾ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ مِنْ مَالِ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ وَسَيَخْلُفُكُمْ فِيهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، نَزَلَ فِي غَزْوَةِ الْعُسْرَةِ وَهِيَ غَزْوَةُ تَبُوكَ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ﴾ إِشَارَةً إِلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه(٦) ﴿لَهُمۡ

---

(١) ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الملائكة والرحمة والعذاب والمطر وغيرها، ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ أي: يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد [الصالحة] والدعوات، وقول المحلي: «كالأعمال الصالحة والسيئة» اعترضه القاري بأن الذي يرفع من الأعمال هو الصالح كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]. [صديق حسن (١٣/ ٣٩٨)].

(٢) كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ﴾ [المجادلة: ٧] وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم. [السعدي (ص:٨٣٧)].

(٣) أي: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها، ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. [ابن كثير (٨/ ١٠)]

(٤) تذكير للمشركين بأن المتصرف في سبب الفناء هو الله تعالى فإنهم يعتقدون أن الليل والنهار هما اللذان يفنيان الناس، قال الأعشى: «ألم تروا إرما وعادا أفناهما الليل والنهار»، وحكى الله عنهم قولهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فلما قال: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، أبطل بعده اعتقاد أهل الشرك أن للزمان الذي هو تعاقب الليل والنهار والمعبر عنه بالدهر تصرفا فيهم، وهذا معنى اسمه تعالى: «المدبر». [ابن عاشور (٢٧/ ٣٦٦)].

(٥) بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يظهرونها. [أبو السعود (٨/ ٢٠٤)].

(٦) لأنه جهز جيش العسرة يومئذ، ولفظ الآية مع ذلك عام وحكمها باق لجميع الناس، وقوله: ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله؛ لأنه خلقها، ولكنه متَّعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء، فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه، ويحتمل أن يكون ﴿جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ عمن كان قبلكم فورثتم عنه الأموال، فأنفقوها قبل أن تخلفوها لمن بعدكم، كما خلفها لكم من كان قبلكم، والمقصود على كل وجه: تحريض على الإنفاق وتزهيد في الدنيا. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٤٤)].

أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ خِطَابٌ لِلْكُفَّارِ، أَيْ: لَا مَانِعَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ﴿بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أُخِذَ﴾ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الْخَاءِ، وَبِفَتْحِهَا وَنَصْبِ مَا بَعْدَهُ ﴿مِيثَاقُكُمْ﴾ عَلَيْهِ، أَيْ: أَخَذَهُ اللهُ فِي عَالَمِ الذَّرِّ حِينَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ أَيْ: مُرِيدِينَ الْإِيمَانَ بِهِ فَبَادِرُوا إِلَيْهِ[١]. ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ آيَاتِ الْقُرْآنِ ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الْإِيمَانِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ﴾ فِي إِخْرَاجِكُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ﴾ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿أَلَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونِ «أَنْ» فِي لَامِ «لَا» ﴿تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بِمَا فِيهِمَا فَتَصِلُ إِلَيْهِ أَمْوَالُكُمْ مِنْ غَيْرِ أَجْرِ الْإِنْفَاقِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ أَنْفَقْتُمْ فَتُؤْجَرُونَ ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ لِمَكَّةَ[٢] ﴿وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالرَّفْعِ مُبْتَدَأٌ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ الْجَنَّةَ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ بِإِنْفَاقِ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بِأَنْ يُنْفِقَهُ لِلَّهِ[٣] ﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَيُضَعِّفُهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ﴿لَهُ﴾ مِنْ عَشْرٍ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ كَمَا ذُكِرَ فِي الْبَقَرَةِ[٤] ﴿وَلَهُ﴾ مَعَ الْمُضَاعَفَةِ ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ مُقْتَرِنٌ بِهِ رِضًا وَإِقْبَالٌ. اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَمَامَهُمْ ﴿وَ﴾

---

(١) يعني أخذ الله ميثاقكم: العهد أن تؤمنوا به، وبرسله، فصار هناك سببان للإيمان: الأول: دعوة النبي ﷺ إليه. والثاني: الميثاق الذي أخذه الله علينا، وذلك بما أعطانا عز وجل من الفطرة والعقل والفهم الذي ندرك به ما ينفعنا ويضرنا، هذا هو الصحيح في معنى الميثاق، وقيل: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهره، إن صح الحديث الوارد في ذلك. فالله تعالى ينكر على من لم يؤمن ويقول: ما الذي حملك على ألا تؤمن وقد تمت أسباب وجوب الإيمان بدعوة الرسول ﷺ وأخذ الميثاق. [ابن عثيمين تفسير الحديد (ص:٣٧٨)].

(٢) لإن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفاً، والحاجة إلى الانفاق والقتال كانت أشد، ويؤخذ من الآية أن من أنفق في شدة أعظم أجراً ممن أنفق في حال الرخاء. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٤٤)].

(٣) قال أبو السعود: ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق في سبيله، بعد الأمر به، والتوبيخ على تركه، وبيان درجات المنفقين، أي: من ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى رجاء أن يعوضه، فإنه كمن يقرضه، وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه، وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له. فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصا في أفضل جهات الإنفاق؛ وذلك إما بالتجوز في الفعل، فيكون استعارة تبعية تصريحية، أو في مجموع الجملة، فيكون استعارة تمثيلية، وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة في القتال، وآخرون على نفقة العيال. قال ابن كثير: والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة، وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية. [القاسمي (٩/ ١٤٤)].

(٤) الآية (٢٦١) من سورة البقرة.

يَكُونُ ﴿بِأَيْمَـٰنِهِم﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ[1]: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾ أَيِ: ادْخُلُوهَا ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أَبْصِرُونَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الظَّاءِ، أَمْهِلُونَا ﴿نَقْتَبِسْ﴾ نَأْخُذِ الْقَبَسَ وَالْإِضَاءَةَ ﴿مِن نُّورِكُمْ قِيلَ﴾ لَهُمُ اسْتِهْزَاءً بِهِمْ[2]: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فَرَجَعُوا ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِسُورٍ﴾ قِيلَ: هُوَ سُورُ الْأَعْرَافِ[3] ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَظَـٰهِرُهُۥ﴾ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِينَ ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بِالنِّفَاقِ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرَ ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ شَكَكْتُمْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الْأَطْمَاعُ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الْمَوْتُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ الشَّيْطَانُ[4]. ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أَوْلَى بِكُمْ[5] ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٥﴾ هِيَ. ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ﴾ يَحِنْ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الصَّحَابَةِ

---

(١) إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب. [السعدي (ص:٨٣٩)].

(٢) يحتمل أن يكون هذا من قول المؤمنين، أو قول الملائكة ومعناه الطرد للمنافقين، والتهكم بهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٤٥)].

(٣) ضمن «ضرب» في الآية معنى الحجز فعدي بالباء، أي: ضرب بينهم سور للحجز به بين المنافقين والمؤمنين، خلقه الله ساعتئذ قطعا لأطماعهم، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، فحق بذلك التمثيل الذي مثل الله به حالهم في الدنيا بقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وأن الحيرة وعدم رؤية المصير عذاب أليم... واعلم أن هذا السور المذكور في هذه الآية غير الحجاب الذي ذكر في سورة الأعراف. [ابن عاشور (٢٧/ ٣٨٣)]. وهو حائط بين الجنة والنار ﴿لَّهُۥ﴾ أي: لذلك السور ﴿بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة ﴿وَظَـٰهِرُهُۥ﴾ أي: خارج ذلك السور ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ أي: من قبل ذلك الظاهر ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ وهو النار. [البغوي (٨/ ٣٦)].

(٤) وعبر عنه بصيغة المبالغة التي هي المفعول لكثرة غروره لبني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]. [الشنقيطي (٧/ ٨٦٧)].

(٥) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ تفدون بها أنفسكم من النار، وقيل: عوض وبدل، وقيل: إيمان وتوبة، والأول أولى ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ظاهراً وباطناً، وإنما عطف الكافر على المنافق وإن كان المنافق كافراً في الحقيقة لأن المنافق أبطن الكفر والكافر أظهره

لَمَّا أَكْثَرُوا الْمِزَاحَ(١) ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَّلَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿تَخْشَعَ﴾ ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ الزَّمَنُ بَيْنَهم وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِمْ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لَمْ تَلِنْ لِذِكْرِ اللهِ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟﴾ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورِينَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بِالنَّبَاتِ، فَكَذَلِكَ يَفْعَلُ بِقُلُوبِكُمْ يَرُدُّهَا إِلَى الْخُشُوعِ(٢) ﴿قَدْ

فصار غير المنافق بهذا الاعتبار فحسن عطفه على المنافق ﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾ أي: منزلكم الذي تأوون إليه. [صديق حسن (١٣/ ٤١٠)].

(١) يقول الله تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين. أخرجه مسلم (٣٠٢٧). [وعن] شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ». أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٤٠٩)، وأخرج نحوه عبد الرزاق (٢/ ٢٧٥) [ابن كثير (٨/ ١٩)]. والخشوع في أصل اللغة الانخفاض، والذل، والسكون، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت، وذلت، وخضعت، ... والخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه ... وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب. وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره. [مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٢/ ١٩٣)].

(٢) هو هنا يشير إلى أن الكلام الذي بعده مغزى عظيم غير ظاهر، وذلك أنه أريد به تمثيل حال احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله بحال الأرض الميتة في الحاجة إلى المطر، وحال الذكر في تزكية النفوس واستنارتها بحال الغيث في إحياء الأرض الجدبة. ودل على ذلك قوله بعده: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وإلا فإن إحياء الله الأرض بعد موتها بما يصيبها من المطر لا خفاء فيها فلا يقتضي أن يفتتح الإخبار عنه بمثل ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ إلا لأن فيه دلالة غير مألوفة وهي دلالة التمثيل، ... وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، استعارة تمثيلية مصرحة ويتضمن تمثيلية مكنية بسبب تضمنه تشبيه حال ذكر الله والقرآن في إصلاح القلوب بحال المطر في إصلاحه الأرض بعد جدبها. وطوي ذكر الحالة المشبه بها ورمز إليها بلازمها وهو إسناد إحياء الأرض إلى الله لأن الله يحيي الأرض بعد موتها بسبب المطر كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ٦٥]. والمقصود الإرشاد إلى وسيلة الإنابة إلى الله والحث على تعهد النفس بالموعظة، والتذكير بالإقبال على القرآن وتدبره وكلام الرسول ﷺ وتعليمه وأن في اللجأ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ نجاة وفي المفزع إليهما عصمة وقد قال النبي ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي» أخرجه البزار (٨٩٩٣)، وقال ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢). [ابن عاشور (٢٧/ ٣٩٣)].

بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ اَلدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِنَا بِهَذَا وَغَيْرِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ مِنَ «اَلتَّصَدُّقِ» أُدْغِمَتِ اَلتَّاءُ فِي اَلصَّادِ، أَي: اَلَّذِينَ تَصَدَّقُوا ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ اَللَّاتِي تَصَدَّقْنَ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِتَخْفِيفِ اَلصَّادِ فِيهِمَا مِنَ اَلتَّصْدِيقِ وَالْإِيمَانِ ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ﴾ رَاجِعٌ إِلَى اَلذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ بِالتَّغْلِيبِ، وَعَطَفَ اَلْفِعْلَ عَلَى اَلِاسْمِ فِي صِلَةِ «أَلْ» لِأَنَّهُ فِيهَا حَلَّ مَحَلَّ اَلْفِعْلِ، وَذَكَرَ اَلْقَرْضَ بِوَصْفِهِ بَعْدَ اَلتَّصَدُّقِ تَقْيِيدٌ لَهُ(١) ﴿قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعَّفُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، أَيْ: قَرْضُهُمْ(٢) ﴿لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ اَلْمُبَالِغُونَ فِي اَلتَّصْدِيقِ(٣) ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عَلَى اَلْمُكَذِّبِينَ مِنَ اَلْأُمَمِ(٤) ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ اَلدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٩﴾ اَلنَّارِ. ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ تَزْيِينٌ ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ﴾ أَي: اَلِاشْتِغَالُ فِيهَا(٥)، وَأَمَّا اَلطَّاعَاتُ وَمَا

---

(١) عطف على معنى الفعل في المحلى باللام؛ لأن معناه: الذين أصدقوا، أو صدقوا وهو على الأول للدلالة على أن المعتبر هو التصدق المقرون بالإخلاص. [البيضاوي (٥/ ١٨٨)].

(٢) أي: يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك. [ابن كثير (٨/ ٢٢)].

(٣) الإيمان عند أهل السنة وهو ما دل عليه الكتاب والسنة: هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء. [السعدي (ص: ٨٤٠)].

(٤) جوز في ﴿ٱلشُّهَدَآءُ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون معطوفا على ما قبله، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء، وهو الظاهر، لأن الأصل الوصل لا التفكيك. والثاني: أن يكون مبتدأ، خبره ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ و﴿ٱلشُّهَدَآءُ﴾ حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم، أو الذين قتلوا في سبيل الله. واختار الوجه الثاني ابن جرير، قال: لأن الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم شهيد، لا بمعنى غيره، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه، فيكون ذلك وجها، وإن كان فيه بعض البعد، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل، فتأويل قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إذن: والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أو أهلكوا في سبيله، عند ربهم لهم ثواب الله في الآخرة ونورهم. [القاسمي (٩/ ١٤٨)].

(٥) لما ذكر حال الفريقين في الآخرة حقر أمور الدنيا أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل، بأن بين أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال؛ لأنها لعب يتعب الناس فيه أنفسهم جدا إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة، ولهو يلهون به أنفسهم عما يهمهم وزينة كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة، وتفاخر بالأنساب أو تكاثر بالعدد والعدد. [البيضاوي (٥/ ١٨٩)]. كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

يُعِينُ عَلَيْهَا فَمِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿كَمَثَلِ﴾ أَيْ: هِيَ فِي إِعْجَابِهَا لَكُمْ وَاضْمِحْلَالِهَا، كَمَثَلِ ﴿غَيْثٍ﴾ مَطَرٍ ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ الزُّرَّاعَ(١) ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ النَّاشِئُ عَنْهُ ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يَيْبَسُ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ﴾ فُتَاتًا يَضْمَحِلُّ بِالرِّيَاحِ ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لِمَنْ آثَرَ عَلَيْهَا الدُّنْيَا ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ﴾ لِمَنْ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهَا الدُّنْيَا ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ مَا التَّمَتُّعُ فِيهَا ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لَوْ وُصِلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى، وَالْعَرْضُ السَّعَةُ(٢) ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢١ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْجَدْبِ ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كَالْمَرَضِ وَفَقْدِ الْوَلَدِ ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يَعْنِي اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ﴾ نَخْلُقَهَا، وَيُقَالُ فِي النِّعْمَةِ كَذَلِكَ(٣) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا﴾ «كَيْ» نَاصِبَةٌ لِلْفِعْلِ بِمَعْنَى «أَنْ»، أَيْ: أَخْبَرَ تَعَالَى بِذَلِكَ، لِئَلَّا ﴿تَأْسَوْاْ﴾ تَحْزَنُوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ﴾ فَرَحَ بَطَرٍ، بَلْ فَرَحَ شُكْرٍ عَلَى النِّعْمَةِ(٤) ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ بِالْمَدِّ: أَعْطَاكُمْ، وَبِالْقَصْرِ: جَاءَكُمْ مِنْهُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ مُتَكَبِّرٍ بِمَا أُوتِيَ ﴿فَخُورٍ ۝٢٣﴾ بِهِ عَلَى النَّاسِ. ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ﴾ بِهِ، لَهُمْ وَعِيدٌ شَدِيدٌ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ ضَمِيرُ فَصْلٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُقُوطِهِ ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عَنْ غَيْرِهِ ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾ لِأَوْلِيَائِهِ. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾

---

(١) أي: الزراع، لأنهم يكفرون البذر، أي: يغطونه بالتراب، كما يستر الكافر حقيقة أنوار الإيمان بما يحصل منه من الجحد والطغيان. [صديق حسن (١٣/ ٤١٦)]. أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها. [ابن كثير (٨/ ٢٤)].

(٢) انظر إلى التعليق على آية (١٣٣) من سورة آل عمران.

(٣) المعنى أن الأمور كلها مقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون، قال رسول الله ﷺ: «قَدَّرَ اللهُ المَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ». أخرجه مسلم (٢٦٥٣). والمصيبة هنا عبارة عن كل ما يصيب من خير أو شر، وقيل: أراد به المصيبة في العرف وهو ما يصيب من الشر، وخص ذلك بالذكر لأنه أهم على الناس، وفي الأرض يعني القحوط والزلازل وغير ذلك، وفي أنفسكم يعني الموت، والفقر، وغير ذلك و﴿نَّبْرَأَهَآۚ﴾ معناه: نخلقها والضمير يعود على المصيبة أو على أنفسكم أو على الأرض، وقيل: يعود على جميعها لأن المعنى صحيح في كلها. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٤٨)].

(٤) قيل: والفرح والحزن المنهى عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز، وإلا فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً، والحزن صبراً، وإنما يلزم من الحزن الجزع المنافي للصبر، ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر. [صديق حسن (١٣/ ٤١٩)].

اَلْمَلَائِكَةَ(١) إِلَى اَلْأَنْبِيَاءِ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِالْحُجَجِ اَلْقَوَاطِعِ ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بِمَعْنَى اَلْكُتُبِ ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ اَلْعَدْلَ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أَخرَجْنَاهُ مِنَ اَلْمَعَادِنِ(٢) ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يُقَاتَلُ بِهِ ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ، مَعْطُوفٌ عَلَى لِيَقُومَ اَلنَّاسُ ﴿مَن يَنصُرُهُ﴾ بِأَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ بِآلَاتِ اَلْحَرْبِ مِنَ اَلْحَدِيدِ وَغَيْرِهِ ﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ﴾ حَالٌ مِنْ هَاءِ ﴿يَنصُرُهُ﴾، أَيْ: غَائِبًا عَنْهُمْ فِي اَلدُّنْيَا، قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: يَنْصُرُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ لَا حَاجَةَ لَهُ إِلَى اَلنُّصْرَةِ، لَكِنَّهَا تَنْفَعُ مَنْ يَأْتِي بِهَا. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ﴾ يَعْنِي اَلْكُتُبَ اَلْأَرْبَعَةَ: اَلتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ، فَإِنَّهَا فِي ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً﴾ هِيَ رَفْضُ اَلنِّسَاءِ وَاتِّخَاذُ اَلصَّوَامِعِ(٣) ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ مَا أَمَرْنَاهُمْ بِهَا ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ فَعَلُوهَا ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ﴾ مَرْضَاةِ ﴿ٱللَّهِ فَمَا

---

(١) قاله الزمخشري والمحلي، وفيه بعد، وجمهور المفسرين على حمل الرسل على البَشر ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات البينة، والشرائع الظاهرة ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد الجنس، فيدخل فيه كتاب كل رسول ﴿وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ قال قتادة ومقاتل بن حيان: الميزان العدل، والمعنى أمرناكم بالعدل كما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. [صديق حسن (١٣/ ٤٢١)].

(٢) ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: خلقناه كما في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ﴾ وهذا قول الحسن، والمعنى أنه خلقه وأخرجه من المعادن، وعلم الناس صنعته ... ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ لأنه تتخذ منه آلات الحرب، قال الزجاج: يمتنع به ويحارب، والمعنى أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب، قال مجاهد: فيه جنة وسلاح وقوة وشدة ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنهم ينتفعون به في كثير مما يحتاجون إليه، مثل السكين والفأس والإبرة وآلات الزراعة والتجارة والعمارة، قال البيضاوي: ما من صنعة إلا والحديد آلتها، أي: له دخل في آلتها، وهذا الحصر كلي كما هو مشاهد. [صديق حسن (١٣/ ٤٢١)].

(٣) ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه، وهم الحواريون وأتباعهم ﴿رَأْفَةً﴾ أي: مودة، فكان يود بعضهم بعضاً ﴿وَرَحْمَةً ۚ﴾ يتراحمون بها، وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس، فألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وأصل الرأفة اللين، والرحمة الشفقة، وقيل: الرأفة أشد الرحمة. [القرطبي (١٧/ ٢٦٢)]. ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوبا، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم. [السعدي (ص:٨٤٢)].

﴿رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ إِذْ تَرَكَهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَكَفَرُوا بِدِينِ عِيسَى وَدَخَلُوا فِي دِينِ مَلِكِهِمْ، وَبَقِيَ عَلَى دِينِ عِيسَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَآمَنُوا بِنَبِيِّنَا ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِهِ ﴿مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٧ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِعِيسَى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعِيسَى ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ نَصِيبَيْنِ ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ لِإِيمَانِكُمْ بِالنَّبِيَّيْنِ(١) ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ عَلَى الصِّرَاطِ ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ أَيْ: أَعْلَمَكُمْ بِذَلِكَ لِيَعْلَمَ ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التَّوْرَاةِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿أَ﴾نْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّأْنِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ خِلَافَ مَا فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَحِبَّاءُ اللهِ وَأَهْلُ رِضْوَانِهِ ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ﴾ يُعْطِيهِ ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ فَآتَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ(٢) ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

---

(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ ...» الحديث. أخرجه البخاري (٩٧) ومسلم (١٥٤). وافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبي حكيم، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير. وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: ضعفين، وزادهم: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم ... ومما يؤيد هذا القول [حديث] أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ الذي فيه: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالاً فَقَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ أَلَا فَأَنْتُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، أَلَا لَكُمُ الأَجْرُ مَرَّتَيْنِ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلاً وَأَقَلُّ عَطَاءً، قَالَ اللهُ هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا قَالُوا لَا. قَالَ فَإِنَّهُ فَضْلِي أُعْطِيهِ مَنْ شِئْتُ». أخرجه البخاري (٣٤٥٩). ولهذا قال تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله، ولا على إعطاء ما منع الله، ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾. [ابن كثير (٨/ ٣٢)]. وقد زعم بعض المفسرين أن هذه الآية في أهل الكتاب؛ لأنه قال: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ ولكن هذا قول ضعيف جدًّا، ولا يمكن أن ينادي الله عز وجل أهل الكتاب وهم كفرة بوصف الإيمان أبدًا، يعني: لا يمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يا أيها اليهود والنصارى؛ لأنهم حين نزول القرآن إذا بقوا على يهوديتهم ونصرانيتهم ليسوا مؤمنين. [ابن عثيمين تفسير الحديد (ص:٤٢٩)].

(٢) في الآية (٢٨) من هذه السورة.

سُورَةُ المُجَادلَةِ

مَدَنِيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ تُرَاجِعُكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴿فِي زَوۡجِهَا﴾ الْمُظَاهِرِ مِنْهَا، وَكَانَ قَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، وَقَدْ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَجَابَهَا بِأَنَّهَا حَرُمَتْ عَلَيْهِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْهُودُ عِنْدَهُمْ مِنْ أَنَّ الظِّهَارَ مُوجِبُهُ فِرْقَةٌ مُؤَبَّدَةٌ، وَهِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ وَهُوَ أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وَحْدَتَهَا وَفَاقَتَهَا وَصِبْيَةً صِغَارًا إِنْ ضَمَّتْهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا أَوْ إِلَيْهَا جَاعُوا ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ تَرَاجُعَكُمَا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ عَالِمٌ[1]. ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ أَصْلُهُ «يَتَظَهَّرُونَ» أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الظَّاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِأَلِفٍ بَيْنَ الظَّاءِ وَالْهَاءِ الْخَفِيفَةِ، وَفِي أُخْرَى كَـ «يُقَاتِلُونَ» وَفِي الْمَوْضِعِ الثَّانِي كَذَلِكَ ﴿مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي﴾ بِهَمْزَةٍ وَيَاءٍ وَبِلَا يَاءٍ ﴿وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ﴾ بِالظِّهَارِ ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ كَذِبًا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾ لِلْمُظَاهِرِ بِالْكَفَّارَةِ. ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أَيْ: فِيهِ، بِأَنْ يُخَالِفُوهُ بِإِمْسَاكِ الْمُظَاهِرِ مِنْهَا الَّذِي هُوَ خِلَافُ مَقْصُودِ الظِّهَارِ مِنْ وَصْفِ الْمَرْأَةِ بِالتَّحْرِيمِ ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أَيْ: إِعْتَاقُهَا عَلَيْهِ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ بِالْوَطْءِ ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ رَقَبَةً ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ أَيِ: الصِّيَامَ ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ عَلَيْهِ، أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا حَمْلًا

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ إلى آخر الآية. أخرجه البخاري (٧٣٨٥). والله عز وجل من اسمائه السميع وهو متضمن لصفة السمع لله عز وجل فهو سميع ذو سمع، بلا تكييف ولا تشبيه ولا تأويل، فهو سميع لأصوات عباده لا يشغله سمع عن سمع، ولا تختلف عليه اللغات والمطالب، ولا تشتبه عليه الأصوات، فالسر عنده علانية؛ قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، والاختفاء والظهور عنده سواء؛ لأنه يسمع السر كما يسمع الجهر، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا أشرفنا على واد، هللنا وكبّرنا، ارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ». أخرجه البخاري (٢٩٩٢).

لِلْمُطْلَقِ عَلَى ٱلْمُقَيَّدِ، لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدٌّ مِنْ غَالِبِ قُوتِ ٱلْبَلَدِ[1] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: ٱلتَّخْفِيفُ فِي ٱلْكَفَّارَةِ ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) عن خويلة بنت ثعلبة قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي. قالت: قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يَا خُوَيْلَةُ ابنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَاتَّقِي اللهَ فِيهِ». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: «يَا خُوَيْلَةُ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ». ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً». قالت: فقلت يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. قال: «فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ». قالت: فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام. قال: «فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ». قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعرق آخر، قال: «فَقَدْ أَصَبْتِ وأَحسَنْت، فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرًا». قالت: ففعلت. أخرجه أحمد (٢٧٣١٩)، وأبو داود (٢٢١٤، ٢٢١٥). ويقال فيها: خولة بنت مالك بن ثعلبة. وقد تصغر فيقال: خويلة. ولا منافاة بين هذه الأقوال، فالأمر فيها قريب. والله أعلم. هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أُمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام، عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت امرأ قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، فرقا من أن أصيب في ليلتي شيئا فأتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينا هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري، وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري. فقالوا: لا والله لا نفعل؛ نتخوف أن ينزل فينا أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك. قال: فخرجت حتى أتيت النبي ﷺ، فأخبرته خبري. فقال لي: «أَنْتَ بِذَاكَ». فقلت: أنا بذاك. فقال «أَنْتَ بِذَاكَ». فقلت: أنا بذاك. قال «أَنْتَ بِذَاكَ». قلت: نعم، ها أنا ذا فأمض في حكم الله تعالى فإني صابر له. قال: «أَعْتِقْ رَقَبَةً». قال: فضربت صفحة رقبتي بيدي وقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فَصُمْ شَهْرَيْنِ». قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: «فَتَصَدَّقْ». فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشى ما لنا عشاء. قال: «اذْهَبْ إِلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرِيق فَقُلْ لَهُ فَلْيَدْفَعْهَا إِلَيْكَ، فَأَطْعِمْ عَنْكَ مِنْهَا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مِسْكِينًا، ثُمَّ اسْتَعِنْ بِسَائِرِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى عِيَالِكَ». قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إلي. فدفعوها إلي. أخرجه أحمد (٤/ ٣٧)، وأبي داود (٢٢١٣)، وابن ماجه (٢٠٦٢)، والترمذي (٣٢٩٩). [ابن كثير (٨/ ٣٥)].

وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ﴾ أَي: الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بِهَا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ يُخَالِفُونَ ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾ أُذِلُّوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فِي مُخَالَفَتِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ دَالَّةً عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بِالْآيَاتِ ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمْ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ بِعِلْمِهِ[1] ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمْ تَرَ﴾ تَنظُرْ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ هُمُ الْيَهُودُ، نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ تَنَاجِيهِمْ، أَيْ: تَحَدُّثِهِمْ سِرًّا نَاظِرِينَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيُوقِعُوا فِي قُلُوبِهِمُ الرِّيبَةَ ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ﴾ أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴿بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: «السَّامُ عَلَيْكَ»، أَيِ: الْمَوْتُ[2] ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ مِنَ التَّحِيَّةِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِنَبِيٍّ، إِنْ كَانَ نَبِيًّا ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ يَدْخُلُونَهَا ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٨﴾ هِيَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا

---

(١) والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. [السعدي (ص: ٨٤٥)]. والمعية نوعان: عامة. وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧]. وخاصة: وهي معية القرب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. [مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٥٤)]. وتخصيص العددين بالذكر إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت في تناجي المنافقين وإما لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين وقد عمم الحكم بعد ذلك فقيل: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مما ذكر كالواحد والاثنين. ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ كالستة وما فوقها. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم، ... ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ من الأماكن ولو كانوا تحت الأرض فإن علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قربا وبعدا. [أبو السعود (٨/ ٢١٨)].

(٢) كانت اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: السام عليك يا محمد بدلاً من السلام عليكم. والسام: الموت. وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم: «وَعَلَيْكُمْ». فسمعتهم عائشة رضي الله عنها يوماً فقالت: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ أَوِ الْفُحْشَ»، فقالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ». أخرجه البخاري (٦٠٣٠). [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٥٣)].

تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ بِالإِثْمِ وَنَحْوِهِ ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ بِغُرُورِهِ ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ﴾ هُوَ ﴿بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ أَيْ: إِرَادَتِهِ(١) ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ﴾ تَوَسَّعُوا ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ أَوِ الذِّكْرِ حَتَّى يَجْلِسَ مَنْ جَاءَكُمْ(٢)، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ٱلۡمَجۡلِسِ﴾ ﴿فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ(٣) ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الشِّينِ فِيهِمَا ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ بِالطَّاعَةِ فِي ذَلِكَ ﴿وَ﴾ يَرْفَعُ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أَرَدْتُمْ مُنَاجَاتَهُ ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾ قَبْلَهَا ﴿صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ لِذُنُوبِكُمْ ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ مَا تَتَصَدَّقُونَ بِهِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لِمُنَاجَاتِكُمْ ﴿رَّحِيمٌ ١٢﴾ بِكُمْ، يَعْنِي: فَلَا عَلَيْكُمْ فِي الْمُنَاجَاةِ مِنْ غَيْرِ صَدَقَةٍ. ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ، أَيْ: خِفْتُمْ مِنْ ﴿أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾ لِفَقْرٍ ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ الصَّدَقَةَ ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ رَجَعَ بِكُمْ عَنْهَا ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ أَيْ: دَاوِمُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ * ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تَنْظُرْ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿قَوۡمًا﴾ هُمُ الْيَهُودُ ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم﴾ أَيْ: الْمُنَافِقُونَ ﴿مِّنكُمۡ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ مِنَ الْيَهُودِ، بَلْ هُمْ مُذَبْذَبُونَ(٤) ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ أَيْ: قَوْلِهِمْ: إِنَّهُمْ

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يتناجينَّ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ». أخرجه البخاري (٦٦٨٥)، ومسلم (١٧٦٨). [ابن كثير (٨/ ٤٥)]. وإذن الله، يعني: بقضاء الله وقدره. [الطبري (٢٢/ ٤٧٦)].

(٢) الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه قال ﷺ: «مَنْ سَبَقَ إِلَى مَا لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ». أخرجه أبو داود (٣٠٧١). ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ فيخرجه الضيق عن موضعه. ... عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا، وَتَوَسَّعُوا». أخرجه البخاري (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧). [القرطبي (١٧/ ٢٩٧)].

(٣) أي: إذا قيل لكم: ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك، واختلف في هذا النشوز المأمور به، فقيل: إذا دعوا إلى قتال أو صلاة أو فعل طاعة، وقيل: إذا أمروا بالقيام من مجلس رسول الله ﷺ، لأنه كان يحب الانفراد أحيانا، وربما جلس قوم حتى يؤمروا بالقيام، وقيل: المراد القيام في المجلس للتوسع. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٥٤)].

(٤) كقوله فيهم: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء: ١٤٣].

مُؤْمِنُونَ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤﴾ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيهِ. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٥﴾ مِنَ الْمَعَاصِي. ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ سَتْرًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿فَصَدُّواْ﴾ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: الْجِهَادِ فِيهِمْ بِقَتْلِهِمْ وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ[1] ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٦﴾ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِنَ الْإِغْنَاءِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾. اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ مِنْ نَفْعِ حَلِفِهِمْ فِي الْآخِرَةِ كَالدُّنْيَا ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٨ ٱسْتَحْوَذَ﴾ اسْتَوْلَى ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بِطَاعَتِهِمْ لَهُ ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أَتْبَاعُهُ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ﴾ يُخَالِفُونَ ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ٢٠﴾ الْمَغْلُوبِينَ. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَوْ قَضَى ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ يُصَادِقُونَ ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾ أَيِ: الْمُحَادُّونَ ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ بَلْ يَقْصِدُونَهُمْ بِالسُّوءِ وَيُقَاتِلُونَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، كَمَا وَقَعَ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الَّذِينَ لَا يُوَادُّونَهُمْ ﴿كَتَبَ﴾ أَثْبَتَ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ﴾ بِنُورٍ ﴿مِّنْهُ﴾ تَعَالَى ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بِثَوَابِهِ[2] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُ وَيَجْتَنِبُونَ نَهْيَهُ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾ الْفَائِزُونَ.

---

(١) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنة، والأيمان جمع يمين، وهي الحلف، والجنة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح. والمعنى أنهم جعلوا الأيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين إنهم معهم وإنهم مخلصون في باطن الأمر ترسا لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم. وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الظاهر أنه من صد المتعدية، وأن المفعول محذوف، أي: فصدوا غيرهم ممن أطاعهم كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] ... والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد. [الشنقيطي (٧/ ٨٨١)].

(٢) سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم. [ابن كثير (٨/ ٥٥)].

سُورَةُ الحَشْرِ

مَدَنِيَّةٌ، أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ آيَةٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: نَزَّهَهُ فَاللَّامُ مَزِيدَةٌ وَفِي الْإِتْيَانِ بِـ ﴿مَا﴾ تَغْلِيبٌ لِلْأَكْثَرِ(١) ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾ فِي مُلْكِهِ وَصُنْعِهِ(٢). ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هُمْ بَنُو النَّضِيرِ مِنَ الْيَهُودِ ﴿مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ مَسَاكِنِهِمْ بِالْمَدِينَةِ ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ هُوَ حَشْرُهُمْ إِلَى الشَّامِ، وَآخِرُهُ أَنْ أَجْلَاهُمْ عُمَرُ فِي خِلَافَتِهِ إِلَى خَيْبَرَ(٣) ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ﴾ خَبَرُ ﴿أَن﴾ ﴿حُصُونُهُم﴾ فَاعِلُهُ تَمَّ بِهِ الْخَبَرُ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أَمْرُهُ وَعَذَابُهُ ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِمْ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقَذَفَ﴾ أَلْقَى ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَضَمِّهَا، الْخَوْفَ بِقَتْلِ سَيِّدِهِمْ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ(٤)

---

(١) [هي كما] في صدر سورة الحديد، وقد كرر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح. [أبو السعود (٨/ ٢٢٤)].

(٢) يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه، ويصلي له ويوحده كقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: منيع الجناب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في قدره وشرعه. [ابن كثير (٨/ ٥٦)].

(٣) الصواب «من خيبر».

(٤) بين تعالى السبب الحقيقي لإخراجهم في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، وهذا من أهم أسباب إخراجهم؛ لأنهم في موقف القوة وراء الحصون، لم يتوقع المؤمنون خروجهم، وظنوا هم أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقد كان هذا الإخراج من الله إياهم بوعد سابق من الله لرسوله في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وبهذا الإخراج تحقق كفاية الله لرسوله ﷺ منهم، فقد كفاه إياهم بإخراجهم من ديارهم، فكان إخراجهم حقا من الله تعالى، وبوعد مسبق من الله لرسوله ﷺ. وقد أكد هذا بقوله تعالى مخاطبا للمسلمين في خصوصهم: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦] وتسليط الرسول ﷺ هو بما بين ﷺ في قوله: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١). وهو ما يتمشى مع قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾. وجملة هذا السياق هنا يتفق مع السياق في سورة الأحزاب عن بني

﴿يُخَرِّبُونَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ مِنْ أَخْرَبَ ﴿بُيُوتَهُم﴾ لِيَنْقُلُوا مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْهَا مِنْ خَشَبٍ وَغَيْرِهِ ﴿بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ قَضَى ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الْخُرُوجَ مِنَ الْوَطَنِ ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، كَمَا فَعَلَ بِقُرَيْظَةَ مِنَ الْيَهُودِ ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ﴾ خَالَفُوا ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾ لَهُ. ﴿مَا قَطَعْتُم﴾ يَا مُسْلِمُونَ ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ نَخْلَةٍ ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: خَيَّرَكُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَلِيُخْزِىَ﴾ بِالْإِذْنِ فِي الْقَطْعِ ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾ الْيَهُودَ فِي اعْتِرَاضِهِمْ بِأَنَّ قَطْعَ الشَّجَرِ الْمُثْمِرِ فَسَادٌ. ﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾ رَدَّهُ ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ﴾ أَسْرَعْتُمْ يَا مُسْلِمُونَ ﴿عَلَيْهِ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ إِبِلٍ، أَيْ: لَمْ تُقَاسُوا فِيهِ مَشَقَّةً ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ فَلَا حَقَّ لَكُمْ فِيهِ، وَيَخْتَصُّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى مَا كَانَ يَقْسِمُهُ مِنْ أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمْ خُمُسَ الْخُمُسِ وَلَهُ ﷺ الْبَاقِي يَفْعَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، فَأَعْطَى مِنْهُ الْمُهَاجِرِينَ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَنْصَارِ لِفَقْرِهِمْ. ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ كَالصَّفْرَاءِ وَوَادِي الْقُرَى وَيَنْبُعَ ﴿فَلِلَّهِ﴾ يَأْمُرُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى﴾ صَاحِبِ ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قَرَابَةِ النَّبِيِّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَلَكَتْ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ فُقَرَاءُ ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ ذَوِي الْحَاجَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَيْ: يَسْتَحِقُّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَالْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ عَلَى مَا كَانَ يَقْسِمُهُ، مِنْ أَنَّ لِكُلٍّ مِنَ الْأَرْبَعَةِ خُمُسَ الْخُمُسِ وَلَهُ الْبَاقِي ﴿كَىْ لَا﴾ ﴿كَىْ﴾ بِمَعْنَى اللَّامِ وَ«أَنْ» مُقَدَّرَةٌ بَعْدَهَا ﴿يَكُونَ﴾ الْفَيْءُ، عِلَّةٌ لِقَسْمِهِ كَذَلِكَ ﴿دُولَةًۢ﴾ مُتَدَاوَلًا ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ أَعْطَاكُمْ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ مِنَ الْفَيْءِ وَغَيْرِهِ ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَيْ: اعْجَبُوا ﴿ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨﴾ فِي إِيمَانِهِمْ. ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ أَيْ: الْمَدِينَةَ ﴿وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾

قريظة سواء بسواء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧]، وعليه ظهرت حقيقة إسناد إخراجهم لله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ﴾ كما أنه هو تعالى الذي رد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، بما أرسل عليهم من الرياح، والجنود، وهو الذي كفى المؤمنين القتال، وهو تعالى الذي أنزل بني قريظة من صياصيهم، وورث المؤمنين ديارهم وأموالهم، وكان الله على كل شيء قديرا. [عطية سالم (٨/ ١٤)].

أَيْ: أَلِفُوهُ وَهُمُ ٱلْأَنْصَارُ[1] ﴿مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ حَسَدًا ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أَيْ: آتَى ٱلنَّبِيُّ ﷺ ٱلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِ بَنِي ٱلنَّضِيرِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِهِمْ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ حَاجَةً إِلَى مَا يُؤْثِرُونَ بِهِ[2] ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حِرْصَهَا عَلَى ٱلْمَالِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مِنْ بَعْدِ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ[3] ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حِقْدًا ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠﴾ * ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرْ ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وَهُمْ بَنُو ٱلنَّضِيرِ وَإِخْوَانُهُمْ فِي ٱلْكُفْرِ ﴿لَئِنْ﴾ لَامُ قَسَمٍ فِي ٱلْأَرْبَعَةِ ﴿أُخْرِجْتُمْ﴾ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ فِي خِذْلَانِكُمْ ﴿أَحَدًا أَبَدًا وَإِن

---

(١) كلام مستأنف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة من جملتها محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا وأكمله، ومعنى تبوئهم الدار: أنهم اتخذوا المدينة، والإيمان مباءة وتمكنوا فيهما أشد تمكن على تنزيل الحال منزلة المكان. وقيل: ضمن التبوؤ معنى اللزوم. وقيل: تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان، كقول من قال: «علفتها تبنا وماء باردا». وقيل: المعنى تبوؤوا دار الهجرة ودار الإيمان فحذف المضاف إليه من الأول وعوض منه اللام. وقيل: سمى المدينة بالإيمان لكونها مظهره ومنشأه. [أبو السعود (٨/ ٢٢٩)].

(٢) ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في كل شيء من أسباب المعاش، والإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة، وذلك ينشأ عن قوة اليقين ووكيد المحبة والصبر على المشقة، يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضلته، والمعنى: ويقدمون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وفقر، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت وهي الفروج التي تكون فيه، وقيل: مأخوذة من الاختصاص وهو الانفراد بالأمر، فالخصاصة الانفراد بالحاجة. أخرج البخاري (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رجلا أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياننا، قال: هيئي طعامك وأصلحي فراشك ونومي صبيانك إذا أرادوا العشاء، فهيأت طعامها وأصلحت فراشها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، وجعلا يريانه كأنهما يأكلان وباتا طاويين فلما أصبحا غدا على رسول الله ﷺ فقال: «لَقَدْ ضَحِكَ اللهُ تَعَالَى أَوْ عَجِبَ اللَّيْلَةَ مِنْ فَعَالِكُمَا»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. [صديق حسن (١٤/ ٥٢)].

(٣) هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون بإحسان، كما قال في آية براءة: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠] فالتابعون لهم بإحسان هم: المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية ... وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء. [ابن كثير (٨/ ٧٢)].

قُوتِلْتُمْ﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ اَللَّامُ اَلْمُوطِّئَةُ ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أَيْ: جَاءُوا لِنَصْرِهِمْ ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ وَاسْتُغْنِيَ بِجَوَابِ اَلْقَسَمِ اَلْمُقَدَّرِ عَنْ جَوَابِ اَلشَّرْطِ فِي اَلْمَوَاضِعِ اَلْخَمْسَةِ ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أَيِ: اَلْيَهُودُ. ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ خَوْفًا ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ أَيِ: اَلْمُنَافِقِينَ[1] ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أَيِ: اَلْيَهُودُ ﴿جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ سُورٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿جُدُرٍ﴾ ﴿بَأْسُهُم﴾ حَرْبُهُمْ ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾ مُتَفَرِّقَةٌ خِلَافَ اَلْحِسْبَانِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾[2]. مَثَلُهُمْ فِي تَرْكِ اَلْإِيمَانِ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ﴾ بِزَمَنٍ قَرِيبٍ، وَهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ[3] ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عُقُوبَتَهُ فِي اَلدُّنْيَا مِنَ اَلْقَتْلِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ مُؤْلِمٌ فِي اَلْآخِرَةِ. مَثَلُهُمْ أَيْضًا فِي سَمَاعِهِمْ مِنَ اَلْمُنَافِقِينَ وَتَخَلُّفِهِمْ عَنْهُمْ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ كَذِبًا مِنْهُ وَرِيَاءً. ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أَيِ: اَلْغَاوِي وَالْمُغْوِيِّ، وَقُرِئَ: بِالرَّفْعِ[4] ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ أَيِ: اَلْكَافِرِينَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾

---

(١) أي: لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفاً وخشية في صدور المنافقين أو صدور اليهود، أو صدور الجميع ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: من رهبة الله، والرهبة هنا بمعنى المرهوبية، لأنها مصدر من المبني للمفعول وفيه دلالة على نفاقهم، يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيب في صدورهم منه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم بشيء من الأشياء، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم. [الشوكاني (٥/ ٢٤٣)].

(٢) ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ اليهود والمنافقون ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ لفرط رهبتهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ﴾ أي: وليس ذلك لضعفهم وجبنهم فإنه يشتد بأسهم إذا حارب بعضهم بعضا، بل لقذف الله الرعب في قلوبهم ولأن الشجاع يجبن والعزيز يذل إذا حارب الله ورسوله ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾ متفرقة لافتراق عقائدهم واختلاف مقاصدهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه صلاحهم وإن تشتت القلوب يوهن قواهم. [البيضاوي (٥/ ٢٠١)].

(٣) أي: هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع فإن رسول الله ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير، فكانوا أمثالهم. وقيل: يعني أهل بدر الكفار، فإنهم قبلهم ومثلاً لهم في أن غلبوا وقهروا. والأول أرجح: لأن قوله: ﴿قَرِيبًاۖ﴾ يقتضي أنهم كانوا قبلهم بمدة يسيرة، وذلك أوقع على بني قينقاع، وأيضاً فإن تمثيل بني النضير ببني قينقاع أليق لأنهم يهود مثلهم، وأخرجوا من ديارهم كما فعل بهم وذلك هو المراد بقوله: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ وقريباً ظرف زمان. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٦٢)].

(٤) قراءة شاذة.

لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ تَرَكُوا طَاعَتَهُ ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أَنْ يُقَدِّمُوا لَهَا خَيْرًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾ وَجُعِلَ فِيهِ تَمْيِيزٌ كَالْإِنْسَانِ ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا﴾ مُتَشَقِّقًا ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ الْمَذْكُورَةُ ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ فَيُؤْمِنُونَ[1]. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ الطَّاهِرُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذُو السَّلَامَةِ مِنَ النَّقَائِصِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ الْمُصَدِّقُ رُسُلَهُ بِخَلْقِ الْمُعْجِزَةِ لَهُمْ ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ مِنْ هَيْمَنَ يُهَيْمِنُ إِذَا كَانَ رَقِيبًا عَلَى الشَّيْءِ، أَيِ: الشَّهِيدُ عَلَى عِبَادِهِ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الْقَوِيُّ ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ جَبَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَا أَرَادَ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ بِهِ. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ﴾ الْمُنْشِئُ مِنَ الْعَدَمِ ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ التِّسْعَةُ وَالتِّسْعُونَ الْوَارِدُ بِهَا الْحَدِيثُ[2]، وَالْحُسْنَى مُؤَنَّثُ الْأَحْسَنِ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ تَقَدَّمَ أَوَّلَهَا[3].

---

(١) ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا﴾ يدل على أنه لم ينزله، وأنه ذكر على سبيل المثال؛ ليتفكر الناس في أمره كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ الآية [الرعد: ٣١]. [عطية سالم (٨/ ٦٢)]. أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه. [ابن كثير (٨/ ٧٨)].

(٢) أي: له الأسماء الكثيرة جدا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله، ومع ذلك فكلها حسنى، أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها. ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته. [السعدي (ص:٨٥٤)].

(٣) أي: في أول السورة.

سُورَةُ المُمْتَحنَةِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَلاثَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ أَيْ: كُفَّار مَكَّةَ ﴿أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ﴾ تُوصِّلُونَ ﴿إِلَيْهِم﴾ قَصْدَ النَّبِيِّ ﷺ غَزْوَهُمْ، الَّذِي أَسَرَّهُ إِلَيْكُمْ وَوَرَّى بِحُنَيْنٍ ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، كَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا بِذَلِكَ، لِمَا لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَهْلِ الْمُشْرِكِينَ، فَاسْتَرَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّنْ أَرْسَلَهُ مَعَهُ بِإِعْلَامِ اللهِ تَعَالَى لَهُ بِذَلِكَ وَقَبِلَ عُذْرَ حَاطِبٍ فِيهِ[1] ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: دِينِ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ مِنْ مَكَّةَ بِتَضْيِيقِهِمْ عَلَيْكُمْ ﴿أَن تُؤْمِنُواْ﴾ أَيْ: لِأَجْلِ أَنْ آمَنْتُمْ ﴿بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا﴾ لِلْجِهَادِ ﴿فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ وَجَوَابُ الشَّرْطِ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، أَيْ: فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أَيْ: إِسْرَارَ خَبَرِ النَّبِيِّ إِلَيْهِمْ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْهُدَى، وَالسَّوَاءُ فِي الْأَصْلِ: الْوَسَطُ. ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يَظْفَرُوا بِكُمْ ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بِالْقَتْلِ وَالضَّرْبِ ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ ﴿وَوَدُّواْ﴾ تَمَنَّوْا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قَرَابَاتُكُمْ ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لِأَجْلِهِمْ أَسْرَرْتُمُ الْخَبَرَ، مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُفْصَلُ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَهُمْ فَتَكُونُونَ فِي الْجَنَّةِ، وَهُمْ فِي جُمْلَةِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ﴾ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَضَمِّهَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ، قُدْوَةٌ ﴿حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أَيْ: بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[2] ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ جَمْعُ

---

(١) ذكر كثير من المفسرين، رحمهم الله، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يدا عندهم لا شكا ونفاقا، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب. وعاتب حاطبا، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقي من مجهوده في العداوة شيئا، وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه. [السعدي (ص:٨٥٤)].

(٢) الأسوة هو الذي يقتدى به، فأمر الله المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة الكفار والتبري منهم، ومعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ

«بَرِيءٍ» كَظَرِيفٍ ﴿مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أَنْكَرْنَاكُمْ ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ وَاوًا ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مُسْتَثْنًى مِنْ ﴿إِسْوَةٌ﴾ فَلَيْسَ لَكُمُ التَّأَسِّي بِهِ فِي ذَلِكَ بِأَنْ تَسْتَغْفِرُوا لِلْكُفَّارِ(١)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مِنْ عَذَابِهِ وَثَوَابِهِ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ كَنَّى بِهِ عَنْ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لَهُ غَيْرَ الِاسْتِغْفَارِ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ مُسْتَثْنًى مِنْ حَيْثُ الْمُرَادِ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ ظَاهِرِهِ مِمَّا يُتَأَسَّى فِيهِ ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الفتح: ١١] وَاسْتِغْفَارُهُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي بَرَاءَةَ(٢) ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤﴾ مِنْ مَقُولِ الْخَلِيلِ وَمَنْ مَعَهُ. أَيْ: وَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أَيْ: لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ فَيُفْتَتَنُوا، أَيْ: تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ بِنَا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ فِي مُلْكِكَ وَصُنْعِكَ. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ جَوَابُ قَسَمٍ مُقَدَّرٍ ﴿فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ «كُمْ» بِإِعَادَةِ الْجَارِّ ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾ أَيْ: يَخَافُهُمَا أَوْ يَظُنُّ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ بِأَنْ يُوَالِيَ الْكُفَّارَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى ﴿مَّوَدَّةً﴾ بِأَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِيمَانِ، فَيَصِيرُوا لَكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ عَلَى ذَلِكَ وَقَدْ فَعَلَهُ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ مَا سَلَفَ ﴿رَّحِيمٌ ۝٧﴾ بِهِمْ. ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ﴾ تُفْضُوا ﴿إِلَيْهِمْ﴾ بِالْقِسْطِ، أَيْ: بِالْعَدْلِ وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِجِهَادِهِمْ(٣) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ الْعَادِلِينَ. ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ

مَعَهُۥٓ﴾ من آمن به من الناس، وقيل: الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريباً من عصره، ورجح ابن عطية هذا القول بما ورد في الحديث إن إبراهيم عليه السلام قال لزوجته: «لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُكِ». أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١). [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٦٥)].

(١) قال ابن جرير: أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه في هذه الأمور التي ذكرناها، من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم، إلا في قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك؛ لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. يقول تعالى ذكره: فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، تبرؤوا من أعداء الله المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياء، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء، حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرؤوا عن عبادة ما سواه. [القاسمي (٩/ ٢٠٥)].

(٢) هو قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

(٣) قال أكثر أهل التأويل: هي محكمة. واحتجوا بأن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما سألت النبي ﷺ: هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟

قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ﴾ عاوَنوا ﴿عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ﴾ بَدَلُ اِشْتِمالٍ مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أَيْ: تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ بِأَلْسِنَتِهِنَّ ﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ، بَعْدَ الصُّلْحِ مَعَهُمْ فِي الْحُدَيْبِيَةِ عَلى أَنَّ مَنْ جاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ يُرَدُّ ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّۖ﴾ بِالْحَلِفِ عَلى أَنَّهُنَّ ما خَرَجْنَ إِلَّا رَغْبَةً فِي الْإِسْلامِ، لا بُغْضًا لِأَزْواجِهِنَّ الْكُفَّارِ وَلا عِشْقًا لِرِجالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَذا كانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَلِّفُهُنَّ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ ظَنَنْتُمُوهُنَّ بِالْحَلِفِ ﴿مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ تَرُدُّوهُنَّ ﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم﴾ أَيْ: أَعْطُوا الْكُفَّارَ أَزْواجَهُنَّ ﴿مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمُهُورِ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ بِشَرْطِهِ[1] ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ مُهُورَهُنَّ ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ زَوْجاتِكُمْ لِقَطْعِ إِسْلامِكُمْ لَها بِشَرْطِهِ، أَوِ اللَّاحِقاتِ بِالْمُشْرِكِينَ مُرْتَدَّاتٍ لِقَطْعِ اِرْتِدادِهِنَّ نِكاحَكُمْ بِشَرْطِهِ ﴿وَسْـَٔلُواْ﴾ اُطْلُبُوا ﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمُهُورِ، فِي صُورَةِ الِارْتِدادِ مِمَّنْ تَزَوَّجَهُنَّ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ عَلَى الْمُهاجِراتِ، كَما تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ يُؤْتَوْنَهُ ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۖ﴾ بِهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ أَيْ: واحِدَةٌ فَأَكْثَرُ مِنْهُنَّ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ مُهُورِهِنَّ بِالذَّهابِ ﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ مُرْتَدَّاتٍ ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فَغَزَوْتُمْ وَغَنِمْتُمْ ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾ مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ لِفَواتِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْكُفَّارِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ

قال: «نَعَمْ» أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣). وقيل: إن الآية فيها نزلت. [القرطبي (١٨/ ٥٩)]. فبعد نزول الآيات الكريمات، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلما: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان: ١٥]. [السعدي (ص:٨٥٦)].

(١) وهو انقضاء العدة فيما إذا كانت المسلمة مدخولاً بها، والولي والشاهدان وبقية شروط الصحة في المدخول بها وغيرها، لأنهن قد صرن من أهل دينكم، وإن كان أزواجهن الكفار لم يطلقوهن لانفساخ العقد بالإسلام. [صديق حسن (١٤/ ٨٦)].

مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَقَدْ فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْإِيتَاءِ لِلْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ ارْتَفَعَ هَذَا الْحُكْمُ[1]. ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ**﴾ كَمَا كَانَ يُفْعَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ وَأْدِ الْبَنَاتِ، أَيْ: دَفْنِهِنَّ أَحْيَاءً خَوْفَ الْعَارِ وَالْفَقْرِ ﴿**وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ**﴾ أَيْ: بِوَلَدٍ مَلْقُوطٍ يَنْسُبْنَهُ إِلَى الزَّوْجِ وَوُصِفَ بِصِفَةِ الْوَلَدِ الْحَقِيقِيِّ، فَإِنَّ الْأُمَّ إِذَا وَضَعَتْهُ سَقَطَ بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا ﴿**وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ**﴾ هُوَ مَا وَافَقَ طَاعَةَ اللهِ كَتَرْكِ النِّيَاحَةِ وَتَمْزِيقِ الثِّيَابِ وَجَزِّ الشُّعُورِ وَشَقِّ الْجَيْبِ وَخَمْشِ الْوَجْهِ ﴿**فَبَايِعْهُنَّ**﴾ فَعَلَ ذَلِكَ ﷺ بِالْقَوْلِ وَلَمْ يُصَافِحْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ[2] ﴿**وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾ هُمُ الْيَهُودُ ﴿**قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ**﴾ مِنْ ثَوَابِهَا مَعَ إِيقَانِهِمْ بِهَا لِعِنَادِهِمُ النَّبِيَّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِصِدْقِهِ ﴿**كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ**﴾ الْكَائِنُونَ ﴿**مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾**﴾ أَيِ: الْمَقْبُورِينَ، مِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ إِذْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مَقَاعِدُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ كَانُوا آمَنُوا وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ النَّارِ[3].

---

(١) هذه الأحكام التي تضمنتها هذه الآية، قد ارتفعت لأنها نزلت في قضايا معينة، وهي مهادنة النبي ﷺ مع مشركي العرب ثم زالت هذه الأحكام بارتفاع الهدنة فلا تجوز مهادنة المشركين من العرب، إنما هو في حقهم الإسلام أو السيف، وإنما تجوز مهادنة أهل الكتاب والمجوس لأن الله قال في المشركين: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في أهل الكتاب: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال النبي ﷺ في المجوس: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ». أخرجه مالك في الموطأ (٧٥٦)، وعبد الرزاق (١٠٠٢٥)، وابن أبي شيبة (١٠٧٦٥)، والبزار (١٠٥٦). [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٦٨)].

(٢) وهذه المبايعة للنساء غير معمول بها اليوم، لأنه أجمع العلماء على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، فإما أن تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ، أو يكون ترك هذه الشروط، لأنها قد تقررت وعلمت من الشرع بالضرورة فلا حاجة إلى اشتراطها. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٦٩)].

(٣) ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء و ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل. وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ فيه قولان، أحدهما: كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. والقول الثاني: معناه: كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير. [ابن كثير (٨/ ١٠٣)].

سُورَةُ الصَّفِّ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، أَرْبَعَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: نَزَّهَهُ فَاللَّامُ مَزِيدَةٌ وَجِيءَ بِـ﴿مَا﴾ دُونَ «مَنْ» تَغْلِيبًا لِلْأَكْثَرِ(1) ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ ①﴾ فِي صُنْعِهِ(2). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ﴾ فِي طَلَبِ الْجِهَادِ ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ ②﴾ إِذِ انْهَزَمْتُمْ بِأُحُدٍ. ﴿كَبُرَ﴾ عَظُمَ ﴿مَقْتًا﴾ تَمْيِيزٌ ﴿عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟﴾ فَاعِلُ كَبُرَ ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ ③ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾ يَنْصُرُ وَيُكْرِمُ(3) ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ حَالٌ، أَيْ: صَافِّينَ ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ④﴾ مُلْزَقٌ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ ثَابِتٌ(4). ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ قَالُوا: «إِنَّهُ آدَرُ»، أَيْ: مُنْتَفِخُ الْخُصْيَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ(5)، وَكَذَّبُوهُ ﴿وَقَد﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الْجُمْلَةُ حَالٌ، وَالرَّسُولُ يُحْتَرَمُ(6)

---

(١) وجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة، وفي بعضها بالمضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر، الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ... وأعاد الموصول هنا وفي الحشر والجمعة والتغابن جريًا على الأصل، وأسقطه في الحديد موافقة لقوله فيها: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل: «سبح لله السماوات والأرض وما فيهما» فيكون أكثر مبالغة لأن المراد بالسماء جهة العلو فيشمل السماء وما فيها، وبالأرض جهة السفل فيشمل الأرض وما فيها. [صديق حسن (١٤/ ٩٧)].

(٢) ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره. [السعدي (ص:٨٥٨)].

(٣) قال أكثر المفسرون: إن المؤمنين قالوا: وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه، حتى نعمله، ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله هذه الآية. [الواحدي (٢١/ ٤٣١)]. وانظر التعليق على آية (٢٢٢) من سورة البقرة في اثبات صفة المحبة لله.

(٤) اختلف علماء التفسير في المراد بالبنيان المرصوص، فنقل بعضهم عن الفراء: أنه المتلاحم بالرصاص لشدة قوته، والجمهور: أنه المتلاصق المتراص المتساوي. والواقع أن المراد بالتشبيه هنا هو وجه الشبه، ولا يصح أن يكون هنا هو شكل البناء لا في تلاحمه بالرصاص، وعدم انفكاكه ولا تساويه وتراصه؛ لأن ذلك يتنافى وطبيعة الكر والفر في أرض المعركة، ولكل وقعة نظامها حسب موقعها. والذي يظهر والله تعالى أعلم: أن وجه الشبه المراد هنا هو عموم القوة والوحدة. قال الزمخشري: يجوز أن يريد استواء بنائهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص. [عطية سالم (٨/ ١٠٦)].

(٥) انظر نص الحديث وتخريجه عند تفسير آية (٦٩) من سورة الأحزاب.

(٦) في هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال: «رَحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ عدَلُوا عَنِ الْحَقِّ بِإِيذَائِهِ ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أَمَالَهَا عَنِ الْهُدَى عَلَى وَفْقِ مَا قَدَّرَهُ فِي الْأَزَلِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ الْكَافِرِينَ فِي عِلْمِهِ(١). ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لَمْ يَقُلْ: «يَا قَوْمِ»؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾ قَبْلِي ﴿مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ جَاءَ أَحْمَدُ الْكُفَّارَ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الْآيَاتِ وَالْعَلَامَاتِ(٢) ﴿قَالُواْ هَٰذَا﴾ أَيِ: الْمَجِيءُ بِهِ ﴿سِحۡرٞ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَاحِرٌ﴾ أَيِ: الْجَائِي بِهِ ﴿مُّبِينٞ ۝٦﴾ بَيِّنٌ. ﴿وَمَنۡ﴾ أَيْ: لَا أَحَدَ ﴿أَظۡلَمُ﴾ أَشَدُّ ظُلْمًا ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ، وَوَصْفِ آيَاتِهِ بِالسِّحْرِ ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «أَنْ» مُقَدَّرَةٌ وَاللَّامُ مَزِيدَةٌ ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ شَرْعَهُ وَبَرَاهِينَهُ ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بِأَقْوَالِهِمْ: إِنَّهُ سِحْرٌ وَشِعْرٌ وَكِهَانَةٌ ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ﴾ مُظْهِرُ ﴿نُورِهِۦ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ ذَلِكَ. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ يُعْلِيَهُ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ ذَلِكَ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠﴾

بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ». أخرجه البخاري (٤٣٣٥). وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩]. [ابن كثير (٨/ ١٠٩)].

(١) أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[الأنعام: ١١٠]. [ابن كثير (٨/ ١٠٩)].

(٢) يعني: التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملاء بني إسرائيل مبشرا بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ». أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤). وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه. [ابن كثير (٨/ ١٠٩)].

مُؤْلِم. فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ تَدُومُونَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ(١). ﴿يَغْفِرْ﴾ جَوَابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: إِنْ تَفْعَلُوهُ يَغْفِرْ ﴿لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٍ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَ﴾ يُؤْتِكُمْ نِعْمَةً ﴿أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارًا لِّلَّهِ﴾ لِدِينِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ ﴿كَمَا﴾ الْمَعْنَى: كَمَا كَانَ الْحَوَارِيُّونَ كَذَلِكَ، الدَّالُّ عَلَيْهِ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَيْ: مَنِ الْأَنْصَارُ الَّذِينَ يَكُونُونَ مَعِي مُتَوَجِّهًا إِلَى نُصْرَةِ اللهِ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وَالْحَوَارِيُّونَ أَصْفِيَاءُ عِيسَى، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ «الْحَوَرِ» وَهُوَ الْبَيَاضُ الْخَالِصُ، وَقِيلَ: كَانُوا قَصَّارِينَ يُحَوِّرُونَ الثِّيَابَ، أَيْ: يُبَيِّضُونَهَا ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بِعِيسَى، وَقَالُوا: إِنَّهُ عَبْدُ اللهِ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ ابْنُ اللهِ رَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَاقْتَتَلَتِ الطَّائِفَتَانِ ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ قَوَّيْنَا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الطَّائِفَةِ الْكَافِرَةِ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾ غَالِبِينَ(٢).

---

(١) التجارة هنا فسرت بالإيمان بالله ورسوله، وبذل المال والنفس في سبيل الله، فما هي المعارضة الموجودة في تلك التجارة الهامة، بينها تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، فهنا مبايعة، وهنا بشرى وهنا فوز عظيم ... وحقيقة هذه التجارة أن رأس مال الإنسان حياته ومنتهاه مماته. وقد قال ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا». أخرجه مسلم (٢٢٣). [عطية سالم (٨/ ١١٢)].

(٢) قيل: اقتتل المؤمنون والكفرة بعد رفعه عليه السلام فظهر المؤمنون على الكفرة بالسيف، والمشهور أن القتال ليس من شريعته عليه السلام. [الآلوسي (١٤/ ٢٨٦)]. [وقيل] أي: غالبين عليهم بالبراهين الواضحة، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة، وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني لهم، ما داموا متناصرين على الحق، مجتمعين عليه، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين، كما وقع لسلفهم، اتفقوا فملكوا، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا. [القاسمي (٩/ ٢٢٥)].

سُورَةُ الجُمُعَةِ

مَدَنِيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ يُنَزِّهُهُ، فَاللَّامُ زَائِدَةٌ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ فِي ذِكْرِ ﴿مَا﴾ تَغْلِيبٌ لِلْأَكْثَرِ ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ﴾ الْمُنَزَّهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ فِي مُلْكِهِ وَصُنْعِهِ. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الْعَرَبِ، وَالْأُمِّيُّ: مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ كِتَابًا ﴿رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ(١) ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ(٢) ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: وَإِنَّهُمْ ﴿كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾ قَبْلَ مَجِيئِهِ ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ بَيِّنٍ. ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، أَيِ: الْمَوْجُودِينَ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ وَالْآتِينَ مِنْهُمْ بَعْدَهُمْ ﴿لَمَّا﴾ لَمْ ﴿يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ فِي السَّابِقَةِ وَالْفَضْلِ(٣)

---

(١) قال النبي ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ». أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠). ﴿رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم، كما في قوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة:١٢٨] وما كان حي من أحياء العرب إلا ولرسول الله ﷺ، فيهم قرابة، وقد والوه، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه، وقيل: أميًا مثلهم وإنما كان أميًا لأن نعته في كتب الأنبياء: «النبي الأمي»، وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتى به من الوحي والحكمة، ولكون حاله مشاكلة لحال أمته الذين بعث فيهم، وذلك أقرب إلى صدقه، والاقتصار هنا في المبعوث إليهم على الأميين لا ينافي أنه مرسل إلى غيرهم لأن ذلك مستفاد من دليل آخر كقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]. [صديق حسن (١٤/ ١٣٠)].

(٢) أي: علم القرآن وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقًا، وأحسنهم هديًا وسمتًا، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين، فلله عليهم ببعثه هذا الرسول ﷺ، أكمل نعمة، وأجل منحة. [السعدي (ص:٨٦٢)].

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ -أَوْ: رَجُلٌ- مِنْ هَؤُلَاءِ». أخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦). ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾ بفارس؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله عز وجل، وإلى اتباع ما جاء به؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ قال: هم

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ فِي مُلْكِهِ وَصُنْعِهِ، وَهُمُ التَّابِعُونَ وَالِاقْتِصَارُ عَلَيْهِمْ كَافٍ فِي بَيَانِ فَضْلِ الصَّحَابَةِ الْمَبْعُوثِ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِمَّنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ وَآمَنُوا بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ قَرْنٍ خَيْرٌ مِمَّنْ يَلِيهِ(١). ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ النَّبِيَّ وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ(٢) ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ كُلِّفُوا الْعَمَلَ بِهَا ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنْ نَعْتِهِ ﷺ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ أَيْ: كُتُبًا فِي عَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِهَا(٣) ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ الْمُصَدِّقَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: هَذَا الْمَثَلُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا

الأعاجم، وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب. [ابن كثير (٨/ ١١٦)].

(١) قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ». أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) الإشارة إلى جميع المذكور من إرسال محمد ﷺ بالآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة والإنقاذ من الضلال ومن إفاضة هذه الكمالات على الأميين الذين لم تكن لهم سابقة علم ولا كتاب، ومن لحاق أمم آخرين في هذا الخبر فزال اختصاص اليهود بالكتاب والشريعة، وهذا أجدع لأنفهم إذا حالوا أن يجيء رسول أمي بشريعة إلى أمة أمية فضلا عن أن نلتحق بأمية أمم عظيمة كانوا أمكن في المعارف والسلطان. وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٧٣] يختص به. وهذا تمهيد ومقدمة لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾. [ابن عاشور (٢٨/ ٢١٣)].

(٣) كما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي في تلك الكتب المحمولة على ظهره، فكذلك اليهود لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة؛ لأنهم كلفوا باتباع محمد ﷺ وإظهار صفاته للناس فخانوا، وحرفوا وبدلوا فلم ينفعهم ما في كتابهم من العلوم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] فقد جحدوا رسالة محمد ﷺ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلم ينفعهم علمهم به. والذي ينبغي التنبيه عليه هو أن أكثر المفسرين يجعله من قبيل التشبيه المفرد، وأن وجه الشبه فيه مفرد وهو عدم الانتفاع بالمحمول، كالبيت الذي فيه:

كَالْعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

والذي يظهر والله تعالى أعلم أنه من قبيل التشبيه التمثيلي؛ لأن وجه الشبه مركب من مجموع كون المحمول كتبا نافعة، والحامل حمارا لا علاقة له بها بخلاف ما في البيت، لأن العيس يمكن أن تنتفع بالماء لو حصلت عليه، والحمار لا ينتفع بالأسفار ولو نشرت بين عينيه، وفيه إشارة إلى أن من موجبات نقل النبوة عن بني إسرائيل كلية أنهم وصلوا إلى حد الإلباس من انتفاعهم بأمانة التبليغ والعمل، فنقلها الله إلى قوم أحق بها وبالقيام بها. [عطية سالم (٨/ ١١٧)].

﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ تَعَلَّقَ بِـ «تَمَنَّوُا» الشَّرْطَانِ عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ قَيْدٌ فِي الثَّانِي، أَيْ: إِنْ صَدَقْتُمْ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ، وَالْوَلِيُّ يُؤْثِرُ الْآخِرَةَ وَمَبْدَؤُهَا الْمَوْتُ، فَتَمَنَّوْهُ. ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ مِنْ كُفْرِهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمُسْتَلْزِمِ لِكَذِبِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ﴾ الْفَاءُ زَائِدَةٌ[1] ﴿مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن﴾ بِمَعْنَى: فِي ﴿يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ﴾ فَامْضُوا ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: الصَّلَاةِ ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ اُتْرُكُوا عَقْدَهُ ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ فَافْعَلُوهُ. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أَمْرُ إِبَاحَةٍ ﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾ اُطْلُبُوا الرِّزْقَ ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ ذِكْرًا ﴿كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾ تَفُوزُونَ. كَانَ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَدِمَتْ عِيرٌ وَضُرِبَ لِقُدُومِهَا الطَّبْلُ عَلَى الْعَادَةِ، فَخَرَجَ لَهَا النَّاسُ مِنَ الْمَسْجِدِ غَيْرَ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَنَزَلَ[2]: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ أَيْ: التِّجَارَةِ لِأَنَّهَا مَطْلُوبُهُمْ دُونَ اللَّهْوِ ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ فِي الْخُطْبَةِ ﴿قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿خَيۡرٞ﴾ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ يُقَالُ: كُلُّ إِنْسَانٍ يَرْزُقُ عَائِلَتَهُ، أَيْ: مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعَالَى[3].

---

(١) الفرار من الشيء في مجرى العادة سبب الفوت عليه فجيء بالفاء لإفادة أن الفرار سبب الملاقاة مبالغة في عدم الفوت وتعكيسا للحال. [الآلوسي (١٤/ ٢٩١)]. أي: إن فررتم من الموت بعدم تمنيه فلن يجعلكم تنجون منه وهو ملاقيكم لا محالة، وملاقيكم بمعنى مدرككم، كما في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٨]. [عطية سالم (٨/ ١٢٠)].

(٢) عن جابر رضي الله عنه قال: قدمت عير المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلا فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾. أخرجه البخاري (٤٨٩٩)، ومسلم (٨٦٣). وقال جابر بن عبد الله: كانت الجواري إذا نكحن يمررن بالمزامير والطبل فانفضوا إليها، فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ فقد قيل إن ذلك تكرر منهم ثلاث مرات، فلا شك أن خروجهم كان تارة لأجل مجيء العير وتارة لحضور اللهو ... وضمير ﴿إِلَيۡهَا﴾ عائد إلى التجارة لأنها أهم عندهم من اللهو ولأن الحدث الذي نزلت الآية عنده ... ولعل التقسيم الذي أفادته ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ لَهۡوًا﴾ تقسيم لأحوال المنفضين إذ يكون بعضهم من ذوي العائلات خرجوا ليمتاروا لأهلهم، وبعضهم من الشباب لا همة لهم في الميرة ولكن أحبوا حضور اللهو. [ابن عاشور (٢٨/ ٢٢٨)].

(٣) فمنه اطلبوا الرزق، وإليه توسلوا بعمل الطاعة فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق، وأعظم ما يجلبه. وتعددهم إنما هو على سبيل المجاز، من حيث إنه يقال: كل إنسان يرزق عائلته، أي: من رزق الله تعالى، وإلا فالرازق بالحقيقة هو الله وحده. [صديق حسن (١٤/ ١٤٢)].

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

مَدَنِيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ، عَلَى خِلَافِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ[1] ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ يَعْلَمُ ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ فِيمَا أَضْمَرُوهُ مُخَالِفًا لِمَا قَالُوهُ. ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ سُتْرَةً عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ ﴿فَصَدُّواْ﴾ بِهَا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أَيْ: عَنِ الْجِهَادِ فِيهِمْ ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: سُوءُ عَمَلِهِمْ ﴿بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ﴾ بِاللِّسَانِ ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بِالْقَلْبِ[2]، أَيِ: اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ ﴿فَطُبِعَ﴾ خُتِمَ[3] ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ بِالْكُفْرِ ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾ الْإِيمَانَ. ﴿۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ لِجَمَالِهَا ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ لِفَصَاحَتِهِ ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ مِنْ عِظَمِ أَجْسَامِهِمْ فِي تَرْكِ التَّفَهُّمِ ﴿خُشُبٞ﴾ بِسُكُونِ الشِّينِ وَضَمِّهَا ﴿مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ مُمَالَةٌ إِلَى الْجِدَارِ[4] ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ﴾ تُصَاحُ كَنِدَاءٍ فِي الْعَسْكَرِ وَإِنْشَادِ ضَالَّةٍ ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرُّعْبِ أَنْ يَنْزِلَ فِيهِمْ مَا يُبِيحُ دِمَاءَهُمْ ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ فَإِنَّهُمْ يُفْشُونَ سِرَّكَ لِلْكُفَّارِ ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أَهْلَكَهُمْ ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾ كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ﴾ مُعْتَذِرِينَ ﴿يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، عَطَفُوا ﴿رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ﴾ يُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ ﴿وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٥ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ﴾ اُسْتُغْنِيَ بِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ

---

(١) لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة. [السعدي (ص:٨٦٤)].

(٢) ﴿ءَامَنُواْ﴾ باللسان في الظاهر نفاقاً ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بالقلب في الباطن، فثم للترتيب الإخباري لا الإيجادي، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين وأظهروا الكفر للكافرين، وهذا صريح في كفر المنافقين. [صديق حسن (١٤/ ١٤٦)].

(٣) أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي. [ابن كثير (٨/ ١٢٦)].

(٤) قال الزمخشري: إنما شبههم بالخشب المسندة إلى حائط، لأن الخشب إذا كانت كذلك لم يكن فيها منفعة، بخلاف الخشب التي في سقف أو مغروسة في جدار؛ فإن فيها حينئذ منفعة. فالتشبيه على هذا في عدم المنفعة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٧٧)].

﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لِأَصْحَابِهِمْ مِنَ الْأَنْصَارِ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بِالرِّزْقِ، فَهُوَ الرَّازِقُ لِلْمُهَاجِرِينَ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ أَيْ: مِنْ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ عَنَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ﴾ عَنَوْا بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ الْغَلَبَةُ ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ ذَلِكَ[1]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ﴾ تَشْغَلْكُمْ ﴿أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ﴾ فِي الزَّكَاةِ ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ﴾ بِمَعْنَى «هَلَّا» أَوْ «لَا» زَائِدَةٌ وَ«لَوْ» لِلتَّمَنِّي ﴿أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ أَتَصَدَّقَ بِالزَّكَاةِ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾ بِأَنْ أَحُجَّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مَا قَصَّرَ أَحَدٌ فِي الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ إِلَّا سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ[2]. ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ[3].

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ؟» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»، فسمع ذلك عبد الله بن أبي فقال: أوقد فعلوها؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ». أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤). زاد الترمذي (٣٣١٥): فقال له ابنه عبدالله بن عبد الله: والله لا تنقلب حتى تقرَّ أنك الذليل ورسول الله العزيز ففعل.

(٢) ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه. [السعدي (ص:٨٦٥)].

(٣) وكذلك لا يقدمها عليه؛ كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]. وبين تعالى عدم تأخرهم مع أنهم وعدوا بأنهم يصدقون ويكونون من الصالحين، مشيرا للسبب في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لأن شيمتهم الكذب وخلف الوعد، وأن هذا دأب أمثالهم كما بينه تعالى في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. أي: لو أخرهم لن يصدقوا، ولن يكونوا من الصالحين، والله تعالى محيط علمه بما سيكون، كإحاطته بما قد كان. [عطية سالم (٨/ ١٩٣)].

سُورَةُ التَّغَابُنِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: يُنَزِّهُهُ فَاللَّامُ زَائِدَةٌ وَأَتَى بِـ﴿مَا﴾ دُونَ «مَنْ» تَغْلِيبًا لِلْأَكْثَرِ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ فِي أَصْلِ الْخِلْقَةِ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ وَيُعِيدُكُمْ عَلَى ذَلِكَ[1] ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

---

(١) المعنى: أن الله هو الذي خلقكم وقدر على قوم منكم الكفر، وعلى قوم منكم الإيمان، ثم بعد ذلك يهدي كلا لما قدره عليه كما قال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، فيسر الكافر إلى العمل بالكفر، ويسر المؤمن للعمل بالإيمان، كما قال ﷺ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ». أخرجه مسلم (٢٦٤٨). ومن المعلوم أن هذا النص من مأزق القدرية والجبرية، وأن أهل السنة يؤمنون أن كلا بقدر الله ومشيئته، كما قال ابن تيمية في العقيدة الواسطية: وهم أهل السنة وسط بين قول: إن العبد مجبور على عمله لا اختيار له كالورقة في مهب الريح. وبين قول: إن العبد يخلق فعله بنفسه، ويفعل ما يريد بمشيئته. وأهل السنة يقولون بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وقد ذكر القرطبي أقوال الطائفتين من أهل العلم، ولكل طائفة ما استدلت به، الأولى: عن ابن مسعود ﵁ أن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ كَافِرًا وَخَلَقَ يَحْيى بْنَ زَكَرِيَّا فِي بَطْنِ أُمِّهِ مُؤْمِنًا». أخرجه الطبراني (١٠٥٤٣). وبما في الصحيح من قوله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣). وقال: قال علماؤنا: تعلق العلم الأزلي بكل معلوم، فيجري ما علم وأراد وحكم. الثانية: ما جاء في قوله: وقال جماعة من أهل العلم: إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا، قالوا: وتمام الكلام: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، ثم وصفهم فقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾. وكقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥]، قالوا: فالله خلقهم والمشي فعلهم. واختاره الحسين بن الفضل، قال: لأنه لو خلقهم كافرين ومؤمنين لما وصفهم بفعلهم، واحتجوا بقوله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» الحديث. أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨). وبالنظر في هاتين المقالتين نجد الآتي: أولا: التشبيه في المقالة الثانية لا يسلم؛ لأن وصف الدواب في حالة المشي ليس وصفا فعليا، وإنما هو من ضمن خلقه تعالى لها ولم يكن منها فعل في ذلك. ثانيا: ما استدلت به كل طائفة من الحديثين لا تعارض بينهما؛ لأن الحديث الأول: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ» لبيان المصير والمنتهى، وفق العلم الأزلي والإرادة القدرية. والحديث الثاني لبيان مبدأ وجود الإنسان في الدنيا وأنه يولد على الفطرة حينما يولد، أما مصيره فبحسب ما قدر الله عليه. وقد نقل القرطبي كلاما للزجاج وقال عنه: هو أحسن الأقوال ونصه: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، مع أن الله خالق

صُوَرَكُمْۖ﴾ إِذْ جعَلَ شَكْلَ ٱلْآدَمِيِّ أَحسَنَ ٱلْأَشْكَالِ ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ بِمَا فِيهَا مِنَ ٱلْأَسْرَارِ وَٱلْمُعْتَقَدَاتِ(١). ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿نَبَؤُا۟﴾ خَبَرُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عُقُوبَةَ ٱلْكُفْرِ فِي ٱلدُّنْيَا ﴿وَلَهُمْ﴾ فِي ٱلْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾ مُؤْلِمٌ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: عَذَابُ ٱلدُّنْيَا ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ ضَمِيرُ ٱلشَّأْنِ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بِٱلْحُجَجِ ٱلظَّاهِرَاتِ عَلَى ٱلْإِيمَانِ ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ﴾ أُرِيدَ بِهِ ٱلْجِنْسُ ﴿يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ۚ﴾ عَنِ ٱلْإِيمَانِ ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ﴾ عَنْ إِيمَانِهِمْ ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿حَمِيدٌ ۝٦﴾ مَحْمُودٌ فِي أَفْعَالِهِ. ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَٱسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: أَنَّهُمْ ﴿لَّن يُبْعَثُوا۟ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ﴾ ٱلْقُرْآنِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾. ٱذْكُرْ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ﴾ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ يَغْبِنُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ بِأَخْذِ مَنَازِلِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ فِي ٱلْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا(٢) ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ فِي ٱلْفِعْلَيْنِ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

الكفر، وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد أن خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه، لأن وجود خلاف المقدر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبي: وهذا أحسن الأقوال، وهو الذي عليه جمهور الأمة. ولعل مما يشهد لقول الزجاج قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. هذا حاصل ما قاله علماء التفسير، وهذا الموقف كما قدمنا من مأزق القدر والجبر، وقد زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام، وبتأمل النص وما يكتنفه من نصوص في السياق مما قبله وبعده، نجد الجواب الصحيح والتوجيه السليم، وذلك ابتداء من قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. فكون الملك له لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، وكونه على كل شيء قدير يفعل في ملكه ما يريد. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. [عطية سالم (٨/ ١٩٥)].

(١) كررت «ما» في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا تُعْلِنُونَۚ﴾ تأكيداً وتعميماً، وللاختلاف لأن تسبيح ما في السماوات مخالف لتسبيح ما في الأرض كثرة وقلة، وأسرارنا مخالفة لعلانيتنا، ولم تكرر في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لعدم اختلاف علمه تعالى، إذ علمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها وعلمه بما كان كعلمه بما يكون. [صديق حسن (١٤/ ١٦٣)].

(٢) التغابن مستعار من تغابن الناس في التجارة، وذلك إذا فاز السعداء بالجنة، فكأنهم غبنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون منها لو كانوا سعداء، فالتغابن على هذا بمعنى الغبن، وليس على المتعارف في صيغة تفاعل من كونه بين اثنين، كقولك تضارب وتقاتل إنما هي فعل واحد كقولك: تواضع، قال ابن عطية والزمخشري: يعني نزول السعداء منازل الأشقياء ونزول الأشقياء منازل السعداء، والتغابن على هذا بين اثنين، قال: وفيه تهكم بالأشقياء، لأن نزولهم في جهنم ليس في الحقيقة بغبن للسعداء. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٨١)].

ﭐلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ هِيَ. ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ بِقَضَائِهِ(١) ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فِي
قَوْلِهِ: «إِنَّ اَلْمُصِيبَةَ بِقَضَائِهِ» ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ لِلصَّبْرِ عَلَيْهَا(٢) ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ
ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ اَلْبَيِّنُ. ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أَنْ تُطِيعُوهُمْ فِي اَلتَّخَلُّفِ عَنِ اَلْخَيْرِ،
كَالْجِهَادِ وَالْهِجْرَةِ، فَإِنَّ سَبَبَ نُزُولِ اَلْآيَةِ اَلْإِطَاعَةُ فِي ذَلِكَ(٣) ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عَنْهُمْ فِي تَثْبِيطِهِمْ إِيَّاكُمْ عَنْ ذَلِكَ اَلْخَيْرِ
مُعْتَلِّينَ بِمَشَقَّةِ فِرَاقِكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾

---

(١) هذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد، فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله تعالى، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠] وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. [السعدي (ص:٨٦٧)].

(٢) في الحديث: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ». أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ... وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. [ابن كثير (٨/ ١٣٧)].

(٣) يقول تعالى مخبرا عن الأزواج والأولاد: إن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهى به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم ... عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله هذه الآية. [ابن كثير (٨/ ١٣٩)].

لَكُمْ شَاغِلَةٌ عَنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ فَلَا تَفُوتُوهُ بِاشْتِغَالِكُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ[1]. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ نَاسِخَةٌ[2] لِقَوْلِهِ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ اللهَ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ فِي الطَّاعَةِ ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ خَبَرُ «يَكُنْ» مُقَدَّرَةٌ، جَوَابُ الْأَمْرِ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ الْفَائِزُونَ. ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بِأَنْ تَتَصَدَّقُوا عَنْ طِيبِ قَلْبٍ[3] ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعِّفْهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ بِالْوَاحِدَةِ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ وَأَكْثَرَ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ مَا يَشَاءُ ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ مُجَازٍ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ فِي الْعِقَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ السِّرِّ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الْعَلَانِيَةِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ فِي صُنْعِهِ.

---

(١) أي: بلاء واختبار وشغل عن الآخرة ومحنة، يحملونكم على كسب الحرام وتناوله، ومنع حق الله، والوقوع في العظائم، وغصب مال الغير، وأكل الباطل ونحو ذلك، فلا تطيعوهم في معصية الله، ولم يذكر من هنا كما ذكر في: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما، وقدم الأموال على الأولاد لأن فتنة المال أكثر، وترك ذكر الأزواج في الفتنة قال البقاعي: لأن منهن من تكون صلاحًا وعونًا على الآخرة. عن أبي بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: «صَدَقَ اللهُ ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا». أخرجه أبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، والنسائي (١٤١٣)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وأحمد (٢٢٩٩٥). [صديق حسن (١٤/ ١٧٢)].

(٢) أي: ما أطقتم وبلغ إليه جهدكم، وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، لأن معناه أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، فخفف الله عنهم وأنزل هذه الآية، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هي محكمة ولا نسخ فيها، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فيه حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. [صديق حسن (١٤/ ١٧٢)]. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ». أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٣) سمى الله معاملته مع عبيده قرضا وبيعا وشراء وتجارة. ومعنى ذلك كله أن العبد يعمل لوجه الله والله جل وعلا يعطيه ثواب ذلك العمل، قال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. وقوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: ١١١]. وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١٠-١١]، مع قوله تعالى: ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]. والقرض الحسن هو ما يكون من الكسب الطيب خالصا لوجه الله. [عطية سالم (٨/ ٢٠٦)].

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ اَلْمُرَادُ أُمَّتُهُ بِقَرِينَةِ مَا بَعْدَهُ، أَوْ قُلْ لَهُمْ(١): ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أَيْ: أَرَدْتُمُ الطَّلَاقَ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لِأَوَّلِهَا، بِأَنْ يَكُونَ الطَّلَاقُ فِي طُهْرٍ لَمْ تُمَسَّ فِيهِ لِتَفْسِيرِهِ ﷺ بِذَلِكَ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢) ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ اِحْفَظُوهَا، لِتُرَاجِعُوا قَبْلَ فَرَاغِهَا ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾ أَطِيعُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ مِنْهَا حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ زِنًا ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا، أَيْ: بُيِّنَتْ أَوْ بَيِّنَةٌ فَيَخْرُجْنَ لِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِنَّ(٣) ﴿وَتِلۡكَ﴾ اَلْمَذْكُورَاتُ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا

---

(١) خطاب لرسول الله ﷺ بلفظ الجمع تعظيماً له، أو خطاب له ولأمته، والتقدير: يا أيها النبي وأمته، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه، أو خطاب لأمته فقط بعد ندائه ﷺ، وهو من تلوين الخطاب خاطب به أمته بعد أن خاطبه، أو أنه على إضمار قول، أي: يا أيها النبي قل لأمتك، أو خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب، لأن النبي إمام أمته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت اعتباراً لتقدمه وإظهاراً لترأسه بكلام حسن قاله الزمخشري، قال السمين: وهذا هو معنى القول الثالث الذي تقدم. وقال المحلي: المراد أمته بقرينة ما بعده، قال الحفناوي: فكأنه قيل: يا أيها الأمة إذا طلقتم إلخ. وهذا الأسلوب سلكه الكازروني، وفي نسخة من تفسير المحلي المراد وأمته بزيادة الواو، يعني أن في الكلام اكتفاء على حد قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] [أي: والبرد] فعلى هذا لفظ النبي لا تجوز فيه، بل هو منادى مع أمته، وهذا الوجه قرره السمين كما تقدم، والمعنى إذا أردتم تطليقهن وعزمتم عليه على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه، وإنما احتيج لهذا التجوز ليصح قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لأن الشيء لا يترتب على نفسه، ولا يؤمر أحد بتحصيل الحاصل، والمراد بالنساء، المدخول بهن ذوات الأقراء، أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن بالكلية، وأما ذوات الأشهر فسيأتين في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ الخ. [صديق حسن (١٤/ ١٧٧)].

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٨)، ومسلم (١٤٧١).

(٣) اختلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدة ما هي؟ على خمسة أقوال: الأول: أنها الزنا فتخرج لإقامة الحد، قاله الليث بن سعد والشعبي. الثاني: أنه سوء الكلام مع الأصهار فتخرج ويسقط حقها من السكنى، ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب، قاله ابن عباس ويؤيده قراءة أبي بن كعب: «إلا أن يفحشن عليكم». الثالث: أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقة وغير ذلك، فمتى فعلت شيئاً من ذلك سقط حقها في السكنى، قاله ابن عباس أيضاً وإليه مال الطبري. الرابع: أنه الخروج عن بيتها خروج انتقال فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى قاله ابن الفرس، وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة. الخامس: أنه النشوز قبل الطلاق، فإذا

تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الطَّلَاقِ ﴿أَمْرًا ۝١﴾ مُرَاجَعَةً فِيمَا إِذَا كَانَ وَاحِدَةً أَوِ اثْنَتَيْنِ. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قَارَبْنَ انْقِضَاءَ عِدَّتِهِنَّ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بِأَنْ تُرَاجِعُوهُنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مِنْ غَيْرِ ضِرَارٍ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ اُتْرُكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ بِالْمُرَاجَعَةِ ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عَلَى الْمُرَاجَعَةِ أَوِ الْفِرَاقِ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ لَا لِلْمَشْهُودِ عَلَيْهِ أَوْ لَهُ ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ[1]. ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ يَخْطِرُ بِبَالِهِ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فِي أُمُورِهِ ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ كَافِيهِ[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ مُرَادِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ﴾ كَرَخَاءٍ وَشِدَّةٍ ﴿قَدْرًا ۝٣﴾ مِيقَاتًا[3]. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى﴾ بِهَمْزَةٍ وَيَاءٍ، وَبِلَا يَاءٍ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ بِمَعْنَى الْحَيْضِ ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شَكَكْتُمْ فِي عِدَّتِهِنَّ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ﴾ لِصِغَرِهِنَّ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَالْمَسْأَلَتَانِ فِي غَيْرِ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ، أَمَّا هُنَّ فَعِدَّتُهُنَّ مَا فِي آيَةِ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤] ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ انْقِضَاءُ عِدَّتِهِنَّ مُطَلَّقَاتٍ أَوْ مُتَوَفًّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ فِي الْعِدَّةِ ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ حُكْمُهُ ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥ أَسْكِنُوهُنَّ﴾

طلقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكنى، قاله قتادة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٨٤)].

(١) أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله. عن أبي ذر ﵁ قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو علي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣] حتى فرغ من الآية، ثم قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا كَفَتْهُمْ». وقال: فجعل يتلوها ويرددها علي حتى نعست. أخرجه أحمد (٢١٥٩١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٠٣)، وابن ماجه (٤٢٢٠). وعن شتير بن شكل قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وإن أكثر آية في القرآن فرجا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ». أخرجه أبو داود (١٥١٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٢٩٠)، وابن ماجه (٣٨١٩). [ابن كثير (٨/ ١٤٦)].

(٢) أي: من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه. وقيل: أي من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه، فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية. ولم يرد الدنيا، لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل. [القرطبي (١٨/ ١٦١)].

(٣) المراد تقديره قبل وجوده، أو مقدارا من الزمان، وهذا بيان لوجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الأمر إليه عز وجل لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى لا يبقى إلا التسليم للقدر. [الآلوسي (١٤/ ٣٣٢)].

أَي: اَلْمُطَلَّقَاتِ ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أَيْ: بَعْضَ مَسَاكِنِكُمْ[١] ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أَيْ: سَعَتِكُمْ، عَطْفُ بَيَانٍ أَوْ بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ بِإِعَادَةِ اَلْجَارِّ وَتَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيْ: أَمْكِنَةِ سَعَتِكُمْ لَا مَا دُونَهَا ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ اَلْمَسَاكِنَ فَيَحْتَجْنَ إِلَى اَلْخُرُوجِ أَوِ اَلنَّفَقَةِ فَيَفْتَدِينَ مِنكُمْ ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أَوْلَادَكُمْ مِنْهُنَّ ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ عَلَى اَلْإِرْضَاعِ ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم﴾ وَبَيْنَهُنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بِجَمِيلٍ فِي حَقِّ اَلْأَوْلَادِ، بِالتَّوَافُقِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ عَلَى اَلْإِرْضَاعِ ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ تَضَايَقْتُمْ فِي اَلْإِرْضَاعِ فَامْتَنَعَ اَلْأَبُ مِنَ اَلْأُجْرَةِ وَالْأُمُّ مِنْ فِعْلِهِ ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ﴾ لِلْأَبِ ﴿أُخْرَىٰ ۝٦﴾ وَلَا تُكْرَهُ اَلْأُمُّ عَلَى إِرْضَاعِهِ. ﴿لِيُنفِقْ﴾ عَلَى اَلْمُطَلَّقَاتِ وَالْمُرْضِعَاتِ ﴿ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ﴾ ضُيِّقَ ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ﴾ أَعْطَاهُ ﴿ٱللَّهُ﴾ عَلَى قَدْرِهِ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ وَقَدْ جَعَلَهُ بِالْفُتُوحِ[٢].

﴿وَكَأَيِّن﴾ هِيَ كَافُ اَلْجَرِّ دَخَلَتْ عَلَى «أَيٍّ» بِمَعْنَى: «كَمْ» ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ أَيْ: وَكَثِيرٌ مِنَ اَلْقُرَى ﴿عَتَتْ﴾ عَصَتْ، يَعْنِي: أَهْلُهَا ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ فِي اَلْآخِرَةِ، وَإِنْ لَمْ تَجِئْ لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهَا ﴿حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾ بِسُكُونِ اَلْكَافِ وَضَمِّهَا فَظِيعًا وَهُوَ عَذَابُ اَلنَّارِ. ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عُقُوبَتَهُ ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ خَسَارًا وَهَلَاكًا. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تَكْرِيرُ لِلْوَعِيدِ تَوْكِيدًا ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أَصْحَابَ اَلْعُقُولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نَعْتٌ لِلْمُنَادَى أَوْ بَيَانٌ لَهُ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠﴾ هُوَ اَلْقُرْآنُ. ﴿رَّسُولًا﴾ أَيْ: مُحَمَّدًا ﷺ مَنْصُوبٌ بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ، أَيْ: وَأَرْسَلَ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ بِفَتْحِ اَلْيَاءِ وَكَسْرِهَا كَمَا تَقَدَّمَ ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بَعْدَ مَجِيءِ اَلذِّكْرِ وَالرَّسُولِ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ اَلْكُفْرِ اَلَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ اَلْإِيمَانِ اَلَّذِي قَامَ بِهِمْ بَعْدَ اَلْكُفْرِ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِالنُّونِ ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١﴾ هُوَ رِزْقُ اَلْجَنَّةِ اَلَّتِي لَا يَنْقَطِعُ نَعِيمُهَا. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يَعْنِي سَبْعَ أَرَضِينَ[٣] ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ﴾

---

(١) قُدر الإسكان بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره. [السعدي (ص:٨٧١)].

(٢) وعد منه تعالى ووعده حق لا يخلفه، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح:٥-٦]. [ابن كثير (٨/ ١٥٤)].

(٣) جاء في بيان السماوات أنها سبع طباق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك:٣]. وبين الحديث في الإسراء أن ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وجاء لفظ السماء مفردا وجمعا، فالمفرد كما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]. وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]. أما الأرض فلم يأت لفظها إلا مفردا، ولم يأت تفصيلها

اَلْوَحْيُ ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ بَيْنَ اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَنْزِلُ بِهِ جِبْرِيلُ مِنَ اَلسَّمَاءِ اَلسَّابِعَةِ إِلَى اَلْأَرْضِ اَلسَّابِعَةِ(١) ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَيْ: أَعْلَمَكُمْ بِذَلِكَ اَلْخَلْقِ وَالتَّنْزِيلِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢﴾(٢).

كتفصيل السماء سبعا طباقا، فاختلف في المثلية فجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها مثلية تامة عددا وطباقا وخلقا، وقيل: عددا وأقاليم يفصلها البحار، وقيل: عددا طباقا متراكمة كطبقات البصلة مثلا، وقد جاء في السنة أن الأرض سبع أرضين كما في حديث: «مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ». أخرجه البخاري (٢٤٥٢). وفي حديث موسى لما قال: « قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصَّنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٦٧٠). فهذه أحاديث صحيحة أثبتت أن الأرضين سبع، ولم يأت تفصيل للكيفية ولا للهيئة فثبت عندنا العدد ولم يثبت غيره، فنثبته ونكل غيره لعلم الله تعالى ... والمهم من السياق والغرض الأساسي، تنبيه الخلق على عظم قدرة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. [عطية سالم (٨/٢١٧)].

(١) الضمير عائد على السماوات والأرضين عند الجمهور، أو على السماوات والأرض عند من يقول إنها أرض واحدة قاله السمين، قال المحلي في تفسيره: ينزل به جبريل من السماء السابعة إلى الأرض السابعة انتهى، قال علي القاري: لم نجد هذا القول لغيره من المفسرين إذ غاية من فسر الأمر بالوحي قال في تفسير قوله: ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾ أي: بين هذه الأرض العليا التي هي أولاها، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها انتهى، قال سليمان الجمل: وهذا التوقف من القاري مبني على أن المراد بالوحي وحي التكليف بالأحكام، وليس بلازم لإمكان حمله على وحي التصرف في الكائنات، وعبارة الخطيب والأكثرون على أن الأمر هو القضاء والقدر فعلى هذا يكون المراد بقوله: ﴿بَيۡنَهُنَّ﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها، فيجري أمر الله وقضاؤه بينهن، وينفذ حكمه فيهن. [صديق حسن (١٤/١٩٩)].

(٢) كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون. [السعدي (ص:٨٧٢)].

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

مَدَنِيَّةٌ، اِثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ مِنْ أَمَتِكَ مَارِيَةَ الْقِبْطِيَّةِ، لَمَّا وَاقَعَهَا فِي بَيْتِ حَفْصَةَ وَكَانَتْ غَائِبَةً فَجَاءَتْ وَشَقَّ عَلَيْهَا كَوْنُ ذَلِكَ فِي بَيْتِهَا وَعَلَى فِرَاشِهَا، حَيْثُ قُلْتَ: هِيَ حَرَامٌ عَلَيَّ[1] ﴿تَبْتَغِى﴾ بِتَحْرِيمِهَا ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ أَيْ: رِضَاهُنَّ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ①﴾ غَفَرَ لَكَ هَذَا التَّحْرِيمَ. ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ شَرَعَ ﴿لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ تَحْلِيلَهَا بِالْكَفَّارَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ «الْمَائِدَةِ»[2]، وَمِنَ الْأَيْمَانِ تَحْرِيمُ الْأَمَةِ، وَهَلْ كَفَّرَ ﷺ؟ قَالَ مُقَاتِلٌ: أَعْتَقَ رَقَبَةً فِي تَحْرِيمِ مَارِيَةَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يُكَفِّرْ لِأَنَّهُ ﷺ مَغْفُورٌ لَهُ ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ نَاصِرُكُمْ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ②﴾ ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ هِيَ حَفْصَةُ ﴿حَدِيثًا﴾ هُوَ تَحْرِيمُ مَارِيَةَ، وَقَالَ لَهَا: لَا تُفْشِيهِ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ عَائِشَةَ ظَنًّا مِنْهَا أَنْ لَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أَطْلَعَهُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عَلَى الْمُنَبَّأِ بِهِ ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ لِحَفْصَةَ ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ تَكَرُّمًا مِنْهُ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ③﴾ أَيْ: اللهُ. ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ أَيْ: حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ ﴿إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ مَالَتْ إِلَى تَحْرِيمِ مَارِيَةَ، أَيْ: سَرَّكُمَا ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ وَذَلِكَ ذَنْبٌ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: تُقْبَلَا، وَأَطْلَقَ «قُلُوبَ» عَلَى

---

(١) في سبب نزولها روايتان هذه والرواية الأخرى: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يشرب عسلا عند زينب ابنة جحش، ويمكث عندها، فواطيت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير، قال ﷺ: «لَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ ابْنَةِ جَحْشٍ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ، لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا». أخرجه البخاري (٤٩١٢). والرواية الأولى أشهر، وعليها تكلم الناس في فقه السورة، وقد خرج الرواية الثانية البخاري وغيره... وإنما وقع العتاب على تضييقه عليه السلام على نفسه، وامتناعه مما كن له فيه أرب. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٨٩)]. والاستفهام في قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ مستعمل في معنى النفي، أي: لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك، ذلك أنه لما التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاما بيمين أو بدون يمين أراد الامتناع منه في المستقبل قاصدا بذلك تطمين أزواجه اللائي تمالأن عليه لفرط غيرتهن، أي: ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهم ... وليس معنى التحريم هنا نسبة الفعل إلى كونه حراما كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ... ولا يخطر ببال أحد أن يتوهم منه أنك غيرت إباحته حراما على الناس أو عليك. [ابن عاشور (٢٨/ ٣٤٦)].

(٢) سورة المائدة الآية (٨٩).

قَلْبَيْنِ وَلَمْ يُعبَّرْ بِهِ لِاسْتِثْقَالِ الْجَمْعِ بَيْنَ تَثْنِيَتَيْنِ فِيمَا هُوَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ ﴿وَإِن تَظَّهَرَا﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِي الظَّاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِدُونِهَا: تَتَعَاوَنَا ﴿عَلَيْهِ﴾ أَيِ: النَّبِيِّ فِيمَا يَكْرَهُهُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ فَصْلٌ[1] ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ نَاصِرُهُ ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مَعْطُوفٌ عَلَى مَحَلِّ اسْمِ «إِنَّ» فَيَكُونُونَ نَاصِرِيهِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بَعْدَ نَصْرِ اللهِ وَالْمَذْكُورِينَ ﴿ظَهِيرٌ ۝٤﴾ ظُهَرَاءُ أَعْوَانٌ لَهُ فِي نَصْرِهِ عَلَيْكُمَا. ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ أَيْ: طَلَّقَ النَّبِيُّ أَزْوَاجَهُ ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ خَبَرُ ﴿عَسَىٰ﴾ وَالْجُمْلَةُ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَلَمْ يَقَعِ التَّبْدِيلُ لِعَدَمِ وُقُوعِ الشَّرْطِ[2] ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ مُقِرَّاتٍ بِالْإِسْلَامِ ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مُخْلِصَاتٍ ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مُطِيعَاتٍ ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صَائِمَاتٍ أَوْ مُهَاجِرَاتٍ ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ بِالْحَمْلِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ الْكُفَّارُ ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ كَأَصْنَامِهِمْ مِنْهَا، يَعْنِي: أَنَّهَا مُفْرِطَةُ الْحَرَارَةِ تَتَّقِدُ بِمَا ذُكِرَ، لَا كَنَارِ الدُّنْيَا تَتَّقِدُ بِالْحَطَبِ وَنَحْوِهِ ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ خَزَنَتُهَا عِدَّتُهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ كَمَا سَيَأْتِي فِي «الْمُدَّثِّرِ»[3] ﴿غِلَاظٌ﴾ مِنْ غِلَظِ الْقَلْبِ ﴿شِدَادٌ﴾ فِي الْبَطْشِ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْجَلَالَةِ، أَيْ: لَا يَعْصُونَ أَمْرَ اللهِ ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ تَأْكِيدٌ، وَالْآيَةُ تَخْوِيفٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنِ الِارْتِدَادِ، وَلِلْمُنَافِقِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْسِنَتِهِمْ دُونَ قُلُوبِهِمْ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ، أَيْ: لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾ أَيْ: جَزَاءَهُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ بِفَتْحِ النُّونِ وَضَمِّهَا صَادِقَةً، بِأَنْ لَا يُعَادَ إِلَى الذَّنْبِ وَلَا يُرَادَ الْعَوْدُ إِلَيْهِ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ تَرْجِيَةٌ تَقَعُ ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ﴾ بِإِدْخَالِ النَّارِ ﴿ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَمَامَهُمْ[4] ﴿وَ﴾ يَكُونُ ﴿بِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ﴾ مُسْتَأْنَفٌ: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْمُنَافِقُونَ يُطْفَأُ نُورُهُمْ ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ رَبَّنَا ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بِالسَّيْفِ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بِاللِّسَانِ وَالْحُجَّةِ ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بِالِانْتِهَارِ وَالْمَقْتِ

---

(١) أي: ضمير فصل.

(٢) الله تعالى كان عالمًا أنه لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدل خيرًا منهن تخويفًا لهن، وهذا كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. [الواحدي (٢٢/ ٢٠)].

(٣) سورة المدثر الآية (٣٠).

(٤) انظر التعليق على آية (١٢) من سورة الحديد.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾ هِيَ. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ فِي الدِّينِ إِذْ كَفَرَتَا وَكَانَتِ امْرَأَةُ نُوحٍ وَاسْمُهَا «وَاهِلَةُ» تَقُولُ لِقَوْمِهِ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَامْرَأَةُ لُوطٍ وَاسْمُهَا «وَاعِلَةُ» تَدُلُّ قَوْمَهُ عَلَى أَضْيَافِهِ إِذَا نَزَلُوا بِهِ لَيْلًا بِإِيقَادِ النَّارِ وَنَهَارًا بِالتَّدْخِينِ[١] ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أَيْ: نُوحٌ وَلُوطٌ ﴿عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ ﴿شَيْـًٔا وَقِيلَ﴾ لَهُمَا: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ آمَنَتْ بِمُوسَى وَاسْمُهَا «آسِيَةُ» فَعَذَّبَهَا فِرْعَوْنُ بِأَنْ أَوْتَدَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا وَأَلْقَى عَلَى صَدْرِهَا رَحًى عَظِيمَةً وَاسْتَقْبَلَ بِهَا الشَّمْسَ، فَكَانَتْ إِذَا تَفَرَّقَ عَنْهَا مَنْ وُكِلَ بِهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَةُ ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ فِي حَالِ التَّعْذِيبِ ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ فَكُشِفَ لَهَا فَرَأَتْهُ فَسَهُلَ عَلَيْهَا التَّعْذِيبُ[٢] ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ وَتَعْذِيبِهِ ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ أَهْلِ دِينِهِ فَقَبَضَ اللهُ رُوحَهَا، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: رُفِعَتْ إِلَى الْجَنَّةِ حَيَّةً فَهِيَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ[٣]. ﴿وَمَرْيَمَ﴾ عَطْفٌ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ﴿ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حَفِظَتْهُ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أَيْ: جِبْرِيلُ حَيْثُ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا، بِخَلْقِ اللهِ تَعَالَى فِعْلَهُ الْوَاصِلَ إِلَى فَرْجِهَا فَحَمَلَتْ بِعِيسَى[٤] ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ شَرَائِعِهِ ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ الْمُنَزَّلَةِ ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾ مِنَ الْقَوْمِ الْمُطِيعِينَ.

---

(١) قال عكرمة والضحاك. بالكفر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون. وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه. وعنه: ما بغت امرأة نبي قط. وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري. إنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين. وقيل: كانتا منافقتين. وقيل: خيانتهما النميمة إذا أوحى الله إليهما شيئا أفشتاه إلى المشركين، قاله الضحاك. [القرطبي (١٨/ ٢٠٢)].

(٢) وصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيلد، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيد عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». أخرجه البخاري (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١). [السعدي (ص:٨٧٤)].

(٣) وظاهره أنها رفعت بجسدها وهو لا يصح. [الآلوسي (١٤/ ٣٥٨)].

(٤) قال المفسرون: إنه أراد بالفرج هنا الجيب لأنه قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وجبريل عليه السلام إنما نفخ في جيبها ولم ينفخ في فرجها. وهي في قراءة أبي: «فنفخنا في جيبها من روحنا». وكل خرق في الثوب يسمى جيبا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق:٦]. ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جيبها. [القرطبي (١٨/ ٢٠٤)]. وأضاف الله الروح إلى نفسه إضافة مخلوق إلى خالقه، وفي ذلك تشريف له. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٩٣)].

سُورَةُ المُلْكِ

مَكِّيَّةٌ، ثَلاثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تَنَزَّهَ عَنْ صِفَاتِ اَلْمُحْدَثِينَ[١] ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ﴾ فِي تَصَرُّفِهِ[٢] ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ اَلسُّلْطَانُ وَالْقُدْرَةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ﴾ فِي اَلدُّنْيَا ﴿وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ فِي اَلْآخِرَةِ، أَوْ هُمَا فِي اَلدُّنْيَا، فَالنُّطْفَةُ تَعْرِضُ لَهَا اَلْحَيَاةُ وَهِيَ مَا بِهِ اَلْإِحْسَاسُ، وَالْمَوْتُ ضِدُّهَا أَوْ عَدَمُهَا قَوْلَانِ، وَالْخَلْقُ عَلَى اَلثَّانِي بِمَعْنَى اَلتَّقْدِيرِ[٣] ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ لِيَخْتَبِرَكُمْ فِي اَلْحَيَاةِ ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ أَطْوَعُ لِلَّهِ[٤] ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فِي اِنْتِقَامِهِ مِمَّنْ عَصَاهُ ﴿ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

---

(١) البركة نوعان: أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة. والمفعول منها: مبارك وهو ما جعل كذلك فكان مباركا بجعله تعالى. والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل، منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل ... فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليا ولا قدوسا ولا عظيما هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس. فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره وأين أحدهما من الآخر لفظا ومعنى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها وإن كان هذا من لوازم كونه متباركا فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل وبارك من باب أعطى وأنعم، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله وهذا فرع على تبارك في نفسه. [بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٦٨٢)].

(٢) أي: تعاظم الذي بيده ملك الدنيا والآخرة، وسلطانهما، نافذ فيهما أمره وقضاؤه، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه مانع، ولا يحول بينه وبينه عجز. [القاسمي (٩/ ٢٨٤)].

(٣) استدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا؟ كما قال: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٨] فسمى الحال الأول وهو العدم موتا، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾. [ابن كثير (٨/ ١٧٦)].

(٤) فيجازيكم على ذلك، وقيل: المعنى ليبلوكم ربكم أيكم أكثر ذكراً للموت وأحسن استعداداً وأشد منه خوفاً، وقيل: أيكم أحسن عقلاً وأسرع إلى طاعة الله وأورع عن محارم الله؛ وقيل: أخلص عملاً وأصوبه والخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة، وقيل: أزهد في الدنيا وأترك لها؛ والعموم أولى. قال الزجاج: اللام متعلقة بخلق الحياة لا بخلق الموت، وقال الفراء: إن قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ لم يقع على «أي» لأن فيما بين البلوى و «أي» إضمار فعل، كما تقول: بلوتكم لأنظر أيكم أطوع، ومثله ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] أي:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ مُمَاسَّةٍ ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لَهُنَّ أَوْ لِغَيْرِهِنَّ ﴿مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ تَبَايُنٍ وَعَدَمُ تَنَاسُبٍ ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ أَعِدْهُ إِلَى السَّمَاءِ ﴿هَلۡ تَرَىٰ﴾ فِيهَا ﴿مِن فُطُورٖ ٣﴾ صُدُوعٍ وَشُقُوقٍ. ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ ﴿يَنقَلِبۡ﴾ يَرْجِعُ ﴿إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾ ذَلِيلًا لِعَدَمِ إِدْرَاكِ خَلَلٍ ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ مُنْقَطِعٌ عَنْ رُؤْيَةِ خَلَلٍ. ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ الْقُرْبَى إِلَى الْأَرْضِ ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بِنُجُومٍ[1] ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا﴾ مَرَاجِمَ ﴿لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ إِذَا اسْتَرَقُوا السَّمْعَ بِأَنْ يَنْفَصِلَ شِهَابٌ عَنِ الْكَوْكَبِ كَالْقَبَسِ يُؤْخَذُ مِنَ النَّارِ فَيَقْتُلَ الْجِنِّيَّ أَوْ يَخْبِلُهُ، لَا أَنَّ الْكَوْكَبَ يَزُولُ عَنْ مَكَانِهِ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥﴾ النَّارَ الْمُوقَدَةَ. ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦﴾ هِيَ. ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ صَوْتًا مُنْكَرًا كَصَوْتِ الْحِمَارِ[2] ﴿وَهِىَ تَفُورُ ٧﴾ تَغْلِي. ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ وَقُرِئَ: ﴿تَتَمَيَّزُ﴾[3] عَلَى الْأَصْلِ: تَتَقَطَّعُ

سلهم ثم أنظر أيهم؛ فـ «أيكم» في الآية مبتدأ وخبره أحسن، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله وإيراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل لجميع أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح لا إلى الحسن والأحسن فقط للإيذان بأن المراد بالذات والمقصد الأصلي من الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين. [صديق حسن (١٤/ ٢٣٠)].

(١) المصابيح جمع مصباح وسميت الكواكب مصابيح لأنها تضيء كإضاءة السراج، ففي الكلام استعارة تصريحية لأن حقيقة المصباح كما في المختار «السراج» ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ هذه فائدة أخرى غير الفائدة الأولى وهي كونها زينة للسماء الدنيا، والمعنى أنها ترجم الشياطين الذين يسترقون السمع،... وجمع المصدر باعتبار أنواعه، وقيل: إن الضمير في جعلناها إلى المصابيح على حذف مضاف، أي: جعلنا شهبها وهي نارها المقتبسة منها لا هي نفسها لقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ١٠] ووجه هذا أن المصابيح التي زين الله بها السماء الدنيا لا تزول عن مكانها ولا يرجم بها بل ينفصل شهاب عن الكوكب فيقتل الجني أو يخبله. كذا قال أبو علي الفارسي جواباً لمن سأله كيف تكون المصابيح زينة وهي رجوم؟ قال القشيري: وأمثل من قوله هذا أن نقول هي زينة قبل أن ترجم بها الشياطين. قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر، فمن تكلم فيها بغير ذلك فقد تكلم فيما لا يعلم وتعدى وظلم. [صديق حسن (١٤/ ٢٣٣)].

(٢) الشهيق: تردد الأنفاس في الصدر لا تستطيع الصعود لبكاء ونحوه أطلق على صوت التهاب نار جهنم الشهيق تفظيعا له؛ لأن قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ يقتضي أن الشهيق شهيقها؛ لأن أصل اللام أن تكون لشبه الملك. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٣)]. [وقيل:] لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها... فإنهم يصطرخون فيها بأصوات الحيوانات المنكرة الصوت، كقوله: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]. [القاسمي (٩/ ٢٨٩)].

(٣) قراءة شاذة.

﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ غضبًا على الكافرِ(١) ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعةٌ منهم ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ سُؤال توبيخٍ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨﴾ رسولٌ يُنذرُكم عذابَ الله تعالى. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ﴾ ما ﴿أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ٩﴾ يحتمِلُ أن يكونَ من كلامِ الملائكةِ للكفَّارِ حينَ أُخبِروا بالتَّكذيبِ، وأن يكونَ من كلامِ الكفَّارِ للنُّذُرِ(٢). ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أي: سَماعُ تفهُّمٍ ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: عقلَ تفكُّرٍ ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعْتَرَفُواْ﴾ حيثُ لا ينفعُ الاعترافُ ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ وهو تكذيبُ النُّذُرِ ﴿فَسُحْقًا﴾ بسكونِ الحاءِ وضمِّها ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ فبُعدًا لهم عن رحمةِ الله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ يخافونَه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ في غَيبتِهم عن أعينِ النَّاسِ فيُطيعونَه سِرًّا فيكونُ علانيةً أولى(٣) ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢﴾ أي: الجنَّةُ. ﴿وَأَسِرُّواْ﴾ أيُّها النَّاسُ ﴿قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ بما فيها فكيفَ بما نطقتُم به، وسببُ نزولِ ذلك أنَّ المشركينَ قال بعضُهم لبعضٍ: «أسِرُّوا قولَكم لا يسمعْكم إلهُ محمَّدٍ». ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ما تُسرُّونَ، أي: أينتفي علمُه بذلك(٤) ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ في عِلمِه ﴿ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ فيه، لا. ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ سهلةً للمشي فيها ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جوانبِها ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ المخلوقِ لأجلِكم ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ من القبورِ للجزاءِ. ﴿ءَأَمِنتُم﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وتسهيلِ الثَّانيةِ وإدخالِ ألفٍ بينهما وبينَ الأخرى وتركِه

---

(١) الغيظ أشد الغضب. وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] ... مثلت حالة فورانها وتصاعد ألسنة لهيبها ورطمها ما فيها والتهام من يلقون إليها، بحال مغتاظ شديد الغيظ لا يترك شيئا مما غاظه إلا سلط عليه ما يستطيع من الأضرار. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٤)].

(٢) أي: في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب، وخطأ عظيم لا يقادر قدره. وهذا يحتمل أن يكون من كلام الكفار للنذر، وأن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول، ومرادهم بالضلال الهلاك أو سموا جزاء الضلال باسمه كما يسمى جزاء السيئة والاعتداء سيئة، وهذا يسمى المشاكلة في علم البيان، وأن يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزنة، والاحتمال الأول هو الذي استظهره جمهور المفسرين. [صديق حسن (١٤/ ٢٣٦)].

(٣) يحتمل معنيين: أحدهما: بالغيب الذي أخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فآمنوا بذلك وخشوا ربهم فيه، ونحا إلى هذا قتادة. والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي: في خلواتهم، ... فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم وانفرادهم، فالاحتمال الأول مدح بالإخلاص والإيمان، والثاني مدح بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أحرى أن يفعلوها علانية. [ابن عطية (٥/ ٣٤٠)].

(٤) ألا يعلم ما في الصدور من خلقها. وقيل: ﴿مَنْ﴾ يرجع إلى المخلوق، أي: ألا يعلم الله مخلوقه؟ [البغوي (٨/ ١٧٨)].

وَإِبْدَالِهَا أَلِفًا ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ سُلْطَانَهُ وَقُدْرَتَهُ(١) ﴿أَن يَخْسِفَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَّن﴾ ﴿بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ تَتَحَرَّكُ بِكُمْ وَتَرْتَفِعُ فَوْقَكُمْ(٢). ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَّن﴾ ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ رِيحًا تَرْمِيكُمْ بِالْحَصْبَاءِ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ ﴿كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ إِنْذَارِي بِالْعَذَابِ، أَيْ: أَنَّهُ حَقٌّ. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالتَّكْذِيبِ عِنْدَ إِهْلَاكِهِمْ، أَيْ: أَنَّهُ حَقٌّ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾ فِي الْهَوَاءِ ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهُنَّ ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أَجْنِحَتَهُنَّ بَعْدَ الْبَسْطِ، أَيْ: وَقَابِضَاتٍ(٣) ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عَنِ الْوُقُوعِ فِي حَالِ الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ الْمَعْنَى: أَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بِثُبُوتِ الطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ عَلَى قُدْرَتِنَا أَنْ نَفْعَلَ بِهِمْ مَا تَقَدَّمَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْعَذَابِ(٤). ﴿أَمَّنْ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿هَٰذَا﴾ خَبَرُهُ ﴿ٱلَّذِى﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿هَٰذَا﴾ ﴿هُوَ جُندٌ﴾ أَعْوَانٌ ﴿لَّكُمْ﴾ صِلَةُ ﴿ٱلَّذِى﴾ ﴿يَنصُرُكُم﴾ صِفَةُ ﴿جُندٌ﴾ ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أَيْ: غَيْرُهُ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَهُ، أَيْ: لَا نَاصِرَ لَكُمْ ﴿إِنِ﴾

---

(١) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي: عذاب من في السماء إن عصيتموه. [البغوي (٨/ ١٧٨)]. وهو الله. [الطبري (٢٣/ ١٢٩)]. قال ﷺ: «أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً». أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤). وقوله ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ». أخرجه الترمذي (١٩٢٤). وحديث الجارية قال لها ﷺ: «أَيْنَ اللهُ؟»، قالت: في السماء، قال: «مَنْ أَنَا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «اعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٢) أي: تضطرب وتتحرك بكم على خلاف ما كانت عليه من السكون والاطمئنان، وقيل: تهوي بهم، وقيل: تجيء وتذهب، والأول أولى. [صديق حسن (١٤/ ٢٤٠)].

(٣) تنبيه على الاعتبار بطيران الطيور في الهواء من غير شيء يمسكها، وصافَّات جمع صافة وهي التي تبسط جناحها للطيران، والقبض: ضم الجناحين إلى الجنب وعطف يقبض على صافات، لأن الفعل في معنى الاسم تقديره: قابضات. فإن قيل: لِمَ لم يقل قابضات على طريقة صافات؟ فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مدَّ الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكر بصيغة اسم الفاعل لدوامه وكثرته، وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة، فذكر بلفظ الفعل لقلته. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٩٦)].

(٤) وفي هذا إيماء إلى أن الذي أمسك الطير عن الهوي المفضي إلى الهلاك هو الذي أهلك الأمم الذين من قبل هؤلاء فلو لم يشركوا به ولو استعصموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك كما أنجى الطير من الهوي. ومعنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص في خفة عظامها وقوة حركة الجوانح وما جعل لهن من القوادم، وهي ريشات عشر هي مقاديم ريش الجناح، وفي الخوافي وهي ما دونها من الجناح إلى منتهى ريشه، وما خلقه من شكل أجسادها المعين على نفوذها في الهواء؛ فإن ذلك كله بخلق الله إياها مانعا لها من السقوط. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٩)].

مَا ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ غَرَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ الْعَذَابَ لَا يَنْزِلُ بِهِمْ. ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ الرَّحْمَنُ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ أَيِ: الْمَطَرَ عَنْكُمْ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، أَيْ: فَمَنْ يَرْزُقُكُمْ، أَيْ: لَا رَازِقَ لَكُمْ غَيْرُهُ(١) ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ تَمَادَوْا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ تَكَبُّرٍ ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ تَبَاعُدٍ عَنِ الْحَقِّ. ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا﴾ وَاقِعًا ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ مُعْتَدِلًا ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ وَخَبَرُ «مَنِ» الثَّانِيَةِ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ خَبَرُ الْأُولَى، أَيْ: أَهْدَى، وَالْمَثَلُ فِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ أَيُّهُمَا عَلَى هُدًى(٢). ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الْقُلُوبَ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ﴿مَّا﴾ مَزِيدَةٌ، وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ مُخْبِرَةٌ بِقِلَّةِ شُكْرِهِمْ جِدًّا عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ. ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ لِلْحِسَابِ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وَعْدُ الْحَشْرِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فِيهِ. ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بِمَجِيئِهِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أَيِ: الْعَذَابَ بَعْدَ الْحَشْرِ ﴿زُلْفَةً﴾ قَرِيبًا ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ اسْوَدَّتْ ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ﴾ أَيْ: قَالَ الْخَزَنَةُ لَهُمْ: ﴿هَٰذَا﴾ أَيِ: الْعَذَابُ ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ﴾ بِإِنْذَارِهِ ﴿تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أَنَّكُمْ لَا تُبْعَثُونَ، وَهَذِهِ حِكَايَةُ حَالٍ تَأْتِي، عَبَّرَ عَنْهَا بِطَرِيقِ الْمُضِيِّ لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهَا. ﴿قُلْ

---

(١) أي: من الذي يدر عليكم الرزق من المطر وغيره. [صديق حسن (١٤/ ٢٤٣)]. الجواب: لا أحد يقدر على ذلك ولا يملكه إلا الله. وقد صرح تعالى بهذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبإ: ٢٤]. أي: لا أحد سواه سبحانه لا إله إلا هو، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣] ... وفيه رد على أولئك الذين يطلبون عند غيره الرزق، كما في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]. وقد جمع الأمرين توبيخهم وتوجيههم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]. [عطية سالم (٨/ ٢٤٢)].

(٢) هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمن يحشر يمشي سويا على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم. [ابن كثير (٨/ ١٨١)]. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]، عن أنس رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ». أخرجه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِعَذَابِهِ كَمَا تُقْصَدُونَ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فَلَمْ يُعَذِّبْنَا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨﴾ أَيْ: لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْهُ(١). ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩﴾ بَيِّنٍ أَنَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ أَمْ هُمْ. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غَائِرًا فِي الْأَرْضِ ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ جَارٍ تَنَالُهُ الْأَيْدِي وَالدِّلَاءُ كَمَائِكُمْ، أَيْ: لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ أَنْ يَبْعَثَكُمْ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ الْقَارِئُ عَقِبَ مَعِينٍ: «اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ(٢)، وَتُلِيَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عِنْدَ بَعْضِ الْمُتَجَبِّرِينَ، فَقَالَ: تَأْتِي بِهِ الْفُؤُوسُ وَالْمَعَاوِلُ، فَذَهَبَ مَاءُ عَيْنِهِ وَعَمِيَ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْجَرْأَةِ عَلَى اللهِ وَعَلَى آيَاتِهِ.

---

(١) لما كان المكذبون للرسول ﷺ، الذين يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم: أنتم وإن حصلت لكم أمانيكم وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئًا، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذًا، تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيدة، ولا مجد لكم شيئًا. [السعدي (ص:٨٧٨)]. والمعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء. فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالكفر وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم. وتعليل نفي الإجارة به. [صديق حسن (١٤/ ٢٤٨)].

(٢) لم نقف على هذا الحديث، وقد استحسن هذا القول الشربيني في مغني المحتاج، قال رحمه الله: ويسن للقارئ في الصلاة وخارجها إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله الرحمة، أو بآية عذاب أن يستعيذ منه، أو بآية تسبيح أن يسبح، أو بآية مثل أن يتفكر، وإذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. وإذا قرأ: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] قال: آمنت بالله. وإذا قرأ: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] قال: الله رب العالمين. [مغني المحتاج (١/ ٣٩٠)]. وذكر مثله الرملي في نهاية المحتاج، وابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج ولعل حجتهم في ذلك، حديث حذيفة رضي الله عنه قال: صَلَّيْتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ فكان يقولُ في رُكوعِه: «سُبْحانَ ربِّيَ العظيمِ»، وفي سُجودِه: «سُبْحانَ ربِّيَ الأعلى»، قال: وما مَرَّ بآيةِ رَحْمةٍ إِلَّا وقَفَ عندَها فسأَلَ، ولا آيةِ عَذابٍ إِلَّا تَعوَّذَ مِنْهَا. أخرجه مسلم (٧٧٢).

سُورَةُ القَلَمِ

مَكِّيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ﴾ أَحَدُ حُرُوفِ اَلْهِجَاءِ، اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ[1] ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ الَّذِي كُتِبَ بِهِ الْكَائِنَاتِ فِي اَللَّوْحِ اَلْمَحْفُوظِ[2] ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ أَيْ: الْمَلَائِكَةُ مِنَ اَلْخَيْرِ وَاَلصَّلَاحِ. ﴿مَآ أَنتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾ أَيْ: انْتَفَى الْجُنُونُ عَنْكَ بِسَبَبِ إِنْعَامِ رَبِّكَ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا، وَهَذَا رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ[3]. ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣﴾ مَقْطوعٍ. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾ دِينٍ[4] ﴿عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾ مَصْدَرٌ كَالْمَعْقُولِ، أَيْ: اَلْفُتُونُ بِمَعْنَى الْجُنُونُ، أَيْ: أَبِكَ أَمْ بِهِمُ[5]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ

---

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: ٣-٥]. فهو قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: وما يكتبون. [ابن كثير (٨/ ١٨٧)].

(٣) هذا جواب القسم وهو نفي، وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ إنه مجنون، به شيطان. وهو قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦] فأنزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لقولهم ما أنت بنعمة ربك بمجنون، أي: برحمة ربك. والنعمة ها هنا الرحمة. ويحتمل ثانيا: أن النعمة ها هنا قسم، وتقديره: ما أنت ونعمة ربك بمجنون، لأن الواو والباء من حروف القسم. وقيل: هو كما تقول: ما أنت بمجنون، والحمد لله. وقيل: معناه ما أنت بمجنون، والنعمة لربك، كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك، أي: والحمد لله. [القرطبي (١٨/ ٢٢٥)].

(٤) عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ. فقالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. أخرجه أحمد (٢٥٨١٣). ... ومعنى هذا أنه عليه السلام صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجية له وخلقا تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل ... عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». أخرجه أحمد (٨٩٥٢). [ابن كثير (٨/ ١٨٩)].

(٥) قيل معناه: بأيكم المجنون، فـ«المفتون» مفعول بمعنى المصدر، كما يقال: ما بفلان مجلود ومعقول، أي: جلادة وعقل. وهذا معنى قول الضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقيل: الباء بمعنى «في» مجازه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ في أي الفريقين المجنون في فريقك أم في فريقهم؟ وقيل: الباء بمعنى «مع» و«المفتون» هو الشيطان. والمعنى: مع أيكم الشيطان مع المؤمنين أم مع الكافرين؟ وهذا معنى قول مجاهد. وقال الآخرون: زائدة، معناه: أيكم المفتون؟ أي: المجنون الذي فتن بالجنون، وهذا قول قتادة. [البغوي (٨/ ١٩١)].

بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٧﴾ لَهُ، وَأَعْلَمُ بِمَعْنَى: عَالِمٌ. ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ﴾ تَمَنَّوْا ﴿لَوۡ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿تُدۡهِنُ﴾ تَلِينَ لَهُمْ ﴿فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ يَلِينُونَ لَكَ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿تُدۡهِنُ﴾، وَإِنْ جُعِلَ جَوَابَ التَّمَنِّي الْمَفْهُومِ مِنْ ﴿وَدُّواْ﴾ قُدِّرَ قَبْلَهُ بَعْدَ الْفَاءِ «هُمْ»[1]. ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كَثِيرِ الْحَلِفِ بِالْبَاطِلِ ﴿مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ حَقِيرٍ. ﴿هَمَّازٍ﴾ عَيَّابٍ، أَيْ: مُغْتَابٍ ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ سَاعٍ بِالْكَلَامِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الْإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ. ﴿مَّنَّاعٍ لِّلۡخَيۡرِ﴾ بَخِيلٍ بِالْمَالِ عَنِ الْحُقُوقِ ﴿مُعۡتَدٍ﴾ ظَالِمٍ ﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ آثِمٍ. ﴿عُتُلِّۭ﴾ غَلِيظٍ جَافٍ ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ دَعِيٍّ[2] فِي قُرَيْشٍ وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ ادَّعَاهُ أَبُوهُ بَعْدَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ وَصَفَ أَحَدًا بِمَا وَصَفَهُ بِهِ مِنَ الْعُيُوبِ فَأَلْحَقَ بِهِ عَارًا لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا، وَتَعَلَّقَ بِـ﴿زَنِيمٍ﴾ الظَّرْفُ قَبْلَهُ. ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أَيْ: لِأَنَّ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿قَالَ﴾ هِيَ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أَيْ: كَذَّبَ بِهَا، لِإِنْعَامِنَا عَلَيْهِ بِمَا ذُكِرَ، وَفِي قِرَاءَةٍ ﴿ءَأَن﴾ بِهَمْزَتَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ. ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾﴾ سَنَجْعَلُ عَلَى أَنْفِهِ عَلَامَةً يُعَيَّرُ بِهَا مَا عَاشَ، فَخُطِمَ أَنْفُهُ بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ[3]. ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾ امْتَحَنَّا أَهْلَ مَكَّةَ بِالْقَحْطِ وَالْجُوعِ. ﴿كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ الْبُسْتَانِ ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ يَقْطَعُونَ ثَمَرَتَهَا ﴿مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ وَقْتَ الصَّبَاحِ كَيْ لَا يَشْعُرَ بِهِمُ الْمَسَاكِينُ، فَلَا يُعْطُونَهُمْ مِنْهَا مَا كَانَ أَبُوهُمْ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْهَا. ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾﴾ يَمِينِهِمْ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى[4]،

---

(١) المداهنة هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي، ورُوي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك، فنزلت الآية ولم ينتصب فيدهنون في جواب التمني؛ بل رفعه بالعطف على تدهن قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره فهم يدهنون. [ابن جُزَيّ (٢/ ٣٩٩)].

(٢) أي: هو بعد ما عد من معايبه ومثالبه الثمانية دعيٌّ ملصق مستلحق بالقوم، وليس هو منهم، مأخوذ من الزنمة المتدلية في حلق الشاة أو الماعز، وقال سعيد بن جبير: الزنيم المعروف بالشر، وقيل: هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة. وقيل: هو الظلوم. وهذه البعدية في الرتبة لا في الخارج، قال الشهاب فبعد هنا كـ«ثم» للتراخي في الرتبة قال أبو السعود وفيه دلالة على أن دعوته أشد معايبه وأقبح قبائحه؛ وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق لأنه حليف ملحق في بني زهرة؛ وقيل: في الوليد بن المغيرة وبه قال الجمهور، وقيل: في أبي جهل بن هشام، وقيل: في الأسود ابن عبد يغوث، قاله ابن عباس. [صديق حسن (١٤/ ٢٦١)].

(٣) أصل الخرطوم: أنف السبع ثم استعير للإنسان استخفافًا به، وتقبيحًا له، والمعنى: نجعل له سمة، وهي العلامة على خرطومه، واختلف في هذه السمة قيل: هي الضربة بالسيف يوم بدر، وقيل: علامة من نار تجعل على أنفه في جهنم. وقيل: علامة تجعل على أنفه يوم القيامة ليعرف بها. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٠٠)].

(٤) في معناه ثلاثة أقوال: أحدها لم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ليصرمنها، والآخر: لا يستثنون شيئًا من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم، والثالث: لا يتوقفون في رأيهم ولا ينتهون عنه، أي: لا يرجعون عنه. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٠٠)].

وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، أَيْ: وَشَأْنُهُمْ ذَلِكَ. ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ نَارٌ أَحْرَقَتْهَا لَيْلاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ كَاللَّيْلِ الشَّدِيدِ الظُّلْمَةِ، أَيْ: سَوْدَاءَ[1]. ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ غَلَّتِكُمْ تَفْسِيرٌ لِلتَّنَادِي، أَوْ ﴿أَن﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: بِأَنْ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢﴾ مُرِيدِينَ الْقَطْعَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣﴾ يَتَسَارُّونَ ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤﴾ تَفْسِيرٌ لِمَا قَبْلَهُ، أَوْ ﴿أَن﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: بِأَنْ ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ مَنْعٍ لِلْفُقَرَاءِ[2] ﴿قَٰدِرِينَ ۝٢٥﴾ عَلَيْهِ فِي ظَنِّهِمْ. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ سَوْدَاءُ مُحْتَرِقَةٌ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦﴾ عَنْهَا، أَيْ: لَيْسَتْ هَذِهِ، ثُمَّ قَالُوا لَمَّا عَلِمُوهَا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾ ثَمَرَتُهَا، بِمَنْعِنَا الْفُقَرَاءُ مِنْهَا. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ خَيْرُهُمْ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾ الله تَائِبِينَ ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩﴾ بِمَنْعِنَا الْفُقَرَاءَ حَقَّهُمْ. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿وَيْلَنَآ﴾ هَلَاكَنَا ﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ ﴿خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢﴾ لِيَقْبَلَ تَوْبَتَنَا وَيَرُدَّ عَلَيْنَا خَيْرًا مِنْ جَنَّتِنَا، رُوِيَ أَنَّهُمْ أُبْدِلُوا خَيْرًا مِنْهَا. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلُ الْعَذَابِ لِهَؤُلَاءِ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَنَا مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ عَذَابَهَا مَا خَالَفُوا أَمْرَنَا. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا: «إِنْ بُعِثْنَا نُعْطَى أَفْضَلَ مِنْكُمْ»: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ أَيْ: تَابِعِينَ لَهُمْ فِي الْعَطَاءِ. ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ هَذَا الْحُكْمَ الْفَاسِدَ. ﴿أَمْ﴾ أَيْ: بَلْ أَ ﴿لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ مُنَزَّلٌ ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧﴾ أَيْ: تَقْرَؤُونَ. ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾

---

(١) فعيل بمعنى مفعول، أي: صارت كالشيء الذي صرمت ثماره، أي: قطعت. وقال الفراء: كالصريم كالليل المظلم، والمعنى: أنها حرقت فصارت كالليل الأسود، قال: والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة، وقال الأخفش: أي كالصبح الصريم من الليل يعني أنها يبست وابيضت بلا شجر، وقال المبرد: الصريم الليل والصريم النهار، أي: ينصرم هذا عن هذا وذاك عن هذا، وقيل: سمي الليل صريماً لأنه يقطع بظلمته عن التصرف، وقال المؤرج: الصريم الرملة لأنها لا ينبت عليها شيء ينتفع به، وقال الحسن: صرم منها الخير، أي: قطع. [صديق حسن (١٤/ ٢٦٥)].

(٢) الحرد يكون بمعنى المنع والغضب والقصد، قال قتادة ومقاتل والكلبي والحسن ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد لأن القاصد إلى الشيء حارد ... وقال أبو عبيدة والمبرد والقتيبي: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ على منع، من قولهم: حردت الإبل حرداً إذا قلت ألبانها. وقال السدي وسفيان والشعبي: على غضب، وعن قتادة ومجاهد أيضـاً: على حسد، وقال الحسن أيضـاً: على حاجة وفاقة، وقيل: على انفراد، وبه قال الأصمعي وغيره. وقد فسرت الآية الكريمة بجميع ما ذكرت. [صديق حسن (١٤/ ٢٦٦)].

تَخْتَارُونَ. ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾ عُهُودٌ ﴿عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ وَثِيقَةٌ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مُتَعَلِّقٌ مَعْنًى بِـ ﴿عَلَيْنَا﴾ وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مَعْنَى الْقَسَمِ، أَيْ: أَقْسَمْنَا لَكُمْ، وَجَوَابُهُ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بِهِ لِأَنْفُسِكُمْ. ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الْحُكْمِ الَّذِي يَحْكُمُونَ بِهِ لِأَنْفُسِهِمْ، مِنْ أَنَّهُمْ يُعْطَوْنَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ كَفِيلٌ لَهُمْ. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ مُوَافِقُونَ لَهُمْ فِي هَذَا الْمَقُولِ، يَكْفُلُونَ لَهُمْ بِهِ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ الْكَافِلِينَ لَهُمْ بِهِ ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾. اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، يُقَالُ: كَشَفَتِ الْحَرْبُ عَنْ سَاقٍ إِذَا اشْتَدَّ الْأَمْرُ فِيهَا[1] ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ امْتِحَانًا لِإِيمَانِهِمْ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ تَصِيرُ ظُهُورُهُمْ طَبَقًا وَاحِدًا. ﴿خَٰشِعَةً﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾، أَيْ: ذَلِيلَةً ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ لَا يَرْفَعُونَهَا ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تَغْشَاهُمْ ﴿ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فَلَا يَأْتُونَ بِهِ بِأَلَّا يُصَلُّوا. ﴿فَذَرْنِى﴾ دَعْنِي ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ﴾ الْقُرْآنِ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ نَأْخُذُهُمْ قَلِيلًا قَلِيلًا ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ﴾ أُمْهِلُهُمْ ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ شَدِيدٌ لَا يُطَاقُ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَ ﴿تَسْـَٔلُهُمْ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: جميع ما في القرآن من آيات الصفات، فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها... إلا في مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فروي عن ابن عباس وطائفة أن المراد به: الشدة، أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدُّوها في الصفات؛ للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين، ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات، فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى الله، ولم يقل: عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة، لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف. [مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٤، ٣٩٥)]. وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: يحتمل أن يراد بذلك ساق الله، ويحتمل أن يراد بالساق الشدة، وقد قال السلف بهذين القولين. [شرح العقيدة السفارينية (١/ ٢٦٢)]. وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا». ورد هذا الحديث من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، واختلف أصحاب زيد بن أسلم في رواية كلمة «الساق»، فرواه عنه سعيد بن أبي هلال بلفظ: «ساقه»، ورواه عنه حفص بن ميسرة، وعبدالرحمن بن إسحاق، وهشام بن سعد، وخارجة بن مصعب الضبعي بلفظ: «ساق»، ورواية سعيد بن أبي هلال في صحيح البخاري (٤٩١٩)، ورواية حفص بن ميسرة في صحيح مسلم (١٨٣)، ورواية عبدالرحمن بن إسحاق في مسند أحمد (١١١٢٧)، ورواية هشام بن سعد في المستدرك للحاكم (٨٧٣٦)، ورواية خارجة بن مصعب الضبعي في مسند الطيالسي (٢٢٩٣)، فأكثر الرواة رووا هذا الحديث بلفظ: «ساق»، فهي الأصح كما قال الإسماعيلي والألباني؛ [يُنظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٦٤)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢/ ١٢٧، ١٢٨)].

﴿أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مِمَّا يُعْطُونَكَهُ ﴿مُّثْقَلُونَ ۝٤٦﴾ فَلا يُؤْمِنُونَ لِذَلِكَ. ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ اَللَّوْحُ اَلْمَحْفُوظُ اَلَّذي فِيهِ اَلْغَيْبُ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤٧﴾ مِنْهُ مَا يَقُولُونَ. ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ فِي اَلضَّجَرِ وَالْعَجَلَةِ وَهُوَ يُونُسُ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ(١) ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دَعَا رَبَّهُ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾ مَمْلُوءٌ غَمًّا فِي بَطْنِ اَلْحُوتِ. ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ﴾ أَدْرَكَهُ ﴿نِعْمَةٌ﴾ رَحْمَةٌ ﴿مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ﴾ مِنْ بَطْنِ اَلْحُوتِ ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بِالْأَرْضِ اَلْفَضَاءِ ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝٤٩﴾ لَكِنَّهُ رُحِمَ فَنُبِذَ غَيْرَ مَذْمُومٍ. ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ اَلْأَنْبِيَاءِ. ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بِضَمِّ اَلْيَاءِ وَفَتْحِهَا ﴿بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرًا شَدِيدًا، يَكَادُ أَنْ يَصْرَعَكَ وَيُسْقِطَكَ مِنْ مَكَانِكَ(٢) ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ اَلْقُرْآنَ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حَسَدًا: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾ بِسَبَبِ اَلْقُرْآنِ اَلَّذِي جَاءَ بِهِ. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أَيْ: اَلْقُرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ مَوْعِظَةٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ اَلْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَا يَحْدُثُ بِسَبَبِهِ جُنُونٌ(٣).

---

(١) يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى عليه السلام، حين ذهب مغاضبا على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤] وقال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والسدي: وهو مغموم. وقال عطاء الخراساني، وأبو مالك: مكروب. [ابن كثير (٨/ ٢٠١)].

(٢) قد قال غير واحد من المفسرين: إنه الإصابة بالعين فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ، وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن الكريم نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك. [بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٢٣١)].

(٣) المعنى: يقولون ذلك اعتلالا لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعونه مدخلا للطعن فيه فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه ﷺ بأنه مجنون لينتقلوا من ذلك إلى أن الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به؛ ليصرفوا دهماءهم عن سماعه، فلذلك أبطل الله قولهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: ما القرآن إلا ذكر للناس كلهم وليس بكلام المجانين، وينتقل من ذلك إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء. [ابن عاشور (٢٩/ ١٠٨)].

سُورَةُ الحَاقَّةِ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى أَوْ اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١﴾ أَيْ: اَلْقِيَامَةُ اَلَّتِي يَحِقُّ فِيهَا مَا أُنْكِرَ مِنَ اَلْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، أَوِ اَلْمُظْهِرَةُ لِذَلِكَ(١). ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهَا وَهُوَ مُبْتَدَأٌ. وَخَبَرُ اَلْحَاقَّةِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾ زِيَادَةُ تَعْظِيمٍ لِشَأْنِهَا، فَـ﴿مَا﴾ اَلْأُولَى مُبْتَدَأٌ، وَمَا بَعْدَهَا خَبَرُهُ، وَ﴿مَا﴾ اَلثَّانِيَةُ وَخَبَرُهَا فِي مَحَلِّ اَلْمَفْعُولِ اَلثَّانِي لِـ«أَدْرَى». ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤﴾ اَلْقِيَامَةِ لِأَنَّهَا تَقْرَعُ اَلْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا. ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ بِالصَّيْحَةِ اَلْمُجَاوِزَةِ لِلْحَدِّ فِي اَلشِّدَّةِ(٢). ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾ شَدِيدَةِ اَلصَّوْتِ ﴿عَاتِيَةٖ ۝٦﴾ قَوِيَّةٍ شَدِيدَةٍ عَلَى عَادٍ، مَعَ قُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ(٣). ﴿سَخَّرَهَا﴾ أَرْسَلَهَا بِالْقَهْرِ ﴿عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أَوَّلُهَا مِنْ صُبْحِ يَوْمِ اَلْأَرْبِعَاءِ لِثَمَانٍ بَقِينَ مِنْ شَوَّالٍ، وَكَانَتْ فِي عَجُزِ اَلشِّتَاءِ ﴿حُسُومٗاۖ﴾ مُتَتَابِعَاتٍ شُبِّهَتْ بِتَتَابُعِ فِعْلِ اَلْحَاسِمِ، فِي إِعَادَةِ اَلْكَيِّ عَلَى اَلدَّاءِ كَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَنْحَسِمَ(٤) ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾ مَطْرُوحِينَ هَالِكِينَ ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ﴾ أُصُولُ ﴿نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ

---

(١) الحاقة من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾. [ابن كثير (٨/ ٢٠٨)].

(٢) وقيل: الطاغية مصدر فكأنه قال: أهلكوا بطغيانهم، فهو كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١]، وقيل: هي صفة لمحذوف تقديره أهلكوا بسبب الفعلة الطاغية، أو الفئة الطاغية، والباء على هذين القولين سببية، وعلى القول الأول كقولك: قتلت زيداً بالسيف. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٠٤)].

(٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ». أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٤) يجوز أن يكون جمع حاسم مثل قعود جمع قاعد، وشهود جمع شاهد، غلب فيه الأيام على الليالي؛ لأنها أكثر عددا إذ هي ثمانية أيام، وهذا له معان: أحدها: أن يكون المعنى: يتابع بعضها بعضا، أي: لا فصل بينها كما يقال: صيام شهرين متتابعين ... قيل: والحسوم مشتق من حسم الداء بالمكواة إذ يكوى ويتابع الكي أياما، فيكون إطلاقه استعارة، ولعلها من مبتكرات القرآن. المعنى الثاني: أن يكون من الحسم وهو القطع، أي: حاسمة مستأصلة. ومنه سمي السيف حساما؛ لأنه يقطع، أي: حسمتهم فلم تبق منهم أحدا. وعلى هذين المعنيين فهو صفة لـ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أو حال منها. المعنى الثالث: أن يكون حسوم مصدرا كالشكور والدخول فيتتصب على المفعول لأجله، وعامله: ﴿سَخَّرَهَا﴾ أي: سخرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم. وكل هذه المعاني صالح لأن يذكر مع هذه الأيام، فإيثار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه. [ابن عاشور (٢٩/ ١١٧)].

﴿٧﴾ سَاقِطَةٍ فَارِغَةٍ[1]. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ صِفَةُ «نَفْسٍ» مُقَدَّرَةٍ، أَوِ التَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ: بَاقٍ؟ لَا. ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قِبَلَهُۥ﴾ أَتْبَاعُهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْقَافِ وَسُكُونِ الْبَاءِ، أَيْ: مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أَيْ: أَهْلُهَا، وَهِيَ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾ بِالْفِعْلَاتِ ذَاتِ الْخَطَأِ. ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: لُوطًا وَغَيْرَهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ زَائِدَةً فِي الشِّدَّةِ عَلَى غَيْرِهَا. ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ عَلَا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، مِنَ الْجِبَالِ وَغَيْرِهَا زَمَنَ الطُّوفَانِ ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ يَعْنِي آبَاءَكُمْ إِذْ أَنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ[2] ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ السَّفِينَةِ الَّتِي عَمِلَهَا نُوحٌ، وَنَجَا هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِيهَا وَغَرِقَ الْآخَرُونَ. ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أَيْ: هَذِهِ الْفَعْلَةَ، وَهِيَ إِنْجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاكُ الْكَافِرِينَ ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عِظَةً ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ وَلِتَحْفَظَهَا ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ حَافِظَةٌ لِمَا تَسْمَعُ. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلَائِقِ وَهِيَ الثَّانِيَةُ[3]. ﴿وَحُمِلَتِ﴾ رُفِعَتْ ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا﴾ دُقَّتَا ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ قَامَتِ الْقِيَامَةُ. ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ ضَعِيفَةٌ[4]. ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ جَوَانِبِ السَّمَاءِ[5] ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أَيْ: الْمَلَائِكَةِ الْمَذْكُورِينَ ﴿يَوْمَئِذٍ

---

(١) انظر التعليق على آية (٢٠) من سورة القمر.

(٢) خاطب الذين نزل فيهم القرآن، وإنما حُمل أجدادهم نوحا وولده، لأن الذين خوطبوا بذلك ولد الذين حملوا في الجارية، فكان حمل الذين حملوا فيها من الأجداد حملا لذريتهم. [الطبري (٢٣/ ٢٢١)].

(٣) هذه النفخة نفخة الفزع، قال ابن عباس: وهي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب العالم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾، وقال ابن المسيب ومقاتل: هي النفخة الآخرة، وعلى هذا لا يكون الدك بعد النفخ، والواو لا ترتب. وروي ذلك عن ابن عباس أيضا، ولما كانت مرة أكدت بقوله: ﴿وَٰحِدَةً﴾. [أبو حيان (١٠/ ٢٥٧)].

(٤) أي: انشقت جنبها وانصدعت وتفطرت بنزول ما فيها من الملائكة فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية ساقطة القوة من هول ذلك اليوم بعد ما كانت محكمة، قال الزجاج: يقال لكل ما ضعف جداً قد وهي فهو واهٍ، وقال الفراء: وَهْيُها تَشَقُّقُها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: واهية متخرقة، أي: متساقطة خفيفة لا تتماسك ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]. [صديق حسن (١٤/ ٢٩١)].

(٥) أي: جنس الملَك واقفون على أطرافها وجوانبها التي لم تسقط وهؤلاء من جملة المستثنى بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال القاضي: لعل هلاك الملائكة أثر ذلك، وقيل: يحيون بالنفخة الثانية ويقفون على أرجائها الباقية وهي جمع «رجى» مقصور وتثنيته رجوان مثل قفى وقفوان. والمعنى: أنها لما تشققت السماء وهي مساكنهم لجأوا إلى أطرافها قال الضحاك إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض ويحيطون بها ومن عليها، وقال سعيد بن جبير: المعنى والملك على حافات الدنيا، أي: ينزلون إلى الأرض، وقيل: إذا صارت السماء قطعًا يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست

﴿ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مِنْ صُفُوفِهِمْ[(١)]. ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ﴾ لِلْحِسَابِ ﴿لَا تَخۡفَىٰ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ مِنَ السَّرَائِرِ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ﴾ خِطَابًا لِجَمَاعَتِهِ لِمَا سُرَّ بِهِ: ﴿هَآؤُمُ﴾ خُذُوا ﴿ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ تَنَازَعَ فِيهِ: ﴿هَآؤُمُ﴾، وَ﴿ٱقۡرَءُواْ﴾. ﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ تَيَقَّنْتُ[(٢)] ﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ مَرْضِيَّةٍ. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا﴾ ثِمَارُهَا ﴿دَانِيَةٞ ٢٣﴾ قَرِيبَةٌ يَتَنَاوَلُهَا الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالْمُضْطَجِعُ. فَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ حَالٌ، أَيْ: مُتَهَنِّئِينَ ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾ الْمَاضِيَةِ فِي الدُّنْيَا[(٣)]. ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا﴾ أَيِ: الْمَوْتَةَ فِي الدُّنْيَا ﴿كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧﴾ الْقَاطِعَةَ لِحَيَاتِي بِأَنْ لَا أُبْعَثَ. ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ قُوَّتِي وَحُجَّتِي، وَهَاءُ: «كِتَابِيَهْ وَحِسَابِيَهْ وَمَالِيَهْ وَسُلْطَانِيَهْ» لِلسَّكْتِ، تَثْبُتُ وَقْفًا وَوَصْلًا اتِّبَاعًا لِلْمُصْحَفِ الْإِمَامِ وَالنَّقْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَذَفَهَا وَصْلًا. ﴿خُذُوهُ﴾ خِطَابٌ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴿فَغُلُّوهُ ٣٠﴾ اجْمَعُوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ فِي الْغُلِّ. ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾ النَّارَ الْمُحْرِقَةَ ﴿صَلُّوهُ ٣١﴾ أَدْخِلُوهُ. ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ بِذِرَاعِ

متشققة في أنفسها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على حافاتها على ما لم يهي منها. [صديق حسن (١٤/ ٢٩٢)].

(١) أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش: العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب. [ابن كثير (٨/ ٢١٢)]. والعرش محمول من الملائكة قبل ذلك، قال ﷺ: «وَلَكِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ سَبَّحَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ سَمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ». أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

(٢) قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك، قال مجاهد: ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك، قال الحسن: في هذه الآية أن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة، وأن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل. قيل: والتعبير بالظن للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالبًا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ظننت أي: أيقنت، قال النسفي: وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العبادات والأحكام، ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلما يخلو عن الوسواس والخواطر وهي تفضي إلى الظنون، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه. [صديق حسن (١٤/ ٢٩٥)].

(٣) من الأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة، من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلى الخلق، وذكر لله وإنابة إليه. فالأعمال جعلها الله سببا لدخول الجنة ومادة لنعيمها وأصلا لسعادتها. [السعدي (ص:٨٨٣)].

ٱلْمَلَكِ[1] ﴿فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ أَدْخِلُوهُ فِيهَا بَعْدَ إِدْخَالِهِ ٱلنَّارَ، وَلَمْ تَمْنَعِ ٱلْفَاءُ مِنْ تَعَلُّقِ ٱلْفِعْلِ بِالظَّرْفِ ٱلْمُتَقَدِّمِ[2]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥﴾ قَرِيبٌ يَنْتَفِعُ بِهِ[3]. ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ صَدِيدِ أَهْلِ ٱلنَّارِ أَوْ شَجَرٍ فِيهَا. ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ ٱلْكَافِرُونَ[4]. ﴿فَلَآ﴾ «لَا» زَائِدَةٌ ﴿أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨﴾ مِنَ ٱلْمَخْلُوقَاتِ. ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ مِنْهَا، أَيْ: بِكُلِّ مَخْلُوقٍ. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: ٱلْقُرْآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ أَيْ: قَالَهُ رِسَالَةً عَنِ ٱللهِ تَعَالَى[5]. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ

---

(١) معنى ذرعها، أي: طولها، واختلف في هذا الذراع، فقيل: إنه الذراع المعروف، وقيل: بذراع الملك، وقيل: في الذراع سبعون باعـًا، كل باع ما بين مكة والكوفة، ولله در الحسن البصري في قوله: الله أعلم بأي ذراع هي. وجعلها سبعين ذراعـًا لإرادة وصفها بالطول، فإن السبعين من الأعداد التي تقصد بها العرب التكثير، ويحتمل أن تكون هذه السلسلة لكل واحد من أهل النار، أو تكون بين جميعهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٠٧)].

(٢) فاجعلوه فيها بحيث يكون كأنه السلك، أي: الحبل الذي يدخل في ثقب الخرزات بعسر لضيق ذلك الثقب إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف عليه، يقال: سلكته الطريق إذا أدخلته فيه، ولم تمنع الفاء من تعلق الفعل أي الداخلة عليه بالظرف المتقدم وهو ﴿فِى سِلْسِلَةٍ﴾، وتقديمها كتقديم «الجحيم» للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذبون به؛ وثم لتفاوت ما بينها في الشدة لا للدلالة على تراخي المدة. [صديق حسن (١٤/ ٢٩٨)].

(٣) خبر ﴿فَلَيْسَ﴾، قوله: له ولا يكون الخبر قوله: ﴿هَٰهُنَا﴾ لأن المعنى يصير: ليس ها هنا طعام إلا من غسلين، ولا يصح ذلك، لأن ثم طعاما غيره. وهاهنا متعلق بما في له من معنى الفعل. والحميم ها هنا القريب، أي: ليس له قريب يرق له ويدفع عنه. وهو مأخوذ من الحميم وهو الماء الحار، كأنه الصديق الذي يرق ويحترق قلبه له. والغسلين فعلين من الغسل، فكأنه ينغسل من أبدانهم، وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم وفروجهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الضحاك والربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. والغسل بالكسر: ما يغسل به الرأس من خطمي وغيره، الأخفش: ومنه الغسلين، وهو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم. وزيد فيه الياء والنون كما زيد في عفرين. وقال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه. ابن زيد: لا يعلم ما هو ولا الزقوم. وقال في موضع آخر: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] يجوز أن يكون الضريع من الغسلين. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى فليس له اليوم ها هنا حميم إلا من غسلين، ويكون الماء الحار. ولا طعام، أي: وليس لهم طعام ينتفعون به. [القرطبي (١٨/ ٢٧٣)].

(٤) بالهمز اسم فاعل من خطئ، وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمدا لذلك، والمخطئ الذي يفعله غير متعمد. وقرأ الحسن والزهري والعتكي وطلحة في نقل: بياء مضمومة بدلا من الهمزة. وقرأ أبو جعفر وشيبة وطلحة ونافع: بخلاف عنه، بضم الطاء دون همز، فالظاهر اسم فاعل من خطئ كقراءة من همز. وقال الزمخشري: ويجوز أن يراد: الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله. انتهى. فيكون اسم فاعل من خطا يخطو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ [البقرة: ١٦٨]. [أبو حيان (١٠/ ٢٦٤)].

(٥) يقول تعالى مقسما لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من

قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ فِي الْفِعْلَيْنِ، وَ ﴿مَّا﴾ زَائِدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ آمَنُوا بِأَشْيَاءَ يَسِيرَةٍ وَتَذَكَّرُوهَا، مِمَّا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْخَيْرِ وَالصِّلَةِ وَالْعَفَافِ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا. بَلْ هُوَ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أَيِ: النَّبِيُّ ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ بِأَنْ قَالَ عَنَّا مَا لَمْ نَقُلْهُ(١). ﴿لَأَخَذْنَا﴾ لَنِلْنَا ﴿مِنْهُ﴾ عِقَابًا ﴿بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ بِالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ(٢). ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ نِيَاطَ الْقَلْبِ وَهُوَ عِرْقٌ مُتَّصِلٌ بِهِ إِذَا انْقَطَعَ مَاتَ صَاحِبُهُ. ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ هُوَ اسْمُ «مَا»، وَ«مِنْ» زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ وَ ﴿مِنكُم﴾ حَالٌ مِنْ ﴿أَحَدٍ﴾ ﴿عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ مَانِعِينَ، خَبَرُ «مَا» وَجُمِعَ لِأَنَّ ﴿أَحَدٍ﴾ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ بِمَعْنَى الْجَمْعِ، وَضَمِيرُ ﴿عَنْهُ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَيْ: لَا مَانِعَ لَنَا عَنْهُ مِنْ حَيْثُ الْعِقَابِ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ بِالْقُرْآنِ وَمُصَدِّقِينَ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ إِذَا رَأَوْا ثَوَابَ الْمُصَدِّقِينَ وَعِقَابَ الْمُكَذِّبِينَ بِهِ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ أَيْ: لَلْيَقِينُ الْحَقُّ(٣). ﴿فَسَبِّحْ﴾ نَزِّهْ ﴿بِاسْمِ﴾ الْبَاءُ زَائِدَةٌ ﴿رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ سُبْحَانَهُ.

المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ يعني: محمدا، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩-٢١] وهذا جبريل، عليه السلام. [ابن كثير (٨/ ٢١٧)].

(١) هو على سبيل الافتراض بالنسبة للنبي ﷺ... وقد جاء الافتراض في القرآن فيما هو أعظم من ذلك. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. [عطية سالم (٨/ ٢٦٣)].

(٢) قيل: «من» صلة، مجازه: لأخذناه وانتقمنا منه باليمين، أي: بالحق، كقوله: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨] أي: من قبل الحق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأخذناه بالقوة والقدرة. قال الشماخ في عرابة ملك اليمن: «إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين» أي: بالقوة، عبر عن القوة باليمين لأن قوة كل شيء في ميامنه. وقيل: معناه لأخذنا بيده اليمنى، وهو مثل معناه: لأذللناه وأهناه، كالسلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من يريد يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه. [البغوي (٨/ ٢١٤)].

(٣) «حق اليقين» هو منتهى العلم، إذ اليقين ثلاث درجات: الأولى: علم اليقين. والثانية: عين اليقين. والثالثة: حق اليقين، كما في التكاثر: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٥-٧] فهاتان درجتان، والثالثة: إذا دخلوها كان حق اليقين، ومثله في الدنيا: العلم بوجود الكعبة والتوجه إليها في الصلاة، ثم رؤيتها عين اليقين، ثم بالدخول فيها يكون حق اليقين. [عطية سالم (٨/ ٢٦٣)].

سُورَةُ المَعَارِجِ

مَكِّيَّةٌ، أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ دَعَا دَاعٍ ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾ هُوَ ٱلنَّضْرُ بْنُ ٱلْحَارِثِ قَالَ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [الأنفال: ٣٢] ٱلآيَةَ. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتَّصِلٌ بِـ﴿وَاقِعٖ﴾ ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾ مَصَاعِدِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَهِيَ ٱلسَّمَاوَاتُ[1]. ﴿تَعۡرُجُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ جِبْرِيلُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ إِلَى مَهْبِطِ أَمْرِهِ مِنَ ٱلسَّمَاءِ[2] ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ أَيْ: يَقَعُ ٱلْعَذَابُ بِهِمْ فِي يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴿كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ بِالنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْكَافِرِ، لِمَا يَلْقَى فِيهِ مِنَ ٱلشَّدَائِدِ، وَأَمَّا ٱلْمُؤْمِنُ فَيَكُونُ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي ٱلدُّنْيَا كَمَا جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ[3]. ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ ﴿صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ أَيْ: لَا جَزَعَ فِيهِ[4]. ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ﴾ أَيِ:

---

(١) جمع معرج وهو المصعد إلى علو كالسلم، والمدارج التي يُرتقى بها، قال ابن عطية: هي هنا مستعارة في الفضائل والصفات الحميدة، وقيل: هي المراقي إلى السماء، وهذا أظهر لأنه فسرها بما بعدها من عروج الملائكة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٠٩)].

(٢) تصعد الملائكة والروح وهو جبريل عليه السلام إليه، يعني إلى الله جل وعز، والهاء في قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ عائدة على اسم الله. [الطبري (٢٣/ ٢٥١)].

(٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ فقيل: ما أطول هذا اليوم، فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا». أخرجه أحمد (١١٧١٧)، وأبو يعلى (١٣٩٠)، وابن حبان (٧٣٣٤). [البغوي (٨/ ٢٢١)]. واختلف في هذا اليوم على قولين: أحدهما أنه يوم القيامة، والآخر: أنه في الدنيا. والصحيح أنه يوم القيامة لقول رسول الله ﷺ في حديث مانع الزكاة: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْها حَقَّها، إلَّا إذَا كَانَ يَوْمُ القِيامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفائِحُ مِن نارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ، فيُكْوَى بِها جَنْبُهُ وجَبِينُهُ وظَهْرُهُ، كُلَّما بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَومٍ كَانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حتَّى يُقْضَى بيْنَ العِبادِ». أخرجه مسلم (٩٨٧). [ابن جُزَيّ (٢/ ٤١٠)].

(٤) فيه أربع تأويلات: أحدها: أنه الصبر الذي ليس فيه جزع، قاله مجاهد. الثاني: أنه الصبر الذي لا بث فيه ولا شكوى. الثالث: أنه الانتظار من غير استعجال، قاله ابن بحر. الرابع: أنه المجاملة في الظاهر، قاله الحسن. وفيما أمر بالصبر عليه قولان: أحدهما: أمر بالصبر على ما قذفه المشركون من أنه مجنون وأنه ساحر وأنه شاعر، قاله الحسن. الثاني: أنه أمر بالصبر على كفرهم، وذلك قبل أن يفرض جهادهم، قاله ابن زيد. [الماوردي (٦/ ٩١)].

ٱلْعَذَابَ ﴿بَعِيدًا ۝٦﴾ غَيْرَ وَاقِعٍ. ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ. ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ «يَقَعُ» ﴿كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ كَذَائِبِ ٱلْفِضَّةِ(١). ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ كَالصُّوفِ فِي ٱلْخِفَّةِ وَالطَّيَرَانِ بِالرِّيحِ(٢). ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ قَرِيبٌ قَرِيبَهُ، لِاشْتِغَالِ كُلٍّ بِحَالِهِ. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أَيْ: يُبْصِرُ ٱلْأَحِمَّاءُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَعَارَفُونَ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ(٣) ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ يَتَمَنَّى ٱلْكَافِرُ ﴿لَوْ﴾ بِمَعْنَى: «أَنْ» ﴿يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ﴾ بِكَسْرِ ٱلْمِيمِ وَفَتْحِهَا ﴿بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زَوْجَتِهِ ﴿وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ﴾ عَشِيرَتِهِ لِفَصْلِهِ مِنْهَا(٤) ﴿ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ۝١٣﴾ تَضُمُّهُ. ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ ذَلِكَ ٱلِافْتِدَاءُ عَطْفٌ عَلَى ﴿يَفْتَدِي﴾. ﴿كَلَّآ﴾ رَدٌّ لِمَا يَوَدُّهُ ﴿إِنَّهَا﴾ أَيِ: ٱلنَّارَ ﴿لَظَىٰ ۝١٥﴾ ٱسْمٌ لِجَهَنَّمَ لِأَنَّهَا تَتَلَظَّى، أَيْ: تَتَلَهَّبُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ. ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ جَمْعُ شَوَاةٍ وَهِيَ جِلْدَةُ ٱلرَّأْسِ(٥). ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ عَنِ ٱلْإِيمَانِ بِأَنْ تَقُولَ: «إِلَيَّ إِلَيَّ». ﴿وَجَمَعَ﴾ ٱلْمَالَ ﴿فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ أَمْسَكَهُ فِي وِعَائِهِ وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّ ٱللهِ مِنْهُ. ﴿* إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ. وَتَفْسِيرُهُ: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠﴾ وَقْتَ مَسِّ ٱلشَّرِّ. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ وَقْتَ مَسِّ ٱلْخَيْرِ،

---

(١) المهل: هو دُردي الزيت شبه السماء به في سوادها وانكدار أنوارها يوم القيامة، وقيل: هو ما أذيب من الفضة ونحوها، شبَّه السماء به في تلوُّنه. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤١٠)].

(٢) أي: كالصوف المصبوغ، ولا يقال للصوف «عهن» إلا إذا كان مصبوغـًا، قال الحسن تكون الجبال كالصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، وقيل: العهن الصوف ذو الألوان فشبه الجبال به في تكونها ألوانـًا كما في قوله: ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح، وهذه الأقوال في معنى العهن في اللغة، وأول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهنـًا منفوشـًا ثم هباء منثوراً. [صديق حسن (١٤/ ٣١٢)].

(٣) استئناف أو حال تدل على أن المانع من هذا السؤال هو التشاغل دون الخفاء، أو ما يغني عنه من مشاهدة الحال كبياض الوجه وسواده وجمع الضميرين لعموم الحميم. [البيضاوي (٥/ ٢٤٥)].

(٤) الفصيلة: الأقرباء الأدنون من القبيلة، وهم الأقرباء المفصول منهم، أي: المستخرج منهم، فشملت الآباء والأمهات ... ولم يذكر الأبوين لدخولهما في الفصيلة قصدا للإيجاز. [ابن عاشور (٢٩/ ١٦١)].

(٥) ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ الأطراف، وهي اليدان والرجلان، ويقال للرامي إذا لم يصب المقتل أشوى، أي: أصاب الشوى، والشوى أيضا جلد الرأس، واحدتها شواة ... هذا قول أهل اللغة، قال مقاتل: تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك لحما ولا جلدا إلا أحرقته، وقال سعيد بن جبير: العصب والعقب ولحم الساقين واليدين، وقال ثابت البناني: لمكارم وجه بني آدم. واعلم أن النار إذا أفنت هذه الأعضاء، فالله تعالى يعيدها مرة أخرى، كما قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. [الرازي (٣٠/ ٦٤٣)].

أَي: اَلْمَالِ لِحَقِّ اللهِ مِنْهُ. ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ أَيْ: اَلْمُؤْمِنِينَ. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ مُوَاظِبُونَ(١). ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤﴾ هُوَ اَلزَّكَاةُ. ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ اَلْمُتَعَفِّفِ عَنِ اَلسُّؤَالِ فَيُحْرَمُ. ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾ اَلْجَزَاءِ. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧﴾ خَائِفُونَ. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨﴾ نُزُولُهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ مِنَ اَلْإِمَاءِ ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١﴾ اَلْمُتَجَاوِزُونَ اَلْحَلَالَ إِلَى اَلْحَرَامِ(٢). ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِفْرَادِ مَا ائْتُمِنُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ اَلدِّينِ وَالدُّنْيَا ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ اَلْمَأْخُوذِ عَلَيْهِمْ فِي ذَٰلِكَ ﴿رَٰعُونَ ۝٣٢﴾ حَافِظُونَ. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ وَفِي قِرَاءَة: بِالْجَمْعِ ﴿قَآئِمُونَ ۝٣٣﴾ يُقِيمُونَهَا وَلَا يَكْتُمُونَهَا. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ بِأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا(٣). ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ نَحْوَكَ ﴿مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾ حَالٌ، أَيْ: مُدِيمِي اَلنَّظَرِ. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ مِنْكَ ﴿عِزِينَ ۝٣٧﴾ حَالٌ أَيْضًا، أَيْ: جَمَاعَاتٍ حِلَقًا حِلَقًا، يَقُولُونَ اِسْتِهْزَاءً بِالْمُؤْمِنِينَ: لَئِنْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ اَلْجَنَّةَ لَنَدْخُلَنَّهَا قَبْلَهُمْ(٤).

---

(١) وصف الله تعالى من استثناهم من الإنسان الهلوع بتسع صفات: اثنتان منها تختص بالصلاة، وهما الأولى والأخيرة؛ مما يدل على أهمية الصلاة، ووجوب شدة الاهتمام بها. وهذا من المسلمات في الدين؛ لمكانتها من الإسلام، وفي وصفهم هنا بأنهم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، وفي الأخير: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]. قال في الكشاف: الدوام عليها المواظبة على أدائها لا يخلون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل. وقد بدأ الله أولئك المستثنين وختمهم بالصلاة، مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير، ومبدأ لهذا المذكور كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فهي عون على كل خير. ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فهي سياج من كل منكر، فجمعت طرفي المقصد شرعا، وهما العون على الخير والحفاظ من الشر، أي: جلب المصالح ودرء المفاسد؛ ولذا فقد عني بها النبي ﷺ كل عنايتها، كما هو معلوم، إلى الحد الذي جعلها الفارق والفيصل بين الإسلام والكفر في قوله ﷺ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ». أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد (٢٢٩٨٧). [عطية سالم (٨/ ٢٦٨)].

(٢) انظر التعليق على آية (٧) من سورة المؤمنون.

(٣) وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى. [السعدي (ص:٨٨٧)].

(٤) أي: عن يمين النبي ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة وعزين جمع عزة وهي العصبة من الناس، وقيل: أصلها عزوة من العزو، وكأن

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ﴾ رَدْعٌ لَهُمْ عَنْ طَمَعِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم﴾ كَغَيْرِهِمْ ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ مِنْ نُطَفٍ فَلَا يُطْمَعُ بِذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ وَإِنَّمَا يُطْمَعُ فِيهَا بِالتَّقْوَى(١). ﴿فَلَآ﴾ «لَا» زَائِدَةٌ ﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَسَائِرِ الْكَوَاكِبِ(٢) ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ نَأْتِي بَدَلَهُمْ

كل فرقة تعتزي إلى غير من تعتزي إليه الفرقة الأخرى، وقال في الصحاح: العزة الفرقة من الناس، والهاء عوض عن الياء والجمع عزى وعزون، قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: عزين العصب من الناس معرضين يستهزئون به، عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال دخل علينا رسول الله ﷺ المسجد ونحن حلق متفرقون، فقال: «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ؟». أخرجه مسلم (٤٣٠). [صديق حسن (١٤/ ٤٢١)]. يقول تعالى منكرا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه، متفرقون عنه، شاردون يمينا وشمالا فرقا فرقا، وشيعا شيعا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] وهذه مثلها؛ فإنه قال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: منطلقين، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ واحدها عزة، أي: متفرقين. وهو حال من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم. [ابن كثير (٨/ ٢٢٨)]. [وقيل:] نزلت لأن رسول الله ﷺ كان يصلي عند الكعبة أحيانا ويقرأ القرآن، فكان كثير من الكفار يقومون من مجالسهم مسرعين إليه يتسمعون قراءته، ويقول بعضهم لبعض: شاعر وكاهن ومفتر وغير ذلك. [ابن عطية (٥/ ٣٧٠)].

(١) كناية عن المني الذي خلق الإنسان منه، وفي المقصود بهذا الكلام ثلاثة أوجه: أحدها: تحقير الإنسان والرد على المتكبرين. الثاني: الرد على الكفار في طمعهم أن يدخلوا الجنة؛ كأنه يقول: إنا خلقناكم مما خلقنا منه الناس، فلا يدخل أحد الجنة إلا بالعمل الصالح؛ لأنكم سواء في الخلقة. الثالث: الاحتجاج على البعث بأن الله خلقهم من ماء مهين، فهو قادر على أن يعيدهم كقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخر السورة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤١٢)].

(٢) يعني مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربه، وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه وكل يوم مغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس. وغير مغربها بالأمس، وقيل مشرق كل نجم ومغربه. [صديق حسن (١٤/ ٣٢٢)]. ومجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين وتارة مفردين لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك. فالأول كقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، والثاني كقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، والثالث كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب موادها يطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة، وهي متعددة وحيث أفردت كان المراد أفقي المشرق والمغرب وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها فهذا مشرق صعودها وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء. فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقا واحدا ومشرق هبوطها بجملته مشرقا

﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ بِعَاجِزِينَ عَنْ ذَلِكَ(١). ﴿فَذَرْهُمْ﴾ اُتْرُكْهُمْ ﴿يَخُوضُواْ﴾ فِي بَاطِلِهِمْ ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا﴾ يَلْقَوْا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ فِيهِ اَلْعَذَابَ. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ اَلْقُبُورِ ﴿سِرَاعًا﴾ إِلَى اَلْمَحْشَرِ ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ اَلْحَرْفَيْنِ: شَيْءٍ مَنْصُوبٍ كَعَلَمٍ أَوْ رَايَةٍ ﴿يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يُسْرِعُونَ(٢). ﴿خَٰشِعَةً﴾ ذَلِيلَةً ﴿أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ﴾ تَغْشَاهُمْ(٣) ﴿ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ اَلْخَبَرُ، وَمَعْنَاهُ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ(٤).

واحدا ويقابلها مغرباها فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع. [بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ١٢٢)].

(١) أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين. كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٣-٤]. وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: ٦٠-٦١]. واختار ابن جرير: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها، كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله أعلم. [ابن كثير (٨/ ٢٢٩)].

(٢) وقرأ الحسن البصري: ﴿نُصُبٍ﴾ بضم النون والصاد، وهو الصنم، أي: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون، يبتدرون، أيهم يستلمه أول. وهذا مروي عن مجاهد، ويحيى بن أبي كثير، ومسلم البطين وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، وأبي صالح، وعاصم بن بهدلة، وابن زيد، وغيرهم. [ابن كثير (٨/ ٢٣٠)].

(٣) وصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار وذل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم، وقريب من هذا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٤-٢٥]، ونظيره قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧] ... وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا. [التبيان في أيمان القرآن لابن القيم (١/ ٢٩٨)].

(٤) أي: يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل قد حاق وحضر ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به وإن كان مستقبلاً فهو في حكم الذي قد وقع لتحقق وقوعه، قال الخطيب وهذا هو العذاب الذي سألوا عنه أول السورة فقد رجع آخرها على أولها. [صديق حسن (١٤/ ٣٢٥)].

سُورَةُ نُوحٍ

مَكِّيَّةٌ، ثَمَانٌ أَوْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ﴾ أَيْ: بِإِنْذَارِ[1] ﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ مُؤْلِمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢﴾ بَيِّنُ الْإِنْذَارِ. ﴿أَنِ﴾ أَيْ: بِأَنْ أَقُولَ لَكُمْ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿مِّن﴾ زَائِدَةٌ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يُغْفَرُ بِهِ مَا قَبْلَهُ، أَوْ تَبْعِيضِيَّةٌ لِإِخْرَاجِ حُقُوقِ الْعِبَادِ[2] ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ بِلَا عَذَابٍ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَجَلِ الْمَوْتِ ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ بِعَذَابِكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤﴾ ذَلِكَ لَآمَنْتُمْ[3]. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ٥﴾ أَيْ: دَائِمًا مُتَّصِلًا. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ٦﴾ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ لِئَلَّا يَسْمَعُوا كَلَامِي ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ بِهَا لِئَلَّا يُبْصِرُونِي ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ عَلَى كُفْرِهِمْ ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ تَكَبَّرُوا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿ٱسْتِكْبَارًا ٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ٨﴾ أَيْ: بِأَعْلَى صَوْتِي. ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ صَوْتِي ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ الْكَلَامَ[4] ﴿إِسْرَارًا ٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ

---

(١) كان جميع أهل الأرض من الآدميين أهل عصره، ولذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً، ونوح أول رسول أرسله الله بالنهي عن عبادة غير الله، لأن عبادة غيره إنما حدثت في زمن نوح، وإلا فمن المعلوم أن قبله رسلاً آدم وشيث وإدريس. [صديق حسن (١٤/ ٣٢٩)].

(٢) من هنا للتبعيض، أي: يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن تسلموا؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم، لأن ذلك في مشيئة الله تعالى، وقيل: إن من هنا زائدة وذلك باطل لأن من لا تزاد عند سيبويه إلا في غير الواجب. وقيل: هي لبيان الجنس، وقيل: لابتداء الغاية، وهذان القولان ضعيفان في المعنى، والأول هو الصحيح لأن التبعيض فيه متجه. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤١٣)].

(٣) قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فالأول: مجوز للتأخير، والثاني: يمنع منه؟ جوابه: قيل: الأول: أجل الموت بالنسبة إلى كل واحد. والثاني: أجلهم جميعا بالاستئصال. [كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة (ص:٣٦٦)].

(٤) ذكر أولاً أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهاراً، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار، وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة ﷺ، قال ابن عطية: الجهار دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم، والإسرار دعاء كل واحد على حدته. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤١٤)].

غَفَّارًا ⑩ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ الْمَطَرَ، وَكَانُوا قَدْ مُنِعُوهُ ﴿**عَلَيْكُم مِّدْرَارًا** ⑪﴾ كَثِيرَ الدُّرُورِ(١). ﴿**وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ**﴾ بَسَاتِينَ ﴿**وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا** ⑫﴾ جَارِيَةً. ﴿**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** ⑬﴾ أَيْ: تَأْمُلُونَ وَقَارَ اللهِ إِيَّاكُمْ بِأَنْ تُؤْمِنُوا(٢). ﴿**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** ⑭﴾ جَمْعُ «طَوْرٍ» وَهُوَ الْحَالُ، فَطَوْرًا نُطْفَةٌ وَطَوْرًا عَلَقَةٌ إِلَى تَمَامِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَالنَّظَرُ فِي خَلْقِهِ يُوجِبُ الْإِيمَانَ بِخَالِقِهِ. ﴿**أَلَمْ تَرَوْا**﴾ تَنْظُرُوا ﴿**كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا** ⑮﴾ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ. ﴿**وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ**﴾ أَيْ: فِي مَجْمُوعِهِنَّ الصَّادِقِ بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا(٣) ﴿**نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا** ⑯﴾ مِصْبَاحًا مُضِيئًا، وَهُوَ أَقْوَى مِنْ نُورِ الْقَمَرِ(٤). ﴿**وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم**﴾ خَلَقَكُمْ ﴿**مِّنَ ٱلْأَرْضِ**﴾ إِذْ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنْهَا ﴿**نَبَاتًا** ⑰ **ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا**﴾ مَقْبُورِينَ ﴿**وَيُخْرِجُكُمْ**﴾ لِلْبَعْثِ ﴿**إِخْرَاجًا** ⑱ **وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا** ⑲﴾ مَبْسُوطَةً(٥). ﴿**لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا**﴾ طُرُقًا ﴿**فِجَاجًا** ⑳﴾ وَاسِعَةً. ﴿**قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ**

---

(١) أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضمار، وقيل: المراد بالسماء المطر، والمدرار الدرور، وهو التحلب بالمطر، وانتصابه إما على الحال من السماء ولم يؤنث لأن مفعالا لا يؤنث بل يستوي فيه المذكر والمؤنث، تقول امرأة مئناث ومذكار، أو على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: إرسالاً مدراراً ... وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر، وحصول أنواع الأرزاق، [قال رسول الله ﷺ:] «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ». أخرجه أبو داود (١٥١٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٢٩٠)، وابن ماجه (٣٨١٩). [صديق حسن (١٤/ ٣٣٤)].

(٢) أي: عظمة، قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والضحاك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تعظمون الله حق عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته. [ابن كثير (٨/ ٢٣٣)].

(٣) منورا لوجه الأرض في ظلمة الليل وجعله فيهن مع أنه في إحداهن وهي السماء الدنيا كما يقال زيد في بغداد وهو في بقعة منها. [الآلوسي (١٥/ ٨٣)].

(٤) الإخبار عن القمر بأنه نور مبالغة في وصفه بالإنارة بمنزلة الوصف بالمصدر. والقمر ينير ضوءه الأرض إنارة مفيدة بخلاف غيره من نجوم الليل فإن إنارتها لا تجدي البشر. والسراج: المصباح الزاهر نوره الذي يوقد بفتيلة في الزيت يضيء التهابها المعدل بمقدار بقاء مادة الزيت تغمرها. والإخبار عن الشمس من التشبيه البليغ ... وفي جعل القمر نورا إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته فإن القمر مظلم وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمام وهو أثر ظهوره هلالا ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق. وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجا لأنها ملتهبة وأنوارها ذاتية فيها صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت وتلمع أواني الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٠٣)].

(٥) هذا استدلال وامتنان، ولذلك علق بفعل ﴿جَعَلَ﴾ مجرور بلام التعليل وهو ﴿لَكُمُ﴾ أي: لأجلكم. والبساط: ما يفرش للنوم عليه

﴿عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ﴾ أَي: اَلسَّفَلَةُ وَالفُقَرَاءُ ﴿مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوُلۡدُهُۥٓ﴾ وَهُمُ الرُّؤَسَاءُ الْمُنَعَّمَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَ «وُلْدُ» بِضَمِّ اَلْوَاوِ وَسُكُونِ اَللَّامِ وَبِفَتْحِهِمَا، وَالْأَوَّلُ قِيلَ: جَمْعُ «وَلَدٍ» بِفَتْحِهِمَا كَخُشْبٍ وَخَشَبٍ، وَقِيلَ: بِمَعْنَاهُ كَبُخْلٍ وَبَخَلٍ ﴿إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾ طُغْيَانًا وَكُفْرًا[1]. ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أَي: اَلرُّؤَسَاءُ ﴿مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ عَظِيمًا جِدًّا، بِأَنْ كَذَّبُوا نُوحًا وَآذَوْهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ. ﴿وَقَالُواْ﴾ لِلسَّفَلَةِ: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا﴾ بِفَتْحِ اَلْوَاوِ وَضَمِّهَا ﴿وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ هِيَ أَسْمَاءُ أَصْنَامِهِمْ[2]. ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ﴾ بِهَا ﴿كَثِيرٗاۖ﴾ مِنَ اَلنَّاسِ، بِأَنْ أَمَرُوهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤﴾ عَطْفًا عَلَى ﴿قَدۡ أَضَلُّواْ﴾ دَعَا عَلَيْهِمْ لَمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. ﴿مِّمَّا﴾ «مَا» صِلَةٌ ﴿خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿خَطِيٓـَٔتِهِمۡ﴾ بِالْهَمْزِ ﴿أُغۡرِقُواْ﴾ بِالطُّوفَانِ ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ عُوقِبُوا بِهَا عَقِبَ اَلْإِغْرَاقِ تَحْتَ اَلْمَاءِ ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ﴾ أَي: غَيْرَ ﴿ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾ يَمْنَعُونَ عَنْهُمُ اَلْعَذَابَ. ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ أَيْ: نَازِلَ دَارٍ، وَالْمَعْنَى: أَحَدًا. ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧﴾ مَنْ يَفْجُرُ وَيَكْفُرُ، قَالَ ذَلِكَ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ اَلْإِيحَاءِ إِلَيْهِ[3]. ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ وَكَانَا مُؤْمِنَيْنِ ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ﴾ مَنْزِلِي أَوْ مَسْجِدِي ﴿مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ إِلَى يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ هَلَاكًا، فَأُهْلِكُوا.

والجلوس من ثوب أو زربية، فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيه بليغ، أي: كالبساط. ووجه الشبه تناسب سطح الأرض في تعادل أجزائه بحيث لا يوجع أرجل الماشين ولا يقض جنوب المضطجعين، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط؛ لأن حجم الأرض كروي، وقد نبه على ذلك بالعلة الباعثة في قوله: ﴿لَكُمُ﴾، والعلة الغائية في قوله: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا﴾ وحصل من مجموع العلتين الإشارة إلى جميع النعم التي تحصل للناس من تسوية سطح الأرض مثل الحرث والزرع، وإلى نعمه خاصة وهي السير في الأرض وخصت بالذكر لأنها أهم لاشتراك كل الناس في الاستفادة منها. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٠٥)].

(١) في وصفهم بذلك إشعار بأنهم إنما اتبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم؛ بسبب الأموال والأولاد لا لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع. [أبو السعود (٩/ ٤٠)].

(٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، أما «ود»: فكانت لكلب بدومة الجندل؛ وأما «سواع»: فكانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، أما «يعوق»: فكانت لهمدان، وأما «نسر»: فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت. أخرجه البخاري (٤٩٢٠). [ابن كثير (٨/ ٢٣٤)].

(٣) أي: في تفسير الآية (٢٤) من هذه السورة.

سُورَةُ الجِنِّ

مَكِّيَّةٌ، ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ﴾ يا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أَيْ: أُخْبِرْتُ بِالْوَحْيِ مِنَ اللهِ تَعَالَى ﴿أَنَّهُ﴾ الضَّمِيرُ لِلشَّأْنِ ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾ لِقِرَاءَتِي ﴿نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ جِنُّ نَصِيبِينَ وَذَلِكَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِبَطْنِ نَخْلَةَ، مَوْضِعٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَهُمُ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ٱلْآيَةَ[١] ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لِقَوْمِهِمْ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ يُتَعَجَّبُ مِنْهُ فِي فَصَاحَتِهِ وَغَزَارَةِ مَعَانِيهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ ٱلْإِيمَانِ وَالصَّوَابِ[٢] ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ﴾ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ﴾ الضَّمِيرُ لِلشَّأْنِ فِيهِ وَفِي ٱلْمَوْضِعَيْنِ بَعْدَهُ ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ تَنَزَّهَ جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ عَمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ﴾ زَوْجَةً ﴿وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جَاهِلُنَا ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤﴾ غُلُوًّا فِي ٱلْكَذِبِ، بِوَصْفِهِ بِالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ:

---

(١) اختلف هل رآهم النبي ﷺ أم لم يرهم، فظاهر القرآن أنه لم يرهم لأن المعنى قل يا محمد لأمتك أوحي إلي على لسان جبريل أنه استمع نفر من الجن، ومثله قوله: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم. وروى ابن مسعود رضي الله عنه: أنه رآهم، ورجحه العلماء والحق صحتهما وإن الأول وقع أولا ثم نزلت السورة، ثم أمر بالخروج إليهم، قال عكرمة والسورة التي كان يقرؤها رسول الله ﷺ هي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] ... والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة، قال البغوي كانوا تسعة وقيل سبعة ... أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقيل: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجن: ١-٢] فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الحق. [صديق حسن (١٤/ ٣٤٩)].

(٢) الرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم. [السعدي (ص:٨٩٠)].

أَنَّهُ ﴿لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾ بِوَصْفِهِ بِذَلِكَ حَتَّى تَبَيَّنَّا كَذِبَهُمْ بِذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ﴾ يَسْتَعِيذُونَ ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ حِينَ يَنْزِلُونَ فِي سَفَرِهِمْ بِمَخُوفٍ، فَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ: «أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْمَكَانِ مِنْ شَرِّ سُفَهَائِهِ» ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ بِعَوْذِهِمْ بِهِمْ ﴿رَهَقًا ۝٦﴾ فَقَالُوا: «سُدْنَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ». ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أَيِ: الْجِنُّ ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ يَا إِنْسُ ﴿أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ بَعْدَ مَوْتِهِ. قَالَ الْجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ رُمْنَا اسْتِرَاقَ السَّمْعِ[1] ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ نُجُومًا مُحَرِّقَةً[2] وَذَلِكَ لَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ. ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ أَيْ: قَبْلَ مَبْعَثِهِ ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أَيْ: نَسْتَمِعُ ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ أُرْصِدَ لَهُ لِيُرْمَى بِهِ. ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ بَعْدَ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ ﴿بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ خَيْرًا[3]. ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ بَعْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: قَوْمٌ غَيْرُ صَالِحِينَ ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ فِرَقًا مُخْتَلِفِينَ مُسْلِمِينَ وَكَافِرِينَ[4]. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢﴾ أَيْ:

---

(١) اللمس: حقيقته الجس باليد، ويطلق مجازا على اختبار أمر؛ لأن إحساس اليد أقوى إحساس، فشبه به الاختبار على طريق الاستعارة. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٢٧)].

(٢) جمع شهاب، وهي الشعلة المقتبسة من نار الكواكب. [أبو السعود (٩/ ٤٤)].

(٣) هذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل. وقد ورد في الصحيح: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». أخرجه مسلم (٧٧١). وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ رمي بنجم فاستنار، فقال ﷺ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» فقلنا: كنا نقول: يولد عظيم، يموت عظيم، فقال: «فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ لَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ سَأَلَ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَهْلَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: فَيُخْبِرُونَهُمْ ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الخَبَرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَتَخْتَطِفُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَيَرْمُونَ فَيَقْذِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ وَيَزِيدُونَ». أخرجه مسلم (٢٢٢٩). وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي. [ابن كثير (٨/ ٢٤٠)].

(٤) أي: جماعات متفرقة وفرقاً شتى، وأصنافاً مختلفة وذوي مذاهب متفاوتة، والقدة القطعة من الشيء وصار القوم قدداً إذا تفرقت أحوالهم، واستعمال القدد في الفرق مجاز، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أهواء شتى. وقال سعيد بن المسيب: كانوا مسلمين ويهوداً ونصارى ومجوساً، وكذا قال

لَا نَفُوتُهُ كَائِنِينَ فِي ٱلْأَرْضِ، أَوْ هَارِبِينَ مِنْهَا فِي ٱلسَّمَاءِ. ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ٱلْقُرْآنَ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ بِتَقْدِيرِ «هُوَ» بَعْدَ ٱلْفَاءِ ﴿بَخْسًا﴾ نَقْصًا مِنْ حَسَنَاتِهِ ﴿وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ ظُلْمًا بِالزِّيَادَةِ فِي سَيِّئَاتِهِ. ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ ٱلْجَائِرُونَ بِكُفْرِهِمْ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ قَصَدُوا هِدَايَةً. ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ وَقُودًا(١). وَ«أَنَّا» وَ«أَنَّهُمْ» وَ«أَنَّهُ» فِي اِثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا هِيَ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا بِكَسْرِ ٱلْهَمْزَةِ اِسْتِئْنَافًا، وَبِفَتْحِهَا بِمَا يُوَجَّهُ بِهِ. قَالَ تَعَالَى فِي كُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿وَأَ﴾ نْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ ٱلثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: «وَأَنَّهُمْ» وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، ﴿لَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أَيْ: طَرِيقَةِ ٱلْإِسْلَامِ ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ كَثِيرًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَذَلِكَ بَعْدَ مَا رُفِعَ ٱلْمَطَرُ عَنْهُمْ سَبْعَ سِنِينَ(٢). ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ لِنَخْتَبِرَهُمْ ﴿فِيهِ﴾ فَنَعْلَمَ كَيْفَ شُكْرُهُمْ، عِلْمَ ظُهُورٍ ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ ٱلْقُرْآنِ ﴿نَسْلُكْهُ﴾ بِالنُّونِ وَٱلْيَاءِ: نُدْخِلْهُ ﴿عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ شَاقًّا. ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ مَوَاضِعَ ٱلصَّلَاةِ ﴿لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟﴾ فِيهَا ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ بِأَنْ تُشْرِكُوا، كَمَا كَانَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبِيَعَهُمْ أَشْرَكُوا(٣). ﴿وَأَنَّهُۥ﴾

مجاهد: قال الحسن: الجن أمثالكم قدرية ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة وسنية وكذا قال السدي. [صديق حسن (١٤/ ٣٥٨)].

(١) يعني الظالمين، يقال قسط الرجل إذا جار، وأقسط بالألف إذا عدل. هاهنا انتهى ما حكاه الله من كلام الجن، وأما قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ يحتمل أن يكون من بقية كلامهم. أو يكون ابتداء كلام الله تعالى وهو الذي اختاره ابن عطية، وأما قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ فهو من كلام الله باتفاق وليس من كلامهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤١٩)].

(٢) الماء الغدق الكثير وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي طريقة الإسلام وطاعة الله، فالمعنى لو استقاموا على ذلك لوسع الله أرزاقهم، فهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقيل: هي طريقة الكفر، والمعنى على هذا: لو استقاموا على الكفر لوسع الله عليهم في الدنيا أملاكهم استدراجاً، ويؤيد هذا قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ والأول أظهر، والضمير في ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ يحتمل أن يكون للمسلمين، أو القاسطين المذكورين، أو لجميع الجن، أو للجن الذين سمعوا النبي ﷺ، أو لجميع الخلق. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤١٩)].

(٣) أي: وأوحي إليّ أن المساجد مختصة بالله، وقال الخليل التقدير: ولأن المساجد، والمساجد المواضع التي بنيت للصلاة فيها، جمع مسجد بكسر الجيم وهو موضع السجود، قال سعيد بن جبير: قالت الجن كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن نائون فنزلت، وقال الحسن: أراد بها كل البقاع لأن الأرض جعلت كلها مسجداً للنبي ﷺ، وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والجبهة والأنف، وهو على هذا جمع مسجد بالفتح يقول هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله، وكذا قال عطاء، وقيل: المساجد هي الصلاة لأن السجود من جملة أركانها

بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ اِسْتِئْنَافًا، وَالضَّمِيرُ لِلشَّأْنِ ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ مُحَمَّدٌ اَلنَّبِيُّ ﷺ ﴿يَدْعُوهُ﴾ يَعْبُدُهُ بِبَطْنِ نَخْلَةَ ﴿كَادُواْ﴾ أَيِ: اَلْجِنُّ اَلْمُسْتَمِعُونَ لِقِرَاءَتِهِ ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩﴾ بِكَسْرِ اَللَّامِ وَضَمِّهَا جَمْعُ «لِبْدَةٍ» كَاللِّبَدِ فِي رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا اِزْدِحَامًا حِرْصًا عَلَى سَمَاعِ اَلْقُرْآنِ[1]. ﴿قَلَ﴾ مُجِيبًا لِلْكُفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ: «اِرْجِعْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ»، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قُلْ﴾، ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ إِلَهًا ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ٢٠ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا﴾ غَيًّا ﴿وَلَا رَشَدًا ٢١﴾ خيرًا. ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴿أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿مُلْتَحَدًا ٢٢﴾ مُلْتَجَأً. ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ اِسْتِثْنَاءٌ مِنْ مَفْعُولِ ﴿أَمْلِكُ﴾، أَيْ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ إِلَّا اَلْبَلَاغَ إِلَيْكُمْ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: عَنْهُ ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿بَلَٰغًا﴾، وَمَا بَيْنَ اَلْمُسْتَثْنَى مِنْهُ وَالِاسْتِثْنَاءِ اِعْتِرَاضٌ لِتَأْكِيدِ نَفْيِ اَلِاسْتِطَاعَةِ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فِي اَلتَّوْحِيدِ فَلَمْ يُؤْمِنْ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «مَنْ» فِي «لَهُ» رِعَايَةً لِمَعْنَاهَا، وَهِيَ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ وَالْمَعْنَى: يَدْخُلُونَهَا مِقْدَارَ خُلُودِهِمْ[2] ﴿فِيهَآ أَبَدًا ٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ اِبْتِدَائِيَّةٌ فِيهَا مَعْنَى اَلْغَايَةِ لِمُقَدَّرٍ قَبْلَهَا، أَيْ: لَا يَزَالُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ إِلَى أَنْ يَرَوْا[3] ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ بِهِ مِنَ اَلْعَذَابِ

قاله الحسن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا ببيت المقدس، وقيل: المراد بها البيوت التي تبنيها أهل الملل للعبادة، والقول بأنها البيوت المبنية للعبادة أظهر الأقوال إن شاء الله تعالى وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإضافة المساجد إلى الله إضافة تشريف وتكريم وقد تنسب إلى غيره تعريفًا. [صديق حسن (١٤/ ٣٦٢)].

(١) أي: جماعات بعضها فوق بعض، تعجبا مما رأوه من عبادته، واقتداء أصحابه به، وإعجابا بما تلا من القرآن؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره. فالضمير في ﴿كَادُواْ﴾ للجن ... وجوز رجوعه للمشركين بمكة، والمعنى: لما قام رسولنا يعبد الله وحده، مخالفا للمشركين في عبادتهم الآلهة من دونه، كاد المشركون لتظاهرهم عليه، وتعاونهم على عداوته، يزدحمون عليه متراكمين، حكاه الزمخشري، ثم قال: ﴿لِبَدًا﴾ جمع لبدة، وهو ما تلبد بعضه على بعض، ومنها لبدة الأسد. [القاسمي (٩/ ٣٣٤)]. وقيل: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه. وهذا قول ثالث، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقول ابن زيد، واختيار ابن جرير، وهو الأظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾. [ابن كثير (٨/ ٢٤٥)].

(٢) ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد لمعنى الخلود، أي: خالدين فيها بلا نهاية. [الشوكاني (٥/ ٣٧٢)].

(٣) كانوا إذا سمعوا آيات الوعد بنصر الرسول ﷺ والمسلمين في الدنيا والآخرة، وآيات الوعيد للمشركين بالانهزام وعذاب الآخرة وعذاب الدنيا استسخروا من ذلك وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [السجدة: ٢٨]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، فهم مغرورون بالاستدراج والإمهال فلذلك عقب وعيدهم بالغاية المفادة من ﴿حَتَّىٰٓ﴾ فالغاية هنا متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام من سخرية الكفار من

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ حُلُولِهِ بِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، أَوْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ أَعْوَانًا، أَهُمْ أَمِ اَلْمُؤْمِنُونَ عَلَى اَلْقَوْلِ اَلْأَوَّلِ، أَوْ أَنَا أَمْ هُمْ عَلَى اَلثَّانِي(١). فَقَالَ بَعْضُهُمْ مَتَى هَذَا اَلْوَعْدُ؟ فَنَزَلَ: ﴿قُلْ إِنْ﴾ أَيْ: مَا ﴿أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ اَلْعَذَابِ ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ غَايَةً وَأَجَلًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ(٢). ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ مَا غَابَ عَنِ اَلْعِبَادِ ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ يُطْلِعُ ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ مِنَ اَلنَّاسِ. ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ﴾ مَعَ إِطْلَاعِهِ عَلَى مَا شَاءَ مِنْهُ مُعْجِزَةً لَهُ ﴿يَسْلُكُ﴾ يَجْعَلُ وَيَسِيرُ ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أَيِ: اَلرَّسُولِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ فِي جُمْلَةِ اَلْوَحْيِ(٣). ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ اللهُ عِلْمَ ظُهُورٍ ﴿أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ اَلثَّقِيلَةِ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿قَدْ أَبْلَغُواْ﴾ أَيِ: اَلرُّسُلُ ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ رُوعِيَ بِجَمْعِ اَلضَّمِيرِ مَعْنَى «مِنْ» ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ، أَيْ: فَعَلِمَ ذَلِكَ ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾ تَمْيِيزٌ وَهُوَ مُحَوَّلٌ مِنَ اَلْمَفْعُولِ، وَالْأَصْلُ: أَحْصَى عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ.

الوعيد واستضعافهم المسلمين في العدد والعدد، فإن ذلك يفهم منه أنهم لا يزالون يحسبون أنهم غالبون فائزون حتى إذا رأوا ما يوعدون تحققوا إخفاق آمالهم. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٤٥)].

(١) أي: بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عددا من جنود الله عز وجل. [ابن كثير (٨/ ٢٤٦)].

(٢) فيا لله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم ويذكرون قوتهم من جهة مولاهم الذي بيده الملك وله جنود السماوات والأرض بخلاف الجبابرة فإنهم لا كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم، وازدراء غيرهم. [صديق حسن (١٤/ ٣٦٧)]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا، أي: لا أدري فـ «إن» بمعنى: «ما» أو «لا»، أي: لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله، فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفنيه الله. [القرطبي (١٩/ ٢٧)].

(٣) قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه، لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات، وفي التنزيل: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩] ... ليكون ذلك دالا على نبوته. وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصى وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه. ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ يعني ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان، فيحفظ الوحي من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة. [القرطبي (١٩/ ٢٧)].

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

مَكِّيَّةٌ، أَوْ إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ إِلَى آخِرِهَا فَمَدَنِيٌّ، تِسْعَ عَشْرَةَ أَوْ عِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ النَّبِيُّ، وَأَصْلُهُ «الْمُتَزَمِّلُ» أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الزَّايِ، أَيِ: الْمُتَلَفِّفُ بِثِيَابِهِ حِينَ مَجِيءِ الْوَحْيِ لَهُ، خَوْفًا مِنْهُ لِهَيْبَتِهِ. ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ صَلِّ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿قَلِيلٗا﴾ وَقِلَّتُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْكُلِّ ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ مِنَ النِّصْفِ ﴿قَلِيلًا ۝٣﴾ إِلَى الثُّلُثِ. ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ إِلَى الثُّلُثَيْنِ وَأَوْ لِلتَّخْيِيرِ[1] ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تَثَبَّتْ فِي تِلَاوَتِهِ[2] ﴿تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا﴾ أَيْ: قُرْآنًا ﴿ثَقِيلًا ۝٥﴾ مَهِيبًا أَوْ شَدِيدًا لِمَا فِيهِ مِنَ التَّكَالِيفِ[3]. ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ الْقِيَامَ بَعْدَ النَّوْمِ ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ مُوَافَقَةَ السَّمْعِ لِلْقَلْبِ عَلَى تَفَهُّمِ الْقُرْآنِ ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أَبْيَنُ قَوْلًا. ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ تَصَرُّفًا فِي أَشْغَالِكَ لَا تَفْرُغُ فِيهِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ. ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أَيْ: قُلْ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فِي ابْتِدَاءِ قِرَاءَتِكَ[4] ﴿وَتَبَتَّلۡ﴾ انْقَطِعْ ﴿إِلَيۡهِ﴾ فِي الْعِبَادَةِ[5] ﴿تَبۡتِيلٗا ۝٨﴾ مَصْدَرُ «بَتَلَ» جِيءَ بِهِ رِعَايَةً لِلْفَوَاصِلِ وَهُوَ مَلْزُومُ التَّبَتُّلِ. هُوَ ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ مُوَكَّلًا لَهُ أُمُورَكَ[6]. ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ مِنْ أَذَاهُمْ ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾ لَا جَزَعَ فِيهِ

---

(١) أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك. [ابن كثير (٨/ ٢٥٠)].

(٢) الترتيل هو التمهل والمد وإشباع الحركات وبيان الحروف، وذلك مُعينٌ على التفكر في معاني القرآن، بخلاف الهذر الذي لا يفقه صاحبه ما يقول، وكان رسول الله ﷺ يُقَطِّع قراءته حرفًا حرفًا، ولا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب، إلا وقف وتعوَّذ. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٢٣)].

(٣) قال بعض المفسرين: إن الثقل في وزن الثواب، وقيل: في التكاليف به، وقيل: أثناء نزول الوحي عليه، وكل ذلك ثابت للقرآن الكريم. [عطية سالم (٨/ ٣٥٨)].

(٤) أي: دم على ذكره ليلا ونهارا. قال الزمخشري: وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسبيح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره. [القاسمي (٩/ ٣٤٢)].

(٥) التبتل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والتبتل المنهي عنه: هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ». أخرجه البخاري (١٩). [القرطبي (١٩/ ٤٥)].

(٦) أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، كما قال في الآية الأخرى:

وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ[1]. ﴿وَذَرۡنِي﴾ اتْرُكْنِي ﴿وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عطفٌ عَلَى الْمَفْعُولِ، أَوْ مَفْعُولٌ مَعَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَا كَافِيكَهُمْ، وَهُمْ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ التَّنَعُّمِ[2] ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ مِنَ الزَّمَنِ، فَقُتِلُوا بَعْدَ يَسِيرٍ مِنْهُ بِبَدْرٍ. ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا﴾ قُيُودًا ثِقَالًا، جَمْعُ «نِكْلٍ» بِكَسْرِ النُّونِ ﴿وَجَحِيمٗا ١٢﴾ نَارًا مُحْرِقَةً. ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ يُغَصُّ بِهِ فِي الْحَلْقِ، وَهُوَ: الزَّقُّومُ أَوِ الضَّرِيعُ أَوِ الْغِسْلِينُ أَوْ شَوْكٌ مِنْ نَارٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يَنْزِلُ ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣﴾ مُؤْلِمًا زِيَادَةً عَلَى مَا ذُكِرَ لِمَنْ كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ. ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ﴾ تُزَلْزَلُ ﴿ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا﴾ رَمْلًا مُجْتَمِعًا ﴿مَّهِيلًا ١٤﴾ سَائِلًا بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ، وَهُوَ مِنْ هَالَ يَهِيلُ، وَأَصْلُهُ «مَهْيُولٌ» اسْتُثْقِلَتِ الضَّمَّةُ عَلَى الْيَاءِ فَنُقِلَتْ إِلَى الْهَاءِ، وَحُذِفَتِ الْوَاوُ ثَانِي السَّاكِنَيْنِ لِزِيَادَتِهَا، وَقُلِبَتِ الضَّمَّةُ كَسْرَةً لِمُجَانَسَةِ الْيَاءِ[3]. ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿رَسُولٗا﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا يَصْدُرُ مِنْكُمْ مِنَ الْعِصْيَانِ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ شَدِيدًا. ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَوۡمٗا﴾ مَفْعُولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾، أَيْ: عَذَابَهُ، أَيْ: بِأَيِّ حِصْنٍ تَتَحَصَّنُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ جَمْعُ «أَشْيَبَ» لِشِدَّةِ هَوْلِهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَالْأَصْلُ فِي شِينِ «شِيبَ» الضَّمُّ، وَكُسِرَتْ لِمُجَانَسَةِ الْيَاءِ، وَيُقَالُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ: «يَوْمٌ يَشِيبُ نَوَاصِيَ الْأَطْفَالِ» وَهُوَ مَجَازٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ الْحَقِيقَةَ[4]. ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ﴾ ذَاتُ انْفِطَارٍ، أَيِ: انْشِقَاقٍ ﴿بِهِۦ﴾ بِذَلِكَ الْيَوْمِ لِشِدَّتِهِ ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾ تَعَالَى

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣] وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه. [ابن كثير (٨/ ٢٥٥)].

(١) وقيل: إنما المنسوخ المهادنة التي يقتضيها قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ وأما الصبر فمأمور به في كل وقت. [ابن جُزَيّ (٢/ ٢٤٢)].

(٢) يحتمل قوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أنه قال تعريفا لهم إن المبالغين في التكذيب هم أولو النعمة. الثاني: أنه قال ذلك تعليلا، أي: الذين أطغى هُم أولو النعمة. الثالث: أنه قال توبيخا أنهم كذبوا ولم يشكروا من أولاهم النعمة. [الماوردي (٦/ ١٢٩)].

(٣) الرجف: الزلزلة والاضطراب، والمراد: الرجف المتكرر المستمر، وهو الذي يكون به انفراط أجزاء الأرض وانحلالها. والكثيب: الرمل المجتمع كالربوة، أي: تصير حجارة الجبال دقاقا. ومهيل: اسم مفعول من هال الشيء هيلا، إذا نثره وصبه ... وجيء بفعل ﴿كَانَتِ﴾ في قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا﴾ للإشارة إلى تحقيق وقوعه حتى كأنه وقع في الماضي. ووجه مخالفته لأسلوب ﴿تَرۡجُفُ﴾ أن صيرورة الجبال كثبا أمر عجيب غير معتاد، فلعله يستبعده السامعون، وأما رجف الأرض فهو معروف، إلا أن هذا الرجف الموعود به أعظم ما عرف جنسه. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٧١)].

(٤) وهو وصف له باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان؛ لأنه شاع أن الهم مما يسرع به الشيب، فلما أريد وصف هم ذلك اليوم بالشدة

بِمَجِيءِ ذَلِكَ ﴿مَفْعُولًا ۝١٨﴾ أَيْ هُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ الْآيَاتِ الْمُخَوِّفَةَ ﴿تَذْكِرَةٌۖ﴾ عِظَةٌ لِلْخَلْقِ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ طَرِيقًا بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ. ﴿*إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أَقَلَّ ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ﴾ بِالْجَرِّ عَطْفٌ عَلَى ﴿ثُلُثَيِ﴾، وَبِالنَّصْبِ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَدْنَىٰ﴾، وَقِيَامُهُ كَذَلِكَ نَحْوَ مَا أُمِرَ بِهِ أَوَّلَ السُّورَةِ ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ عَطْفٌ عَلَى ضَمِيرِ ﴿تَقُومُ﴾، وَجَازَ مِنْ غَيْرِ تَأْكِيدٍ لِلْفَصْلِ، وَقِيَامُ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ كَذَلِكَ لِلتَّأَسِّي بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى مِنَ اللَّيْلِ وَكَمْ بَقِيَ مِنْهُ فَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ احْتِيَاطًا، فَقَامُوا حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ، فَخُفِّفَ عَنْهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾ يُحْصِي ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ أَيِ: اللَّيْلَ لِتَقُومُوا فِيمَا يَجِبُ الْقِيَامُ فِيهِ إِلَّا بِقِيَامِ جَمِيعِهِ وَذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ﴾ رَجَعَ بِكُمْ إِلَى التَّخْفِيفِ ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ فِي الصَّلَاةِ بِأَنْ تُصَلُّوا مَا تَيَسَّرَ ﴿عَلِمَ أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُسَافِرُونَ ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ يَطْلُبُونَ مِنْ رِزْقِهِ بِالتِّجَارَةِ وَغَيْرِهَا ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ وَكُلٌّ مِنَ الْفِرَقِ الثَّلَاثَةِ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ مَا ذُكِرَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، فَخُفِّفَ عَنْهُمْ بِقِيَامِ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ، ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ[1] ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الْمَفْرُوضَةَ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بِأَنْ تُنْفِقُوا مَا سِوَى الْمَفْرُوضِ مِنَ الْمَالِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ ﴿قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ عَنْ طِيبِ قَلْبٍ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ مِمَّا خَلَّفْتُمْ، وَهُوَ فَصْلٌ وَمَا بَعْدَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرِفَةً يُشْبِهُهَا لِامْتِنَاعِهِ مِنَ التَّعْرِيفِ[2] ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝٢٠﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ.

البالغة أقواها أسند إليه يشيب الولدان الذين شعرهم في أول سواده. وهذه مبالغة عجيبة، وهي من مبتكرات القرآن، والشيب كناية عن هذا الهول فاجتمع في الآية مجازان عقليان، وكناية ومبالغة. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٧٥)].

(١) للأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول الله ﷺ هل على غيرها يعني الصلوات الخمس، فقال: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». أخرجه البخاري (٢٦٧٨)، ومسلم (١١). فدلت على عدم وجوب غيرها فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته على الأمة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبي ﷺ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. [الشوكاني (٥/ ٣٨٦)].

(٢) قال النبي ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟»، قالوا يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ». أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

سُورَةُ المُدَّثِّر

مَكِّيَّةٌ، خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ①﴾ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَصْلُهُ «الْمُتَدَثِّرُ» أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ، أَي: الْمُتَلَفِّفُ بِثِيَابِهِ عِنْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ(١). ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ②﴾ خَوِّفْ أَهْلَ مَكَّةَ النَّارَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ③﴾ عَظِّمْ عَنْ إِشْرَاكِ الْمُشْرِكِينَ. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ④﴾ عَنِ النَّجَاسَةِ أَوْ قَصِّرْهَا خِلَافَ جَرِّ الْعَرَبِ ثِيَابَهُمْ خُيَلَاءَ فَرُبَّمَا أَصَابَتْهَا نَجَاسَةٌ(٢). ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾ فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَوْثَانِ(٣) ﴿فَٱهۡجُرۡ ⑤﴾ أَيْ: دُمْ عَلَى هَجْرِهِ. ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ⑥﴾ بِالرَّفْعِ حَالٌ، أَيْ: لَا تُعْطِ شَيْئًا لِتَطْلُبَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَهَذَا خَاصٌّ بِهِ ﷺ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَجْمَلِ الْأَخْلَاقِ وَأَشْرَفِ الْآدَابِ(٤). ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ⑦﴾

---

(١) أي: تغشى بها من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي ... قال الخطيب اختلف في أول ما نزل من القرآن اختلافاً طويلاً، وتحقيق المعتمد منه وطريق الجمع بين الأحاديث المتناقضة فيه أن أول ما نزل على الإطلاق: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، وأول ما نزل بعد فترة الوحي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ إلى ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾. [صديق حسن (١٤/ ٤٠١)].

(٢) فيه ثلاثة أقوال، أحدها أنه حقيقة في تطهير الثياب من النجاسة، واختلف في هذا هل يحمل على الوجوب، فتكون إزالة النجاسة واجبة، أو على الندب فتكون سنة، والآخر أنه يراد به الطهارة من الذنوب والعيوب، فالثياب على هذا مجاز، الثالث: أن معناه لا تلبس الثياب من مكسب خبيث. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٢٧)].

(٣) عن جابر بن عبد الله، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ برفع الراء، وقال: «هِيَ الْأَوْثَانُ». أخرجه الحاكم (٢٩٩٢). و «الرِّجْزَ» بكسر الراء كالرجس، والسين والزاي يتبادلان، لأنهما من حروف الصفير. و «الرجس» اسم للقبيح المستقذر، كني به عن عبادة الأوثان خاصة، لقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠] أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق، والجملة من جوامع الكلم في مكارم الأخلاق، كأنه قيل: اهجر الجفاء والسفه وكل قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز. [القاسمي (٩/ ٣٥٢)].

(٤) قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وأبو الأحوص، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وروي عن ابن مسعود أنه قرأ: (ولا تَمْنُنْ أن تَستكثِر)، وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال خصيف، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ قال: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال تمنن في كلام العرب: تضعف. وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضا من الدنيا. فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم.. [ابن كثير (٨/ ٢٦٤)].

عَلَى ٱلْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي[١]. ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ٨﴾ نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ وَهُوَ ٱلْقَرْنُ ٱلنَّفْخَةَ ٱلثَّانِيَةَ[٢]. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: وَقْتَ ٱلنَّقْرِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ ٱلْمُبْتَدَأُ، وَبُنِيَ لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ، وَخَبَرُ ٱلْمُبْتَدَإِ: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩﴾ وَالْعَامِلُ فِي «إِذَا» مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلْجُمْلَةُ، أَيْ: اِشْتَدَّ ٱلْأَمْرُ. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ يَسِيرٌ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: فِي عُسْرِهِ. ﴿ذَرْنِى﴾ اُتْرُكْنِي ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ٱلْمَفْعُولِ أَوْ مَفْعُولٌ مَعَهُ ﴿وَحِيدًا ١١﴾ حَالٌ مِنْ ﴿مَنْ﴾ أَوْ مِنْ ضَمِيرِهِ ٱلْمَحْذُوفِ مِنْ ﴿خَلَقْتُ﴾ مُنْفَرِدًا بِلَا أَهْلٍ وَلَا مَالٍ وَهُوَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ ٱلْمُغِيرَةِ. ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ١٢﴾ وَاسِعًا مُتَّصِلًا مِنَ ٱلزُّرُوعِ وَالضُّرُوعِ وَالتِّجَارَةِ. ﴿وَبَنِينَ﴾ عَشَرَةً أَوْ أَكْثَرَ ﴿شُهُودًا ١٣﴾ يَشْهَدُونَ ٱلْمَحَافِلَ وَتُسْمَعُ شَهَادَاتُهُمْ[٣]. ﴿وَمَهَّدتُّ﴾ بَسَطْتُ ﴿لَهُۥ﴾ فِي ٱلْعَيْشِ وَالْعُمُرِ وَالْوَلَدِ ﴿تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآ﴾ لَا أَزِيدُهُ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا﴾ ٱلْقُرْآنِ ﴿عَنِيدًا ١٦﴾ مُعَانِدًا. ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ أُكَلِّفُهُ ﴿صَعُودًا ١٧﴾ مَشَقَّةً مِنَ ٱلْعَذَابِ، أَوْ جَبَلًا مِنْ نَارٍ يَصْعَدُ فِيهِ ثُمَّ يَهْوِي أَبَدًا[٤]. ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ فِيمَا يَقُولُ فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلَّذِي

---

(١) أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى، فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس بعد منة الله من غير أن يطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورا، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. [السعدي (ص:٨٩٥)].

(٢) ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب الصوت ... ويقولون: نقر باسم الرجل إذا دعاه، والمراد هنا النفخ في الصور، والمراد النفخة الثانية، وقيل: الأولى. [الشوكاني (٥/ ٣٩٠)]. ورجح أنه يوم الثانية لأنه الذي يختص عسره بالكافرين، وأما وقت النفخة الأولى فحكمه الذي هو الإصعاق يعم البر والفاجر وهو على المشهور مختص بمن كان حيا عند وقوع النفخة. [الآلوسي (١٥/ ١٣٥)]. قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد والشعبي، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد: ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ الصور. قال مجاهد: وهو كهيئة القرن ... وعن ابن عباس: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ فقال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنَا جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ»، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا». أخرجه أحمد (١٩٣٤٥). [ابن كثير (٨/ ٢٦٤)].

(٣) قال مجاهد: لا يغيبون، أي: حضورا عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم. [ابن كثير (٨/ ٢٦٥)].

(٤) عن النبي ﷺ قال: «الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَتَصَعَّدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ يَهْوِي فَهُوَ كَذَلِكَ». أخرجه أحمد والترمذي وابن جرير وابن

سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَقَدَّرَ ١٨﴾ فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ. ﴿فَقُتِلَ﴾ لُعِنَ وَعُذِّبَ ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ١٩﴾ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ تَقْدِيرُهُ. ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١﴾ فِي وُجُوهِ قَوْمِهِ أَوْ فِيمَا يَقْدَحُ بِهِ فِيهِ. ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قَبَضَ وَجْهَهُ وَكَلَّحَهُ ضِيقًا بِمَا يَقُولُ ﴿وَبَسَرَ ٢٢﴾ زَادَ فِي الْقَبْضِ وَالْكُلُوحِ. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿وَاسْتَكْبَرَ ٢٣﴾ تَكَبَّرَ عَنِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَقَالَ﴾ فِيمَا جَاءَ بِهِ: ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٤﴾ يُنْقَلُ عَنِ السَّحَرَةِ. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥﴾ كَمَا قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣][1]. ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ أُدْخِلُهُ ﴿سَقَرَ ٢٦﴾ جَهَنَّمَ. ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهَا. ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ شَيْئًا مِنْ لَحْمٍ وَلَا عَصَبٍ إِلَّا أَهْلَكَتْهُ، ثُمَّ يَعُودُ كَمَا كَانَ. ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ٢٩﴾ مُحَرِّقَةٌ لِظَاهِرِ الْجِلْدِ. ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾ مَلَكًا خَزَنَتُهَا، قَالَ بَعْضُ الْكُفَّارِ وَكَانَ قَوِيًّا شَدِيدَ الْبَأْسِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ وَاكْفُونِي أَنْتُمُ اثْنَيْنِ[2]. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ النَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾

المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي، قال الترمذي بعد إخراجه غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج. قال ابن كثير وفيه غرابة ونكارة انتهى. [الشوكاني (٥/ ٣٩٥)]. [والمعنى] أي: سأغشيه عقبة شاقة المصعد. وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق، قاله الزمخشري. قال الشهاب: ومعنى كونه مثلا، أنه شبه ما يسوقه الله له من المصائب، بتكليف الصعود في الجبال الوعرة الشاهقة، وأطلق لفظه عليه. فهو استعارة تمثيلية. [القاسمي (٩/ ٣٥٣)].

(١) روى جمهور من المفسرين أن الوليد سمع من القرآن ما أعجبه ومدحه، ... حتى كاد أن يقارب الإسلام، ودخل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه مرارا، فجاءه أبو جهل فقال: يا وليد، أشعرت أن قريشا قد ذمتك بدخولك إلى ابن أبي قحافة، وزعمت أنك إنما تقصد أن تأكل طعامه؟ وقد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد، وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في هذا الكلام قولا يرضيهم، ففتنه أبو جهل فافتتن، وقال: افعل ذلك، ثم فكر فيما عسى أن يقول في القرآن، فقال: أقول هو شعر، ما هو بشعر، أقول: هو كاهن، ما هو بكاهن، أقول: هو سحر يؤثر، هو قول البشر، أي: ليس منزلا من عند الله تعالى، قال أكثر المفسرين: فقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠﴾ هو دعاء عليه وتقبيح لحاله، أي أنه ممن يستحق ذلك. [ابن عطية (٥/ ٣٩٤)].

(٢) التمييز محذوف، والمتبادر إلى الذهن أنه ملك. ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه أن المراد ملَك حين سمعوا ذلك، فقال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ النَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: ما جعلناهم رجالا من جنسكم يطاقون، وأنزل الله تعالى في أبي جهل: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤]. وقيل: التمييز المحذوف صنفا من الملائكة، وقيل: نقيبا، ومعنى ﴿عَلَيْهَا﴾ يتولون أمرها، وإليهم جماع زبانيتها، فالذي يظهر من العدد ومن الآية بعد ذلك ومن الحديث، أن هؤلاء هم النقباء. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ وقوله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ

أَيْ: فَلَا يُطَاقُونَ كَمَا يَتَوَهَّمُونَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ ذَلِكَ ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ ضَلَالًا ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِأَنْ يَقُولُوا: لِمَ كَانُوا تِسْعَةَ عَشَرَ؟ ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ لِيَسْتَبِينَ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ صِدْقَ النَّبِيِّ ﷺ فِي كَوْنِهِمْ تِسْعَةَ عَشَرَ الْمُوَافِقِ لِمَا فِي كِتَابِهِمْ[1] ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿إِيمَٰنًا﴾ تَصْدِيقًا لِمُوَافَقَتِهِ مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ لِمَا فِي كِتَابِهِمْ ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنْ غَيْرِهِمْ فِي عَدَدِ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شَكٌّ بِالْمَدِينَةِ[2] ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بِمَكَّةَ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ الْعَدَدِ ﴿مَثَلًا﴾ سَمَّوْهُ لِغَرَابَتِهِ بِذَلِكَ، وَأُعْرِبَ حَالًا ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أَيْ: مِثْلَ إِضْلَالِ مُنْكِرِ هَذَا الْعَدَدِ، وَهُدَى مُصَدِّقِهِ ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةَ فِي قُوَّتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ ﴿إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ﴾ أَيْ: سَقَرُ ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ عِظَةٌ ﴿لِلْبَشَرِ ٣١ كَلَّا﴾ اسْتِفْتَاحٌ بِمَعْنَى: أَلَا ﴿وَٱلْقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ﴾ بِفَتْحِ الذَّالِ ﴿دَبَرَ ٣٣﴾ جَاءَ بَعْدَ النَّهَارِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ بِسُكُونِ الذَّالِ بَعْدَهَا هَمْزَةٌ، أَيْ: مَضَى. ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ٣٤﴾ ظَهَرَ. ﴿إِنَّهَا﴾ أَيْ: سَقَرُ ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ٣٥﴾ الْبَلَايَا الْعِظَامِ. ﴿نَذِيرًا﴾ حَالٌ مِنْ «إِحْدَى الْكُبَرِ» وَذُكِّرَ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى: الْعَذَابِ ﴿لِّلْبَشَرِ ٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إِلَى الْخَيْرِ أَوِ الْجَنَّةِ بِالْإِيمَانِ ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ إِلَى الشَّرِّ أَوِ النَّارِ بِالْكُفْرِ[3]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ مَرْهُونَةٌ مَأْخُوذَةٌ بِعَمَلِهَا فِي النَّارِ[4]. ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ٣٩﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَنَاجُونَ مِنْهَا كَائِنُونَ. ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠﴾ بَيْنَهُمْ. ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٤١﴾ وَحَالِهِمْ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ بَعْدَ إِخْرَاجِ

لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا». أخرجه مسلم (٢٨٤٢). [أبو حيان (١٠/ ٣٣٢)].

(١) المراد بهم اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن لما عندهم. [صديق حسن (١٤/ ٤١٥)].

(٢) المرض عبارة عن الشك، وأكثر ما يطلق الذين في قلوبهم مرض على المنافقين. فإن قيل: هذه السورة مكية ولم يكن حينئذ منافقون وإنما حدث المنافقون بالمدينة، فالجواب من وجهين: أحدهما: أن معناه يقول المنافقون إذا حدثوا، ففيه إخبار بالغيب، والآخر: أن يريد من كان بمكة من أهل الشك. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٢٩)].

(٣) معنى إضافة المشيئة إلى المخاطبين: التهديد، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. [الواحدي (٢٢/ ٤٥١)].

(٤) في سورة الطور قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] وهذه الآية تقتضي عموم رهن كل إنسان بعمله ... نظرا للشمول المدلول عليه بلفظة: «كل»، وقد جاءت آية سورة المدثر تدل على عدم شمولها لأصحاب اليمين، وهي قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ٣٩﴾ فآية «الطور» تخصصها آية «المدثر» والتخصيص بيان، كما تقرر في الأصول. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٢٩٧)].

ٱلْمُوَحِّدِينَ مِنَ ٱلنَّارِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أَدْخَلَكُمْ ﴿فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ فِي ٱلْبَاطِلِ ﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦﴾ ٱلْبَعْثِ وَٱلْجَزَاءِ(١). ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧﴾ ٱلْمَوْتُ(٢). ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ، وَٱلْمَعْنَى: لَا شَفَاعَةَ لَهُمْ. ﴿فَمَا﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿لَهُمْ﴾ خَبَرُهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ ٱنْتَقَلَ ضَمِيرُهُ إِلَيْهِ ﴿عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ حَالٌ مِنَ ٱلضَّمِيرِ، وَٱلْمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ حَصَلَ لَهُمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ ٱلِٱتِّعَاظِ. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠﴾ وَحْشِيَّةٌ. ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١﴾ أَسَدٍ، أَيْ: هَرَبَتْ مِنْهُ أَشَدَّ ٱلْهَرَبِ(٣). ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾ أَيْ: مِنَ ٱللهِ تَعَالَى بِٱتِّبَاعِ ٱلنَّبِيِّ كَمَا قَالُوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ﴾ [الإسراء: ٩٣](٤). ﴿كَلَّا ۖ﴾ رَدْعٌ عَمَّا أَرَادُوهُ ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٥٣﴾ أَيْ: عَذَابَهَا. ﴿كَلَّآ﴾ ٱسْتِفْتَاحٌ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: ٱلْقُرْآنُ ﴿تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾ عِظَةٌ. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ قَرَأَهُ فَٱتَّعَظَ بِهِ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بِٱلْيَاءِ وَٱلتَّاءِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ بِأَنْ يُتَّقَى ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ بِأَنْ يَغْفِرَ لِمَنِ ٱتَّقَاهُ(٥).

---

(١) وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيماً له لأنه أعظم جرائمهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٣٠)].

(٢) وهو الموت كما في قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وبه قال ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا غاية في الأمور الأربعة. [صديق حسن (١٤/ ٤٢١)].

(٣) شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرمي نفرت منه أشد النفور. وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا وحضه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد فكأنها تواصت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته. [إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ١٢٦)].

(٤) أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتابا كما أنزل على النبي ﷺ. قاله مجاهد وغيره، كقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل. [ابن كثير (٨/ ٢٧٤)].

(٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وقال: «قَالَ رَبُّكُمْ: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَّقَى، فَلَا يُجْعَلْ مَعِي إِلَهٌ، فَمَنِ اتَّقَى أَنْ يَجْعَلَ مَعِي إِلَهًا كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ». أخرجه الترمذي (٣٣٢٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٣٠)، وابن ماجه (٤٢٩٩)، وأحمد (١٢٤٤٢).

سُورَةُ القِيَامَةِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ﴾ زَائِدَةٌ فِي الْمَوْضِعَيْنِ(١) ﴿أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ الَّتِي تَلُومُ نَفْسَهَا وَإِنِ اجْتَهَدَتْ فِي الْإِحْسَانِ(٢)، وَجَوَابُ الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: لَتُبْعَثُنَّ. دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أَيِ: الْكَافِرُ ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ لِلْبَعْثِ وَالْإِحْيَاءِ. ﴿بَلَىٰ﴾ نَجْمَعُهَا ﴿قَٰدِرِينَ﴾ مَعَ جَمْعِهَا ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ وَهُوَ الْأَصَابِعُ، أَيْ: نُعِيدَ عِظَامَهَا كَمَا كَانَتْ مَعَ صِغَرِهَا فَكَيْفَ بِالْكَبِيرَةِ(٣). ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ﴾ اللَّامُ زَائِدَةٌ وَنَصْبُهُ

---

(١) ليست ﴿لَآ﴾ ها هنا نافية، ولا زائدة وإنما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح. فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم. [السعدي (ص:٨٩٨)].

(٢) هي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سميت «لوامة» لكثرة ترددها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء. [السعدي (ص:٨٩٨)].

(٣) كل المفسرين على أن المعنى نجعل بنانه متساوية ملتحمة كخف البعير، أي: لا يستطيع أن يتناول بها شيئا ولا يحسن بها عملا. وهذا في الواقع لم نفهم له وجها مع السياق، فهو وإن كان دالا على قدرة الله وعجز العبد. ولكن السياق في إنكار البعث واستبعاده ومجيء نظير ذلك في سورة «يس»، يرشد إلى أن سبحانه قادر بعد موت العبد وتلاشيه في التراب وتحول عظامه رميما، فهو قادر على أن يعيده تماما، كما أنشأه أول مرة، ومن ضمن تلك الإعادة أن يسوي بنانه، أي: يعدلها وينشئها كما كانت أول مرة، والعلم عند الله تعالى. ويرشد له قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، ومن الخلق ما كان عليه خلق هذا الإنسان المكذب المعترض، فهو سبحانه يعيده على ما كان عليه تماما، وهذا أبلغ في القدرة وأبلغ في الإلزام يوم القيامة. والعلم عند الله. [عطية سالم (٨/ ٣٧٢)]. فأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقومة متقنة، فالتسوية كناية عن الخلق لأنها تستلزمه فإنه ما سوي إلا وقد أعيد خلقه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]. والبنان أصابع اليدين والرجلين أو أطراف تلك الأصابع، وهو اسم جمع بنانة. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٤١)]. وهو تنبيه على التأمل في لطف تفصيل الأنامل وبديع صنعها الموجب للقطع بأن صانعها قادر على ما يريد. [البقاعي (٢١/ ٨٩)]. تلك البصمة التي تعتبر ختمًا إلهيًّا جعله الخالق سبحانه وتعالى علامة جماعية فارقة للإنسان دون غيره من المخلوقات المعروفة لنا، كما جعله ميزة فردية لكل واحد من بني الإنسان تحدد شخصيته تحديدًا قاطعًا، وتفرده عن غيره إفرادًا مميزًا يتجاوز حدود الصفات الموروثة والمميزة لكل عرق ودم ولون، وذلك طيلة حياته.

بـ «أَنْ» مُقَدَّرةٍ، أَيْ: أَنْ يُكَذِّبَ ﴿أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1]. دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ﴾ مَتَى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾ سُؤَالُ اِسْتِهْزَاءٍ وَتَكْذِيبٍ. ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ بِكَسْرِ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا، دَهِشَ وَتَحَيَّرَ لِمَا رَأَى مِمَّا كَانَ يُكَذِّبُ بِهِ[2]. ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾ أَظْلَمَ وَذَهَبَ ضَوْؤُهُ. ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ فَطَلَعَا مِنَ الْمَغْرِبِ أَوْ ذَهَبَ ضَوْءُهُمَا وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ[3]. ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ الْفِرَارُ. ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عَنْ طَلَبِ الْفِرَارِ ﴿لَا وَزَرَ ۝١١﴾ لَا مَلْجَأَ يَتَحَصَّنُ بِهِ[4]. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ مُسْتَقَرُّ الْخَلَائِقِ فَيُحَاسَبُونَ وَيُجَازَوْنَ. ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ بِأَوَّلِ عَمَلِهِ وَآخِرِهِ. ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ شَاهِدٌ، تَنْطِقُ جَوَارِحُهُ بِعَمَلِهِ وَ«الْهَاءُ» لِلْمُبَالَغَةِ فَلَا بُدَّ مِنْ جَزَائِهِ[5]. ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ جَمْعُ «مَعْذِرَةٍ» عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، أَيْ: لَوْ جَاءَ بِكُلِّ

فالآية بذلك تؤكد على إعادة بصمة كل بنان مع بعث كل ميت تأكيدًا على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في كل من الخلق والبعث، كما تشير إلى دقة تسوية البنان وإلى أهمية ذلك في حياة الإنسان. [من آيات الإعجاز العلمي للنجار (ص:١٥٩)].

(١) هذه الجملة معطوفة على ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ ويجوز أن يكون استفهامًا مثلها أو تكون خبرًا، وليست ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب عن الكلام الأول بمعنى إبطاله؛ وإنما هي للخروج منه إلى ما بعده، و﴿لِيَفْجُرَ﴾: معناه ليفعل أفعال الفجور، وفي معنى ﴿أَمَامَهُۥ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أنه عبارة عما يستقبل من الزمان، أي: يفجر بقية عمره، الثاني: أنه عبارة عن اتباع أغراضه وشهواته، يقال: «مشى فلان قدامه» إذا لم يرجع عن شيء يريده، والضمير على هذين القولين يعود على الإنسان، الثالث: أن الضمير يعود على يوم القيامة. والمعنى: يريد الإنسان أن يفجر قبل يوم القيامة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٣٢)].

(٢) قرئ ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء وفتحها؛ فبالكسر: فزع ودهش، أصله من برق الرجل، إذا نظر إلى البرق فدهش بصره، ... وبالفتح: شق بصره، وهو من البريق، أي: لمع بصره من شدة شخوصه. قال أبو حيان: والواقع أنه لا مانع من إرادة المعنيين ما دامت القراءتان صحيحتين، وقد يشهد لهذا النص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣]. قال ابن كثير: ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر من شدة الرعب. [عطية سالم (٨/ ٣٧٢)].

(٣) وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين. [السعدي (ص:٨٩٩)].

(٤) أي: لا ملجأ ولا معين، وعبر المفسرون عن «الوَزَر» بالجبل، قال مطرف بن الشخير وغيره: وهو كان وزر فرار العرب في بلادهم فلذلك استعمل. والحقيقة أنه «الملجأ» جبلا كان أو حصنا أو سلاحا أو رجلا أو غيره. [ابن عطية (٥/ ٤٠٣)].

(٥) فيه ثلاث تأويلات: أحدها: أنه شاهد على نفسه بما تقدم به الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، الثاني: أن جوارحه شاهدة عليه بعمله، قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، الثالث: معناه بصير بعيوب الناس غافل عن عيب نفسه فيما يستحقه لها وعليها

مَعْذِرَةٍ مَا قُبِلَتْ مِنْهُ. قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾ بِالْقُرْآنِ قَبْلَ فَرَاغِ جِبْرِيلَ مِنْهُ ﴿لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ خَوْفَ أَنْ يَنْفَلِتَ مِنْكَ. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ فِي صَدْرِكَ ﴿وَقُرْءَانَهُۥ ١٧﴾ قِرَاءَتَكَ إِيَّاهُ، أَيْ: جَرَيَانَهُ عَلَى لِسَانِكَ. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ عَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ جِبْرِيلَ ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ١٨﴾ اِسْتَمِعْ قِرَاءَتَهُ، فَكَانَ ﷺ يَسْتَمِعُ ثُمَّ يَقْرَؤُهُ. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ بِالتَّفْهِيمِ لَكَ، وَالْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا أَنَّ تِلْكَ تَضَمَّنَتِ الْإِعْرَاضَ عَنْ آيَاتِ اللهِ وَهَذِهِ تَضَمَّنَتِ الْمُبَادَرَةَ إِلَيْهَا بِحِفْظِهَا. ﴿كَلَّا﴾ اِسْتِفْتَاحٌ بِمَعْنَى: «أَلَا» ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ٢٠﴾ الدُّنْيَا بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ فِي الْفِعْلَيْنِ. ﴿وَيَذَرُونَ ٱلْأٓخِرَةَ ٢١﴾ فَلَا يَعْمَلُونَ لَهَا. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيْ: فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿نَّاضِرَةٌ ٢٢﴾ حَسَنَةٌ مُضِيئَةٌ. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣﴾ أَيْ: يَرَوْنَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآخِرَةِ[1]. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ٢٤﴾ كَالِحَةٌ شَدِيدَةُ الْعُبُوسِ. ﴿تَظُنُّ﴾ تُوقِنُ ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٢٥﴾ دَاهِيَةٌ عَظِيمَةٌ تَكْسِرُ فِقَارَ الظَّهْرِ. ﴿كَلَّآ﴾ بِمَعْنَى: «أَلَا» ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النَّفْسُ ﴿ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾ عِظَامَ الْحَلْقِ[2]. ﴿وَقِيلَ﴾ قَالَ مَنْ حَوْلَهُ: ﴿مَنْۜ رَاقٍ ٢٧﴾ يَرْقِيهِ لِيُشْفَى. ﴿وَظَنَّ﴾ أَيْقَنَ مَنْ بَلَغَتْ نَفْسُهُ ذَلِكَ ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ٢٨﴾ فِرَاقُ الدُّنْيَا. ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾ أَيْ: إِحْدَى سَاقَيْهِ بِالْأُخْرَى عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوِ الْتَفَّتْ شِدَّةُ فِرَاقِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ إِقْبَالِ الْآخِرَةِ[3]. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ٣٠﴾ أَيِ: السَّوْقُ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الْعَامِلِ فِي ﴿إِذَا﴾،

من ثواب وعقاب. [الماوردي (٦/ ١٥٤)].

(١) أي: تراه عيانا، كما رواه البخاري (٧٤٣٥)، رحمه الله، في صحيحه: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا». وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن ناسا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ؟» قالوا: لا. قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ». أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢). وعن جرير رضي الله عنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا». أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣) ... ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ... وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهداة الأنام. [ابن كثير (٨/ ٢٨٠)].

(٢) عن بسر بن جحاش: أن رسول الله ﷺ بصق يوما في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: بُنَيَّ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ وَمَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ». أخرجه أحمد (١٧٨٤٤).

(٣) أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به، وقال جمهور المفسرين المعنى تتابعت عليه الشدائد ... والعرب لا تذكر الساق إلا في الشدائد الكبار والمحن العظام، ومنه قولهم قامت الحرب على ساق ... وقال الشعبي وغيره: المعنى التفت ساق الإنسان عند الموت من

وَالْمَعْنَى: إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ الْحُلْقُومَ تُسَاقُ إِلَى حُكْمِ رَبِّهَا. ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ الْإِنْسَانُ ﴿وَلَا صَلَّىٰ ٣١﴾ أَيْ: لَمْ يُصَدِّقْ وَلَمْ يُصَلِّ[١]. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿وَتَوَلَّىٰ ٣٢﴾ عَنْ الْإِيمَانِ. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ٣٣﴾ يَتَبَخْتَرُ فِي مِشْيَتِهِ إِعْجَابًا. ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغَيْبَةِ، وَالْكَلِمَةُ اسْمُ فِعْلٍ وَاللَّامُ لِلتَّبْيِينِ، أَيْ: وَلِيَكَ مَا تَكْرَهُ ﴿فَأَوْلَىٰ ٣٤﴾ أَيْ: فَهُوَ أَوْلَى بِكَ مِنْ غَيْرِكَ[٢]. ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ٣٥﴾ تَأْكِيدٌ. ﴿أَيَحْسَبُ﴾ يَظُنُّ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ٣٦﴾ هَمْلًا لَا يُكَلَّفُ بِالشَّرَائِعِ؟ أَيْ: لَا يَحْسَبُ ذَلِكَ. ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ أَيْ: كَانَ ﴿نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ٣٧﴾ بِالْيَاءِ، وَالتَّاءِ تُصَبُّ فِي الرَّحِمِ. ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ الْمَنِيُّ ﴿عَلَقَةً فَخَلَقَ﴾ اللهُ مِنْهَا الْإِنْسَانَ ﴿فَسَوَّىٰ ٣٨﴾ عَدَّلَ أَعْضَاءَهُ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ مِنَ الْمَنِيِّ الَّذِي صَارَ عَلَقَةً قِطْعَةَ دَمٍ ثُمَّ مُضْغَةً، أَيْ: قِطْعَةَ لَحْمٍ ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ النَّوْعَيْنِ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ يَجْتَمِعَانِ تَارَةً وَيَنْفَرِدُ كُلٌّ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ تَارَةً. ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ الْفَعَّالُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ٤٠﴾ قَالَ ﷺ: بَلَى[٣].

شدة الكرب، وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجليه على الأخرى. [صديق حسن (١٤/ ٤٤٦)].

(١) أي: لم يصدق الإنسان المذكور في أول هذه السورة بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، أي: الصلاة الشرعية، فهو ذم له بترك العقائد والفروع. [صديق حسن (١٤/ ٤٤٧)]. وفعل ﴿صَدَّقَ﴾ مشتق من التصديق، أي: تصديق الرسول ﷺ والقرآن وهو المناسب لقوله ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾. والمعنى: فلا آمن بما جاء به الرسول ﷺ ... وعطف ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ على نفي التصديق تشويها له بأن حاله مبائن لأحوال أهل الإسلام. والمعنى: فلم يؤمن ولم يسلم. [ابن عاشور (٢٦/ ٣٦١)].

(٢) ويل لك من الولي، وأصله أولاك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، أو أولى لك الهلاك. وقيل: أفعل من الويل بعد القلب أدنى من أدون، أو فعلى من آل يؤول بمعنى عقباك النار. [البيضاوي]. عن سعيد بن جبير، قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بلى، قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله. أخرجه النسائي في الكبرى (١١٥٧٤).

(٣) في الحديث: «وَمَنْ قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى». أخرجه أبو داود (٨٨٧)، وأحمد (٧٣٩١)، والترمذي (٣٣٤٧). وفي إسناده رجل مجهول.

سُورَةُ الإِنْسَانِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، إِحْدَى وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**هَلۡ**﴾ قَدْ ﴿**أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ**﴾ آدمَ ﴿**حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ**﴾ أَرْبعُونَ سَنَةً ﴿**لَمۡ يَكُن**﴾ فِيهِ ﴿**شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١**﴾ كَانَ فِيهِ مُصَوَّرًا مِنْ طِينٍ لَا يُذْكَرُ، أَوِ الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ الْجِنْسُ وَبِالْحِينِ مُدَّةُ الْحَمْلِ[1]. ﴿**إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ**﴾ الْجِنْسَ ﴿**مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ**﴾ أَخْلَاطٍ، أَيْ: مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَمَاءِ الْمَرْأَةِ الْمُخْتَلِطَيْنِ الْمُمْتَزِجَيْنِ ﴿**نَّبۡتَلِيهِ**﴾ نَخْتَبِرُهُ بِالتَّكْلِيفِ، وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ أَوْ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيْ: مُرِيدِينَ ابْتِلَاءَهُ حِينَ تَأَهُّلِهِ ﴿**فَجَعَلۡنَٰهُ**﴾ بِسَبَبِ ذَلِكَ ﴿**سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ**﴾ بَيَّنَّا لَهُ طَرِيقَ الْهُدَى بِبَعْثِ الرُّسُلِ[2] ﴿**إِمَّا شَاكِرٗا**﴾ أَيْ: مُؤْمِنًا ﴿**وَإِمَّا كَفُورًا ٣**﴾ حَالَانِ مِنَ الْمَفْعُولِ، أَيْ: بَيَّنَّا لَهُ فِي حَالِ شُكْرِهِ أَوْ كُفْرِهِ الْمُقَدَّرَةِ[3]، وَإِمَّا لِتَفْصِيلِ الْأَحْوَالِ. ﴿**إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا**﴾ هَيَّأْنَا ﴿**لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ**﴾ يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّارِ ﴿**وَأَغۡلَٰلٗا**﴾ فِي أَعْنَاقِهِمْ تُشَدُّ فِيهَا السَّلَاسِلُ ﴿**وَسَعِيرًا ٤**﴾ نَارًا مُسَعَّرَةً، أَيْ: مُهَيَّجَةً يُعَذَّبُونَ بِهَا. ﴿**إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ**﴾ جَمْعُ بَرٍّ أَوْ بَارٍّ وَهُمُ الْمُطِيعُونَ ﴿**يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ**﴾ هُوَ إِنَاءُ شُرْبِ الْخَمْرِ وَهِيَ فِيهِ، وَالْمُرَادُ «مِنْ خَمْرٍ» تَسْمِيَةً لِلْحَالِّ بِاسْمِ الْمَحَلِّ وَ﴿مِن﴾ لِلتَّبْعِيضِ ﴿**كَانَ مِزَاجُهَا**﴾ مَا تُمْزَجُ بِهِ[4] ﴿**كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا**﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿كَافُورًا﴾ فِيهَا رَائِحَتُهُ ﴿**يَشۡرَبُ بِهَا**﴾ مِنْهَا ﴿**عِبَادُ ٱللَّهِ**﴾ أَوْلِيَاؤُهُ ﴿**يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦**﴾ يَقُودُونَهَا حَيْثُ

---

(١) ﴿هَلۡ﴾ هنا بمعنى التقرير لا لمجرد الاستفهام، وقيل: ﴿هَلۡ﴾ بمعنى: قل، والإنسان هنا جنس، والحين الذي أتى عليه حين كان معدوماً قبل أن يخلق، وقيل: الإنسان هنا آدم، والحين الذي أتى عليه حين كان طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح وهذا ضعيف، لوجهين: أحدهما قوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ وهو هنا جنسها باتفاق؛ إذ لا يصح هنا في آدم، والآخر أن مقصد الآية تحقير الإنسان. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٣٦)].

(٢) كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وكقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. [ابن كثير (٨/ ٢٨٦)].

(٣) كقوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢].

(٤) قيل إنما أراد الكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده، لأن الكافور لا يشرب كما في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ [الكهف: ٩٦] أي: كنار، وقال ابن كيسان: طيبها المسك والكافور والزنجبيل، وقال مقاتل: ليس هو كافور الدنيا وإنما سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي له القلوب. [الشوكاني (٥/ ٤١٨)].

شَاءُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ(١). ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ فِي طَاعَةِ اللهِ ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧﴾ مُنْتَشِرًا. ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أَيِ: الطَّعَامَ وَشَهْوَتُهُمْ لَهُ ﴿مِسۡكِينٗا﴾ فَقِيرًا ﴿وَيَتِيمٗا﴾ لَا أَبَ لَهُ ﴿وَأَسِيرًا ٨﴾ يَعْنِي الْمَحْبُوسَ بِحَقٍّ. ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ لِطَلَبِ ثَوَابِهِ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ شُكْرًا فِيهِ عِلَّةُ الْإِطْعَامِ وَهَلْ تَكَلَّمُوا بِذَلِكَ، أَوْ عَلِمَهُ اللهُ مِنْهُمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ بِهِ؟ قَوْلَانِ(٢). ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا﴾ تَكْلَحُ الْوُجُوهُ فِيهِ، أَيْ: كَرِيهَ الْمَنْظَرِ لِشِدَّتِهِ ﴿قَمۡطَرِيرٗا ١٠﴾ شَدِيدًا فِي ذَلِكَ(٣). ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ أَعْطَاهُمْ ﴿نَضۡرَةٗ﴾ حُسْنًا وَإِضَاءَةً فِي وُجُوهِهِمْ ﴿وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ بِصَبْرِهِمْ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ﴿جَنَّةٗ﴾ أُدْخِلُوهَا ﴿وَحَرِيرٗا ١٢﴾ أُلْبِسُوهُ. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ حَالٌ مِنْ مَرْفُوعِ «أُدْخِلُوهَا» الْمُقَدَّرِ ﴿فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ السُّرُرِ فِي الْحِجَالِ(٤) ﴿لَا يَرَوۡنَ﴾ لَا يَجِدُونَ، حَالٌ ثَانِيَةٌ ﴿فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾ لَا حَرًّا وَلَا بَرْدًا، وَقِيلَ الزَّمْهَرِيرُ الْقَمَرُ(٥) فَهِيَ

---

(١) هي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيرا، أنى شاءوا، وكيف أرادوا، فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات المونقات. [السعدي (ص:٩٠١)].

(٢) على إرادة القول بلسان الحال أو المقال إزاحة لتوهم المن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر. وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا، فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله. [البيضاوي (٥/ ٢٧٠)].

(٣) العبوس: صفة مشبهة لمن هو شديد العبس، أي: كلوح الوجه وعدم انطلاقه، ووصف اليوم بالعبوس على معنى الاستعارة، شبه اليوم الذي تحدث فيه حوادث تسوؤهم برجل يخالطهم يكون شرس الأخلاق عبوسا في معاملته. والقمطرير: الشديد الصعب من كل شيء. وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا القمطرير: المقبض بين عينيه. مشتق من قمطر القاصر إذا اجتمع، أو قمطر المتعدي إذا شد القربة بوكاء ونحوه، ومنه سمي السفط الذي توضع فيه الكتب قمطرا وهو كالمحفظة. وميم قمطرير أصلية فوزنه فعلليل مثل زنجبيل، يقال: قمطر للشر، إذا تهيأ له وجمع نفسه. والجمهور جعلوا ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ وصف ﴿يَوۡمٗا﴾ ومنهم من جعلوه وصف ﴿عَبُوسٗا﴾ أي: شديد العبوس. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٨٦)].

(٤) متكئين: حال من ضمير الجمع في ﴿جَزَىٰهُم﴾، أي: هم في الجنة متكئون على الأرائك. والاتكاء: جلسة بين الجلوس والاضطجاع يستند فيها الجالس على مرفقه وجنبه ويمد رجليه وهي جلسة ارتياح، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ، ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ مُتَّكِئًا». أخرجه البخاري (٥٣٩٨). والأرائك: جمع أريكة بوزن سفينة، والأريكة: سرير عليه وسادة معها ستر وهو حجلته، والحجلة بفتحتين وبتقديم الحاء المهملة على الجيم: كلة تنصب فوق السرير لتقي الحر والشمس، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه حجلة. وقيل: كل ما يتوسد ويفترش مما له حشو يسمى أريكة وإن لم تكن له حجلة، وفي الإتقان عن ابن الجوزي: أن الأريكة السرير بالحبشية. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٨٨)].

(٥) قال ثعلب: الزمهرير بلغة طيء القمر. [ابن عطية (٥/ ٤١١)].

مُضِيئَةٌ مِنْ غَيرِ شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ. ﴿وَدَانِيَةً﴾ قَرِيبَةً، عَطْفٌ عَلَى مَحَلِّ ﴿لَا يَرَوْنَ﴾، أَيْ: غَيْرَ رَائِينَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مِنْهُمْ ﴿ظِلَـٰلُهَا﴾ شَجَرُهَا ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ أُدْنِيَتْ ثِمَارُهَا فَيَنَالُهَا الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالْمُضْطَجِعُ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ فِيهَا ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أَقْدَاحٍ بِلَا عُرَى ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أَيْ: أَنَّهَا مِنْ فِضَّةٍ يُرَى بَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا كَالزُّجَاجِ[1] ﴿قَدَّرُوهَا﴾ أَيِ: الطَّائِفُونَ ﴿تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ عَلَى قَدْرِ رِيِّ الشَّارِبِينَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ وَذَلِكَ أَلَذُّ الشَّرَابِ[2]. ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ خَمْرًا[3] ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ مَا تُمْزَجُ بِهِ ﴿زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿زَنجَبِيلًا﴾ ﴿فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ يَعْنِي أَنَّ مَاءَهَا كَالزَّنْجَبِيلِ الَّذِي تَسْتَلِذُّ بِهِ الْعَرَبُ سَهْلُ الْمَسَاغِ فِي الْحَلْقِ[4]. ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بِصِفَةِ الْوِلْدَانِ لَا يَشِيبُونَ ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾

---

(١) أي: في وصف القوارير في الصفاء وفي بياض الفضة، فصفاؤها صفاء الزجاج ولونها الفضة، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: آنية من فضة وصفاؤها كصفاء القوارير، وعنه قال ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء إذ الذي في الجنة أشرف وأعلى. [صديق حسن (١٤/٤٦٨)].

(٢) يجوز أن يكون ضمير الجمع عائدا إلى ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ أو ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ الذي عادت إليه الضمائر المتقدمة في قوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾، و﴿يُوفُونَ﴾ إلى آخر الضمائر، فيكون معنى التقدير: رغبتهم أن تجيء على وفق ما يشتهون. ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى نائب الفاعل المحذوف المفهوم من بناء ﴿يُطَافُ﴾ للنائب، أي: الطائفون عليهم بها قدروا الآنية والأكواب، أي: قدروا ما فيها من الشراب على حسب ما يطلبه كل شارب منهم ومآله إلى معنى الاحتمال الأول. وكان مما يعد في العادة من حذق الساقي أن يعطي كل أحد من الشرب ما يناسب رغبته. و﴿تَقْدِيرًا﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله للدلالة على وفاء التقدير وعدم تجاوزه المطلوب ولا تقصيره عنه. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٩٤)].

(٣) الكأس هو الإناء الذي فيه الخمر، وإذا كان خالياً عن الخمر فلا يقال له كأس. والمعنى أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزيج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته، ... وقال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه الدنيا، أي: يلذع الحلق فتصعب إساغته. قلت: وكذلك ما في الجنان من الأشجار والثمار والقصور والنساء والحور والمأكولات والمشروبات والملبوسات لا يشبه ما في الدنيا إلا في مجرد الاسم، لكن الله سبحانه وتعالى يرغب الناس ويطمعهم بأن يذكر لهم أحسن شيء وألذه وأطيبه مما يعرفونه في الدنيا لأجل أن يرغبوا ويسعوا فيما يوصلهم إلى هذا النعيم المقيم. [صديق حسن (١٤/ ٤٧١)].

(٤) وصف، قيل: مشتق من السلاسة وهي السهولة واللين، فيقال: ماء سلسل، أي: عذب بارد، قيل: زيدت فيه الباء والياء، أي: زيدتا في أصل الوضع على غير قياس. قال أبو العلاء: السلسبيل الماء السهل المساغ. وعندي أن هذا الوصف ركب من مادتي السلاسة والسبالة، يقال: سبلت السماء، إذا أمطرت، فسبيل: فعيل بمعنى مفعول، ركب من كلمتي السلاسة والسبيل لإرادة سهولة شربه ووفرة جريه. وهذا من الاشتقاق الأكبر وليس باشتقاق تصريفي. فهذا وصف من لغة العرب عند محققي أهل اللغة. وقال ابن الأعرابي: لم أسمع هذه اللفظة إلا في القرآن، فهو عنده من مبتكرات القرآن الجارية على أساليب الكلام العربي. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٩٦)].

لِحُسْنِهِمْ وَانْتِشَارِهِمْ فِي الْخِدْمَةِ ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ١٩﴾ مِنْ سِلْكِهِ أَوْ مِنْ صَدَفِهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ(١). ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أَيْ: وُجِدَتِ الرُّؤْيَةُ مِنْكَ فِي الْجَنَّةِ ﴿رَأَيْتَ﴾ جَوَابُ ﴿إِذَا﴾ ﴿نَعِيمًا﴾ لَا يُوصَفُ ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا ٢٠﴾ وَاسِعًا لَا غَايَةَ لَهُ. ﴿عَالِيَهُمْ﴾ فَوْقَهُمْ، فَنَصْبُهُ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَهُوَ خَبَرٌ لِمُبْتَدَإٍ بَعْدَهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ الْيَاءِ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ خَبَرٌ، وَالضَّمِيرُ الْمُتَّصِلُ بِهِ لِلْمَطُوفِ عَلَيْهِمْ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ حَرِيرٍ ﴿خُضْرٌ﴾ بِالرَّفْعِ ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بِالْجَرِّ مَا غَلُظَ مِنَ الدِّيبَاجِ فَهُوَ الْبَطَائِنُ، وَالسُّنْدُسُ الظَّهَائِرُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: عَكْسُ مَا ذُكِرَ فِيهِمَا، وَفِي أُخْرَى بِرَفْعِهِمَا، وَفِي أُخْرَى بِجَرِّهِمَا ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّهُمْ يُحَلَّوْنَ مِنَ النَّوْعَيْنِ مَعًا وَمُفَرَّقًا ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ٢١﴾ مُبَالَغَةٌ فِي طَهَارَتِهِ وَنَظَافَتِهِ، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ النَّعِيمَ ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ٢٢ إِنَّا نَحْنُ﴾ تَأْكِيدٌ لِاسْمِ ﴿إِنَّ﴾، أَوْ فَصْلٌ ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ٢٣﴾ خَبَرُ ﴿إِنَّ﴾ أَيْ: فَصَّلْنَاهُ وَلَمْ نُنَزِّلْهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً(٢). ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ عَلَيْكَ بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ٢٤﴾ أَيْ: عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ قَالَا لِلنَّبِيِّ ﷺ: ارْجِعْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ كُلُّ آثِمٍ وَكَافِرٍ، أَيْ: لَا تُطِعْ أَحَدَهُمَا أَيًّا كَانَ فِيمَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مِنْ إِثْمٍ أَوْ كُفْرٍ(٣). ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥﴾ يَعْنِي: الْفَجْرَ وَالظُّهْرَ وَالْعَصْرَ. ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ يَعْنِي: الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ ﴿وَسَبِّحْهُ

---

(١) أي: إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم، وانبثاثهم في مجالسهم، لؤلؤاً مفرقـًا، قال عطاء يريد في بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظومـًا. قال أهل المعاني: إنما شبهوا الانتثار لأنهم في الخدمة ولو كانوا صفـًا لشبهوا بالمنظوم، قيل: إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين فإنه شبههن بـ«اللؤلؤ المكنون» لأنهن لا يمتهن بالخدمة. [الشوكاني (٥/ ٤٢٣)].

(٢) ﴿نَزَّلْنَا﴾، ﴿تَنزِيلًا﴾: يدل على التكرار بخلاف ﴿أَنزَلْنَآ﴾ [البقرة: ٩٩]، وقد بين تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وهنا إثبات التنزيل. وقد بين تعالى كيفية التنزيل في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقد بين تعالى الحكمة في هذا التفريق على مكث في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. [عطية سالم (٨/ ٣٩٧)].

(٣) أو هنا للتنويع، فالمعنى لا تطع النوعين، فاعلاً للإثم ولا كفوراً، وقيل: هي بمعنى الواو، أي: جامعـًا للوصفين لأن هذه في حالة الكفار، ورُوي أنه الآية نزلت في أبي جهل، وقيل: أن الآثم عتبة بن ربيعة، والكفور الوليد بن المغيرة، والأحسن أنها على العموم، لأن لفظها عام، وإن كان سبب نزولها خاصـًا. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٤٠)].

﴿لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾ صَلِّ التَّطَوُّعَ فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ[1] مِنْ ثُلُثَيْهِ أَوْ نِصْفِهِ أَوْ ثُلُثِهِ. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ الدُّنْيَا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾ شَدِيدًا، أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَعْمَلُونَ لَهُ. ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ﴾ قَوَّيْنَا ﴿أَسۡرَهُمۡۖ﴾ أَعْضَاءَهُمْ وَمَفَاصِلَهُمْ ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ﴾ جَعَلْنَا ﴿أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ فِي الْخِلْقَةِ بَدَلًا مِنْهُمْ بِأَنْ نُهْلِكَهُمْ ﴿تَبۡدِيلًا ٢٨﴾ تَأْكِيدٌ وَوَقَعَتْ ﴿إِذَا﴾ مَوْقِعَ «إِنْ» نَحْوُ ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ [النساء: ١٣٣]؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، وَ﴿إِذَا﴾ لِمَا يَقَعُ[2]. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ السُّورَةَ ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾ عِظَةٌ لِلْخَلْقِ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩﴾ طَرِيقًا بِالطَّاعَةِ. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ اتِّخَاذَ السَّبِيلِ بِالطَّاعَةِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ ذَلِكَ[3] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٗا ٣٠﴾ فِي فِعْلِهِ. ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ جَنَّتِهِ[4] وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نَاصِبُهُ فِعْلٌ مُقَدَّرٌ، أَيْ: أَوْعَدَ، يُفَسِّرُ: ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾ مُؤْلِمًا، وَهُمُ الْكَافِرُونَ[5].

---

(١) في سورة المزمل الآيات (١-٤).

(٢) أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلناهم فأعدناهم خلقا جديدا. وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة. وقال ابن زيد، وابن جرير: أي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٣] وكقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠]. [ابن كثير (٨/ ٢٩٤)].

(٣) أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعا، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾. [ابن كثير (٨/ ٢٩٥)]. قال ابن جرير: أي: وما تشاؤون اتخاذ السبيل إلى ربكم إلا أن يشاء الله ذلك لكم، لأن الأمر إليه لا إليكم، أي: لأن ما لم يشأ الله وقوعه من العبد، لا يقع من العبد، وما شاء منه وقوعه، وقع. وهو رديف: «مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ». أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٨٤٠). [القاسمي (٩/ ٣٨٠)].

(٤) أي: يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها، أو يدخل في جنته من يشاء من عباده لأنها برحمته تنال. [صديق حسن (١٤/ ٤٨١)].

(٥) أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. [ابن كثير (٨/ ٢٩٥)]. عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ حتى ختمها ثم قال: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصَّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٤٦٥)، وابن ماجه (٤١٩٠).

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

مَكِّيَّةٌ، خَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ أَي: اَلرِّيَاحِ مُتَتَابِعَةٍ كَعُرْفِ اَلْفَرَسِ يَتْلُو بَعْضُهُ بَعْضًا، وَنَصْبُهُ عَلَى اَلْحَالِ. ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾﴾ اَلرِّيَاحِ اَلشَّدِيدَةِ. ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾﴾ الرِّيَاحِ تَنْشُرُ الْمَطَرَ. ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾﴾ أَيْ: آيَاتِ اَلْقُرْآنِ تَفْرُقُ بَيْنَ اَلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ. ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾﴾ أَيِ: اَلْمَلَائِكَةِ تَنْزِلُ بِالْوَحْيِ إِلَى اَلْأَنْبِيَاءِ، أَوِ الرُّسُلِ يُلْقُونَ اَلْوَحْيَ إِلَى اَلْأُمَمِ. ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ أَيْ: لِلْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ ذَالِ ﴿نُذُرًا﴾، وَقُرِئَ[1] بِضَمِّ ذَالِ ﴿عُذُرًا﴾[2]. ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أَيْ: يَا كُفَّارَ مَكَّةَ مِنَ اَلْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ. ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ مُحِيَ نُورُهَا. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ شُقَّتْ. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ فُتِّتَتْ وَسُيِّرَتْ. ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ بِالْوَاوِ وَبِالْهَمْزَةِ بَدَلًا مِنْهَا، أَيْ: جُمِعَتْ لِوَقْتٍ[3]. ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾ لِلشَّهَادَةِ عَلَى أُمَمِهِمْ بِالتَّبْلِيغِ. ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾ بَيْنَ اَلْخَلْقِ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَابُ ﴿إِذَا﴾، أَيْ: وَقَعَ اَلْفَصْلُ بَيْنَ اَلْخَلَائِقِ. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ تَهْوِيلٌ لِشَأْنِهِ. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ هَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ. ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ، أَيْ: أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ مِمَّنْ كَذَّبُوا، كَكُفَّارِ

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) الأظهر أن: ﴿ٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وهكذا العاصفات هي: الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هبت بتصويت، وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب عز وجل. وقوله: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾﴾ [المرسلات: ٤-٦] يعني: الملائكة قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، والثوري. ولا خلاف هاهنا؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره. [ابن كثير (٨/ ٢٩٧)].

(٣) المعنى: جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]. [الشوكاني (٥/ ٤٣١)].

مَكَّةَ فَنُهْلِكُهُمْ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْل مَا فَعَلْنَا بِالْمُكَذِّبِينَ ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨﴾ بِكُلِّ مَنْ أَجْرَمَ فِيمَا يَسْتَقْبِل فَنُهْلِكُهُمْ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩﴾ تَأْكِيدٌ[١]. ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾ ضَعِيفٍ وَهُوَ الْمَنِيُّ. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١﴾ حَرِيزٍ وَهُوَ الرَّحِمُ. ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢﴾ وَهُوَ وَقْتُ الْوِلَادَةِ. ﴿فَقَدَرْنَا﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ نَحْنُ[٢]. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥﴾ مَصْدَرُ كَفَتَ، بِمَعْنَى: ضَمَّ، أَيْ: ضَامَّةً. ﴿أَحْيَآءً﴾ عَلَى ظَهْرِهَا ﴿وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ فِي بَطْنِهَا. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ جِبَالًا مُرْتَفِعَاتٍ[٣] ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ عَذْبًا. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٨﴾. وَيُقَالُ لِلْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠﴾ هُوَ دُخَانُ جَهَنَّمَ إِذَا ارْتَفَعَ افْتَرَقَ ثَلَاثَ فِرَقٍ لِعِظَمِهِ[٤]. ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ كَنِينٍ يُظِلُّهُمْ مِنْ حَرِّ ذَلِكَ الْيَوْمِ[٥] ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ يَرُدُّ عَنْهُمْ شَيْئًا ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١﴾

---

(١) تكرار قوله تعالى في هذه السورة: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ قيل: ذلك بمعنى التأكيد فقط، وقيل: بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاء الوعد على التكذيب يؤكد ذلك الذي في الآية. [ابن عطية (٥/ ٤١٨)].

(٢) المعنى: فقدرنا الخلق، كقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩] ... والفاء في قوله: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ للتفريع على قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢﴾ أي: جعلناه في الرحم إلى انتهاء أمد الحمل، فقدرنا أطوار خلقكم حتى أخرجناكم أطفالا. والفاء في ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ للتفريع على «قدرنا»، أي: تفريع إنشاء ثناء، أي: فدل تقديرنا على أننا نعم القادرون، أي: كان تقديرنا تقدير أفضل قادر، وهذا تنويه بذلك الخلق العجيب بالقدرة. [ابن عاشور (٢٩/ ٤٣٢)].

(٣) والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال، ومنه يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه كبرا. [القرطبي (١٩/ ١٦٢)]. والمعنى: جبالا ترسي الأرض، لئلا تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات أي: الطوال العراض. [السعدي (ص:٩٠٤)].

(٤) أريد بالظل دخان جهنم لكثافته، فعبر عنه بالظل تهكما بهم لأنهم يتشوقون ظلا يأوون إلى برده. وأفرد «ظل» هنا لأنه جعل لهم ذلك الدخان في مكان واحد ليكونوا متراصين تحته لأن ذلك التراص يزيدهم ألما. والشعب: اسم جمع «شعبة» وهي الفريق من الشيء والطائفة منه، أي: ذي ثلاث طوائف وأريد بها طوائف من الدخان فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها لشدة انضغاطه في خروجه منها. [ابن عاشور (٢٩/ ٤٣٥)].

(٥) تهكم بهم؛ لأن الظل لا يكون إلا ظليلا، أي: مظللا؛ فنفيه عنه للدلالة على أن جعله ظلا تهكم بهم، ولأنه ربما يتوهم أن فيه راحة لهم، فنفى هذا الاحتمال بقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: لا يرد عنهم من لهب النار شيئا. والمعنى أنه لا يظلهم من حرها ولا يكنهم من لهبها. [القاسمي (٩/ ٣٨٥)].

ٱلنَّارِ. ﴿إِنَّهَا﴾ أي: ٱلنَّارُ ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ هُوَ مَا تَطَايَرَ مِنْهَا ﴿كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢﴾ مِنَ ٱلْبِنَاءِ فِي عِظَمِهِ وَارْتِفَاعِهِ[1]. ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ﴾ جَمْعُ «جِمَالَةٍ» جَمْعِ «جَمَلٍ»، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ ﴿صُفْرٌ ۝٣٣﴾ فِي هَيْئَتِهَا وَلَوْنِهَا، وَفِي ٱلْحَدِيثِ: «شَرَارُ ٱلنَّارِ أَسْوَدُ كَالْقِيرِ»[2]، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي سُودَ ٱلْإِبِلِ صُفْرًا لِشَوْبِ سَوَادِهَا بِصُفْرَةٍ، فَقِيلَ: صُفْرٌ فِي ٱلْآيَةِ بِمَعْنَى سُودٍ لِمَا ذُكِرَ، وَقِيلَ: لَا، وَالشَّرَرُ جَمْعُ «شَرَارَةٍ»، وَالْقِيرُ: ٱلْقَارُ[3]. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤ هَٰذَا﴾ أَيْ: يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥﴾ فِيهِ بِشَيْءٍ[4]. ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ فِي ٱلْعُذْرِ ﴿فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿يُؤْذَنُ﴾ مِنْ غَيْرِ تَسَبُّبٍ عَنْهُ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حَيِّزِ ٱلنَّفْيِ، أَيْ: لَا إِذْنَ فَلَا اعْتِذَارَ. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ﴾ أَيُّهَا ٱلْمُكَذِّبُونَ مِنْ هَٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ قَبْلَكُمْ، فَتُحَاسَبُونَ وَتُعَذَّبُونَ جَمِيعًا. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حِيلَةٌ فِي دَفْعِ ٱلْعَذَابِ عَنْكُمْ ﴿فَكِيدُونِ ۝٣٩﴾ فَافْعَلُوهَا. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ﴾ أَيْ: تَكَاثُفِ أَشْجَارٍ، إِذْ لَا شَمْسَ يُظَلُّ مِنْ حَرِّهَا[5] ﴿وَعُيُونٍ ۝٤١﴾ نَابِعَةٍ مِنَ ٱلْمَاءِ. ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ

---

(١) أي: كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها، والشرر ما تطاير من النار متفرقـًا، والقصر البناء العظيم، وقيل: القصر جمع قصْرة ساكنة الصاد مثل جمر وجمرة وتمر وتمرة وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ، قال سعيد بن جبير والضحاك وهي أصول الشجر العظام، وقيل أعناقه. [الشوكاني (٥/ ٤٣٤)].

(٢) لم أجده مرفوعا بهذا اللفظ، وفي الموقوف على أبي هريرة رضي الله عنه قوله: أَتُرَوْنَهَا حَمْرَاءَ كَنَارِكُمْ هَذِهِ لَهِيَ أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ وَالْقَارُ الزِّفْتُ. أخرجه مالك في الموطأ (١٨٢٦). وفي المرفوع قوله ﷺ: «أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ». أخرجه الترمذي (٢٥٩١).

(٣) في «الجمالات» قولان أحدهما: أنها جمع «جمال» شبه بها الشرر وصُفْر على ظاهره؛ لأن لون النار يضرب إلى الصفرة. وقيل: صفر هنا بمعنى سود، يقال: جمل أصفر، أي: أسود. وهذا أليق بوصف جهنم. الثاني: أن الجمالات قطع النحاس الكبار، فكأنه مشتق من الجملة. وقرئ: «جُمالات» بضم الجيم وهي قلوس السفن وهي حبالها العظام. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٤٣)].

(٤) هذه الآية الكريمة تدل على أن أهل النار لا ينطقون ولا يعتذرون. وقد جاءت آيات تدل على أنهم ينطقون ويعتذرون، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات. والجواب عن هذا من أوجه: الأول: أن القيامة مواطن ففي بعضها ينطقون وفي بعضها لا ينطقون. الثاني: أنهم لا ينطقون بما لهم فيه فائدة وما لا فائدة فيه كالعدم. الثالث: أنهم بعد أن يقول الله لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ينقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق. قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، وهذا الوجه الثالث راجع للوجه الأول. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٣٣٥)].

(٥) أي: في ظلال الأشجار وظلال القصور لا كالظل الذي للكفار من الدخان ومن النار، قال مقاتل والكلبي: المراد بالمتقين الذين يتقون

﴿٤٢﴾ فِيهِ إِعْلَامٌ بِأَنَّ اَلْمَأْكَلَ وَالْمَشْرَبَ فِي اَلْجَنَّةِ بِحَسَبِ شَهَوَاتِهِمْ بِخِلَافِ اَلدُّنْيَا فَبِحَسَبِ مَا يَجِدُ اَلنَّاسُ فِي اَلْأَغْلَبِ. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ حَالٌ، أَيْ: مُتَهَنِّئِينَ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ مِنْ الطَّاعَةِ[1]. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَا اَلْمُتَّقِينَ[2] ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ خِطَابٌ لِلْكُفَّارِ فِي اَلدُّنْيَا ﴿قَلِيلًا﴾ مِنَ اَلزَّمَانِ وَغَايَتُهُ إِلَى اَلْمَوْتِ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ صَلُّوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ لَا يُصَلُّونَ[3]. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أَيْ: لَا يُمْكِنُ إِيمَانُهُمْ بِغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ اَللهِ بَعْدَ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ، لِاشْتِمَالِهِ عَلَى اَلْإِعْجَازِ اَلَّذِي لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ[4].

الشرك بالله لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم. [صديق حسن (١٥/ ٢١)].

(١) فيه النص على أن عملهم في الدنيا سبب في تمتعهم بنعيم الجنة في الآخرة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وجاء في الحديث: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦). ولا معارضة بين النصين، إذ الدخول بفضل من الله وبعد الدخول يكون التوارث، وتكون الدرجات، ويكون التمتع بسبب الأعمال. فكلهم يشتركون في التفضل من الله عليهم بدخول الجنة، ولكنهم بعد الدخول يتفاوتون في الدرجات بسبب الأعمال. [عطية سالم (٨/ ٤٠٣)].

(٢) المراد بالمحسنين المتقون السابق ذكرهم إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير مدحا لهم بصفة الإحسان أيضا مع الإشعار بعلة الحكم. [الآلوسي (١٥/ ١٩٧)].

(٣) قيل: هي حكاية عن حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس فأرادوا هم السجود فانصرفت أصلابهم إلى الأرض وصارت فقاراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره، وقال قتادة في آخرين: هذه حال كفار قريش في الدنيا كان رسول الله ﷺ يدعوهم وهم لا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة، هذا قول الجمهور، ... والذي أقول: إن ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة إنما كان لأن كثيرا من العرب كان يأنف من الركوع والسجود، ويراها هيئة منكرة، لما كان في أخلاقهم من العجرفة. [ابن عطية (٥/ ٤٢١)].

(٤) أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. [ابن كثير (٨/ ٣٠١)].

سُورَةُ النَّبَإِ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ﴾ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ[1] ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ يَسْأَلُ بَعْضُ قُرَيْشٍ بَعْضًا. ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ بَيَانٌ لِذَلِكَ الشَّيْءِ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِتَفْخِيمِهِ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ. ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ يُثْبِتُونَهُ وَالْكَافِرُونَ يُنْكِرُونَهُ. ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ ﴿سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ مَا يَحِلُّ بِهِمْ عَلَى إِنْكَارِهِمْ لَهُ. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ تَأْكِيدٌ وَجِيءَ فِيهِ بِـ ﴿ثُمَّ﴾ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ الْوَعِيدَ الثَّانِيَ أَشَدُّ مِنَ الْأَوَّلِ. ثُمَّ أَوْمَأَ تَعَالَى إِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ فِرَاشًا كَالْمَهْدِ. ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ تُثَبَّتُ بِهَا الْأَرْضُ كَمَا تُثَبَّتُ الْخِيَامُ بِالْأَوْتَادِ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ. ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾ ذُكُورًا وَإِنَاثًا. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ رَاحَةً لِأَبْدَانِكُمْ. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ سَاتِرًا بِسَوَادِهِ[2]. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ وَقْتًا لِلْمَعَايِشِ. ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴿شِدَادًا ۝١٢﴾ جَمْعُ شَدِيدَةٍ، أَيْ: قَوِيَّةٍ مُحْكَمَةٍ لَا يُؤَثِّرُ فِيهَا مُرُورُ الزَّمَانِ. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾ مُنِيرًا ﴿وَهَّاجًا ۝١٣﴾ وَقَّادًا يَعْنِي الشَّمْسَ[3]. ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ السَّحَابَاتِ الَّتِي حَانَ لَهَا أَنْ تُمْطِرَ كَالْمُعْصِرِ: الْجَارِيَةِ الَّتِي دَنَتْ مِنَ الْحَيْضِ ﴿مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾ صَبَّابًا[4]. ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا﴾ كَالْحِنْطَةِ ﴿وَنَبَاتًا ۝١٥﴾

---

(١) أصل ﴿عَمَّ﴾ «عَنْ ما»، ثم أدغمت النون في الميم وحذفت ألف «ما» لأنها استفهامية، وتقديرها: عن أي شيء يتساءلون، وليس المراد بها هنا مجرد الاستفهام، وإنما المراد تفخيم الأمر. والضمير في يتساءلون لكفار قريش، أو لجميع الناس معناه يسأل بعضهم بعضاً. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٤٤)].

(٢) من إتمام الاستدلال الذي قبله وما فيه من المنة؛ لأن كون الليل لباسا حالة مهيئة لتكيف النوم ومعينة على هنائه والانتفاع به؛ لأن الليل ظلمة عارضة في الجو من مزايلة ضوء الشمس عن جزء من كرة الأرض، وبتلك الظلمة تحتجب المرئيات عن الإبصار فيعسر المشي والعمل والشغل وينحط النشاط، فتتهيأ الأعصاب للخمول ثم يغشاها النوم، فيحصل السبات بهذه المقدمات العجيبة، فلا جرم كان نظام الليل آية على انفراد الله تعالى بالخلق وبديع تقديره. [ابن عاشور (٣٠/ ١٩)].

(٣) الوهاج المضيء المتلألىء من قولهم وهج الجوهر، أي: تلألأ، ويقال وهج يوهج كوجل يوجل وكوعد يعد، قال الزجاج: الوهاج الوقاد، وهو الذي وهج، يقال: وهجت النار تهج وهجاً ووهجاناً، قال مقاتل: جعل فيه نوراً وحراً، والوهج يجمع النور والحرارة، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وهاجاً مضيئاً. [صديق حسن (١٥/ ٣٢)].

(٤) أي: منصبا بكثرة، يقال: ثج الماء، أي: سال بكثرة، وثجه، أي: أساله، ومنه قوله ﷺ: «أَفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجُّ وَالثَّجُّ». أخرجه الترمذي

كَالتِّينِ. ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿أَلْفَافًا ١٦﴾ مُلْتَفَّةً جَمْعُ «لَفِيفٍ» كَشَرِيفٍ وَأَشْرَافٍ. ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿كَانَ مِيقَٰتًا ١٧﴾ وَقْتًا لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ(١). ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ الْقَرْنِ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أَوْ بَيَانٌ لَهُ، وَالنَّافِخُ إِسْرَافِيلُ ﴿فَتَأْتُونَ﴾ مِنْ قُبُورِكُمْ إِلَى الْمَوْقِفِ ﴿أَفْوَاجًا ١٨﴾ جَمَاعَاتٍ مُخْتَلِفَةً(٢). ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، شُقِّقَتْ لِنُزُولِ الْمَلَائِكَةِ ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ١٩﴾ ذَاتَ أَبْوَابٍ(٣). ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ ذُهِبَ بِهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا ٢٠﴾ هَبَاءً، أَيْ: مِثْلَهُ فِي خِفَّةِ سَيْرِهَا(٤). ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١﴾ رَاصِدَةً أَوْ مُرْصَدَةً.

(٢٩٩٨)، وابن ماجه (٢٨٩٦). أي: رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء الهدي. [أبو السعود (٩/ ٨٨)].

(١) يعني موقوتًا لأجل معدود، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وما ظنك بشيء له أجل معدود وأنت ترى الأجل كيف يذهب سريعًا يومًا بعد يوم حتى ينتهي الإنسان إلى آخر مرحلة، فكذلك الدنيا كلها تسير يومًا بعد يوم حتى تنتهي إلى آخر مرحلة، وكل شيء معدود فإنه ينتهي. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٢٩)].

(٢) النفخ في الصور للبعث، وهذا معلوم، وتأتون أفواجا: قد بين حال هذا المجيء مثل قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٧ - ٨]، والأفواج هنا قيل: الأمم المختلفة كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧١]، ولكن الآية بتاء الخطاب: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ مما يشعر بأن الأفواج في هذه الأمة. [عطية سالم (٨/ ٤٠٩)]. و ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من ضمير «تأتون»، والأفواج: جمع فوج بفتح الفاء وسكون الواو، والفوج: الجماعة المتصاحبة من أناس مقسمين باختلاف الأغراض، ... قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٨] الآية. والمعنى: فتأتون مقسمين طوائف وجماعات، وهذا التقسيم بحسب الأحوال. [ابن عاشور (٣٠/ ٣١)].

(٣) قال الشهاب المراد بالفتح ليس ما عرف من فتح الأبواب، وهو موافق لقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] فإن القرآن يفسر بعضه بعضـًا، وعبر عن التشقيق بالفتح إشارة إلى كمال قدرته حتى كان تشقيق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ كما في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقيل: معنى فتحت قطعت فصارت قطعـًا كالأبواب، وقيل: أبوابها طرقها، وقيل: تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق، وقيل: أن لكل عبد بابين في السماء باب لرزقه وباب لعمله، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب. وظاهر قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أنها صارت كلها أبوابـًا، وليس المراد ذلك بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة. [صديق حسن (١٥/ ٣٤)].

(٤) أي: فصارت بعد تسييرها مثل سراب فترى بعد تفتتها وارتفاعها في الهواء كأنها جبال وليست بجبال بل غبار غليظ متراكم يرى من بعيد كأنه جبل كالسراب يرى كأنه بحر مثلا وليس به، فالكلام على التشبيه البليغ، والجامع أن كلا من الجبال والسراب يرى على كل شيء وليس هو بذلك الشيء، وجوز أن يكون وجه الشبه التخلخل؛ إذ تكون بعد تسييرها غبارا منتشرا كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ٦﴾ [الواقعة: ٥-٦]. [الآلوسي (١٥/ ٢١٣)].

﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ اَلْكَافِرِينَ فَلَا يَتَجَاوَزُونَهَا ﴿مَـَٔابًا ٢٢﴾ مَرْجِعًا لَهُمْ فَيَدْخُلُونَهَا(١). ﴿لَّٰبِثِينَ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيْ: مُقَدَّرًا لُبْثُهُمْ ﴿فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ دُهُورًا لَا نِهَايَةَ لَهَا جَمْعُ «حُقْبٍ» بِضَمِّ أَوَّلِهِ(٢). ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ نَوْمًا(٣) ﴿وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾ مَا يُشْرَبُ تَلَذُّذًا. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿حَمِيمًا﴾ مَاءً حَارًّا غَايَةَ اَلْحَرَارَةِ ﴿وَغَسَّاقًا ٢٥﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، مَا يَسِيلُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ اَلنَّارِ فَإِنَّهُمْ يَذُوقُونَهُ جُوزُوا بِذَلِكَ. ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾ مُوَافِقًا لِعَمَلِهِمْ، فَلَا ذَنْبَ أَعْظَمُ مِنَ اَلْكُفْرِ، وَلَا عَذَابَ أَعْظَمُ مِنَ اَلنَّارِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ﴾ لَا يَخَافُونَ ﴿حِسَابًا ٢٧﴾ لِإِنْكَارِهِمُ اَلْبَعْثَ. ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ اَلْقُرْآنِ ﴿كِذَّابًا ٢٨﴾ تَكْذِيبًا. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنَ اَلْأَعْمَالِ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ ضَبَطْنَاهُ ﴿كِتَٰبًا ٢٩﴾ كَتَبْنَاهُ فِي اَللَّوْحِ اَلْمَحْفُوظِ لِنُجَازِيَ عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَكْذِيبُهُمْ بِالْقُرْآنِ(٤). ﴿فَذُوقُواْ﴾ أَيْ: فَيُقَالُ لَهُمْ فِي اَلْآخِرَةِ عِنْدَ وُقُوعِ اَلْعَذَابِ عَلَيْهِمْ: ذُوقُوا جَزَاءَكُمْ ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ فَوْقَ عَذَابِكُمْ(٥). ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾ مَكَانَ فَوْزٍ فِي

---

(١) فيه قولان: أحدهما: مرجعا ومنقلبا، قاله السدي. الثاني: مأوى ومنزلا، قاله قتادة. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر أو في دنياه بالظلم. [الماوردي (٦/ ١٨٦)].

(٢) جمع حقبة أو حقب وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدود، وقيل: إنها محدودة ثم اختلف في مقدارها ... وعلى القول بالتحديد فالمعنى أنهم يبقون فيها أحقاباً، كلما انقضى حقب جاء إلى آخر إلى غير نهاية، وقيل: إنه كان يقتضي أن مدة العذاب تنقضي، ثم نسخ بقوله: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠] وهذا خطأ؛ لأن الأخبار لا تنسخ، وقيل: هي في عُصاة المؤمنين الذين يخرجون من النار، وهذا خطأ؛ لأنها في الكفار لقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [النبأ: ٢٨]، وقيل: معناه أنهم يبقون أحياناً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً، ثم يبدل لهم نوع آخر من العذاب، [قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ٥٨﴾ [ص: ٥٧-٥٨]]. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٤٥)]. وأحقاب: جمع حقب بضمتين، وهو زمن طويل ... [قال تعالى:] ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]. وجمعه هنا مراد به الطول العظيم؛ لأن أكثر استعمال الحقب والأحقاب أن يكون في حيث يراد توالي الأزمان، ويبين هذا الآيات الأخرى الدالة على خلود المشركين، فجاءت هذه الآية على المعروف الشائع في الكلام كناية به عن الدوام دون انتهاء. [ابن عاشور (٣٠/ ٣٦)].

(٣) البرد: ضد الحر، وهو تنفيس للذين عذابهم الحر، أي: لا يغاثون بنسيم بارد، والبرد ألذ ما يطلبه المحرور. وعن مجاهد والسدي وأبي عبيدة ونفر قليل تفسير البرد بالنوم، وأنشدوا شاهدين غير واضحين، وأيا ما كان فحمل الآية عليه تكلف لا داعي إليه. [ابن عاشور (٣٠/ ٣٧)].

(٤) فلا يخشى المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. [السعدي (ص: ٩٠٦)]. وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

(٥) أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه، ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٨] ... عن عبد الله بن عمرو

اَلْجَنَّةِ[1]. ﴿حَدَآئِقَ﴾ بَسَاتِينَ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَفَازًا﴾، أَوْ بَيَانٌ لَهُ ﴿وَأَعْنَبًا ٣٢﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿مَفَازًا﴾[2]. ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جَوَارِيَ تَكَعَّبَتْ ثُدِيُّهُنَّ جَمْعُ «كَاعِبٍ» ﴿أَتْرَابًا ٣٣﴾ عَلَى سِنٍّ وَاحِدٍ، جَمْع «تِرْبٍ» بِكَسْرِ اَلتَّاءِ وَسُكُونِ اَلرَّاءِ[3]. ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤﴾ خَمْرًا مَالِئَةً مَحَالَّهَا، وَفِي سُورَةِ «اَلْقِتَالِ»: ﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥]. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أَيِ: اَلْجَنَّةِ عِنْدَ شُرْبِ اَلْخَمْرِ وَغَيْرِهِ مِنَ اَلْأَحْوَالِ ﴿لَغْوًا﴾ بَاطِلًا مِنَ اَلْقَوْلِ ﴿وَلَا كِذَّبًا ٣٥﴾ بِالتَّخْفِيفِ، أَيْ: كَذِبًا، وَبِالتَّشْدِيدِ، أَيْ: تَكْذِيبًا مِنْ وَاحِدٍ لِغَيْرِهِ، بِخِلَافِ مَا يَقَعُ فِي اَلدُّنْيَا عِنْدَ شُرْبِ اَلْخَمْرِ. ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ أَيْ: جَزَاهُمُ اَللهُ بِذَلِكَ جَزَاءً ﴿عَطَآءً﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿جَزَآءً﴾ ﴿حِسَابًا ٣٦﴾ أَيْ: كَثِيرًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَعْطَانِي فَأَحْسَبَنِي، أَيْ: أَكْثَرَ عَلَيَّ حَتَّى قُلْتُ: حَسْبِي[4]. ﴿رَّبِّ اَلسَّمَوَاتِ وَاَلْأَرْضِ﴾ بِالْجَرِّ وَالرَّفْعِ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا اَلرَّحْمَنِ﴾ كَذَلِكَ، وَبِرَفْعِهِ مَعَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبدا. [ابن كثير (٨/ ٣٠٧)].

(١) قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا والضحاك: متنزها. وقال مجاهد، وقتادة: فازوا، فنجوا من النار. والأظهر هاهنا قول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها. [ابن كثير (٥/ ٤٩٦)].

(٢) انتصابهما على أنهما بدل اشتمال من ﴿مَفَازًا﴾ أو بدل كل من كل على طرق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازاً، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني، وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز فيقدر مضاف، أي: فوز حدائق، وهي جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه فيه أنواع الشجر المثمر، والأعناب جمع عنب، أي: كروم أعناب، والتكرير يدل على تعظيم ذلك العنب. قال المحلي: ﴿وَأَعْنَبًا﴾ عطف على ﴿مَفَازًا﴾ أي: ذكرت بعد الحدائق تنويهاً لعظم شأنها وإلا فهي من جملة الحدائق، قال القاري: وهذا بعيد جداً والظاهر عطفه على حدائق وكذا كواعب وكأساً انتهى. [صديق حسن (١٥/ ٤١)].

(٣) ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب وهي المرأة التي تكعب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير ويكون ذلك في سن البلوغ وأحسن التسوية. ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: لدات ينشأن معا تشبيها في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، أو لوقوعهن معا على التراب، أي: الأرض. [الآلوسي (١٥/ ٢١٨)].

(٤) في حق الكفار قال: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، وفي حق المؤمنين قال: ﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾. ففي الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم ولا يظلم ربك أحدا. وفي الثاني بيان بأن هذا النعيم عطاء من الله وتفضل عليهم به من الأصل، وهو المفاز المفسر في قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ اَلنَّارِ وَأُدْخِلَ اَلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ودخول الجنة ابتداء عطاء من الله كما في حديث: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ اَلْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». أخرجه البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٣٨١٦). وقوله: ﴿حِسَابًا﴾: إشعار بأن تفاوت أهل الجنة في الجنة بالحساب ونتائج الأعمال. وقيل: ﴿حِسَابًا﴾ بمعنى كفاية، حتى يقول كل واحد منهم: حسبي حسبي. أي: كافيني. [عطية سالم (٨/ ٤١٢)].

جرِّ ﴿رَبِّ﴾ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ أَيِ: الْخَلْقُ ﴿مِنۡهُ﴾ تَعَالَى ﴿خِطَابٗا ٣٧﴾ أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُخَاطِبَهُ خَوْفًا مِنْهُ[1]. ﴿يَوۡمَ﴾ ظَرْفٌ لِـ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ ﴿يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ جِبْرِيلُ أَوْ جُنْدُ اللهِ[2] ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ حَالٌ، أَيْ: مُصْطَفِّينَ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أَيِ: الْخَلْقُ ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فِي الْكَلَامِ ﴿وَقَالَ﴾ قَوْلًا ﴿صَوَابٗا ٣٨﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ، كَأَنْ يَشْفَعُوا لِمَنِ ارْتَضَى. ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ الثَّابِتُ وُقُوعُهُ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ مَرْجِعًا، أَيْ: رَجَعَ إِلَى اللهِ بِطَاعَتِهِ لِيَسْلَمَ مِنَ الْعَذَابِ فِيهِ[3]. ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْآتِي، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ ﴿يَوۡمَ﴾ ظَرْفٌ لِـ﴿عَذَابٗا﴾ بِصِفَتِهِ ﴿يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ كُلُّ امْرِئٍ ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰـ﴾ حَرْفُ تَنْبِيهٍ ﴿لَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ يَعْنِي: فَلَا أُعَذَّبَ، يَقُولُ ذَلِكَ عِنْدَمَا يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْبَهَائِمِ بَعْدَ الِاقْتِصَاصِ مِنْ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ: كُونِي تُرَابًا[4].

---

(١) أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [هود: ١٠٥]. [ابن كثير (٨/ ٣٠٩)].

(٢) أي: جبريل عليه السلام، وهو المعبر عنه بروح القدس في آية أخرى، وفيه أقوال أخر نقلها ابن جرير. وما ذكرناه أصوبها؛ والتنزيل يفسر بعضه بعضا. ثم رأيت الرازي نقل عن القاضي اختياره، قال: لأن القرآن دل على أن هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام. وثبت أن القيام صحيح من جبريل، والكلام صحيح منه، ويصح أن يؤذن له، فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه، أو إلى القرآن الذي لا يصح وصفه بالقيام؟! وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ قال القاشاني: أي: صافين في مراتبهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وقال الرازي: يحتمل أن يكون المعنى صفا واحدا، ويحتمل أنه صفان، ويجوز صفوفا. والصف في الأصل مصدر، فينبئ عن الواحد والجمع، ورجح بعضهم الأخير لآية: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢] انتهى. [القاسمي (٩/ ٣٩٣)].

(٣) أي: من شاء عمل عملا يؤوب به إلى الله، ويرجع به إلى الله، وذلك العمل الصالح الموافق لمرضاة الله تعالى، وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ قيدتها آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٣٧)].

(٤) المعنى أنه يتمنى أنه كان ترابا في الدنيا فلم يخلق ولم يكلف، أو ترابا يوم القيامة فلم يبعث، ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجمَّاء من القرناء ثم يقول كوني ترابا فذلك حين يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾. [صديق حسن (١٥/ ٤٦)].

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مَكِّيَّةٌ، سِتٌّ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ اَلْمَلَائِكَةِ تَنْزِعُ أَرْوَاحَ اَلْكُفَّارِ(١) ﴿غَرۡقٗا ①﴾ نَزْعًا بِشِدَّةٍ. ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ②﴾ اَلْمَلَائِكَةِ تَنْشِطُ أَرْوَاحَ اَلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: تَسُلُّهَا بِرِفْقٍ. ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ③﴾ اَلْمَلَائِكَةِ تَسْبَحُ مِنَ اَلسَّمَاءِ بِأَمْرِهِ تَعَالَى، أَيْ: تَنْزِلُ. ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ④﴾ اَلْمَلَائِكَةِ تَسْبِقُ بِأَرْوَاحِ اَلْمُؤْمِنِينَ إِلَى اَلْجَنَّةِ. ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ⑤﴾ اَلْمَلَائِكَةِ تُدَبِّرُ أَمْرَ اَلدُّنْيَا، أَيْ: تَنْزِلُ بِتَدْبِيرِهِ(٢)، وَجَوَابُ هَذِهِ اَلْأَقْسَامِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: لَتُبْعَثُنَّ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ. وَهُوَ عَامِلٌ فِي: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ

---

(١) النازعات: جمع نازعة، والنزع: جذب الشيء بقوة من مقره، كنزع القوس عن كبده، ويستعمل في المحسوس والمعنوي، فمن الأول نزع القوس كما قدمنا، ومنه قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٠٨]، وقوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠]، ... ومن المعنوي قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا﴾ [الحجر: ٤٧]، ... والإغراق: المبالغة، والاستغراق: الاستيعاب. [عطية سالم (٨/ ٤١٥)].

(٢) قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ الواو للقسم، والمقسم به محذوف، ذكرت صفاته في كل المذكورات، إلى قوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾. وقد اختلف في المقسم به فيها كلها، ... قد ذكر في الجلالين المعنى الأول منها فقط، والذي يشهد له السياق والنصوص الأخرى: أن كلا من ﴿ٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ و﴿ٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾: هم الملائكة، وهو ما روي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ومجاهد، وهي صفات لها في قبض الأرواح. ودلالة السياق على هذا المعنى هو أنهما وصفان متقابلان: الأول نزع بشدة، والآخر نشاط بخفة، فيكون النزع غرقا لأرواح الكفار، والنشط بخفة لأرواح المؤمنين، وقد جاء ذلك مفسرا في قوله تعالى في حق نزع أرواح الكفار: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى في حق المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ㉗ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ㉘﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. وهذا يتناسب كل المناسبة مع آخر السورة التي قبلها إذ جاء فيها: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ونظر المرء ما قدمت يداه يبدأ من حالة النزع حينما يثقل اللسان عن النطق في حالة الحشرجة، حين لا تقبل التوبة عند المعاينة لما سيئول إليه، فينظر حينئذ ما قدمت يداه، وهذا عند نزع الروح أو نشطها. والله تعالى أعلم. [عطية سالم (٨/ ٤١٥)]. وهذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه، الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان، وأنه

﴿ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ اَلنَّفْخَةُ اَلْأُولَى بِهَا يَرْجُفُ كُلُّ شَيْءٍ، أَيْ: يَتَزَلْزَلُ، فَوُصِفَتْ بِمَا يَحْدُثُ مِنْهَا. ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ اَلنَّفْخَةُ اَلثَّانِيَةُ وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً[1] وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ اَلرَّاجِفَةِ، فَالْيَوْمُ وَاسِعٌ لِلنَّفْخَتَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، فَصَحَّ ظَرْفِيَّتُهُ لِلْبَعْثِ اَلْوَاقِعِ عَقِبَ اَلثَّانِيَةِ. ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ خَائِفَةٌ قَلِقَةٌ. ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩﴾ ذَلِيلَةٌ لِهَوْلِ مَا تَرَى. ﴿يَقُولُونَ﴾ أَيْ: أَرْبَابُ اَلْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ اِسْتِهْزَاءً وَإِنْكَارًا لِلْبَعْثِ: ﴿أَءِنَّا﴾ بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ اَلثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى اَلْوَجْهَيْنِ فِي اَلْمَوْضِعَيْنِ ﴿لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾ أَيْ: أَنُرَدُّ بَعْدَ اَلْمَوْتِ إِلَى اَلْحَيَاةِ؟ وَالْحَافِرَةُ اِسْمٌ لِأَوَّلِ اَلْأَمْرِ، وَمِنْهُ رَجَعَ فُلَانٌ فِي حَافِرَتِهِ، إِذَا رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ[2]. ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿نَاخِرَةً﴾ بَالِيَةً مُتَفَتِّتَةً، نَحْيَا؟ ﴿قَالُواْ تِلْكَ﴾ أَيْ: رَجْعَتُنَا إِلَى اَلْحَيَاةِ ﴿إِذًا﴾ إِنْ صَحَّتْ ﴿كَرَّةٌ﴾ رَجْعَةٌ ﴿خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ ذَاتُ خُسْرَانٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أَيِ: اَلرَّادِفَةُ اَلَّتِي يَعْقُبُهَا اَلْبَعْثُ ﴿زَجْرَةٌ﴾ نَفْخَةٌ ﴿وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾. فَإِذَا نُفِخَتْ: ﴿فَإِذَا هُم﴾ أَيْ: كُلُّ اَلْخَلَائِقِ ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ بِوَجْهِ اَلْأَرْضِ أَحْيَاءً، بَعْدَ مَا كَانُوا بِبَطْنِهَا أَمْوَاتًا[3]. ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ عَامِلٌ فِي: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ اِسْمُ اَلْوَادِي بِالتَّنْوِينِ وَتَرْكِهِ. فَقَالَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧﴾ تَجَاوَزَ اَلْحَدَّ فِي اَلْكُفْرِ. ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ﴾ أَدْعُوكَ ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِتَشْدِيدِ اَلزَّايِ بِإِدْغَامِ اَلتَّاءِ اَلثَّانِيَةِ فِي اَلْأَصْلِ فِيهَا، تَتَطَهَّرَ مِنَ اَلشِّرْكِ، بِأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللهُ. ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أَدُلَّكَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِبُرْهَانٍ ﴿فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ فَتَخَافَهُ. ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠﴾ مِنْ آيَاتِهِ اَلتِّسْعِ، وَهِيَ

أقسم على الملائكة، لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده. [السعدي (ص:٩٠٨)].

(١) الأربعون لم تحدد بسنة، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ». أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) أكثر المفسرين على أنها الحياة الأولى، يقال: عاد في حافرته رجع في طريقه، كأن محياه الأول حفر طريقه بمشيه فيها، وعليه لا علاقة له بحفرة القبر، وإنما هو تعبير عربي عن العودة في الأمر ... وقد دلت الآية بعدها، إلى أن المراد بالحافرة العودة إلى الحياة مرة أخرى، في قوله: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]. والكرة: هي العودة إلى الحياة الأولى، وهي ما قبل حفرة القبر من تكرار الحياة السابقة. والله تعالى أعلم. [عطية سالم (٨/ ٤١٨)].

(٣) الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة للتي يجري ماؤها وفي ضدها نائمة، أو لأن سالكها يسهر خوفا. [البيضاوي (٥/ ٢٨٣)].

اَلْيَدُ أَوِ اَلْعَصَا[1]. ﴿فَكَذَّبَ﴾ فِرْعَوْنُ مُوسَى ﴿وَعَصَىٰ ٢١﴾ اَللهَ تَعَالَى. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عَنِ اَلْإِيمَانِ ﴿يَسْعَىٰ ٢٢﴾ فِي اَلْأَرْضِ بِالْفَسَادِ. ﴿فَحَشَرَ﴾ جَمَعَ اَلسَّحَرَةَ وَجُنْدَهُ ﴿فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٤﴾ لَا رَبَّ فَوْقِي. ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ أَهْلَكَهُ بِالْغَرَقِ ﴿نَكَالَ﴾ عُقُوبَةَ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ أَيْ: هَذِهِ الْكَلِمَةِ ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ ٢٥﴾ أَيْ: قَوْلِهِ قَبْلَهَا: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] وَكَانَ بَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً[2]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ اَلْمَذْكُورِ ﴿لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ٢٦﴾ اَللهَ تَعَالَى. ﴿ءَأَنتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ اَلْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ اَلثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ اَلْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ، أَيْ: مُنْكِرُو اَلْبَعْثِ ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أَشَدُّ خَلْقًا[3] ﴿بَنَىٰهَا ٢٧﴾ بَيَانٌ لِكَيْفِيَّةِ خَلْقِهَا. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ تَفْسِيرٌ لِكَيْفِيَّةِ اَلْبِنَاءِ، أَيْ: جَعَلَ سَمْتَهَا فِي جِهَةِ اَلْعُلُوِّ رَفِيعًا، وَقِيلَ: سَمْكُهَا سَقْفُهَا ﴿فَسَوَّىٰهَا ٢٨﴾ جَعَلَهَا مُسْتَوِيَةً بِلَا عَيْبٍ. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أَظْلَمَهُ ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾ أَبْرَزَ نُورَ شَمْسِهَا، وَأُضِيفَ إِلَيْهَا اَللَّيْلُ لِأَنَّهُ ظِلُّهَا، وَالشَّمْسُ لِأَنَّهَا سِرَاجُهَا. ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ بَسَطَهَا وَكَانَتْ مَخْلُوقَةً قَبْلَ اَلسَّمَاءِ مِنْ غَيْرِ دَحْوٍ[4]. ﴿أَخْرَجَ﴾

---

(١) لا ينافي هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ [طه: ٥٦] وكل آياته كبرى لأن الإخبار هنا عما أراه له أول ملاقاته إياه وهو العصا واليد، ثم أردف ذلك برؤية الكل. ولا مساغ لحمل الآية على مجموع معجزاته فإن ما عدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة كما في سورة الأعراف، ولا ريب في أن هذا مطلع القضية وأمر السحرة مترقب بعده. [صديق حسن (١٥/ ٦٢)].

(٢) أي: انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية. وقيل: كفره وعصيانه. والصحيح الذي لا شك فيه الأول. [ابن كثير (٨/ ٣١٥)].

(٣) الاستفهام تقريري. والمقصود من التقرير إلجاؤهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من خلقهم، أي: من خلق نوعهم وهو نوع الإنسان وهم يعلمون أن الله هو خالق السماء فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية، فينتج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى لأنه قدر على ما هو أعظم من ذلك، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ذلك أن نظرهم العقلي غيمت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه محالا، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة. [ابن عاشور (٣٠/ ٨٣)].

(٤) الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل. وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، وغير واحد، واختاره ابن جرير ... عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ دحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار،

حَالٌ بِإِضْمَارِ «قَدْ»، أَيْ: مُخْرِجًا ﴿مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بِتَفْجِيرِ عُيُونِهَا ﴿وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ مَا تَرْعَاهُ ٱلنَّعَمُ مِنَ ٱلشَّجَرِ وَٱلْعُشْبِ، وَمَا يَأْكُلُهُ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْأَقْوَاتِ وَٱلثِّمَارِ، وَإِطْلَاقُ ٱلْمَرْعَى عَلَيْهِ ٱسْتِعَارَةٌ. ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ أَثْبَتَهَا عَلَى وَجْهِ ٱلْأَرْضِ لِتَسْكُنَ. ﴿مَتَٰعًا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ لِمُقَدَّرٍ، أَيْ: فَعَلَ ذَٰلِكَ مُتْعَةً، أَوْ مَصْدَرٌ، أَيْ: تَمْتِيعًا ﴿لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ جَمْعُ «نَعَمٍ» وَهِيَ: ٱلْإِبِلُ وَٱلْبَقَرُ وَٱلْغَنَمُ. ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ ٱلنَّفْخَةُ ٱلثَّانِيَةُ[1]. ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بَدَلٌ مِنْ «إِذَا» ﴿مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ فِي ٱلدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أُظْهِرَتْ ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ ٱلنَّارُ ٱلْمُحْرِقَةُ ﴿لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ لِكُلِّ رَاءٍ[2]. وَجَوَابُ «إِذَا»: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ كَفَرَ ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ بِٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ مَأْوَاهُ. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ قِيَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ ٱلْأَمَّارَةَ ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ ٱلْمُرْدِي بِٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ. ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ وَحَاصِلُ ٱلْجَوَابِ: فَٱلْعَاصِي فِي ٱلنَّارِ وَٱلْمُطِيعُ فِي ٱلْجَنَّةِ. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ مَتَى وُقُوعُهَا وَقِيَامُهَا. ﴿فِيمَ﴾ فِي أَيِّ شَيْءٍ ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾﴾ أَيْ: لَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمُهَا حَتَّى تَذْكُرَهَا. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ مُنْتَهَى عِلْمِهَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ[3]. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِنْذَارُكَ ﴿مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ يَخَافُهَا. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ فِي قُبُورِهِمْ ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ عَشِيَّةَ يَوْمٍ أَوْ بُكْرَتَهُ، وَصَحَّ إِضَافَةُ ٱلضُّحَى إِلَى ٱلْعَشِيَّةِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْمُلَابَسَةِ إِذْ هُمَا طَرَفَا ٱلنَّهَارِ، وَحَسَّنَ ٱلْإِضَافَةَ وُقُوعُ ٱلْكَلِمَةِ فَاصِلَةً.

وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام. [ابن كثير (٨/ ٣١٦)].

(١) هو يوم القيامة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]. [ابن كثير (٨/ ٣١٧)].

(٢) أي: أظهرت النار المحرقة إظهاراً بيناً مكشوفاً لا تخفى على أحد، قال مقاتل: فكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق، وقيل: لمن يرى من الكفار لا من المؤمنين. والظاهر أنها تبرز لكل راء، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها، وأما الكافر فيزداد غماً إلى غمه وحسرة إلى حسرته. [صديق حسن (١٥/ ٦٩)].

(٣) أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال هاهنا: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨). [ابن كثير (٨/ ٣١٨)].

سُورَةُ عَبَسَ

مَكِّيَّةٌ، اِثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ﴾ اَلنَّبِيُّ: كَلَحَ وَجْهُهُ(١) ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ①﴾ أَعْرَضَ؛ لِأَجْلِ: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ②﴾ عَبْدُ اَللهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَقَطَعَهُ عَمَّا هُوَ مَشْغُولٌ بِهِ مِمَّنْ يَرْجُو إِسْلَامَهُ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ اَلَّذِينَ هُوَ حَرِيصٌ عَلَى إِسْلَامِهِمْ، وَلَمْ يَدْرِ اَلْأَعْمَى أَنَّهُ مَشْغُولٌ بِذَلِكَ، فَنَادَاهُ: عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اَللهُ، فَانْصَرَفَ اَلنَّبِيُّ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ، فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ بِمَا نَزَلَ فِي هَذِهِ اَلسُّورَةِ(٢)، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ إِذَا جَاءَ: «مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»(٣)، وَيَبْسُطُ لَهُ رِدَاءَهُ. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يُعْلِمُكَ ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ③﴾ فِيهِ إِدْغَامُ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلزَّايِ، أَيْ: يَتَطَهَّرُ مِنَ اَلذُّنُوبِ بِمَا يَسْمَعُ مِنْكَ. ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ اَلتَّاءِ فِي اَلْأَصْلِ فِي اَلذَّالِ، أَيْ: يَتَّعِظُ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ④﴾ اَلْعِظَةُ اَلْمَسْمُوعَةُ مِنْكَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَصْبِ ﴿تنفعَهُ﴾ جَوَابُ اَلتَّرَجِّي. ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤﴾ بِالْمَالِ. ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِتَشْدِيدِ اَلصَّادِ بِإِدْغَامِ اَلتَّاءِ اَلثَّانِيَةِ فِي اَلْأَصْلِ فِيهَا: تُقْبِلُ وَتَتَعَرَّضُ. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ⑦﴾ يُؤْمِنُ. ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ «جَاءَ». ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨﴾ اَللهَ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿يَسْعَىٰ﴾ وَهُوَ اَلْأَعْمَى. ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ⑩﴾ فِيهِ حَذْفُ اَلتَّاءِ اَلْأُخْرَى فِي اَلْأَصْلِ، أَيْ: تَتَشَاغَلُ. ﴿كَلَّآ﴾ لَا تَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ ﴿إِنَّهَا﴾ اَلسُّورَةَ أَوِ اَلْآيَاتِ ﴿تَذْكِرَةٌ ⑪﴾ عِظَةٌ لِلْخَلْقِ(٤). ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ⑫﴾ حَفِظَ ذَلِكَ فَاتَّعَظَ بِهِ ﴿فِى صُحُفٍ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ لِـ ﴿إِنَّهَا﴾ وَمَا قَبْلَهُ اِعْتِرَاضٌ ﴿مُّكَرَّمَةٍ ⑬﴾ عِنْدَ اَللهِ. ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ فِي اَلسَّمَاءِ ﴿مُّطَهَّرَةٍۭ ⑭﴾ مُنَزَّهَةٍ عَنْ مَسِّ اَلشَّيَاطِينِ. ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ⑮﴾

---

(١) أي: كلح بوجهه وقطب وأعرض، وقرئ: ﴿عَبَّسَ﴾ بالتشديد، جيء في هذه المواضع بضمائر الغائب إجلالاً له ﷺ ولطفاً به لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى. [صديق حسن (١٥/ ٧٥)].

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني. وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأسا؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزل». أخرجه الترمذي (٣٣٣١)، وصححه.

(٣) ذكره الديلمي في الفردوس (٦٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) فيه وجهان، أحدهما: أن هذا الكلام المتقدم تذكرة أو موعظة للنبي ﷺ، والآخر أن القرآن تذكرة لجميع الناس، فلا ينبغي أن يُؤْثر فيه أحد على أحد، وهذا أرجح لأنه يناسبه [ما بعده]. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٥٣)].

كَتَبَةٍ يَنْسَخُونَهَا مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ[١]. ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ١٦﴾ مُطِيعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ. ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لُعِنَ الْكَافِرُ ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ ١٧﴾ اِسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ، أَيْ: مَا حَمَلَهُ عَلَى الْكُفْرِ[٢]. ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾ اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ. ثُمَّ بَيَّنَهُ فَقَالَ: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً إِلَى آخِرِ خَلْقِهِ. ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ﴾ أَيْ: طَرِيقَ خُرُوجِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ[٣] ﴿يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ٢١﴾ جَعَلَهُ فِي قَبْرٍ يَسْتُرُهُ[٤]. ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾ لِلْبَعْثِ[٥].

---

(١) قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد: هي الملائكة. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: السفرة بالنبطية: القراء. وقال ابن جرير: الصحيح أن السفرة الملائكة، والسفرة يعني بين الله وبين خلقه، ومنه يقال: السفير: الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، ... قال البخاري: سفرة: الملائكة. سفرت: أصلحت بينهم. وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم ... عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ». أخرجه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨). [ابن كثير (٨/ ٣٢١)].

(٢) ﴿قُتِلَ﴾ أي: لعن. وقيل: عذب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فإنما عني به الكافر ... وروى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ أي شي أكفره؟ وقيل: ما تعجب، وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله الله ما أحسنه! وأخزاه الله ما أظلمه، والمعنى: أعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضا، قال ابن جريج: أي: ما أشد كفره، وقيل: ما استفهام أي: أي شي دعاه إلى الكفر، فهو استفهام توبيخ. وما تحتمل التعجب، وتحتمل معنى «أي»، فتكون استفهاما. [القرطبي (١٩/ ٢١٧)].

(٣) أي: يسر له الطريق إلى الخير والشر، وقال السدي ومقاتل وعطاء وقتادة: يسره للخروج من بطن أمه، قال بعضهم: إن رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجليه من تحت فهو في بطن أمه على الانتصاب، فإذا جاء وقت خروجه انقلب بإلهام من الله تعالى، ذكره الرازي والأول أولى، ومثله قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور، أي: يسر السبيل يسره. [صديق حسن (١٥/ ٨٢)].

(٤) أي: جعله ذا قبر توارى فيه جيفته تكرمة له ولم يجعله مطروحا على الأرض يستقذره من يراه وتقتسمه السباع والطير إذا ظفرت به كسائر الحيوان، والمراد من جعله ذا قبر أمره عز وجل بدفنه، يقال: قبر الميت إذا دفنه بيده، وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكن منه، ففي الآية إشارة إلى مشروعية دفن الإنسان وهي مما لا خلاف فيه، ... وعد الإماتة من النعم لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم، وخصت هذه النعم بالذكر لما فيها من ذكر أحوال الإنسان من ابتدائه إلى انتهائه وما تتضمن من النعم التي هي محض فضل من الله فإذا تأمل ذلك العاقل علم قبح الكفر وكفران نعم الرب سبحانه وتعالى فشكره جل وعلا بالإيمان والطاعة. [الآلوسي (١٥/ ٢٤٧)].

(٥) أي: بعثه بعد مماته وأحياه؛ وإنما قال: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو موكول إلى مشيئته تعالى، متى شاء أن يحيي الخلق أحياهم. قال الشهاب: وتخصيص النشور به دون الإماتة والإقبار، لأن وقتهما معين إجمالا، على ما هو المعهود في الأعمار الطبيعية. [القاسمي (٩/ ٤٠٩)].

﴿كَلَّا﴾ حقًّا ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ لَمْ يَفْعَلْ ﴿مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾ بِهِ رَبُّهُ(١). ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ نَظَرَ اعْتِبَارٍ ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾ كَيْفَ قُدِّرَ وَدُبِّرَ لَهُ. ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾ مِنَ السَّحَابِ ﴿صَبًّا ٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿شَقًّا ٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧﴾ كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨﴾ هُوَ الْقَتُّ الرَّطْبُ(٢). ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠﴾ بَسَاتِينَ كَثِيرَةَ الْأَشْجَارِ(٣). ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١﴾ مَا تَرْعَاهُ الْبَهَائِمُ، وَقِيلَ: التِّبْنُ(٤). ﴿مَّتَٰعًا﴾ مُتْعَةً أَوْ تَمْتِيعًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي

---

(١) ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للإنسان الكافر عما هو عليه من التكبر والتجبر والترفع والإصرار على إنكار التوحيد والبعث والحساب، أي: ليس الأمر كما يقول، ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه، وقيل المراد الإنسان على العموم، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة لأنه لا يخلو من تقصير، قال الحسن: أي حقـًا لم يعمل ما أمر به، ... قال ابن الأنباري: الوقف على ﴿كَلَّا﴾ قبيح، والوقف على ﴿أَمَرَهُۥ﴾ و﴿أَنشَرَهُۥ﴾ جيد، و﴿كَلَّا﴾ على هذا بمعنى: حقـًا. وقيل المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره بل أخل به، بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان، وما قضى ما أمره الله به إلا القليل. وقال بعضهم: ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بينهما حامل عذرة. [صديق حسن (١٥/ ٨٣)].

(٢) عن ابن عباس أنه قال: هو الفصفصة، وقيدها الخليل بالرطبة وقال: إذا يبست فهي القت وسميت بمصدر قضبه؛ أي: قطعه مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثره نفسه القطع، وضعف هذا من فسر الأب بما يشمل ذلك وقيل هو كل ما يقضب ليأكله ابن آدم غضا من النبات. [الآلوسي (١٥/ ٢٤٩)]. فهو كل ما أكل من النبات رطبا، كالقثاء والخيار ونحوهما. سمي قضبا لأنه يقضب، أي: يقطع مرة بعد أخرى. [القاسمي (٩/ ٤١٠)].

(٣) الغلب: جمع غلباء، وهي مؤنث الأغلب، وهو غليظ الرقبة، يقال غلب كفرح، يوصف به الإنسان والبعير، وهو هنا مستعار لغلظ أصول الشجر، فوصف الحدائق به إما على تشبيه الحديقة في تكاثف أوراق شجرها والتفافها بشخص غليظ الأوداج والأعصاب فتكون استعارة، وإما على تقدير محذوف، أي: غلب شجرها، فيكون نعتا سببيا وتكون الاستعارة في تشبيه كل شجرة بامرأة غليظة الرقبة، وذلك من محاسن الحدائق لأنها تكون قد استكملت قوة الأشجار كما في قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبإ: ١٦]. وخصت الحدائق بالذكر لأنها مواضع التنزه والاختراف، ولأنها تجمع أصنافا من الأشجار. [ابن عاشور (٣٠/ ١٣٢)].

(٤) أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار. قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أكل رطبا. والأب ما أنبتت الأرض، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو مالك: الأب: الكلأ. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب ... عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف ... وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ٣١﴾. وعن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض

اَلسُّورَةِ قَبْلَهَا[١] ﴿لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾ اَلنَّفْخَةُ اَلثَّانِيَةُ[٢]. ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زَوْجَتِهِ ﴿وَبَنِيهِ ٣٦﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بَدَلٌ مِنْ «إِذَا». وَجَوَابُهَا دَلَّ عَلَيْهِ[٣]: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٣٧﴾ حَالٌ يَشْغَلُهُ عَنْ شَأْنِ غَيْرِهِ، أَيِ: اِشْتَغَلَ كُلُّ وَاحِدٍ بِنَفْسِهِ[٤]. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ٣٨﴾ مُضِيئَةٌ. ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ٣٩﴾ فَرِحَةٌ وَهُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ٤٠﴾ غُبَارٌ. ﴿تَرْهَقُهَا﴾ تَغْشَاهَا ﴿قَتَرَةٌ ٤١﴾ ظُلْمَةٌ وَسَوَادٌ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أَهْلُ هَذِهِ اَلْحَالَةِ ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ٤٢﴾ أَيْ: اَلْجَامِعُونَ بَيْنَ اَلْكُفْرِ وَالْفُجُورِ[٥].

تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق. [ابن كثير (٨/ ٣٢٤)].

(١) الآية (٣٣) من سورة النازعات.

(٢) يعني صيحة يوم القيامة، وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الآذان، أي: تصمها فلا تسمع، وقيل: لأنها تصخ لها الأسماع من قولك أصاخ إلى كذا، أي: استمع إليه، والأول أصح، قال الخليل: الصاخة صيحة تصخ الآذان حتى تصمها لشدة وقعها، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذ من الصك الشديد يقال، صخه الحجر إذا صكه به، وقال ابن عباس: الصاخة من أسماء يوم القيامة. قال ابن الأعرابي: الصاخة التي تورث الصمم وأنها لمسمعة، وهذا من بديع الفصاحة والفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها من فنون النعم، وجواب «إذا» محذوف يدل عليه قوله الآتي: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه. [صديق حسن (١٥/ ٨٧)].

(٣) الآية ذكر فرار الإنسان من أحبابه، ورتبهم على ترتيبهم في الحنو والشفقة فبدأ بالأقل وختم بالأكثر، لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره؛ وإنما يفر منهم لاشتغاله بنفسه؛ وقيل: إن فراره منهم لئلا يطالبوه بالتبعات، والأول أرجح وأظهر. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٥٤)].

(٤) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً مُشَاةً غُرْلًا» فقالت امرأة: أيبصر، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾». أخرجه الترمذي (٣٣٣٢).

(٥) أتبع وصف ﴿ٱلْكَفَرَةُ﴾ بوصف ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ مع أن وصف الكفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من خساسة العمل فذكر وصفاهم الدالان عن مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل. وذكر وصف ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ بدون عاطف يفيد أنهم جمعوا بين الكفر والفجور. [ابن عاشور (٣٠/ ١٣٨)].

سُورَةُ التَّكۡوِيرِ

مَكِّيَّةٌ، تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ لُفِّفَتْ وَذُهِبَ بِنُورِهَا[1]. ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾ اِنْقَضَّتْ وَتَسَاقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ[2]. ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣﴾ ذُهِبَ بِهَا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ فَصَارَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا[3]. ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ﴾ النُّوقُ الْحَوَامِلُ ﴿عُطِّلَتۡ ٤﴾ تُرِكَتْ بِلَا رَاعٍ أَوْ بِلَا حَلْبٍ، لِمَا دَهَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ، وَلَمْ يَكُنْ مَالٌ أَعْجَبَ إِلَيْهِمْ مِنْهَا[4]. ﴿وَإِذَا

---

(١) اختلف في معنى ﴿كُوِّرَتۡ﴾ هنا أكثر من عشرة أقوال، وكلها تدور على نهاية أمرها. فقيل: لف بعضها على بعض، فانطمس نورها. وقيل: حجبت بكارة، أي: لفت بها ... وقيل: اضمحلت. وقيل: نكست ... والذي يشهد له القرآن، أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها؛ لأن الله تعالى جعل لها أجلا مسمى، ومعنى ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: ٢٩]. فمفهومه: أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها. وهو ما يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، أي: بعد أن لم يجتمعا قط، وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك الوقت، كما في قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ولعل أقرب الأقوال المنقولة في ذلك هو القول بأنه بمعنى: نكست. أي: ردت إلى حيث أتت، كما في الحديث، فتطلع من مغربها، وعليه فتجتمع مع القمر. [عطية سالم (٨/ ٤٣٧)].

(٢) أي: تهافتت وتناثرت. وقال أبو عبيدة: انصبت كما تنصب العقاب إذا انكسرت ... ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها. وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: انكدرت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها. والمعنى متقارب. [القرطبي (١٩/ ٢٢٧)]. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار: ٢]. ويشهد للثاني: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ [المرسلات: ٨]؛ لأنها إذا تناثرت وذهبت من أماكنها وتغير نظامها، فقد ذهب نورها وطمست. [عطية سالم (٨/ ٤٣٨)].

(٣) يعني: قُلعت عن الأرض وسُيِّرت في الهواء كقوله: ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ﴾ [الكهف: ٤٧]، يعني: خالية ليس عليها شيء من الماء والشجر وغيرها. [السمرقندي (٣/ ٥٥٠)]. فإن هذه الجبال العظيمة الصلبة العالية الرفيعة تكون هباءً يوم القيامة وتُسَيَّرُ كما قال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ ٢٠]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٧٠)].

(٤) وإنما خص العشار بالذكر، لأنها أعز ما تكون على العرب، وليس يعطلها أهلها إلا حال القيامة. وهذا على وجه المثل، لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء، ولكن أراد به المثل، أن هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه. وقيل: إنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضا، ورأوا الوحوش والدواب محشورة، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبئوا بها، ولم يهمهم أمرها. وخوطبت العرب بأمر العشار، لأن مالها وعيشها أكثره من الإبل. وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: عطلت: عطلها أهلها،

﴿ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥﴾ جُمِعَتْ بَعْدَ الْبَعْثِ لِيُقْتَصَّ لِبَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ، ثُمَّ تَصِيرُ تُرَابًا(١). **﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾** بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أُوقِدَتْ فَصَارَتْ نَارًا(٢). **﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾** قُرِنَتْ بِأَجْسَادِهَا(٣). **﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ﴾** الْجَارِيَةُ تُدْفَنُ حَيَّةً خَوْفَ الْعَارِ أَوِ الْحَاجَةِ **﴿سُئِلَتۡ ۝٨﴾** تَبْكِيتًا لِقَاتِلِهَا(٤). **﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾** وَقُرِئَ بِكَسْرِ

لاشتغالهم بأنفسهم. [القرطبي (١٩/ ٢٢٨)].

(١) كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] ... قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ [ص: ١٩]، أي: مجموعة. [ابن كثير (٨/ ٣٣١)]. قال ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ». أخرجه مسلم (٢٥٨٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يحشر الخلائق كلهم. يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابا، فذلك حين يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

(٢) فيه ثلاثة أقوال: أحدها ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً، والآخر: مُلئت نيرانـًا لتعذيب أهل النار، والثالث: فرغت من مائها ويبست. وأصله من سَجَرْتُ التنور إذا ملأتها، فالقول الأول والثاني أليق بالأصل. والأول والثالث موافق لقوله: ﴿فُجِّرَتۡ﴾. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٥٥)]. [ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بأن يقال:] ﴿ٱلۡبِحَارُ﴾ جمع بحر، وجمعت لعظمتها وكثرتها، فإنها تمثل ثلاثة أرباع الأرض تقريبا أو أكثر، هذه البحار العظيمة إذا كان يوم القيامة فإنها تسجر، أي: توقد نارا، تشتعل نارا عظيمة، وحينئذ تيبس الأرض ولا يبقى فيها ماء. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٧٠)].

(٣) فيه ثلاثة أقوال: أحدها أن التزويج بمعنى التنويع لأن الأزواج هي الأنواع، فالمعنى جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن، والثاني: زوجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين، والثالث: زوجت الأرواح والأجساد، أي: ردت إليها عند البعث. والأول هو الأرجح، لأنه روي عن النبي ﷺ وعن عمر بن الخطاب وابن عباس. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٥٦)]. عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ قال: الضرباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله عز وجل يقول: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ۝٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة:٧-١٠]، قال: هم الضرباء. أخرجه ابن مردويه في تفسيره، كما في الدر المنثور (٨/ ٤٢٩). ... وفي رواية عن النعمان قال: سئل عمر رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ فقال: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس. وقال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة. [ابن كثير (٨/ ٣٣٢)].

(٤) كانوا يفعلون ذلك خشية من إغارة العدو عليهم فيسبي نساءهم، ولخشية الإملاق في سني الجدب؛ لأن الذكر يحتال للكسب بالغارة وغيرها والأنثى عالة على أهلها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

اَلتَّاءِ⁽¹⁾ حِكَايَةً لِمَا تُخَاطَبُ بِهِ، وَجَوَابُهَا أَنْ تَقُولَ: قُتِلْتُ بِلَا ذَنْبٍ. ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ صُحُفُ اَلْأَعْمَالِ ﴿نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، فُتِحَتْ وَبُسِطَتْ⁽²⁾. ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ نُزِعَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا كَمَا يُنْزَعُ اَلْجِلْدُ عَنِ اَلشَّاةِ⁽³⁾. ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ﴾ اَلنَّارُ ﴿سُعِرَتْ ﴿١٢﴾﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أُجِّجَتْ. ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ قُرِّبَتْ لِأَهْلِهَا لِيَدْخُلُوهَا⁽⁴⁾، وَجَوَابُ ﴿إِذَا﴾ أَوَّلَ اَلسُّورَةِ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أَيْ: كُلُّ نَفْسٍ وَقْتَ هَذِهِ اَلْمَذْكُورَاتِ وَهُوَ يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ⁽⁵⁾. ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ «لَا» زَائِدَةٌ ﴿بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ

[ابن عاشور (٣٠/ ١٤٥)]. فإن سأل سائل: كيف يصح أن يسأل من لا ذنب له ولا عقل، فأي فائدة في سؤالها عن ذلك، وما وجه الحكمة فيه؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أن يكون المراد أن قاتلها طولب بالحجة في قتلها، وسئل عن قتله لها بأي ذنب كان، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة. فالقتلة هاهنا هم المسؤولون على الحقيقة، لا المقتولة، وإنما المقتولة مسؤول عنها. ويجري هذا مجرى ... قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] أي: مطالبا به مسؤولا عنه. والوجه الآخر: أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة، على سبيل التوبيخ له، والتقريع له، والتنبيه له، على أنه لا حجة له في قتلها. ويجري هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المائدة: ١١٦] على طريق التوبيخ لقومه، وإقامة الحجة عليهم. [القاسمي (٩/ ٤١٣)].

(١) قراءة شاذة.

(٢) أي: فتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تطوى بالموت، وتنشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩]. [القرطبي (١٩/ ٢٣٤)].

(٣) في يوم القيامة تكشط، يعني: تزال عن مكانها كما يكشط الجلد عند سلخ البعير عن اللحم، يكشطها الله عز وجل ثم يطويها جل وعلا بيمينه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] يعني: كما يطوي السجل الكتب، يعني الكاتب إذا فرغ من كتابته طوى الورقة حفظا لها عن التمزق وعن المحي. فالسماء تكشط يوم القيامة ويبقى الأمر فضاء، إلا أن الله تعالى يقول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، يكون بدل السماء التي فوقنا العرش. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٧٣)]. قال رسول الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟». أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٤) أي: قربت إلى المتقين وأدنيت منهم ليدخلوها، قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها، وقال ابن زيد: معنى أزلفت تزينت، والأول أولى لأن الزلفى القرب في كلام العرب. قيل: هذه الأمور الإثنا عشر ست منها في الدنيا وهي من أول السورة إلى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، وست في الآخرة هي ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إلى هنا. [صديق حسن (١٥/ ١٠١)]. [وقيل:] أن ظاهره اتصال طي السماء بإعادة الخلق، فتصير الأشراط التي تحصل قبل البعث سبعة والأحداث التي تقع بعد البعث خمسة. [ابن عاشور (٣٠/ ١٥٠)].

(٥) هذا جواب «إذا» المكررة في المواضع قبل هذا، ومعناه: علمت كل نفس ما أحضرت من عمل، فلفظ النفس مفرد يراد به الجنس والعموم،

ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ هِيَ اَلنُّجُومُ اَلْخَمْسَةُ: زُحَلُ وَالْمُشْتَرِي وَالْمَرِّيخُ وَالزُّهَرَةُ وَعُطَارِدُ، تَخْنُسُ بِضَمِّ اَلنُّونِ، أَيْ: تَرْجِعُ فِي مَجْرَاهَا وَرَاءَهَا، بَيْنَمَا تَرَى اَلنَّجْمَ فِي آخِرِ اَلْبُرْجِ إِذْ كَرَّ رَاجِعًا إِلَى أَوَّلِهِ، وَتَكْنِسُ بِكَسْرِ اَلنُّونِ: تَدْخُلُ فِي كِنَاسِهَا، أَيْ: تَغِيبُ فِي اَلْمَوَاضِعِ اَلَّتِي تَغِيبُ فِيهَا[1]. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾ أَقْبَلَ بِظَلَامِهِ أَوْ أَدْبَرَ. ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ اِمْتَدَّ حَتَّى يَصِيرَ نَهَارًا بَيِّنًا[2]. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنَ ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾﴾ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَهُوَ جِبْرِيلُ أُضِيفَ إِلَيْهِ لِنُزُولِهِ بِهِ. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أَيْ: شَدِيدِ اَلْقُوَى ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أَيْ: اللهِ تَعَالَى ﴿مَكِينٖ ﴿٢٠﴾﴾ ذِي مَكَانَةٍ، مُتَعَلِّقٌ بِهِ ﴿عِندَ﴾. ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ﴾ تُطِيعُهُ اَلْمَلَائِكَةُ فِي اَلسَّمَاوَاتِ ﴿أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ عَلَى اَلْوَحْيِ. ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ عُطِفَ عَلَى ﴿إِنَّهُۥ﴾ إِلَى آخِرِ اَلْمُقْسَمِ عَلَيْهِ ﴿بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾﴾ كَمَا زَعَمْتُمْ[3]. ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ جِبْرِيلَ

وقال ابن عطية: إنما أفردها ليبين حقارتها وذلتها، وقال الزمخشري: هذا من عكس كلامهم الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحجر: ٢] ومعناه التكثير، وكذلك هنا معناه أعم الجموع ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ عبارة عن الحسنات والسيئات. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٥٦)]. كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وعن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(١) قد يظن بعض الناس أن «لا» نافية، وليس كذلك، بل هي مُثْبِتَة للقسم، ويؤتى بها في مثل هذا التركيب للتأكيد. فالمعنى: ﴿أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾، والْخُنَّس جمع خانسة، وهي النجوم التي تَخْنس، أي: ترجع، فبينما تراها في أعلى الأفق إذا بها راجعة إلى آخر الأفق، وذلك والله أعلم لارتفاعها وبُعْدِها، فيكون ما تحتها من النجوم أسرع منها في الجري بحسب رؤية العين. وقوله: ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ أصلها «الجواري» بالياء، لكن حُذِفَت الياء للتخفيف، و﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾ هي التي تكنس، أي: تدخل في مَغِيبِها، فأقسم الله بهذه النجوم، ثم أقسم بالليل والنهار. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٧٥)].

(٢) عسعس الليل عسعاسا وعسعسة، قال مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أقبل بظلامه، وقال مجاهد أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما معناه: أدبر ظلامه، وقاله زيد بن أسلم وجزم به الفراء وحكى عليه الإجماع. وقال المبرد، والخليل: هو من الأضداد، يقال: عسعس، إذا أقبل ظلامه، وعسعس، إذا أدبر ظلامه. قال ابن عطية: قال المبرد: أقسم الله بإقبال الليل وإدباره معا. وبذلك يكون إيثار هذا الفعل لإفادته كلا حالين صالحين للقسم به فيهما؛ لأنهما من مظاهر القدرة إذ يعقب الظلام الضياء، ثم يعقب الضياء الظلام، وهذا إيجاز. وعطف عليه القسم بالصبح حين تنفسه، أي: انشقاق ضوئه لمناسبة ذكر الليل، ولأن تنفس الصبح من مظاهر بديع النظام الذي جعله الله في هذا العالم. والتنفس: حقيقته خروج النفس من الحيوان، استعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النفس على طريقة الاستعارة المصرحة، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجعل ذلك كالتنفس له على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذي نفس مع تشبيه النسيم بالأنفاس. [ابن عاشور (٣٠/ ١٥٤)].

(٣) الخطاب لأهل مكة والمراد بصاحبكم رسول الله ﷺ، والمعنى وما محمد يا أهل مكة بمجنون، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم

عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣﴾ الْبَيِّنِ وَهُوَ الْأَعْلَى بِنَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ[١]. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أَيْ: مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أَيْ: مَا غَابَ مِنَ الْوَحْيِ وَخَبَرِ السَّمَاءِ ﴿بِظَنِينٍ ۝٢٤﴾ بِمُتَّهَمٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالضَّادِ، أَيْ: بِبَخِيلٍ فَيَنْتَقِصَ شَيْئًا مِنْهُ. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ ﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ﴾ مُسْتَرِقِ السَّمْعِ ﴿رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾ مَرْجُومٍ. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ فَبِأَيِّ طَرِيقٍ تَسْلُكُونَ فِي إِنْكَارِكُمُ الْقُرْآنَ وَإِعْرَاضِكُمْ عَنْهُ. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧﴾ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ «الْعَالَمِينَ» بِإِعَادَةِ الْجَارِّ ﴿أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الِاسْتِقَامَةَ عَلَى الْحَقِّ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ الْخَلَائِقِ اسْتِقَامَتَكُمْ عَلَيْهِ[٢].

عالمون بأمره، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم ... والمقصود رد قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨]. [صديق حسن (١٥/ ١٠٦)].

(١) يعني: ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ٥-١٠]. والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ [النجم: ١٣-١٦]، فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. [ابن كثير (٨/ ٣٣٩)].

(٢) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله عز وجل رب العالمين. [ابن كثير (٨/ ٣٤٠)]. أي: أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله، وفيه إعلام أن أحدا لا يعمل خيرا إلا بتوفيق الله ولا شرا إلا بخذلانه. [البغوي (٨/ ٣٥١)]. أي: وما تشاؤون شيئا من فعالكم، إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئتكم وإقداركم عليها والتخلية بينكم وبينها. وفائدة هذا الإخبار هو الإعلام بالافتقار إلى الله تعالى، وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدره الله عز وجل؛ فهو خاضع لسلطان مشيئته، مقهور تحت تدبيره وإرادته. [القاسمي (٩/ ٤٢١)]. ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] والآيات القرآنية في هذا المعنى كثير. [صديق حسن (١٥/ ١٠٩)]. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رأيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾». أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد (٤٨٠٦).

سُورَةُ الانفِطَارِ

مَكِّيَّةٌ، تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ①﴾ اِنْشَقَّتْ(١). ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ②﴾ اِنْقَضَّتْ وَتَسَاقَطَتْ(٢). ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ③﴾ فُتِحَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا وَاخْتَلَطَ الْعَذْبُ بِالْمِلْحِ(٣). ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ④﴾ قُلِبَ تُرَابُهَا وَبُعِثَ مَوْتَاهَا(٤). وَجَوَابُ ﴿إِذَا﴾ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ﴾ أَيْ: كُلُّ نَفْسٍ وَقْتِ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿وَ﴾ مَا ﴿أَخَّرَتۡ ⑤﴾ مِنْهَا فَلَمْ تَعْمَلْهُ(٥). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الْكَافِرُ ﴿مَا غَرَّكَ

---

(١) أي: انشقت، كما في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، قيل: هيبة لله. وقيل: لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ...[ومثله:] ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨]. ومثل الانفطار والتشقق: الانفراج، كقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات: ٩]. [عطية سالم (٨/ ٤٤٩)].

(٢) أي: إذا انقضت وتساقطت متفرقة، يقال نثرت الشيء انثره نثراً، والانتثار استعارة لإزالة الكواكب حيث شبهت بجواهر قطع سلكها، وهي مصرحة أو مكنية. [صديق حسن (١٥/ ١١٣)].

(٣) فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: يبست، قاله الحسن. الثاني: خلطت فصارت بحرا واحدا، وهذا معنى قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: وهو سبعة أبحر فتصير بحرا واحدا. الثالث: فجر عذبها في مالحها: ومالحها في عذبها، قاله قتادة. ويحتمل رابعا: أي: فاضت. [الماوردي (٦/ ٢٢٠)].

(٤) أي: نبشت على الموتى الذين فيها، وقال الزمخشري: أصله من البعث والبحث فضمت إليها الراء والمعنى بحثت وأخرج موتاها. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٥٨)]. أي: بعثر من فيها. كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩]. وقد دل هذا اللفظ على سرعة الانتشار، كبعثرة الحب من الكف كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ [المعارج: ٤٣]. [عطية سالم (٨/ ٤٤٩)].

(٥) المعنى: أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، ... ومعنى: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ ما قدمت من عمل خير أو شر، أو أخرت من سنة حسنة أو سيئة؛ لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة وأجر من عمل بها، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها. وقال قتادة: ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة، وقيل: ما قدم من فرض وأخر من فرض، وقيل: أول عمله وآخره. وقيل: أن النفس تعلم عند البعث بما قدمت وأخرت علماً إجمالياً لأن المطيع يرى آثار السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة، وأما العلم التفصيلي فإنما يحصل عند نشر الصحف. عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها بعده فإن له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً أو سنة سيئة يعمل بها بعده فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نحوه. وأخرج الحاكم (٣٩٠٦) وصححه

بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ حَتَّى عَصَيْتَهُ[1]. ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ جَعَلَكَ مُسْتَوِيَ الْخِلْقَةِ سَالِمَ الْأَعْضَاءِ ﴿فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، جَعَلَكَ مُعْتَدِلَ الْخَلْقِ مُتَنَاسِبَ الْأَعْضَاءِ، لَيْسَتْ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ أَطْوَلَ مِنَ الْأُخْرَى. ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا﴾ زَائِدَةٌ[2] ﴿شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا﴾ رَدْعٌ عَنِ الِاغْتِرَارِ بِكَرَمِ اللهِ تَعَالَى ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أَيْ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ بِالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ. ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِأَعْمَالِكُمْ. ﴿كِرَامٗا﴾ عَلَى اللهِ ﴿كَٰتِبِينَ ۝١١﴾ لَهَا. ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾ جَمِيعَهُ[3]. ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنِ اسْتَنَّ خَيْرًا، فَاسْتُنَّ بِهِ، فَلَهُ أَجْرُهُ، وَمِثْلُ أُجُورِ مَنِ اتَّبَعَهُ، غَيْرَ مُنْتَقَصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ، وَمَنِ اسْتَنَّ شَرًّا فَاسْتُنَّ بِهِ، فَعَلَيْهِ وِزْرُهُ، وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مُنْتَقَصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، وتلا حذيفة ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾. كما أخرجه ابن ماجه (٢٠٤)، وأحمد (٢٣٢٨٩) بدون ذكر الآية [صديق حسن (١٥/ ١١٤)].

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ خطاب لجنس بني آدم ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ هذا توبيخ وعتاب معناه: أي شيء غرك بربك حتى كفرت به أو عصيته، أو غفلت عنه فدخل في العتاب الكفار وعصاة المؤمنين، ومن يغفل عن الله في بعض الأحيان من الصالحين. وروي أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ فقال: «غَرَّهُ جَهْلُهُ». أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٥١)، والثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٤٦). وقال عمر: غره جهله وحمقه. وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقيل: غره الشيطان المسلط عليه. وقيل: غره ستر الله عليه، وقيل: غره طمعه في عفو الله عنه. ولا تعارض بين هذه الأقوال لأن كل واحد منهما مما يغر الإنسان، إلا أن بعضها يغر قوماً وبعضها يغر قوماً آخرين، فإن قيل: ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور؟ فالجواب: أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكراً لإحسانه ومقابلة لكرمه، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة وأضاع الشكر الواجب. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٥٨)].

(٢) المجرور يتعلق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ و «ما» زائدة، والمعنى: ركبك في أي صورة شاء من الحسن والقبح، والطول والقصر، والذكورة والأنوثة، وغير ذلك من اختلاف الصور. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٥٩)]. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ [الكهف: ٣٧]، أي: هذه أطوار الإنسان في خلقته. ومما يشهد لحسن الخلقة وكمال الصورة قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤]. واختلاف الصور إنما هو من آيات الله وابتداء من الرحم، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ [آل عمران: ٦]. وفي اختلاف الصور على تشابهها من أعظم آيات الله تعالى. [عطية سالم (٨/ ٤٥٠)].

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق: ١٧-١٨]. وقال تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٧٩]. قيل: أن هذه الكتابة لإقامة الحجة على الإنسان، كما في قوله: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. وقيل: يحفظون بدن الإنسان، قال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]. [عطية سالم (٨/ ٤٥٠)].

فِي إِيمَانِهِمْ ﴿لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾ جَنَّةٍ. ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ الْكُفَّارَ ﴿لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ نَارٍ مُحْرِقَةٍ. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَدْخُلُونَهَا وَيُقَاسُونَ حَرَّهَا ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾ اَلْجَزَاءِ. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾ بِمُخْرَجِينَ(١). ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ(٢). ﴿يَوْمُ﴾ بِالرَّفْعِ، أَيْ: هُوَ يَوْمُ ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ مِنَ الْمَنْفَعَةِ ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ لَا أَمْرَ لِغَيْرِهِ فِيهِ، أَيْ: لَمْ يُمَكِّنْ أَحَدًا مِنَ التَّوَسُّطِ فِيهِ بِخِلَافِ الدُّنْيَا(٣).

---

(١) فيه قولان: أحدهما: أن معناه لا يخرجون منها إذا دخلوها، والآخر: لا يغيبون عنها في البرزخ قبل دخولها لأنهم يعرضون عليها غدواً وعشياً. [ابن جُزَيّ]. قال ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أخرجه البخاري (٣٢٤٠)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) كرره تعظيماً لشأنه وتفخيماً لقدره وتهويلاً لأمره كما في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة: ١-٣]، و ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة: ١-٣] والمعنى: أي شيء جعلك دارياً ما يوم الدين، قال الكلبي الخطاب للإنسان الكافر. [صديق حسن (١٥/ ١١٩)].

(٣) أي: لشدة هوله وضعف الخلائق، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] ... ونحو ذلك. وقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ ظاهر هذه الآية تقييد الأمر بالظرف المذكور، ولكن الأمر لله في ذلك اليوم، وقبل ذلك اليوم، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: يتصرف في خلقه بما يشاء من أمره لا يشركه أحد، كما لا يشركه أحد في خلقه. ولذا قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ونحو ذلك. [عطية سالم (٨/ ٤٥٢)].

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، سِتٌّ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ، أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ[1] ﴿لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى﴾ أَيْ: مِنْ ﴿ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢﴾ الْكَيْلَ. ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ﴾ أَيْ: كَالُوا لَهُمْ ﴿أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أَيْ: وَزَنُوا لَهُمْ ﴿يُخۡسِرُونَ ٣﴾ يُنْقِصُونَ الْكَيْلَ أَوِ الْوَزْنَ[2]. ﴿أَلَا﴾ اِسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ ﴿يَظُنُّ﴾ يَتَيَقَّنُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾ أَيْ: فِيهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿يَوۡمَ﴾ بَدَلٌ مِنْ مَحَلِّ ﴿لِيَوۡمٍ﴾ فَنَاصِبُهُ ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾ ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ الْخَلَائِقِ لِأَجْلِ أَمْرِهِ وَحِسَابِهِ وَجَزَائِهِ[3]. ﴿كَلَّآ﴾ حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ أَيْ: كِتَابَ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ ﴿لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾ قِيلَ: هُوَ كِتَابٌ جَامِعٌ لِأَعْمَالِ الشَّيَاطِينِ وَالْكَفَرَةِ، وَقِيلَ: هُوَ مَكَانٌ أَسْفَلَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ وَهُوَ مَحَلُّ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ[4].

---

(١) تكررت في القرآن كثيرا، وهي على الأصح كلمة وعيد يتوعد الله سبحانه وتعالى بها من خالف أمره أو ارتكب نهيه على الوجه المقيد في الجملة التي بعدها. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٩٣)].

(٢) قال أهل اللغة: المطفف مأخوذ من الطفف وهو القليل، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. قال أبو عبيدة والمبرد: المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن ... عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «وَلَا طَفَّفُوا الْكَيْلَ إِلَّا مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأُخِذُوا بِالسِّنِينَ». أخرجه الطبراني (١٠٩٩٢)، والديلمي في الفردوس (٢٩٧٨). وهذا الوعيد يلحق كل من يأخذ لنفسه زائداً أو يدفع إلى غيره ناقصاً قليلاً أو كثيراً، لكن إن لم يتب منه فإن تاب قبلت توبته، ومن فعل ذلك وأصر عليه كان مصراً على كبيرة من الكبائر، وذلك لأن عامة الخلق محتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر الكيل والوزن، فلهذا السبب عظم الله أمر الكيل والوزن. [صديق حسن (١٥/ ١٢٣)].

(٣) أي: يقومون حفاة عراة غرلا في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه ... عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ». أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢). [ابن كثير (٨/ ٣٤٧)].

(٤) قال العلماء: إنه مأخوذ من السجن، وهو الضيق؛ أي: في مكان ضيق، وهذا المكان الضيق هو نار جهنم والعياذ بالله كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان: ١٣-١٤]، وجاء في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل المشهور في قصة المحتضر وما يكون بعد الموت أن الله سبحانه وتعالى يقول: «اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سِجِّينٍ» يعني الكافر «فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى». أخرجه ابن أبي شيبة (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤). فـ﴿سِجِّينٖ﴾ هو أسفل

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾ مَا كِتَابُ سِجِّينٍ. ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾ مَخْتُومٌ(١). ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١﴾ الْجَزَاءِ بَدَلٌ أَوْ بَيَانٌ لِلْمُكَذِّبِينَ. ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾ مُتَجَاوِزِ الْحَدِّ ﴿أَثِيمٍ ١٢﴾ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ. ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ الْحِكَايَاتُ الَّتِي سُطِّرَتْ قَدِيمًا، جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ أَوْ «إِسْطَارَةٍ» بِالْكَسْرِ(٢). ﴿كَلَّاۖ﴾ رَدْعٌ وَزَجْرٌ لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ ﴿بَلۡۜ رَانَ﴾ غَلَبَ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ فَغَشِيَهَا ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ مِنَ الْمَعَاصِي فَهُوَ كَالصَّدَأِ(٣). ﴿كَلَّآ﴾ حَقًّا ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ فَلَا يَرَوْنَهُ(٤). ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾ لَدَاخِلُو النَّارِ الْمُحْرِقَةِ. ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لَهُمْ: ﴿هَٰذَا﴾ أَيِ: الْعَذَابُ ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧ كَلَّآ﴾ حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ أَيْ: كِتَابَ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ

ما يكون من الأرض الذي هو مقر النار نعوذ بالله منها فهذا الكتاب في سجين. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٩٨)].

(١) يعني: مكتوب لا يزاد فيه ولا ينقص، ولا يبدل ولا يغير، بل هذا مآلهم ومقرهم والعياذ بالله أبد الآبدين. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٩٨)].

(٢) أي: إذا سمع كلام الله من الرسول، يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥]. [ابن كثير (٨/ ٣٥٠)].

(٣) أي: غطى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب، فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي. وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَهُوَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾». أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥٨)، وابن ماجه (٤٢٤٤). [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٦١)].

(٤) وذلك في يوم القيامة؛ فإنهم يحجبون عن رؤية الله عز وجل كما حجبوا عن رؤية شريعته وآياته فرأوا أنها أساطير الأولين. وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله عز وجل، ووجه الدلالة ظاهر؛ فإنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا وقد مكن للأبرار من رؤيته تعالى في حال الرضا، ... ورؤية الله عز وجل ثابتة بالكتاب ومتواتر السنة وإجماع الصحابة والأئمة، لا إشكال في هذا أنه تعالى يرى حقا بالعين؛ كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦]، وقد فسر النبي ﷺ الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى. أخرجه مسلم (١٨١). وكما في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق:٣٥]، والمزيد هنا هو بمعنى الزيادة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾، وكما قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ [الأنعام:١٠٣] فإن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، ولهذا كانت هذه الآية مما استدل به السلف على رؤية الله واستدل به الخلف على عدم رؤية الله، ولا شك أن الآية دليل عليهم؛ لأن الله لم ينف بها الرؤية وإنما نفى الإدراك، ونفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، فالحاصل أن القرآن دل على ثبوت رؤية الله عز وجل حقا بالعين. وكذلك جاءت السنة بذلك صريحة؛ حيث قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا». أخرجه البخاري (٧٤٣٥). [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٠٠)].

فِي إِيمَانِهِمْ ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ١٨﴾ قِيلَ: هُوَ كِتَابٌ جَامِعٌ لِأَعْمَالِ الْخَيْرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمُؤْمِنِي الثَّقَلَيْنِ، وَقِيلَ: هُوَ مَكَانٌ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ(١). ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾ مَا كِتَابُ عِلِّيِّينَ. هُوَ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ٢٠﴾ مَخْتُومٌ. ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ٢٢﴾ جَنَّةٍ. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السُّرُرِ فِي الْحِجَالِ(٢) ﴿يَنظُرُونَ ٢٣﴾ مَا أُعْطُوا مِنَ النَّعِيمِ. ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ بَهْجَةَ التَّنَعُّمِ وَحُسْنَهُ. ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ خَمْرٍ خَالِصَةٍ مِنَ الدَّنَسِ ﴿مَّخْتُومٍ ٢٥﴾ عَلَى إِنَائِهَا لَا يَفُكُّ خَتْمَهَا إِلَّا هُمْ. ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أَيْ: آخِرُ شُرْبِهِ يَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ الْمِسْكِ ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ فَلْيَرْغَبُوا بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى طَاعَةِ اللهِ. ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ أَيْ: مَا يُمْزَجُ بِهِ ﴿مِن تَسْنِيمٍ ٢٧﴾(٣). فُسِّرَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَيْنًا﴾ فَنَصْبُهُ بِـ «أَمْدَحُ» مُقَدَّرًا ﴿يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ أَيْ: مِنْهَا، أَوْ ضُمِّنَ ﴿يَشْرَبُ﴾ مَعْنَى: يَلْتَذُّ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ كَأَبِي جَهْلٍ وَنَحْوِهِ ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كَعَمَّارٍ وَبِلَالٍ وَنَحْوِهِمَا ﴿يَضْحَكُونَ ٢٩﴾ اسْتِهْزَاءً بِهِمْ. ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟﴾ أَيْ: الْمُؤْمِنُونَ ﴿بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ يُشِيرُ الْمُجْرِمُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَفْنِ وَالْحَاجِبِ اسْتِهْزَاءً. ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟﴾ رَجَعُوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ٣١﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَكِهِينَ﴾ مُعْجَبِينَ بِذِكْرِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ رَأَوُا الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾ لِإِيمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟﴾ أَيْ: الْكُفَّارُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿حَٰفِظِينَ ٣٣﴾ لَهُمْ أَوْ لِأَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَرُدُّوهُمْ إِلَى مَصَالِحِهِمْ. ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿يَنظُرُونَ ٣٥﴾ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى الْكُفَّارِ، وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَيَضْحَكُونَ مِنْهُمْ كَمَا ضَحِكَ الْكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا(٤). ﴿هَلْ ثُوِّبَ﴾ جُوزِيَ ﴿ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾ نَعَمْ.

---

(١) عليّون اسم علم للكتاب الذي تكتب فيه الحسنات، وهذا جمع منقول من صفة علي، على وزن فعيل للمبالغة ... وهو مشتق من العلو لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه مرفوع في مكان علي. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٦٢)].

(٢) انظر في معنى الحجال التعليق على آية (٣١) من سورة الكهف.

(٣) أصل التسنيم في اللغة: الارتفاع فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه، ومنه تسنيم القبور. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما سئل عن هذا: هذا مما قاله الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفًا. [صديق حسن (١٥/ ١٣٧)].

(٤) أي: إلى الله عز وجل، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. [ابن كثير (٨/ ٣٥٤)].

سُورَةُ الانشِقَاقِ

مَكِّيَّةٌ، ثَلَاثٌ أَوْ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ﴾ سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ فِي الِانْشِقَاقِ ﴿لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢﴾ أَيْ: وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ(١). ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣﴾ زِيدَ فِي سَعَتِهَا كَمَا يُمَدُّ الْأَدِيمُ وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَلَا جَبَلٌ(٢). ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ مِنَ الْمَوْتَى إِلَى ظَاهِرِهَا ﴿وَتَخَلَّتۡ ۝٤﴾ عَنْهُ. ﴿وَأَذِنَتۡ﴾ سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ فِي ذَلِكَ ﴿لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٥﴾ وَذَلِكَ كُلُّهُ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَوَابُ ﴿إِذَا﴾ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ، تَقْدِيرُهُ: لَقِيَ الْإِنْسَانُ عَمَلَهُ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ جَاهِدٌ فِي عَمَلِكَ ﴿إِلَىٰ﴾ لِقَاءِ ﴿رَبِّكَ﴾ وَهُوَ الْمَوْتُ ﴿كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ أَيْ: مُلَاقٍ عَمَلَكَ الْمَذْكُورَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ كِتَابَ عَمَلِهِ ﴿بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾ هُوَ الْمُؤْمِنُ. ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨﴾ هُوَ عَرْضُ عَمَلِهِ عَلَيْهِ كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ، وَفِيهِ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ»(٣)، وَبَعْدَ الْعَرْضِ يُتَجَاوَزُ عَنْهُ. ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿مَسۡرُورٗا ۝٩﴾ بِذَلِكَ. ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ

---

(١) اختلف في هذا الانشقاق هل هو تشققها بالغمام؛ أو انفتاحها أبوابًا، وجواب إذا محذوف ليكون أبلغ في التهويل، إذ يقدر السامع أقصى ما يتصوره، وحذف للعلم به، اكتفاءً بما في سورة التكوير والانفطار من الجواب. وقيل: الجواب ما دل عليه، ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾: أي: إذا السماء انشقت لقي الإنسان ربه، وقيل: الجواب أذنت على زيادة الواو وهذا ضعيف، ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا﴾ معنى أذنت في اللغة: استمعت، وهو عبارة عن طاعتها لربها، وأنها انقادت لله حين أراد انشقاقها، وكذلك طاعة الأرض لما أراد مدها وإلقاء ما فيها، ﴿وَحُقَّتۡ﴾ أي: حق لها أن تسمع وتطيع لربها، أو حق لها أن تنشق من أهوال القيامة، وهذه الكلمة من قولهم: هو حقيق بكذا، أو محقوق به. أي: عليه أن يفعله، فالمعنى: يحق على السماء أن تسمع وتطيع لربها، أو يحق عليها أن تتشقق، ويحتمل أن يكون أصله حققت بفتح الحاء وضم القاف على معنى التعجب، ثم أدغمت القاف في القاف التي بعدها ونقلت حركتها إلى الحاء. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٦٤)].

(٢) أي: بسطت كما تبسط الأدم ودكت جبالها وكل أمت فيها حتى صارت: ﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧] قال مقاتل سويت كمد الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها، وقيل مدت زيد في سعتها من المدد، وهو الزيادة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تمد يوم القيامة. [صديق حسن (١٥/ ١٤٤)].

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ هُوَ الْكَافِرُ تُغَلُّ يُمْنَاهُ إِلَى عُنُقِهِ وَتُجْعَلُ يُسْرَاهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَيَأْخُذُ بِهَا كِتَابَهُ[١]. ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ﴾ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ مَا فِيهِ ﴿ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾ يُنَادِي هَلَاكَهُ بِقَوْلِهِ: يَا ثُبُورَاهُ. ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ يَدْخُلُ النَّارَ الشَّدِيدَةَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الصَّادِ وَاللَّامِ الْمُشَدَّدَةِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ عَشِيرَتِهِ فِي الدُّنْيَا ﴿مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ بَطِرًا بِاتِّبَاعِهِ لِهَوَاهُ[٢]. ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ يَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِ[٣]. ﴿بَلَىٰٓ﴾ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ عَالِمًا بِرُجُوعِهِ إِلَيْهِ[٤]. ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لَا زَائِدَةٌ ﴿بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ هُوَ الْحُمْرَةُ فِي الْأُفُقِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ جَمَعَ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا[٥]. ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ اجْتَمَعَ وَتَمَّ نُورُهُ، وَذَلِكَ فِي اللَّيَالِي الْبِيضِ[٦]. ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ أَصْلُهُ «تَرْكَبُونَنَّ» حُذِفَتْ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي الْأَمْثَالِ، وَالْوَاوُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، وَهُوَ الْمَوْتُ ثُمَّ الْحَيَاةُ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ[٧].

---

(١) هذه الآية الكريمة تدل على أن من لم يعط كتابه بيمينه، أنه يعطاه وراء ظهره، وقد جاءت آية يفهم منها أنه يؤتاه بشماله، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى﴾ الآية [الحاقة: ٢٥]. والجواب ظاهر، وهو أنه لا منافاة بين أخذه بشماله، وإيتائه وراء ظهره، لأن الكافر تغل يمناه إلى عنقه، وتجعل يسراه وراء ظهره، فيأخذ بها كتابه. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٣٤٤)].

(٢) أي: كان في الدنيا مسروراً مع أهله، متنعماً غافلاً عن الآخرة، وهذا في مقابلة ما حكى عن المؤمن أنه ينقلب إلى أهله مسروراً في الجنة، وهو ضد ما حكي عن المؤمنين في الجنة من قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٦٥)].

(٣) أي: أن لن يرجع إلى الله تعالى، وهو إخبار عن إنكاره بالبعث ... ومنه قوله ﷺ: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ». أخرجه مسلم (١٣٤٣). أي: النقصان بعد الزيادة، أو من فساد أمره بعد أن كان صالحا. [السمعاني (٦/ ١٩٠)].

(٤) يعني: بلى سيعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها، فإنه ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي: عليما خبيرا. [ابن كثير (٨/٣٥٨)].

(٥) يقول: والليل وما جمع مما سكن وهدأ فيه من ذي روح كان يطير، أو يَدِب نهارًا، يقال منه: وسَقْتُه أسِقُه وَسْقا، ومنه طعام موسُوق، وهو المجموع في غرائر أو وعاء، ومنه الوَسْق، وهو الطعام المجتمع الكثير مما يُكال أو يوزن. [الطبري (٢٤/ ٢٤٥)].

(٦) ووزن ﴿ٱتَّسَقَ﴾ افتعل وهو مشتق من الوسق، فكأنه امتلأ نوراً. وفي الآية من أدوات البيان لزوم ما لا يلزم، لالتزام السين قبل القاف في وسق واتسق. [ابن جُزَيّ (٢/٤٦٦)].

(٧) قال البخاري: عن مجاهد قال: قال ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالا بعد حال، قال هذا نبيكم ﷺ. هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ، كأنه قال: سمعت هذا من نبيكم ﷺ، فيكون قوله: «نبيكم» مرفوعا على الفاعلية من «قال» وهو الأظهر، والله أعلم، كما قال أنس: «لَا يَأْتِي عَامٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ»، سمعته من نبيكم ﷺ. أخرجه البخاري (٧٠٦٨). [ابن كثير (٨/ ٣٥٩)].

﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أَيْ: اَلْكُفَّارِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ أَيْ: أَيُّ مَانِعٍ مِنَ اَلْإِيمَانِ، أَوْ أَيُّ حُجَّةٍ لَهُمْ فِي تَرْكِهِ مَعَ وُجُودِ بَرَاهِينِهِ. ﴿وَ﴾ مَا لَهُمْ ﴿إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾ يَخْضَعُونَ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ لِإِعْجَازِهِ. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢﴾ بِالْبَعْثِ وَغَيْرِهِ[1]. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾ يَجْمَعُونَ فِي صُحُفِهِمْ مِنَ اَلْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَأَعْمَالِ اَلسُّوءِ[2]. ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ أَخْبِرْهُمْ ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤﴾ مُؤْلِمٍ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾ غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا مَنْقُوصٍ، وَلَا يُمَنُّ بِهِ عَلَيْهِمْ[3].

---

(١) أي: بالقرآن، وهو انتقال عن كونهم لا يسجدون عند قراءته إلى كونهم يكذبون به صريحا، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر والإشعار بعلة الحكم. [الآلوسي (١٥/ ٢٩٢)].

(٢) أي: بما يضمرون في قلوبهم من العناد مع علمهم بأن ما جاء به القرآن حق، ولكنهم يظهرون التكذيب به ليكون صدودهم عنه مقبولا عند أتباعهم وبين مجاوريهم. وأصل معنى الإيعاء: جعل الشيء وعاء والوعاء بكسر الواو الظرف لأنه يجمع فيه، ثم شاع إطلاقه على جمع الأشياء لئلا تفوت فصار مشعرا بالتقتير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج:١٨]، وفي الحديث: «لَا تُوعِي فَيُوعِيَ الله عَلَيْكِ». أخرجه البخاري (٢٥٩١)، ومسلم (١٠٢٩). واستعمل في هذه الآية في الإخفاء؛ لأن الإيعاء يستلزم الإخفاء فهو هنا مجاز مرسل. [ابن عاشور (٣٠/ ٢٣٤)].

(٣) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذا استثناء منقطع، يعني لكن الذين آمنوا، أي: بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: في الدار الآخرة. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير منقوص. وقال مجاهد، والضحاك: غير محسوب. وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] ... وقال بعضهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد؛ فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنة دائما سرمدا، والحمد لله وحده أبدا، ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]. [ابن كثير (٨/ ٣٦٢)]. كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]. والذي يظهر والله تعالى أعلم أن كلا من المعنيين مقصود ولا مانع منه، وما ذهب إليه ابن كثير لا يتعارض مع قول الآخرين؛ لأن المن الممنوع هو ما فيه أذى وتنقيص، كما في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢]، أما المن من الله تعالى على عبده، فهو عين الإكرام والزلفى إليه سبحانه. والعلم عند الله تعالى. [عطية سالم (٨/ ٤٧٥)].

سُورَةُ البُرُوجِ

مَكِّيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ لِلْكَوَاكِبِ اِثْنَي عَشَرَ بُرْجًا تَقَدَّمَتْ فِي «اَلْفُرْقَانِ»[١]. ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢﴾ يَوْمِ اَلْقِيَامَةِ. ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يَوْمِ اَلْجُمُعَةِ ﴿وَمَشۡهُودٍ ۝٣﴾ يَوْمِ عَرَفَةَ كَذَا فُسِّرَتِ اَلثَّلَاثَةُ فِي اَلْحَدِيثِ[٢]، فَالْأَوَّلُ: مَوْعُودٌ بِهِ، وَالثَّانِي: شَاهِدٌ بِالْعَمَلِ فِيهِ، وَالثَّالِثُ: تَشْهَدُهُ اَلنَّاسُ وَالْمَلَائِكَةُ، وَجَوَابُ اَلْقَسَمِ مَحْذُوفٌ صَدْرُهُ تَقْدِيرُهُ «لَقَدْ». ﴿قُتِلَ﴾ لُعِنَ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ اَلشَّقِّ فِي اَلْأَرْضِ[٣]. ﴿ٱلنَّارِ﴾ بَدَلُ اِشْتِمَالٍ مِنْهُ ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥﴾ مَا تُوقَدُ بِهِ. ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا﴾ أَيْ: حَوْلَهَا عَلَى جَانِبِ اَلْأُخْدُودِ عَلَى اَلْكَرَاسِيِّ ﴿قُعُودٌ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بِاللهِ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ بِالْإِلْقَاءِ فِي اَلنَّارِ إِنْ لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ إِيمَانِهِمْ ﴿شُهُودٌ ۝٧﴾ حُضُورٌ، رُوِيَ: أَنَّ اَللهَ أَنْجَى اَلْمُؤْمِنِينَ اَلْمُلْقَيْنَ فِي

---

(١) سورة الفرقان آية (٦١).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿ٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يَوْمُ الْجُمُعَةِ. وَمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِيذُ فِيهَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا أَعَاذَهُ، ﴿وَمَشۡهُودٍ﴾ يَوْمُ عَرَفَةَ». أخرجه الترمذي (٣٣٣٩).

(٣) قيل: إنه جواب القسم على تقدير لقد قتل، والأظهر أنه دليل جواب محذوف، كأنه قيل: إنهم ملعونون يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم، والأخدود الخد وهو الشق في الأرض ونحوهما بناء ومعنى الحق والأحقوق. روي مرفوعا: «أن ملكا كان له ساحر فلما كبر ضم إليه غلاما ليعلمه، وكان في طريقه راهب فمال قلبه إليه، فرأى في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجرا وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليه من الساحر فاقتلها فقتلها، وكان الغلام بعد يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء، وعمي جليس الملك فأبرأه، فسأله الملك عمن أبرأه فقال: ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب فقده بالمنشار، وأرسل الغلام إلى جبل ليطرح من ذروته، فدعا فرجف بالقوم فهلكوا ونجا، وأجلسه في سفينة ليغرق فدعا فانكفأت السفينة بمن معه فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني وتأخذ سهما من كنانتي وتقول: بسم الله رب هذا الغلام، ثم ترميني به فرماه فوقع في صدغه فمات، فآمن الناس برب الغلام، فأمر بأخاديد وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبي: يا أماه اصبري فإنك على الحق فاقتحمت». أخرجه مسلم (٣٠٠٥) [والقصة هنا مختصرة]. [البيضاوي (٥/ ٣٠٠)].

ٱلنَّارِ بِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ قَبْلَ وُقُوعِهِمْ فِيهَا، وَخَرَجَتِ ٱلنَّارُ إِلَى مَنْ ثَمَّ فَأَحْرَقَتْهُمْ[1]. ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ ٱلْمَحْمُودِ. ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾ أَيْ: مَا أَنْكَرَ ٱلْكُفَّارُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا إِيمَانَهُمْ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بِٱلْإِحْرَاقِ ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بِكُفْرِهِمْ[2] ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾ أَيْ: عَذَابُ إِحْرَاقِهِمُ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلْآخِرَةِ، وَقِيلَ: فِي ٱلدُّنْيَا بِأَنْ أُخْرِجَتِ ٱلنَّارُ فَأَحْرَقَتْهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ﴾ بِٱلْكُفَّارِ ﴿لَشَدِيدٌ ١٢﴾ بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ[3]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ﴾ ٱلْخَلْقَ ﴿وَيُعِيدُ ١٣﴾ فَلَا يُعْجِزُهُ مَا يُرِيدُ[4]. ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ لِلْمُذْنِبِينَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ ٱلْمُتَوَدِّدُ إِلَى

---

(١) قال الربيع، وأبو العالية، وابن إسحاق: بعث الله على المؤمنين ريحا فقبضت أرواحهم أو نحو هذا، وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخدود، فعلى هذا يكون القتل حقيقة لا بمعنى اللعن، ويكون خبرا عما فعله الله بالكفار والذين أرادوا أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم. وقول هؤلاء مخالف لقول الجمهور ولما دل عليه القصص الذي ذكروه. [أبو حيان (١٠/ ٤٤٤)].

(٢) إن كانت هذه الآية في أصحاب الأخدود فالفتنة هنا بمعنى الإحراق، وإن كانت في كفار قريش فالفتنة بمعنى المحنة والتعذيب، وهذا أظهر لقوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾؛ لأن أصحاب الأخدود لم يتوبوا بل ماتوا على كفرهم. وأما قريش فمنهم من أسلم وتاب، وفي الآية دليل على أن الكافر إذا أسلم يغفر له ما فعل في حال كفره لقوله ﷺ: «الإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ». أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠). [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٦٩)].

(٣) «بحسب إرادته» قاله الجلال المحلي، وفيه إشارة إلى الرد على الفلاسفة القائلين بأنه موجب بالذات، وقد نطق القرآن بأنه ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾، والجملة مستأنفة لخطاب النبي ﷺ مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه، والمغفرة لمن أطاعه، والمعنى أن أخذه تعالى للجبابرة والظلمة شديد، والبطش الأخذ بعنف، ووصفه بالشدة يدل على، أنه قد تضاعف وتفاقم. [صديق حسن (١٥/ ١٦٨)]. يعني: أخذه بالعقاب شديد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٩٨]، فبطش الله يعني: انتقامه وأخذه شديد عظيم، ولكنه لمن يستحق ذلك، أما من لا يستحق ذلك فإن رحمة الله تعالى أوسع، ... لكن إذا أخذ الظالم لم يفلته؛ كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣). وعلى هذا فنقول: ﴿بَطۡشَ رَبِّكَ﴾ أي: فيمن يستحق البطش، أما من لا يستحقه فإن الله تعالى يعامله بالرحمة، ويعامله بالكرم، ويعامله بالجود، ورحمة الله تعالى سبقت غضبه. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٣٧)].

(٤) أي: يبدئ الخلق بالنشأة الأولى، ويعيدهم بالنشأة الآخرة للبعث، وقيل: يبدئ البطش ويعيده، أي: يبطش بهم في الدنيا والآخرة، والأول أظهر وأرجح لقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٤]. [ابن جُزَيّ].

أَوْلِيَائِهِ بِالْكَرَامَةِ(١). ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خَالِقُهُ وَمَالِكُهُ ﴿ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ بِالرَّفْعِ الْمُسْتَحِقُّ لِكَمَالِ صِفَاتِ الْعُلُوِّ(٢). ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ(٣). ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾ بَدَلٌ مِنَ «الْجُنُودِ»، وَاسْتُغْنِيَ بِذِكْرِ فِرْعَوْنَ عَنْ أَتْبَاعِهِ، وَحَدِيثِهِمْ أَنَّهُمْ أُهْلِكُوا بِكُفْرِهِمْ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ لِمَنْ كَفَرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنِ لِيَتَّعِظُوا. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩﴾ بِمَا ذُكِرَ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠﴾ لَا عَاصِمَ لَهُمْ مِنْهُ. ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾ عَظِيمٌ. ﴿فِى لَوْحٍ﴾ هُوَ فِي الْهَوَاءِ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ﴿مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ بِالْجَرِّ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمِنْ تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنْهُ(٤)، طُولُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَعَرْضُهُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَهُوَ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما(٥).

---

(١) هو تعالى الودود، الواد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين. بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحًا بتوبة العبد من هذا براحلته. [انظر البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧)]. وهذا أعظم فرح يقدر. فلله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه. [السعدي (ص:٩١٨)].

(٢) ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عز وجل. والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح. [ابن كثير (٨/ ٣٧٢)].

(٣) هذا وصف لله تعالى بأنه الفعال لما يريد فكل ما أراده سبحانه فهو يفعله، ولا يمنعه من فعله مانع؛ لأن له ملك السموات والأرض، ولا يمنعه أحد من أن يفعل في ملكه ما يشاء؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ... ففي هذه الآية الكريمة إثبات إرادة الله إرادة كاملة تامة في خلقه وفيما يتعلق بأفعال الخلق، فلا يكون فعل من الناس إلا بإرادة الله، كما قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٤١)].

(٤) يعني اللوح المحفوظ الذي في السماء، وقرئ: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ بالخفض صفة للوح، وقرأ نافع: ﴿مَّحْفُوظٌ﴾ بالرفع صفة للقرآن، أي: حفظه الله من التبديل والتغيير، أو حفظه المؤمنون في صدورهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٧٠)].

(٥) موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما وفيه إسحاق بن بشر، قال ابن حبان: لا يحل حديثه إلا على جهة التعجب. وقال الدارقطني: متروك. انظر: الضعفاء لابن حبان: (١/ ٣٧)، والميزان للذهبي: (١/ ١٨٤).

سُورَةُ الطَّارِقِ

مَكِّيَّةٌ، سَبعَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ①﴾ أَصْلُهُ كُلُّ آتٍ لَيْلًا، وَمِنْهُ النُّجُومُ لِطُلُوعِهَا لَيْلًا[١]. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا ٱلطَّارِقُ ②﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ فِي مَحَلِّ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لِـ «أَدْرَى» وَمَا بَعْدَ «مَا» الْأُولَى خَبَرُهَا، وَفِيهِ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ الطَّارِقِ الْمُفَسَّرِ بِمَا بَعْدَهُ. هُوَ: ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾ أَيِ: الثُّرَيَّا، أَوْ كُلُّ نَجْمٍ ﴿ٱلثَّاقِبُ ③﴾ الْمُضِيءُ لِثَقْبِهِ الظَّلَامَ بِضَوْئِهِ. وَجَوَابُ الْقَسَمِ: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ④﴾ بِتَخْفِيفِ «مَا» فَهِيَ مَزِيدَةٌ، وَ ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّهُ، وَاللَّامُ: فَارِقَةٌ، وَبِتَشْدِيدِهَا فَـ ﴿إِن﴾: نَافِيَةٌ، وَ ﴿لَّمَّا﴾ بِمَعْنَى: «إِلَّا»، وَالْحَافِظُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُ عَمَلَهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ[٢]. ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ نَظَرَ اعْتِبَارٍ ﴿مِمَّ خُلِقَ ⑤﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ جَوَابُهُ: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ⑥﴾ ذِي انْدِفَاقٍ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ فِي رَحِمِهَا. ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ﴾ لِلرَّجُلِ ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ ⑦﴾ لِلْمَرْأَةِ وَهِيَ عِظَامُ الصَّدْرِ[٣]. ﴿إِنَّهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾ بَعْثِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ ﴿لَقَادِرٌ ⑧﴾ فَإِذَا اعْتَبَرَ أَصْلَهُ عَلِمَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى

---

(١) أقسم سبحانه بالسماء والطارق، وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر والنجوم، لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة، والطارق هو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل ... قال الماوردي: أصل الطروق الدق فسمي قاصد الليل طارقًا لاحتياجه في الوصول إلى الدق، ثم اتسع به في كل ما ظهر بالليل كائنًا ما كان، ثم اتسع كل التوسع حتى أطلق على الصور الخالية البادية بالليل. وقال قوم إن الطروق قد يكون نهاراً ... ومنه قوله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحمنُ». أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً (١٠)، وأحمد موصولاً (١٥٤٦٠). قال ابن عباس رضي الله عنهما: أقسم ربك بالطارق وكل شيء طرقك بالليل فهو طارق. [صديق حسن (١٥/ ١٧٥)].

(٢) قيل: ﴿حَافِظٌ﴾ لأعماله يحصيها عليه، كما في قوله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وقيل: ﴿حَافِظٌ﴾ أي: حارس، كقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، والسياق يشهد للمعنيين معا؛ لأن قوله تعالى بعده: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ⑦﴾ [الطارق: ٥-٧] يدل على أنه في تلك المراحل في حفظ، فهو أولا: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]. وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا». الحديث. أخرجه البخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦). وبعد بلوغه سن التكليف يجري عليه القلم، فيحفظ عليه عمله، فلا مانع من إرادة المعنيين معا، وليس هذا من حمل المشترك على معنييه؛ لأن كلا من المعنيين له متعلق يختص بزمن خلاف الآخر. [عطية سالم (٨/ ٤٩٢)].

(٣) من بين صُلب الرجل وترائبه؛ أعلى صدره، وهذا يدلُّ على عُمق مخرج هذا الماء وأنَّه يخرج من مكانٍ مكينٍ في الجسد، والصواب أنَّ هذا

ذَلِكَ قَادِرٌ عَلَى بَعْثِهِ. ﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾ تُخْتَبَرُ وَتُكْشَفُ ﴿ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ ضَمَائِرُ الْقُلُوبِ فِي الْعَقَائِدِ وَالنِّيَّاتِ[1]. ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ لِمُنْكِرِ الْبَعْثِ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ يَمْتَنِعُ بِهَا مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾ يَدْفَعُهُ عَنْهُ[2]. ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ١١﴾ الْمَطَرِ لِعَوْدِهِ كُلَّ حِينٍ[3]. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ١٢﴾ الشَّقِّ عَنِ النَّبَاتِ. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣﴾ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ١٤﴾ بِاللَّعِبِ وَالْبَاطِلِ. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارَ ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥﴾ يَعْمَلُونَ الْمَكَايِدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾ أَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[4]. ﴿فَمَهِّلِ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ﴾ تَأْكِيدٌ، حَسَّنَهُ مُخَالَفَةُ اللَّفْظِ، أَيْ: أَنْظِرْهُمْ ﴿رُوَيْدًۢا ١٧﴾ قَلِيلًا، وَهُوَ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِمَعْنَى الْعَامِلِ مُصَغَّرُ «رُودٍ» أَوْ «إِرْوَادٍ» عَلَى التَّرْخِيمِ، وَقَدْ أَخَذَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِبَدْرٍ، وَنُسِخَ الْإِمْهَالُ بِآيَةِ السَّيْفِ، أَيِ: الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ وَالْجِهَادِ[5].

الوصف لماء الرجل، وقال بعض العلماء: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ أي: صُلب الرجل، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ ترائب المرأة. ولكنَّ هذا خلافُ ظاهر اللفظ، والصواب أنَّ الذي يخرج من بين الصلب والترائب هو ماء الرجل؛ لأنَّ الله تعالى وصَفه بذلك. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٤٨)].

(١) أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا. وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ». أخرجه البخاري (٣١٨٨) ومسلم (١٧٣٥). [ابن كثير (٨/ ٣٧٦)].

(٢) يعني يوم القيامة ما للإنسان ﴿قُوَّةٍ﴾ ذاتية، ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ وهي القوة الخارجية، هو بنفسه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، ولا أحد يستطيع أن يدافع عنه؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، في الدنيا يتساءلون؛ يسأل بعضهم بعضا ويحتمي بعضهم ببعض، لكن يوم القيامة لا أنساب؛ يعني: لا قرابة، لا تنفع القرابة ولا يتساءلون. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٥٠)].

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: الرجع: المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر. وعنه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ تمطر ثم تمطر. وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم. وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتين من هاهنا. [ابن كثير (٨/ ٣٧٦)].

(٤) لما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له وهو الباطل واللعب قابل بين الفصل والهزل وإنما يكيد المكذبون ويحيلون ويخادعون لرده، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده، وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون والاملاء لهم حتى يأخذهم على غرة، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنا لا قبح فيه، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]. [التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (١/ ١٧٣)].

(٥) في هذه الآية موادعة نسختها آية السيف. وقوله تعالى: ﴿رُوَيْدًۢا﴾ معناه: قليلا، قاله قتادة، وهذه حال، وهذه اللفظة إذا تقدمها شيء تصفه، كقولك: سير رويدا، وتقدمها فعل يعمل فيها كهذه الآية، وأما إذا ابتدأت بها فقلت: «رويدا يا فلان» فهي بمعنى الأمر بالتمهل. [ابن عطية (٥/ ٤٦٧)].

سُورَةُ الأَعْلَىٰ

مَكِّيَّةٌ، تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أَيْ: نَزِّهْ رَبَّكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَاسْمَ زَائِدٌ ﴿ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ صِفَةٌ لِـ ﴿رَبِّكَ﴾(١). ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ مَخْلُوقَهُ جَعَلَهُ مُتَنَاسِبَ الْأَجْزَاءِ غَيْرَ مُتَفَاوِتٍ. ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ﴾ مَا شَاءَ ﴿فَهَدَىٰ ۝٣﴾ إِلَى مَا قَدَّرَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ(٢). ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤﴾ أَنْبَتَ الْعُشْبَ. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بَعْدَ الْخُضْرَةِ ﴿غُثَآءً﴾ جَافًّا هَشِيمًا ﴿أَحۡوَىٰ

---

(١) التسبيح في اللغة التنزيه وذكر الاسم هنا يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون المراد المسمى ويكون الاسم صلة كالزائد، ومعنى الكلام: سبح اسم ربك، أي: نزهه عما لا يليق به ... ويحتمل المعنى على هذا أربعة أوجه، الأول: تنزيه أسماء الله تعالى عن المعاني الباطلة كالتشبيه والتعطيل، الثاني: تنزيه أسماء الله عن أن يسمى بها صنم أو وثن. الثالث: تنزيه أسماء الله عن أن تدرك في حال الغفلة دون خشوع. الرابع: أن المراد قول سبحان الله، ولما كان التسبيح باللسان لا بد فيه من ذكر الاسم أوقع التسبيح على الاسم، وهذا القول هو الصحيح، ويؤيده ما ورد عن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى». أخرجه أبو داود (٨٨٣)، وأحمد (٢٠٦٦). وأنها لما نزلت قال: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ». أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤). فدل ذلك على أن المراد هو التسبيح باللسان مع موافقة القلب، ولا بد في التسبيح باللسان من ذكر اسم الله تعالى؛ فلذلك قال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، مع أن التسبيح في الحقيقة إنما هو لله تعالى لا لاسمه ... وعلى هذا يكون موافقا في المعنى لقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [الواقعة: ٧٤]؛ لأن معناه نزه الله بذكر اسمه ... والأعلى يحتمل أن يكون صفة للرب أو للاسم والأول أظهر. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٧٣)]. و ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ من العلو، وعلو الله عز وجل نوعان: علو صفة، وعلو ذات. أما علو الصفة فإن أكمل الصفات لله عز وجل؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل ٦٠]. وأما علو الذات فهو أن الله تعالى فوق عباده مستو على عرشه. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٥٩)].

(٢) قدر كل شيء عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]، قدره في حاله وفي مآله، في ذاته وفي صفاته، كل شيء له قدر محدود، الآجال محدودة، الأحوال محدودة، الأجسام محدودة، كل شيء مقدر تقديرا. وقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ يشمل الهداية الشرعية والهداية الكونية: الهداية الكونية أن الله هدى كل شيء لما خلق له؛ قال فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٤٩-٥٠]، فكل مخلوق قد هداه الله تعالى لما يحتاج إليه؛ انظر إلى الطفل إذا خرج من بطن أمه وأراد أن يرضع، هل يقال له: ارفع رأسك، ارضع من الثدي؟ لا، لكن يهديه الله عز وجل إلى هذا الثدي يرتضع منه. هذه هداية كونية؛ أنه هدى كل مخلوق لما يحتاج إليه. أما الهداية الشرعية وهي الأهم بالنسبة لبني آدم فهي أيضا بينها الله عز وجل، حتى الكفار قد هداهم الله، يعني: بين لهم قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، والعياذ بالله، استحبوا الكفر

﴿٥﴾ أَسْوَدَ يَابِسًا. ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ اَلْقُرْآنَ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ مَا تَقْرَؤُهُ. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أَنْ تَنْسَاهُ بِنَسْخِ تِلَاوَتِهِ وَحُكْمِهِ، وَكَانَ ﷺ يَجْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ مَعَ قِرَاءَةِ جِبْرِيلَ خَوْفَ النِّسْيَانِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: لَا تَعْجَلْ بِهَا إِنَّكَ لَا تَنْسَى، فَلَا تُتْعِبْ نَفْسَكَ بِالْجَهْرِ بِهَا ﴿إِنَّهُۥ﴾ تَعَالَى ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ﴿وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ مِنْهُمَا. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ لِلشَّرِيعَةِ السَّهْلَةِ وَهِيَ الْإِسْلَامُ[1]. ﴿فَذَكِّرْ﴾ عِظْ بِالْقُرْآنِ ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ مَنْ تُذَكِّرُهُ[2]. الْمَذْكُورِ فِي: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ بِهَا ﴿مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ يَخَافُ اللهَ تَعَالَى، كَآيَةِ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أَيِ: الذِّكْرَى، أَيْ: يَتْرُكُهَا جَانِبًا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ﴿ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾ بِمَعْنَى الشَّقِيِّ، أَيِ: الْكَافِرُ. ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ هِيَ نَارُ الْآخِرَةِ، وَالصُّغْرَى نَارُ الدُّنْيَا. ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيَسْتَرِيحَ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ حَيَاةً هَنِيئَةً. ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فَازَ ﴿مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ تَطَهَّرَ بِالْإِيمَانِ. ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ مُكَبِّرًا ﴿فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ، وَكُفَّارُ مَكَّةَ مُعْرِضُونَ عَنْهَا. ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾ عَلَى الْآخِرَةِ. ﴿وَٱلْآخِرَةُ﴾ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا﴾ أَيْ: إِفْلَاحُ مَنْ تَزَكَّى وَكَوْنُ الْآخِرَةِ خَيْرًا ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أَيِ: الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَ الْقُرْآنِ. ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ وَهِيَ عَشْرُ صُحُفٍ لِإِبْرَاهِيمَ، وَالتَّوْرَاةُ لِمُوسَى[3].

على الإيمان. والهداية الشرعية هي المقصودة من حياة بني آدم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنما أخبرنا الله بذلك لأجل أن نلجأ إليه في جميع أمورنا. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٦١)].

(١) أي: نوفقك للطريقة اليسرى، أي: الشريعة السمحة السهلة، التي هي أيسر الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر. [القاسمي (٩/٤٥٨)].

(٢) قال الواحدي: إن نفعت أو لم تنفع، لأن النبي ﷺ بعث مبلغًا للإعذار والإنذار فعليه التذكير في كل حال نفع أو لم ينفع، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] [أي: والبرد]. [الشوكاني (٥/ ٥١٥)].

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ قال النبي ﷺ: «كَانَ كُلُّ هَذَا - أَوْ: كَانَ هَذَا - فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى». أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٦٨). قال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: مضمون هذا الكلام ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾. وهذا اختيار حسن قوي. وقد روي عن قتادة وابن زيد، نحوه. والله أعلم. [ابن كثير (٨/ ٣٨٣)].

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

مَكِّيَّةٌ، سِتٌّ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**هَلۡ**﴾ قَدْ ﴿**أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١**﴾ اَلْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهَا تَغْشَى اَلْخَلَائِقَ بِأَهْوَالِهَا. ﴿**وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ**﴾ عَبَّرَ بِهَا عَنِ اَلذَّوَاتِ فِي اَلْمَوْضِعَيْنِ ﴿**خَٰشِعَةٌ ٢**﴾ ذَلِيلَةٌ(١). ﴿**عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣**﴾ ذَاتُ نَصَبٍ وَتَعَبٍ بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ(٢). ﴿**تَصۡلَىٰ**﴾ بِفَتْحِ اَلتَّاءِ وَضَمِّهَا ﴿**نَارًا حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥**﴾ شَدِيدَةِ اَلْحَرَارَةِ. ﴿**لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦**﴾ هُوَ نَوْعٌ مِنَ اَلشَّوْكِ لَا تَرْعَاهُ دَابَّةٌ لِخُبْثِهِ. ﴿**لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨**﴾ حَسَنَةٌ. ﴿**لِّسَعۡيِهَا**﴾ فِي الدُّنْيَا بِالطَّاعَةِ ﴿**رَاضِيَةٞ ٩**﴾ فِي اَلْآخِرَةِ لَمَّا رَأَتْ ثَوَابَهُ. ﴿**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠**﴾ حِسًّا وَمَعْنًى. ﴿**لَّا يُسۡمَعُ**﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿**فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١**﴾ أَيْ: نَفْسٌ ذَاتُ لَغْوٍ، هَذَيَانٌ مِنَ اَلْكَلَامِ(٣). ﴿**فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢**﴾ بِالْمَاءِ بِمَعْنَى: عُيُونٍ. ﴿**فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣**﴾ ذَاتًا وَقَدْرًا وَمَحِلًّا. ﴿**وَأَكۡوَابٞ**﴾ أَقْدَاحٌ لَا عُرَا لَهَا ﴿**مَّوۡضُوعَةٞ ١٤**﴾ عَلَى حَافَّاتِ اَلْعُيُونِ مُعَدَّةٌ لِشُرْبِهِمْ. ﴿**وَنَمَارِقُ**﴾ وَسَائِدُ ﴿**مَصۡفُوفَةٞ ١٥**﴾ بَعْضُهَا بِجَنْبِ بَعْضٍ يُسْتَنَدُ إِلَيْهَا. ﴿**وَزَرَابِيُّ**﴾ بُسُطٌ طَنَافِسُ لَهَا خَمْلٌ(٤) ﴿**مَبۡثُوثَةٌ ١٦**﴾ مَبْسُوطَةٌ. ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ**﴾ أَيْ: كُفَّارُ مَكَّةَ نَظَرَ اعْتِبَارٍ ﴿**إِلَى**

---

(١) الخاشعة الذليلة الخاضعة وكل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال خشع الصوت إذا خفي، وخشع في صلاته إذا تذلل ونكس رأسه، والمراد بالوجوه هنا أصحابها، قال المحلي: «عبر بها عن الذوات في الموضعين». أي: بالجزء عن الكل، وخص الوجه لأنه أشرف أعضاء الإنسان ولأن الذل يظهر عليه أولاً دون غيره، قال مقاتل: يعني الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله، قال قتادة وابن زيد: خاشعة في النار. [صديق حسن (١٥/ ٢٠٠)].

(٢) قال عطاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب، مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله منهم اجتهادا في ضلالة، يدخلون النار يوم القيامة. وهو قول سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم. ومعنى النصب: الدأب في العمل بالتعب... قال الحسن: لم تعمل لله في الدنيا، فأعملها وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل، والأغلال. وبه قال قتادة، وهي رواية العوفي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. [البغوي (٨/ ٤٠٤)].

(٣) أي: لا يسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو. كما قال تعالى: ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ [الطور:٢٣]. [ابن كثير (٨/ ٣٨٦)]. قال الفراء: لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم. [الشوكاني (٥/ ٥٢٣)].

(٤) الزرابي أعلى أنواع الفرش. ﴿مَبۡثُوثَةٌ﴾ منشورة في كل مكان. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٧٦)].

ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ أَيْ: بُسِطَتْ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِه، وَصُدِّرَتْ بِالْإِبِلِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ مُلَابَسَةً لَهَا مِنْ غَيْرِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿سُطِحَتْ﴾ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْأَرْضَ سَطْحٌ وَعَلَيْهِ عُلَمَاءُ الشَّرْعِ، لَا كُرَةٌ كَمَا قَالَهُ أَهْلُ الْهَيْئَةِ، وَإِنْ لَمْ يَنْقُضْ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الشَّرْعِ(١). ﴿**فَذَكِّرْ**﴾ هُمْ نِعَمَ اللهِ وَدَلَائِلَ تَوْحِيدِهِ ﴿**إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾**﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالسِّينِ بَدَلَ الصَّادِ، أَيْ: «بِمُسَلَّطٍ» وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ(٢). ﴿**إِلَّا**﴾ لَكِنْ ﴿**مَن تَوَلَّىٰ**﴾ أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ

---

(١) أي: بسطت، والسطح بسط الشيء يقال لظهر البيت إذا كان مستويا سطح، قرأ الجمهور مبنيًا للمفعول مخففًا، وقرأ الحسن: مشدداً، وقرأ علي بن أبي طالب وغيره: خلقتُ ورفعتُ ونصبتُ وسطحتُ على البناء للفاعل وضم التاء فيها كلها. قال المحلي: «قوله: ﴿سُطِحَتْ﴾ ظاهر في أن الأرض سطح، وعليه علماء الشرع لا كرة كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقض ركنًا من أركان الشرع». قال الكرخي: هي كرة بطبعها وحقيقتها لكن الله أخرجها عن طبعها بفضله وكرمه بتسطيح بعضها لإقامة الحيوانات عليها فأخرجها عما يقتضيه طبعها انتهى. وفي التكميل للشيخ رفيع الدين ابن ولي الله الدهلوي رحمه الله: أهل الشرائع يفهمون من مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، و﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، و﴿سُطِحَتْ﴾ أنها سطح مستو، والحكماء يثبتون كرويتها بالأدلة الصحيحة فيتوهم الخلاف، ويدفع بأن القدر المحسوس منها في كل بقعة سطح مستو، فإن الدائرة كلما عظمت قل انجذاب أجزائها فاستواؤها باعتبار محسوسية، أجزائها، وكرويتها باعتبار معقولية جملتها انتهى. [صديق حسن (١٥/ ٢٠٨)]. أي: مدت مدًا واسعًا، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها، وسلوك الطرق الموصلة إلى أنواع المقاصد فيها. واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر. وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة، فيكون كرويًا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة. [السعدي (ص:٩٢٢)]. وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الأرض ليست كروية بل سطح ممتد، لكن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن هناك آيات تدل على أن الأرض كروية، والواقع شاهد بذلك؛ فيقول الله عز وجل: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، والتكوير: التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإذا كانا مكورين لزم أن تكون الأرض مكورة؛ وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] وقد جاء في الحديث أنها يوم القيامة تمد مد الأديم -أي: مد الجلد- حتى لا يكون فيها جبال ولا أودية ولا أشجار ولا بناء، يذرها الرب عز وجل: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]، ... يعني يوم القيامة، فهي إذن الآن غير ممدودة، إذن فما هي؟ هي مكورة. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٧٩)].

(٢) أي: فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب؛ ولهذا قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وغيرهما: لست عليهم بجبار. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان. ... عن جابر رضي الله عنه قال: قال

﴿وَكَفَرَ ٢٣﴾ بِالْقُرْآنِ. ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ٢٤﴾ عَذَابَ الْآخِرَةِ، وَالْأَصْغَرُ عَذَابُ الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ(١).
﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥﴾ رُجُوعَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ جَزَاءَهُمْ لَا نَتْرُكُهُ أَبَدًا(٢).

رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢﴾. أخرجه أحمد (١٤١٤١)، وأخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١)، بغير ذكر الآية. [ابن كثير]. فإن الله سبحانه بعث رسوله نذيرا مبلغا لرسالات ربه فمن أطاعه فله الجنة ومن عصاه فله النار، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس:١٠٨] قال المفسرون: المعنى أنك لم ترسل مسلطا عليهم قاهرا لهم جبارا كالملوك بل أنت عبدي ورسولي المبلغ رسالاتي. فمن أطاعك فله الجنة، ومن عصاك فله النار. [بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ٦٩)]. [وقيل:] ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ استثناء منقطع معناه لكن ﴿مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾، وقيل: هو استثناء من مفعول ﴿فَذَكِّرْ﴾، والمعنى: ذكر كل أحد إلا من تولى حتى يئست منه فهو على هذا متصل، وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي: لا تسلط إلا على من تولى وكفر، وهو على هذا متصل ولا نسخ فيه إذ لا موادعة فيه وهذا بعيد، لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٧٧)].

(١) يعني: يوم القيامة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، والعذاب الأكبر يوم القيامة، وهنا قال: ﴿ٱلْأَكْبَرَ﴾ ولم يذكر المفضل عليه؛ يعني لم يقل: الأكبر من كذا، فهو قد بلغ الغاية في الكبر والمشقة والإهانة والعياذ بالله، كل من تولى وكفر فإن الله يعذبه العذاب الأكبر. هل هناك عذاب أصغر؟ نقول: نعم، فيه عذاب أصغر في الدنيا؛ قد يبتلى المتولي المعرض بأمراض في بدنه، في عقله، في أهله، في ماله، في مجتمعه، وكل هذا بالنسبة لعذاب النار عذاب أصغر، لكن العذاب الأكبر إنما يكون يوم القيامة. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٨٣)].

(٢) كيفية الحساب ... أما المؤمن فإن الله تعالى يخلو به ... ويقرره بذنوبه ... حتى إذا أقر بها قال الله تعالى: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨). أما الكفار ... فتحصى عليهم أعمالهم ويقررون بها أمام العالم ويخزون بها، وينادى على رؤوس الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، نعوذ بالله من الخذلان. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٨٥)].

سُورَةُ الفَجْرِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَلاثُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١﴾ أَيْ: فَجْرِ كُلِّ يَوْمٍ(١). ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ أَيْ: عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ(٢). ﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾ الزَّوْجِ ﴿وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَكَسْرِهَا لُغَتَانِ: الْفَرْدِ(٣). ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ مُقْبِلًا وَمُدْبِرًا(٤). ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْقَسَمِ ﴿قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾ عَقْلٍ، وَجَوابُ الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: لَتُعَذَّبُنَّ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ(٥). ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ

---

(١) أقسم الله بالفجر لأنه ابتداء النهار، وهو في الحقيقة انتقال من ظلمة دامسة إلى فجر ساطع، وأقسم الله به لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الفجر إلا الله عز وجل؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٨٧)].

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ»، يعني عشر ذي الحجة، قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ». أخرجه البخاري (٩٦٩).

(٣) روي عن النبي ﷺ أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، وروي عنه ﷺ أنها الصلوات منها شفع ووتر، وقيل: الشفع التنفل بالصلاة مثنى مثنى والوتر الركعة الواحدة المعروفة، وقيل: الشفع العالم والوتر الله لأنه واحد، وقيل: الشفع آدم وحواء والوتر الله تعالى، وقيل: الشفع الصفا والمروة والوتر البيت الحرام، وقيل: الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية والوتر أبواب النار لأنها سبعة، وقيل: الشفع قران الحج والوتر إفراده، وقيل: المراد الأعداد منها شفع ووتر. فهذه عشرة أقوال، وقرئ «الوتر» بفتح الواو وكسرها وهما لغتان. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٧٨)]. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال النبي ﷺ: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢﴾ قال: «هُوَ الصُّبْحُ، وَعَشْرُ النَّحْرِ، وَالْوَتْرُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالشَّفْعُ: يَوْمَ النَّحْرِ». أخرجه أحمد (١٤٥٥١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٧٢). وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة. واختاره النحاس، وقال: حديث أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه هو الذي صح عن النبي ﷺ، وهو أصح إسنادا من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها. [القرطبي (٢٠/ ٤٠)].

(٤) أي: إذا يمضي، كقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، والتقييد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة؛ ففي الليل الراحة التي هي من أعظم النعم، وفي النهار المكاسب وغيرها. [القاسمي (٩/ ٤٦٥)].

(٥) ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذكرت ﴿قَسَمٞ﴾ أي: مقنع ومكتفى في القسم ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ لذي عقل، سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل ولا ينبغي، كما يسمى عقلا لأنه يعقله عن القبائح، ونُهى لأنه ينهى عما لا ينبغي، وأصل «الحجر» المنع: وجواب القسم قوله:

٦ ﴿إِرَمَ﴾ هِيَ عَادٌ الْأُولَى فَـ ﴿إِرَمَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ أَوْ بَدَلٌ، وَمَنْعُ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّأْنِيثِ ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧﴾ أَيِ:
الطُّولِ، كَانَ طُولُ الطَّوِيلِ مِنْهُمْ أَرْبَعَمِائَةِ ذِرَاعٍ. ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ٨﴾ فِي بَطْشِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ(١). ﴿وَثَمُودَ
ٱلَّذِينَ جَابُوا۟﴾ قَطَعُوا ﴿ٱلصَّخْرَ﴾ جَمْعُ صَخْرَةٍ وَاتَّخَذُوهَا بُيُوتًا ﴿بِٱلْوَادِ ٩﴾ وَادِي الْقُرَى(٢). ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ
١٠﴾ كَانَ يَتِدُ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ، يَشُدُّ إِلَيْهَا يَدَيْ وَرِجْلَيْ مَنْ يُعَذِّبُهُ(٣). ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟﴾ تَجَبَّرُوا ﴿فِى ٱلْبِلَٰدِ ١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ واعترض بين القسم وجوابه قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قال الفراء: ألم تخبر؟ وقال الزجاج: ألم تعلم؟ ومعناه التعجب. [البغوي (٨/ ٤١٧)].

(١) هؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودا عليه السلام، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ٨﴾ [الحاقة: ٧-٨]، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون. فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ عطف بيان؛ زيادة تعريف بهم. وقوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقال هاهنا: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم. قال مجاهد: إرم: أمة قديمة. يعني: عادا الأولى، كما قال قتادة بن دعامة، والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد. وهذا قول حسن جيد قوي. وقال مجاهد، وقتادة، والكلبي في قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ كانوا أهل عمود لا يقيمون. وقال العوفي، عن ابن عباس: إنما قيل لهم: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ لطولهم. واختار الأول ابن جرير، ورد الثاني فأصاب. [ابن كثير (٨/ ٣٩٤)].

(٢) ﴿وَثَمُودَ﴾ هم قوم صالح سموا باسم جدهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. قرأ الجمهور ثمود بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة ففيه التأنيث والتعريف، وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيهم. ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي: قطعوه، وقال ابن عباس: خرقوه. و«الجوب» القطع ومنه جاب البلاد إذا قطعها، ومنه سمي جيب القميص لأنه جيب، أي: قطع، قال المفسرون أول من نحت الجبال والصخور ثمود فبنوا من المدائن ألفا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتا يسكنون فيها. وقوله: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ متعلق بـ ﴿جَابُوا۟﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الصخر وهو وادي القرى، وهو موضع بقرب المدينة من جهة الشام، وقيل: الوادي بين جبال، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتا ودورا وأحواضا، وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكا للسيل ومنفذا فهو واد. [صديق حسن (١٥/ ٢٢٤)].

(٣) انظر التعليق على آية (١٢) من سورة (ص).

﴿ٱلْفَسَادَ ⑫﴾ اَلْقَتْلَ وَغَيْرَهُ. ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ﴾ نَوْعَ ﴿عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ⑭﴾ يَرْصُدُ أَعْمَالَ اَلْعِبَادِ فَلَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ، لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا. ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ اَلْكَافِرُ ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ اِخْتَبَرَهُ ﴿رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بِالْمَالِ وَغَيْرِهِ ﴿وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ⑮ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ﴾ ضَيَّقَ ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ⑯ كَلَّا﴾ رَدْعٌ أَيْ: لَيْسَ اَلْإِكْرَامُ بِالْغِنَى وَالْإِهَانَةُ بِالْفَقْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ(١)، وَكُفَّارُ مَكَّةَ لَا يَتَنَبَّهُونَ لِذَلِكَ ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ⑰﴾ لَا يُحْسِنُونَ إِلَيْهِ مَعَ غِنَاهُمْ، أَوْ لَا يُعْطُونَهُ حَقَّهُ مِنَ اَلْمِيرَاثِ. ﴿وَلَا تَحَٰضُّونَ﴾ أَنْفُسَهُمْ وَلَا غَيْرَهُمْ ﴿عَلَىٰ طَعَامِ﴾ أَيْ: إِطْعَامِ ﴿ٱلْمِسْكِينِ ⑱ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ اَلْمِيرَاثَ ﴿أَكْلًا لَّمًّا ⑲﴾ أَيْ: شَدِيدًا، لِلَمِّهِمْ نَصِيبَ اَلنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ مِنَ اَلْمِيرَاثِ مَعَ نَصِيبِهِمْ مِنْهُ، أَوْ مَعَ مَالِهِمْ. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ⑳﴾ أَيْ: كَثِيرًا فَلَا يُنْفِقُونَهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْفَوْقَانِيَّةِ فِي اَلْأَفْعَالِ اَلْأَرْبَعَةِ. ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ㉑﴾ زُلْزِلَتْ حَتَّى يَنْهَدِمَ كُلُّ بِنَاءٍ عَلَيْهَا وَيَنْعَدِمَ. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أَيْ: أَمْرُهُ(٢) ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أَيِ: اَلْمَلَائِكَةُ ﴿صَفًّا صَفًّا

---

(١) يقول تعالى منكرا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، [كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]] وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرا بأن يصبر. [ابن كثير (٨/ ٣٩٨)].

(٢) هذا المجيء هو مجيئه عز وجل؛ لأن الفعل أسند إلى الله، وكل فعل يسند إلى الله فهو قائم به لا بغيره، هذه هي القاعدة في اللغة العربية والقاعدة في أسماء الله وصفاته؛ كل ما أسنده الله إلى نفسه فهو له لا لغيره، وعلى هذا فالذي يأتي هو الله عز وجل، وليس كما حرفه أهل التعطيل حيث قالوا: جاء أمر الله. فإن هذا إخراج للكلام عن ظاهره بلا دليل، فنحن من عقيدتنا أن نجري كلام الله ورسوله على ظاهره وألا نحرف فيه، ونقول: إن الله تعالى يجيء يوم القيامة هو نفسه، ولكن كيف هذا المجيء؟ هذا هو الذي لا علم لنا به، لا ندري كيف يجيء، والسؤال عن مثل هذا بدعة كما قال الإمام مالك رحمه الله حين سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء -يعني العرق- ثم رفع رأسه وقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». [أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٧)]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:١٩٩)]. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ، ... وهي المقام المحمود كما ... في سورة «سبحان» فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا. [ابن كثير (٨/ ٣٩٩)].

﴿٢٢﴾ حالٌ، أَيْ: مُصْطَفِّينَ، أَوْ ذَوِي صُفُوفٍ كَثِيرَةٍ. ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ تُقَادُ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، كُلُّ زِمَامٍ بِأَيْدِي سَبْعِينَ أَلْفِ مَلَكٍ، لَهَا زَفِيرٌ وَتَغَيُّظٌ[١] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذَا﴾، وَجَوابِهَا: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أَيِ: الْكَافِرُ مَا فَرَّطَ فِيهِ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ اِسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَيْ: لَا يَنْفَعُهُ تَذَكُّرُهُ ذَلِكَ. ﴿يَقُولُ﴾ مَعَ تَذَكُّرِهِ ﴿يَٰ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنِى قَدَّمْتُ﴾ الْخَيْرَ وَالْإِيمَانَ ﴿لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ الطَّيِّبَةِ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ وَقْتَ حَيَاتِي فِي الدُّنْيَا. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ﴾ بِكَسْرِ الذَّالِ ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ أَيِ: اللهِ ﴿أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾ أَيْ: لَا يَكِلُهُ إِلَى غَيْرِهِ. ﴿وَ﴾ وَكَذَا ﴿لَا يُوثِقُ﴾ بِكَسْرِ الثَّاءِ ﴿وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الذَّالِ وَالثَّاءِ فَضَمِيرُ ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ وَ ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ لِلْكَافِرِ، وَالْمَعْنَى: لَا يُعَذَّبُ أَحَدٌ مِثْلَ تَعْذِيبِهِ، وَلَا يُوثَقُ مِثْلَ إِيثَاقِهِ. ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ الْآمِنَةُ وَهِيَ الْمُؤْمِنَةُ[٢]. ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَيِ: ارْجِعِي إِلَى أَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ[٣] ﴿رَاضِيَةً﴾ بِالثَّوَابِ ﴿مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ عِنْدَ اللهِ بِعَمَلِكِ، أَيْ: جَامِعَةً بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ وَهُمَا حَالَانِ. وَيُقَالُ لَهَا فِي الْقِيَامَةِ: ﴿فَٱدْخُلِى فِى﴾ جُمْلَةِ ﴿عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾ الصَّالِحِينَ ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ مَعَهُمْ.

---

(١) عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا». أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٢) حقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، ... فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين. [إغاثة اللهفان لابن القيم (١/ ١٢٨)].

(٣) وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث يقال: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى صاحبك وجسدك، فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى الأجساد، وهذا قول عكرمة، وعطاء، والضحاك، ورواية العوفي عن ابن عباس. وقال الحسن: معناه: ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته، راضية عن الله بما أعد لك، مرضية، رضي عنك ربك. [البغوي (٨/ ٤٢٤)]. أي: إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ... لقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢]. [ابن كثير (٨/ ٤٠٠)].

سُورَةُ البَلَدِ

مَكِّيَّةٌ، عِشْرُونَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾ مَكَّةَ. ﴿وَأَنتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿حِلُّۢ﴾ حَلَالٌ ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾ بِأَنْ يَحِلَّ لَكَ فَتُقَاتِلَ فِيهِ، وَقَدْ أَنْجزَ اللهُ لَهُ هَذَا الْوَعْدَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمُقْسَمِ بِهِ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ[1]. ﴿وَوَالِدٖ﴾ أَيْ: آدَمَ ﴿وَمَا وَلَدَ ٣﴾ أَيْ: ذُرِّيَّتِهِ، وَ «مَا» بِمَعْنَى «مَنْ». ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أَيِ: الْجِنْسَ ﴿فِي كَبَدٍ ٤﴾ نَصَبٍ وَشِدَّةٍ، يُكَابِدُ مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَشَدَائِدَ الْآخِرَةِ[2]. ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ أَيَظُنُّ الْإِنْسَانُ قَوِيُّ قُرَيْشٍ وَهُوَ أَبُو الْأَشَدِّ بْنُ كِلْدَةَ بِقُوَّتِهِ[3] ﴿أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥﴾ وَاللهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ. ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ﴾ عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ﴿مَالٗا لُّبَدًا ٦﴾ كَثِيرًا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. ﴿أَيَحۡسَبُ أَن﴾ أَيْ: أَنَّهُ ﴿لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧﴾ فِيمَا أَنْفَقَهُ فَيَعْلَمَ قَدْرَهُ وَاللهُ عَالِمٌ بِقَدْرِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُتَكَثَّرُ بِهِ، وَمُجَازِيهِ عَلَى فِعْلِهِ السَّيِّءِ. ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل﴾ اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ، أَيْ: جَعَلْنَا ﴿لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ بَيَّنَّا لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ[4]. ﴿فَلَا﴾

---

(١) لقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ». أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٣). والمعنى: أن الله تعالى لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظيم قدرها مع كونها حراماً فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً. فالمعنى: وأنت حل بهذا البلد في المستقبل كما في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، قال النسفي رحمه الله: «وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وإن تفسيره بالحال محال أن السورة مكية بالاتفاق، وأين الهجرة من وقت نزولها، فما بال الفتح». [صديق حسن (١٥/ ٢٣٨)].

(٢) هذا جواب القسم، والإنسان هو هذا النوع الإنساني والكبد الشدة والمشقة، يقال كابدت الأمر قاسيت شدته، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدها حتى يموت ... وأصل الكبد الشدة ومنه تكبد اللبن إذا اشتد وغلظ ... ثم استعمل في كل مشقة وشدة، قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وقال أيضاً: يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء لا يخلو عن أحدهما. [الشوكاني (٥/ ٥٣٩)].

(٣) الإنسان يجوز أن يراد به الجنس وهو الأظهر وقول جمهور المفسرين، فالتعريف فيه تعريف الجنس، ويكون المراد به خصوص أهل الشرك؛ لأن قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ [البلد: ٥] إلى آخر الآيات لا يليق إلا بأحوال غير المؤمنين، فالعموم عموم عرفي، أي: الإنسان في عرف الناس يومئذ، ولم يكن المسلمون إلا نفرا قليلا، ولذلك كثر في القرآن إطلاق الإنسان مرادا به الكافرون من الناس. [ابن عاشور (٣٠/ ٣٥٠)].

(٤) ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩﴾ قال القاشاني: أي: ألم ننعم عليه بالآلات البدنية التي يتمكن بها من اكتساب الكمال،

فَهَلَّا ﴿ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ⑪﴾ جَازَهَا⁽¹⁾. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا ٱلْعَقَبَةُ ⑫﴾ اَلَّتِي يَقْتَحِمُهَا تَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا، وَالْجُمْلَةُ اِعْتِرَاضٌ. وَبَيَّنَ سَبَبَ جَوَازِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ⑬﴾ مِنَ الرِّقِّ بِأَنْ أَعْتَقَهَا. ﴿أَوْ أَطْعَمَ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ⑭﴾ مَجَاعَةٍ. ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮﴾ قَرَابَةٍ. ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⑯﴾ لُصُوقٍ بِالتُّرَابِ لِفَقْرِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بَدَلَ اَلْفِعْلَيْنِ مَصْدَرَانِ مَرْفُوعَانِ مُضَافٍ اَلْأَوَّلِ لِـ ﴿رَقَبَةً﴾، وَمُنَوَّنٌ اَلثَّانِي، فَيُقَدَّرُ قَبْلَ ﴿ٱلْعَقَبَةُ﴾ اِقْتِحَامُ، وَالْقِرَاءَةُ اَلْمَذْكُورَةُ بَيَانُهُ. ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿ٱقْتَحَمَ﴾، وَ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرْتِيبِ اَلذِّكْرِيِّ، وَالْمَعْنَى: كَانَ وَقْتُ اَلِاقْتِحَامِ⁽²⁾ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟﴾ أَيْ: وَصَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ عَلَى اَلطَّاعَةِ وَعَنِ اَلْمَعْصِيَةِ ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ⑰﴾ بِالرَّحْمَةِ عَلَى اَلْخَلْقِ⁽³⁾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ اَلْمَوْصُوفُونَ بِهَذِهِ اَلصِّفَاتِ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ⑱﴾ اَلْيَمِينِ⁽⁴⁾. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ⑲﴾ اَلشِّمَالِ. ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ⑳﴾ بِالْهَمْزَةِ وَالْوَاوِ بَدَلُهُ: مُطْبَقَةٌ.

ليبصر ما يعتبر به، ويسأل عما لا يعلم. [القاسمي (٩/ ٤٧٧)]. ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ النجد الطريق في ارتفاع، قال المفسرون: بينا له طريق الخير وطريق الشر. [صديق حسن (١٥/ ٢٤٣)]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

(١) الاقتحام الدخول بشدة ومشقة، والعقبة عبارة عن الأعمال، الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٨٤)].

(٢) ثم هنا للتراخي في الرتبة لا في الزمان، وفيها إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام، ولا يصح أن يكون للترتيب في الزمان لأنه لا يلزم أن يكون الإيمان بعد العتق والإطعام، ولا يقبل عمل إلا من مؤمن. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٨٥)].

(٣) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم. من كل قول وفعل واجب أو مستحب. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضًا على الانقياد لذلك، والإتيان به كاملًا منشرحًا به الصدر، مطمئنة به النفس. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه. [السعدي (ص:٩٢٤)].

(٤) الميمنة: جهة اليمين، فهي مفعلة للمكان مأخوذة من فعل «يمنه» فعلا ماضيا إذا كان على يمينه، أي: على جهة يده اليمنى، أو مأخوذة من يمنه الله يمنا، إذا باركه، وإحدى المادتين مأخوذة من الأخرى، قيل: سميت اليد اليمنى يمينا ويمنى لأنها أعود نفعا على صاحبها في يسر أعماله ... وسمي أهل الجنة أصحاب الميمنة وأصحاب اليمين، وسمي أهل النار ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ و ﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]، فقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أصحاب الكرامة عند الله. وقوله: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: هم محقرون. وذلك كناية مبنية على عرف العرب يومئذ في مجالسهم، ولا ميمنة ولا مشأمة على الحقيقة. [ابن عاشور (٣٠/ ٣٦٢)].

سُورَةُ الشَّمْسِ

مَكِّيَّةٌ، خَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ ضَوْئِهَا[١]. ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ تَبِعَهَا طَالِعًا عِنْدَ غُرُوبِهَا[٢]. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ بِارْتِفَاعِهِ[٣]. ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ يُغَطِّيهَا بِظُلْمَتِهِ، وَ﴿إِذَا﴾ فِي الثَّلَاثَةِ لِمُجَرَّدِ الظَّرْفِيَّةِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا فِعْلُ الْقَسَمِ. ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ بَسَطَهَا[٤] ﴿وَنَفۡسٍ﴾ بِمَعْنَى نُفُوسٍ ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ فِي الْخِلْقَةِ، وَ﴿مَا﴾ فِي الثَّلَاثَةِ مَصْدَرِيَّةٌ، أَوْ بِمَعْنَى: «مَنْ». ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ بَيَّنَ لَهَا طَرِيقَي الْخَيْرِ

---

(١) أقسم سبحانه بهذه الأمور، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وقال قوم إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف، أي: ورب الشمس، وهكذا سائرها، ولا ملجئ إلى هذا ولا موجب له، وقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ هو قسم ثان، وقال الرازي المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي. وقد أقسم تعالى بأنواع مخلوقاته المشتملة على المنافع العظيمة ليتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لأن ما أقسم الله تعالى به يحصل منه وقع في القلب، وأقسم الله في هذه السورة بسبعة أشياء. انتهى. وقوله: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ قال مجاهد: أي ضوؤها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، وكذا قال الكلبي، وقال قتادة: ضحاها نهارها كله ... قال أبو الهيثم: الضحى نقيض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله «الضحي» فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفًا، قيل: والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد. قال المبرد: الضحى والضحوة مشتقان من الضح وهو النور فأبدلت الألف والواو من الحاء. [صديق حسن (١٥/ ٢٥١)].

(٢) التلو: التبع، وأريد به خلف ضوئه في الليل ضوء الشمس، أي: إذا ظهر بعد مغيبها فكأنه يتبعها في مكانها، وهذا تلو مجازي. والقمر يتبع الشمس في أحوال كثيرة منها استهلاله، ... وهو أيضا يضيء في أكثر ليالي الشهر، جعله الله عوضا عن الشمس في عدة ليال في الإنارة، ولذلك قيد القسم بحين تلوه؛ لأن تلوه للشمس حيئنذ تظهر منه مظاهر التلو للناظرين، فهذا الزمان مثل زمان الضحى في القسم به، فكان بمنزلة قسم بوقت تلوه الشمس، فحصل القسم بذات القمر وبتلوه الشمس. وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي: من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيرا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن. [ابن عاشور (٣٠/ ٣٦٦)].

(٣) فيه قولان: أحدهما: جلا الظلمة فكنى عن الظلمة من غير ذكرها، وهو كثير في كلام العرب، والقول الآخر: جلاها، أي: جلا الشمس؛ لأن النهار إذا ارتفع أضاءت الشمس وانبسطت. [السمعاني (٦/ ٢٣٢)].

(٤) قال الليث: الطحو كالدحو وهو البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، والمعنى: وسعها. قال عطاء والكلبي: بسطها على الماء. [الرازي (٣١/ ١٧٦)].

وَالشَّرِّ(١)، وَأَخَّرَ اَلتَّقْوَى رِعَايَةً لِرُؤُوسِ اَلْآيِ. وَجَوَابُ اَلْقَسَمِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ اَللَّامُ لِطُولِ اَلْكَلَامِ ﴿مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ طَهَّرَهَا مِنَ اَلذُّنُوبِ. ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خَسِرَ ﴿مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ أَخْفَاهَا بِالْمَعْصِيَةِ، وَأَصْلُهُ دَسَّسَهَا أُبْدِلَتِ اَلسِّينُ اَلثَّانِيَةُ أَلِفًا تَخْفِيفًا. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ رَسُولَهَا صَالِحًا ﴿بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١﴾ بِسَبَبِ طُغْيَانِهَا. ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ أَسْرَعَ ﴿أَشْقَىٰهَا ۝١٢﴾ وَاسْمُهُ «قُدَارٌ» إِلَى عَقْرِ اَلنَّاقَةِ بِرِضَاهُمْ. ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صَالِحٌ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: ذَرُوهَا ﴿وَسُقْيَٰهَا ۝١٣﴾ وَشِرْبَهَا فِي يَوْمِهَا، وَكَانَ لَهَا يَوْمٌ وَلَهُمْ يَوْمٌ. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ عَنِ اَللهِ اَلْمُرَتَّبِ عَلَيْهِ نُزُولُ اَلْعَذَابِ بِهِمْ إِنْ خَالَفُوهُ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قَتَلُوهَا لِيَسْلَمَ لَهُمْ مَاءُ شِرْبِهَا(٢) ﴿فَدَمْدَمَ﴾ أَطْبَقَ ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ اَلْعَذَابَ ﴿بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ أَيِ: اَلدَّمْدَمَةَ عَلَيْهِمْ، أَيْ: عَمَّهُمْ بِهَا فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ(٣). ﴿وَلَا﴾ بِالْوَاوِ وَالْفَاءِ ﴿يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾ تَبِعَتَهَا.

---

(١) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟». أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨)، وعن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ». أخرجه مسلم (٢٨٦٥). وقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي: بين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ بين لها الخير والشر. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والثوري. وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر. وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها ... عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين رضي الله عنه: أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ، وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضي عليهم. قال: فهل يكون ذلك ظلما؟ قال: ففزعت منه فزعا شديدا، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. قال: سددك الله، إنما سألت لأخبر عقلك، إن رجلا من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم، وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بَلْ شَيْءٌ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ». قال: ففيم نعمل؟ قال: «مَنْ كَانَ اللهُ خَلَقَهُ لِإِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ يُهَيِّئُهُ لَهَا، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾». أخرجه مسلم (٢٦٥٠). [ابن كثير (٨/ ٤٤١)].

(٢) نسب العقر إلى جماعة لأنهم اتفقوا عليه وباشره واحد منهم. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٨٧)].

(٣) فأطبق عليهم العذاب، وقالوا: دمدم عليه القبر، أي: أطبقه، وهو مما تكرر فيه الفاء، فوزنه فعفل لا فعلل من قولهم: ناقة مدمومة إذا لبسها الشحم وغطاها، وقال في القاموس: معناه أتم العذاب عليهم. [الآلوسي (١٥/ ٣٦٣)].

سُورَةُ اللَّيْلِ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾ تَكَشَّفَ وَظَهَرَ وَ﴿إِذَا﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِمُجَرَّدِ الظَّرْفِيَّةِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا فِعْلُ الْقَسَمِ. ﴿وَمَا﴾ بِمَعْنَى «مَنْ» أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣﴾ آدَمَ وَحَوَّاءَ وَكُلَّ ذَكَرٍ وَكُلَّ أُنْثَى، وَالْخُنْثَى الْمُشْكِلُ عِنْدَنَا ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فَيَحْنَثُ بِتَكْلِيمِهِ مَنْ حَلَفَ لَا يُكَلِّمُ ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى(١). ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ﴾ عَمَلَكُمْ ﴿لَشَتَّىٰ ٤﴾ مُخْتَلِفٌ، فَعَامِلٌ لِلْجَنَّةِ بِالطَّاعَةِ، وَعَامِلٌ لِلنَّارِ بِالْمَعْصِيَةِ. ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾ حَقَّ اللهِ ﴿وَٱتَّقَىٰ ٥﴾ اللهَ. ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦﴾ أَيْ: بِـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ نُهَيِّئُهُ ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾ لِلْجَنَّةِ. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بِحَقِّ اللهِ ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾ عَنْ ثَوَابِهِ. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ نُهَيِّئُهُ ﴿لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ لِلنَّارِ. ﴿وَمَا﴾ نَافِيَةٌ ﴿يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ فِي النَّارِ. ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢﴾ لَتَبْيِينَ طَرِيقِ الْهُدَى مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالِ لِيُمْتَثَلَ، أَمْرُنَا بِسُلُوكِ الْأَوَّلِ وَنَهْيُنَا عَنِ ارْتِكَابِ الثَّانِي(٢). ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣﴾ أَيِ: الدُّنْيَا، فَمَنْ طَلَبَهُمَا مِنْ غَيْرِنَا فَقَدْ أَخْطَأَ(٣). ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ﴾

---

(١) قال المحلي: «والخنثى المشكل عندنا ذكر أو أنثى عند الله تعالى فيحنث بتكليمه من حلف لا يكلم ذكراً ولا أنثى». انتهى، وعبارة الخطيب: «الخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة». انتهت، وقال الكرخي: يحنث بتكليمه لأن الله تعالى لم يخلق من ذوي الأرواح من ليس ذكراً ولا أنثى، والخنثى إنما هو مشكل بالنسبة إلينا، خلافاً لأبي الفضل الهمداني فيما حكاه وجهاً أنه نوع ثالث، ويدفعه قوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] ونحو ذلك قاله الأسنوي. [صديق حسن (١٥/ ٢٦٤)].

(٢) المعنى من سلك الهدى فعلى الله سبيله، ... وهذا قول مجاهد وهو أصح الأقوال في الآية، قال الواحدي: ﴿عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله وإلى ثوابه وجنته. وهذا المعنى في القرآن في ثلاث مواضع هاهنا وفي النحل في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وفي الحجر في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]، وهو معنى شريف جليل يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله فذكر الطريق والغاية، فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله، فهذه أشرف الوسائل وغايتها أعلى الغايات. [التبيان في أيمان القرآن لابن القيم (١/ ١٠٦)].

(٣) الأولى متقدمة على الآخرة في الزمن، لكنه في هذه الآية أخرها: لأن الآخرة أهم من الدنيا، ... ولمراعاة الفواصل. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٢٣٠)].

خَوَّفْتُكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّاءَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ، وَقُرِئَ بِثُبُوتِهَا(١)، أَيْ: تَتَوَقَّدُ(٢). ﴿لَا يَصْلَاهَآ﴾ يَدْخُلُهَا ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥﴾ بِمَعْنَى الشَّقِيِّ. ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ النَّبِيَّ ﴿وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ عَنِ الْإِيمَانِ، وَهَذَا الْحَصْرُ مُؤَوَّلٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فَيَكُونُ الْمُرَادُ الصِّلِيَّ الْمُؤَبَّدَ. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ يُبْعَدُ عَنْهَا ﴿ٱلْأَتْقَى ١٧﴾ بِمَعْنَى: التَّقِيِّ. ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾ مُتَزَكِّيًا بِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى بِأَنْ يُخْرِجَهُ لِلَّهِ تَعَالَى لَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً فَيَكُونُ زَاكِيًا عِنْدَ اللهِ، وَهَذَا نَزَلَ فِي الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا اشْتَرَى بِلَالًا الْمُعَذَّبَ عَلَى إِيمَانِهِ وَأَعْتَقَهُ، فَقَالَ الْكُفَّارُ: «إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِيَدٍ كَانَتْ لَهُ عِنْدَهُ». فَنَزَلَتْ(٣): ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩ إِلَّا﴾ لَكِنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٠﴾ أَيْ: طَلَبَ ثَوَابِ اللهِ. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ٢١﴾ بِمَا يُعْطَاهُ مِنَ الثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ، وَالْآيَةُ تَشْمَلُ مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَيُبْعَدُ عَنِ النَّارِ وَيُثَابُ.

---

(١) قراءة شاذة.

(٢) أي: تتلظى، واللظى: اللهب الخالص، وفي وصف النار هنا بـ ﴿تَلَظَّىٰ﴾ مع أن لها صفات عديدة منها: السعير، وسقر، والجحيم، والهاوية، وغير ذلك. وذكر هنا صنفا خاصا، وهو من ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، كما تقدم في موضع آخر في وصفها أيضا بلظى في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾ [المعارج: ١٥-١٦]، ثم بين أهلها بقوله: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ١٨﴾ [المعارج: ١٧-١٨]. وهو كما هو هنا: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾، وهو المعني في قوله قبله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ٩﴾ [الليل: ٨-٩]، مما يدل أن للنار عدة حالات أو مناطق أو منازل، كل منزلة تختص بصنف من الناس، فاختصت لظى بهذا الصنف، واختصت سقر بمن لم يكن من المصلين، وكانوا يخوضون مع الخائضين، ونحو ذلك. ويشهد له قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، كما أن الجنة منازل ودرجات، حسب أعمال المؤمنين. والله تعالى أعلم. [عطية سالم (٨/ ٥٥٠)].

(٣) ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو ... مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ... ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك كانت عندي لم أجزك بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم. [ابن كثير (٨/ ٤٢٢)].

سُورَةُ الضُّحَىٰ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ①﴾ أَيْ: أَوَّلِ النَّهَارِ أَوْ كُلِّهِ[١]. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ②﴾ غَطَّى بِظَلَامِهِ أَوْ سَكَنَ. ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ تَرَكَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ أَبْغَضَكَ، نَزَلَ هَذَا لَمَّا قَالَ الْكُفَّارُ عِنْدَ تَأَخُّرِ الْوَحْيِ عَنْهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا: «إِنَّ رَبَّهُ وَدَّعَهُ وَقَلَاهُ»[٢]. ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ﴾ لِمَا فِيهَا مِنَ الْكَرَامَاتِ لَكَ ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ ④﴾ الدُّنْيَا[٣]. ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ عَطَاءً جَزِيلًا[٤] ﴿فَتَرْضَىٰ ⑤﴾ بِهِ، فَقَالَ ﷺ: «إِذَنْ لَا أَرْضَى وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ»[٥].

---

(١) المراد به النهار، لقوله: والليل إذا سجى فقابله بالليل. وفي سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨] أي: نهارا. وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضمار، مجازه ورب الضحى. [القرطبي (٢٠/ ٩١)].

(٢) عن الأسود بن قيس: سمع جندبا قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودع محمد. فأنزل الله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾. أخرجه مسلم (١٧٩٧).

(٣) وللدار الآخرة، وما أعد الله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا وما فيها. يقول: فلا تحزن على ما فاتك منها، فإن الذي لك عند الله خير لك منها. [الطبري (٢٤/ ٤٨٧)].

(٤) أي: يعطيك من فواضل نعمه في العقبى حتى ترضى، وهذه عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر وإعلاء الدين، بالفتوح الواقعة في عصره عليه الصلاة والسلام، وفي أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام، وفشو دعوته في مشارق الأرض ومغاربها، ولما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى. وبالجملة فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين، حيث أجمله ووكله إلى رضاه وهذا غاية الإحسان والإكرام. [القاسمي (٩/ ٤٩١)].

(٥) لم نقف عليه مرفوعا، وورد موقوفا على ابن عباس رضي الله عنهما انظر الدر المنثور للسيوطي (٨/ ٥٤٢). وأصح ما ورد في هذا الباب مرفوعًا ما أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية. وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى»، فقال الله عز وجل: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: «إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ».

إِلَى هُنَا تَمَّ جَوَابُ الْقَسَمِ بِمُثْبَتَيْنِ بَعْدَ مَنْفِيَّيْنِ. ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ، أَيْ: وَجَدَكَ ﴿يَتِيمًا﴾ بِفَقْدِ أَبِيكَ قَبْلَ وِلَادَتِكَ أَوْ بَعْدَهَا ﴿فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ بِأَنْ ضَمَّكَ إِلَى عَمِّكَ أَبِي طَالِبٍ[1]. ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ ﴿فَهَدَىٰ ۝٧﴾ أَيْ: هَدَاكَ إِلَيْهَا[2]. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ فَقِيرًا ﴿فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ أَغْنَاكَ بِمَا قَنَّعَكَ بِهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَغَيْرِهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[3]. ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ بِأَخْذِ مَالِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ تَزْجُرْهُ لِفَقْرِهِ. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا ﴿فَحَدِّثْ ۝١١﴾ أَخْبِرْ، وَحُذِفَ ضَمِيرُهُ ﷺ فِي بَعْضِ الْأَفْعَالِ رِعَايَةً لِلْفَوَاصِلِ[4].

---

(١) عدد الله نعمه عليه فيما مضى من عمره، ليقيس عليه ما يستقبل فتطيب نفسه، ويقوي رجاؤه و«وجد» في هذه المواضع تتعدى إلى مفعولين وهي بمعنى: علم؛ فالمعنى ألم تكن يتيماً فآواك. وذلك أن والده ... توفي وتركه في بطن أمه، ثم ماتت أمه وهو ابن خمسة أعوام، وقيل: ثمانية فكفله جده عبد المطلب، ثم مات وتركه ابن اثني عشر عاماً فكفله عمه أبو طالب، وقيل لجعفر الصادق: لم نشأ النبي ﷺ يتيماً؟ فقال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٩٠)].

(٢) أي: غافلا عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان، فهداك إليه وجعلك إماما له، كما في آية: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، قال الشهاب: فالضلال مستعار من: «ضل في طريقه»، إذا سلك طريقا غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة، من طريق الاكتساب. [القاسمي (٩/ ٤٩٢)].

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٤) قيل: المراد بها المذكورات والتحدث بها شكرها عمليا من إيواء اليتيم كما آواه الله، وإعطاء السائل كما أغناه الله، وتعليم المسترشد كما علمه الله، وهذا من شكر النعمة، أي: كما أنعم الله عليك، فتنعم أنت على غيرك ... وقيل: التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث، والنعمة هنا عامة؛ لتنكيرها وإضافتها ... ولكن الذي يظهر أنها في الوحي أظهر أو هو أولى بها، أو هو أعظمها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. [عطية سالم (٨/ ٥٧١)].

سُورَةُ الشَّرْحِ

مَكِّيَّةٌ، ثَمَانُ آيَاتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ﴾ اِسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ، أَيْ: شَرَحْنَا ﴿لَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿صَدۡرَكَ ۝١﴾ بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا(١). ﴿وَوَضَعۡنَا﴾ حَطَطْنَا ﴿عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ﴾ أَثْقَلَ ﴿ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ٢](٢). ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ بِأَنْ تُذْكَرَ مَعَ ذِكْرِي فِي الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ وَالتَّشَهُّدِ وَالْخُطْبَةِ وَغَيْرِهَا. ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ﴾ الشِّدَّةِ ﴿يُسۡرًا ۝٥﴾ سُهُولَةً. ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاسَى مِنَ الْكُفَّارِ شِدَّةً ثُمَّ حَصَلَ لَهُ الْيُسْرُ بِنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ(٣). ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ﴾ مِنَ الصَّلَاةِ ﴿فَٱنصَبۡ ۝٧﴾ اِتْعَبْ فِي الدُّعَاءِ(٤). ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ تَضَرَّعْ(٥).

---

(١) الذي يشهد له القرآن: أن الشرح هو الانشراح والارتياح. وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة. كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢]، فقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بيان لشرح الصدر للإسلام. كما أن ضيق الصدر، دليل على الضلال [قال تعالى]: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ الآية [الأنعام: ١٢٥]. [عطية سالم (٨/ ٥٧٣)].

(٢) قال قتادة، وابن زيد، والحسن، وجمهور من المفسرين: الوزر هنا: الذنوب، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل النبوة وزره صحبة قومه، وأكله من ذبائحهم، ونحو هذا، وقال الضحاك، وفي كتاب النقاش: حضوره مع قومه المشاهد التي لا يحبها الله تعالى. وقال المحاسبي: إنما وصفت ذنوب الأنبياء عليهم السلام بالثقل وهي صغائر مغفورة لهمهم بها وتحسرهم عليها. [ابن عطية (٥/ ٤٩٦)].

(٣) عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين. ومعنى هذا: أن العسر معرف في الحالين، فهو مفرد، واليسر منكر فتعدد؛ ولهذا قال: لن يغلب عسر يسرين، يعني قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد. [ابن كثير (٨/ ٤٣٢)].

(٤) [الآية] تفريع على ما تقرر من التذكير باللطف والعناية ووعده بتيسير ما هو عسير عليه في طاعته التي أعظمها تبليغ الرسالة دون ملل ولا ضجر ... فالمعنى: إذا أتممت عملا من مهام الأعمال فأقبل على عمل آخر بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة ... واختلفت أقوال المفسرين من السلف في تعيين المفروغ منه، وإنما هو اختلاف في الأمثلة، فحذف المتعلق هنا لقصد العموم. [ابن عاشور (٣٠/ ٤١٦)].

(٥) بالسؤال ولا تسأل غيره فإنه القادر وحده على إسعافك، وقرئ: «فَرَغِّبْ» أي: فرغب الناس إلى طلب ثوابه. [البيضاوي (٥/ ٣٢٢)].

سُورَةُ التِّينِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَمَانُ آيَاتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ أَي: اَلْمَأْكُولَيْنِ، أَوْ جَبَلَيْنِ بِالشَّامِ يُنْبِتَانِ اَلْمَأْكُولَيْنِ. ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ اَلْجَبَلِ اَلَّذِي كَلَّمَ اَللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مُوسَى، وَمَعْنَى ﴿سِينِينَ﴾: اَلْمُبَارَكُ أَوِ اَلْحَسَنُ بِالْأَشْجَارِ اَلْمُثْمِرَةِ. ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ مَكَّةَ لِأَمْنِ اَلنَّاسِ فِيهَا جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا. ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ اَلْجِنْسَ ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ تَعْدِيلٍ لِصُورَتِهِ. ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ﴾ فِي بَعْضِ أَفْرَادِهِ ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ كِنَايَةً عَنِ اَلْهَرَمِ وَالضَّعْفِ، فَيَنْقُصُ عَمَلُ اَلْمُؤْمِنِ عَنْ زَمَنِ اَلشَّبَابِ وَيَكُونَ لَهُ أَجْرُهُ[1]. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا﴾ أَيْ: لَكِنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦﴾ مَقْطُوعٍ، وَفِي اَلْحَدِيثِ: «إِذَا بَلَغَ اَلْمُؤْمِنُ مِنَ اَلْكِبَرِ مَا يُعْجِزُهُ عَنِ اَلْعَمَلِ، كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ»[2]. ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أَيُّهَا اَلْكَافِرُ ﴿بَعۡدُ﴾ بَعْدَ مَا ذُكِرَ مِنْ خَلْقِ اَلْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، ثُمَّ رَدِّهِ إِلَى أَرْذَلِ اَلْعُمُرِ اَلدَّالِّ عَلَى اَلْقُدْرَةِ عَلَى اَلْبَعْثِ ﴿بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ بِالْجَزَاءِ اَلْمَسْبُوقِ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، أَيْ: مَا يَجْعَلُكَ مُكَذِّبًا بِذَلِكَ، وَلَا جَاعِلَ لَهُ. ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ هُوَ أَقْضَى اَلْقَاضِينَ، وَحُكْمُهُ بِالْجَزَاءِ مِنْ ذَلِكَ، وَفِي اَلْحَدِيثِ: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلتِّينِ﴾ إِلَى آخِرِهَا فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ اَلشَّاهِدِينَ»[3].

---

(١) أي: ... ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ... كقوله: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١-٣]. [ابن كثير (٨/ ٤٣٥)].

(٢) لم أقف عليه مرفوعا، وقد ورد موقوفا على ابن عباس رضي الله عنهما. انظر الطبري (٣٠ / ٢٤٧). وفي الصحيح قوله ﷺ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا». أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٨٨٧)، وأحمد (٧٣٩١)، والترمذي (٣٣٤٧).

سُورَةُ العَلَق

مَكِّيَّةٌ، تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً. صَدْرُهَا إِلَى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ بِغَارِ حِرَاءٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ﴾ أَوْجِدِ الْقِرَاءَةَ مُبْتَدِئًا(٢) ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ الْخَلَائِقَ. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الْجِنْسَ ﴿مِنْ عَلَقٍ ②﴾ جَمْعُ «عَلَقَةٍ» وَهِيَ الْقِطْعَةُ الْيَسِيرَةُ مِنَ الدَّمِ الْغَلِيظِ(٣). ﴿ٱقْرَأْ﴾ تَأْكِيدٌ لِلْأَوَّلِ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③﴾ الَّذِي لَا يُوَازِيهِ كَرِيمٌ، حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿ٱقْرَأْ﴾. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾ الْخَطَّ ﴿بِٱلْقَلَمِ ④﴾ وَأَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِهِ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ(٤).

---

(١) عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو: التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: «فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾». الحديث أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) [النبي أمي] كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الجمعة: ٢]. وتوجيه الأمر بالقراءة إلى نبي أمي لا تعارض فيه؛ لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو، وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل عليه السلام، وهذا إبراز للمعجزة أكثر؛ لأن الأمي بالأمس صار معلما اليوم. [عطية سالم (٩/ ١٣)].

(٣) العلق جمع علقة، وهي النطفة من الدم والمراد بالإنسان هنا جنس بني آدم، ولذلك جمع العلق لما أراد الجماعة بخلاف قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥] لأنه أراد كل واحد على حدته، ولم يدخل آدم في الإنسان هنا لأنه لم يخلق من علقة وإنما خلق من طين. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٩٦)].

(٤) في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعا وفيه: «إِدْرِيسُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِقَلَمٍ». أخرجه الحاكم (٤١٦٦)، وابن حبان (٣٦١). أي: علم الإنسان الخط بالقلم فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب، قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم، قال قتادة: بالقلم نعمة من الله عز وجل عظيمة لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اَلْجِنسَ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ قَبْلَ تَعْلِيمِهِ، مِنَ اَلْهُدَى وَالْكِتَابَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَغَيْرِهَا. ﴿كَلَّآ﴾ حَقًّا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ﴾ أَيْ: نَفْسَهُ ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ بِالْمَالِ، نَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ، وَ «رَأَى» عِلْمِيَّةٌ، وَ ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ، وَ ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ(١). ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يَا إِنْسَانُ ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ اَلرُّجُوعُ، تَخْوِيفٌ لَهُ فَيُجَازِي اَلطَّاغِي بِمَا يَسْتَحِقُّهُ. ﴿أَرَءَيْتَ﴾ فِي اَلثَّلَاثَةِ مَوَاضِعَ لِلتَّعَجُّبِ ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩﴾ هُوَ أَبُو جَهْلٍ. ﴿عَبْدًا﴾ هُوَ اَلنَّبِيُّ ﷺ ﴿إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ﴾ اَلْمَنْهِيُّ ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ﴾ لِلتَّقْسِيمِ ﴿أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾ أَيِ: اَلنَّاهِي اَلنَّبِيَّ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾ عَنِ اَلْإِيمَانِ. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ مَا صَدَرَ مِنْهُ، أَيْ: يَعْلَمُهُ فَيُجَازِيهِ عَلَيْهِ، أَيِ: اِعْجَبْ مِنْهُ يَا مُخَاطَبُ مِنْ حَيْثُ نَهْيِهِ عَنِ اَلصَّلَاةِ، وَمِنْ حَيْثُ أَنَّ اَلْمَنْهِيَّ عَلَى اَلْهُدَى آمِرٌ بِالتَّقْوَى، وَمِنْ حَيْثُ أَنَّ اَلنَّاهِيَ مُكَذِّبٌ مُتَوَلٍّ عَنِ اَلْإِيمَانِ(٢). ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُ ﴿لَئِن﴾ لَامُ قَسَمٍ ﴿لَّمْ يَنتَهِ﴾ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ اَلْكُفْرِ ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥﴾ لَنَجُرَّنَ بِنَاصِيَتِهِ إِلَى اَلنَّارِ(٣). ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بَدَلُ نَكِرَةٍ مِنْ مَعْرِفَةٍ ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ وَصْفُهَا بِذَلِكَ

الله ولطيف تدبيره دليل إلا القلم والخط لكفى به، وسمي قلماً لأنه يقلم، أي: يقطع. [الشوكاني (٥/ ٥٧١)].

(١) نزل هذا وما بعده إلى آخر السورة في أبي جهل بعد نزول صدرها بمدة، وذلك أنه كان يطغى بكثرة ماله ويبالغ في عداوة النبي ﷺ. [ابن جُزَيّ (٢/٤٩٦)]. وعلة ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي: ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً، والرؤية هنا بمعنى العلم ولو كانت بصرية لامتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد، لأن ذلك من خواص باب علم ونحوه، قال الفراء: لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي ترد اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول رأيتني وحسبتني ومتى نراك خارجاً ومتى نظنك خارجاً. قيل: والمراد هنا أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال ... قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب مالاً زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه، وكذا قال الكلبي. قال الرازي: أول السورة يدل على مدح العلم، وآخرها يدل على ذم المال وكفى بذلك مرغباً في الدين والعلم، ومنفراً عن الدنيا والمال. [صديق حسن (١٥/ ٣١٢)].

(٢) أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء. [ابن كثير (٨/٤٣٨)]. فهو سبحانه وتعالى يرى كل شيء مهما خفي ودق، ويعلم كل شيء مهما بعد ومهما كثر أو قل، والمقصود من هذا تهديد هذا الذي ينهى عبدا إذا صلى، وبيان أن الله تعالى يعلم بحاله وحال من ينهاه، وسيجازي كلا منهما بما يستحق. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٢٦٣)].

(٣) أوعد أبا جهل إن لم ينته عن كفره وطغيانه أن يؤخذ بناصيته فيلقى في النار، والناصية مقدم الرأس فهو كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] والسفع هنا الجذب والقبض على الشيء، وقيل: هو الإحراق من قولك سفعته النار، وأكد لنسفعن باللام والنون الخفيفة، ... ويظهر لي أن هذا الوعيد نفذ عليه يوم بدر حين قتل وأخذ بناصيته فجر إلى القليب ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أبدل ناصية من الناصية، ووصفها بالكذب والخطيئة تجوزا، والكاذب الخاطئ في الحقيقة صاحبها، والخاطئ الذي يفعل الذنب متعمدا، والمخطئ الذي

مَجازٌ، وَالْمُرَادُ صَاحِبُهَا. ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧﴾ أَيْ: أَهْلَ نَادِيهِ، وَهُوَ اَلْمَجْلِسُ يُنْتَدَى: يَتَحَدَّثُ فِيهِ اَلْقَوْمُ، وَكَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا اِنْتَهَرَهُ حَيْثُ نَهَاهُ عَنِ اَلصَّلَاةِ: «لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرَ نَادِيًا مِنِّي، لَأَمْلَأَنَّ عَلَيْكَ هَذَا اَلْوَادِيَ إِنْ شِئْتُ خَيْلًا جُرْدًا وَرِجَالًا مُرْدًا»(١). ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾ اَلْمَلَائِكَةَ اَلْغِلَاظَ اَلشِّدَادَ لِإِهْلَاكِهِ، كَمَا فِي اَلْحَدِيثِ: «لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ اَلزَّبَانِيَةُ عِيَانًا»(٢). ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُ ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ يَا مُحَمَّدُ فِي تَرْكِ اَلصَّلَاةِ ﴿وَٱسْجُدْ﴾ صَلِّ لِلَّهِ ﴿وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾ مِنْهُ بِطَاعَتِهِ(٣).

يفعله بغير قصد. [ابن جُزَيّ (٢/ ٤٩٨)].

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديا، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. أخرجه أحمد (١/ ٣٢٩)، والترمذي (٣٣٤٩).

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي ﷺ، فقال: «لَئِنْ فَعَلَهُ لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ». أخرجه البخاري (٤٩٥٨).

(٣) ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿وَٱسْجُدْ﴾ أي: صل لله غير مكترث به ولا مبال بنهيه ﴿وَٱقْتَرِب ۩﴾ أي: تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة، وقيل: المعنى إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء، وقال زيد ابن أسلم: واسجد أنت يا محمد واقترب أنت يا أبا جهل من النار، والأول أولى. والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة وعبر عنها بالسجود لأنه أفضل أركانها بعد القيام، وقيل: سجود التلاوة، ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من السجود عند تلاوة هذه الآية. [صديق حسن (١٥/ ٣١٧)]. وعطف عليه ﴿وَٱقْتَرِب﴾ للتنويه بما في الصلاة من مرضاة الله تعالى بحيث جعل المصلي مقتربا من الله تعالى. والاقتراب: افتعال من القرب، عبر بصيغة الافتعال لما فيها من معنى التكلف والتطلب، أي: اجتهد في القرب إلى الله بالصلاة. [ابن عاشور (٣٠/ ٤٥٣)]. وقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ ربط بين السجود والاقتراب من الله كما قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقوله في وصف أصحابه رضي الله عنهم: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩] ... مما يدل لأول وهلة أن الصلاة أعظم قربة إلى الله، حيث وجه إليها الرسول ﷺ من أول الأمر، كما بين تعالى في قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ وَهُوَ سَاجِدٌ». أخرجه مسلم (٤٨٢). [عطية سالم (٩/ ٢٩)].

سُورَةُ القَدْرِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، خَمْسُ أَوْ سِتُّ آيَاتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أَيِ: اَلْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اَللَّوْحِ اَلْمَحْفُوظِ إِلَى اَلسَّمَاءِ اَلدُّنْيَا[1] ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ أَيِ: اَلشَّرَفِ اَلْعَظِيمِ[2]. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ②﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهَا وَتَعْجِيبٌ مِنْهُ. ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ اَلْقَدْرِ، فَالْعَمَلُ اَلصَّالِحُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْهُ فِي أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَتْ فِيهَا[3]. ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى اَلتَّاءَيْنِ مِنَ اَلْأَصْلِ ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ أَيْ: جِبْرِيلُ ﴿فِيهَا﴾ فِي اَللَّيْلَةِ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ بِأَمْرِهِ ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④﴾ قَضَاهُ اَللهُ فِيهَا لِتِلْكَ اَلسَّنَةِ إِلَى قَابِلٍ وَ ﴿مِّن﴾ سَبَبِيَّةٌ بِمَعْنَى اَلْبَاءِ[4]. ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ وَمُبْتَدَأٌ ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ⑤﴾ بِفَتْحِ اَللَّامِ وَكَسْرِهَا إِلَى وَقْتِ طُلُوعِهِ، جُعِلَتْ سَلَامًا لِكَثْرَةِ اَلسَّلَامِ فِيهَا مِنَ اَلْمَلَائِكَةِ لَا تَمُرُّ بِمُؤْمِنٍ وَلَا بِمُؤْمِنَةٍ إِلَّا سَلَّمَتْ عَلَيْهِ.

---

(١) انظر التعليق على تفسير آية (١٨٥) من سورة البقرة.

(٢) وجه تسميتها ليلة القدر فيه وجهان: أحدهما: أن معنى القدر الشرف والرفعة، كما تقول العرب: فلان ذو قدر، أي: رفعة وشرف. الوجه الثاني: أنها سميت ليلة القدر؛ لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة، ويدل لهذا التفسير الأخير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ [الدخان: ٣ - ٥]. والواقع أن في السورة ما يدل للوجه الأول وهو القدر والرفعة، وهو قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ② لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③﴾. فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم ... وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها، إذ أنها تعدل في الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة، أي: فوق متوسط أعمار هذه الأمة. وأيضا كونها اختصت بإنزال القرآن فيها، وبتنزل الملائكة والروح فيها، وبكونها سلاما هي حتى مطلع الفجر. [عطية سالم (٩/ ٣٤)].

(٣) هذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر هو اختيار ابن جرير. وهو الصواب لا ما عداه، وهو كقوله ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ». أخرجه الترمذي (١٦٦٧)، والنسائي (٣١٦٩)، ... وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ وَتُغَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ وَفِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ خَيْرًا كَثِيرًا». أخرجه النسائي (٢١٠٦)، وأحمد (٧١٤٨). [ابن كثير (٨/ ٤٤٣)].

(٤) ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكل أمر من الخير والبركة، كقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: بأمر الله. [البغوي (٨/ ٤٩١)].

سُورَةُ البَيِّنَةِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَمَانُ أَوْ تِسْعُ آيَاتٍ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أَيْ: عَبَدَةِ الأَصْنَامِ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَهۡلِ﴾، ﴿مُنفَكِّينَ﴾ خبرُ ﴿يَكُنِ﴾، أَيْ: زَائِلِينَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ﴾ أَيْ: أَتَتْهُمْ ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾ أَيِ: الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ. ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْبَيِّنَةِ، وَهُوَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢﴾ مِنَ الْبَاطِلِ. ﴿فِيهَا كُتُبٞ﴾ أَحْكَامٌ مَكْتُوبَةٌ ﴿قَيِّمَةٞ ۝٣﴾ مُسْتَقِيمَةٌ، أَيْ: يَتْلُو مَضْمُونَ ذَلِكَ وَهُوَ الْقُرْآنُ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ. ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فِي الْإِيمَانِ بِهِ ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾ أَيْ: هُوَ ﷺ أَوِ الْقُرْآنُ الْجَائِي بِهِ مُعْجِزَةً لَهُ، وَقَبْلَ مَجِيئِهِ ﷺ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ إِذَا جَاءَ، فَحَسَدَهُ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: أَنْ يَعْبُدُوهُ، فَحُذِفَتْ «أَنْ» وَزِيدَتِ اللَّامُ ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿حُنَفَآءَ﴾ مُسْتَقِيمِينَ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِ مُحَمَّدٍ إِذَا جَاءَ، فَكَيْفَ كَفَرُوا بِهِ؟ ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ﴾ الْمِلَّةُ ﴿ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ الْمُسْتَقِيمَةِ[1]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيْ: مُقَدَّرًا خُلُودُهُمْ فِيهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾ الْخَلِيقَةِ. ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إِقَامَةٍ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بِطَاعَتِهِ[2] ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بِثَوَابِهِ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ خَافَ عِقَابَهُ، فَانْتَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ تَعَالَى[3].

---

(١) خص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما. [السعدي (ص:٩٣١)].

(٢) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبُّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». أخرجه مسلم (٢٨٢٩).

(٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ لأُبي: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾» قال: وسماني؟ قال: «نَعَمْ» فبكى. أخرجه البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (٧٩٩).

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، تِسْعُ آيَاتٍ(١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ**﴾ حُرِّكَتْ لِقِيَامِ السَّاعَةِ ﴿**زِلۡزَالَهَا** ١﴾ تَحْرِيكَهَا الشَّدِيدَ الْمُنَاسِبَ لِعَظَمِهَا. ﴿**وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا** ٢﴾ كُنُوزَهَا وَمَوْتَاهَا فَأَلْقَتْهَا عَلَى ظَهْرِهَا. ﴿**وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ**﴾ الْكَافِرُ بِالْبَعْثِ: ﴿**مَا لَهَا** ٣﴾ إِنْكَارًا لِتِلْكَ الْحَالَةِ. ﴿**يَوۡمَئِذٖ**﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذَا﴾، وَجَوَابُهَا: ﴿**تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا** ٤﴾ تُخْبِرُ بِمَا عُمِلَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. ﴿**بِأَنَّ**﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿**رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا** ٥﴾ أَيْ: أَمَرَهَا بِذَلِكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «تَشْهَدُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِكُلِّ مَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا»(٢). ﴿**يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ**﴾ يَنْصَرِفُونَ مِنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ ﴿**أَشۡتَاتٗا**﴾ مُتَفَرِّقِينَ، فَآخِذٌ ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَآخِذٌ ذَاتَ الشِّمَالِ إِلَى النَّارِ ﴿**لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ** ٦﴾ أَيْ: جَزَاءَهَا مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ(٣). ﴿**فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ زِنَةَ نَمْلَةٍ صَغِيرَةٍ ﴿**خَيۡرٗا يَرَهُۥ** ٧﴾ يَرَ ثَوَابَهُ. ﴿**وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ** ٨﴾ يَرَ جَزَاءَهُ(٤).

---

(١) سورة الزلزلة: ثمان آيات عند عدد من علماء العدد وتسع آيات عند باقيهم، والمختلف فيه لفظ: ﴿أَشۡتَاتٗا﴾ فمن عده آية كانت عدد الآيات عنده تسعا، ومن لم يعده كان عدد الآيات عنده ثمانيا. [مقدمات في علم القراءات (ص:٢١٨)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا﴾ قال: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ عَمِلَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا». أخرجه أحمد (٨٦٥٠).

(٣) ﴿لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يعني: يصدرون أشتاتا فيرون أعمالهم، يريهم الله تعالى أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ... يحاسبه الله عز وجل، أما المؤمن فإن الله تعالى يخلو به وحده ويقرره بذنوبه ويقول: «تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ - مَرَّتَيْنِ - فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ تُطْوَى صَحِيفَةُ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الآخَرُونَ أَوِ الْكُفَّارُ فَيُنَادَى عَلَى رُءُوسِ الأَشْهَادِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [هود: ١٨]». أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨). [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٢٨٦)].

(٤) الرؤية هنا ليست برؤية بصر وإنما هي عبارة عن الجزاء. وذكر الله مثقال الذرة تنبيهـًا على ما هو أكثر منه من طريق الأولى، ... وهذه الآية هي في المؤمنين، لأن الكافر لا يجازى في الآخرة على حسناته، إذ لم تقبل منه. واستدل أهل السنة بهذه الآية: أنه لا يخلد مؤمن في النار؛ لأنه إذا خلد لم ير ثوابـًا على إيمانه وعلى ما عمل من الحسنات. ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ هذا على عمومه في حق الكافر، وأما المؤمنون فلا يجازون بذنوبهم إلا بستة شروط: وهي أن تكون ذنوبهم كبائر، وأن يموتوا قبل التوبة منها، وألا تكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها، وألا يشفع فيهم، وألا يكون ممن استحق المغفرة بعمل كأهل بدر، وألا يعفو الله عنهم فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥٠٤)].

سُورَةُ العَادِيَاتِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ**﴾ اَلْخَيْلِ تَعْدُو فِي اَلْغَزْوِ وَتَضْبَحُ ﴿**ضَبۡحٗا** ١﴾ هُوَ صَوْتُ أَجْوَافِهَا إِذَا عَدَتْ. ﴿**فَٱلۡمُورِيَٰتِ**﴾ اَلْخَيْلِ تُورِي اَلنَّارَ ﴿**قَدۡحٗا** ٢﴾ بِحَوَافِرِهَا، إِذَا سَارَتْ فِي اَلْأَرْضِ ذَاتِ اَلْحِجَارَةِ بِاللَّيْلِ. ﴿**فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا** ٣﴾ اَلْخَيْلِ تُغِيرُ عَلَى اَلْعَدُوِّ وَقْتَ اَلصُّبْحِ بِإِغَارَةِ أَصْحَابِهَا. ﴿**فَأَثَرۡنَ**﴾ هَيَّجْنَ ﴿**بِهِۦ**﴾ بِمَكَانِ عَدْوِهِنَّ أَوْ بِذَلِكَ اَلْوَقْتِ ﴿**نَقۡعٗا** ٤﴾ غُبَارًا بِشِدَّةِ حَرَكَتِهِنَّ. ﴿**فَوَسَطۡنَ بِهِۦ**﴾ بِالنَّقْعِ ﴿**جَمۡعًا** ٥﴾ مِنَ اَلْعَدُوِّ، أَيْ: صِرْنَ وَسَطَهُ، وَعُطِفَ اَلْفِعْلُ عَلَى اَلِاسْمِ؛ لِأَنَّهُ فِي تَأْوِيلِ اَلْفِعْلِ، أَيْ: وَاللَّاتِي عَدَوْنَ فَأَوْرَيْنَ فَأَغَرْنَ. ﴿**إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ**﴾ اَلْكَافِرَ ﴿**لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ** ٦﴾ لَكَفُورٌ يَجْحَدُ نِعْمَتَهُ تَعَالَى. ﴿**وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ**﴾ أَيْ: كُنُودِهِ ﴿**لَشَهِيدٞ** ٧﴾ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ بِصُنْعِهِ. ﴿**وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ**﴾ أَيْ: اَلْمَالِ ﴿**لَشَدِيدٌ** ٨﴾ أَيْ: لَشَدِيدُ اَلْحُبِّ لَهُ، فَيَبْخَلُ بِهِ. ﴿***أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ**﴾ أُثِيرَ وَأُخْرِجَ ﴿**مَا فِي ٱلۡقُبُورِ** ٩﴾ مِنْ اَلْمَوْتَى، أَيْ: بُعِثُوا ﴿**وَحُصِّلَ**﴾ بُيِّنَ وَأُفْرِزَ ﴿**مَا فِي ٱلصُّدُورِ** ١٠﴾ اَلْقُلُوبِ مِنَ اَلْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ(١). ﴿**إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ** ١١﴾ لَعَالِمٌ فَيُجَازِيهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، أُعِيدَ اَلضَّمِيرُ جَمْعًا نَظَرًا لِمَعْنَى اَلْإِنْسَانِ، وَهَذِهِ اَلْجُمْلَةُ دَلَّتْ عَلَى مَفْعُولِ ﴿يَعۡلَمُ﴾، أَيْ: إِنَّا نُجَازِيهِ وَقْتَ مَا ذُكِرَ، وَتَعَلَّقَ «خَبِيرٌ» بِـ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، وَهُوَ تَعَالَى خَبِيرٌ دَائِمًا؛ لِأَنَّهُ يَوْمُ اَلْمُجَازَاةِ.

---

(١) أي: ما في القلوب من النيات وأعمال القلب؛ كالتوكل، والرغبة، والرهبة، والخوف، والرجاء، وما أشبه ذلك. وهنا جعل الله عز وجل العمدة ما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾ [الطارق: ٩-١٠]؛ لأنه في الدنيا يعامل الناس معاملة الظاهر، حتى المنافق يعامل كما يعامل المسلم حقا، لكن في الآخرة العمل على ما في القلب، ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا قبل كل شيء، قبل الأعمال؛ لأن القلب هو الذي عليه المدار، وهو الذي سيكون الجزاء عليه يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٢٩٤)]. ونص على الصدور هنا، مع أن المراد القلوب؛ لأنها هي مناط العمل ومعقد النية. والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية، كما في حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ». أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧). وحديث: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩). ومما يدل على أن المراد بالصدور ما فيها هو القلب. قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. [عطية سالم (٩/ ٦٨)].

سُورَةُ القَارِعَةِ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١﴾ الْقِيامَةُ الَّتِي تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا[1]. ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢﴾ تَهْوِيلٌ لِشَأْنِهَا، وَهُمَا مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، خَبَرُ ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ زِيَادَةُ تَهْوِيلٍ لَهَا، وَ ﴿مَا﴾ الْأُولَى مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهَا خَبَرُهُ، وَ ﴿مَا﴾ الثَّانِيَةُ وَخَبَرُهَا فِي مَحَلِّ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لِـ «أَدْرَى». ﴿يَوۡمَ﴾ نَاصِبُهُ دَلَّ عَلَيْهِ ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾، أَيْ: تَقْرَعُ. ﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ كَغَوْغَاءِ الْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ لِلْحِيرَةِ، إِلَى أَنْ يُدْعَوْا لِلْحِسَابِ[2]. ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ كَالصُّوفِ الْمَنْدُوفِ فِي خِفَّةِ سَيْرِهَا، حَتَّى تَسْتَوِيَ مَعَ الْأَرْضِ[3]. ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ بِأَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧﴾ فِي الْجَنَّةِ، أَيْ: ذَاتِ رِضًى بِأَنْ يَرْضَاهَا، أَيْ: مَرْضِيَّةٍ لَهُ. ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ بِأَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ. ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ فَمَسْكَنُهُ[4] ﴿هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠﴾ أَيْ: مَا هَاوِيَةٌ؟ هِيَ: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾ شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ، وَهَاءُ ﴿هِيَهۡ﴾ لِلسَّكْتِ تُثْبَتُ وَصْلًا وَوَقْفًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: تُحْذَفُ وَصْلًا.

---

(١) قال أبو السعود: القرع هو الضرب بشدة واعتماد، بحيث يحصل منه صوت شديد، وهي القيامة. سميت بها لأنها تفزع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال: السماء بالانشقاق والانفطار، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار، والأرض بالزلزال والتبديل، والجبال بالدك والنسف. [القاسمي (٩/ ٥٣١)].

(٢) الفراش هو الطير الصغير الذي يشبه البعوض، ويدور حول المصباح. والمبثوث هو المنتشر المفترق. شبه الله الخلق يوم القيامة به في كثرتهم وانتشارهم وذلتهم، ... قال بعض العلماء: الناس في أول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث، لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر؛ فيكونون حينئذ ﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: ٧]. لأن الجراد يقصد إلى جهة واحدة. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥٠٧)].

(٣) انظر مراحل إزالة الجبال التعليق على آية (٤٧) من سورة الكهف.

(٤) قيل: معناه: فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم. وعبر عنه بأمه، يعني: دماغه، روي نحو هذا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعكرمة، وأبي صالح، وقتادة ... وقيل: معناه: ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها ﴿هَاوِيَةٞ﴾ وهي اسم من أسماء النار. قال ابن جرير: وإنما قيل: للهاوية أمه؛ لأنه لا مأوى له غيرها. وقال ابن زيد: الهاوية: النار، هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها، وقرأ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١]. [ابن كثير (٨/ ٤٦٨)].

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

مَكِّيَّةٌ، ثَمَانُ آيَاتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ شَغَلَكُمْ عَنْ طَاعَةِ اَللهِ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾ اَلتَّفَاخُرُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالرِّجَالِ[1]. ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ②﴾ بِأَنْ مُتُّمْ فَدُفِنْتُمْ فِيهَا، أَوْ عَدَدْتُمُ اَلْمَوْتَى تكَاثُرًا[2]. ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ③﴾ سُوءَ عَاقِبَةِ تَفَاخُرِكُمْ عِنْدَ اَلنَّزْعِ ثُمَّ فِي اَلْقَبْرِ. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ④ كَلَّا﴾ حَقًّا ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ⑤﴾ عِلْمًا يَقِينًا عَاقِبَةَ اَلتَّفَاخُرِ مَا اِشْتَغَلْتُمْ بِهِ. ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ⑥﴾ اَلنَّارَ، جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، وَحُذِفَ مِنْهُ لَامُ اَلْفِعْلِ وَعَيْنُهُ وَأُلْقِيَتْ حَرَكَتُهَا عَلَى اَلرَّاءِ. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تَأْكِيدٌ ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ⑦﴾ مَصْدَرٌ؛ لِأَنَّ «رَأَى» وَ«عَايَنَ» بِمَعْنًى وَاحِدٍ[3]. ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ اَلرَّفْعِ لِتَوَالِي اَلنُّونَاتِ وَوَاوُ ضَمِيرِ اَلْجَمْعِ لِالْتِقَاءِ اَلسَّاكِنَيْنِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ يَوْمَ رُؤْيَتِهَا ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ ⑧﴾ مَا اُلْتُذَّ بِهِ فِي اَلدُّنْيَا مِنَ اَلصِّحَّةِ وَالْفَرَاغِ وَالْأَمْنِ وَالْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

---

(١) الخطاب هنا لجميع الأمة، إلا أنه يخصص بمن شغلتهم أمور الآخرة عن أمور الدنيا وهم قليل، وإنما نقول: هم قليل؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة: «يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ أَوْ بَعْثَ النَّارِ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِئَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ». أخرجه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢٢) ... إذاً فالخطاب بالعموم في مثل هذه الآية جار على أصله؛ لأن الواحد من الألف ليس بشيء بالنسبة إليه. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٣٠١)].

(٢) والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ». فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، قال: «فَنَعَمْ إِذًا». أخرجه البخاري (٥٦٦٢). [ابن كثير (٨/ ٤٧٣)]. قال الشهاب: وفيها إشارة إلى تحقق البعث؛ لأن الزائر لا بد من انصرافه عما زاره، ولذا قال بعض الأعراب لما سمعها: بعثوا ورب الكعبة، وقال ابن عبد العزيز: لا بد لمن زار، أن يرجع إلى جنة أو نار. وسمى بعض البلغاء المقبرة دهليز الآخرة. [القاسمي (٩/ ٥٣٣)].

(٣) المراتب ثلاث، علم يقين يحصل عن الخبر، ثم تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر، حتى يصير العلم به عين يقين، ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين، فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين، فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف، وبرزت الجحيم للغاوين، وشاهدوهما عيانا، كان ذلك عين يقين، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ⑦﴾ فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فذلك حق اليقين. [مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١١٩)].

سُورَةُ العَصْرِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثُ آيَاتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ١﴾ اَلدَّهْرِ أَوْ مَا بَعْدَ اَلزَّوَالِ إِلَى اَلْغُرُوبِ أَوْ صَلَاةِ اَلْعَصْرِ(١). ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اَلْجِنْسَ ﴿لَفِى خُسْرٍ ٢﴾ فِي تِجَارَتِهِ(٢). ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فَلَيْسُوا فِي خُسْرَانٍ ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أَيْ: اَلْإِيمَانِ ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ عَلَى اَلطَّاعَةِ وَعَنِ اَلْمَعْصِيَةِ(٣).

---

(١) العصر هو الزمان، وهذا هو الأصح، أقسم الله به لما يقع فيه من اختلاف الأحوال، وتقلبات الأمور، ومداولة الأيام بين الناس، وغير ذلك مما هو مشاهد في الحاضر ومتحدث عنه في الغابر، فالعصر هو الزمان الذي يعيشه الخلق، وتختلف أوقاته شدة ورخاء، وحربا وسلما، وصحة ومرضا، وعملا صالحا وعملا سيئا، إلى غير ذلك. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٣٠٧)].

(٢) معناه: لفي غبن، ويقال: في شر، ويقال: في هلاك، والخسران هو ذهاب رأس المال، ورأس مال الآدمي هو عمره ونفسه، فإذا كفر فقد ذهب رأس ماله، والإنسان هو الكافر. [السمعاني (٦/٢٧٨)]. واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة، وتقريره أن سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة، وهي الحواس الخمس والشهوة والغضب، فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها، فكانوا في الخسران والبوار، فإن قيل: إنه تعالى قال في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ [التين: ٤-٥] فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال، والانتهاء إلى النقصان، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاء إلى الكمال، فكيف وجه الجمع ؟ قلنا: المذكور في سورة التين أحوال البدن، وههنا أحوال النفس فلا تناقض بين القولين. [الرازي (٣٢/ ٢٨٠)].

(٣) التواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه. والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين، يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم. [السعدي (ص:٩٣٤)]. قال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة، لوسعتهم. [ابن كثير (٨/ ٤٧٩)].

سُورَةُ الهُمَزَةِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، تِسْعُ آيَاتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ، أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ①﴾ أَيْ: كَثِيرِ الْهَمْزِ وَاللَّمْزِ، أَيِ: الْغِيبَةِ، نَزَلَتْ فِيمَنْ كَانَ يَغْتَابُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، كَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَغَيْرِهِمَا[1]. ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ②﴾ أَحْصَاهُ وَجَعَلَهُ عُدَّةً لِحَوَادِثِ الدَّهْرِ. ﴿يَحْسَبُ﴾ لِجَهْلِهِ ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ③﴾ جَعَلَهُ خَالِدًا لَا يَمُوتُ. ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: لَيُطْرَحَنَّ ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ ④﴾ الَّتِي تَحْطِمُ كُلَّ مَا أُلْقِيَ فِيهَا. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا ٱلْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ⑥﴾ الْمُسَعَّرَةُ. ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ﴾ تُشْرِفُ ﴿عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ⑦﴾ الْقُلُوبِ فَتُحْرِقُهَا، وَأَلَمُهَا أَشَدُّ مِنْ أَلَمِ غَيْرِهَا لِلُطْفِهَا[2]. ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم﴾ جَمَعَ الضَّمِيرَ رِعَايَةً لِمَعْنَى «كُلٍّ» ﴿مُّؤْصَدَةٌ ⑧﴾ بِالْهَمْزِ وَبِالْوَاوِ بَدَلَهُ: مُطْبَقَةٌ. ﴿فِى عَمَدٍ﴾ بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ وَبِفَتْحِهِمَا ﴿مُّمَدَّدَةٍۭ ⑨﴾ صِفَةٌ لِمَا قَبْلَهُ، فَتَكُونُ النَّارُ دَاخِلَ الْعَمَدِ[3].

---

(١) قال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح: «الهمزة» الذي يغتاب الرجل في وجهه، و«اللمزة» الذي يغتابه من خلفه ... وعن مجاهد أيضاً: أن «الهمزة» الذي يهمز الناس بيده، و«اللمزة» الذي يلمزهم بلسانه. وقال سفيان الثوري: يهمزهم بلسانه ويلمزهم بعينه، وقال ابن كيسان: «الهمزة» الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، و«اللمزة» الذي يكسر عينه على جليسه ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ... وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب، ويدخل في ذلك من يحاكي الناس في أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه... والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك ولا ينافيه نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. [صديق حسن (١٥/ ٣٨١)].

(٢) قال الزمخشري: يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب. ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألما منه بأدنى أذى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه. ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها موطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة. [القاسمي (٩/ ٥٤٠)].

(٣) صفة لمؤصدة، أو حال من الضمير المجرور، وإلى الوجهين أشار الزمخشري بقوله: والمعنى أنه يؤكد يأسهم من الخروج، وتيقنهم بحبس الأبد، فتؤصد عليهم الأبواب، وتمدد على العمد، استيثاقا في استيثاق. ويجوز أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة، موثقين في عمد ممدة، مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص. و«المقاطر» جمع مقطرة بالفتح، وهي جذع كبير فيه خروق يوضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص ونحوهم، وتقطر أي: يجعل كل بجنب آخر. [القاسمي (٩/ ٥٤٠)].

سُورَةُ الفِيلِ

مَكِّيَّةٌ، خَمْسُ آيَاتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ اِسْتِفْهَامُ تَعَجُّبٍ، أَيِ: اِعْجَبْ[1] ﴿كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ هُوَ مَحْمُودٌ، وَأَصْحَابُهُ أَبْرَهَةُ مَلِكُ الْيَمَنِ وَجَيْشُهُ، بَنَى بِصَنْعَاءَ كَنِيسَةً لِيَصْرِفَ إِلَيْهَا الْحَاجَّ عَنْ مَكَّةَ، فَأَحْدَثَ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ فِيهَا، وَلَطَّخَ قِبْلَتَهَا بِالْعَذِرَةِ احْتِقَارًا بِهَا، فَحَلَفَ أَبْرَهَةُ لَيَهْدِمَنَّ الْكَعْبَةَ، فَجَاءَ مَكَّةَ بِجَيْشِهِ عَلَى أَفْيَالِ الْيَمَنِ مُقَدَّمُهَا مَحْمُودٌ، فَحِينَ تَوَجَّهُوا لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا قَصَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ﴾ أَيْ: جَعَلَ ﴿كَيۡدَهُمۡ﴾ فِي هَدْمِ الْكَعْبَةِ ﴿فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢﴾ خَسَارَةٍ وَهَلَاكٍ. ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ، قِيلَ: لَا وَاحِدَ لَهُ كَـ«أَسَاطِيرَ»، وَقِيلَ: وَاحِدُهُ «إِبَّوْلٌ» أَوْ «إِبَّالٌ» أَوْ «إِبِّيلٌ» كَعِجَّوْلٍ وَمِفْتَاحٍ وَسِكِّينٍ[2]. ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤﴾ طِينٍ مَطْبُوخٍ[3]. ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾ كَوَرَقِ زَرْعٍ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ وَدَاسَتْهُ وَأَفْنَتْهُ، أَيْ: أَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَى كُلَّ وَاحِدٍ بِحَجَرِهِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهِ اسْمُهُ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْعَدَسَةِ وَأَصْغَرُ مِنَ الْحِمَّصَةِ، يَخْرِقُ الْبَيْضَةَ وَالرَّجُلَ وَالْفِيلَ وَيَصِلُ إِلَى الْأَرْضِ، وَكَانَ هَذَا عَامَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ[4].

---

(١) الاستفهام بتقرير رؤيته ﷺ بإنكار عدمها، والمراد بالرؤية هنا رؤية القلب، وهي العلم عبر عنه بالرؤية لكونه علمـًا ضروريـًا مساويـًا في القوة والجلاء للمشاهدة والعيان، وحذفت الألف من ﴿تَرَ﴾ للجازم، قال الفراء المعنى: ألم تخبر، وقال الزجاج ألم تعلم. وهو تعجيب له ﷺ بما فعله الله ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة. [صديق حسن (١٥/ ٣٨٩)].

(٢) كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضا. وقيل: أقاطيع كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة. أبابيل جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل من هاهنا وهاهنا. قال الفراء: لا واحد لها من لفظها. وقيل: واحدها إبالة. وقال الكسائي: إني كنت أسمع النحويين يقولون: واحدها أبول، مثل عجول وعجاجيل. وقيل: واحدها من لفظها إبيل. [البغوي (٨/ ٥٤٠)].

(٣) من طين متحجر معرب «سِنْكِ كُلْ»، وقيل: من السجل وهو الدلو الكبير، أو من الإسجال وهو الإرسال، أو من السجل ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدون. [البيضاوي (٥/ ٣٣٩)].

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ولد النبي ﷺ عام الفيل، قال القرطبي: أي قبل مولده لخمسين يومـًا، قال الخازن: وهذا هو القول الأصح، فإنهم يقولون ولد عام الفيل، ويجعلونه تاريخـًا لمولده ﷺ. وعن قيس بن محرم قال ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل. [صديق حسن (١٥/ ٣٩٣)].

سُورَةُ قُرَيْشٍ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، أَرْبَعُ آيَاتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ①﴾ إِۦلَٰفِهِمْ﴾ تَأْكِيدٌ، وَهُوَ مَصْدَرُ «آلَفَ» بِالْمَدِّ[1] ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ﴾ إِلَى اَلْيَمَنِ ﴿وَ﴾ رِحْلَةَ ﴿ٱلصَّيْفِ ②﴾ إِلَى اَلشَّامِ فِي كُلِّ عَامٍ، يَسْتَعِينُونَ بِالرِّحْلَتَيْنِ لِلتِّجَارَةِ عَلَى اَلْمُقَامِ بِمَكَّةَ لِخِدْمَةِ اَلْبَيْتِ اَلَّذِي هُوَ فَخْرُهُمْ وَهُمْ وَلَدُ اَلنَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ. ﴿فَلْيَعْبُدُواْ﴾ تَعَلَّقَ بِهِ ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ وَالْفَاءُ زَائِدَةٌ[2] ﴿رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أَيْ: مِنْ أَجْلِهِ ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④﴾ أَيْ: مِنْ أَجْلِهِ، وَكَانَ يُصِيبُهُمُ اَلْجُوعُ لِعَدَمِ اَلزَّرْعِ بِمَكَّةَ، وَخَافُوا جَيْشَ اَلْفِيلِ[3].

---

(١) الإيلاف: قيل من التأليف، إذ كانوا في رحلتيهم يألفون الملوك في الشام واليمن، أو كانوا هم في أنفسهم مؤلفين ومجمعين، وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف، ولو سلط عليهم لفرقهم وشتتهم، ... وقيل: من الإلف والتعود، أي: ألفوا الرحلتين. فللإبقاء لهم على ما ألفوه.. [عطية سالم (٩/ ١١٠)].

(٢) شكرا له على هذه النعمة، والفاء هذه إما أن تكون فاء السببية؛ أي: فبسبب هاتين الرحلتين ليعبدوا رب هذا البيت، أو تكون فاء التفريع، أي: فبهذه النعم العظيمة يجب عليهم أن يعبدوا الله. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٣٢٢)].

(٣) معناه أن أهل مكة قاطنون بواد غير ذي زرع عرضة للجوع والجدب لولا لطف الله تعالى وأن جعلها بدعوة إبراهيم عليه السلام تجبى إليها ثمرات كل شيء، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: جعلهم لحرمة البيت مفضلين عند العرب يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدرج المخاوف. [ابن عطية (٥/ ٥٢٦)]. وفي الجمع بين إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف، نعمة عظمى لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معا، إذ لا عيش مع الجوع، ولا أمن مع الخوف، وتكمل النعمة باجتماعهما. ولذا جاء الحديث: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا». أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١). [عطية سالم (٩/ ١١٢)].

سُورَةُ المَاعُونِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ أَوْ نِصْفُهَا وَنِصْفُهَا، سِتٌّ أَوْ سَبْعُ آيَاتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ①﴾ بِالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، أَيْ: هَلْ عَرَفْتَهُ وَإِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ. ﴿فَذَٰلِكَ﴾ بِتَقْدِيرِ «هُوَ» بَعْدَ الْفَاءِ ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ②﴾ أَيْ: يَدْفَعُهُ بِعُنْفٍ عَنْ حَقِّهِ. ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ نَفْسَهُ وَلَا غَيْرَهُ ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③﴾ أَيْ: إِطْعَامِهِ، نَزَلَتْ فِي الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ أَوِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ(١). ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤﴾ غَافِلُونَ يُؤَخِّرُونَهَا عَنْ وَقْتِهَا(٢). ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ⑥﴾ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا(٣). ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ⑦﴾ كَالْإِبْرَةِ وَالْفَأْسِ وَالْقِدْرِ وَالْقَصْعَةِ(٤).

---

(١) وقيل: عام لكل من كان مكذبا بيوم الدين، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب والرهبة عن العقاب، فإذا كان منكرا للقيامة لم يترك شيئا من المشتهيات واللذات، فثبت أن إنكار القيامة كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي ... واعلم أنه تعالى ذكر في تعريف من يكذب بالدين وصفين: أحدهما: من باب الأفعال وهو قوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾. والثاني: من باب التروك وهو قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ... كأنه تعالى ذكر في كل واحد من القسمين مثالا واحدا تنبيها بذكره على سائر القبائح [الرازي (٣٢/ ٣٠٢)].

(٢) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره: يعني المنافقين، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعا، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق، وأبو الضحى. وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا... قال ﷺ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا». أخرجه مسلم (٦٢٢). قال عطاء بن دينار: والحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهم ساهون. [ابن كثير (٨/ ٤٩٣)].

(٣) أي: يري الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تقية، كالفاسق، يري أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال: إنه يصلي. وحقيقة الرياء: طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله: طلب المنزلة في قلوب الناس. [القرطبي (٢٠/ ٢١٢)].

(٤) وصف لهم بالبخل وقلة المنفعة للناس. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥١٦)]. وأكثر المفسرين [على أن] الماعون اسم لما يتعاوره الناس بينهم من الدلو والفأس والقدر، وما لا يمنع كالماء والملح ... عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم. وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفأس وشبهه فيمنعونهم فأنزل الله ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾. [صديق حسن (١٥/ ٤٠٥)].

سُورَةُ الكَوْثَرِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثُ آيَاتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ٱلْكَوْثَرَ ①﴾ هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، هُوَ حَوْضُهُ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتُهُ، وَالْكَوْثَرُ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْقُرْآنِ وَالشَّفَاعَةِ وَنَحْوِهَا(١). ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ صَلَاةَ عِيدِ النَّحْرِ ﴿وَٱنْحَرْ ②﴾ نُسُكَكَ(٢). ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أَيْ: مُبْغِضَكَ ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ③﴾ الْمُنْقَطِعُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ، أَوِ الْمُنْقَطِعُ الْعَقِبِ، نَزَلَتْ فِي الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ سَمَّى النَّبِيَّ ﷺ أَبْتَرَ عِنْدَ مَوْتِ ابْنِهِ الْقَاسِمِ(٣).

---

(١) هذا خطاب للنبي ﷺ، والكوثر بناء مبالغة من الكثرة وفي تفسيره أقوال ... ولكن الصحيح أن المراد بالكوثر الحوض لما ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما الكوثر؟ هو نهر أعطانيه الله وهو الحوض آنيته عدد نجوم السماء. [أخرجه مسلم (٤٠٠) بلفظ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ ... نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ»]. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥١٧)].

(٢) ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات. ولأن الصلاة تتضمن خضوع القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به. [السعدي (ص:٩٣٥)].

(٣) في هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى: أن مبغض رسول الله ﷺ هو الأقطع. فقيل: نزلت في العاص بن وائل. قال لقريش: دعوه، فإنه أبتر لا عقب له، إذا مات استرحتم، فأنزلها الله تعالى ردا عن رسول الله ﷺ. وقد جاء مصداقها بالفعل في قوله تعالى في غزوة بدر: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] فقتل صناديد قريش، وصدق الوعيد فيهم. ومثله عموم قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. وجاء: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]. فهي في معناها أيضا. وبقي ذكر رسول ﷺ في عقبه من آل بيته، وفي أمته كلها. كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. [عطية سالم (٩/ ١٣١)].

وأصل البتر القطع وشاع في قطع الذنب؛ وقيل لمن لا عقب له: أبتر على الاستعارة، شبه الولد والأثر الباقي بالذنب لكونه خلفه فكأنه بعده،... وحمل ﴿شَانِئَكَ﴾ على الجنس هو الظاهر... والجمهور على نزولها في العاص بن وائل، وأيا ما كان فلا ريب في ظهور عموم الحكم والجملة كالتعليل لما يفهمه الكلام؛ فكأنه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم فصل وانحر خالصا لوجه ربك ولا تكترث بقول الشانئ الكريه؛ فإنه هو الأبتر لا أنت، ... وفي التعبير بالأبتر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة. [الآلوسي (١٥/ ٤٨١)].

سُورَةُ الكَافِرُونَ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، سِتُّ آيَاتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ﴾ فِي اَلْحَالِ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ مِنَ اَلْأَصْنَامِ. ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ فِي اَلْحَالِ ﴿مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ وَهُوَ اَللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ. ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ فِي اَلِاسْتِقْبَالِ ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ فِي اَلِاسْتِقْبَالِ ﴿مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ عَلِمَ اَللهُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِطْلَاقُ «مَا» عَلَى اَللهِ عَلَى وَجْهِ اَلْمُقَابَلَةِ. ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ اَلشِّرْكُ ﴿وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ اَلْإِسْلَامُ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْحَرْبِ، وَحَذَفَ يَاءَ اَلْإِضَافَةِ اَلْقُرَّاءُ اَلسَّبْعَةُ وَقْفًا وَوَصْلًا، وَأَثْبَتَهَا يَعْقُوبُ فِي اَلْحَالَيْنِ(١).

---

(١) هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ... فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه؛ ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقال: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [القصص: ٥٥]. [هذا قول] والثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ في الماضي، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥﴾ في المستقبل. والثالث: أن ذلك تأكيد محض. وثم قول رابع، نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلا لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضا. وهو قول حسن أيضا، والله أعلم. [ابن كثير (٨/ ٥٠٧)]. وقد غلط في السورة خلائق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ فيها. وهذه السورة أخلصت للتوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص، والآية اقتضت البراءة المحضة وإن ما أنتم عليه من الدين لا أوافقكم عليه فإنه دين باطل، فهو مختص بكم لا نشرككم فيه، ولا تشركوننا في ديننا الحق، فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم. [بدائع الفوائد لابن القيم (١/ ٢٤٧)].

سُورَةُ النَّصْرِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثُ آيَاتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى أَعْدَائِهِ ﴿وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فَتْحُ مَكَّةَ. ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أَيِ: الْإِسْلَامِ ﴿أَفۡوَاجٗا ٢﴾ جَمَاعَاتٍ، بَعْدَ مَا كَانَ يَدْخُلُ فِيهِ وَاحِدٌ وَاحِدٌ وَذَلِكَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، جَاءَهُ الْعَرَبُ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ طَائِعِينَ(١). ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أَيْ: مُتَلَبِّسًا بِحَمْدِهِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ وَكَانَ ﷺ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ اللهِ، وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، وَعَلِمَ بِهَا أَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ(٢)، وَكَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ، وَتُوُفِّيَ ﷺ فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ عَشْرٍ.

---

(١) هذا الفتح سماه الله تعالى فتحا مبينا فقال: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١] أي: بينا عظيما واضحا. ولما حصل عرف العرب بل عرف الناس جميعا أن العاقبة لمحمد ﷺ، وأن دور قريش وأتباعها قد انقضى، فصار الناس ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ أي: جماعات، بعدما كانوا يدخلون فيه أفرادا، ولا يدخل فيه الإنسان في بعض الأحيان إلا مختفيا، صاروا يدخلون أفواجا في دين الله، وصارت الوفود ترد على النبي ﷺ في المدينة من كل جانب، حتى سمي العام التاسع عام الوفود. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٣٤٠)].

(٢) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه فقال: «خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِن قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾، فَتْحُ مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾». أخرجه مسلم (٤٨٤). [قال عطية سالم (٩/ ١٤٢):] في هذه الآية دلالة الإيماء، كما قالوا: ودلالة الالتزام كما جاء عن ابن عباس في قصة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع كبار المهاجرين والأنصار، حينما كان يسمح له بالجلوس معهم، ويرى في وجوههم، وسألوه وقالوا: إن لنا أولادا في سنه، فقال: إنه من حيث علمتم. وفي يوم اجتمعوا عنده فدعاه عمر، قال ابن عباس: فعلمت أنه ما دعاني إلا لأمر، فسألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ السورة. فقالوا: إنها بشرى بالفتح وبالنصر، فقال: ما تقول أنت يا ابن عباس؟ قال: فقلت، لا والله، إنها نعت إلينا رسول الله ﷺ وهو بين أظهرنا. فقال عمر: وأنا لا أعرف فيها إلا كما قلت، أي: أنه ﷺ جاء لمهمة، وقد تمت بمجيء النصر والفتح والدخول في الدين أفواجا، وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة. فعليه أن يتأهب لملاقاة ربه ليلقى جزاء عمله، وهو مأخذ في غاية الدقة، وبيان لقول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أو فهم أعطاه الله من شاء في كتاب الله.

سُورَةُ المَسَدِ

مَكِّيَّةٌ، خَمْسُ آيَاتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمَّا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ قَوْمَهُ وَقَالَ: «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ: «تَبًّا لَكَ أَلِهَذَا دَعَوْتَنَا»، نَزَلَ[١]: ﴿تَبَّتۡ﴾ خَسِرَتْ ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ أَيْ: جُمْلَتُهُ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْيَدَيْنِ مَجَازًا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تُزَاوَلُ بِهِمَا[٢]، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ دُعَاءٌ ﴿وَتَبَّ ١﴾ خَسِرَ هُوَ، وَهَذِهِ خَبَرٌ، كَقَوْلِهِمْ: أَهْلَكَهُ اللهُ وَقَدْ هَلَكَ. وَلَمَّا خَوَّفَهُ النَّبِيُّ بِالْعَذَابِ، فَقَالَ: «إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا فَإِنِّي أَفْتَدِي مِنْهُ بِمَالِي وَوَلَدِي»، نَزَلَ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ أَيْ: وَكَسْبُهُ، أَيْ: وَلَدُهُ وَ﴿أَغۡنَىٰ﴾ بِمَعْنَى: يُغْنِي. ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣﴾ أَيْ: تَلَهُّبٍ وَتَوَقُّدٍ، فَهِيَ مَآلُ تَكْنِيَتِهِ لِتَلَهُّبِ وَجْهِهِ إِشْرَاقًا وَحُمْرَةً. ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ عَطْفٌ عَلَى ضَمِيرِ «يَصْلَى» سَوَّغَهُ الْفَصْلُ بِالْمَفْعُولِ وَصِفَتِهِ، وَهِيَ أُمُّ جَمِيلٍ ﴿حَمَّالَةَ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ ﴿ٱلۡحَطَبِ ٤﴾ الشَّوْكِ وَالسَّعْدَانِ، تُلْقِيهِ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ[٣]. ﴿فِي جِيدِهَا﴾ عُنُقِهَا ﴿حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ أَيْ: لِيفٍ[٤]، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ الَّذِي هُوَ نَعْتٌ لِـ «امْرَأَتِهِ»، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مُقَدَّرٍ[٥].

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: «يَا صَبَاحَاهُ»، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثتكم أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ، أو مُمَسِّيكُمْ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟» قالوا: نعم. قال: «فَإِنِّي نذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٌ شَدِيدٍ»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبا لك. فأنزل الله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها. أخرجه البخاري (٤٩٧٢).

(٢) وقيل: المراد باليدين نفسه، وقد يعبر باليد عن النفس كما في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. [الشوكاني (٥/ ٦٢٧)].

(٣) عن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والثوري، والسدي: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ كانت تمشي بالنميمة، واختاره ابن جرير. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعطية الجدلي، والضحاك، وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ... والصحيح الأول، والله أعلم. [ابن كثير (٨/ ٥١٥)].

(٤) أي: في عنقها حبل من الليف، أي: أنها في تكليف نفسها المشقة الفادحة، للإفساد بين الناس وتأريث نيران العداوة بينهم، بمنزلة حامل الحطب الذي في عنقه حبل خشن، يشد به ما حمله إلى عنقه، حتى يستقل به. وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة... وقد أنزل الله في أبي لهب وفي زوجته هذه السورة، ليكون مثلا يعتبر به من يعادي ما أنزل الله على نبيه؛ مطاوعة لهواه وإيثارا لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال. [القاسمي (٩/ ٥٦٥)].

(٥) في هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة. [السعدي (ص:٩٣٦)].

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، أَرْبَعُ أَوْ خَمْسُ آيَاتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُئِلَ اَلنَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ، فَنَزَلَ: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ①﴾ فَاللهُ خَبَرُ ﴿هُوَ﴾ وَأَحَدُ بَدَلٌ مِنْهُ، أَوْ خَبَرٌ ثَانٍ(١). ﴿**ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ** ②﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، أَيِ: اَلْمَقْصُودُ فِي اَلْحَوَائِجِ عَلَى اَلدَّوَامِ(٢). ﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾ لِانْتِفَاءِ مُجَانَسَتِهِ ﴿**وَلَمْ يُولَدْ** ③﴾ لِانْتِفَاءِ اَلْحُدُوثِ عَنْهُ(٣). ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ** ④﴾ أَيْ: مُكَافِئًا وَمُمَاثِلًا(٤)، وَ ﴿لَّهُۥ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿كُفُوًا﴾ وَقُدِّمَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مَحَطُّ اَلْقَصْدِ بِالنَّفْيِ، وَأُخِّرَ ﴿أَحَدٌ﴾ وَهُوَ اِسْمُ ﴿يَكُن﴾ عَنْ خَبَرِهَا رِعَايَةً لِلْفَاصِلَةِ.

---

(١) أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل. [السعدي (ص:٩٣٧)].

(٢) المعنى الجامع لـ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو: الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٣٤٩)].

(٣) ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ هذا رد على كل من جعل لله ولدا فمنهم النصارى في قولهم: «عيسى ابن الله»، واليهود في قولهم: «عزير ابن الله»، والعرب في قولهم: «الملائكة بنات الله»، وقد أقام الله البراهين في القرآن على نفي الولد، وأوضحها أربعة أقوال: الأول: أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده. والله تعالى ليس له جنس فلا يمكن أن يكون له ولد وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فوصفهما بصفة الحدوث لينفي عنهما صفة القدم فتبطل مقالة الكفار. والثاني: أن الوالد إنما يتخذ ولدا للحاجة إليه، والله لا يفتقر إلى شيء فلا يتخذ ولدا وإلى هذا أشار بقوله: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [يونس: ٦٨]. الثالث: أن جميع الخلق عباد الله والعبودية تنافي البنوة وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. الرابع: أنه لا يكون له ولد إلا لمن له زوجة، والله تعالى لم يتخذ زوجة فلا يكون له ولد وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. [وقوله تعالى:] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا رد على الذين قالوا: أنسب لنا ربك، وذلك أن كل مولود محدث، والله تعالى هو الأول ... ولم يكن معه شيء غيره، فلا يمكن أن يكون مولودا تعالى عن ذلك. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥٢٤)].

(٤) قد تعددت أقوال المفسرين في معنى الآية، وكلها تدور على معنى نفي المماثلة. فعن كعب وعطاء: لم يكن له مثل ولا عديل. وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه بمعنى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وعن مجاهد: أي: لا صاحبة له. وقد جاء نفي الكفء والمثل والند والعدل، فالكفء في هذه السورة، والمثل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. والند في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. والعدل في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. أي: يساوونه بغيره من العِدل بكسر أوله، وهو أحد شقي حمل البعير على أحد التفسيرين، والآخر من العُدول عنه إلى غيره. [عطية سالم (٩/ ١٥٤)].

سُورَةُ الفَلَقِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، خَمْسُ آيَاتٍ.

نَزَلَتْ هَذِهِ اَلسُورَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا لَمَّا سَحَرَ لَبِيدٌ اَلْيَهُودِيُّ اَلنَّبِيَّ ﷺ، فِي وَتْرٍ بِهِ إِحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً، فَأَعْلَمَهُ اَللهُ بِذَلِكَ وَبِمَحَلِّهِ، فَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ وَأُمِرَ بِالتَّعَوُّذِ بِالسُّورَتَيْنِ، فَكَانَ كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً مِنْهَا اِنْحَلَّتْ عُقْدَةٌ وَوَجَدَ خِفَّةً، حَتَّى اِنْحَلَّتِ اَلْعُقَدُ كُلُّهَا، وَقَامَ كَأَنَّمَا نَشَطَ مِنْ عُقَالٍ(١).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾ اَلصُّبْحِ(٢). ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ②﴾ مِنْ حَيَوَانٍ مُكَلَّفٍ وَغَيْرِ مُكَلَّفٍ وَجَمَادٍ كَالسُّمِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ(٣). ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③﴾ أَيِ: اَللَّيْلِ إِذَا أَظْلَمَ وَالْقَمَرِ إِذَا غَابَ(٤). ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ اَلسَّوَاحِرِ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٢٧١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٩٣٥). وأخرجه بنحوه أحمد (١٩٢٦٧)، والنسائي (٤٠٨٠). قيل وكانت مدة سحره ﷺ أربعين يوما وقيل ستة أشهر وقيل عاما قال الحافظ ابن حجر وهو المعتمد. قال الراغب تأثير السحر في النبي ﷺ لم يكن من حيث أنه نبي، وإنما كان في بدنه حيث أنه إنسان أو بشر كما كان يأكل ويتغوط ويغضب ويشتهي ويمرض فتأثيره فيه من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي. وإنما يكون ذلك قادحا في النبوة لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع للنبوة كما أن جرحه وكسر ثنيته يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وكما لا اعتداد بما يقع في الإسلام من غلبة بعض المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الإسلام في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. قال القاضي: ولا يجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور لأنهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحار. ومذهب أهل السنة أن السحر حق وله حقيقة ويكون بالقول والفعل، ويؤلم ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين. [صديق حسن (١٥/ ٤٥٥)].

(٢) فيه أقوال: أحدها وهو الأظهر: أن الفلق هو الصبح، قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. والقول الثاني: أنه جميع الخلق. والقول الثالث: أنه بيت في النار، إذا فتح بابه صاح أهل جهنم من شدة حره، قاله كعب الحبر. والقول الرابع: جب في جهنم، قاله مجاهد. [السمعاني (٦/ ٣٠٥)].

(٣) وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاذ بخالقها، من الشر الذي فيها. [السعدي (ص:٩٣٧)].

(٤) الغاسق قيل: إنه الليل، وقيل: إنه القمر، والصحيح أنه عامٌّ لهذا وهذا، أما كونه الليل فلأن الله تعالى قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وكما نعلم جميعًا أن الليل تكثر فيه الهوام والوحوش، فلذلك استعاذ من شر الغاسق؛ أي: الليل. وأما القمر فقد

تَنفُثُ[1] ﴿فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ اَلَّتِي تَعْقِدُهَا فِي اَلْخَيْطِ تَنْفُخُ فِيهَا بِشَيْءٍ تَقُولُهُ مِنْ غَيْرِ رِيقٍ، وَقَالَ اَلزَّمَخْشَرِيُّ مَعَهُ، كَبَنَاتِ لَبِيدٍ اَلْمَذْكُورِ[2]. ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ أَظْهَرَ حَسَدَهُ وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ، كَلَبِيدٍ اَلْمَذْكُورِ مِنَ اَلْيَهُودِ اَلْحَاسِدِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَذِكْرُ اَلثَّلَاثَةِ اَلشَّامِلُ لَهَا ﴿مَا خَلَقَ﴾ بَعْدَهُ لِشِدَّةِ شَرِّهَا[3].

جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «أن النبي ﷺ أرى عائشةَ القمرَ وقال: «يَا عَائِشَةُ، اسْتَعِيذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ». أخرجه الترمذي (٣٣٦٦). وإنما كان غاسقًا لأن سُلطانه يكون في الليل. وقوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ هو معطوف على ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الغاسق من مخلوقات الله عز وجل. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص:٣٥٢)].

(١) أي: ومن شر النفوس السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط وينفثن عليها، فالنفاثات صفة للنفوس واعتبر ذلك لمكان التأنيث مع أن تأثير السحر إنما هو من جهة النفوس الخبيثة والأرواح الشريرة وسلطانه منها. وقدر بعضهم النساء موصوفا، والأول أولى ليشمل الرجال ويتضمن الإشارة السابقة ويطابق سبب النزول، فإن الذي سحره ﷺ كان رجلا على المشهور ... وقيل: أعانه بعض النساء ولكون مثل ذلك من عمل النساء وكيدهن غلب المؤنث على المذكر هنا، وهو جائز على ما فصله الخفاجي في شرح درة الغواص. [الآلوسي (١٥/ ٥٢٠)].

(٢) النفاثات هن السواحر، أي: وأعوذ برب الفلق من شر النفوس النفاثات أو النساء النفاثات والنفث النفخ كما يفعل ذلك من يرقي ويسحر، قيل: مع ريق، وقيل: بدون ريق، وهو دليل بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور أثره. والعقد جمع عقدة وذلك أنهن كن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها. [صديق حسن (١٥/ ٤٦٠)].

(٣) الحسد: تمني زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، ومعنى ﴿إِذَا حَسَدَ﴾: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، ... ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضره وهو «الغاسق والنفاثات والحاسد»، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر، وختم بالحسد ليعلم أنه أشد وأشر، وهو أول ذنب عصى الله به في السماء من إبليس وفي الأرض من قابيل، وإنما عرَّف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه لأن كل نفاثة شريرة فلذا عرفت النفاثات ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، وربما حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات، ذكره النسفي في المدارك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال: نفس ابن آدم وعينه. [صديق حسن (١٥/ ٤٦١)]. والحسد خُلُق مذموم طبعـًا وشرعـًا، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ». أخرجه ابن ماجه (٤٢١٠). ثم إن الحسد على درجات. الأولى: أن يحب الإنسان زوال النعمة عن أخيه المسلم وإن كانت لا تنتقل إليه بل يكره إنعام الله على غيره ويتألم به. الثانية: أن يحب زوال تلك النعمة لرغبته فيها رجاء انتقالها إليه. الثالثة: أن يتمنى لنفسه مثل تلك النعمة من غير أن يحب زوالها عن غيره وهذا جائز وليس بحسد وإنما هو غبطة. والحاسد يضر نفسه ثلاث مضرات: أحدها: اكتساب الذنوب لأن الحسد حرام. الثانية: سوء الأدب مع الله تعالى، فإن حقيقة الحسد كراهية إنعام الله على عبده واعتراض على الله في فعله. الثالثة: تألم قلبه من كثرة همه وغمه. [ابن جُزَيّ (٢/ ٥٢٧)].

سُورَةُ النَّاسِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، سِتُّ آيَاتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿**قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①**﴾ خَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ، خُصُّوا بِالذِّكْرِ تَشْرِيفًا لَهُمْ، وَمُنَاسَبَةً لِلِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْمُوَسْوِسِ فِي صُدُورِهِمْ. ﴿**مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③**﴾ بَدَلَانِ أَوْ صِفَتَانِ أَوْ عَطْفَا بَيَانٍ، وَأَظْهَرَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ فِيهِمَا زِيَادَةً لِلْبَيَانِ[(١)]. ﴿**مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ**﴾ الشَّيْطَانِ سُمِّيَ بِالْحَدَثِ لِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِهِ لَهُ ﴿**ٱلۡخَنَّاسِ ④**﴾ لِأَنَّهُ يَخْنِسُ: يَتَأَخَّرُ عَنِ الْقَلْبِ كُلَّمَا ذُكِرَ اللهُ[(٢)]. ﴿**ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤**﴾ قُلُوبِهِمْ إِذَا غَفَلُوا عَنْ ذِكْرِ اللهِ. ﴿**مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ⑥**﴾ بَيَانٌ لِلشَّيْطَانِ الْمُوَسْوِسِ أَنَّهُ جِنِّيٌّ وَإِنْسِيٌّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، أَوْ ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾ بَيَانٌ لَهُ، ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْوَسْوَاسِ، وَعَلَى كُلٍّ شَمَلَ شَرَّ لَبِيدٍ وَبَنَاتِهِ الْمَذْكُورِينَ، وَاعْتُرِضَ الْأَوَّلُ بِأَنَّ النَّاسَ لَا يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِهِمُ النَّاسُ إِنَّمَا يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِهِمُ الْجِنُّ، وَأُجِيبَ بِأَنَّ النَّاسَ يُوَسْوِسُونَ أَيْضًا بِمَعْنًى يَلِيقُ بِهِمْ فِي الظَّاهِرِ ثُمَّ تَصِلُ وَسْوَسَتُهُمْ إِلَى الْقَلْبِ، وَتَثْبُتُ فِيهِ بِالطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ، وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ[(٣)].

---

(١) هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية ... فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ... وقد ثبت في الصحيح أنه: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وُكِلَ بِهِ قَرِينَةٌ». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ». أخرجه مسلم (٢٨١٤). وثبت في الصحيح، عن أنس في قصة زيارة صفية النبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلا ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا، فقال رسول الله: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ». فقالا سبحان الله، يا رسول الله. فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا»، أو قال: «شَرًّا». أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٤). [ابن كثير (٨/ ٥٣٩)].

(٢) لا يخفى ما بين هذين الوصفين اللذين وصف بهما هذا اللعين الخبيث من التنافي، لأن الوسواس كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس. والجواب أن لكل مقام مقالا، فهو وسواس عند غفلة العبد عن ذكر ربه، خناس عند ذكر العبد ربه تعالى، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النحل: ٩٩]. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص:٣٨٧)].

(٣) قال ابن تيمية: و«الوسوسة» من جنس «الوشوشة» بالشين المعجمة، يقال: فلان يوسوس فلانا، وقد وشوشته إذا حدثه سرا في أذنه،

وكذلك الوسوسة، ومنه وسوسة الحلي، لكن هو بالسين المهملة، أخص ...وفي الآية بيان للذي يوسوس على أنه ضربان: ضرب من الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم، وإنما نجد في أنفسنا أثرا ينسب إليهم، وضرب من الإنس كالمضللين من أفراد الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وإيحاؤهم هو وسوستهم. قال ابن تيمية: فإن قيل: فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس، فإنه تابع لوسواس الجن؟ قيل: بل الوسوسة نوعان: نوع من الجن، ونوع من نفوس الإنس. كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] فالشر من الجهتين جميعا. والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين. وقال أيضا: الذي يوسوس في صدور الناس نفسه لنفسه، وشياطين الجن وشياطين الإنس، فليس من شرط الموسوس أن يكون مستترا عن البصر، بل قد يشاهد. [القاسمي (٩/ ٥٧٩)]. قدم ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا لأنهم أصل الوسواس كما علمت بخلاف تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين؛ لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فإن الله أراد إبلاغ وحيه لأنبيائه، فزكى نفوسهم من خبث وسوسة الشياطين، ولم يعصمهم من لحاق ضر الناس بهم والكيد لهم لضعف خطره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ولكنه ضمن لرسله النجاة من كل ما يقطع إبلاغ الرسالة إلى أن يتم مراد الله. [ابن عاشور (٣٠/ ٦٣٥)]. عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾». أخرجه مسلم (٨١٤). وفي لفظ آخر عن عقبة: أن رسول الله ﷺ قال له: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعَوَّذَ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟» قلت: بلى. قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾». أخرجه النسائي (٥٤٣٢)، وأحمد (١٧٢٩٧). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت اقرأ عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتها. أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢). وعن عقبة بن عامر قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة. أخرجه أبو داود (١٥٢٣)، والترمذي (٢٩٠٣). وعن عبد الله بن حبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة، نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا، فأدركناه، فقال: «قُلْ». فلم أقل شيئا. ثم قال: «قُلْ». فلم أقل شيئا. ثم قال: «قُلْ». قلت: يا رسول الله، ما أقول؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». أخرجه الترمذي (٣٥٧٠)، وأبو داود (٥٠٨٢). وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان. فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما. أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، والنسائي (٥٤٩٤)، وابن ماجه (٣٥١١).

سُورَةُ ٱلْفَاتِحَةِ

مَكِّيَّةٌ، سَبْعُ آيَاتٍ بِالْبَسْمَلَةِ إِنْ كَانَتْ مِنْهَا، وَالسَّابِعَةُ ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهَا، فَالسَّابِعَةُ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَيُقَدَّرُ فِي أَوَّلِهَا: «قُولُوا» لِيَكُونَ مَا قَبْلَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مُنَاسِبًا لَهُ بِكَوْنِهَا مِنْ مَقُولِ الْعِبَادِ(١).

---

(١) يقال لها: الفاتحة، أي: فاتحة الكتاب خطا، وبها تفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضا: أم الكتاب ... وأم القرآن، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي». أخرجه البخاري (٤٧٠٤)، والترمذي (٣٣٨٩)، ولفظ البخاري: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ». ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة، لقوله عليه السلام عن ربه: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، أَوْ مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قَالَ: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَهَٰذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فَهَٰذِهِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». أخرجه مسلم (٣٩٥). فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها. ويقال لها: ... الرقية؛ لحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟». أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١). وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] ... وهي سبع آيات بلا خلاف، ... وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا. [ابن كثير (١/ ١٠١)]. والاستعاذة قبل القراءة سنة عند الجمهور لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] واختلفوا في لفظها المختار، ولا يأتي بكثير فائدة، ومعنى أعوذ بالله ألتجئ إليه وأمتنع به مما أخشاه، من «عاذ يعوذ» والشيطان أصله من «شطن» أي: تباعد من الرحمة أو من شاط إذا هلك واحترق، والأول أولى. والشيطان اسم لكل عات من الجن والإنس، والرجيم من يرجم بالوسوسة أو مرجوم بالشهب عند استراق السمع أو بالعذاب أو مطرود عن الرحمة. والاستعاذة تطهر القلب عن كل شيء شاغل عن الله. ومن لطائفها أن قوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» إقرار من العبد بعجزه وضعفه وبقدرة الباري على دفع جميع المضرات. واختلف أهل العلم في البسملة: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها، أو هي بعض آية من أول كل سورة أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها أو أنها ليست بآية في الجميع وإنما كتبت للفصل؟ والأقوال وأدلتها مبسوطة في موضع الكلام على ذلك وقد اتفقوا على أنها بعض آية في سورة النمل، وقد جزم قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقالوا إنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها ... وقد أثبتها السلف في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه، ولذا لم يكتبوا آمين. عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة، وفي رواية: انقضاء السورة حتى ينزل

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ قُصِدَ بِهَا الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ بِمَضْمُونِهَا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى مَالِكٌ لِجَمِيعِ الْحَمْدِ مِنَ الْخَلْقِ، أَوْ مُسْتَحِقٌّ لِأَنْ يَحْمَدُوهُ(١)، وَ «اللهُ» عَلَمٌ عَلَى الْمَعْبُودِ بِحَقٍّ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾ أَيْ: مَالِكُ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالدَّوَابِّ، وَغَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ مِنْهَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ عَالَمٌ، يُقَالُ: عَالَمُ الْإِنْسِ وَعَالَمُ الْجِنِّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَغُلِّبَ فِي جَمْعِهِ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ أُولُو الْعِلْمِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهُوَ مِنَ الْعَلَامَةِ؛ لِأَنَّهُ عَلَامَةٌ عَلَى مُوجِدِهِ(٢). ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣﴾ أَيْ: ذِي الرَّحْمَةِ، وَهِيَ إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِأَهْلِهِ(٣). ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ أَيِ: الْجَزَاءِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ لَا مُلْكَ ظَاهِرًا فِيهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى بِدَلِيلِ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦]، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿مَالِكِ﴾ فَمَعْنَاهُ مَالِكُ الْأَمْرِ كُلِّهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَوْ هُوَ مَوْصُوفٌ بِذَلِكَ دَائِمًا كَـ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [غافر: ٣] فَصَحَّ وُقُوعُهُ صِفَةً لِمَعْرِفَةٍ. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ أَيْ: نَخُصُّكَ بِالْعِبَادَةِ مِنْ تَوْحِيدٍ وَغَيْرِهِ، وَنَطْلُبُ الْمَعُونَةَ عَلَى الْعِبَادَةِ وَغَيْرِهَا(٤). ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ أَيْ: أَرْشِدْنَا إِلَيْهِ. وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عليه «بسم الله الرحمن الرحيم»، أخرجه أبو داود (٧٨٨) والحاكم (١/ ١٣١) ... وأخرج مسلم (٤٠٠) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾». [صديق حسن (١/ ٣٦)].

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ معناه: الثناء الكامل، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد، وهو أعم من الشكر، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدى إلى الشاكر، وشكره حمد ما، والحمد المجرد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدي شيئًا، فالحامد من الناس قسمان: الشاكر والمثني بالصفات، وذهب الطبري إلى أن الشكر والحمد بمعنى واحد، وذلك غير مرضي. وحكي عن بعض الناس أنه قال: الشكر ثناء على الله بأفضاله وإنعامه، والحمد ثناء بأوصافه ... وهذا أصح معنى من أنهما بمعنى واحد، واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصحة قولك: الحمد لله شكرا، وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه، لأن قولك: شكرا؛ إنما خصصت به الحمد أنه على نعمة من النعم. [ابن عطية (١/ ٦٦)].

(٢) الرب وزنه فعل بكسر العين ثم أدغم، ومعانيه أربعة: الإله، والسيد، والمالك، والمصلح. وكلها في رب العالمين، إلا أن الأرجح معنى الإله: لاختصاصه لله تعالى، كما أن الأرجح في العالمين: أن يراد به كل موجود سوى الله تعالى، فيعم جميع المخلوقات. [ابن جُزَيّ (١/ ٦٤)]. لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤].

(٣) اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها. واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وإحكام الصفات. فيؤمنون مثلا، بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم. فالنعم كلها، أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. [السعدي (ص:٣٩)].

(٤) أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله؛ لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات غير

عَلَيْهِمْ﴾ بِالْهِدَايَةِ(١)، وَيُبْدَلُ مِنَ ﴿الَّذِينَ﴾ بِصِلَتِهِ **﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾** وَهُمُ الْيَهُودُ **﴿وَلَا﴾** وَغَيْرِ **﴿الضَّالِّينَ ۝٧﴾** وَهُمُ النَّصَارَى(٢)، وَنُكْتَةُ الْبَدَلِ إِفَادَةُ أَنَّ الْمُهْتَدِينَ لَيْسُوا يَهُودًا وَلَا نَصَارَى(٣)، وَاللهُ أَعْلَمُ.

الله تعالى في جميع أنواع العبادات. والإثبات: إفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع. وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا الله بتقديم المعمول الذي هو ﴿إِيَّاكَ﴾ وقد تقرر في الأصول في مبحث دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة. وفي المعاني في مبحث القصر: أن تقديم المعمول من صيغ الحصر. وأشار إلى الإثبات منها بقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ ... كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نطلب العون إلا منك وحدك؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة. وإتيانه بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر. وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينا واضحا في آيات أخر كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. [الشنقيطي (١/ ٤٩)].

(١) لم يبين هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم. وبين ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. [الشنقيطي (١/ ٥١)].

(٢) عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى، فقلت: يا رسول الله، بم أُمرت؟ قال: «أُمِرْتُ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَتُؤْتُوا الزَّكَاةَ»، قلت: يا رسول الله، من هؤلاء؟ فقال: «الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ»، يعني: اليهود، فقلت: من هؤلاء؟ قال: «الضَّالِّينَ»، يعني: النصارى. أخرجه أحمد (٢٠٣٦٦).

(٣) يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: «آمين»؛ ومعناه: اللهم استجب، ... وليس من القرآن. بدليل أنه لم يثبت في المصاحف، والدليل على استحباب التأمين [حديث] وائل بن حجر ﵁ قال: «سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال: «آمين»» مد بها صوته. أخرجه أبو داود (٩٣٢)، والترمذي (٢٤٨)، وأحمد (١٨٨٤٢). ... وفي صحيح مسلم (٤٠٤) عن أبي موسى ﵁ مرفوعا: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمُ اللهُ». واعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت – وهي سبع آيات – على حمد الله تعالى وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له، وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم ... وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. [القاسمي (١/ ٢٣٥)].

وصف المخطوط والمطبوع والمراجع

قمت بضبط النص على عدة نسخ مطبوعة تعتبر الأفضل من حيث الضبط من بين طبعات الكتاب، وهي نسخة المطبعة العامرية ونسخة أحمد شاكر ونسخة قباوة، وفيما أشكل رجعت إلى مخطوطات التفسير، وإليك ثبت بها:

المخطوطة رقم (١)

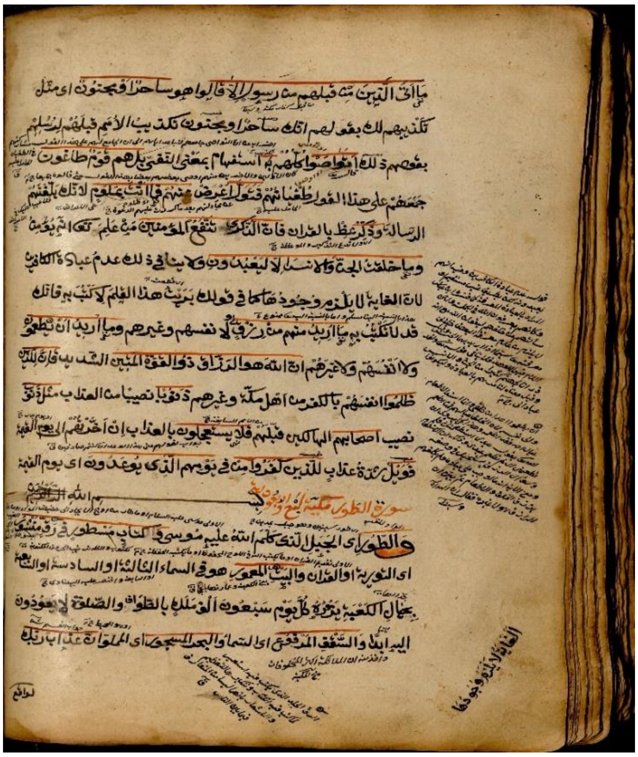

الجلالين (نسخة أولى) رقم الحفظ (٣١٦/٥٥)، تاريخ النسخ الهجري (٩٠٠هـ) تاريخ النسخ الميلادي (١٤٩٥م)، الوصف المادي: ٢٠٣ ورقة، ١٧ سطر، ٣٤×٢١ سم، تصنيف ديوي (٣, ٢٢٧ م م ت). المكتبة التابعة لها: مكتبة رباط بشير آغا، المصدر: السعودية، المدينة المنورة، مجمع الملك عبد العزيز للمكتبات الوقفية. المراجع كشف الظنون (١/ ٤٤٥)، الأعلام (٥/٣٣٣).

المخطوطة رقم (٢)

بما انزل اليك وما انزل من قبلك من الكتب والمقيمين الصلاة نصب على المدح
وقرئ بالرفع والمؤتون الزكوة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك
سنؤتيهم بالنون والياء اجرا عظيما هو الجنة انا اوحينا اليك كما اوحينا
الى نوح والنبيين من بعده وكما اوحينا الى ابرهيم واسمعيل واسحاق ابنيه
ويعقوب ابن اسحاق والاسباط اولاده وعيسى وايوب ويونس وهرون
وسليمان واتينا اباه داود زبورا بالفتح اسم للكتاب المؤتى والضم مصدرا
بمعنى مزبورا اى مكتوبا وارسلنا رسلا قد قصصناهم عليك من
قبل ورسلا لم نقصصهم عليك روى انه تعالى بعث ثمانية الاف نبي اربعة
الاف من بني اسرائيل واربعة الاف من سائر الناس قاله الشيخ في سورة
غافر وكلم الله موسى بلا واسطة تكليما رسلا بدل من رسلا قبله مبشرين
بالثواب من آمن ومنذرين بالعقاب من كفر ارسلناهم لئلا يكون للناس
على الله حجة تقال بعد ارسال الرسل اليهم فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا
رسولا فنتبع اياتك ونكون من المؤمنين فبعثناهم لنقطع عذرهم وكان
الله عزيزا في ملكه حكيما في صنعه ونزل لما سئل اليهود عن نبوته صلى الله
عليه وسلم فانكروه لكن الله يشهد يبين نبوتك بما انزل اليك من القرآن
المعجز انزله ملتبسا بعلمه اى عالما به او وفيه علمه والملائكة
يشهدون لك ايضا وكفى بالله شهيدا على ذلك ان الذين كفروا بالله وصدوا
الناس عن سبيل الله دين الاسلام بكتمهم نعت محمد وهم اليهود قد ضلوا
ضلالا بعيدا عن الحق ان الذين كفروا بالله وظلموا نبيه بكتمان نعته
لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا من الطرق الا طريق جهنم اي
الطريق المؤدي اليها خالدين مقدرين الخلود فيها اذا دخلوها ابدا
وكان ذلك على الله يسيرا هينا يا ايها الناس اي اهل مكة قد جاءكم الرسول
محمد بالحق من ربكم فامنوا به واقصدوا خيرا لكم مما انتم فيه وان تكفروا
به فان لله ما في السموات والارض ملكا وخلقا وعبيدا فلا يضره كفركم
وكان الله عليما بخلقه حكيما في صنعه بهم يا اهل الكتاب الانجيل لا

الجلالين (نسخة ثانية) رقم الحفظ (٥٥٥١) تاريخ النسخ الهجري (١٠٦٣هـ)، بخط عبدالمجيد الجاوي، الوصف المادي: ٢٨٤ ورقة، ٢٥ سطر، ٢٠,٥×١٤,٥ سم، تصنيف ديوي (٢١٢ ت ج)، من مقتنيات مكتبة جامعة الملك سعود، الرياض. المراجع: كشف الظنون (١/ ٤٤٥)، الأعلام (٦/ ٢٣٠).

المخطوطة رقم (٣)

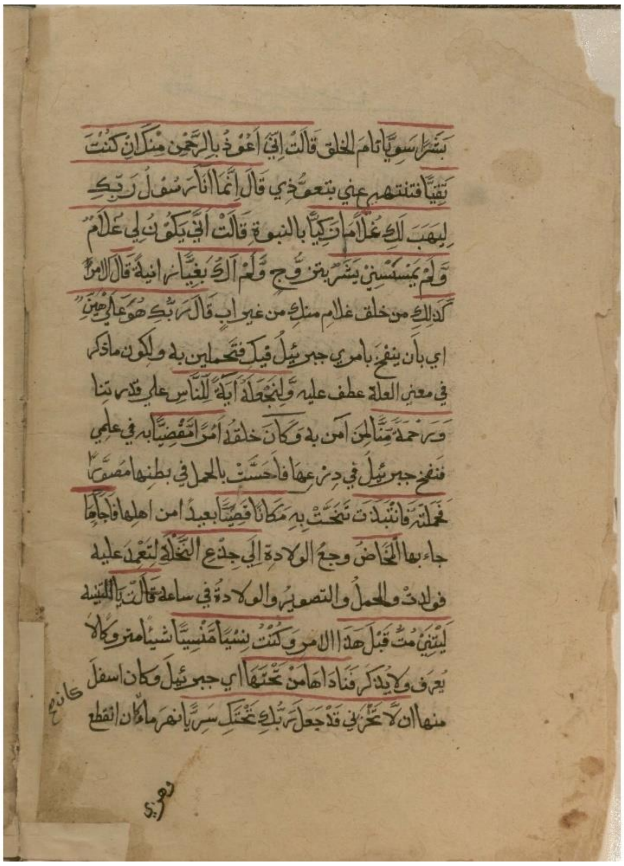
بشرا سويا تام الخلق قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت
تقيا فتنتهي عني بتعوذي قال إنما أنا رسول ربك
ليهب لك غلاما زكيا بالنبوة قالت أنى يكون لي غلام
ولم يمسسني بشر بتزوج ولم أك بغيا زانية قال الأمر
كذلك من خلق غلام منك من غير أب قال ربك هو علي هين
أي بأن ينفخ بأمري جبريل فيك فتحملين به ولكونه ما ذكر
في معنى العلة عطف عليه ولنجعله آية للناس على قدرتنا
ورحمة منا لمن آمن به وكان خلقه أمرا مقضيا به في علمي
فنفخ جبريل في درعها فأحست بالحمل في بطنها مصورا
فحملته فانتبذت تنحت به مكانا قصيا بعيدا من أهلها فأجاءها
جاء بها المخاض وجع الولادة إلى جذع النخلة لتعتمد عليه
فولدت والحمل والتصوير والولادة في ساعة قالت يا للتنبيه
ليتني مت قبل هذا الأمر وكنت نسيا منسيا شيئا متروكا لا
يعرف ولا يذكر فناداها من تحتها أي جبريل وكان أسفل
منها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا نهر ماء كان انقطع

الجلالين (نسخة ثالثة) رقم الحفظ (٧٥)، تاريخ النسخ الهجري (٩٠٠)، تاريخ النسخ (الميلادي) (١٤٩٥)، الوصف المادي (٣٣٩ ورقة، ١٥ سطر، ٢٣،٥×١٥،٥ سم)، الوصف (النسخة مصححة، كتبت أسماء السور بالمداد الأحمر، ضبطت كلماتها بالشكل، وضعت خطوط حمراء فوق الآيات المفسرة)، تصنيف ديوي (٢٢٧,٣ م م ت)، المصدر: (السعودية، المدينة المنورة، مجمع الملك عبد العزيز للمكتبات الوقفية)، المراجع: (كشف الظنون ٤٤٥/ ١، الأعلام ٣٠١/ ٣، ٣٣٣/ ٥).

ثبت مراجع التفسير		
الترقيم	الرمز	اسم الكتاب
١	مقاتل	الكتاب: تفسير مقاتل بن سليمان، المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخى (ت ١٥٠هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٣ هـ
٢	الطبري	الكتاب: تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، المؤلف: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠ هـ)، تحقيق: د عبد الله التركي، الناشر: دار هجر – القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م
٣	السمرقندي	الكتاب: بحر العلوم، المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت ٣٧٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ – ١٩٩٣
٤	الثعلبي	الكتاب: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد الثعلبي، (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م
٥	مكي بن أبي طالب	الكتاب: الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، المؤلف: أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (ت ٤٣٧هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م
٦	الماوردي	الكتاب: تفسير الماوردي «النكت والعيون»، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان
٧	الواحدي	الكتاب: التفسير البسيط، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، الناشر: عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى ١٤٣٠ هـ
٨	السمعاني	الكتاب: تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور المروزى السمعاني (ت ٤٨٩هـ)، المحقق: ياسر بن غنيم، الناشر: دار الوطن، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ
٩	البغوي	الكتاب: تفسير البغوي «معالم التنزيل في تفسير القرآن»، المؤلف: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ)، المحقق: محمد النمر – عثمان ضميرية – سليمان الحرش الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ

ثبت مراجع التفسير		
الترقيم	الرمز	اسم الكتاب
١٠	الزمخشري	الكتاب: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: محمود الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، ضبطه: مصطفى أحمد، الناشر: دار الريان للتراث بالقاهرة – دار الكتاب العربي ببيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٧ هـ
١١	ابن عطية	الكتاب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ
١٢	ابن الجوزي	الكتاب: زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ
١٣	القرطبي	الكتاب: الجامع لأحكام القرآن، المؤلف: أبو عبد الله، محمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م
١٤	الرازي	الكتاب: التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»، المؤلف: أبو عبد الله محمد الرازي (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ
١٥	البيضاوي	الكتاب: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ
١٦	النسفي	الكتاب: تفسير النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، المؤلف: أبو البركات عبد الله النسفي (ت ٧١٠هـ)، حققه: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م
١٧	ابن جُزَيّ	الكتاب: التسهيل لعلوم التنزيل، المؤلف: أبو القاسم، محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١هـ)، المحقق: د. عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ
١٨	أبو حيان	الكتاب: البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ
١٩	ابن كثير	الكتاب: تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)، المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م

ثبت مراجع التفسير		
الترقيم	الرمز	اسم الكتاب
٢٠	ابن عادل الحنبلي	الكتاب: اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن عادل الحنبلي (ت ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م
٢١	النيسابوري	الكتاب: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المؤلف: نظام الدين الحسن بن القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ
٢٢	الثعالبي	الكتاب: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، المحقق: الشيخ محمد معوض والشيخ عادل عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٢٣	البقاعي	الكتاب: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: إبراهيم أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة
٢٤	السيوطي	الكتاب: الدر المنثور، المؤلف: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت
٢٥	أبو السعود	الكتاب: تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، المؤلف: أبو السعود العمادي بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت
٢٦	الشوكاني	الكتاب: فتح القدير، المؤلف: محمد الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ
٢٧	الآلوسي	الكتاب: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
٢٨	صديق حسن	الكتاب: فتح البيان في مقاصد القرآن، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق القِنَّوجي (ت ١٣٠٧هـ)، راجعه: عبد الله الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
٢٩	القاسمي	الكتاب: محاسن التأويل، المؤلف: محمد القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ)، المحقق: محمد عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٣٠	السعدي	الكتاب: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م

ثبت مراجع التفسير		
الترقيم	الرمز	اسم الكتاب
٣١	ابن عاشور	الكتاب: التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ
٣٢	الشنقيطي	الكتاب: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ – ١٣٩٣)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م
٣٣	عطية سالم	الكتاب: تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن «ملحق بأضواء البيان»، المؤلف: عطية محمد سالم (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ
٣٤	ابن عثيمين	الكتاب: تفسير القرآن الكريم، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، تنبيه: كل سورة لها طبعة مستقلة
٣٥	أبو بكر الجزائري	الكتاب: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر أبو بكر الجزائري (ت ٢٠١٨م)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ا السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٣٦	الكتاب: مجموع الفتاوى، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف عام النشر: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م
٣٧	الكتاب: الإحكام في أصول الأحكام، المؤلف: أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦ هـ)، قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت
٣٨	الكتاب: شرح السنة، المؤلف: أبو محمد الحسين البغوي الشافعي (ت٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
٣٩	الكتاب: مدارج السالكين في منازل السائرين، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٥٩ - ٧٥١)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م
٤٠	الكتاب: أعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م
٤١	الكتاب: اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١)، المحقق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٤٢	الكتاب: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٥٩ – ٧٥١)، تحقيق: زاهر بن سالم بَلفقيه، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ – ٢٠١٩ م
٤٣	الكتاب: الداء والدواء، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١)، حققه: محمد أجمل الإصلاحي، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م
٤٤	الكتاب: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١)، المحقق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م
٤٥	الكتاب: بدائع الفوائد، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١ هـ)، المحقق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م (الأولى لدار ابن حزم)
٤٦	الكتاب: إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١)، حققه: محمد عزير شمس، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م
٤٧	الكتاب: التبيان في أيمان القرآن، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١)، المحقق: عبد الله بن سالم البطاطي، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩
٤٨	الكتاب: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١)، المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠ هـ – ٢٠١٩ م
٤٩	الكتاب: كشف المعانى فى المتشابه من المثانى، المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن جماعة الكناني (ت ٧٣٣هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء ـ المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م
٥٠	الكتاب: فتح الباري بشرح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ – ٨٥٢ هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية – مصر، الطبعة: «السلفية الأولى»، ١٣٨٠ – ١٣٩٠ هـ
٥١	الكتاب: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، المؤلف: محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ – ١٣٩٣ هـ)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الخامسة، ١٤٤١ هـ – ٢٠١٩ م
٥٢	الكتاب: السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٥٣	الكتاب: أحكام القرآن، المؤلف: أحمد الجصاص الحنفي (ت ٣٧٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م
٥٤	الكتاب: أساس البلاغة، المؤلف: أبو القاسم محمود الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م
٥٥	الكتاب: مجمل اللغة لابن فارس، المؤلف: أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م
٥٦	الكتاب: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت نحو ٧٧٠ هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت
٥٧	الكتاب: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠ هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى لمكتبة المعارف
٥٨	الكتاب: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، المؤلف: شمس الدين، محمد الشربيني (ت ٩٧٧ هـ)، حققه: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م
٥٩	الكتاب: الأشاعرة في ميزان أهل السنة، المؤلف: فيصل بن قزار الجاسم، الناشر: المبرة الخيرية لعلوم القرآن والسنة، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م
٦٠	الكتاب: النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر الزاوى – محمود الطناحي
٦١	الكتاب: كتاب العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال
٦٢	الكتاب: تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت
٦٣	الكتاب: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) اختصره: محمد البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (ت ٧٧٤ هـ)، المحقق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م
٦٤	الكتاب: تحفة المحتاج في شرح المنهاج، المؤلف: أحمد بن حجر الهيتمي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بمصر، عام النشر: ١٣٥٧ هـ – ١٩٨٣ م
٦٥	الكتاب: تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر البراك، المحقق: عبد الرحمن السديس، الناشر: طبعت التعليقات بحاشية (فتح الباري) طبعة دار طيبة

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٦٦	الكتاب: توضيح مقاصد «العقيدة الواسطية، لشيخ الإسلام، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر البراك، إعداد: عبد الرحمن السديس، الناشر: مؤسسة وقف الشيخ عبد الرحمن البراك، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م
٦٧	الكتاب: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر البراك، اعتنى به: مؤسسة وقف الشيخ عبد الرحمن البراك، الطبعة: الأولى، ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م
٦٨	الكتاب: المناهي اللفظية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، جمع وإعداد: فهد السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
٦٩	الكتاب: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م
٧٠	الكتاب: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، المؤلف: شمس الدين محمد الرملي (ت ١٠٠٤هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: ط أخيرة - ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م
٧١	الكتاب: المفصل في تفسير القرآن الكريم، المؤلف: فخر الدين قباوة، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون
٧٢	الكتاب: ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه، المؤلف: عداب محمود الحمش، الناشر: دار بدر، ط: ٢
٧٣	الكتاب: علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، المؤلف: عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٠١ - ١٩٨١
٧٤	الكتاب: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول ﷺ، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن الشايع، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة
٧٥	الكتاب: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، المؤلف: محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبة (ت ١٤٠٣هـ)، الناشر: مكتبة السنة، الطبعة: الرابعة
٧٦	الكتاب: من آيات الإعجاز العلمي، المؤلف: زغلول النجار، الناشر: مكتبة الشروق، الطبعة: الثالثة عشر
٧٧	الكتاب: القول المفيد على كتاب التوحيد، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية محرم ١٤٢٤هـ
٧٨	الكتاب: لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ
٧٩	الكتاب: الهداية الربانية في شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: عبد العزيز الراجحي، الناشر: دار التوحيد، الرياض، ط ١، ١٤٣٠ هـ
٨٠	الكتاب: شرح العقيدة السفارينية، المؤلف: محمد بن العثيمين (ت ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ
٨١	الكتاب: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، المؤلف: عبد العزيز بن باز، جمع وإشراف: د. محمد الشويعر، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٨٢	الكتاب: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) حققه: محمد عزير شمس، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م
٨٣	الكتاب: مقدمات في علم القراءات، المؤلف: محمد القضاة، أحمد شكرى، محمد منصور، الناشر: دار عمار - عمان (الأردن) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

فهرس الكتاب

السورة	ص	السورة	ص	السورة	ص	السورة	ص	السورة	ص	السورة	ص
المقدمة	٥	الأنبياء	٤٢٨	فصلت	٦٤٦	الصف	٧٧٧	التكوير	٨٥٩	القارعة	٩٠٤
البقرة	١٣	الحج	٤٤٢	الشورى	٦٥٣	الجمعة	٧٨٠	الانفطار	٨٦٤	التكاثر	٩٠٥
آل عمران	٨٧	المؤمنون	٤٥٦	الزخرف	٦٦١	المنافقون	٧٨٣	المطففين	٨٦٧	العصر	٩٠٦
النساء	١٢١	النور	٤٦٧	الدخان	٦٧١	التغابن	٧٨٥	الانشقاق	٨٧٠	الهمزة	٩٠٧
المائدة	١٥٨	الفرقان	٤٨٣	الجاثية	٦٧٥	الطلاق	٧٨٩	البروج	٨٧٣	الفيل	٩٠٨
الأنعام	١٨٦	الشعراء	٤٩٢	الأحقاف	٦٧٩	التحريم	٧٩٣	الطارق	٨٧٦	قريش	٩٠٩
الأعراف	٢١٣	النمل	٥٠٣	محمد	٦٨٥	الملك	٧٩٦	الأعلى	٨٧٨	الماعون	٩١٠
الأنفال	٢٤٢	القصص	٥١٥	الفتح	٦٩١	القلم	٨٠٢	الغاشية	٨٨٠	الكوثر	٩١١
التوبة	٢٥٤	العنكبوت	٥٢٧	الحجرات	٦٩٩	الحاقة	٨٠٧	الفجر	٨٨٣	الكافرون	٩١٢
يونس	٢٧٥	الروم	٥٣٨	ق	٧٠٥	المعارج	٨١٢	البلد	٨٨٧	النصر	٩١٣
هود	٢٨٩	لقمان	٥٤٧	الذاريات	٧١٢	نوح	٨١٧	الشمس	٨٨٩	المسد	٩١٤
يوسف	٣٠٤	السجدة	٥٥٣	الطور	٧١٨	الجن	٨٢٠	الليل	٨٩١	الإخلاص	٩١٥
الرعد	٣٢١	الأحزاب	٥٥٨	النجم	٧٢٣	المزّمّل	٨٢٥	الضحى	٨٩٣	الفلق	٩١٦
إبراهيم	٣٣١	سبأ	٥٧٤	القمر	٧٣١	المدّثر	٨٢٨	الشرح	٨٩٥	الناس	٩١٧
الحجر	٣٣٩	فاطر	٥٨٦	الرحمن	٧٣٩	القيامة	٨٣٣	التين	٨٩٦	الفاتحة	٩٢٠
النحل	٣٤٦	يس	٥٩٤	الواقعة	٧٤٦	الإنسان	٨٣٧	العلق	٨٩٧	المراجع	٩٢٣
الإسراء	٣٦٣	الصافات	٦٠٤	الحديد	٧٥٤	المرسلات	٨٤٢	القدر	٨٨٠	الفهرس	٩٣٤
الكهف	٣٨٦	ص	٦١٧	المجادلة	٧٦٣	النبأ	٨٤٦	البينة	٩٠١		
مريم	٤٠٣	الزمر	٦٢٩	الحشر	٧٦٨	النازعات	٨٥١	الزلزلة	٩٠٢		
طه	٤١٥	غافر	٦٣٦	الممتحنة	٧٧٣	عبس	٨٥٥	العاديات	٩٠٣		